شرح الرسالة القشيرية

المسمى

الدلالة على فوائد الرسالة

أقدم شروح الرسالة القشيرية وأوسعها، ومعتمد شراحها

للإمام الفقيه الصوفي

أبي محمد عبد المعطي بن محمود اللخمي الإسكندري المالكي

(ت ٦٣٨هـ)

دراسة وتحقيق

د. أحمد رجب أبو سالم

مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر الشريف

مراجعة وتقديم

أ.د. عبد الرحمن محمد المراكبي

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف

تقديم

أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد

مدير مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر

أ.د. محمد حسين المحرصاوي

رئيس جامعة الأزهر ورئيس مجلس إدارة مركز تحقيق النصوص

الجزء الثاني

علم لإحياء التراث والخدمات الرقمية

لندن - مصر

دار الضياء للنشر والتوزيع

الكويت

شرح الرسالة القشيرية

المسمّى

الدلالة على فوائد الرسالة

٢

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
ص.ب: ١٣٤٦٠ حولي
الرمز البريدي: ٣٢٠١٤
تلفاكس: ٠٠٩٦٥٢٢٦٥٨١٨٠
نقال: ٠٠٩٦٥٥٠٤٠٩٩٢١
Dar_aldheyaa2@yahoo.com
Abdou20201@hotmail.com
www.daraldeyaa.net

دار الضياء
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

علم لإحياء التراث والخدمات الرقمية

بلد الطباعة: بيروت - لبنان
التجليد الفني: شركة فؤاد البعينو للتجليد ش.م.م.
بيروت - لبنان

علم لإحياء التراث
والخدمات الرقمية
جمهورية مصر العربية - القاهرة
التجمع الخامس- الحي الثالث- ڤيلا 152
الهاتف: 00201127999511
internetional library of manuscripts(ILM)
1155726

رقم الإيداع المحلي: 2017/23123
رقم الإيداع الدولي: 3-5- 85365- 977-978
info@ilmarabia.com

الموزعون المعتمدون

دولة الكويت
دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي تليفاكس: ٢٢٦٥٨١٨٠ نقال: ٥٠٤٠٩٩٢١

جمهورية مصر العربيَّة
محمول: ٠٠٢٠١٠٠٠٣٧٣٩٤٨
دار الأصالة للنشر والتوزيع - المنصورة محمول: ٠٠٢٠١٠٩٨٣٢٥٨٣٢

المملكة العربية السعودية
مكتبة الرشد - الرياض هاتف: ٤٣٢٩٣٣٢ - ٢٠٥١٥٠٠
دار التدمرية للنشر والتوزيع - الرياض هاتف: ٤٩٢٥١٩٢ فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة هاتف: ٦٣١١٧١٠
مكتبة المتنبي - الدمام هاتف: ٨٣٤٤٩٤٦ فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤

برمنكهام - بريطانيا
مكتبة سفينة النجاة هاتف: ٠٠٤٤٧٤٧٢٠٤٢٨٢٤ هاتف: ٠٠٤٤٧٤٩٥٠٧٤٠٢٥

المملكة المغربية
دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٢٧٤٨١٧

الجمهورية التركية
مكتبة الإرشاد - إسطنبول هاتف: ٠٢١٢٦٣٨١٦٣٣/٣٤ فاكس: ٠٢١٢٦٣٨١٧٠٠

جمهورية داغستان
مكتبة ضياء الإسلام هاتف: ٠٠٧٩٨٨٣٠٣١١١١ - ٠٠٧٩٨٨٧٧٣٠٣٠٦
مكتبة الشام - خاسافيورت هاتف: ٠٠٧٩٢٨٨٧٢٩٥٠٥ - ٠٠٧٩٢٨٨٦٦١٤٧٤

الجمهورية العربية السوريَّة
دار الفجر - دمشق - حلبوني هاتف: ٢٢٢٨٣١٦ فاكس: ٢٤٥٣١٩٣

الجمهورية السودانية
مكتبة الروضة الندية-الخرطوم- شارع المطار هاتف: ٠٠٢٤٩٩٩٠٠٤٣٥٧٩

المملكة الأردنية الهاشميَة
دار محمد دنديس للنشر والتوزيع - عمان هاتف: ٠٦٤٦٥٣٣٩٠ - ٠٧٨٨٢٩١٣٣٢

دولة ليبيا
مكتبة الوحدة - طرابلس هاتف: ٠٩١٣٧٠٦٩٩٩ - ٠٢١٣٣٣٨٢٣٨
شارع عمرو ابن العاص

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

«بَابُ المُجَاهَدَةِ[2] [١/١٦٢ب]

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبِيدٍ [الصَّفَّارُ][3] قَالَ: حَدَّثَنَا العَبَّاسُ بْنُ الفَضْلِ الأَسْفَاطِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ كَاسِبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ[4]: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَفْضَلِ الجِهَادِ؟ فَقَالَ: كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[5]، وَدَمِعَتْ عَيْنَا أَبِي سَعِيدٍ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[6]: مَنْ زَيَّنَ ظَاهِرَهُ بِالمُجَاهَدَةِ، حَسَّنَ اللهُ سَرَائِرَهُ بِالمُشَاهَدَةِ، قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بِدَايَتِهِ صَاحِبَ مُجَاهَدَةٍ لَمْ يَجِدْ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ شَمَّةً.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[7]: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢١٦.

(٢) أي: الجهاد الأكبر للنفس.

(٣) زيادة من (ب، ف).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ٤/١٢٤، وابن ماجه في سننه ٢/١٣٢٩، والترمذي في سننه ٤/٤٧١.

(٥) وإنما كانت من أفضل الجهاد؛ لما فيها من المخاطرة بالنفس باعتبار جور ذلك السلطان.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٧٥.

(٧) ورد في: الزهد الكبير ص٢٨٣، وحدائق الحقائق ص١٨.

المَغْرِبِيَّ يَقُولُ: مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، أَوْ يُكْشَفُ لَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا بِلُزُومِ المُجَاهَدَةِ، فَهُوَ فِي غَلَطٍ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(١): مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِي بِدَايَتِهِ قَوْمَةٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي نِهَايَتِهِ جِلْسَةٌ»(٢).

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **المجاهدةُ**: اسمٌ جامعٌ لإزالةِ سائرِ الأخلاقِ الذَّميمةِ، وتحصيلِ سائرِ الأخلاقِ الحميدةِ؛ سواءٌ كانَتْ مِنْ أعمالِ القلوبِ أوِ الجَوارحِ، أوْ كانَ ذلكَ ممَّا يخصُّ الإنسانَ في نفسِهِ، أو ممَّا يتعلَّقُ بالغَيرِ من قَريبٍ أوْ بَعيدٍ.

ولا تحصلُ المجاهدةُ فيمَا ذكرْنَاهُ إلَّا بكمالِ العِلْمِ والتَّثبُّتِ، ومخالفةِ العادةِ، والصَّبرِ على ذلكَ، وقدْ روَى مسلمٌ عنِ ابنِ عمرَ قولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣): «كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»؛ فالإمامُ الَّذي علَى النَّاسِ راعٍ وهوَ مسئولٌ عن رعيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُم، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُم، وَالعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وهذَا عامٌّ فِي جميعِ ما يحتاجُ إلى(٤) الرِّعايةِ فيهِ، ومَا ذكرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الأميرِ والزَّوجِ والمرأةِ والعبدِ تنبيهٌ على الشَّيءِ ببعضِهِ.

وروَى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ(٥): «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ

---

(١) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٠٦، ومسلك الأتقياء ومنهج الأصفياء ص٣٨٦.

(٢) في نتائج الأفكار ٢/١٩٧: «أي: من لم يذق المشقات في طريق السلوك إلى ملك الملوك في بدايته، لم يشرب من راحة الوصول في نهايته، إذ مَن جدَّ وجد».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ب): «ما يحتاج إليه إلى الرعاية»، والأصح المثبت.

(٥) سبق تخريجه.

اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا[1] عَلَيْهِ، [١٦٣/١أ] وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».

فَفِي الخبرِ الأَوَّلِ وجوبُ الرِّعايةِ[2] في سائرِ الأفعالِ، وفي هذا الخبرِ فضيلةُ المُرَاعِينَ وتعيينُ بعضِهِمْ؛ **فَأَمَّا** «**الأَمِيرُ**» فالمجاهدةُ عليهِ في القيامِ فيمَا هوَ فيهِ، ومَا يتعلَّقُ بهِ منْ حقِّ المسلمينَ لا يخفىٰ ويحتاجُ إلىٰ كمالِ العالمِ وقوَّةِ النَّفسِ في تنفيذِ مَا وضحَ حكمُهُ، وأنْ يستوِيَ عندَهُ القريبُ والبعيدُ في ذلكَ، وذو الجاهِ الشَّريفُ والفقيرُ الضَّعيفُ، ولا يقدرُ علىٰ القيامِ بذلكَ إلَّا بكمالِ المجاهدةِ، وقَدْ قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «لو ضَاعَتْ سخلةٌ بساحلِ الفُراتِ لظننْتُ أنَّ اللهَ سَائِلِي عنهَا».

وَأَمَّا «**الشَّابُّ النَّاشِئُ فِي عِبَادَةِ اللهِ**» فهوَ محبوبٌ مُثْنًىٰ عليهِ؛ لاشتغالِهِ بالخيرِ في وقتِ حدَّتِهِ وشَبِيبَتِهِ وقوَّةِ شهوتِهِ وتعرُّضِهِ لنفْسِهِ، ولذلكَ كانَ حبيبَ اللهِ، ولهذَا قالَ المشايخُ[4]: «مَنْ لَمْ تكُنْ لهُ مجاهدةٌ في بدايتِهِ لَمْ يجدْ مِنْ هذِهِ الطَّرِيقةِ شمَّةً»؛ وذلكَ أنَّهُ إذا اجتهدَ في شبيبتِهِ في تحصيلِ العلومِ والأعمالِ ونيلِ الدَّرجاتِ

---

(١) في (أ): وتفارقا.

(٢) في (ب): الرعابة، وفي (ج): الدعاء.

(٣) ورد قوله في: المجالسة وجواهر العلم ص١٦٩، وصفة الصفوة ٢/٢٠٠، والمنتظم ١٠/١٠، وصبح الأعشىٰ ٩/٣٨١.
والسَّخلة: الذكر والأنثىٰ من ولد الضأن والمعز ساعة يولد. انظر: مختار الصحاح ص ١٢٢، والمعجم الوسيط ١/٤٢٢.

(٤) نسب لأبي علي الدقاق في: الغنية للجيلاني ص٣٠٦.

والمقاماتِ، وجدَ بركةَ ذلكَ حينَ عجْزِهِ وكِبَرِ سِنِّهِ عنِ الأعمالِ، ويكونُ قلبُهُ قد حصلَ فيهِ من بَركَةِ الاجتهادِ مَا يمتنعُ بهِ منَ الغَفْلَةِ والرُّقادِ.

وَأَمَّا «مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالْمَسَاجِدِ» فهوَ دليلٌ علَىٰ كثرةِ الأعمالِ والإعراضِ عنِ الدُّنيَا، والاشتغالِ بأسبابِهَا، ولا ينالُ ذلكَ إلَّا بالمُجاهدةِ.

وَأَمَّا «الرَّجُلَانِ المُتَحَابَّانِ فِي اللهِ» فلَا يصحُّ لهُمَا الحبُّ في اللهِ حتَّىٰ تزولَ بينَهُمَا الدُّنيَا بالكلِّيَّةِ، فيكونَ كلُّ واحدٍ منهُمَا لا محبَّةَ لهُ فيهَا، وهوَ يُؤْثِرُ صاحبَهُ بمَا أمكَنَهُ، ويعينُهُ بمَا قدَرَ عليهِ من أسبابِ الدُّنيَا والآخرةِ، فإنَّ حقيقةَ المحبَّةِ تحملُ علىٰ كمالِ المُوافقَةِ والإيثارِ، ولا ينالُ الإنسانُ ذلكَ ويصلُ إليهِ إلَّا بكمالِ المجاهدةِ، ودرجةُ المتحابِّينَ في اللهِ مذكورةٌ في غيرِ هذَا الخبرِ(١).

وَأَمَّا «مَنْ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»؛ فمنصبُهَا جاهُهَا ومالُهَا وجمالُهَا حسنُهَا، ومَا هيَ عليهِ مِنْ هيئتِهَا، وإذا مالَ إليهَا ووافقَهَا علَىٰ مطلوبِهَا انتفَعَ منهَا بجميعِ ما ذكرْنَاهُ؛ مِنَ المالِ والجاهِ والاستمتاعِ بالجمالِ، ولا يقدرُ علىٰ الإعراضِ عنْ ذلكَ خوفًا منَ اللهِ إلَّا بكمالِ [١/١٦٣ب] المجاهدَةِ.

«وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ»، ومعناهُ: لا يعلمُ مَنْ على شمَالِهِ ما فعلَهُ بيمينِهِ، وهذَا يدلُّ علىٰ قلَّةِ طلبِ الثَّناءِ منَ النَّاسِ والحمْدِ منهُمْ، وإخلاصِ العملِ للهِ ـ تعالىٰ ـ وإسرارِهِ، وهذَا لا يتمُّ إلَّا بكمالِ المجاهدةِ.

«وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»، هذَا يدلُّ علىٰ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ باللهِ وإجلالِهِ لهُ واستشعارِهِ لمَا هوَ فيهِ، وأنَّهُ يَرَاهُ فِي سائِرِ تَقلُّبِهِ وَمَثْوَاهُ، وهذَا مقامُ

---

(١) ففي سنن الترمذي ٤/ ٥٩٧: «حدثني مُعَاذُ بن جَبَلٍ قال سمعت رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: المُتَحَابُّونَ في جَلَالِي لهم مَنَابِرُ من نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ».

الإحسانِ، ولَا يصلُ العبدُ إلىٰ هذَا إلَّا بعدَ كمالِ المجاهدةِ في الأعمالِ، وقطْعِ الشَّواغلِ عنِ القُلُوبِ والأبدَانِ[1].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَوْلُهُم: (الحَرَكَةُ بَرَكَةٌ)؛ حَرَكَاتُ الظَّوَاهِرِ[3] تُوجِبُ بَرَكَاتِ السَّرَائِرِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يُشيرُ إلىٰ أنَّ المجاهدَاتِ فِي ترتيبِ الأورَادِ وعمارةِ الأوقاتِ يرجعُ بركاتُ الذِّكْرِ فيهَا والمناجاةِ إلىٰ تنويرِ القلوبِ ونفْيِ الغفلَةِ عنها؛ لتكرُّرِ النِّيَّاتِ بالحضورِ معَ اللهِ في سائرِ الأوقاتِ، وهذِهِ بركَاتُ السَّرائِرِ[4].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ عَلَّوَيْهِ[6] يَقُولُ[7]: قَالَ أَبُو يَزِيدٍ: كُنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً حَدَّادَ نَفْسِي، وَخَمْسَ سِنِينَ كُنْتُ مِرْآةَ قَلْبِي، وَسَنَةً أَنْظُرُ فِيمَا بَيْنَهُمَا، فَإِذَا فِي وَسَطِي زُنَّارٌ ظَاهِرٌ، فَعَمِلْتُ فِي قَطْعِهِ ثِنْتَي عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا فِي بَاطِنِي زُنَّارٌ، فَعَمِلْتُ فِي قَطْعِهِ خَمْسَ سِنِينَ أَنْظُرُ كَيْفَ أَقْطَعُهُ!؟ فَكُشِفَ لِي، فَنَظَرْتُ إِلَىٰ الخَلْقِ فَرَأَيْتُهُمْ مَوْتَىٰ، فَكَبَّرْتُ عَلَيْهِم أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إشارةٌ إلىٰ كمالِ مجاهدتِهِ في أوَّلِ بدايَتِهِ، فإنَّ شأنَ الحدَّادِ أنْ يَحمِيَ الحديدَ ثمَّ يطرقَهُ حتَّىٰ يبردَ فيُخرِجَ أوساخَهُ،

---

(١) فمجاهدة كل أحد تكون بقيامه بحقوق ما أقيم فيه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٦.

(٣) أي: بالمجاهدات.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٥٨.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢١٦ ـ ٢١٧.

(٦) في (ب): «سمعت علي بن أحمد بن جعفر، يقول: سمعت الحسن بن عكرمة»، والصواب المثبت.

(٧) ورد قوله في: الأنس في شرح عيوب النفس ص٨٩.

ثمَّ يعيدَهُ إلىٰ النَّارِ، فيعدِّلَهُ كذلكَ حتَّىٰ يَصْلُحَ ويستقيمَ علَىٰ ما يرادُ منهُ كذلكَ، قالَ هذَا الشَّيخُ: أقَمْتُ هذِهِ المدَّةَ أُعَدِّلُ سائِرَ جوارِحِي مِنْ سمْعِي وبصرِي ولِساني وبطْنِي ويدَيَّ ورِجْلَيَّ وسائرِ أعضائِي؛ أعدِّلُهَا بالخوفِ والرَّجاءِ حتَّىٰ استقامَتْ علىٰ الخيرِ، واعتدلَتْ علىٰ سواءِ الطَّريقِ، فعملْتُ في ذلكَ اثنتَي عشرةَ سنةً، ثمَّ عملتُ في قلْبِي فِي إزالةِ الأخلاقِ الذَّميمةِ والتَّخلُّقِ بالأخلاقِ الحميدةِ [١٦٤/١أ] خمسَ سنينَ.

ثمَّ نظرَ في جمالِ باطِنِهِ وظاهِرِهِ ومَا حصلَ لهُ منَ الخيرِ فوجدَ نفسَهُ مُلْتَفِتَةً(١) إلىٰ الخلْقِ، مُحِبَّةً لِاطِّلَاعِهِمْ علىٰ حُسْنِ أعمالِهِ ومدحِهِ لهُ علَىٰ ذلكَ، فشبَّهَهُ بعلامةِ الشِّركِ؛ وهوَ الزُّنَّارُ؛ لمَّا كانَ في عملِهِ التفاتٌ لغيرِ اللهِ، فعملَ فِي قطعةٍ مدَّةً أخرَىٰ.

ثمَّ نظرَ فإذَا فِي بَاطِنِهِ اسْتِحْسَانٌ لِأَعْمَالِهِ وَسُكُونٌ إليهَا ومدحٌ لهَا علىٰ ذلِكَ، فشبَّهَهُ بالزُّنَّارِ الباطِنِ؛ وهوَ إمَّا العُجْبُ بالعملِ، وإمَّا السُّكونُ إليهِ، فنظرَ في الخلاصِ من ذلكَ فوجدَ الطَّرِيقَ فيهِ أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ حالُ انفرادِ الحقِّ بالأفعالِ، وهوَ أنَّهُ لَا ضارٌّ ولَا نافعٌ، ولَا مُعْطِي ولَا مانعٌ، ولَا ينفعُهُ ولا يضُرُّهُ(٢) أحدٌ منَ الخلْقِ، ولَا نفسِهِ، فأَشْبَهُوا عندَهُ المَوْتَىٰ؛ تحقيقًا بأنَّ الميِّتَ لَا يضرُّ ولا يَنفعُ، فكبَّرَ عليهِمْ أربعَ تكبيراتٍ، ونفسُهُ معَ جُملةِ الموتَىٰ، فعاشَ الحياةَ الحقيقيَّةَ الَّتِي أحيَاهُ الحقُّ بِهَا وشغلَهُ بهِ عمَّنْ سِوَاهُ لَا إلهَ غيرُهُ ولَا مَعْبُودَ سِوَاهُ(٣).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ(٥)**

(١) في (ج): ملتفة، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): ويضره.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٥٩.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢١٧.

(٥) في (أ): الحسن، وهو تحريف.

يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[(١)]: يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، جِدُّوا قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا مَبْلَغِي فَتَضْعُفُوا وَتُقَصِّرُوا كَمَا قَصَّرْتُ، وَكَانَ[(٢)] فِي ذَلِكَ الوَقْتِ لَا يَلْحَقُهُ الشَّبَابُ فِي العِبَادَةِ[(٣)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ عليهِ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٤)]: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ».. الحديث، فإنَّ الشَّابَّ إذا لَمْ يكنْ لهُ اجتهادٌ في بدايتِهِ معَ كمالِ قوَّتِهِ وحمْلِهِ لمَا يلقاهُ منَ الصُّعوبةِ في مجاهدتِهِ وتحمُّلِهِ للجوعِ والبَرْدِ وغيرِ ذلكَ مِنْ مُكَابَدَتِهِ، فإذَا كَبُرَ وعجزَ لمْ يقدِرْ علىٰ شيءٍ مِنْ مُجاهدتِهِ، فيفوتُهُ مَا طلبَهُ ويبقَىٰ بحسرَتِهِ[(٥)].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ العَزِيزِ النَّجْرَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ القَزَّازَ يَقُولُ[(٧)]: بُنِيَ هَذَا الأَمْرُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَلَّا تَأْكُلَ إِلَّا عِنْدَ الفَاقَةِ، وَلَا تَنَامُ إِلَّا عِنْدَ الغَلَبَةِ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا كلُّهُ داخلٌ تحتَ قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٨)]: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، والَّذِي لَا يَعنِيهِ مَا لا تدعوهُ إليهِ حاجةٌ ولا

---

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٧٨/٢٠، وبغية الطلب ٤٢٢٠/٩.

(٢) أي: السَّري.

(٣) في نتائج الأفكار ٢٠١/٢: «فيه تنبيه علىٰ أنه معان بالمحبة بسابق عناية التوفيق الإلهي».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧٧/٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٦٣/٧، والحاكم في المستدرك ٣٤١/٤، وتمامه فيه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

(٥) في (ب): بحسرة.

(٦) الرسالة القشيرية ٢١٧/١.

(٧) ورد قوله في: الأنس في شرح عيوب النفس ص٨٩.

(٨) سبق تخريجه.

ضرورةٌ [١/١٦٤ب]، فأكلُ الإنسانِ من غيرِ جوعٍ يُثْمِرُ فسادَ القلبِ والبَدنِ، وقدْ تقدَّمَتِ الإشارةُ(١) إليهِ في الخبرِ الصَّحيحِ مِنْ قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢): «حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٍ؛ ـ يَعْنِي لُقَيمَاتٍ ـ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ وَلَابُدَّ ـ معناهُ: إنْ لمْ يقدِرْ علىٰ هذَا ودَعَتْهُ ضرورةٌ إلىٰ الزِّيادةِ ـ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

وعُمرُ الإنسانِ رأسُ مالِهِ الَّذِي فيهِ تِجَارتُهُ، فإذَا ضيَّعَهُ بالنَّومِ فقدْ أتلفَ عمرَهُ في لا شيءَ، وهوَ إذَا كانَ يَقْظَانًا لَا بُدَّ أنْ يكونَ مُشْتغِلًا بنوعٍ من أنواعِ العبادةِ، وأيسرُهَا عليهِ ذِكْرُ اللهِ بلسانِهِ، والفِكْرةُ فيمَا لا بُدَّ لهُ منهُ ممَّا يستعينُ بهِ علىٰ أمْرِ دينِهِ وعيالِهِ إنْ كانَتْ لهُ عيالٌ، وهذَا كلُّهُ طاعةٌ، فلَا ينامُ عن هذا الخيرِ إلَّا إذَا غلبَهُ النَّومُ، ومتىٰ لمْ يغلِبْهُ النَّومُ وتصنَّعَ لهُ واستجلَبَهُ فقدْ أعانَ علىٰ إتلافِ عُمرِهِ في غيرِ فائدةٍ.

وأمَّا كونُهُ «**لَا يتكلَّمُ إلَّا للضَّرورةِ**»، فقد قالَ ـ جلَّ وعزَّ ـ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «مَنْ عدَّ كلامَهُ مِنْ عمَلِهِ قلَّ كلامُهُ إلَّا فيمَا يَعْنِيهُ»، وفِي الخَبَرِ(٤): «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِم إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»، ودخلَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علىٰ أبِي بكرٍ ـ صدِّيقِ الأمَّةِ وأفضلِهَا ـ وهوَ يجذبُ لسانَهُ بيدِهِ، فقالَ(٥): «مَهْ(٦) يا خليفةَ رسولِ اللهِ: أيْ مَا هذَا؟! فقالَ: هذَا

---

(١) في (ج): الإشارات.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) نسب إليه في: الذخيرة ٢٤١/١٣، ونسب لعمر بن عبد العزيز في: الصَّمت وآداب اللسان ص٦١، وإحياء علوم الدين ١١١/٣، وجامع العلوم والحكم ص١١٥، وتاريخ الخلفاء ص٢٤٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ١١/٥، وابن ماجه في سننه ١٣١٤/٢، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ٢٤٨/٦.

(٥) ورد في: الطبقات الكبرىٰ ١٠/٥، والصمت وآداب اللسان ص٥١، وحلية الأولياء ٣٣/١، ومرقاة المفاتيح ٩٥/٩.

(٦) اسم فعل، بمعنىٰ: اكفف وامتنع عن ذلك.

الَّذِي أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ(١)»، وليتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي أوردَ الصِّدِّيقَ لسانُهُ مِنَ الموارِدِ، فكيفَ بأحوالِنَا مِنَ الاسترسالِ في الغيبةِ والنَّميمةِ والهمزِ واللَّمزِ والحُكْمِ علىٰ اللهِ بغيرِ عِلْمٍ؟!، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ذمًّا لفاعلِ ذلكَ.

فهذِهِ أصولُ القومِ، وهيَ تركُ كلِّ فُضُولٍ، فإذَا أعانَهُمُ اللهُ علىٰ هذا خفَّ عليهِمْ مَا وراءَهُ، فإنَّ مَنْ قَوِيَ علَىٰ الأشدِّ الأقْوَىٰ فهوَ علىٰ الأَسْهَلِ أقوَىٰ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٢): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ حَامِدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ خِضْرَوَيْهِ يَقُولُ(٣): عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ يَقُولُ: لَنْ يَنَالَ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الصَّالِحِينَ حَتَّىٰ يَجُوزَ سِتَّ عَقَبَاتٍ:

أَوَّلُهَا: يُغْلِقُ بَابَ النِّعْمَةِ، وَيَفْتَحُ بَابَ الشِّدَّةِ.

وَالثَّانِي: يُغْلِقُ بَابَ العِزِّ، وَيَفْتَحُ بَابَ الذُّلِّ.

والثَّالِثُ [١/١٦٥أ]: يُغْلِقُ بَابَ الرَّاحَةِ، وَيَفْتَحُ بَابَ الجَهْدِ.

وَالرَّابِعُ: يُغْلِقُ بَابَ النَّوْمِ، وَيَفْتَحُ بَابَ السَّهَرِ.

وَالْخَامِسُ: يُغْلِقُ بَابَ الغِنَىٰ، وَيَفْتَحُ بَابَ الفَقْرِ.

وَالسَّادِسُ: يُغْلِقُ بَابَ الأَمَلِ، وَيَفْتَحُ بَابَ الاِسْتِعْدَادِ لِلمَوْتِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذِهِ السِّتَّةُ الَّتِي ذكرَهَا وأضدادهَا لَا يتخلَّصُ منهَا إلَّا بالمجاهدةِ البالغةِ؛ وذلكَ أنَّهَا خلافُ المعتادِ والجارِي بينَ النَّاسِ، فإنَّ النَّاسَ

(١) في (ب): في الموارد. والقصد: أدخلني المهالك.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٧.

(٣) مرَّ تخريجه.

يفزعُونَ منَ التَّعبِ والفقْرِ والشِّدَّةِ والسَّهرِ والذُّلِّ والاستعدادِ للموتِ.

وهذِهِ كلُّهَا يجمعُهَا في التَّحصيلِ الاستعدادُ للموتِ، فإنَّ الاستعدادَ للموتِ إنَّمَا يحصلُ بالقِيَامِ بالطَّاعَاتِ ومُفَارقةِ الشَّهواتِ، ويلزمُ عن ذلكَ مَا ذكرْنَاهُ منَ المَشقَّاتِ[1].

❁ **قَالَ[2] الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[4]: سَمِعْتُ جَدِّي أَبَا عَمْرِو بْنَ نُجَيْدٍ يَقُولُ: مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَ عَلَيْهِ دِيْنُهُ[5].**

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ[6]: إِذَا قَالَ الصُّوفِيُّ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ: أَنَا جَائِعٌ؛ فَأَلْزِمُوهُ السُّوقَ، وَأْمُرُوهُ بِالكَسْبِ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ: **«مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَ عَلَيْهِ دِيْنُهُ»** فصحيحٌ، فإنَّ مَنْ كرُمَتْ عليهِ نفسُهُ ووافقَهَا على مَا تحبُّ تركَهَا واستعمَلَ[7] الشَّهَواتِ ولمْ يحمِّلْهَا مشقَّةَ الطَّاعاتِ، فإذا أخلَّتْ بالطَّاعاتِ وتعاطَتْ الشَّهواتِ المحرَّماتِ، فقدْ هانَ عليها أمرُ الدِّينِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦١.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٧ ـ ٢١٨.

(٤) في إحكام الدلالة ١/٣٦١: ذنبه.

(٥) طبقات الصوفية ص٣٤٠، وورد أيضًا في: الزهد الكبير ص١٥٤، ٢٨٤، ونُسب لمحمد بن الحنفية في حلية الأولياء ٣/١٧٦، بلفظ: «من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر».

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٧٣، والمختار من مناقب الأبرار ١/٢٢٤، وتلبيس إبليس ص٢٥٨.

(٧) في (أ، ج): واستعمال، والأصح المثبت.

وأمَّا قولُهُ: «**إِذَا قَالَ الصُّوفِيُّ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ: أَنَا جَائِعٌ؛ فَأْمُرُوهُ بِالكَسْبِ وَأَلْزِمُوهُ السُّوقَ**»، ففيهِ إرشادٌ إلى أنَّ العبدَ لا يُعرِّضُ نفسَهُ إلى الطَّلبِ منَ النَّاسِ بتَرْكِ التَّكسُّبِ[١] ما دامَ ضعيفًا قليلَ العِبادةِ والصَّبرِ على الجُوعِ.

وتحديدُهُ ذلكَ بخمسةِ أيَّامٍ غايةٌ لأكثرِ النَّاسِ منَ المتجرِّدينَ لسلُوكِ طَريقِ الآخرةِ، فإنَّهُمْ قَدْ تعوَّدُوا الصَّبرَ على المُؤلِمَاتِ، وفارقُوا كثيرًا منَ العَاداتِ، فمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ واتَّسَمَ بصفاتِهِمْ وأحوالِهِمْ ولمْ يكنْ عندَهُ هذَا الصَّبرُ منَ الجوعِ، فبقاؤُهُ معَ كسْبِهِ وعوائدُهُ في غذائِهِ وعشائِهِ أولَى بهِ إلى أنْ يُمدَّهُ اللهُ بمعونتِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ[٢] رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٣]: «وَاعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ المُجَاهَدَةِ وَمِلاكَهَا[٤]: فَطْمُ النَّفْسِ عَنِ المَأْلُوفَاتِ، وَحَمْلُهَا عَلَى خِلَافِ هَوَاهَا فِي عُمُومِ الأَوْقَاتِ.

وَلِلنَّفْسِ [صِفَتَانِ مَانِعَتَانِ لَهَا مِن الخَيْرِ][٥]: اِنْهِمَاكٌ فِي الشَّهَوَاتِ، وَامْتِنَاعٌ عَنِ الطَّاعَاتِ، فَإِذَا جَمَحَتْ عِنْدَ رُكُوبِ الهَوَى يَجِبُ كَبْحُهَا[٦] [١/١٦٥ب] بِلِجَامِ التَّقْوَى، وَإِذَا حَرُنَتْ[٧] عِنْدَ القِيَامِ بِالمُوَافَقَاتِ يَجِبُ سَوْقُهَا عَلَى خِلَافِ الهَوَى، وَإِذَا ثَارَتْ[٨] عِنْدَ غَضَبِهَا فَمِنَ الوَاجِبِ مُرَاعَاةُ حَالِهَا، فَمَا مِنْ مُنَازَلَةٍ أَحْسَنُ عَاقِبَةً مِنْ غَضَبٍ يُكسرُ سُلْطَانُهُ بِخُلُقٍ حَسَنٍ، وَتُخْمَدُ نِيرَانُهُ بِرِفْقٍ، وَإِذَا اسْتَحَلَّتْ شَرَابَ الرُّعُونَةِ[٩]

---

(١) في (ب): التسبب، والصواب المثبت. وانظر: إحكام الدلالة ١/٣٦١.

(٢) في (ج): الشيخ.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) وهو: ما يقوم بها.

(٥) تتمة من الرسالة القشيرية المطبوع.

(٦) أي: جذبها.

(٧) أي: وقفت.

(٨) أي: هاجت.

(٩) أي: الحمق.

فَضاقَتْ إِلَّا عَنْ إِظْهَارِ مَنَاقِبِهَا وَالتَّزَيُّنِ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَيُلاحِظُهَا ، فَمِنَ الوَاجِبِ كَسْرُ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، وَإِخْلالُهَا بِعُقُوبَةِ الذُّلِّ بِمَا يُذَكِّرُهَا مِنْ حَقَارَةِ قَدْرِهَا ، وَخَسَاسَةِ أَصْلِهَا ، وَقَذَارَةِ فِعْلِهَا .

وَجُهْدُ العَوَامِّ فِي تَوْفِيَةِ الأَعْمَالِ ، وَقَصْدُ الخَوَاصِّ إِلَىٰ تَصْفِيَةِ الأَحْوَالِ ؛ فَإِنَّ مُقَاسَاةَ الجُوعِ وَالسَّهَرِ سَهْلٌ يَسِيرٌ ، وَمُعَالَجَةُ الأَخْلَاقِ وَالتَّرَقِّي عَنْ سَفَاسِفِهَا(١) صَعْبٌ شَدِيدٌ .

وَمِنْ غَوَامِضِ آفَاتِ النَّفْسِ : رُكُونُهَا إِلَىٰ اسْتِحْلَاءِ المَدْحِ ، فَإِنَّ مَنْ تَحَسَّىٰ مِنْهُ جَرْعَةً حَمَلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِينَ مَثَلًا عَلَىٰ [شُفْرٍ مِنْ](٢) أَشْفَارِهِ ، وَأَمَارَةُ ذَلِكَ : أَنَّهُ إِذَا انْقَطَعَ عَنْهُ ذَلِكَ الشِّرْبُ(٣) آلَ حَالُهُ إِلَىٰ الكَسَلِ وَالفَشَلِ .

وَكَانَ بَعْضُ المَشَايِخِ يُصَلِّي فِي مَسْجِدِهِ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ سِنِينَ كَثِيرَةً ، فَعَاقَهُ يَوْمًا عَنِ الابْتِكَارِ إِلَىٰ المَسْجِدِ عَائِقٌ ، فَصَلَّىٰ فِي الصَّفِّ الأَخِيرِ ، فَلَمْ يُرَ مُدَّةً ، فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ ، فَقَالَ : كُنْتُ أَقْضِي صَلَاةَ كَذَا وَكَذَا سَنَةً صَلَّيْتُهَا وَعِنْدِي أَنِّي مُخْلِصٌ فِيهَا لِلَّهِ ـ سبحانه ـ ، فَدَاخَلَنِي يَوْمَ تَأَخُّرِي عَنِ المَسْجِدِ مِنْ شُهُودِ النَّاسِ إِيَّايَ فِي الصَّفِّ الأَخِيرِ نَوْعُ خَجَلٍ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ نَشَاطِي طُولَ عُمُرِي إِنَّمَا كَانَ عَلَىٰ رُؤْيَتِهِم ، فَقَضَيْتُ صَلَوَاتِي .

وَيُحْكَىٰ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ المُرْتَعِشِ أَنَّهُ قَالَ(٤) : حَجَجْتُ كَذَا كَذَا حِجَّةً عَلَىٰ التَّجْرِيدِ ، فَبَانَ لِي أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ كَانَ مَشُوبًا بِحَظِّي ، وَذَلِكَ أَنَّ وَالِدَتِي سَأَلَتْنِي يَوْمًا

---

(١) أي : دنيئها .

(٢) زيادة من (ف) .

(٣) أي : نصيبه من المدح .

(٤) ورد قوله في : مدارج السالكين ٢/٩٩ ، وغيث المواهب العلية ص١٩٨ .

أَنْ أَسْتَقِيَ لَهَا جَرَّةَ مَاءٍ فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ مُطَاوَعَةَ نَفْسِي فِي الحِجَّاتِ كَانَتْ لِحَظٍّ وَشَوْبٍ لِنَفْسِي؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ نَفْسِي فَانِيَةً لَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهَا مَا هُوَ حَقٌّ فِي الشَّرْعِ.

وَكَانَتِ امْرَأَةٌ قَدْ طَعَنَتْ فِي السِّنِّ فَسُئِلَتْ عَنْ حَالَتِهَا فَقَالَتْ: كُنْتُ فِي حَالِ الشَّبَابِ أَجِدُ مِنْ نَفْسِي أَحْوَالًا أَظُنُّهَا قُوَّةَ الحَالِ، فَلَمَّا كَبِرتُ زَالَتْ عَنِّي، فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قُوَّةَ الشَّبَابِ، فَتَوَهَّمْتُهَا أَحْوَالًا.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَا سمع أَحَدُ هَذِهِ الحِكَايَةَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَّا رَقَّ[(١)] لِهَذِهِ العَجُوزِ، وَقَالُوا: إِنَّهَا كَانَتْ مُنْصِفَةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا فَطْمُ [١/١٦٦أ] النَّفسِ عنِ المَألوفاتِ المُعْتَادَاتِ فأصْلٌ عظيمٌ في التَّفرُّغِ للطَّاعاتِ، فإنَّ العبدَ كلَّمَا اندفعَ في حقِّ[(٢)] الصَّوارفِ والموانعِ سهُلَ عليهِ في القلبِ والبدَنِ تحصيلُ العملِ النَّافعِ، ولذلكَ قالَ المشايخُ[(٣)]: «الإرادةُ: تركُ ما عليهِ العادةُ»، والنَّفسُ تحتاجُ إلىٰ القائدِ والسَّائقِ فِي ابتداءِ أمْرِهَا، فالرَّجاءُ يقودُهَا، والخوفُ يسوقُهَا، فإذا استقامَ السَّائقُ والقائدُ مشَتِ النَّفسُ إلىٰ الخيرِ بسهولةٍ، ومتىٰ أفرَطَ القائدُ ذلَّلَ[(٤)]، ومتىٰ أفرطَ السَّائقُ[(٥)] قتلَ[(٦)]، وذلكَ أنَّ المحمودَ منَ الرَّجاءِ ما حملَ علىٰ الأعمالِ، والمذمومَ منهُ ما حصلَ عنهُ أمْنٌ وإدلالٌ، والمحمودَ منَ الخوفِ ما حجزَ عنِ المحرَّماتِ، فإنْ أفرطَ

---

(١) في (ب): رقوا.

(٢) في (ب): حقه.

(٣) ورد في: منارات السائرين لنجم الدين الرازي ص١٧٤، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٦، والمواهب السنية شرح حزب الفتح للسادة الوفائية ص٦٣.

(٤) أي: ذللها وأمّنها.

(٥) أي: قنطها وقتلها، وقد أفاد الشيخ زكريا ذلك في: إحكام الدلالة ١/٣٢٦.

(٦) في (ب): السابق، والصواب المثبت.

حصلَ اليأسُ والقنوطُ منْ فضْلِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ.

قولُهُ: «وإذا ثارَتْ عندَ غضبِهَا» لمَا استنقصَ مِنْ قدرِهَا أو ابتُلِيَ بهِ منْ شأنِهَا فحقُّهَا أنْ تعرفَ أصلَهَا وقَدْرَهَا، وقُبحَ مَا هيَ فيهِ منَ الحالةِ عندَ ربِّهَا، حتَّىٰ تنكسرَ عن زَهْوِهَا وغَضَبِهَا، وقد أتىٰ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ فسألَهُ أنْ يَدُلَّهُ علىٰ أفضلِ الأعمالِ، فقالَ[١]: «لَا تَغْضَبْ»، وكرَّرَ عليهِ ذلكَ في كلِّ سؤالٍ، ولذلكَ قيلَ[٢]: «الغضبُ غولُ العقلِ»؛ معناهُ: يتلفُهُ ويُذْهِبُهُ.

وإذَا ذهبَ العَقْلُ زَالَ التَّصرُّفُ المُسْتَقِيمُ، ووقعَ العبدُ فِي ضِدِّهِ في أعمالِ أهلِ الجحيمِ، وكذلكَ إذَا استحلَّتِ النَّفسُ شَرابَ الرُّعونةِ؛ أيْ: تلذَّذَتْ بذِكْرِ محاسِنِهَا ومَا مَنَّ اللهُ عليهَا بهِ منْ فضائِلِهَا، فالصَّوابُ كسرُهَا عمَّا هيَ عليهِ، فإنَّ ذلكَ يُوقِعُهَا في نسيانِ منَّةِ ربِّهَا، والعُجْبِ بعملِهَا، والكِبْرِ علىٰ مَنْ فقدَ ما هيَ فيهِ من علْمِهَا وعَمَلِهَا وغيرِ ذلكَ ممَّا امتازَتْ بهِ في دُنْيَاهَا وأُخْرَاهَا.

فحقُّ العبدِ أنْ يرعىٰ مِنْ نفسِهِ ذلكَ؛ يؤدِّبُهَا ويكسرُ ما هيَ فيهِ مِن زَهْوِهَا، وذلكَ بتعريفِهَا أصلَهَا وخِسَّةَ قدرِهَا وفضْلَهَا، فإنَّ أصلَهَا منْ ترابٍ وفصْلَهَا مِنْ ماءٍ مهينٍ، وإذا أرادَ العبدُ أنْ يُنزلَ قدرَ غيرِهِ ويذمَّهُ بغايةِ نَقْصِهِ قالَ لهُ[٣]: «لا أصلَ لهُ ولا فَصْلَ»، فآدمُ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ من تُرابٍ، وهوَ أصلُنَا وفَصْلُنَا مِنْ آبائِنَا؛ وهوَ الماءُ المهينُ، هذَا لوْ لمْ ينهَ اللهُ عنِ العُجْبِ والكِبْرِ ويُحَرِّمْه لكانَ في معرفةِ الإنسانِ بقدرِهِ ما يحجزُهُ عنهُ ويَتْرُكُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٦٧ ـ حديث رقم (٥٧٦٥).

(٢) ورد في: غريب الحديث للخطابي ١/٢٥٨، وإحياء علوم الدين ٣/١٦٦.

(٣) ورد هذا المثل في: مجمع الأمثال ٢/٢٤٢، وفيه: «قال الكسائي: الأصل الحسب، والفصل اللسان، يعني النطق»، وفي محاضرات الأدباء ١/٤١٣: «فالأصل الوالد، والفصل الولد».

قالَ: «**وجَهْدُ العَوامِّ**[(١)] **في توفيةِ الأعمالِ**» أيْ: تكثيرهَا، والخواصُّ إنَّمَا همُّهُمْ في تصفيتِهَا وتصفيةِ أحوالِهِمْ وتكميلِهَا [١/١٦٦ب].

وقولُهُ: «**فإنَّ مقاساةَ الجُوعِ والسَّهرِ**» وإنْ كانَ شديدًا، فهوَ بالنِّسبةِ إلى مُرَاعَاةِ الأَحْوَالِ، والانتقالِ عنِ الأخلاقِ المَذْمُومةِ، والتَّخلُّقِ بالأخلاقِ المَحْمُودةِ «**سَهْلٌ يَسِيرٌ**»[(٢)].

وقولُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومِنْ غوامضِ آفاتِ النَّفسِ استحلاءُ المَدْحِ والثَّناءِ عليهَا، فإنَّ مَنْ تحسَّى منهُ شَرْبةً حملَ السَّماواتِ والأرضَ على أشفارِ**[(٣)] **عينَيهِ**»، وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ يتحمَّلُ في وقتِ الهوَى وشدَّةِ الرَّغبةِ في المقصودِ ما لا يتحمَّلُهُ في غيرِ ذلكَ الوقتِ، ولا سيَّمَا إذا غلبَ على ظنِّهِ أنَّ ذلكَ المقصودَ ينقلُهُ لمَا هوَ أعلى منهُ تزايدَتْ رَغْبتُهُ فيهِ وخَفَّ عليهِ تَعَاطِيهِ[(٤)]، ولذلكَ حملَ السَّماواتِ والأرضَ على أشفَارِ عينَيهِ، فمَنْ كانَ مُحِبًّا للدُّنيَا مالِهَا وجاهِهَا، فإذَا أُثنِيَ عليهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ غلبَ على ظنِّهِ واشتدَّ رجاؤُهُ[(٥)] لكمالِ رفعتِهِ[(٦)] فيهَا ونيلِ درجاتِهِ منهَا، تحمَّلَ في ذلكَ كلَّ مشقَّةٍ وهانَتْ عليهِ كلُّ مؤلِمَةٍ.

والدَّليلُ على أنَّ شدَّةَ رغبتِهِ إنَّمَا كانَتْ عن وجودِ لذَّتِهِ: أنَّهُ إذَا تغيَّرَ حامدُهُ فترَ عمَّا هوَ فيهِ وتغيَّرَتْ حالتُهُ.

وهذهِ الحكاياتُ الَّتِي أَوْرَدَهَا في عقيبِ هذَا الأمرِ عنِ الشَّيخِ الَّذِي كانَ يُصلِّي

---

(١) أي: اجتهادهم في الإتيان بالأعمال كاملة وافية.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٣.

(٣) الأشفار: حروف العين التي ينبت عليها الشعر. انظر: المصباح المنير ١/٣١٧.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٣.

(٥) في (ج): واستدراجه، والأصح المثبت.

(٦) في (ب): معرفته، والصواب المثبت.

في أوَّلِ الصَّفِّ زمانًا طويلًا حتَّىٰ عُرِفَ بذلِكَ الموضعِ واتَّفقَ في بعضِ الأوقاتِ تأخُّرُهُ عنِ البُكُورِ فَصَلَّىٰ في غيرِ ذلكِ الموضِعِ وجدَ في نفسِهِ انكسارًا وضعْفًا وتألُّمًا، فوجدَ سببَهُ أنَّ نفسَهُ كانَتْ فَرِحَةً بثَناءِ النَّاسِ عليهَا ومُلازمَتِهَا لذلكَ الموضعِ المخصوصِ مُرَائيةً لذلكَ، فلمَّا أدركَ ذلكَ منْ نفسِهِ انقطعَ عنِ النَّاسِ وأعادَ صلاتَهُ، والَّذِي حجَّ حجَّاتٍ كثيرةً علىٰ التَّجريدِ يُقَاسِي التَّعبَ والجوعَ ومشقَّةَ الأسفارِ، فلمَّا طلبَتْ منهُ والدتُهُ يومًا أنْ يَمْلأَ لَهَا جرَّةَ ماءٍ فتثاقَلَتْ عليهِ نفسُهُ اتَّهمَهَا في أعمالِهَا في الحجِّ النَّافلةِ لمَّا كَسلَتْ عنِ الواجبِ فرضِ العَينِ.

وأمَّا المَرأةُ الَّتِي طعنَتْ فِي السِّنِّ وكانَتْ عابدةً فأخبرَتْ عن نفسِهَا بمَا كانَ من حالِهَا الأوَّلِ؛ وهوَ أنَّهَا كانَتْ تَجِدُ مِنْ نَفْسِهَا نَشَاطًا في العَمَلِ وأحوالًا تردُ علىٰ قَلبِهَا تُزْعِجُهَا وتقلقُهَا ممَّا يجدُهُ أربابُ الأحوالِ، فلمَّا كَبِرَتْ فقدَتْ تلكَ الأحوالَ، فتحسَّسَتْ لنفسِهَا وعلمَتْ أنَّ معرفتَهَا باللهِ ـ تعالىٰ ـ الَّتِي منَّ عليهَا بِهَا لمْ تتغيَّرْ وأنَّ الأحوالَ الَّتِي كانتْ تطرقُهَا تغيَّرَتْ، فقالَتْ: «**كنتُ** [١/١٦٧أ] **أظنُّ تلكَ أحوالًا**»، فإذَا هيَ عملُ الشَّبيبةِ وقوَّةُ النَّفسِ، فإنَّهَا لوْ كانَتْ عينَ اليقينِ والعرفانِ؛ لدَامَتْ بدوامِهِ في كلِّ زمانٍ[١]، قالَ: فكلُّ مَنْ سمِعَ كلامَ هذِهِ العجوزِ رقَّ لهَا وعرَفَ إنصافَهَا مِنْ نفسِهَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونَ المِصْرِيَّ يَقُولُ[٣]: مَا أَعَزَّ اللهُ عَبْدًا بِعِزٍّ هُوَ أَعَزُّ لَهُ مِنْ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَىٰ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٩.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٣٧٤، وتاريخ دمشق ١٧/٤١٥، والغنية للجيلاني ص٣٠٧، وصفة الصفوة ٤/٣١٩.

ذُلِّ نَفْسِهِ، وَمَا أَذَلَّ اللهُ ـ تعالى ـ عَبْدًا بِذُلٍّ هُوَ أَذَلُّ لَهُ مِنْ أَنْ يَحْجُبَهُ عَنْ ذُلِّ نَفْسِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ ذُلَّ النَّفسِ مِنْ وجهَينِ عظيمَينِ:

أَحَدُهُمَا: معرفةُ قدْرِهَا في أصلِهَا وتقلُّبِهَا في أطوارِ خَلْقِهَا مِنْ نُطْفَةٍ إلىٰ علقَةٍ إلىٰ مُضغةٍ، وخروجِهَا من مجرىٰ البولِ مرَّتينِ منَ الذَّكرِ والأنثىٰ، وعجزِهَا وقلَّةِ حيلَتِهَا بجلبِ ما ينفعُهَا ودفعِ ما يضرُّهَا عنهَا، فهذَا أحدُ الوجهَينِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: كونُهَا مَرْبُوبةً مكلَّفةً مأمورةً، مَنهيَّةً مَسْئولةً مؤاخذةً بكلِّ حركةٍ وسَكنَةٍ من أفعالِهَا علىٰ تفاصيلِ أحوالِهَا ؛ منْ أَكْلِهَا وشُرْبِهَا ونكاحِهَا وتصرُّفاتِهَا في أَخْذِهَا وإعطائِهَا، فإنْ أحسَنَتْ وقامَتْ بمَا كلَّفَهَا بهِ ربُّهَا كانَ ذلكَ سببَ سعادتِهَا ونجاتِهَا، وإنْ أهملَتْ وفرَّطَتْ كانَ ذلكَ بسببِ خُسْرَانِهَا وهَلكتِهَا، فمَا أعزَّ اللهُ عبدًا بعزٍّ أعزَّ لهُ مِنْ أنْ يدلَّهُ علىٰ هذِهِ الأمورِ.

فإذَا عرَفَ قدْرَ نفسِهِ وذلَّتَهَا سلِمَ منْ عُجْبِهَا وكِبْرِهَا، وغيرِ ذلكَ منْ آفاتِهَا، وإنْ عرَفَتْ تكليفَهَا ومَا هيَ مُؤاخذةٌ بهِ ومُطَالبةٌ بهِ مِنْ ربِّهَا اجتهدتْ في العملِ للقيامِ بما عليهَا، وأخذِ ما لَهَا[1]، فهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**مَا أعزَّ اللهُ عبدًا بِعِزٍّ أعزَّ لهُ مِنْ أنْ يَدُلَّهُ علىٰ ذلِّ نفسِهِ**»، فإنَّهُ إذا فعلَ ذلكَ صارَ عزيزًا عندَ اللهِ وعندَ الخلْقِ، وإذا شغلَهُ عمَّا ذكرْنَاهُ تجبَّرَ وتكبَّرَ وأهملَ ما بهِ أُمِرَ وارتكبَ مَا عنهُ ربُّهُ زَجَرَ، فحصلَ لهُ الذُّلُّ الأكبرُ والعياذُ باللهِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصَ يَقُولُ[3]:** ....

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٩.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٠٧، وحدائق الحقائق ص١٩، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٦/٢٩٧.

مَا هَالَنِي[(١)] أَمْرٌ إِلَّا رَكِبْتُهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إنَّمَا يحسنُ فيمَا يهولُ النَّفسَ الإقدامُ عليهِ ممَّا لمْ يمنعْهَا [١٦٧/١ب] الشَّرعُ منهُ، وذلكَ أنَّ النَّفسَ يهولُهَا الجوعُ والسَّهرُ ومخالفةُ المُعتادِ فِي كسْبِ الأرزاقِ من بعضِ الجِهاتِ، ولا سيَّمَا إذا تعذَّرَ عليهَا أكلُ الحَلالِ إلَّا مِنْ أسبابٍ ينزلُ قدرُهَا بينَ العِبادِ، فقد تكونُ محتاجةً لمَا لا بُدَّ لهَا منهُ، فيتيسَّرُ لهَا ذلكَ من وجْهٍ لا ترْضَاهُ الشَّريعةُ، فَيَهُولُ علَىٰ النَّفسِ ردُّ ذلكَ، فيحملُ نفسَهُ عليهِ ويتصبَّرُ حتَّىٰ يُمدَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بعوْنِهِ، وييسِّرَ لهُ ما هُوَ أحسنُ منهُ منْ فضْلِهِ وطَوْلِهِ، فخرجَ من مجموعِ ما قرَّرْنَاهُ أنَّهُ لا يرتكبُ كلَّ مَهُولٍ، وإنَّمَا يرتكبُ ما يُجوِّزُ لهُ الشَّرعُ ارتكابَهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الفَضْلِ يَقُولُ[(٣)]: الرَّاحَةُ: هُوَ الخَلَاصُ مِنْ أَمَانِي النَّفْسِ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومرادُهُ بـ(**أَمَانِي النَّفْسِ**) شهواتُهَا واختياراتُهَا، وفيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ كمالَ الرَّاحةِ في الدِّينِ بلوغُ العبدِ إلىٰ مقامِ التَّوكُّلِ والرِّضَا، فإذَا وصلَ إلىٰ ذلكَ استراحَ مِنِ اختياراتِ نفسِهِ؛ وهيَ ما لمْ يُقَدَّرْ لهَا، فرضيَتْ بكلِّ واقعٍ وافقَ هواهَا أوْ لمْ يوافِقْ، ولا يتمُّ للعبدِ ذلكَ إلَّا بيقينِهِ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أرحمُ بهِ وأعلَمُ بمَا يُصلحُهُ[(٤)]؛ دليلُهُ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)]: **«عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، وَاللهِ لَا يَقْضِي لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»**، والمؤمنُ هاهُنَا: عبارةٌ عمَّنْ علِمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أنَّهُ يُخْتَمُ لهُ بالإيمانِ، وإلَّا: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

(١) أي: أفزعني.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢١٩.

(٣) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٥٦، والغنية للجيلاني ص٣٠٧، وفي هذه المظان: «هي الخلاص».

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٤.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٢٤، والقضاعي في الشهاب ١/٣٤٨.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذَبارِيَّ يَقُولُ(٢): دَخَلَتِ الآفَةُ فِي العَبْدِ مِنْ ثَلَاثٍ: سُقْمُ الطَّبِيعَةِ، وَمُلَازَمَةُ العَادَةِ، وَفَسَادُ الصُّحْبَةِ.

فَسَأَلْتُهُ: مَا سُقْمُ الطَّبِيعَةِ؟ فَقَالَ: أَكْلُ الحَرَامِ(٣).

فَقُلْتُ: مَا مُلَازَمَةُ العَادَةِ؟ فَقَالَ: النَّظَرُ وَالاسْتِمْتَاعُ بِالحَرَامِ وَالغِيْبَةِ.

قُلْتُ: فَمَا فَسَادُ الصُّحْبَةِ(٤)؟ قَالَ: كُلَّمَا هَاجَتْ فِي النَّفْسِ شَهْوَةٌ تَتْبَعُهَا(٥)».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «سُقْمُ الطَّبِيعَةِ: أَكْلُ الحَرَامِ»، يعنِي: أَنَّهُ إذَا كانَ نُشُوءُ جسمِهِ منْ هذَا المَأكُولِ وأقدَمَ عليهِ معَ معرفتِهِ بتحريمِهِ فسدَ قلبُهُ وجَوَارِحُهُ، ولمَّا كانَ العَبْدُ بمَا يلازمُهُ ولَا بدَّ لهُ منهُ وكانَ حرامًا عبَّرَ عنهُ بسُقْمِ الطَّبيعةِ.

وأمَّا «مُلازَمَةُ العادةِ» فدليلٌ علىٰ قلَّةِ التَّثبُّتِ في سَائِرِ حَرَكَاتِهِ وسَائِرِ أعضائِهِ؛ منْ عينِهِ ولسانِهِ [١/١٦٨أ] وأُذُنِهِ وبطنِهِ وفرْجِهِ، وإذا لمْ يتثبَّتْ حتَّىٰ يعرفَ ما يجوزُ لهُ ممَّا لَا يجوزُ، وجرَىٰ علىٰ مقتضَىٰ عَادَتِهِ لِصَبْوَتِهِ كانَ منَ الهَالكِينَ.

وقولُهُ: «فَسَادُ الصُّحْبَةِ»، أيْ: صُحْبَتُهُ معَ نفسِهِ؛ فإنَّ الصُّحبةَ النَّافعةَ معَ النَّفسِ الَّتِي بهَا نَجاتُهَا أنْ يخالِفَ العبدُ هَوَاهَا، ويحملَهَا علىٰ ما يُحِبُّ ربُّهَا، فإذَا جرَىٰ علىٰ هَوَاهَا ولمْ يَصْحَبْهَا صُحْبَةً صحيحةً نافعةً لهَا، كانَ بئسَ الصَّاحِبَ لهَا، فحصلَ مِنْ مجموعِ ذلكَ أنَّ الفَسَادَ دخلَ مِنْ أكْلِ الحَرَامِ وقِلَّةِ التَّثبُّتِ قبلَ الفعْلِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٧٤، والغنية للجيلاني ص٣٠٧، والمختار من مناقب الأبرار ٢/٢٢٤.

(٣) لأنه يلازم سقمها.

(٤) أي: مع النفس.

(٥) في (ب، ج): يتبعها، وأشار إلىٰ جوازه أيضا في (أ) بلفظ (معًا).

والتَّصرُّفِ بِمُقْتَضى الهَوى[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِيَّ يَقُولُ[٣]: سِجْنُكَ نَفْسُكَ[٤]، إِذَا خَرَجْتَ مِنْهَا وَقَعْتَ فِي رَاحَةِ الأَبَدِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِثْلُ ما قالَ أبو يَزِيدَ، قالَ[٥]: «رأيتُ الحقَّ ـ سبحانه ـ فِي المَنَامِ، فقلتُ: يا رَبِّ، كيفَ أجِدُكَ[٦]؟ فقالَ: فَارِقْ نفسَكَ، وتَعَالَ»، ومُفَارقةُ النَّفسِ: إنَّمَا هوَ الإعراضُ عن شَهَواتِهَا والعملُ بمقتضى أوامِرِهَا، وتكونُ تصرُّفاتُ العَبْدِ كلُّهَا لأمْرِ اللهِ خاصَّةً، وهذا معنى مُفَارقةِ النَّفسِ والخَلاصِ من ضَررِهَا، وحُصُولِ الرَّاحةِ باللهِ ـ تعالى ـ وبِقُرْبِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ الفَرَّاءَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَينِ الوَرَّاقَ يَقُولُ[٨]: كَانَتْ أَحْكَامُنَا فِي مَبَادِئِ أَمْرِنَا فِي مَسْجِدِ أَبِي عُثْمَانَ [الحِيرِيِّ][٩] الإِيثَارَ بِمَا يُفْتَحُ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نَبِيتَ عَلَى مَعْلُومٍ، وَمَنِ اسْتَقْبَلَنَا بِمَكْرُوهٍ لَا نَنْتَقِمُ لِأَنْفُسِنَا، بَلْ نَعْتَذِرُ إِلَيْهِ وَنَتَوَاضَعُ لَهُ، وَإِذَا وَقَعَ فِي قُلُوبِنَا حَقَارَةٌ لِأَحَدٍ قُمْنَا بِخِدْمَتِهِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ حَتَّى تَزُولَ».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٦/١٦٩، والزهد الكبير ص١٥٤، والغنية للجيلاني ص٣٠٧.

(٤) أي: أنت محبوس فيها.

(٥) ورد قوله في: الرسالة القشيرية ١/٢٢٣، والمدهش ص١٧٩، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٥/٤٣١، ونشر المحاسن الغالية ص٢٧٥، وروض الرياحين ص٣٠٢.

(٦) أي: كيف الطريق الموصل إلى القرب من شهودك في كل حال ومقام؟!.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.

(٨) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٦٠٣، والمختار من مناقب الأبرار ٣/١١٥، ونشر المحاسن الغالية ص٢٧٢.

(٩) زيادة من (ف).

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا الإيثارُ فهوَ أنْ يُعطُوا مَا هُمْ محتاجونَ إليهِ لمَنْ يَرونَهُ مُسَاوِيًا لهُمْ أوْ أحوجَ منهُمْ، ويتصبَّرُوا لتعوُّدِ الخيرِ، وأمَّا كونُهُمْ لا يبيتُونَ علىٰ معلومٍ فإنَّهُمْ إذا أخذُوا مقدارَ الحاجةِ وفضلَتْ فضلةٌ أخرجوهَا ولا يتركونَهَا إلىٰ وقتٍ آخرَ.

وأمَّا مَنْ أسَاءَ إليهِم فلَا يكافئُونَهُ بإساءَتِهِ ويعتذرونَ منْ كونِهِمْ أحوجُوهُ إلىٰ أنْ يسيءَ إليهِمْ، ولمْ يبادرُوا لحصولِ مقصودِهِ قبلَ أنْ تقعَ منهُ الإساءةُ، وأمَّا إذَا وقعَ في نُفُوسِهِمْ مِنْ أحدٍ شيءٌ؛ أيْ: ظهرَ لهُمْ منهُ نقصٌ أوْ حصلَ لهُمْ منهُ ازدراءٌ واستصغارٌ تواضعُوا لهُ وتذلَّلُوا حتَّىٰ [١/١٦٨ب] يزولَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ منهُ، وتذلَّ لهُ أنفسُهُمْ عِوَضًا عمَّا قامَ بهَا مِنْ ازدرائِهِ واستنقاصِهِ، وهذا لهُ أصلٌ؛ وهوَ أنَّهُ جرَىٰ بينَ أبي ذرٍّ وبينَ بلالٍ كلامٌ، فقالَ أبو ذرٍّ لبلالٍ: يا ابنَ السَّوداءِ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١): «**طَفُّ الصَّاعُ، لَيْسَ لِابْنِ بَيْضَاءَ عَلَىٰ ابْنِ سَوْدَاءَ فَضْلٌ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**»، فوضعَ أبو ذرٍّ خدَّهُ علىٰ الأرضِ وأقسمَ ليضعَنَّ بلالٌ رِجْلَهُ علىٰ خدِّهِ، مقابلةً للشَّيءِ بضدِّهِ ودواءً لنفسِهِ وأدبًا لهَا حتَّىٰ لا تَعُودَ إلىٰ مِثْلِهِ.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/٢٨٨: «عن أبي أمامة قال: عيَّر أبو ذر بلالا بأمه فقال: يا بن السوداء، وأن بلالا أتىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فغضب، فجاء أبو ذر ولم يشعر فأعرض عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما أعرضك عني إلا شيء بلغك يا رسول الله، قال: أنت الذي تعير بلالا بأمه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي أنزل الكتاب علىٰ محمد ـ أو ما شاء الله أن يحلف ـ ما لأحد علىٰ أحدٍ فضل إلا بعملٍ، إن أنتم إلا كطف الصَّاع»، وبهذا اللفظ أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/٤٦٤.
وأخرجه أحمد في مسنده ٤/١٤٥، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/٢٩٥ أيضًا بلفظ: «وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لم تَمْلَؤُهُ ليس لأَحَدٍ فَضْلٌ الا بِالدِّينِ أو عَمَلٍ صَالِحٍ..».
قال ابن الجوزي: «طفَّ الصَّاع، أي: قريب بعضكم من بعض؛ لأن طف الصَّاع قريب من مِلْئه» غريب الحديث ٢/٣٥.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ[(٢)]: **النَّفْسُ ظُلْمَةٌ كُلُّهَا، وَسِرَاجُهَا سِرُّهَا[(٣)]، وَنُورُ[(٤)] سِرَاجِهَا التَّوْفِيقُ، فَمَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ فِي سِرِّهِ[(٥)] تَوْفِيقٌ مِنْ رَبِّهِ كَانَ ظُلْمَةً كُلَّهُ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الظُّلمةُ ما لا نورَ معَهَا؛ لأنَّهَا ضِدُّهُ، والنُّورُ إِنَّمَا هُوَ نُورُ العِلْمِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبأحكامِهِ ووعْدِهِ ووعيدِهِ، فإذَا حَصَلَ فِي القَلْبِ هذا النُّورُ وعَامَلَ بهِ ربَّهُ في قلبِهِ وجَوارِحِهِ كانَتْ مُعَامَلتُهُ بهِ لربِّهِ سِرَّهُ، ومَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ في العَمَلِ والعِلْمِ والمُعَامَلةِ بينَهُ وبينَ ربِّهِ توفيقٌ مِنْ ربِّهِ بقِيَ في ظُلْمَةِ جَهْلِهِ وشَهَواتِهِ وحَجْبِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ[(٦)] ـ رَحِمَهُ اللهِ عَلَيْهِ ـ[(٧)]: «**مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: (سِرَاجُهَا سِرُّهَا)؛ يُرِيدُ: سِرَّ العَبْدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وَهُوَ مَحَلُّ إِخْلَاصِهِ وَبِهِ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَادِثَاتِ بِاللهِ لَا بِنَفْسِهِ وَلَا مِنْ نَفْسِهِ؛ لِيَكُونَ مُتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ عَلَىٰ اسْتِدَامَةِ أَوْقَاتِهِ، ثُمَّ بِالتَّوْفِيقِ يَعْتَصِمُ مِنْ شُرُورِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُدْرِكْهُ التَّوْفِيقُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ بِنَفْسِهِ وَلَا بِرَبِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ الشُّيُوخُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سِرٌّ فَهُوَ مُصِرٌّ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهَذَا الَّذِي أشارَ إليهِ الإمامُ هوَ الَّذِي فسَّرْنَاهُ بهِ منَ الكَلَامِ؛ وهوَ أنَّ العبدَ إنَّمَا نورُهُ بمعرفتِهِ بربِّهِ وتكليفِهِ ونفسِهِ؛ وكونِهَا متعبِّدَةً

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.

(٢) ورد قوله في: عرائس البيان ٢/١٧٩.

(٣) أي: السر الذي بين العبد وربه.

(٤) سقط من (ب) قوله: «سرها ونور».

(٥) يعني: معاملته لربه.

(٦) في (ب، ج): «قال الأستاذ الإمام أبو القاسم».

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.

مطلوبةً ، فإذَا عرَفَ ذلكَ علِمَ أنَّ نفسَهُ بريئةٌ منَ الأعمالِ الصَّالحةِ إلَّا بِعَونِ رَبِّهَا وَتَوفِيقِهِ إِيَّاهَا وتَسْدِيدِهَا ، فإذَا عامَلَتْهُ بالإخلاصِ فيمَا بينَهُ وبينَهَا كانَ ذلكَ سِرَّهَا ، ومَنْ لمْ يكنْ بينَهُ وبينَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ هذَا السِّرُّ فِي المُعَامَلَةِ بالإخلاصِ فهوَ مُصِرٌّ ؛ أيْ : مُخِلٌّ بِوَاجِبَاتِهِ ومرتكبٌ لمحرَّماتِهِ[١] ، فإنَّ العبدَ المكلَّفَ إمَّا أنْ يطيعَ أو يعصِي .

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢] [١/١٦٩أ] : «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[٣] : **لَا يَرَىٰ أَحَدٌ عَيْبَ نَفْسِهِ وَهُوَ يَسْتَحْسِنُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا يَرَىٰ عُيُوبَ نَفْسِهِ مَنْ يَتَّهِمُهَا فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ**» .

۞ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وذلكَ أنَّ العبدَ متَىٰ حَسُنَ ظَنُّهُ بنفسِهِ ونظرَ إلىٰ أفعالِهَا كلِّهَا بعينِ الرِّضَا لمْ يتَّهِمْهَا ، وإذا لمْ يتَّهِمْهَا لمْ يفتِّشْهَا ، وإذا لمْ يفتِّشْهَا لم يطَّلِعْ علىٰ نَقْصِهَا ، فكانَتْ ناقصةً وهوَ يظنُّهَا كاملةً ، وهذَا من بابِ الغُرُورِ ، ولذلكَ قيلَ[٤] :

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ۞ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

فلا بدَّ للشَّخصِ أنْ يُسِيءَ الظَّنَّ بنفسِهِ لمَا يعرفُهُ مِنْ عَوائدِهَا الرَّدِيئةِ ، وتلبيسِهَا الحقَّ بالباطلِ ، وخُلْفِهَا في كثيرٍ ممَّا عزمَتْ عليهِ ، ورضاهَا بالأقوالِ دونَ الأفعالِ ، ومدحِ النَّاسِ لهَا وَلَوْ بالمُحَالِ ، فعلمُهُ بهذِهِ الأخلاقِ الذَّميمةِ يُوجبُ لهُ

---

(١) لأنَّ السرَّ نورٌ ، والإصرار ظلمة ، فمتىٰ وُجد أحدهما انتفىٰ الآخر .

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠ .

(٣) ورد قوله في : نشر المحاسن الغالية ص٢٧٣ ، والشرح التاسع للحكم العطائية للشيخ زروق ص٨٣ ، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٠٨ .

(٤) من الطويل ، لعبد الله بن معاوية في : شعره ص٩٠ ، والحيوان ٣/٤٨٨ ، والأغاني ١٢/٢٥٠ ، والعقد الفريد ٢/١٨٢ .

التُّهمةَ والتَّفتيشَ؛ ليتخلَّصَ من خدَعِ نفسِهِ وإبليسَ(١).

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ**(٣): **مَا أَسْرَعَ هَلَاكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ عَيْبَهُ، فَإِنَّ المَعَاصِيَ بَرِيدُ الكُفْرِ.**

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ(٤): **مَا اسْتَحْسَنْتُ مِنْ نَفْسِي عَمَلًا فَاحْتَسَبْتُ بِهِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذانِ القولَانِ متقاربَانِ، وذلكَ أنَّ الشَّخصَ متىٰ استحسنَ عملَهُ لمْ يفتِّشْ نفسَهُ ولمْ يتَّهِمْهَا، ودامَ علىٰ معاصِيهِ، ومَنْ دامَ علىٰ معاصِيهِ وتوالَتْ عليهِ في دُنيَاهُ وكانَ الشَّيطانُ يلعبُ بهِ معَ كمالِ عقْلِهِ وعدمِ شُغْلِهِ بأسبابِ مَوتِهِ، فإذَا حضرَتْ وفاتُهُ واشتغلَ قلبُهُ بنزْعِ رُوحِهِ وتعلَّقَتْ نفسُهُ بمَا تفارقُهُ من مَحْبُوباتِهَا في وَقْتِهِ، فالشَّيطانُ ـ لعنَهُ اللهُ ـ أقدرُ في هذَا الوقتِ علىٰ إهلاكِهِ؛ لشغلِ عقلِهِ عنِ النَّظرِ في أمْرِهِ، فيخشَىٰ عليهِ أنْ تخرجَ نفسُهُ علىٰ كفرِهِ ـ والعياذُ باللهِ ـ، وبهذَا الاعتبارِ كانَتِ المعاصِي بريدَ الكفرِ.

وأمَّا قولُ أبِي سليمانَ: «**ما استحسَنْتُ مِنْ نفسِي قطُّ عَمَلًا فاعتدَدْتُ بهِ**»، فإنَّ الغالبَ منَ الاستحسانِ وجُودُ الآفاتِ في الأعمالِ، إلَّا أنْ يكونَ الاستحسانُ شَرعًا بأصَحِّ مِيزَانٍ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٥): «**وَقَالَ السَّرِيُّ**(٦): **إِيَّاكُمْ وَجِيرَانَ الأَغْنِيَاءِ، وَقُرَّاءَ**

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.

(٣) مر تخريجه.

(٤) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٠٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠.

(٦) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٠٩، ونسب لسفيان الثوري في: تنبيه الغافلين للسمرقندي ص٤٥٦، ومحاضرات الأدباء ١/٦١٨.

الأَسْوَاقِ، وَعُلَمَاءَ الأُمَرَاءِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**وَجِيْرَانَ الأَغْنِيَاءِ**» يعنِي: مجاورةَ الأغنياءِ، فإنَّ الطَّبْعَ يميلُ إلىٰ الأفعالِ أكثرَ منهُ إلىٰ الأقوالِ، فإذَا جاورَ العبدُ الأغنياءَ ورأىٰ مَا هُمْ [فيهِ] مِنَ السَّعَةِ وفصولِ الأرزاقِ والتَّحدُّثِ [١/١٦٩ب] بباطِنِ أمرِهِمْ، وبفضلِ مَا ينالُوهُ بشهواتِهِمْ مالَتْ نفسُهُ إنْ كانَ ضعيفًا إلىٰ مَا هُمْ فيهِ، ولا سيَّمَا إذا لَمْ يكنْ حَرَامًا، وإنْ لَمْ يملْ هوَ مالَ أهلُهُ وولدُهُ وكثُرَ صُدَاعُهُ بسببِهِمْ وتشويشُهُ، فالبُعْدُ منهُمْ أولَىٰ لِتَدُومَ لهُ قناعتُهُ بفقرِهِ، والرِّضَىٰ بمَا قَسَمَ لهُ بهِ ربُّهُ، ويتأسَّىٰ بنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تخلُّقِهِ بالفقرِ ودُعَائِهِ لآلِهِ بهِ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلَ مُحَمَّدٍ كَفَافًا؛ لَا إِقْتَارًا، وَلَا إِسْرَافًا»، وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فِي الصَّحيحِ)[(٢)]: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ قُوتُهُ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ».

وأمَّا «**قُرَّاءُ الأسواقِ**» فإنَّ أحوالَهُمْ لَا تُرْضِي الواحدَ الخلَّاقَ، فإنَّهُمْ يُهِينُونَ كتابَ اللهِ، وقدْ كَرِهَ العلماءُ قراءةَ القرآنِ فِي الأسواقِ علىٰ وجْهِ العبادةِ، وجوَّزُوهُ مِنْ قريةٍ إلىٰ قريةٍ، واختُلِفَ في التَّعليلِ لذلكَ: هلْ للرِّيَاءِ، أوْ للإهانةِ وقلَّةِ الإجلالِ والتَّعظيمِ لمَا عظَّمَهُ اللهُ؟!، هذَا معَ كونِهِ يُتْلَىٰ بقصْدِ التَّقرُّبِ، فلَا سيَّمَا إذَا جُعِلَ سببًا لطلَبِ الدُّنيَا والتَّكسُّبِ، فقدْ وُضِعَ في غيرِ موضِعِهِ، ولمْ يُجلَّ حقَّ إجلالِهِ وتعظيمِهِ.

وأمَّا «**علماءُ الأمراءِ**» فإنَّ الغالبَ من حالِ الأمراءِ عدمُ الجريَانِ علَىٰ القَوانينِ الشَّرعيَّةِ؛ لَا فِي إقامةِ الحدودِ[(٣)]، ولَا في استماعِ البيِّنَاتِ العدولِ، ولَا فيمَا هُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٧٢ ــ حديث رقم (٦٠٩٥)، ومسلم في صحيحه ٢/٧٣٠ ـ حديث رقم (١٠٥٥)، دون لفظ: «لَا إِقْتَارًا، وَلَا إِسْرَافًا».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٧٣٠ ـ حديث رقم (١٠٥٤).

(٣) في (ب): الحد.

فيهِ منَ الزِّيِّ والهيئةِ واللِّباسِ والتَّصرُّفِ والكلامِ وغيرِ ذلكَ ، فالعالِمُ إذًا لازمَ هؤلاءِ وهُمْ علَىٰ ما هُمْ عليهِ لَا يخلُو منْ أحدِ فسادَينِ ؛ إمَّا أنْ يعينَهُمْ بالقولِ والتَّحسينِ ، وإمَّا أنْ يقرِّرَ ما هُمْ عليهِ مِنْ غيرِ كراهةٍ ولا إنكارٍ ، وكلاهُمَا خطأٌ(١) ، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يأتِيَ إليهِمْ في وقتٍ مَا بسببِ حَاجةٍ عرضَتْ عازمًا علَىٰ أنْ يغيِّرَ مَا رآهُ ، فهذَا لا يضرُّهُ ، ونَرْجُو منَ اللهِ ـ سبحانه ـ أنْ يحفظَهُ ويعينَهُ ، وإنَّمَا الكلامُ علىٰ مَنْ يلازمُ ويخالطُ ، ولا سيَّمَا فِي زمانِكَ الَّذِي أنتَ فيهِ صَارَ التَّقرُّبُ منهُمْ كمالًا يُغْبَطُ المرءُ فيهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ(٣): إِنَّما دَخَلَ الْفَسَادُ عَلَىٰ الخَلْقِ مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ:

[أَوَّلُهَا](٤): ضَعْفُ النِّيَّةِ بِعَمَلِ الآخِرَةِ.

وَالثَّانِي: صَارَتْ أَبْدَانُهُم رَهِينَةً لِشَهَوَاتِهِم.

وَالثَّالِثُ: غَلَبَهُمْ(٥) طُولُ الأَمَلِ مَعَ قُرْبِ الأَجَلِ.

وَالرَّابِعُ: آثَرُوا رِضَا المَخْلُوقِينَ عَلَىٰ رِضَا الخَالِقِ.

وَالخَامِسُ: اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ، وَنَبَذُوا سُنَّةَ نَبِيِّهِم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَاءَ ظُهُورِهِم.

وَالسَّادِسُ [١/١٧٠أ]: جَعَلُوا قَلِيلَ زَلَّاتِ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حُجَّةَ أَنْفُسِهِم ، وَدَفَنُوا

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٣) ورد قوله في: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص١٠٣ ، والغنية للجيلاني ص٣٠٩ ، والمختار من مناقب الأخيار ١/٥٠٢ ، ومرشد الزوار ١/٣٨٣.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) في (ف): غلب عليهم.

كَثِيرَ مَنَاقِبِهِم».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَمَّا ضَعْفُ النِّيَّةِ لعملِ الآخرةِ** فَهلاكٌ وَدمارٌ؛ لأنَّ العَبْدَ إذَا قَلَّتْ رَغْبَتُهُ في الخَيْرِ وَضَعُفَتْ نيَّتُهُ فيهِ نَفَرَ عنهُ؛ فضلًا عَنْ قِيامِهِ بهِ.

وأمَّا صيرورةُ أبدانِهِمْ رَهِينَةً لِشَهَواتِهِمْ فهوَ ثَمرةُ مَا مضَى[(١)]؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إنَّمَا ينتقلُ عن شَهَواتِهِ بقوَّةِ عَزْمِهِ في طاعاتِهِ وصحَّةِ نيَّتِهِ وإخلاصِهِ، فإذَا فاتَهُ الأوَّلُ وقعَ فِي الثَّانِي، فصارَتْ حَرَكَاتُهُ وسَكَنَاتُهُ في مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ.

وكذلكَ إذَا كانَ عندَهُمْ إيمانٌ وحرَّكَهُمْ لعملِ الخيراتِ وضربُوا لهُ الآجالَ خسرُوا أنفسَهُمْ في الحالِ، ومَا يُؤمِّنُهُمْ منْ أنْ يقطعَهُمُ الموتُ قبلَ بلوغِ الأجلِ الَّذِي أجَّلوهُ لأنفسِهِمْ ليعمَلُوا فيهِ الصَّالحاتِ، وإذَا كانَتِ النَّفسُ مُحبَّةً للرَّاحاتِ، فإذا دامَتْ عليهَا مدَّةً إلى الأجلِ الَّذِي أَجَّلَتْهُ تأكَّدَ تعلُّقُ القلبِ بالشَّهواتِ، وعسُرَتْ عليهِ الانتقالاتُ.

وأمَّا إيثارُ رضَى المخلوقِينَ على رِضَى الخالقِ فهوَ تابعٌ لقلَّةِ الدِّينِ وضعْفِ الإيمانِ بأنَّهُ لا ضارَّ ولَا نافعَ ولا مُعْطِيَ ولا مانِعَ إلَّا اللهُ، فمتَى فقدَ هَذَا العبدُ كانَ كافِرًا، ومتَى اعتقدَهُ اعتقادًا صحيحًا وغلبَتْ عليهِ العَوائدُ في رؤيةِ النَّفعِ والضُّرِّ منَ الأشخاصِ حتَّى راعاهُمْ ولمْ ينكِرْ عليهِمْ ما همْ فيهِ منَ الإخلالِ بتقوَاهُمْ فقدْ آثرَ علَى رضَى الخالقِ رضاهُمْ، وهذَا كلُّهُ سببُهُ الجريانُ على سُوءِ الاعتيادِ، فيمَنْ صحَّ إيمانُهُ بالمعَادِ، وانفرادِ الحقِّ - سبحانه - بالإضلالِ والإسعادِ.

وأمَّا اتِّباعُ الأهواءِ، فقد يكونُ في الاعتقاداتِ الَّتِي هيَ ضدُّ السُّننِ الَّتِي درجَ عليهَا أهلُ الحقِّ، وقدْ يكونُ فِي الأعمالِ منَ العباداتِ منَ الصَّومِ والصَّلاةِ وغيرِ

(١) أي: ثمرة الأول؛ لأن النية إذا ضعفت صارت الأبدان رهينة للشهوات. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢١٤.

ذلكَ ، فإنْ كانَ فِي الأوَّلِ ـ والعياذُ باللهِ ـ فالبدعةُ فيهِ واتِّباعُ الهوىٰ لا يخلُو من كفرٍ أوْ ضلالٍ ، وإنْ كانَ في الأعمالِ فلَا يخلُو من كراهةٍ وفواتِ أجرٍ وابتدَاعٍ .

وأمَّا السَّادسُ فيترتَّبُ علىٰ هذَا الخامسِ ؛ وهوَ اتِّبَاعُ الهوَىٰ ، والاعتقادُ أنَّهُ علىٰ الحقِّ فيمَا فعلَ أوْ نوَىٰ ، فإذَا عُورِضَ فيمَا هوَ فيهِ في بعضِ الأمورِ قالَ: قدْ فعلَ ذلكَ مَنْ هوَ أفضلُ مِنِّي في سالِفِ الدُّهورِ ، ويتمسَّكُ بقضيَّةٍ هيَ في ظنِّهِ زلَّةٌ[١] ، ولعلَّهَا منْ حُسْنِ النَّظرِ والتَّسديدِ [١/١٧٠ب] ممَّا يجرِي في الصُّدورِ ، ويتركُ كثيرَ مناقبِهِمْ وجميلَ فضائِلِهِمْ ، فلَا يقتدِي بهَا ، ولا يجعلُهَا حجَّةً لهُ ؛ لكونِهِ بعيداً عمَّا هُمْ فيهِ منَ الخيراتِ والجدِّ فِي الطَّاعاتِ ، بَلْ حَالُهُ الكَسَلُ والفُتُورُ[٢] .

---

(١) مع أنه قد يكون فيها مخرج .

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الخُلْوَةِ وَالعُزْلَةِ[٢]»

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ[٣]، حَدَّثَنَا القَعْنَبِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ بَعْجَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بَدْرٍ الجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]: «إِنَّ مِنْ خَيْرِ مَعَايِشِ النَّاسِ لَهُمْ[٥]: رَجُلٌ آخِذًا بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ إِنْ سَمِعَ فَزْعَةً أَوْ هَيْعَةً[٦] كَانَ عَلَى مَتْنِ فَرَسِهِ، يَبْتَغِي المَوْتَ أَوِ القَتْلَ فِي مَظَانِّهِ، أَوْ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ لَهُ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشِّعَافِ[٧]، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلا فِي خَيْرٍ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفِي (الموطَّأ)[٨] أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا؟ رَجُلٌ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا بَعْدَهُ؟ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي غُنَيْمَتِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٢.

(٢) عنوان الباب في (ب) مكانه بياض.

(٣) أي: عبد العزيز بن معاوية.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحة ٣/١٥٠٣ ـ حديث رقم (١٨٨٩)، وابن ماجه في سننه ٢/١٣١٦.

(٥) في (ف): كلهم.

(٦) هي: الصوت عند ملاقاة العدو. وفي المقاييس ٦/٢٥: «الهيعة: الصوت الذي يفزع منه ويُخاف».

(٧) أي: رؤوس الجبال.

(٨) ٢/٤٤٥.

وفِي (الموطَّأِ)[١] أيضًا قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ المُسْلِمِ غَنمًا يَتْبَعُ بِهَا شعفَ الجِبَالِ».

وأوردَ (مسلمٌ)[٢] الخبرَ الَّذِي أوردَهُ الإمامُ عن أبِي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**خَيْرُ مَا عَاشَ النَّاسُ لَهُ: رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَىٰ مَتْنِ فَرَسِهِ، فَالْتَمَسَ المَوْتَ وَالقَتْلَ فِي مَظَانِّهِ، أَوْ رَجُلٌ فِي شَفْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الشِّعَافِ[٣]، أَوْ فِي بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الأَوْدِيَةِ فِي غُنَيْمَةٍ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ اللهَ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ**».

وأوردَهُ (النَّسائِيُّ)[٤] أيضًا علَىٰ شرْطِ الصِّحَّةِ.

فهذِهِ الأخبارُ وإنِ اختلفَتْ[٥] فِي بعضِ ألفاظِهَا متَّفِقَةٌ علىٰ أنَّ العُزْلَةَ والبُعْدَ مِنَ النَّاسِ للاشتغالِ بالخيرِ والتَّفرُّغِ للعبادةِ أفضلُ مَا عاشَ النَّاسُ لهُ، أوْ أفضلُ معايشِهِمْ علَىٰ اختلافِ الرِّوَايتَيْنِ[٦].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٧]: «الخُلْوَةُ صِفَةُ أَهْلِ الصَّفْوَةِ[٨]، وَالعُزْلَةُ مِنْ أَمَارَاتِ الوُصْلَةِ.

وَلَابُدَّ لِلْمُرِيدِ فِي ابْتِدَاءِ حَالِهِ مِنَ العُزْلَةِ عَنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ، ثُمَّ فِي نِهَايَتِهِ مِنَ

---

(١) ٢/ ٩٧٠.
(٢) في صحيحه ٣/ ١٥٠٣ ـ حديث رقم (١٨٨٩).
(٣) في (ب): «شعبة من هذه الشعاب».
(٤) في سننه الكبرىٰ ٥/ ٢٥٧.
(٥) في (ج): اختلف.
(٦) علىٰ ما يأتي بيانه. وانظر: العزلة للخطابي ص٥ ـ ٦.
(٧) الرسالة القشيرية ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٨) أي: صفاء القلوب والسرائر من كدورات العادات.

الخُلْوَة [١٧١/١أ] لِتحقُّقِهِ بِأُنْسِهِ.

وَمِنْ حَقِّ العَبْدِ إِذَا آثَرَ العُزْلَةَ: أَنْ يَعْتَقِدَ بِاعْتِزَالِهِ عَنِ الخَلْقِ سَلَامَةَ النَّاسِ مِنْ شَرِّهِ، وَلَا يَعْتَقِدَ سَلَامَتَهُ مِنْ شَرِّ الخَلْقِ؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ مِنَ القِسْمَينِ نَتِيجَةُ اسْتِصْغَارِ نَفْسِهِ، وَالثَّانِي شُهُودُ مَزِيَّتِهِ عَلَى الخَلْقِ، وَمَنِ اسْتَصْغَرَ نَفْسَهُ فَهُوَ مُتَوَاضِعٌ، وَمَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ مَزِيَّةً عَلَى أَحَدٍ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ.

وَرُؤِيَ بَعْضُ الرُّهْبَانِ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ رَاهِبٌ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ أَنَا حَارِسُ كَلْبٍ؛ إِنَّ نَفْسِي كَلْبٌ يَعْقِرُ الخَلْقَ، أَخْرَجْتُهَا مِنْ بَيْنِهِمْ لِيَسْلَمُوا مِنْهَا(١).

وَمَرَّ إِنْسَانٌ بِبَعْضِ الصَّالِحِينَ، فَجَمَعَ ذَلِكَ الشَّيْخُ ثِيَابَهُ مِنْهُ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: لِمَ تَجْمَعُ عَنِّي ثِيَابَكَ؟! لَيْسَتْ ثِيَابِي نَجِسَةً، فَقَالَ الشَّيْخُ(٢): وَهِمْتَ فِي ظَنِّكَ [يَا هَذَا](٣)، ثِيَابِي هِيَ النَّجِسَةُ، جَمَعْتُهَا عَنْكَ لِئَلَّا تُنَجِّسَ(٤) ثِيَابَكَ، لَا لِكَي تُنَجِّسَ ثِيَابِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**العُزْلَةُ لأهلِ البدايةِ، والخُلْوةُ لأهلِ النِّهايةِ**» صحيحٌ؛ لأنَّ المبتدِئَ يعتزلُ عنِ النَّاسِ لِيَبْعُدَ عن عوائدِهِمْ ويتمكَّنَ منْ تغييرِ أخلاقِهِ الرَّديئةِ الَّتي يخشَى وقوعَهُ فيهَا فِي مخالطتِهِمْ، وأمَّا الخلوةُ لأربابِ النِّهاياتِ فإنَّهَا لجمعِ همِّهِمْ علَى مقصودِهِمْ وانفرادِهِمْ بمحبوبِهِمْ؛ لتكملَ مناجاتُهُمْ وتصفُو خواطرُهُمْ عمَّا يشغلُهُمْ ويترَاقَوْا فِي درجاتِ قُرْبِهِمْ(٥).

---

(١) ورد في: إحياء علوم الدين ٢/٢٣٩، وسنن المهتدين في مقامات الدين ص١٥٢، وإتحاف السادة المتقين ٧/٣٩٠.

(٢) في (ب): تتنجس.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٢١، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤٠٩.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٠.

وقولُهُ: «**وإذا أرادَ العبدُ العزلةَ فشرطُهُ أنْ يريدَ سلامةَ النَّاسِ منهُ، لَا سلامتَهُ منهُمْ**»، فإنَّهُ إذا لاحظَ سلامتَهُ منهُمْ نسبَهُمْ إلىٰ الشَّرِّ ونزَّهَ نفسَهُ عنهُ، وفِي ذلكَ تعظيمُ نفسِهِ ومزيَّتُهَا عليهِمْ بخلافِ مَا إذا قصدَ سلامتَهُمْ منهُ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ معرفتِهِ بآفاتِ نفسِهِ وسوءِ أخلاقِهَا ومَا هيَ عليهِ من سُوءِ معاملتِهَا لغيرِهَا.

وقولُهُ: «**مَنْ رأىٰ لنفسِهِ مزيَّةً علىٰ غيرِهِ فهوَ متكبِّرٌ**» ليسَتْ هذِهِ حقيقةَ الكِبْرِ؛ لأنَّ الكِبْرَ التَّعظُّمُ معَ الاستصغارِ، ورؤيةُ نفسِهِ بالعلْمِ المحضِ لا يدلُّ علىٰ تعظيمِهِ ولا استصغارِهِ غيرَهُ، وقدْ فسَّرَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكِبْرَ بقولِهِ[(١)]: «**الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»؛ أيْ: ردُّ الحقِّ[(٢)]، واستصغارُ النَّاسِ[(٣)].

والحكايةُ الَّتِي أوردَهَا عنِ الرَّاهبِ فِي قولِهِ: «**لستُ براهبٍ وإنَّمَا نفسِي كلبٌ حبستُهَا هاهُنَا خشيةَ أنْ تعقِرَ النَّاسَ**»، ففيهِ استصغارُ النَّفسِ ورؤيةُ نقصِهَا خاصَّةً.

وكذلكَ الحكايةُ عنِ الرَّجلِ الصَّالحِ الَّذِي التصقَ بهِ بعضُ النَّاسِ فجمعَ الشَّيخُ الصَّالحُ ثيابَهُ عن ذلكَ الشَّخصِ، فقالَ لهُ [١/١٧١ب] الشَّخصُ: «**إنَّ ثيابِي ليسَتْ بنجسةٍ حتَّىٰ تجمعَ ثيابَكَ عنِّي، فقالَ لهُ الشَّيخُ: وَهِمْتَ، ثيابِي هيَ النَّجسةُ**»، وهذا لا يجرِي علىٰ ظاهرِهِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُمَا لمْ يكنْ فِي ثيابِهِ نجاسةٌ، ولكنَّ الشَّيخَ أدَّبَ هذا الشَّخصَ لمَّا قالَ لهُ: «**إنَّ ثيابِي ليسَتْ بنجسةٍ حتَّىٰ جمعتَ ثيابَكَ**»، أدَّبَهُ عن سُوءِ الظَّنِّ بالنَّاسِ؛ لأنَّهُ لا يدرِي لأيِّ وجْهٍ جمعَ هذَا الشَّيخُ ثيابَهُ.

ولعلَّهُ جمعَهَا لمقصودٍ آخرَ ليسَ لمحضِ التصاقِهِ بثيابِ هذا خاصَّةً، فنَهَاهُ أنْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٩٣ ـ حديث رقم (٩١).

(٢) أي: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. انظر: الديباج علىٰ مسلم ١/١٠٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٠ ـ ٣٧١.

يسبقَ لهُ سُوءُ الظَّنِّ؛ لأنَّهُ تَنَزَّهَ عنهُ وجمعَ ثيابَهُ استنقاصًا لهُ، وبُعدًا عنهُ، ولذلكَ أجابَهُ الشَّيخُ بعكسِ ما ظنَّهُ، وهوَ قولُهُ: «**وَهِمْتَ في نفسِكَ، بلْ ثيابِي هيَ النَّجسةُ عندَ نفسِي**»، وثيابُ الإنسانِ قدْ تطلَقُ علىٰ ذنبِهِ، وقدْ تطلَقُ علىٰ هيئتِهِ وحالتِهِ الَّتِي هوَ فيهَا، فيكونُ قولُ الشَّيخِ: «نفسِي عندِي هيَ الحقيرةُ الصَّغيرةُ الَّتِي لَا تصلحُ أنْ تخالطَ أحدًا».

وبهذَا الوَجْهِ تصلحُ الحكايةُ للاستدلالِ علَىٰ ما قصدَهُ الشَّيخُ مِنْ أنَّ الشَّخصَ يقصدُ بعزلتِهِ عنِ النَّاسِ سَلامَتَهُمْ مِنْ شَرِّهِ لا سلامتَهُ منهُمْ، وهذَا فيهِ نظرٌ، فإنَّ كلَّ النَّاسِ لا يمكنُهُ أنْ يَنْوِيَ باعتزالِهِ هذا الوجهَ، وذلكَ لاختلافِ حَالِهِ من عِلْمِهِ وجهلِهِ واحتياجِهِ للنَّاسِ واحتياجِهِمْ لهُ، فإذَا كانَ عالمًا واحتاجَ النَّاسُ لهُ فخلوتُهُ واعتزالُهُ لا يكونُ لسلامتِهِمْ من شرِّهِ، بلْ لأمرٍ آخرَ يختصُّ بهِ، وربَّمَا يكونُ خلطتُهُمْ تشوِّشُ عليهِ مقصودَهُ، فيبعدُ منهُمْ لكمالِ تفرُّغِهِ لجمعِ همِّهِ ونيلِ أَرَبِهِ، فقدِ اعتزلَهُمْ للسَّلامةِ، وقدْ يكونُ تشويشُهُمْ عليهِ شرًّا، وقَدْ يكونُ سيِّئَ الخُلُقِ، قليلَ الاحتمالِ، سَرِيعَ الغضَبِ، كثيرَ الكلامِ، يقعُ في الغِيبَةِ والكَذِبِ والحديثِ فيمَا لَا يعنيهِ، ويتضرَّرُ النَّاسُ بخلطتِهِ؛ لكثرَةِ ما يقعُ منهُ من سُوءِ عِشْرَتِهِ، فعُزلَتُهُ ليسلمُوا من شرِّهِ صحيحةٌ.

وإنَّمَا مرادُ الشَّيخِ أنْ يكونَ ناظرًا لنفسِهِ بعينِ النَّقصِ والاستصغارِ، لَا بعينِ التَّكبُّرِ والاحتقارِ، وهذَا صحيحٌ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِنْ آدَابِ العُزْلَةِ[٢]: أَنْ يُحَصِّلَ مِنَ العُلُومِ مَا يُصَحِّحُ بِهِ عِقْدَ تَوْحِيدِهِ؛ لِكَيْلَا يَسْتَهْوِيهِ الشَّيْطَانُ بِوَسْوَاسِهِ[٣]، ثُمَّ يُحَصِّلَ مِنْ عُلُومِ**

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.

(٢) الغرض من ذلك تقييد ما تقدم من طلب الخلوة والعزلة. انظر: إحياء علوم الدين ٢/٢٤٣، ونتائج الأفكار ٢/٢١٨.

(٣) في (ب): بوساوسه.

الشَّرْعِ مَا يُؤَدِّي بِهِ فَرْضَهُ؛ لِيَكُونَ بِنَاءُ أَمْرِهِ عَلَىٰ أَسَاسٍ مُحْكَمٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ إذا اعتزلَ عنِ النَّاسِ استفردَ [١/١٧٢أ] بهِ الشَّيطانُ، وأدخلَ عليهِ الوسواسَ في إيمانِهِ، والجهلَ في عباداتِهِ ومَا هوَ محتاجٌ إلىٰ علمِهِ فيمَا لا بُدَّ لهُ منهُ منْ طعامِهِ وشَرابِهِ وأخذَ ذلكَ من حِلِّهِ، فمتىٰ اختلَ اعتقادُهُ الصَّحيحُ الموافقُ للحقِّ وقعَ في الكفرِ أوِ البدعةِ[١]، وإنِ اختلَّ علمُهُ بالأحكامِ وقعَ في الإخلالِ بالواجبِ وارتكابِ الحرامِ؛ فضلًا عنْ علمِهِ بمنازلِ الطَّاعاتِ ورفيعِ الدَّرجاتِ للأولياءِ الكرامِ، هذَا ممَّا لا بُدَّ لهُ منهُ، وهوَ فرضُ عينِهِ منَ الأحكامِ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «والعُزْلَةُ فِي الحَقِيقَةِ: اِعْتِزَالُ الخِصَالِ المَذْمُومَةِ، وَالتَّأْثِيرُ لِتَبْدِيلِ الصِّفَاتِ، لَا لِلتَّنَائِي[٣] عَنِ الأَوْطَانِ، وَلِهَذَا قِيلَ[٤]: مَنِ العَارِفُ؟ قَالُوا: كَائِنٌ بَائِنٌ؛ يَعْنِي: كَائِنٌ مَعَ الخَلْقِ[٥]، بَائِنٌ عَنْهُم بِالسِّرِّ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: اِلْبَسْ مَعَ النَّاسِ مَا يَلْبَسُونَ، وَتَنَاوَلْ مِمَّا يَأْكُلُونَ، وَانْفَرِدْ عَنْهُمْ بِالسِّرِّ[٦].

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: جَاءَنِي إِنْسَانٌ وَقَالَ: جِئْتُكَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ هَذَا الحَدِيثُ[٧] مِنْ حَيْثُ قَطْعُ المَسَافَاتِ وَمُقَاسَاةُ الأَسْفَارِ، فَارِقْ نَفْسَكَ[٨] بِخُطْوَةٍ

---

(١) في (ب): والبدعة.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.

(٣) أي: التباعد.

(٤) نسب ليحيىٰ بن معاذ في: مدارج السالكين ٣/٣٤٢، وبلا نسبة في: نشر المحاسن الغالية ص٢٣٨.

(٥) أي: بالظاهر.

(٦) أي: فيما بينه وبين الله.

(٧) أي: علم الصوفية.

(٨) أي: ما تميل إليه نفسك بمقتضىٰ ما جبلت عليه.

وَقَدْ حَصَلَ مَقْصُودُكَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**العُزْلَةُ على الحَقِيقَةِ: اعتزالُ الخِصَالِ الذَّمِيمَةِ**» صَحِيحٌ؛ وذلكَ أنَّ هذا المعنَى وهوَ بُعدُهُ عنْ أخلاقِهِ الذَّميمةِ واتِّصافِهِ بالأخلاقِ الحميدةِ إذَا حصَّلَهُ لم يضرَّهُ النَّاسُ ولَا يتضرَّرُ بسببِهِمْ، وإنْ جرَى منهُم شَرٌّ حملَهُ وعفَى عنهُ، وإنْ حَصَلَ تَقْصِيرٌ في حقِّهِ لَمْ يتألَّمْ لذلكَ بعلمِهِ لبراءتِهِم منهُ، وأنَّ ذلكَ مقرَّرٌ عندَ نفسِهِ لمعرفتِهِ بقدرِهَا وبراءتِهَا منَ الاتِّصافِ بالخيرِ إلَّا بعونِ ربِّهَا وتيسيرِهِ، ومتَى كانَ العبدُ بهذِهِ المثابةِ كانَ بينَ النَّاسِ في خلوةٍ وعزلةٍ، ولذلكَ قالَ الدَّقَّاقُ: «**البسْ معَ النَّاسِ مَا يلبسُونَ، وكُلْ ممَّا يأكُلُونَ**»؛ أيْ: شابِهْهُمْ بظاهِرِكَ فِي الأكلِ واللِّباسِ، ولمْ يأمرْهُ بأنْ يأكلَ ما يأكلونَ، سواءٌ كانَ طيِّبًا أو رديئًا، وإنَّمَا أمرَهُ بأنْ يتشبَّهَ بظاهرِهِ بأنْ يأكلَ ويلبسَ، ولا يشتهرَ ولينفرِدْ عنهُمْ بالسِّرِّ؛ أيْ: فيمَا بينَهُ وبينَ اللهِ - تعالى - منَ النِّيَّةِ والإخلاصِ والتَّعظيمِ والإجلالِ والفِكْرِ والبُعدِ عنِ الغَفْلَةِ، وكذلكَ سائرُ الأخلاقِ الحميدَةِ؛ منَ الزُّهدِ والورَعِ والتَّوكُّلِ وغيرِهِ، كذلكَ الخلاصُ من رؤيةِ العُجْبِ والكِبْرِ وغيرِهِ منَ المَذْمُومَاتِ.

وقولُ الدَّقَّاقِ: «**جاءَنِي رجلٌ زائرٌ قالَ لِي: جئتُكَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ**» معناهُ: أنِّي محِبٌّ فيكَ وفي قربِكَ والتَّخلُّقِ بأخلاقِكَ وزيارتِكَ، فأجابَهُ [١/١٧٢ب] أنَّ الَّذِي تريدُهُ لا يغنِي فيهِ قطعُ المسافاتِ ولا الأسفارُ، ولكنْ تغييرُ الأخلاقِ المذمومةِ بالمحمودةِ، وهذَا مرادُهُ بقولِهِ: «**فَارِقْ نفسَكَ بخطوةٍ، وقدْ نِلْتَ مَقْصُودَكَ**»[١] مِنْ مُخَالَفَةِ الهَوَىٰ، والجَرْيِ علىٰ سمْتِ التَّقْوَىٰ[٢].

---

(١) في (ب): مخصودك، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٣.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَيُحكَىٰ عَنْ أَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ[(٢)]: رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ أَجِدُكَ؟ قَالَ: فَارِقْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإليهِ إشارةُ أبِي يزيدَ لمَّا رأىٰ اللهَ - تعالىٰ - في النَّومِ[(٣)]، ورؤيةُ اللهِ - تعالىٰ - في النَّومِ تصحُّ؛ فإنَّ المناماتِ أمثلةٌ وليسَ هوَ الممثَّلُ بهِ علىٰ التَّحقيقِ؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحدَ يَراهُ عددٌ كثيرٌ في أماكنَ مختلفةٍ في ساعةٍ واحدةٍ، ويَراهُ أحدُ الرَّائينَ شيخًا والثَّانِي شابًّا والآخرُ كهْلًا، فقالَ لهُ أبو يزيدَ: «**يا ربِّ، كيفَ أجِدُكَ؟**» أيْ: كيفَ الطَّريقُ إلىٰ القُربِ منكَ؟ فقالَ لهُ: «**فَارِقْ نَفْسَكَ وتَعَالَ**»؛ أيْ: إذَا خالَفْتَ هَوَاكَ وعملتَ بمَا أمرتُكَ بهِ فقدْ وجدْتَ وقرُبْتَ[(٤)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ[(٦)]: مَنِ اخْتَارَ الخُلْوَةَ عَلَىٰ الصُّحْبَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَالِيًا مِنْ جَمِيعِ الأَذْكَارِ إِلَّا ذِكْرَ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَخَالِيًا مِنْ جَمِيعِ الإِرَادَاتِ إِلَّا رِضَا رَبِّهِ، وَخَالِيًا مِنْ مُطَالَبَةِ النَّفْسِ مِنْ جَمِيعِ الأَسْبَابِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَإِنَّ خُلْوَتَهُ تُوقِعُهُ فِي فِتْنَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ[(٧)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الشَّيءَ العزيزَ لا ينالُ الإنسانُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في نتائج الأفكار ٢/٢٢١: «محصل ذلك: أن الرؤيا من شهود المنام، لا من قبيل ما تتخيله الأوهام، وقد قرب ذلك بحال الخلق في الرؤيا؛ ليعلم ما يتعلق بالحق تعالىٰ منها».

(٤) أي: قد وجدتني وقربت مني، وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٣.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.

(٦) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٠٨، وغيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ص٣٠٧، والإرشاد والتطريزص ٩٧، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٠.

(٧) أي: افتتان وابتلاء بما يورده الشيطان علىٰ قلبه، مما لا يجوز في حقه تعالىٰ.

بعضَهُ حتَّىٰ يعطيَهُ كلَّهُ، ولا أعزَّ من قربِ اللهِ - تعالىٰ - وحفظِهِ وإكرامِهِ، فإذا أرادَ العبدُ أنْ يخلوَ بذكْرِ اللهِ - تعالىٰ - فليفرِّغْ قلبَهُ ممَّا سِوَاهُ، ويفردْ مطلوبَهُ بالصِّدقِ والجدِّ في تحصيلِهِ، ويُعرضْ عنِ الأسبابِ المشوِّشَةِ لهُ، المُوجبةِ لتفرُّقِ همِّهِ اعتيادًا، فإنَّهُ إنْ لم يفعلْ ذلكَ تعرَّضَ بخُلوتِهِ لأسبابِ هَلَكَتِهِ، وقدْ أتىٰ بعضُ الصَّحابةِ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - معَ كمالِ فضْلِهِمْ وخُنُوسِ[1] الشَّيطانِ عنهُم؛ لظهورِ النُّبوَّةِ بينَهُمْ - وقالُوا: يقعُ في نفوسِنَا أشياءُ يودُّ أحدُنَا أنْ يخرَّ منَ السَّماءِ فتخطفَهُ الطَّيرُ ولا يقعَ لهُ ذلكَ، فقالَ لهُمُ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]: «أَوَجَدْتُمُوهُ؟ ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ».

قالَ العلماءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: كراهيَّتُهُمْ لهُ وتألُّمُهُمْ بوقوعِهِ دليلٌ علىٰ صحَّةِ إيمانِهِمْ ومخالفةِ ما دعَاهُمُ الوسواسُ لهُ، فإذَا كانَ هذا حالَ اللَّعينِ [١/١٧٣أ] معَ الصَّحابةِ الأقوياءِ، فكيفَ حالُهُ بالجهلَةِ الأَغْبِياءِ؟!، وقدْ قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخبرِ الصَّحيحِ[3]: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُم فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ[4]».

فعلىٰ العبدِ أنْ يُديمَ ذِكْرَهُ لربِّهِ، ويجتهدَ في تحصيلِ رضاهُ عنهُ حتَّىٰ يحفظَهُ من عَدُوِّهِ ويكفيَهِ شَرَّهُ[5].

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[6]: «وَقِيلَ: الانْفِرَادُ فِي الخُلْوَةِ أَجْمَعُ لِدَوَاعِي السَّلْوَةِ[7]».**

(١) في (ب): وجنوس، وهو تصحيف. وانْخَنَس: انقبض وتأخر ورجع. انظر: المحكم «خنس».
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١١٩ - حديث رقم (١٣٢).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١١٩٤ - حديث رقم (٣١٠٢)، ومسلم في صحيحه ١/١٢٠ - حديث رقم (١٣٤).
(٤) لأننا نُهينا عن التفكر في ذات الله تعالىٰ، وأمرنا به في آلائه.
(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٣.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.
(٧) أي: دواعي تطييب النفس.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ انفرادَ الهمِّ في الخُلْوَةِ أجمعُ للهَمِّ وأقوىٰ علىٰ ردِّ الخواطرِ الَّتِي تَدْعُو إلىٰ ترْكِ الذِّكْرِ ؛ وهيَ دوَاعِي السَّلْوَةِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ: اُنْظُرْ أُنْسَكَ بِالخُلْوَةِ، أَوْ أُنْسَكَ مَعَهُ فِي الخُلْوَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ أُنْسُكَ بِالخُلْوَةِ ذَهَبَ أُنْسُكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْهَا، وَإِنْ كَانَ أُنْسُكَ بِهِ فِي الخُلْوَةِ اِسْتَوَتْ بِكَ الأَمَاكِنُ فِي الصَّحَارِي وَالبَرَارِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ مَنْ خلَا بنفسِهِ وَبَعُدَ عَنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ اسْتَرَاحَ مِنَ الكلفَةِ لمعانَاةِ النَّاسِ، ووجدَ السَّلامةَ من كثيرٍ ممَّا يجرِي بين النَّاسِ، فهذا قدْ وجدَ راحةَ الخلوةِ فيأنسُ بذلكَ، فإذا خرَجَ عن خلوتِهِ واجتمعَ بالنَّاسِ فقدَ ما كانَ فيهِ منَ الرَّاحةِ وتألَّمَ لذلكَ.

وأمَّا مَنْ كانَ في الخلوةِ مستأنِسًا بذكْرِ اللهِ ودوامِ مناجاتِهِ، والتَّحسُّسِ لما يُجْرِيهِ عليهِ من عطائِهِ وأنواعِ كراماتِهِ، وعونِهِ لهُ في تحصيلِ طاعاتِهِ، في سائرِ ما هوَ فيهِ من سكونِهِ وحركاتِهِ، فهذا كاملُ الشُّغلِ بربِّهِ، مُعرِضٌ عن غيرِهِ بقلبِهِ، ولم يُبالِ اجتمعَ النَّاسُ أو لمْ تجتمعْ، فهوَ في خلوةٍ بربِّهِ وإنْ كانَ معَ النَّاسِ، ولذلكَ قالُوا[(٢)]: «الصُّوفِيُّ كائنٌ بائنٌ» ؛ أي: كائنٌ معَهُمْ بجسمِهِ، مباينٌ لهُمْ بقلبِهِ وسرِّهِ، واستوَتْ بهِ فِي خُلْوتِهِ الأَمَاكِنُ[(٣)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ حَامِدٍ يَقُولُ[(٥)]: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ زِيَارَةِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.

(٢) مر تخريجه قريبًا.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٢٣.

(٥) ورد قوله في: السر في أنفاس الصوفية للجنيد ص٣٢٦، والزهد الكبير ص١٠٧، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٤.

أَبِي بَكْرٍ الوَرَّاقِ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ قَالَ لَهُ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: وَجَدْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي الخُلْوَةِ وَالقِلَّةِ[١]، وَشَرَّهُمَا فِي الكَثْرَةِ وَالاخْتِلَاطِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فالخيرُ كلُّهُ في الخلوةِ والقلَّةِ إذا حصَّلَ العبدُ ما لا بُدَّ لهُ منَ العلمِ واستغنَى النَّاسُ عنهُ، وإلَّا متَى كانَ الشَّرعُ يدعوهُ إلى الخلطةِ بهِمْ؛ إمَّا في التَّعلُّمِ [١/١٧٣ب] أو التَّعليمِ لهُمْ، فلَا خيرَ في البُعدِ منهُمْ.

وأمَّا القِلَّةُ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ والمنامِ والكَلامِ[٢]، فداخلٌ في قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣]: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» والَّذي لا يعنيهِ ما لا تدعوهُ إليهِ حاجةٌ، والحاجةُ تختلفُ باختلافِ الأشخاصِ وأحوالِهِمْ وطبائِعِهِم، وقَدْ تكونُ الحاجةُ دنيويَّةً، وقدْ تكونُ دينيَّةً؛ فالدُّنيويَّةُ: ما يستقيمُ بهِ البدنُ والعقلُ، والدِّينيَّةُ: ما يستعانُ بهِ على العلْمِ والعمَلِ[٤].

فقدْ تبيَّنَ بهذا التَّقريرِ أنَّ الخَيْرَ ليسَ فِي البُعْدِ على الإطلاقِ، وليسَ في التَّقلُّلِ على الإطلاقِ، وإذَا انقسمَ الأمرُ فِي ذلكَ انقسمَ ما يقابلُهُ منَ الخلطةِ والإكثارِ، فإنَّ فيهمَا خيرًا وشرًّا، واللهُ الموفِّقُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ ـ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ العُزْلَةِ ـ فَقَالَ[٦]: هِيَ الدُّخُولُ بَيْنَ الزِّحَامِ[٧]،**

---

(١) في (ف): والعزلة.

(٢) لأن ثمرة قلة الطعام تنوير القلب، وخفة الجسم في العبادة، وثمرة قلة المنام عدم فوات شيء من أسباب الخيرات، وثمرة قلة الكلام السلامة من آفاته.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٤.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٦) ورد في: الزهد الكبير ص١٠٨، وسراج الطالبين ١/٢٢٠، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٤.

(٧) الحاصل بخلطة الناس.

وَتحْفَظُ سِرَّكَ أَلَّا يُزَاحِمُوكَ[١]، وَتَعْزِلُ نَفْسَكَ عَنِ الآثَامِ، وَيَكُونُ سِرُّكَ مَرْبُوطًا بِالحَقِّ».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنَ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ وشرحْنَا بِهِ قولَهُمْ: «**الصُّوفيُّ: كائنٌ بائنٌ**»، أيْ: كائنٌ معَ الخلْقِ بائنٌ عنهُمْ بشغلِهِ معَ الحقِّ، وإذا اشتغلَ عنهُمْ بالحقِّ بَعُدَ عَنِ الأَنَامِ والآثَامِ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ: مَنْ آثَرَ العُزْلَةَ حَصَلَ العِزُّ لَهُ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِنْ بابِ تفكيكِ الكلمةِ وتقسيمِ معناهَا[٣]، وهِيَ فِي صورةِ الهجاءِ ونَظْمِ الحرُوفِ وَاحِدَةٌ؛ وهوَ مَنْ حَصَّلَ العُزْلَةَ عَنِ النَّاسِ حَصَلَ العزُّ لهُ منَ اللهِ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ سَهْلٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: **لَا تَصِحُّ الخُلْوَةُ إِلَّا بِأَكْلِ الحَلَالِ، وَلَا يَصِحُّ أَكْلُ الحَلَالِ إِلَّا بِأَدَاءِ حَقِّ اللهِ ـ تعالى ـ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ تقدَّمَ أنَّ الخُلوةَ لا تصحُّ إلَّا بعدَ تحصيلِ ما يحتاجُ الإنسانُ إليهِ منَ العلمِ والعمَلِ، والعلمِ بالحلالِ والحرامِ، وأخذِ القدْرِ المكتفَى بهِ منهُ، وصرفِ فُضُولِهِ لمستحقِّهِ ممَّا لا بُدَّ منهُ[٦].

---

(١) أي: يشغلوك عنه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٣) سماه الشيخ زكريا بـ(الجناس المُحرَّف) في: إحكام الدلالة ١/٣٧٥.
وفي القول البديع في علم البديع ص٦٦: «... المحرَّف: ما اتفق فيه الكلمتان دون الشكل... نحو: البدعة شَرَكُ الشِّرك». وهو هنا بين: «العُزلة» و«العِزّ له».

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٥) تفسير التستري ص٧٤، ورد قوله أيضًا في: تفسير السلمي ٢/٦٨، ومناقب الأبرار ١/٢١٢، وسنن المهتدين ص٣٣.

(٦) مراده: أن الخلوة لا تُثمر إلا بعد تعلُّم العلم الشَّرعي والعمل بمُوجبه.

وإذا كانَ كذلكَ تفرَّغَ القلبُ منَ المُشغلاتِ ، وكمُلَ إقبالُه على الطَّاعاتِ ، وهذِهِ هيَ الخلوةُ باللهِ أو معَ اللهِ ، وهيَ أفضلُ الخلوَاتِ ، فإنَّ مَنْ كانَتْ خلوتُهُ بُعدَهُ عنِ المخلوقِينَ في بعضِ الجهاتِ ، فإذا خرجَ من تلكَ الجهةِ تَشوَّشَ حَالُهُ ، ومَنْ كانَتْ خُلْوتُهُ بالحقِّ ـ سبحانه ـ لكمَالِ مَعْرفتِهِ بهِ ودوامِ مُنَاجاتِهِ وذِكْرِهِ لهُ[١] ، فهذِهِ حالةٌ تُلازمُهُ حيثُمَا كَانَ ، وإنَّمَا يصلُ إليهَا [١/١٧٤أ] بقطْعِ المُشغِلاتِ واستعمالِ المُعينَاتِ .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٣]: لَمْ أَرَ شَيْئًا أَبْعَثَ عَلَى الإِخْلَاصِ مِنَ الخُلْوَةِ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلكَ العبدُ إذا بَعُدَ عنِ النَّاسِ سلِمَ من مُرَاءَاتِهِمْ ، وبقِيَ الحامَلَ لهُ على الفعلِ فَضْلُ[٤] اللهِ ـ تعالى ـ خاصَّةً ، فإذَا تكرَّرَ عليهِ هذا المعنَى حتَّى لم يبقَ في قلبِهِ التفاتٌ لغيرِ اللهِ ؛ في طلبِ حَمْدٍ ، أو خَوفِ ذمٍّ ، أو جزاءٍ على عملٍ كانَ مخلصاً ، وإنْ تبرَّأَ منَ استحسانِ عملِهِ ومدحِ نفسِهِ عليهِ سَلِمَ منَ الإعجابِ كمَا سَلِمَ أوَّلًا منَ الرِّيَاءِ ، وذلكَ بإضافتِهِ العَمَلَ الصَّالحَ إلى الحقِّ ـ سبحانه ـ ، ورؤيتِهِ الفضْلَ لهُ في خلقِهِ للعبدِ ، وإجرائِهِ عليهِ .

وكلَّمَا تكامَلَتْ غيبتُهُ عن نَفْسِهِ وعَملِهِ تَكاملَتْ حَالتُهُ ، وارتفعَتْ دَرَجتُهُ فِي الإخلاصِ ؛ لكونِهِ لمْ يرَ إلَّا واحداً ، وبهذا الاعتبارِ قالَ بعضُهُمْ[٥]: «رِيَاءُ العارِفِينَ أفضلُ من إخلاصِ المُريدِينَ» ، فعدَّ العارفُ التفاتَ نفسِهِ إلى حُسْنِ عملِهِ رياءً ؛ إذْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٣٥٣ ، وطبقات الصوفية ص٣٠ ، وصفة الصفوة ٤/٣١٩.

(٤) في (ج): قصد.

(٥) قول أبي سعيد الخزاز في: الغنية للجيلاني ص١١٢ ، والإمام الخزاز شيخ الفناء والبقاء ص١٣٧ ، ونُسب لرويم في: حلية الأولياء ١٠/٢٩٧ ، وتاريخ بغداد ٨/٤٣٠ ، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٢١.

هوَ التفاتٌ إلىٰ غيرِ اللهِ في العمَلِ (١).

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢): «**وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرَّمْلِيُّ (٣): لِيَكُنْ خِدْنَكَ الخُلْوَةُ، وَطَعَامَكَ الجُوعُ، وَحَدِيثَكَ المُنَاجَاةُ، فَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ، وَإِمَّا أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **الخِدْنُ**: هوَ الرَّفيقُ والصَّاحبُ، قالَ: فاجعلْ رفيقَكَ الخلوةَ الَّتي تلازمُهَا، وطعامَكَ هوَ ما تستعينُ بهِ وتقوىٰ علىٰ أمرِكَ، فاجعلْهُ الجوعَ؛ إذْ هوَ مُعِينٌ لكَ علىٰ صلاحِ قلبِكَ وخفَّةِ بدَنِكَ.

«**وحديثُكَ**»؛ أيْ: كلامُكَ الَّذي يتحدَّثُ بهِ لسانُكَ اجعلْهُ معَ اللهِ، و«**المُناجَاةُ**» هيَ المكالمةُ؛ فتارةً تكونُ بالسُّؤالِ والدُّعاءِ، وتارةً تكونُ بالذِّكْرِ والثَّناءِ، وتارةً تكونُ بالاعتذارِ والعُتْبىٰ، وغيرِ ذلكَ من أقسامِ المُناجَاةِ.

فإذَا بعُدَ العبدُ بالخُلْوةِ عنِ المُشوِّشَاتِ، وفرغَ قلبُهُ ونشطَتْ (٤) جَوارحُهُ بالإعراضِ بالجُوعِ عنِ الشَّهواتِ، ودامَ شُغْلُهُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ طَمَعًا فِي بُلُوغِ الغَاياتِ استقامَتْ أحوالُهُ فيمَا يَرُومُهُ (٥) من نَيْلِ الدَّرجَاتِ والولاياتِ (٦)، إذَا تبرَّأَ مِن حَوْلِهِ وقوَّتِهِ افتقارًا لوَاهِبِ الخَيْراتِ والبَرَكَاتِ، ويَدُومُ علىٰ ذلكَ بعدَ نَيْلِهِ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ إلىٰ المَمَاتِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٣٧، وسراج الطالبين ١/٢٢٠، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٤، وفيهما: «عبد الله البرمكي».

(٤) في (ب): وسطت، والصواب المثبت.

(٥) أي: يطلبه.

(٦) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٥ ـ ٣٧٦.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ[(٢)]: لَيْسَ مَنِ احْتَجَبَ عَنِ الخَلْقِ بِالخُلْوَةِ كَمَنِ احْتَجَبَ عَنْهُمْ بِاللهِ».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [١/١٧٤ب]: والاحتجابُ عنهُمْ بالخلوةِ حجابٌ محسوسٌ، يمكنُ لِلخَلْقِ الاطِّلاعَ عليهِ في بعضِ الأوقاتِ، والاحتجابُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ حجابٌ معنويٌّ يَصُونُهُ من جميعِ الآفاتِ، ولا يُدْرِكُ هذَا المَحْجُوبَ إلَّا مَنْ قَارَبَهُ فِي الدَّرجاتِ، ونَالَ بعضَ مَا نَالَهُ منَ المَقَامَاتِ، فإنَّ حالَهُ إنَّمَا يُدْرَكُ بالأَمَاراتِ[(٣)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٥)]: مُكَابَدَةُ العُزْلَةِ أَيْسَرُ مِنْ مُدَارَاةِ الخُلْطَةِ».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ «مُكَابَدَةَ الخُلْوةِ» شُغلٌ بالنَّفسِ خاصَّةً، وردٌّ لهَا عمَّا تشتهِيهِ، وأمَّا «مُدُاراةُ الخلطةِ» فإنَّ فيهِ ما تقدَّمَ ذِكْرُهُ فِي النَّفسِ، ومداراةِ الخلْقِ علىٰ اختلافِ أخلاقِهِمْ وشهواتِهِمْ وأغراضِهِمْ وما يبدُو منهُمْ منَ الأذىٰ، وما يحتاجُ إليهِ منَ الحِلْمِ والصَّفْحِ وعَدَمِ المُقَابَلةِ لِمَا بَدَا[(٦)].

فبهذا الاعتبارِ كانَتْ مُدَارَاةُ الخلْقِ أصعبَ من مُعاناةِ الخُلْوةِ، وهذا لوْ وقفَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٢) ورد قوله في: سراج الطالبين ١/٢٢٠، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٤.

(٣) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٦.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٥) ورد قوله في: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٧، وفتح الباري ١١/٣٣١، وفيض القدير ٦/٣٧٢، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٤.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٦.

العبدُ على حدِّ المُداراةِ معَ النَّاسِ ولمْ يَنْجرَّ بهِ الأمرُ إلى المداهنَةِ؛ فإنَّ المداراةَ أنَّ يُراعيَهُمْ ويلطفَهُمْ بالدُّنيا، والمداهنَةَ أنْ تدعَ لهُمْ شيئًا من دينِكَ مُتابعةً للهوَى.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ مَكْحُولٌ[(٢)]: إِنْ كَانَ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ خَيْرٌ فَإِنَّ فِي العُزْلَةِ السَّلَامَةَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ السَّلامةَ منَ الشَّرِّ أكثرُ من تَحصِيلِ الخَيْرِ، فإنَّ الشَّرَّ مُخَالَفَةٌ والخيرَ تَحْصِيلُ بَرَكَةٍ، هذا إذا لمْ تَجِبِ المخالطةُ لتحصيلِ عِلْمٍ أو عَمَلٍ، وأمَّا إذَا وجبَتِ المُخَالَطَةُ لشَيءٍ من ذلكَ فلا تَصِحُّ الخُلْوةُ، ويجاهدُ الإنسانُ نفسَهُ ليسلمَ منَ الشَّرِّ الَّذِي هَرَبَ منهُ إلى الخُلْوَةِ[(٣)].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ[(٥)]: الوِحْدَةُ جَلِيسُ[(٦)] الصِّدِّيقِينَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يعنِي: أنَّ الصِّدِّيقِينَ أُنْسُهُمْ بالخُلْوةِ والوحدَةِ؛ إذْ تَصْفُو فيهَا مُنَاجَاتُهُمْ، ويُستكمَلُ فيهَا ذِكْرُهُمْ وأُنسُهُمْ، ويقوَى فيهَا جِدُّهُمْ وصِدْقُهُمْ واستغراقُهُمْ في مَطْلُوبِهِمْ، وتَلَذُّذُهُمْ بِمَحْبُوبِهِمْ، فبهذَا كانَتِ الخُلْوةُ وأُنْسُهُمْ لوجودِ مَرْغُوبِهِمْ ومَطْلُوبِهِمْ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٢) ورد قوله في: كتاب العلم لأبي خيثمة ص١٤، والبيان والتبيين ٣/١١٦، وروضة العقلاء ص٨٥، وتاريخ دمشق ٦٠/٢٢١، وتهذيب الأسرار ص٣٠٧، وسير أعلام النبلاء ٥/١٦٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٦.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.

(٥) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٩٥، ووفيات الأعيان ٦/١٦٥، ومرآة الجنان ٤/٦٦، ونشر المحاسن الغالية ص٢٣٧، وسراج الطالبين ١/٢٢٠.

(٦) أي: شعار.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ [١/١٧٥أ]: سُمِعَ الشِّبْلِيُّ يَقُولُ(٢): الإِفْلَاسَ الإِفْلَاسَ(٣) يَا نَاسُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا عَلَامَةُ الإِفْلَاسِ؟ قَالَ: مِنْ عَلَامَاتِ: الإِفْلَاسِ الاسْتِئْنَاسُ بِالنَّاسِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيْ لوْ كمُلَ وجدُهُمْ وتحقَّقُوا بِموجودِهِمْ لاشتغلُوا عن أنفسِهِمْ؛ فضْلًا عنْ غيرِهِمْ، ومنْ علاماتِ الإفلاسِ وقلَّةِ الاشتغالِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وذِكْرِهِ ومناجاتِهِ التَّلذُّذُ بحديثِ النَّاسِ(٤)، حتَّىٰ قالَ بعضُ المشتغلِينَ باللهِ(٥): «إنِّي لأتقذَّرُ الدُّنيَا كمَا يتقذَّرُ أحدُكُمُ الجِيفَةَ إذَا مرَّ بهَا».

ودخلَ أبو مسلمٍ الخَولانيُّ مسجدًا فوجدَ فيهِ حلقةً منَ النَّاسِ، فقالَ في نفسِهِ: ما اجتمعَ هؤلاءِ في المسجدِ إلَّا ليتذاكرُوا خيرًا؛ أيْ: يتزايدُوا فيهِ، فجلسَ إليهِمْ فسمعَهُم يتحدَّثُونَ في الدُّنيَا وفي أنواعِ فوائدِهَا، قالَ: تدرونَ مَا مَثَلِي ومثَلُكُمْ؟ مثَلُ رجلٍ يمشِي في الصَّحراءِ فَأَصَابَهُ المَطرُ فأوَىٰ إلىٰ موضعٍ يستكنُّ فيهِ، فلمَّا حصلَ فيهِ فإذَا هوَ لا يكنُّ شيئًا، وأصابَهُ المطرُ أكثرَ ممَّا كانَ يصيبُهُ في الصَّحَرَاءِ، فأنَا أتيتُ إليكُمْ لنتزَايدَ ممَّا أنتُمْ فيهِ وتذهبَ عنِّي الغَفْلَةُ، فإذا أنتُمْ غَرْقَىٰ في الدُّنيَا، وقامَ وَتَرَكَهُمْ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كُثَيْرٍ(٧): مَنْ خَالَطَ النَّاسَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.
(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٦٤٦، وتهذيب الأسرار ص٨٢، وروي نحوه عن ذي النون المصري في: الزهد الكبير ص١٠٨، وتاريخ دمشق ١٧/٤٣٣. وبلا نسبة في: العزلة للخطابي ص١٧.
(٣) في نتائج الأفكار ٢/٢٢٥: «سمي بذلك؛ لأنه تجرد عن الثمرات الباقية بملابسة الحظوظ الفانية».
(٤) لأنه يدل علىٰ بقاء حظوظ النفس الدنية، إذ لو فنيت عنها لاستبدلت الأنس بالوحشة.
(٥) قول الفضيل بن عياض في: المتمنين لابن أبي الدنيا ص٥٦، وحلية الأولياء ٨/٨٩، وتاريخ دمشق ٤٨/٣٨٢، وإحياء علوم الدين ٣/٢٠٩، والبداية والنهاية ١٠/١٩٩.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٢٤.
(٧) ورد قوله في: مداراة الناس ص١٠٩، والثقات ٩/٢١٦، وتاريخ دمشق ٦٤/٧٤، وتهذيب الأسرار=

دَارَاهُمْ ، وَمَنْ دَارَاهُمْ رَاءَاهُمْ» .

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ تحذيرٌ منَ الخلطةِ ، فإنَّهَا تحوجُ إلىٰ المُدَاراةِ ، فإنَّ العبدَ إنَّمَا يُدارِي غيرَهُ ، فحقيقةُ المداراةِ: اتِّقَاءُ ما يضرُّ بأمرٍ جائزٍ ، بحيثُ لا يخلُّ الإنسانُ بشيءٍ من دينِهِ لا يقعُ في محرَّمٍ ، ولا يُخِلُّ بواجبٍ ، وإنْ كمُلَتْ درجتُهُ لم يخلَّ بمندُوبٍ ولمْ يرتكِبْ مَكْرُوهًا ، وإنَّمَا يدارِي بالدُّنيَا ويتألَّفُ الأصحابَ ، ويطيِّبُ نفوسَهُمْ ، ويؤثرُهُمْ علىٰ نفسِهِ بذلكَ .

فهذَا النَّوعُ وأَشْبَاهُهُ هُوَ[1] المُدَاراةُ ، ويُخشَىٰ علىٰ مَنِ اشتغلَ بهذَا أنْ يَجُرَّهُ ذلكَ إلىٰ المُرَاءَاةِ أوِ التَّشبُّعِ بمَا لمْ ينَلْ من مَقَامَاتِ الدِّينِ ، فيكونَ كَذَّابًا مُدَّعِيًا ، فينتقلَ مِنَ المُدَاراةِ إلىٰ المُدَاهنَةِ ، والخُلوةُ تُرِيحُهُ مِنْ جَمِيعِ ذَلكَ[2] .

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: **«وَقَالَ شُعَيبُ بْنُ حَرْبٍ[4]: دَخَلْتُ عَلَىٰ مَالِكِ بْنِ مَغْوَلٍ بِالكُوفَةِ وَهُوَ فِي دَارِهِ وَحْدَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ: أَمَا تَسْتَوْحِشُ وَحْدَكَ ؟! فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَرَىٰ أَنَّ أَحَدًا يَسْتَوْحِشُ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ»** .

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ ، وكثرةِ اشتغالِهِ بذكْرِهِ ، وكمالِ محبَّتِهِ لهُ وأُنْسِهِ بهِ ، حتَّىٰ استنكرَ وقوعَ ذلكَ منَ النَّاسِ [١/١٧٥ب] ، فقالَ: «**ما كنتُ أظنُّ أنَّ أحدًا يستوحشُ معَ اللهِ**» ، فعبَّرَ عن حالِهِ وحكمَ بهِ علىٰ غالبِ الخلْقِ[5] .

= ص٣٠٨ ، وتهذيب الكمال ٣١/٢٢٠ .

(١) في النسخ: هي ، والأصح المثبت .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٧ .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٢٥ .

(٤) ورد في: العزلة والانفراد ص٧٦ ، وسراج الطالبين ١/٢٢٠ .

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٧ .

... ... وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ[(١)]

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ[(٣)]: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الأَنْمَاطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ لَهُ دِينُهُ وَيَسْتَرِيحَ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ فَلْيَعْتَزِلِ النَّاسَ؛ فَإِنَّ هَذَا زَمَانُ وَحْشَةٍ، وَالعَاقِلُ مَنِ اخْتَارَ فِيهِ الوِحْدَةَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مُتَرَتِّبٌ[(٤)] علىٰ ما تقدَّمَ من أنَّ الخلطةَ تُحوجُ إلىٰ المُدَارَاةِ، والمُدَارَاةُ فيهَا عَمَلُ القَلْبِ والبَدَنِ، فإذا أرادَ العبدُ أنْ يستريحَ قَلْبُهُ منَ الفكرةِ في رِضَا عبدٍ وسَخطِ آخرَ ومَا يعجبُ هذَا ويكرهُهُ غيرُهُ ويستريحُ أيضًا بدنُهُ منَ السَّعيِ في حوائجِ النَّاسِ، وما يكونُ بسببِ اجتماعِهِ بهِمْ منَ الواجبِ عليهِ أوِ المندوبِ لهُ فليعتزلِ النَّاسَ، فإنَّ فِي اعتزالِهِمْ سَلامةَ دينِهِ وراحةَ قلبِهِ وبدنِهِ، ولا سيَّمَا في هذِهِ الأزمنةِ الَّتِي لا يجتمعُ فيها اثنَانِ، و[لَا] يَنْفَصِلَانِ أو يَفْتَرِقَانِ إلَّا عن خَسَارةٍ.

وأخفُّ ذلكَ أنْ يتزيَّنَ بعضُهُمْ لبعضٍ، ويظهرَ منْ أعمالِهِ الخفيَّةِ الَّتِي أجرُ إخفائِهَا أكثرُ منْ إظهارِهِ منْ سبعينَ ضِعْفًا، فيتحدَّثَ معَ أخيهِ بذلكَ فَيُبْدِيَهُ لهُ، فإنْ قصدَ المُرَاءاةَ وقعَ في معصيةٍ، وإنْ لم يقصدْ ذلكَ أظهرَ مَا كانَ أسرَّهُ فنقصَ أجرُهُ، وإنِّي لهُ بذلكَ أخافُ عليهِ ما هوَ أعظمُ من ذلكَ منَ الوقوعِ في الغِيْبَةِ والنَّميمةِ علىٰ

---

(١) عجز بيت من الطويل، لكشاجم في ديوانه ص٩٢، وصدره:

ويأبىٰ الّذي في القلبِ إلَّا تَبَيُّناً

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٥.

(٣) طبقات الصوفية ص٥٤، وورد قوله في: الزهد الكبير ص١٠٦، وتاريخ دمشق ٢٠/١٧٧، وصفة الصفوة ٢/٣٧٥.

(٤) في (ج): مرتب.

وجْهِ التَّوجُّعِ والتَّألُّمِ لبعضِ الإخوانِ، فيذكرُ بعضُهُمْ لبعضٍ نقصَ أخيهِ ومَا وقعَ فيهِ متوجِّعًا بذلكَ، وهيَ غيبةٌ وخِدْعَةٌ منَ الشَّيطانِ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: قَالَ أَبُو يَعْقُوبَ السُّوسِيُّ(٣): الانْفِرَادُ لَا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ إِلَّا الأَقْوِيَاءُ(٤)، وَلِأَمْثَالِنَا(٥) الاِجْتِمَاعُ أَنْفَعُ، يَعْمَلُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ رُؤْيَةِ بَعْضٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ في حقِّ الضُّعفاءِ الَّذينَ إذا انفردُوا بأنفسِهِمْ كسلُوا ورقدُوا، وأمَّا مَنْ قوِيَ فَسلامتُهُ منَ الآفاتِ وإخلاصُ عملِهِ لربِّهِ أمكنُ وأصْفَىٰ في سائرِ الأوقاتِ.

وأمَّا الضُّعفاءُ الَّذينَ لا يعملونَ إلَّا إذا رأَوا غيرَهُمْ يعملُ، فتحرُّكُهُمْ برؤيتِهِ وينشِّطُهُمْ اجتهادُهُ، فالخلطةُ لهُمْ أنفعُ بشرْطِ سلامتِهِمْ منَ الرِّيَاءِ(٦)، وألَّا يكونَ عملُهُمْ خوفًا من ذمِّهِمْ ونسبتِهِمْ إلىٰ الكَسَلِ، فيكونَ الحاملَ لهُمْ علىٰ مُوافقتِهِمْ في [١٧٦/١أ] الأعمالِ خَوفُ ذمِّهِمْ لهُمْ، ونسبتِهِمْ لنقصِ الرَّغبةِ في الأعمالِ.

فمتَىٰ كانَ الضَّعفُ بهذِهِ المثابةِ فلا يصلُ معَهُمْ علَىٰ حالٍ، وليقصدْ سلامةَ نفسِهِ منَ العذابِ قبلَ تحصيلِ الأجْرِ وزيادةِ الثَّوابِ، فمَا ذكرَهُ الشَّيخُ في الخلطَةِ أولَىٰ للضَّعيفِ بشرْطِ سَلامتِهِ منَ الوقوعِ في الرِّياءِ تحقيقًا أو خِيْفَة(٧).

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٧٧/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٢٥/١.

(٣) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٠٨، واللمع للطوسي ص٢٧٧، وتهذيب الأسرار ص٣١٣.

(٤) في الدين.

(٥) من الضعفاء. والقصد: أن اجتماع الضعفاء مع العمال أبعث لهم على العمل، وذلك لحب المشاكلة.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٧٨/١.

(٧) في (أ، ج): خيف، والصواب المثبت.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ سَعِيدَ بْنَ أَبِي سَعِيدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ الدَّامغَانِيَّ يَقُولُ[(٢)]: أَوْصَانِي الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَالَ: اِلْزَمِ الوَحْدَةَ، وَامْحُ اِسْمَكَ عَنِ القَوْمِ، وَاسْتَقْبِلِ الجِدَارَ حَتَّىٰ تَمُوتَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ أمرٌ منهُ لمَنْ رآهُ مبدَّدَ الحالِ، قليلَ ترتيبِ الأورادِ، كثيرَ الاجتماعِ بالنَّاسِ في كلِّ مجلسٍ بالمحادثةِ والانبساطِ، فأمرَهُ بمَا هوَ أصلحُ لهُ وأسلَمُ لهُ في دينِهِ؛ وهوَ أنْ يلزمَ الوَحْدةَ لُزُومًا مُتواليًا؛ حتَّىٰ ينسَاهُ مَنْ كانَ يُخَالِطُهُ.

وقولُهُ: «واستقبلِ الجدارَ حتَّىٰ تَموتَ»، أيْ: بالذِّكْرِ والشُّغلِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وأنتَ مستقبلُ القبلةَ دائمُ السَّهرِ قليلُ الاضطجاعِ، كمَا حُكِيَ أنَّ رجلًا سمعَ كلامَ الجُنَيْدِ والحِكَمَ الَّتي تبدُو علىٰ لِسَانِهِ مِنْ مَواهبِ الحقِّ، فقالَ لهُ: مِنْ أينَ لكَ هذَا؟ فأجابَهُ الجُنيدُ: «مِنْ جُلُوسِي تحتَ تلكَ الأسطوانَةِ كذَا وكذَا سنةً»[(٣)]، وكذَا وعدَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مَنِ اشتغلَ بهِ وانقطعَ إليهِ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، فقدْ وعدَ مَنْ أحسنَ عملَهُ لهُ أنْ يؤتيَهُ العِلْمَ والحِكْمةَ كمَا فَعَلَ بأنبيائِهِ: داودَ وغيرِهِ مِنَ الأولياءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ شُعَيْبِ بْنِ حَرْبٍ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَقَالَ[(٥)]: أَكُونُ مَعَكَ، قَالَ: يَا أَخِي، إِنَّ العِبَادَةَ ....

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٥.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٠٧، وتاريخ دمشق ٦٦/٦٢، ونشر المحاسن الغالية ص٢٣٧.

(٣) وذلك لأن العمل بالسنة يظهر ينابيع الحكمة، كما في مصنف ابن أبي شيبة ٧/٨٠: «بلغني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ما أخلص عبد أربعين صباحًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه».

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٢٥.

(٥) ورد في: العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا ص٧٩، وتهذيب الأسرار ص٣٠٨ عن ابن الصياد، والمجالسة وجواهر العلم ص٣٠٥ عن البراثي.

لَا تَكُونُ بِالشِّرْكَةِ[(١)]، وَمَنْ لَمْ يَسْتَأْنِسْ بِاللهِ لَمْ يَسْتَأْنِسْ بِشَيْءٍ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا أرادَ أنْ ينقلَهُ إلىٰ مقامِ القُوَّةِ، وأنْ يشتغلَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وحدَهُ كيفَ ما كانَ، ولَا يفتقرَ في عبادتِهِ إلىٰ رؤيةِ غيرِهِ ومساعدتِهِ.

فقولُهُ: «**إنَّ العبادةَ لا تكونُ بالشّركَةِ**» صحيحٌ، فإنَّ العبادةَ إنَّمَا تكونُ بالإخلاصِ للهِ وحدَهُ، وإنَّمَا أرادَ تركَ المُعاونةِ والمُساعدةِ، والعبادةُ تكونُ في حقِّ بعضِ النَّاسِ بالمساعدةِ والمعاونةِ، وإنَّمَا هذَا المتكلِّمُ كانَ حالُهُ القوَّةَ، فلَمْ يُوافقْهُ مَا قالَ [١/١٧٦ب] هذَا السَّائلُ لهُ منَ الخلطةِ، فأجابَهُ مِنْ أنَّ العبادةَ لا تكونُ بالشّركةِ، فأبعدَهُ بذلكَ ودلَّهُ أنْ يكونَ طالبًا لطريقِ القوَّةِ.

ولقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَهُمْ قيلَ لَهُ[(٢)]: «**مَا أعجبَ ما لقِيتَ فِي سِياحتِكَ؟ فقالَ: لقِيَنِي الخضرُ فطلبَ منِّي الصُّحبةَ، فخشيتُ أنْ يُفْسِدَ عليَّ توكُّلِي**»؛ وذلكَ أنَّ الخضرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من كبارِ الأولياءِ أو منَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علىٰ الخِلافِ فيهِ[(٣)]، ومَنْ صحبَ مَنْ هذِهِ صفتُهُ سكنَ قلبُهُ إليهِ، وتحقَّقَ أنَّهُ لَا يُعجزُهُ شيءٌ ممَّا هوَ محتاجٌ إليهِ، وهذَا هوَ الاعتمادُ علىٰ غيرِ اللهِ، فهوَ يتعلَّمُ طريقَ القوَّةِ وتحصيلَ مقامِ التَّوكُّلِ العالِي، فخشِيَ أنْ يفسدَ عليهِ حالَهُ بسكونِهِ إلىٰ مَنْ جلَّتْ رتبتُهُ وعلَتْ عندَ ربِّهِ منزلتُهُ، فقدْ تكونُ كراهةُ الخلطةِ إمَّا لخوفِ ضررٍ علىٰ الشَّخصِ أو علىٰ غيرِهِ كما تقدَّمَ[(٤)].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ[(٦)]: هَهُنَا أَحَدٌ تَسْتَأْنِسُ بِهِ؟ فَقَالَ:**

---

(١) إنما تكون بالإخلاص لله وحده لا شريك له.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٥.

(٣) تحر تفصيل ذلك في: الزهر النضر في أخبار الخضر لابن حجر ص٢٥، وما بعدها، والحذر في أمر الخضر للقاري ص١٠٣.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٨.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٢٥.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٠٨.

نَعَمْ، وَمَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ مُصْحَفِهِ وَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ وَقَالَ: هَذَا.

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[1]:

وَكُتْبُكَ حَوْلِي مَا تُفَارِقُ مَضْجَعِي ✿ وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ مَنْ فَهِمَ كتابَ اللهِ - تعالىٰ - وتفكَّرَ فِي وعْدِهِ ووعيدِهِ وما أعقبَ بهِ الآيَ مِنْ ذكْرِ أسمائِهِ وصفاتِهِ عظُمَتْ فِي قلبِهِ معرفتُهُ، وغلبَ عليهِ جلالُهُ وعظمتُهُ، وقوِيَ في قلبِهِ ذكْرُ وعْدِهِ ووعيدِهِ، وعظُمَ ذِكْرُ ثَوابِهِ وتَهْدِيدِهِ، كانَ لهُ في تلاوةِ كتابِهِ أحسنُ جليسٍ وأعظمُ أنيسٍ.

ولقَدْ أخبرَنِي مَنْ أعلمُ صِدْقَهُ منَ الأولياءِ قالَ لِي: «رأيتُ كأنِّي أمشِي في وادٍ حُفَّ بالأشجارِ من كلِّ جهةٍ حتَّىٰ وصلْتُ إلىٰ ماءٍ وخضتُهُ، فلمَّا وصلْتُ إلىٰ الجهةِ الأُخْرَىٰ فإذا أنَا بمسجدٍ ففتحتُهُ، فإذا فيهِ الخضرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانَ يعرفُهُ قبلَ ذلكَ وإذا معَهُ رجلٌ آخرُ، قالَ الرَّائِي: فركعْتُ بقُرْبِ الخضرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسلَّمْتُ عليهِ وقلْتُ: يا سيِّدِي، مَنْ هذا معَكَ؟ فقالَ لِي: هذا القرآنُ».

ففِي هذِهِ الرُّؤْيَا تنبيهٌ للرَّائِي علَىٰ مُلازمةِ القُرآنِ، فإنَّهُ أعظمُ جليسٍ وأعظمُ صاحبٍ، وكمالُ المنفعةِ من غيرِ مضرَّةٍ، ولذلكَ قالَ صاحبُ الشِّعْرِ:

... ... ✿ «وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمُ».

❂ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ رَجُلٌ لِذِي النُّونِ المِصْرِيِّ[3]: مَتَىٰ تَصِحُّ

---

(١) من الطويل، وورد بلا نسبة في: لطائف الإشارات ٢/٢٠٢، وشرح منازل السائرين للخمي ص١٦١، وسراج العابدين ١/٢٢١، وتفسير الملا علي القاري ٣/١٦٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٦.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٣٦٨، وتهذيب الأسرار ص٣١٠، وصفة الصفوة ٤/٣١٦، ومحاضرات الأدباء ٢/٢٩.

لِي العُزْلَةُ؟ فقَالَ: إِذَا قَوِيتَ علَىٰ عُزْلَةِ النَّفْسِ [١/١٧٧أ]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وعُزْلَةُ النَّفسِ إنَّمَا هوَ بمفارقةِ أخلاقِهَا الذَّميمةِ، واتِّصَافِهَا بالأخلاقِ الحميدةِ، فتُفارقُ كسلَهَا وجزعَهَا ونفورَهَا عنِ الطَّاعاتِ وقلَّةَ صبْرِهَا علىٰ المشقَّاتِ وكثرةَ خوفِهَا منَ الأداءِ، وما يتوالَىٰ عليهَا مِنْ كثيرٍ منَ الورَىٰ، وغيرَ ذلكَ من مقتضيَاتِ الهوَىٰ، والميلِ إلىٰ أسبابِ الدُّنيَا.

فإذا فارقَ العبدُ هذهِ الملذوذاتِ، وتحمَّلَ لمولاهُ أنواعَ المَشَقَّاتِ في القيامِ بالمَطلُوباتِ[١]، فقدْ بعُدَتْ عنهُ الآفات، وخفَّتْ عليهِ العُزْلةُ ومُفَارقةُ المُشتهيَاتِ[٢].

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقِيلَ لِابْنِ المُبَارَكِ** رَحِمَهُ اللهُ[٤]: **مَا دَوَاءُ القَلْبِ؟ فَقَالَ: قِلَّةُ المُلَاقَاةِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا قدْ نبَّهْنَا عليهِ في غيرِ موضعٍ، وأنَّ الأخوَينِ في اللهِ إذا تلاقَيَا بَعُدَتْ سلامتُهُمَا معَ كَمَالِ جِدِّهِمَا في الخيرِ وشدَّةِ حذَرِهِمَا منَ الشَّرِّ، فكيفَ بمَنْ سواهُمَا؟!.

وقدْ قيلَ لبعضِ الصَّالحينَ[٥]: «إنَّ فلانًا يحبُّكَ ويُكثرُ ذكْرَكَ، قالَ: إنَّهُ لحبيبٌ لِي وأُجلُّهُ وأعرفُ قَدْرَهُ، ولكنْ يهونُ عليَّ أنْ ألقَىٰ الشَّيطانَ مائةَ مرَّةٍ ولَا ألقاهُ مرَّةً واحدةً، قيلَ لهُ: كيفَ ذلكَ؟ فقالَ: أخشَىٰ أنْ أتزيَّنَ لهُ ويتزيَّنَ لِي».

وهذا صحيحٌ، فإنَّ الشَّيطانَ عُرِفَتْ عداوتُهُ فيشتدُّ الحذرُ منهُ، والأخُ الصَّالحُ

---

(١) أي: الطاعات.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٢٦.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣١٠، وذم الهوىٰ ص٦٩.

(٥) ورد قوله في: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ص٦٧.

النَّفسُ مطمئنَّةٌ ساكنةٌ إلى أنَّهُ لا يقولُ إلَّا خيرًا[١]، ولا يجرِي بينَهُمَا إلَّا مَا يُرْضِي اللهَ، فلغلبةِ هذَا الظَّنِّ علَى قلبِهِمَا لا يتحسَّسَانِ لمَا يجرِي، فلا يدركانِ ذلكَ إلَّا بعدَ الوقوعِ، فيكونُ ذلكَ توْبةً بعدَ الوقُوعِ في الزَّللِ إذا ندِمَا ممَّا أصابَهُمَا من الخلَلِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: إِذَا أَرَادَ اللهُ - تعالى - أَنْ يَنْقِلَ العَبْدَ مِنْ ذُلِّ المَعْصِيَةِ إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ آنَسَهُ بِالوَحْدَةِ[٤]، وَأَغْنَاهُ بِالقَنَاعَةِ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ، فَمَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ الخلوةَ تُسْلِمُهُ منْ آفاتِ الخلطةِ، والقناعةَ تُرِيحُهُ من أسبابِ الكثرةِ، ورؤيتَهُ لعيوبِ نفسِهِ تعينُهُ على الانتقالِ عنِ الأخلاقِ المذموماتِ، وتحملُهُ على الاشتغالِ بأضدادِهَا منْ أفضلِ الطَّاعاتِ والأخلاقِ المحموداتِ[٥].

هذِهِ هيَ علامةُ التَّوفيقِ، وإرادةُ اللهِ - تعالى - بهِ أصلحُ الحالاتِ، والنَّيلُ لأشرَفِ المَقَامَاتِ، وهوَ المتفضِّلُ بجميعِ الخيراتِ، أسبابًا كانَتْ أوْ مُسبَّبَاتٍ [١/١٧٧ب].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٦.

(٣) ورد في: قناطر الخيرات ٢/٣٨٠، وإتحاف السادة المتقين ٧/٤١٤.

(٤) ولهذا قال الشاعر:

«طِبْ عَنِ الأُمَّةِ نَفْسًا ❊ وارض بالوَحْدَةِ أُنْسًا»

كما في: العزلة والانفراد ص ٧٥، والزهد الكبير ص ١٣٠، ومحاضرات الأدباء ٢/٣٠.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٨٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«بَابُ التَّقْوىٰ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الأَعْلَىٰ النَّرْسِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ القُمِّيُّ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ[(٢)]: جَاءَ رَجُلٌ إِلىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَوْصِنِي، فَقَالَ: عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَإِنَّهُ جِمَاعُ[(٣)] كُلِّ خَيْرٍ، وَعَلَيْكَ بِالجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ المُسْلِمِ[(٤)]، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ.

وَأَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبَّاسُ بْنُ الفَضْلِ الأَسْفَاطِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو هُرْمُزَ نَافِعُ بْنُ هُرْمُزَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ[(٥)]: قِيلَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ آلُ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: كُلُّ تَقِيٍّ[(٦)]».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٧. وانظر: مختصر في التوبة للقشيري ص٢٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٨٣، والطبراني في المعجم الصغير ٢/١٥٦، والدعاء ص٥٢١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/٣٩١.

(٣) في (ب): جامع، والأصح المثبت.

(٤) أي: شعاره وانقطاعه للعبادة.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣/٣٣٨، والمعجم الصغير ١/١٩٩، والديلمي في الفردوس ١/٤١٨، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص٤٠.

(٦) أي: من أتباعه أو عترته. قال الأزهري: «وقوله: (وعلىٰ آل محمد): قال بعضهم: (آل محمد) عترته=

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا خلافَ بينَ الأمَّةِ في فضيلةِ التَّقوىٰ وارتباطِ كلِّ خيرٍ بهَا، وهيَ منقسمةٌ إلىٰ الواجبِ والمندوبِ، وأعلىٰ المندوباتِ، ولأهلِهَا أعدَّ اللهُ الجنَّةَ، والأمنَ يومَ الفزَعِ، وغيرَ ذلكَ ممَّا الكتابُ والسُّنَّةُ طافحانِ بهِ.

فإنَّ حقيقةَ التَّقوىٰ: هيَ الحذرُ بالمجانبةِ، فتارةً يحذرُ العبدُ تضييعَ الواجباتِ فيتَّقِيهَا ويجانِبُهَا، وتارةً يحذرُ ارتكابَ المحرَّماتِ فيتَّقِي ذلكَ ويجانبُهُ، وتارةً يحذرُ فواتَ الخيراتِ المترتِّبَةِ علىٰ فِعْلِ المندوباتِ فيجانبُ ذلكَ ويكونُ مُتَّقِيًا، وتارةً يتَّقِي مُلابسَةَ المكروهاتِ خوفًا من نُزُولِ الدَّرجاتِ والوقوعِ في المتشابهاتِ فيتَّقِي ذلكَ ويجانبُهُ، وتارةً يحذرُ فواتَ أعالِي الدَّرجاتِ وشريفِ المقاماتِ، فيتَّقِي الشُّغلَ بأدْوَنِهَا[١]؛ خوفًا منْ فواتِ أعلاهَا وأقربِهَا إلىٰ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، وهيَ في القلبِ أيضًا كمَا هيَ في الجوارحِ بأوضحِ الدَّلالاتِ، فإنَّ أوَّلَ عاملٍ منَ الإنسانِ قلبُهُ، وأوَّلَ مَبْدُوءٍ بهِ في الحذَرِ من ضَررِهِ اتِّقَاءُ خواطِرِهِ والحذرُ منَ الدَّاعِي منهَا إلىٰ المذموماتِ؛ من عقدِ القلبِ علىٰ الكفرِ أوِ البِدَعِ أوِ المَعَاصِي علىٰ اختلافِ مَرَاتِبِهَا في الإثمِ وحُلُولِ البليَّاتِ.

وقَدْ قالَ المُحَاسِبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «التَّقْوىٰ أوَّلُ درجةٍ من درجاتِ الصَّالحينَ، وبهَا يدركُونَ أعلاهَا، وبهَا تزكُو أعمالُهُمْ»، وقسَّمَهَا إلىٰ الواجبِ والمَنْدُوبِ، وذكَرَ الواجبَ منْهَا في القُلُوبِ والأبدانِ منَ العُزُومِ والأفعالِ وإرادةِ الدَّيَّانِ في العزْمِ، وكذلكَ المحرَّمَ منهَا منْ أفعالِ الجوارحِ [١/١٧٨أ] وعزومِ القلوبِ، وكذلكَ ذكرَ المندوباتِ منَ الاشتغالِ بالصَّومِ والصَّلاةِ والذِّكْرِ والدَّعواتِ.

= الذين ينتسبون إليه؛ وهم أولاد فاطمة.... وقال غيره: آل الرسول: أهل دينه الذين يتبعون سنته» الزاهر ص٩٣. وانظر: تحرير ألفاظ التنبيه ص٣٠.

(١) الرعاية لحقوق الله ص٤١.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٨٠. وانظر: الإبانة لابن فورك ص١٧٣.

وعلى الجُملةِ: فالتَّقوَىٰ اسمٌ جامعٌ للحَذَرِ من سائِرِ ما أمرَ اللهُ أنْ يُحذَرَ منه ويجانَبَ فِي القلبِ والجوارحِ، وإنْ تفاوتَتْ رتبتُهُ ودرجاتُهُ في الوجوبِ والنَّدبِ والحظرِ والكراهةِ، وهذا البابُ مستغنٍ في إثباتِهِ عنِ الاستدلالِ لوضُوحِهِ وتكريرِهِ في الكتابِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: **«التَّقْوَىٰ: جِماعُ[٢] الخيْرَاتِ[٣].**

وَحَقِيقَةُ الاتِّقَاءِ: التَّحرُّزُ بِطَاعَةِ اللهِ ـ سبحانه ـ عَنْ عُقُوبَتِهِ، يُقَالُ: (اِتَّقَىٰ فُلَانٌ بِتُرْسِهِ)[٤].

وَأَصْلُ التَّقْوَىٰ: اتِّقَاءُ الشِّرْكِ[٥]، ثُمَّ بَعْدَهُ اِتِّقَاءُ المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَعْدَهُ اتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ، ثُمَّ يَدَعُ بَعْدَهُ الفَضَلَاتِ، كَذَلِكَ سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ، وَلِكُلِّ قِسْمٍ مِنْ ذَلِكَ بَابٌ.**

وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] **أَنَّ مَعْنَاهُ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَىٰ[٦]، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَىٰ[٧]، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ[٨]».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ الإمامُ من أقسامِ التَّقوَىٰ هوَ ما أشرْنَا إليهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) في (ب): جامع، والأصح المثبت.

(٣) أي: فمن اتصف بها فقد حاز جميع الخيرات.

(٤) أي: تحرَّز به عما يضرُّه من عدوه.

(٥) قال الرازي: «لأن التقوىٰ صارت في عرف القرآن مختصة بالإيمان» مفاتيح الغيب ٧/١٧٣.

(٦) أي: لتدوم ثمرة التقوىٰ.

(٧) أي: لتدوم ثمرة المراقبة.

(٨) نسب لابن عباس، وورد في: مصنف ابن أبي شيبة ٧/١٠٦، والزهد لابن المبارك ص٨، وتفسير الثعلبي ٣/١٦١، وحلية الأولياء ٧/٢٣٨، ومفاتيح الغيب ٨/١٤١، والغنية للجيلاني ص٢٧٣، وتنوير المقباس ص٥٣.

منِ: اتِّقَاءِ الإخلالِ بالإيمانِ، أوْ ملابسةِ الكفرِ والإخلالِ بالواجباتِ، أو ارتكابِ محرَّماتٍ، وكذلكَ القولُ[١] في المندوباتِ والمكروهاتِ، وإنْ تعالَتْ في الدَّرجاتِ، فهذَا التَّقسيمُ فيمَا يُتَّقَىٰ، ولذلكَ قالَ: التَّقوَىٰ التَّحرُّزُ بطاعةِ اللهِ.

وما ذكرَهُ في تفسيرِ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، فيهِ إشارةٌ إلىٰ أعالِي درجاتِ التَّقوَىٰ، وأنَّهُ لا قدرةَ لأحدٍ علىٰ أنْ يتَّقِيَ اللهَ حقَّ تُقاتِهِ إلَّا بعونِهِ وبتيسيرِهِ، فإنَّ حقَّ التَّقوَىٰ أنْ يتَّقِيَ الغَفَلاتِ عنْ ذكْرِهِ، وإهمالِهِ الشُّكرَ بشيءٍ من نعمِهِ، ولهذَا لمَّا سمِعَهُ الصَّحابةُ خافُوا من شدَّةِ هذا التَّكليفِ والعجزِ عنِ القيامِ بهِ، فأنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ تخفيفًا عنهُمْ ـ قولَهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦][٢].

وقولُهُ: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ يعنِي: فِي المندوباتِ الَّتِي لم يُوجِبْهَا، وندبَ الخلْقَ إليهَا، كمَا قالَ في آيةٍ أُخرَىٰ في قيامِ اللَّيلِ وقراءةِ القرآنِ، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل: ٢٠].. الآية، فكانَ قيامُ اللَّيلِ واجبًا في أوَّلِ الإسلامِ، ثمَّ صارَ نافلةً بعدَ ذلكَ بهذا التَّحقيقِ[٣].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤] [١/١٧٨ب]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٥]: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عِصَامٍ يَقُولُ:

---

(١) في (ب): التقوىٰ، والصواب المثبت.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٤/٢٩، وأحكام القرآن للجصاص ٢/٣١٣، والمحرر الوجيز ١/٣٩٣.

(٣) انظر: نواسخ القرآن ص٢٤٦، والناسخ والمنسوخ للنحاس ص٧٥٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٢٧.

(٥) طبقات الصوفية ص١٧٠. وورد أيضا في: حلية الأولياء ١٠/١٩٨، والزهد الكبير ص٣٣٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/٣٣١.

سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: لَا مُعِينَ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا دَلِيلَ إِلَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا زَادَ إِلَّا التَّقْوَىٰ، وَلَا عَمَلَ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَيْهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الاستشهادِ: «**وَلَا زَادَ إِلَّا التَّقْوَىٰ**»، فأطلقَ التَّقْوىٰ علىٰ الأعمالِ الصَّالحةِ وإنْ تعالَتْ في الدَّرجاتِ، والبعدِ منَ المَناهِي وإنْ بعدَتْ فِي الشَّبهِ بالمُحرَّماتِ وقلَّتْ فيهَا الكراهات.

وأمَّا قولُهُ: «**وَلَا عَمَلَ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَيْهِ**» الضَّميرُ في «**عليهِ**» يعودُ علىٰ (التَّقوىٰ)؛ لأنَّ العبدَ لَا يقومُ بالواجباتِ ولا تعاطِي المندوباتِ إلَّا بالصَّبرِ علىٰ الفعلِ والإعراضِ عنِ المُشغلاتِ، وكذلكَ لا ينكفُّ عنِ الشَّهواتِ المُحرَّماتِ والمكروهاتِ إلَّا بالصَّبرِ علىٰ الإعراضِ عنِ المشتهيَاتِ؛ ولذلكَ قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا الصَّبْرَ»، وهوَ أفضلُ مَا يُعَاشُ بهِ في الدُّنيَا والآخرةِ.

فالأعمالُ الصَّالحاتُ والقيامُ بهَا فِي الدُّنيَا والجزاءُ عليهَا فِي الآخرةِ، وكذلكَ مَا ينزلُ بالعبدِ ويحلُّ بهِ فِي الدُّنيَا، فإنَّهُ لا يخلُو من أحدِ قسمَينِ: إمَّا أنْ يكونَ موافِقًا لهُ أو مخالفًا، ولا بدَّ لهُ منَ الصَّبرِ علىٰ جميعِ ذلكَ، فمنفعةُ الصَّبرِ عامَّةٌ فيمَا يكتسبُهُ العبدُ أو يَنْزلُ بهِ منَ القَضاءِ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكَتَّانِيَّ يَقُولُ[٣]: قُسِمَتِ الدُّنْيَا عَلَى البَلْوَىٰ، وَقُسِمَتِ الآخِرَةُ[٤] عَلَىٰ التَّقْوَىٰ».**

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ١/ ٥٠، وتاريخ أصبهان ٢/ ١٦٥، وفتح الباري ١١/ ٣٠٣، ونسب لسيدنا سليمان بن داود في: المنهج المسلوك في سياسة الملوك ص٣١٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/ ٢٢٨.

(٣) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣٣٦، وتاريخ دمشق ٥٤/ ٢٥٩، والغنية للجيلاني ص٢٧٣.

(٤) في (ف): الجنة.

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فمعنى «قُسِمَتِ الدُّنْيَا علَى البَلْوَى» يعنِي الاختبارَ، فإنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يَبْتَلِي بالمَرضِ والعافيةِ والفقرِ والغنَى وغيرِ ذلكَ ممَّا يوافقُ العبدَ أو يُخَالِفُهُ، كمَا قَالَ ـ تعالى ـ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فإنْ صَبَرَ العبدُ علَى المُشِقِّ المُؤْلِمِ أثابَهُ، وإنْ شَكَرَ عَلَى النِّعَمِ أَثَابَهُ.

«وَقُسِمَتِ الآخِرَةُ عَلَى التَّقْوَى» يعنِي: علَى الأعمالِ الصَّالحةِ؛ وهوَ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦، وغيرها]، وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُم تُرَدُّ عَلَيْكُم»، فدرجاتُ الدُّنيَا وتفاوتُهَا للابتلاءِ والامتحانِ، ودرجاتُ الآخرةِ علَى حسبِ تصحيحِ الأعمالِ وإخلاصِهَا والإتقانِ [١٧٩/١أ].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ[(٣)]: مَنْ لَمْ يُحْكِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ التَّقْوَى وَالمُرَاقَبَةَ لَمْ يَصِلْ إِلَى الكَشْفِ وَالمُشَاهَدَةِ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وإحكامُ التَّقْوَى: إيقاعُ المأموراتِ علَى أكملِ وجوهِهَا بشروطِهَا، والانكفافُ عنِ المَنْهِيَّاتِ بسهولةٍ من غيرِ حملٍ علَى النَّفسِ بسياطِ الخوفِ.

وكذلكَ المُرَاقبةُ تكونُ مُراقبةَ الأفعالِ، فترجعُ إلى ما ذكرْنَاهُ منَ الأحكامِ،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩٩٤ – حديث رقم بلفظ (٢٥٧٧).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٨.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/١٣٩، والزهد الكبير ص٣٣٦، ومدارج السالكين ٢/٦٥، ونسب لأحمد بن هانئ في: حلية الأولياء ١٠/٤٠٥.

وقدْ تكونُ مُراقبةُ اللهِ - تعالىٰ - باستشعارِ نظرِهِ، كمَا أشارَ إليهِ الخبرُ الصَّحيحُ في (مسلمٍ)[١] في الجوابِ عنِ الإحسانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وإحكامُ هذهِ القضيَّةِ بتنزيهِ الحقِّ - سبحانه - المرئيِّ أوِ الرَّائِي للعبدِ عنِ الجهاتِ والتَّحيُّزاتِ والأشخاصِ، وغيرِ ذلكَ منَ المُحدثاتِ، فهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**مَنْ لَمْ يُحْكِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ التَّقْوَىٰ وَالمُرَاقَبَةَ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ الكَشْفِ وَالمُشَاهَدَةِ**»، وذلكَ أنَّ مَنْ لمْ يُحْكِمِ الأصلَ الَّذِي وعدَ اللهُ - تعالىٰ - عليهِ بالفضْلِ لمْ يحصلْ لهُ الموعودُ بهِ، سنَّةٌ منَ اللهِ - تعالىٰ - جاريةٌ.

والمُكاشفةُ والمُشاهدةُ: غلبةُ حالِ الحقِّ علىٰ القلبِ حتَّىٰ لا يلتفتَ إلىٰ غيرِهِ ولا يرَىٰ بقلبِهِ سِوَاهُ، وتكونَ حَرَكاتُهُ مَحْفُوظةً لمَا تقدَّمَ منْ إحكامِ مُراقَبَتِهِ وتَقْوَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ النَّصْرَابَاذِيُّ[٣]: التَّقْوَىٰ أَنْ يَتَّقِيَ العَبْدُ مَا سِوَاهُ تَعَالَىٰ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أعلَىٰ درجاتِ التَّقوَىٰ أنْ يتَّقِيَ العبدُ مَا يشغلُهُ عن مَوْلَاهُ منْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ؛ ليتحقَّقَ فِي ذكْرِهِ ومناجاتِهِ، ويصيرَ ذلكَ الغالبَ عليهِ في سائِرِ حَالاتِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**قَالَ سَهْلٌ[٥]: مَنْ أَرَادَ أَنْ تَصِحَّ لَهُ التَّقْوَىٰ فَلْيَتْرُكِ**

---

(١) ٣٧/١ ـ حديث رقم (٨)، وقد مرَّ.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٢٨/١.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ١٤٠/٢، وسراج الطالبين ٢٩٨/١. وفي ذلك دليل علىٰ علو همته حيث أنبأ عن أشرف المنازل. انظر: نتائج الأفكار ٢٣٦/٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٢٨/١.

(٥) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢١١، وسراج الطالبين ٢٩٨/١.

الذُّنُوبَ كُلَّهَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ليسَ معنَاهُ: أنَّهُ لا يكونُ العبدُ متَّقِيًا حتَّىٰ يكونَ مَعْصُومًا، وإنَّمَا مرادُهُ: أنَّ العبدَ يجتهدُ في أنْ لَا يقعَ فِي معصيةٍ علىٰ الجُملةِ، وأنْ يكونَ حذِرًا من ذلكَ، فمَا تفضَّلَ بهِ عليهِ مَولَاهُ شَكَرَهُ، ومَا وقعَ فيهِ تابَ منهُ، ويكونَ مُتَّقيًا لمَا أعانَهُ علىٰ الحفظِ منهُ، وكذلكَ مَا تابَ منهُ، فإنَّهُ داخلٌ تحتَ اسمِ التَّقوَىٰ، وإنَّمَا[1] مرادُهُ أنَّ العبدَ لا تكملُ تقوَاهُ حتَّىٰ يحذرَ جميعَ ما نَهَاهُ عنهُ، أوِ الإخلالَ بمَا أَوجَبَهُ [١/١٧٩ب] عليهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ النَّصرَابَاذِيُّ[3]: مَنْ لَزِمَ التَّقْوَىٰ اشْتَاقَ إِلَىٰ مُفَارَقَةِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يَقُولُ:** ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ إنَّمَا يحملُهُ علىٰ الطَّاعاتِ أحدُ أمرَينِ: إمَّا رجاءُ الخلودِ فِي الجِنَانِ، أو رِضَا المَلكِ الدَّيَّانِ، فإذَا رتَّبَ[4] أوقاتَهُ وأعمرَهَا بالطَّاعاتِ في قلبِهِ وجَوارِحِهِ، وصارَ ذلكَ عندَهُ من آكدِ المُهمَّاتِ، حتَّىٰ رَزقَهُ اللهُ فيهِ اللَّذَّةَ وتَنعَّمَ بالمُنَاجاةِ، ثَقُلَ علىٰ قلبِهِ ما يقطعُهُ عن هذِهِ الخيراتِ، من سائرِ الشَّهواتِ العَاجلاتِ.

فبهذَا الاعتبارِ كانَ شُغْلُهُ بالآخرةِ يُزهِّدُهُ في الدُّنيَا بواضحِ الدَّلالاتِ، ولا سيَّمَا إذَا نطقَتْ بذلكَ الآياتُ؛ كقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾،

(١) في (ب): وأما.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٨.
(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/١٩٦، والغنية للجيلاني ص٢٧٣، والمبين المعين لفهم الأربعين للقاري ص٤١١.
(٤) في (ب): راتب.

وغيرِ ذلكَ مِنْ واضحِ الدَّلالاتِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ[٢]: مَنْ تَحقَّقَ فِي التَّقْوىٰ هَوَّنَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ الإِعْرَاضَ عَنِ الدُّنْيَا».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا وما قبلَهُ الكلامُ عليهِمَا واحدٌ؛ وهوَ أنَّ النَّفسَ مائلةٌ لكلِّ لذيذٍ، فإذَا تقابلَ عندهَا لذيذَانِ مالَتْ إلىٰ ألذِّهِمَا، ولَا سيَّمَا مَنْ عرَفَ كمالَ الآخرةِ وجمالَهَا وبقاءَهَا، وعرَفَ قلَّةَ الدُّنيَا وهوانَهَا وفنَاءَهَا، فميلُهُ إلىٰ الآخرةِ ممَّا لا يخفَىٰ، هذَا لوْ لمْ ينعمْهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إذَا اشتغلَ بطاعتِهِ وقُرْبِهِ ومناجاتِهِ، فتكونُ هذِهِ اللَّذَّةُ تشغلُهُ عن لذَّةِ الدَّارَينِ، ويحلُّ بسببِهَا فِي الخيرَينِ؛ خيرِ الآخرةِ ونعيمِ الرُّؤيَةِ، وخيرِ راحةِ قلبِهِ منَ الدُّنيَا ومناجاتِهِ ربَّهُ هاهُنَا.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣]: «وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرُّوذْبَارِيُّ[٤]: التَّقْوىٰ: مُجَانَبَةُ مَا يُبْعِدُكَ عَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والَّذِي يُبْعِدُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ إمَّا: إهمالُ الواجباتِ، أوِ ارتكابُ المحرَّماتِ؛ فالتَّقْوَىٰ مجانبةُ هذَينِ الشَّيئَينِ، فمَنْ حذرَ البعدَ أوِ العقابَ جانبَ تضييعَ الواجباتِ، وكذلكَ تجانَبَ ما نُهِيَ عنهُ؛ خوفًا من سوءِ الحِسَابِ، والحُلُولِ في العقابِ، والعياذُ بربِّ الأربابِ، وإنْ علَتْ همَّتُهُ جانبَ تضييعَ المَنْدُوباتِ وارتكابَ المَكْروهَاتِ؛ خوفًا منَ العتابِ أو فواتِ درجةِ الأحبابِ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ، بمنِّهِ وكَرمِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٨.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٣٣، والغنية للجيلاني ص٢٧٣، والمبين المعين لفهم الأربعين للقاري ص٤١١.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٢٨.

(٤) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٧٣، ونشر المحاسن الغالية ص٢١١، ونسب لمحمد بن خفيف في: طبقات الصوفية ص٣٤٧.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَقَالَ ذُو النُّونِ(٢): التَّقِيُّ مَنْ لَا يُدَنِّسُ ظَاهِرَهُ بِالمُعَارَضَاتِ، وَلَا بَاطِنَهُ بِالعُلَالَاتِ، وَيَكُونُ وَاقِفًا مَعَ اللهِ ـ سبحانه ـ مَوْقِفَ الاتِّفَاقِ** [١٨٠/١أ]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا رفيعٌ في درجاتِ التَّقوىٰ، وذلكَ أنَّ «**مَنْ لا يدنِّسُ ظاهرَهُ بالمُعارضَاتِ**»، أيْ: لَا يكونُ عليهِ في حركاتِ ظاهرِهِ اعتراضٌ من جهةِ الشَّرعِ بشيءٍ منَ المخالفاتِ؛ سواءٌ كانَتْ محرَّماتٍ أو مكروهاتٍ، «**ولا يدنِّسُ باطنَهُ بشيءٍ منَ العُلالاتِ(٣)**»، أيْ: يُعرضُ بباطنِهِ عن سائرِ المحبوباتِ، وإنْ كانَتْ منَ المباحاتِ، ويقوِّي عزمَهُ ويحسِّنُ نيَّتَهُ في التَّجرُّدِ لنيلِ المقاماتِ العالياتِ، ولا يقفُ معهَا وقوفَ عُجْبٍ، ولَا يسكنُ إليهَا سُكونَ استحسانٍ واعتمادٍ، بَلْ يكونُ معَ كَمَالِهِ مُتَبَرِّئًا منْ أعمالِهِ، رائيًا لهَا فضْلًا منْ ربِّهِ، جَاريًا عليهِ مُتحسِّسًا لتوالِي نِعَمِهِ عليهِ، راضيًا بما يُجْرِيهِ عليهِ، ما لمْ يكنْ من مَنَاهِيهِ أوْ ما ذُمَّ عليهِ، وهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**فيكونُ واقفًا معَ اللهِ مَوقِفَ الاتِّفاقِ**»، معناهُ: يكونُ راضيًا بمَا يُجريهِ عليهِ ويرضَاهُ، فيتَّفِقُ رِضَاهُ بمَا رَضِيَهُ مَولَاهُ، فَيَصْدُقُ عليهِ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾(٤) [المائدة: ١١٩].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ(٦): لِلتَّقْوَىٰ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ؛**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٢٩/١.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٤٣١/١، والكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٥٩، والغنية للجيلاني ص٢٧٣، ونشر المحاسن الغالية ص٢١١.

(٣) أي: ما يتعلَّلُ به.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٨٣/١ ـ ٣٨٤.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٢٩/١.

(٦) ورد قوله في: تفسير السلمي ١٤١/٢، والغنية للجيلاني ص٢٧٣، وسراج الطالبين ٢٩٨/١.

فَظَاهِرُهُ: مُحَافَظَةُ الحُدُودِ، وَبَاطِنُهُ: النِّيَّةُ وَالإِخْلَاصُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا قَدْ تكرَّرَ مِرارًا أنَّ التَّقوىٰ تكونُ بظاهرِ البدَنِ وباطنِهِ ـ وهوَ القلبُ ـ؛ فالقلبُ أوَّلُ عاملٍ منَ العبدِ؛ لأنَّهُ محلُّ ورودِ الخواطرِ منَ الحقِّ ومنَ العدوِّ، فإذَا ثبتَ العبدُ وميَّزَ بينَ الدَّواعِي إلىٰ الأعمالِ، وعرَفَ داعِي الحقِّ مِنْ داعِي الشَّيطانِ، قصدَ إيقاعَ عملِهِ علىٰ وجْهِ القُرْبِ[١] للرَّحمنِ، وهوَ معنَىٰ الإخلاصِ، وصحَّتْ أعمالُ ظاهرِهِ لوجودِ شرْطِهَا بواضحِ البرهانِ، واللهُ المستعانُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ المصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]:

وَلَا عَيْشَ إِلَّا مَعَ رِجَالٍ قُلُوبُهُمُ ❊ تَحِنُّ إِلَىٰ التَّقْوَىٰ وَتَرْتَاحُ لِلذِّكْرِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ العيشَ الطَّيِّبَ إنَّمَا يكونُ معَ حياةِ القلبِ، وإنَّمَا يعيشُ القلبُ بزوالِ الغَفْلَةِ عنهُ، ودوامِ اليقظةِ لمَا خلقَ لهُ، فإذَا صلُحَ القلبُ استقامَتِ الجوارحُ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤]: «**إنَّ فِي البَدَنِ بِضْعَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ الجَسَدِ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»، فإذَا صلُحَ القلبُ والجسدُ ووجدَ [١/١٨٠ب] الإنسانُ مَنْ يقصدُ مقصدَهُ ويَرُومُ مَرَامَهُ تضافَرَتِ الهِمَمُ، وحصلَ التَّساعدُ علىٰ نَيْلِ المطلوبِ، والنَّاسُ في الاقتداءِ بالأفعالِ أسرَعُ منهُمْ للاقتداءِ بالأقوالِ، فهؤلاءِ القومُ إذَا وجدُوا حملُوا الضَّعيفَ بقوَّتِهِمْ، وعاشَتْ همَّتُهُ برؤيتِهِمْ ورؤيةِ مجاهدتِهِم[٥]،

---

(١) في (ج): التقرب، وكل صواب.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩.

(٣) من الطويل، وورد بلا نسبة في: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٥٩، والإرشاد والتطريز ص١٧٥، وسراج الطالبين ١/٢٩٨، والأنس في شرح عيوب النفس ص١١٩. ومعناه: لا معيشة هنية إلا مع رجال قلوبهم جُبِلتْ علىٰ الميل للتقوىٰ، وراحتها في دوام ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٨٤.

ولهذَا قالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولَا عيشَ إلَّا معَ رجالٍ» هذِهِ صفتُهُمْ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ[٢]: يُسْتَدَلُّ عَلَىٰ تَقْوَىٰ الرَّجُلِ بِثَلَاثٍ[٣]: بِحُسْنِ التَّوَكُّلِ فِيمَا لَمْ يَنَلْ، وَحُسْنِ الرِّضَا فِيمَا قَدْ نَالَ، وَحُسْنِ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا قَدْ فَاتَ[٤]**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا حالُ أرفَعِ المتَّقِينَ، فإنَّ أوَّلَ التَّقوىٰ اتِّقاءُ الزَّلَّاتِ بارتكابِ المحرَّمَاتِ والإخلالِ بالوجباتِ، ثمَّ اتِّقاءُ المكروهاتِ والشُّبُهاتِ واتِّقاءُ تضييعِ المندوباتِ، وإذَا ارتقَىٰ العبدُ عن هذِهِ الصِّفاتِ إلىٰ حفظِ الأحوالِ والمقاماتِ؛ فيحفظُ صبرَهُ عنِ الزَّللِ، وتوكُّلَهُ عنِ الخللِ، ورضاهُ عن تألُّمِهِ بما لمْ ينَلْ، فلذلكَ قالَ: «**حُسْنُ التَّوكُّلِ فيمَا لمْ يَنَلْ**» فلَا يمنعُهُ تأخيرُ الأرزاقِ مِن اعتمادِ قلبِهِ علىٰ اللهِ - تعالىٰ - وإعراضِهِ عنِ الأسبابِ، وكذلكَ لا يحملُهُ تألُّمُهُ بما نزلَ علىٰ كراهتِهِ رضًا باختيارِ ربِّ الأربابِ، وكذلكَ يحجزُهُ كمالُ صبرِهِ عن قلقِهِ وتأسُّفِهِ علَىٰ ما فاتَهُ من جميعِ الأحبابِ.

وخُلاصَةُ هذا القولِ: أنَّ كمالَ التَّقوَىٰ حفظُ حالِهِ معَ اللهِ - تعالىٰ -، في صَبْرِهِ ورضَاهُ وتوكُّلِهِ، فلا يخلُّ بأدبِهِ معَ مَولاهُ نَظرًا إلىٰ مَا سِوَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ[٦]: **التَّقْوَىٰ: عَمَلٌ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩.

(٢) نُسب لسيدنا سليمان بن داود في: إحياء علوم الدين ٤/٧٣، وإتحاف السادة المتقين ١١/٥٧، وورد بلا نسبة في: تفسير الثعلبي ١/١٤٤.

(٣) وهي لا تتم إلا إذا تجرد العبد عن جميع الحظوظ النفسانية. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٣٩.

(٤) مما يحبه، مما جُبل عليه من حظوظه.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩.

(٦) ورد قوله في: الزهد لهناد السري ص٢٩٦، ولابن المبارك ص٤٧٤، وحلية الأولياء ٣/٦٤، وتفسير الثعلبي ١/١٤٣، وتهذيب الكمال ١٣/٤٥٣، والدر المنثور ١/٦١.

بِطَاعَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، مَخَافَةَ عِقَابِ اللهِ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ هيَ التَّقْوىٰ الواجبةُ، فإنَّ خوفَ العِقَابِ إنَّما يكونُ علىٰ ارتكابِ المَنْهِيِّ عنهُ، أوْ تضييعِ متعلَّقِ الإيجابِ .

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٢)]: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا الفَرَّاءَ يَحْكِي عَنْ أَبِي حَفصٍ أَنَّهُ قَالَ: التَّقْوىٰ فِي الحَلَالِ المَحْضِ[(٣)] لَا غَيْرُ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مُرادُهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ: أنَّ مَنْ كانَ تقواهُ خوفًا منَ العقابِ، فالحاصلُ لهُ علَىٰ التَّقْوَىٰ ذلكَ، وكذلكَ[(٤)] ما ربطَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بفعلِهِ الثَّوابَ، فالدَّاعِي لهُ إلىٰ العملِ مَا هنالكَ، وأمَّا مَنْ أعرضَ عنِ المباحِ، وهوَ الَّذِي لَا إثمَ في فعلِهِ ولَا في ترْكِهِ، وكذلكَ لا ثوابَ، فأنْ [١/١٨١أ] يتَّقِيَهُ العبدُ خوفًا منْ أنْ يشتغلَ بالتَّلذُّذِ بهِ عن مناجاةِ ربِّ الأربابِ ودوامِ الذِّكْرِ لهُ ودوامِ الأُنسِ بهِ ومراقبتِهِ حتَّىٰ لَا يبقَىٰ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ .

فبهذَا الاعتبارِ جعلَ كمالَ التَّقْوَىٰ في الحلالِ المحضِ، يعنِي بهِ المباحَ، واللهُ أعلمُ، فكمالُ تقواهُ أنْ يتَّقِيَ مَا لا يضرُّهُ في دنياهُ ولا أُخراهُ، وإنَّمَا خشِيَ مِنْ شُغلِهِ بهِ أنْ يشتغلَ قلبُهُ عمَّنْ يحبُّهُ ليكملَ أدبُهُ معَهُ، فيغيبَ بهِ عمَّنْ سِوَاهُ[(٥)] .

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩ .

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣٤٠، والغنية للجيلاني ص٣٧٣ .

(٣) أي: المباح الخالص .

(٤) في (ب): ولذلك .

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٨٥ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الزِّنْجَانِيَّ يَقُولُ[(٢)]: مَنْ كَانَ رَأْسُ مَالِهِ التَّقْوَىٰ كَلَّتِ الأَلْسُنُ[(٣)] عَنْ وَصْفِ رِبْحِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دليلُهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وذلكَ ممَّا لا يُحْصَىٰ، أعنِي: مَا أعدَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي الدُّنيَا والآخرةِ للمتَّقِينَ، أعزَّ لهُمْ أنفسَهُمْ في دُنياهُمْ، وأغناهُمْ بهِ عنِ التَّذلُّلِ لأبناءِ دُنْياهُمْ، وقنَّعهُمْ منهَا باليسيرِ، فلمْ يلتفتُوا فيهَا لعظيمٍ خطيرٍ، فهذَا بعضُ ثَمَراتِ التَّقوىٰ فِي الدُّنيَا الَّتِي ليسَتْ دارَ الجزاءِ، فكيفَ بمَا أعدَّهُ[(٤)] لهُمْ فِي الآخرةِ!

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[(٦)]: (التَّقْوَىٰ أَنْ يَتَّقِيَ مِنْ تَقْوَاهُ[(٧)])، يَعْنِي: مِنْ رُؤْيَةِ تَقْوَاهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أرفعُ درجاتِ التَّقوَىٰ؛ وهوَ أنْ يكونَ العبدُ كاملًا في تَقْواهُ، مُعْرِضًا عن ذلكَ شُغلًا بمولَاهُ، يتَّقِي من سكونِهِ إلىٰ تقواهُ، حذرًا مِنْ سكونِهِ إلىٰ غيرِ مَنْ تولَّاهُ واختصَّهُ ووالَاهُ، فكمالُ التَّقْوَىٰ أنْ يتَّقِيَ العبدُ مِنْ أنْ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣١٣، والزهد الكبير ص٣٣٥.

(٣) في (أ): الألسنة، وكل صواب.

(٤) في (ب): أعد.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩.

(٦) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٨٠، وتقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول ص١٧٩.

(٧) لأن الكمال إنما هو في إيقاع الطاعة لمحض ذاته تعالىٰ محبة وإجلالا.

تشغلَهُ تقوَاهُ بالنَّظرِ إليهَا وركونِهِ إليهَا عنْ مَوْلَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَالمُتَّقِي مِثْلُ ابنِ سِيْرِينَ، اِشْتَرَىٰ أَرْبَعِينَ حُبًّا سَمْنًا، فَأَخْرَجَ غُلَامُهُ فَأْرَةً مِنْ حُبٍّ**[(٢)]**، فَسَأَلَهُ: مِنْ أيِّ حُبٍّ أَخْرَجْتَهَا؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَصَبَّهَا كُلَّهَا.**

وَمِثْلُ أَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ اِشْتَرَىٰ بِـ(هَمَذَانَ) حَبَّ القُرْطُمِ، فَفَضَلَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ (بِسْطَامٍ) رَأَىٰ فِيهِ نَمْلَتَينِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ (هَمَذَانَ) وَوَضَعَ النَّمْلَتَينِ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا الحكايةُ الأولَىٰ عنِ ابنِ سيرِينَ فوجْهُ الورعِ فيهَا ينقسمُ إلىٰ: ورعِ الواجبِ والمندوبِ، فإنَّ الحُبَّ الواحدَ إذا تحقَّقَتْ نجاستُهُ واختلطَ بعددٍ محصورٍ ولمْ يتعيَّنْ وجبَ الكفُّ عنِ الجميعِ [١/١٨١ب]، كمَا إذا اختلطَتْ منكوحةٌ بأجنبيَّةٍ، أو رضيعةٌ بعددٍ محصورٍ قليلٍ حرمَ الإقدامُ، بخلافِ ما إذا اختلطَتَا بنساءِ بلدةٍ.

وأمَّا الورعُ المندوبُ: فهوَ أنَّ الحُبَّ زيرٌ أكبرُ منَ الجرَّةِ، فإذَا كانَ سمنًا ووقعتْ فيهِ فأرةٌ؛ فإنْ كانَ جامدًا اختصَّتِ النَّجاسةُ بالموضعِ وما قرُبَ منهُ، وإنْ كانَتْ مائعًا ولم يتغيَّرْ منهَا لا طعمُهُ ولا ريحُهُ فتكونُ النَّجاسةُ يسيرةً حلَّتْ في طعامٍ كثيرٍ، ففيهَا خلافٌ، هل ينجسُ أمْ لَا؟ إلحاقًا بالماءِ إذا حلَّتْ فيهِ نجاسةٌ يسيرةٌ[(٣)].

ووجهٌ آخرُ: أنَّ الزَّيتَ والدُّهنَ إذا حلَّتْ فيهِ النَّجاسةُ هلْ يمكنُ تطهيرُهُ بالماءِ أو لَا؟ فيهِ قولانِ، فعلَىٰ هذَينِ الوجهَينِ يكونُ صبُّهُ لأربعينَ حُبًّا منْ بابِ الورَعِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٢٩.

(٢) في الصحاح ١/١٠٥: «الحُبُّ: الخابيةُ، فارسيٌّ معربٌ، والجمع: حِبابٌ، وحببة».

(٣) انظر: المبسوط ١/٩٤ ـ ٩٥، والمحلىٰ ١/١٤٤، والوسيط ٧/١٦٥، والمجموع ٩/٣٥، والقوانين الفقهية ص٢٨.

لمَّا التبسَ عليهِ الحُبُّ من غيرِهِ، وكمالُ الورعِ أنْ يتركَ العبدُ ما لا بأسَ بهِ حذرًا ممَّا بهِ بأسٌ.

والمحكِيُّ عنهُمْ[(١)]: «كنَّا ندعُ سبعينَ بابًا منَ الحَلالِ مخافةَ الوقوعِ في الحرامِ»، وهذا منَ الورعِ التَّامِّ.

وأمَّا أبو يزيدَ في قضيَّةِ النَّملتَينِ اللَّتَينِ بقيتَا في حبِّ القُرْطُمِ فردَّهُمَا إلىٰ مستقرِّهِمَا وموطنِهِمَا وأُنْسِهِمَا بأهلِهِمَا، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، والبَرُّ لا يُؤذِي الذَّرَّ[(٢)].

وحُكِي عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ أتاهُ ضيوفٌ جماعةٌ منَ المشايخِ فقالَ لخادِمِهِ: ائتِنِي بالسُّفرةِ ليأكلَ عليهَا المشايخُ، فتأخَّرَ الخادمُ ولم يسرعْ، فنادَاهُ الشَّيخُ مرَّةً أخرَىٰ وهوَ يشتغلُ بغيرِ ذلكَ ولم يسرِعْ، فقيلَ لهُ: هذَا لا يصلحُ أنْ يكونَ خادمًا للمشايخِ بكلِّ هذَا التَّغفُّلِ، فسألَهُ الشَّيخُ عن ذلكَ، فقالَ: يا سيِّدِي، وجدتُ بالسُّفرةِ نملًا فمَا أمكنَنِي أنْ أؤذِيَهَا بالطَّرحِ ولَا أقتلَهَا، ولَا أمكنَنِي أنْ أقدِّمَهَا للمشايخِ وعليهَا النَّملُ، فاستحسنَ ذلكَ منهُ، وعُرِفَتْ منزلتُهُ وتثبُّتُهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَيُحْكَىٰ[(٤)] أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ كَانَ لَا يَجْلِسُ فِي ظِلِّ شَجَرَةِ غَرِيمِهِ، وَيَقُولُ: فِي الخَبَرِ[(٥)]: (كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفْعًا فَهُوَ رِبًا).**

وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا يَزِيدَ غَسَلَ ثَوْبَهُ فِي الصَّحْرَاءِ مَعَ صَاحِبٍ لَهُ، فَقَالَ صَاحِبُهُ:

---

(١) ورد في: إحياء علوم الدين ٣/٢٦٨، ومدارج السالكين ٢/٢٢.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٨٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٣٠.

(٤) وردت حكايته في: الغنية للجيلاني ص٢٧٤.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه الكبرىٰ ٥/٣٥٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٤/٣٢٧، وابن أبي أسامة في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ١/٥٠٠، وابن حجر في المطالب العالية ٧/٣٦٢.

نُعلِّقُ الثِّيابَ مِنْ جُدْرَانِ الكُرُومِ؟، فَقَالَ: لَا نَغْرِزِ الوَتَدَ فِي جِدَارِ النَّاسِ، فَقَالَ: نُعلِّقُهَا مِنَ الشَّجَرِ؟ فَقَالَ: لَا؛ إِنَّهُ يَكْسِرُ الأَغْصَانَ، فَقَالَ: نَبْسُطُهُ عَلَى الإِذْخَرِ؟ فَقَالَ: لَا، إِنَّهُ عَلَفُ الدَّوَابِّ لَا تَسْتُرْهُ عَنْهَا.

فَوَلَّى ظَهْرَهُ إِلَى الشَّمْسِ وَالقَمِيصُ عَلَى ظَهْرِهِ حَتَّى جَفَّ جَانِبٌ، ثُمَّ قَلَبَهُ حَتَّى جَفَّ الجَانِبُ الآخَرُ [١٨٢/١أ].

وَقِيلَ[١]: إِنَّ أَبَا يَزِيدَ دَخَلَ يَوْمًا الجَامِعَ فَغَرَزَ عَصَاهُ فِي الأَرْضِ، فَسَقَطَتْ وَوَقَعَتْ عَلَى عَصَا شَيْخٍ بِجَنْبِهِ رَكَزَ عَصَاهُ فِي الأَرْضِ فَأَلْقَتْهَا، فَانْحَنَى الشَّيْخُ وَأَخَذَ عَصَاهُ، فَمَضَى أَبُو يَزِيدَ إِلَى بَيْتِ الشَّيْخِ وَاسْتَحَلَّهُ، وَقَالَ: كَانَ السَّبَبُ [فِي انْحِنَائِكَ تَفْرِيطِي فِي غَرْزِ][٢] عَصَايَ حَيْثُ احْتَجْتَ إِلَى أَنْ تَنْحَنِيَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا كلُّهُ مِن دقيقِ[٣] الورعِ ورفيعِ التَّقوى، وذلكَ أنَّ أبا حنيفةَ كانَ يمتنعُ منَ الجلوسِ في ظلِّ شجرةِ غريمِهِ، وذلكَ أنَّ النَّاسَ يحتاجُونَ إلى ظلِّ الأشجارِ في أوقاتِ الحَرُورِ، ولَا سيَّمَا إذَا بعدُوا منَ المنازلِ والدُّورِ، فخشِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يكونَ إقدامُهُ على الاستظلالِ بهذِهِ الشَّجرةِ والسَّبقُ إليهَا بحيثُ لو أتَى صاحبُهَا أوْ أحدٌ من جهتِهِ ليستظلَّ فيهَا مَا أمكنَهُ مزاحمَتُهُ لتقدُّمِ يدٍ لهُ عليهِ بدَيْنِهِ المستحقِّ مِنْ قرْضٍ أوْ غيرِهِ، فخشِيَ أنْ يكونَ من بابِ سلَفٍ جرَّ نفعًا.

وأمَّا قضيَّةُ أبي يزيدَ فِي الثَّوبِ الَّذِي غسلَهُ تلميذُهُ وسألَ أبَا يزيدَ: هلْ يعلِّقُهُ بجدرانِ الكرومِ؟ فقالَ لهُ: لا يمكنُكَ تعليقُهُ[٤] إلَّا بوتدٍ نغرزُهُ في جدرانِ الكرُومِ

(١) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢٩٨/١.
(٢) تتمة من الرسالة القشيرية.
(٣) في (ب): تدقيق.
(٤) في (أ، ب): تعلقه.

بغيرِ إذنِهِمْ، فلَا تفعلْ، فقالَ لهُ: نُلقيهِ علىٰ الشَّجرِ حتَّىٰ يجفَّ، قالَ: إنَّهُ يكسرُ أغصانَهَا الرَّطبَةَ؛ لثِقَلِهِ إذا كانَ مَبْلُولًا ويُؤذِي أصحابَهَا، فقالَ لهُ: نفرشُهُ علىٰ الإِذْخرِ(١)، فقالَ لهُ: كيفَ تحجبُهُ عنِ الدَّوابِّ الَّتِي كانَتْ تَرْعَىٰ في ذلكَ الوقتِ؟ فجعلَ التِّلميذُ ثوبَهُ علىٰ ظهرِهِ واستقبلَ بهِ الشَّمسَ حتَّىٰ جفَّ أحدُ جانبيهِ، ثمَّ قلبَ الوجهَ الآخرَ.

وأمَّا عصاهُ الَّتِي غرزَهَا في الجامعِ بجانبِ عصَا شيخٍ آخرَ غرزَ عصَاهُ، وذلكَ أنَّ هذهِ الأرضَ تكونُ رَمْلًا أوْ ترابًا بحيثُ يتمكَّنُ الإنسانُ فيهَا منْ غرزِ عصاهُ، فكانَ الشُّيوخُ يغرزُونَ بهَا عِصِيَّهُمْ؛ ليسْهُلَ عليهِمْ تناولُهَا وقتَ القيامِ والمشْيِ عليهَا، فغرزَ أبو يزيدَ عصَاهُ إلىٰ جانبِ عصَا شيخٍ قدْ غَرزَ عصَاهُ ولمْ يمكِّنْ أبو يزيدَ غَرْزَهَا، فسقطَتْ علَىٰ عصَا الشَّيخِ فألقَتْهَا، فاحتاجَ الشَّيْخُ بعدَ قيامِهِ لِمُضِيِّهِ إلىٰ أنْ يَنْحَنِيَ فيأخذَ عَصَاهُ منَ الأرضِ فرأَىٰ أبو يزيدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلُّفَهُ لأخْذِ عصَاهُ إنَّمَا كانَ بسببِ تَفْرِيطِهِ في غرزِ عصَا نفسِهِ ولمْ يهُنْ عليهِ يُحَالِلْهُ(٢) في هذا الوقتِ؛ إمَّا خوفًا منْ شهرةِ نفسِهِ لكمالِ هذا الورَعِ، أوْ ليحمِّلَ نفسَهُ منَ المشقَّةِ إلىٰ منزلِ الشَّيخِ بعضَ التَّعبِ للأدبِ أو لكمالِ الأجْرِ، فمشَىٰ إلىٰ منزلِهِ واستحلَّهُ، وقالَ لهُ: «**إنَّمَا احتجتَ أنْ** [١٨٢/١ب] **تنحنيَ بسببِ تفريطِي في غرزِ عصايَ**».

فهكذَا تقوَاهُمْ، جمَّلَنِي اللهُ وإيَّاكُمْ بأشرفِ درجاتِ التَّقوَىٰ، وحملَنِي وإيَّاكُمْ علىٰ الطَّريقةِ المُثْلَىٰ بمحمَّدٍ وآلِهِ.

---

(١) في تحرير ألفاظ التنبيه ص١٤٨: «الإذخر ـ بكسر الهمزة والخاء المعجمة ـ: نبت طيب الرائحة معروف». وانظر: النبات لأبي حنيفة الدينوري ص٢٠٧.

(٢) في (ج): تحالله. والقصد: وإنما لم يستحلَّه في الحال. انظر: إحكام الدلالة ١/٣٨٦.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «ورُئِيَ عُتْبَةُ الغُلَامُ بِمَكَانٍ[(٢)] يَتَصَبَّبُ عَرَقًا فِي الشِّتَاءِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ[(٣)]: إِنَّهُ مَكَانٌ عَصَيْتُ فِيهِ رَبِّي، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: كَشَطْتُ مِنْ هَذِهِ الجِدَارِ قِطْعَةَ طِينٍ غَسَلَ بِهَا ضَيْفٌ لِي يَدَهُ، وَلَمْ أَسْتَحِلَّ صَاحِبَهُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ[(٤)]: بِتُّ لَيْلَةً تَحْتَ الصَّخْرَةِ بِبَيْتِ المَقْدِسِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَزَلَ مَلَكَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَنْ هَهُنَا؟ فَقَالَ الآخَرُ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ، فَقَالَ: ذَاكَ الَّذِي حَطَّ اللهُ - سبحانه - دَرَجَةً مِنْ دَرَجَاتِهِ؟ فَقَالَ: لِمَ؟ فَقَالَ: لِأَنَّهُ اشْتَرَىٰ بِالبَصْرَةِ تَمْرًا، فَوَقَعَتْ تَمْرَةٌ عَلَىٰ تَمْرِهِ مِنْ تَمْرِ البَقَّالِ، [فَلَمْ يَرُدَّهَا عَلَىٰ صَاحِبِهَا][(٥)].

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَمَضَيْتُ إِلَى البَصْرَةِ وَاشْتَرَيْتُ التَّمْرَ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَأَوْقَعْتُ تَمْرَةً عَلَىٰ تَمْرِهِ، وَرَجَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ وَبِتُّ[(٦)] فِي الصَّخْرَةِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ إِذَا أَنَا بِمَلَكَيْنِ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَنْ هَهُنَا؟ فَقَالَ الآخَرُ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ، فَقَالَ: ذَلِكَ الَّذِي رُدَّ مَكَانَهُ وَرُفِعَتْ دَرَجَتُهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهاتانِ الحكايتانِ يدُلَّانِ علىٰ شدَّةِ الحذرِ منْ حقوقِ العبادِ، وذلكَ أنَّ الشَّرعَ لمْ يجعلْ تعميرَ الذِّمَمِ بهَا مشروطًا بعمدٍ ولا نِسْيانٍ، ولا طاعةٍ ولا عصيانٍ، فقدْ يغصبُ الإنسانُ مالَ أخيهِ، فيلزمُ ذمَّتَهُ، وقدْ يأكلُ مالَ أخيهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب، ف).

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٥٥، ونزهة الناظرين في الأخبار والآثار المروية عن الصالحين ص٣٥٧.

(٤) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٥٤، ونزهة الناظرين في الأخبار والآثار المروية عن الصالحين ص٣٥٧.

(٥) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

(٦) في (ب): وبيت، والصواب المثبت.

وقتَ الضَّرورةِ، ويجبُ عليهِ أكلُهُ إذا لَمْ يجدْ سِوَاهُ وخشِيَ علىٰ نفسِهِ، ويلزمُ ذمَّتَهُ، وقدْ ينامُ فيمدُّ رِجْلَهُ فيتلفُ مالًا لأخيهِ وهوَ نائمٌ فيلزمُ ذمَّتَهُ، إذْ العمدُ والخطأُ في ذلكَ سواءٌ.

فعلَىٰ هذا الوجهِ يكونُ خوفُ عتبةَ الغلامِ منْ أخذِ الطِّينِ اليسيرِ منَ الجدارِ ـ وإنْ كانَ القدرُ تافهًا ـ، وأخذَهُ لإكرامِ الضَّيفِ فخشيَ منَ المُطَالبةِ بهِ حتَّىٰ غشِيَ عليهِ عندَ ذِكْرِهِ.

وأمَّا قضيَّةُ إبراهيمَ بنِ أدهَمَ معَ الملكَينِ فهوَ تنبيهٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ علىٰ إبراءِ ذمَّتِهِ ممَّا تعلَّقَ بهَا وهوَ لا يشعرُ، فهِيَ زيادةُ كرامةٍ، ومشيُهُ إلىٰ موضعِ التَّمرةِ طاعةٌ، ولهُ فيهِ أجرٌ، وأمَّا إلقاؤُهُ التَّمرةَ بدلَ التَّمرةِ قدْ يتخيَّلُ بعضُ النَّاسِ تفاوتًا فيمَا بينَ التَّمرتَينِ فلمْ تتخلَّصْ ذمَّتُهُ علىٰ يقينٍ، وهذا ضعيفٌ لكونِ التَّمرِ قدْ يكونُ متساويًا في بعضِ البلادِ إلَّا القدرَ اليسيرَ الَّذي [١/١٨٣أ] لا يُلتفتُ إليهِ، وإنْ كانَ متفاوتًا.

فمَنْ نُبِّهَ هذَا التَّنبيهَ وأُلهِمَ هذَا الإلهامَ لمْ يشحَّ علىٰ رمْيِ الكبيرِ بدَلًا منَ الصَّغيرِ، وهذا جميعُهُ غايةٌ في الورَعِ وكمالِ التَّقوَىٰ(١).

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقِيلَ(٣): التَّقْوىٰ عَلَىٰ وُجُوهٍ؛ لِلْعَامَّةِ تَقْوَىٰ الشِّرْكِ، وَلِلْخَاصَّةِ تَقْوَىٰ المَعَاصِي، وَلِلْأَوْلِيَاءِ تَقْوَىٰ التَّوَسُّلِ بِالأَفْعَالِ(٤)، وَلِلْأَنْبِيَاءِ** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **تَقْوَاهُمْ مِنْهُ إِلَيْهِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ تفاوُتِ درجاتِ التَّقوىٰ، وقدْ تقدَّمَ،

(١) في نتائج الأفكار ٢/٢٤٢: «فيه تنبيه على أن إبراهيم بن أدهم كان من أرباب العناية الإلٰهية».

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣١.

(٣) نسب للواسطي في: تفسير السلمي ١/١٣٩.

(٤) أي: توسلهم بأعمالهم لرجاء المثوبة.

وذلكَ أنَّ أهلَ التَّقوَىٰ علىٰ درجاتٍ؛ منهُمُ المسلمُونَ، ومنهُمُ الصَّالحُونَ، ومنهُمُ الأولياءُ والمقرَّبُونَ، ومنهُمُ الأنبياءُ والمُرسلُونَ، فأطلقَ علىٰ مَنْ تابَ مِنَ الكفرِ تقوَىٰ العوامِّ، ومَنْ تابَ عنِ المَعَاصِي تقوَىٰ الصالِحِينَ، وهُمُ الخواصُّ بالنِّسبةِ إلىٰ مَنْ تقدَّمَ، ومَنِ اتَّقىٰ ضياعَ المندوباتِ أو ارتكابَ المكروهاتِ، وهوَ الوسائلُ إلىٰ أعلَىٰ الدَّرجاتِ تقوَىٰ الأولياءِ، وإلىٰ كمالِ التَّقوَىٰ ونيلِ رفيعِ الدَّرجاتِ وإضافتِهَا إلىٰ مُجْرِيهَا والمتفضِّلِ بها[(١)]، والبَرَاءةِ من نِسْبَةِ شَيءٍ منهَا إلىٰ أنفسِهِمْ تقوَىٰ الأنبياءِ، ولذلكَ قالَ: «**تَقْوَاهُمْ مِنْهُ إليهِ**»، معناهُ: أنْ يَرَوا فضلَهُ عليهِمْ في إجرائِهَا عليهِم والعَوْنِ علىٰ القِيَامِ بِهَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَعَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّهُ قَالَ**[(٣)]: **سَادَةُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الأَسْخِيَاءُ، وَسَادَةُ النَّاسِ فِي الآخِرَةِ الأَتْقِيَاءُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ السَّيِّدَ منَ النَّاسِ: هوَ الَّذِي يُقصَدُ إليهِ في الحوائجِ والمهمَّاتِ والنَّوازلِ؛ ليعينَ عليهَا ويخلِّصَ من ضررِهَا، فَسَاداتُ النَّاسِ في دُنْيَاهُم[(٤)] الَّذِينَ صلحُوا لإغاثةِ الملهوفِ، وإزالةِ الكرْبِ عنِ المكروبِ[(٥)]، وهمُ الأسخياءُ بأموالِهِمْ وأنفسِهِم، أيْ: يفعلونَ ذلكَ بسهولةٍ وبَسْطِ وجْهٍ.

وأمَّا فِي الآخرةِ فالسَّاداتُ هُمُ الأتقياءُ للهِ ـ تعالىٰ ـ، وهُمُ الأولياءُ، والأولياءُ الَّذينَ يشفعونَ في الخَلْقِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ويفزعُ النَّاسُ إليهِمْ في الشَّدائدِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٨٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣١.

(٣) نسب لعلي بن الحسين في: تاريخ دمشق ٤١/٣٨٥، والبداية والنهاية ٩/١٠٦، ولعلي بن عبدالله بن عباس في: تاريخ الطبري ٤/٥٣٦، وشعب الإيمان ٧/٤٤٠، وتاريخ دمشق ٤٣/٥٢.

(٤) في (ج): الدنياهم، والصواب المثبت.

(٥) في (ج): المكروبين.

العُظْمَىٰ، وأقومُ النَّاسِ بذلكَ فِي النَّبيِّينَ سيِّدُ العرَبِ والعجَمِ، خاتمُهُمْ أجمعينَ، نبيُّنَا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعليهِمْ أجمعِينَ ـ، ولذلكَ قالَ[1]: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]: **«أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ** رَحِمَهُٱللَّهُ **قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَىٰ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ المُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَي بْنِ أَيُّوبَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زَحْرٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ، عَنِ القَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ [١/١٨٣ب] **قَالَ**[3]: **«مَنْ نَظَرَ إِلَىٰ مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ فَغَضَّ بَصَرَهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ أَحْدَثَ اللهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلَاوَتَهَا فِي قَلْبِهِ»**.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ**[4]: **كَانَ الجُنَيْدُ جَالِسًا مَعَ رُوَيْمٍ، وَالجُرَيْرِيِّ، وَابْنِ عَطَاءٍ ـ رَحِمَ اللهُ جَمِيعَهُمْ ـ فَقَالَ الجُنَيْدُ: مَا نَجَا مَنْ نَجَا إِلَّا بِصِدْقِ اللَّجَأ**[5]، **قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ:** ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨].

وَقَالَ رُوَيْمٌ: مَا نَجَا مَنْ نَجَا إِلَّا بِصِدْقِ التُّقَىٰ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزمر: ٦١].

وَقَالَ الجُرَيْرِيُّ: مَا نَجَا مَنْ نَجَا إِلَّا بِمُرَاعَاةِ الوَفَاءِ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) مر تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٢٦٤، والترمذي في نوادر الأصول ١/١٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/٣٦٦.

(٤) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/١٤٧، والغنية للجيلاني ص٢٧٦.

(٥) أي: الالتجاء إلىٰ الله. وانظر: المقصور والممدود للقالي ص٢٧٢.

يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: مَا نَجَا مَنْ نَجَا إِلَّا بِتَحْقِيقِ الحَيَاءِ، قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ: **مَا نَجَا مَنْ نَجَا إِلَّا بِالحُكْمِ وَالقَضَاءِ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١].. **الآية».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذِهِ الأقوالُ الأربعةُ منَ الجُنَيدِ ورُوَيمٍ والجُرَيرِيِّ وابنِ عطاءٍ كأنَّهَا ملتفتةٌ إلىٰ أسبابِ النَّجاةِ المضافةِ إلىٰ كسْبِ العبدِ، وأمَّا قولُ الإمامِ فخارجٌ عمَّا أرادَهُ الرَّهْطُ الأربعةُ، فإنَّهُ تكلَّمَ في القضاءِ السَّابقِ، وكلُّ قسمٍ من هذهِ الأقسامِ داخلٌ تحتَ القضاءِ السَّابقِ، وإنَّمَا البحثُ أيّ أقوالِهِمْ جامعٌ لسائرِ الأسبابِ المكتسَبَةِ، فإذَا حقَّقَهُ العبدُ وجدَ ذلكَ في قولِ رُوَيمٍ بصدْقِ التُّقَىٰ، وهوَ الَّذِي يناسبُ البابَ المقصودَ بالاستشهادِ، وذلكَ أنَّ قولَ الجُنَيْدِ بصدْقِ اللَّجأ داخلٌ تحتَ التُّقَىٰ؛ لأنَّ كلَّ مُلْتَجِئٍ إلىٰ اللهِ قدِ اتَّقَىٰ فتورَهُ وقلَّةَ عزْمِهِ وضعفَ اجتهادِهِ في نَيْلِ مقصودِهِ.

وقولُ الجُرَيرِيِّ بمُراعَاةِ الوفاءِ، ومَنْ راعَىٰ الوفاءَ فقدِ اتَّقَىٰ الخُلْفَ والخيانةَ المُضادَّينِ للقيامِ بمَا التزمَ الوفاءَ بهِ، فهوَ داخلٌ تحتَ التُّقَىٰ.

وأمَّا قولُ ابنِ عطاءٍ بتحقيقِ الحياءِ، فهوَ أنْ يصيرَ الحياءُ غالبًا علىٰ قلبِ العبْدِ لدوامِ(١) استشعارِهِ نظرَ الحقِّ إليهِ، وهذَا لا يتمُّ إلَّا باتِّقاءِ الغفلاتِ، والبُعدِ عنِ المُشْغِلاتِ منَ المَحْبُوبَاتِ، فقدِ اندرجَ ما ذكرَهُ الجماعةُ فيمَا ذكرَهُ رُوَيْمٌ، فإنَّ

(١) في (ج): بدوام.

صِدْقَ القيامِ بسائِرِ الواجباتِ والمندوباتِ وإنْ تعالَتْ في الدَّرجاتِ [١/١٨٤أ]، والبُعدِ عنِ المحرَّماتِ والمكروهاتِ والمشغلَاتِ، وإنِ ألفَتَتِ القلبَ أدنىٰ التفاتٍ، فكلامُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جامعٌ لسائِرِ ما ذَكَرَ.

وأمَّا الإمامُ القُشَيْرِيُّ فأعرَضَ عنِ الأسبابِ، وأطلقَ عليهِ ما سبَقَ لهُمْ عندَ ربِّ الأربابِ(١)، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ بمنِّهِ وكرَمِهِ(٢).

---

(١) في نتائج الأفكار ٢/٢٤٤: «أقول: ما نقله عن القشيري أخيرا هو المعوّل عليه، والكمال في التسليم لفعل الحكيم العليم».

(٢) نهاية المجلد الأول من النسخة (ج)، وقد فقد منها المجلد الثاني.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

بَابُ الوَرَعِ[(٢)]

«أَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ[(٣)] عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا[(٤)] مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى المُزَكِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ سُلَيْمَانَ الزَّاهِدُ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ بْنِ قُتَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الطَّاهِرِ الخُرَاسَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ[(٥)] العَيْزَارِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الفِرْيَابِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَجْلَحِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)]: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والخبرُ صحيحٌ، وقالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]... الآيةُ، واختلفَ أهلُ التَّفسيرِ في (المُحْكَمِ والمُتَشَابِهِ)[(٧)]، والَّذِي مالَ إليهِ أهلُ التَّحقيقِ أنَّ المتشابِهَ ما تردَّدَتْ فيهِ الاحتمالاتُ، وموضِعُ الاستشهادِ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ ذمَّ مَنْ يترُكُ المحكَمَ البيِّنَ الدَّلالةِ، ويتَّبِعُ المتشابِهَ، ورُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجدَ تمرةً في

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٣.

(٢) بياض بالنسخة (ب) في موضع هذا العنوان.

(٣) في (ب): أبو الحسن.

(٤) في (ب) والشرح: بن.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٠٣، وأحمد في مسنده ١/٢٠١، والطبراني في المعجم الكبير ٣/١٢٨.

(٧) سقط من (ب) قوله: «واختلف أهل التفسير في المحكم والمتشابه».
وتحرَّ تفصيل القول في ذلك في: الحجة في بيان المحجة ١/٤٨٤، وأساس التقديس ص١٣٤، والإتقان في علوم القرآن ٢/٥.

مَنْزِلِهِ أو علَىٰ الطَّرِيقِ فقالَ: «لَوْلَا أَنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا»، خرَّجَهُ (مسلمٌ)[١]، فتركَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ورَعًا ولمْ يتحقَّقْ كونَهَا منَ الصَّدقةِ، وسيأتِي مِن أفعالِ المتورِّعينَ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ في أثناءِ هذا البابِ ما يؤكِّدُ الدَّلالةَ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**أَمَّا الوَرَعُ: فَإِنَّهُ تَرْكُ الشُّبُهَاتِ خَوْفًا مِنَ اللهِ[٣]، كَذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ[٤]: الوَرَعُ: تَرْكُ كُلِّ شُبْهَةٍ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِيكَ: هُوَ تَرْكُ الفَضَلَاتِ[٥]**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الورعُ يصحُّ أنْ يكونَ في الحَرَامِ وفِي المُتَشَابِهِ والمكروهِ كراهيَّةَ تَنْزِيهٍ، وعنِ الشَّهواتِ الحلالِ إذَا خِيفَ أنْ تجرَّ بالاعتيادِ إلىٰ الوقوعِ[٦] في شيءٍ منَ الحرامِ، وقدْ يتراقَىٰ الصَّالحُونَ في الورعِ حتَّىٰ يَدَعُوا كلَّ ما يُشغلُ عنِ اللهِ وَرَعًا.

وقَدْ يقعُ الزُّهدُ في جميعِ مَا ذكرْنَا فيهِ الورعَ منَ الأقسامِ؛ لأنَّ الزُّهدَ يكونُ في الحرامِ وفي المُشْكلِ وفي المُبَاحِ منَ الدُّنيَا [١/١٨٤ب]، وفيمَا يشغلُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، أو يُفوِّتُ[٧] الدَّرجاتِ العُلَا.

والضَّابطُ فِي الفرقِ بينَ الزُّهدِ والورَعِ: أنَّ الوَرِعَ يَتْرُكُ خوفًا وحذرًا منَ الوقوعِ

---

(١) ٢/٧٥٢ ـ حديث رقم (١٠٧١). وأخرجه البخاري أيضا في صحيحه ٢/٨٥٧ ـ حديث رقم (٢٢٩٩).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٣.

(٣) انظر: الإبانة لابن فورك ص٤٨، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٦، وأبجد العلوم ٢/٣١٤.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢١.

(٥) قصره عليها بالنظر إلىٰ حال الورع الكامل. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٤٦.

(٦) في (ب): الورع، وهو تحريف.

(٧) في (ب): ويفوت.

فيمَا لا يُرْضِي ، والزَّاهدَ يُعرضُ نقصًا واستصغارًا ، وعُزُوفَ[١] نفسٍ وقِلَّةَ رغبةٍ فيما يُعرضُ عنهُ ، وإنْ تفاوَتُوا فِي الدَّرجاتِ[٢].

وقولُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ: «الورعُ في الشُّبُهاتِ» يعنِي: الورعَ المندوبَ ، وهوَ أكثرُ ما يطلَقُ الورعُ فيهِ ، وتركُ الفضلَاتِ: هوَ تركُ الحلالِ وما لا تدعُو إليهِ حاجةٌ دينيَّةٌ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: كُنَّا نَدَعُ سَبْعِينَ بَابًا[٥] مِنَ الحَلَالِ مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي بَابٍ مِنَ الحَرَامِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومِنْ ذلكَ ما روِيَ[٦] أنَّهُ كانَ لأبِي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غلامٌ يغُلُّ عليهِ[٧] ، وكانَ ـ واللهُ أعلمُ ـ يعلِّمُهُ ثمَّ يرسلُهُ ولا يكتفِي بذلِكَ ، فإذَا عادَ وأتىٰ بشيءٍ سألَهُ: مَا الَّذِي صَنعَ ؟ فأتاهُ يومًا بطعامٍ ولمْ يسألْهُ وأكلَ منهُ لُقْمَةً ، ثمَّ تذكَّرَ وقالَ: مِنْ أينَ لكَ هذَا ؟ فقالَ: مررتُ بقومٍ كنتُ رَقَيْتُ لهُمْ في الجاهليَّةِ ـ أوْ زَفَنْتُ علىٰ روايةٍ ، أيْ: رقصْتُ ـ ، فلمَّا مررْتُ بهِمُ اليومَ أعطَوْنِي هذَا ، قالَ لهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كدْتَ أنْ تُهلكنِي ، وأخذَ يتقيَّأُهُ[٨] فلمْ تخرجِ

---

(١) في (ب): وعزف.

(٢) وفي كشف القناع ٤٧٣/١: «الفرق بين الزهد والورع: أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة ، والورع ترك ما يخشىٰ ضرره في الآخرة». وانظر: الزهد والورع في العبادة ص٥٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٣٣/١.

(٤) ورد قوله في: قوت القلوب ٤٨٦/٢ ، وإحياء علوم الدين ٢٦٨/٣ ، ومدارج السالكين ٢٢/٢ ، وإتحاف السادة المتقين ٤٨٦/٦.

(٥) القصد به: المبالغة في كثرة ترك الحلال.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ٣١/١ ، والمنتظم ٦٢/٤.

(٧) فسره المتقي الهندي في كنز العمال ٢٣٦/١٢ بقوله: «يقال: فلان يغُلُّ علىٰ عياله ـ بالضم ، أي: يأتهم بالغلة ، واستغل عبده: كلفه أن يغلّ عليه».

(٨) في (ب): يتقاياه ، والصواب المثبت.

اللُّقمةُ، فدعَا بِعُسٍّ(١) من ماءٍ وشرِبَ واستدعَىٰ اللُّقمةَ حتَّىٰ خرجَتْ بمشقَّةٍ.

فقيلَ: أكلُّ هذَا مِن جهةِ هذِهِ اللُّقمةِ؟ فقالَ: لوْ لمْ تخرجْ إلَّا بنفسِي لأخرجتُهَا، سمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢) يقولُ: «كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ(٣) فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ».

وقولُهُ: «سُحْت»، يعنِي: أصلَ كسْبِ الغُلامِ الَّذِي أخذَ الطَّعامَ عِوَضًا عنهُ، إمَّا لرُقْيَا الجاهليَّةِ، أو للرَّقصِ واللَّعبِ الَّذِي هوَ أكلُ المالِ بالباطلِ.

ورُوِيَ أنَّهُ أُتِيَ بماءٍ قدْ نُبِذَ فيهِ تمرٌ أو عسلٌ لشُرْبِهِ، فقرَّبَهُ إلىٰ فِيهِ وبكَىٰ إلىٰ أنْ أبكَىٰ مَنْ حولَهُ، وسكَتَ النَّاسُ ولمْ يسكُتْ، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ سُئِلَ عن ذلِكَ، فقالَ(٤): كنتُ معَ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرأيتُهُ يدفعُ عنهُ شيئًا ويقولُ: «إِلَيْكِ عَنِّي، إِلَيْكِ عَنِّي»، ولمْ أرَ معَهُ شيئًا، فسألْتُ النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ ذلِكَ، فقالَ: الدُّنيَا تمثَّلَتْ لِي، فقلتُ لهَا: إليكِ عنِّي، فقالَتْ: إنِ انفلَتَّ منِّي لَا ينفلتُ منِّي مَنْ بعدَكَ، فقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ: فإنِّي خشيتُ أنْ أكونَ قدْ لَحِقَتْنِي، وهذَا الَّذِي أَبْكَانِي.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): **«وَقَالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ(٦): كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ»**.

---

(١) العسُّ: القدح الكبير. انظر: النهاية لابن الأثير ٣/٢٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٢/٥١٣، والدارمي في سننه ٢/٤٠٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/١٤٥، والحاكم في المستدرك ٤/٤٦٨.

(٣) أي: حرام.

(٤) أخرجه المروزي في مسند أبي بكر ص١١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٦٥، وأبو نعيم في الحلية ١/٣٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٠/٣٢٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٣٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/١٤١٠، والطبراني في مسند الشاميين ص٢١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٥٣.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ [١٨٥/١أ] الطَّاعةَ الفاضِلةَ قسمَانِ: قيامٌ بمندوباتٍ بعدَ الواجباتِ، وتركٌ لمكروهاتٍ أو متشابهاتٍ بعدَ المحرَّماتِ، وفِي تَرْكِ ذلكَ مخالفةُ الهَوَىٰ، والإعراضُ عنِ المُشْتَهَىٰ، وقدْ جاءَ الخبرُ الصَّحيحُ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ(١) وَالحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ - أَوْ مُشْتَبِهَاتٌ -، فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَىٰ يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًىٰ، أَلَا وَإِنَّ حِمَىٰ اللهِ مَحَارِمُهُ»، خرَّجَهُ (مسلمٌ(٢)، والبخاريُّ(٣)).

فدلَّ صريحُهُ أنَّ مَنْ تركَ الشُّبُهَاتِ فقدِ استبرَأَ لدينِهِ، فتركُ الشُّبُهاتِ علَىٰ هذا أفضلُ مِنْ فِعْلِ المَنْدُوباتِ؛ وذلكَ لأنَّ السَّلامةَ مُقدَّمةٌ علىٰ الغَنيمَةِ(٤).

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٦): سَمِعْتُ أبا العبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يقولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ: كَانَ أَهْلُ الوَرَعِ فِي أَوْقَاتِهِمْ أَرْبَعَةً(٧): حُذَيْفَةُ المَرْعَشِيُّ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ، وَسُلَيْمَانُ الخَوَّاصُ، فَنَظَرُوا فِي الوَرَعِ، فَلَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأُمُورُ فَزِعُوا إِلَىٰ التَّقَلُّلِ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا - وفقَّكَ اللهُ - قدْ يُفْهَمُ منهُ بعضُ النَّاسِ أنَّهُ لمَّا ضاقَ عليهِمْ سُلوكُ طريقِ الورَعِ أهملوهُ وتقلَّلُوا، وأخذُوا منْ حيثُ مَا وجدُوا،

---

(١) أي: بشاهد علم الشريعة.

(٢) في صحيحه ١٢١٩/٣ - حديث رقم (١٥٩٩).

(٣) في صحيحه ٢٨/١ - حديث رقم (٥٢).

(٤) أي: لأن درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح. وقد أفاده بنصه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٩٠/١ - ٣٩١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٣٣/١.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١١٦/١٠، والزهد الكبير ص٣١٨.

(٧) الحصر فيهم لاشتهارهم به، وذلك لا ينافي ثبوت الورع لغيرهم في زمنهم.

وهذَا ليسَ بصحيحٍ، وإنَّمَا المرادُ: أنَّهُمْ بالَغُوا فِي التَّفتيشِ عنِ الحَلالِ، وأعمَلُوا أبدانَهُمْ في تَحْصِيلِهِ، فلمْ يَقْدِرُوا علىٰ صَفَائِهِ، فَفَزِعُوا إلىٰ التَّقلُّلِ ممَّا اجتهدُوا فيهِ، فكانَ تقلُّلُهُمْ ممَّا حصلَ لهُمْ مِنْ كَسْبِهِمْ صَافيًا علىٰ حسبِ إمكانِهِمْ زيادةً في ورَعِهِمْ؛ لأنَّ الخبرَ الصَّحيحَ يدلُّ علىٰ أنَّهُ حقُّهُم الَّذِي جعلَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُمْ، لا حسابَ عليهِمْ فيهِ، وهوَ قولُهُ[(١)]: «لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: بَيْتٍ يُكِنُّهُ، وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الخُبْزِ[(٢)] وَالمَاءِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ حِسَابٌ».. الحديث.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ الدِّمَشْقِيَّ يَقُولُ[(٤)]: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ: الوَرَعُ أَنْ تَتَوَرَّعَ عَنْ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ حدَّ الورعِ: مجانبةُ الشَّيءِ، كمَا قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَرِّعُوا اللِّصَّ، وَلَا تُرَاعُوهُ[(٦)]»، أيْ: جنِّبُوهُ رحالَكُمْ، ولَا ترصدُوهُ حتَّىٰ يقعَ. ومنهُ قولُ العربِ[(٧)]: «وَرِّعِ الإِبِلَ»؛ أيْ: جنِّبْهَا أكلَ مَا يضرُّهَا[(٨)] [١/١٨٥ب].

فلمَّا كانَ الورعُ هوَ المجانبةَ أطلقَهُ هذَا الشَّيخُ علىٰ مجانبةِ كلِّ ما يشغلُ عنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهوَ كَمَالُ الورَعِ.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧١، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/١٠٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/٧٨.

(٢) أي: كسرة الخبز. انظر: الفائق ١/٢٠٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٣٣.

(٤) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣١٨، وتاريخ دمشق ٣٢/٣٩٢، ومدارج السالكين ٢/٢٢.

(٥) ورد قوله في: العين ٢/٢٤٣، والرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص٤١، والمخصص ٣/٣٤٤.

(٦) لأن في مراعاته شغل النفس بغيره تعالىٰ وتضييع الوقت. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٤٨.

(٧) ورد قوله في: الرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص٤١، والمحكم، واللسان، والتاج «ورع».

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٩١.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا العَبَّاسُ بْنُ حَمْزَةَ قَالَ: ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ خَلَفٍ قَالَ[(٢)]: الوَرَعُ فِي المَنْطِقِ أَشَدُّ مِنْهُ فِي الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَالزُّهْدُ فِي الرِّئَاسَةِ أَشَدُّ مِنْهُ فِي الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ؛ لِأَنَّكَ تَبْذُلُهُمَا فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ إذا قَوِيَ علىٰ الأقوىٰ كانَ علَىٰ الأضعفِ أقوىٰ، وتركُ الورَعِ في المنطقِ الَّذِي أهلكَ أكثرَ النَّاسِ وحذَّرَ منهُ الصِّدِّيقونَ حتَّىٰ نُقِلَ عن أبِي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ كانَ يجعلُ في فِيهِ حجَرًا يذكِّرُهُ التَّثبُّتَ عندَ كلامِهِ، ورآهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ يجذبُ لسانَهُ، فقالَ لهُ: «مَهْ، غفرَ اللهُ لكَ يا خليفةَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قالَ أبو بكرٍ[(٣)]: «هذَا الَّذِي أوردَنِي الموارِدَ».

ورُؤِيَ ابنُ عبَّاسٍ آخذًا بثمرةِ[(٤)] لسانِهِ، وهوَ يقولُ لنفسِهِ[(٥)]: «قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، واسكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ».

فالورعُ فِي اللِّسانِ أشدُّ منهُ فِي الذَّهبِ والفضَّةِ، وكذلِكَ الرِّئاسةُ الزُّهدُ فيهَا أكملُ منَ الزُّهدِ فِي الذَّهبِ والفضَّةِ، ولذلكَ يردُّهُمَا المحتاجُ ليُنسبَ لكمالِ الزُّهدِ ويَرْأَسَ بذلِكَ في ردِّهِمَا، ولذلِكَ قيلَ[(٦)]: «آخرُ ما يخرُجُ من رؤوسِ الصِّدِّيقينَ حُبُّ الرِّئاسةِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٤.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣١٩، وتاريخ دمشق ٨/٢٠٥، ومدارج السالكين ٢/٢٢.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في (ب): «آخذ بتمرة»، والصواب المثبت.

(٥) ورد قوله في: الصمت وآداب اللسان ص٦٥، والزهد لابن أبي عاصم ص٢٤، وغريب الحديث للخطابي ٢/٢٦٥، وتهذيب اللغة «ث م ر»، وحلية الأولياء ١/٣٢٨، والدر المنثور ٢/٦٨١.

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٣/٢٧٥، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٧.

وربَّمَا عسُرَ فَهْمُ هذا علىٰ بعضِ النَّاسِ، فقالَ أينَ الصِّدِّيقيَّةِ منَ الرِّئاسةِ؟! فإنَّ الصِّدِّيقيَّةَ مبالغةٌ فِي الصِّدقِ فِي السُّلوكِ، وأينَ هوَ منِ التفاتِهِ إلىٰ الرِّئاسةِ علَىٰ الخلْقِ؟

والجوابُ: أنَّ الرِّئاسةَ تلطفُ وتَدِقُّ علىٰ حسبِ رِفْعَةِ المقاماتِ، وربَّمَا تكونُ في حقِّ بعضِ النَّاسِ ازدراءَ الغيرِ وتسخيرَهُ، ورؤيةَ الفضلِ لهُ[1] علَىٰ مَنِ استخدَمَهُ، وربَّمَا كانَتِ الرِّئاسةُ التفاتَ العبدِ إلىٰ أعمالِهِ وحُسْنِ هَيْئَتِهِ وامتيازِهِ بهذَا المَقَامِ الشَّريفِ عن غَيْرِهِ، كَمَا قيلَ[2]:

أَتِيْـهُ فَمَـا أَدْرِي مِـنَ التِّيْـهِ مَـنْ أَنَـا ❊ سِوَىٰ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيَّ وَفِي جِنْسِي

أَتِيْـهُ عَلَـىٰ جِـنِّ الـبِلَادِ وَإِنْسِـهَا ❊ فَإِنْ لَمْ أَجِدْ شَخْصًا أَتِيْهُ عَلَىٰ نَفْسِي

فآخرُ ما يخرُجُ مِنْ رؤوسِ الصِّدِّيقينَ التفاتُهُمْ لأعمالِهِمْ، واستحسانُهَا، والنَّظرُ إليهَا شغلًا بِمُجْرِيهَا[3] ومُنشِئِهَا، المُتفضِّلِ عليهِمْ بهَا.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: [١٨٦/١أ] «**قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[5]: الوَرَعُ أَوَّلُ الزُّهْدِ، كَمَا أَنَّ القَنَاعَةَ طَرَفٌ مِنَ الرِّضَا**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ صحيحٌ؛ فإنَّ الورعَ إنَّمَا يكونُ عنِ المُتشابهِ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) من الطويل، أنشدها أبو سعيد الخزاز في: تاريخ دمشق ١٤٠/٥، وحسن التنبه لما ورد في التشبه ٤٣٣/٥، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٣٧/١٦، والإشارة والتطريز ص١٦٦، وطبقات الأولياء ص٤٤، وسراج الغيوب في أعمال القلوب ص٣٧٣، ونسب لابن يسار في: ربيع الأبرار ١٧٥/٤، وبلا نسبة في: عيون الأخبار ٣٨٣/١، وديوان المعاني ١٩٧/١، ونهاية الأرب ٣٧٥/٣.

(٣) في (أ): بمحبوبها، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٣٤/١.

(٥) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣١٢، وتهذيب الأسرار ص١١٦.

أو مَا نُهِيَ عنهُ ، وهو[١] تَنْزِيهٌ ، ومَنْ لَا قُدْرَةَ لهُ على الإِعْرَاضِ عن هذا القسمِ فَعَجْزُهُ عنِ الحَلالِ الصَّافِي الَّذِي لا إشكالَ فيهِ ولَا نَهْيَ عنهُ أَوْلَىٰ وأَوْلَىٰ.

وأمَّا تشبيهُهُ الرِّضَا بالقَنَاعةِ فمِنْ حيثُ إنَّ القَانِعَ مُجتَزِءٌ بمَا فُتحَ بهِ عليهِ منَ الخيرِ يمشِّي بهِ وقتَهُ ويُزجِّيهِ ، وأمَّا الرَّاضِي فإنَّهُ يرضَىٰ بجميعِ مَا يُورِدُهُ[٢] الحقُّ عليهِ ويُجْرِيهُ ، سَواءٌ وافقَ ذلكَ هوَىٰ العَبْدِ أوْ خَالَفَهُ إذَا كانَ رِضَا الحقِّ فيهِ ، وشتَّانَ بينَ المَقَامَينِ ، إلَّا أنَّهُ شبَّهَهُ بهِ لِقَناعةِ القَانعِ بمَا فُتحَ عليهِ بهِ ، ولكنَّ هذَا بشرْطِ المُوافقةِ لِلهوَىٰ ، وإنْ كانَ يَسِيرًا ، والرَّاضِي يَرْضَىٰ بما فتحَ لهُ ، وافقَ الهوَىٰ أوْ خَالفَ ، ولوْ كانَ عظيمًا خَطِيْرًا[٣].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ أَبو عُثْمَانَ**[٥]: **ثَوَابُ الوَرَعِ: خِفَّةُ الحِسَابِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ أبِي عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحريضٌ علىٰ سلوكِ الورَعِ ، كأنَّهُ قالَ: فوائدُهُ عظيمةٌ ، وأقلُّ فوائدِهِ خفَّةُ الحسابِ فِي الآخرةِ ؛ لأنَّ صاحبَهُ يحاسبُ نفسَهُ في الدُّنيا ، كمَا قالَ عمرُ ابنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قبلَ أَنْ تُوزَنُوا»[٧].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]: «**وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعاذٍ**[٩]: **الوَرَعُ: الوُقُوفُ عَلَى حَدِّ العِلْمِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ**».

---

(١) في النسختين: هي ، والصواب المثبت.
(٢) في (ب): يورد.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٩٢/١.
(٤) سقط من (ب) قوله: «بما فتح له وافق الهوىٰ أو خالف ، ولو كان عظيمًا خطيرًا ، قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».
(٥) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٥١ ، والمختار من مناقب الأبرار ٨٠/٢.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه ٦٣٨/٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٩٦/٧.
(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٩٢/١.
(٨) الرسالة القشيرية ٢٣٤/١.
(٩) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢٢/٢.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعناهُ: أنَّهُ لا يُقْدِمُ إلَّا علىٰ مَا شهدَ لهُ العلمُ الشَّرعيُّ أنَّهُ لا إشكالَ فيهِ ولَا شُبْهَةَ، وإلَّا مَنْ تأوَّلَ فقالَ: لمْ يصحَّ أنَّهُ حرامٌ فأترُكَهُ، هذَا مُتَأوِّلٌ وليسَ بِمُتورِّعٍ ورعًا مندوبًا، ففرَّقَ بينَ مَنْ يقولُ: لَا أقدمُ علىٰ شبهةٍ وإنَّمَا آكلُ ما ثبتَ حِلُّهُ، وبينَ مَنْ يقولُ: أُقْدِمُ علىٰ مَا لمْ يَصِحَّ تَحْرِيمُهُ، وَشَتَّانَ بينَهُمَا[1].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ دَاوُدَ الدِّيْنَورِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ الجَلَّا يَقُولُ[3]: أَعْرِفُ مَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَمْ يَشْرَبْ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ إِلَّا مَا اسْتَقَاهُ بِرِكْوَتِهِ[4] وَرِشَائِهِ[5]، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْ طَعَامٍ جُلِبَ مِنْ مِصْرٍ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا امتناعُهُ [١/١٨٦ب] عنِ الشُّربِ من زمزمٍ بمَا عليهِ منَ الرِّشاءِ والسِّقاءِ إنَّمَا ذلكَ لكونهِ يؤتىٰ بهِ من أموالِ الخلفاءِ والسَّلاطِينِ وإنفاقِهِمْ ذلكَ للمسلِمينَ، وأمَّا مَا استقاهُ بِرِكْوَتِهِ ورِشَائِهِ ففيهِ أنَّهُ يعلمُ الوجهَ الَّذِي اتخذَهُمَا منهُ.

وفيهِ أيضًا: امتناعُهُ منَ الأكلِ والشُّربِ وصَبْرُهُ عن ذلكَ إلَّا أنْ يأتِيَ بمَا ذكرَهُ أو تيسَّرَ لهُ، ففيهِ مدحُهُ بالتَّمسُّكِ بالورعِ عن مالِ الغيرِ وإنْ حسُنَ ظنُّهُ بفاعلِهِ، فإنَّ ظنَّهُ بمَا فعلَهُ بنفسِهِ أو تيَقُّنَهُ أولَىٰ منْ حُسْنِ ظنِّهِ بالمسلِمينَ وأسلَمُ وأبعدُ عنِ الوقوعِ في الشُّبُهاتِ، وأكملُ فِي صبْرِهِ إلىٰ أنْ تدعوهُ الحاجةُ إلىٰ الإتيانِ بركْوَتِهِ ورِشَائِهِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٩٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٤.

(٣) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣٤٦، وشعب الإيمان ٥/٦٣، وتاريخ دمشق ٦/٨٩، وبغية الطلب ٣/١٢٣٩.

(٤) في الجمهرة ٢/٧٩٩: «الرَّكْوَة: دلو صغيرة من أدم، والجمع: رِكاء ورَكَوات».

(٥) أي: حبله.

مع كَثْرَةِ مَيْلِ النَّاسِ إلىٰ حُصُولِ بَرَكَةِ مَاءِ زمزمٍ ونَيْلِهِمْ منهُ ؛ لمَا فيهِ منَ الخيرِ أنَّهُ لِمَا شُرِبَ لهُ[(١)].

ولَقَدْ ذُكِرَ عن بعضِ الصَّالحِينَ أنَّهُ كانَ يجلسُ في بعضِ الزَّوَايَا الَّتِي داخلَ البيتِ الَّذِي فيهِ زمزمٌ ، فلمَّا كانَ فِي هَوِيٍّ منَ اللَّيلِ[(٢)] دخلَ إنسانٌ عليهِ نورٌ وهيئةٌ حسنةٌ فرفعَ الدَّلْوَ من بئرِ زمزمٍ وشربَ منهُ ثمَّ خرجَ ، فقالَ: فقمتُ فِي إثرِهِ لأشربَ من فضْلَتِهِ لنَيْلِ بركتِهِ فإذَا هوَ سويقٌ مذابٌ بسكَّرٍ ، أوْ كمَا قالَ ، فبقيتُ متعجِّبًا ، فَرَصَدْتُهُ ليلةً أخرَىٰ حتَّىٰ جاءَ في ذلكَ الوقتِ فرفعَ الدَّلْوَ وشرِبَ منهُ ، فاتَّبعتُهُ وسألْتُهُ باللهِ مَنْ هوَ؟ فقالَ: تسترُ علَيَّ؟ فقلتُ: نعَمْ ، فقالَ: أنَا سفيانُ بنُ سعيدٍ الثَّوريُّ ، وهذَا يدلُّ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يجعلُهُ[(٣)] تارةً قُوتًا ، وتَارةً مَاءً ، وتارةً شِفَاءً.

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَهُمْ قالَ[(٤)]: رأيتُ شخصًا حسنَ الهيئةِ مُقيمًا بالحَرَمِ لا يتناولُ شيئًا ممَّا بأيدِي النَّاسِ إلَّا أنَّهُ يشربُ شربةً من ماءِ زمزمٍ فتكفيهِ ، قالَ: فقلتُ لهُ يومًا: أرأيتَ لوْ غارَتْ زمزمٌ ما كنتَ تصنعُ؟ قالَ: فقامَ وقبَّلَ رأسِي وقالَ: جزاكَ اللهُ عنِّي خيرًا ، لقدْ كنتُ أعبدُ زمزمًا.

ومعنَىٰ ذلكَ: أنَّ نفسَهُ كانَتْ ساكنةً إلىٰ مَائِهِ ، وحقُّهُ في كمالِ رتبتِهِ ألَّا يسكنَ لشيءٍ[(٥)] منْ مخلوقاتِهِ ، فلمَّا نبَّهَهُ هذَا الرَّجلُ علىٰ مَا هوَ أعلىٰ مِنْ حَالتِهِ شَكَرَهُ وقبَّلَ رأسَهُ ، وشَكَرَ الَّذِي أرسلَهُ إليهِ وسَخَّرَهُ.

---

(١) كما في سنن ابن ماجه ٢/١٠١٨: «.. سمعت جَابِرَ بن عبد اللهِ يقول: سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ له».

(٢) في الجمهرة ١/٢٥١: «هوي من الليل ، أي: قطعة منه».

(٣) أي: ماء زمزم.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٢٤ ، والروضة الريا فيمن دفن بداريا ص٩١.

(٥) في (ب): إلىٰ شيء.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُوسَىٰ التَّاهَرْتِيَّ يَقُولُ[٢]: وَقَعَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَرْوَانَ فِلْسٌ فِي بِئْرٍ قَذِرَةٍ، فَاكْتَرَىٰ[٣] عَلَيْهِ بِثَلَاثَةَ عَشَرَ دِينَارًا حَتَّىٰ أَخْرَجَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: كَانَ عَلَيْهِ اِسْمُ اللهِ - تعالىٰ - [١/١٨٧أ]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ تعظيمِهِ لربِّهِ[٤] حتَّىٰ عظَّمَ كلَّ رسمٍ يدلُّ علىٰ اسمِهِ، فلمَّا كانَ الفِلْسُ يُكتبُ عليهِ اسمُ اللهِ كمَا جرَتِ العادةُ بكتْبِهِ علىٰ الدَّراهِمِ والدَّنانيرِ الَّتِي يُعامَلُ بهَا، فلمَّا سقطَ في بئرٍ قذرةٍ لمْ يهُنْ عليهِ تَرْكُهُ في القَذَرِ؛ إجلالًا لمَا عليهِ، حتَّىٰ أنفقَ عليهِ ثلاثةَ عشرَ دينارًا.

ومِنْ هذَا القبيلِ ما حُكِيَ[٥] أنَّ بِشْرَ بنَ الحارثِ إنَّمَا رفعَهُ اللهُ - تعالىٰ - علىٰ أقرانِهِ لكونِهِ وجدَ رقعةً فيهَا اسمُ اللهِ فاشترىٰ طِيبًا وطيَّبَهَا ورفعَهَا في موضعٍ، فرأَىٰ في المنامِ أنَّهُ قيلَ لهُ: «لأُطَيِّبَنَّ اسمَكَ في الدُّنيَا والآخرةِ».

وهذا هوَ المشهورُ في الدِّينِ أنَّ العبدَ يُجلُّ كلَّ مَا يُنْسَبُ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ -، أو يدلُّ علىٰ كلامِهِ، ولذلكَ حرَّمَ الشَّرعُ حملَ المصحفِ علىٰ غيرِ طهارةٍ إجلالًا لهُ، ولذلِكَ أوصَىٰ العلماءُ ألَّا يستصحبَ الإنسانُ وقتَ قضاءِ حاجتِهِ شيئًا عليهِ اسمُ اللهِ إلَّا ما يشقُّ عليهِ نزعُهُ كالحرزِ وغيرِهِ، وألَا يُسَافرَ بالمُصْحفِ إلىٰ أرضِ العَدُوِّ؛ خوفًا مِنْ أنْ تنالَهُ أيدِي المشركِينَ[٦].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٤.

(٢) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٢٢٨، والفتوة للسلمي ص٢٠، وتاريخ دمشق ٣٧/١٣٩، والبداية والنهاية ٩/٦٤.

(٣) أي: استأجر.

(٤) في (ب): ربه.

(٥) وردت حكايته في: حلية الأولياء ٨/٣٣٦، وتاريخ دمشق ١٠/١٨١، ووفيات الأعيان ١/٢٧٥.

(٦) كما في صحيح مسلم ٣/١٤٩٠ ـ حديث رقم (١٨٦٩): «عن عبد اللهِ بن عُمَرَ قال نهىٰ=

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ علَّوِيهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ[٢]: الوَرَعُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ: وَرَعٌ فِي الظَّاهِرِ؛ وَهُوَ أَلَّا يَتحرَّكَ إِلَّا للهِ ـ تعالىٰ ـ، وَوَرَعٌ فِي البَاطِنِ؛ وَهُوَ أَلَّا يَدْخُلَ قَلْبَكَ سِوَاهُ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أعلَىٰ مقاماتِ الورَعِ؛ وهوَ التَّورُّعُ[٣] عنْ غيرِ اللهِ عقدًا[٤] وفعلًا، فإنْ عقدَ العبدُ بقلبِهِ أو أرادَ فلا ينوِي غيرَ مولَاهُ، وكذلِكَ إنْ فعلَ فلَا[٥] يريدُ بفعلِهِ إلَّا إيَّاهُ، وهوَ معَ اتِّفاقِ فعْلِ قلبِهِ وجارحتِهِ مُعْرِضٌ عنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ، وبهذَا الاعتبارِ كانَ مُتَورِّعًا؛ أيْ: مُجَانِبًا بقلبِهِ غيرَ مولَاهُ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ[٧]: مَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي الدَّقِيقِ مِنَ الوَرَعِ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ الجَلِيلِ مِنَ العَطَاءِ.

وَقِيلَ[٨]: مَنْ دَقَّ فِي الدِّينِ نَظَرُهُ، جَلَّ فِي القِيَامَةِ خَطَرُهُ[٩]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ العبدَ إنَّمَا يشرفُ عندَ مَولَاهُ بعُلُوِّ همَّتِهِ في

= رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُسَافَرَ بِالقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ العَدُوِّ». وانظر: الحاوي الكبير ١٤/٣٩١، وجامع الأمهات ١/٢٤٤.

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٤.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣١٨، ومدارج السالكين ٢/٢٢.

(٣) سقط من (ب) قوله: «وهو التورع».

(٤) في (ب): عقلا، والصواب المثبت.

(٥) في (أ): لا.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٣٤.

(٧) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٢، ووفيات الأعيان ٦/١٦٧، ومرآة الجنان ٤/٦٧، ونشر المحاسن الغالية ص١٣٧.

(٨) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٢، والغنية للجيلاني ص٢٥١.

(٩) أي: قدره ومنزلته.

طَلبِهِ لمَا يرضَاهُ، فإذَا دقَّ نظرُهُ، أي: شرُفَ في البُعْدِ ممَّا يخشَاهُ، وأعرَضَ بقلبِهِ عمَّنْ سِوَاهُ، نالَ من فضلِهِ أشرفَ عطايَاهُ، ويدلُّ عليهِ الخبرُ الصَّحيحُ؛ وهوَ[١]: «مَا تَقرَّبَ المُتقرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ [١/١٨٧ب]، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتقرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ».. الحديث، فَدَلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّهُ لمَّا قامَ بالواجباتِ، وكفَّ عنِ المحرَّماتِ اجتهدَ في طلبِ أعالِي المَنْدُوباتِ، وأفرغَ جهدَهُ في الشُّغلِ بمولَاهُ، حتَّىٰ أعرضَ بكمالِ شُغْلِهِ بهِ عمَّنْ سِواهُ قَرَّبَهُ وأدنَاهُ، وحفظَهُ فِي سَائرِ أعضائِهِ ونوَّهَ باسمِهِ في أرضِهِ وسَمَاه، واستجابَ دعاءَهُ في كلِّ سؤالٍ، ولوْ أمكنَ صرفُ الموتِ عنهُ صرَفَهُ عنهُ، وإنْ كانَ في مَوتِهِ نَيْلُ أَفْضَلِ مأمولٍ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا[٣]: مَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ التُّقَىٰ فِي فَقْرِهِ[٤] أَكَلَ الحَرَامَ النَّصَّ[٥]**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذاكَ أنَّ التَّقوَىٰ هيَ الحَذرُ بالمُجَانَبةِ، فإذَا لمْ يكنْ عندَ العَبْدِ حَذَرٌ ومجانبةٌ لمَا حَذَّرَ اللهُ منهُ فِي[٦] مَطعمِهِ وسَائرِ مَا هوَ فيهِ، وأقدمَ علىٰ كلِّ ما تَهْوَاهُ نَفْسُهُ من غيرِ حَذَرٍ ولَا مُجَانبةٍ لشيءٍ منَ الأشياءِ أكلَ الحَرَامَ،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٤.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٥١، ونسب لزقاق في: تاريخ دمشق ٦٩/٢٣٩، وصفة الصفوة ٢/٤١٥، وإحياء علوم الدين ١١/٦١٩.

(٤) في نتائج الأفكار ٢/٢٥٠: «إنما قصر الكلام علىٰ حالة الفقر؛ لأن للنفس في حالاته تأويلات وتلبيسات، وللشيطان أيضا فيها دسائس، فمن دام علىٰ حبس نفسه في هذه الحالات يرجىٰ له خير الدنيا والدين».

(٥) في (ف): المحض، وكلاهما بمعنىٰ واحد، وهو الخالص.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

وكذلِكَ سائرُ ما يفعلُهُ يُدْخِلُ عليهِ الحَرامَ وهوَ لَا يشعرُ؛ لقلَّةِ حذرِهِ ومُجانبتِهِ؛ وذلكَ أنَّ الفقيرَ تقارِنُهُ الحاجةُ فتكونُ داعيةً إلىٰ ما يحتاجُ إليهِ، تحملُهُ علىٰ الإقدامِ علىٰ كلِّ ما تيسَّرَ لهُ، فإذا اجتمعَ عليهِ: قوَّةُ الدَّاعِي ـ وهيَ الحاجةُ إلىٰ الشَّيءِ ـ، وضعْفُ الصَّارفِ ـ وهوَ الحذرُ ـ وقعَ في كُلِّ ضَررٍ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ[٢]: الوَرَعُ: الخُرُوجُ مِنْ[٣] كُلِّ شُبْهَةٍ، وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ مَعَ كُلِّ طَرْفَةٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ ربَّمَا وقعَ تنبيهًا لمَنْ يزعمُ أنَّ الوَرعَ إنَّمَا يكونُ في الطَّعامِ واللِّباسِ ومَا ظهرَ أمرُهُ، فبيَّنَ بهَذَا القولِ أنَّ الورعَ يكونُ في خَواطرِ القُلُوبِ وفي سَائِرِ أفعَالِ الجوارحِ، سواءٌ كانَتْ عبادَاتٍ أو عادَاتٍ، فلا بدَّ منَ التَّثبُّتِ، فإنَّ كلَّ جارحةٍ منَ العينِ والأذنِ واللِّسانِ وغيرِهِ منَ الأعضاءِ يجرِي فيهِ الورعُ، وكذلِكَ عزمُ القلبِ قدْ يعزمُ العبدُ علىٰ المحرَّمِ والمكروهِ؛ إمَّا لجهلِهِ بحكمِهِ، أو لغلبةِ هوَاهُ بعدَ عِلمِهِ، فبيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الورعَ عندَ كلِّ خطرةٍ ولحظةٍ وحَركَةٍ، فإنْ كانَ[٤] ممَّا يُرْضِي اللهَ قَبِلَ، وإنْ كانَ ممَّا يَكرهُ أو يَسخطُ انكفَّ وجانَبَ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ[٦]: مَا رَأَيْتُ أَسْهَلَ مِنَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١١٥، وشعب الإيمان للقصري ص٢٥٩، والغنية للجيلاني ص٢٥١.

(٣) في (ب): عن.

(٤) في (أ، ب): كانت، والأصح المثبت.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين، والغنية للجيلاني ص٢٥٢، ومدارج السالكين ٢/٢٢، ونسب لحسان بن أبي سنان في: قوت القلوب ٢/٤٧٧، وأتبعه أبو طالب المكي بقوله: «وهذا سهل علىٰ من ساعده القدر بالزهد وقواه علىٰ ذي النفس الشهوانية، كما أنّ الزهد سهل علىٰ مَن أمده الله=

الوَرَعِ ؛ مَا حَاكَ[(١)] فِي نَفْسِكَ تَرَكْتَهُ» .

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ إنَّمَا تكملُ سُهُولَتُهُ علىٰ مَنْ كمُلَ زهدُهُ في الحَلالِ ، وقلَّتْ [١٨٨/١أ] رغبتُهُ فيهِ بالكلِّيَّةِ ، ولمْ ينلْ ممَّا تحقَّقَ حِلُّهُ إلَّا بمقدارِ الضَّرُورةِ ، وإقامةِ البَيِّنةِ ، فإذَا كمُلَ إعراضُهُ عنِ الحَلالِ فهوَ عنِ المُشكلِ أشدُّ إعراضًا ، وأخفُّ تَحَمُّلًا .

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَقَالَ مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ[(٣)]: احْفَظْ لِسَانَكَ مِنَ المَدْحِ كَمَا تَحْفَظُهُ مِنَ الذَّمِّ»** .

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا أيضًا ممَّا تقدَّمَ الفراغُ منهُ ؛ وهوَ أنَّ العبدَ قدْ يسبقُ لهُ أنَّ الورعَ إنَّمَا يحسنُ عنِ الذَّمِّ لكونِ الشَّرعِ نهَىٰ عنهُ ، وقدْ يحسُنُ الورعُ أيضًا في المدحِ لأحدِ وجهَينِ ؛ إمَّا أنْ يقولَ بلسانِهِ في الممدوحِ ضدَّ مَا يعتقدُهُ فيكونَ كاذبًا ، وإمَّا أنْ يقولَ حقًّا فَيُدْخِلَ الممدوحَ فِي ضررٍ ويقطعَ ظهرَهُ ؛ لوقوعِهِ في عُجْبٍ[(٤)] أو كِبْرٍ أو شيءٍ منَ المحرَّمَاتِ المرتبطةِ برؤيةِ النَّفسِ ورفعَتِهَا ، فلهذَا قالَ معروفٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**احفَظْ لسانَكَ منَ المَدْحِ** ـ فإنَّ فيهِ الورعَ ـ **كمَا تحفظُهُ من الذَّمِّ**» .

وكذلِكَ يحفظُ لسانَهُ منَ الحديثِ في الفضُولِ ، وذِكْرِ أخبارِ النَّاسِ ، فإنَّهُ قدْ يكونُ كاذبًا ، وإنْ لمْ يكنْ متعمِّدًا ، وقدْ قِيلَ[(٥)]: «كَفَىٰ بِالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ

= بروح التأييد باليقين ، وعزيز علىٰ مَن ابتلي بحبّ الدنيا» .

(١) أي: تحرك في نفسك .

(٢) الرسالة القشيرية ٢٣٥/١ .

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢٧٠/٤ ، والغنية للجيلاني ص٢٥٢ ، والسلامة في الدين للملوي ص٧٦ .

(٤) في (ب): عجبه .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١٠/١ ـ حديث رقم (٥) .

مَا سَمِعَ»، فليحفَظْ لسانَهُ عنِ النَّقلِ لِمَا يجري بينَ النَّاسِ منَ الكلامِ خوفًا منْ وقوعِهِ في الكَذِبِ، ولذلكَ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ الكذبَ ينقسمُ إلى ما يتعمَّدُهُ العبدُ وإلى ما يقعُ فيهِ بغيرِ عمدٍ إذا نقل مَا قيلَ، وَقَدْ يكونُ المنقولُ كذبًا فيكونُ هوَ كاذبًا؛ إذْ حَدُّ الكَذِبِ: الإخبارُ عنِ الشَّيءِ على خِلافِ ما هوَ عليهِ[(٢)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: **أَشَدُّ الأَعْمَالِ[(٥)] ثَلَاثَةٌ: الجُودُ فِي القِلَّةِ، والوَرَعُ فِي الخُلْوَةِ، وَكَلِمَةُ الحَقِّ عِنْدَ مَنْ يُخَافُ وَيُرْجَى**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وموضعُ الاستشهادِ الورعُ فِي الخُلوةِ، وذلكَ أنَّ العبدَ قدْ يتورَّعُ ويتنزَّهُ منَ[(٦)] النَّقْصِ اليسيرِ إذَا كانَ معَ النَّاسِ؛ إمَّا لكونِهِ مرائيًا، أوْ لكونِهِ يجدُ المُعِينَ والمُسَاعدَ، فإنَّ النَّاسَ يعملُ بعضُهُمْ على رُؤيةِ بعضٍ، وينشطُ بعضُهُمْ بنشاطِ بعضٍ.

وأمَّا مَنْ يتورَّعُ وحْدَهُ فِي خلوةٍ بحيثُ لا يرَاهُ أحدٌ ولا يجدُ مساعِدًا، فذلكَ لكمالِ إخلاصِهِ، ونزاهةِ [١/١٨٨ب] نفسِهِ وكمالِ حذرِهِ وخوفِهِ، فقولُهُ: «**أَشدُّ**» أرادَ: أشقُّ[(٧)] على النُّفوسِ القيامُ بذلِكَ معَ هذهِ الأشياءِ الثَّلاثةِ، وذلكَ أنَّ الجودَ فِي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٩٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٠٨، وإحياء علوم الدين ٤/١٧٨. ونسب للشافعي في: تاريخ دمشق ٥١/٤١١، والمنتظم ١٠/١٣٧، وصفة الصفوة ٢/٢٥١، والتبصرة لابن الجوزي ٢/٣٢٩، ومرآة الزمان ١٣/٤٠٦.

(٥) وإنما كانت أشد الأعمال؛ لكونها ليست من حظوظ النفس التي تميل إليها، بل من التي تنفر منها.

(٦) في (ب): في.

(٧) في (ب): شق.

القلَّةِ يحملُ عليهِ كمالُ الإيثارِ والإعراضُ عنِ النَّفسِ وحظِّهَا حتَّىٰ يُخرجَ الإنسانُ مَا هوَ مُحتاجٌ إليهِ إلىٰ غيرِهِ.

وكلمةُ الحقِّ عندَ مَنْ يُخَافُ ويُرْجَىٰ فيهَا كمالُ التَّغريرِ بالنَّفسِ وتعريضُهَا للإهانةِ، فلهذَا كانَتْ هذهِ الأفعالُ شاقَّةً علَىٰ النَّفسِ مخالفةً للهوَىٰ، ومِنْ جُمْلَتِهَا الوَرَعُ في الخُلْوةِ، وهوَ مقصودُ المسألَةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ**[٢]: **جَاءَتْ أُخْتُ بِشْرٍ الحَافِي إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فَقَالَتْ: إِنَّا نَغْزِلُ عَلَىٰ سُطُوحِنَا، فَتَمُرُّ بِنَا مَشَاعِلُ الظَّاهِرِيَّةِ، وَيَقَعُ الشُّعَاعُ عَلَيْنَا، أَفَيَجُوزُ لَنَا الغَزْلُ فِي شُعَاعِهَا؟**

فَقَالَ: مَنْ أَنْتِ عَافَاكِ اللهُ؟! فَقَالَتْ: أُخْتُ بِشْرٍ الحَافِي، فَبَكَىٰ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ **وَقَالَ: مِنْ بَيْتِكُمْ يَخْرُجُ الوَرَعُ الصَّادِقُ، لَا تَغْزِلِي فِي شُعَاعِهَا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ علىٰ **أنَّ المُفْتِي ينبغِي لهُ أنْ يراعِي في الفُتْيَا**[٣] **حالَ السَّائِلِ**، فإنْ لمْ يعرفْ حالَهُ أفتَاهُ بالجائزِ، وإنْ عرفَ حالَهُ وكمالَ تحفُّظِهِ أفتَاهُ بالأفضلِ والأكمَلِ، وذلكَ أنَّ التَّصرُّفَ[٤] في الشُّعاعِ ليسَ تصرُّفًا في مالِ الغيرِ، كالاستظلالِ بالحائطِ ليسَ تصرُّفًا في الحائطِ[٥]، وكالنَّظرِ في المرآةِ إذا كانَتْ منصوبةً في جدارٍ، وكذلكَ في الماءِ إذا كانَ مستقِرًا في آنيةٍ ورأَىٰ العبدُ فيهِ وجهَهُ كالمرآةِ، وإنَّمَا يحرمُ التَّصرُّفُ في مالِ الغيرِ بالنَّقلِ والانتفاعِ والتَّملُّكِ والأكلِ وغيرِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.

(٢) وردت هذه القصة في: حلية الأولياء ٨/٣٥٣، وتهذيب الأسرار ص١٠٨، ومرآة الجنان ٢/٩٤.

(٣) في (ب): الفيا، والصواب المثبت.

(٤) في (ب): المتصرف، والأصح المثبت.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٩٥.

فإذَا تقرَّرَ ذلكَ فنقولُ: كانَتْ أختُ بِشْرٍ تغزلُ فوقَ سطحٍ لهَا وجدرانُهَا قصارٌ، فإذَا مرَّ بعضُ الولاةِ قدَّامهُمُ المشاعلُ يتصرَّفُونَ بهَا ازدادَ النُّورُ عندَ أختِ بشرٍ زيادةً علىٰ نورِ السَّماءِ، وهيَ لا تحبُّ أنْ تتصرَّفَ في شيءٍ من أموالِ السُّلطانِ، فأتَتْ أحمدَ بنَ حنبلٍ لتسألَهُ عنْ هذهِ المسألةِ، فلمَّا سألَتْ وعرفَ رفعةَ السُّؤالِ وكمالَ الحالِ[(١)]، فسألَهَا مَنْ هِيَ؟ فلمَّا أخبرَتْهُ أنَّهَا أختُ بشرٍ بكَىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ ذهابِ بشرٍ وأمثالِهِ منَ الدُّنيَا، وقالَ لهَا: «**لَا تغزلِي في شعاعِهِمْ**»، أفتاهَا بالأفضلِ والأبعَدِ والأكملِ في الورعِ؛ لأنَّ غزلَهَا فيهِ زيادةُ انتفاعٍ علىٰ الجملةِ، وإنْ لم يكنْ تصرُّفًا في عينِ السِّراجِ، وكذلكَ الاستظلالُ بالحائطِ انتفاعٌ بالظلِّ الكائنِ عنِ الحائطِ، وكذلكَ الجلوسُ في ظلِّ الشَّجرةِ الَّتِي هيَ لمَنْ عليهِ الدَّينُ، وكذلكَ المرورُ علىٰ [١٨٩/١أ] قنطرةٍ بُنِيَتْ وإنْ كانَتْ لمصالحِ المسلمِينَ منْ أموالِ السَّلاطينِ.

ويقرُبُ مِنْ هذا مَا رُوِيَ أنَّ حِصْنًا كانَ يُبْنَىٰ ببعضِ السَّواحِلِ تعودُ منفعتُهُ علىٰ المسلمينَ في حِفْظِ ثُغورِهِمْ وبلادِهِمْ، فجاءَ رجلٌ إلىٰ سفيانَ الثَّوريِّ قالَ لهُ: يَا أبا عبدِ اللهِ[(٢)] إنِّي بصيرٌ بهذَا البناءِ، أترَىٰ بِي في رأيكَ أنْ أشيرَ عليهِمْ برأيِي كيفَ يُبْنَىٰ؟ فسكَتَ ساعةً ثمَّ قالَ: لَا تُشِرْ عليهِمْ برأيِكَ، إنِّي أخشَىٰ أنْ يُنادَىٰ يومَ القيامةِ بالظَّلَمَةِ وأعوانِهِمْ فتقومَ مِنْ أعوانِهِمْ، إنِّي أخشَىٰ أنْ يكونَ الأَجُرُّ من غيرِ حلِّهِ والجَصُّ من غيرِ حلِّهِ، فلمّا علِمَ سفيانُ ورعَهُ وكمالَ تحفُّظِهِ لمْ يُشِرْ عليهِ، وإنْ كانَتْ مصلحةً تعودُ إلىٰ المُسلمينَ، فقدَّمَ سلامتَهُ في نفسِهِ علىٰ منفعةِ غيرِهِ منَ المسلمينَ.

ومثلُهُ[(٣)] ما جرَىٰ لهُ؛ وهوَ أنَّهُ كانَ ماشيًا معَ بعضِ أصحابِهِ قريبًا مِنْ طلوعِ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): يا أبا عبدي، والصواب المثبت.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب). وورد في: حلية الأولياء ٧/٤١.

الشَّمسِ، فرأىٰ إنسانًا منْ أعوانِ الظَّلَمَةِ نائمًا، فخشِيَ أنْ تفوتَهُ الصَّلاةُ، فاستشارَهُ فقالَ: يا أبَا عبدِ اللهِ، نُقِيمُهُ ليصلِّيَ؟ فقالَ لهُ: لا تُقِمْهُ، مَا استراحَ النَّاسُ حتَّىٰ نامَ.

فهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ من أكمَلِ الورَعِ وأجلِّهِ حتَّىٰ تورَّعَ عن فعلِ الخيرِ مخافةَ الوقُوعِ في يسيرِ الشَّرِّ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ عَلِيٌّ العَطَّارُ[(٢)]: مَرَرْتُ بِالبَصْرَةِ فِي بَعْضِ الشَّوَارِعِ فَإِذَا مَشَايِخُ قُعُودٌ وَصِبْيَانٌ يَلْعَبُونَ، فَقُلْتُ: أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ المَشَايِخِ؟! فَقَالَ صَبِيٌّ مِنْ بَيْنِهِم: هَؤُلَاءِ المَشَايِخُ قَلَّ وَرَعُهُمْ فَقَلَّتْ هَيْبَتُهُمْ!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الصِّبيانَ الَّذينَ يلعبُونَ كانَ فيمَا يلعبُونَ بهِ ما يُكرَهُ ويُسْتَحْيَا منهُ؛ إمَّا في أفعالِهِمْ أوْ فِي أقوالِهِم، فلذلكَ قالَ لهُمْ هذا الرَّجُلُ: «**أمَا تستحيُونَ مِن هؤلاءِ؟**» معناهُ: وإنَّكُمْ إنْ كنتُمْ غيرَ مكلَّفِينَ فهؤلاءِ المشايخُ يكرهُونَ ما أنتُمْ عليهِ، فقالَ لهُ أحدُ الصِّبيانِ: «**هؤلاءِ المَشَايخُ قَلَّ ورَعُهُم**»، معناهُ: لو كانُوا مُتورِّعِينَ لَنَهَوْنَا عمَّا نحنُ فيهِ، فلمَّا جلسُوا واستحسنُوا أفعالَنَا ولمْ ينكرُوا قلَّتْ حرمتُهُمْ عندَنَا؛ لقُرْبِ أحوالِهِمْ من أحوالِنَا.

وهذَا يدلُّ [علىٰ][(٣)] مَا تضمَّنَهُ الخبرُ مِنْ تأديبِ الصِّبيانِ وأمرِهِمْ بالصَّلاةِ وهُمْ أبناءُ سبعٍ، وضربِهِمْ عليهَا وهمْ أبناءُ عشرٍ[(٤)]، وإنْ لمْ يكونُوا مكلَّفِينَ في

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٠٩، والغنية للجيلاني ص٢٥٢.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) ففي سنن أبي داود ١/١٣٣: «قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إذا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وإذا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عليها».
وفيه أيضا ١/١٣٣: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عليها وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ في الْمَضَاجِعِ».

أنفسِهِمْ ، فقدْ أمرَ الشَّرعُ المكلَّفينَ بتأديبِ أولادِهِمْ وجعلَ تركَهُمْ لهذَا التَّأديبِ من عدمِ إبرارِهِمْ وتركِ حقوقِهِمْ[١] ، فإنَّ للولدِ [١٨٩/١ب] علىٰ الوالدِ حقًّا ، وللوالدِ علىٰ الولدِ حقٌّ[٢] ، فإذَا أهملَ الوالدُ تهذيبَ ولَدِهِ فِي صغرِهِ عادَ ضَرَرُهُ عليهِ فِي كِبَرِهِ ؛ إمَّا أنْ يعُقَّهُ ولَا يمتثلَ لهُ أمرًا ولا نهيًا ، أو يؤذِي المسلمينَ لقلَّةِ أدبِهِ فيعودَ ضررُهُ علىٰ والدِهِ بالسَّبِّ لهُ والدُّعاءِ عليهِ في قلَّةِ أدبِهِ ، وأجلُّ ما نحلَ والدٌ ولدَهُ أدبٌ حسَنٌ .

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣] : «وَقِيلَ[٤] : إِنَّ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ مَكَثَ بِالبَصْرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمْ يَصِحَّ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ تَمْرِ البَصْرَةِ وَلَا مِنْ رُطَبِهَا حَتَّىٰ مَاتَ وَلَمْ يَذُقْهُ ، فَكَانَ إِذَا انْقَضَىٰ وَقْتُ الرُّطَبِ قَالَ : يَا أَهْلَ البَصْرَةِ هَذَا بَطْنِي مَا نَقَصَ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا زَادَ فِيكُمْ» .**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وهذا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ يحتملُ[٥] أنْ يكونَ ورعًا لشيءٍ يعرفُهُ في تمرِ البصرةِ ؛ إمَّا للتَّصرُّفِ فيهِ تصرُّفًا لا يُرْضِي ، أوْ لاختلاطِ جيِّدِهِ برديئِهِ شَرْعًا ، أوْ غيرِ ذلكَ .

ويحتملُ أنْ يكونَ تركَهُ[٦] زُهْدًا ، وقولُهُ : «**فَلَمْ يصحَّ لهُ أنْ يأكلَ منهُ**» يشيرُ إلىٰ الورعِ ؛ لمَا فيهِ منَ الشُّبَهِ .

ويحتملُ أنْ يكونَ تركَهُ مخالفةً لشهوتِهِ ، فلَمْ يصحَّ لهُ أكلُهُ لوجْهٍ دينيٍّ ، إمَّا

---

(١) انظر : أحكام القرآن للجصاص ٢٤٣/١ .

(٢) تأملها مفصلة في : حقوق أخوة الإسلام للشعراني ص٢١٠ ، وما بعدها ـ بتحقيقي .

(٣) الرسالة القشيرية ٢٣٥/١ .

(٤) ورد قوله في : تهذيب الأسرار ص١١٣ ، والغنية للجيلاني ص٢٥٢ .

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب) .

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب) .

بغيرِ شهوةٍ وإمَّا لعدمِ مَنْ يؤثرُهُ بهِ، فيكونُ الغالبُ عليهِ مخالطةَ الفقراءِ والمحتاجِينَ، فمَا فُتحَ عليهِ بهِ منهُ وعندَهُ المحتاجونَ آثرهُمْ بهِ، وخالفَ محبَّةَ نفسِهِ، وأكْلَهُ بشهوةٍ؛ لأنَّهُمْ يريدُونَ أنْ يكونَ أكلُهُمْ وشُربُهُمْ ونومُهُمْ طاعةً، ولا يكونُ طاعةً إلَّا إذَا قارَنَتْهُ النِّيَّةُ الصَّالحةُ وتيسَّرَتْ فيهِ.

ومِنْ ذلكَ مَا حُكِيَ أنَّ بِشْرَ بنَ الحارثِ قالَ[١]: «إنِّي لأشتَهِي الشِّواءَ منذُ أربعينَ سنةً[٢] ما صفِيَ لِي ثَمنُهُ»، وكونُهُ لمْ يصفُ لهُ ثمنُهُ تارةً من عدمِ حلِّهِ وخَلاصِهِ مِنَ الشُّبَهِ، وتارةً لكونِهِ رأَىٰ صرفَ الثَّمنِ في غيرِ الشَّوْيِ آكدَ وأولَىٰ، فلمْ يَصْفُ لهُ.

وعلَىٰ الجُملةِ فهوَ ورعٌ كاملٌ، وقدْ صرَّحَ بهِ وإنِ احتملَ الزُّهدَ.

قَالَ[٣] الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]:

«وَقِيْلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ[٥]: أَلَا تَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ؟ فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي دَلْوٌ لَشَرِبْتُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ ورعٌ في سَبَبِ وُصُولِ المَاءِ إليهِ، وإنْ كانَ[٦] الماءُ في نفسِهِ حلالًا فاضلًا، ومِنْ ذلكَ مَا حُكِيَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ[٧]؛ قالَتْ زوجتُهُ ابنةُ عبدِ الملكِ: دخلَ علينَا يومًا فقالَ: هلْ عندَكُمْ مِنْ

(١) مر تخريج قوله.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.
(٥) ورد قوله في: الورع لابن أبي الدنيا ص١٠٠، وتهذيب الأسرار ص١١٥، ونشر المحاسن الغالية ص١٣٧، وإتحاف السادة المتقين ٦/٤٥٨.
(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٧) وردت هذه الحكاية في: الورع لابن حنبل ص٨٥، ولابن أبي الدنيا ص١٢٤، ونحوها في: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٥٢.

عَسَلٍ؟ فقلنا: لَا، فخرجَ، قالَتْ: فدفعتُ دينارًا لبعضِ الخدَّامِ ومضَىٰ علىٰ دابَّةٍ من دوابِّ البريدِ إلىٰ (بعلبكَّ)، وتعنِي بالبريدِ: الرُّسُلَ الَّذِينَ يتصرَّفُونَ [١/١٩٠أ] فِي[1] حوائجِ المسلمِينَ، فإنَّ السُّنَّةَ جرَتْ بأنَّ الدَّوابَّ والبريدَ وسائرَ ما يحتاجونَ إليهِ يكونُ من بيتِ المالِ ليصلَ المسلمُونَ إلىٰ حقوقِهِمْ منْ غيرِ غَرَامةٍ، وكذلكَ الغُفَرَاءُ والرَّقَّاصونَ ورجَّالةُ القضاةِ.

قالَ: فاشترَىٰ عَسَلًا علىٰ دابَّةٍ منْ هذِهِ الدَّوابِّ الَّتِي يُسافِرُ عليهَا لمصالحِ المسلمِينَ، فلمَّا دخلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ فقالَتْ[2] لهُ: كنتَ ذكرْتَ عسلًا وعندَنَا عسلٌ، فقالَ: أَرِنيهِ؛ فأحضرَتْهُ إليهِ فشرِبَ منهُ شربَةً فاستطيَبَهُ، فقالَ: مِنْ أينَ لكُمْ هذا العسلُ؟ فأخبرَتْهُ أنَّا سيَّرْنَا رجُلًا من أصحابِ البريدِ علىٰ دابَّةٍ بدينارٍ فاشترَاهُ، قالَ: فدعَا بذلكَ الرَّجُلِ فقالَ: خُذْ هذا العسلَ فَبِعْهُ واردُدْ إلينَا رأسَ مالِنَا، ومَا فضلَ فاجعلْهُ في علفِ داوبِّ البريدِ، ولوْ كانَ قَيْئِي ينفعُ المسلمِينَ لتقايئْتُ.

وهذَا القولُ منهُ إشارةٌ إلىٰ الفرقِ بينَ ما جرَىٰ لهُ وبينَ ما فعلَهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اللُّقمةِ الَّتِي تقيَّأَهَا[3]، وعمرُ في اللَّبنِ الَّذِي تقيَّأَهُ؛ وذلكَ أنَّ الفسادَ في قضيَّةِ أبِي بكرٍ راجعٌ إلىٰ أصْلِ ملكِ الطَّعامِ الَّذِي أتىٰ بهِ الغلامُ وفسادِ المعاوضَةِ فيهِ، وهاهُنَا سلِمَ عقدُ العسلِ منَ الفسادِ، وإنَّمَا تحرَّزَ من حملِهِ إليهِ بسببِ وصولِهِ إليهِ علىٰ دوابِّ البريدِ، وقدْ صرفَ منَ الرِّبحِ ما يفِي بأُجْرَةِ الدَّابَّةِ وأزيدَ، ولذلِكَ قالَ: «لو كانَ قَيْئِي ينفعُ المسلمِينَ لتقايئْتُ».

وأمَّا قضيَّةُ[4] عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **فإنَّهَا تقرُبُ من قضيَّةِ أبي بكرٍ**

---

(١) في (ب): إلىٰ.

(٢) في (ب): قالت.

(٣) تقدم في ٢/٨٨.

(٤) وردت في: سنن البيهقي الكبرىٰ ٧/١٤، وشعب الإيمان ٥/٦٠.

الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وذلكَ أنَّ رجلًا أتاهُ بلبَنٍ فشرِبَ منهُ واستطيبَهُ، ثمَّ قالَ لهُ: مِنْ أينَ لكَ هذَا اللَّبنُ؟ فقالَ لهُ: مررْتُ بإبلِ الصَّدَقَةِ وهيَ تحلبُ فأعطونِي هذَا فجعلتُهُ في سقائِي، فأدخلَ عمرُ يدَهُ فتقيَّأَهُ، وقالَ: كدتَ أنْ تهلكَنِي، وإنَّمَا ذلكَ لكونِ الآتي باللَّبنِ ممَّنْ لا يجوزُ لهُ أخذُهُ، إمَّا لاستغنائِهِ أوْ لرقٍّ فيهِ[(١)]، أو لسببٍ منَ الأسبابِ الَّتِي تمنعُهُ من ملكِ لَبنِ الصَّدقةِ.

وقَدْ أكلَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طعامٍ تُصُدِّقَ بهِ على بَرِيرَةَ وعلَى نُسَيْبَةَ ـ وهيَ أمُّ عطيَّةَ ـ[(٢)]، وذلكَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بيتَ عائشةَ فسألَهَا عن طعامٍ فقالَتْ: ما عندَنَا إلَّا منَ الشَّاةِ الَّتِي تُصُدِّقَ بهَا على بريرةَ، فقالَ [لهَا][(٣)]: «إنَّهَا قَدْ بلغَتْ محلَّهَا»[(٤)].

وفِي روايةٍ[(٥)]: «هيَ لهَا صدقةٌ ولنَا هديَّةٌ».

فدلَّ ذلكَ على أنَّ حاملَ اللَّبنِ لوْ كانَ ممَّنْ يستحقُّهُ وأهداهُ لعمرَ لمْ يتقيَّأْهُ، وخرجَ من مجموعِ ما فعلَهُ أبو بكرٍ وعمرُ بنُ [١/١٩٠ب] الخطَّابِ وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ

---

(١) في (ب): منه.

(٢) هي: نسيبة بنت كعب بن عمرو بن مبذول، أم عطية الأنصارية، الفاضلة المجاهدة الأنصارية الخزرجية النجارية المازنية المدنية، شهدت أحدًا، والحديبية، ويوم حنين، ويوم اليمامة.
انظر في ترجمتها: الطبقات الكبرى ٨/٤١٢، والاستيعاب ٤/١٩٤٧، وأسد الغابة ٧/٣٠٣.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٥٢٤ ـ حديث رقم (١٣٧٧)، ومسلم في صحيحه ٢/٧٥٦ ـ حديث رقم (١٠٧٦).
قال ابن الأثير: «(بلغت محلها) أي: وصلت الى الموضع الذي تحل فيه، وقضي الواجب فيها من التصدق بها فصارت ملكًا لمن تصدق بها عليه، يصح له التصرف فيها ويصح قبول ما أهدى منها وأكله، وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يحرم عليه أكل الصدقة» النهاية ١/٤٣٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٩١٠ ـ حديث رقم (٢٤٣٨)، ومسلم في صحيحه ٢/٧٥٥ ـ حديث رقم (١٠٧٤).

شرعيَّةُ السُّؤالِ عمَّا يأكلُهُ الإنسانُ أو يَشربُهُ، وإنْ كانَ بعدَ فواتِهِ أخرجَهُ منْ جوفِهِ.

وفيهِ دلالةٌ علَىٰ أنَّ الطَّعامَ والشَّرابَ وإنْ فاتَ بتغيُّرِهِ وفسادِهِ إخراجُهُ منَ الجوفِ أولَىٰ مِن إبقائِهِ، ولوْ كانَ إذَا فسدَ، ولزمَتْ ذمَّةَ مُتْلِفِهِ قيمَتُهُ أوْ مثلُهُ لَمَا احتاجَ أحدٌ منهُمْ إلىٰ إخراجِهِ منْ جوفِهِ، وهذَا أوضحُ[١] دليلٍ علىٰ أنَّ الطَّعامَ إذا فاتَ إمَّا بالبيعِ الصَّحيحِ أوِ بالطَّحنِ والخَبزِ ومَا يجرِي مجرَاهُ، وملَكَهُ مُقيتُهُ[٢] ولزمَهُ غرمُهُ، كانَ الورعُ فيهِ ألَّا يؤكلَ، وأنْ يُتْرِكَ وإنْ كانَ مِلْكًا لمَالِكِهِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: كَانَ الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **إِذَا مَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ طَعَامٍ فِيهِ شُبْهَةٌ ضَرَبَ عَلَىٰ رَأْسِ إِصْبَعِهِ عِرْقٌ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ حَلَالٍ**»[٤].

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ حفظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للأولياءِ، وتنبيهِهِمْ علىٰ مَا خفِيَ عنهُمْ منَ الأحكامِ، وهوَ لا يخرمُ القاعدةَ الَّتِي تأصَّلَتْ في الدِّينِ؛ وهوَ أنَّ الأحكامَ الخمسةَ إنَّمَا تُتلقَّىٰ من أدلَّةِ الشَّرعِ لَا غيرِهِ[٥]، وضربَانُ العِرْقِ ليسَ دليلًا شرعيًّا، فكيفَ يتركُ لأجلِهِ الطَّعامَ ويحكمُ بشيءٍ فيهِ؟!

وهذَا فيهِ تنبيهٌ علىٰ أنَّ الخارقَ إنَّمَا يقعُ في مناطِ الحكمِ ومتعلَّقِهِ لا في دليلِهِ، وذلكَ أنَّهُ قدِ استقرَّ شرْعًا أنَّ الطَّعامَ المغصوبَ بالسَّرقةِ أوِ الظُّلمِ، والَّذِي وقعَتْ فيهِ نجاسةٌ لا يجوزُ أكلُهُ، عُلِمَ ذلكَ مِنَ الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ، ولكنْ يبقَىٰ هلْ وقعَ فِي هذا الطَّعامِ شيءٌ أو مَا وقعَ؟ فهذَا لا يلزمُ أنْ يكونَ المعرِّفُ لهُ شرعيًّا، بلْ يعرفُهُ

---

(١) في (ب): واضح.

(٢) في (ب): سفينة، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٣٥.

(٤) مر تخريجه في ١/٢٣٩.

(٥) في (ب): لغيره.

الإنسانُ بأخبارِ غيرِهِ، ومِنْ تنبيهٍ في منامٍ ومِنْ ظُلمةٍ يرَاهَا العبدُ على الطَّعامِ، ومِنْ[١] ضربَانِ عِرقٍ، أوْ عدمِ سياغِ الطَّعامِ وابتلاعِهِ، فيُجْرِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ هذِهِ العادةَ للعبدِ يحملُهُ علىٰ التَّفتيشِ عنهُ، فإذَا وقعَ لهُ ذلكَ مرَّةً وبحثَ عنهُ فوجدَ الطَّعامَ مسروقًا، أوْ وقعَتْ فيهِ نجاسةٌ وتكرَّرَ هذَا النَّوعُ عليهِ صارَتْ عادةً حسنةً يكونُ سببًا لانكفافِهِ عن أكلِ ذلكَ الطَّعامِ، ولَا يلزمُ أنْ يجرِيَ لهُ ذلكَ فِي كلِّ طعامٍ حتَّىٰ يتركَهُ وهوَ مضطرٌ إليهِ؛ لأنَّ جريانَ هذَا الخارقِ لهُ كرامةٌ، فلَا يجريهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ إلَّا فِي[٢] وقتٍ لا يخلُّ تركُهُ بواجبٍ عليهِ، فإنَّهُ محفوظٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ومِنْ هذَا القبيلِ ما استقرَّ فِي الشَّريعةِ أنَّ العيبَ يُوجِبُ الرَّدَّ[٣]، فهذَا لا يعرفُ إلَّا بدليلِهِ[٤] الشَّرعيِّ، وهلْ هذَا عَيْبٌ[٥] [١/١٩١أ]، أوْ ليسَ بعيبٍ يعرفُهُ أهلُ العادةِ؟ ولا يلزمُ أنْ يكونَ المعرِّفُ لهُ شرعيًّا، والمُسكِرُ لا يحلُّ شربُهُ، وهَلْ هذَا مسكرٌ أوْ غيرُ مسكرٍ يُعرفُ بالعادةِ وإخبارِ مخبرٍ، وهذهِ قاعدةٌ لا إشكالَ فيهَا.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقِيلَ[٧]: إِنَّ بِشْرًا الحَافِيَ دُعِيَ إِلَىٰ دَعْوَةٍ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَعَامٌ، فَجَهِدَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ فَلَمْ تَمْتَدّ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ رَجُلٌ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ: إِنَّ يَدَهُ لَا تَمْتَدُّ إِلَىٰ طَعَامٍ فِيهِ شُبْهَةٌ، مَا كَانَ أَغْنَىٰ صَاحِبَ الدَّعْوَةِ أَنْ يَدْعُوَ هَذَا الشَّيْخَ!».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ جنسِ ما تقدَّمَ للمُحَاسبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ

---

(١) في (ب): أو من.
(٢) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: الشريعة.
(٣) انظر: الذخيرة ٥/٣٤٦.
(٤) في (ب): بدليل.
(٥) في (أ): عيبًا.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.
(٧) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٧٠ ـ ٧١، والغنية للجيلاني ص٢٥٣.

ضربانِ العِرقِ، وهوَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يكرِّمُ أولياءَهُ بأنْ يجعلَ لهُمْ أماراتٍ يدلُّهُمْ علىٰ أنَّ في الطَّعامِ شيئًا وإنْ دقَّ، ويكونُ انكفافُهُمْ عنهُ طاعةً وزيادةَ حمايةٍ(١).

وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الطَّعامَ الحلالَ لهُ تأثيرٌ في القلوبِ، وكذلِكَ الحرامُ وما بينَهُمَا، سواءٌ عرَفَ الآكلُ أو لمْ يعرِفْ، فيكونُ الحقُّ ـ سبحانه ـ جعلَ للطَّعامِ الَّذِي تصرَّفَ فيهِ من أوَّلِ نشْئِهِ إلىٰ حينِ بلوغِهِ إلىٰ أكْلِهِ علىٰ وجْهِ الموافقةِ للشَّرعِ لهُ تنويرٌ في القلبِ ونشاطٌ في الجوارحِ، وغيرُ ذلكَ مِن أماراتِ الخيرِ(٢)، وبعكسِهِ ما فيهِ شبهةٌ فِي كَسْبِهِ أو ملكِهِ(٣)، فلَوْ كانَ الأثرُ إنَّمَا هوَ تابعٌ لغلبةِ الظَّنِّ لاستوَىٰ حالُ العارفِ بأنَّ فيهِ شيئًا، ومَنْ(٤) لمْ يعرفْهُ بالنَّظرِ لتناولِهِ(٥) وإنِ اختلفُوا في الانكفافِ عن أكْلِهِ، فإنَّهُ يختصُّ بهِ مَنْ نُبِّهَ(٦).

وَقَوْلُ(٧) هذا الرَّجلِ الَّذِي كانَ في المجلسِ وعرَفَ عادةَ بِشرٍ وأنَّ يدَهُ لا تمتدُّ لطعامٍ فيهِ شبهةٌ ما أغنَىٰ صاحبَ هذَا الطَّعامِ أنْ يدعوَ هذَا الشَّيخَ، أيْ: أنَّ بسببِهِ عرَفَ الحاضرُونَ أنَّ فِي الطَّعامِ شبهةً، والظَّاهرُ أنَّهُ كانَ في غنًىٰ عنْ أنْ يحضرَ هذا القائلُ الَّذِي تكلَّمَ بهذَا الكلامِ ونبَّهَ النَّاسَ علىٰ ما لَمْ يعرفُوهُ مِنْ حالِ بِشْرٍ معَ تطرُّقِ الاحتمالاتِ إلىٰ فعلِهِ، ولعلَّهُ تركَ الطَّعامَ لأسبابٍ أُخَرَ غيرِ مَا يعرفُهُ منْ عادتِهِ؛ إمَّا لوجَعٍ وجدَهُ، أو لطعامٍ تقدَّمَ أكلُهُ لهُ ودعاهُ هذَا فلمْ يخالفْهُ وحضرَ فلمْ يأكلْ، وأجابَ دعاءَهُ لحقِّ المسلمِ، وللخبرِ الصَّحيحِ(٨): «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ

(١) في (ب): حما، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): الخبره، والأصح المثبت.

(٣) أفاده الشيخ زكريا الأنصاري في: إحكام الدلالة ١/٣٩٦.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) في (ب): لتناول، والأصح المثبت.

(٦) سقط من (ب) قوله: «من نبه».

(٧) في (ب): وهو، والصواب المثبت.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/١٠٥٤ ـ حديث رقم (١٤٣١).

فَلْيُجِبْ ؛ فَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيَدَعْ» ، أوْ لأعذارٍ أخرَ لمْ يعلَمْهَا هذَا القائلُ ولَا كانَ أحدٌ منَ الحاضرِينَ يتنبَّهُ لشيءٍ منهَا ، فإنْ قصدَ هذَا القائلُ تعريفَ فضيلةِ بِشْرٍ فمَا أوردَهَا في وقتٍ يدلُّ على فضيلتِهِ وكانَ يمكنُهُ تعريفُهُمْ ذلكَ فِي [١٩١/١ب] غيرِ هذا المحلِّ ولا يتأذَّىٰ بهِ أحدٌ منَ النَّاسِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ [بنُ أحمدَ][٢] بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَىٰ الصُّوفِيُّ[٣] قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَي التَّمِيمِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ سَالِمٍ بِالبَصْرَةِ يَقُولُ[٤]: سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنِ الحَلَالِ ؛ فَقَالَ: الحَلَالُ الَّذِي لَا يُعْصَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِيهِ.**

وَقَالَ سَهْلٌ[٥]: الحَلَالُ الصَّافِي الَّذِي لَا يُنْسَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِيهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الحلالَ عبارةٌ عمَّا مُلِكَ علىٰ وجهٍ شرعيٍّ لا شبهةَ فيهِ ، وردًّا علىٰ مَنْ يزعمُ أنَّهُ لا حلالَ إلَّا ما لمْ تتناولْهُ أيدِي المخلوقينَ مِنْ أكلِ الحشائشِ في الصَّحارِي[٦] ومَا يجرِي مجرَاهُ[٧] ، بلْ مَا كانَ ذلكَ حلالًا لإباحةِ الشَّرعِ لهُ ، وكذلِكَ كلُّ مَمْلُوكٍ مِنْ طَعَامٍ وغيرِهِ وقعَ التَّصرُّفُ فيهِ علَىٰ الوجْهِ المَشْروعِ ، فهوَ حلالٌ ، وإنْ باشرَهُ بنُو آدمَ ، ولذلِكَ قالَ: «**الحَلالُ مَا لَا يُعصَىٰ اللهُ فيهِ**».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٣٦/١.
(٢) زيادة من (ب). وكرر لفظ (محمد بن يحيىٰ) في النسختين.
(٣) في (ف): «أحمد بن محمد بن يحيىٰ الصوفي».
(٤) ورد قوله في: اللمع في التصوف ص٧١، ومدارج السالكين ٢٢/٢.
(٥) ورد قوله في: اللمع في التصوف ص٧١، ولطائف الإشارات ٨٣/١، ومدارج السالكين ٢٢/٢.
(٦) أي: النابته في الصحاري.
(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٣٩٧/١.

وقولُهُ: «مَا لَا يُنسىٰ اللهُ فيهِ» يحتملُ أمرَينِ:

أحدُهُمَا ـ وهوَ الأوَّلُ ـ: أنْ يكونَ العبدُ ذاكِرًا للهِ ـ تعالىٰ ـ عندَ حركاتِهِ وتصرُّفِهِ في هذَا الشَّيءِ الَّذي وُصِفَ بكونِهِ حلالًا، فلَمْ ينسَ اللهَ عندَ تصرُّفِهِ حتَّىٰ خالفَهُ، بلْ تثبَّتَ حتَّىٰ عِلمَ حكمَهُ وذكرَ اطِّلاعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليهِ(١) فيهِ.

الوجهُ الثَّانِي ـ وهوَ أرفعُ منَ الأوَّلِ ـ: أنْ يكونَ الحلالُ بعدَ معرفتِهِ بحلِّهِ وجريانِهِ علىٰ الوجْهِ المشروعِ لا يحبُّهُ الإنسانُ محبَّةً شديدةً حتَّىٰ يشغلَهُ عن ربِّهِ وعنْ ذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، ويصحُّ أنْ يُطلَقَ علىٰ هذَا حلالٌ(٢) بمعنَىٰ: أنَّهُ لا ضررَ فيهِ؛ لَا فِي كسْبِهِ، ولَا فِي الشُّغلِ بهِ عن ربِّهِ.

والمقامُ الثَّانِي أفضَلُ منَ الأوَّلِ؛ وذلكَ أنَّهُ وإنْ حلَّ طعامُهُ وسائرُ مَا بيدِهِ لا يحبُّهُ ولَا يسكنُ إليهِ ولَا يشتغلُ بهِ شُغْلًا يشغلُهُ عن ربِّهِ وعنْ ذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، فهذَا هوَ الحلالُ المطلقُ الَّذِي لا ضررَ فيهِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«دَخلَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ مَكَّةَ، فَرَأَىٰ غُلَامًا مِنْ أَوْلَادِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَىٰ الكَعْبَةِ يَعِظُ النَّاسَ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ الحَسَنُ وَقَالَ(٤): مَا مَلَاكُ الدِّينِ؟ فَقَالَ: الوَرَعُ، فَقَالَ: فَمَا آفَةُ الدِّينِ؟ فَقَالَ: الطَّمَعُ، فَتَعَجَّبَ الحَسَنُ مِنْهُ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الاستشهادِ أنَّ ملاكَ الدِّينِ الورَعُ، وملاكُ الشَّيءِ: أصلُهُ وأركانُهُ، فمتىٰ غفلَ الشَّخصُ عنِ الورَعِ الواجبِ والمَنْدُوبِ [١/١٩٢أ]

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): حلالا حلال.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١١٦، ومدارج السالكين ٢/٢٢، والغنية للجيلاني ص٢٣٦.

تلِفَ دينُهُ ؛ وذلكَ أنَّ الواجبَ منَ الورعِ مجانبةُ المحرَّماتِ ومجانبةُ الإخلالِ بالواجباتِ ، وكذلكَ الإخلالُ بالمندوباتِ ومجانبةُ المكروهاتِ ، وإنْ تعالَىٰ كلٌّ منهُمَا فِي الدَّرجاتِ ، وهذَا يكونُ في القلبِ والجوارحِ ، ولذلكَ تعجَّبَ الحسنُ من كَلامِهِ.

وأمَّا آفةُ الدِّينِ الطَّمعُ ، فهوَ الطَّمعُ في الدُّنيَا ولِمَا في أيدِي النَّاسِ ، فإنَّ مَنْ قوِيَ طَمَعُهُ لمْ يتوقَّفْ عن شيءٍ تيسَّرَ لهُ وتسبَّبَ لتحصيلِهِ بمَا أمكنَهُ ، سواءٌ كانَ ممَّا يُرضِي ربَّهُ أمْ لَا والعياذُ باللهِ تعالَىٰ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الحَسَنُ: مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الوَرَعِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ مِثْقَالٍ مِنَ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الورعَ معَ السَّلامةِ والصَّلاةِ والصَّومِ فيهِمَا الغَنيمةُ[٢] ، وهذَا إذَا سَلِمَ منَ الآفاتِ ودخولِ الرِّياءِ والعُجْبِ والكِبْرِ بذلكَ علىٰ غيرِهِ ممَّنْ فاتَتْهُ هذهِ الخيراتُ[٣] ، بخلافِ البُعْدِ عنِ المُحرَّماتِ والمكروهاتِ ، فإنَّ السَّلامةَ حَاصِلَةٌ في ذلِكَ علىٰ كُلِّ الحَالاتِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمْ يَتَقَرَّبْ إِلَيَّ المُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ الوَرَعِ[٥].

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: جُلَسَاءُ اللهِ غَدًا[٧] أَهْلُ الوَرَعِ وَالزُّهْدِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.

(٢) أي: للأجر ، وفي الورع السلامة من الوزر.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٩٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/١٢٠ ، والأوسط ٤/١٨٨ ، والترمذي في نوادر الأصول ٢/٣٥٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٤٥.

(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٢ ، وهو قول سلمان الفارسي في: الفردوس بمأثور الخطاب ٢/١٠٨ ، وكنز العمال ٣/١٧٢.

(٧) أي: في الآخرة.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا قولُهُ ـ تعالى ـ لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ الوَرَعِ**»، فهوَ ما قدَّمْنَاهُ وأشرْنَا إليهِ منَ البُعدِ عنِ[1] المُخَالفاتِ[2]، سواءٌ قارنَتْهَا النِّيَّاتُ أوْ لمْ تُقارِنْهَا، فإنْ قارنَتْهَا كانَتْ طَاعَاتٍ، وإنْ لمْ تقارنْهَا النِّيَّاتُ سلِمَ العبدُ بتركِهَا منَ الآفاتِ، بخلافِ الطَّاعاتِ الَّتِي اشترطَ الشَّرعُ فيهَا النِّيَّاتِ، وسَلامتُهَا موقوفةٌ علىٰ حُصُولِ شُرُوطِهَا الخَالِصَةِ وهيهَاتَ[3].

وأمَّا **كونُ أهلِ الزُّهدِ والورعِ جلساءَ اللهِ يومَ القيامةِ**، فإنَّهُمْ تقرَّبُوا إليهِ بأفضلِ القُرُبَاتِ؛ وهوَ بغضُ ما أبغضَ وكراهةُ ما كرهَ علَىٰ ما دلَّتْ عليهِ الآياتُ والأخبارُ الوَاضِحَاتُ، وقدْ تقدَّمَ الخبرُ[4] الصَّحيحُ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»، وحديثُ الجدْيِ الأسكِّ الميِّتِ الَّذِي مسكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذنِهِ وقالَ[5]: «مَنْ يَأْخُذُهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ كَانَ حَيًّا مَا سَاوَىٰ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَأَقْسَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ وَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ ـ لَلدُّنْيَا [١/١٩٢ب] عَلَىٰ اللهِ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ».

فهلْ سمِعْتَ يا أخِي قَسَمَ سيِّدِ العَرَبِ والعَجَمِ، المُبَرَّإِ من سائِرِ النَّقصِ والتُّهَمِ بربِّهِ، العارفِ بجلالِهِ وكمالِهِ أنَّ الدُّنيا بجملتِهَا أهونُ عليهِ من هذَا الجدْيِ الميِّتِ عليكُمْ، أمْ أنتَ سكرانُ بحبِّهَا ذاهبُ العقلِ بعشقِهَا، غافلٌ عن قَسَمِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ يعرفُهُ حقَّ معرفتِهِ علىٰ الكمالِ والتَّمامِ بحقارةِ الدُّنيَا عندَ ربِّهِ؛ لِيُزَهِّدَ أُمَّتَهُ فِي

(١) في (ب): من التعدي المخالفات.

(٢) في (أ): المخلفات.

(٣) أي: وبعدًا.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٦٠.

(٥) سبق تخريجه.

الاشتغالِ بهَا عَنْ مَوْلاهُ، ويكونَ إعراضُهُمْ عنها لِتَحْصُلَ لهُمْ محبَّةُ ربِّهِمْ - تعالىٰ - وَوَلاهُ لَا إلهَ إلَّا إيَّاهُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(٢)]: مَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ الوَرَعُ أَكَلَ رَأْسَ الفِيلِ وَلَمْ يَشْبَعْ[(٣)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «رأسَ الفِيْلِ» تَنْبيهٌ علىٰ شِدَّةِ رغبتِهِ في الدُّنيَا، وَأَكْلِهِ ما يحسنُ ومَا لَا يحسنُ، ومَا يطيبُ ومَا لا يطيبُ[(٤)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقِيلَ[(٦)]: حُمِلَ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِسْكٌ مِنَ الغَنَائِمِ، فَقَبَضَ عَلَىٰ مَشَامِّهِ وَقَالَ: إِنَّمَا يُنْتَفَعُ مِنْ هَذَا بِرِيحِهِ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَجِدَ رِيحَهُ دُونَ المُسْلِمِينَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ أكملِ الورَعِ، وحُكِيَ أَنَّهُ أمرَ مَنْ يقْسِمُهُ أنْ يبعدَ عنهُ حتَّىٰ لمْ يجدْ رائحتَهُ حتَّىٰ قُسِّمَ بينَ النَّاسِ خوفًا مِنْ أنْ يتنعَّمَ هوَ برائحتِهِ ومَنْ حضرَهُ دونَ بقيَّةِ المسلمِينَ الَّذينَ هُمْ فيهِ شركاءُ.

وهذِهِ هِيَ عادتُهُ وشأنُهُ في الورَعِ، حُكِيَ[(٧)] أنَّهُ احتاجَ إلىٰ أنْ يستعملَ الماءَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.

(٢) ورد قوله في: مرآة الزمان ١٦/٢٠٣، والسلامة في الدين ص٧٧.

(٣) أي: اشتددت رغبته في الدنيا.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٩٧.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.

(٦) ورد بمعناه في: الورع لابن أبي الدنيا ص٧٤، وتاريخ دمشق ٢٨/٦٤، وحدائق الحقائق ص٧٤، ومرآة الزمان ١٠/٢٧٤، ونشر المحاسن الغالية ص١٣٧.

(٧) وردت هذه الحكاية في: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٤٥، والورع لابن أبي الدنيا ص١٢٤.

السَّاخنَ، فأخذُوا آنيةً وجعلُوا فيهَا ماءً وجعلوهُ تحتَ مطابخِ المسلمِينَ[١] الَّتِي[٢] يُطْبَخُ فيهَا للعامَّةِ الأطعمةُ، ويأتونَهُ بهِ مدَّةً منَ الزَّمانِ وهوَ لا يشعرُ، ثمَّ علِمَ بذلِكَ فأمرَ بتلكَ الآنيةِ أنْ تملأَ ماءً ويشترَىٰ حطبًا ويُعرَفُ مقدارُ مَا يسخِّنُ ذلكَ الماءَ منَ الحطبِ، وحسبَ الأيَّامَ الَّتِي كانَ يسخَّنُ لهُ فيهَا الماءُ وحملَ منَ الحطبِ مثلَ ذلكَ إلىٰ مطابخِ المسلمِينَ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَسُئِلَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيرِيُّ عَنِ الوَرَعِ فَقَالَ[٤]: كَانَ أَبُو صَالِحٍ حَمْدُونٌ عِنْدَ صَدِيقٍ لَهُ وَهُوَ فِي النَّزْعِ، فَمَاتَ الرَّجُلُ، فَنَفَثَ أَبُو صَالِحٍ فِي السِّرَاجِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِلَىٰ الآنَ كَانَ الدُّهْنُ لَهُ فِي المِسْرَجَةِ[٥]، وَمِنَ الآنَ صَارَ لِلْوَرَثَةِ، اُطْلُبُوا دُهْنًا غَيْرَهُ»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ تقدَّمَ الكلامُ علىٰ هذَا[٦]، وبيَّنَّا أنَّ حقَّ الميِّتِ لَا ينقطعُ من هذا الدُّهنِ ما دامَ في بيتِهِ [١/١٩٣أ] إنِ احتاجَ إليهِ، كمَا أنَّهُ أحقُّ بكفنِهِ ولوازمِهِ منَ الورثةِ، فإنَّهُ لوْ تُركَ في ليلةٍ فِي بيتٍ مظلمٍ بلا سَراجٍ، كانَ ذلكَ إهانةً لهُ واستنقاصًا لحرمتِهِ، كمَا أنَّا[٧] نُراعِي ذلكَ في كفنِهِ ولا نكفِّنُهُ بشيءٍ يزرِي بقدرِهِ؛ إذْ لا حقَّ للورثةِ في ذلِكَ، وقدْ لا يَجْرِي وقودُ السِّراجِ مَجْرَىٰ الكفنِ؛ لأنَّ ذلكَ مختصٌّ بدارِهِ وأهلِهِ والكفنُ مشتهرٌ بينَ النَّاسِ يمكنُ فيهِ الازدراءُ والإهانةُ.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): الذي، والأصح المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٣٦.

(٤) سبق تخريجه في الدلالة ١/٣٣٧.

(٥) هي: ما يوضع فيها الفتيلة والدهن للإضاءة. انظر: مختار الصحاح ص١٢٤.

(٦) الدلالة ١/٣٣٨.

(٧) في (ب): أنه، والصواب المثبت.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «**وَقَالَ كَهْمَسٌ**[٢]: **أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أَبْكِي عَلَيْهِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُ زَارَنِي أَخٌ لِي، فَاشْتَرَيْتُ بِدَانِقٍ سَمَكَةً مَشْوِيَّةً، فَلَمَّا فَرَغَ أَخَذْتُ قِطْعَةَ طِينٍ مِنْ جِدَارِ جَارٍ لِي حَتَّىٰ غَسَلَ يَدَهُ وَلَمْ أَسْتَحِلَّهُ**[٣]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا يدلُّ علىٰ غايةِ احترازِهِ منَ الذُّنوبِ الَّتي يستخفُّ[٤] النَّاسُ بهَا معَ العلمِ وشدَّةِ تألُّمِهِ عليهَا.

وقولُهُ: «**وَلَمْ أستحلَّهُ**» يعنِي قبلَ الإقدامِ علىٰ الفعلِ، فلمَّا أقدمَ علىٰ الفعلِ معَ علمِهِ بتحريمِهِ خشِيَ من ذلكَ سخطَ ربِّهِ ومقتَهُ، فبكاؤُهُ طولُ المدَّةِ علىٰ كونِهِ أقدمَ قبلَ[٥] الاستحلالِ، لا[٦] أنَّهُ استمرَّ علىٰ تركِ الاستحلالِ هذهِ المدَّةَ، واكتفىٰ بالبُكَاءِ. وقدْ يكونُ استحلَّهُ بعدَ ذلكَ في يومِهِ، فيكونُ بُكَاؤُهُ علىٰ إقدامِهِ معَ علمِهِ بتحريمِهِ.

وفائدةُ هذِهِ الحكايةِ: كونُهُ لمْ يتورَّعْ عنِ الإقدامِ منْ غيرِ سُؤالِ الاستحلالِ، ومِنْ هذا الوجْهِ كانَ عذابُ العالِمِ أشدَّ مِنْ عذابِ الجاهلِ؛ لِجُرْأَتِهِ علىٰ الإِقْدَامِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٧]: «**وَكَانَ رَجُلٌ يَكْتُبُ رُقْعَةً وَهُوَ فِي بَيْتٍ بِكِرَاءٍ، فَأَرَادَ أَنْ يُتَرِّبَ الكِتَابَ مِنْ جِدَارِ البَيْتِ**[٨]**، فَخَطَرَ بِبَالِهِ أَنَّ البَيْتَ بِالكِراءِ، ثُمَّ إِنَّهُ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٧.
(٢) تقدّم عن عتبة الغُلام.
(٣) في (ب): يستحله.
(٤) في (ب): يستحقر، والأصح المثبت من أجل لفظة (بها).
(٥) في (ب): أقدم علىٰ قبل.
(٦) في (ب): إلا، والصواب المثبت.
(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٣٧.
(٨) أي: يجعل عليه التراب لتجفيف الحبر.

خطرَ بِبالِهِ أَنَّهُ لا خطرَ لِهَذا، فتَرَّبَ الكِتابَ فَسمِعَ هاتِفًا يَقولُ: سَيَعْلَمُ المُسْتَخِفُّ بِالتُّرابِ ما يَلْقاهُ غدًا مِنْ طُولِ الحِسابِ».

❊ قالَ الشّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على رفعةِ منزلةِ هذا الشَّخصِ عندَ اللهِ ـ تعالى ـ؛ لكونِهِ نُبِّهَ على البُعدِ عنِ الشَّيءِ النَّزرِ من أموالِ المسلمينَ الَّذينَ لا يتشاحُّونَ في مثْلِهِ، وذلكَ أنَّ هذا البيتَ الَّذي كانَ ساكنًا فيهِ بكِراءٍ قدْ يكونُ مبنيًّا بالطِّينِ، فإذا حكَّ منهُ شيئًا يسيرًا ليجفِّفَ بهِ ما كتبَهُ في الكتابِ فيكونَ في غايةِ القلَّةِ الَّذي لوْ رآهُ صاحبُهُ لمْ يكرهْهُ؛ لكونِهِ لا يضرُّ البناءَ، ولكنَّهُ لمَّا أخطرَ[1] اللهُ بقلبِهِ قبلَ الفعلِ أنَّ هذا تصرُّفٌ في مالِ الغيرِ بغيرِ إذنِهِ، وبعدَ ذلكَ أقدمَ على [١/١٩٣ب] الفعلِ بعدَ علمِهِ فعُوتِبَ عليهِ.

وهذا ممَّا تقدَّمَ ذِكْرُهُ من شدَّةِ المُؤاخَذَةِ على مَنْ يقدمُ متعدِّيًا معَ علمِهِ بالتَّحريمِ، وقدْ قالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «إنَّ اللهَ يعذِّبُ على الصَّغيرِ فلا تغترُّوا، ويعفُو عنِ الكبيرِ فلا تَقْنَطُوا».

❊ **قالَ الإمامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: **«ورَهَنَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ[4] رَحِمَهُ اللهُ سَطْلًا لَهُ عِنْدَ بَقّالٍ بِمَكَّةَ، فَلَمّا أَرادَ فَكاكَهُ أَخرجَ البَقّالُ إِلَيْهِ سَطْلَيْنِ وَقالَ: خُذْ أَيُّهُما لَكَ، فَقالَ أَحْمَدُ: أُشْكِلَ عَلَيَّ سَطْلِي فَهُوَ لَكَ وَالدَّراهِمُ لَكَ، فَقالَ البَقّالُ: سَطْلُكَ هَذا، وَأَنا أَرَدْتُ أَنْ أَمْتَحِنَكَ[5]، فَقالَ: لا آخُذُهُ، وَمَضَى وَتَرَكَ السَّطْلَ عِنْدَهُ».**

---

(١) أي: ذكَّره بعد نسيان. انظر: اللسان: «خطر».

(٢) ورد قوله في: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٣٠٤/٢، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٢٤/١، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح ٥٤٨/٢٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٣٧/١.

(٤) ورد في: حلية الأولياء، ١٦٩/٩، وتاريخ دمشق ٣٠١/٥، وصفة الصفوة ٣٤٧/٢، والبداية والنهاية ٣٢٨/١٠. وفيه تنبيهٌ على أنه كان متحققا بحقيقة الورع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) في (ب، ف): أجربك، وكل صواب.

❊ قالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: وهذا ـ رحمَكَ اللهُ ـ يدلُّ على أحدِ أمرَينِ: إمَّا أنْ يكونَ جهلَ سطْلَهُ ولمْ يعرفْهُ فلمَّا أشكِلَ عليهِ تركَهُ وقامَ بمَا عليهِ منَ الحقِّ لربِّهِ، أوْ يكونَ كُشفَ لهُ ما أرادَهُ البقَّالُ منِ امتحانِهِ، وهلْ هوَ منَ الزُّهَّادِ أوْ منَ العارفِينَ بحقارةِ الدُّنيَا، ويدلُّ عليهِ قولُهُ: «**هذَا سطْلُكَ فخُذْهُ**»، فقالَ: «**إنَّمَا أردْتُ أنْ أمتحنَكَ**»، فيكونُ تركَهُ زهدًا وتعريفًا لهُ بأنَّ أهلَ الدِّينِ والزُّهدِ لا يلتفتُونَ لشيءٍ منَ الدُّنيَا؛ ليتأدَّبَ بذلكَ ولا يمتحِنَ أحدًا، إذْ لا حاجةَ لهُ في ذلِكَ[١].

وإذا كانَ تركَهُ ورعًا علىٰ الوجْهِ الأوَّلِ فلَا يلتفتُ لقولِهِ مرَّةً ثانيةً: «**هذَا سَطْلُكَ**»، فإنَّهُ أوَّلًا ادَّعىٰ الجهالةَ لهُ بهِ حتَّىٰ قالَ لهُ: «**خُذْ سَطْلَكَ منهُمَا**»، فلمْ يلتفِتْ لقولِهِ الثَّانِي، ولمْ يَحْصُلْ لهُ عليهِ ظنٌّ بهِ فتركَهُ ومَا عليهِ ورَعًا، ويكونُ تركهُ لهُ علىٰ الوجْهِ الآخرِ زهدًا وأدبًا لهُ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ[٢]: «**وَقِيلَ: سَيَّبَ ابْنُ المُبَارَكِ دَابَّةً قِيمَتُهَا كَثِيرَةٌ، وَصَلَّىٰ صَلَاةَ الظُّهْرِ فَرَتَعَتِ الدَّابَّةُ فِي قَرْيَةٍ سُلْطَانِيَّةٍ[٣]، فَتَرَكَ الدَّابَّةَ وَلَمْ يَرْكَبْهَا[٤].**

وَقِيلَ[٥]: رَجَعَ ابْنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ (مَرْوَ) إِلَىٰ (الشَّامِ) فِي قَلَمٍ اسْتَعَارَهُ فَلَمْ يَرُدَّهُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ».

❊ قالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: فأمَّا رُتُوعُ دابَّةِ ابنِ المباركِ في قريةٍ سلطانيَّةٍ، يعنِي: أنَّهَا مشتركةٌ بينَ المسلمِينَ وازدرعَتْ بأموالِ السَّلاطينِ، فتورَّعَ من ركوبِ الدَّابَّةِ

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٣٣٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٧.

(٣) ورد قوله في: طبقات الحنفية لابن أبي الوفا ص٥٣٢، والنور السافر ص٢٩٩، وإرشاد العباد إلىٰ سبيل الرشاد ص١٣٨.

(٤) بل تركها لصاحب الزرع.

(٥) أي: في زرع قرية سلطانية؛ زرعت بأموال السلطان.

لمَا حصلَ لهَا منَ القوَّةِ بما أكلَتْهُ.

ومِنْ هذا القبيلِ ما حُكِيَ أنَّ ابنَ سيرِينَ أرسلَ غلامًا لهُ ليشترِيَ لهُ قمحًا، فبعدَ شِرَائِهِ علمَ أنَّهُ منَ الصَّوافِي فلَمْ يأكلْهُ، وإنْ كانَ شراؤُهُ صحيحًا لهُ[١] وعقدَ عليهِ عقدًا شرعِيًّا.

و(**الصَّوافِي**)[٢]: أراضِي لمْ تُقَسَّمْ بينَ المسلمِينَ، اختُصَّ بهَا بعضُ الولاةِ والسَّلاطينِ؛ لكثرةِ نجابتِهَا، وحُسْنِ غَلَّتِهَا [١/١٩٤أ].

وأمَّا كونُهُ ردَّ القَلَمَ من (مَرْوَ) إلى (الشَّامِ)، فهذَا من بابِ العاريةِ، ولمْ يُملِّكْهُ القلمَ صاحبُهُ، وإنَّمَا أعارَهُ لهُ عاريةً مضمونةً مؤدَّاةً[٣]، فلو تركَهُ لكانَ مُطالبًا بهِ، وقدْ تقدَّمَ أنَّ تعميرَ الذِّممِ بالأموالِ لا يشترطُ فيهِ عمدٌ ولا نسيانٌ، ولا طاعةٌ ولا عصيانٌ، فمَنْ أكلَ مالَ المسلمِينَ عندَ الضَّرورةِ ووجبَ عليهِ الأكلُ كانَ عليهِ غُرْمُهُ[٤]، ومَنْ غصبَ شيئًا وكانَ غاصبًا[٥] بفعلِهِ كانَ عليهِ غرمُهُ، وكذلكَ إذا تلفَ مالُ شخصٍ عمدًا أو نسيانًا أو خطأً كانَ عليهِ غُرْمُهُ.

ومِنْ هذا القبيلِ رجوعُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ من بيتِ المقدسِ إلى البصرةِ فِي التَّمرةِ الَّتِي وقعَتْ من تَمْرِ البقَّالِ على تَمْرِهِ ولَمْ يشعرْ حتَّى نُبِّهَ عليهَا بالملكَينِ وهوَ نائمٌ تحتَ الصَّخرةِ وسافرَ إلى البصرةِ وألقَى تمرةً على تَمرِ البقَّالِ، وقدْ تقدَّمتِ الحكايةُ[٦].

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير ٣/٤٠.

(٣) أي: يثبت ضمانها إذا تلفت عينها، ويجب دفعها لمالكها ما بقيت عينها، وإن كان مثل هذا قد يُتسامح فيه اليوم.

(٤) في (ب): عطية غرمة.

(٥) في (أ): عاصيا، وهو تصحيف.

(٦) الدلالة ٢/٧٦.

والفَرْقُ بينَ هَذِهِ الصُّورةِ وما تَقَدَّمَ لإبراهيمَ: أنَّ هذا سلَّمَ لهُ القلمَ مُختارًا، وقَدْ أذِنَ لهُ فِي الانتفاعِ بهِ، والأمرُ فيهِ قريبٌ ما يتشاحَحُ النَّاسُ في مثْلِهِ، والتَّمرةُ لم يعلَمِ البقَّالُ بهَا ولَا يدرِي إبراهيمُ كيفَ حالُهُ لو علِمَ هلْ يهونُ عليهِ أوْ لا يهونُ؟ فالأمرُ فِي القلمِ أخفُّ منَ التَّمرةِ[١] من هذَا الوَجْهِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَاسْتَأْجَرَ النَّخْعِيُّ دَابَّةً، فَسَقَطَ سَوْطُهُ[٣] مِنْ يَدِهِ، فَنَزَلَ وَرَبَطَ الدَّابَّةَ، وَرَجَعَ فَأَخَذَ السَّوْطَ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ حَوَّلْتَ الدَّابَّةَ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي سَقَطَ [فِيهِ][٤] السَّوْطُ فَأَخَذْتَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا اسْتَأْجَرْتُهَا لِأَمْضِي هَكَذَا، لَا هَكَذَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ أيضًا ـ منَ الورعِ الشَّافِي، وذلكَ أنَّ النَّاسَ لا يتشاحُّونَ في كِرَاءِ الدَّوابِّ علىٰ هذا القدرِ، ولا سيَّمَا إذا كانَ الأمرُ قريبًا، فإنَّ سقوطَ السَّوطِ من يدِهِ معَ كونِهِ لا يستغنَىٰ عنهُ، وموضعَ ربطِهِ للدَّابَّةِ حتَّىٰ رجعَ وأخذَهُ إنَّمَا يكونُ قريبًا جدًّا، ولكنَّهُ لمَّا استأجرَهُ علىٰ أنْ يصلَ بهِ إلىٰ المكانِ الفلانيِّ، فكأنَّ[٥] العقدَ وقعَ مضيُّهُ خاصَّةً لا علَىٰ[٦] مضيِّهِ ورجوعِهِ كرَّتَينِ، فتورَّعَ في هذِهِ الرَّجعةِ اليسيرَةِ حتَّىٰ يأخذَ السَّوطَ.

وفيهِ ورعٌ آخرُ؛ وهوَ أنَّهُ كانَ يقِفُ في موضِعِهِ ويأمرُ غيرَهُ أنْ يناولَهُ السَّوطَ الَّذِي سقطَ منهُ ولا يرجعَ[٧]، ولكنَّهُ تورَّعَ من سؤالِ النَّاسِ وتسخيرِهِمْ، كمَا حُكِيَ

---

(١) في (ب): الثمرة، وهو تصحيف.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٧.

(٣) أي: في غير جهة مقصده، كما يُفهم من جوابه.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) في (ب): مكان. وانظر في كراء الدواب: الأم ٤/٢٤، ومختصر خليل ص٢٤٧.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) سقط من (ب) قوله: ولا يرجع.

أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ راكبًا على بعيرٍ فسقطَ مِقْودُ البعيرِ من يدِهِ إلى الأرْضِ، فقالَ: أخْ أخْ؛ فنوَّخَ بعيرَهُ [١٩٤/١ب] وأخذَ مِقْودَهُ وركبَ عليهِ، فقيلَ لهُ في ذلِكَ فقالَ: سمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ(١): «لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»(٢).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الزَّقَّاقُ(٤): تِهْتُ فِي تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَلَمَّا وَافَيْتُ الطَّرِيقَ اِسْتَقْبَلَنِي جُنْدِيٌّ، فَسَقَانِي شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ، فَعَادَتْ قَسْوَتُهَا عَلَى قَلْبِي ثَلَاثِينَ سَنَةً».

❁ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على كَمَالِ ورعِهِ، فإنَّهُ كانَ لا يقدمُ على شيءٍ منَ المأكولِ أوِ المشروبِ ولا غيرِهِ، إمَّا يكونُ على صاحبِهِ أمارةٌ تدلُّ على قلَّةِ تحفُّظِهِ في مالِهِ، والغالبُ على الجُندِ قلَّةُ التَّحفُّظِ فيمَا يأخذونَهُ، وكانَ في حالةِ سفرِهِ قدْ بلغَتْ بهِ الضَّرورةُ إلى أنْ تناولَ مِن هذا الجنديِّ ما عزمَ على تركِهِ للهِ، وإنَّمَا أقدمَ عليهِ؛ لغلبَةِ العطشِ، فكلَّمَا تذكَّرَ أنَّ نفسَهُ قلَّ صَبْرُهَا حتَّى أخذَتْ هذا الشَّيءَ من غيرِ الوجْهِ الَّذِي عزمَ عليهِ وجدَ لذلِكَ قَسْوةً في قَلْبِهِ وَألَمًا، وهذَا وجهٌ.

الوجْهُ الثَّانِي ما شَرَحْنَا بهِ ضَربانَ العِرقِ للمُحاسِبِيِّ، وعدمَ انسياغِ الطَّعامِ

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٧٢١/٢ ـ حديث رقم (١٠٤٣)، وتمامه فيه: «... كنا عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَةً أو ثَمَانِيَةً أو سَبْعَةً، فقال: ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟ وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قد بَايَعْنَاكَ يا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قال: ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟ فَقُلْنَا: قد بَايَعْنَاكَ يا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قال: ألا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟ قال: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قد بَايَعْنَاكَ يا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ، قال: على أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً، ولا تَسْأَلُوا الناس شيئا، فَلَقَدْ رأيت بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فما يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٠٠/١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٣٧/١.

(٤) سبق تخريجه في الدلالة ٣٨٥/١.

لبِشْرٍ[١]، وكَوْنَهُ لا تمتدُّ يدُهُ إلىٰ طعامٍ فيهِ شبهةٌ، فعلَىٰ هذَا يكونُ القَسْوَةُ الَّتِي وجدَهَا تَدُلُّ علىٰ أنَّ الماءَ الَّذِي شَرِبَهُ لَمْ يَكُنْ صَافيًا، واللهُ أعلمُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: **وَقِيلَ[٣]: خَاطَتْ رَابِعَةُ شقًّا فِي قَمِيصِهَا فِي ضَوْءِ مِشْعَلَةِ سُلْطَانٍ، فَفَقَدَتْ قَلْبَهَا زَمَانًا حَتَّىٰ تَذَكَّرَتْ، فَشَقَّتْ قَمِيصَهَا، فَوَجَدَتْ قَلْبَهَا».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ ما قدَّمْنَاهُ في تأويلِ المُحاسبِيِّ وبِشْرٍ، وما تقدَّمَ من أحَدِ الوجهَينِ وهوَ أنَّ تعاطِي المحرَّماتِ أوِ المكروهاتِ وإنْ لمْ يعلَمِ المرءُ بهَا ولَا يقدمُ عليها متعمِّدًا يكونُ لهَا تأثيرٌ في قلبِهِ منَ القَسْوَةِ وغيرِهِ، وهذا في حقِّ رابعةَ حفظٌ حتَّىٰ لا تنتفعَ بشيءٍ من أموالِ السَّلاطينِ.

ومثلُهُ ما تقدَّمَ لأختِ بشرٍ الحافِي[٤] لمَّا سألَتْ أحمدَ بنَ حنبلٍ، قالَتْ لهُ[٥]: **«إنَّا تَمُرُّ بنَا مَشَاعِلُ الظَّاهريَّةِ ونَحْنُ نَغْزِلُ علَىٰ السَّطحِ أفنغزلُ في شعاعِهَا أمْ لَا؟ قالَ: مَنْ أنتِ عافاكِ اللهُ؟ قالَتْ: أختُ بِشرٍ الحافِي، فبكَىٰ، وقالَ: لا تغزلِي في شعاعِهَا»**، وكذلِكَ رابعةُ لمَّا خاطَتْ شقًّا في قميصِهَا في ضوءِ مشعلِ السُّلطانِ وجدَتِ القسوةَ حتَّىٰ فتقتْهُ، وهذَا حفظٌ وتأديبٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لمَنْ جلَّتْ رتبتُهُ تارةً قبلَ الوقوعِ [١/١٩٥أ] وتارةً بعدَ الوقوعِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: **«وَرُئِيَ[٧] سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي المَنَامِ وَلَهُ جنَاحَانِ،**

---

(١) سبق في الدلالة ١/٢٣٩

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٧.

(٣) ورد في: الغنية للجيلاني ص٢٥٥.

(٤) في الدلالة ٢/٩٩.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٣٨.

يَطِيرُ فِي الجَنَّةِ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَىٰ شَجَرَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: بِمَ نِلْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: بِالوَرَعِ بِالوَرَعِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ المناماتُ[(١)] أمثِلَةٌ تدلُّ علىٰ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فإذَا[(٢)] كانَ العبدُ متورِّعًا وهوَ يرتكبُ مشقَّةَ الورعِ ويثقلُ حملُهُ وأعباؤُهُ ويُخْشَىٰ عليهِ الهروبُ منهُ، فإذَا أرادَ اللهُ بهِ خيرًا أرَاهُ فِي النَّومِ منازلَ الورِعِينَ، وحالَهُمْ في الجنَّةِ وتنعُّمَهُمْ فيهَا، فتقْوَىٰ رغبتُهُ وتشتدُّ فيهِ طلبتُهُ.

وإذَا كانَ العبدُ مُهمِلًا للورعِ مُقدِمًا علىٰ ما أحبَّتْهُ نفسُهُ ومالَ إليهِ بشهوتِهِ، سواءٌ كانَ حرامًا أوْ غيرَهُ، فإذَا أرادَ اللهُ بهِ خيرًا أرَاهُ في النَّومِ بعضَ المجتهدينَ والمتورِّعينَ غايةَ الوَرَعِ[(٣)] يقولُ لهُ: ما فعلَ اللهُ بكَ؟ يقولُ: الآنَ كمَا تخلَّصتُ منَ الحسابِ، فيكونُ ذلكَ سببَ توبتِهِ ورجوعِهِ عن حَوْبَتِهِ، فيقولُ في نفسِهِ: إذا كانَ هذا الرَّجلُ الكبيرُ الَّذِي يعرفُ اجتهادهُ كمَا تخلَّصَ مِنْ حسابِهِ، فكيفَ بحالِي ومَا أنَا عليهِ مِن تَخْلِيطِي!، ويكونُ سببًا لجدِّهِ في الخيرِ ورجوعِهِ عنِ الشَّرِّ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«وَوَقَفَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ عَلَىٰ أَصْحَابِ الحَسَنِ، فَقَالَ[(٥)]: أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ عَلَيْكُمْ؟ قَالُوا: الوَرَعُ، فَقَالَ: وَلَا شَيْءَ أَخَفُّ عَلَيَّ مِنْهُ، فَقَالُوا: فَكَيْفَ؟! فَقَالَ: لَمْ أَرْوَ[(٦)] مِنْ نَهْرِكُمْ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»**.

= لابن القيم ص٢٧، ومنية الواعظين وغنية المتعظين ص٤٩، وإرشاد العباد إلىٰ سبيل الرشاد ص١٦.

(١) في (ب): المقامات، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): فإن.

(٣) سقط من (ب) قوله: غاية الورع.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٣٨.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١١٥، والغنية للجيلاني ص٢٥٥.

(٦) أي: لم أشرب.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على كمالِ الزُّهدِ في الدُّنيَا ونعيمِهَا، فإنَّهُ على حسبِ تمكُّنِ الزُّهدِ في القلبِ يخفُّ الورعُ ويهونُ سلوكُهُ، وذلكَ أنَّ الزُّهدَ وعزوفَ النَّفسِ وإعراضَهَا عنِ الحلالِ الصَّافِي ومَنْ تعوَّدَ ذلكَ وتخلَّقَ بهِ كانَ عزوفُهُ عنِ المشكلِ وما فيهِ شبهةٌ أخفَّ وأسهلَ، فأرادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ ينقلَ أصحابَ الحسنِ منَ الورعِ إلى مقامِ الزُّهدِ، فدلَّهُمْ على ذلكَ بقولِهِ الَّذِي أنجعَ في الوعظِ مِنْ قولِهِ؛ وهوَ «**أنَّهُ لمْ يشرَبْ من نهرِهِمْ أربعينَ سنةً**» الَّذِي هوَ متيسِّرٌ عليهِ، ومَا كانَ ذلكَ داخلًا في الورَعِ، واللهُ أعلمُ إلَّا لمَا يُظلَمُ في حفرِهِ وتهيئتِهِ لجريانِ الماءِ فيهِ[1]، كمَا يُصنعُ في بلادِنَا فِي الجسورِ والتُّرعِ والخليجِ وغيرِهِ وتسخيرِ الفقراءِ، وأخْذِ أبقارِهِمْ جبْرًا، ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ [١/١٩٥ب].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ لَا يَنَامُ مُضْطَجِعًا وَلَا يَأْكُلُ سَمِينًا، وَلَا يَشْرَبُ مَاءً بَارِدًا سِتِّينَ سَنَةً، فَرُئِيَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَا مَاتَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ[3]: خَيْرًا، إِلَّا أَنِّي مَحْبُوسٌ عَنِ الْجَنَّةِ بِإِبْرَةٍ اسْتَعَرْتُهَا فَلَمْ أَرُدَّهَا**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ منَ القبيلِ الَّذِي شرحْنَاهُ في القلَمِ والتَّمرةِ، وهذَا حالُهُ في الإبرَةِ الَّتِي لمْ يَرُدَّهَا، هذَا معَ كمالِ زهدِهِ وكمالِ ورعِهِ وأنَّهُ لا ينامُ في اللَّيلِ مضطجعًا لكمالِ شغلِهِ بربِّهِ حتَّى ينامَ على حالتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا، ولا يأكلُ سمينًا ولا يشربُ باردًا، وهذَا كلُّهُ لزهدِهِ في الدُّنيَا، وبعدَ هذَا لمْ يُسَامَحْ فِي الإبرةِ، فإذَا كانَ الحبيبُ القريبُ[4] لمْ يُسَامَحْ في حقوقِ النَّاسِ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٣٨.

(٣) ورد قوله في: منية الواعظين ص٤٨، والغنية للجيلاني ص٢٥٥، ونشر المحاسن الغالية ص١٣٩، والكبائر ص١٢١، والزواجر ١/٤٥٠، والزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ص٦٩.

(٤) في (ب): الرقيب والصواب المثبت.

فكيفَ بمَنْ أكثرُ ليلِه ونهارِه يتمضمضُ بأعراضِ النَّاسِ[١] في الغِيبةِ والنَّميمةِ والسَّبِّ والقذْفِ وغيرِ ذلكَ منَ المحرَّماتِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ، خالقِ الأرضِ والسَّمواتِ، ونسألُهُ التَّوبةَ قبلَ المَماتِ[٢].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَكَانَ لِعَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ غُلَامٌ خَدَمَهُ سِنِينَ، وَتَعَبَّدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَ اِبْتِداءُ أَمْرِهِ كَيَّالًا، فَلَمَّا مَاتَ رُئِيَ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ[٤]: خَيْرًا، غَيْرَ أَنِّي مَحْبُوسٌ عَنِ الجَنَّةِ وَقَدْ أَخْرَجَ عَلَيَّ مِنْ غُبَارِ القَفِيزِ أَرْبَعِينَ قَفِيزًا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الكيَّالَ إذا اكتالَ القمحَ وغيرَهُ ممَّا فيهِ التُّرابُ حصلَ التُّرابُ في أسفلِ الكيلِ، فإنْ لمْ ينفضْهُ سريعًا وقتَ الكيلِ واكتالَ عليهِ مرَّةً أخرىٰ تزايدَ التُّرابُ علىٰ التُّرابِ، ومنعَ ذلكَ التُّرابُ غيرَهُ منَ القمحِ أو مَا يكالُ أنْ يكونَ مكانَهُ، فإذَا دامَ علىٰ ذلكَ سنينَ صحَّ أنْ يكونَ عليهِ شيءٌ كثيرٌ منَ الحقوقِ الَّتِي اكتالَهَا للنَّاسِ وَضَيَّعَهَا عليهِمْ بكونِهِ لمْ ينفضِ المكيالَ في كلِّ كيلِهِ.

وأمَّا كونُهُ محبوسًا عنِ الجنَّةِ، فقدْ وردَ[٥] الخَبَرُ الصَّحيحُ خرَّجَهُ (**البخاريُّ**)[٦]، وهوَ: «إِنَّ المُؤْمِنِينَ إِذَا تَخَلَّصُوا مِنَ الصِّرَاطِ حُبِسُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُم فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَلَأَحَدُهُم أَعْرَفُ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ

(١) سقط من (ب) قوله: «فكيف بمن أكثر ليله ونهاره يتمضمض بأعراض الناس».
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٠١/١.
(٣) الرسالة القشيرية ٢٣٨/١.
(٤) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٥٥، ونشر المحاسن الغالية ص١٣٩.
(٥) في (ب): ورد في.
(٦) في صحيحه ٢٣٩٤/٥ ـ حديث رقم (٦١٧٠).

الَّذِي[١] كَانَ فِي الدُّنْيَا»، يُلْهَمُونَ ذَلِكَ، وحمَلَ عليهِ بعضُ المُفَسِّرِينَ[٢] في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد: ٦][٣].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَمَرَّ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **بِمَقْبَرَةٍ فَنَادَىٰ** [١٩٦/١أ] **رَجُلًا مِنْهَا، فَأَحْيَاهُ اللهُ ـ سبحانه ـ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ حَمَّالًا أَنْقُلُ لِلنَّاسِ، فَنَقَلْتُ يَوْمًا لِإِنْسَانٍ حَطَبًا، فَكَسَرْتُ مِنْهُ خِلَالًا تَخَلَّلْتُ بِهِ، فَأَنَا مُطَالَبٌ بِهِ مُنْذُ مِتُّ»**[٥].

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفقَكَ اللهُ ـ مندرِجٌ تحتَ ما تقدَّمَ[٦] من حقوقِ الآدميِّينَ، وأنَّهُ لا يُسامَحُ بشيءٍ منها، وفي هذِهِ الحكايةِ زيادةٌ عمَّا تقدَّمَ من أخذِ التُّرابِ منَ الحائطِ؛ لأنَّ تُرابَ الكِتابِ بغيرِ إذْنِ صاحبِهِ، والإبرةُ والحطبُ فإنَّ فيهِمَا خيانةً؛ لأنَّهُ ائتمَنَهُ علىٰ حملِ الحَطَبِ، وقدْ قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٧]: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٨]: **«وَتَكَلَّمَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ فِي الوَرَعِ، فَمَرَّ بِهِ عَبَّاسُ بْنُ المُهْتَدِي، فَقَالَ[٩]: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَمَا تَسْتَحِي: تَجْلِسُ تَحْتَ سَقْفِ أَبِي**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) حيث قال في معنىٰ ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي: بطريق الإلهام. انظر: نتائج الأفكار ٢٥٨/٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٠٢/١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٣٨/١.

(٥) ورد في: الغنية للجيلاني ص٢٥٥.

(٦) في (ب): قدمناه.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه ٢٩٠/٣، والترمذي في سننه ٥٦٤/٣، والدار قطني في سننه ٣٥/٣، والدارمي ٣٤٣/٢.

(٨) الرسالة القشيرية ٢٣٨/١.

(٩) ورد قوله في: السلامة في الدين للملوي ص٧٧.

الدَّوانِيقِ(١)، وَتَشْرَبُ مِنْ بِرْكَةِ زُبَيْدَةَ(٢)، وَتَتَعَامَلُ بِالدَّرَاهِمِ(٣) المُزَيَّفَةِ(٤)، وَتَتَكَلَّمُ فِي الوَرَعِ ؟!».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَكَ اللهُ ـ توبيخٌ لمَنْ يتكلَّمُ في الورَعِ ولَا يتخلَّقُ بكمالِهِ، وداخلٌ تحتَ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وهذَا وإنْ صعُبَ أمرُهُ في الواجبِ الَّذِي يأمرُ الرَّجلُ النَّاسَ بهِ وهوَ مرتكِبٌ للإخلالِ بهِ، أو ينهاهُمْ عنِ المحرَّمِ وهوَ يلابسُهُ، فقدْ يكونُ الأولَىٰ ألَّا يتكلَّمَ الإنسانُ في أقسامِ المَنْدُوباتِ ودرجاتِ المَكْرُوهَاتِ خَوْفًا مِنْ دَعْوَىٰ نفسِهِ أنَّهُ متخلِّقٌ بهذِهِ الخَيْرَاتِ، وربَّمَا ادَّعَتْ نفسُهُ ذلكَ، وأشارَتْ إليهِ فِي بعضِ الحالاتِ، فيكونُ متشبِّعًا بمَا لمْ ينَلْ(٥) أو مُرَائِيًا طالبًا لحصولِ المنزلةِ في قلوبِ الخلْقِ علىٰ الطَّاعاتِ.

وأمَّا مَنْ صحَّتْ نيَّتُهُ في العِلمِ، وتكلَّمَ فيهِ لبيانِ الأحكامِ، وتفاوتِ الدَّرجاتِ، والفرقِ بينَ المقاماتِ؛ لتيسيرِ السُّلوكِ علىٰ السَّالكينَ، وزوالِ التَّخليطِ في أحكامِ الدِّينِ، فنفسُ كلامِهِمْ في هذَا مِنْ جُملةِ الأعمالِ إذَا صحَّتْ فيهِ النِّيَّاتُ، بلْ هوَ من فروضِ الكفاياتِ الَّتِي لَا يقومُ بهَا ولَا يُوازِنُهَا في الفضْلِ سَائرُ المَنْدُوبَاتِ، وهذَا كلُّهُ بشرطِ السَّلامةِ ممَّا(٦) ذكرْنَاهُ منَ الآفاتِ.

---

(١) لقبٌ لأبي جعفر المنصور، لُقِّب به لبخله، قال الذهبي: «كان المنصور يلقب أبا الدوانيق؛ لتدقيقه ومحاسبته العمال والصناع علىٰ الدوانيق والحبات» تاريخ الإسلام ٩/٤٦٦. انظر: تاريخ دمشق ٣٢/٣٠٨، والمغرب للمطرزي ١/٢٩٧، ومورد اللطافة ١/١١٩.

(٢) أي: زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور. انظر: العقد الفريد ٥/٩٧، ومآثر الإنافة ١/٢٠٣.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) أي: المغشوشة.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) في (ب): فيما.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: [١/١٩٦ب]

بَابُ الزُّهْدِ

«أَخْبَرَنَا [أَبُو القَاسِمِ][(٢)] حَمْزَةُ بْنُ يُوسُفَ السَّهْمِيُّ الجُرْجَانِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ عُبَيْدُ[(٣)] اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يَعْقُوبَ المُقْرِئُ بِبَغْدَادَ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُجَاشِعٍ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا الحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ، عَنْ يَحْيَي بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي فَرْوَةَ، عَنْ أَبِي خَلَّادٍ ـ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُوتِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَمَنْطِقًا، فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ»

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الزُّهْدِ[(٥)]:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الزُّهْدُ فِي الحَرَامِ؛ لِأَنَّ الحَلَالَ مُبَاحٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ ـ سبحانه ـ، فَإِذَا أَنْعَمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ عَبْدِهِ بِمَالٍ مِنْ حَلَالٍ، وَتَعَبَّدَهُ بِالشُّكْرِ عَلَيْهِ فَتركَهُ لَهُ بِاخْتِيَارِهِ وَلَا يُقْدِمُ عَلَىٰ إِمْسَاكِهِ [بِحَقِّ إِذنِهِ][(٦)]؛ لِحَقَارَتِهِ[(٧)].

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الزُّهْدُ فِي الحَرَامِ وَاجِبٌ، وَفِي الحَلَالِ فَضِيلَةٌ، فَإِنَّ إِقْلَالَ المَالِ وَالعَبْدُ صَابِرٌ فِي حَالِهِ، رَاضٍ بِمَا قَسَمَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لَهُ، قَانِعٌ بِمَا يُعْطِيهِ أَتَمُّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) زيادة من (ب، ف).

(٣) في (أ): عبد.

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه ٢/١٣٧٣، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/٣٩٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٤٦.

(٥) للمزيد انظر: تهذيب الأسرار ص١١٩.

(٦) زيادة من (ب، ف).

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب، ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

مِنْ تَوسُّعِهِ وَتبَسُّطِهِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ اللهَ - سبحانه - زَهَّدَ الخَلْقَ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الوَارِدَاتِ(١) فِي ذَمِّ الدُّنْيَا وَالتَّزْهِيدِ فِيهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِذَا أَنْفَقَ مَالَهُ فِي الطَّاعَةِ وَعَلِمَ مِنْ حَالِهِ الصَّبْرَ وَتَرْكَ التَّعَرُّضِ لِمَا نَهَاهُ(٢) الشَّرْعُ عَنْهُ فِي حَالِ العُسْرِ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ زُهْدُهُ فِي المَالِ الحَلَالِ أَتَمَّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَخْتَارَ تَرْكَ الْحَلَالِ بِتَكَلُّفِهِ، وَلَا طَلَبَ الفُضُولِ مِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيُرَاعِيَ القِسْمَةَ(٣)؛ فَإِنْ رَزَقَهُ اللهُ - تعالى - مَالًا مِنْ حَلَالٍ شَكَرَهُ، وَإِنْ وَقَفَهُ(٤) اللهُ - تعالى - عَلَى حَدِّ الكَفَافِ لَمْ يَتَكَلَّفْ فِي طَلَبِ مَا هُوَ فُضُولُ المَالِ، فَالصَّبْرُ أَحْسَنُ بِصَاحِبِ الفَقْرِ، وَالشُّكْرُ أَلْيَقُ بِصَاحِبِ المَالِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا تقدَّمَ منَ الأقوالِ فِي الزُّهدِ فخارجٌ عنْ حقيقتِهِ وماهيَّتِهِ، فبعضُهُمْ تكلَّمَ على حكمِهِ، وبعضُهُمْ تكلَّمَ في القناعةِ بمَا تيسَّرَ، وبعضُهُمْ أشارَ إلى الصَّبرِ والشُّكرِ في النِّعمةِ والضِّيقِ، وهذا كلُّهُ خارجٌ عن حقيقةِ الزُّهدِ، ونحنُ - إنْ شاءَ اللهُ - نميِّزُ حقيقتَهُ، ونذكرُ الأسبابَ الموصلةَ إليهِ، والثَّمراتِ المترتِّبَةَ عليهِ، وأدلَّةَ الشَّرعِ وحضَّهَا علىٰ التَّخلُّقِ بهِ منَ الخبرِ الصَّحيحِ [١/١٩٧أ] علىٰ ما سيأتِي - إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ -.

فأمَّا حقيقةُ الزُّهدِ: فهوَ عزوفُ النَّفسِ عنِ الدُّنيَا وإعراضُهَا عنهَا بالقلبِ، وهوَ ضدُّ الرَّغبةِ فيهَا، فالعبدُ إمَّا زاهدٌ وإمَّا راغبٌ، ولا يصحُّ عُزُوفُ النَّفسِ عنِ الدُّنيَا

---

(١) في (ب): الواردة.

(٢) في (ب، ف): ينهاه.

(٣) أي: قسمة الله له ولغيره.

(٤) في (أ): رزقه، والصواب المثبت.

إلَّا إذا عرَفَ حقريَّتَهَا وصِغَرَهَا عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فمَنْ عرفَ حقريَّةَ الشَّيءِ زهدَ فيهِ، ومَنْ عرَفَ شَرفيَّتَهُ رغبَ فيهِ، وبهذَا الاعتبارِ قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لإخوةِ يوسفَ: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ ـ أي: باعُوهُ ـ ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، وذلكَ لقلَّةِ معرفتِهِمْ بِقَدْرِهِ عندَ اللهِ وإعراضِهِمْ عنهُ بمَا ظَنُّوهُ من صرْفِ وجْهِ أبيهِمْ عَنْهُم بسببِهِ.

وكذلكَ الزُّهدُ في الدُّنيَا بوجهَينِ:

أحدُهُمَا: معرفةُ صغرِهَا وخسَّةِ قدرِهَا عندَ اللهِ، وسندلُّ علىٰ ذلكَ بمَا فيهِ كفايةٌ.

الثَّانِي: إنَّمَا تشغلُ عنِ التَّفرُّغِ لعبادةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، والشُّغلِ بمناجاتِهِ، وتَشْويشِ القَلْبِ علىٰ قدرِ محبَّتِهِ لهَا، فمَنْ عرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وشرفيَّتَهُ وجلالَهُ وعظمَتَهُ وكمُلَ اشتغالُهُ بهِ زهدَ في كلِّ ما يقطعُهُ عنهُ أو يشوِّشُهُ عليهِ، وهذا زهدُ العارفينَ، ومَا قدَّمنَاهُ منَ المعرفةِ بحقارةِ الدُّنيَا وخِسَّتِهَا زهدُ أكثرِ العابدِينَ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، وقالَ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»، خرَّجَهُ (التِّرمذِيُّ)[١]، وقالَ: «هذا حديثٌ صحيحٌ».

ورَوَىٰ (البخاريُّ)[٢] عن أنسٍ قالَ: «كانَتْ ناقةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ تُسَمَّىٰ العَضْبَاءُ، وكانَتْ لَا تُسْبَقُ، فجاءَ أعرابيٌّ علىٰ قَعُودٍ لهُ[٣] فسبقَهَا، فاشتدَّ ذلكَ علىٰ المسلمِينَ، وقالُوا: سُبِقَتِ العَضْبَاءُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ

---

(١) في سننه ٤/٥٦٠.

(٢) في صحيحه ٥/٢٣٨٤ ـ حديث رقم (٦١٣٦).

(٣) في عمدة القاري ٢٣/٨٨: «هو البكر من الإبل حين يُمكَّن ظهره للركوب، وأدنىٰ ذلك سنتان».

حَقًّا عَلَى اللهِ أَلَّا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»، وكفَى بهذا نقصًا للدُّنيا على العمومِ في كلِّ مَا يُرْفَعُ(١) منها.

وروَى (التِّرمذيُّ)(٢) أيضًا أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ»، وقالَ: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

وخرَّجَ البخاريُّ(٣) يرفعُهُ إلى أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [١/١٩٧ب].

وأمَّا أسبابُ الزُّهدِ: فالحواملُ عليهِ شرْعًا؛ وهوَ قِصَرُ الأملِ(٤)، فإنَّ العبدَ متَى قَصُرَ أملُهُ واستشعرَ نزولَ المَوتِ عليهِ، وسرعةَ فراقِهِ للدُّنيَا، قلَّتْ رغبتُهُ فيهَا وفترَتْ همَّتُهُ عنْ تحصيلِهَا، وقدْ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥): «كَفَى بِذِكْرِ المَوْتِ مُزَهِّدًا»، ومنْهَا مَا يحجزُهُ الشُّغلُ بهَا عنِ الخيراتِ وتُوقعُهُ بسببِ ذلكَ في البَليَّاتِ يدلُّ عليهِ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمَا رواهُ (مسلمٌ)(٦): «إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟» قالَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ: نقولُ كمَا أمرَنَا اللهُ، قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ تتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ(٧)، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ أَوْ نَحْوَ

---

(١) في (ب): رفع.

(٢) في سننه ٤/٥٦١.

(٣) في صحيحه ٣/١٠٥٧ ـ حديث رقم (٢٧٣٠)، ٥/٢٣٦٤ ـ حديث رقم (٦٠٧١).

(٤) إنما كان قصر الأمل زهدًا؛ لأن ثمرته كثمرة الزهد. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٦٦.

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٥٢، وتمامه فيه: «.. مزهدًا في الدنيا مرغبًا في الآخرة»، والديلمي في الفردوس ٣/٢٩٠.

(٦) في صحيحه ٤/٢٢٧٤ ـ حديث رقم (٢٩٦٢).

(٧) في (أ، ب): تحاسدون، والأصح المثبت، كما في (صحيح مسلم).

ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِنِ المُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ رِقَابِ بَعْضٍ».

فدلَّ هذَا الحديثُ أنَّ اتِّساعَ الدُّنيَا يحصلُ عنهُ معاصٍ عظيمةٌ؛ مِنَ التَّباغُضِ والتَّحاسُدِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ وظُلْمِ النَّاسِ بعضَهُمْ بعضًا، فإذَا عرَفَ العبدُ اقترانَ الدُّنيَا بهذِهِ الشُّرورِ زهِدَ فيهَا، وأعرَضَ عن طلَبِ تحصيلِهَا.

وأمَّا ثَمَرَاتُ الزُّهدِ: فبُرُودَةُ القلبِ عن كسْبِهَا، وعدمُ الالتفاتِ إليهَا عندَ حصولِهَا، وصرفُهَا في جهةٍ، يدلُّ عليهِ ما رواهُ (البخاريُّ)[١]، قالَ: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ فَقَالَ: انْثُرُوهُ فِي المَسْجِدِ، وكانَ أكثرَ مَالٍ أُتِيَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ فخرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلَىٰ الصَّلاةِ ولمْ يلتفِتْ إليهِ، فلمَّا قضَىٰ الصَّلاةَ جاءَ فجلسَ إليهِ، فمَا كانَ يرَىٰ أحدًا إلَّا أعطَاهُ، إذْ جاءَ العبَّاسُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أعطِنِي فإنِّي فادَيْتُ نفسِي وفَادَيتُ[٢] عقيلًا، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: خُذْ، فحثَا في ثوبِهِ، ثمَّ ذهَبَ يقلُّهُ فلمْ يستطِعْ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، مُرْ بعضَهُمْ يَرْفَعْهُ لِي، قالَ: لَا، قالَ: فارفعْهُ أنتَ عليَّ، قالَ: لَا، فنثرَ منهُ ثمَّ ذهبَ يقلُّهُ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، مُرْ بعضَهُمْ يرفعْهُ عليَّ، قالَ: لَا، قالَ: فارفعْهُ أنتَ عليَّ، قالَ: لَا، فنثرَ منهُ ثمَّ احتملَهُ فألقَاهُ علىٰ كاهلِهِ ثمَّ انطلقَ، فمَا زالَ رسولُ اللهِ يُتْبِعُهُ بصرَهُ حتَّىٰ غابَ عنَّا عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ، فمَا قامَ رسولُ اللهِ ﷺ وثَمَّ منهَا درهمٌ».

فهكَذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ حالُ مَنْ كمُلَ زهدُهُ أنْ يعرضَ عنِ الدُّنيَا زهدًا فيهَا، وأنْ يصرفَهَا [١/١٩٨أ] لمستحقِّيهَا[٣] بسهولةٍ ولا يُبالِي بكثرتِهَا أو قِلَّتِهَا، فإنَّ العبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

---

(١) في صحيحه ١٦٢/١ ـ حديث رقم (٤١١)، ١١٥٤/٣ ـ حديث رقم (٢٩٩٤).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) في (ب): لمستحقها.

أُسِرَ يومَ بدرٍ هوَ وعقيلٌ ففدَىٰ نفسَهُ وفدَاهُ بمالٍ[(١)]، فلمَّا فتحَ اللهُ بهذَا المالِ طلبَهُ منَ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقضِيَ مَا عليهِمَا، فدلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ ترْكَ الدُّنيَا وإخراجَهَا في جهةِ البِرِّ ليسَ هوَ الزُّهدَ، وإنَّمَا هوَ ثمرةٌ من ثَمَرَاتِهِ[(٢)].

وفِي دعاءِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّهُ أنْ يجعلَ رزقَ آلِ محمَّدٍ كفافًا لَا إقتارًا ولا إسرافًا، وقولِهُ في الصَّحيحِ[(٣)]: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ قُوتُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ[(٤)]».

وغيرِ ذلكَ منَ الأدلَّةِ المُحَقِّرةِ للدُّنيَا والمُزَهِّدةِ فيهَا، ويكفِي في قلَّةِ قَدْرِهَا عندَ اللهِ ووزنِهَا كونُهُ يسبغُهَا[(٥)] علىٰ أعدائِهِ، ويضيِّقُهَا ويُبْعِدُهَا عن أنبيائِهِ وأوليائِهِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ في كتابِهِ المُبينِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، والزُّخرفُ: الذَّهبُ، فأخبرَ ـ تعالىٰ ـ أنَّهُ لولَا رحمتُهُ بضعفاءِ المؤمنِينَ أنْ تسبقَ إليهِمْ أنَّ إكرامَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للكفَّارِ بالدُّنيَا يدلُّ علىٰ أنَّ لهُمْ عندَهُ قَدْرًا؛ أوْ لهَا بجعلِ سُقُفِ بيوتِهِمْ وسَلالِمِهِمُ الَّتِي يَظهَرُونَ عليهَا إلىٰ سُطُوحِهِمْ وأبوابِ بيوتِهِمْ وأسرَّتِهِمْ الَّتِي ينامُونَ عليهَا ذهبًا وفضَّةً، ثمَّ صغَّرَ ذلكَ وحقَّرَهُ بقولِهِ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الزخرف: ٣٥] المُنْقَضِيَةِ الفَانِيَةِ ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، يعنِي: الكاملةَ الباقيةَ.

فهذِهِ أدلَّةُ الزُّهدِ، ومعرفةُ حقيقتِهِ وأسبابِهِ وثمراتِهِ بالآياتِ والصَّحيحِ منَ

---

(١) في دلائل النبوة للأصبهاني ص١٣٧: «ومن ذلك قوله للعباس عمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين أسره: افد نفسك وابني أخيك ـ، يعني: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث ـ فإنك ذو مال...».

(٢) في (ب): ثماره، وكل صواب.

(٣) صحيح مسلم ٢/٧٣٠ ـ حديث رقم (١٠٥٤).

(٤) أي: بما آتاه.

(٥) في (ب): يوسعها، وكل صواب.

الأخبارِ، فقدْ تحقَّقَ ذلكَ أنَّ حقيقةَ الزُّهدِ: هيَ استصغارُ الدُّنيَا والعُزُوفُ عنهَا، يعنِي: الإعراضَ استقلالًا لهَا واستحقارًا، وكمَا أنَّ الرَّغبةَ فيهَا يقارنُهَا التَّعظيمُ والمحبَّةُ، فالعُزُوفُ عنهَا يُقَارِنُهُ الاستقلالُ والكَرَاهَةُ، وإذَا صحَّ هذَا المعنَىٰ في القَلْبِ وصَارَ حالًا لهُ، واستوَىٰ عندَهُ وجودُ الدُّنيَا وعدمُهَا فلَا يحفظُهَا لمحبَّتِهِ لهَا، ولَا لدوامِ انتفاعِهِ بِلَذَّتِهَا، ولَا يبذُلُهَا لتحصيلِ ما هوَ أفضلُ منهَا فِي الدُّنيَا مِنْ مالِهَا أوْ جَاهِهَا، ويكونُ إِمْسَاكُهُ وإِخْرَاجُهُ لهَا علىٰ حسبِ ما تقتضِيهِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ، فتارةً يجبُ عليهِ الإمساكُ أو يُندَبُ، وتارةً يُنهَىٰ عن تحصيلِهَا، والطَّلب فهوَ علىٰ حسبِ ما تقتضيهِ [١/١٩٨ب] الأحكامُ منهُ أو عليهِ[(١)] في الإقدامِ والإحجامِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَتَكَلَّمُوا فِي مَعْنَىٰ الزُّهْدِ، فَكُلٌّ نَطَقَ عَنْ وَقْتِهِ، وَأَشَارَ إِلَىٰ حَدِّهِ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الأَزْدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عِمْرَانُ[(٣)] بْنُ مُوسَىٰ الإِسْفِنْجِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا الدَّوْرَقِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ[(٤)]: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا قِصَرُ الأَمَلِ، لَيْسَ بِأَكْلِ الغَلِيظِ وَلَا بِلُبْسِ العَبَاءِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفقَّكَ اللهُ، إِنَّمَا كانَ مِنْ سفيانَ أدبًا لمَنْ تقلَّلَ منَ الدُّنيَا في لباسِهِ وطعامِهِ، وبقِيَ عليهِ التَّنعُّمُ بالحياةِ فيهَا، وأنَّ مَنْ طالَ أملُهُ فإنَّمَا

---

(١) في (ب): وعليه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠.

(٣) في (ب): عمر، والصواب المثبت.

(٤) ورد قوله في: الزهد لوكيع ص٢٢١، وقصر الأمل لابن أبي الدنيا ص٤٢، والزهد له ص٦٣، والزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي ص٢٠، وحلية الأولياء ٦/٣٨٦، والجرح والتعديل ١/١٠١، والزهد الكبير ص١٩٤، وإحياء علوم الدين ٤/٤٥٤، ومدرج السالكين ٢/١٠.

الباعثُ لهُ على ذلكَ دوامُ التَّنعُّمِ بالحياةِ، ومتى طالَ أملُهُ ضربَ الآجالَ لأعمالِ البرِّ، وسَوَّفَ بأمرِهِ بمَا يريحُهُ من هذهِ الصِّفاتِ الذَّميمةِ، وقصدَ مداواتَهُ خاصَّةً، ولمْ يتعرَّضْ لبيانِ حقيقةِ الزُّهدِ، فإنَّا قدْ حقَّقْنَا أنَّ قِصَرَ الأملِ منَ المزهِّداتِ، ونقلْنَا ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ قولهُ[1]: «كَفَى بِذِكْرِ الْمَوْتِ مُزَهِّدًا»، فجعلَهُ مزهِّدًا حاملًا على تحصيلِ الزُّهدِ، فإنَّ مَنْ قصُرَ أملُهُ استغنى عن كثيرٍ منَ الدُّنيَا، واقتصرَ على قُوتِ يومِهِ أو سَاعتِهِ علَى حسبِ هِمَّتِهِ، وجدَّ في إصلاحِ حالتِهِ قبلَ موتِهِ وفَواتِ أمنيَّتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبَّاسَ بْنَ عِصامٍ[3] يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[4]: إِنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ سَلَبَ الدُّنْيا عَنْ أَوْلِيَائِهِ، وَحَمَاهَا عَنْ[5] أَصْفِيَائِهِ، وَأَخْرَجَهَا مِنْ قُلُوبِ أَهْلِ وِدَادِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرْضَهَا لَهُمْ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ سَلْبَهُ لهَا قدْ يكونُ معَ محبَّتِهِمْ لهَا، فيمنعُهُمْ منهَا؛ حِفظًا لهُمْ وسَلامةً مِن شَرِّهَا، «**وحماهَا عنْ أصفيائِهِ**»، أيْ: أمسكَهَا عنهُمْ فلمْ يؤتِهَا[6] إيَّاهُمْ؛ إكرامًا لهُمْ لكيلَا تشغلَ قُلُوبَهُمْ، «**وأخرجَهَا من قُلُوبِ أَهْلِ وِدَادِهِ[7]**»؛ أيْ: لمْ يُخْطِرْهَا بِبَالِهِمْ بالكليَّةِ، شغلًا بمحبَّتِهِ والأُنسِ بهِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠.

(٣) في (ب): عاصم، والصواب المثبت.

(٤) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٧٦، وتاريخ دمشق ٢٠/١٧٩، وصفة الصفوة ٢/٣٨٠، وبغية الطلب ٩/٤٢٢٢، ومدارج السالكين ٢/١٠.

(٥) في (ب): من.

(٦) في (ب): يؤتهم.

(٧) أي: محبته.

فالأولياءُ أخرجَهَا عنهُمْ جبْرًا بأسبابِ التَّلافِ، والأصفياءُ لَمْ يخلقْهَا[١] لهُمْ حِفظًا لأحوالِهِمْ عنِ الاختلافِ، وأهلُ وِدَادِهِ لَمْ يُخطِرْهَا لهُمْ لجمْعِ همِمِهِمْ عليهِ[٢] وكَمَالِ الائتلافِ[٣].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: الزُّهْدُ مِنْ قَوْلِهِ ـ سبحانه ـ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] [١/١٩٩أ]، فَالزَّاهِدُ لَا يَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَتَأَسَّفُ عَلَىٰ مَفْقُودٍ مِنْهَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقد قرَّرْنَا أنَّ هذهِ ثمراتُ الزُّهدِ وصفاتُ الزَّاهدِينَ، فإنَّ مَنْ عزفَتْ نفسُهُ عنِ الدُّنيَا قلَّتْ رغبتُهُ فيهَا لَمْ يبالِ بحصولِهَا ولا ذهابِهَا؛ لاجتزائِهِ بمَا اتَّفقَ منْهَا[٦] وكيفمَا اتَّفقَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[٨]: الزُّهْدُ: أَنْ تَتْرُكَ الدُّنْيَا ثُمَّ لَا تُبَالِي بِمَنْ أَخَذَهَا.

وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٩]: الزُّهْدُ: أَنْ تَتْرُكَ الدُّنْيَا كَمَا

---

(١) في (ب): يجعلها.
(٢) إذا تأملت كلامه تراه حمل الأولياء على المؤمنين، والأصفياء على المتقين، وأهل الوداد على المحبين المحبوبين.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠٦.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠.
(٥) ورد في: مدارج السالكين ٢/١٠.
(٦) أي: لاكتفائه بما ينفعه.
(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠.
(٨) أي: الحيري، وورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٨٤، والمختار من مناقب الأبرار ٢/٨٠.
(٩) وورد قوله في: الرسائل الكبرىٰ للنفزي ص٢٧٦، ونشر المحاسن الغالية ص١٤٢، وسراج الطالبين ١/١٧٠.

هِيَ، لَا تَقُولُ: أَبْنِي رِباطًا، أَوْ أُعَمِّرُ مَسْجِدًا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [فقد أَجْمَعَتْ][1] هذهِ الأقوالُ علىٰ أنَّ الزَّاهدَ إذا أعرضَ عنِ الدُّنيا لا يُبالِي مَنْ أخذَهَا ولا فيمَا صَرفَهَا، وكذلكَ إذَا تركَهَا لَمْ يبقَ في قلبِهِ التفاتٌ إليهَا، فهذِهِ كلُّهَا مِنْ علاماتِ الزَّاهدينَ، ففِي الأُولَىٰ لا يبالِي مَنْ أخذَهَا، وكذلكَ الزَّاهدُ لا يخرجُهَا لعرضٍ عاجلٍ تجدُ نفسُهُ راحةَ الثَّناءِ عليهَا بهِ، فلا أقولُ: «**أَبْنِي رباطًا، ولا أُعمِّرُ مسجدًا**»، فإنَّ النَّفسَ تحبُّ الثَّناءَ عليهَا بمَا يُنْسَبُ إليهَا منَ الآثارِ والأسبابِ الَّتِي تكونُ بعدَ موتِهَا، ولَمْ يكرَهْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعلَ هذِهِ الخيراتِ الدَّائمةِ، وإنَّمَا أرادَ أنَّ الزَّاهدَ يهونُ عليهِ بذلُ الدُّنيَا في أيِّ وجْهٍ تيسَّرَ لهُ منَ الخيراتِ وقلَّة رغبتِهِ فيهَا، فلمْ يَحْرِصْ عليهَا، ولا لمحبَّة عوضٍ عنهَا.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ[3]: الزُّهْدُ يُورِثُ السَّخَاءَ بِالْمُلْكِ، وَالحُبُّ يُورِثُ السَّخَاءَ بِالرُّوحِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الزَّاهدَ لا كلفةَ عليهِ في بذْلِ الدُّنيَا وإنْ جلَّتْ وكثُرَتْ، وأمَّا المحبُّ فهوَ يسهلُ عليهِ بذلُ روحِهِ للهِ وفي اللهِ، وشتَّانَ بينَ مَنْ هانَ عليهِ ما يملكُ للهِ، وبينَ مَنْ خفَّ عليهِ أنْ يهلكَ فِي اللهِ![4].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «**وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا[6]: الزُّهْدُ: هُوَ النَّظَرُ إِلَىٰ الدُّنْيَا بِعَيْنِ الزَّوَالِ؛ لِتَصْغُرَ فِي عَيْنِكَ فَيَسْهُلَ عَلَيْكَ الإِعْرَاضُ عَنْهَا**».

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠.

(٣) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١١، وإتحاف السادة المتقين ١١/٧٣٦.

(٤) أي: من هان عليه بذل ملكه لله، ومن هان عليه بذل نفسه له.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦/٨٩، ومدارج السالكين ٢/١١، وسراج الطالبين ١/١٧٠.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ قَارَبَ الزُّهدَ وأشارَ إلى حقيقتِهِ ؛ وهوَ معرفةُ صِغَرِ الدُّنيَا وقِلَّةِ قَدْرِهَا عندَ اللهِ ، فتُعْرِضُ نفسُهُ عنهَا ؛ وهوَ العُزُوفُ ، فقدْ أشارَ إلى حقيقةِ الزُّهدِ ؛ وهوَ استصغارُ الدُّنيَا والعُزُوفُ عنهَا .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ ابْنُ خَفِيفٍ[2]: **عَلَامَةُ الزُّهْدِ: وُجُودُ الرَّاحَةِ فِي الخُرُوجِ مِنَ المِلْكِ.**

وَقَالَ أَيْضًا[3]: **الزُّهْدُ: سُلُوُّ القَلْبِ عَنِ الأَسْبَابِ ، وَنَفْضُ** [١/١٩٩ب] **الأَيْدِي مِنَ الأَمْلَاكِ**» .

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقَدِ اشتركَتِ الحكايتَانِ[4] في علامةِ الزَّاهدِ وصحَّةِ اتِّصافِهِ بالزُّهدِ[5] ؛ فالأوَّلُ يجدُ الرَّاحةَ في عدمِ الدُّنيَا كمَا يجدُ غيرُهُ منَ المحبِّينَ لهَا الرَّاحةَ في حصولِهَا ، وذلكَ لعلْمِهِ بمَا يلحقُ القلبَ عندَ وجودِهَا منَ التَّشويشِ في حفظِهَا وكيفَ يصرِّفُهَا ، وأيسرُ أحوالِهَا خوفُهُ على قلبِهِ منَ التَّعلُّقِ بهَا ، فإذا صرفَهَا الحقُّ عنهُ وجدَ الرَّاحةَ بقلبِهِ ؛ لسلامتِهِ عمَّا يقارنُهَا منَ الآفاتِ ، أو يترتَّبُ على وجودِهَا منَ التَّكليفاتِ .

وأمَّا قولُهُ: «**الزُّهدُ سُلُوُّ القلبِ عنِ الأسبابِ**» ، يعنِي: أسبابَ التَّحصيلِ لمَا لمْ يحصِّلْ منهَا ، ونَفْضَ الأيدِي عن ملكِ ما حصَّلَ منهَا[6] .

فَخُلَاصَةُ هذَا أنَّ الزَّاهدَ لا يطلُبُهَا لمحبَّتِهَا ، وإذَا[7] حصلَتْ أخرجَهَا لقلَّةِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(٢) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٢ ، ومدارج السالكين ٢/١١ .

(٣) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١١ ، ومحاضرات الأدباء ١/٥٩٧ .

(٤) في (ب): الحكايات ، والصواب المثبت .

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب) .

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠٧ .

(٧) في (ب): وإذ .

رغبتِهِ فيهَا.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ[٢]: الزُّهْدُ: عُزُوفُ النَّفسِ عَنِ الدُّنْيَا بِلَا تَكَلُّفٍ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ أيضًا ـ كلامٌ في بيانِ حقيقةِ الزُّهدِ، وقولُهُ: «**بِلَا تكلُّفٍ**» للفرقِ بينَ الزَّاهدِ والمُتَزَهِّدِ فالمُتزهِّدُ يتكلَّفُ الإعراضَ عنهَا، والزَّاهدُ لا يتكلَّفُ ذلكَ؛ لمَا امتلأَ بهِ قلبُهُ مِنْ صِغرِ قَدْرِهَا، ومَا يَترَتَّبُ عليهِ مِن ضَرَرِهَا.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصرَابَاذِيَّ يَقُولُ[٤]: الزَّاهِدُ غَرِيبٌ فِي الدُّنْيَا، وَالعَارِفُ غَرِيبٌ فِي الآخِرَةِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الزَّاهدَ على الحقيقةِ فِي الدُّنيَا قليلٌ نادرٌ، والغريبُ مَنْ لمْ يجدْ لهُ شبيهًا ولَا أنيسًا ولا قَرِيبًا، وكمَا أنَّ الزَّاهدَ غريبٌ في أهلِ الدُّنيَا، فكذلِكَ العَارفُ غريبٌ في أهلِ الآخرةِ، وذلكَ أنَّ[٥] أكثرَ العمَّالِ للآخرةِ؛ إمَّا أنْ يعملُوا خَوفًا منَ العِقَابِ، أوْ رجاءَ تكثيرِ الثَّوابِ، والعارفُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي استقرَّتْ معرفةُ جَلالِهِ وعظمتِهِ بقلبِهِ وتحقَّقَ عندَهُ وجوبُ العبوديَّةِ لهُ لحقِّ أمرِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٤١/١.

(٢) نسب لابن خفيف في: إحياء علوم الدين ٢٤٢/٤. وورد بلا نسبة في: الزهد الكبير ص٧٩، ومدارج السالكين ١١/٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٤١/١.

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٢٤٢/٤، ونفح الطيب ١٩٣/٢، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص١١٢.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

ونَهْيِهِ، فهذَا هوَ العارفُ بحقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليهِ الَّذِي لَوْ لمْ يعذِّبْهُ ولمْ يُثِبْهُ لمْ يتركِ العملَ لهُ أصلًا[(١)]؛ لصحَّةِ ملكهِ لهُ ولِحَقِّ أمْرِهِ ونهيِهِ، فإنَّ مَنْ لمْ يعملْ إلَّا خوفَ العقابِ فلَوْ زالَ عنهُ خوفُ العقابِ لمْ يعمَلْ شبيهٌ بأسوءِ العبيدِ، ومَنْ لمْ يعملْ إلَّا للثَّوابِ، ولوْ لمْ يُثَبْ علىٰ عملِهِ لمْ يعملْ أشبهَ الأحرارَ المستأجرِينَ.

ومَنْ تحقَّقَ عندَهُ صحَّةُ ملكِهِ لِمَولَاهُ، وعلِمَ أنَّهُ أمرَهُ ونهَاهُ، وعمِلَ لذلِكَ ولمحبَّةِ [١/٢٠٠أ] رضَاهُ عنهُ كانَ متحقِّقًا لعبوديَّتِهِ لمولَاهُ، وهذَا نادرٌ غريبٌ في أبناءِ الآخرةِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقِيلَ**[(٣)]: **مَنْ صَدَقَ فِي زُهْدِهِ**[(٤)] **أَتَتْهُ الدُّنْيَا رَاغِمَةً**[(٥)].

وَلِهَذَا قِيلَ[(٦)]: **لَوْ سَقطَتْ قَلَنْسُوَةٌ مِنَ السَّمَاءِ لَمَا وَقَعَتْ إِلَّا عَلَىٰ رَأْسِ مَنْ لَا يُرِيدُهَا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يحتملُ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ الزَّاهدَ لا رغبةَ لهُ في الدُّنيَا ولا محبَّةَ لهُ في تنعُّمِهَا، ولا نيلِ درجاتِهَا، ومَا قدَّرَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ [لهُ][(٧)] مِنْ قُوتِهِ الَّذِي لا بُدَّ لهُ منهُ أتاهُ رغْمًا لضمانِ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤١.

(٣) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/١٠٩، والذخر والعدة في شرح البردة ص٤٢، وسراج الطالبين ٢/٦٨.

(٤) في نتائج الأفكار ٢/٢٦٩: «فيه تنبيه على الالتفات إلىٰ أن المقدر كائن لا محالة، فراحة السر من البر، حيث إعراضه عن الدنيا لا يمنع ما قدّر كونه له».

(٥) أي: اضطرارًا؛ لأن الزاهد لا رغبة له فيها.

(٦) نسب لبشر الحافي في: حلية الأولياء ٨/٣٥٥.

(٧) زيادة من (ب).

اللهِ لهُ، فهذَا أحدُ الوجهَينِ.

الوجْهُ الثَّانِي: أنَّ اللهَ - تعالىٰ - قد يمتحنُ الزَّاهدِينَ بالدُّنيَا، فيوالِيهَا عليهِمْ، كمَا قالَ - تعالىٰ -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وأنَّ أحسنَ العملِ فيهَا الزُّهدُ فيهَا، وبهذَا الاعتبارِ قيلَ: «**لوْ وقعَتْ قلنسوةٌ منَ السَّماءِ**» لصادَفَتْ رأسَ مَنْ لا يحبُّهَا، فهِيَ تقعُ لهُ ابتلاءً وامتحانًا، ولَا أربَ لهُ فيهَا، وليسَ هذَا لكلِّ الزُّهَّادِ، بلْ يحفظُ اللهُ - تعالىٰ - بعضَهُمْ ولا يبتلِيهِمْ بهَا بالكلِّيَّةِ، ويحفظُ قلوبَهُمْ؛ إمَّا لضعْفِهِمْ، أوْ لقوَّتِهِمْ وما يعلمُهُ منهُمْ[١]، ولقَدْ عُرِضَتِ الدُّنيَا علَىٰ نبيِّنَا ﷺ أنْ تُسَيَّرَ معَهُ جبالُ تهامةَ ذهبًا وفضَّةَ، فقالَ[٢]: «يَا رَبِّ، أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَإِنْ شَبِعْتُ شَكَرْتُ، وَإِنْ جُعْتُ تَضَرَّعْتُ».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ**[٤]: **الزُّهْدُ: خُلُوُّ القَلْبِ عَمَّا خَلَتْ مِنْهُ اليَدُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ردٌّ علىٰ مَنْ يزعمُ أنَّ الزُّهدَ هوَ خلوُّ اليدِ منَ الملكِ خاصَّةً، أوْ ردُّ ما يأتِي العبدُ! وإنَّمَا هذهِ آثارُ الزُّهدِ وعلاماتُهُ، بلِ الزُّهدُ علىٰ الحقيقةِ مِنْ أعمالِ القلوبِ، فإذَا خلَا القلبُ مِنْ محبَّةِ الدُّنيَا فِي الحفظِ والرَّغبةِ في التَّحصيلِ كانَ زاهدًا[٥].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠٧.

(٢) رواه بلفظه البيهقي في شعب الإيمان ٧/٣١٠، وابن أبي الشيخ في: أخلاق النبي وآدابه ٤/١٦٥، وأبو نعيم في حليه الأولياء ٨/١٣٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤١.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٤٦.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[٢]: الصُّوفُ عَلَمٌ[٣] مِنْ أَعْلَامِ الزُّهْدِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْبَسَ صُوفًا بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمَ وَفِي قَلْبِهِ رَغْبَةُ خَمْسَةِ دَرَاهِمَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الزُّهدَ في القلبِ ليسَ بلبسِ الغَلِيظِ، ولا بأكْلِ الخَشِنِ، وإنْ كانَ هذا تابعًا[٤] للزُّهدِ، إذا صحَّ الزُّهدُ في القلبِ اجتزَأَ العبدُ بمَا يقومُ بضرورةِ وقْتِهِ مِنْ ردِّ الحرِّ والبردِ والجُوعِ، وربَّمَا كانَ هذا منهُ مُداواةً لمَنْ يتقلَّلُ بظاهرِهِ ويظهرُ مِنْ باطنِهِ شدَّةُ الرَّغبةِ إذا تيسَّرَ لهُ [١/٢٠٠ب] ذلكَ، فأخبرَهُ أنَّهُ ليسَ بزاهدٍ؛ لأنَّ الزُّهدَ ضدُّ الرَّغبةِ، وهوَ مِنْ أفعالِ القُلُوبِ، وقَدْ يتقلَّلُ في الطَّعامِ واللِّباسِ الزَّاهدُ، وغيرُ الزَّاهدِ مَنْ يشحُّ على نفسِهِ بمالِهِ، ومَنْ يجمعُهُ لبعضِ أغراضِهِ[٥].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الزُّهْدِ:

فَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَعِيسَى بْنُ يُونُسَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَغَيْرُهُمْ: (الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا: إِنَّمَا هُوَ قِصَرُ الأَمَلِ)[٧].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤١.

(٢) ورد قوله في: البيهقي في الزهد الكبير ص١٥٩، وإحياء علوم الدين ٤/٢٤٢، ونشر المحاسن الغالية ص١٤٢. وبمعناه في: الزهد وصفة الزاهدين ص٢٣، وحلية الأولياء ٩/٢٦٠، وتاريخ دمشق ٣٤/١٤٨.

(٣) أي: لبسُهُ علم.

(٤) في (ب): مانعًا، والصواب المثبت.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠٨.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٤١.

(٧) ورد في: الزهد الكبير ص٧٩، وتهذيب الأسرار ص١١٩، وإحياء علوم الدين ٤/٢٢٨، ومحاضرات الأدباء ١/٥٩٧.

وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ يُحمَلُ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ أَمَارَاتِ الزُّهْدِ، وَالأَسْبَابِ البَاعِثَةِ عَلَيْهِ، وَالمَعَانِي المُوجِبَةِ لَهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ[1]: (الزُّهْدُ: هُوَ الثِّقَةُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ مَعَ حُبِّ الفَقْرِ).

وَبِهِ قَالَ شَقِيقٌ البَلْخِيُّ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَمَارَاتِ الزُّهْدِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْوَىٰ العَبْدُ عَلَىٰ الزُّهْدِ إِلَّا بِالثِّقَةِ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ[2]: (الزُّهْدُ: تَرْكُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ).

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[3]: (الزُّهْدُ: تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللهِ ـ سبحانه ـ).

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ فَاتِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ، وَسَأَلَهُ رُوَيْمٌ عَنِ الزُّهْدِ فَقَالَ[4]: «اِسْتِصْغَارُ الدُّنْيَا، وَمَحْوُ أَثَرِهَا[5] مِنَ القَلْبِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذهِ الأقوالُ كلُّهَا بعيدةٌ عنِ الزُّهدِ إلَّا قولَ الجُنيدِ، فإنَّ الثَّوريَّ وأصحابَهُ حدُّوهُ بالحاملِ علىٰ الزُّهدِ؛ وهوَ قصرُ الأملِ، فإنَّ مَنْ قصُرَ أَمَلُهُ قلَّتْ في الدنيا رغبتُهُ، وأعرضَتْ عنها هِمَّتُهُ.

وأمَّا مَنْ قالَ: «هيَ[6] الثِّقةُ»، فهذا ليسَ مِن أسبابِ الزُّهدِ بسبيلٍ، بلْ هوَ مِن أسبابِ التَّوكُّلِ، فإنَّ مَنْ وثقَ بأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يأتِيهِ بمَا ينفعُهُ وقتَ حاجتِهِ اعتمدَ

---

(١) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٧٩، ومدارج السالكين ٢/١١.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٧٩.

(٣) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٧٩، ومدارج السالكين ٢/١١.

(٤) وررد قوله في: الزهد الكبير ص٦٦، ومدارج السالكين ٢/١١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٤.

(٥) أشار الناسخ في حاشة (أ): إلىٰ أنه في نسخة (آثارها).

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

قلبُهُ عليهِ وهوَ التَّوكُّلُ، وإلَّا فقدْ يكونُ الشَّخصُ شديدَ الرَّغبةِ فِي الدُّنيَا مُحِبًّا[١] لكثرتِهَا، راجيًا[٢] لحصولِهَا ويثقُ قلبُهُ بأنَّ اللهَ يفتحُ لهُ بهَا.

وأمَّا قولُ عبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**تَرْكُ الدِّينارِ والدِّرهَمِ**»، فهذَا من ثمراتِ الزُّهدِ لَا نفسهُ، فإنَّ مَنْ قلَّتْ رغبتُهُ في الشَّيءِ وصغُرَ في عينِهِ لمْ يحفظْهُ ولا حرصَ عليهِ، وبذلَهُ للمحتاجِ إليهِ، وهوَ ثمرةٌ من ثَمَرَاتِ الزُّهدِ ولمْ يعمَّ كلَّ ما يُزهَدُ فيهِ، بَلْ بعضَهُ، فإنَّ الزُّهدَ يَجْرِي في غَيْرِ الدِّينارِ والدِّرهمِ منَ المَطعُومِ والمَلْبُوسِ، والجاهِ والرَّاحةِ منَ التَّعبِ فِي الدُّنيَا.

وأمَّا قولُ أبِي سليمانَ الدَّرانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فهوَ راجعٌ إلىٰ المزهودِ فيهِ [١/٢٠١أ]، وعبَّرَ عنهُ بالتَّركِ الَّذِي هوَ ثمرةُ الزُّهدِ، وقدْ يتركُ الإنسانُ مَا يشغلُهُ عنِ اللهِ، لا لصغرِهِ عندَهُ، ولَا لزهدِهِ فيهِ، بلْ لشغلِهِ بمَا هوَ أشرفُ منهُ وأفضلُ[٣].

وأسدُّ هذهِ الأقوالِ وأجرَاهَا علىٰ مقتضَىٰ اللُّغةِ وتحقيقِ الزُّهدِ شرعًا هوَ قولُ الجُنيدِ؛ وهوَ قولُهُ: «**استصغارُ الدُّنيَا، ومحْوُ آثارِهَا منَ القلبِ**»، وهوَ كمَا قالَ شيخُهُ المُحاسبِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: «استصغارُ الدُّنيَا والعزوفُ عنهَا»، والعزوفُ: هوَ الإعراضُ عنِ الدُّنيَا استصغارًا لهَا، فمَنْ أعرضَ عنِ الدُّنيَا استصغارًا لهَا حتَّىٰ لمْ يبقَ لهَا في قلبِهِ أثرٌ؛ لَا محبَّةٌ، ولا ميلٌ، ولا ذِكرٌ، وذلكَ لصغرِهَا عندَهُ فهوَ كاملٌ فِي الزُّهدِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ سَرِيٌّ السَّقطِيُّ[٥]: لَا يَطِيبُ عَيْشُ الزَّاهِدِ إِذَا اشْتَغَلَ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَطِيبُ عَيْشُ العَارِفِ إِذَا اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ».**

---

(١) في (أ): محبٌّ، والصواب المثبت.

(٢) في (أ، ب): راج، والأصح المثبت.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٠٩.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٢.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وذلكَ أنَّ الزَّاهدَ شُغْلُهُ بإعراضِ نفسِهِ عمَّا هيَ ملتفتةٌ إليهِ منْ مَحْبُوباتِ الدُّنيَا، فهوَ يتعوَّدُ الزُّهدَ في المالِ، ثمَّ في الطَّعامِ والشَّرابِ، ثمَّ فِي اللِّبَاسِ، ثمَّ في الجَاهِ، ثمَّ في الرَّاحَةِ والكَسَلِ، ثمَّ في بذْلِ نفسِهِ للهِ في الجِهَادِ، فهوَ مشغولٌ فِي تمكينِ الزُّهدِ في قلبِهِ لسائرِ أقسامِ الدُّنيَا، فإنَّهُ متَىٰ زهَدَ في شيءٍ منَ الدُّنيَا وبقِيَ عليهِ شيءٌ لمْ يزهَدْ فيهِ لمْ يكمُلْ زهدُهُ، ولذلكَ سُئِلَ الجُنيدُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عمَّنْ لمْ يبقَ عليهِ منَ الدُّنيَا إلا مصُّ نَواةٍ، قالَ[(١)]: «المُكَاتَبُ عَبْدٌ[(٢)]، مَا بَقِيَ عَلَيهِ دِرْهَمٌ»، أشارَ إلىٰ قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ[(٣)]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ»، فقالَ: مَنْ بقِيَ عليهِ منَ الشَّهواتِ ولوْ تنعُّمُهُ بمصِّ نواةٍ مِنْ بعضِ الثَّمَرَاتِ فلَمْ تكمُلْ حريَّتُهُ مِنْ رقِّ الشَّهواتِ، وعبَّرَ عنْ ذلكَ بأنْ قالَ: «اَلْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ».

وأمَّا العارفُ فإنَّهُ مشغولٌ بمعروفِهِ وتنعُّمِهِ بمعرفةِ جمالِهِ وجلالِه، وتلذُّذِهِ بمناجاتِهِ في ليلِهِ ونهارِهِ، فكيفَ بهِ والاشتغالُ بنفسِهِ!، فمتَىٰ اشتغلَ بنفسِهِ لمْ يطِبْ لهُ عيشٌ؛ لأنَّ طيبَ عيشِهِ بمولاهُ، وشغلَهُ بهِ لَا بسِوَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنهُ[(٤)]: **«وَسُئِلَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ الزُّهْدِ فَقَالَ[(٥)]: خُلُوُّ اليَدِ مِنَ المِلْكِ، وَالقَلْبِ مِنَ التَّتَبُّعِ»**.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ خرجَ منهُ مخرَجَ المُداراةِ لِمَنْ رآهُ ينفقُ الدُّنيَا ويخرجُهَا فِي [١/٢٠١ب] جهاتِ الخيرِ والبرِّ، ثمَّ يتبعُهَا بكلامِهِ وقلبِهِ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٠، والترمذي في سننه ٣/٥٦٠، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١٠/٣٢٤.

(٢) أي: في أكثر الأحكام.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٥) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٦٦، ومدارج السالكين ٢/١١، وسراج الطالبين ١/١٧٠، وبمعناه عنه في: اللمع للطوسي ص٧٢.

مدحًا أو ندمًا ، فإنْ أتبعَهَا حسرةً ففسادٌ ، وإنْ أتبعَهَا استحسانًا ومحبَّةً لصُنْعِهِ ومَا يجرِي مجرَاهُ فهوَ لمْ يزهدْ بالكليَّةِ ؛ لأنَّهُ أخرجَ مالًا وأخذَ جاهًا وأحبَّهُ بقلبِهِ ، فكأنَّ الجُنيدَ داوىٰ مَنْ هذِهِ صفتُهُ بأنَّ كمالَ زُهدِكَ ألَّا تلتفتَ إلىٰ ما خرجَ مِنْ يدِكَ ، ولمْ يتعرَّضْ لحدِّ الزُّهدِ ، فإنَّ الزُّهدَ حدُّهُ ما ذَكَرَ أوَّلًا .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَسُئِلَ الشِّبْلِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **عَنِ الزُّهْدِ ، فَقَالَ[٢]: أَنْ تَزْهَدَ فِيمَا سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ»** .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ صحيحٌ ، ولكنَّهُ لمْ يتعرَّضْ لحقيقةِ الزُّهدِ ، وإنَّمَا تعرَّضَ للمَزْهُودِ فيهِ ، فسُئِلَ عنِ الزُّهدِ فأجابَ عنِ المَزهُودِ فيهِ ، وهيَ أعلىٰ درجاتِ الزَّاهدِينَ ؛ أنْ يزهدَ في سائرِ المخلوقاتِ ثمَّ في نفسِهِ ؛ لأنَّهَا مِنْ جملةِ ما سِوَىٰ اللهِ[٣] .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ[٥]: لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ حَتَّىٰ يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ: عَمَلٌ بِلَا عَلَاقَةٍ ، وَقَوْلٌ بِلَا طَمَعٍ ، وَعِزٌّ بِلَا رِيَاسَةٍ»** .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ أنَّ حقيقةَ الزُّهدِ: هيَ غلبةُ أحوالِهِ علىٰ القلبِ ، كمَا تقدَّمَ[٦] في حديثِ حارثةَ لمَّا سُئِلَ عن حقيقةِ الإيمانِ ، فأجابَ بالعزوفِ عنِ الدُّنيَا ورؤيةِ الجنَّةِ والنَّارِ والعرشِ الَّذِي هوَ متعلَّقُ الإيمانِ ، وكذلِكَ لمَّا كانَ المزهودُ فيهِ هو سائرَ أقسامِ الدُّنيَا ؛ مِن جاهِهَا ومالِهَا عبَّرَ بحقيقةِ الزُّهدِ عنْ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢ .

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأبرار ١/٤٧٢ .

(٣) سقط تفسير الشارح لقول الشبلي في النسخة (ب) .

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢ .

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٧٧ ، وإحياء علوم الدين ٤/٢٤٢ ، ومدارج السالكين ٢/١١ .

(٦) الدلالة ١/١٤٤ وغيرها .

غلبةِ حالِ الزُّهدِ على قلبِ الزَّاهدِ في سائرِ أقسامِ الدُّنيَا.

فقولُهُ: «**عَمَلٌ بلَا عَلاقةٍ**» يعنِي: خالصًا للهِ - تعالى - لمْ يكنْ لعلَّةٍ مِن عللِ الدُّنيَا؛ كَحُبِّ المَحْمَدَةِ، وَخوفِ المَذَمَّةِ، والطَّمعِ لمَا في أيدِي النَّاسِ، فهذِهِ علائقُ العملِ الدُّنيويَّةِ، وعلائقُهُ الأُخرويَّةِ خَوْفُ العقابِ، ورجاءُ الثَّوابِ، فكمالُ زُهْدِهِ في الحُظُوظِ العاجلةِ والآجلةِ أنْ يكونَ عملُهُ لوجْهِ ربِّهِ خاصَّةً وطلبِ رضَاهُ دونَ غيرِهِ.

وكذلِكَ قولُهُ: «**قَوْلٌ بِلَا طَمَعٍ**» أنْ يُخلصَ فِي أقوالِهِ كمَا أخلصَ فِي أَفْعَالِه[١]، وأنْ يتخلَّصَ قولُهُ ووعظُهُ وتنبيهُهُ للهِ وحدَهُ لا لطمعٍ عاجلٍ ولا آجلٍ.

«**وَعِزٌّ بِلَا رِيَاسَةٍ**» أنْ يكونَ في نفسِهِ عزيزًا عنْ أنْ يُذَلَّ فِي طلبِ الدُّنيَا، فيتعاطَى الأمورَ الخسيسةَ الَّتِي تَزْرِي بِقَدْرِهِ فِي الدُّنيَا، أوِ المُحرَّمةَ الَّتِي تَزرِي بقَدْرِهِ فِي الأُخْرَى [١/٢٠٢أ]؛ كركوبِهِ البحارَ في وقتِ الإغرارِ، وسفرِهِ إلى بلادِ الكفَّارِ، وكذلِكَ أنْ يُذلَّ لغيرِهِ مِنْ أبناءِ الدُّنيَا ويرتكبَ في نَيلِ ما عندَهُ القهرَ والصَّغارَ، وإنَّمَا يكونُ عزُّهُ بمولَاهُ، وبِمَا أغناهُ بهِ مِنْ فضْلِهِ عنْ دنيَاهُ، وعمَّنْ سِوَاهُ، لَا إلهَ إلَّا إيَّاه[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ**[٤]: **الزُّهْدُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الحَلَالِ**[٥]**، وَلَا حَلَالَ فِي الدُّنْيَا، فَلَا زُهْدَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا خرجَ مخرجَ التَّحريضِ على طلبِ الحلالِ حتَّى يتأتَّى الزُّهدُ في فَضْلِهِ؛ لأنَّهُ متَى كانَ الشَّيءُ مُشكِلَ الحُكْمِ كانَ الإعراضُ عنهُ

---

(١) في (ب): أعماله.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٠.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.
(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٣.
(٥) أي: الخالص.

ورعًا[(١)]، ومتىٰ كانَ معروفَ الحِلِّ كانَ الإعراضُ عنهُ زُهْدًا.

وقولُهُ: «لَا حَلَالَ» علىٰ وجْهِ الاستبعادِ وندورِ الحصولِ، كمَا قالَ بعضُهُمْ: «لا نافلَةَ إلَّا للنَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ لأنَّهُ قَدْ غُفرَ لَه ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ ومَا تأخَّرَ، وقدْ يحفظُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بعضَ أوليائِهِ ولَا يقعُ في كبيرةٍ، ويكونُ اجتنابُهُ الكبائرَ مكفِّرًا[(٢)] للصَّغائرِ، وتسلمُ لهُ فرائضُهُ ونوافلُهُ فِي الآخرةِ، ولكنَّ هذَا منَ النَّوادرِ.

وكذلِكَ مَنْ حصَّلَ الحلالَ مِنْ كلِّ وجْهٍ وخلَّصَهُ مِن كلِّ شبهةٍ قليلٌ نادرُ الوجودِ، ولا سيِّمَا معَ فسادِ المعاملاتِ، وكثرةِ التَّخليطِ في التَّصرُّفاتِ فِي هذهِ الأوقاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[(٤)]: إِنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يُعْطِي الزَّاهِدَ فَوْقَ مَا يُرِيدُ، وَيُعْطِي الرَّاغِبَ دُونَ مَا يُرِيدُ، وَيُعْطِي المُسْتَقِيمَ[(٥)] مُوَافَقَةَ مَا يُرِيدُ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ صحيحٌ؛ فإنَّ مَنْ كمُلَ زُهدُهُ فِي الدُّنيَا أيَّ شيءٍ أتَاهُ منهَا رآهُ فوقَ حاجتِهِ؛ لقلَّةِ رغبتِهِ فيهَا وكمالِ قناعتِهِ، فأيُّ شيءٍ أتاهُ منهَا فهوَ فوقَ ما يريدُ.

والرَّاغبُ فِي الدُّنيَا أيُّ شيءٍ أتَاهُ فرغبتُهُ عليهِ تزيدُ؛ لأنَّهُ يرَاهُ قليلًا؛ لكمالِ محبَّتِهِ فيمَا يريدُ.

ومَنِ استقامَتْ أحوالُهُ ورضِيَ بكفايَتِهِ فأيُّ شيءٍ أتَاهُ قنَعَ بهِ، فهُوَ وسطٌ[(٦)]

---

(١) سقط من (ب) إلىٰ قوله: «زهدًا».

(٢) في (ب): مكفرٌ.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٨٤، والمختار من مناقب الأبرار ٢/٨٠، وسراج الطالبين ٢/٦٨.

(٥) أي: المتوسط بين الأول والثاني.

(٦) في (ب): وسطه، والأصح المثبت.

بينَ هذَينِ الطَّرَفَينِ، فكلُّ شيءٍ أتاهُ كانَ موافقًا لحالتِهِ؛ إذْ لَا غرضَ لهُ سِوَىٰ تمشيَةِ وقتِهِ[(١)].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ**[(٣)]: **الزَّاهِدُ يُسْعِطُكَ**[(٤)] **الخَلَّ وَالخَرْدَلَ، وَالعَارِفُ يُشِمُّكَ المِسْكَ وَالعَنْبَرَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ قلبَ الزَّاهدِ قدِ امتلأَ بصغرِ الدُّنيَا وهوانِهَا عندَ اللهِ وكثرةِ آفاتِهَا، وما يقارنُ لذَّاتِهَا منَ الآلامِ، وما يقعُ العبدُ بسببِ [١/٢٠٢ب] رغبتِهِ فيهَا منَ الآثامِ، فأكثرُ كلامِهِ في بيانِ هذِهِ النَّقائصِ والجهاتِ، فهوَ يؤلِمُ أبناءَ الدُّنيَا وينكِّدُ عليهِمْ ما هُمْ فيهِ، ويُصغِّرُ عندَ أنفسِهِمْ أقدارَهُمْ ويُؤلِمُهُمْ، فشبَّهَهُمْ بتسعيطِ الخلِّ والخردلِ.

وأمَّا العارفُ فقلبُهُ قدِ امتلأَ بالمعرفةِ بكمالِ اللهِ - تعالىٰ - وجلالِهِ وبفضْلِ[(٥)] إنعامِهِ وأفضالِهِ علىٰ خلقِهِ، وتوالِي برِّهِ وإحسانِهِ في جميعِ أوقاتِهِ، فالعبدُ يتكلَّمُ بمَا غلبَ مِنْ حالِهِ، فهوَ يذكرُ ألطافَ اللهِ ومِنَنَهُ، ويذكرُ كراماتِ الأولياءِ ومَا أسبغَهُ عليهِمْ في الدُّنيَا قبلَ الأُخْرَىٰ، ويحرِّكُ القلوبَ بالتَّشويقِ والتَّرغيبِ في نَيْلِ المقاماتِ العُلَىٰ، فشبَّهَهُ بشمِّ[(٦)] المِسْكِ والعَنْبَرِ لوجودِ الرَّاحةِ بذلِكَ، وانشراحِ الصَّدرِ بذِكْرِ فضلِ اللهِ ونِعَمِهِ علىٰ عبادِهِ في الدُّنيَا والأُخْرَىٰ، وكلُّ واحدٍ مِنْ هذَينِ: الزَّاهدِ والعارفِ تكلَّمَ بمَا غلَبَ عليهِ، وامتلأَ قلبُهُ بهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٠.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٢، ومدارج السالكين ٢/١١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/١٠٩، ونشر المحاسن الغالية ص١٤١.

(٤) في الآداب الشرعية ٣/٧٠: «السعوط: ما يسعط به في الأنف».

(٥) في (ب): وتفضيل.

(٦) سقط من (ب) قوله: «فشبهه بشم».

... ... وَكُــلُّ إِنَــاءٍ بِالَّــذِي فِيــهِ يَنْضَــحُ[١]

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ[٣]: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا: أَنْ تَبْغَضَ أَهْلَهَا وَتَبْغَضَ مَا فِيهَا[٤]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذَا عبَّر بالبُغْضِ عنِ الزُّهدِ، ولا يكونُ زاهدًا عندَهُ مَنْ لا يكونُ مُبغِضًا، وليسَ البغضُ منَ الزُّهدِ بسبيلٍ، فإنَّ الزُّهدَ في الحلالِ المحضِ الَّذِي لا ضررَ فيهِ ولا عقابَ ولا ثوابَ من حيثُ الوَعْدُ والوَعِيْدُ، وإنَّمَا يبغضُ الإنسانُ مَنْ حصلَتْ لهُ منهُ أَذيَّةٌ، وقَدْ يزهدُ مَنْ لَا يلحقُهُ فِي الدُّنيَا أَذيَّةٌ، ويفعلُ ذلكَ موافقةً لربِّهِ وهوانًا عليهِ، وقلَّةَ وزنٍ لها عندَهُ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٥]: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، وكذلِكَ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: في قضيَّةِ الجدْيِ[٥]: «لَلدُّنْيَا عَلَى اللهِ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»، وَقَدْ ينتقلُ الشَّخْصُ إلى مَقامٍ أعلَى منَ الزُّهدِ فتكونُ الدُّنيَا تشغلُهُ عمَّا هوَ مشتغلٌ بهِ وتصدُّهُ عن سلوكِهِ، فيبغضُهَا لمَا يلحقُهُ من قطعِهَا لهُ وشغلِهَا لهُ عَنْ مَطْلُوبِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ[٧]: مَا الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: تَرْكُ مَا فِيهَا عَلَى مَنْ فِيهَا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ ثَمَرَاتِ الزُّهدِ إنْ أرادَ التَّركَ بالجَوارحِ،

---

(١) سبق تخريجه. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٣) ورد قوله في: سراج الطالبين ١/١٧١.

(٤) أي: من حيث إنها مبغوضة لله عَزَّوَجَلَّ، وإنها تشغلك عن مطلوبك.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١١٧، وحكاه عن أبي عبد الله الحصري.

وإنْ أرادَ الإعراضَ بالقلبِ فهوَ زُهْدٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقَالَ رَجُلٌ لِذِي النُّونِ [١/٢٠٣أ] المِصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): مَتَى أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: إِذَا زَهِدْتَ فِي نَفْسِكَ(٣)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ إنَّمَا يحملُهُ علَى الرَّغبةِ فِي الدُّنيَا والحبِّ لهَا نَيلُ حظوظِهِ منهَا منَ المطعَمِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ والمَنْكَحِ والمالِ والجاهِ، فإذَا زهدَ في هذِهِ الحُظُوظِ من نفسِهِ قلَّتْ رغبتُهُ فِي الأسبابِ الَّتِي يحصِّلُهَا بهَا، وإذَا قلَّتْ رغبتُهُ كانَ زاهدًا فِي الدُّنيَا، فدلَّهُ علَى أصْلِ الزُّهدِ؛ وهوَ زهدُهُ فِي حظوظِ نفسِهِ الَّتِي بسببِهَا يرغبُ فِي الدُّنيَا ويحفظُهَا ويُحصِّلُهَا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ(٥): إِيْثَارُ الزُّهَّادِ عِنْدَ الاسْتِغْنَاءِ، وَإِيْثَارُ الفِتْيَانِ عِنْدَ الحَاجَةِ، قَالَ اللهُ - تعالى -: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علَى مدحِ الفِتْيَانِ، وأنَّهُمْ يؤثرُونَ معَ الحاجةِ، كمَا مدحَ اللهُ - تعالى - الأنصارَ بإيثارِهِمْ معَ احتياجِهِمْ إلَى ما يؤثرُونَ بهِ غيرَهُمْ، ومفهومُ ذلكَ مِنْ قولِهِ: إنَّ الإيثارَ يصحُّ معَ الاستغناءِ، وإنَّ السَّخِيَّ يُسمَّى مُؤْثِرًا وإنْ أخرجَ مَا هوَ مستغنٍ عنهُ؛ وهوَ إيثارُ الزُّهَّادِ، فإنَّ الزَّاهدَ إنَّمَا زهدَ فِي الفُضُولِ(٦) لا فِي المحتاجِ(٧)، ويُسَمَّى صرفُهُ إيثارًا.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١١٧.

(٣) أي: حظوظ نفسك.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٥) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/١٤٩، ومسالك الأبصار ٨/١٣٤.

(٦) أي: فيما فضل عن حاجتهم.

(٧) كما زهد الفتيان.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقَالَ الكَتَّانِيُّ(٢): (الشَّيْءُ الَّذِي لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ كُوفِيٌّ وَلَا مَدَنِيٌّ، وَلَا عِرَاقِيٌّ وَلَا شَامِيٌّ: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا، وَسَخَاوَةُ النَّفْسِ، وَالنَّصِيْحَةُ لِلْخَلْقِ)؛ يَعْنِي: أَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ لَا يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّهَا غَيْرُ مَحْمُودَةٍ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مدحٌ للزُّهدِ فِي الدُّنيا، وأنَّ فضيلَتَهُ قالَ بهَا أهلُ سَائِرِ الأقاليمِ، ولمْ ينكرْ أحدٌ حُسْنَهُ شَرْعًا.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ رَجُلٌ لِيَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ(٤): [مَتَىٰ](٥) أَدْخُلُ حَانُوتَ التَّوَكُّلِ، وَأَلْبَسُ رِدَاءَ الزُّهْدِ، وَأَقْعُدُ مَعَ الزَّاهِدِينَ؟

فَقَالَ: إِذَا صِرْتَ مِنْ رِيَاضَتِكَ لِنَفْسِكَ(٦) فِي السِّرِّ إِلَىٰ حَدٍّ لَوْ قَطَعَ اللهُ ـ سبحانه ـ عَنْكَ الرِّزْقَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ(٧) لَمْ تَضْعُفْ فِي نَفْسِكَ، فَأَمَّا مَا لَمْ تَبْلُغْ هَذِهِ الدَّرَجَةَ فَجُلُوسُكَ عَلَىٰ بِسَاطِ الزَّاهِدِينَ جهْلٌ، ثُمَّ لَا آمَنُ عَلَيْكَ أَن تَفْتَضِحَ(٨)».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٨٥، والموافقات ١/١٢٢.

والكتاني هو: محمد بن علي بن جعفر الكتاني، وكنيته أبو بكر، أصله من بغداد، صحب الجنيد، وأبا سعيد الخراز، وأبا الحسين النوري، وأقام بمكة مجاورًا بها إلىٰ أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

انظر في ترجمته: طبقات الصوفية ص٢٨٢، وطبقات الأولياء ص١٤٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٢، ومدارج السالكين ٢/١٢، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/١٠٩، وإتحاف السادة المتقين ١١/٧٣٩.

(٥) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع، ومظان تخريجه.

(٦) في (ب): لنفسه، والصواب المثبت.

(٧) في نتائج الأفكار ٢/٢٧٥: «إنما قيده بهذه المدة؛ لما قيل من أن العبد لا يعيش مدتها بدون الغذاء، حيث لم يتقدم له عادة الرياضة».

(٨) في (ب): تنفضح، والصواب المثبت.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا منهُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إشارةٌ إلَىٰ أنَّهُ لَا ينبغِي أنْ يقطعَ الأسبابَ ويتجرَّدَ عنهَا بالكلِّيَّةِ حتَّىٰ يجدَ مِنْ نفسِهِ قوَّةً علَىٰ الصَّبرِ علَىٰ ألمِ الجوعِ المدَّةَ الَّتِي ذكرَهَا، وكذلِكَ لا يجدُ مِنْ نفسِهِ الضَّعْفَ عن صَلاتِهِ قائمًا ولَا في عقلِهِ [١/٢٠٣ب] بالاختلاطِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يأتيهِ بالرِّزقِ قبلَ هذِهِ المدَّةِ فيمَا أجرَىٰ اللهُ بهِ العادةَ، وإلَّا متَىٰ كانَ الإنسانُ معتادًا للأكلِ كلَّ يومٍ وليلةٍ، وإذَا وصلَ اليومَينِ ضعُفَ عنِ القيامِ، أوِ اختلَّ(١) عقلُهُ عنْ فهمِ الأحكامِ كانَ مغرَّرًا بدينِهِ أوْ معرِّضًا(٢) نفسَهُ إلىٰ الطَّلبِ منَ الخلقِ والسُّؤالِ(٣)، وقدْ قالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلكَ ما قالَ(٤).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٥): «وَقَالَ بِشْرٌ الحَافِي: الزُّهْدُ: مَلِكٌ(٦) لَا يَسْكُنُ إِلَّا فِي قَلْبٍ مُخَلًّى(٧)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يعنِي: أنَّ كمالَ الزُّهدِ لَا يتحقَّقُ إلَّا لمَنِ انقطَعَتْ أطماعُهُ عنِ الدُّنيَا، وقَلَّ تعلُّقُهُ بشهواتِهَا، وخلَا قلبُهُ مِن حبِّهَا.

---

(١) في (ب): واختل.

(٢) في (ب): ومعرضًا.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤١٢/١، والزبيدي في: إتحاف السادة المتقين ٧٣٩/١١.

(٤) كما في صحيح مسلم ٧٧٤/٢ ـ حديث رقم (١١٠٣): «قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إِيَّاكُمْ وَالوِصَالَ، قالوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يا رَسُولَ اللهِ، قال: إِنَّكُمْ لَسْتُمْ في ذلك مِثْلِي، إني أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي، فَاكْلَفُوا من الْأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ». وصحيح البخاري ٢٥١٢/٦ ـ حديث رقم (٦٤٥٩).

(٥) الرسالة القشيرية ٢٤٣/١.

(٦) أي: كماله ملكٌ، وإنما خص التشبيه بالملك؛ لكونه نورانيًا، والزهد نوراني، ووارد رحماني.

(٧) لأن القلب إذا تجرد عن الحظوظ كثرت أنواره وغرست أصول الحكمة فيه، وتفرعت أغصانها منه، وترجم اللسان عما أشرق في السِّر من واردات الرَّب سبحانه.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الأَشْعَثِ البِيكَنْدِيَّ يَقُولُ[٢]: مَنْ تَكَلَّمَ فِي الزُّهْدِ وَوَعَظَ النَّاسَ ثُمَّ رَغِبَ فِي أَمْوَالِهِمْ رَفَعَ اللهُ ـ تعالى ـ حُبَّ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّهُ إذا زهَّدَهُمْ وأوهَمَهُمْ أنَّهُ متخلِّقٌ بمَا يأمرُهُمْ بهِ وينهاهُمْ عنهُ معَ خلوِّ قلبِهِ عنْ ذلِكَ كانَ مرائيًا بطاعةِ ربِّهِ، أوْ متشبِّعًا بمَا لمْ ينَلْ كاذِبًا، وكلاهُمَا معصيةٌ[٣]، والعاصِي معرِّضٌ نفسَهُ لسخطِ ربِّهِ عليهِ ومَقْتِهِ[٤]، وأنْ يَمْنَعَهُ منَ المَقَامِ الشَّريفِ مَا تزيَّنَ بهِ لخلْقِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ[٦]: إِذَا زَهِدَ العَبْدُ فِي الدُّنْيَا وَكَّلَ اللهُ ـ تعالى ـ مَلَكًا يَغْرِسُ الحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولمَّا كانَ المؤمنُ باللهِ والنَّاظرُ في أحكامِهِ والمُعْتبِرُ فِي مخلوقاتِهِ، والمتحسِّسُ لمَا يُوردُهُ عليهِ مِنْ قَضَائِهِ إنَّمَا يمنعُهُ مِنْ ذلكَ شُغْلُ قلبِهِ بالدُّنيَا، واستغراقُهُ في اكتسابِهَا وحفظِهَا والتَّنعُّمِ بشهواتِهَا، وكانَ الزُّهدُ فيهَا يفرِّغُ القلبَ لمَا ذكرْنَاهُ أوَّلًا منَ الفَوائدِ، ونظرَ[٧] فيهَا النَّاظرُ وتفكَّرَ في عجائبِ حِكْمَةِ اللهِ ـ تعالى ـ في مخلوقاتِهِ وشرائِعِهِ الَّتي تعبَّدَ بهَا خلقَهُ زادَتْ حِكمتُهُ[٨]، وقوِيَتْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣.

(٢) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٢٩٧.

(٣) توجب رفع حبِّ الآخرة من قلبه.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٢.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣.

(٦) ورد قوله في: البرهان المؤيد للرفاعي ص٤٢، ومنارات السائرين ص٧٣، وحدائق الحقائق ص٧٢، والزاهر لابن فرحون ص٦٥.

(٧) في (ب): وينظر.

(٨) سقط من (ب) قوله: زادت حكمته.

فطنَتُهُ، وآتى كلَّ حقٍّ حقَّهُ، وكلُّ ذلكَ بفضلِ ربِّهِ وعَونِهِ؛ إمَّا بإلهامِهِ لهُ في قلبِهِ بغيرِ واسطةٍ، أوْ بواسطةِ بعضِ ملائكتِهِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ[٢]: لِمَ زَهِدْتَ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: لِزُهْدِهَا فِيَّ**».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ أرادَ أنْ يبعدَ عنِ الدَّعْوَىٰ بالكلِّيَّةِ حتَّىٰ لا يرَىٰ لنفسِهِ مقامًا فِي الزُّهدِ، وذلكَ أنَّ الخبرَ الصَّحيحَ يدلُّ علَىٰ أنَّ الدُّنيَا [١/٢٠٤أ] بجُملتِهَا لَا تعدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ، ومَا الَّذِي ينالُهُ العبدُ مِنْ جناحِ البعوضةِ، فإذَا كانَ أكثرُ الدُّنيَا بعُدَ منهُ ونالَ منهَا أيسرَ اليسيرِ، حملَهُ ذلكَ علىٰ الإعراضِ عنِ اليسيرِ[٣]، وهوَ المرادُ بقولِهِ: «**زُهْدِهَا فِيَّ**»، فلمَّا زهدَ[٤] فِيَّ أكثرُهَا زهدْتُ فِي القليلِ منهَا.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: الزُّهْدُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:**

[الأولُ]: تَرْكُ الحَرَامِ؛ وَهُوَ زُهْدُ العَوَامِّ.

وَالثَّانِي: تَرْكُ الفُضُولِ مِنَ الحَلَالِ؛ وَهُوَ زُهْدُ الخَوَاصِّ.

وَالثَّالِثُ: تَرْكُ مَا يَشْغَلُ العَبْدَ عَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ وَهُوَ زُهْدُ العَارِفِينَ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣.

(٢) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٧٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٣.

(٤) سقط من (ب) قوله: فلما زهد.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣.

(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٢، والآداب الشرعية ٢/٢٣١.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقدْ أطلقَ الزُّهدَ هاهُنَا علَى التَّرْكِ، فعوامُّ المسلمِينَ يتركُونَ الحرامَ، وخواصُّهُمْ يتركُونَ فضولَ الحلالِ، وخواصُّ خواصِّهِمْ ـ وهمُ العارفُونَ باللهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ ـ يتركُونَ جميعَ مَا يشغلُهُمْ عنهُ.

وقَدْ يريدُ بالتَّرْكِ: إعراضَ القلبِ وقلَّةَ الرَّغبةِ، فيكونُ زهدًا، فعوامُّ المسلمِينَ لا رغبةَ لهُمْ في الحرامِ، وخواصُّهُمْ لَا رغبةَ عندَهُمْ فِي فضولِ الحلالِ، والعارفُونَ لا رغبةَ لهُمْ فيمَا يصدُّهُمْ عَنْ مقصودِهِمْ، ويشغلُهُمْ عَنْ مَطْلُوبِهِمْ وَمَحْبُوبِهِمْ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: لِمَ زَهِدْتَ فِي الدُّنْيَا؟ فقَالَ[٢]: لمَّا زَهِدْتُ فِي أَكْثَرِهَا أَنِفْتُ[٣] مِنَ الرَّغْبَةِ فِي أَقَلِّهَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا هوَ الَّذِي فسَّرْنَا بهِ قولَ مَنْ قالَ: «لِزُهْدِهَا فِيَّ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ[٥]: الدُّنْيَا كَالعَرُوسِ، وَمَنْ يَطْلُبُهَا مَاشِطَتُهَا، وَالزَّاهِدُ فِيهَا يُسَخِّمُ[٦] وَجْهَهَا، وَيَنْتِفُ شَعْرَهَا، وَيَخْرُقُ ثَوْبَهَا، وَالعَارِفُ مُشْتَغِلٌ بِاللهِ ـ سبحانه ـ لَا يَلْتَفُّ إِلَيْهَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ خلقَ الدُّنيَا وكمَّلَهَا وجمَّلَهَا بالمالِ والبنينَ والأنعامِ وغيرِ ذلكَ منَ الزِّينةِ، كمَا قالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣.

(٢) ورد قوله في: شذرات الذهب ٣/١٨٠.

(٣) أي: استنكفتُ.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣.

(٥) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٧٣، وإحياء علوم الدين ٤/٢٤٢، وإتحاف السادة المتقين ١١/٧٣٩.

(٦) أي: يُقبِّح.

زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فبهذا الاعتبارِ كانَتْ عَرُوسًا مجلوَّةً(١)، تراهَا الأبصارُ وتحبُّهَا القلوبُ، فالرَّاغبُ فيهَا لَا يزالُ بلسانِهِ يمدحُهَا، وبفعلِهِ يقبِّلُهَا، وبنيَّتِهِ وعمارتِهِ لهَا يُمَشِّطُهَا ويزيدُهَا حُسْنًا للمغرورِينَ بهَا.

وأمَّا الزَّاهدُ فالَّذِي قَدْ عرَفَ نقْصَهَا وفناءَهَا، وامتزاجَ خيرِهَا بشرِّهَا، وقَطْعَ العبدِ عَنْ طاعةِ ربِّهِ [١/٢٠٤ب] إذا اشتغلَ بهَا، وذمَّ اللهِ ورسولِهُ والعارفِينَ بهَا لهَا، فبهذَا الاعتبارِ يخمِّشُ(٢) وجهَهَا ويزهِّدُ النَّاسَ فيهَا، ويقبِّحُ مَحَاسِنَهَا الظَّاهرةَ بمَا يدلُّ عليهِ من سُوءِ أحوالِهَا الباطنةِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

وأمَّا العارفُ فهوَ مشغولٌ بمعروفِهِ وجمالِهِ وجلالِهِ ودوامِ ذِكْرِهِ ومناجاتِهِ عنْ ذمِّهَا، فضْلًا عنْ مدحِهَا، كمَا قالَتْ رابعةُ لمَّا رأَتْ طائفةً منَ الزُّهَّادِ يذمُّونَ الدُّنيا ويحقِّرونَهَا نهَتْهُمْ عن ذلِكَ وقالَتْ: «مَنْ أحبَّ شيئًا أكثرَ مِنْ ذِكْرِهِ، لوِ اشتغلتُمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبمحبَّتِهِ لَشغلَكُم(٣) عَمَّنْ سِوَاهُ»، فالعارفُ قدِ انقطعَ قلبُهُ عنهَا(٤)، فلَا يمدحُهَا ولَا يذمُّهَا، وربَّمَا كمُلَ شغلُهُ بربِّهِ حتَّىٰ غفلَ عن ثَوابِ آخِرَتِهِ، وإنْ كانَ لابُدَّ منهُ إلَّا أنَّهُ اشتغلَ بربِّهِ عَنْ غَيْرِهِ(٥).

قالَ الإمامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٦): **«سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الطَّيِّبِ السَّامِرِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ(٧):**

---

(١) أي: كالعروس وقت زفافها.

(٢) في اللسان «خ م ش»: «الخمش: الخدش في الوجه، وقد يستعمل في سائر الجسد».

(٣) في (أ، ب): لاشتغلتم، والأصح المثبت كما في: إحكام الدلالة ١/٤١٤.

(٤) في (ب): منها.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٤.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٧) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢، وبغية الطلب ٩/٤٢٢٢، وإتحاف السادة المتقين ١١/٧٣٩.

مَارَسْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الزُّهْدِ، فَنِلْتُ مِنْهُ مَا أُرِيدُ، إِلَّا الزُّهْدَ فِي النَّاسِ[١]؛ فَإِنِّي لَمْ أَبْلُغْهُ وَلَمْ أُطِقْهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا نظرٌ في تفصيلِ المَزْهُودِ فيهِ، وذلكَ أنَّ الإنسانَ قدْ ينالُ المُزهَّدَ فِي المَالِ واللِّباسِ والطَّعامِ والمَنَامِ وفُضُولِ الكلامِ وكثيرٍ منَ الجَاهِ، ويبقَىٰ عليهِ وجودُ الرَّاحَةِ فِي لقاءِ الإخوانِ والبَسْطِ معَهُمْ فِي المقالِ والاستئناسِ بمحادثتِهِمْ، ولَوْ فِي أحوالِ الرِّجالِ فهوَ حظٌّ عاجلٌ يتنعَّمُ بهِ المُحبُّ لهُ وهوَ مِنْ جملةِ مَا يزهدُ فيهِ، وبهذَا الاعتبارِ قالَ: «**إِلَّا الزُّهدَ فِي النَّاسِ**»، وإلَّا لوْ كانَ اجتماعُهُ بالنَّاسِ لنفْعِهِمْ في دينِهِمْ أو انتفاعِهِ هوَ بهِمْ في دينِهِ، ولمْ يكنْ لهُ حاملٌ[٢] علَىٰ الاجتماعِ إلَّا أمرُ الدِّينِ لمَا صحَّ فيهِ الزُّهدُ، ولمَا ذمَّ نفسَهُ علَىٰ عدمِ نيلِ الزُّهدِ فِي هذا المقامِ.

وقَدْ يزهدُ الإنسانُ فِي الاجتماعِ بالنَّاسِ، ويبقَىٰ عليهِ الزُّهدُ فِي نفسِهِ منَ الرَّاحةِ وحبِّ الكَسَلِ، وإنْ كانَ وحدَهُ حينَ لمْ يحملْهَا علىٰ مُشِقٍّ منَ الأعمالِ، ولَا علَىٰ التَّخلُّقِ بخُلُقٍ شريفٍ منَ الأحوالِ، فلمْ يزهدْ في راحةِ نفسِهِ، وقدْ يزهدُ في راحةِ نفسِهِ ولَا يزهدُ في بذْلِ نفسِهِ للهِ[٣] إذَا حضرَ جهادٌ فِي سبيلِ اللهِ، فالزُّهدُ علَىٰ هذَا يتنوَّعُ علىٰ حسبِ المَزْهُودِ فيهِ[٤]، وأزهدُ النَّاسِ في ذلِكَ الصَّحابةُ ـ رِضوانُ [١/٢٠٥أ] اللهِ عليهِمْ ـ كمَا حُكِيَ أنَّ فلانَ بنَ الحمامِ[٥] سمعَ الحَطمةَ فِي النَّاسِ يومَ

---

(١) أي: والتبسط معهم في المقال.

(٢) في (أ): حاملا، والصواب المثبت.

(٣) سقط من (ب) عبارة: «ولا يزهد في بذل نفسه لله».

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٤.

(٥) هو: عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري السلمي، شهد بدرًا، وقُتل بها شهيدًا؛ قتله خالد بن الأعلم.
انظر في ترجمته: الاستيعاب ٣/١٢١٤، وأسد الغابة ٤/٣٠٩.

بدرٍ وقدْ أخرجَ تمراتٍ يأكلُهُنَّ ليتقوَّىٰ بهنَّ فقالَ: «إنْ صبرْتُ لآكُلَ تَمَراتِي إنَّهَا لحياةٌ طَويلةٌ، ورمَىٰ بهَا وأخذَ سَيْفَهُ وقاتلَ بهِ حتَّىٰ قُتِلَ»(١).

وغيرُهُ قالَ: يا رسولَ اللهِ، مَا يُرضِي الرَّبَّ؟ قالَ(٢): «غَمْسُكَ يَدُكَ فِي العَدُوِّ(٣) عُرْيَانًا»، فأخذَ سيفَهُ وقاتلَ حتَّىٰ قُتِلَ.

وغيرُ هؤلاءِ منَ السَّادةِ الزَّاهدِينَ فِي أنفسِهِمْ للهِ، الَّذِينَ صحَّ منهُمْ بيعُهُمْ نُفُوسَهُمْ لمولاهُمْ واشتراهَا منهُمْ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].. الآية.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**وَقِيلَ: مَا خَرَجَ الزَّاهِدُونَ إِلَّا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا النَّعِيمَ الفَانِيَ لِلنَّعِيمِ البَاقِي**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بيانٌ؛ لأنَّ مَنْ زهدَ فِي الدُّنيَا إنَّمَا عملَ فِي حظِّ نفسِهِ؛ لأنَّهُ تركَ مَا هوَ أنزلُ، وأخذَ لمَا هوَ أفضلُ؛ فإنَّهُ تركَ الشُّغلَ بالدُّنيَا الفانيَةِ المُنغِّصةِ المنكرَةِ المَمْزُوجةِ بالهُمُومِ والأحزانِ والتَّكاليفِ المُتوعَّدِ علىٰ تَرْكِهَا بالنِّيرانِ، وأخذَ لهَا الآخرةَ الكاملةَ الباقيَةَ الَّتِي لَا نكدَ فيهَا ولَا ألمَ، ولَا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٥١٠ ـ حديث رقم (١٩٠١) بلفظ: «..... يقول عُمَيْرُ بن الحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ يا رَسُولَ اللهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السماوات وَالأَرْضُ قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما يَحْمِلُكَ علىٰ قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ، قال: لَا والله يا رَسُولَ اللهِ إلا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِهَا، قال: فَإِنَّكَ من أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ من قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هذه إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قال: فَرَمَىٰ بِمَا كان معه من التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتىٰ قُتِلَ».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤/٢٢٣ بلفظ: «قال معاذ بن عفراء يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده في العدو حاسرا، قال: وألقىٰ درعا كانت عليه فقاتل حتىٰ قتل»، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ٩/٩٩.

(٣) في (ب): العدوك.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٤.

مرضَ فيهَا ولا سقمَ، ولَا حسابَ فيهَا علىٰ عملٍ ولا عتابَ[١]، بلْ هيَ دارُ الجزاءِ والثَّوابِ، فبهذَا الاعتبارِ خرجَ الزَّاهدُ منَ الدُّنيَا من حظٍّ خسيسٍ إلىٰ حظٍّ نفِيسٍ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ النَّصْرَابَاذِيُّ**[٣]: **[الزُّهْدُ]**[٤]: **حَقْنُ دِمَاءِ الزَّاهِدِينَ، وَسَفْكُ دِمَاءِ العَارِفِينَ.**

وَقَالَ حَاتِمٌ الأَصَمُّ[٥]: **الزَّاهِدُ يُذِيبُ كِيْسَهُ قَبلَ نَفْسِهِ، وَالْمُتَزَهِّدُ يُذِيبُ نَفْسَهُ قَبْلَ كِيْسِهِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**حَقْنُ دِمَاءِ الزَّاهِدِينَ**» أيْ: إبقاءٌ لهُمْ منْ حظوظِ أنفسِهِمْ مَا يعيشُونَ بهِ وزهَّدَهُمْ في الفُضُولِ، وفيهِ إشارةٌ إلىٰ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]، وقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦]: «لَا حَقَّ لِابْنِ آدمَ إلَّا فِي ثَلَاثٍ: بَيْتٌ يُكِنُّهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الخُبْزِ وَالمَاءِ»، فالحقُّ ـ سبحانه ـ بقَّىٰ هذَا القدرَ للزَّاهدِ[٧] وجعلَهُ حقَّهُ ولَمْ يجعلْهُ مناقضًا[٨] لزُهدِهِ، فإنَّ الزُّهدَ في فضولِ[٩] الحلالِ، والعارفُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ لا تكملُ معرفتُهُ بربِّهِ إلَّا وكمُلَ شغلُهُ بهِ وبذكْرِهِ ومناجاتِهِ عنْ نفسِهِ، فضلًا عنْ غيرِهِ، فبهذَا سَفْكُ دماءِ العارِفِينَ؛

---

(١) في (ب): عقاب.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٤.

(٣) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١٠٩.

(٤) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٢٥، والكواكب الدرية للمناوي ١/٥٩٠، وإتحاف السادة المتقين ١١/٦٦٢.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في (ب): للزاهدين.

(٨) في (ب): منافيًا، وكل صواب.

(٩) سقط هذا اللفظ من (ب).

أيْ: جعْلَهُمْ لمْ يلتفتُوا لأنفسِهِمْ، وحقْنُ دماءِ الزَّاهِدِينَ بمَا أبقَاهُ لهُمْ منَ النَّظرِ لأنفسِهِمْ(١).

وأمَّا قولُهُ: «الزَّاهِدُ يُذِيبُ كِيْسَهُ قَبْلَ نَفْسِهِ، وَالمُتَزَهِّدُ يُذِيبُ نَفْسَهُ قَبْلَ كِيْسِهِ» فصحيحٌ [١/٢٠٥ب]، فإنَّ المتزهِّدَ لَا يُخرجُ شيئًا منْ مالِهِ معَ شدَّةِ محبَّتِهِ لهُ إلَّا بكُرْهٍ منْ نفسِهِ وحملٍ لهَا علَىٰ ذلكَ، فهوَ يُذيبُ نفسَهُ قبلَ أنْ يُخرجَ مَا بيدِهِ؛ لكونِهِ يُؤلِمُهَا بالإخراجِ، فكلَّمَا أرادَ أنْ يُخرِجَ شيئًا ممَّا بيدِهِ لمحبَّتِهِ لهُ أكرَهَ نفسَهُ وحملَهَا وآلَمَهَا بإخراجِهِ، فهوَ بذلِكَ يُذيبُ نفسَهُ قبلَ كِيْسِهِ، وهذَا هوَ المُتزهِّدُ.

وأمَّا الزَّاهدُ فِي الدُّنيَا، فأوَّلُ مَا يبدأُ بهِ إخراجُ مالِهِ مِنْ يدِهِ، ثمَّ إخراجُ جَاهِهِ مِنْ قلبِهِ، ثمَّ إخراجُ راحتِهِ مِنْ بَدَنِهِ، ثمَّ ذلُّ نفسِهِ لربِّهِ، فإخراجُ كيسِهِ أخفُّ عليهِ، فلذلِكَ يبدأُ بهِ، ثمَّ يعقِّبُ بالأشدِّ فالأشدِّ، ونفسُهُ آخرُ ما يبذُلُهُ لربِّهِ، فلذلِكَ قالَ(٢): «يُذيبُ كِيسَهُ قبلَ نفْسِهِ».

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَنِ المَوْصِلِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ(٤): جَعَلَ اللهُ الشَّرَّ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ حُبَّ الدُّنْيَا، وَجَعَلَ الخَيْرَ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الزُّهْدَ».**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤١٤ ـ ٤١٥.

(٢) في (أ): كان.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٤.

(٤) ورد قوله في: الزهد لابن أبي الدنيا ص١٣٦، والزهد وصفة الزاهدين ص٤٣، والزهد الكبير ص١٣٣، وتاريخ دمشق ٤٨/٤١٤، وإحياء علوم الدين ٤/٢٤٣، والموافقات ١/١٢٢، والمستطرف ٢/٥٩٩.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ، ويعضِّدُهُ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيَةٍ» ، فإذَا كانَ حبُّهَا رأسَ كلِّ خطيئةٍ[٢] ، فكيفَ بمَا دونَ الخطيئةِ منَ المكروهاتِ والمنقصاتِ وأسبابِ الغفلاتِ وأنواعِ المُشغلاتِ ؟!

وأمَّا إذَا زهَدَ العبدُ فِي الدُّنيَا وأعرَضَ بقلبِهِ عنِ الشَّهَواتِ حملَهُ إيمانُهُ ومَا وعدَهُ بِهِ ربُّهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ منَ الخَيْرَاتِ ونَيْلِ المَقَاماتِ والدَّرجات ، فقدْ يُسِّرَتْ[٣] لهُ الخَيْرَات ؛ لقوَّةِ الحَوامِلِ لهُ علىٰ تحصيلِ الخَيرات ، وذهابِ القواطعِ عنهُ والمُشغلات[٤] .

وبهذَا الاعتبارِ كانَ حُبُّ الدُّنيَا مفتاحَ الشُّرورِ والبليَّاتِ ، والزُّهدُ فيهَا مِفتاحٌ لجميعِ الخيراتِ ونيلِ المقاماتِ العاليةِ في الدُّنيَا والآخرةِ بواضحِ الدَّلالاتِ ، وصلَّىٰ اللهُ علَىٰ سيِّدِنَا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ[٥] .

(١) أخرجه البيهقي في: شعب الإيمان ٣٢٣/٧ ، والزهد الكبير ص١٣٤ .

(٢) سقط من (ب) قوله: فإذا كان حبها رأس كل خطيئة .

(٣) في (ب): تيسرت .

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤١٥/١ .

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب) .

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الصَّمْتِ

أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ القَطَّانُ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ السُّلَمِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ [١/٢٠٦أ]، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ [فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ][٢] فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، رَوَاهُ (البُخَارِيُّ)[٣].

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى الأَسَدِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الأَصْبَهَانِيُّ، عَنِ ابْنِ المُبَارَكِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ؛ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زَحْرٍ؛ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ[٤]، عَنِ القَاسِمِ؛ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ؛ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ[٥]: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: احْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فالخبرُ الأوَّلُ خرَّجهُ (الموطَّأُ)[٦]، وهوَ يدلُّ على

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٥.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من (ب).

(٣) في صحيحه ٥/٢٢٤٠، حديث رقم (٥٦٧٢). وأخرجه مسلم أيضا في صحيحه ١/٦٨ ـ حديث رقم (٤٧).

(٤) في (أ، ب): يزيد، والتصويب من الرسالة القشيرية.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٠٥، والطبراني في المعجم الكبير ١٧/٢٧٠.

(٦) ٢/٩٢٩.

أنَّ المقصودَ منَ الكلامِ قولُ الخيرِ، فإنْ لمْ يعلمِ الإنسانُ[1] أنَّ ما قالَهُ خيرًا، فليُمْسِكْ عنِ الكلامِ؛ وهوَ الصَّمتُ، ويعضِّدُهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وهذِهِ الثَّلاثةُ مِن جملةِ الطَّاعاتِ إذا أُريدَ بهَا وجهُ اللهِ، ولذلكَ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذِهِ الأفعالَ تصحُّ بنيَّةٍ وبغيرِ نيَّةٍ، ولا يكونُ فيهَا الثَّوابُ إلَّا إذا قارنَتْهَا النِّيَّةُ، وهوَ العملُ لوجهِ اللهِ، فإنْ فعلَهَا الإنسانُ لوجهِ أخيهِ أوْ لغيرِ نيَّةٍ حصلَ بهَا انتفاعٌ، ولهذَا سُمِّيَتْ خيرًا.

وقالَ أهلُ التَّفسيرِ[2]: إنَّهَا نزلَتْ في طائفةٍ منَ اليهودِ كانَ أكثرُ كلامِهِمْ منَ الخَنَا[3] والشَّرِّ إلَّا مَا استثْنَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ السَّلامةَ في الصَّمتِ خوفًا منَ الوقوعِ في ضررِ اللِّسانِ، فإنَّهُ الغالبُ علىٰ الإنسانِ، ولذلِكَ استثْنَىٰ القليلَ منَ الكثيرِ، وسُئِلَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فبِمَ النَّجاةُ؟ فأجابَ: بحفْظِ اللِّسانِ» مِن جُملةِ ما وصَّىٰ بهِ، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ النَّجاةَ في حفْظِهِ، وهوَ الصَّمتُ.

وَمِثْلُهُ قولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4]: «مَنْ صَمَتَ نَجا»[5]، وآفاتُ اللِّسانِ منَ الكذبِ والغِيبَةِ والنَّميمةِ والهَمْزِ واللَّمْزِ والاستهزاءِ وغيرِ ذلِكَ مِن آفاتِ اللِّسانِ، ولزومُ الصَّمتِ حتَّىٰ يعلمَ الإنسانُ ما يقولُ، أَيُرْضِي اللهَ ـ تعالىٰ ـ أمْ يُسخطُهُ؟ وكذلِكَ القولُ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والحُكْمُ عليهِ في الحَلالِ والحَرامِ والواجِبِ والمَنْدُوبِ

(١) أي: بعلم الشريعة.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ١/٢٥٦، وزاد المسير ٢/١٩٨.

(٣) الفحش والكلام القبيح. انظر: المقصور والممدود للقالي ص٥١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٦٠، وأحمد في مسنده ٢/١٥٩.

(٥) فيه مبالغة بادعاء أنه جميع أسباب النجاة؛ ترغيبا فيه وحثًّا عليه. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٨٢.

وَسَائِرِ الأحكامِ، لا بُدَّ منَ التَّثبُّتِ خَوْفًا مِنْ دُخُولِهِ في عُمُومِ قَولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ﴿وَيَقُولُونَ[١] عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «الصَّمْتُ سَلامَةٌ، وَهُوَ [١/٢٠٦ب] الأَصْلُ، وَعَلَيْهِ نَدامَةٌ؛ إِذْ وَرَدَ عَنْهُ الزَّجْرُ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُعْتَبَرَ فِيهِ الشَّرْعُ، وَالأَمْرُ [وَالنَّهْيُ][٣]؛ وَلِهَذَا قَالُوا: السُّكُوتُ فِي وَقْتِهِ صِفَةُ الرِّجَالِ، كَمَا أَنَّ النُّطْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ أَشْرَفِ الخِصَالِ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٤]: مَنْ سَكَتَ عَنِ الحَقِّ فَهُوَ شَيْطَانٌ أَخْرَسُ.

وَالصَّمْتُ مِنْ آدابِ الحَضْرَةِ[٥]، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وَقَالَ ـ تعالىٰ ـ مُخْبِرًا عَنِ الجِنِّ بِحَضْرَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وَقَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وَكَمْ بَيْنَ عَبْدٍ يَسْكُتُ تَصاوُنًا عَنِ الكَذِبِ وَالغِيْبَةِ وَبَيْنَ عَبْدٍ يَسْكُتُ لِاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ الهَيْبَةِ[٦]، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[٧]:

---

(١) في (أ، ب): ويفترون، وهو تحريف.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٣) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية. والقصد: يعتبر فيه الأمر به والنهي عنه شرعًا.

(٤) ورد قوله في: الأذكار للنووي ص٢٦٥، وشذرات الذهب ٣/١٨٠.

(٥) أي: من آداب أهل الحضور ممن يدوم على حال المراقبة له تعلىٰ. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٨٤.

(٦) أي: هيبة من له الأمر والنهي، وهو الله سبحانه وتعالىٰ.

(٧) من الوافر، وورد بلا نسبة في: الزهرة ١/٨١، وغرر الخصائص الواضحة ص٢٢٠.

أُفَكِّـرُ مَـا أَقُـولُ إِذَا افْتَرَقْنَـا ❁ وَأُحْكِـمُ دَائِبًـا حُجَـجَ المَقَـالِ
فَأَنْسَـاهَا إِذَا نَحْـنُ التَقَيْنَـا ❁ فَـأَنْطِقُ حِـينَ أَنْطِـقُ بِالمُحَـالِ

وَأَنْشَدُوا[١]:

فَيَا لَيْلُ كَـمْ مِـنْ حَاجَـةٍ لِـي مُهِمَّـةٍ ❁ إذا جِئْتُكُمْ، لَـمْ أَدْرِ يَا لَيْلُ مَا هِيَا!

وَأَنْشَدُوا[٢]:

وَكَـمْ حَـدِيثٍ لَـكَ حَتَّـى إِذَا[٣] ❁ مُكِّنْـتُ مِـنْ لُقْيَـاكَ أَنْسِـيْتُهُ[٤]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «الصَّمتُ سلامةٌ، وهوَ الأصْلُ»، يعنِي: السَّلامةَ هيَ الأصلُ؛ إذْ لَا غنيمةَ إلَّا بعدَ السَّلامةِ[٥]؛ وذلِكَ أنَّ الصَّمتَ لَا يكونُ سَلامةً في كلِّ حالٍ؛ إذْ يجبُ النُّطقُ تَارةً والسُّكوتُ أُخْرَىٰ، فمتَىٰ وجبَ النُّطقُ في تَغْييرِ المُنْكَرِ أوْ كلمةِ حقٍّ عندَ مَنْ يُخَافُ أوْ يُرْجَىٰ كانَ مِنْ شأنِ الأبطالِ، ومتَىٰ صَمَتَ الإنسانُ خَوْفًا مِنَ الزَّلَلِ والوقوعِ فيمَا لَا يُرْضِي اللهَ فهوَ مِن أهمِّ الأمورِ والأَحْوَالِ.

والسُّكوتُ تارةً يكونُ المُوجِبُ لهُ خوفَ الوقوعِ فِي الزَّلَلِ، وتارةً مَا[٦] يطرقُ العبدَ منَ الحياءِ والخجَلِ، وعليهِ حُرمةُ المحلِّ، ولذلِكَ قالَ الشَّيخُ: «**ومِنْ بينِ مَنْ يسكتُ مُتصاوِنًا عَنِ الكَذِبِ والغِيبةِ، وبينَ مَنْ يسكتُ لاستيلاءِ سُلْطَانِ الهيبَةِ**»،

---

(١) من الطويل، لمجنون ليلىٰ في ديوانه ص٢٦٦.

(٢) من السريع، ولم أقف عليه.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) في (ب): نسِّيتُ.

(٥) فكل غانم سالم.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

وقدْ تغلُبُ الحُرْمَةُ علىٰ قَلْبِ المُحترِمِ للحضورِ؛ حتَّىٰ ينسَىٰ جميعَ ما حضرَ لأجْلِهِ منَ الأُمُورِ، ويَدُلُّ عليهِ ما أَتَىٰ بهِ منَ الشِّعرِ قولُهُ:

أُفكِّرُ مَا أَقُولُ إِذَا افْتَرَقْنَا ✿ وَأُحْكِمُ دَائِبًا حُجَجَ المَقَالِ

فَأَنْسَاهَا إِذَا نَحْنُ الْتَقَيْنَا ✿ فَأَنْطِقُ حِينَ أَنْطِقُ بِالمُحَالِ

وذلكَ لِمَا يتغشَّىٰ القلبَ مِن حُرمةِ الحَالِ، أوِ الفَرَحِ بالقُرْبِ والنَّوالِ، فيشغلُهُ [١/٢٠٧أ] لذَّةُ الاجتماعِ عن إيرادِ ما روَّاهُ فِي فِكْرِهِ لحُصُولِ الانتفاعِ، ومنهُ قولُهُ: «**فَيَا لَيْلُ**»، وهوَ ترخيمُ (لَيْلَىٰ)، فيكونُ في نفسِهِ حوائجُ يذكرُهَا لمَنْ يُحِبُّهُ، فإذَا اجتمعَ معَهُ أَنْسَتْهُ لذَّةُ الاجتماعِ سائِرَ حَوائِجِهِ الَّتِي روَّاهَا في نفسِهِ في زيادةِ الانتفاعِ.

وكذلِكَ الشِّعرُ الثَّالثُ، وهذا قَدْ يكونُ الصَّمتُ فيهِ للذَّةِ الاجتماعِ والشُّغلِ بمَا هوَ أهمُّ ممَّا تقدَّمَهُ، وقد يكونُ الصَّمتُ لمَا يطرقُ القلبَ منَ الدَّهشةِ عندَ سَماعِ الخِطَابِ مِمَّنْ يجعلُهُ العبدُ حتَّىٰ يعجزَ عنِ الجَوابِ، كمَا دلَّ عليهِ الكتابُ العزيزُ في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، وهُمْ عالِمُونَ بمَا أجابَهُمُ(١) الأُممُ بهِ وقتَ التَّبليغِ(٢) حتَّىٰ قالُوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ويحتملُ أنْ يكونَ هذا لِدَهشَةِ السُّؤالِ مِن ربِّ الأربابِ، ويحتملُ أنْ يكونَ أدَبًا فِي الخِطَابِ(٣)، فيكونَ قولُهُمْ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، أيْ: زيادةً عمَّا نعلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ(٤).

---

(١) في (ب): جابهم.

(٢) في مرقاة المفاتيح ٢١٠/١٠: «لأن الإجابة غير التبليغ، وهي تحتاج إلىٰ تفصيل لا يحيط بكنهه إلا علمه سبحانه بخلاف نفس التبليغ؛ لأنه من العلوم الضرورية البديهية».

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٢٠/١.

(٤) انظر: تفسير السلمي ١٨٧/١، ومدارج السالكين ٣٩٠/٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَالسُّكُوتُ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: سُكُوتٌ بِالظَّاهِرِ، وَسُكُوتٌ بِالقَلْبِ وَالضَّمَائِرِ، فَالمُتَوَكِّلُ يَسْكُتُ قَلْبُهُ عَنْ تَقَاضِي الأَرْزَاقِ، وَالعَارِفُ يَسْكُتُ قَلْبُهُ مُقَابَلَةً لِلْحُكْمِ بِنَعْتِ الوِفَاقِ[(٢)]، فَهَذَا بِجَمِيلِ صُنْعِهِ وَاثِقٌ، وَهَذَا بِجَمِيعِ حُكْمِهِ قَانِعٌ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا[(٣)]:

تَجْرِي عَلَيْكَ صُرُوفُهُ ❊ وَهُمُومُ سِرِّكَ مُطْرِقَهْ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «والسُّكوتُ علىٰ نوعَينِ: سُكُوتٌ بِالظَّاهِرِ»؛ وهوَ سكوتُ اللِّسانِ، «وسكوتٌ بالباطنِ»؛ وهوَ هدوءُ الضَّميرِ والجَنانِ، وكمَا أنَّ سكوتَ اللِّسانِ يختلفُ تارةً لخوفِ الزَّلَلِ، وتارةً لحصولِ المطلوبِ والأمَلِ، فكذلِكَ الباطنُ يكونُ السُّكوتُ فيهِ للوثُوقِ بالضَّمَانِ؛ وهوَ سكوتُ المتوكِّلِ، وقدْ يكونُ السُّكوتُ فيهِ رضىً بمَا يجريهِ الحقُّ قبولًا لمَا سبقَ فِي الأزَلِ.

فالعارفُ ساكنٌ تحتَ جريانِ الأقدارِ؛ رِضًا بمَا يُجْرِيهِ المُقدِّرُ لهَا المُخْتَار، والمتوكِّلُ ساكنٌ لمَا وُعِدَ بهِ منَ الضَّمانِ، لَا يخشَىٰ معَ ضمانِ مولاهُ لهُ فواتَ ما ضمِنَهُ لهُ، فالبيتُ مخصوصٌ بأحوالِ العارفِ؛ وهوَ الَّذِي ينظرُ إلىٰ الأقدارِ، وتغيُّرِهَا عليهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ، وسرُّهُ مطرِقٌ راضٍ لا اختيارَ لهُ[(٤)] ولَا اعتراضَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَرُبَّمَا يَكُونُ سَبَبَ السُّكُوتِ حِيرَةُ البَدِيهَةِ، فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ كَشْفٌ[(٦)] عَنْ وَصْفِ البَغْتَةِ خَرِسَتِ العِبَارَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَا بَيَانَ وَلَا نُطْقَ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٦.

(٢) أي: الموافقة لأوامر الله ونواهيه.

(٣) من الكامل، وورد بلا نسبة في: التنوير في إسقاط التدبير ص١٢.

(٤) في (ب): لا اختيارك، والصواب المثبت.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٦.

(٦) أي: مكاشفة.

وَطُمِسَتِ الشَّوَاهِدُ(١) هُنَالِكَ [١/٢٠٧ب]، فَلَا عِلْمَ وَلَا حِسَّ(٢)، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا ذكرَهُ الشَّيخُ هاهُنَا مِن ورودِ هيبةٍ تذهلُ عنِ الإدراكِ، وتفوِّتُ معَهَا التَّحسُّسَ للشَّواهدِ، وتخرسُ اللِّسانَ عنِ الجوابِ، واستدلَّ عليهِ بالآيةِ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ للآيةِ محْمَلَينِ(٣):

أحدُهُمَا: كمالُ الأدبِ في ردِّ العِلْمِ إليهِ، وأنَّهُمْ لا عِلْمَ لهُمْ زيادةً علَىٰ ما علِمَهُ ممَّا بلَّغُوهُ للأممِ.

والثَّانِي: دهشةُ السُّؤالِ، فليسَ فيهِ ما أشارَ إليهِ الإمامُ منَ الغَيبةِ وعدمِ الإدراكِ والحِسِّ؛ لأنَّهُمْ قَدْ ذكرُوا الجوابَ، ويحسُنُ أنْ يورِدَ هاهُنَا قولَهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]، وذلِكَ إذَا سألَ الحقُّ ـ سبحانه ـ الأُمَمَ بقولِهِ: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، فأخذَتْهُمْ صَدْمَةُ العِزَّةِ وسَطوةُ السُّؤالِ حتَّىٰ ذهلُوا عنِ الجوابِ، وعنْ سؤالِ بعضِهِمْ بعضًا عنْ وجْهِ الصَّوابِ(٤).

❊ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «فَأَمَّا إِيْثَارُ أَرْبَابِ الْمُجَاهَدَةِ السُّكُوتَ، فَلِمَا عَلِمُوا [مَا] فِي الكَلَامِ مِنَ الآفَاتِ، ثُمَّ مَا فِيهِ مِنْ حَظِّ النَّفْسِ وَإِظْهَارِ صِفَاتِ المَدْحِ، وَالمَيْلِ إِلَىٰ أَنْ يَتَمَيَّزَ بَيْنَ أَشْكَالِهِ بِحُسْنِ النُّطْقِ، وَغَيْرِ هَذَا مِنْ آفَاتِ الخَلْقِ، وَذَلِكَ نَعْتُ أَرْبَابِ الرِّيَاضَةِ، وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِهِمْ فِي حُكْمِ الْمُنَازَلَةِ وَتَهْذِيبِ الخُلُقِ.

---

(١) بواسطة قوة التجلي، والوارد الرباني. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٨٦.

(٢) في (ف): «فلا علو ولا حسن».

(٣) أي: قبل تفسير هذا القول بقول.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٠.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

وَقِيلَ(١): إِنَّ دَاوُدَ الطَّائِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْعُدَ فِي بَيْتِهِ اِعْتَقَدَ أَنْ يَحْضُرَ مَجَالِسَ أَبِي حَنِيفَةَ ـ إِذْ كَانَ تِلْمِيذًا لَهُ ـ وَيَقْعُدَ بَيْنَ أَقْرَانِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي مَسْأَلَةٍ، فَلَمَّا قَوِيَتْ نَفْسُهُ عَلَىٰ مُمَارَسَةِ هَذِهِ الخَصْلَةِ سَنَةً كَامِلَةً قَعَدَ فِي بَيْتِهِ عِنْدَ ذَلِكَ وَآثَرَ العُزْلَةَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ الإمامُ فِي أنَّ صمْتَ اللِّسانِ ممَّا يُعينُ علىٰ السَّلامةِ مِنَ الوقوعِ فِي الشُّرورِ ويتعوَّدُ الإنسانُ بإمساكِهِ القوَّةَ علَىٰ غيرِهِ ممَّا يضعفُ(٢) منَ الأمورِ صحيحٌ، فإنَّ اللِّسانَ أغلبُ شيءٍ علىٰ الإنسانِ، ولذلِكَ نطقَ السَّادةُ الفضلاءُ أفضلُ الأُمَّةِ أبُو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا رآهُ آخِذًا بلسانِهِ، فقالَ لهُ عمرُ(٣): «مَهْ! غفرَ اللهُ لكَ، فقالَ: هذَا الَّذِي أوردَنِي الموارِدَ».

ويدلُّ علىٰ ذلِكَ الخَبَرُ الصَّحيحُ فِي (الموطَّأ)(٤) عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ»، وكذلِكَ رُئِيَ ابنُ عبَّاسٍ آخِذًا بثمرةِ لسانِهِ يقولُ للسانِهِ(٥): «قُلْ خيرًا تَغْنَمْ، واسكُتْ عنْ شَرٍّ تَسْلَمْ» [١/٢٠٨أ].

ويعضِّدُهُ ما رواهُ مالكٌ فِي (الموطَّأ)(٦) يرفعُهُ إلىٰ بلالِ بنِ الحارثِ المُزَنِيِّ(٧) أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ٧/٣٤٢، والمبين المعين لفهم الأربعين ص٣٧٥.

(٢) في (ب): يصعب.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) ٢/٩٨٥.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) ٢/٩٨٥.

(٧) في (ب): المرفي، وهو تحريف.

لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ».

فدلَّ جميعُ ذلكَ علىٰ أنَّ حفظَ اللِّسانِ مِنْ أهمِّ الأمورِ؛ وذلكَ أنَّهُ ترجُمانُ عمَّا فِي القلبِ، ولَا يتأتَّىٰ لهُ أنْ يسلمَ لسانُهُ حتَّىٰ يتثبَّتَ بقلبِهِ(١)، فيلزمَ مِنْ سلامةِ لسانِهِ عنِ الزَّللِ كمالُ تثبُّتِهِ بقلبِهِ(٢) خوفًا منَ الخَلَلِ، فبهذَا كانَ الصَّمتُ حتَّىٰ يتبيَّنَ للعبدِ صحَّةُ مَا يقولُ مِن أجْلِ المَأمُولِ، وإذَا كانَ علىٰ لسانِهِ أضبطَ وأقْوىٰ كانَ في عينِهِ وسمْعِهِ وبقيَّةِ أعضائِهِ أمْكَنَ وأَوْلَىٰ.

ولهذَا كانَ الصَّمتُ مِن أركانِ المُجاهدةِ، ولكِنْ ينبغِي أنْ يتنبَّهَ مَنْ عزَمَ علَىٰ مُجَاهَدَةِ نفسِهِ فِي صَمْتِ اللِّسانِ أنْ يتحفَّظَ مِنَ الإشاراتِ والكتابةِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يقومُ مقامَ الأقوالِ، فرُبَّ شخصٍ سَاكتٍ بلسانِهِ وهوَ متكلِّمٌ بغيرِ ذلِكَ مِنْ أفعالِهِ، فإنَّ اللِّسانَ يدلُّ علىٰ ما قامَ بالجَنَانِ، وكذلِكَ يدلُّ غيرُهُ مِن الإشارةِ والأفعالِ والكتابةِ ولحْظِ العينِ وغيرِ ذلِكَ مَا يحصلُ بهِ الإفْهامُ، فيتوهَّمُ العبدُ أنَّهُ ساكتٌ وهوَ متكلِّمٌ بغيرِ سكوتِ اللِّسانِ، وهوَ متكلِّمٌ بغيرِ ذلكَ ممَّا أشرْنَا إليهِ الآنَ، ولذلِكَ أوردَ الإمامُ الحكايةَ عنْ داوُدَ الطَّائِيِّ، وكانَ مِن أصحابِ أبي حنيفةَ فطلَبَتْ نفسُهُ منهُ الخُلوةَ حتَّىٰ يسلَمَ مِن آفاتِ الكلامِ في الجِدالِ والخِصامِ، فقالَ لنفسِهِ: حتَّىٰ تُجالِسِيهِمْ سَنَةً ولَا تتكلَّمي، فجلسَ معَ أصحابِهِ الَّذِينَ كانَ يجالسُهُمْ فِي الفقْهِ وتمرُّ بهِ المسألةُ وهوَ أشهَىٰ إلىٰ الكلامِ فيهَا منَ العطشانِ للمَاءِ الباردِ ولَا يتكلَّمُ، فلمَّا دامَ علىٰ ذلِكَ سَنَةً وعرَفَ من نفسِهِ قوَّةَ عَزْمِهِ، وموافقةَ ذلِكَ فِعْلَهُ اعتزلَ النَّاسَ.

---

(١) لذلك قيل: «لسان العاقل في قلبه، وقلب الجاهل في لسانه». وفي المجالسة وجواهر العلم ص٥٢٩: «قال الحسن: لسان العاقل وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم تفكر، فإن كان له قال: وإن كان عليه أمسك، وقلب الجاهل وراء لسانه فإن همَّ بالكلام تكلَّم له وعليه».

(٢) سقط من (ب) قوله: «فيلزم من سلامة لسانه عن الزلل كمال تثبته بقلبه».

ومَنْ لَمْ يُجاهِدْ نفسَهُ إلىٰ أنْ تتغيَّرَ أخلاقُهُ، فإنَّهُ إذَا كانَ كذلِكَ وحبسَ نفسَهُ منَ الزَّمانِ مَا عساهُ أنْ يحبسَهَا مِن غيرِ قصْدٍ لرياضةِ أخلاقِهِ، فإذَا سيَّبَها[١] رجَعَتْ إلَىٰ حالِهَا الأوَّلِ، وكانَتْ غايتُهُ سَلامتَهُ وقتَ الحَبْسِ [١/٢٠٨ب] خاصَّةً، وأخلاقُهُ الذَّميمةُ باقيةٌ لَمْ تتغيَّرْ[٢].

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ كِتَابًا وَاسْتَحْسَنَ لَفْظَهُ مَزَّقَ الكِتَابَ وَغَيَّرَهُ»[٤].**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا أوردَهُ الإمامُ علىٰ ما تقدَّمَ مِن أقسامِ الكلامِ؛ وهوَ أنَّ الإنسانَ قَدْ يسكتُ سلامةً منَ الوقوعِ في الزَّللِ مِنَ الغِيبةِ والنَّميمةِ وسُوءِ القَولِ، وقدْ يسكتُ إذا استحسَنَ مِن نفسِهِ الكلامَ رَدًّا علىٰ نفسِهِ هواهَا فيهِ؛ خوفًا مِنَ العجبِ بالقولِ والعملِ، ولذلكَ كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا كتبَ كتابًا واستحسَنَ ما جرَىٰ علىٰ لسانِهِ فيهِ منَ الكلامِ، وأحسَّ مِن نفسِهِ الاستحسانَ ردَّ علىٰ نفسِهِ هَواهَا ومزَّقَ الكتابَ وكتبَ غيرَهُ علىٰ غيرِ ذلكَ الوَجْهِ، آخِذًا بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]... الآية.

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ[٦] بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّازِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ السَّرَّاجُ قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ الفَتْحِ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الحَارِثِ يَقُولُ[٧]:**

---

(١) أي: تركها.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢١.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

(٤) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١١٠. وقوله هذا فيه تنبيه على قوة مراقبة لأفعال نفسه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

(٦) في (ف): «عبد الله».

(٧) ورد قوله في: شعب الإيمان ٤/٢٦٩، وحلية الأولياء ٨/٣٤٧، وتاريخ الإسلام ١٦/١٠٩،=

إِذَا أَعْجَبَكَ الكَلَامُ فَاصْمُتْ، وَإِذَا أَعْجَبَكَ الصَّمْتُ فَتَكَلَّمْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ رحِمَكَ اللهُ ـ أَمْرٌ بمُخَالفةِ هوَىٰ النَّفسِ وردِّهَا عن هَواهَا، وإعجابُ النَّفسِ بالكَلَامِ أوِ السُّكوتِ يكونُ علىٰ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: الاستحسانُ للشَّيءِ، كمَا تقولُ: أعجبَنِي حُسْنُ كذَا، وصنعةُ كذَا، وهذَا إنَّمَا يخالفُ النَّفسَ فيهِ لأحدِ وجهَينِ:

[الأوَّلُ]: إمَّا أنْ يكونَ مذمومًا في الشَّريعةِ، فاستحسانُ مَا لمْ يُحسِّنْهُ الشَّرعُ خطأٌ ومخالفةٌ.

والثَّانِي: أنْ يكونَ المستحسَنُ ليسَ مذمومًا في الشَّرعِ إلَّا أنَّ استحسَانَهُ يَحْمِلُ النَّفسَ علىٰ متابعتِهِ والشُّغلِ بهِ عمَّا هوَ أَوْلَىٰ منهُ.

الوَجْهُ الثَّانِي فِي العجبِ: أنْ يكونَ إضافةَ الشَّيءِ المستحسَنِ إلىٰ نفسِهِ ومدحَ النَّفسِ عليهِ ونسيانَ مِنَّةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، هذَا عُجْبٌ محرَّمٌ، والسُّكوتُ عنهُ إذَا كانَ الكلامُ هوَ المعجبَ بهِ توبةٌ عنِ العجبِ، فراعَىٰ فيهِ شروطَ التَّوبةِ معَ مفارقتِهِ؛ وهوَ النَّدمُ علىٰ مَا كانَ والعَزْمُ علَىٰ ألَّا يعودَ، وكذلِكَ القولُ: إذَا أعجبَ بالسُّكوتِ مِن جهَةِ العجبِ، واللهُ الموفِّقُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[2]: لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ الصَّمْتُ حَتَّىٰ يُلْزِمَ نَفْسَهُ الخَلْوَةَ[3]، وَلَا تَصِحُّ لَهُ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ يُلْزِمَ نَفْسَهُ الصَّمْتَ».

= والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٠.

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٦٨، وتهذيب الأسرار ص٤٥٦، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٤٤.

(٣) لأنه من جملة رياضة النفس.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يخرجُ مخرجَ الغالبِ، وذلكَ أنَّ الغالبَ منَ النَّاسِ [١/٢٠٩أ] أنَّ مَنْ أرادَ الصَّمتَ وهوَ معَ النَّاسِ مخالطٌ لهُمْ عجزَ عنْ ذلِكَ، فإذَا بعُدَ عنهُمْ وخلَا بنفسِهِ حتَّىٰ يتعوَّدَ السُّكوتَ ويصيرَ لهُ عادةً أمكنَهُ أنْ يسكتَ معَ الخلطةِ، وقَدْ يَمُنُّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ بالقوَّةِ علَىٰ مخالفةِ النَّفسِ فيسكتُ وهوَ معَ النَّاسِ، وإنْ لمْ تتقدَّمْ لهُ خُلْوةٌ[١].

وقولُهُ: «**لَا تصحُّ لهُ التَّوبةُ حتَّىٰ يصمتَ**»، يريدُ التَّوبةَ منْ فضولِ الكلامِ وزلَلِ اللِّسانِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ مَنْ كثُرَ كلامُهُ كثُرَ سَقطُهُ وغَلطُهُ إلَّا آحادَ النَّاسِ، وهوَ المتثبِّتُ بقلبِهِ المميِّزُ لمَا ينطقُ بهِ لسانُهُ، فيصيرُ لسَانُهُ تبعًا لقلبِهِ المُتثبِّتِ، وإلَّا مَنْ كانَ شأنُهُ الاستعجالَ فِي الجوابِ ومحبَّةَ سَمَاعِ الكلمةِ بينَ العبادِ، فمَنِ استعجلَ أخطأَ أو كادَ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الفَارِسِيُّ[٣]: مَنْ لَمْ يَكُنِ الصَّمْتُ وَطَنَهُ[٤] فَهُوَ فِي الفُضُولِ وَإِنْ كَانَ صَامِتًا[٥]**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي نبَّهْنَا عليهِ قبلَ هذَا، وذلكَ أنَّ الصَّمتَ إذا لمْ يكنْ بالقلبِ قبلَ اللِّسانِ وكانَ العبدُ مشغوفًا بإعلامِ الخلْقِ بمَا تضمَّنَهُ الجنانُ كانَ متكلِّمًا، وإنْ صمتَ بلسانِهِ فتارةً يشيرُ إلىٰ مقصودِهِ بيدِهِ، وتارةً بعينِهِ، وتارةً بغيرِ ذلِكَ ممَّا يصحُّ بهِ الإفهامُ، هذَا وَجْهٌ.

وقولُهُ: «**وطنَهُ**» يعنِي: مَقَامَهُ وحَالَهُ في قلبِهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

(٣) وهو أبو بكر الطمستاني، كما في: طبقات الصوفية ص٣٥٥.

(٤) أي: مقامه.

(٥) في (ف): صافيا.

وقولُهُ: «فهوَ فِي الفُضُولِ»، أيْ: كثُرَتْ وساوسُهُ وتشعبَّتْ أفكارُهُ في جهاتٍ عديدةٍ، ولمْ يجتمعْ همُّهُ علَىٰ ما هوَ فيهِ؛ لكثرةِ التفاتِ قلبِهِ وحديثِ نفسِهِ بغيرِ مَا يعنيهِ، ولذلِكَ قالَ بعضُهُم: «مَنْ كانَ يقينُهُ وطناتٍ، كانَتْ وساوسُهُ خطَراتٍ، ومَنْ كانَتْ وساوسُهُ وطنًا كانَ يقينُهُ خطراتٍ»، وذلكَ لمَا غلبَ علَىٰ قلبِهِ مِنْ أحدِ القسمَينِ، وصارَ مقامًا لهُ، هذَا ممَّا[1] يختصُّ بالقلبِ، وقَدْ أشرْنَا لمَا فيهِ التَّفرقةُ باللِّسانِ مِنَ الإشارةِ والأفعالِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَالصَّمْتُ لَيسَ بِمَخْصُوصٍ عَلَىٰ اللِّسَانِ، لَكِنَّهُ عَلَىٰ القَلْبِ وَالجَوَارِحِ كُلِّهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ[3]: مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِمِ السُّكُوتَ؛ فَإِذَا نَطَقَ نَطَقَ بِلَغْوٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لمْ يستغنِمْ»، أيْ: مَنْ لَمْ يَعْرِفْ[4] فضيلَةَ السُّكُوتِ ويعدَّهُ غنيمةً، فإذَا نطقَ وقعَ فِي الزَّلَلِ؛ لقلَّةِ خوفِهِ من آفاتِ اللِّسانِ، وإنَّمَا يقلُّ خوفُهُ منْ آفاتِ اللِّسانِ؛ لجهْلِهِ بذلِكَ، وقدْ [١/٢٠٩ب] بيَّنَّا أنَّ السُّكوتَ يكونُ بالقَلْبِ والجَوَارِحِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مِمْشَاذَ الدَّيْنُورِيَّ يَقُولُ[6]: الحُكَمَاءُ وَرِثُوا الحِكْمَةَ بِالصَّمْتِ وَالتَّفَكُّرِ».

---

(١) في (ب): ما.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

(٣) نسب لأبي محمد الرازي في: طبقات الصوفية ص٣٣٨، والمختار من مناقب الأخيار ٢/٣٨٣.

(٤) في (ب): يعلم.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٥٦، والمختار من مناقب الأخيار ٢/٣٨٣.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ حقيقةَ الحكمةِ: وضعُ الأشياءِ مواضعَهَا فِي القولِ والفعلِ ، فمَنْ لمْ يتثبتْ بقلبِهِ ، ويُمسِكْ نفسَهُ عنِ العجلةِ فِي الجزمِ بقلبِهِ أوِ الفعلِ بجارحتِهِ ولسانِهِ حتَّىٰ يعرفَ الصَّوابَ منَ الخطأِ فِي الفِعْلِ والحقَّ مِنَ الباطلِ فِي القولِ لمْ يكنْ حكيمًا ، وجرَتْ أقوالُهُ وأفعالُهُ مثبجةً[1] غيرَ صحيحةٍ[2].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَسُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الفَارِسِيُّ عَنْ صَمْتِ السِّرِّ ، فَقَالَ: تَرْكُ الاشْتِغَالِ بِالمَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الفَارِسِيُّ: إِذَا كَانَ العَبْدُ نَاطِقًا فِيْمَا يَعْنِيه وَفِيْمَا لَابُدَّ مِنْهُ فَهُوَ فِي حَدِّ الصَّمْتِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «صَمْتُ السِّرِّ: عَدَمُ الالْتِفَاتِ إِلَىٰ المَاضِي والمُسْتَقْبَلِ» يعنِي: جمعُ الهمِّ علَىٰ مَا هوَ الأَوْلَىٰ بالعبْدِ فِي وقتِهِ وفكرتِهِ فِي غيرِ مَا هوَ أَوْلَىٰ بهِ فِي قوَّتِهِ مِنْ جُمْلَةِ الفضولِ المستغنَىٰ عنهُ ، وإليهِ يرجعُ قولُهُ الثَّانِي: «إذَا تكلَّمَ العبدُ بمَا يعينُهُ فهوَ في حدِّ الصَّمتِ» ؛ أيْ: لَا فضولَ عندَهُ ، وإذَا تكلَّمَ بغيرِ ماهيَّتِهِ فِي وقتِهِ ، فليسَ بصامتٍ وإنْ لمْ يتكلَّمْ بلسانِهِ ، فكلامُهُ الأوَّلُ والثَّانِي يشيرُ إلىٰ أنَّ الكلامَ والفِكْرَ فيمَا هوَ محتاجٌ إليهِ لا يخرجُهُ عنْ صَمْتِ السِّرِّ ولا صَمْتِ اللِّسانِ ، ومتَىٰ تفكَّرَ فيمَا لا يعنيهِ ، أوْ تحدَّثَ بالإشارةِ إلىٰ غيرِ ما يعنيهِ فليسَ بصامتٍ وإنْ لمْ يتكلَّمْ بِلِسَانِهِ[4].

---

(١) من ثبج في الكلام ؛ أخطأ فيه ، أو لم يبينه ولم يأت به علىٰ وجهه . ففي الجمهرة ١/٢٥٨: «وثبجت الكلام تثبيجا إذا لم تأت به علىٰ وجهه» . وانظر: القاموس ص٨٣٤ .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٢ .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٧ .

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٣ .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «وَيُرْوَىٰ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ(٢): كَلِّمِ النَّاسَ قَلِيلًا، وَكَلِّمْ رَبَّكَ كَثِيرًا؛ لَعَلَّ قَلْبَكَ يَرَىٰ اللهَ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ إشارةٌ إلىٰ دوَامِ ذِكْرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ودوامِ مُنَاجَاتِهِ في سائِرِ أفعالِكَ وحَاجَاتِكَ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فإذَا كنتَ كذلِكَ صِرْتَ ممَّنْ يعبدُ اللهَ كأنَّهُ يرَاهُ، وممَّنْ إنْ سنحَتْ لهُ حاجةٌ لا يقصدُ سِواهُ، ويلزمُ عن ذلِكَ السُّكوتُ عن كلامِ النَّاسِ إلَّا نادِرًا؛ لضرورةِ خلطتِهِمْ، ولذلِكَ قالَ لهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: تعوَّدِ الإقلالَ مِن كلامِ النَّاسِ والإكثارَ لمكالمَةِ اللهِ [١/٢١٠أ]، أيْ: لذِكْرِهِ ومُنَاجَاتِهِ، فلعلَّ قلبَكَ يعيشُ عن مَوتِ الغفلةِ ويُقبلُ علىٰ ربِّهِ فِي سَائِرِ مَآربِهِ ويَرَاهُ في دُنياهُ بقلبِهِ، وتُرجَىٰ لهُ رُؤيتُهُ في الآخرةِ كمَا وعدَهُ ربُّهُ بعَينِ رَأسِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «وَقِيلَ لِذِي النُّونِ المِصْرِيِّ(٤): مَنْ أَصْوَنُ النَّاسِ لِنَفْسِهِ؟ قَالَ: أَمْلَكُهُمْ لِلِسَانِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ لأنَّهُ علىٰ حسبِ صَوْنِ اللِّسانِ عنِ الوقوعِ في الآفاتِ؛ مِنَ الغِيبةِ والنَّميمةِ والسَّبِّ والفُحْشِ وغيرِ ذلِكَ منَ البليَّاتِ، فمَنْ ملكَ لسانَهُ حتَّىٰ لا يتكلَّمَ إلَّا بعدَ التَّثبُّتِ والتَّمييزِ لمَا يقولُهُ فقَدْ سلِمَ من هذِهِ الآفاتِ، وصانَ نفسَهُ عنِ الوقوعِ في كثيرٍ منَ المُحرَّماتِ، ولا سيَّمَا فِي هذِهِ الأوقاتِ الَّتِي غَلَبَتْ علىٰ القلوبِ الغَفلاتُ، وملكَتْهَا مُتابعَةُ الشَّهَواتِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٥٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٥٢، وفيض القدير ٢/١٩٧.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **مَا مِنْ شَيْءٍ بِطُولِ السِّجْنِ أَحَقُّ مِنَ اللِّسَانِ**.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ بَكَّارٍ[٣]: جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ بَابَيْنِ، وَجَعَلَ لِلِّسَانِ أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ؛ فَالشَّفَتَانِ مِصْرَاعَانِ، وَالأَسْنَانُ مِصْرَاعَانِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشيرُ إلىٰ أنَّ السُّكوتَ مِن أهمِّ ما يحتاجُ الإنسانُ إليهِ، وأنَّ اللِّسانَ أَوْلَىٰ بالسِّجنِ مِن كلِّ جَارحةٍ، ولذلِكَ قالَ ابنُ بكَّارٍ: «**جعلَ اللهُ لكلِّ شيءٍ بابَينِ وجعلَ للِّسانِ أربعةَ أبوابٍ، الشَّفتَانِ مِصراعَانِ، والأسنانُ[٤] مصراعَانِ**»، فجعلَ كلَّ درفةٍ[٥] بابًا، ومقصودُهُ أنَّ البابَ الواحدَ[٦] يكونُ لهُ مصراعَانِ، فكلُّ شيءٍ يكفِي في حفظِهِ بابٌ واحدٌ لهُ مِصراعَانِ، وجُعِلَ علىٰ اللِّسانِ بابَانِ لكلِّ بابٍ مِصراعانِ، فبهذَا الاعتبارِ جعلَ علىٰ اللِّسانِ أربعةَ أبوابٍ ومقصودُهُ بابانِ.

وكلامُهُ تنبيهٌ علىٰ ما أشارَ إليهِ ابنُ مسعودٍ مِن أنَّهُ أحقُّ بالسِّجنِ من غيرِهِ، فإنَّ مَنْ كانَ أولَىٰ بالسِّجنِ تأكَّدَ الأمرُ فِي حفظِهِ؛ خوفًا مِن خُرُوجِهِ.

وقيلَ لبعضِ الرُّهبانِ: مَا جلوسُكَ فِي هذِهِ الصَّومعةِ؟ قالَ: لَسْتُ براهبٍ، وإنَّمَا أنَا حارسُ كلبٍ؛ لِسَانِي سَبُعٌ ضَارٍ، إنْ أطلقْتُهُ آذانِي وآذَىٰ النَّاسَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٢) ورد قوله في: الزهد لابن المبارك ص١٢٩، وشعب الإيمان ٤/٢٥٩، والأذكار للنووي ص٢٦٥.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٥٤.

(٤) العليا والسُّفلىٰ.

(٥) في المعجم الوسيط ١/٥١٧: «الصفق: صفق الباب مصراعه وهو الآن (الدرفة)، يقال: بابه صفق واحد أو صفقان؛ مصراعان يضم أحدهما إلىٰ الآخر ليغلق».

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُمْسِكُ فِي فِيهِ حَجَرًا كَذَا وَكَذَا سَنَةً؛ لِيَقِلَّ كَلَامُهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: يعنِي: أنَّ حركتَهُ فِي فِيهِ كلَّمَا تحرَّكَ ذَكَّرَتْهُ مَا جعلَهُ لهُ، فيشتدُّ حذرُهُ مِنْ زلَلِ اللِّسانِ [١/٢١٠ب] ويقوىٰ تثبُّتُهُ، فإذَا كانَ هذا حذرَ الصِّدِّيقِ الَّذِي سمَّاهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِدِّيقًا؛ لمبالغتِهِ فِي الصِّدقِ في القولِ والفعْلِ بالقَلبِ، واللِّسانُ يفعَلُ هذا خوفًا مِنَ الزَّلَلِ البعيدِ القليلِ النَّادرِ، فكيفَ بمَنْ يكونُ جرَيَانُ الحقِّ علىٰ لسانِهِ نادِرًا؟![(٤)]، كمَا قالَ بعضُهُمْ: «لَوْ كُلِّفَ العَبْدُ شِرَاءَ الكاغِد[(٥)] الَّذِي يكتبُ فيهِ زلَلَهُ بلسانِهِ لأسرعَ إلىٰ صمتِهِ؛ لكثرةِ ما يلزمُهُ مِنْ ثَمَنِ مَا يخرجُهُ فِي ثَمَنِ الكاغدِ الَّذِي يُكتبُ فيهِ زلَلُهُ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقِيلَ[(٧)]: إِنَّ أَبَا حَمْزَةَ البَغْدَادِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ حَسَنَ الكَلَامِ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: تَكَلَّمْتَ فَأَحْسَنْتَ، بَقِيَ أَنْ تَسْكُتَ فَتُحْسِنَ، فَمَا تَكَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ مَاتَ، وَمَاتَ قَرِيبًا مِنْ هَذِهِ الحَالَةِ عَلَىٰ رَأْسِ أُسْبُوعٍ، أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٨)]: الإحسانُ في العملِ كمَا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حديثِ جبريلَ الصَّحيحِ[(٩)]: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، فمَنْ أحسنَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٢) ورد نحوه في: تهذيب الأسرار ص٤٥٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٣.

(٥) أي: القرطاس.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٥٥، والإرشاد والتطريز ص١٢٤، وحدائق الحقائق ص٣٤.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٩) سبق تخريجه.

فِي كلامِهِ أوقعَ كلامَهُ[١] علىٰ وَجْهِ العِبَادةِ للهِ مُتَبَرِّئًا مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ عليهِ ناظرًا إلىٰ فضْلِ اللهِ، فإِذَا كانَتْ هذِهِ حَالتَهُ فِي كَلامِهِ فَدَلَّهُ الهاتفُ علىٰ أنْ يستوِيَ حَالُهُ فِي سُكُوتِهِ معَ حَالِهِ فِي كَلامِهِ فِي الإِحْسَانِ، فَإِحْسَانُهُ فِي السُّكوتِ ألَّا يسكتَ عن حقٍّ أوجبَهُ اللهُ، ويسكتَ عنْ كلِّ مَا حرَّمَهُ اللهُ عليهِ، أوْ كرِهَهُ لهُ لوجْهِ اللهِ، ويكونَ فِي كِلَا[٢] حالَتَيْهِ مستغنِيًا باللهِ رائيًا فضلَ اللهِ، فلمَّا عملَ فيهِ الخَاطِرُ سكَتَ إلَىٰ أنْ مَاتَ.

هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ سكوتَهُ كانَ عندَهُ أفضلَ مِنْ كَلامِهِ، ولذلِكَ دامَ عليهِ إلىٰ أنْ تُوُفِّيَ، وإلَّا لَوْ وجبَ عليهِ الكَلامُ أوْ نُدِبَ إليهِ كانَ أفضلَ مِن سُكُوتِهِ ولمْ يكنْ محسِنًا فِي سُكُوتِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وَرُبَّمَا يَكُونُ السُّكُوتُ يَقَعُ عَلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ تَأْدِيبًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ أَسَاءَ أَدَبَهُ فِي شَيْءٍ.**

كَانَ الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِذَا قَعَدَ فِي حَلْقَتِهِ وَلَا يَسْأَلُونَهُ يَقُولُ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ [النمل: ٨٥].

وَرُبَّمَا يَقَعُ السُّكُوتُ عَلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ؛ لِأَنَّ فِي الْقَوْمِ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِالكَلَامِ.

سَمِعْتُ ابْنَ السَّمَّاكِ بِبَغْدَادَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ[٤]: كَانَ بَيْنَ شَاهِ الكِرْمَانِيِّ وَيَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ صَداقَةٌ، فَجَمَعَهُمَا بَلَدٌ، فَكَانَ شَاهُ لَا يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: الصَّوَابُ هذَا، فَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّىٰ حَضَرَ يَوْمًا مَجْلِسَهُ، وَقَعَدَ نَاحِيَةً لَا يَشْعُرُ بِهِ

(١) سقط من (ب) قوله: أوقع كلامه.

(٢) في (ب): كل.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٥٤، والمختار من مناقب الأخيار ٢/١٦٦.

يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ، فَلَمَّا أَخَذَ يَحْيَي فِي الكَلَامِ سَكَتَ، ثُمَّ قَالَ: هَهُنَا مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ بِالكَلَامِ مِنِّي، وَأُرْتِجَ عَلَيْهِ[(١)] [١/٢١١أ]، فَقَالَ شَاهُ: قُلْتُ لَكُمْ: الصَّوابُ أَلَّا[(٢)] أَحْضُرَ مَجْلِسَهُ.

وَرُبَّمَا يَقَعُ السُّكُوتُ عَلَىٰ المُتَكَلِّمِ لِمَعْنًىٰ فِي الحَاضِرِينَ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِسَمَاعِ ذَلِكَ الكَلَامِ، فَيَصُونُ اللهُ - تعالىٰ - لِسَانَ المُتَكَلِّمِ؛ غَيْرَةً وَصِيَانَةً لِذَلِكَ الكَلَامِ عَنْ غَيْرِ أَهْلِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ الإمامُ فِي هذهِ الحكاياتِ تفصيلٌ فِي أسبابِ السُّكوتِ:

فمِنْهُ مَا يقعُ أدبًا للمتكلِّمِ، وذلكَ أنَّهُ إذا استرسَلَ فِي الكلامِ وجرَىٰ علىٰ لسانِهِ الحقُّ والصَّوابُ، فرُبَّمَا التفتَ إلىٰ حُسْنِ حالتِهِ وكمالِ حِكْمَتِهِ، وأضافَ ذلكَ إلَىٰ نفسِهِ، ونسيَ مِنَّةَ ربِّهِ فيؤدِّبُهُ الحقُّ - سبحانه - علَىٰ هذِهِ الزَّلَّةِ، ويسلبُهُ جميعَ ما هوَ فيهِ، ويبقَىٰ لَا يقدرُ أنْ يجيزَ كلمةً واحدةً ممَّا كانَ فيهِ، وقَدْ يكونُ سببَ السُّكوتِ أنَّ فِي مجلسِهِ مَنْ هُوَ أحقُّ مِنْهُ بالكلامِ فيمَا هوَ فيهِ فينبِّهُهُ الحقُّ ليتأدَّبَ ويبحثَ علىٰ مَنْ فِي مجلسِهِ ليعطيَهُ حقَّهُ ويُنزلَهُ منزلَتَهُ ويكونَ متعلِّمًا منهُ لَا مُعَلِّمًا لهُ.

وقَدْ يكونُ سَبَبَ السُّكوتِ أنَّ فِي المجلسِ مَنْ لا يستحقُّ الحِكمةَ الَّتِي يُجرِيهَا اللهُ - تعالىٰ - علىٰ لسانِ المتكلِّمِ فيحفظُ اللهُ المتكلِّمَ مِنْ أنْ يلقِي الحِكمةَ عندَ غيرِ أهلِهَا، فيكونَ واضعًا لهَا فِي غيرِ موضعِهَا وظالمًا لهَا، كمَا حُكِيَ عنْ عيسَىٰ بنِ مريمَ - صلواتُ اللهِ وسلامُهُ علَىٰ نبيِّنَا وعليهِ - أنَّهُ قالَ[(٣)]: «لَا تُعطُوا الحِكمةَ غيرَ

(١) أي: تعذر عليه الكلام، وأرتج الباب: أُغلق.

(٢) في (ب): لا.

(٣) ورد قوله في: جامع بيان العلم وفضله ص١١٠.

أهلِهَا فتظلمُوهَا»، أيْ: لَا تحفظوهَا ولَا تَضَعُوهَا[١] مَواضِعَهَا، «ولَا تمنعُوهَا أهلَهَا فتظلمُوهُمْ»، أيْ: تمنعوهَا لمستحقِّهَا فيفوتُهُ الانتفاعُ بهَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «وَرُبَّمَا كَانَ سَبَبَ السُّكُوتِ الَّذِي يَقَعُ عَلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ أَنَّ بَعْضَ الحَاضِرِينَ كَانَ مَعْلُومُ اللهِ ـ سبحانه ـ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، فَيَكُونُ فِتْنَةً لَهُ؛ إِمَّا لِتَوَهُّمِهِ أَنَّهُ وَقْتُهُ فَلَا يَكُونُ، أَوْ لِأَنَّهُ يُحَمِّلُ نَفْسَهُ مَا لَا يَطِيقُ، فَيَرْحَمُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَحْفَظَ سَمْعَهُ عَنْ ذَلِكَ الكَلَامِ؛ إِمَّا صِيَانَةً لَهُ، أَوْ عِصْمَةً عَنْ غَلَطِهِ.

وَقَالَ مَشَايِخُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ: رُبَّمَا يَكُونُ السَّبَبَ فِيهِ حُضُورُ مَنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِسَمَاعِهِ مِنَ الجِنِّ؛ إِذْ لَا تَخْلُو مَجَالِسُ الْقَوْمِ مِنْ حُضُورِ جَمَاعَةٍ مِنَ الجِنِّ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: اعْتَلَلْتُ مَرَّةً بِـ(مَرْو)، فَاشْتَقْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ (نَيْسَابُور)، فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لِي: لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذَا البَلَدِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الجِنِّ اسْتَحْلَوْا كَلَامَكَ[٣]، وَيَحْضُرُونَ مَجْلِسَكَ، فَلِأَجْلِهِمْ تُحْبَسُ[٤] هَهُنَا[٥]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقَدْ يكونُ [١/٢١١ب] مِنْ أسبابِ السُّكُوتِ أنَّ بعضَ السَّامِعِينَ لَا يصلُحُ لهُ سماعُ مَا يُجريهِ اللهُ مِنَ الحكمةِ علىٰ لسانِ المتكلِّمِ، ويكونُ ذلكَ مِن بابِ اللُّطفِ بالسَّامعِ والشَّفقةِ عليهِ؛ بحيثُ لوْ سمِعَهُ لثارَتْ مِنْ قلبِهِ أحوالٌ تكونُ سببَ ضَررِهِ وَهَلاكِهِ؛ لضعْفِهِ عنْ حمْلِ ما يردُ عليهِ، وقدْ يكونُ ذلكَ مِنَ

---

(١) في (أ، ب): «تحفظونَهَا ولَا تُضيِّعُونَهَا»، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) أي: انتفعوا به.

(٤) في (ب): تحبسهم، والصواب المثبت.

(٥) فلا تسافر.

الإِنسِ، وقدْ يكونُ مِنَ الجنِّ، فإنَّ الجنَّ صرَّحَ الكتابُ والسُّنَّةُ بإيمانِهِمْ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في كتابِهِ الكريمِ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلىٰ قولِهِ: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [آية: ٢]، ومدحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الجنَّ لمَّا سمعُوا قراءَةَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنخلةٍ، وقيلَ: بعكاظٍ(١)، فتواصَوْا بالإنصاتِ، فلمَّا سمعُوا وفهمُوا رجعُوا إلىٰ قومِهِمْ مُنذرينَ، وقولُ(٢) النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣): «نِعْمَ الجِنُّ جِنُّ نَصِيبِين، سَأَلُونِي الزَّادَ فَسَأَلْتُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أَلَّا يَمُرُّوا عَلَىٰ عَظْمٍ إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ قُوْتًا».

فعلَىٰ ذلِكَ فَهُمْ مِنْ جملةِ المكلَّفِينَ بالعِلمِ والعملِ، وتجرِي عليهِمُ الأحوالُ الَّتِي يطيقُونَ حَمْلَهَا والَّتِي يضعفُونَ عنهَا كالإنسِ، والحكايةُ الَّتِي أوردَهَا الإمامُ عنِ الشَّيخِ أَبِي عليٍّ الدَّقَّاقِ لمَّا طلبَ السَّفرَ مِنْ (مَرْو) إلىٰ (نيسابور) فَنُبِّهَ فِي النَّومِ علىٰ أنَّكَ لَا يمكنُكَ السَّفرُ، فإنَّ جماعةً مِنَ الجنِّ انتفعُوا بكلامِكَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): **«وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ(٥): إِنَّمَا خُلِقَ لِلإِنْسَانِ لِسَانٌ وَاحِدٌ وَعَيْنَانِ وَأُذُنَانِ؛ لِيَسْمَعَ وَيُبْصِرَ أَكْثَرَ مِمَّا يَقُولُ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ خُلِقَ لهُ عضوٌ واحدٌ، فصارَ يفعلُ بهِ أكثرَ ممَّا خلقَ اللهُ [لهُ](٧) عضوَينِ؛ كالعينَينِ والأُذنَينِ.

---

(١) سبق التعليق على ذلك.

(٢) في (ب): وقال.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٤٠١ ـ حديث رقم (٣٦٤٧). و(نصيبين) بلدة مشهورة بالجزيرة، أو بالشام. وللاستزاده راجع: الفتح المبين في أخبار جن نصيبين، لابن العماد الأقفهسي.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٤٩.

(٥) نسب لأبي حاتم في: روضة العقلاء ص٤٥، وورد قوله بلا نسبة في: حدائق الحقائق ص٣٤، وسراج الغيوب في أعمال القلوب ص٢٦٣.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٤٩.

(٧) زيادة من (ب).

وأمَّا قولُهُ: «**لِيبصرَ ويسمعَ أكثرُ ممَّا يقولُ**»، فهيَ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ ينبغِي أنْ يكونَ كلامُ العبدِ أقلَّ مِن رؤيتِهِ وسَمَاعِهِ، وهذَا ليسَ علىٰ التَّحقيقِ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ ما خلَقَ العينَينِ والأذنَينِ بهذِهِ الفائدةِ؛ لكونِهِ أكثرَ وأقلَّ، وإنَّمَا العبدُ محتاجٌ إلىٰ أنْ يسمعَ ويرَىٰ لكلِّ جهةٍ من جهتَيهِ، فتفضَّلَ الحقُّ عليهِ بذلِكَ لِتَكْمُلَ عليهِ نعمُهُ، وأمَّا اللِّسانُ فهوَ يعبِّرُ عمَّا فِي الجَنانِ(١).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَدُعِيَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ إِلَىٰ دَعْوَةٍ، فَلَمَّا جَلَسَ أَخَذُوا فِي الغِيْبَةِ، فَقَالَ: عِنْدَنَا يُؤْكَلُ اللَّحْمُ بَعْدَ الخُبْزِ وَأَنْتُمُ ابْتَدَأْتُمْ بِأَكْلِ اللَّحْمِ!؟، أَشَارَ إِلَىٰ قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾** [الحجرات: ١٢]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا مِن بابِ التَّلطُّفِ في التَّنبيهِ فِي إنكارِ [٢١٢/١أ] الغِيبةِ ولَاسيَّمَا إذا كانَ المنكرُ عليهِ مَنْ لا يحتملُ الأمرَ والنّهيَ؛ إمَّا لعظمتِهِ فِي نفسِهِ، أوْ لصغرِ قَدْرِ الآمِرِ النَّاهِي، فالأَوْلَىٰ بمَنِ ابتُلِيَ بشيءٍ مِن ذلكَ أنْ يُعدِّلَ الحكاياتِ والأمثالَ ليتنبَّهَ المغتابُ مِن نفسِهِ لزَلَلِهِ وينكفَّ عن غِيبتِهِ، وإنْ عجزَ عنْ ذلِكَ عرَّضَ بحديثٍ آخرَ غيرِ مَا هُم فيهِ ليشتغلَ النَّاسُ عمَّا هُمْ فيهِ مِنَ الغِيْبَةِ، هذَا الطَّرِيقُ هوَ الَّذِي يسلكُهُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قولِهِ: «**البدايةُ باللَّحمِ قبلَ الخبزِ**»(٣).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّمْتُ لِسَانُ الحِلْمِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يعنِي أنَّ الصَّمتَ عنْ إشفاءِ الغيظِ دليلٌ علىٰ حِلْمِ

---

(١) فلا يحتاج إلىٰ تعدُّدِه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٤٩/١.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٢٦/١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٤٩/١.

مَنْ أُوذِيَ ، فلمْ يشفِ غَيْظَهُ ، ولمْ يكافِئْ مَنْ آذاهُ ، وقدْ يكونُ للصَّمتِ أسبابٌ كثيرةٌ غيرُ هذَا .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)] : «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَعَلَّمِ الصَّمْتَ كَمَا تَتَعَلَّمُ الكَلَامَ ؛ فَإِنْ كَانَ الكَلَامُ يَهْدِيكَ ، فَإِنَّ الصَّمْتَ يَقِيكَ**» .

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ مِرارًا أنْ ليسَ المحمودُ الكلامَ علىٰ الإطلاقِ ولا المذمومُ علىٰ الإطلاقِ ، وإنَّ فِي الكلامِ والسُّكوتِ محمودًا ومذمومًا[(٢)] ، وما خلقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ آيةَ اللِّسانِ إلَّا للبيانِ عمَّا في الجَنانِ ، والمحمودُ منهُ: ما تدعُو إليهِ حاجةُ الإنسانِ علىٰ حسبِ ما تقتضيهِ الحالُ .

وكذلِكَ السُّكوتُ منقسِمٌ إلىٰ: محمودٍ ومذمومٍ ، وقَدْ تقدَّمَ[(٣)] أنَّ مَنْ سكتَ عنِ الحقِّ فهوَ شيطانٌ أخرسُ ؛ كتغيُّرِ المنكراتِ معَ الإمكانِ ، والإرشادِ إلىٰ ما يحتاجُ إليهِ غيرُهُ منَ العلمِ بواضحِ[(٤)] البيانِ ، وإنَّمَا يُرادُ السُّكوتُ خوفًا منَ الخطأِ والخطلِ والوقوعِ بكثرةِ الكلامِ فِي الزَّلَلِ ، وقدْ قيلَ[(٥)]: «إذَا كانَ الكلامُ مِن فضَّةٍ كانَ السكوتُ مِن ذهبٍ» .

وكذلِكَ قولُهُ: «**إنْ كانَ الكلامُ يهديكَ ، فالسُّكوتُ يقِيكَ**» ، والوقايةُ منَ الشَّرِّ فوقهَا الهدايةُ للخيرِ ، إلَّا أنَّ السَّلامةَ لا بُدَّ مِن تقدِمتِهَا علىٰ الغنيمةِ ، فلذلِكَ مدحَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٩ .

(٢) في (أ): محمود ومذموم ، والصواب المثبت .

(٣) الدلالة ٢/١٦٤ .

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب) .

(٥) في (أ، ب): «إذَا كانَ السُّكوتُ مِن فضَّةٍ كانَ الكلامُ مِن ذهبٍ» ، والصواب المثبت ، وموضع الاستشهاد به يقرر ذلك ، وورد في: في الصمت وآداب اللسان ص٦٦ ، والزهد لابن أبي عاصم ص٢٩ ، وحلية الأولياء ٣/٣٣٧ ، وتاريخ دمشق ٢٢/٢٨٤ ، والبداية والنهاية ٢/١٢٨ .

النَّاسُ السُّكوتَ؛ لمَا فيهِ منَ السَّلامةِ، وإلَّا فكلٌّ غانمٌ سالمٌ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقِيلَ: عِفَّةُ اللِّسَانِ صَمْتُه.

وَقِيلَ: مَثَلُ اللِّسَانِ مَثَلُ السَّبُعِ إِنْ لَمْ تُوثِّقْهُ عَدَا عَلَيْكَ.

وَسُئِلَ أَبُو حَفْصٍ(٢): أَيُّ الحَالَيْنِ لِلْوَلِيِّ أَفْضَلُ، الصَّمْتُ أَوِ النُّطْقُ؟ فَقَالَ: لَوْ عَلِمَ النَّاطِقُ مَا آفَةُ النُّطْقِ لَصَمَتَ إِنِ اسْتَطَاعَ عُمْرَ نُوحٍ، وَلَوْ عَلِمَ الصَّامِتُ مَا آفَةُ الصَّمْتِ لَسَأَلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ضِعْفَي [١/٢١٢ب] عُمْرِ نُوحٍ حَتَّى يَنْطِقَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّا إذا تكلَّمْنَا على الآفاتِ وقدَّرْنَا السَّلامةَ في الصَّمتِ والعطبَ فِي الكلامِ لمْ يَخْفَ مَا بينَهُمَا منَ الفضْلِ، فكيفَ يُفَضَّلُ العطبُ على السَّلامةِ ؟!، وإنَّمَا التَّحقيقُ أنْ تُفرضَ السَّلامةُ فيهِمَا، ويُفضلُ بينَهُمَا في(٣) الغنيمةِ.

فعلى هذا يظهرُ فضيلةُ الغنيمةِ في الكلامِ على فضيلةِ السَّلامةِ في الصَّمتِ، وذلكَ مرادُ أَبِي حفصٍ فيمَا ذكرَ أَنَّهُ إذا قُدِّرَتِ السَّلامةُ فيهِمَا تمنَّى الإنسانُ ضِعْفَي عمْرِ نوحٍ ليكونَ متكلِّمًا، وفِي الأوَّلِ سألَ عمرَ نوحٍ ليكونَ سالمًا، فدلَّ مِن قولِهِ أنَّ الكلامَ معَ السَّلامةِ يلزمُهُ الغنيمةُ الفاضلةُ، بخلافِ الغنيمةِ معَ السُّكوتِ فإنَّهَا مفضولةٌ، وذلكَ لتعذُّرِ جهاتِ الغنيمةِ في الكلامِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٤٩.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٥٥، ومناقب الأبرار ١/٣١٠، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٤٤.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: صَمْتُ العَوَامِّ بِأَلْسِنَتِهِم، وَصَمْتُ العَارِفِينَ بِقُلُوبِهِم، وَصَمْتُ المُحِبِّينَ مِنْ خَوَاطِرِ أَسْرَارِهِم».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صمتُ العوامِّ بألسنتِهِمْ يعنِي عن فُضُولِ الكلامِ، وصمتُ العارِفِينَ بقلوبِهِمْ عن فضولِ الفكرةِ في غيرِ المَرامِ، وصمتُ المحبِّينَ بالتحفُّظِ مِن خواطرِ أسرارِهِمْ أنْ تشيرَ إلىٰ غيرِ محبوبِهِمْ[(٣)]، واللهُ أعلمُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقِيلَ لِبَعْضِهِم: تَكَلَّمْ، فَقَالَ: لَيْسَ لِيْ لِسَانٌ فَأَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقِيلَ لَهُ: اسْمَعْ، فَقَالَ: لَيْسَ فِيَّ مَكَانٌ فَأَسْمَعَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إشارةٌ لأحدِ أمرينِ: إمَّا إلىٰ التَّبرِّي مِنَ الحَولِ والقوَّةِ في سائرِ الحركاتِ والسَّكناتِ والمعانِي القائمةِ بهِ المتواليةِ عليهِ فِي اللِّسانِ والسَّمعِ والبصرِ وغيرِ ذلكَ منَ الآلاتِ. أوْ إشارةٌ إلىٰ استغراقِهِ في معروفِهِ حتَّىٰ شُغِلَ بهِ عنْ غيرِهِ، وهيَ في التَّوحيدِ أفضلُ الحالاتِ[(٥)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقَالَ بَعْضُهُم[(٧)]: مَكَثْتُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَسْمَعُ لِسَانِي إِلَّا مِنْ قَلْبِي[(٨)]، ثُمَّ مَكَثْتُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَسْمَعُ قَلْبِي إِلَّا مِنْ لِسَانِي».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٠.

(٢) ورد في: حدائق الحقائق ص٥٩.

(٣) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٠.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٧.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٥٠.

(٧) ورد في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٤٩، واللمع في التصوف ص٤٠٦، وتاريخ دمشق ٤٩/٣٠.

(٨) فيه تنبيه علىٰ كمال طهارة أسراره، وزيادة إشراق أنواره، حيث ترقىٰ إلىٰ درجة استفتاء القلب. انظر: نتائج الأفكار ٢/٢٩٥.

* قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّهُ أقَامَ ثلاثِينَ سنةً يتثبَّتُ بقلبِهِ، ولا يدَعُ لسانَهُ ينطقُ إلَّا بمَا صحَّ في قلبِهِ، فإذا صحَّ ما تثبَّتَ لأجْلِهِ وَوَزَنَهُ بميزانِ الحقِّ والحِكمَةِ نطقَتْ النَّفسُ بهِ، وعبَّرَ اللِّسانُ عمَّا قامَ بالنَّفسِ منَ الكلامِ.

فبهذَا الاعتبارِ كانَ يَسْمَعُ[١] لسانُهُ مِن قلبِهِ، فلمَّا سهُلَتْ عليهِ المعانِي وصارَتِ العلومُ والحِكَمُ نُصْبَ عينَيهِ، وصارَ الحقُّ مُجْرِيهَا تفضُّلًا عليهِ صارَ يتعجَّبُ ممَّا [١/٢١٣أ] يُجريهِ الحقُّ على لسانِهِ منَ الصَّوابِ، مقرونًا بالتَّوفيقِ والتَّسديدِ من ربِّ الأربابِ، كلَّمَا أجرَاهُ الحقُّ على لسانِهِ من هذا القبيلِ مِن غيرِ احتياجٍ إلى استجلائِهِ[٢] بفكرٍ تعجُّبٍ مِن فضلِ مولاهُ عليهِ بإجراءِ الحقِّ على لسانِهِ والتَّسهيلِ، فبهذَا الاعتبارِ صارَ قلبُهُ يسمعُ مِن لسانِهِ؛ أيْ: ينتفعُ ويعيشُ بمَا يجريهِ الحقُّ عليهِ فضْلًا[٣]، وإنْ كانَ بقلبِهِ يدركُهُ ولسانُهُ عبَّرَ عمَّا وقعَ في قلبِهِ مِن فضلِ ربِّهِ، إلَّا أنَّهُ لمَّا لمْ يكنْ يكسبُهُ حسُنَ منهُ تعجُّبُهُ ورؤيتُهُ الفضلَ لربِّهِ.

* قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ بَعْضُهُم: لَوْ أَسْكَتَّ لِسَانَكَ لَمْ تَنْجُ مِنْ كَلَامِ قَلْبِكَ، وَلَوْ صِرْتَ رَمِيمًا لَمْ تَتَخَلَّصْ مِنْ حَدِيثِ نَفْسِكَ، وَلَوْ جَهِدْتَ كُلَّ الجُهْدِ لَمْ تُكَلِّمْكَ رُوحُكَ؛ لِأَنَّهَا كَاتِمَةٌ لِلسِّرِّ**».

* قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله: «**لَوْ أَسْكَتَّ لِسَانَكَ لَمْ تَنْجُ مِنْ كَلَامِ قَلْبِكَ**» صحيحٌ، فإنَّ الكلامَ في الفؤادِ عندَ أهلِ الحقِّ[٥]، وإنَّمَا اللِّسانُ ترجمانٌ عمَّا فِي

---

(١) في (ب): سمع.

(٢) في (ب): استجلاب.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٠.

(٥) انظر: الإنصاف للباقلاني ص١٠٥، ولمع الأدلة للجويني ص١٠٤، وغاية المرام ص٩٧، وتمهيد الأوائل ص٢٨٣، والغنية في أصول الدين ص٩٩، وأصول الدين للغزنوي ص١٠٢.

النَّفسِ، والَّذِي في النَّفسِ تابعٌ للعِلمِ كمَا يعلمُهُ العبدُ أو يظنُّهُ أوْ يجهلُهُ إذا اعتقدَهُ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ ففِي النَّفسِ حديثٌ عنهُ، ولا يلزمُ أنْ ينطقَ اللِّسانُ بكلِّ مَا فِي النَّفسِ، فإذَا أسكتَ الإنسانُ لسانَهُ لم يقدِرْ علىٰ إسكاتِ ما فِي نفسِهِ، وهوَ حديثُ النَّفسِ.

وأمَّا الرُّوحُ فهوَ[١] عندَهُمْ[٢]: عبارةٌ عن معنًىٰ لهُ تعلُّقٌ باللهِ - تعالىٰ - وصفاتِهِ ونيلِ قُرْبِهِ ودوامِ محبَّتِهِ والأُنْسِ بهِ ومناجاتِهِ.

وإذَا كانَ هذَا وصفَ الرُّوحِ والشُّغلِ لهَا لمْ يكنْ لهَا التفاتٌ إلىٰ حديثِ النَّفسِ؛ لكمالِ شغلِهَا عنهُ، ولهذَا قالَ: «**وَلَوْ جَهِدْتَ كُلَّ الجُهْدِ لَمْ تُكَلِّمْكَ رُوحُكَ**»، ومقصودُ هذا الكلامِ: أنَّ الإنسانَ إذا تكلَّفَ صمْتَ لسانِهِ لَا يكتفِي بذلِكَ حتَّىٰ يقطعَ عن نفسِهِ فضولَ الفِكْرِ عن قلبِهِ، فيعبِّرَ عنهُ بصمتِ[٣] القلبِ والنَّفسِ، يعنِي اشتغالَهَا بالمُهِمِّ عن غيرِهِ[٤].

﴿ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ**[٦]: **لِسَانُ الجَاهِلِ مِفْتَاحُ حَتْفِهِ**[٧]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ تحذيرٌ من كثرةِ الكلامِ، وربَّمَا غلطَ اللِّسانُ غلطةً كانَ فيهَا حتفُ المرءِ وهلاكُهُ؛ إمَّا فِي الدُّنيَا وإمَّا فِي الآخرةِ، ولا سيَّمَا مَا جرَتْ بهِ عادةُ الجُهَّالِ فِي تسييبِ أفواهِهِم، وربَّمَا جرَىٰ علىٰ لسانِهِمْ سبٌّ أوِ

---

(١) أي: لفظ (الروح).

(٢) أي: عند جماعة من الصوفية، وعند كثير منهم كما مرَّ في أول الكتاب.

(٣) في (ب): صمت.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٢٧/١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٥٠/١.

(٦) ورد في: المستطرف ٧١/١، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ص١٠١.

(٧) أي: سبب في هلاكه، بسبب عثرة لسانه.

استنقاصٌ لبعضِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ أوْ لبعضِ الملائكةِ المكرَّمينَ، فإنْ عُثِرَ عليهِ في الدُّنيا وثبتَ ذلكَ عليهِ قُتِلَ[١]، وإنْ لمْ يعثرْ عليهِ هلكَ[٢] في الآخرةِ الهلاكَ [٢١٣/١ب] التَّامَّ، إلَّا أنْ يعفوَ اللهُ عنهُ، وبهذا الاعتبارِ كانَ «**لسانُ الجاهلِ مِفتاحَ حتْفِهِ**»، وربَّمَا تكلَّمَ فِي الحلالِ والحرامِ، والمفضولِ[٣] والفاضلِ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ويستخفُّ ذلكَ بجهلِهِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] الآيةَ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقِيلَ[٥]: المُحِبُّ إِذَا سَكَتَ هَلَكَ، والعَارِفُ إِذَا سَكَتَ مَلَكَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ المحِبَّ نيرانُ الشَّوقِ تُقلقُه، والصَّبرُ عن محبوبِهِ لا يملكُه، وإنَّمَا يتروَّحُ من كرْبِهِ ويستريحُ مِن شدَّةِ حجبِهِ عن محبوبِهِ بمَا يتنفَّسُ بهِ، ويجريهِ الحقُّ علىٰ لسانِهِ مِنْ ذِكْرِ محبوبِهِ.

والعارفُ مشغولٌ بكمالِ معرفتِهِ ووجودِ قُرْبِهِ، واستغراقِهِ بمعروفِهِ، وشريفِ أحوالِهِ، وما وجدَهُ مِن كريمِ إفضالِهِ، كلَّمَا ملكَ نفسَهُ وغفلَ عن غيرِهِ طابَ عَيشُهُ.

---

(١) للحديث الذي أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٣٩٣/١، ولفظه: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سب الأنبياء قتل، ومن سب الأصحاب جلد».
وعلل لذلك المناوي بقوله: «لانتهاكه حرمة من أرسلهم واستخفافه بحقه، وذلك كفر» فيض القدير ١٤٧/٦.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) في (ب): والمقصود، وهو تحريف.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٥٠/١.

(٥) نسب للشبلي في: السر في أنفاس الصوفية ص٢١٠، وإحياء علوم الدين ٣٦٠/٤، وطريق الهجرتين ٤٦٤/١.

والمحبُّ إذَا سكَتَ عن معروفِهِ هلَكَ بمَا قدَّمْنَاهُ، والعارفُ إذا سكَتَ عن ذكْرِ معروفِهِ ملكَ، فشأنُ العارفِ الكتمانُ لمَا وجَدَ، وشأنُ المحبِّ الهَيمَانُ طلبًا لمَا فقدَ[١].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ نَصْرٍ الصَّائِغَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَرْدَوَيْهِ الصَّائِغَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٣]: مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ.. قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ[٤]**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحُ؛ فإنَّ مَنْ عدَّ كلامَهُ منَ الأعمالِ الَّتِي تُحْصَى عليهِ، وتُكتَبُ، ويَسْأَلُهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عنهَا يثبتُ فلا يتكلَّمُ إلَّا فيمَا هوَ محتاجٌ إلىٰ الكلامِ فيهِ؛ إمَّا لبيَانِ علمٍ، أوْ لحديثٍ لا بُدَّ لهُ منهُ، وهذَا هوَ قولُ مالكِ بنِ أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذَا اللفظِ عينِه قالَ: «مَنْ عَدَّ كلامَهُ مِنْ عملِهِ[٥]، قَلَّ كَلامُهُ إلَّا فيمَا يَعْنِيْهُ».

❁ ❁ ❁

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٢٨.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٠.

(٣) ورد في: الصمت وآداب الكلام ص٦١، والزهد لابن المبارك ص١٢٩، ولابن أبي عاصم ص٤٠، وتاريخ دمشق ٤٥/٢٠٤، وتذكرة الحفاظ ١/٣٤٩، منسوبا لعمر بن عبد العزيز.

(٤) أي: يحتاج إليه.

(٥) وذلك لأنه قد ذاق العلم ووفق للعمل به.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«بَابُ الخَوفِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدُوسٍ الحِيَرِيُّ العَدْلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ دَلويْهِ الدَّقَّاقُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، حَدَّثَنَا عَامِرُ بْنُ أَبِي الفُرَاتِ، حَدَّثَنَا المَسْعُودِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عِيسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ، [١/٢١٤أ]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)]: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حَتَّىٰ يَلِجَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَّانُ جَهَنَّمَ فِي مِنْخَرَيْ عَبْدٍ أَبَدًا».

حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ المِهْرَجَانِيُّ[(٣)]، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ الشَّرْقِيِّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ هَاشِمٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ القَطَّانُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذِهِ الأَخبارُ دالَّةٌ علىٰ فضيلةِ الخوفِ والتَّرغيبِ فيهِ، ومقصودُنَا الآياتُ الدَّالَّةُ والأخبارُ الدَّالَّةُ علىٰ وُجُوبِهِ؛ وذلكَ أنَّ الخَوفَ إنَّما يتخلَّصُ[(٥)] منَ الآثامِ والشِّركِ الَّذي هوَ أعظمُهَا بهِ، فلَا بدَّ مِنْ تحصيلِهِ ليتخلَّصَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/١٧١، وابن ماجه في سننه ٢/٩٢٧، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٣/٩.

(٣) في (أ): المرجاني، والصواب المثبت.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٣٥٤ ـ حديث رقم (٩٩٧)، ومسلم في صحيحه ١/٣٢٠ ـ حديث رقم (٤٢٦).

(٥) في (ب): يتخلق، والصواب المثبت.

الإنسانُ مِن جميعِ مَا يُسخِطُ ربَّهُ عليهِ، وللخوفِ حقيقةٌ في نفسِهِ لا بدَّ أنْ يُمَيَّزَ حتَّىٰ لا تختلطَ بغيرِهَا، فإذَا عرَفَهُ الإنسانُ وكانَ من جنسِ مقدورِهِ وعلِمَ وجُوبَهُ عليهِ سَعَىٰ في تحصيلِهِ، ولا بدَّ من معرفةِ الأسبابِ الَّتِي تحصّلُهُ، وكذلِكَ لا بدَّ من معرفةِ الثَّمراتِ الَّتِي تترتَّبُ علىٰ حُصُولِهِ.

ونحنُ إنْ شاءَ اللهُ نذكرُ أقوالَ العلماءِ في: حقيقةِ الخوفِ، والأسبابَ الموصلةَ إليهِ، والأدلَّةَ[1] الحاملةَ عليهِ، والثَّمراتِ المترتِّبَةَ علىٰ حصولِهِ، والفوائدَ اللَّازمةَ لمَنْ يسَّرَهُ اللهُ عليهِ، ثمَّ نذكرُ أقوالَ المشايخِ، ونبيِّنُ رجوعَهَا إلىٰ أيِّ قسمٍ ممَّا ذكرْنَاهُ؛ هَلْ إلىٰ نفسِهِ؟ أو إلىٰ سببِهِ ومثمرِهِ؟ أو إلىٰ الحاملِ عليهِ ودليلِهِ؟ أو إلىٰ ثمراتِهِ المترتِّبةِ عليهِ، مستعينينَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ.

فأمَّا حقيقةُ الخوفِ: فهوَ انزعاجُ القلبِ لمُتعَاظمٍ، وهذَا شملَ جميعَ أنواعِ الخوفِ المتعلِّقِ بالماضِي والمستقبلِ والحالِ، فإنَّ مَنْ عرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وكمالَ صفاتِهِ وجلالَهُ أجَلَّهُ وعظَّمَهُ وخَافَهُ، وإنْ لمْ يتعلَّقْ بمستقبلٍ ولا ماضٍ، ومَنْ خشِيَ نُزُولَ مُؤلِمٍ، أوْ فراقَ مَحْبُوبٍ في الاستقبالِ اضطرَبَ قلبُهُ لذلِكَ، ومَنْ عرَفَ قُبْحَ الذُّنوبِ وقُبْحَ حَالتِهِ لمَا كانَ مُتعاطِيهَا واستشعرَ نظرَ اللهِ إليهِ في تلكَ الحالِ اضطربَ قلبُهُ، وخافَ أنْ يكونَ الحقُّ مَقتَه علىٰ حالتِهِ تلكَ، وآلَىٰ علىٰ نفسِهِ ألَّا يَرحمَهُ، وإنْ عبَّرَ باضطرابِ القلبِ بالفزَعِ والرَّوعِ[2] [٢١٤/١ب] والرَّهبِ والخِيفةِ والخَشْيةِ، كلُّ ذلكَ نزلَ بهِ الكتابُ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [ص: ٢٢]، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ [هود: ٧٤]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ [طه: ٦٧، ٦٨].

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): والورع، والصواب المثبت.

ولمَّا سُئِلَ الإمامُ المُحاسبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنِ الخوفِ فقالَ[١]: «مطالعةُ القُلُوبِ لسطوَاتِ اللهِ»، فيتولَّدُ في القلبِ فزعُ خَوفِ الوعيدِ، ففسَّرَهُ بالفَزَعِ من وعيدِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وما ذكرَهُ مِن مطالعةِ القلوبِ لسَطوَاتِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ من أسبابِ الخوفِ لا من نفسِهِ.

وسُئِلَ الإمامُ أبو القاسمِ القُشَيْرِيُّ عنِ الخوفِ، فقالَ[٢]: «**ورعُهُ من مكروهٍ ينالُهُ أوْ محبوبٍ يفوتُهُ**».

وقالَ شيخُ الإسلامِ[٣] في حدِّ الخوفِ: «هوَ الانخلاعُ عن طمأنينةِ الأمنِ بمطالعةِ الخَبَرِ[٤]».

وقولُهُ: «الانخلاعُ» إشارةٌ إلىٰ قيامِ ضدِّ الأمنِ بالقلبِ؛ وهوَ الاضطرابُ.

وقولُهُ: «لمطالعَةِ الخبرِ» يعنِي: الوعيدَ، وهوَ مِن أسبابِ الخَوفِ. **فهذا الكلامُ في حقيقتِهِ**.

وأمَّا أسبابُهُ: فدوامُ الفِكرِ منَ المخوِّفاتِ، وهيَ تنقسمُ: إلَىٰ ما يرجعُ إلىٰ العبدِ، وإلىٰ ما يرجعُ إلىٰ الحقِّ ـ سبحانه ـ.

فأمَّا مَا يرجعُ إلىٰ العبدِ: فالفكرةُ في تضييعِهِ لواجباتِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وارتكابِهِ لمحظوراتِهِ، وتفريطِهِ في ذلِكَ وإهمالِهِ وقلَّةِ مُراقبتِهِ لمَا يَرِدُ في قلبِهِ، وكثرةِ عُزُومِهِ قبلَ العِلمِ بأحكامِ ربِّهِ.

---

(١) ورد قوله في: آداب المريدين للسهروردي ص٢٣، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص٤٣٦. وبمعناه في: الإبانة لابن فورك ص٢١٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٥١/١.

(٣) يقصد الهروي في: منازل السائرين ص٢٦.

(٤) سقط من (ب) إلىٰ قوله: «يعني الوعيد».

وأمَّا ما يرجعُ إلىٰ الحقِّ ـ سبحانه ـ فالفِكرةُ في وعيدِهِ، وما ذكرَهُ في كتابهِ العزيزِ مِن إهلاكِ مَنْ خَالفَهُ وعَصَاهُ مِن قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقومِ لوطٍ، وقومِ فرعونَ وغيرِ ذلكَ، ومَا أعدَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في الآخرةِ ممَّا فصَّلَهُ؛ مِنَ الحشرِ والنَّشرِ والميزانِ والصِّراطِ، ومَا احتوَتْ عليهِ النَّارُ مِن سلاسلَ وأغلالٍ، وعقاربَ ودوابَّ، وسوءِ طعامٍ وشرابٍ، فإذَا تفكَّرَ اللَّبيبُ فيمَا أعدَّهُ اللهُ للعاصِينَ، وعرَفَ مِن نفسِهِ المخالفةَ والعصيانَ معَ صحَّةِ إيمانِهِ قلقَ واضطربَ قلبُهُ وقوِيَ خوفُهُ، فبادرَ إلىٰ التَّوبةِ؛ ليتخلَّصَ في دنياهُ قبلَ أُخْرَاهُ.

وأمَّا أدلَّةُ الخوفِ: فَقَدْ قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فأمرَ بخوفِهِ خاصَّةً، وقالَ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فعيَّنَ المخوِّفَ؛ وهوَ العذابُ.

وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، فعيَّنَ المخوِّفَ؛ وهوَ قيامُهُ بينَ يدَيِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للمحاسبةِ.

وقدْ أثنَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الخائفينَ منهُ ومِنْ عذابِهِ [١/٢١٥أ] في غيرِ موضعٍ من كتابِهِ، فذكرَ مَا أعدَّ لهُمْ في الآخرةِ، قالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وفصَّلَ ما فيهِمَا وهمَا للمقرَّبينَ، ثمَّ ذكرَ بعدَ ذلكَ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وهمَا للخائِفينَ مِن أصحابِ اليمينِ، وفصَّلَ ما أعدَّهُ لهُمَا.

وغيرَ ذلكَ ممَّا تضمَّنتْهُ الآياتُ والأخبارُ منَ الأمرِ بالخوفِ وحسنِ الجزاءِ عليهِ ومدحِ فاعلِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والرَّهَبُ(١): الخوفُ، وقولُهُ ﷺ حكايةً عن ربِّه ـ تعالىٰ ـ أنَّهُ قالَ(٢): «لَا

(١) في (ب): والراهب، والصواب المثبت.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/٤٠٦، والطبراني في مسند الشاميين ٢/٣٣٩، والترمذي في=

أَجْمَعُ عَلَىٰ عَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا أَجْمَعُ عَلَيْهِ خَوْفَيْنِ؛ إِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ الْيَوْمَ، وَإِنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ الْيَوْمَ».

وقَدْ جاءَ[١] أنَّ المُنادِي يُنادِي يومَ القيامةِ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]، قالَ: فيرفعُ الخلائقُ كلُّهُمْ رؤوسَهُمْ ويقولُونَ: نحنُ عبادُ اللهِ، قالَ: فينادِي الثَّانيةَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩]، فيُنكِّسُ الكفَّارُ رؤوسَهُمْ، ثمَّ ينادِي الثَّالثةَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، فينكِّسُ أهلُ الكبائرِ رؤوسَهُمْ، ويبقَىٰ أهلُ التَّقوَىٰ رافعِي رؤوسِهِمْ قدْ أزالَ عنهُمْ ـ سبحانه ـ الخوفَ والحزنَ، كمَا وعدَهُمْ فِي الدُّنيَا؛ لأنَّ حقيقةَ التَّقوَىٰ: الحذرُ بالمجانبةِ، والحذرُ نوعٌ منَ الخوفِ، فلمَّا حذرُوا تضييعَ ما أمرَهُمْ وارتكابَ ما نُهُوا عنهُ وجانبوهُ لوجهِهِ عوَّضَهُمُ الأمنَ في الآخرةِ عمَّا أخافوُا لهُ أنفسَهُمْ فِي الدُّنيا.

فهذَا الكلامُ علىٰ حقيقةِ الخَوفِ، وأسبابِهِ، وأدلَّتِهِ، وثَمَرَاتِهِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «الخَوْفُ مَعْنًى مُتَعَلَّقُهُ فِي المُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَخَافُ أَنْ يَحُلَّ بِهِ مَكْرُوهٌ، أَوْ يَفُوتُهُ مَحْبُوبٌ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا لِشَيْءٍ يَحْصُلُ فِي المُسْتَقْبَلِ، فَأَمَّا مَا يَكُونُ فِي الحَالِ مَوْجُوداً فَالخَوْفُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

وَالخَوْفُ مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ: هُوَ أَنْ يَخَافَ أَنْ يُعَاقِبَهُ [اللهُ][٣]؛ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الآخِرَةِ.

= نوادر الأصول ١/٣٩٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٤٨٣.

(١) في: العاقبة في ذكر الموت ص٢٧٤، وتفسير القرطبي ١٦/١١٠.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٣) زيادة من (ف).

وَقَدْ فَرَضَ اللهُ ـ سبحانه ـ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ يَخَافُوهُ، فَقَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وَقَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِيَّىٰ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وَمَدَحَ المُؤْمِنِينَ بِالخَوْفِ، فَقَالَ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ في الخوفِ أنَّهُ يتعلَّقُ بحصولِ مُؤلمٍ أو فَواتِ مَحْبُوبٍ، وكلُّ ذلكَ في الاستقبالِ، فهذَا بعضُ أنواعِ الخَوفِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ في حقِّ الملائكةِ وغيرِهِمْ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وإنَّمَا خَوْفُ الملائكةِ [١/٢١٥ب] خَوفُ الإجلالِ والتَّعظيمِ؛ لكمالِ معرفتِهِمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وقدْ رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ[١]: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ فِي لَيْلَةِ المِعْرَاجِ كَالحِلْسِ المُلْقَىٰ، فَعَلِمْتُ فَضْلَ خَشْيَتِهِ عَلَىٰ خَشْيَتِي»، وذلكَ لعلمِهِ باللهِ.

فالخوفُ بمعنىٰ الإجلالِ والتَّعظيمِ ملازمٌ لِقُلُوبِ الأنبياءِ والأولياءِ، وهوَ الَّذِي يحجزُهُمْ عنِ المخالفاتِ، ويحملُهُمْ علىٰ القيامِ بالطَّاعاتِ، وإنْ لمْ يخطرْ ببالِهِمْ[٢] ثوابٌ ولا عقابٌ؛ بلْ يعبدُوهُ لحقِّ أمْرِهِ وعظَمِ قَدْرِهِ وجلالِهِ، وحقِّ عبوديَّتِهِ وملكِهِ، ولهذَا قالَ القاضِي سيفُ السُّنَّةِ[٣]: «لوْ أوجبَ اللهُ شيئًا لوجبَ، ولَوْ لَمْ يتوعَّدْ بعقابٍ علىٰ تَرْكِهِ»، وإنَّمَا جعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الثَّوابَ والعقابَ حاملينِ معنيينِ[٤] علىٰ امتثالِ أوامرِهِ والبعدِ عنْ زواجرِهِ، ومَنْ كمُلَتْ معرفتُهُ وصحَّتْ لمولاهُ محبَّتُهُ حملَهُ ذلكَ علىٰ بذْلِ الجهدِ في طاعتِهِ، وقدْ قالَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حقِّ

---

(١) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول ٢/١٢٧، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦/١٠٣، وابن الجوزي في: العلل المتناهية ١/١٨٣، وأتبعه بقوله: «قال ابن حبان: محمد بن ميمون منكر الحديث جدا، لا يحل الاحتجاج به».

(٢) في (ب): بباله، والصواب المثبت.

(٣) أي: الباقلاني، وحكاه عنه الغزالي في: المستصفىٰ ص٥٣، والزركشي في: البحر المحيط ١/١٤٠.

(٤) في (أ): حاملان معنيين، والأصح المثبت.

سالمٍ[١]: «لَقَدْ أَحَبَّ اللهَ حُبًا لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ لَمْ يَعْصِهِ»، فأخبرَ أنَّ محبَّتَهُ كافيةٌ في الحملِ وأنَّ عندَهُ الخوفَ والمحبَّةَ جميعًا.

وقولُهُ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فوقيَّةُ اللهِ ـ سبحانه ـ ليسَتْ بالمكانِ، وإنَّمَا هوَ بالإجلالِ والتَّعظيمِ وكمالِ الاقتدارِ والتَّنزُّهِ عن مُماثلتِهِ لخلقِهِ، تنزُّهًا مطلقًا لا يدخلُ تحتَ الحَصْرِ والمِقدارِ[٢].

وقَدْ يطلَقُ الخوفُ مِن فوقِهِمْ علىٰ العذابِ[٣]، ويكونُ مِن بابِ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ؛ أيْ: يخافُونَ عذابَ ربِّهِمْ، كمَا أهلَكَ بالحجارةِ والريحِ وغيرِ ذلكَ، وكذلِكَ النَّارُ الَّتِي هيَ أشدُّ العذابِ تكونُ مِن فوقِهِم ومِنْ تحتِ أرجُلِهِم.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: الخَوْفُ عَلَىٰ مَرَاتِبَ: الخَوْفِ، وَالخَشْيَةِ، وَالهَيْبَةِ.**

فَالخَوْفُ: مِنْ شَرْطِ الإِيمَانِ وَقَضِيَّتِهِ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَالخَشْيَةُ: مِنْ شَرْطِ العِلْمِ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وَالهَيْبَةُ: مِنْ شَرْطِ المَعْرِفَةِ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠]».

---

(١) مولىٰ أبي حذيفة، والحديث أخرجه الديلمي في الفردوس ١/٢٣٤.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/٢٧٦، والبرهان للزركشي ٤/٧٩، وزاد المسير ٤/٤٥٥.

(٣) انظر: الغنية في أصول الدين ص٧٨، وأساس التقديس ص١٢٢، وتفسير العز بن عبد السلام ٢/١٩٣، وتفسير القرطبي ١٠/١٣٣.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٢.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فمرادُهُ: أنَّ المؤمنِينَ علىٰ درجاتٍ منهُمْ؛ معتقِدًا اعتقادًا صحيحًا، وهوَ المؤمنُ، فإيمانُهُ يفيدُهُ الخوفَ مِن عذابِ اللهِ - تعالىٰ -؛ لأنَّهُ بعضُ متعلِّقاتِ اعتقادِهِ، والعالِمُ باللهِ - تعالىٰ - وجلالِهِ وعظمتِهِ قدِ ارتقَىٰ عنِ [٢١٦/١أ] الاعتقادِ، فهوَ يخشَىٰ اللهَ لمَا يعلمُهُ مِنْ كمالِ اقتدارِهِ وشدَّةِ بطْشِهِ، وكيفَ أهلكَ مَنْ أهلكَ لمخالفتِهِ، وأسعَدَ مَنْ أسعَدَ باتِّباعِهِ للأنبياءِ وطاعتِهِ! فالعالِمُ بهذِهِ الجهاتِ يخشَىٰ اللهَ - سبحانه - ويخافُهُ ويرجُوهُ لمَا ذكرْناهُ، وقدْ قالَ - تعالىٰ -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، قالَ أهلُ التَّفسيرِ[١]: العلماءُ بهِ، والعارفُ عندَهُمْ عبارةٌ عمَّنْ توالَىٰ علىٰ قلبِهِ ذكرُهُ لمولاهُ، وكثُرَتْ مناجاتُهُ لهُ وشكرُهُ ودعاؤُهُ، وكمُلَ إجلالُهُ لهُ وتعظيمُهُ حتَّىٰ أشغلَهُ ذلكَ عن جميعِ مخلوقاتِهِ من عذابِهِ ونعيمِهِ، فلذلِكَ قالَ: «وشرطُ الهيبةِ المعرفةُ»؛ ولذلكَ أشارَ إليهِ بقولِهِ - تعالىٰ -: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، ولمْ يذكرْ شيئًا من عَذابِهِ، وقدْ أطلَقَ علىٰ الجميعِ الخَوفَ، فقالَ: الخَوفُ علىٰ ثَلاثِ درجاتٍ: خَوفٍ، وخَشْيةٍ، وهَيْبَةٍ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٤]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الحِيرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَحْفُوظًا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا حَفْصٍ يَقُولُ[٥]: الخَوْفُ سَوْطُ اللهِ[٦]، يُقَوِّمُ بِهِ الشَّارِدِينَ[٧] عَنْ بَابِهِ».**

---

(١) انظر: الكشاف ٦٩٥/٤، ومفاتيح الغيب ٣٨/٣١، وزاد المسير ٤٨٦/٦.

(٢) في (ب): ورهبة.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٥٢/١.

(٤) طبقات الصوفية ص٢٤٩.

(٥) ورد قوله أيضا في: تهذيب الأسرار ص١٤٢، ومدارج السالكين ٥١٣/١، وإتحاف السادة المتقين ٣٩٢/١١.

(٦) أي: مثله في سَوق الحَرون من النفوس.

(٧) أي: يعدل به الهاربين.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ الهاربَ عن بابِهِ إنَّمَا هَربَ بمعصيتِهِ ومخالفتِهِ، وإلَّا لَا مَهْرَبَ مِنَ اللهِ ولَا إلىٰ اللهِ بالحسِّ ، وإنَّمَا العَبْدُ قُرْبُهُ مِنْ ربِّهِ بطاعتِهِ ، وهربُهُ منهُ بمخالفتِهِ ، وإنَّمَا يَرُدُّهُ عَنْ مُخَالفتِهِ خَوفُهُ مِنْ عَذابِ ربِّهِ وسَطْوتِه ، وذلكَ علىٰ حسبِ صحَّةِ إيمانِهِ ويَقِينِه وقُوَّتِه .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو القَاسِمِ الحَكِيمُ[٢]: **الخَوْفُ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: رَهْبَةٍ ، وَخَشْيَةٍ ، فَصَاحِبُ الرَّهْبَةِ يَلْتَجِيءُ إِلَىٰ الهَرَبِ إِذَا خَافَ ، [وَصَاحِبُ الخَشْيَةِ يَلتَجِئُ إِلَىٰ الرَّبِّ][٣]**.

وَ(رَهَبَ ، وَهَرَبَ) يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمَا وَاحِدٌ[٤] ، مِثْلُ: جَذَبَ وَجَبَذَ[٥] ، فَإِذَا هَرَبَ انْجَذَبَ فِي مُقْتَضَىٰ هَوَاهُ[٦] ، كَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، فَإِذَا كَبَحَهُمْ[٧] لِجَامُ العِلْمِ وَقَامُوا بِحَقِّ الشَّرْعِ فَهُوَ الخَشْيَةُ» .

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ مدحٌ للعلماءِ الَّذِينَ وصفَهُمْ ـ تعالىٰ ـ بالخشيَةِ ، وذلكَ أنَّ العبدَ إذا تفكَّرَ في ذنْبِهِ وشدَّةِ عقابِ ربِّهِ رهبَ ، ومعنىٰ رهبَ: هربَ ، ومعنىٰ هُرُوبِهِ: أنَّهُ[٨] خشِيَ مِن ألَّا يثابَ عليهِ ويقعَ في القُنُوطِ من رحمةِ اللهِ ، ولهذَا الاعتبارِ جعلَ الرَّهبَ والهربَ معناهُمَا واحدًا ، كجبذَ الشَّيءَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٢ .

(٢) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٢٠٤ ، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٢ .

(٣) تتمة من الرسالة القشيرية .

(٤) أي في المعنىٰ ؛ وهو الرجوع إلىٰ الطاعة .

(٥) في تحرير ألفاظ التنبيه ص٨٠: «الجذب والجبذ لغتان بمعنىٰ ؛ وهو مد الشيء عليك ، يقال: جذب وجبذ واجتذب» .

(٦) أي: عنه .

(٧) أي: ردَّهم .

(٨) سقط هذا اللفظ من (ب) .

وجَذَبَهُ، فإذَا منَّ اللهُ عليهِ بالعِلمِ وعلِمَ أنَّهُ لا ملجأَ مِنَ اللهِ إلَّا إليهِ، وعلِمَ [١/٢١٦ب] سعَةَ رحمةِ ربِّهِ وسُرْعَةَ قبولِهِ على التَّائبينَ رجعَ إليهِ واعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ، وصارَ منَ العلماءِ العامِلِينَ للهِ على الخشيةِ، وذلكَ لعلمِهِمْ بصفاتِ اللهِ - تعالى -؛ وهوَ أنَّهُ شديدُ العقابِ غفورٌ رحيمٌ، ولعلمِهِم بما جرى منهُمْ منَ المعصيةِ والتَّوبةِ عنهَا، فإذَا نظرَ إلى نفسِهِ وكونِهِ أجرى عليهِ المعصيةَ خَافَ، فإذَا نظرَ إلى كونِهِ مَنَّ عليهِ بالتَّوبةِ رجَا واعتدلَ خوفُهُ ورجاؤُهُ ودامَتْ لربِّهِ طاعتُهُ ومراقبتُهُ وخَشْيَتُهُ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا حَفْصٍ يَقُولُ[٣]: الخَوْفُ سِرَاجُ القَلْبِ، بِهِ يُبْصِرُ مَا فِيهِ مِنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**سِرَاجُ القلبِ بهِ يبصرُ الخيرَ والشَّرَّ**»، فيهِ مُسامحةٌ، وإنَّمَا يبصرُ الخيرَ والشَّرَّ بالعِلمِ، والخوفُ حاملٌ لهُ على التَّثبُّتِ؛ ليُميِّزَ الخيرَ مِنَ الشَّرِّ، ويكونَ تمييزُهُ بالعلمِ لا بالخوفِ[٤]، وإنَّمَا هوَ الخوفُ والتَّثبُّتُ[٥] بالعَقْلِ ومَعْرِفَةُ الحَقِّ منَ الباطلِ بالعِلْمِ الشَّرْعيِّ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[٧]: الخَوْفُ أَلَّا تُعَلِّلَ نَفْسَكَ بِـ(عَسَى، وَسَوْفَ)».**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٢.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٢، ومدارج السالكين ١/٥١٣، وسراج الطالبين ٢/٢٠٤.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٢.

(٥) أي: التوقف عن المخالفات.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٥٢.

(٧) ورد كجزء من قول الجنيد في: تهذيب الأسرار ص١٤٤.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ الخوفَ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ: ناقصٍ ، ومُعتدلٍ ، ومُفْرطٍ .

فالنَّاقصُ لا يحملُ لا[1] علىٰ الطَّلبِ ولا علىٰ الهَرَبِ .

والمفرطُ يوقِعُ فِي القنوطِ مِن رحمةِ اللهِ واليأسِ من فضْلِ اللهِ ، وكلاهُمَا محرَّمٌ[2] .

والمعتدِلُ منَ الخَوفِ هوَ الَّذِي يحملُ العبدَ علىٰ الفورِ فِي خَلاصِهِ ممَّا يخافُهُ ، ومَنْ هذِهِ صفتُهُ لا يعلِّلُ نفسَهُ لَا بِـ(عَسَىٰ) ولا بِـ(سَوْفَ) ، بلْ يَهْرَبُ علىٰ الفَوْرِ مِنْ كُلِّ مُخوِّفٍ[3] .

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ[5] يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ الدِّمَشْقِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ[6] الدِّمَشْقِيَّ يَقُولُ[7]: الخَائِفُ مَنْ يَخَافُ مِنْ نَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخَافُ مِنَ الشَّيْطَانِ**» .

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ الشَّيطانَ ـ لعنَهُ اللهُ ـ لا قدرةَ لهُ عليكَ إلَّا بمَيلِ نفسِكَ إلىٰ الشَّهواتِ ومحبَّتِهَا للرَّاحاتِ[8] ، ففِي ميلِهَا للشَّهواتِ الوقوعُ في المحرَّماتِ ، وفِي ميلِهَا إلىٰ الرَّاحاتِ الإخلالُ بالواجِبَاتِ ، والشَّيطانُ

---

(١) في (أ): إلا ، والصواب المثبت .

(٢) أي: منهي عنه .

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٢ .

(٥) في (أ): الحسن ، والصواب المثبت .

(٦) في (ف): أبا عثمان ، وهو تحريف .

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٣ ، وتاريخ دمشق ٦٧/١٠٠ ، وعارف المعارف ص٢٩٠ ، ونسب لابن عباس في: محاضرات الأدباء ١/٦١٣ .

(٨) في (ب): الرحات .

يُزيِّنُ للنَّفسِ الشَّهواتِ، ويُذكِّرُهَا أنواعَ المُشتهياتِ، ويُثقِّلُ عليهَا الطَّاعاتِ [١/٢١٧أ]، ويذكِّرُهَا ما فيهَا منَ المَشَقَّاتِ.

فمَنْ عرَفَ نفسَهُ بميلِهَا لكلِّ لذيذٍ ونفرتِهَا عنْ كلِّ كَريهٍ، ولا تُبالِي كانَ فيهِ[١] نفعُهَا أو ضرُّهَا، وإنَّمَا همَّتُهَا عاجلُ شهوتِهَا حَذِرَ نفسَهُ أشدَّ مِن حَذرِهِ للشَّيطانِ[٢]، ولذلِكَ كانَتْ أعدَىٰ عدوٍّ للإنسانِ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣]: «أَعْدَىٰ عَدُوٍّ لَكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا[٥]: الخَائِفُ مَنْ تُؤَمِّنُهُ المُخَوِّفَاتُ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا صحيحٌ؛ فإنَّ مَنْ علِمَ أنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ ولا معطِي ولا مانعَ إلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لمْ يخَفْ غيرَهُ، وسكنَتْ نفسُهُ في الصَّحارِي والبَرارِي، ومعَ السِّباعِ والهوامِّ والنِّيرانِ[٦]، كمَا جرَىٰ لأبِينَا إبراهيمَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ، ولأبِي مسلمٍ الخولانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمَنْ لمْ يخَفْ سِوىٰ مَولاهُ أمِنَ مِن[٧] كلِّ مخوفٍ، ومَنْ خافَ مِن بعضِ المخلوقاتِ فإنَّمَا يخافُ أنْ يسلِّطَهُ اللهُ عليهِ ويكونَ خوفُهُ منَ البَعُوضةِ أنْ سلَّطَهَا اللهُ عليهِ أشدَّ مِن خوفِهِ منَ الفيلِ، وخوفُهُ منَ الهرِّ الَّذِي يستأنسُ بهِ في العادةِ إنْ

---

(١) في (ب): فيها.
(٢) في (ب): من الشيطان.
(٣) سبق تخريجه. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٣.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٥) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٧.
(٦) لأن من خاف الله خافه كل شيء.
(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

سلَّطَهُ عليهِ أشدَّ مِن خَوْفِهِ منَ الأسدِ، فهذا إذَا كانَ قولُهُ: «**تأمنُهُ المخوِّفاتُ**»، أيْ: يؤمَّنُ في حالِ طُرُوقِهَا عليهِ وَوُرُودِهَا.

وأمَّا إذا كانَ مرادُهُ «**تَأمنُهُ المُخوِّفَاتُ**»، أيْ: تسكنُ إليهِ ولا تؤذِيهِ، فإنَّ البرَّ لا يؤذِي الذَّرَّ[(١)]، وإذا لم يؤذِ شيئًا منَ المخلوقاتِ لم يُؤذِهِ شيءٌ منهَا، وركنَتْ إليهِ ولا تضرُّهُ، كمَا حُكِيَ أنَّ سعيدَ بنَ جُبيرٍ لمَّا طلبَهُ الحجَّاجُ وأرسلَ في إِثْرِهِ رُسُلًا وحلَّفَهُمْ إنْ وجدوهُ لا يتركونَهُ، فأدركُوهُ في بعضِ الصَّحارِي وآواهُمُ المبيتُ إلىٰ دَيرٍ، فطمعُوا أنْ يدخلَ معهُمُ الدَّيرَ فأبَىٰ، فقالَ لهُمُ الرَّاهبُ: إنَّ هاهُنَا سَبُعًا ولَبُؤَةً يأتيانِ كلَّ ليلةٍ فأخشَىٰ أنْ يلحقكُمَا أذيَّةٌ منهُمَا، فدعُوهُ واصعدُوا إلىٰ أعلَىٰ الدَّيرِ وانظرُوا مَا يكونُ منْ أمرِهِ، فقامَ سعيدٌ يصلِّي وأتَىٰ السَّبُعُ واللَّبؤةُ، فأخذَا يلمسانِ قدمَيهِ، ويتملَّسَانِ بهِ، وربضَا حوالَيهِ[(٢)] إلىٰ أنْ أصبحَ، فذهَبَا وترَكَاهُ، فنزلَ إليهِ الرُّسلُ وأخذُوا يقبِّلُونَ يدَيهِ ورجلَيهِ ويقولونَ: اعذُرْنَا لولَا أنَّا حلفنَا مَا مَسَكْنَاكَ، فيقولُ: ما أعذَرَنِي لكُمْ وأرضَانِي بقدَرِ اللهِ [١/٢١٧ب] فِيَّ، فأتَوا[(٣)] بهِ إلىٰ الحجَّاجِ في قصَّةٍ طويلةٍ، ودعَىٰ عليهِ قبلَ أنْ يقتلَهُ فلمْ يقتلْ أحدًا بعدَهُ، فكانَ يُغشَىٰ عليهِ، فإذَا أفاقَ قالَ: «مَا لِي وَلِسَعيدِ بنِ جُبيرٍ»[(٤)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقِيلَ[(٦)]: لَيْسَ الخَائِفُ[(٧)] الَّذِي يَبْكِي وَيَمْسَحُ عَيْنَيْهِ، إِنَّمَا الخَائِفُ مَنْ يَتْرُكُ مَا يَخَافُ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَيْهِ».

---

(١) سقط من (ب) قوله: «فإن البرّ لا يؤذي الذرّ».
(٢) في (ب): حوله.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) انظر: حلية الأولياء ٤/٢٩١، ٢٩٤، وصفة الصفوة ٣/٨٥، والبداية والنهاية ٩/٩٧.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٦) نسب لإسحاق بن سويد: ربيع الأبرار ٤/٢٨٣، ولإسحاق بن خلف في: تاريخ دمشق ٨/٢٠٦، وورد بلا نسبة في: تفسير القرطبي ٤/٢٨٣.
(٧) أي: الخوف المحمود.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِمَّا تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ مِن أنَّ الخَوفَ المُحمودَ إنَّمَا هوَ الَّذِي يَزَعُ[1] العَبْدَ عن مَعَاصِي اللهِ ـ تعالىٰ ـ ويحملُهُ على القيامِ بواجباتِهِ، ومتىٰ قَلَّ خَوفُهُ حتَّىٰ أفادَهُ البكاءُ والتَّألُّمُ علىٰ حالِهِ ومَا هوَ فيهِ من فسادِ دينِهِ، فعندَهُ خوفٌ يسيرٌ لم تحصلْ فائدتُهُ بالكلِّيَّةِ، ولو فقدَ هذَا الخَوفَ بالكلِّيَّةِ لكانَ كافرًا؛ لأنَّهُ دليلُ إيمانِهِ بوعْدِ ربِّهِ ووعيدِهِ، وهوَ الخوفُ الَّذِي حجزَهُ عنِ الكفرِ، وربَّمَا حجزَهُ عن بعضِ المَعَاصِي منَ الكبائرِ، كَقَتْلِ النَّفسِ ومَا يجرِي مَجرَاهُ، والخوفُ المحمودُ ما صانَ العبدَ عنِ الإخلالِ بشيءٍ منَ الواجباتِ أوِ الوقوعِ فِي شيءٍ منَ المحرَّماتِ، ولهذَا قالَ: «**إنَّمَا الخائفُ مَنْ تَرَكَ ما يخافُ العقَابَ عليهِ**».

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقِيلَ لِلْفُضَيْلِ[3]: مَا لَنَا لَا نَرىٰ خَائِفًا؟ فَقَالَ: لَوْ كُنْتَ خَائِفًا لَرَأَيْتَ الخَائِفِينَ[4]؛ لِأَنَّ الخَائِفَ لَا يَرَاهُ إِلَّا الخَائِفُونَ، وَإِنَّ الثَّكْلىٰ هِيَ الَّتِي تُحِبُّ أَنْ ترىٰ الثَّكْلىٰ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الخائفَ إنَّمَا يُعْرَفُ خوفُهُ في حَرَكاتِهِ وسُكُونِهِ وقِيَامِهِ بأوامرِ ربِّهِ وبُعْدِهِ عن مَنَاهِيهِ، ولهذَا الاعتبارِ كانَ الخوفُ لا يُعْرَفُ في عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابنِهِ حتَّىٰ يقولَا أوْ يفعلَا، فكلُّ مَنْ لا يَعْرِفُ مِنَ الخائفِينَ إلَّا كلَّ منزعجٍ مُتقلِّقٍ[5] في ظاهرِهِ، وباكٍ وداعٍ للهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يخلِّصَهُ فلَمْ يعرفِ الخائفِينَ علىٰ التَّحقيقِ، بل مَنْ عرَفَ حقيقةَ الخوفِ في سائرِ حركاتِ الخائفِ وسكونِهِ وكلامِهِ وتحفُّظِهِ في مَنْطقِهِ، وكذلِكَ استماعُهُ ونظرُهُ وبصرُهُ، وكذلِكَ تصرُّفُهُ بيدَيهِ ورجلَيهِ وطعامِهِ وشرابِهِ وسائرِ مَا هوَ فيهِ، ولَا يعرفُ ذلكَ إلَّا مَنْ كمُلَ

---

(١) في (ب): ينزع، والأصح المثبت، والقصد: يكفُّ، ففي المحكم «وزع»: «يزع ويزع وزعا: كفه».
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٤.
(٤) يشير إلىٰ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٨٠: «المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِنِ».
(٥) في (ب): متعلق.

علمُهُ وتحقَّقَ بهِ في نفسِهِ وعرَفَ أشكالَهُ وأمثالَهُ منَ النَّاسِ، فهذا هوَ الَّذِي يعرفُ أبناءَ جنسِهِ، ويميلُ إليهِمْ بطبْعِهِ لرجاءِ منفعتِهِ وأُنْسِهِ، ولذلِكَ قالَ في آخرِ كلامِهِ: «إنَّ الثَّكْلَىٰ هيَ الَّتِي تحبُّ الثَّكلَىٰ، أو تحبُّ أنْ ترىٰ الثَّكْلَىٰ»[١] [١/٢١٨أ] لمعرفتِهَا بمَا هيَ عليهِ من صفاتِ الثَّكلَىٰ، أوْ لمساعدتِهَا لهَا علَىٰ ما هيَ فيهِ منَ الحُزْنِ والبَلاءِ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ[٤]: مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ، لَوْ خَافَ مِنَ النَّارِ كَمَا يَخَافُ مِنَ الفَقْرِ [لَنجَا مِنْهُمَا، وَلَوْ طَلَبَ الجَنَّةَ كَمَا يطلبُ الغِنَىٰ لَنَالَهُمَا وَ][٥] لَدَخَلَ الجَنَّةَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ خوفَ الفقرِ يحملُ الإنسانَ علىٰ أنْ يشحَّ بمَا في يدَيهِ عن نفسِهِ وعيالِهِ، ويمتنعَ ويمنعَهُمْ[٦] مِن كثيرٍ منَ الشَّهواتِ، ويخلَّ بالقيامِ بكثيرٍ منَ الواجباتِ منْ فرضِ ولَدِهِ أوْ والدِهِ أوْ حقٍّ عليهِ منَ الزَّكَوَاتِ أوِ القُرباتِ، ويقعَ فِي تحصيلِ المالِ خوفًا منَ الفقرِ في أنواعٍ منَ المحرَّماتِ؛ منَ التَّلبيسِ والغِشِّ فِي العيوبِ في كثيرٍ منَ المعاملاتِ، والوقوعِ في أبوابٍ منَ الرِّبَا، والمعاملاتِ الفاسدةِ؛ في[٧] القراضِ والإجارةِ والمُساقاةِ، وغيرِ ذلِكَ ممَّا غلبَ علينَا في هذهِ الأوقاتِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعُونَ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ.

فإذا كانَ العبدُ لخوفِ الفقرِ يرتكبُ هذِهِ المُؤلِمَاتِ، ويخلُّ بهذِهِ الواجباتِ،

---

(١) سقط من (ب) قوله: «أو تحب أن ترىٰ الثكلىٰ».
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٤.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٤) وورد بلا نسبة في: إحياء علوم الدين ٤/١٩٨، وسراج الطالبين ٢/٢٠٤.
(٥) زيادة من (ف).
(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٧) في (أ): من.

ويرتكبُ ما ذكرْنَاهُ مِنَ المُحرَّماتِ، فلَوْ خافَ مِنَ النَّارِ كمَا يخافُ مِنَ الفقْرِ لهربَ مِن أسبابِ دخولِهَا وتعاطَى أسبابَ دخولِ الجنَّاتِ بالأدلَّةِ الواضِحاتِ، وذلكَ دليلٌ علىٰ ضعْفِ الإيمانِ بأمْرِ الآخرةِ ـ والعياذُ باللهِ ـ أو غلبةِ الشَّهواتِ العاجلةِ وهوَ أخفُّ المَحظُورَاتِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقَالَ شَاه الكِرْمَانِيُّ**[2]**: عَلَامَةُ الخَوْفِ: الحُزْنُ الدَّائِمُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الخوفَ علىٰ ما تقدَّمَ إنَّمَا يتعلَّقُ بضررٍ؛ إمَّا فواتُ محبوبٍ، أو حُصُولُ مُؤلِمٍ، وإذا كانَ أمرًا منتظرًا وتَوالَى[3] علىٰ القلبِ الفِكرُ فيهِ أورثَ العبدَ الغمَّ والحزنَ لطولِ انتظارِهِ لهُ، ولَوْ وقعَ المُخوِّفُ بسرعةٍ لمْ يثمِرْ حُزْنًا إلَّا علىٰ ما فَاتَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَقَالَ أَبُو القَاسِمِ الحَكِيمُ**[5]**: مَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ، وَمَنْ خَافَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ هَرَبَ إِلَيْهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أنَّ الخوفَ علىٰ الحقيقةِ إنَّمَا يكونُ منَ اللهِ خاصَّةً؛ لأنَّهُ الفاعلُ لكلِّ مخوِّفٍ، وإذَا خافَ العبدُ غيرَ اللهِ معَ غفلتِهِ عنِ اللهِ صحَّ أنْ يهربَ منَ المخوِّفِ؛ كهرَبِهِ منَ الأَسَدِ والنَّارِ، وإذا ذكَرَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وخشِيَ أنْ يسلِّطَهُ عليهِ هَربَ إلىٰ اللهِ؛ أيْ: رجعَ إليهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٥٨، وتهذيب الأسرار ص١٤٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٢.

(٣) في (ب): «ينتظر أو توالىٰ».

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.

(٥) ورد بنحو في: حسن الظن ص١١٤.

فعلى هذا إنَّمَا يهربُ منَ المخوفاتِ الغافلُ[١]، وإلَّا مَنْ علِمَ أنَّهَا مُسخرَّةٌ بيدِ اللهِ هربَ إلى اللهِ القادرِ على [١/٢١٨ب] خلاصِهِ منهَا لا غَيْرِهِ[٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَسُئِلَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٤]: مَتَى يَتَيَسَّرُ عَلَى العَبْدِ سَبِيلُ الخَوْفِ؟ فَقَالَ: إِذَا أَنْزَلَ[٥] نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ السَّقِيمِ؛ يَحْتَمِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَخَافَةَ طُولِ السِّقَامِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا سُؤالٌ عنِ السَّببِ الَّذِي يسهِّلُ على الإنسانِ سلوكَ طريقِ المخافةِ، ويهوِّنُهُ عليهِ، وذلِكَ إذَا عرَفَ ضعْفَ نفسِهِ وعجزَهَا عن تحصيلِ شيءٍ ممَّا يضرُّهَا أوْ ينفعُهَا إلَّا باللهِ، وأَدَامَ النَّظرَ[٦] في ذلِكَ سهَّلَ عليهِ أمرَ الخوفِ؛ أيْ: عمِلَ على مقتضَاهُ وبعُدَ بِهِ عَمَّا يَخْشَاهُ، وقامَ بمَا عليهِ مِن واجبِهِ وتَقْوَاهُ، ولمْ يلتفِتْ لمَا يطرقُهُ منَ المشقَّةِ في ارتكابِ المؤلِمِ والمخالفَةِ لهوَاهُ؛ لمَا يأملُهُ في عُقبَاهُ، ولذلِكَ شبَّهَهُ بالمريضِ الَّذِي يحتاجُ إلى الأدويَةِ رجاءً لشفائِهِ مِن بلوَاهُ، ويتحمَّلُ[٧] فِي شربِهَا مَا تكرهُهُ نفسُهُ وتأْبَاهُ، كلُّ ذلِكَ رجاءَ العافيةِ من سقمِهِ وبلوَاهُ[٨].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٩]: «وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١٠]: إِنَّ المُؤْمِنَ لَا

---

(١) أي: عن الله.
(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٤ ـ ٤٣٤.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٦، وجزء من خبر طويل في: صفة الصفوة ٢/٢٢٩.
(٥) في (ب): نزَّل.
(٦) في (أ): ودام، والأصح المثبت.
(٧) في (ب): ويحتمل.
(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٤.
(٩) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(١٠) رواه عنه الطبراني في مسند الشاميين ٤/٣٥٥ مرفوعًا، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/٣١،=

يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ وَلَا تَسْكُنُ رَوْعَتُهُ حَتَّىٰ يُخَلِّفَ[(١)] جِسْرَ جَهَنَّمَ [وَرَاءَهُ][(٢)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا هوَ المؤمنُ الكاملُ العارفُ بأحكامِ ربِّهِ عليهِ في دنياهُ، وكثرةِ طروقِ الآفاتِ في عملِهِ الَّذي طلبَهُ منهُ مولاهُ، وكذلِكَ هجومُ الموتِ الَّذي يقطعُهُ عن بلوغِ ما تمنَّاهُ، وكذلِكَ خوفُ نزولِ ما سبقَ من قضاءِ ربِّهِ ممَّا يضرُّهُ في أُخْرَاهُ، فمَنْ علِمَ هذِهِ الأغراضَ المتعلِّقَةَ بأعمالِ قلبِهِ وجوارحِهِ في هذهِ الدَّارِ، وهوَ معرَّضٌ لمقاديرِ مولاهُ السَّابقةِ لهُ كثُرَ قلقُهُ وعدمَ من نفسِهِ القرارَ، فبهذا لا يهدأُ ولا يسكنُ حتَّىٰ يجاوزَ الصِّراطَ[(٣)]، فحينئذٍ تسكنُ نفسُهُ ويهدأُ قلقُهُ؛ لأنَّهُ آخرُ المخاوفِ، فلا خوفَ بعدَهُ؛ لأنَّهُ جاءَ في الخبرِ أنَّهُ[(٤)]: «جسرٌ ممدودٌ علىٰ مَتْنِ جهنَّمَ».

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقَالَ بِشْرُ الحَافِي[(٦)]: الخَوْفُ مَلِكٌ لَا يَسْكُنُ إِلَّا فِي قَلْبِ مُتَّقٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الملوكَ لا تنزلُ في محلِّ الأوساخِ والأقذارِ، وإذا نزلَتْ وكانَ في الموضعِ وسخٌ أو قذارٌ غُسِلَ مِن سَاعتِهِ ونُظِّفَ؛ لأنَّ شرفيَّةَ همَّةِ الملوكِ تُنَافِي الأقذارَ والأوساخَ، كذلِكَ الخوفُ من اللهِ لا يقوَىٰ ويكملُ ويحملُ علىٰ الخيراتِ وإنْ دقَّتْ وشقَّتْ وتصرَّفَ عنِ الشُّرورِ،

= والديلمي في الفردوس ٣٧١/٥، وابن رجب الحنبلي في التخويف من النار ص١٧٦.

(١) أي: يجاوز.

(٢) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٣) لأنه آخر المخاوف.

(٤) ورد في: المغني عن حمل الأسفار ٥٦/١، وأخرجه مسلم في صحيحه ١٦٩/١ ـ حديث رقم (١٨٣) بلفظ: «.. ثُمَّ يُضْرَبُ الجِسْرُ علىٰ جَهَنَّمَ..».

(٥) الرسالة القشيرية ٢٥٣/١.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١٣٣/١، وتهذيب الأسرار ص١٤٣.

وإنْ عظُمَتْ إلَّا في قلبٍ قدْ تطهَّر مِنَ الشَّهواتِ بأنواعِ المجاهداتِ والرِّياضاتِ، ويكلِّفُ العبدُ الفكرةَ في حالِهِ ومآبِهِ [١/٢١٩أ] حتَّىٰ يسِّرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بالخوفِ النَّافعِ لهُ في إحجامِهِ وإقدامِهِ(١).

وقَدْ يَمُنُّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ بهذَا الخَوفِ الكاملِ مِن غيرِ كسبٍ ولا طلبٍ، فإذا حَلَّ بالقَلبِ صَرف عنهُ كُلَّ شَرٍّ وسَببٍ، كَمَا فعلَهُ بالسَّحرةِ وغيرِهِم منَ الغَافِلينَ، فأوقعَ في قلوبِهِم مِنْ معرفتِهِ ما حملَهُمْ علىٰ الإعرَاضِ عن فرعونَ وكِبْرِهِ ورُبوبيَّتِهِ(٢)، فهذا الخَوفُ الَّذي إذا نزلَ طهَّرَ المحلَّ مِن كُلِّ شَرٍّ وضَررٍ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيرِيُّ(٤): عَيْبُ الخَائِفِ فِي خَوْفِهِ السُّكُونُ إِلَىٰ خَوْفِهِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ خَفِيٌّ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ مِرارًا أنَّ مَنْ سَكَنَ إلىٰ مقامٍ شَرِيفٍ مَنَعَهُ سُكُونُهُ عنِ الارتقاءِ إلىٰ مَا هوَ أَكْمَلُ منهُ، وهذا مطَّرِدٌ في الخَوفِ وغيرِهِ منَ المقاماتِ(٥).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «**وَقَالَ الوَاسِطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(٧): الخَوْفُ حِجابٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ العَبْدِ**.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٦.

(٢) فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨].

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٥، والمختار من مناقب الأبرار ٢/٨٠، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٢.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٦.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٣٣، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٥.

وَهَذَا اللَّفْظُ فِيهِ إِشْكَالٌ[١]، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الخَائِفَ مُتَطَلِّعٌ لِوَقْتٍ ثَانٍ[٢]، وَأَبْنَاءُ الوَقْتِ لَا تَطَلُّعَ لَهُمْ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَحَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ المُقَرَّبِينَ[٣]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّمَا كانَ حِجَابًا بِمَا قدَّمناهُ مِن أنَّهُ إذا وقفَ العبدُ معَ حالتِهِ في الخوفِ استحسَنَ مقامَهُ فيهِ، وكونِهِ استعانَ بهِ على الخلاصِ منَ المحرَّماتِ ونشطَ بِهِ في الطَّاعاتِ، فاستحسانُهُ لحالِهِ ووقوفُهُ معَهُ حجابٌ بينَهُ وبينَ ربِّهِ؛ أيْ: منعَهُ عنِ الانتقالِ لمَا هوَ أعلى منهُ وأقربُ إلى ربِّهِ، وبهذا الاعتبارِ كانَ حِجَابًا.

وقولُ الإمامِ في تفسيرِهِ: «**لأنَّهُ مُتَطَلِّعٌ إلى وقتٍ ثانٍ، وأبناءُ الوقتِ[٤] لا التفاتَ لهُمْ إلى غيرِ ما هُمْ فيهِ**»، والَّذِي ذكرْنَاهُ أَوْلَى؛ لأنَّهُ وإنْ كانَ الخوفُ متعلِّقًا بالاستقبالِ فهيَ حالةُ الخائفِ، فسكونُهُ إلى حالتِهِ حجابٌ عمَّا هوَ أعلَى مِنهُ وأقربُ إلى ربِّهِ، وبهذا كانَ حِجابًا بينَ العبدِ وبينَ ربِّه.

وإنَّمَا مرادُ الإمامِ أنَّ مَنْ نظرَ إلى غيرِ وقتِهِ صاحِبُ تفرقَةٍ، ومَنْ كانَ مشغولًا بوقتِهِ كانَ صاحبَ جَمْعٍ، وكونُ الخوفِ[٥] متعلِّقًا بأمرٍ فِي الاستقبالِ؛ مِن حُلُولِ مُؤلِمٍ، أو فراقِ محبوبٍ لا يدلُّ على تفرقةٍ خارجةٍ[٦] عن مقامِ الخَوفِ، فإنَّ متعلِّقَ كُلِّ مقامٍ من ضَرورةِ التَّخلُّقِ بهِ ملاحظتُهُ، فهوَ جمعٌ لا تفرِقَةٌ[٧].

---

(١) لأن الخوف مطلوب كما مرَّ، فكيف يكون حجابا بين الخائف وربه؟ كما سينص المؤلف.

(٢) في (ف): يأتي.

(٣) أي: مقام الخوف وتحققه للأبرار يعد حسنة، وهو حجاب وسيئة باعتبار المقربين؛ وذلك لعلو همتهم. انظر: نتائج الأفكار ٢/٣٠٩.

(٤) أي: الصوفية؛ لأن الصوفي ابن وقته، كما مرَّ.

(٥) في (ب): الخرق، والصواب المثبت.

(٦) في (ب): جارحة، وهو تصحيف.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٦.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(١)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ النَّهَاوَنْدِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ فَاتِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ يَقُولُ[(٢)] [٢١٩/١ب]: الخَائِفُ يَهْرَبُ مِنْ رَبِّهِ إِلَىٰ رَبِّهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا قَدْ تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ، وهوَ مِن بابِ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ؛ أيْ مِن معصيةِ ربِّهِ إلىٰ طاعةِ ربِّهِ، أوْ مِن عذابِ ربِّهِ إلىٰ عفْوِ ربِّهِ، أوْ مِن سخطِ ربِّهِ إلىٰ رضا ربِّهِ؛ إذْ لا مهربَ منَ اللهِ إلىٰ غيرِ اللهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٣)]: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَامَةُ الخَوْفِ التَّحَيُّرُ[(٤)] عَلَىٰ بَابِ الغَيْبِ[(٥)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا التَّحيُّرُ ليسَ جهْلًا أوْ عدَمَ معْرِفةٍ، وإنَّما هوَ قَلَقٌ في أسبابِ النَّجاةِ، وفكرةٌ فِي الخلاصِ ممَّا وقعَ فيهِ ممَّا يُوجِبُ العذَابَ، ومَنْ لازمَ البابَ بالتَّذلُّلِ والعِتَابِ رُجِيَ لهُ نَيْلُ الثَّوابِ، فضْلًا عنِ الخَلاصِ منَ العَذَابِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٦)]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ إِبْرَاهِيمَ العُكْبَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الخَوْفِ فَقَالَ[(٧)]: تَوَقُّعُ العُقُوبَةِ مَعَ مَجَارِي الأَنْفَاسِ[(٨)]».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٥، وسرج الطالبين ٢/٢٠٤، وورد بلا نسبة في: مدارج السالكين ١/٥١٣.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٣.
(٤) التحير من لوازم الخوف ومن ثمراته؛ لأن شأن الخائف دوام التحيير فيما به خلاصه.
(٥) لاستمطار الرحمات الربانية من طريق الفضل والإحسان.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.
(٧) ورد قوله في: ذيل تاريخ بغداد ١٨/٢٢.
(٨) أي: أزمنتها.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا هوَ الَّذِي فسَّرْنَا بهِ الحيرةَ على البابِ، فإنَّ الخوفَ يرفعُ عنِ القلبِ الحجابَ، وينيلُهُ المُراقبةَ وأكملَ الأسبابِ برِضَى الكريمِ الوهَّابِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ الصَّفَّارَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ المُسَيِّبِ يَقُولُ: سَمِعْتُ هَاشِمَ بْنَ خَالِدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ يَقُولُ[٢]: مَا فَارَقَ الخَوْفُ قَلْبًا إِلَّا خَرِبَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ الخوفَ على درجاتٍ، وكلُّ مَنِ انتقلَ إلى مقامٍ شَريفٍ إنْ لَمْ يكنْ حَذِرًا ممَّا يفسدُهُ عليهِ أوْ يكملُهُ أو يُرَقِّيهِ إلى ما هوَ أعلى منهُ فسدَ عليهِ ما هوَ فيهِ، فعلى هذَا التَّقريرِ لا يَسْتغنِي مقامٌ عنِ الخَوفِ، ولكنْ شَتَّانَ بينَ خَوْفِ العَذَابِ وخَوفِ العِتَابِ، وخَوفِ الحِجَابِ وخَوفِ فِرَاقِ الأَحْبَابِ، واللهُ المُوفِّقُ للصَّوابِ[٣].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَسَمِعْتُهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ يَقُولُ[٥]: صِدْقُ الخَوْفِ: هُوَ الوَرَعُ عَنِ الآثَامِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٦، وإحياء علوم الدين ٤/١٦٢، ومدارج السالكين ١/٥١٣، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤١٤.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٧، ومدارج السالكين ١/٥١٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٢.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أنَّ الورعَ هوَ المُجَانبةُ لمَا يحذَرُ، كمَا قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَرِّعُوا اللِّصَّ وَلَا تُرَاعُوهُ»، أيْ: جنِّبوهُ رحالَكُمْ ولا ترصدُوهُ حتَّى يقعَ.

ويقالُ[2]: «ورِّعَ الإبلَ» [١/٢٢٠أ]، أيْ: جنِّبْهَا مَراتِعَ الهلاكِ، فالورعُ هوَ المجانبةُ لمَا يحذَرُ، فعلَى هذا كلُّ خوفٍ لا يُثْمِرُ المجانبةَ للمخوِّفِ فليسَ بخوفٍ صحيحٍ، والمحذورُ إمَّا الإخلالُ بواجبٍ أوِ ارتكابُ محرَّمٍ، أوِ الكسلُ عن مَنْدُوبٍ، أو تهاوُنٍ بفعلِ مَكْرُوهٍ، وكذلِكَ ما يقالُ في الدَّرجاتِ من أنواعِ المَنْدُوباتِ والمَكروهَاتِ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ المصْرِيُّ[4]: النَّاسُ عَلَى الطَّرِيقِ مَا لَمْ يَزُلْ عَنْهُمُ الخَوْفُ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُمُ الخَوْفُ ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا هوَ نفسُ ما فسَّرْنَا بهِ قولَ مَنْ قالَ: «**مَا فارقَ الخَوْفُ قَلبًا إلَّا خَربَ**»؛ وهوَ أنَّهُ لَا يستغنِي عنهُ مقامٌ؛ لأنَّ الخوفَ علَى أقسامٍ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «**وَقَالَ حَاتِمُ الأَصَمُّ[6]: لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةٌ، وَزِينَةُ العِبَادَةِ: الخَوْفُ[7]، وَعَلَامَةُ الخَوْفِ: قِصَرُ الأَمَلِ[8]**».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق التعليق على ذلك.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٨، ومدارج السالكين ١/٥١٣.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.

(٦) ورد قوله في: سراج العابدين ٢/٢٠٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٢، ونسب ليحيى بن معاذ في: تهذيب الأسرار ص١٤٨.

(٧) لأنه به يتحقق التخلي عن قاذورات المخالفات.

(٨) لأنه هو الباعث على الخوف، والسائق لحسن العمل.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ إنَّمَا يتزيَّنُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ بطاعةِ مُولَاهُ، وإكمالِهَا لهُ فِي دنياهُ، وإنَّمَا يكمِّلُهَا ويحفظُهَا ممَّا يشينُهَا بالخَوفِ، ومَنْ قصُرَ أملُهُ أيضًا حسُنَ عملُهُ، فإنْ كانَ في نقصٍ خشِيَ لقاءَ مولاهُ عليهِ، وإنْ كانَ يرجُو كمالًا خشِيَ أنْ يقطعَهُ الموتُ عنهُ، فقِصَرُ الأملِ ينفعُ المطيعَ والعاصِي، فالعَاصِي يتخلَّصُ بهِ مِنْ زلَلِهِ، والمطيعُ يجدُّ بسببِهِ فِي بُلُوغِ مَطلُوبِهِ وأَمَلِهِ[١].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ رَجُلٌ لِبِشْرٍ الحَافِي[٣]: أَرَاكَ تَخَافُ المَوْتَ؟ فَقَالَ: القُدُومُ عَلَى اللهِ شَدِيدٌ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ تعظيمِهِ لمَولَاهُ، وشدَّةِ امتلاءِ قلبِهِ بالحُضُورِ بسؤالِهِ عن تَقْوَاهُ، وهذا علىٰ حسبِ ما يغلبُ علىٰ قلبِ العَارفِ ممَّا يُحدثُهُ الحقُّ فيهِ منَ الأحوالِ، فتارةً يخافُ اللِّقاءَ، وتارةً يشتاقُهُ ويحبُّهُ، ومحبَّتُهُ لهُ تختلفُ تارةً خوفًا علىٰ نفسِهِ منَ التَّغييرِ، وتارةً لنيلِ ما يرجوهُ منْ فضلِ العليمِ الخبيرِ.

وقد رُوِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معَ كمالِ فضْلِهِ واجتهادِهِ في القيامِ بحقوقِ ربِّهِ فيمَا يخصُّهُ في نفسِهِ وفيمَا بينَهُ وبينَ خلْقِهِ رُوِيَ أنَّهُ: كوَّمَ كومةً بطحاءَ[٤]، وألقَىٰ رداءَهُ عليهَا، واستلقَىٰ علىٰ ظهرِهِ متذلِّلًا في صورةِ الفقيرِ العاجزِ الَّذِي لا حيلةَ لهُ، ثمَّ قالَ[٥]: «اللَّهمَّ كَبُرَ سنِّي، وضعُفَتْ قوَّتِي، وانتشرَتْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.

(٣) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٢٠٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٢.

(٤) أي: متسعه.

(٥) رواه عنه مالك في الموطأ ٢/٨٢٤، والأزرقي في أخبار مكة ٢/١٧، وابن عبد البر في الاستذكار ٧/٤٨٧.

رَعِيَّتي[(١)]، فاقبضْني إليكَ غيرَ مُبدِّلٍ ولا مُغيِّرٍ».

❁ قَالَ الإِمَامُ [١/٢٢٠ب] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٣)]: دَخلْتُ عَلَى الإِمَامِ أَبِي بَكْرِ بْنِ فَوْرَكٍ عَائِدًا، فَلَمَّا رَآنِي دَمعَتْ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ ـ سبحانه ـ يُعافِيكَ وَيَشْفِيكَ، فَقَالَ لِي: تَرانِي أَخافُ مِنَ المَوْتِ؟ إِنَّمَا أَخافُ مِمَّا وَرَاءَ المَوتِ.

أَخْبَرَنا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنا القَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنا يَحْيَى بْنُ يَمانٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ سَعِيدِ بْنِ وَهْبٍ[(٤)]، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ[(٥)]: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: أَهُوَ الرَّجُلُ يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمْرَ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الخوفَ يكونُ معَ كمالِ الطَّاعةِ؛ وذلِكَ لكونِهِ لا يعرفُ صحَّةَ عملِهِ ولا قبولَهُ؛ لخفاءِ ما يطرقُ الأعمالَ منَ الآفاتِ،

---

(١) في (ب): رغبتي، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٤.

(٣) انظر قوله في: وفيات الأعيان ٤/٢٧٢، وتفسير القرطبي ٤/٢٨٣، والوافي بالوفيات ٢/٢٥٤.

(٤) في (أ، ب، ف): موهب، والصواب المثبت.

وهو: عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني الخيواني الكوفي، روىٰ عن: أبيه والشعبي وأبي حازم سلمان الأشجعي وعائشة ولم يدركها، وعنه: عبد الملك بن عمير، وهو من أقرانه والأعمش ومالك بن مغول وغيرهم.

انظر في ترجمته: التاريخ الكبير ٥/٢٢٨، والثقات ٧/٧١، وتهذيب التهذيب ٦/١٦٩.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٣٢٧، وأحمد في مسنده ٦/١٥٩، والحاكم في المستدرك ٢/٤٢٧، والطبراني في الأوسط ٤/١٩٨.

ولذلِكَ قَالَ الإِمَامُ ابنُ فوركٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «**ما بكائِي منَ الموتِ، وإنَّمَا بكائِي لمَا بعدَ الموتِ**»، وعليهِ يدلُّ قولُ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعائشةَ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ وهوَ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هَلْ وَجَلُهُمْ عنِ المعاصِي منَ الزِّنَا والسَّرقةِ وشُرْبِ الخمرِ؟ فقالَ لهَا النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ»، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ الخوفَ منقسمٌ علىٰ أقسامٍ؛ فيكونُ للعاصِينَ والمطيعِينَ والأولياءِ والمقرَّبينَ(١).

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ(٢): «**وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُٱللَّهُ(٣): الَّذِي يُهَيِّجُ الخَوْفَ حَتَّىٰ يَسْكُنَ فِي القَلْبِ: دَوَامُ المُرَاقَبَةِ فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ.**

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ(٤) بْنَ الحَسَنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ بْنَ أَبِي مُوسَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ المُبَارَكِ رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ».

۞ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الحاملَ علىٰ داومِ المراقبةِ لمَا يطرقُ القلبَ منَ الخواطرِ الدَّاعيةِ إلىٰ الأفعالِ؛ إمَّا بالقلبِ أوْ بالجوارحِ، إنَّمَا هوَ الحذرُ من قبولِ ما يكرهُهُ الحقُّ ـ سبحانَهُ، وإذا كانَتِ الخواطرُ تتوالَىٰ علىٰ القلبِ مِن قبَلِ الحقِّ ـ سبحانه ـ بغيرِ واسطةٍ أو بواسطةِ الملكِ والنَّفسِ والشَّيطانِ، فلابُدَّ مِن دوامِ المراقبةِ بالعلمِ، ولا يتمُّ إلَّا بقوَّةِ الحذَرِ والخوفِ للحُوقِ الضَّررِ، فلتوالِي الحذرِ علىٰ القلبِ [١/٢٢١أ] تحصلُ المُراقبةُ، ولذلِكَ قَالَ الإِمَامُ ابنُ المباركِ رَحِمَهُٱللَّهُ

---

(١) انظر: الإبانة لابن فورك ص٢١٧، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٨.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٥.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٨، وسراج الطالبين ٢/٢٠٥، وإتحاف السادة المتقين ١١/٤٢٣.

(٤) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «بن أحمد».

ما قالَ ؛ وهوَ أنَّ الحذرَ إنَّمَا يسكنُ القلبَ لدوامِ المراقبةِ ، وعلامةُ السُّكونِ: تواليهِ حتَّىٰ يصيرَ كأنَّهُ سُاكنًا ، فإنَّ الأعراضَ لا بقاءَ لهَا[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ شَيْبَانَ يَقُولُ[٣]: إِذَا سَكَنَ الخَوْفُ القَلْبَ أَحْرَقَ مَوَاضِعَ الشَّهَوَاتِ مِنْهُ ، وَطَرَدَ رَغْبَةَ الدُّنْيَا عَنْهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ في التَّضادِّ بينَ[٤] المَيلِ إلىٰ الشَّهواتِ والنُّفورِ عنهَا ، فإنَّ الهوَىٰ يُميلُ إلىٰ الشَّهواتِ ، والخَوفُ يحجزُ عنهَا ؛ لمَا اشتملَتْ عليهِ منَ البليَّاتِ ، وبهذا الاعتبارِ كانَ حبُّ الدُّنيَا رأسَ كلِّ خَطِيئةٍ ، وخَوفُ اللهِ - تعالىٰ - بابَ كُلِّ خيرٍ ، فإنَّ العبدَ إذا خَافَ اللهَ - سبحانه - بعُدَ عمَّا يُسخطُهُ عليهِ ، واستعملَ ما يُرضيهِ عنهُ ، وقَدْ بيَّنَّا أنَّ مُرادَهُ بسكونِ الخَوفِ في القلبِ تَواليهِ عليهِ[٥].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: «وَقِيلَ[٧]: الخَوْفُ قُوَّةُ العِلْمِ بِمَجَارِي الأَحْكَامِ.

وَقِيلَ[٨]: الخَوفُ حَرَكَةُ القَلْبِ مِنْ جَلَالِ الرَّبِّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «قوَّةُ العِلمِ بمجارِي الأحكامِ» يعنِي تصرُّفَ اللهِ - تعالىٰ - في خَلْقِهِ منَ الهدايةِ والإضلالِ ، والعوافِي والأمراضِ ، والطَّاعةِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٥.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان/٥١٣ ، وطبقات الصوفية ص٣٠٤ ، ومدارج السالكين ١/٥١٣ ، وتاريخ الإسلام ٢٥/١٤٦.

(٤) في (ب): التضاددين.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٩.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٥٥.

(٧) ورد قوله في: مدارج السالكين ١/٥١٢ ، وسراج الطالبين ٢/٢٠٥.

(٨) ورد قوله في: الإبانة لابن فورك ص٢١٦ ، وحدائق الدقائق ص٤٠.

والعصيانِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا سبَقَ، وكانَ ممَّنْ قويَ علمُهُ بهذا التَّصرُّفِ لَمْ يأمَنْ علىٰ نفسِهِ بحال، ولَوْ كانَ في أفضلِ المقاماتِ والأحوال، وهذا العلمُ هوَ سببُ الخوفِ لا نفسُ الخوفِ، فعبَّرَ عنِ الخوفِ بسببِهِ، كمَا عبَّرَ الثَّوريُّ(١) عنِ الزُّهدِ بقِصَرِ الأملِ(٢).

وأمَّا مَنْ قالَ: «حَركةُ القلبِ لجلالِ الرَّبِّ» عبَّرَ عَن نفسِ الخَوفِ؛ وهوَ قلقُ القلبِ وانزعاجُهُ لأمرٍ مُتعاظمٍ، ولا أعظمَ ولا أجلَّ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فمتَىٰ استشعرَ القَلْبُ نَظَرَ الحقِّ إليهِ في حالتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا ولَوْ كانَ في أفضلِ عباداتِهِ اضطَّرَبَ قلبُهُ واقشعرَّ جِلْدُهُ وَوَجِلَ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: يَنْبَغِي لِلقَلْبِ أَلَّا يَكُونَ الغَالِبُ عَلَيْهِ إِلَّا الخَوْفَ، فَإِنَّهُ إِذَا غَلَبَ الرَّجَاءُ عَلَىٰ القَلْبِ فَسَدَ القَلْبُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ(٤)؛ القَوْمُ(٥) بِالخَوْفِ ارْتَفَعُوا، فَإِنْ ضَيَّعُوهُ نَزَلُوا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ مِن أبِي سليمانَ [١/٢٢١ب] الدَّرانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ رأىٰ مِن تلميذِهِ أحمدَ ميلًا إلىٰ جانبِ الرَّجاءِ، وكلُّ مبتدئٍ فحاجتُهُ إلىٰ الخوفِ آكدُ؛ لأنَّ بهِ يتطهَّرُ منَ الآثامِ ويجبرُ مَا فسدَ منَ الأيَّامِ بالآثامِ، ويستقيمُ بسببِهِ علىٰ أحوالِ السَّادةِ الكرامِ، فمدحَ لهُ الخوفَ وأمرَهُ بأنْ يكونَ الغالبَ علىٰ حالِهِ، ويدلُّ

---

(١) الدلالة ٢/٨٣٣.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٣٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٥.

(٤) هو: أحمد بن أبي الحواري.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

عليهِ قولُهُ: «يا أحمدُ، بذلِكَ ارتفعُوا، فَإِنْ ضيَّعُوهُ نزلُوا»، وإذَا استقامَتْ منَ العبدِ الأحوال، كانَ الكمالُ في استوائِهِمَا في قلبِهِ مِنْ غيرِ إخلال، وهوَ الَّذِي أوصَىٰ بهِ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقولِهِ لعمرَ[١]: «ليكونَ العبدُ راغبًا راهبًا لا يتألَّىٰ علىٰ اللهِ، ولا يقنطُ مِن رحمةِ اللهِ»، وهوَ الَّذِي يدلُّ عليهِ كلامُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قولِهِ[٢]: «لو نادَىٰ مُنادٍ منَ السَّماءِ: أيُّهَا النَّاسُ، إنَّكُمْ كلَّكُمْ داخلُونَ النَّارَ إلَّا رجلًا واحدًا لرجوتُ أنْ أكونَ أنا هوَ، ولوْ نادَىٰ منادٍ: إنَّكُمْ كلَّكُمْ داخلُونَ الجنَّةَ إلَّا رجلًا واحدًا لخشيتُ أنْ أكونَ أنا هوَ»[٣].

وهذا يدلُّ علىٰ كمالِ معرفتِهِ بنفسِهِ ومَا جرَىٰ عليهِ مِن زلَلِهِ واستقامتِهِ، وهمَا أسبابُ الهلاكِ والنَّجاةِ، ومعرفتِهِ بجلالِ ربِّهِ وعظمتِهِ، وهوَ أنَّهُ يفعلُ مَا يشاءُ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٥]: الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ زِمَامَانِ[٦] عَلَىٰ النُّفُوسِ؛ لِئَلَّا تَخْرُجَ إِلَىٰ رُعُونَتِهَا**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **ورعُونةُ النَّفسِ**: سُكُونُهَا إلىٰ حالتِهَا وحسنُ ما هيَ فيهِ منْ طاعتِهَا، أو هلعِهَا وجزعِهَا ويأْسِهَا[٧] منْ فضْلِ ربِّهَا عندَ مخالفتِهَا.

فالخوفُ والرَّجاءُ بهِمَا تُصَدُّ النَّفسُ عن هذِهِ الرُّعونةِ، فإنِ استحسَنَتْ أحوالَهَا

---

(١) جزء من قول طويل له ورد في صفة الصفوة ١/ ٢٦٤، والرياض النضرة ٢/ ٢٤٤.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١/ ٥٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/ ٤٤٠.

(٤) الرسالة القشيرية ١/ ٢٥٥.

(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/ ١٣٧، وإحياء علوم الدين ٤/ ١٥٥، وطبقات الصوفية ص٢٣٣، ونصه: «زماما يمنعان من سوء الأدب».

(٦) أي: مستوليان.

(٧) في (ب): وبأسها.

وركنَتْ إلىٰ أعمالِهَا زجرَهَا الخوفُ منَ السَّوابقِ، وإنْ يئسَتْ من فضْلِ ربِّهَا وقنطَتْ لِسُوءِ حَالتِهَا جذبَهَا الرَّجاءُ للسَّلامةِ مِنْ هَذِهِ البَوائِقِ[(١)].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[(٣)]: **إِذَا ظَهَرَ الحَقُّ عَلَىٰ السَّرَائِرِ لَا يَبْقَىٰ فِيهَا فَضْلَةٌ لِرَجَاءٍ وَلَا لِخَوْفٍ.**

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا فِيهِ إِشْكَالٌ، وَمَعْنَاهُ: إِذَا اِصْطَلَمَتْ[(٤)] شَوَاهِدُ الحَقِّ الأَسْرَارَ مَلَكَتْهَا، فَلَا يَبْقَىٰ فِيهَا مَسَاغٌ لِذِكْرِ حَدَثَانٍ، وَالخَوْفُ وَالرَّجَاءُ مِنْ آثَارِ بَقَاءِ الإِحْسَاسِ بِأَحْكَامِ البَشَرِيَّةِ».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ذكرَهُ الإمامُ منَ الاصطلامِ لمَا يبدُو منَ الحقِّ لأحكامِ البشريَّةِ والإحساسِ بهَا معناهُ: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يطلعُ العبدَ من [١/٢٢٢أ] جلالِهِ وعظمتِهِ وكمالِ سلطانِهِ فيمَا[(٥)] يظهرُهُ لعبدِهِ حتَّىٰ يستغرقَ قلبهُ فيهِ، ولا يبقَىٰ في قلبِهِ شعورٌ بنفسِهِ؛ فضلًا عنْ غيرِهِ منَ المخلوقاتِ، فالخوفُ والرَّجاءُ فيهِ استشعارٌ للنَّفسِ لمَا ينفعُهَا ويضرُّهَا، وإذا وصلَ العبدُ إلىٰ أنْ يغفلَ عن نفسِهِ شُغلًا بمَا يظهرُهُ الحقُّ لهُ ويعرِّفُهُ إيَّاهُ مِن جَمَالِهِ وجلالِهِ حتَّىٰ يشغلَهُ ذلكَ عن تحسُّسِهِ لنفسِهِ، فلا يبقَىٰ معَهُ ذِكْرٌ لخوفٍ ولا لرجاءٍ.

وقولُ الإمامِ: «**فيهِ إشكالٌ**» معناهُ علىٰ مَنْ لمْ يعرفِ اصطلاحَ القومِ، فإذا بُسطَ بيَّنَ[(٦)] المراد بهِ، ولا سيَّمَا وقد تقدَّمَ مِن كَلامِهِ وكلامِ غيرِهِ أنَّهُ ما فارقَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٤٠. والبوائق: الدواهي والنوازل والشرور.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٥٥.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٥، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٨٤.

(٤) أي: استأصلت.

(٥) في (ب): مما.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

الخوفُ قلبًا إلَّا خرِبَ، وأنَّ الكمالَ اعتدالُهُ معَ الرَّجاءِ[١]، وهذا كلُّهُ كلامٌ معَ القصدِ والاختيارِ، ومَا أشارَ إليهِ منَ الاصطلامِ من بابِ الكرهِ والاضطِّرارِ[٢]، فافترقَ الأمرانِ وزالَ الإشكالُ عنِ الأقوالِ، واللهُ المستعانُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ الحُسَيْنُ: مَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، أَوْ رَجَا سِوَاهُ أَغْلَقَ عَلَيْهِ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ المَخَافَةَ، وَحَجَبَ قَلْبَهُ[٤] بِسَبْعِينَ حِجَابًا، أَيْسَرُهَا الشَّكُّ.

وإِنَّ مِمَّا أَوْجَبَ شِدَّةَ خَوْفِهِمْ: فِكْرَتَهُمْ فِي العَوَاقِبِ، وَخَشْيَةَ تَغَيُّرِ أَحْوَالِهِم، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، وَقَالَ ـ سبحانه ـ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

فَكَمْ مِنْ مَغْبُوطٍ فِي أَحْوَالِهِ انْقَلَبَتْ[٥] عَلَيْهِ الحَالُ[٦]، وَمُنِيَ بِمُقَارَفَةِ[٧] قَبِيحِ الأَعْمَالِ، فَبُدِّلَ بِالأُنْسِ وَحْشَةً، وَبِالحُضُورِ غَيْبَةً!

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللهُ يُنْشِدُ كَثِيرًا[٨]:

---

(١) أي: فالخوف والرجاء مطلوبان، فكيف يثني بفقدهما؟!.

(٢) فمع اضطرار العبد لا يُطلب منه الخوف والرجاء، إذ لا اختيار له حينئذ في فقدهما.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٤) أي: عن شهود المؤثر الفاعل.

(٥) في (ب، ف): انعكست.

(٦) التي هو فيها.

(٧) أي: مخالطة، وفي (ف): «بمفارقة».

(٨) من البسيط، للشافعي في ديوانه ص٥٧، والانتقاء لابن عبد البر ص١٠١، ولسعيد بن حميد في الزهرة ٢/٨٠٦، ولسعيد بن وهب في محاضرات الأدباء ٢/٣٩٩، ووردا بلا نسبة في: الأوراق للصولي ٢/٨٢، والزهد الكبير ص ٢٥٥، وربيع الأبرار ١/٤٥٧، والمستطرف ٢/٦٠٠،=

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ❁ وَلَمْ تَخَفْ سُوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ؟!
وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ❁ وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الكَدَرُ!».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**مَنْ خافَ غيرَ اللهِ، أو رجا سِواهُ أغلقَ عليهِ أبوابَ كلِّ شيءٍ**» إلى آخرِ كلامِهِ صحيحٌ، فإنَّ أبوابَ كلِّ شيءٍ إنَّمَا هيَ معرفةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وانفرادُهُ بالأفعالِ، وأنَّهُ لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ ولا تَسْكُنُ إلَّا بإذْنِهِ، ولو سلَّطَ على العبدِ أضعفَ خلْقِهِ لكانَ أضرَّ عليهِ من أقوَاهُمْ، فإذا نظرَ العبدُ إلى غيرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في الاقتدارِ، وخافَ أو رجَا مَنْ لا يقدرُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ تحصيلَ(١) نفعٍ ولا [٢٢٢/١ب] دفعَ ضرٍّ في الآخرةِ ولا في هذِهِ الدَّارِ؛ أَغْلَقَ عليهِ أبوابَ الخيراتِ، وخوَّفَهُ اللهُ مِن كلِّ شيءٍ لكونِهِ تركَ الخوفَ ممَّنْ يخافُ منهُ، وربَّمَا سلَّطَ اللهُ عليهِ مَنْ حَذِرَهُ عقوبةً؛ لكونِهِ أهملَ حقَّ اللهِ وراعَىٰ بعضَ عبيدِهِ، فهذَا طرفٌ منَ الخَوفِ المَذْمُومِ.

وأمَّا قولُهُ: «**وحُجِبَ قلبُهُ بسبعينَ حجابًا أيسرُّهَا الشَّكُّ**».

قُلْنَا: وذلكَ أنَّ الحجبَ عنِ اللهِ إنَّمَا هوَ الالتفاتُ إلى مَخْلُوقاتِهِ، والمخوِّفاتُ غيرُ اللهِ لا تنحصرُ فِي السَّبعينَ؛ لكثرتِهَا مِنْ أصنافِ الحيواناتِ في الجنِّ والإنسِ وغيرِهِمْ، وإنَّمَا ذكرَ ذلكَ في المبالغةِ لا للحَصْرِ.

وقولُهُ: «**أَيْسَرُهَا الشَّكُّ**»، وذلكَ لعدمَ معرفتِهِ بأنَّ الخلقَ بجملتِهِمْ مُسَخَّرُونَ مَجبورُونَ لما يحدثُهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مقارنًا لِقدرتِهم الحادثة، فإذا نظر في الأسباب وغفلَ عن المُسَبِّب ودلَّهُ إيمَانهُ الصَّحيحُ على انفراد ربّه بالأفعال فحصل في قلبه تردّد اعتيادي عبّر عنه بالشَّكِّ، وإلا لو شكّ تحقيقًا في أن الله هو الفاعل أو غيره

= والدر الفريد وبيت القصيد ٢/١٩٢.

(١) في (ب): ولا بغيره على تحصيل.

لكان كافرًا.

وقولُهُ: «**وإنَّ ممَّا أوجبَ شدَّةَ خوفِهم: نظرَهُمْ إلى العواقِبِ وانطوائهَا عنهُمْ**»، وهذَا صحيحٌ، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ قدْ فرغَ ممَّا هوَ كائنٌ، وأهلُ الجنَّةِ الَّذينَ هُمْ أهلُهَا المخلَّدُونَ فيهَا معلومُونَ(١) للهِ ـ سبحانه ـ، وكذلِكَ أهلُ النَّارِ، ففِي الخبرِ الصَّحيحِ(٢): «فرغَ ربُّكَ ممَّا هوَ كائنٌ»، ومعناهُ: أنَّهُ لا يقعُ إلَّا ما سبقَ في إرادةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعِلْمِهِ، والعبدُ لا يدرِي مِن أيِّ الأقسامِ هوَ، ولكنَّهُ إذا رأىٰ نفسَهُ مستقيمًا علىٰ الصِّراطِ القويمِ قائمًا بمَا أُمِرَ بهِ ومنتهِيًا عمَّا نُهِيَ عنهُ غلَبَ علىٰ ظنِّهِ نجاتُهُ، ورَجَىٰ أنْ يميتَهُ اللهُ علىٰ الخيرِ، وإذا رأىٰ نفسَهُ بعكسِ ذلكَ خافَ علىٰ نفسِهِ لوجودِ أماراتِ الهَلاكِ مُتواليةً عليهِ، ولا ييأسُ مِن كَرَمِهِ ولُطْفِهِ، فالعبدُ وإنْ كمُلَتْ طاعاتُهُ(٣) يخافُ التَّغييرَ والتَّبديلَ؛ لأنَّهُ ـ سبحانه ـ لهُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وما ذكرَهُ منَ الآياتِ الدَّالَّةِ علىٰ أنَّ العبدَ ينبغِي أنْ يخافَ منَ السَّوابقِ في قولِهِ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿ٱلَّذِينَ(٤) ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وكذلِكَ الشِّعرُ(٥) دليلٌ علىٰ أنَّ الشَّخصَ لا يغترُّ بحالتِهِ الَّتِي هوَ فيهَا، وإنْ(٦) حمدَهُ النَّاسُ وأثنَوا عليهِ وسكنَتْ نفسُهُ [١/٢٢٣أ] لمَا هوَ عليهِ، فإنَّهُ لا يأمَنُ سَوابقَ

(١) في (ب): معلمون، والصواب المثبت.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢١٧ ـ حديث رقم (٢٨٩١).

(٣) في (ب): طاعته.

(٤) في (أ): أولئك الذين، والصواب المثبت.

(٥) أي: في البيتين السابقين.

(٦) في (ب): فإن.

الأقدارِ كمَا قالَ:

أَحْسَـنْتَ ظَنَّـكَ بِالأَيَّـامِ إِذْ حَسُـنَتْ ❊ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ؟!

وَسَـالَمَتْكَ اللَّيَـالِي فَـاغْتَرَرْتَ بِهَـا ❊ وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَـالِي يَحْدُثُ الكَدَرُ!

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ خَلَفٍ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ: كَانَ رَجُلَانِ اصْطَحَبَا فِي الإِرَادَةِ[2] بُرْهَةً[3] مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ إِنَّ أَحَدَهُمَا سَافَرَ وَفَارَقَ صَاحِبَهُ، وَأَتَى عَلَيْهِ مُدَّةٌ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ خَبَرًا، فَبَيْنَا هَذَا الآخَرُ كَانَ فِي غَزَاةٍ يُقَاتِلُ عَسْكَرَ الرُّومِ؛ إِذْ خَرَجَ عَلَى المُسْلِمِينَ رَجُلٌ مُتَقَنِّعٌ[4] فِي السِّلَاحِ يَطْلُبُ المُبَارَزَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ أَبْطَالِ المُسْلِمِينَ وَاحِدٌ، فَقَتَلَهُ الرُّومِيُّ، ثُمَّ خَرَجَ آخَرُ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ ثَالِثٌ فَقَتَلَهُ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ هَذَا الصُّوفِيُّ وَتَطَارَدَا وَتَضَارَبَا، فَحَسَرَ الرُّومِيُّ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا هُوَ صَاحِبُهُ الَّذِي صَحِبَهُ فِي الإِرَادَةِ وَالعِبَادَةِ سِنِينَ! فَقَالَ هَذَا لَهُ: أَيْشِ الخَبَرُ؟! فَقَالَ: إِنَّهُ ارْتَدَّ، وَخَالَطَ القَوْمَ، وَوُلِدَ لَهُ أَوْلَادٌ، وَاجْتَمَعَ لَهُ مَالٌ، فَقَالَ لَهُ: وَكُنْتَ تَقْرَأُ القُرْآنَ بِقِرَاءَاتٍ كَثِيرَةٍ!!، فَقَالَ: لَا أَذْكُرُ مِنْهُ حَرْفًا!، فَقَالَ لَهُ هَذَا الصُّوفِيُّ: لَا تَفْعَلْ وَارْجِعْ، فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ، فَلِي فِيهِمْ جَاهٌ وَمَالٌ، [فقال:][5] فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَإِلَّا لَأَفْعَلَنَّ بِكَ مَا فَعَلْتُ بِأُولَئِكَ.

فَقَالَ لَهُ هَذَا الصُّوفِيُّ: أَعْلَمُ أَنَّكَ قَتَلْتَ ثَلَاثَةً مِنَ المُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنَفَةٌ فِي الانصِرَافِ، فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَأَنَا أُمْهِلُكَ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ مُوَلِّيًا، فَتَبِعَهُ هَذَا الصُّوفِيُّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٦ ـ ٢٥٨.

(٢) أي: المشيئة.

(٣) أي: مدة طويلة من الزمان.

(٤) في (ب): مقنع.

(٥) زيادة من (ف).

وَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ(١).

فَبَعْدَ تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتِ، وَمُقَاسَاتِ تِلْكَ الرِّيَاضَاتِ مَاتَ عَلَىٰ النَّصْرَانِيَّةِ.

وَقِيلَ(٢): لَمَّا ظَهَرَ عَلَىٰ إِبْلِيسَ مَا ظَهَرَ، طَفِقَ(٣) جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَبْكِيَانِ زَمَانًا(٤) طَوِيلًا، فَأَوْحَىٰ اللهُ - سبحانه - إِلَيْهِمَا: مَا لَكُمَا تَبْكِيَانِ كُلَّ هَذَا الْبُكَاءِ؟ فَقَالَا: يَا رَبَّنَا، لَا نَأْمَنُ مَكْرَكَ، فَقَالَ اللهُ - تعالىٰ -: هَكَذَا كُونَا، لَا تَأْمَنَا مَكْرِي.

وَيُحْكَىٰ عَنِ السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ(٥): إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَىٰ أَنْفِي فِي الْيَوْمِ كَذَا مَرَّةٍ، مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْوَدَّ لِمَا أَخَافُهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ(٦): مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً اعْتِقَادِي فِي نَفْسِي أَنَّ اللهَ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظَرَ السَّخَطِ، وَأَعْمَالِي تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَقَالَ حَاتِمٌ الْأَصَمُّ(٧): لَا تَغْتَرَّ بِمَوْضِعٍ صَالِحٍ، فَلَا مَكَانَ أَصْلَحُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَقِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا مَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ بَعْدَ طُولِ تَعَبُّدِهِ لَقِيَ مَا [٢٢٣/١ب] لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ بِلْعَامَ(٨) كَانَ يُحْسِنُ اسْمَ اللهِ

---

(١) ليس هذا غدرًا من المسلم؛ لأنه أخبر أنه يمهله ولم يخبر أنه يتبعه، ولأنه محارب وليس مستأمنًا.

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة ٨١٤/٣، والغزالي في الإحياء ١٨١/٤، والذهبي في الكبائرص ٢٢٧.

(٣) أي: شرع.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥٢٣/١، وحلية الأولياء ١١٦/١٠، والزهد والرقائق للخطيب البغدادي ص٨٣، وصفة الصفوة ٣٧٦/٢، وتاريخ الإسلام ١٥١/٩.

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ١٨٥/٤، وصريح العبارة وباهر الإشارة ٥٣٢/١.

(٧) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ١٨٥/٤، والمختار من مناقب الأخيار ٣٨١/١، وإتحاف السادة المتقين ٤٩٥/١١.

(٨) أي: بلعام بن باعورا، من علماء بني إسرائيل.

الأَعْظَمَ، فَانْظُرْ مَاذَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِرُؤْيَةِ الصَّالِحِينَ، فَلَا شَخْص أَكْبَرُ[١] [قَدْرًا][٢] مِنَ المُصْطَفَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِلِقَائِهِ أَقَارِبُهُ وَأَعْدَاؤُهُ.

وَخَرَجَ ابْنُ المُبَارَكِ يَوْمًا عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فَقَالَ[٣]: إِنِّي قَدِ اجْتَرَأْتُ عَلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ سَأَلْتُهُ الجَنَّةَ!.

وَقِيلَ: خَرَجَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُ صَالِحٌ مِنْ صَالِحِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَبِعَهُمَا رَجُلٌ خَاطِئٌ مَشْهُورٌ بِالفِسْقِ فِيهِمْ، فَقَعَدَ مُنْتَبِذًا عَنْهُمَا مُنْكَسِرًا، فَدَعَا اللهَ ـ سبحانه ـ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَدَعَا هَذَا الصَّالِحُ وَقَالَ[٤]: اللَّهُمَّ لا تَجْمَعْ غَدًا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ العَاصِي، فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٥]: إِنِّي قَدِ اسْتَجَبْتُ دُعَاءَهُمَا جَمِيعًا، رَدَدْتُ ذَلِكَ الصَّالِحَ، وَغَفَرْتُ لِذَلِكَ المُجْرِمِ.

وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٦]: قُلْتُ لِغُلَيِّمٍ: لِمَ سُمِّيتَ مَجْنُونًا؟ قَالَ: لَمَّا طَالَ حَبْسِي عَنْهُ صِرْتُ مَجْنُونًا لِخَوْفِ فِرَاقِهِ.

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[٧]:

لَوْ أَنَّ مَا بِي عَلَىٰ صَخْرٍ لَأَنْحَلَهُ ❊ فَكَيْفَ يَحْمِلُهُ خَلْقٌ مِنَ الطِّينِ؟!

---

(١) في (ف): أكرم.

(٢) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٨٥.

(٤) سقط من (ب) قوله: «اللَّهُمَّ اغفر لي، ودعا هَذَا الصالح وَقَالَ».

(٥) ورد في: غيث المواهب العلية في: شرح الحكم العطائية ص١٣٢، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٢٦.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٦، وورد بلا نسبة في: المدهش ١/٥٠٠، والتبصرة لابن الجوزي ١/٤٩، والمدد الفائض للحموي ص١٥٠.

(٧) من البسيط، وورد بلا نسبة في: المستطرف ١/٧٧.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ(١): مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَعْظَمَ رَجاءً لِهَذِهِ الأُمَّةِ وَلَا أَشَدَّ خَوفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن ابْنِ سِيْرِينَ.

وَقِيلَ(٢): مَرِضَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، فَعُرِضَ دَلِيلُهُ عَلَى الطَّبِيبِ، فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ قَطَعَ الخَوْفُ كَبِدَهُ(٣)، ثُمَّ جَاءَ وَجَسَّ عِرْقَهُ(٤)، ثُمَّ قَالَ: مَا عَلِمْتُ أَنَّ فِي الحَنِيفِيَّةِ مِثْلَهُ.

وَسُئِلَ الشِّبْلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): لِمَ تَصْفَرُّ الشَّمْسُ عِنْدَ الْغُرُوبِ؟ فَقَالَ: لِأَنَّهَا عُزِلَتْ عَنْ مَكَانِ التَّمَامِ، فَاصْفَرَّتْ لِخَوْفِ المَقَامِ، وَكَذَا المُؤْمِنُ إِذَا قَارَبَ خُرُوجُهُ مِنَ الدُّنْيَا اِصْفَرَّ لَوْنُهُ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ المَقَامَ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ طَلَعَتْ مُضِيئَةً، كَذَا المُؤْمِنُ إِذَا بُعِثَ مِنْ قَبْرِهِ خَرَجَ وَوَجْهُهُ يُشْرِقُ.

وَيُحْكَىٰ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ(٦): سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيَّ بَابًا مِنَ الخَوْفِ، فَفَتَحَ، فَخِفْتُ عَلَىٰ عَقْلِي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ؛ أَعْطِنِي عَلَىٰ قَدْرِ مَا أُطِيقُ، فَسَكَنَ ذَلِكَ [عَنِّي](٧)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدِ اشتملَتْ هذِهِ الحكاياتُ جميعُهَا علىٰ الخوفِ،

---

(١) ورد قوله في: حسن الظن بالله ص١٠٠، وتهذيب الأسرار ص١٤٦.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٧/١٤، وإحياء علوم الدين ٤/١٨٦، ونشر المحاسن الغالية ص١٦٥.

(٣) في نتائج الأفكار ٢/٣١٩: «وقد ثبت عن الصديق الأكبر رضي الله عنه أنه كان يشم من فمه رائحة الكبد المشوي؛ وذلك لكثرة خوفه من الله تعالىٰ».

(٤) أي: نبضه.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٧، ومناقب الأبرار ٢/٦٤٦، ومسالك الأبصار ٨/١٥٠، ونُسب جزء لبعض الصوفية في: محاضرات الأدباء ٢/٧٠.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٤٩، وإحياء علوم الدين ٤/١٨٦، وإتحاف السادة المتقين ١١/٥٠١.

(٧) تتمة من الرسالة القشيرية. وفيه تنبيه علىٰ أن من أعظم أسباب الاستقامة استحباب الخوف من الله عز وجل.

وإنَّمَا اختلفَتْ باختلافِ المخوِّفِ ؛ فبعضُهُمْ خافَ السَّابقَةَ وهيَ الخاتمةُ ، وبعضُهُمْ خافَ الفراقَ فِي الدُّنيَا لمحبوبِهِ ، ولذلكَ لمَّا قيلَ لغُليمٍ[1] المجنونِ: «**لِمَ سُمِّيت مجنونًا ؟ فقالَ: لمَّا طالَ حبْسِي عنهُ صِرتُ مجنونًا لخوفِ فراقِهِ**» ، ومعنَاهُ [١/٢٢٤أ]: لمَّا حُبِسَ عن رؤيتِهِ في الدُّنيَا جُنَّ خوفًا مِن ألَّا يَرَاهُ في الآخرةِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ خوفًا منَ التَّغييرِ والتَّبديلِ في الدُّنيَا ، وإذا كانَ كذلِكَ تغيَّرَ حالُهُ الَّذِي هوَ عليهِ مِن دوامِ نظرِهِ إليهِ بقلبِهِ ، ومِن ذلِكَ تغيُّرُ أحدِ الصَّالِحَينِ اللَّذَيْنِ اصطحَبَا في الإرادةِ حتَّىٰ قُتِلَ أحدُهُمَا كافرًا والعياذُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وكذلِكَ خوفُ الملائكَةِ منَ التَّبديلِ والتَّغييرِ ، ونظرُ السّريِّ لأنفِهِ خوفًا منَ التَّغييرِ.

وأمَّا قولُ أبِي حفصٍ: «**اعتقادِي في نفسِي منذُ أربعينَ سنةً أنَّ اللهَ ينظرُ إليَّ نظرَ المَقْتِ وأعمالِي تدلُّ علىٰ ذلِكَ**» ، وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ أعمالَهُ في الدُّنيَا لا تليقُ بمَا عرَفَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ مِن جلالِهِ وعظمتِهِ ، فإنَّ مَنْ عرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وجلالَهُ وعظمَتَهُ كانَتْ أفعالُهُ في عباداتِهِ لا تجرِي علىٰ ما هوَ فيهِ منَ المعرفةِ ؛ إمَّا لكثرةِ غفلاتِهِ أو لسوادٍ بهِ في معاملاتِهِ ، فحقيقٌ لهُ أنْ يخافَ علىٰ نفسِهِ المقتَ لمَا يعرفُهُ مِن نفسِهِ وجَلالِ ربِّهِ وعَظَمَتِهِ.

وأمَّا قولُ حاتمٍ الأصَمِّ: «**لا تغترَّ بموضعٍ منَ المَواضعِ فَإنَّ أَشْرَفَ المَواضعِ الجنَّةُ**» إلَىٰ آخرِ كلامِهِ.. وهوَ تنبيهٌ علىٰ أنَّ خوفَ الإنسانِ هوَ الَّذِي يحجزُهُ عنِ الاغترارِ بأعمالِهِ ، أوْ بكونِهِ في مواضعَ شريفةٍ ، أو بكثرةِ علمِهِ ، أو بخلطةِ الصَّالحِينَ ، فإنَّ خوفَ الإنسانِ منَ التَّغيُّرِ هوَ الَّذِي يسلمُهُ من ذلكَ.

---

(١) في (ب): لعليم.

وأمَّا خوفُ ابنِ المباركِ وقولُهُ: «**إنِّي اجترأْتُ البَارِحَةَ علىٰ اللهِ وسَألتُهُ الجنَّةَ**»، فراجعٌ إلىٰ حقريتِهِ لنفسِهِ وعدمِ صلاحيَّةِ أحوالِهِ لأنْ يسألَ الجنَّةَ، بلْ كانَ حقُّهُ أنْ يستعيذَ منَ النَّارِ، وكذلِكَ ابنُ سِيرِينَ خوفُهُ علىٰ نفسِهِ يرجعُ إلىٰ ما ذكرْنَاهُ مِن نَظَرِهِ إلىٰ أعمالِهِ بعينِ النَّقصِ وحُسنِ ظنِّهِ بالمسلمِينَ، ورجاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُمْ في العَفْوِ عمَّا يكونُ منهُمْ.

وأمَّا قولُ الشِّبْلِيِّ فِي اصفرارِ الشَّمسِ عندَ الغروبِ: «**إنَّ ذلكَ لعزلِهَا عن مكانِ التَّمامِ**» اعتبرَهَا بالمؤمنِ إذَا خشِيَ تغيُّرَ الحالِ عن مقامِ التَّمامِ تغيَّرَ لونُهُ بالخوفِ وظهرَتْ آثارُهُ عليهِ.

وأمَّا كمالُ خَوْفِ سُفيانَ فظهرَ علىٰ سائِرِ جسدِهِ حتَّىٰ فيمَا عُرِضَ علىٰ الطَّبيبِ مِن حالِهِ وتحيَّرَ فيهِ لمَا رأىٰ مِن كمالِ تغيُّرِهِ فلمَّا عرفَهُ قالَ: «**ما ظننْتُ أنَّ أحداً يَصِلُ إلىٰ هذَا الحدِّ منَ الخَوفِ**».

فدلَّ جميعُ ذلكَ علىٰ أنَّ الخَوْفَ يَتنوَّعُ ويَخْتَلِفُ باختلافِ المُخوَّفِ منهُ [١/٢٢٤ب]، وأنَّ تَواليهِ علىٰ العبدِ يُرَقِّيهِ إلىٰ أعالِي الدَّرجات، ويحفظُ عليهِ ما يخافُ منهُ الفَوَات، ويكمِّلُ اجتهادَهُ في تحصيلِ الباقياتِ الصَّالحات(١)، واللهُ المُوفِّقُ للخيراتِ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٤٥.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الرَّجَاءِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبِيدٍ الصَّفَّارُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ الثَّقَفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثنا العَلاءُ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ فَرَأَيْتُ عِنْدَهُ شَهْرَ بْنَ حَوْشَبٍ، فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قُلْتُ لِشَهْرٍ: يَرْحَمُكَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ زَوِّدْنِي زَوَّدَكَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

فَقَالَ: نَعَمْ، حَدَّثَتْنِي عَمَّتِي أُمُّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ[٢]: (يا عَبْدِي؛ مَا عَبَدْتَنِي وَرَجَوْتَنِي وَلَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْكَ، وَلَوِ اسْتَقْبَلْتَنِي بِمِلْءِ الأَرْضِ خَطَايَا وَذُنُوبًا اسْتَقْبَلْتُكَ بِمِلْئِهَا مَغْفِرَةً، فَأَغْفِرُ لَكَ وَلا أُبَالِي).

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ؛ قَالَ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَىٰ؛ قَالَ حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ الوَلِيدِ؛ قَالَ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الفَزَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سُفْيَانَ طَرِيفٌ؛ عَنْ[٣] عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَارِثِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]: يَقُولُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٥٩/١.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٦/٢، وبنحو أحمد في مسنده ١٥٤/٥.

(٣) في (ب، ف): بن، والصواب المثبت.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٠٢/٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٤/٥١، وأصله عند البخاري في صحيحه ٢٧٢٧/٦ ـ حديث رقم (٧٠٧٢)، وعند مسلم في صحيحه ٩٣/١ ـ حديث رقم (٩١).

فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ شَعِيرٍ مِنْ إِيمَانٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، ثُمَّ يَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لَا أَجْعَلُ مَنْ آمَنَ بِي سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ كَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي[(١)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فالخبرُ الأوَّلُ يدلُّ على سعةِ رحمةِ اللهِ ـ تعالى ـ للتَّائبينَ إذا رجعُوا عمَّا كانُوا عليهِ وعبدُوا اللهَ ـ تعالى ـ فإنَّهُ يغفرُ لهُمْ جميعَ ما تقدَّمَ لهُمْ مِن ذنوبِهِمْ، ويعضِّدُ هذا الخبرَ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقولُهُ[(٢)]: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

والخبرُ الثَّاني يدلُّ على الغُفْرانِ بعدَ المُؤَاخَذَةِ ببعضِ الزَّلَلِ.

وقولُهُ: «أدنَى مِن شعرةٍ، أو حبَّةِ شعرٍ، أو حبَّةِ خَرْدَلٍ» الحديث، يدلُّ على أنَّهُ أرادَ الإيمانَ العمليَّ الَّذي يتأتَّى أنْ ينقسمَ إلى الكثرةِ [١/٢٢٥أ] والقلَّةِ.

ويحتملُ أنْ يريدَ الإيمانَ الَّذي هوَ التَّصديقُ باللهِ وبرسولِهِ، ويُرجعُ القلَّةَ والكثرةَ إلى تواليهِ على القلبِ وذكْرِهِ لهُ، أو الغفلةِ عنهُ، ويدلُّ عليهِ آخرُ الخبرِ: «**لَا أَجْعَلُ مَنْ آمَنَ بِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ أَوْ لَيْلٍ كَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي**»، فدلَّ ذلكَ على ذِكْرِهِ للإيمانِ وقيامِهِ بقلبِهِ ولوْ ساعةً، فتكونُ النَّجاةُ منَ النَّارِ منوطةً بحصولِ هذا الإيمانِ الَّذي هوَ عملُ القلبِ، ويكونُ التَّفاوتُ في الإقامةِ في النَّارِ على حسبِ الإخلالِ بالواجباتِ وارتكابِ المحرَّماتِ، وأمَّا مَنْ فاتَهُ ذلكَ فهوَ مِن أهلِ النَّارِ الَّذينَ هُمْ أهلُهَا، كمَا جاءَ في الخبرِ الصَّحيحِ[(٣)]، «أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذينَ هُمْ أهلُهَا فلا يموتُونَ

---

(١) لأن الإيمان يجُبُّ ما قبله.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/١٤١٩، والبيهقي في سننه الكبرى ١٠/١٥٤، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/١٥٠.

(٣) ففي صحيح مسلم ١/١٧٢ ـ حديث رقم (١٨٥): «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، أو قال بِخَطَايَاهُمْ=

فيهَا ولا يَحْيَوْنَ[١]، ولكنْ ناسٌ أصابَتْهُمُ النَّارُ بذنوبِهِمْ فأماتَهُمُ اللهُ إماتةً، فإذَا صارُوا فحمًا أُذِنَ بالشَّفاعةِ فجِيءَ بهِمْ ضبائرَ ضبائرَ[٢]، وبثُّوا[٣] علىٰ أنهارِ الجنَّةِ، وقيلَ: يا أهلَ الجنَّةِ، أفيضُوا عليهِمْ منَ الماءِ، فينبتُونَ كمَا تنبتُ الحبَّةُ في حَمِيلِ السَّيلِ[٤]، ألَا ترونَهَا كيفَ تخرجُ صفراءَ ملتويةً[٥]!».

ونحنُ بعونِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ نتكلَّمُ علىٰ (الرَّجاءِ) بمَا تكلَّمْنَا بهِ علىٰ (الخوفِ)، **ونذكرُ حقيقتَهُ، وأسبابَ حصولِهِ، والأدلَّةَ عليهِ، وثمراتِهِ**، ونُجرِي علىٰ ذلِكَ ما يأتِي في البابِ منْ أقوالِ المشايخِ إنْ شاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

فأمَّا حقيقةُ الرَّجاءِ؛ فقدْ قالَ بعضُهُمْ[٦]: هوَ سُرُورُ الفؤادِ بحُسْنِ الميعادِ.

وهذَا لا يبيِّنُ حقيقةَ الرَّجاءِ ويدخلُ عليهِ التَّمنِّي، فإنَّ التَّمنِّي سُرُورُ الفؤادِ بحسنِ الميعادِ، ولكنْ بغيرِ عملٍ ولا توبةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ[٧]: هوَ النَّظرُ إلىٰ سعَةِ رحمةِ اللهِ.

وهذَا أيضًا يبيِّنُ الرَّجاءَ، وإنَّمَا ذكرَ بعضَ أسبابِهِ، ولمْ يخلصْ قولُهُ منَ الغُرُورِ والتَّمنِّي كمَا ذكرْنَاهُ.

= فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حتىٰ إذا كَانُوا فَحمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا علىٰ أَنْهَارِ الجَنَّةِ...».

(١) أي: موتا يريحهم ولا حياة تريحهم.

(٢) أي: يحملون كالأمتعة جماعات جماعات منفردين.

(٣) أي: فرقوا.

(٤) وهو ما جاء به السيل من طين أو غثاء، ومعناه: محمول السيل.

(٥) أي: ملفوفة، والقصد: فتخرج لضعفها صفراء متلونة، وذا كناية عن سرعة نباتهم وضعف حالهم.

(٦) ورد في: الإبانة لابن فورك ص٢٢٤، وحدائق الحقائق ص٤٣، ونشر المحاسن الغالية ص١٦٧، وسبل الهدىٰ والرشاد ٤٦٢/١.

(٧) ورد في: الإبانة لابن فورك ص٢٢٤، ومدارج السالكين ٣٦/٢.

وقالَ بعضُهُمْ[١]: الرَّجاءُ استبشارٌ بوجودِ فضْلِهِ.

وهذَا خارجٌ عنِ الرَّجاءِ بالكلِّيَّةِ، فإنَّ الرَّجاءَ تعلُّقُ القلبِ بمحبوبٍ[٢] قدْ يحصلُ في الاستقبالِ، والاستبشارُ بالوجودِ يدلُّ علىٰ حصولِ المستبشَرِ بهِ، وهذا إلىٰ الفرحِ بالنِّعمِ أقربُ منهُ إلىٰ الرَّجاءِ، فإنَّ حقيقةَ الرَّجاءِ: غلبةُ ظنٍّ بحصولِ مؤمَّلٍ سببُهُ صحَّةُ عملٍ.

فقولُنَا: «**غلبةُ ظنٍّ**» إشارةٌ إلىٰ نفسِ الرَّجاءِ، و«**بحصولِ مؤمَّلٍ**» يعني المرجُوَّ، «**سببُهُ صحَّةُ عملٍ**» إشارةٌ إلىٰ التَّوبةِ الَّتي هيَ سببُ غفرانِ الذُّنوبِ وإلىٰ الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي وعدَ الحقُّ عليهَا الثَّوابَ، **فهذَا الكلامُ في حقيقتِهِ.**

وأمَّا أسبابُهُ المحصِّلَةُ [١/٢٢٥ب] **لهُ:** فالدَّوامُ علىٰ الخيراتِ والأعمالِ الصَّالحاتِ، والبُعْدِ منَ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وهذَا المعهودُ الجارِي فِي أعمالِ الدُّنيَا أنَّ مَنْ وضعَ حبَّةً فِي أرضٍ طيِّبةٍ قدْ أخذَتْ ريَّهَا منَ الماءِ غلبَ علىٰ ظنِّهِ وقوِيَ رجاؤُهُ بحصولِ مطلوبِهِ، وبالعكسِ مِنْ ذلِكَ أنْ يضعَ حبَّةً في أرضٍ سبخةٍ قدْ غلبَ عليهَا الملحُ في زمانِ الصَّيفِ، ويقولُ: اللهُ ـ تعالىٰ ـ قادرٌ علىٰ أنْ ينبتَهُ هاهُنَا، وقولُهُ صحيحٌ، ولكنَّ المتَّبَعَ ما أجرَاهُ مِن مشيئتِهِ في بريَّتِهِ.

وممَّا يقوِّي الرَّجاءَ النَّظرُ في المرجوَّاتِ؛ وهوَ مَا وعدَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ الصَّالحِينَ فِي الدُّنيَا مِنَ الكراماتِ، وأجرَاهُ عليهِم من خوارِقِ العاداتِ، ومَا وعدَهُمْ بهِ عندَ انفصالِهِم منَ الدُّنيَا وفي القبرِ والحشرِ والميزانِ والصِّراطِ، وتفصيلُ

---

(١) هو قول أبي عبد الله بن خفيف، كما سيأتي.

(٢) من جلب نفع أو دفع ضرّ.

ما أعدَّهُ لهُمْ فِي الجنَّاتِ، وأكملُ ذلِكَ وأشرفُهُ تنعُّمُهُمْ برؤيةِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ.

وأمَّا أدلَّةُ الرَّجاءِ: آيةً، وخبرًا، وأثرًا:

أمَّا الآياتُ: قالَ اللهُ - تعالى -: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقالَ - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقالَ - تعالى -: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقالَ - تعالى -: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقالَ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧].. الآية.

وأمَّا الأخبارُ: فقدْ روى (البخاريُّ)[١] و(مسلمٌ)[٢] يرفعانِهِ إلى أبي هريرةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ[٣] رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».

وفِي بعضِ الطُّرقِ[٤] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «قَالَ اللهُ: سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي».

وروى (مسلمٌ)[٥] و(البخاريُّ)[٦] أيضًا يرفعانِهِ إلى أبي هريرةَ قالَ: سمِعْتُ

---

(١) صحيح البخاري ٦/٢٦٩٤ ـ حديث رقم (٦٩٦٩).

(٢) صحيح مسلم ٤/٢١٠٧ ـ حديث رقم (٢٧٥١).

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) كما في صحيح البخاري ٦/٢٧٤٥ ـ حديث رقم (٧١١٤).

(٥) صحيحه ٤/٢١٠٨ ـ حديث رقم (٢٧٥٢).

(٦) صحيحه ٥/٢٢٣٦ ـ حديث رقم (٥٦٥٤).

رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

(مسلمٌ)(١) و(البخاريُّ)(٢) يرفعانِهِ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه قالَ: «أُتِيَ علىٰ رسولِ اللهِ [١/٢٢٦أ] ﷺ بسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ من السَّبْيِ تبتغِي إذْ وجدَتْ صبيًّا في السَّبيِ أخذَتْهُ، فألصقتْهُ ببطنِهَا وأرضعَتْهُ، فقالَ لنَا رسولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَاللهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَىٰ أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ(٣) بِوَلَدِهَا».

(مسلمٌ)(٤) و(البخاريُّ)(٥) يرفعانِهِ إلىٰ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لِأَهْلِهِ، إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا(٦) نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي البَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُ بِهِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ البَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ البَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ».

وفي لفظٍ آخرَ(٧): «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ أَوْصَىٰ..».

(١) صحيحه ٤/٢١٠٩ ـ حديث رقم (٢٧٥٤).

(٢) صحيحه ٥/٢٢٣٥ ـ حديث رقم (٥٦٥٣).

(٣) في (ب): هذه المرأة، والمثبت موافق للفظ الحديث.

(٤) صحيحه ٤/٢١٠٩ ـ حديث رقم (٢٧٥٦).

(٥) صحيحه ٦/٢٧٢٥ ـ حديث رقم (٧٠٦٧).

(٦) في (ب): ذروا.

(٧) في صحيح مسلم ٤/٢١١٠ ـ حديث رقم (٢٧٥٦)، وتمامه فيه: «... فلما حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَىٰ بَنِيهِ فقال: إذا أنا مُتُّ فاحرقوني، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ أذروني في الرِّيحِ في البَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ=

وقولُهُ: «لَئِنْ قَدرَ اللهُ عَلَيَّ» فِي هذا الحديثِ تأويلاتٌ[١]؛ أحسنُهَا: لَئِنْ ضيَّقَ عليَّ في المؤاخذةِ والمحاسبةِ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧]، أيْ: ضُيِّقَ، وأمْرُهُ أهلَهُ بأنْ يحرِّقُوهُ ويذْرُوا نصفَهُ في البرِّ ونصفَهُ في البحرِ، ليسَ شكًّا في أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يُعيدُهُ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ علىٰ الكفرِ، وقدْ أجابَ لمَّا سُئِلَ: «لِمَ فعلَت ذلكَ؟ فقالَ: لمخافتِكَ يا ربِّ»، وخوفُهُ من إعادتِهِ يومَ القيامةِ وعذابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ علىٰ جُرْمِهِ المتقدِّمِ[٢].

وقولُ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فَغفَرَ اللهُ لَهُ» يدلُّ علىٰ صحَّةِ إيمانِهِ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قالَ في كتابِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، إنَّمَا غلبَ علىٰ قلبِهِ حالُ الخوفِ منَ الحضورِ بينَ يدَي اللهِ ـ تعالىٰ ـ، حتَّىٰ قالَ ما قالَ، كمَا تمنَّىٰ عمرُ بنُ الخطَّابِ أنْ يصيرَ تبنةً[٣]، وغيرُهُ قُمْرِيًّا[٤] وكبشًا[٥] يُذبحُ ويؤكَلُ ويُخرَجُ

= عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا ما عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قال: فَفَعَلُوا ذلك بِهِ، فقال لِلْأَرْضِ أَدِّي ما أَخَذْتِ، فإذا هو قَائِمٌ، فقال له: ما حَمَلَكَ علىٰ ما صَنَعْتَ، فقال: خَشْيَتُكَ يا رَبِّ، أو قال: مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ له بِذَلِكَ».

(١) في (أ): فيه تأويلات والصواب المثبت، وتأمل هذه التأويلات في: التمهيد لابن عبد البر ١٨/٤٢، وطرح التثريب ٣/٢٤٦، وشرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح المسمىٰ بـ(الكاشف عن حقائق السنن) ٦/١٨٦٢، والميسر في شرح مصابيح السنة ٢/٥٤٩.

(٢) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم ٨/٢٥٤، وتحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٢/٨١، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح ٢٩/٥١٥.

(٣) روي عنه في مصنف ابن أبي شيبة ٧/٩٨، ولفظه: «عن عبد الله بن عامر قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال: ليتني هذه التبنة، ليتني لم أك شيئا، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت نسيًا منسيًّا»، وكذا في: الطبقات الكبرىٰ ٣/٣٦٠، وشعب الإيمان ١/٤٨٦.

(٤) أي: وتمنىٰ غيرُه أن يكون قمريًّا، والقُمْرِيُّ: طائرٌ يشبه الحمامَ القمرَ البيضَ. انظر: اللسان: «ق م ر».

(٥) روي ذلك عن أبي عبيدة بن الجراح في شعب الإيمان ١/٤٨٦، ولفظه: «قال أبو عبيدة بن الجراح: لوددت أني كنت كبشا، فيذبحني أهلي، فيأكلون لحمي، ويشربون مرقي». وكذا في: مصنف عبد الرزاق ١١/٣٠٧، وتاريخ دمشق ٢٥/٤٨٢.

عَذِرةً ولَا يواجهُ الحسابَ، وهُمْ يعلمُونَ أنَّهُمْ مؤمنُونَ مِن أهلِ الجنَّةِ، ولكنْ أعظمُوا القيامَ بينَ يدَيِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والسُّؤالَ.

(مسلمٌ)(١) و(الموطَّأُ)(٢) يرفعانِهِ إلىٰ أبي موسَىٰ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»، يعنِي: يدَ فضْلِهِ ورحمتِهِ؛ لتنزُّهِهِ عنْ يدِ الجارحةِ(٣)، ويدلُّ ذلكَ علىٰ بسْطِ رحمتِهِ اللَّيلَ والنَّهارَ لكلِّ مُذْنِبٍ، ويعضِّدُهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].. الآية [١/٢٢٦ب].

وأمَّا ثمرةُ الرَّجاءِ لمَنْ دامَ علىٰ الأعمالِ الصَّالحاتِ بعدَ بُعْدِهِ عنِ المحرَّماتِ، فيكفِي في ذلِكَ الخبرُ الصَّحيحُ، وهوَ قولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ ربِّهِ(٤): «مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا، فَلَئِنْ دَعَانِي لَأُجِيبَنَّهُ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ...» الحديث.

وهذا يدلُّ علىٰ حفظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ في سائرِ أعضائِهِ، فلا يتكلَّمُ ولا يسمعُ ولا يبصرُ، ولا يمدُّ يدَهُ ولَا رِجْلَهُ إلَّا محفوظًا عنِ الزَّلَلِ، جاريًا علىٰ أحسنِ العمَلِ، وأخبرَ أنَّ دعاءَهُ مستجابٌ، وهوَ محبوبٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ، وكفَىٰ بهذِهِ الثَّمراتِ في حقِّ مَنْ يرتِّبُ رجاءَهُ علىٰ الأعمالِ الصَّالحاتِ، ولمْ يكنْ منَ المتمنِّينَ المغرورِينَ

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١١٣ ـ حديث رقم (٢٧٥٩).

(٢) لم أقف عليه فيه برواياته المتعددة.

(٣) انظر: مشكل الحديث وبيانه ص٣٨١، ومشارق الأنوار ٢/٣٠٣.

(٤) سبق تخريجه.

يلابسُ الزَّلل، ويتمنَّى حصولَ الأَمَل.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «الرَّجَاءُ: تَعَلُّقُ القَلْبِ بِمَحْبُوبٍ سَيَحْصُلُ فِي المُسْتَقْبَلِ[(٢)].

وَكَمَا أَنَّ الخَوْفَ يَقَعُ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ، فَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ يَحْصُلُ لِمَا يُؤَمَّلُ فِي الاسْتِقْبَالِ، وَبِالرَّجَاءِ عَيْشُ القُلُوبِ وَاسْتِقْلالُهَا.

والفَرْقُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالتَّمَنِّي[(٣)]: أَنَّ التَّمَنِّي يُصَاحِبُهُ[(٤)] الكَسَلُ، وَلَا يَسْلُكُ[(٥)] طَرِيقَ الجُهْدِ وَالجِدِّ[(٦)]، وَبِعَكْسِهِ صَاحِبُ الرَّجَاءِ؛ فَالرَّجَاءُ مَحْمُودٌ، وَالتَّمَنِّي مَعْلُولٌ[(٧)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا الَّذِي ضبطْنَاهُ في الحدِّ الَّذِي اخترْنَاهُ[(٨)]، وهوَ قولُنَا: «غلبةُ ظنٍّ بحصولِ مُؤمَّلٍ سببُهُ صحَّةُ عملٍ»[(٩)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١٠)]: «وَتَكَلَّمُوا[(١١)] فِي الرَّجَاءِ؛ فَقَالَ شَاهُ الكِرْمَانِيُّ[(١٢)]:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) انظر: التعريفات ص٣٥٦، وتاج العروس «ر ج و».

(٣) أي: في اصطلاحهم. وفي اصطلاح غيرهم: أن الرجاء يكون في الممكن فقط، والتمني فيه وفي المستحيل أيضًا.

(٤) في (ف): «يورث بصاحبه».

(٥) أي: صاحبه.

(٦) أي: في الطاعات.

(٧) أي: مذموم.

(٨) في (ب): أخرناه، والصواب المثبت.

(٩) المارّ ص.

(١٠) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(١١) أي: الصوفية.

(١٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٣، ومدارج السالكين ٢/٣٦، والمبين المعين لفهم الأربعين=

عَلَامَةُ الرَّجَاءِ: حُسْنُ الطَّاعَةِ.

وَقَالَ ابْنُ خُبَيْقٍ(١): الرَّجَاءُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ عَمِلَ حَسَنَةً فَهُوَ يَرْجُو قُبُولَهَا، وَرَجُلٌ عَمِلَ سَيِّئَةً ثُمَّ تَابَ فَهُوَ يَرْجُو المَغْفِرَةَ، وَالثَّالِثُ: الرَّجُلُ الكَاذِبُ يَتَمَادَىٰ فِي الذُّنُوبِ وَيَقُولُ: أَرْجُو المَغْفِرَةَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا كلامٌ جيِّدٌ فرَّقَ فيهِ بينَ الرَّاجِينَ وبينَ المحلِّ الَّذِي يَحْسُنُ إيقاعُ الرَّجاءِ فيهِ، وذلكَ المطيعُ إذا عمِلَ الطَّاعةَ وأحسنَهَا للهِ حسُنَ منهُ الرَّجاءُ لثوابِ اللهِ، والعاصِي إذا تابَ من معصيتِهِ لربِّهِ وندمَ علىٰ ما سبَقَ مِن دينِهِ وعزَمَ علىٰ ألَّا يعودَ إلىٰ ما أقلَعَ عنهُ، فقدْ صحَّتْ توبتُهُ، فهوَ يرجُو المغفرةَ لمَا تقدَّمَ منْ تقصيرِهِ في حقِّ ربِّهِ، الثَّالثُ هوَ المغرورُ الَّذِي يتمنَّىٰ المغفرةَ [١/٢٢٧أ] معَ إقامتِهِ علىٰ الزَّللِ، ويتمنَّىٰ الثَّوابَ مِن غيرِ عَملٍ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالإِسَاءَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ غَالِبًا عَلَىٰ رَجَائِهِ(٣).**

وَقِيلَ(٤): الرَّجَاءُ: ثِقَةُ الجُودِ مِنَ الكَرِيمِ الوَدُودِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: **«مَنْ عرَفَ نفسَهُ بالإساءةِ فالأَوْلَىٰ بهِ الخوفُ منَ الرَّجاءِ»**، فهوَ صحيحٌ؛ فإنَّ الخوفَ يَقْلَعُ العبدُ بهِ منَ المخالفاتِ والزَّلَّاتِ، خَوْفًا منَ العُقُوبَاتِ، والرَّجاءُ طمعٌ في رفيعِ الدَّرجاتِ.

= ص٧٥١، ونشر المحاسن الغالية ص١٦٧.

(١) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥١، ومناقب الأبرار ١/٣٢٢، وهو قول المحاسبي في: آداب النفوس ص٦٨.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٣) تتمة لقول ابن خبيق.

(٤) ورد في: الإبانة لابن فورك ص٢٢٦.

ومَنْ قالَ: «**الرَّجاءُ الثِّقةُ بالجوُدِ**»، فإنَّما ذكرَ أسبابَ الرَّجاءِ؛ لأنَّ الثِّقةَ بالوعدِ عملُ العبدِ على الموعودِ عليهِ بالثَّوابِ، وعلى التَّوبةِ الموعودِ عليها بالغُفْرَانِ والصَّفحِ عنِ العَذابِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **الرَّجَاءُ: رُؤْيَةُ الجَلَالِ بِعَيْنِ الجَمَالِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا خارجٌ عنِ الرَّجاءِ بالكلِّيَّةِ، فإنَّهُ راجعٌ إلى المعرفةِ، ويحتملُ أنْ يريدَ صاحبُهُ المرجُوَّ ويقولَ: كمالُ الرَّجاءِ أنْ يتعلَّقَ برؤيةِ جمالِ اللهِ ـ تعالى ـ معَ إجلالِهِ وتعظيمِهِ وتنزيهِهِ، فيكونَ تكلَّمَ علَى المرجوِّ دونَ الرَّجاءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ**[(٤)]: **هُوَ قُرْبُ القَلْبِ مِنْ مُلَاطَفَةِ الرَّبِّ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ إشارةٌ إلى الحضورِ ودوامِ العملِ بتوالِي نِعَمِ اللهِ على العبدِ، وفي قولِهِ: «**قُرْبُ القلبِ مِن مُلاطفةِ الرَّبِّ**» إشارةٌ إلى رجاءِ المُلاطَفَةِ وأنَّهُ لَمْ يَنَلْهَا بَعْدُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَقِيلَ**[(٦)]: **سُرُورُ الفُؤَادِ بِحُسْنِ المِيعَادِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ زيادةٌ على الرَّجاءِ، فإنَّ الرَّجاءَ غلبةُ[(٧)] ظنٍّ بحصولِ الموعودِ، والسُّرورَ زيادةُ بسطٍ وفرَحٍ بفضلِ اللهِ، وهوَ إلى الفرحِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٢) ورد في: الإبانة لابن فورك ص٢٢٦، والمبين المعين لفهم الأربعين ص٧٥١، ونشر المحاسن الغالية ص١٦٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٤) ورد قوله في: الإبانة لابن فورك ص٢٢٦، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٧، وفيض القدير ٢/٧٠.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

بالنِّعَمِ أقربُ، إلَّا أنَّهُ تعلَّقَ بالرَّجَاءِ مِنْ حيثُ إنَّهُ موعودٌ بهِ غيرُ حاصلٍ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **هُوَ النَّظَرُ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وليسَ هذَا هوَ الرَّجاءُ، وإنَّما هوَ مِن أسبابِهِ، فإنَّ مَنْ نظرَ إلىٰ سعةِ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ تحرَّكَتْ نفسُهُ إلىٰ العملِ والتَّسبُّبِ لِحُصُولِهَا[(٣)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ**[(٥)]: **الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ، إِذَا اسْتَوَيَا اسْتَوَى الطَّيْرُ وَتَمَّ طَيَرَانُهُ، وَإِذَا نَقَصَ أَحَدُهُمَا وَقَعَ فِيهِ النَّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ المَوْتِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ [١/٢٢٧ب] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قالَ مادحًا لِمَنِ استقامَ علىٰ طاعتِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالرَّغَبُ مِنَ الرَّجاءِ، والرَّهَبُ منَ الخوفِ، فمتىٰ استقامَ العبدُ[(٦)] بالتَّوبةِ مِن إجرامِهِ، ومَنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ باستبدالِ أحوالِهِ؛ جَبْرًا لسالِفِ أيَّامِهِ، فاستقامتُهُ في سُلُوكِهِ في طاعاتِهِ باعتدالِ خوفِهِ ورجائِهِ، ولذلكَ شبَّهَهُ بالطَّيرِ في طيرانِهِ، فإنَّ هذا الجنسَ منَ العبيدِ هوَ الَّذي وصفَهُ الحقُّ بالمُسَارعَةِ إليهِ بحُسنِ التَّوفيقِ والتَّسديدِ[(٧)].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٤٩.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٥) ورد قوله في: وشعب الإيمان ٢/١٢، ومدارج السالكين ٢/٣٦، والمقاصد الحسنة ص٥٥٦، وكشف الخفاء ٢/٢١٦. وورد بعضه في: تهذيب الأسرار ص١٥٢.

(٦) في (ب): للعبد، والصواب المثبت.

(٧) في (ب): والتشديد، وهو تصحيف.

ومتىٰ قصَّرَ العبدُ عنِ الاجتهادِ في الأعمالِ، ضعُفَ رجاؤُهُ[١] ودنَا منهُ الاختلالُ، ومتَىٰ قصرَ خوفُهُ وقلَّ حذرُهُ من مفسداتِ الأعمالِ، تعرَّضَ للهلاكِ في الحالِ، ومتىٰ عدِمَ الخوفَ والرَّجاءَ بالكلِّيَّةِ تمكَّنَ منهُ عدوُّهُ وهوَاهُ، وبعُدَ عن حزبِ مَنْ حفظَهُ ربُّهُ وتولَّاهُ، ولذلكَ شبَّهَهُ بالطَّائرِ الذي قصفَ جناحَاهُ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِي يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ شَهْمَرْذَانَ يَقُولُ: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ الأَنْطَاكِيُّ وَسُئِلَ[٤]: مَا عَلَامَةُ الرَّجَاءِ فِي العَبْدِ؟ قَالَ: أَنْ يَكُونَ إِذَا أَحَاطَ بِهِ الإِحْسَانُ أُلْهِمَ الشُّكْرَ[٥]؛ رَاجِيًا لِتَمَامِ النِّعْمَةِ مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَتَمَامِ عَفْوِهِ فِي الآخِرَةِ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ مَنْ توالَتْ عليهِ النِّعَمُ مِن ربِّهِ، ورجَا دوامَهَا وتوالِي أمثالِهَا شكرَهَا، فإنَّ شُكْرَهُ عملٌ وُعِدَ عليهِ بالزِّيادةِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] قيلَ في التَّفسيرِ: مِنْ طاعتِي[٦]، وهذا أتمُّ، فإنَّهُمْ لوْ زيدُوا النِّعَمَ تضاعَفَ عليهِمُ القيامُ بالشُّكرِ، وإذا زيدُوا الطَّاعةَ وأُعينُوا عليهَا ترتَّبَ علىٰ ذلِكَ الثَّوابُ المتضاعفُ الَّذِي لا ينحصرُ؛ لقولِهِ تعالىٰ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومتَىٰ لمْ يوفَّقِ العبدُ لشكرِ ما هوَ فيهِ منَ النِّعمِ فاتَتْهُ هذهِ الخيراتُ، وربَّمَا

---

(١) لضعف شرطه؛ وهو العمل.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٠.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٤) ورد قوله في: بغية الطلب ٢/٨٥١، ومدارج السالكين ٢/٣٦.

(٥) وهو دوام عبادة المنعم علىٰ حسب الطاقة.

(٦) قول سفيان الثوري والحسن في: تفسير الطبري ١٣/١٨٦، والمحرر الوجيز ٣/٣٢٥، وتأمل بقية الأقوال في: زاد المسير ٤/٣٤٧.

زلَّتْ بهِ القَدَمُ؛ إمَّا لإضافةِ ما هوَ فيهِ إلىٰ كياسَتِهِ وحسنِ حالتِهِ فيقعُ في الإعجابِ الَّذِي هوَ مِن أسبابِ العِقَابِ معَ ما فاتَهُ منَ الثَّوابِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ[٢]: الرَّجَاءُ: اِسْتِبْشَارٌ بِوُجُودِ فَضْلِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ قدَّمْنَا أنَّ هذَا الحدَّ راجعٌ إلىٰ الفرحِ بالنِّعمِ؛ لأنَّهُ الاستبشارُ بحاصلٍ، والرَّجاءُ[٣] طمعٌ لمَا لمْ يَحصلْ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ[٥]: [هُوَ] اِرْتِيَاحُ الْقُلُوبِ لِرُؤْيَةِ كَرَمِ الْمَرْجُوِّ الْمَحْبُوبِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا راجعٌ إلىٰ المعرفةِ بكرَمِ اللهِ - تعالىٰ - وصفاتِهِ وارتياحِ القلوبِ بمَا حصلَ لهَا مِنْ هذِهِ المعرفةِ، وهوَ مِن أسبابِ المحبَّةِ، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يكونَ العبدُ ارتاحَ قلبُهُ بنيلِ بعضِ النِّعمِ، وكانَ ارتياحُهُ شكرًا عليهَا ورجاءُ الزِّيادةِ منهَا، فيلتحق [١/٢٢٨أ] بالرَّجاءِ مِن هذا الوَجْهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٧]: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ: مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الرَّجَاءِ تَعَطَّلَ[٨]،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٢) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٢٠٩، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٨١.

(٣) في (ب): في الرجاء، والأصح المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٦٠.

(٥) أي: ابن خفيف، وورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٦.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٦١.

(٧) طبقات الصوفية ص٣٦١، وورد أيضا في: شعب الإيمان ٢/٢٢.

(٨) أي: عن الطاعة؛ لأمنه من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وَمَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْخَوْفِ قَنِطَ، وَلَكِنْ مِنْ هَذِهِ[١] مَرَّةً، وَمِنْ هَذِهِ مَرَّةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وهوَ طريقٌ بالغٌ لمَنْ أرادَ أنْ يستوِيَ خوفُهُ ورجاؤُهُ، ويستقيمَ علىٰ سلوكِ الطَّريقِ، وذلِكَ أنَّهُ إذا تفكَّرَ لمَا ارتكبَهُ منَ الزَّلَّاتِ واقترفَهُ منَ الآفاتِ والمُخالَفاتِ ثارَ منهُ الخوفُ، وإذا نظرَ إلىٰ مَا مَنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ عليهِ مِنَ التَّوبةِ والاشتغالِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ ثارَ منهُ الرَّجاءُ، فيداوِي زيادةَ الخوفِ بالرَّجاءِ وزيادةَ الرَّجاءِ بالخوفِ، فإنَّ خوفَهُ متَىٰ قوِيَ خُشِيَ عليهِ القنوطُ واليأسُ، ومتَىٰ قوِيَ منهُ الرَّجاءُ خُشِيَ عليهِ الوقوعُ فِي الأمنِ مِنْ مكرِ اللهِ والإدلالِ علىٰ اللهِ، وإذا كانَ مِنْ هذِهِ ساعةٌ ومِنْ هذِهِ ساعةٌ استقامَ في حالِهِ، وصارَ ذلِكَ خُلُقًا لهُ وصارَ يستعملُهَا بالذِّكْرِ لهُمَا لَا بالاستجلابِ لهُمَا بالفكْرِ، ويصيرُ أيُّ عملٍ عملَهُ دخلَ فيهِ برجاءِ الكمالِ وخشيةِ النَّقصِ والزَّوالِ، وكذلِكَ إذا نظرَ إلىٰ صفاتِ ربِّهِ مِنْ سَعَةِ الرَّحمةِ والإفضالِ وشديدِ الأخْذِ والنَّكالِ اعتدلَ خوفُهُ منهُ ورجاؤُهُ لهُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ البَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ صَفْوَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا[٣]؛ قَالَ: حُدِّثْتُ عَنْ بَكْرِ بْنِ سَلِيمٍ الصَّوَّافِ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَىٰ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي العَشِيَّةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، فَقُلْنَا: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكُمْ!، غَيْرَ أَنَّكُمْ سَتُعَايِنُونَ مِنْ عَفْوِ اللهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي حِسَابٍ، ثُمَّ مَا بَرِحْنَا حَتَّىٰ أَغْمَضْنَاهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّ مالكَ بنَ أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ رأىٰ مِن إكرامِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ قبلَ خُرُوجِ روحِهِ وصُورِ الملائكةِ الَّذينَ

---

(١) أي: الجهة.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦١.

(٣) في حسن الظن بالله ص٩٦. وورد أيضا في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٣، والديباج المذهب ص٢٨.

يعالجُونَ روحَهُ وما يدركُهُ مِن ثوابِ اللهِ لهُ في حالِ غَشيتِهِ ما عجزَ عنْ أنْ يُعبِّرَ عنهُ بلسانِهِ، وقالَ: «**ما أدري ما أقولُ لكُمْ، ولكنَّكُمْ ستعاينُونَ مِنْ فضلِ اللهِ ما لَمْ يكنْ لكُمْ في حِسَابٍ**»، يدلُّ عليهِ ما أعدَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لأوليائِهِ في الجنَّةِ: مَا لَا عينٌ رأَتْ، ولا أذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطرَ علىٰ قلْبِ بشرٍ[(١)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ[(٣)]: يَكَادُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الذُّنُوبِ يَغْلِبُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الأَعْمَالِ؛ لِأَنِّي أَجِدُنِي [١/٢٢٨ب] أَعْتَمِدُ فِي الأَعْمَالِ عَلَى الإِخْلَاصِ، وَكَيْفَ أُحْرِزُهَا[(٤)] وَأَنَا بِالآفَةِ مَعْرُوفٌ؟! وَأَجِدُنِي فِي الذُّنُوبِ أَعْتَمِدُ عَلَىٰ عَفْوِكَ، وَكَيْفَ لَا تَغْفِرُهَا وَأَنْتَ بِالجُودِ مَوْصُوفٌ؟!**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ تفصيلٌ، وذلكَ أنَّ الرَّجاءَ مترتِّبٌ تارةً علىٰ الأعمالِ؛ وهوَ رجاءُ الثَّوابِ، وشرطُ الأعمالِ الإخلاصُ، ووقوعُهَا علىٰ حسبِ الطَّلبِ، وكيفَ تتخلَّصُ للعبدِ معَ كثرةِ الآفاتِ منَ الرِّياءِ والعُجْبِ والكِبْرِ والسُّكونِ إليهَا والغرَّةِ بهَا؟!.

وأمَّا الذُّنوبُ فشرطُ غُفْرانِهَا حُصُولُ التَّوبةِ الصَّادقةِ؛ وهوَ أنْ يُفَارِقَ العَبْدُ الذَّنبَ ويَنْدَمَ علَىٰ ما مضَىٰ منهُ، ويَعْزِمَ علىٰ ألَّا يعودَ إلىٰ مِثْلِهِ، فهذَا أمرٌ يلازمُهُ الخوفُ والحذرُ والإشفاقُ ممَّا تقدَّمَ مِن زللِهِ، فهوَ بعيدٌ منَ الآفاتِ ومغفرتُهُ وعدَ الحقُّ بهَا لمَنْ صحَّتْ توبتُهُ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فهوَ فِي الذُّنوبِ معَ التَّوبةِ يعتمدُ علىٰ العَفْوِ عنهَا علىٰ صفاتِ ربِّهِ وكَرَمِهِ، ويعتمدُ في الطَّاعاتِ علىٰ حُصُولِ شَرْطِهَا؛ وهوَ إخلاصُهُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦١.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٢، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٣، ومدارج السالكين ٢/٣٧.

(٤) أي: أحفظها من الآفة.

لهَا؛ مِن ريائِهِ وكِبْرِهِ وعُجْبِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَكَلَّمُوا ذَا النُّونِ المصْرِيَّ رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ فِي النَّزْعِ، فَقَالَ[(٢)]: لَا تَشْغَلُونِي[(٣)]؛ فَقَدْ تَعَجَّبْتُ مِنْ كَثْرَةِ لُطْفِ اللهِ - تعالىٰ - مَعِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا مِنْ نحوِ مَا أجرَاهُ اللهُ - تعالىٰ - علىٰ لسانِ مالكِ بنِ أنسٍ رَحِمَهُ اللهُ، فقولُهُ: «لا تشغلُونِي» يدلُّ علىٰ أنَّهُ في كمالِ شُغْلِهِ بربِّهِ ومناجاةٍ لهُ حتَّىٰ تعجَّبَ مِن كثرةِ صَنِيعِ[(٤)] اللهِ بهِ مِنَ الخَيْرِ والتَّقريبِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ رَحِمَهُ اللهُ[(٦)]: إِلَهِي أَحْلَىٰ العَطَايَا فِي قَلْبِي رَجَاؤُكَ، وَأَعْذَبُ الكَلَامِ عَلَىٰ لِسَانِي ثَنَاؤُكَ، وَأَحَبُّ السَّاعَاتِ إِلَيَّ سَاعَةٌ يَكُونُ فِيهَا لِقَاؤُكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأخبرَ أنَّ أحلَىٰ العطَايَا وأطيبَهَا وألذَّهَا لهُ خلقُ الرَّجاءِ في قلبِهِ لمَا تُجَدِّدُهُ عليهِ مِن فضْلِهِ، وذلِكَ أنَّ العطاءَ لا يخلُو؛ إمَّا أنْ يكونَ يترتَّبُ عليهِ شيءٌ أوْ لا يترتَّبُ، فإذَا لمْ يترتَّبْ عليهِ غيرُهُ اقتصرَ نفعُهُ عليهِ وإنْ كانَ نعمةً، وحتَّىٰ كانَتِ النِّعمةُ إذا مُنَّ علىٰ العبدِ بهَا حصلَ بسببِهَا خيرٌ آخرُ مترتِّبٌ عليهَا بالشُّكرِ، فإنَّ العبدَ إذا مُنَّ عليهِ بالشُّكرِ علىٰ النِّعمِ تزايدَ فضلُ اللهِ - تعالىٰ - عليهِ إذا شكرَ؛ لقولِ اللهِ - تعالىٰ -: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦١.

(٢) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٢١٠، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٨١.

(٣) أي: عن كمال شغلي بربي.

(٤) في (ب): صنع.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٦١.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥١، ومناقب الأبرار ١/٢٧٧، ومدارج السالكين ٢/٣٧، والكواكب الدرية ١/٧٢٧.

وكذلِكَ الرَّجاءُ الصَّحيحُ إنَّمَا يكونُ على الأعمالِ، فإذا مَنَّ اللهُ على العبدِ [١/٢٢٩أ] بالعملِ وخلقَ لهُ الرَّجاءَ الصَّحيحَ حصلَ لهُ المَرجُوُّ، فهذَا موضعُ الاستشهادِ في البابِ، وبقيَّةُ كلامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ على خيرٍ آخرَ: أنَّ أعذبَ الكلامِ على لسانِي الوقتُ الَّذي يكونُ كلامِي ثناءً عليكَ، هذَا يدلُّ على كمالِ محبَّتِهِ لمولَاهُ، وأنَّهُ يتنعَّمُ بذِكْرِ صفاتِهِ وجميلِ إحسانِهِ إذَا ذكرَ ذلِكَ أو تلَاهُ.

وكذلِكَ قولُهُ: «وأحبُّ السَّاعاتِ إلَيَّ ساعةٌ يكونُ فيهَا لقاؤُكَ» يحتملُ حُضُورُهُ في الدُّنيَا فإنَّهَا بالنِّسبةِ إلى أوقاتِ غفلتِهِ أوِ اشتغالِهِ بغيرِ مولَاهُ محبوبةٌ؛ لمَا فيهَا مِنَ الخيرِ ومراقبةِ اللهِ ـ سبحانه ـ واستشعارِ نظرِهِ إليهِ ودوامِ الأدَبِ في وقتِ استشعارِهِ لذلِكَ، فهذِهِ كلُّهَا صفاتٌ محمودةٌ ذكرَهَا لمولَاهُ، وعدَّدَ فَضْلَهُ عليهِ بقلبِهِ ولسَانِهِ ورجائِهِ ودُعَائِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ**(٢) **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **دَخَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، فَرَآهُمْ يَضْحَكُونَ، فَقَالَ**(٣): «**أَتَضْحَكُونَ؟! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيْلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»، **ثُمَّ مَرَّ، ثُمَّ رَجَعَ القَهْقَرَى وَقَالَ: نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ وَأَتَى بِقَوْلِهِ ـ تعالى ـ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾** [الحجر: ٤٩]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ أيضًا على سَعَةِ رحمةِ اللهِ ـ تعالى ـ، وهوَ دليلٌ أنَّ رجاءَ العفوِ عمَّا يكونُ الإنسانُ فيهِ منَ البسطِ والكلامِ، وتَقارِنُهُ الصَّغائرُ مِنْ غلطِ اللِّسانِ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا دخلَ على الصَّحابةِ فوجدَهُمْ يضحكُونَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠/٢٠٢.

(٣) سبق تخريجه.

وينبسطُونَ فذكَّرَهُمْ أمرَ الآخرةِ، وخوَّفَهُمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ بقولِهِ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ**»، فأرادَ الحقُّ ـ سبحانه ـ أنْ يعلمَهُ سعةَ رحمتِهِ وكمالَ تجاوزِهِ عن خَلْقِهِ، وأنَّهُ لا يكلِّفُهُمْ أنْ يكونُوا معَهُ في حالِ التَّعظيمِ والإجلالِ وذِكْرِ الثَّوابِ والعقابِ فِي سائرِ الأوقاتِ؛ لصعوبةِ ذلِكَ عليهِم ومشقَّتِهِ، وإذَا كانَ ـ تعالىٰ ـ يعفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ المُحرَّماتِ، فكيفَ بالغفلَاتِ والاشتغالِ بكثيرٍ مِنَ المُباحاتِ؟!.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1]: «**أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا عَبَّاسُ بْنُ تَمِيمٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَي بْنُ أَيُّوبَ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ سَالِمٍ، حَدَّثَنَا خَارِجَةُ بْنُ مُصْعَبٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا **قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يَقُولُ**[2] [١/٢٢٩ب]: «**إنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لَيَضْحَكُ مِنْ يَأْسِ العِبَادِ وَقُنُوطِهِمْ وَقُرْبِ الرَّحْمَةِ مِنْهُم، فَقُلْتُ: بِأَبِي أنتَ**[3] **وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنَا** عَزَّوَجَلَّ**؟ فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيَضْحَكُ، فَقَالَتْ: لا يَعْدِمُنَا خَيْرًا إِذَا ضَحِكَ**».

وَاعْلَمْ أَنَّ الضَّحِكَ فِي وَصْفِهِ ـ تعالىٰ ـ مِنْ صِفَاتِ فِعْلِهِ؛ وَهُوَ إِظْهَارُ فَضْلِهِ[4]**، كَمَا يُقَالُ: ضَحِكَتِ الأَرْضُ بِالنَّبَاتِ، وَضَحِكُهُ مِنْ قُنُوطِهِمْ: إِظْهَارُ تَحْقِيقِ فَضْلِهِ الَّذِي هُوَ ضِعْفُ انتِظَارِهِمْ لَهُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أصلُ هذا البابِ الَّذِي يُظْهِرُ معناهُ ويُبيِّنُهُ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لا يتضرَّرُ بمعاصِينَا، ولَا ينتفعُ بطاعتِنَا، فمَنْ أطاعَهُ فبركةُ الطَّاعةِ عائدةٌ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١٣٧/٥، والخطيب البغدادي في: تاريخ بغداد ١٣/٤٤.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) انظر: مشكل الحديث وبيانه ص١٣٨، ودفع شبه التشبيه بأكف التنزيه ص١٧٨.

عليهِ، ومَنْ عصَاهُ فَشُؤمُ معصيتِهِ راجعٌ عليهِ، فإذَا تحقَّقَ العبدُ ذلكَ عِلِمَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ إنَّمَا منعَهُ ممَّا يضرُّهُ في دنياهُ وآخرتِهِ، فإذَا زلَّ وندمَ علىٰ زلَّتِهِ فيأسُهُ مِن رحمتِهِ وقنوطُهُ مِن عفوِهِ ورحمتِهِ دليلٌ علىٰ جهْلِهِ وقلَّةِ معرفتِهِ، فبهذَا الاعتبارِ يضحكُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ممَّنْ ييأسُ أوْ يقنطُ؛ لأنَّهُ أتىٰ بشيءٍ عجيبٍ عندَ نفسِهِ، وذلكَ غفلتُهُ عن سعَةِ رحمتِهِ أو جهلِهِ، واعتقادُهُ أنَّ مخالفتَهُ لربِّهِ يرجعُ إليهِ تعالَىٰ منهَا شيءٌ، ـ تعالَىٰ وتقدَّسَ عنِ التَّضرُّرِ والانتفاعِ بشيءٍ مِن أفعالِ خليقتِهِ ـ، ويكونُ ضحكُهُ ـ تعالىٰ ـ مقابلةً لهذَا العبدِ بضدِّ حالتِهِ، فإنَّهُ إذَا أيسَ مِن رحمتِهِ أسبغَهَا عليهِ، ولا سيِّمَا إذا كانَ ذلكَ بعدَ توبتِهِ؛ لأنَّ الضَّحِكَ كمَا قرَّرَهُ مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ راجعٌ إلىٰ بسطِ رحمتِهِ وظهورِ فضْلِهِ ورحمتِهِ، كمَا يقالُ: ضحكَتِ الأرضُ؛ إذَا أخرجَتْ ما فيهَا مِنَ الخيرِ والنَّباتِ(١)، وضحكَتِ المرأةُ؛ إذَا حاضَتْ(٢)، والضَّحكُ ليسَ مخصوصًا بالضَّحكِ المعتادِ منَ العبادِ، بل لهُ معانٍ تُطْلَقُ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فيهَا ما يليقُ بجلالِهِ وكرمِهِ إذا أطلَقَ ذلكَ علىٰ نفسِهِ(٣).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**وَقِيلَ(٥): إِنَّ مَجُوسِيًّا اِسْتَضَافَ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلَ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ ـ فَقَالَ: إِنْ أَسْلَمْتَ أَضَفْتُكَ، [فَقَالَ المَجُوسِيُّ: إِذَا أسلمتُ فأيُّ مِنَّةٍ تكونُ لَك عَلَيَّ](٦)، فَمَرَّ المَجُوسِيُّ، فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إِلَىٰ إِبْرَاهِيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا إِبْرَاهِيمُ، لَمْ تُطْعِمْهُ إِلَّا بِتَغْيِيرِهِ دِينَهُ؟! نَحْنُ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً نُطْعِمُهُ**

---

(١) انظر: غريب الحديث للخطابي ١/٦٧١، والنهاية لابن الأثير ٣/٧٦، ونزهة الأعين النواظر ص٤٠٢.

(٢) انظر: الجمهرة ١/٢٨١، والهداية لمكي ٥/٣٤٣٢، والتفسير البسيط ١١/٤٧٥، والفائق ٤/١١، والقاموس ص١٢٢٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٣.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٦٢.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٧١.

(٦) تتمة من الرسالة القشيرية المطبوع.

عَلَىٰ كُفْرِهِ، فَلَوْ أَضَفْتَهُ لَيْلَةً مَاذا عَلَيْكَ[١]؟!

فَمَرَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلْفَ المَجُوسِيِّ وَأَضَافَهُ، فَقَالَ لَهُ المَجُوسِيُّ[٢]: أَيَّ شَيءٍ كَانَ السَّبَبُ فِي الَّذِي بَدَا لَكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ المَجُوسِيُّ: أَهَكَذَا يُعَامِلُنِي؟ ثُمَّ قَالَ: اِعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في هذِهِ الحكايةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إشارةٌ [١/٢٣٠أ] إلىٰ أنَّ الدُّنيا لا تَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ، ولذلِكَ بسطَهَا لأعدائِهِ، ولمْ يكنْ ذلِكَ دليلًا علىٰ كرامتِهِمْ عندَهُ، ولكنَّ بَسْطَ رحمتِهِ الدُّنيويَّةِ تعمُّ الكافرَ والمسلمَ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وجعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ كونَ هذَا المجوسِيِّ استضافَ إبراهيمَ الخليلَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ سببًا لمعرفةِ هذا المجوسيِّ سعةَ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وكَمَالَ كرمِهِ علىٰ أعدائِهِ حتَّىٰ عاتبَ نبيَّهُ وخليلَهُ في كونِهِ لمْ يطعِمْ عدوَّهُ.

ومِنْ هذِهِ الجهةِ قلنَا: إنَّ الدُّنيَا وإسباغَهَا علىٰ الخلقِ ليسَ بكرامةٍ إلَّا لمَنْ جعلَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ عونًا لهُ علىٰ طاعتِهِ، فلمَّا لمْ يضِفْهُ وذهبَ أوحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إليهِ ما ذكرَ، وتبعَهُ إبراهيمُ وردَّهُ وأضافَهُ فسألَهُ المجوسيُّ عنِ السَّببِ فأخبرَهُ، فوجدَ مِنْ ذلكَ العَجَبَ.

ففِي بعضِ الرِّوايةِ أنَّهُ قالَ[٣]: «نِعْمَ الرَّبُّ رَبٌّ يُعَاتِبُ نبيَّهُ في عدوِّهِ»، اعرِضْ عليَّ الإسلامَ فأسلمَ، ووجْهُ تعلُّقِ هذَا بالرَّجاءِ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يجعلُ الأسبابَ الضَّعيفةَ مُوصِّلَةً لغُفرانِ الذُّنوبِ العظيمةِ[٤].

---

(١) أي: من الحرج.

(٢) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «أهكذا يعاملني».

(٣) كما في: طبقات الحنفية لابن أبي الوفا ص٥٣٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٧١.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٣.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[(٢)]: **رَأَى الأُسْتَاذُ أَبُو سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيُّ أَبَا سَهْلٍ الزَّجَّاجَ فِي المَنَامِ وَكَانَ يَقُولُ بِوَعِيدِ الأَبَدِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ؟ فَقَالَ: وَجَدْنَا الأَمْرَ أَسْهَلَ مِمَّا تَوَهَّمْنَا**».

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ هذا القولَ؛ وهوَ قولُهُ: «**بوعيدِ الأبدَ**» علَى أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ إذَا توعَّدَ على المعصيةِ بعقابٍ لا بُدَّ مِن وقوعِهِ ولا يغفرُهُ كانَ[(٣)] غفلةً مِنْ هذَا الشَّيخِ معَ كونِهِ مشروطًا بالمشيئةِ، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويحتملُ أنْ يكونَ الحقُّ ـ سبحانه ـ غفرَ لهُ هذَا الاعتقادَ لغفلتِهِ عنْ شرطِهِ[(٤)]، ويكونَ معصيةً لا يقدحُ في أصْلِ إيمانِهِ؛ لأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ.

ويحتملُ أنْ يتوبَ مِنْ هذا الاعتقادِ قبلَ الموتِ ولَمْ يعلَمِ الرَّائِيَ حالَهُ، فلمَّا رآهُ فِي المنامِ وسألَهُ عن حالِهِ أخبرَهُ أنَّهُ وجدَ الأمرَ أسهلَ مِن ذلِكَ؛ معنَاهُ: أنَّ اللهَ يغفرُ كبائرَ الذُّنوبِ، ومنهُ إشارةٌ إلى أنَّهُ غفرَ لهُ ما كنتَ تعلمُهُ مِن حَالِهِ[(٥)].

فَوَجْهُ دخولِهِ في بابِ الرَّجاءِ: أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يغفرُ هذهِ الاعتقاداتِ الفاسدةَ[(٦)] والبدعَ بكرمِهِ، ويدلُّ على فضْلِ سعتِهِ على المؤمنينَ ورحمتِهِ مَا لمْ تكنْ بدعتُهُمْ تؤدِّي إلى كفرِهِمْ [١/٢٣٠ب] والعياذُ باللهِ ـ تعالى ـ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٢.

(٢) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٧٢.

(٣) في (ب): كانت.

(٤) في (ب): شرط، والصواب المثبت.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٤.

(٦) في (ب): الفاسدات.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ إِشْكِيبَ يَقُولُ[(٢)]: رَأَيْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيَّ فِي المَنَامِ عَلَىٰ هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ لَا تُوصَفُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أُسْتَاذُ؛ بِمَا نِلْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: بِحُسْنِ ظَنِّي بِرَبِّي، بِحُسْنِ ظَنِّي بِرَبِّي.

وَرُؤِيَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَاذَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: قَدِمْتُ عَلَىٰ رَبِّي بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ مَحَاهَا عَنِّي حُسْنُ ظَنِّي بِهِ تَعَالَىٰ»[(٣)].

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أنَّ الرُّؤيَا في النَّومِ تكونُ مُبَشِّرَةً ومُنذِرَةً، فمَنْ غلبَ علىٰ ظَنِّهِ الخوفُ حتَّىٰ خُشِيَ عليهِ الوقوعُ في القنوطِ والإياسِ منْ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ سخَّرَ لهُ ملكَ الرُّؤيَا يُرِيهِ فِي النَّومِ مَنْ يعتقدُ فيهِ خيرًا منَ الفضلاءِ الصَّالحينَ، فيعرِّفُهُ بسعَةِ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للخلْقِ وكثرةِ تجاوزِهِ عن ذنوبِهِمْ، فينقلُ[(٤)] ممَّا هوَ فيهِ ويسلَمُ منَ الوقوعِ في القُنُوطِ، فتكونُ الرُّؤيَا في حقِّهِ مُبَشِّرَةً، وهيَ فائدةُ الحكايةِ عن هذَينِ الرَّجلَينِ الكبيرَينِ العالِمَينِ؛ لينتفعَ الرَّائِي بمَا سمِعَهُ منهُمَا في المنامِ.

وقَدْ يكونُ الشَّخصُ ممَّنْ تَتوالَىٰ عليهِ الغَفَلاتُ في كثيرٍ منَ الأوقَاتِ، ثمَّ يَمُنُّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بالتَّوبةِ ويشتغلُ بالأعمالِ الصَّالحاتِ، ويغفلُ بمَا هوَ فيهِ من حُسْنِ الحالِ عمَّا كانَ فيهِ في[(٥)] ماضِي الزَّمانِ، فَيُرِيهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في النَّومِ مَنْ يعتقدُ فيهِ الاجتهادَ منَ الصَّالحينَ والورعَ الكاملَ والحذرَ مِن أدنىٰ الشُّبَهِ، فيقولُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٢.

(٢) ورد قوله في: تبيين كذب المفتري ص١٨٨، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٧٠.

(٣) ورد في: حسن الظن بالله ص٢٣، والمنامات ص٣٣، وتاريخ دمشق ٥٦/٤٤١، ٤٤٢، والمجالسة وجواهر العلم ص٢٩، والروح لابن القيم ص٢٣.

(٤) في (ب): فيقل، والصواب المثبت.

(٥) في (ب): من.

لهُ: «كيفَ وجدْتَ الأمرَ؟ فيقولُ: السَّاعةَ كمَا تخلَّصْتُ منَ الحِسَابِ»، فتكونُ هذهِ الرُّؤيَا مُنذرَةً لهُ ومخوِّفةً حاملةً لهُ على تدارُكِ ما فاتَ، ويقولُ لنفسِهِ: إذا كانَ مِثْلُ هذَا الرَّجُلِ الورعِ التَّقيِّ كمَا تخلَّصَ منَ الحسابِ، فكيفَ يكونُ حالِي عندَ ربِّ الأربابِ؟!.

فالمَنَامَاتُ يُجْرِيهَا اللهُ ـ تعالى ـ لِمَنْ أرادَ بهِ خيرًا على ما ذكرْنَاهُ منَ التَّقريرِ، وبعكسِ ذلِكَ ـ والعياذُ باللهِ تعالَى ـ إذَا أرادَ بهِ غُرُورًا واستحسانَ أَحْوالِهِ، والإِدْلَالَ على ربِّهِ بأعمالِهِ، واسترسالَهُ على قبيحِ أفعالِهِ[١].

❁ **قالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُم، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا** [١/٢٣١أ]**، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**.

أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ أَبُو نُعَيْمٍ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ الحَسَنِ الإِسْفِرَايِينِيُّ، أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ ذَلِكَ»**[٣].

❁ **قالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ورَوَى هذَا الخبرَ (مسلمٌ)[٤] عن أَبِي هريرةَ أيضًا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَقُولُ اللهُ ـ تَعالَى ـ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٢٦٩٤ ـ حديث رقم (٦٩٧٠).

(٤) في صحيحه ٤/٢٠٦١ ـ حديث رقم (٢٦٧٥)، و٤/٢٠٦٧ ـ حديث رقم (٢٦٧٥).

فِي مَلأٍ خَيرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقرَّبَ مِنِّي شِبرًا تَقرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِراعًا ، وَإِنْ تَقرَّبَ إِلَيَّ ذِراعًا تَقرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» .

وهذَا يدلُّ على أنَّ العبدَ إذا عملَ يسيرًا مِنَ الطَّاعةِ أعطاهُ اللهُ ـ تعالى ـ منَ الأجْرِ كثيرًا ، وهوَ داخلٌ في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الرَّجاءَ الصَّحيحَ إنَّمَا يكونُ عنِ الأعمالِ بقولِهِ: «مَنْ تقرَّبَ إليَّ» بكذَا جازيْتُهُ بأكثرَ منهُ ، والقربُ والبُعدُ المذكورُ في هذا الخبرِ الصَّحيحِ إنَّمَا هو لسرعةِ الإجابةِ ، وكثرةِ الجزاءِ ، وتقرُّبُ العبدِ بطاعتِهِ وكثرةُ الجزاءِ عليهِ هوَ قربُ الرَّبِّ ـ سبحانه ـ للعبدِ بسرعةِ إسباغِ رحمتِهِ بتنزُّهِهِ[1] ـ تعالى ـ عنِ المكانِ والزَّمانِ ؛ إذْ هُمَا مِنْ جُمْلَةِ مخلوقاتِهِ[2] .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقِيلَ[4]: كَانَ ابْنُ المُبَارَكِ يُقَاتِلُ عِلْجًا[5] مَرَّةً ، فَدَخَلَ وَقْتُ صَلَاةِ العِلْجِ ، فَاسْتَمْهَلَهُ فَأَمْهَلَهُ ، فَلَمَّا سَجَدَ لِلشَّمْسِ أَرَادَ ابْنُ المُبَارَكِ أَنْ يَضْرِبَهُ بِسَيْفِهِ ، فَسَمِعَ مِنَ الهَوَاءِ قَائِلًا يَقُولُ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ، فَأَمْسَكَ ، فَلَمَّا سَلَّمَ المَجُوسِيُّ قَالَ لَهُ: لِمَ أَمْسَكْتَ عَمَّا هَمَمْتَ بِهِ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا سَمِعَ ، فَقَالَ لَهُ المَجُوسِيُّ: نِعْمَ الرَّبُّ رَبٌّ يُعَاتِبُ وَلِيَّهُ فِي عَدُوِّهِ ؛ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ أيضًا تدلُّ على كَرَمِ اللهِ ـ تعالى ـ ، فإنَّ هذَا الشَّخصَ إنَّمَا لاحظَ لطفَ اللهِ ـ تعالى ـ بهِ في كونِهِ عاتَبَ هذَا الوليَّ حتَّى

---

(١) في (ب): بتنزيهه ، وكل صواب .
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٥ .
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٣ .
(٤) ورد في: طبقات الحنفية لابن أبي الوفا ٢/٥٣٣ .
(٥) هو الكافر الشديد .

كفَّ عن قتلِهِ فأسلَمَ، فلمَّا رأىٰ فضلَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليهِ في المُعَاتَبَةِ وشَكرَ ذلِكَ جَازَاهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بتوفيقِهِ للإسلامِ، ومَحْوِ مَا تقدَّمَ منهُ من الآثامِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ: إِنَّمَا أَوْقَعَهُمْ فِي الذَّنْبِ حِينَ سَمَّىٰ نَفْسَهُ عَفُوًّا.

وَقِيلَ: لَوْ قَالَ: لَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ لَمْ يُذْنِبْ مُسْلِمٌ قَطُّ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] لَمْ يُشْرِكْ مُسْلِمٌ قَطُّ، وَلَكِنْ لَمَّا قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [٢٣١/١ب] طَمِعُوا فِي مَغْفِرَتِهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَانِ[٢] القَولَانِ يصلُحَانِ[٣] أنْ يكونَا سببَ الغُرُورِ، وذلِكَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لمَّا وصفَ نفسَهُ بالمغفرةِ وصفَ نفسَهُ بشدَّةِ العقابِ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، فكلُّ مَنْ نظرَ إلىٰ أحَدِ هذَينِ الوصفَينِ وغفلَ عنِ الآخرِ اغْتَرَّ ووقعَ في النَّاسِ.

وقولُهُ: «إنَّمَا أوقعَهُمْ في الذُّنوبِ حينَ سمَّىٰ نفسَهُ عَفُوًّا» فليسَ بصحيحٍ، وإنَّمَا أوقعَهُمْ في الذُّنوبِ غلبةُ شَهَواتِهِمْ وأَهْوَائِهِمْ، وعلَّلُوا أنفسَهُمْ بكونِهِ ـ تعالىٰ ـ غفَّارًا، وغفلُوا عنِ الشَّرطِ في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢]، وقولِهِ[٤]: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» يدلُّ علىٰ أنَّهُ سبقَ في عِلْمِهِ أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ وقوعِ المعصيَةِ منَ الخَلْقِ، ويستغفِرُونَ فيغفرُ لهُمْ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٣.

(٢) في (أ): وهذا، والصواب المثبت.

(٣) في (أ، ب): يصلح، والصواب المثبت.

(٤) سبق تخريجه.

وأمَّا قولُهُ: «وذلِكَ أنَّهُ لمَّا قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ لمْ يُشْرِكْ مؤمنٌ» ؛ إنْ أرادَ: لمْ يرتدَّ مؤمنٌ بعدَ حصولِ الإيمانِ، فيحتملُ أنْ يكونَ الوازعُ لهُمْ عنِ الرِّدَّةِ كونَهُ لا يغفرُ لهُمْ، وقدِ ارتدَّ بعضُهُمْ، وإنْ أرادَ أنَّ ذلِكَ سببٌ لإيمانِهِمْ فليسَ بصحيحٍ، بلْ إيمانُهُمْ فضلٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ لكونِهِ يُضلُّ مَنْ يشاءُ ويهدِي مَنْ يشاءُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «وَيُحكَىٰ عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ[٢]: كُنْتُ أَنْتَظِرُ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ أَنْ يَخْلُوَ المَطَافُ لِي، فَكَانَتْ لَيْلَةٌ فِيهَا[٣] مطَرٌ شَدِيدٌ، فَخَلَا المَطَافُ، فَدَخَلْتُ الطَّوَافَ، وَكُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي، اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي، فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ لِي: يَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: أَنْتَ تَسْأَلُنِي العِصْمَةَ، وَكُلُّ النَّاسِ يَسْأَلُونِي العِصْمَةَ، فَإِذَا عَصَمْتُكُمْ فَلِمَنْ أَرْحَمُ؟!».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّهُ سبقَ فِي عِلْمِهِ لابدَّ مِن وقوعِ المعصيةِ وجريانِ الرَّحمةِ للعُصاةِ، لا أنَّهُ لا يمكنُ رحمتُهُ إلَّا بعدَ تقدُّمِ المعصيةِ، فمِنْ رحمتِهِ كانَتْ عصمةُ الأنبياءِ وحفظُ الأولياءِ، وقَدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وإنَّمَا أرادَ الحقُّ ـ سبحانه ـ أنْ ينبِّهَ إبراهيمَ علىٰ أنْ لا يسألَهُ ما ليسَ لهُ بهِ علمٌ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ لنوحٍ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦] لمَّا سألَهُ عنْ ولدِهِ، وكانَ في معلومِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنَّهُ ممَّنْ يهلكُ بالغَرقِ، وكذلِكَ سؤالُ العبدِ العصمةَ منَ الذُّنوبِ سؤالٌ عمَّا لا عِلْمَ لهُ بهِ، وقدْ يكونُ في علمِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنَّهُ ممَّنْ يعصِي، فسؤالُهُ المغفرةَ أولىٰ بهِ وأقربُ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٣.

(٢) في (ب): بها.

(٣) ورد قوله في: قوت القلوب ١/٣٦٨، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٢، ومفتاح دار السعادة ١/٢٨٧، ومدارج السالكين ١/٣٠١.

لعبوديَّتِهِ، وعجزِهِ عنْ حفظِ نفسِهِ [١/٢٣٢أ] والقيامِ بطاعتِهِ، ويجوزُ أنْ يسألَ العبدُ ربَّهُ أنْ يحفظَهُ ويَصُونَهُ عن سَائِرِ المَعَاصِي، وإنْ كانَتِ العصمةُ قدِ اختصَّ بهَا الأنبياءُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِم ـ[١].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: رَأَى أَبُو العَبَّاسِ بْنُ سُرَيْجٍ فِي مَنَامِهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ كَأَنَّ القِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، وَإِذَا الجَبَّارُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: أَيْنَ العُلَمَاءُ؟ قَالَ: فَجَاءُوا، ثُمَّ قَالَ: مَاذَا عَمِلْتُمْ فِيمَا عُلِّمْتُمْ؟ قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَبِّ قَصَّرْنَا وَأَسَأْنَا، قَالَ: فَأَعَادَ السُّؤَالَ كَأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ بِهِ، وَأَرَادَ جَوَابًا آخَرَ، فَقُلْتُ: أَمَّا أَنَا فَلَيْسَ فِي صَحِيفَتِي الشِّرْكُ، وَقَدْ وَعَدْتَ أَنْ تَغْفِرَ مَا دُونَهُ، فَقَالَ: اِذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، وَمَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ لَيَالٍ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ إنْ كانَ المُرادُ بسياقِهَا جوازَ الغُفْرانِ لمَنْ لَمْ يُشْرِكْ باللهِ، وهوَ مَدْلُولٌ عليهِ مِن كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالآيَةِ الَّتِي ذكرَهَا، ففيهَا بُشْرَىٰ لابنِ شُرَيحٍ أنَّهُ مغفورٌ لهُ، وقدِ اعترفَ بقيَّةُ العلماءِ علىٰ ما تضمَّنَتْهُ الرُّؤيَا بكونِهِمْ قصَّرُوا، ومَنِ اعترفَ بتقصيرِهِ رَجَا المغفرةَ[٤].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ[٦]: كَانَ رَجُلٌ شِرِّيبٌ جَمَعَ قَوْمًا مِنْ نُدَمَائِهِ، وَدَفَعَ إِلَىٰ غُلَامٍ لَهُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا شَيْئًا مِنَ الفَوَاكِهِ لِلْمَجْلِسِ، فَمَرَّ الغُلَامُ بِبَابِ مَجْلِسِ مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ وَهُوَ يَسْأَلُ لِفَقِيرٍ شَيْئًا وَيَقُولُ:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٣.

(٣) ورد في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٤، ووفيات الأعيان ١/٦٧.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٥٨.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٦٤.

(٦) ورد في: المختار من مناقب الأخيار ٣/٢١٧، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٤، وسراج الطالبين ٢/٢١١.

مَنْ دفعَ لهُ أَرْبَعَةَ دراهِمَ دعَوْتُ لهُ أَرْبَعَ دعَواتٍ.

قَالَ: فَدفعَ لهُ الغُلامُ الدَّراهِمَ، فَقَالَ [لهُ] منْصُورٌ: مَا الَّذِي تُرِيدُ أَنْ أَدْعُوَ لكَ؟ فقالَ: لِي سَيِّدٌ: أُرِيدُ أَنْ أَتخلَّصَ مِنْهُ، فَدعَا مَنْصُورٌ، وَقَالَ: الأُخْرَىٰ؟ فَقَالَ: أَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَلَيَّ دَراهِمِي، فَدعَا، ثُمَّ قَالَ: وَالأُخرَىٰ؟ قَالَ: يَتُوبُ اللهُ علَىٰ سَيِّدِي، فَدعَا، وَقَالَ: الأُخْرَىٰ؟ فَقَالَ: أَنْ يَغفِرَ اللهُ لِي وَلِسيِّدِي ولَكَ وَلِلْقَوْمِ، فَدعَا مَنْصُورٌ، فَرجَعَ الغُلامُ إِلَىٰ سَيِّدِهِ، فَقَالَ: لِمَ أَبطَأْتَ؟ فَقصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ، فَقَالَ: وَبِمَ دعَا؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ لِنَفْسِي العِتْقَ، فَقَالَ: اِذْهَبْ فَأَنْتَ حُرٌّ، وَأيشٍ الثَّانِي؟ فَقَالَ: أَنْ يُخلفَ اللهُ عَلِيَّ الدَّراهِمَ، فَقَالَ: لَكَ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ: وَأيشٍ الثَّالِثُ؟ فَقَالَ: أَنْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: تُبْتُ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَقَالَ: وَأيشٍ الرَّابِعُ؟ فَقَالَ: أَنْ يَغْفِرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لَكَ ولِي وَلِلْقَوْمِ وَلِلْمُذكِّرِ، فَقَالَ: هَذَا الوَاحِدُ لَيْسَ إِلَيَّ، فَلَمَّا بَاتَ رَأَىٰ فِي المَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا [١/٢٣٢ب] يَقُولُ لَهُ: أَنْتَ فَعلْتَ مَا كَانَ إِلَيْكَ، تَرَانِي لَا أَفْعَلُ مَا إِلَيَّ؟! قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلِلغُلَامِ، وَلِمَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ، وَلِلْقَوْمِ الحَاضِرِينَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ قَدْ يعترضُهَا بعضُ النَّاسِ ويقولُ: العبدُ مملوكٌ ومَا بيدِهِ لِسَيِّدِهِ، فلَا يجوزُ لهُ التَّصرُّفُ فيهِ، فكيفَ قَبِلَ ذلِكَ منهُ منصورُ بنُ عمَّارٍ بعدَ معرفتِهِ أنَّهُ عبدٌ مملوكٌ؟

والجَوابُ: أنَّ العبدَ عندَنَا يملكُ ويتصرَّفُ فيمَا أَذِنَ لهُ فيهِ سيِّدُهُ، وهذَا العبدُ رجلٌ صالحٌ، وقدْ سيَّرَهُ سيِّدُهُ علىٰ أنْ يشترِيَ مَا يُستعانُ بهِ علىٰ المنكرِ، فخرجَ وهوَ مكرَهٌ مغلوبٌ خائفٌ مِن أذَىٰ سيِّدِهِ لهُ، فلمَّا وجدَ منصورَ بنَ عمَّارٍ يسألُ لهذَا الفقيرِ شيئًا خطرَ ببالِهِ أنْ يدفعَ هذِهِ الدَّراهمَ للهِ ـ تعالىٰ ـ، فهوَ أَوْلَىٰ ممَّا خرجَ فيهِ وهانَ علىٰ نفسِهِ مُقاسَاةُ الضَّربِ والألمِ مِن سيِّدِهِ، ولَا يفعلُ هذَا المنكرَ، فإنَّهُ لا

طاعةَ لسيِّدِهِ عليهِ فيهِ، فلمَّا قالَ لهُ منصورُ بنُ عمَّارٍ: مَا الَّذِي تحبُّ أنْ أدعوَ لكَ؟ ذكرَ أهمَّ الأمورِ عندَهُ، وهوَ خَلاصُهُ مِن هذا السَّيِّدِ الَّذِي يُدخلُهُ فيمَا لا يحبُّهُ، قالَ لهُ: ومَا الثَّانِي؟ قالَ: أنْ يخلفَ اللهُ عليَّ الدَّراهمَ ليردَّهَا إلىٰ سيِّدِهِ ويقولَ: لا أفعلُ ما أمرتَنِي بهِ كمالًا لصدقِهِ في توبتِهِ، فقالَ لهُ: ومَا الثَّالثُ؟ قالَ لهُ: أنْ يتوبَ اللهُ علىٰ سيِّدِي ليستريحَ مِن ضررِهِ بالكلِّيَّةِ، قالَ لهُ: فمَا الرَّابعُ؟ فمَا وجدَ شيئًا بقِيَ عليهِ إلَّا أنْ يغفرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ ولسيِّدِهِ وللجماعةِ وللمذكِّرِ مَا تقدَّمَ مِن إجرامِهِمْ، فلمَّا رجعَ إلىٰ سيِّدِهِ بلَا شيءٍ وقدْ تأخَّرَ عنهُ ثارَ إليهِ مغضبًا يقولُ: ما حبَسَكَ عنِّي؟، فلمَّا صدَقَهُ العبدُ فيمَا فعلَهُ أثَّرَ صِدقَهُ في سيِّدِهِ، وليَّنَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ قلبَهُ، واستحسنَ ما فعلَهُ، وسألَهُ عمَّا دعَا بهِ، فقالَ: سألتُ الخلاصَ مِن سيِّدِي، فقالَ: أنتَ حرٌّ لوجْهِ اللهِ، وهوَ أهمُّ أمورِهِ عندَهُ، والثَّانِي: أنْ يخلفَ اللهُ عليَّ الدَّراهمَ؛ أيْ لأردَّهَا لكَ، فقالَ لهُ: لكَ أربعةُ آلافِ درهمٍ لنفسِكَ، قالَ: ومَا الثَّالثُ؟ قالَ: أنْ يتوبَ اللهُ علىٰ سيِّدِي، فقالَ: أنَا تائبٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ، قالَ: فمَا الرَّابعُ؟ قالَ: أنْ يغفرَ اللهُ لِي ولسيِّدِي وللمذكِّرِ وللجماعةِ الحاضرِينَ عندَهُ، فقالَ سيِّدُهُ: هذهِ ليسَتْ لِي وإنَّمَا هذَا للهِ، فلمَّا صدقَ في توبتِهِ [١/٢٣٣أ] وعتقِ عبدِهِ وإكرامِهِ بمَالِه أَراهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في ليلِهِ هذهِ الرُّؤيَا؛ وهوَ أنَّهُ أكرمُ الأكرَمِينَ إذا فعلَ عبدُهُ اليسيرَ منَ العملِ أفرغَ عليهِ الخيرَ الكثيرَ منَ العطاءِ وأجزلَ.

وهذَا معَ الاستدلالِ علىٰ الرَّجاءِ منَ الحكايةِ؛ لأنَّ العبدَ لمَّا تكرَّمَ باليسيرِ غفرَ اللهُ لهُ ولسيِّدِهِ[١] ولمَنْ كانَ سببَ ذلِكَ، وربَّمَا كانَ ذلِكَ جميعُهُ بسببِ مَنْ حضرَ مجلسَ ابنِ عمَّارٍ منَ الصَّالحينَ.

أمَّا الفقيرُ المسئولُ لهُ الأربعةُ دراهِمَ وكانَ مضطرًّا إليهَا، فلمَّا جاءَتِ اشتدَّ فرحُهُ لزوالِ ضَرُورَتِهِ، فدعَا عندَ الاضطِرارِ فحصلَتِ الإجابةُ؛ وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ:

---

(١) في (ب): ولعبده، والصواب المثبت.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ولَا سيَّمَا إذا ساعدَ الدَّاعِي جماعةً منَ الأولياءِ، والتجأُوا إلى اللهِ بجُملَتِهِمْ، كانَ ذلكَ أقربَ فِي حُصُولِ طِلْبَتِهِمْ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ: حَجَّ رَيَّاحٌ القَيْسِيُّ حِجَّاتٍ كَثِيرَةً، فَقَالَ يَوْمًا وَقَدْ وَقَفَ تَحْتَ المِيزَابِ: إِلَهِي، وَهَبْتُ مِنْ حِجَّاتِي كَذَا وَكَذَا [مَرَّةً][(٢)] لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَشْرَةً لِأَصْحَابِهِ العَشَرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَاثْنَتَيْنِ لِوَالِدَيَّ، وَالبَاقِي لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَحْبِسْ شَيْئًا لِنَفْسِهِ، فَسَمِعَ هَاتِفًا يَقُولُ: هُوَ ذَا يَتَسَخَّى[(٣)] عَلَيْنَا! ، لأَغْفِرَنَّ لَكَ وَلِأَبَوَيْكَ وَلِمَنْ شَهِدَ شَهَادَةَ الحَقِّ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ إنَّمَا تجرِي علىٰ مذهبِ مَنْ يُجَوِّزُ هبةَ الأعمالِ الصَّالحةِ وانتقالَهَا مِن ديوانِ العاملِ إلىٰ غيرِهِ[(٤)]، وهذَا أمرٌ مغيَّبٌ، وغايتُهُ سؤالٌ ودعاءٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يثيبَ هذَا الموهوبَ لهُ، فلمَّا كانَتْ لهذَا الشَّخصِ حجَّاتٌ كثيرةٌ وعُمَرٌ كثيرةٌ، خطرَ ببالِهِ أنْ يتقرَّبَ إلى اللهِ ـ تعالىٰ ـ بطاعاتِهِ لأحبابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ منَ الرَّسولِ والصَّحابةِ ووالدَيهِ والمسلمينَ، فأرَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ثوابَ[(٥)] حُسْنِ نيَّتِهِ وبركةَ قصدِهِ بأنْ عرَّفَهُ أنَّ كرمَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أوسعُ وأعمُّ، وأنَّهُ قدْ تفضَّلَ علىٰ مَنْ ذكرْتَ بغفرانِ كلِّ زلَّةٍ ونقصٍ.

وبهذَا الاعتبارِ كانَتِ الصَّلاةُ علىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدُّعاءُ لهُ ولأصحابِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٤.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) أي: يتكرم علينا.

(٤) تأمل تفصيل ذلك في: نفحات النسمات في وصول إهداء الثواب للأموات للسروجي، ونفحات الأدعية الزاكية الصالحات في وصول ثواب القراءة إلى الأموات لأبي حامد البلبيسي، وإفادة الطلاب بأحكام القراءة على الموتى ووصول الثواب للأهدل.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

تعودُ بركتُهُ علينا، وإنْ كانُوا أفضلَ منَّا، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يحبُّ أنْ يحبَّ مَنْ يُحبُّهُ[١].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ الوَهَّابِ بنِ عَبْدِ المَجِيدِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ قَالَ[٣]: رَأَيْتُ جَنَازَةً يَحْمِلُهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الرِّجَالِ وَامْرَأَةٌ، قَالَ: فَأَخَذْتُ مَكَانَ المَرْأَةِ، وَذَهَبْنَا إِلَى المَقْبَرَةِ، فَصَلَّيْنَا عَلَيْهَا وَدَفَنَّاهَا، فَقُلْتُ لِلْمَرْأَةِ: مَنْ كَانَ [١/٢٣٣ب] هَذَا مِنْكِ؟ قَالَتْ: ابْنِي، قُلْتُ: وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ جِيرَانٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهُ، فَقُلْتُ: وَأَيشٍ كَانَ هَذَا؟ فَقَالَتْ: مُخَنَّثٌ.

قَالَ: فَرَحِمْتُهَا، وَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى مَنْزِلِي، وَأَعْطَيْتُهَا دَرَاهِمَ وَحِنْطَةً وَثِيَابًا، وَنِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَرَأَيْتُ كَأَنَّهُ أَتَانِي آتٍ كَأَنَّهُ القَمَرُ لَيْلَةَ البَدْرِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ بِيضٌ، فَجَعَلَ يَتَشَكَّرُ لِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: المُخَنَّثُ الَّذِي دَفَنْتُمُونِي اليَوْمَ، رَحِمَنِي رَبِّي بِاحْتِقَارِ النَّاسِ إِيَّايَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ إنَّمَا كانَ بِبَرَكةِ دعاءِ هذا الرَّجلِ لهُ ودعاءِ أمِّهِ لهُ وشَفقتِهَا عليهِ، فغفرَ اللهُ لهُ ما تقدَّمَ، ورأىٰ هذَا الرَّائِي أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استجابَ دعاءَهُ، ورحمتضهُ لهُ ولأمِّهِ وشفقتَهُ عليهِمَا، وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الأعمالَ اليسيرةَ ولوْ فِي لحظةٍ يغفرُ اللهُ بهَا الأجرامَ الكثيرةَ القديمةَ، ومِنْ هذا الوجْهِ دخلَتِ الحكايةُ في بابِ الرَّجاءِ.

وأمَّا قولُهُ في الرُّؤيَا: «باحتقارِ النَّاسِ إيَّايَ»، فليسَ ذلِكَ لنفسِ احتقارِهِمْ، فإنَّ احتقارَهُمْ لَا يخلُو لهُ في حالِ حياتِهِ أوْ بعدَ وفاتِهِ؛ فأمَّا إنْ كانَ في حالِ حياتِهِ

---

(١) في (ب): يحب أن يحبه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٣٧٥.

فلمْ يؤمَرْ أحدٌ بالتَّكبُّرِ والاحتقارِ لأهلِ المَعَاصِي، وإنْ أمرَ بالتَّغييرِ عليهِمْ، وأمَّا إنْ كانَ بعدَ وفاتِهِ فلهُ وجْهٌ؛ وذلكَ أنَّهُمْ تركُوا السُّنَّةَ مِنِ اشتغالِهِمْ بالميِّتِ وتشييعِهِ إلىٰ قبرِهِ والصَّلاةِ عليهِ[١]، وتركُوا حقَّ الجِيرةِ، فهذَا كلُّهُ غلطٌ منهُمْ، وقدِ انقطعَتْ أعمالُهُ بموتِهِ، فيجوزُ أنْ يثيبَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ويمكنُ أنْ يكونَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أعطَاهُ مِنَ الأجرِ باحتقارِهِمْ لهُ وكلامِهِمْ فيهِ مِنْ أعمالِهِمْ بالمقاصَصَةِ مَا كانَ سببَ غفرانِ ذنوبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَرَّ أَبُو عَمْرٍو البَيكَنْدِيُّ يَوْمًا بِسِكَّةٍ، فَرَأَىٰ قَوْمًا أَرَادُوا إِخْرَاجَ شَابٍّ مِنَ المَحَلَّةِ لِفَسَادِهِ وَامْرَأَةٌ تَبْكِي، قِيلَ: إِنَّهَا أُمُّهُ، فَرَحِمَهَا[٣] أَبُو عَمْرٍو، فَتَشَفَّعَ لَهُ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: هَبُوهُ مِنِّي هَذِهِ المَرَّةَ، فَإِنْ عَادَ إِلَىٰ فَسَادِهِ فَشَأْنُكُمْ، فَوَهَبُوهُ مِنْهُ.

فَمَضَىٰ أَبُو عَمْرٍو، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ اجْتَازَ بِتِلْكَ السِّكَّةِ، فَسَمِعَ بُكَاءَ العَجُوزِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ البَابِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَعَلَّ الشَّابَّ عَادَ إِلَىٰ فَسَادِهِ فَنُفِيَ مِنَ المَحَلَّةِ، فَدَقَّ عَلَيْهَا البَابَ وَسَأَلَهَا عَنْ حَالَةِ الشَّابِّ، فَخَرَجَتِ العَجُوزُ وَقَالَتْ: إِنَّهُ مَاتَ، فَسَأَلَهَا عَنْ حَالِهِ، فَقَالَتْ: لَمَّا قَرُبَ أَجَلُهُ قَالَ: لَا تُخْبِرِي الجِيرَانَ بِمَوْتِي، فَلَقَدْ آذَيْتُهُمْ [١/٢٣٤أ]، وَإِنَّهُمْ يَشْمَتُونَ بِي وَلَا يَحْضُرُونَ جَنَازَتِي، وَإِذَا دَفَنْتِينِي فَهَذَا خَاتَمٌ لِي مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ (بِسْمِ اللهِ) فَادْفِنِيهِ مَعِي، فَإِذَا فَرَغْتِ مِنْ دَفْنِي فَتَشَفَّعِي لِي إِلَىٰ رَبِّي، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ وَصِيَّتَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفْتُ عَنْ رَأْسِ قَبْرِهِ سَمِعْتُ صَوْتَهُ يَقُولُ: انْصَرِفِي يَا أُمَّاهُ، فَقَدْ قَدِمْتُ عَلَىٰ رَبٍّ كَرِيمٍ».

---

(١) ففي صحيح مسلم ٤/١٧٠٥ ـ حديث رقم (٢١٦٢): «عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: حَقُّ الْمُسْلِمِ علىٰ المُسْلِمِ سِتٌّ، قِيلَ: ما هُنَّ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال.... وإذا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٥.

(٣) أي: رق له قلبه لما أصابها.

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ أنَّهُ تابَ توبةً بالغةً وندمَ ندمًا شافيًا علىٰ جميعِ مَا كانَ منهُ حتَّىٰ إنَّهُ تبرَّكَ باسمِ اللهِ وتشفَّعَ بهِ وبدعاءِ والدتِهِ، فإذَا كانَتْ ذنوبُهُ فيمَا بينَهُ وبينَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فالتَّوبةُ تمحُو جميعَ ذلكَ وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[1] [طه: ٨٢]، و«غفَّارٌ» مِنْ صِيغِ المُبالغةِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ[3]: أَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَخْلُقْهُمْ لِأَرْبَحَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِيَرْبَحُوا عَلَيَّ».

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويكونُ هذا القولُ ممَّا أوحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إلىٰ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الزَّبورِ، وهوَ صحيحٌ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ غنِيٌّ عنِ العالمِينَ، ومَا خلقَ شيئًا ممَّا خلقَهُ لحاجتِهِ إليهِ، فإنَّهُ كانَ غنيًّا عنهُ قبلَ أنْ يخلقَ العرشَ وغيرَهُ، وإنَّمَا هيَ أعمالُكُمْ تردُّ عليكُمْ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ[5]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الحَرْبِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ الأُطْرُوشَ يَقُولُ: كُنَّا قُعُودًا بِبَغْدَادَ مَعَ مَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ عَلَىٰ (الدِّجْلَةِ)، إِذْ مَرَّ بِنَا قَوْمٌ أَحْدَاثٌ فِي زَوْرَقٍ يَضْرِبُونَ بِالدُّفِّ وَيَشْرَبُونَ وَيَلْعَبُونَ، فَقَالُوا لِمَعْرُوفٍ: أَمَا تَرَاهُمْ يَعْصُونَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ مُجَاهِرِينَ؟ أُدْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ، فَرَفَعَ يَدَهُ وَقَالَ: إِلَهِي، كَمَا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٥.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٠، ومفاتيح الغيب ٨/١٥٠، والمغني عن حمل الأسفار ٢/١٠٥٦.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٥) الفتوة ص٥٩، وورد أيضا في: شعب الإيمان ٥/٢٩٤، وصفة الصفوة ٢/٣٢١، والمستطرف ١/٣١٢.

فَرَّحْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَفرِّحْهُمْ فِي الآخِرَةِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا سَأَلْنَاكَ أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِم! ، فَقَالَ: إِذَا فَرَّحَهُمْ فِي الآخِرَةِ فَقَدْ تَابَ عَلَيْهِم».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الحكايةِ منَ الفقْهِ وكمالِ المعرفةِ والسِّياسةِ في تغييرِ المنكرِ ما نُنبِّهُ عليهِ؛ وذلكَ أنَّ هؤلاءِ الَّذينَ يتجاهرُونَ بالمَعَاصِي، حتَّىٰ لمْ يكنْ أحدٌ أنْ ينكرَ عليهِمْ ولَا يغيِّرَ أهلَ جاهٍ وسَطوةٍ، ولذلِكَ سألُوا معروفًا أنْ يدعوَ عليهِمْ لعجزِهِمْ هُمْ عنِ التَّغييرِ، فلمَّا لمْ يكنِ التَّغييرُ بالزَّجرِ والأمرِ لعدَمِ القبولِ سلكَ مسلكَ السُّؤالِ والفضْلِ منَ اللهِ - تعالىٰ - فِي أنْ يغيِّرَ أحوالَهُمْ عمَّا هُمْ عليهِ، وعلِمَ أنَّ الفاعلَ بهِمْ ما هُمْ فيهِ هوَ اللهُ - تعالىٰ -، وهوَ الَّذِي [١/٢٣٤ب] خلقَ لهُمْ ما هُمْ فيهِ منَ الفرحِ والسُّرورِ، فقالَ: «**اللَّهمَّ كمَا فرَّحْتَهُمْ في الدُّنيَا ففرِّحْهُمْ في الآخرةِ**»؛ لأنَّ جميعَ ذلكَ فعلُكَ وأنتَ القادرُ عليهِ، فلمَّا قيلَ لهُ: «**إنَّما سألْنَاكَ أنْ تدعوَ عليهِمْ دعوْتَ لهُمْ**»، فأعلمَهُمْ أنَّ التَّغييرَ في هذَا الوقتِ لمَنْ هذِهِ صفتُهُ، إنَّمَا هوَ الدُّعاءُ لهُمْ بالتَّوبةِ، وبيَّنَ ذلِكَ بقولِهِ: «**إذا**(١) **فرَّحَهُمْ في الآخرةِ تابَ عليهِمْ في الدُّنيا**»(٢).

ومِنْ هذا القبيلِ في التَّغييرِ ما أخبرَنِي بهِ الشَّيخُ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ الدَّقَّاقِ، المقيمُ بالصَّعيدِ ببعضِ ديارِ (مصْرَ)، عنْ شيخٍ لهُ معروفٍ بالكرامَاتِ وجريانِ خوارقِ العاداتِ، قالَ لِي: دخلْتُ معَ شيخِي وكانَ يُسَمَّىٰ محمَّدًا بعضَ بلادِ الشَّرقِ، وكانَ المنكرُ فيهَا ظاهرًا مِن جهةِ السَّلطنَةِ، وكانَ معَهُ بعضُ الفقهاءِ، قالَ لهُ: يا أبَا عبدِ اللهِ، لِمَ لا تُغيِّرُ هذَا، فعرَّفَهُ أنَّ هذَا ممَّا لا قدرةَ لنا علىٰ تغييرِهِ بالزَّجْرِ والأمْرِ، ثمَّ قالَ لهُ: تعالَ نُرِيَكَ بعضَ التَّغييرِ، فتقدَّمَ بهِ إلىٰ دكَّانِ بعضِ هؤلاءِ

(١) سقط من (ب) قوله: «بقوله إذا».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٢.

الخمَّارِينَ وقالَ لهُ: ائْتِ بأطيَبِ ما عندَكَ منَ الخمرِ لهذَا الفقيهِ، قالَ: فمضَىٰ الخمَّارُ وفكَّ بعضَ الأوانِي الَّتِي يعتقدُ(١) حسنَهَا وطِيبَهَا، وصبَّ في بعضِ الآنيَةِ شيئًا وذاقَهُ الخمَّارُ فتغيَّرَ لونُهُ وأعادَهُ إلىٰ مكانِهِ، ثمَّ فتحَ آنيةً أخرَىٰ، وفعلَ كذلِكَ، ثمَّ أعادَ إلىٰ آنيتِهِ، فقالَ لهُ الشَّيخُ: ما لَكَ، أمَا تأتِي بهِ للفقيهِ؟ فقالَ لهُ: كلُّ آنيةٍ أفتحُهَا أجدُهَا عسلًا، فقالَ لهُ: ليسَ بصحيحٍ، ائتِ بهِ إلىٰ الفقيهِ ليذوقَ منهُ، قالَ: فأتَىٰ بالقدحِ فإذَا هوَ عسلٌ خالصٌ، فقالَ للفقيهِ: إنْ كانَ يمكنُ شيءٌ من هذا التَّغييرِ فغيِّرْ، وأمَّا غيرُهُ فلا قدرةَ لنَا عليهِ، وهذا نوعٌ آخرُ مِن جنسِ تغييرِ معروفٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ونفعنَا بهِم.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ المُزَكِّي قَالَ(٣): حَدَّثَنَا أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَي بْنُ مُحَمَّدٍ الأَدِيبُ، حَدَّثَنَا الفَضْلُ بْنُ صدقَةَ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللهِ الحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدٍ؛ قَالَ: كَانَ يَحْيَي بْنُ أَكْثَمَ القَاضِي صَدِيقًا لِي، وَكَانَ يَوَدُّنِي وَأَوَدُّهُ، فَمَاتَ يَحْيَي، فَكُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ أَرَاهُ فِي المَنَامِ فَأَقُولَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟، فَرَأَيْتُهُ لَيْلَةً فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟

قَالَ: غَفَرَ لِي، إِلَّا أَنَّهُ وَبَّخَنِي، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا يَحْيَي؛ خَلَّطْتَ عَلَيَّ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ؛ اِتَّكَلْتُ عَلَىٰ حَدِيثٍ حَدَّثَنِي بِهِ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١/١٣٥أ](٤): (إِنَّكَ قُلْتَ: إِنِّي لأَسْتَحِي أَنْ أُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ بِالنَّارِ)، فَقَالَ: قَدْ عَفَوْتُ

---

(١) في (ب): يعتقه، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٦.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٤/٩٠، ووفيات الأعيان ٦/١٦٤، والشعور بالعور ص٢٤١، ومرآة الجنان ٢/١٤١.

(٤) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول ٢/٣٤ بلفظ: «إني لأستحيي من عبدي وأمتي يشيبان في=

عَنْكَ يَا يَحْيَى، وَصَدَقَ نَبِيِّي، إِلَّا أَنَّكَ خَلَّطْتَ عَلَيَّ فِي دَارِ الدُّنْيَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّهُ غُفِرَ له بحُسْنِ ظنِّهِ بربِّهِ مع عملِهِ للهِ - تعالى - إلَّا أنَّهُ كانَ في عملِهِ صحيحٌ وسقيمٌ[١]، فلذلِكَ قيلَ لهُ في النَّومِ: «خلَّطْتَ عليَّ في دارِ الدُّنيا»، واعتمادُهُ على الحديثِ: «إنَّ اللهَ - تعالى - يستحْيي أنْ يعذِّبَ ذا الشَّيبَةِ»، وذلِكَ بشرطِ الإسلامِ والتَّوبةِ من الزَّلَلِ، وإلَّا فكَمْ مِن ذي شيبةٍ في النَّارِ والعياذُ باللهِ - تعالى -، وقولُهُ - تعالى -: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]، و(عسى) مِنَ اللهِ - تعالى - واجبةٌ[٢]، ليسَ بمعنى التَّرجِّي، فقدْ وعدَ - سبحانه - مَنِ اعترَفَ لهُ بذنبِهِ[٣] أنْ يَرْزُقَهُ التَّوبةَ والغُفْرانَ[٤].

❊ ❊ ❊

= الإسلام، ثم أعذبهما بعد ذلك في النار»، وأبو يعلى في مسنده ٥/١٥٣، والبيهقي في الزهد الكبير ص٢٤٣، وأبو نعيم في الحلية ٢/٣٨٧.

وعلل لذلك الماوردي بقوله: «ولأن المسن أسكن نفساً وأكثر خشوعاً؛ لكثرة صلاته وقلة شهواته» الحاوي الكبير ٢/٣٥٣.

(١) في (أ): «صحيحا وسقيمًا»، والأصح المثبت.

(٢) انظر: معاني الفراء ١/٤٥١، والروض الأنف ٦/٣٢٨.

وفي الصحاح ٦/٢٤٢٦: «وعسى من الله واجبة في جميع القرآن، إلا في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ﴾». وعلل الرضي لذلك بقوله: «لاستحالة الطمع والإشفاق عليه تعالى، إذ لا يكونان إلا في المجهول» شرح الكافية ٤/٢١٤.

(٣) في (ب): بذنب.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«بَابُ الحُزْنِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُبَيْشٍ، حَدَّثَنَا [أحمدُ بنُ عيسى، قال حَدَّثَنَا] ابن وَهْبٍ، حَدَّثَنَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ اللَّيْثِيُّ؛ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ[(٢)]: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ العَبْدَ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ[(٣)]، أَوْ نَصَبٍ[(٤)]، أَوْ حَزَنٍ، أَوْ أَلَمٍ يَهِمُّهُ إلا كَفَّرَ اللهُ ـ تعالى ـ عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ[(٥)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يحتملُ أمرينِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ عامًّا في مصائِبِ الدُّنيا والآخرةِ، فيكونَ ثوابُهُ وتكفيرُهُ لسيِّئَاتِهِ لكمالِ صبْرِهِ على ما ابْتُلِيَ بِهِ.

والوَجْهُ الثَّاني: أنْ يكونَ صبرُهُ على ما ابْتُلِيَ بهِ في أعمالِ آخرتِهِ؛ منَ القيامِ بواجباتِهِ والمشقَّةِ عليهِ والانكفافِ عنْ شهواتِهِ وملذوذَاتِهِ، فيكونَ حزنُهُ على ما قصَّرَ فيهِ مِن ذلِكَ محمودًا كلُّهُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩٩٢ ـ حديث رقم (٢٥٧٢).

(٣) أي: مرض.

(٤) أي: تعب.

(٥) لصبره على ما ابتلي به.

فأمَّا حُزْنُهُ على ما فَاتَهُ مِن نعيمِ الدُّنيَا ولذَّاتِهَا والتَّمتُّعِ بأنواعِ مشتهياتِهَا، وغايتُهُ أنْ يكونَ مباحًا لا يُثَابُ عليهِ ولا يُعاقَبُ، هذَا إذا لمْ يُخْرِجْهُ ذلكَ إلى التَّسخُّطِ بالمقدورِ، وكراهةِ فِعْلِ الرَّحيمِ الغفورِ، وقدْ قالَ ـ تعالى ـ حكايةً عنْ يعقوبَ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ تأسُّفًا على يوسفَ [١/٢٣٥ب] ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، وقالَ ـ تعالى ـ لنبيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وفي موضعٍ آخرَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وحزنُ الأنبياءِ كلُّهُ محمودٌ.

ونحنُ نتكلَّمُ على حقيقةِ الحزنِ، والمحمودِ منهُ والمذمومِ، ونفرِّقُ بينَهُ وبينَ الإراداتِ والعُزُومِ، ونذكرُ أقسامَهُ والأسبابَ الَّتي يكونُ عنهَا، والثَّمراتِ الَّتي يفيدُهَا بعونِ اللهِ ـ تعالى ـ.

فأمَّا حقيقةُ الحُزْنِ في نَفْسِهِ: فَقَدْ قَالَ شيخُ الإسلامِ أبُو محمَّدٍ عبدُ اللهِ الأنصاريُّ الهرويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**الحُزْنُ: توجُّعٌ لفائتٍ، أوْ تأسُّفٌ على مُمتنعٍ**».

وقالَ المُحَاسبيُّ في (**جواباتِ شيخِهِ لهُ**): «**الحزنُ: انكسارٌ في الباطنِ يكسرُ الظَّاهِرَ عنِ الانبساطِ**»[٢].

وقالَ ابنُ خفيفٍ[٣]: «**الحُزنُ: حصرُ النَّفسِ عنِ النُّهوضِ فِي الطَّربِ**[٤]».

وهذَا إلى الصَّبرِ أقربُ منهُ إلى الحُزنِ؛ لأنَّ الحزنَ قبضٌ بطرقِ القلبِ، وقدْ يذكرُ العبدُ سببَهُ وقدْ لا يذكرُ، وحصرُ النَّفسِ عن طربِهَا فعلٌ اختياريٌّ،

---

(١) منازل السائرين ص٢٥.

(٢) ورد بمعناه في: الإبانة لابن فورك ص١٤٠.

(٣) ورد بلا نسبة في: معجم مقاليد العلوم ص٢١٦.

(٤) في (ب): عن الطرف، والصواب المثبت.

فافترقَ الأمرَانِ.

وقَالَ الإمَامُ القُشَيْرِيُّ[١]: «تَقَبُّضُ القلبِ عنِ التَّفرُّقِ في أوديَةِ الغفلَةِ»؛ يعنِي: جمعَ الهمِّ بسببِ المحزونِ عليهِ عنِ النَّظرِ في غيرِهِ.

وحاصلُ هذهِ الأقوالِ: أنَّ الحزنَ قبضٌ يَرِدُ علىٰ القلبِ، وقدْ يكونُ سببُهُ فَواتَ محبوبٍ أوِ انتظارَ مُؤلمٍ، وربَّمَا طرقَ القلبَ القبضُ لأمرٍ يُعْرَفُ بعدَ حينٍ، وقدْ يكونُ لهُ سببٌ تقدَّمَ سببُهُ العبدُ، فيذكرُ العبدُ[٢] القبضَ ولا يدرِي سبَبَهُ.

والحزنُ تارةً يكونُ قويًّا، وتارةً يكونُ ضعيفًا، فمتَىٰ كانَ في قبضِ العبدِ اتِّساعٌ للنَّظرِ في أسبابِ القبضِ أو الحيلةِ في الخلاصِ منهُ كانَ فيهِ «تفرقةٌ»[٣]، ومتَىٰ تراكَمَ وتوالَىٰ علَىٰ القَبْضِ سُمِّيَ «كمداً»، وبينَهُمَا حالةٌ تُسَمَّىٰ «الشَّجَىٰ»؛ وهوَ إذَا خطرَ ببالِ العبدِ السَّببُ الَّذِي أحزَنَهُ وحَزِنَ مِنْ أجْلِهِ وكانَ محموداً شرْعًا وجدَ انشراحًا في صدْرِهِ بمَا مَنَّ عليهِ بهِ منَ الحزنِ، فسُمِّيَتْ هذِهِ الحالةُ شجًا[٤].

وسأَلَ المحاسبِيُّ[٥] شيخَهُ: مَا علامَةُ الشَّجَىٰ؟ قالَ: دوامُ البكاءِ ممزوجًا بفرحٍ لغَلَبَة[٦] معرفةِ النِّعمةِ عليهِ فِي الحزنِ والبكاءِ.

قالَ: قلتُ: فلَهُ حالاتٌ في ظاهرِهِ تدلُّ علىٰ الشَّجَىٰ من باطنِهِ؟ قالَ: نعَمْ، إذا هاجَ ذلِكَ في القلبِ ظهرَ علَىٰ اللِّسانِ علامتُهُ فترنَّمَ بالآيةِ وبالمثَلِ وباللَّفْظَةِ الحسنَةِ مِنَ الحكمةِ، فيجدُ فيهِ تنعُّمًا ويصافحُ فيهِ الحكمةَ فيرجعُ إلىٰ حالةِ الحزنِ،

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٧.

(٢) سقط من (ب) قوله: فيذكر العبد.

(٣) لأن همته لم تجتمع علىٰ ما تجلىٰ عليه الحق عَزَّوَجَلَّ به. انظر: نتائج الأفكار ٢/٣٤٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٥) ورد قوله في: الإبانة لابن فورك ص١٤١.

(٦) في (أ، ب): لعله، والتصويب من الإبانة لابن فورك.

كمَا قالَ الحكيمُ: ترنَّمَ الحزينُ عن تفاقُمِ الحزنِ عليهِ [١/١٢٣٦أ] مشافهةً لكمدِهِ، قلتُ: بِمَ يترنَّمُ المحزونُ عندَ تفاقُمِ الحزنِ عليهِ؟ قالَ: إذَا طالعَ الرَّجاءَ بحُسنِ الظَّنِّ انتعشَ القلبُ وتروَّحَ مِنْ ضيقِ الحَصْرِ والكَرْبِ، كمَا قالَ الحكيمُ[(١)]:

وَيُنْعِشُ قَلْبِي حُسْنُ ظَنِّي بِنَاعِشِي ❁ فَأَهْذِي وَلَوْلَا ذَاكَ بُحْتُ بِأَسْرَارِي
وَمَا لِي سِوَى الإِطْرَاقِ وَالصَّمْتِ حِيْلَةٌ ❁ وَوَضْعِي عَلَى خَدِّي يَدَيَّ عِنْدَ تَذْكَارِي
وَبَوْحِي إِلَى سُؤْلِي بِسِرِّي وَعَوْلَتِي ❁ وَصَوْنِي عَنِ المَخْلُوقِ مَكْنُونَ إِضْمَارِي
فَإِنْ طَرَقَتْنِي عَبْرَةٌ بَعْدَ عَبْرَةٍ ❁ تَجَرَّعْتُهَا حَتَّى إِذَا عِيلَ تَصْبَارِي
أَفَضْتُ دُمُوعًا جَمَّةً مُسْتَهِلَّةً ❁ أُطَفِّي بِهَا حَرًّا تَضَمَّنَ أَقْطَارِي
فَيَا مُنْتَهَى سُؤْلِ المُرِيدِينَ سَيِّدِي ❁ أَبِحْنِي مَحلَّ الأُنْسِ مَعْ حَطِّ أَوْزَارِي
فَلَسْتُ أُبَالِي فَادِحًا بَعْدَ فَادِحٍ[(٢)] ❁ إِذَا كُنْتَ فِي الدَّارَيْنِ يَا غَايَتِي جَارِي

هذَا الكلامُ على حقيقةِ الحُزْنِ وأقسامِهِ.

وأمَّا أسبابُهُ: فالفكرُ[(٣)] فيما تقدَّمَ منَ التَّقصيرِ في العملِ الَّذي يعلمُ العبدُ طلبَ مولَاهُ لهُ وحضَّهُ وندبَهُ إليهِ فضْلًا عمَّا أوجبَهُ عليهِ، وكذلِكَ وقوعُهُ فيمَا زجرَهُ عنهُ ونهَاهُ، وكذلِكَ معرفتُهُ بتقصيرِهِ عن مَرَاتبِ أوليائِهِ وقُصُورِهِ عمَّا نَالُوهُ مِنَ الحقِّ في دُنياهُمْ فضْلًا عنْ آخرتِهِمْ، كيفَ تنعَّمُوا وتلذَّذُوا بمولَاهُمْ في ليلِهِمْ[(٤)] ونهارِهِمْ وسائِرِ عباداتِهِمْ.

---

(١) من الطويل، ونسب بعضها لذي النون المصري في: تاريخ دمشق ١٧/٤٤٠، والثبات عند الممات ص١٦٥، وتنوير الغبش ص١٩٩.

(٢) في (ب): قادح.

(٣) في (أ): والفكرة.

(٤) في (ب): ليلتهم.

فالفكرُ فِي هذهِ الجهاتِ، والتَّقصيرُ عنْ نيلِ هذهِ الغاياتِ والدَّرجاتِ، يغرسُ في القلبِ الحزنَ علىٰ مَا فاتَ، والحسرةَ علىٰ عَدمِ الأحوالِ الشَّريفةِ قبلَ المَمَاتِ، وقَدْ روِيَ[(١)]: «ما حزنَ عبدٌ في الدُّنيَا إلَّا فرَّحَهُ اللهُ غدًا، ولا سُرَّ مؤمنٌ في الدُّنيَا إلَّا أحزنَهُ اللهُ غدًا».

وهذا إذَا كانَ حزنُهُ في الدُّنيَا للهِ، وعلىٰ فَواتِ حظِّهِ منَ اللهِ جازَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في آخرتِهِ، وكذلِكَ إذَا كانَتْ مسرَّتُهُ فِي الدُّنيَا بالغفلاتِ والتَّلذُّذِ بالشَّهواتِ، وتَوديرِ العُمرِ في البطالاتِ، ورأَىٰ في الآخرةِ أربابَ الجدِّ والحزمِ في عمارةِ الأوقاتِ بأنواعِ القُرُبَاتِ، اشتدَّ حزنُهُ علىٰ مَا فاتَ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ويستعينُ العبدُ بتحمُّلِ أعباءِ الحُزنِ والصَّبرِ عليهِ بأحوالِ الصَّابرِينَ، وثمراتُهُ لهُمْ في الآخرةِ باليقِينِ، وقدْ كانَ الحسنُ البصرِيُّ مِن أشدِّ النَّاسِ حُزْنًا، وكانَ كلُّ مَنْ رآهُ ظنَّ أنَّهُ تجدَّدَتْ عليهِ مصيبةٌ؛ لمَا يطرقُ قلبَهُ ووجهَهُ منَ الكآبةِ في كلِّ وقتٍ [١/٢٣٦ب].

وحُكِيَ أنَّهُ قالَ لأصحابِهِ[(٢)]: «قومُوا بِنَا نزورُ العلاءَ بنَ زيادٍ، وكانَ العلاءُ بنُ زيادٍ منَ المحزونِينَ الَّذِينَ سلَّهُمُ الحزنُ حتَّىٰ قامَتْ أختُهُ تندفُ تحتَهُ القطنَ ليمكنَهُ وضعُ جنبِهِ بالأرضِ لضعْفِهِ، فلمَّا دخلَ عليهِ الحسنُ البصرِيُّ قالَ لهُ: كيفَ أنتَ يَا علاءُ؟ فقالَ العلاءُ: وا حُزْنَاهُ علىٰ الحزنِ، فحزنَ لكونِهِ لمْ يحزَنْ، فلمَّا سمعَ هذَا مِنْ كلامِهِ الحسنُ، قالَ لأصحابِهِ: قومُوا فإلَىٰ هذَا انتهَىٰ استقلالُ الحزنِ»، يعنِي: استصغرَ حزنَ نفسِهِ لمَا رأَىٰ مِن حزنِ العلاءِ واستقلالِهِ لمَا هوَ فيهِ منَ الحُزنِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهم والحزن ص٤٤ بلفظ: «ووالله ما اجتمعا في قلب عبد قط حزن الآخرة وفرح بالدنيا إن أحدهما ليطرد صاحبه».

(٢) ورد في: الهم والحزن ص٥٤، وحلية الأولياء ٢/٢٤٢، وقد سبق نحوه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «الحُزْنُ: [حالٌ](٢) يَقْبِضُ القَلْبَ عَنِ التَّفَرُّقِ فِي أَوْدِيَةِ الغَفْلَةِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يحسُنُ أنْ يكونَ للتَّحرُّزِ لَا فِي الحُزنِ، فإنَّهُ تفعُّلٌ، كالتَّباكِي والبكاءِ، والحزنُ قبضٌ يطرقُ القلبَ لسببٍ منَ الأسبابِ الماضيةِ أوِ المستقبلةِ، وهوَ مِن ثمراتِ الخوفِ، فإنَّ الخوفَ إذا قوِيَ وقرُبَ حُصُولُ المخوِّفِ أورثَ القلبَ الحُزْنَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «والحُزْنُ مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ السُّلُوكِ(٤).

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: صَاحِبُ الحُزْنِ يَقْطَعُ مِنْ طَرِيقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي شَهْرٍ مَا لَا يَقْطَعُهُ مَنْ فَقَدَ حُزْنَهُ سِنِينَ.

وَفِي الخَبَرِ(٥): (إِنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ).

وَفِي التَّوْرَاةِ(٦): (إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا جَعَلَ(٧) فِي قَلْبِهِ نَائِحَةً، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا جَعَلَ فِي قَلْبِهِ مِزْمَارًا(٨)).

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٧.

(٢) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٧.

(٤) لأنه من ثمرة أعمالهم، وتجليات عبودياتهم في حال سيرهم.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٥١، والطبراني في معجم الشاميين ٢/٣٥١، ٣/١٧٠، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٥١٥، وابن حجر في المطالب العالية ١٣/٥١٣. وهذا لا يتعارض مع بِشْرِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الحزن عمل القلب، والبِشْر عمل الجوارح.

(٦) نقل عنها في: شرح نهج البلاغة ٦/١١٢.

(٧) في (ف): نصب.

(٨) أي: يجلب له الفرح.

وَرُوِيَ(١) أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرِ(٢)».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**يقطعُ صاحبُ الحُزنِ من طريقِ اللهِ - تعالىٰ - ما لَا يقطعُهُ مَنْ فقدَ الحزنَ فِي سنينَ**»، وذلِكَ أنَّ مَنْ حزنَ علىٰ التَّقصيرِ جدَّ فِي التَّحصيلِ، ومَنْ خشِيَ الفواتَ اجتهدَ قبلَ المَمَاتِ، وإذَا كانَ العبدُ غافلًا سَالِكًا علىٰ الهُوَيْنَىٰ يمشِي تارةً ويستريحُ أُخْرَىٰ، فلَا نسبةَ بينَ وُصُولِهِ إلىٰ مقصودِهِ وبينَ مَنْ تقدَّمَ ذِكْرُهُ مِن أصحابِ الجدِّ والتَّشميرِ، وما ذكرَهُ منَ الخبرِ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ، وفِي التَّوراةِ: إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا جَعَلَ فِي قَلْبِهِ نَائِحَةً**» صحيحٌ، فإنَّ الحزنَ علىٰ الخيراتِ وعلىٰ فوَاتِ الأوقاتِ في البطالاتِ مِن جُمْلَةِ نعمِ اللهِ علىٰ العبْدِ، يقومُ لهُ مقامَ العملِ إذَا قصَّرَ بهِ عنهُ.

وقدْ حُكِيَ أنَّ رجلًا مضىٰ إلىٰ مكَّةَ ففاتَهُ الحجُّ فقعدَ عندَ الكعبةِ منكسِرًا مُتذَلِّلًا، فرَآهُ بعضُ الصَّالحينَ، فعلِمَ مَا بهِ، فقالَ لهُ: «لِي كذَا [١/٢٣٧أ] وكذَا حجَّةً، فانكسارُكَ وتذلُّلُكَ أحسنُ مِن حجَّاتِي كلِّهَا»، فكانَ ذلكَ سببًا لمعرفتِهِ بمَا مَنَّ اللهُ - تعالىٰ - عليهِ مِنْ حُزْنِهِ وانكسارِهِ.

«**وقَدْ رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كانَ متواصلَ الأحزانِ**»، وحُزْنُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكونُ علىٰ وجوهٍ فيمَا بينَهُ وبينَ ربِّهِ مِنْ مقاماتِهِ الشَّريفةِ ودرجاتِهِ العاليَةِ، كمَا حُكِيَ مِن استغفارِهِ في اليومِ مائةَ مرَّةٍ(٣).

ويحتملُ أنْ يكونَ حُزْنُهُ علىٰ أمَّتِهِ كيفَ يكونُ حالُهُمْ بعدَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدْ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/١٥٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/١٥٥، ودلائل النبوة ١/٢٨٧، والسيوطي في الشمائل المحمدية ص١٨٤.

(٢) في (أ): التفكر، والمثبت موافق لما في مظان تخريجه.

(٣) كما في صحيح مسلم ٤/٢٠٧٥ ـ حديث رقم (٢٧٠٢): «... وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

صرَّحَ بذلِكَ عندَ موتِهِ لمَّا أتاهُ جبريلُ وأعلَمَهُ بمَا أعدَّ اللهُ لهُ، فأعلَمَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أهمَّ(١) الأمورِ عندَهُ هوَ حالُ أمَّتِهِ بعدَهُ، حتَّىٰ أعلَمَهُ جبريلُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنَّ الجنَّةَ حرامٌ علىٰ سائرِ الأممِ حتَّىٰ تدخلَهَا أنتَ وَأمَّتُكَ ـ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ ـ فقالَ: «الآنَ قرَّتْ عَيْنِي»(٢).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ**(٤): **الحُزْنُ مَلِكٌ، فَإِذَا سَكَنَ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَرْضَ أَنْ يُسَاكِنَهُ أَحَدٌ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الحزنَ إذا نزلَ في القلبِ عَمَرَهُ وغَمَرَهُ حتَّىٰ لا يبقَىٰ فيهِ ذِكْرٌ لغيرِ مَا هوَ محزونٌ عليهِ أوْ بسببِهِ(٥)، ولذلِكَ قالَ: «**هوَ ملكٌ إذا نزلَ في قلبٍ لمْ يشاركْهُ فِي القَلْبِ غيرُهُ**»(٦).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧): «**وَقِيلَ**(٨): **القَلْبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُزْنٌ خَرِبَ، كَمَا أَنَّ الدَّارَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ تَخْرُبُ**.

---

(١) في (ب): لهم.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/٦٣، وورد هذا الجزء فيه بلفظ: «... أَبْشِرْ يا حَبِيبَ اللهِ فإن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يقول: قد حُرِّمَتِ الْجَنَّةُ علىٰ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالأُمَمِ حتي تُدَاخِلَهَا أنت وَأُمَّتُكَ يا محمد، قال: الآنَ طَابَتْ نَفْسِي». وأخرجه أيضا أبو نعيم في: حلية الأولياء ٤/٧٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٧.

(٤) ورد قوله في: الهم والحزن ص٩٥، والمجالسة وجواهر العلم ص٢١٤، عن عبد الواحد بن زيد.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٤.

(٦) الشرح ١/٤٦٤.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٨) قول مالك بن دينار في: الهم والحزن ص٣٢، وروضة العقلاء ص٢٧، وحلية الأولياء ٢/٣٦٠، وتاريخ دمشق ٥٦/٤١٥، وصفة الصفوة ٣/٢٨٣، وتسلية أهل المصائب ص٤٦، وسير أعلام النبلاء ٥/٣٦٣.

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ القُرشِيُّ: بُكَاءُ الحُزْنِ يُعْمِي، وَبُكَاءُ الشَّوْقِ يُغْشِي عَلَى البَصر وَلَا يُعْمِي، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ قولُهُمْ: «**مَا فارقَ الخوفُ قلبًا إلَّا خرِبَ**»، فإذَا كانَتْ مُقَدِّماتُ الحُزْنِ ـ وهوَ الخوفُ ـ مَا يستغنِي القلبُ عنهَا في العِمَارَةِ، ولا سيَّمَا الحُزْنُ الَّذِي هوَ علىٰ أمرٍ واقعٍ أوْ قريبِ الوقوعِ فهُوَ لحياةِ القلبِ ونظرِهِ لمَا خلقَ لهُ أنشطُ.

وقولُهُ: «**بُكَاءُ الحُزْنِ يُعْمِي، وبكاءُ الشَّوقِ يُغْشِي**، وتأنُّسُهُ بقولِهِ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾»، فجعلَ سببَ العَمَىٰ الحُزْنَ[١]، وهذَا فيهِ التفاتٌ إلىٰ أنَّ الأحزانَ تمنعُ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ، وتكثرُ معَهَا الهمومُ والغُمُومُ، فتصعدُ منَ المعدةِ أبخِرَةٌ رديَّةٌ[٢] مظلِمَةٌ تكونُ سببَ زوالِ الإدراكِ عنِ العينِ وقتَ البكاءِ.

وأمَّا بكاءُ السُّرُورِ فهوَ مَمْزُوجٌ بالفرَحِ، وهيَ أضدَّادُ الغمِّ والهَمِّ، وهوَ بكاءٌ لحُصُولِ المطلوبِ المفروحِ بهِ [١/٢٣٧ب]، وشتَّانَ بينَ بكاءِ السُّرورِ والفَرَحِ، وبينَ بكاءِ الحُزْنِ والتَّرَحِ[٣].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ ابْنُ خَفِيفٍ[٥]: الحُزْنُ: حَصْرُ النَّفْسِ عَنِ النُّهُوضِ فِي الطَّرَبِ**».

---

(١) فيه إشارة إلىٰ أن تأثير الحزن أقوىٰ من تأثير الشوق.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٥.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٥) سبق تخريجه.

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ بيَّنَّا[١] أنَّهُ أقربُ إلى الصَّبرِ منَ الحزنِ ؛ لمَا فيهِ مِن حَصْرِ النَّفسِ[٢].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَسَمِعَتْ رَابِعَةُ رَجُلًا[٤] يَقُولُ: وَا حُزْنَاهُ! ، فَقَالَتْ: قُلْ: وَا قِلَّةَ حُزْنَاهُ ، لَوْ كُنْتَ مَحْزُونًا لَمْ يَتَهَيَّأْ لَكَ أَنْ تَتَنَفَّسَ».

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على فقهِهَا ، فإنَّ قولَ القائلِ: «وَا حُزْنَاهُ» استغاثةٌ ممَّا هوَ فيهِ منَ الحُزنِ ، ولَوْ كانَ حزنُهُ شديدًا لمَا تفرَّغَ للاستغاثَةِ ، فلذلِكَ أنكرَتْ عليهِ ، وقالَتْ لهُ: «قُلْ: واقِلَّةَ حُزْنَاهُ» ، ولذلِكَ قالَ العارفُ بذلِكَ وهوَ العلاءُ بنُ زيادٍ لمَّا سألَهُ الحسنُ قالَ[٥]: «وا حُزنَاهُ على الحزنِ!» ؛ لأنَّهُ لوْ قالَ: «واحُزْنَاهُ» وسكتَ احتملَ أنْ يكونَ منَ الحزنِ ، فبيَّنَ لهُ بقولِهِ: «على الحزنِ» يعنِي على حُصُولِهِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ[٧]: لَوْ أَنَّ مَحْزُونًا بَكَى فِي أُمَّةٍ لَرَحِمَ اللهُ ـ سبحانه ـ تِلْكَ الأُمَّةَ بِبُكَائِهِ».

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذَا يدلُّ على أنَّ المَحْزُونَ شَدِيدُ الاضطِّرارِ[٨] إلى

---

(١) أي في أول هذا الباب.

(٢) أي: انحصارها.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٤) هو الثوري كما في: طبقات الصوفية ص٣٨٩ ، وصفة الصفوة ٤/٢٩ ، والمنتظم ٧/٣٢٨ ، ووفيات الأعيان ٢/٢٨٥.

(٥) سبق تخريجه في أول الباب.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٧) ورد قوله في: الهم والحزن ص٦٢. ونسب للداراني في: طبقات الصوفية ص٧٩ ، وبلا نسبة في: أنس المنقطعين لعبادة رب العالمين ٢/٢٩٦.

(٨) في (ب): الاضطراب ، والصواب المثبت.

ما حزنَ منهُ ، أوْ إليهِ ، أوْ عليهِ ، ومعَ الاضطرارِ وعدَ اللهُ الإجابةَ ، وتمدَّحَ بهَا ، فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] .. الآيةَ .

وقَدْ حُكِيَ أنَّ امرأةً أتتْ إلىٰ الجُنَيْدِ فقالَتْ لهُ[١] : ضاعَ ولدِي وأنا قَلِقَةٌ عليهِ ، ادْعُ اللهَ أنْ يَرُدَّهُ عليَّ ، فقالَ لهَا : اصبِرِي واحتسِبِي ، قالَ : فمضتْ وغابَتْ مدَّةً ، ثمَّ رجعَتْ إليهِ تسألُهُ في الدُّعاءِ ، فأمرَهَا بذلِكَ ، أعنِي بالصَّبرِ ، فجاءَتْ في الثَّالثةِ فقالَتْ : عِيلَ صَبْرِي ، فادعُ اللهَ لِي ، فسكَتَ ، ثمَّ قالَ لهَا : إنْ كنتِ صادقةً فقدْ جاءَ ابنُكِ ، فذهبَتْ ثمَّ جاءَتْ تشكرُهُ ، فقالَتْ لهُ : قدْ جاءَ ولَدِي ، فسُئِلَ عنْ ذلِكَ فقالَ : قولُهُ ـ تعالىٰ ـ : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ .

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الجُنيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا تحقَّقَ اضطرارَهَا دعَا لهَا ، وامتلأَ قلبُهُ بالشَّفقةِ عليهَا ؛ وهيَ الحالةُ الَّتِي وعدَ اللهُ عليهَا الإجابةَ .

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢] : **وَكَانَ دَاوُدُ الطَّائِي الغَالِبُ عَلَيْهِ الحُزْنُ ، وَكَانَ يَقُولُ بِاللَّيْلِ[٣] : إِلَهِي ، هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الهُمُومَ ، وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الرُّقَادِ .**

وَكَانَ يَقُولُ[٤] : كَيْفَ يَتَسَلَّىٰ مِنَ الحُزْنِ مَنْ تَتَجَدَّدُ عَلَيْهِ المَصَائِبُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ؟!» .

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فقولُهُ : «**هَمُّكَ** [١/٢٣٨أ] **عطَّلَ عليَّ الهُمُومَ**» فيهِ سؤالٌ وتضرُّعٌ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يفرِّجَ عنهُ ما هوَ فيهِ بأنْ يُنِيلَهُ مطلوبَهُ منهُ ويفتحَ عليهِ بهِ .

---

(١) ورد قولها في : المختار من مناقب الأخيار ١/٣٣٦ ، والدعاء المأثور للطرطوشي ص٣٥ .

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨ .

(٣) ورد قوله في : الهم والحزن ص٩١ ، وطبقات الصوفية ص٣٩٥ ، وتاريخ الإسلام ١٠/١٨٠ ، وشرح حديث لبيك لابن رجب الحنبلي ص٩٩ .

(٤) ورد قوله في : الهم والحزن ص٥٣ ، وحلية الأولياء ٧/٣٥٦ .

وكذلِكَ قولُهُ: «كيفَ يَتَسَلَّىٰ مِنَ الحُزْنِ مَنْ تَتَجَدَّدُ عليهِ المَصَائِبُ؟» يدلُّ ذلكَ علىٰ كمالِ تفطُّنِهِ وشُغلِهِ بربِّهِ، فيعدُّ غفلتَهُ عنهُ مصيبةً، وشغلَهُ بغيرِهِ مصيبةً، فبهذَا الاعتبارِ يحزنُ لتوالِي المُشْغلاتِ علىٰ قَلْبِهِ عن ربِّهِ، فكلامُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن بحرٍ واحدٍ، وهوَ يدلُّ علىٰ كَمَالِ طلبِهِ لربِّهِ، وشغلِ همَّتِهِ بحُصُولِ قُرْبِه.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقِيلَ**[2]: **الحُزْنُ يَمْنَعُ مِنَ الطَّعَامِ، وَالخَوْفُ يَمْنَعُ مِنَ الذُّنُوبِ**[3]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ الخوفَ منَ الذُّنوبِ يؤَمِّنُ منهُ التَّوبةُ لوعدِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالمغفرةِ لمَنْ تابَ، فإذَا مَنَّ اللهُ علىٰ العبدِ بالتَّوبةِ ووقعَتْ منهُ علىٰ شروطِهَا هدأَ خَوْفُهُ وَقَلَّ قَلَقُهُ، بخلافِ مَنْ تعلَّقَ قلبُهُ بمقصودٍ شريفٍ وتأخَّرَ حصولُهُ لهُ، وتوالَىٰ حَجْبُهُ عنهُ، فأورثَهُ ذلكَ الحزنَ وشغلَهُ همُّهُ بهِ وعدمُ وصُولِهِ إلىٰ مَطْلُوبِهِ عنْ طعامِهِ وشَرَابِهِ، فإنْ كانَ رجاؤُهُ في حُصُولِهِ متمكِّنًا خفَّ بعضُ ما بِهِ، وإنْ لمْ يكنْ وغلبَ علىٰ ظنِّهِ الفواتُ كانَ أشدَّ عليهِ منَ المَمَاتِ، ولذلِكَ قالَ بعضُهُمْ[4]: «الفَوْتُ[5] أشدُّ مِنَ المَوتِ»، وهوَ صَحيحٌ، فإنَّ الموتَ أمرٌ مترقَّبٌ وربَّمَا تهيَّأَ العبدُ لهُ فيخفُّ[6] عندَ نزولِهِ، بخلافِ ما تعلَّقَ القلبُ بكونِهِ وحُصُولِهِ وأعملَ العبدُ نفسَهُ مدَّةً في طلبِهِ حتَّىٰ أعرضَ لذلِكَ عن سائِرِ مآربِهِ وطعامِهِ وشرابِهِ، ثمَّ فاتَ ذلكَ دفعةً، فهوَ أشدُّ منَ الموتِ، وعلىٰ حسبِ شرفِ المطلوبِ فِي الدَّرجاتِ يكونُ الألمُ عليهِ عندَ الفَواتِ، ولا أجلَّ ولا أشرَفَ منْ قُرْبِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والتَّلذُّذِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٢) ورد في: منهاج العابدين للغزالي ص٢٤٩.

(٣) يشير كلامه إلىٰ أن الخوف أتم وأشرف من الحزن.

(٤) قول يحيىٰ بن معاذ في: طبقات الصوفية ص١٠١، والرسالة القشيرية ١/٦٥.

(٥) في (أ): الفوات، والأصح المثبت ليتحقق السجع.

(٦) في (ب): فخف.

بمُناجاتِهِ وأُنْسِهِ، لا قطعَنِي اللهُ وإيَّاكُمْ عنْ قُرْبِهِ، ولا بلَانِي وإيَّاكُمْ بأسبابِ حَجْبِهِ، إنَّهُ قريبٌ مجيبٌ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ: بِمَ يُسْتَدلُّ عَلَى حُزْنِ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ: بِكَثْرَةِ أَنِينِهِ.

وَقَالَ السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ(٢): وَدِدْتُ أَنَّ حُزْنَ النَّاسِ كُلَّهُ(٣) [أُلْقِي](٤) عَلَيَّ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ مَنْ تراكَمَ عليهِ الألمُ لكمالِ حُزْنِهِ عسرَ عليهِ التَّعبيرُ بلسانِهِ لكمالِ حصرِهِ وضيقِهِ، وإنَّمَا يتنفَّسُ ويتروَّحُ بأنينِهِ، ولذلِكَ تمنَّىٰ مَنْ رغبَ فِي هذهِ الدَّرجةِ أنْ يجعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ حزنَ سائرِ المَحْزُونِينَ عليهِ؛ لينالَ كمالَ ما أعطاهُ اللهُ للمَحْزُونِينَ عليهِ، أوْ علَىٰ العبدِ منهُ(٥) [١/٢٣٨ب].

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الحُزْنِ، فَكُلُّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا يُحْمَدُ حُزْنُ الآخِرَةِ، فَأَمَّا حُزْنُ الدُّنْيَا فَغَيْرُ مَحْمُودٍ، إِلَّا أَبَا عُثْمَانَ الحِيرِيَّ، فَإِنَّهُ قَالَ(٧): الحُزْنُ بِكُلِّ وَجْهٍ فَضِيلَةٌ وَزِيَادَةٌ لِلْمُؤْمِنِ مَا لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ مَعْصِيَةٍ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُوجِبْ تَخْصِيصًا فَإِنَّهُ يُوجِبُ تَمْحِيصًا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ أبو عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالغٌ جدًّا، فإنَّ الحُزْنَ علىٰ فَواتِ الخيرَاتِ الأُخرويَّةِ بيِّنَ كونَهُ مِن جُملَةِ الطَّاعاتِ، وكذلِكَ الألمُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١١٨.

(٣) في (ب): «حزن كل الناس».

(٤) زيادة من (ب).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٦.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٨٥، ومدارج السالكين ١/٥٠٧، والإرشاد والتطريز ص١٣٠.

والحزنُ علىٰ ارتكابِ المخالفَاتِ، وإنَّمَا الفقهُ فِي الحُزْنِ علىٰ فَواتِ التَّنعُّمِ باللَّذَّاتِ المُباحَاتِ، ونَيْلِ الشَّهواتِ مِن أنواعِ الأطعمَةِ والمَنكُوحَاتِ الَّتِي ليسَتْ بمحرَّمةٍ ولا منَ المكروهاتِ، فإنَّ ألمَهُ علىٰ هذهِ المَصَائبِ إذَا نزلَتْ بهِ وصَبْرَهُ علَىٰ تحمُّلِهَا وكفَّهُ نفسَهُ عنِ التَّسخُّطِ لمَا نزلَ بهِ منهَا يُكفِّرُ عنهُ السَّيِّئاتِ.

وقولُهُ: «**فإنَّهُ إنْ لمْ يُوجِبْ تخصيصًا**»، يَعْنِي: أنَّهُ إنْ لم يَنَلْ به كَمَالَ الدَّرجاتِ[1] في أرفَعِ المندوباتِ، فقدْ نالَ بهِ تمحيصًا؛ أيْ: أنَّهُ مِن جملةِ الطَّاعاتِ، يمحُو اللهُ بهِ عنهُ ما في صحيفَتِهِ منَ السَّيِّئَاتِ بكرَمِهِ يومَ الحسابِ والمقاصَصَاتِ، فهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**إنْ لمْ يُوجِبْ تخصيصًا فيُوجِبُ تَمْحِيصًا**[2]».

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَعَنْ بَعْضِ المَشَايِخِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَافَرَ وَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ**[4]: **إِنْ رَأَيْتَ مَحْزُونًا فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ**».

۞ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ فضيلةِ المحزونِينَ عندَهُ، فإنَّهُ إذا سَلَّمَ عليهِمْ ردُّوا عليهِ بأفضلَ ممَّا قالَ، فينتفعُ بدعائِهِمْ وردِّهِمْ، ويحتملُ وجهًا آخرَ، وهوَ أنْ يعرفَ هذا الشَّخصُ[5] مِنْ أصحابِهِ قلَّةَ المحزونِينَ في الدُّنيَا، وأنَّهُمْ آحادٌ في الصَّالِحِينَ، وفيهِ أيضًا تعريفُهُ بفضلِهِمْ لكمالِ معرفتِهِمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ ربَّمَا فاتَهُمْ منهُ ممَّا سبقَ لهُمْ عندَهُ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**:

---

(١) في (أ): «أنَّهُ ينالُ فيهِ كمالَ»، والأصح المثبت.

(٢) أي: محوا للذنوب.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

(٤) ورد قوله في: الإرشاد والتطريز ص٩٣.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨.

كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِلشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا: هَلْ طَلَعْتِ اليَوْمَ عَلَىٰ مَحْزُونٍ؟».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تقدَّمَ مِنْ قلَّةِ المحزونِينَ فِي الصَّالحينَ، فإنَّهُمْ أكملُ النَّاسِ معرفَةً ـ كمَا تقدَّمَ ـ.

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَكَانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا ظَنَّ أَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِمُصِيبَةٍ[(٢)].

وَقَالَ وَكِيعٌ لَمَّا مَاتَ [١/٢٣٩أ] الفُضَيْلُ[(٣)]: ذَهَبَ الحُزْنُ اليَوْمَ مِنَ الأَرْضِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ[(٤)]: أَكْثَرُ مَا يَجِدُهُ المُؤْمِنُ فِي صَحِيفَتِهِ مِنَ الحَسَنَاتِ الهَمُّ وَالحُزْنُ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ لأَنَّ الحَسَنَاتِ قِسْمَانِ: قسمٌ منهَا مشروطٌ بالإخلاصِ، وقسمٌ على قدرِ المَصَائِبِ والبَلَايَا الَّتِي تَرِدُ على العبدِ، ولمَّا كانَ إخلاصُ العملِ فيهِ عسرٌ قلَّتِ الحسناتُ المترتِّبَةُ على الإخلاصِ، وكثُرَتِ الحسناتُ الثَّابتةُ قُبالَةَ[(٥)] البلَايَا والنَّوازلِ بالعبدِ في مالِهِ ونفسِهِ وولدِهِ إذَا صبرَ ولمْ يتسخَّطْ[(٦)].

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِي رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٢) ورد في: الزهد لابن حنبل ص٢٥٦، وحلية الأولياء ٢/١٣٣، وتهذيب الكمال ٦/١١٢، وصفة الصفوة ٣/٢٣٣، وتسلية أهل المصائب ص٤٦.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٨/٣٩٠، وتهذيب الكمال ٢٣/٢٩٨، وتاريخ الإسلام ١٢/٣٣٦.

(٤) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٤٨. وفيه بيان لفضيلة الحزن بفضيلة ما يترتب عليه من الأجر.

(٥) أي: مواجهة. انظر: الأصول لابن السراج ٣/١٧٨.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٦٩.

سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ بَكْرَانَ يَقُولُ، [سَمِعْتُ مُحَمَّد بن عَلِي المَرْوزِيّ يَقُول][(١)]: سَمِعْتُ أَحْمَد ابْنَ أَبِي رَوْحٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ الْفُضَيلَ بْنَ عِياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: كَانَ السَّلَفُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يَقُولُونَ[(٢)]: إِنَّ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً، وَزَكَاةُ العَقْلِ[(٣)] طُولُ الحُزْنِ.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا لأنَّ الزَّكاةَ جعلَهَا الشَّرعُ مُطَهِّرَةً للمالِ، وكذلِكَ الحزنُ يطهِّرُ القلبَ مِن سائرِ خواطرِ الدُّنيَا وشهواتِهَا؛ لمَا امتلأَ بهِ مِن أمْرِ الآخرةِ[(٤)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الفَرَّاءَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الوَرَّاقَ يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبَا عُثْمَانَ[(٦)] يَوْمًا عَنِ الحُزْنِ، فَقَالَ[(٧)]: الحَزِينُ لَا يَتَفَرَّغُ إِلَىٰ سُؤَالِ الحُزْنِ، فَاجْتَهِدْ فِي طَلَبِ الحُزْنِ ثُمَّ سَلْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فمعنَاهُ: أَنَّكَ فارغٌ من الحُزْنِ، ولولَا فراغُكَ منهُ لمَا سألْتَ عنهُ.

وقوله: «اجتهِدْ في طلبِهِ ثمَّ سَلْ[(٨)]»، معنَاهُ: أنَّكَ لو كمُلَ حُزْنُكَ لمَا تفرَّغْتَ للسُّؤالِ عنهُ، هذَا مرادُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) زيادة من (ب، ف).

(٢) ورد قوله في: شعب الإيمان ١٦٤/٤، وشرح نهج البلاغة ١١٢/٦.

(٣) يعني: القلب.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٦٧/١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٦٩/١.

(٦) أي: الحيري.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٣٨٤/١ ـ ٣٨٥.

(٨) أي: عنه.

وقَدْ سَأَلَ الحَسَنُ البصرِيُّ ـ كمَا تقدَّمَ[١] ـ العلاءَ عنْ حالِهِ في الحزنِ فأجابَهُ: «وا حُزْنَاهُ علىٰ الحزنِ»، فقدْ يكونُ الإنسانُ حَزِينًا ويسألُ: هَلْ فوقَ حالِهِ في الحزنِ حالةٌ أُخْرَىٰ؟ ليجتهِدَ في نيْلِهَا، فعلَىٰ هذا الوجْهِ يسألُ الحزينُ عن درجاتِ الحُزْنِ ولكنْ لا يكونُ ذلِكَ إلَّا لمَنْ لمْ[٢] يتكامَلْ حُزْنُهُ، ولوْ تكامَلَ بالنِّسبةِ إلىٰ حالِهِ لاشتغلَ بهِ عَنْ غَيْرِهِ.

❋ ❋ ❋

(١) الدلالة ٢/٢٧٦.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

« بَابُ
الجُوعِ وَتَرْكِ الشَّهْوَةِ

قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾.

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الآيَةِ: [١/٢٣٩ب] ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فَبَشَّرَهُمْ بِجَمِيلِ الثَّوَابِ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مُقَاسَاةِ الجُوعِ.

وَقَالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد تضمَّنَتِ الآيةُ أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يبتلي بالجوعِ عبادَهُ ليعرفَ صبرَهُمْ وقيامَهُمْ بحقِّهِ(٢) في حالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وقدْ قالَ ـ تعالى ـ في آيةٍ أُخرى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ـ٣].

وإذا علِمَ العبدُ أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ كلَّفَهُ بالجوعِ وتَرْكِ شَهْوتِهِ في الصِّيامِ، وواصلَ رسولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلِكَ اللَّيلَ والنَّهارَ، وإنَّمَا نهى عنهُ رحمةً بأمَّتِهِ خوفًا مِن أنْ يفترضَ عليهِم، كمَا رَوَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا(٣): «أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنِ الوِصَالِ رحمةً بهِمْ»، فلمَّا واصلَ واصلُوا معهُ، فلمَّا فرَغَ الشَّهرُ: «قال: لَوْ مُدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَزِدْنَا حَتَّى يَدَعَ المُتَنَطِّعُونَ تَنَطُّعَهُمْ»(٤)، فإنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ أشفقَ النَّاسِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٠.

(٢) في (ب): بحاله.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٦٩٣ ـ حديث رقم (١٨٦٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٧٧٦ ـ حديث رقم (١١٠٤) بلفظ: «... فقال لو مُدَّ لنا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا=

علىٰ أمَّتِهِ وأتَىٰ بالحنيفيَّةِ السَّمْحَةِ، وقالَ[١]: «اكْلَفُوا مِنَ العَمَلِ مَا تَطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا».

ونحنُ[٢] نذكرُ حقيقةَ الجوعِ[٣]، وبيانَ المحمودِ منهُ والمذمومِ، ونذكرُ الأدلَّةَ علىٰ فضيلتِهِ، ومَا يثمرُهُ في الأبدَانِ والقُلُوبِ، واللهُ الموفِّقُ بمَنِّهِ وكرَمِهِ.

وأحسنُ الجوعِ ما دلَّ عليهِ الخبرُ الصَّحيحُ، ما رواهُ التِّرمذيُّ[٤] عنِ المِقْدَامِ بنِ معدِ يكَرِبَ، قالَ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»، وقدْ دعَا النَّبيُّ ﷺ لأهْلِهِ أنْ يجعلَ قُوتَهُمْ كفَافًا، لَا اقْتَارًا ولَا إسرافًا[٥]، وهذا متوسِّطٌ، وهوَ يرجعُ إلىٰ مَا تضمَّنَهُ بقيَّةُ الخبَرِ: «ثُلُثٌ للطَّعامِ، وثُلُثٌ للشَّرابِ، وثلثٌ للنَّفَسِ».

وأمَّا النَّبيُّ ﷺ فقدْ شدَّ الحجرَ علىٰ بطْنِهِ منَ الجُوعِ[٦]، وذلِكَ علىٰ وجْهِ القصْدِ والاختيارِ دونَ العدمِ والاضطِّرارِ، **وسنذكرُ مِنْ تقلُّلِهِ ﷺ ما يبيِّنُ لكَ فضيلةَ الجوعِ** والتَّقلُّلِ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ بالخبرِ الصَّحيحِ.

= وصَالًا يَدَعُ المُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُم...». والمتنطعون: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

(١) أخرجه بلفظه أبو داود في سننه ٢/ ٤٨، وأخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٣٧٣ بلفظ: «اكْلَفُوا من الأَعْمَالِ ما تُطِيقُونَ».

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أغفل المؤلف الحديث عن حقيقته؛ اكتفاء بذكر أقوال العلماء الآتية في حقيقته.

(٤) في سننه ٤/ ٥٩٠ ـ حديث رقم (٢٣٨٠).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال ١/ ٣٠٠، والمعجم الكبير ٢٥/ ١٠٦ بلفظ: «وَقَدَ رَبَطَ علىٰ بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الجُوعِ»، وأحمد في مسنده ٣/ ٤٤.

رَوَىٰ (البخارِيُّ)(١) عنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنها قالَتْ: «مَا أَكَلَ آلُ مُحَمَّدٍ أَكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ [١/٢٤٠أ] إِلَّا إِحْدَاهُمَا تَمْرٌ».

(مسلمٌ)(٢) و(البخارِيُّ)(٣) أَيْضًا عَنْ عائِشَةَ قالَتْ: «إِنَّا كُنَّا ـ آلَ مُحَمَّدٍ ـ لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا الماءُ وَالتَّمْرُ».

وعنهَا أيضًا قالَتْ(٤): «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ(٥) إِلَّا شَطْرَ شَعِيرٍ(٦) فِي رفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ».

وهذَا يدلُّكَ علىٰ تقلُّلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلِكَ يَحْمِلُ أهلَهُ علَىٰ التَّقلُّلِ؛ رغبةً لهُمْ في كمالِ الأجْرِ، وإذَا كانَتْ عائشةُ وهيَ ابنةُ أبِي بكرٍ الصِّدِّيقِ وأحبُّ نسائِهِ إليهِ لمْ يكُنْ في بيتِهَا بعدَ وفاةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِوَىٰ شطرِ شعيرٍ ـ والشَّطرُ: شيءٌ(٧) يُكَالُ بهِ ـ، فجعلَ اللهُ لهَا البركةَ فيهِ، فأكلَتْ منهُ زمانًا طويلًا حتَّىٰ طالَ عليهَا، فاكتَالَتْ ما بقِيَ منهُ ففرغَ، فلَو تركَتْهُ لدعاءِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأكلَتْ منهُ ما بقِيَتْ(٨).

---

(١) في صحيحه ٥/٢٣٧١ ـ حديث رقم (٦٠٩٠).

(٢) في صحيحه ٤/٢٢٨٢ ـ حديث رقم (٢٩٧٢).

(٣) في صحيحه ٥/٢٣٧٢ ـ حديث رقم (٦٠٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١١٢٩ ـ حديث رقم (٢٩٣٠)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٢٨٢ ـ حديث رقم (٢٩٧٣).

(٥) أي: حيوان أو إنسان.

(٦) أي: شيء من شعير.

(٧) في (ب): كيل.

(٨) قال النووي: «وفي هذا الحديث أن البركة أكثر ما تكون في المجهولات والمبهمات» شرح صحيح مسلم ١/١٠٧.

(مسلمٌ)[١] و(البخاريُّ)[٢] عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ ثُمَّ الهِلَالِ؛ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوْقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ، فَمَا كَانَ يُعِيْشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ؛ التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلْبَانَهَا فَيَسْقِيْنَاهُ».

فهلْ عقلْتَ يَا أخِي مضمونَ هذَا الخبرِ الصَّحيحِ، وأنَّ عائشةَ أخبرَتْ فيهِ عنْ بيتِهَا وبقيَّةِ أزواجِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهُنَّ تسعٌ، إنَّهنَّ بقيْنَ شهرَينِ متوالِيَيْنِ لَا يُوقَدُ في بيوتِهِنَّ نارٌ، يعنِي يُطبخُ بهِ شيءٌ، وإنَّمَا كانُوا يجتزِئُونَ بالتَّمرِ ويشربُونَ عليهِ الماءَ، وربَّمَا أُهْدِيَ لهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيءٌ منَ اللَّبَنِ فسقَاهُ أهلَهُ.

وإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أنْ يخطرَ ببالِكَ أنَّ ذلِكَ عنْ عجزٍ وعُدْمٍ، بلْ هوَ اختيارٌ منهُ لهذِهِ الحالةِ الَّتِي علِمَ أنَّ اللهَ يحبُّهَا منهُ، والدَّليلُ على ذلِكَ منَ العقلِ والنَّقلِ؛ أمَّا النَّقلُ المتَّفقُ عليهِ فإنَّهُ حبيبُ واللهِ، وأمَّا العقلُ فإنَّ المحبَّةَ منَ اللهِ للعبيدِ هوَ أنْ يفعلَ بهِمْ أفعالَ المحبوبِينَ، وبمقدارِ محبَّتِهِ لهُمْ يكونُ إكرامُهُ لهُمْ، فلمَّا علِمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ التَّقلُّلَ منَ الدُّنيَا هوَ الَّذِي يحبُّهُ إلهُهُ لهُ؛ ولذلِكَ خصَّهُ بهِ وزهَّدَهُ في الدُّنيَا [١/٢٤٠ب] لمَّا عُرِضَتْ عليهِ جبالُ تهامَةَ تسيرُ معَهُ ذهبًا وفضَّةً حيثُ شاءَ، فقالَ[٣]: «يا رَبِّ، أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، إنْ جُعْتُ تضرَّعْتُ وإنْ شبعْتُ شَكَرْتُ»، ولذلِكَ كانَ يدعُو لأهلِهِ بأنْ يجعلَ قُوْتَهُمْ كفافًا لَا فضولَ فيهِ، والخبرُ

---

(١) في صحيحه ٢/٩٠٧ ـ حديث رقم (٢٤٢٨).

(٢) في صحيحه ٤/٢٢٨٣ ـ حديث رقم (٢٩٧٢).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣١٠، والطبراني في المعجم الكبير ٨/٢٠٧، وأحمد في مسنده ٥/٢٥٤.

الصَّحيحُ[(١)]: «قَدْ أفلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وكانَ قُوتُهُ كفافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِهِ».

وأمَّا فوائدُ الجوعِ والتَّقلُّلِ مِنَ الدُّنيا، فذلِكَ ممَّا لا يُحْصَىٰ، وأقَلُّ فوائدِ التَّقلُّلِ مِنَ المالِ[(٢)] زوالُ المُشْغلَاتِ، ومِنَ الطَّعامِ الثِّقلُ[(٣)] عنِ الطَّاعاتِ، وتوالِي الفتورِ والكسلِ فِي الأبدَانِ الممتلئَةِ مِنَ الأخلاطِ الكائنةِ عن سوءِ العادَاتِ، ولذلِكَ كانَ إدخالُ الطَّعامِ علىٰ الطَّعامِ مِنْ أعظَمِ الأسبابِ المؤذِيَاتِ.

وأمَّا فراغُ القلبِ للمناجَاةِ ودوامُ الطَّهارةِ الشَّرعيَّةِ لكثرَةِ الصَّلوَاتِ وقطعُ اللَّيالِي الطَّويلاتِ في ذلِكَ، والتَّلذُّذُ بالمُناجاةِ فأمْرٌ معلومٌ بالعادَاتِ، مُسْتَغْنٍ عنِ الاستدلالِ بالأخبارِ والآيَاتِ، وقدْ نُقِلَ عنْ عددٍ منَ الصَّالحِينَ أنَّهُمْ كانُوا يصلُّونَ الصُّبحَ بوضوءِ العتمَةِ أربعِينَ وثلاثِينَ سنةً[(٤)]، كلُّ ذلِكَ مِن[(٥)] بركَاتِ التَّقلُّلِ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ، وفرَاغِ القلْبِ للتَّلذُّذِ بالمُناجَاةِ.

وهذَا القدرُ كَافٍ في فضيلَةِ الجوعِ والتَّفرُّغِ منَ المُشغلاتِ، وسنزيدُ ذلِكَ بأقوالِ المشايخِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**أَخْبَرَنا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ، أَخْبَرَنا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَيُّوبَ، حَدَّثَنا أَبُو الوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، حَدَّثَنا أَبُو هَاشِمٍ صَاحِبُ الزَّعْفَرَانِيِّ، حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٧٣٠ ـ حديث رقم (١٠٥٤).

(٢) سقط من (ب) قوله: «من المال».

(٣) في (ب): التقبل، والصواب المثبت.

(٤) كما في: تاريخ دمشق ٣٧/٢٣٤، وحلية الأولياء ٦/١٦٣، والمنتظم ٧/١١٥، وصفة الصفوة ٢/٢٨٨.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٧٠.

أَنَّهُ حَدَّثَهُ قَالَ[١]: جاءَتْ فاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنها بِكِسْرَةِ خُبْزٍ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ما هَذِهِ الكِسْرَةُ يَا فَاطِمَةُ؟ قَالَتْ: قُرْصٌ[٢] خَبَزْتُهُ وَلَمْ تَطِبْ نَفْسِي حَتَّىٰ أَتَيْتُكَ بِهَذِهِ الكِسْرَةِ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ.

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ[٣]: جاءَتْ فاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنها بِقُرْصِ شَعِيرٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذَا الحديثُ أيضًا بالِغَ فِي اختيارِ الجوعِ منهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ لمْ يُطعمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، كلُّ ذلِكَ عُلِمَ منهُ بأنَّهُ مِن جُمْلَةِ ما يُعينُهُ علىٰ طاعةِ اللهِ وتفرُّغِ قلبِهِ لمَا يوحِي اللهُ إليهِ، ويكونُ حالُهُ بهِ أحسنَ في اللهِ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ رأىٰ رجلًا قائِمًا فِي الشَّمسِ فقالَ: مَا بَالُهُ؟ قِيلَ: يا رسولَ اللهِ، نَوَىٰ ألَّا يطعمَ ولَا يستظلَّ ولا يزَال قائِمًا [١/٢٤١أ]، أو مَا هذا معنَاهُ منَ الحديثِ، قالَ[٤]: «إِنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ غَنِيٌّ عَنْ أَنْ يُعَذِّبَ هَذَا نَفْسَهُ»، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ المقصودَ منَ الجوعِ ليسَ هوَ تعذيبَ النَّفسِ بهِ، وإنَّمَا هوَ لِتَعَوُّدِ إعراضِ النَّفسِ عنِ الشَّهواتِ، وخفَّةِ البطنِ للطَّاعاتِ، ورقَّةِ القَلْبِ وحُضُورِهِ للمُناجَاةِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٥]: «الجُوعُ مِنْ صِفَاتِ القَوْمِ[٦]، وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ المُجَاهَدَةِ، وَإِنَّ أَرْبَابَ السُّلُوكِ تَدَرَّجُوا إِلَىٰ اعْتِيَادِ الجُوعِ وَالإِمْسَاكِ عَنِ الأَكْلِ،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١/٢٥٨، وابن ابي الشيخ في أخلاق النبي وآدابه ٢/٢٠٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/١٢٢.

(٢) في (ف): قرصًا.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧/٣١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٦٥٩ ـ حديث رقم (١٧٦٦)، ومسلم في صحيحه ٣/١٢٦٣ ـ حديث رقم (١٦٤٢).

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧٠.

(٦) أي: الصوفية.

وَوَجَدُوا يَنَابِيعَ الحِكْمَةِ فِي الجُوعِ، وَكَثُرَتِ الحِكَايَاتُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ التَّمِيمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ سَالِمٍ يَقُولُ[١]: أَدَبُ الجُوعِ أَلَّا يَنْقُصَ مِنْ عَادَتِهِ إِلَّا مِثْلُ أُذُنِ السِّنَّوْرِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ أحسنُ منَ الوصالِ اللَّيلَ والنَّهارَ، فإنَّهُ لابدَّ وأنْ يقفَ المُواصِلُ ويأكلَ، فإذَا أكلَ أكلًا كثيرًا بعدَ الوصالِ وضِيقِ معدتِهِ عنِ الطَّعامِ تضرَّرَ في بدَنِهِ، وربَّمَا انفسدَتْ معدتُهُ ودخلَتْ عليهِ آفاتٌ تمنعُهُ منَ العباداتِ، واعتيادُ التَّقلُّلِ علىٰ التَّدريجِ تحصلُ للعبدِ منهُ الفائدةُ العظيمةُ منَ الجوعِ.

وفيهِ فائدَتَانِ أُخريَانِ:

إحداهُمَا: سترُ حالِهِ ولَا يشتهرُ[٢] بكثرةِ الجوعِ؛ لكونِهِ يأكلُ كلَّ ليلةٍ.

والثَّانِي: سلامتُهُ من كراهةِ الوصالِ، وكانَ بعضُهُمْ يأخذُ وزنَ قُوتِهِ قطعةَ خشبِ جمِّيزٍ خضراءَ فيزنُ قُوتَهُ بهَا كلَّ ليلةٍ، وهيَ تنقصُ كلَّ يومٍ نقصًا يسيرًا ينتفعُ[٣] بهِ ولَا يؤثِّرُ فيهِ أثرًا يضرُّهُ؛ وذلِكَ أنَّهُ إذَا كانَ يأكلُ رغيفًا كلَّ ليلةٍ عندَ إفطارِهِ مثلًا وأخذَ وزنَ ذلِكَ الرَّغيفِ مِن خشبٍ أخضرَ ممَّا يسرعُ نقصُهُ وجفافُهُ، فهوَ كلَّ ليلةٍ إنَّمَا يأخذُ غذاءَهُ بوزنِ تلكَ الخشبةِ ولَا يتعدَّاهَا، فهيَ تنقصُ كلَّ ليلةٍ وغذاؤُهُ ينقصُ إلىٰ أنْ يصلَ إلىٰ نصْفِ رغيفٍ، وقدِ اعتادَهُ واستمرَّ عليهِ أمرُهُ، وهذَا معنَىٰ قولِ الإمامِ: «**إنَّ مِنْ أدبِ الجوعِ أنْ ينقصَ مِن غذائِهِ مثلَ أُذُنِ السِّنَّوْرِ**[٤]»،

---

(١) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٢٦٩، وفيه: «أذني السنور».

(٢) في (ب): يستهزئ، وهو تحريف.

(٣) في (ب): يقتنع.

(٤) في حياة الحيوان ٢/٤٨: «السّنّور ـ بكسر السين المهملة وفتح النون المشددة ـ واحد السنانير؛=

وهذا أضبطُ مِنْ أنْ ينتقصَ لقمةً لقمةً، فإنَّهُ ربَّمَا زادَ ونقصَ فلا يصحُّ لهُ الاعتيادُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقِيلَ[2]: كَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ إِلَّا فِي كُلِّ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا[3]، فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، كَانَ لَا يَأْكُلُ حَتَّىٰ يَرَىٰ الهِلَالَ، وَكَانَ يُفْطِرُ كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَىٰ المَاءِ القَرَاحِ[4]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أحسنُ للأقوياءِ، فإنَّ مَنْ قدرَ علىٰ الانكفافِ عنِ الطَّعامِ ثلاثِينَ يومًا فإنَّ [١/٢٤١ب] الغالبَ أنَّ الشُّربَ تبعٌ للأكْلِ، وإنَّمَا كانَ يفعلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اتِّبَاعًا للسُّنَّةِ وتعجيلًا للفطْرِ في شهرِ رمضانَ، وسلامةً مِن كراهةِ الوصَالِ، وفِي الخبرِ الصَّحيحِ عنْ (مسلم)[5] يرفعُهُ إلىٰ سهْلِ بنِ سعدٍ السَّاعديِّ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ».

ورَوَىٰ (مسلمٌ)[6] يرفعُهُ إلىٰ أبِي هريرةَ قالَ: «نهَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الوصَالِ»، وقالَ رجالٌ منَ المسلمِينَ: فإنَّكَ يا رسولَ اللهِ تُواصِلُ، فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَيُّكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»، فلمَّا أبَوا أنْ ينتهُوا عنِ الوصالِ واصَلَ بهِمْ يومًا ثمَّ يومًا ثمَّ رأَوُا الهلالَ فقالَ[7]: «لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ

= حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالىٰ لدفع الفأر».

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٠.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢١٣.

(٣) تقليلا للأكل.

(٤) أي: الخالص الذي لا يشوبه شيء.

(٥) في صحيحه ٢/٧٧١ ـ حديث رقم (١٠٩٨)، وأخرجه البخاري في صحيحه ٢/٦٩٢ ـ حديث رقم (١٨٥٦).

(٦) في صحيحه ٢/٧٧٤ ـ حديث رقم (١١٠٢).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٢٦٦١ ـ حديث رقم (٦٨٦٩)، ومسلم في صحيحه ٢/٧٧٤ ـ حديث رقم (١١٠٣).

لَزِدْتُكُمْ» كالتَّنكيلِ[١] لهُمْ حينَ أبوا أنْ ينتهُوا.

ورَوَاهُ (البخاريُّ)[٢] يرفعُهُ إلىٰ أبِي سعيدٍ الخدريِّ أنَّهُ سمعَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّىٰ السَّحَرَ، قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي طَاعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففِي الخبرِ الأوَّلِ حضٌّ علىٰ تعجيلِ الفِطْرِ، وفِي هذَا حضٌّ علىٰ السُّحُورِ، فإذَا أكلَ العبدُ قليلًا عندَ إفطارِهِ وقليلًا عندَ سُحُورِهِ وكانَ ذلِكَ منْ حَلالٍ علىٰ حسبِ اجتهادِهِ بالإضافَةِ لزَمَنِهِ ووقْتِهِ، كانَ في حالِهِ أقومَ، وللسُّنَّةِ أَتْبَعَ، وللبُعدِ[٣] منَ الكراهةِ أحْرَىٰ وأَسْلَمَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعَاذٍ[٥]: لَوْ أَنَّ الجُوعَ يُبَاعُ فِي السُّوقِ لَمَا كَانَ يَنْبَغِي لِطُلَّابِ الآخِرَةِ إِذَا دَخَلُوا السُّوقَ أَنْ يَشْتَرُوا[٦] غَيْرَهُ»**.

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ وإنْ كانَ فيهِ ألمٌ يسيرٌ فالخيراتُ المُتَرتِّبةُ علىٰ تعوُّدِهِ كثيرٌ، فأوَّلُهَا الاستغناءُ عن كثيرٍ منَ المُزَاحَمَةِ في الأسواقِ، والمعاداةُ والمُقَاطعةُ لمَنْ زاحمَهُ علىٰ شيءٍ منَ الأرزاقِ، والقناعةُ لمَا قسمَ اللهُ بهِ وإنْ كانَ يسيرًا[٧]، والرِّضَىٰ بأيِّ نوعٍ كانَ منهُ لحاجتِهِ لهُ، فلَا يفرقُ لاعتيادِ

---

(١) في (ب): كالمتنكل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٦٩٣ ـ حديث رقم (١٨٦٢).

(٣) في (أ، ب): والبعد، والأصح المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٠.

(٥) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٢٦٩، وبستان الواعظين لابن الجوزي ص٢٣٤، وشرح نهج البلاغة ٦/٧٤، والنور السافر ص٢٨٤، وسراج الطالبين ٢/٣٨، وإتحاف السادة المتقين ٩/٢٢.

(٦) في (ب): يشتر، والصواب المثبت.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٠.

الشَّهواتِ بينَ مطعومٍ وغيرِهِ، وإنْ كانَ لذيذًا خطيرًا؛ إذْ مقصودُهُ دفعُ ألَمِ الجوعِ في الوقتِ، وكسرُ سُؤرَةِ حِدَّةِ النَّفسِ بأيِّ طعامٍ كانَ، ومنْهَا[1] السَّلامةُ في صحَّةِ الأبدانِ، فإنَّ الغالبَ منَ الأمراضِ والأخلاطِ إنَّمَا يكونُ معَ كثرةِ الأكْلِ وأنواعِ اللَّذائِذِ والتَّمتُّعِ بهَا والإفراطِ، ومنْهَا خِفَّةُ الأبدَانِ للعَادَاتِ، واعتيادُ السَّهرِ [١/٢٤٢أ] للسَّلامةِ منَ النَّومِ المُشبَّهِ بالمَماتِ، ومنْهَا رقَّةُ القلوبِ لفَهْمِ المُناجَاةِ، والحُضُورُ لِسَماعِ مَا يُتْلَىٰ وجرَيَانُ الدُّموعِ في سَائِرِ الأوقَاتِ، وكفَىٰ بهذِهِ الخَيْرَاتِ حَامِلًا علىٰ تَرْكِ اليَسِيرِ منَ الشَّهَواتِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ الأَرَّجَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ[3] أَحْمَدَ الإِصْطَخْرِيُّ بِمَكَّةَ قَالَ: قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[4]: لَمَّا خلَقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الدُّنْيَا جعَلَ فِي الشِّبَعِ المَعْصِيَةَ وَالجَهْلَ، وَجعَلَ فِي الجُوعِ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا منَ الحكمةِ الَّتِي نُقِلَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ فيهَا[5]: «إِذَا رَأَيْتُمُ العَبْدَ قَدْ أُوتِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَمَنْطِقًا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةَ»، وذلِكَ أنَّ الدُّنيَا مخلوقةٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ لا شكَّ فيهِ.

وقولُهُ: «**جَعَلَ فِي الشِّبَعِ الجَهْلَ وَالمَعْصِيَةَ**» صحيحٌ، فإنَّ العبدَ إذا جاعَ ذلَّ في نفسِهِ وفترَتْ نيَّتُهُ عن كثيرٍ ممَّا هوَ محتاجٌ إليهِ مِن أمرِ دينِهِ ودُنيَاهُ، فإذَا شَبعَ

---

(١) في (ب): وفيها، وكذا اللفظ الذي يليها.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٧١/١.

(٣) في (ف): «عبد الله بن عبيد الله قال حدثنا علي بن أحمد».

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٨٣/٣، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٣٧، وإتحاف السادة المتقين ١٩/٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه ١٣٧٣/٢.

تَحرَّكَتْ منهُ الشَّهواتُ ؛ تحرَّكَتْ شَهْوةُ العينِ لرؤيةِ المُستحسَنَاتِ ، والأذنِ لسماعِ المَلاهِي والنَّغمَاتِ ، واللِّسانِ لفُضُولِ الكلامِ ، وقلَّةِ السَّلامةِ منَ الآفاتِ .

وهذَا كلُّهُ إنَّمَا يحملُ عليهِ البِطنةُ منَ الطَّعامِ والامتلاءُ بأنواعِ الشَّهواتِ ، فيمَا استمرَّتْ عليهِ العَاداتُ ، وكفَىٰ بهذِهِ الحالةِ جهلًا وشُغلًا عمَّا خُلقَ لهُ مِن أمْرِ آخرتِهِ والنَّظرِ لمَا مَضَىٰ مِن عملِهِ وما هوَ آتٍ ، فهذَا هوَ الجَهْلُ والمَعْصِيَةُ ، وقدْ بيَّنَّا قبلَ هذا مَا في الجُوعِ منَ الفَوائدِ وتفريغِ القَلْبِ للخَيْراتِ ، وإذَا تفرَّغَ القلبُ معَ جَمِيلِ النِّيَّةِ في طلبِ الباقِيَاتِ الصَّالحَاتِ نالَ العِلْمَ والحِكْمَةَ بفضلِ خالِقِ الأرْضِ والسَّماواتِ[١] ، كمَا وعدَ بهِ ـ تعالىٰ ـ في قولِهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] .

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَقَالَ يَحْيَي بْنُ مُعاذٍ[٣]: الجُوعُ لِلْمُرِيدِينَ رِيَاضَةٌ ، وَلِلتَّائِبِينَ تجْرِبَةٌ ، وَلِلزُّهَّادِ سِياسَةٌ ، وَلِلْعَارِفِينَ مَكْرُمَةٌ»** .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ الجُوعَ لا يستغنِي عنهُ تائبٌ عن ذَنْبٍ ولا مُريدٌ مُتفرِّغٌ لخيرٍ ، ولا زاهدٌ قدْ أعرَضَ عنِ الدُّنيَا ، ولا عارفٌ كمَا شغلهُ بالمولَىٰ ، وإنَّمَا اختلفَ احتياجُهُمْ إليهِ لاختلافِ أحوالِهِمْ ، فالتَّائبُ يجوعُ تجربةً لتتعوَّدَ نفسُهُ الجوعَ وتتأنَّس بهِ ، والمريدُ يجوعُ ليتقوَّىٰ بهِ علىٰ رياضَةِ نفسِهِ وحملِهَا علىٰ السُّلوكِ ، والزَّاهدُ يجوعُ سياسةً لنفسِهِ معَ قلَّةِ الدُّنيَا في قلبِهِ حتَّىٰ لا [١/٢٤٢ب] تلتفِتَ نفسُهُ لضروراتِهَا الَّتِي هيَ محتاجةٌ إليهَا ، فتنتقلَ منَ الزُّهدِ في الفضولِ إلىٰ الزُّهدِ في المحتاجِ إليهِ .

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/ ٤٧٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧١ .

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٢٦٩ ، ووفيات الأعيان ٦/ ١٦٥ ، ومرآة الجنان ٢/ ١٧٠ .

وأمَّا جوعُ العارفِ فكرامةٌ يكرمُهُ اللهُ بهَا ويشغلُهُ بمناجاتِهِ والتَّلذُّذِ بهَا عن مطاعمِهِ ومشارِبِهِ، وبهذَا ـ واللهُ أعلمُ ـ قَدَرَ كبارُ الرِّجالِ على الإمساكِ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ الكثيرَ منَ الأيَّامِ، وذلِكَ لشغلِهِمْ بمَا هوَ أهمُّ، وامتلأَ قلوبُهُمْ بمَا هوَ أشغلُ لهَا وأعمُّ، ولذلكَ ـ واللهُ أعلَمُ ـ قالَ سيِّدُ العربِ والعجمِ[(١)]: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنَّ لِي طَاعِمًا يُطْعِمُنِي، وَسَاقِيًا يَسْقِينِ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: دَخَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضِ الشُّيُوخِ فَرَآهُ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ، فَقَالَ: وَمِثْلُكَ يَبْكِي مِنَ الجُوعِ؟ فَقَالَ: اُسْكُتْ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مُرَادَهُ مِنْ جُوعِي أَنْ أَبْكِي؟!**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا مِن هذا الشَّيخِ يدلُّ على كَمالِ توكُّلِهِ على ربِّهِ، ورِضَاهُ بمَا يُجريهِ عليهِ في وقتِهِ، ونظَرِهِ في كلِّ فعلٍ لمَا فيهِ منْ حكمَةِ ربِّهِ وفائدَتِهِ، وذلِكَ إذَا كانَ هذَا الشَّخصُ ينتظرُ الفتحَ مِن ربِّهِ في سائِرِ أحوالِهِ وابتلاهُ بالجوعِ فهوَ راضٍ بهِ لمْ ينظرْ في حكمةِ جوعِهِ، معَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ قادرٌ على إشباعِهِ، ففهِمَ أنَّ مرادَهُ منهُ: رجوعُهُ إليهِ في حاجاتِهِ، وبكاؤُهُ عليهِ فِي طلبِ مهمَّاتِهِ، كمَا حُكِيَ أنَّ مُوسَى ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ قالَ: يا ربِّ، أحتاجُ إلى الشَّيءِ اليسيرِ الحقيرِ فأستحْيِي أنْ أطلبَهُ منكَ، فأوحَى اللهُ ـ تعالى ـ إليهِ[(٣)]: «سَلْنِي حتَّى ملحَ عجينِكَ، وعلَفَ دابَّتِكَ»، ومعنَاهُ: أنَّهُ لا يقدرُ على مخلوقٍ قلَّ ولا جلَّ غيرِي، فلَا تسألْ سِوَايَ، فلمَّا كلَّمَ هذَا الدَّاخلُ هذَا الرَّجلَ الصَّالحَ الَّذي رآهُ يبكِي وسألَهُ عنْ بُكَائِهِ فقالَ: «**مِنَ الجوعِ**»، فاعترضَ السَّائلُ عليهِ، فقالَ لهُ: «**مُثْلُكَ يَبْكِي**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧١.

(٣) رواه القرطبي في: قمع الحرص بالزهد للقرطبي ص٣٣، والقاري في مرقاة المفاتيح ٥/١٧٧.

منَ الجُوعِ ؟!»، أيْ: معَ جلالَةِ قدرِكَ، فقالَ لهُ: **«اسكُتْ»**، أيْ: لَا تعتَرِضْ، **«وهَلْ مُرادُهُ مِنْ جُوعِي إلَّا بكائِي ؟!»**، أيْ: مَا جوَّعَنِي إلَّا لأَبْكِيَ تارةً لهُ وتارةً عليهِ.

ومِن هذا القبيلِ مَا رُوِيَ في الخبرِ الصَّحيحِ(١) أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجَ ذاتَ يومٍ وهوَ جائعٌ ولقِيَ أبَا بكرٍ وسألَهُ عمَّا أخرجَهُ، فقالَ: الجُوعُ، وكذلِكَ عُمَرُ، فقالَ مثلَ ذلِكَ، فمضَوا إلَى(٢) دارِ أبِي الهيثَمِ بنِ التَّيهانِ(٣) الأنصاريِّ، فاستعذَبَ لهُمَا ماءً، وأتَى بِعِذْقٍ مِنْ رُطَبٍ، وأخذَ يذبحُ شاةً، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١/٢٤٣أ]: «نكب عَنْ ذَاتِ الدَّرِّ(٤)»، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، فقالَ لهُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نَعِيمِ هَذَا اليَوْمِ».

فقدْ أطلقَ كلُّ واحدٍ منهُمْ أنَّهُ أخرجَهُ الجوعُ، وكلُّ ذلِكَ إكرامٌ منَ اللهِ لهُمْ لكمالِ فضْلِهِمْ عندَهُ، ودلَّ أنَّ التَّسبُّبَ في دفْعِ الجُوعِ لا يناقِضُ التَّوكُّلَ؛ لأنَّهُمْ مِنْ أفضلِ المتوكِّلِينَ، وأنَّ الشَّخْصَ إذَا احتاجَ إلَى ذلِكَ قصدَ إلَى دارِ صديقِهِ ومَنْ يحبُّهُ وَيُسَرُّ بمحبَّتِهِ عندَهُ، كمَا قالَ ـ تعالَى ـ: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وإذَا أكرمَهُ غايةَ الإكرامِ لا يغفلُ عن شُكْرِ اللهِ علَى نِعَمِهِ ومعرفةِ فضْلِ صاحبِهِ، ولهذَا قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نَعِيمِ هَذَا اليَوْمِ»، تنبيهًا علَى شُكْرِ النِّعَمِ، فيكونُ السُّؤالُ عليهَا بينَ يدَيِ اللهِ خفيفًا(٥)، كمَا قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٦): «مَنْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٩٠٦/٣ ـ حديث رقم (٢٠٣٨)، بلفظ قريب منه.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) في (أ، ب): النبهان، وهو تصحيف.

(٤) في (أ، ب): الذر، والصواب المثبت كما في المعجم الكبير ٢٥٥/١٩، ولفظه: «... أَمَّا ذَاتُ دَرٍّ فَلا....».

(٥) في (ب): حقيقا، وهو تصحيف.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٣٩٤/٥ ـ حديث رقم (٦١٧١)، ومسلم في صحيحه ٢٢٠٤/٤ ـ حديث رقم (٢٨٧٦).

نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَدْ قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق: ٨ ـ ٩] ، قَالَ لَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَلِكَ العَرْضُ» ، معناهُ: أنَّ حِسَابَهُ يَسِيرٌ ، أيْ: يُعْرَضُ عليهِ كلُّ مَا عمِلَ مِن فعْلٍ وشُكْرٍ ، وينقلبُ إلىٰ أهلِهِ مَسْرُورًا.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيْرَازِي رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ: حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ مُعَاذٍ ؛ قَالَ: سَمِعْتُ مَخْلَدًا يَقُولُ[2]: كَانَ الحَجَّاجُ بْنُ الفُرَافِصَةِ مَعَنَا بِالشَّامِ ، فَمَكَثَ خَمْسِينَ لَيْلَةً لَا يَشْرَبُ المَاءَ وَلَا يَمْتَنِعُ[3] مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ[4]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أمرٌ يتأتَّىٰ أنْ يتعوَّدَهُ فيستغنِيَ عنِ الماءِ مدَّةً عظيمةً ، بخلافِ الطَّعامِ ؛ لأنَّ فِي الطَّعامِ مِنَ البلَّةِ ومَا يمازجُهُ منَ المَاءِ ما يكفِيهِ ، وقدْ رأَيْنَا مَنِ استمرَّ السِّنينَ فلَمْ يشرَبْ ماءً ويأكلُ مَا وجدَهُ ؛ وهوَ الشَّيخُ أبو النُّورِ ، كانَ ساكنًا بـ(محرسِ ابنِ عوْفٍ) بالإسكندريَّةِ[5].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الغَزَّالَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَي الجَلَّا يَقُولُ: دَخَلَ أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ مِنْ بَادِيَةِ البَصْرَةِ مَكَّةَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَكْلِهِ ، فَقَالَ[7]: خَرَجْتُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧١.

(٢) ورد قوله في: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال لمغلطاي ٢/٢٢١ ، وإتحاف السادة المتقين ٩/٤٩.

(٣) في إحكام الدلالة ١/٤٧١: يشبع.

(٤) فيه تنبيه علىٰ فناء بشريته ؛ إذ حياته بالذكر والفكر.

(٥) في الديباج المذهب ص٩٥: «وبيت ابن عوف بثغر الاسكندرية ، بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء».

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٧١.

(٧) ورد قوله في: مختصر تاريخ دمشق ١٧/٥٣.

مِنَ (البَصْرَةِ)، فَأَكَلْتُ بِـ(نِبَاجَ)[١] ثُمَّ بِـ(ذَاتِ عِرْقٍ)[٢]، وَمِنْ (ذَاتِ عِرْقٍ) إِلَيْكُم، فَقَطَعَ البَادِيَةَ بِأَكْلَتَيْنِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الغالبُ عليهِ خرقُ العَوائدِ، وإنْ كانَ يُنَالُ بعضُهُ بالمجاهدةِ والرِّياضَةِ والتَّدريجِ، وقدْ يواصِلُ الإنسانُ الأيَّامَ العشرةَ ونحوَهَا، فإذَا كانَتْ عادتُهُ أنْ يواصِلَ العشرةَ الأيَّامَ [١/٢٤٣ب] ونحوَهَا، وكانَتِ الطَّريقُ الَّتِي يسلُكُهَا تُقْطَعُ في ثلاثِينَ يومًا أكلَ فيهَا أكلتَينِ، فإنْ خُرقَتْ لهُ العادةُ فِي طَيِّ الأرضِ ولمْ تُخرقْ في الأكلِ أكلَ أكلتَينِ أوْ واحدةً في البلادِ البعيدةِ، وذلِكَ لطيِّ الأرضِ لَا لكونِهِ لمْ يأكلِ الطَّعامَ.

وعلَى الجُمْلَةِ فلَا يُنْكَرُ شيءٌ مِن هذَا؛ فإنَّ مَنْ يمنعُهُ إنَّمَا هوَ موقوفٌ معَ العَوائدِ، والعَاداتُ يجوزُ خَرقُهَا، ومَنْ قالَ بمَنْعِ خَرقِ العَادةِ مطلقًا تعذَّرَ عليهِ[٣] تصديقُ الأنبياءِ؛ لأنَّ الدَّليلَ على صِدْقِهِمْ أفعالُ اللهِ الخَارقةُ للعَادةِ؛ كالعَصَا، وإحياءِ المَوْتَى، والقُرآنِ، وغيرِ ذلِكَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ النَّحَّاسِ المِصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مُحَمَّدٍ الدَّقَّاقُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ الدَّرْفَشِ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ العَزِيزِ بْنَ عُمَيْرٍ؛ يَقُولُ[٥]: تَجَوَّعَ صِنْفٌ مِنَ الطَّيْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، ثُمَّ طَارُوا فِي الهَوَاءِ، فَرَجَعُوا بَعْدَ أَيَّامٍ وَكَانَ يَفُوحُ مِنْهُمْ

---

(١) في (ب): بذي باج، وهو تحريف. ونباج: قرية بالبادية أحياها عبد الله بن عامر. انظر: الصحاح ٣/١٠٢٠، ومعجم البلدان ٥/٢٥٥.

(٢) موضع بمكة؛ وهو ميقات أهل العراق.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٥) ورد قوله في: الجوع لابن أبي الدنيا ص١٨٨.

رَائِحَةُ المِسْكِ.

وَكَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِذَا جَاعَ قَوِيَ، وَإِذَا أَكَلَ شَيْئًا ضَعُفَ»[(١)].

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والحكايةُ الأُولَىٰ فِي الطَّيرِ فيهَا إشارةٌ إلىٰ أنَّ مَنْ طالَ جوعُهُ تطهَّرَ مِن أوساخِهِ، وجرَتْ علىٰ لسانِهِ الحِكمةُ، وفاحَتْ منهُ روائحُ طيِّبةٌ، وذلِكَ لِمَا أدركَ مِن كثرةِ شغلِهِ بمولاهُ، وإقبالِهِ عليهِ وإعراضِهِ عن هَوَاهُ[(٢)].

وأمَّا قضيَّةُ سَهْلٍ مِنْ أنَّهُ «يقوَىٰ إذا جاعَ، ويضعُفُ إذا شَبع»، وذلِكَ لتعوُّدِهِ الجوعَ وصُحْبَتِهِ في حال صحَّتِهِ، وتعوُّدِ أمعائِهِ القوَّةَ علىٰ ما فيهَا منَ الشَّيءِ اليسيرِ، فإذَا كثُرَ عليهَا الطَّعامُ ضعُفَتْ عن حملِهِ، وظهرَ أثرُهَا في أعضائِهِ، وهذَا هوَ الجارِي في أربابِ العَوائدِ الدُّنيويَّةِ؛ ترَىٰ البانِي يقفُ فوقَ حائطٍ عالٍ علىٰ خشبةٍ وبِيَدِهِ حديدةٌ من ثلاثةِ أرطالٍ أوْ نحوهَا وهوَ يلتقفُ الحجارةَ مِن خمسةِ أرطالٍ ونحوهَا وهوَ قائمٌ في الشَّمسِ طولَ نَهارِهِ، فإذَا بطلَ يومًا مرضَ وتغيَّرَ حالُهُ، وذلِكَ لأجْلِ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: مخالفةُ الاعتيادِ.

والثَّاني: عدمُ سرورِ القلبِ بمَا يأخذُهُ منَ الأُجْرَةِ، فإذَا كانَ سرورُ القلبِ بمَا يأخذُهُ منَ الأجرةِ يفيدُ النَّشاطَ في الأعمالِ الدُّنيويَّةِ معَ صعوبةِ العملِ وخَسَاسةِ الأجْرِ، فلأنْ تنشطَ الأبدانُ في الأعمالِ الأُخرويَّةِ معَ خفَّتِهَا وكثرةِ فوائِدِهَا أَوْلَىٰ وأَوْلَىٰ.

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ المَغْرِبِيُّ[(٤)]: الرَّبَّانِيُّ لَا يَأْكُلُ [١/٢٤٤أ] فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَالصَّمَدَانِيُّ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا.

---

(١) ورد قوله في: تفسير التستري ص٨٨، واللمع للطوسي ص٢٦٩، ٤٠٦، ومناقب الأبرار ١/٢١٣.

(٢) أفادة الشيخ زكريا في: حكام الدلالة ١/٤٧١.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٢.

(٤) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٣٨، وإتحاف السادة المتقين ٩/٢٢.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ العَلَوِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ إِبْرَاهِيمَ القَاضِي بِدِمَشْق يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ خَلَفٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ يَقُولُ[1]: مِفْتَاحُ الدُّنْيَا الشِّبَعُ، وَمِفْتَاحُ الآخِرَةِ الجُوعُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «الرَّبَّانِيُّ[2] لَا يَأْكُلُ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَالصَّمَدَانِيُّ فِي ثَمَانِينَ[3] يَوْمًا»، وهذَا الَّذِي ذكرَهُ استِئْنَاسًا[4] بمُقْتَضَى اللُّغةِ؛ وذلِكَ أنَّ الرَّبَّ هوَ المالِكُ، فمَنْ ملكَ نفسَهُ وقوِيَ علىٰ ردِّ شهْوَتِهِ والصَّبرِ عنِ الطَّعامِ قدرَ علىٰ أربعِينَ.

وأمَّا الصَّمدُ[5]: فهوَ الَّذِي لا يطعمُ.

وقيلَ[6]: هوَ الَّذِي يُقْصَدُ في الحوائجِ.

فيدلُّ ذلِكَ علىٰ كمالِ اقتدارِهِ، وشرَفِ همَّتِهِ والاحتياجِ إليهِ، فأضافُوا مَنْ كثُرَ جُوعُهُ واستغنَىٰ عنِ الطَّعامِ هذِهِ المدَّةَ الطَّويلةَ للصَّمدِ الَّذِي لا يطعمُ، أوْ لمَنْ شرُفَتْ همَّتُهُ وعلَتْ درجتُهُ علىٰ الوجْهِ الثَّانِي.

ويحتملُ أنْ يريدُوا أحوالَ موسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ في ثلاثِينَ

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٢٥٩، وشعب الإيمان ١/٥١١، وتاريخ بغداد ١٠/٢٤٨، وتاريخ دمشق ٣٤/١٢٨، والزهد والرقائق ص٩٣، وسير أعلام النبلاء ١٠/١٨٤.

(٢) الرباني: المنسوب إلىٰ الرب، والصمداني: المنسوب إلىٰ الصمد.

(٣) في (ب): ثلاثين، والصواب المثبت.

(٤) في (ب): استئناس، والصواب المثبت.

(٥) انظر: الزاهر لابن الأنباري ١/٨٢، وتأمل باقي معانيه فيه وفي: الزينة للرازي ١/٢١١، والهداية إلىٰ بلوغ النهاية ١٢/٨٤٩٢، ومورد ذوي الاختصاص إلىٰ مقاصد سورة الأخلاص ص١١٦، والقول المعتمد في تفسير (قل الله أحد) ص٤٣.

(٦) انظر: النهاية لابن الأثير ٣/٥٢.

ليلةً وأتممنَاهَا بعشرٍ، والحالةُ الثَّانيةُ أنَّ أكثرَ هؤلاءِ أربابُ المجاهداتِ بقصدِ الرِّيَاضَاتِ، ويلازمُ الخلوةَ أربعينَ يومًا على عبادةٍ مخصوصةٍ وطعامٍ مخصوصٍ، فلذلِكَ سمَّوهُ ربَّانِيًّا[١]؛ لاشتغالِهِ بعبادَةِ ربِّهِ دونَ غيرِهِ.

وأمَّا قولُهُ: «**مِفْتَاحُ الدُّنيَا الشِّبعُ، ومِفتاحُ الآخرةِ الجوعُ**[٢]»، فهوَ مِن بابِ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ، أيْ: مِفتاحُ أعمالِ الدُّنيَا الشِّبعُ، ومِفتاحُ أعمالِ الآخرةِ الجُوعُ، وقدْ قدَّمْنَا أنَّ مَنْ شبعَ منَ الشَّهواتِ تعلَّقَ قلبُهُ، فجرَّهُ بعضُهَا إلى بعضٍ، واشتغلَ بذلِكَ عنْ أعمالِ آخرتِهِ، وكذلِكَ إذا شبعَ تحرَّكَتْ عليهِ شهوةُ فَرْجِهِ، فإنْ تزوَّجَ وسلِمَ منَ الفسادِ كثُرتْ كُلَفُهُ بينَ العبادِ، وإنْ جاءَتْهُ الأولادُ فقدْ حصلَتْ عندَهُ الأعداءُ وتوالَتْ عليهِ جهةُ الفسادِ، وقدْ قالَ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[٣] [التغابن: ١٤]، وإنَّما ذلِكَ تخويفٌ منَ الجَريَانِ في أغراضِهِم وتحصيلِ مَقاصدِهِمْ كيفَ مَا طلبُوا لمحبَّتِهِمْ وتعلُّقِ القُلُوبِ بِهِمْ، فيدخلُ العبدُ بذلِكَ كُلَّ مَدْخَلٍ، والعياذُ باللهِ ـ تعالى ـ.

وأمَّا الجُوعُ فهوَ مِفْتاحُ أعمالِ الآخرَةِ، وقَدْ قدَّمْنَا[٤] فِي فوائدِهِ مِنْ خفَّةِ البدَنِ للأعمالِ [١/٢٤٤ب]، ورقَّةِ القلوبِ لفَهْمِ القراءةِ وكمالِ الدُّعاءِ والابتهالِ ما يُغْنِي عن إعَادَتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الحَسَنِ الأَرَّجَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الإِصْطَخْرِيَّ**

(١) في (أ): رباني، والصواب المثبت.

(٢) لأنه يُرقِّق القلب، فيحرك إلى الطاعة.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٢.

(٤) في أول هذا الباب.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧٢.

يَقولُ[(١)]: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقِيلَ لَهُ: الرَّجُلُ يَأْكُلُ فِي الْيَوْمِ أَكْلَةً، فَقَالَ: أَكْلُ الصِّدِّيقِينَ، قَالَ: فَأَكْلَتَيْنِ؟، قَالَ: أَكْلُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَثَلَاثٌ؟، قَالَ: قُلْ لِأَهْلِكَ يَبْنُونَ لَكَ مَعْلَفًا!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ هوَ الَّذِي كَمُلَتْ رغبتُهُ في أعمالِ الآخرَةِ؛ منَ الصَّلاةِ والصَّومِ والذِّكْرِ لَا يأخذُ منَ الدُّنيَا إلَّا مَا يستعينُ بهِ على ذلِكَ مرَّةً واحدَةً، وربَّمَا صامَ وغيرُهُ منَ المؤمنِينَ يَتَغَذَّىٰ ويَتَعَشَّىٰ ويقلِّلُ ولا يفرِّطُ، فقالَ: «أكلُ المُؤمنِينَ، فقيلَ لهُ: فثلاثًا، فقال: قلْ لأهلِهِ يَبْنُونَ لهُ مَعْلَفًا»، فشبَّهَهُ بالدَّوابِّ الَّذِي لا هَمَّةَ لهُمْ إلَّا في الأكْلِ والشُّرْبِ، وإذَا كانَتْ أحوالُهُمْ كذلِكَ ثقُلَتْ أَبْدَانُهُمْ، وغَلظَتْ قُلُوبُهُمْ، وقَلَّ فَهْمُهُمْ لمَا يحتاجُونَ إليهِ مِن أحكامِ ربِّهِمْ، ولذلِكَ تعجَّبَ الشَّافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن فقيهٍ يكونُ سمينًا حتَّىٰ رأَىٰ محمَّدَ بنَ الحَسَنِ[(٢)]، فالغَالبُ ممَّنْ كثُرَ أكلُهُ قَسْوَةُ قَلْبِهِ، وبَلادةُ فَهْمِهِ، إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ الفَضْلِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ السَّائِحُ قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَي بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ[(٤)]: الجُوعُ نُورٌ، وَالشِّبَعُ نَارٌ، وَالشَّهْوَةُ مِثْلُ الحَطَبِ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ الاِحْتِرَاقُ، وَلَا تَنْطَفِئُ نَارُهُ حَتَّىٰ تَحْرِقَ صَاحِبَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومُرَادُهُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ: أنَّ مَنْ جاعَ يفرغُ قَلْبُهُ للخَيْراتِ، وحملَهُ إيمانُهُ علىٰ تحصيلِ العلومِ والأعمالِ الصَّالحاتِ، فبهذَا الاعتبارِ كانَ نورًا، والشِّبعُ نارٌ، باعتبارِ أنَّهُ يسوقُ صاحبَهُ إلىٰ النَّارِ، وذلِكَ أنَّهُ إنَّمَا يكونُ

---

(١) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ٩/٥٢.

(٢) انظر: طبقات الحنفية لابن أبي الوفا ٢/٤٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٢.

(٤) ورد قوله في: الأنس في شرح عيوب النفس ١٣٧، وإتحاف السادة المتقين ٩/٢٢.

عن قوَّةِ الشَّهواتِ ، ومَنْ قَوِيَتْ شَهوتُهُ في المطاعِمِ ولمْ يقدِرْ على ردِّهَا أكلَ ما يحلُّ ويحرُمُ ، ووقعَ في النَّارِ ، وبهذَا الاعتبارِ كانَتِ الشَّهوةُ وقودَ الشِّبعِ ، أيْ: حاملةً على تعاطِيهِ لكلِّ ما تيسَّرَ ، فالشَّهوةُ هيَ الحَامِلَةُ على الشِّبعِ ؛ لتلذُّذِ العبدِ بهِ وتحصيلِهِ مِنْ أيِّ وجهٍ كانَ .

ومَنْ غلبَتْهُ شَهْوتُهُ في الطَّعامِ غَلَبَتْهُ في محبَّةِ الكَلامِ ، وفي التَّمَضْمُضِ بأعرَاضِ الأنَامِ ، وقويَ شبقُهُ في أنواعٍ منَ الحَرامِ ؛ مِنَ النَّظرِ والاستمتاعِ وغيرِ ذلِكَ من مُقَدِّماتِ الآثَامِ ، وبهذَا [١/٢٤٥أ] الاعتبارِ كانَ اتِّباعُ الشَّهوةِ مِن وقُودِ النَّارِ .

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ الطُّوسِيَّ يَقُولُ**(٢)**: دَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ عَلَى شَيْخٍ وَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامًا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مُذْ كَمْ لَمْ تَأْكُلْ ؟ فَقَالَ: مُذْ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ، فَقَالَ: جُوعُكَ جُوعُ بُخْلٍ ؛ عَلَيْكَ ثِيَابٌ وَأَنْتَ تَجُوعُ ؟! لَيْسَ هَذَا جُوعُ فَقْرٍ**» .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومرادُ الشَّيخِ أنْ يكونَ هذَا الشَّخصُ الفقيرُ متقلِّلًا منَ الدُّنيَا بالكليَّةِ في طعامِهِ ولباسِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن أسبابِ الدُّنيَا ، فلمَّا دخلَ هذا الفقيرُ على الشَّيخِ وقدَّمَ إليهِ طعامًا فرأى قوَّةَ نَهمتِهِ فيهِ فعلِمَ أنَّهُ جائعٌ فسألَهُ: «**كمْ يومٍ لمْ تأكُلْ ؟ فقالَ: خمسةُ أيَّامٍ ، فقالَ لهُ: فمَا الَّذي حملكَ على جوعِ خمسةِ أيَّامٍ**» وعليكَ الثِّيابُ وأنتَ شَرِهٌ في الأكْلِ ، «**جُوعُكَ جُوعُ بُخْلٍ**» بثيابِكَ على نفسِكَ «**وليسَ جُوعُكَ جُوعَ فقرٍ**» ، وأرادَ بالفقيرِ الَّذِي يختارُ الجوعَ على الشِّبعِ ومتى ظهرَ لهُ طعامٌ أوْ قُدِّمَ إليهِ أكَلَ بأدبٍ وقلَّةِ شرَهٍ ونزاهةِ نفسٍ ، فأدَّبَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنْ يكونَ جوعُهُ جوعَ السَّالكِينَ المختَارِينَ لا جوعَ المُصرِّينَ المضطَّرِّينَ ، معَ أنَّهُمْ يقدرُونَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٢ .

(٢) اللمع ص ٢٧٠ .

علىٰ زوالِ هذَا الجوعِ عنهُمْ بمَا يملكُونَهُ(١).

* قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ العَبَّاسَ بْنَ حَمْزَةَ يَقُولُ: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): لَأَنْ أَتْرُكَ مِنْ عَشَائِي لُقْمَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُومَ اللَّيْلَ إِلَىٰ آخِرِهِ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومرادُهُ: أنَّ حالَهُ مَعَ الجوعِ في عبادَتِهِ بعضَ اللَّيلِ أقرَبُ إلىٰ الخشُوعِ، والفَهْمُ والرِّقَّةُ والتَّلذُّذُ بكتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أحسَنُ مِن قيامِهِ وهوَ شبعَانَ اللَّيلَ كلَّهُ؛ لعدَمِ تلكَ المَعَانِي الَّتِي وجدَهَا معَ الجُوعِ، وهذَا واضحٌ معروفٌ عندَ أَهلِهِ(٤).

* قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٥): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ جَعْفَرَ بْنَ أَحْمَدَ الرَّازِيَّ يَقُولُ: تَشَهَّىٰ أَبُو الخَيْرِ العَسْقَلَانِيُّ السَّمَكَ سِنِينَ، ثُمَّ ظَهَرَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ مَوْضِعِ حَلَالٍ، فَلَمَّا مَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ لِيَأْكُلَ أَخَذَتْ شَوْكَةٌ مِنْ عِظَامِهِ إِصْبَعَهُ فَذَهَبَتْ فِي ذَلِكَ يَدُهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، هَذَا لِمَنْ مَدَّ يَدَهُ بِشَهْوَةٍ إِلَىٰ حَلَالٍ، فَكَيْفَ بِمَنْ(٦) مَدَّ يَدَهُ بِشَهْوَةٍ إِلَىٰ حَرَامٍ؟!».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يكونُ قدْ تركَ(٧) شهوةَ السَّمكِ لوجهٍ [١/٢٤٥ب]

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٢ ـ ٤٧٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٢.

(٣) ورد قوله في: الجوع لابن أبي الدنيا ص١٠٤، وشعب الإيمان ٥/٤٢، والزهد الكبير ص٣٤٠، وحلية الأولياء ٩/٢٧٤، وتاريخ دمشق ٣٤/١٢٩، ولفظهم: «... مِنْ أَنْ آكُلَهَا وَأَقُومَ...».

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٣.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧٢.

(٦) في (ب): من، والأصح المثبت.

(٧) في (ب): «وقد يكون ترك».

كانَ تركُهُ لهُ مِن جُملَةِ الطَّاعاتِ ودامَ علىٰ ذلِكَ مدَّةً وهوَ يجاهدُ نفسَهُ في أنْ لَا يعطِي نفسَهُ شهوتَهَا ولَا يُحلُّ عقدَهُ معَ اللهِ ، فلمَّا تيَسَّرَ لهُ السَّمكُ مِن وجْهِ حلالٍ ومدَّ يدَهُ إليهِ غلبتهُ شَهْوتُهُ في أكْلِه علَىٰ الوفاءِ بِعَزْمِه ، فضربتْهُ شوكةٌ منْ شُوكِهِ ، فأثَّرَ ذلِكَ فِي بعضِ أصابِعِهِ وعمِلَ عليهِ حتَّىٰ ذهبَتْ يدُهُ وتلِفَتْ بهذَا الألَمِ ، فتَحسَّسَ لذلِكَ وعزمَ علَىٰ أنْ لَا ينقضَ عزمًا عقدَهُ معَ اللهِ ، وإنْ لمْ يكنْ نذرًا ، قالَ: «**يَا ربِّ ، هذا جزاءُ مَنْ مَدَّ يدَهُ بشهوةٍ إلىٰ حَلالٍ ، فكيفَ بمَنْ مدَّهَا إلَىٰ حرامٍ ؟!**» ، فاعتبرَ عقوبَةَ الدُّنيَا بعقوبةِ الآخرةِ ، وعلِمَ أنَّهَا أشقُّ .

ومِنْ هذَا القبيلِ أنَّ العبدَ إذَا صحَّتْ نيَّتُهُ في نافلةٍ ودخلَ فيهَا للهِ ـ تعالىٰ ـ كصلاةٍ نافلةٍ أوْ صَومِ يومٍ حَرُمَ عليهِ إبطالُهُ عندَ مالكٍ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ وإنْ كانَ إذا وفَّىٰ بهِ إنَّمَا فعلَ نافلةً ، وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] ، ومَدْحًا للمؤمنِينَ بعهدِهِمْ إذا عاهدُوا ، ومِنْ ذلِكَ الوفاءُ بالمَواعيدِ ، وهيَ مُنْقَسِمَةٌ إلىٰ ما يجبُ الوفاءُ بهِ وإلىٰ ما يُنْدَبُ ، وكلُّهُ مِن هذا البابِ .

ومِنْ ذلِكَ مَا رُوِيَ[2] أنَّ بِشْرَ بنَ الحارثِ دخلَ علىٰ أختِهِ فوجدَ عندَهَا خبزًا وسَمَكًا ، فقالَ لهَا: مَا هذَا ؟ قالَتْ لهُ: رأيتُ أمَّكَ البارحَةَ في المنامِ وقالَتْ لِي[3]: إنْ أَحْبَبْتِ فَرَحِي وَدُخُولَكِ السُّرورَ علَيَّ فبيعِي مِنْ غزلِكِ واشترِي خبزًا وسَمَكًا فإنَّ أخاكِ بِشْرًا يشتهيهِمَا ، ففعلْتُ ذلكَ ، قالَ: فبكَىٰ بِشْرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وترحَّمَ علىٰ والدَتِهِ ، وقالَ: تُشْفِقُ عليَّ حيَّةً وميِّتةً ، ثمَّ قالَ: مَا يرَانِي اللهُ عُدْتُ في شيءٍ تركتُهُ لوجْهِهِ أبدًا .

وهذَا قَدْ يسبقُ لبعضِ النَّاسِ في اعتراضٍ ويقولُ فيهِ: برُّ والدتِهِ وإدخالُهُ

---

(١) انظر: المدونة الكبرىٰ ١/٩٨ .

(٢) ورد في: حلية الأولياء ٨/٣٥٣ ، وتاريخ دمشق ١٠/١٩٨ .

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

السُّرورَ علىٰ أختِهِ، فلِمَ لَمْ يرجِّحْ أكلَهُ علىٰ ترْكِهِ؟، وهذَا ليسَ بشيءٍ فإنَّ أمَّهُ ـ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ ـ إنَّمَا مثَّلَ بهَا ملكُ الرُّؤيَا لأختِهِ، فالَّذِي يُرَىٰ في المنامِ ليسَ نفسَ الميِّتِ، إنَّمَا ملكُ الرُّؤيَا يتمثَّلُ بهِ، وأمَّا أختُهُ فلَمْ يكنْ لهَا غرضٌ في نفسِهَا إلَّا مِن حيثُ الرُّؤيَا خاصَّةً، والَّذِي يراهُ العبدُ في المنامِ ينقسمُ إلىٰ قسمَينِ: بُشْرَىٰ وإنذارٌ، وامتحانٌ واختبارٌ، وربَّمَا كانَتْ هذِهِ الرُّؤيَا اختبارًا؛ ليعلمَ صحَّةَ وفائِهِ بمَا عزَمَ عليهِ أو ينخدعَ بالرُّؤيَا، وقدْ تكونُ الرُّؤيَا مِن عَمَلِ الشَّيطانِ ليزيلَ بهِ الإنسانَ عمَّا يعزمُ عليهِ مِنَ الخيرِ، فلَمْ يلتفِتْ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلىٰ شيءٍ من ذلِكَ، ووفَّىٰ بعزمِهِ لمَا صحَّ أوَّلًا تركُهُ للهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1]: «**سَمِعْتُ الأُسْتاذَ الإمامَ [١/٢٤٦أ] أَبَا بَكْرِ بْنَ فَوْرَكٍ** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ**[2]: **شُغْلُ العِيالِ نَتِيجَةُ مُتابَعَةِ الشَّهْوَةِ بِالحَلالِ، فَما ظَنُّكَ بِقَضِيَّةِ شَهْوَةِ الحَرامِ؟!**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ مَنْ قَوِيَتْ عليهِ شَهْوتُهُ حتَّىٰ حَمَلَهُ ذلِكَ علَىٰ التَّزويجِ، وكانَ قبلَ ذلِكَ مُشْتَغِلًا بأنواعِ[3] العباداتِ، وعِمَارةِ الأوقاتِ بالذِّكْرِ والدَّعوَاتِ، فلمَّا غلبَتْ عليهِ شهوتُهُ وتزوَّجَ اشتغلَ بكسبِ المالِ والقيامِ بحقِّ الزَّوجةِ، ولَا يحصلُ كسبُ المَالِ إلَّا بكثرةِ المعاملاتِ والدُّخولِ فِي أسبابٍ لا تخلُو مِن أنواعِ المَذلَّاتِ، فإنْ أتَىٰ ولدٌ كثُرَ الشُّغلُ لكثرَةِ الحاجاتِ، فلذلِكَ قالَ هذَا الشَّيخُ: «**الشُّغلُ بالدُّنيَا عنِ الآخرةِ نتيجةُ شَهْوةِ الحَلالِ، فكيفَ ـ والعياذُ باللهِ ـ بشهوَةِ الحَرَامِ**»، أيْ: مَنْ كانَتِ الشَّهوةُ الحَلالُ أثمرَتْ لهُ الشُّغلَ في أعمالِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣.

(٢) ورد قوله في: وفيات الأعيان ٤/٢٧٢، ومرآة الجنان وعبرة القظان ٣/١٤، وشرح النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية لابن زكري ص٣٣٧.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

الدُّنيَا عن أعمالِ الآخرةِ والتَّفرُّغَ للطَّاعاتِ، كيفَ مَنْ نَالَ الشَّهَواتِ المُحرَّماتِ!، فعقوبتُهُ أشدُّ العُقُوباتِ.

هذَا وإنْ كانَ الشغلُّ بأمرِ الزَّوجةِ والأولادِ وكَسْرُ شهوتِهِ بالحلالِ عنِ الفَسَادِ مِن جُملةِ الطَّاعاتِ إذَا صحَّتْ فيهَا[1] النِّيَّاتُ فسببُهَا متابعةُ الشَّهَواتِ، ولذلِكَ كانَ الصَّومُ وِجَاءً[2] عنْ مُتابعةِ الشَّهَواتِ المَذكُورَاتِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «سَمِعْتُ رُسْتُمًا[4] الشِّيْرَازِيَّ الصُّوفِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ فِي دَعْوَةٍ، فَمَدَّ وَاحِدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَدَهُ إِلَى طَعَامٍ قَبْلَ الشَّيْخِ لِمَا كَانَ بِهِ مِنَ الفَاقَةِ، فَأَرَادَ بَعْضُ أَصْحَابِ الشَّيْخِ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِ لِسُوءِ أَدَبِهِ؛ حَيْثُ مَدَّ يَدَهُ إِلَى الطَّعَامِ قَبْلَ الشَّيْخِ، فَوَضَعَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَي هَذَا الفَقِيرِ، فَعَلِمَ الفَقِيرُ أَنَّهُ أَنْكَرَ[5] عَلَيْهِ لِسُوءِ أَدَبِهِ، فَاعْتَقَدَ أَلَّا يَأْكُلَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا؛ عُقُوبَةً لِنَفْسِهِ، وَتَأْدِيبًا لَهَا، وَإِظْهَارًا لِتَوْبَتِهِ مِنْ سُوءِ أَدَبِهِ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ قَبْلَ ذَلِكَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا علَى أنَّ الجماعةَ إذا حضرُوا الطَّعامَ وكانَ لهُمْ شيخٌ، فالأدبُ ألَّا يمدَّ أحدٌ يدَهُ إلى الطَّعامِ حتَّى يبدأَ الشَّيخُ أدبًا معهُ، وليحصلَ البركةُ بأوَّلِ تناولِه، وهذِهِ هيَ السُّنَّةُ فِي الصَّحيحِ[6]، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ إذا حضَرَ طعامٌ كانَ لَا يمدُّ أحدٌ يدَهُ حتَّى يبدَأَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأُتِيَ ذاتَ يومٍ

(١) في (ب): فيه.
(٢) أي: وقاية.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣.
(٤) في (ف): رستم.
(٥) في (ب): نكَّت، وفي (ف): أنكث، وأشار الشيخ زكريا إلى هذا الاختلاف في: إحكام الدلالة ١/٤٧٤.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٥٩٧ ـ حديث رقم (٢٠١٧)، بلفظ قريب منه.

بجَفْنةٍ[(١)] فيهَا طعامٌ، فجاءَ أعرابيٌّ كأنَّمَا يُدْفَعُ ومدَّ يدَهُ إلى الطَّعامِ ليأكُلَ منهُ فأمسكَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على يَدِ الأعرابِيِّ [١/٢٤٦ب]، وقالَ: إنَّ الشَّيطانَ لا يأكُلُ مِن طعامٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليهِ، فأتَى الشَّيطانُ بهذَا الأعرابيِّ ليأكلَ قبلَ أنْ يُسَمَّى اللهَ عليهِ، فيأكلَ الشَّيطانُ منهُ، واللهِ إنَّ يدَهُ معَ يدِهِ في يدِي.

وفِي روايةٍ[(٢)]: «بجاريَةٍ لتمدَّ يدَهَا قبلَ النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فمسكَ يدَهَا».

فلمَّا مدَّ هذَا التِّلميذُ يدَهُ إلى الطَّعامِ قبلَ الشَّيخِ لغلبَةِ شهوتِهِ للأكْلِ تفطَّنَ لهُ بعضُ التَّلامذَةِ وأخذَ شيئًا من قُدَّامِهِ مِنَ الخبزِ فوضعَ بينَ يدَي هذَا الآكِلِ، فنبَّهَهُ علَى قوَّةِ شَرَهِهِ وأنَّ ذلِكَ الَّذِي حملَهُ على قلَّةِ الأدبِ، فعرَفَ ذلِكَ مِن نفسِهِ، وعزَمَ ألَّا يُطعمَ نفسَهُ شيئًا إلَى خمسةَ عشرَ يومًا أدبًا لهَا.

فَفِي هذِهِ الحكايَةِ أنَّ النُّفوسَ إذَا أساءَتِ الأدبَ أُلزمَتْ مَا يشقُّ عليهَا منَ الأعمالِ، وهذَا شأنُ المُتقدِّمينَ والمُتأخِّرينَ مِنَ العُمَّالِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبدِ اللهِ الصُّوفِيَّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو الفَرَجِ الوَرَثَانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الحَارِثِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ بنِ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يَقُولُ[(٤)]: مَنْ غَلَبَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَذَلِكَ الَّذِي يَفْرَقُ[(٥)] الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ».**

---

(١) أي: قصعة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٣٨٢.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ٢/٣٦٥، وذم الهوى ص٢٢.

(٥) أي: يخاف.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ العبدَ لا يغيبُ عنِ الدُّنيا بقلبهِ إلَّا لكمالِ اشتغالِهِ بربِّهِ ، ومتىٰ كمُلَ اشتغالُهُ بربِّهِ وبمَا يرضِيهِ ويقرِّبُهُ إليهِ نارَ قلبُهُ واستُجِيبَ دعاؤُهُ ، كمَا جاءَ في الخبرِ الصَّحيحِ(١): «مَا تَقرَّبَ المُتَقرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ» . . الحديث ، ولوِ استقامَ فِي أفعالِ جوَارِحِهِ وعُزُومِ قَلْبِهِ وسَائِرِ أحوالِهِ لَمْ يبقَ للشَّيطانِ عليهِ سبيلٌ ؛ لأنَّهُ لا يقبلُ منهُ ما يُوسوسُهُ بهِ ، وربَّمَا أحسَّ هذَا الموفَّقُ بخواطرِ الشَّيطانِ رجعَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بقريحةٍ فيتأذَّىٰ الشَّيطانُ مِن دعائِهِ عليهِ ، كمَا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «مَا سَلَكْتَ فَجًّا إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ» .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ(٤): إِذَا قَالَ الصُّوفِيُّ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ: أَنَا جَائِعٌ . . فَأَلْزِمُوهُ السُّوقَ ، وَأْمُرُوهُ بِالكَسْبِ**» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يتعرَّضُ لتَرْكِ الكسْبِ [١/٢٤٧أ] إلَّا مَنْ عوَّدَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الصَّبرَ علىٰ الجوعِ الأيَّامَ الَّتِي لَا يخلِيهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ الرِّزقِ بعدَهَا فِي العَادَةِ ، أوْ تكونُ العادةُ قدِ انخرقَتْ لهُ ، بحيثُ يأتِيهِ رزقُهُ مِن غيرِ كسبٍ ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بغيرِ حسابٍ ، كمَا قالَتْ مريمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ لمَّا قِيلَ لهَا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] ، يعنِي

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم (٣١٢٠) ، ومسلم في صحيحه ٤/١٨٦٣ ـ حديث رقم (٢٣٩٦) .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣ .

(٤) سبق تخريجه .

ـ والله أعلَمُ ـ: الحسَاب على كَسْبِه[١]، فإنَّهُ ليسَ بمكتسبٍ، فإنَّ الحسابَ تارةً يكونُ على الكسْبِ، وتارةً يكونُ علَى الصَّرفِ، فمَنْ خرقَ اللهُ ـ تعالى ـ لهُ العادةَ في حُصُولِ قُوتِهِ مِن غَيرِ كَسْبٍ وأخذَ مقدارَ الضَّرورةِ الَّذي هوَ حقُّهُ كما جاءَ في الخبَرِ الصَّحيحِ[٢]: «لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ».. وذكرَ البيتَ، والثَّوبَ وجِلْفَ الخبزِ[٣] والماءِ.

ومَتىٰ لَمْ يصِلِ العبدُ إلَىٰ هذِهِ الخيراتِ؛ إمَّا لتعوُّدِ الخيرِ، أوْ لِخَرقِ العَادَةِ لهُ، وإلَّا فتمسُّكُهُ بكسْبِهِ وتعلُّمُهُ اليقينَ والتَّوكُّلَ مِن تَصاريفِ مَا يُجْريهِ الحقُّ عليهِ أنفعُ لهُ وأسلَمُ لهُ مِن ذلِّ السُّؤالِ والاحتياجِ إلى الأوباشِ[٤] والأندالِ، أو أخْذِ الأموالِ من جهةٍ ليسَ على[٥] حلِّهَا وَجْهٌ منَ الاستدلالِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ حَاكِيًا عَنْ بَعْضِ المَشَايِخِ أَنَّهُ قَالَ[٧]: إِنَّ أَهْلَ النَّارِ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُمْ حِمْيَتَهُمْ[٨]، فَلِذَلِكَ افْتُضِحُوا[٩]».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ حِمَى اللهِ ـ تعالى ـ مُحَارِمُهُ، فيجعلُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧١، ولفظه: «.. ليس لابن آدمَ حَقٌّ في سِوَىٰ هذه الخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الخُبْزِ وَالمَاءِ».

(٣) الجلف: الخبز وحده لا إدام معه.

(٤) في الجمهرة ١/٣٤٦: «الأوباش: هم الأخلاط من الناس السّفلة».

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣.

(٧) ورد في: الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ص٣٣.

(٨) بارتكاب شهواتهم.

(٩) حيث أرخو لأنفسهم العنان، ولم يراقبوا وعيد الديان.

اللهُ ـ تعالىٰ ـ بينَ الخلْقِ وبينَ النَّارِ حجابًا لاتِّقاءِ المُحرَّماتِ، فكلُّ مَنْ غلبَتْ شَهْوَتُهُ علىٰ تَقْوَاهُ، وارتكبَ الحِمَىٰ وقعَ فِي النَّارِ، وعلَىٰ هذا دلَّ الخبرُ الصَّحيحُ[١]: «أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لمَّا خلقَ النَّارَ قالَ لجبريلَ: اذهَبْ فانظُرْ إليهَا، فنظرَ إليهَا، فقالَ: وعزَّتِكَ لَا يسمعُ بهَا أحدٌ فيدخلَهَا، ثمَّ حفَّهَا بالشَّهواتِ، فقالَ لهُ: اذهَبْ فانظُرْ إليهَا، فقالَ: وعزَّتِكَ لقدْ خَشِيتُ ألَّا يبقَىٰ أحدٌ إلَّا دخلَهَا»، وذلِكَ أنَّ النَّارَ صارَتْ محجورةً[٢] بالشَّهَواتِ، وصارَتِ الشَّهَواتُ ساترةً لهَا، فإذا رأَىٰ[٣] العبدُ الشَّهواتِ ومالَ إليهَا وتعاطَاهَا وقعَ في النَّارِ، وهذَا معنَىٰ قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤]: «ومَنِ اطَّلَعَ الحجابَ واقعَ مَا وراءَهُ»، أيْ: مَنْ عملَ بالشَّهواتِ وقعَ في النَّارِ، فأهلُ النَّارِ هُمُ الَّذينَ غلبَتْ شهوتُهُمْ تقواهُمْ، وتحفُّظَهُمْ وحميَّتَهُمْ، فوقعُوا في النَّارِ والعياذُ باللهِ مِن سَخَطِ الجبَّارِ.

قَالَ الإِمَامُ [١/٢٤٧ب] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قِيلَ لِبَعْضِهِمْ[٦]: أَلَا تَشْتَهِي؟ فَقَالَ: نَعَمْ أَشْتَهِي، وَلَكِنْ أَحْتَمِي.**

قَالَ: وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: أَلَا تَشْتَهِي؟ فَقَالَ: نَعَمْ أَشْتَهِي أَلَّا[٧] أَشْتَهِي، وَهَذَا أَتَمُّ[٨]».

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٩٣، وأبو داود في سننه ٤/٢٣٦، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٣/١٢١، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٣٤٧.

(٢) في (ب): محجوبة.

(٣) في (ب): رمىٰ.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٩/١٠٤، وتمامه فيه: «إِنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَمَنِ اطَّلَعَ الحِجَابَ وَاقَعَ ما وَرَاءَهُ». وابن السري في الزهد ص١٧٠.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣.

(٦) ورد في: روضة المحبين ص٤٧٩.

(٧) في (أ، ب): أن، وكذا اللفظ الذي يليه، والأصح المثبت، كما في إحكام الدلالة ١/٤٧٥.

(٨) أي: مما قبله؛ لفقد حظ النفس فيه؛ لأنه إخبار عن عدم شهوته، وذلك إخبار عنها.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهؤلاءِ هُمْ أهلُ الجنَّةِ، كمَا أنَّ مَنْ تقدَّمَ الَّذِينَ غلبَتْ شهوتُهُمْ حميَّتَهُمْ أهلُ النَّارِ، ومَنِ اشتهَىٰ واحتمَىٰ ـ أيْ: خالَفَ شهوتَهُ ـ فهوَ مِن أهلِ الجنَّةِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وأمَّا مَنْ قِيلَ لهُ: «**ألا تشتَهِي، فقالَ: أشتَهِي ألَّا أشتَهِيَ**»، فهوَ إخبارٌ عن حالتِهِ وكمالِ شغلِهِ بعبادةِ ربِّهِ ومراقبتِهِ حتَّىٰ قلَّتْ راحتُهُ وتوالَتْ عليهِ في ليلِهِ ونهارِهِ خِدمتُهُ، وقلَّتْ شهوتُهُ، فلذلِكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ قالَ: «**أشتَهِي ألَّا أشتَهِيَ**»، وليسَ ذلِكَ تمنِّيًا لرجُوعِهِ إلىٰ شَهَواتِ الدُّنيَا عمَّا هوَ فيهِ مِن طاعةِ المولَىٰ، فإنَّ ذلِكَ نقصٌ، وإنَّمَا ذلِكَ إخبارٌ لبُعْدِهِ عنْ شهواتِ نفسِهِ وقلَّةِ خُطُورِهَا ببالِهِ.

ويشبهُ هذَا القولُ قَوْلَ أبِي يزيدَ لمَّا سُئِلَ[1]: «أينَ أبو يزيدَ؟، فقالَ: أينَ أبُو يزيدَ؟ أنَا في طلَبِ أبي يزيدَ، رحِمَ اللهُ أبَا يزيدَ»، كلُّ ذلكَ إخبارٌ عن كُونِهِ مشغولًا بربِّهِ عنْ نفسِهِ وعوائدِهِ، ومَا يعرفُ النَّاسُ مِن أُنْسِهِ، ولذلِكَ قالَ مَنْ فهِمَ مَا قالَ: «رحِمَ اللهُ أبا يزيدَ ذهبَ في الذَّاهبِينَ إلىٰ اللهِ».

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ مَخْلَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحُسَيْنِ الحَسَنُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الجَهْمِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ التَّمَّارَ؛ يَقُولُ[3]: أَتَانِي بِشْرٌ لَيْلَةً، فَقُلْتُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَاءَ بِكَ[4]، جَاءَنَا قُطْنٌ مِنْ خُرَاسَانَ، فَغَزَلَتْهُ البِنْت، وَبَاعَتْهُ،**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٣) ورد قوله في: تاريخ الإسلام ٦/١٠٧.

(٤) فيه تنبيه علىٰ كماله في القيام علىٰ النفس حتىٰ لم يأكل عند أحد، ولم يقدم علىٰ مباح من الأفعال. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٤.

وَاشْتَرَتْ لَنَا لَحْمًا فَتُفْطِرُ عِنْدَنَا.

فَقَالَ: لَوْ أَكَلْتُ عِنْدَ أَحَدٍ أَكَلْتُ عِنْدَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَأَشْتَهِي البَاذِنْجَانَ مُنْذُ سِنِينَ، وَلَمْ يَتَّفِقْ لِي[(١)]، فَقُلْتُ: إِنَّ فِيهَا البَاذِنْجَانَ مِنَ الحَلَالِ، فَقَالَ: حَتَّىٰ يَصْفُوَ لِي حُبُّ البَاذِنْجَانِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي فسَّرْنَا به كلامَهُ فِي موضعٍ آخرَ فِي قولِهِ[(٢)]: «إِنِّي لأشتهِي الشِّواءَ منذُ كذَا كذَا سنةً مَا صفَىٰ لِي ثمنُهُ»، فتارةً يريدُ أنْ يصفوَ مِنَ الإشكالِ والشُّبَهِ حتَّىٰ يكونَ حلالًا، وتارةً يصفُو لهُ حتَّىٰ لا يكونَ فِي عِلْمِه مَنْ هو أَحْوَجُ إليهِ منهُ، وتارةً يصفُو لهُ حتَّىٰ لا يأكلَهُ بشهوةِ نفسٍ، وتارةً يصفُو لهُ حتَّىٰ يكونَ أكلُهُ لهُ طاعةً.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ بَاكَوَيْهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ الصَّغِيرَ يَقُولُ[(٤)]: أَمَرَنِي أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ أَنْ أُقَدِّمَ إِلَيْهِ كُلَّ لَيْلَةٍ [١/٢٤٨أ] عَشْرَ حَبَّاتِ زَبِيبٍ[(٥)] لِإِفْطَارِهِ، فَلَيْلَةً أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ، فَحَمَلْتُ إِلَيْهِ خَمْسَ عَشْرَةَ حَبَّةً، فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ: مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ وَأَكَلَ عَشْرَ حَبَّاتٍ وَتَرَكَ البَاقِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ منْ أكملِ المحافظةِ علىٰ ما حصلَ لهُ منَ الأحوالِ والاستقامَةِ في أدبِ النُّفوسِ والاجتزَاءِ باليسيرِ واعتيادِ التَّقلُّلِ منَ الطَّعامِ، وإنْ كانَ شهيًّا لذيذًا، وذلِكَ أنَّ هذَا الشَّيخَ راضَ نفسَهُ حتَّىٰ

---

(١) أي: أكلُهُ.

(٢) الدلالة ٢/١٠٣.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٤.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٤١٥، وتبين كذب المفتري ص١٩٢، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٥٢، وتلبيس إبليس ص٢٥٨.

(٥) في (أ): زبيبًا.

تعوَّدَتِ الفِطْرَ علَىٰ عشْرِ حبَّاتٍ منَ الزَّبيبِ لَا غيرُ، ويكتفِي بهَا فِي وقتِ فطرِهِ، وربَّمَا إنْ كانَ يصومُ تسحَّرَ بمثلِهَا[١] أوْ بأقلَّ منهَا، واستمرَّتْ نفسُهُ علَىٰ الخيراتِ والتَّلذُّذِ بالمُنَاجاةِ وخفَّ بدنُهُ من أنواعِ الطَّعامِ والشَّرابِ والمُثقِّلاتِ للأبدانِ المكسِّلَاتِ، فلمَّا صارَتْ نفسُهُ إلىٰ هذِهِ الحالةِ الجميلَةِ أشفقَ عليهَا هذَا الخادمُ وجعلَ نفسَهُ أصلًا في استقلالِ مَا يأتِي بهِ، ورحمَ شيخَهُ في زعْمِهِ علَىٰ ما هوَ فيهِ منْ ألمِ الجوعِ، فزادَ خمسَ حبَّاتٍ، فلمَّا رأَىٰ الشَّيخُ الزِّيادةَ نظرَ إليهِ كالمنكرِ لفِعْلِهِ والغضبانِ عليهِ، وقالَ لهُ: «مَنْ أمرَكَ بهذَا؟!» وهوَ معذورٌ، فإنَّ تصرُّفَ التِّلميذِ في نفسِهِ بغيرِ إذْنِ شيخِهِ خطأٌ، فكيفَ تصرُّفُهُ في أحوالِ شيخِهِ برأْيِهِ؟!

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ[٣] الفَرْغَانِيّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا تُرَابٍ النَّخْشَبِيَّ يَقُولُ[٤]: مَا تَمَنَّتْ نَفْسِي مِنَ الشَّهَوَاتِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً؛ تَمَنَّتْ خُبْزًا وَبَيْضًا وَأَنَا فِي سَفَرٍ، فَعَدَلْتُ إِلَىٰ قَرْيَةٍ، فَقَامَ وَاحِدٌ وَتَعَلَّقَ بِي وَقَالَ: وَهَذَا كَانَ مَعَ اللُّصُوصِ، فَضَرَبُونِي سَبْعِينَ دِرَّةً، ثُمَّ عَرَفَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ: هَذَا أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ!، فَاعْتَذَرُوا إِلَيَّ، وَحَمَلَنِي رَجُلٌ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَقَدَّمَ إِلَيَّ خُبْزًا وَبَيْضًا فَقُلْتُ لِنَفْسِي: كُلِي[٥] بَعْدَ سَبْعِينَ دِرَّةً**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ تحسُّسِهِمْ لنقْضِ

---

(١) أفاده بلفظ الشيخ زكريا الأنصاري في: إحكام الدلالة ١/٤٧٦.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٤.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ف).

(٤) ورد في: حلية الأولياء ١٠/٤٧، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٥، وقد تقدم هذا الخبر.

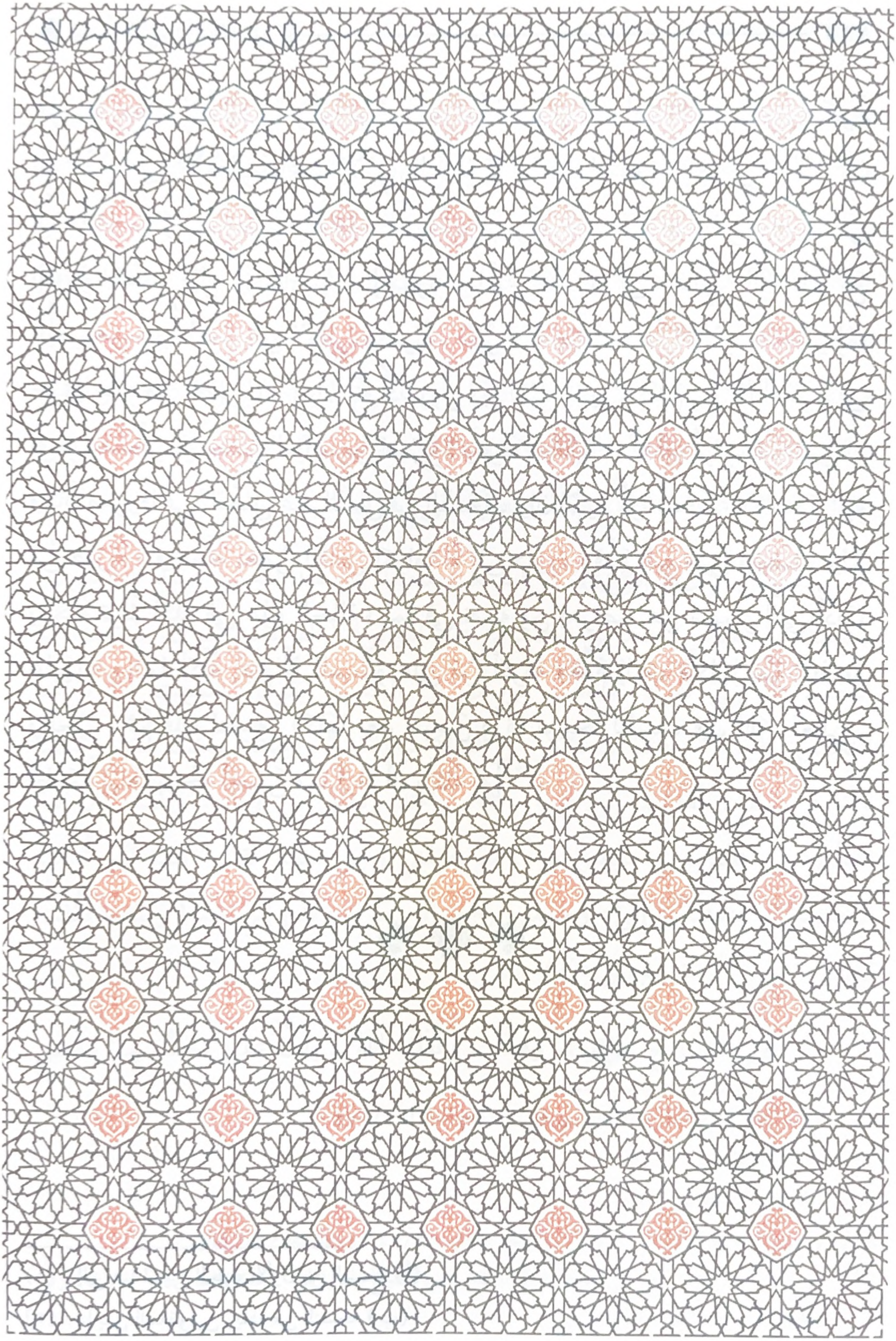
(٥) في (أ، ب): كُلْ، وهو في نسخة هكذا، كما نص الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٦، وفي مظان تخريجه (كلها)، كما سيأتي.

عزومِهِمْ معَ مولَاهُمْ فيمَا تركُوهُ لوجْهِهِ مخالفةً لشهواتِهِمْ، وأدبًا لنفوسِهِمْ حتَّىٰ يكونَ إقدامُهُمْ علىٰ الأفعالِ بباعثِ الأمْرِ والطَّاعةِ لا بباعثِ الشَّهوةِ والغرضِ، فلمَّا كانَ أنَّ هذَا مسافرٌ أوْ خطرَتْ لهُ هذِهِ الشَّهوةُ ولم يردَّهَا ويدفعْهَا عنْ نفسِهِ وعدَلَ إلىٰ القريةِ بقصْدِ نَيْلِ [١/٢٤٨ب](١) [شهوتِهِ، أدَّبَهُ اللهُ -تعالىٰ- فاتُّهِمَ أنَّهُ كانَ معَ اللُّصوصِ، وأُحْضِرَ إلىٰ الوالِي وضَربَهُ، ليُقِرَّ كمَا جرَتْ عادةُ الولاةِ، فتحسَّرَ لِمَا جرَىٰ عليهِ منَ الضَّربِ، وعلِمَ أنَّهُ أُدِّبَ مِن ربِّهِ لمَيْلِهِ لشهوتِهِ فَنَدِمَ -واللهُ أعلمُ- في نفسِهِ، فسخَّرَ اللهُ بعضَ الحاضرِينَ لضَرْبِهِ، وعرفَهُ، وقالَ: «**هذَا أبو تُرابٍ النَّخشبيُّ**»، وكانَ معروفًا في الفضْلِ عندَ النَّاسِ في السُّمعةِ، وإنْ لمْ يعرفُوا شَخْصَهُ، فاعتذرَ إليهِ مَنْ ضَرَبَهُ، وحملَهُ بعضُ النَّاسِ إكرامًا لهُ إلىٰ دارِهِ، وقدَّمَ إليهِ خبزًا وبيضًا، ولمْ يمكنْهُ تركُ أكلِهِ في هذِهِ الحالةِ؛ لمَا في نفسِهِ مِن إعراضِهِ عن شهوتِهِ الَّتِي أُدِّبَ عليهَا، وإنَّمَا أكلَهُ إدخالًا للمسرَّةِ علىٰ مَنْ أكرمَهُ وقدَّمَ إليهِ، فأكلَهَا بنيَّةِ الطَّاعةِ والخَيْرِ، ثمَّ قالَ لنفسِهِ: «**كلْهَا بعدَ سبعِينَ دِرَّةً**» توبيخًا لنفسِهِ، فإنَّ اللهَ -تعالىٰ- أطعَمَهُ إيَّاهَا بوجْهٍ أحسنَ ممَّا أرادَ أنْ يأكلَهُ بهِ](٢).

---

(١) إلىٰ هنا انتهىٰ الجزء الأول من النسخة (أ).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من النسخة (ب).



[٢/١أ] الجُزْءُ الثَّانِي(١) مِنْ كِتَابِ

«الدِّلَالَةِ عَلَى فَوَائِدِ كِتَابِ الرِّسَالَةِ»

المَنْسُوبِ إِلَى الإِمَامِ القُشَيْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

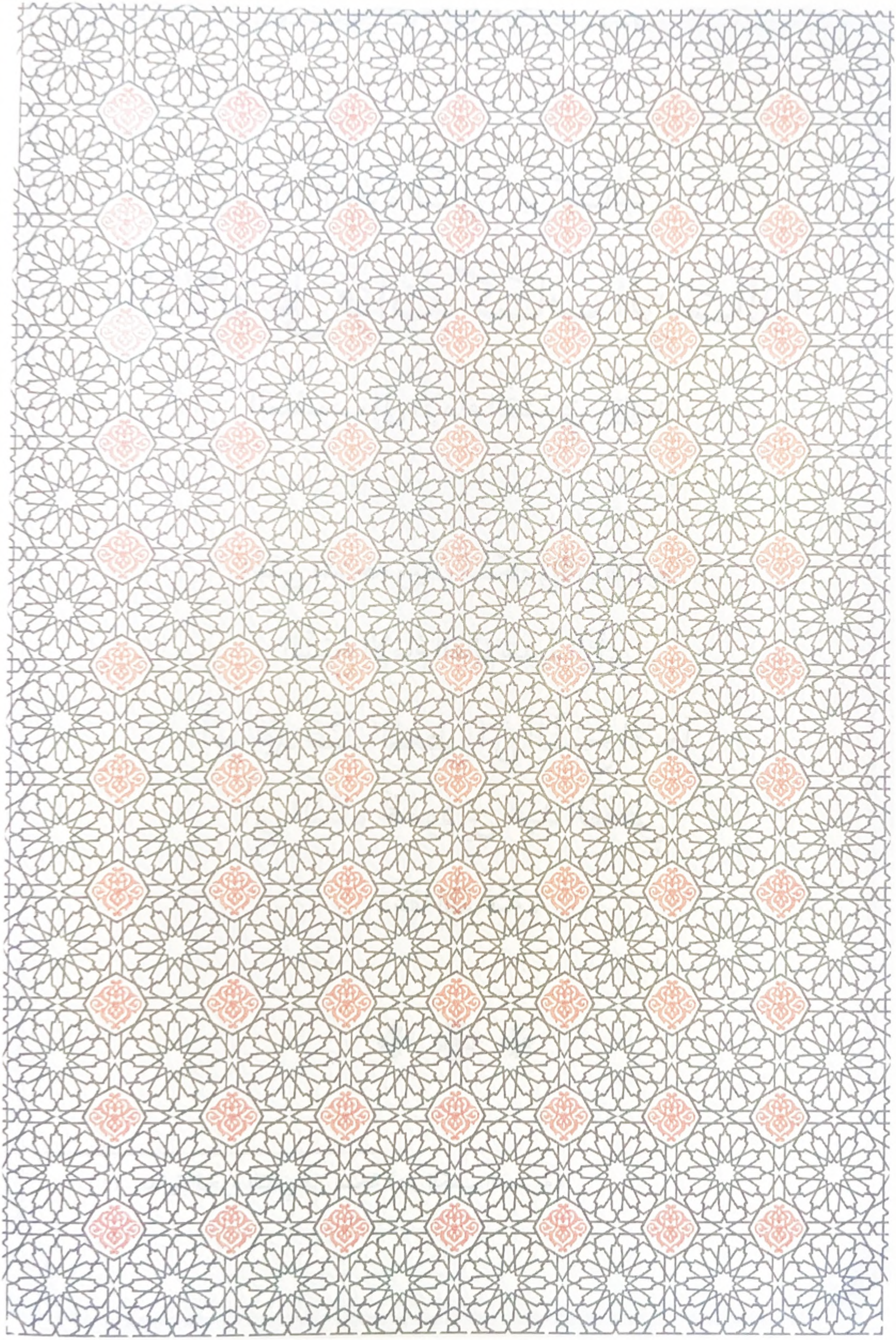
اِعْتَنَى بِشَرْحِهِ وَبَيَانِ مُشْكِلِهِ وَإِثَارَةِ فَوَائِدِهِ

الشَّيْخُ الإِمَامُ العَالِمُ سَدِيدُ الرَّأْيِ

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ المُعْطِي ابْنُ الشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي الثَّنَاءِ مَحْمُودِ بْنِ عَبْدِ المُعْطِي

ـ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ـ

(١) بداية الجزء الثاني من نسخة (دار الكتب المصرية).



[٢/٢أ]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَصَلَّىٰ اللهُ علىٰ سيِّدِنا مُحمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم

قَالَ الإِمَامُ القُشَيْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الخُشُوعِ وَالتَّوَاضُعِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

أَخْبَرَنَا[٢] [أَبُو الحَسَنِ][٣] عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ المُزَكِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ؛ [أَخْبَرَنَا أَبُو الفَضْلِ][٤] سُفْيَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الجَوْهَرِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ[٥]، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبَانِ بْنِ تَغْلِبٍ؛ عَنْ فُضَيْلٍ الفُقَيْمِيِّ؛ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخْعِيِّ؛ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[٦]: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ مِنْ بَطَرِ الحَقِّ[٧]، وَغَمْصِ النَّاسِ[٨]».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٥.
(٢) في (أ): أنبأنا.
(٣) زيادة من (ب، ف).
(٤) زيادة من (ب، ف).
(٥) في (ب، ف): الحسن، والصواب المثبت.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٩٣ – حديث رقم (٩١).
(٧) أي: دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. انظر: الديباج على مسلم ١/١٠٧.
(٨) أي: احتقارهم.

أَخْبَرَنَا عليُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ ؛ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ بْنِ جَابِرٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو إِبْرَاهِيمَ ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ ؛ عَنْ مُسْلِمٍ الأَعْوَرِ ؛ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ(١) : كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُ المَرِيضَ ، وَيُشَيِّعُ الجَنَائِزَ ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ ، وَكَانَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ(٢) وَالنَّضِيرِ عَلَىٰ حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ(٣) ، عَلَيْهِ إِكَافٌ(٤) مِنْ لِيفٍ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فالآيَةُ دليلٌ علىٰ مدحِ الخشوعِ ، وقَدْ قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] مطلقًا في الصَّلاةِ وغيرِها .

والخُشُوعُ: هوَ الهُدُوءُ والسُّكُونُ ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩] .

والخشوعُ في القلبِ يظهرُ أثرُهُ في الجَوارحِ ، وقَدْ رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأىٰ رجلًا يعبثُ بيدِهِ في لحيَتِهِ في الصَّلاةِ ، فقالَ(٥) : «لَو خشعَ قلبُ هذَا لخشعَتْ جَوارِحُهُ» .

وأمَّا الأخبارُ الَّتِي أوردَهَا في نفْيِ الكِبْرِ ومدحِ التَّواضُعِ فهيَ في الكتابِ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ أكثرُ مِنْ أنْ تحصَىٰ ، ويكفِي في ذمِّ الكِبْرِ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣] ، [﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٣/٣٣٧ ، وابن ماجه في سننه ٢/٤١٧٨ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/٢٨٩ .
(٢) في (ب): قريصة ، والصواب المثبت .
(٣) أي: بحبل أو بخُلبة يُقاد بها من ليف النخل .
(٤) أي: برذعة .
(٥) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول ٣/٢١٠ ، ٤/٢٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/٨٦ .

مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]][(١)].

وضِدُّ الكِبْرِ التَّواضُعُ، ومَنْ تواضَعَ للهِ[(٢)] رفعَهُ اللهُ هكذَا، ومَنْ تكبَّرَ وضعَهُ اللهُ هكَذَا[(٣)]، وسنورِدُ مِنَ الأخبارِ الصَّحيحةِ ما يدلُّ علىٰ ذمِّ الكِبْرِ وسوءِ عاقبتِه.

روىٰ (التِّرمذيُّ)[(٤)] يرفعُهُ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٢/٢ب]: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

قالَ[(٥)]: «وفِي البابِ عن أبِي هريرةَ وابنِ عبَّاسٍ، وسلمَةَ بنِ الأكْوَعِ، وأبِي سعيدٍ، وقالَ فيهِ: هذَا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

وهذَا الخبرُ يحتاجُ إلىٰ تأويلٍ؛ وذلِكَ لأنَّ الكِبْرَ منقسمٌ[(٦)] إلىٰ: كِبْرٍ هوَ كفرٌ؛ كالكِبْرِ علَىٰ الأنبياءِ وما يجرِي مجرَاهُ، وهذَا لَا يدخلُ الجنَّةَ أبدًا مَنْ فِي قلبِهِ منهُ شيءٌ، وأمَّا الكِبْرُ الَّذِي هوَ معصيةٌ؛ كاستذلالِ النَّاسِ واستصغارِهِمْ وحقريَّتِهِمْ، فمعنَاهُ: أنَّهُ لا يدخلُ الجنَّةَ دُخُولَ سَلَامةٍ حتَّىٰ يعذِّبَهُ اللهُ ثمَّ يعودَ إلىٰ الجنَّةِ[(٧)]، ويكونَ هذَا زيادةً في الزَّجرِ عنِ الكِبْرِ، كمَا روَاهُ (مسلمٌ)[(٨)] مِن قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) أي: بتمام الانقياد.

(٣) ففي مسند أحمد ٣/٧٦: «من تَواضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ الله دَرَجَةً حتىٰ يَجْعَلَهُ في عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكبَّرَ علىٰ اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ الله دَرَجَةً حتىٰ يَجْعَلَهُ في أَسْفَلِ السَّافِلِينَ».

(٤) في سننه ٤/٣٦٠.

(٥) أي: الترمذي.

(٦) تأمل أقسامه في: الزواجر لابن حجر الهيتمي ١/١٣٣.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٧.

(٨) في صحيحه ٤/٢٠٢٣، حديث رقم (٢٦٢٠)، ولفظه: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العِزُّ إِزَارُهُ، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ ينازعني عَذَّبْتُهُ».

ربِّهِ ـ تعالىٰ ـ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ».

فأمَّا قولُهُ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**» فتأويلُهُ: أنَّهُ لا يدخلُهَا دخولَ خُلُودٍ[(١)]؛ لِمَا صحَّ مِنَ الأخبارِ الصَّحيحةِ بدُخُولِ طائفةٍ منَ المُؤمنِينَ النَّارَ وخُرُوجِهِمْ منهَا بالشَّفاعةِ[(٢)]، فهذَا وجهُ تأويلِ هذَا الحديثِ علىٰ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ[(٣)].

ورَوَىٰ (التِّرمذيُّ)[(٤)] أيضًا يرفعُهُ إلىٰ ابنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، قَالَ: قَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنًا، قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ مِنْ بَطَرِ الحَقِّ وَغَمْصِ النَّاسِ**». قالَ أبُو عيسَىٰ: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا الخبرُ تأويلُهُ كمَا تقدَّمَ، وفيهِ أنَّ[(٥)] استحسانَ ثوبِ الإنسانِ وكلامِهِ ونعلِهِ وقولِهِ[(٦)]: «إذَا لَمْ يستصغرِ النَّاسَ ويتعاظَمْ عليهِمْ ليسَ بكِبْرٍ»، فإنَّ الكِبْرَ هوَ التَّعظُّمُ[(٧)]، وقدْ يستحسنُ الشَّيءَ ولا يتعظَّمُ بهِ علىٰ الغيرِ إذا رآهُ[(٨)] فاقدًا لهُ، ولذلِكَ فسَّرَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسَّائلِ لمَّا قالَ: «**إنِّي أحبُّ أنْ**

(١) قال الترمذي تلو الحديث: «مَعْنَاهُ: لَا يُخَلَّدُ في النَّارِ» سننه ٤/٣٦١.
(٢) ففي مسند أحمد ٥/٤٣: «... وَيَشْفَعُونَ وَيُخرِجُونَ من كان في قَلْبِهِ ما يَزِنُ ذَرَّةً من إيمَانٍ»، وفي صحيح البخاري ٦/٢٧٠٧: «... اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ من إيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ من عَرَفُوا...».
(٣) انظر في ذلك: فتح الباري ١/٤٣٨، وطرح التثريب ٢/١٠٤.
(٤) في سننه ٤/٣٦١.
(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٧) في (ب): التعظيم، والصواب المثبت.
(٨) في (ب): ده، والصواب المثبت.

يكونَ ثَوْبِي حسنةً ونَعْلِي حسنةً»، ومعناهُ: أهوَ مِنَ الكِبرِ؟ فأجابَ النَّبيُّ ﷺ بأنَّ (الكِبرَ مِنْ بطَرِ الحقِّ)، أيْ: ردِّهِ، و(غَمْص النَّاس)، أيْ: استصغارِهِمْ واستهانَتِهِمْ، فهذِهِ علاماتُ الكِبْرِ المُحرَّمِ، فإنْ أَمَرَهُ آمرٌ بحقٍّ أوْ جَادَلَهُ فيهِ وعرَفَ أنَّ الحقَّ معَ خصومِهِ ردَّهُ علىٰ قائِلِهِ ولمْ يرجعْ إليهِ كِبْرًا ورِياسَةً [١٣/٢] وعظَّمَهُ علىٰ خصمِهِ أوْ مَنْ حضرَهُ، وكذلِكَ يستنقصُ مَنْ كلَّمَهُ ويزدَرِيهِ ويستهينُهُ، يُعْرَفُ ذلِكَ مِن قولِهِ وشمائِلِهِ هذَا هوَ «**غَمْص النَّاس**»، يقالُ: (أغمصَ النَّاسَ) و(غمطَ النَّاسَ) ـ بصَادٍ وطاءٍ غيرِ معجمَتَينِ(١).

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**الخُشُوعُ: الانقِيَادُ لِلْحَقِّ(٣)، وَالتَّوَاضُعُ: هُوَ الاسْتِسْلَامُ لِلْحَقِّ، وَتَرْكُ الاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الحُكْمِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**الخُشوعُ: الانقيادُ للحقِّ**»، يعنِي: السُّكونَ والقبولَ إذَا سمِعَ الحقَّ مِنْ كلِّ قائلٍ؛ لأنَّ الأرضَ الخاشعَةَ: هيَ الَّتِي لَا حركةَ فيهَا ولا نَبَاتَ، فعلَىٰ هذَا مَنْ سمِعَ الحقَّ ورجعَ إليهِ منقاداً فهوَ مِن آثارِ الخُشُوعِ.

وقولُهُ: «**والتَّواضعُ: الاستسلامُ للحقِّ**»، فإنْ رجعَ إلىٰ معرفةِ الحقِّ والرجوعِ إليهِ كانَ هوَ الانقيادَ بعينِهِ، وإنْ أرادَ بهِ تركَ الاختيارِ مِنَ العبدِ وعدمَ الاعتراضِ علىٰ ما يجرِي منَ الحكمِ وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالاستسلامِ، أيْ: خضعَ وذَلَّ لحُكْمِ مَنْ لهُ الحُكْمُ؛ وهوَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فقريبٌ.

والأصلُ في التَّواضُعِ معرفةُ قدرِ النَّفسِ وصغرِهَا، ومِنْ أيِّ شيءٍ كانَتْ، وإلَىٰ مَا يؤولُ أمرُهَا إليهِ، وكونُهَا فيمَا بينَ ذلِكَ مربوبةً متعبَّدَةً مأمورةً منهيَّةً مطالَبَةً

---

(١) وهما بمعنىٰ واحد. انظر: غريب الحديث لأبي عبيد ٣١٧/١، واللسان «غ م ص».

(٢) الرسالة القشيرية ٢٧٥/١.

(٣) في (ب): إلىٰ الحق.

بفعلِهَا محاسبةً ، فمعرفتُهَا بهذِهِ الجملةِ يُذِلُّها فِي نفسِهَا ، ويزيلُ عنهَا كِبْرَهَا الَّذِي لَا يليقُ بهَا ، وتَقْبَلُ الحقَّ مِن كُلِّ قائلٍ ؛ شَرِيفًا كانَ أوْ وَضِيعًا ، صغيرًا كانَ أوْ كبيرًا ، فيكونُ تَواضعُهَا وتَذَلُّلُهَا لِمَا قالَ لَا للقائلِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ حُذَيْفَةُ[2]: أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِيْنِكُمْ: الخُشُوعُ[3].

وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ مَعْنَى الخُشُوعِ ، فَقَالَ[4]: الخُشُوعُ: قِيَامُ القَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الحَقِّ بِهَمٍّ مَجْمُوعٍ».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُ[5] حذيفةَ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِيْنِكُمُ الخُشُوعُ» ، يعنِي: تذلُّلَ القُلُوبِ في عِبادَتِهَا للهِ ـ تعالىٰ ـ وقدْ ظهرَ هذَا المعنىٰ ظهورًا كبيرًا حتَّىٰ صارَتْ أكثرُ الصَّلواتِ تجرِي علىٰ حكمِ العَادَاتِ ، لولَا كرمُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالاكتفاءِ بالنِّيَّةِ في أوَّلِهَا بالإضافةِ إلىٰ جُمْلَتِهَا والعَفْوِ عنِ الغَفلَاتِ لمَا صحَّتْ لنَا عِبادةٌ.

وإليهِ يرجعُ قولُ بَعْضِهِم: «الخُشُوعُ: قيامُ القلبِ بينَ يدَيِ الحقِّ بِهَمٍّ مَجْمُوعٍ[6]» ، وهذا هوَ الَّذِي يثمرُ الخُشُوعَ أوِ الهُدُوءَ للمعرفةِ بعظمَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والحياءَ مِنِ اطِّلاعِهِ علىٰ العبدِ في عبادَتِهِ وقلَّةِ أدبِهِ فيهَا ، فكيفَ[7] بمُخَالفتِهِ ومَعْصِيتِهِ ؟!

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٥.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/١٤٠ ، والحاكم في المستدرك ٤/٥١٦ ، وأبو نعيم في الحلية ١/٢٨١.

(٣) أي: في العبادة.

(٤) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١١٣ ، وحدائق الحقائق ص٩٣ ، والرياض الأنيقة للسيوطي ص١٥٠.

(٥) في (ب): فقوله.

(٦) أي: بهمةٍ عظيمة بحيث يعبد الله كأنه يراه.

(٧) في (ب): فيكف ، والصواب المثبت.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[١]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٢]: مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَمْ يَقْرُبْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ».

قَالَ الشَّـارِحُ [٢/٣ب] رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وإذَا كانَتْ هذِهِ الحالةُ الَّتِي هيَ الخشوعُ لا تكونُ إلَّا معَ تعظيمِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، واستشعارِ نظَرِهِ إلىٰ العبدِ، وكمالِ الشُّغلِ بهِ والحياءِ منَ اللهِ.. لمْ يطمَعِ الشَّيطانُ في إغوائِهِ، فيقربَ منهُ كمَا كانَ الشَّيطانُ يفرُّ مِنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ إذا سلَكَ فجًّا سلكَ الشَّيطانُ غيرَ فجِّهِ[٣].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[٤]: «وَقِيلَ: مِنْ عَلَامَاتِ الخُشُوعِ لِلعَبْدِ: أَنَّهُ إِذَا أُغْضِبَ[٥] أَوْ خُولِفَ، أَوْ رُدَّ عَلَيْهِ[٦] أَنْ[٧] يَسْتَقْبِلَ ذَلِكَ بِالقَبُولِ[٨]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّهُ يعرفُ الحقَّ لمستحقِّهِ، ويرجعُ إليهِ وينقادُ، وقدْ يكونُ ذلِكَ للخشوعِ والتَّواضُعِ وللصَّبْرِ وغيرِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خُشُوعُ القَلْبِ قَيْدُ العُيُونِ[٩] عَنِ النَّظَرِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: الخشوعُ إذا كانَ عنِ المعرفَةِ باللهِ واستشعارِهِ لرؤيَتِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ١/٥٢٢، وبصائر ذوي التمييز ٢/٥٤٢.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٥) في (ب): غضب، وفي إحكام الدلالة ١/٤٧٩: «عُصِي».

(٦) أي: في شيء لم يتغير حاله.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٨) لأن الغافل ينظر ماذا يفعل.

(٩) أي: يكون سببا في منعها عن التطلع والنظر إلىٰ مشتهيات النفس.

للعبدِ قيَّدَ جميعَ أفعالِ العبدِ عنِ الوقوعِ في المحرَّماتِ، وشغلَهَا بأنواعِ الطَّاعاتِ[١].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ[٣]: الخَاشِعُ مَنْ خَمَدَتْ نِيْرَانُ شَهَوَاتِهِ، وَسَكَنَ دُخَانُ صَدْرِهِ[٤]، وَأَشْرَقَ نُورُ التَّعْظِيمِ مِنْ قَلْبِهِ[٥]، فَمَاتَتْ شَهَوَاتُهُ وَحَيِيَ قَلْبُهُ[٦] فَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلُّهُ راجعٌ إلى كمالِ المعرفةِ باللهِ ـ تعالى ـ وعظمتِهِ وشدَّةِ تكاليفِهِ ومطالبتِهِ، فمتى عرَفَ العبدُ ذلِكَ ذلَّ في نفسِهِ وانكسرَتْ شهوتُهُ وخمدَتْ نيرانُ هوَاه، وانكسرَتْ جوارحُهُ عنِ السَّعيِ فيمَا لا يرضَاهُ مولَاه، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بخشوعِ جوارحِهِ؛ يعنِي: هدَأَتْ وسكنَتْ، وهوَ معنَى قولِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَنْ راَهُ يعبثُ في الصَّلاةِ بلحيَتِهِ[٧]: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»، أيْ: لوِ استشعرَ نظرَ اللهِ ـ تعالى ـ إليهِ وأنَّهُ يُنَاجِيهِ بلسانِهِ وحُضُورِ قَلْبِهِ وأنَّهُ ـ سبحانه ـ يَسْمَعُهُ ويَرَاهُ تأدَّبَ في نفسِهِ وقلبِهِ وجَوارِحِهِ[٨].

واسمُ الخشوعِ يُطْلَقُ[٩] على رهبةِ القلبِ وذلَّتِهِ وانكسارِهِ، وعلَى سُكُونِ الجَوَارِحِ وانقيادِ العَبْدِ لمَا أُمِرَ بهِ وانكفافِهِ عمَّا زُجِرَ عنهُ، ولذلِكَ قالَ: ﴿وَيَدْعُونَنَا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٣) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/١٣٧، وحدائق الحقائق ص٩٣، وسبل الهدى والرشاد ١/٤٥٤، والرياض الأنيقة ص١٥١.

(٤) أي: ما بقي من حظ نفسه بعد خمود نار الشهوة.

(٥) أي: تعظيم الآمر والناهي الناشئ من جلاء البصيرة بعد ذهاب نار الشهوة. انظر: نتائج الأفكار ٣/٢٠.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٧٩.

(٩) في (أ، ب): ينطلق، والصواب المثبت.

رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الحَسَنُ[٢]: الخُشُوعُ: الخَوْفُ[٣] الدَّائِمُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مثمِرُ الخشوعَ؛ فإنَّ العبدَ إذَا خافَ مِن شيءٍ [٢/١٤أ] بَعُدَ عنهُ وهدَأَ عن طلَبِهِ، واجتهدَ في البُعْدِ منهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ الخُشُوعِ، فَقَالَ[٥]: تَذَلُّلُ القُلُوبِ[٦] لِعَلَّامِ الغُيُوبِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أقربُ لحقيقةِ الخشوعِ، وهوَ جدٌّ جيِّدٍ، يعنِي الخُشُوعَ في القَلْبِ، وإنَّمَا تُذَلَّلَ لمَنْ علِمَتْ[٧] كَمالَهُ وعظمَتَهُ واقتدارَهُ علىٰ نَفْعِهَا وضرِّهَا، فإذَا امتلأَ القلبُ بهذِهِ المَعْرِفَةِ تَبِعَتْهَا الجوارحُ بالانقيادِ والانكسَارِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٢) ورد قوله في: الزهد لابن المبارك ص٥٥، والدر المنثور ٥/٦٧٠.
ونسب لسفيان الثوري في: حلية الأولياء ٧/٧٧، ٧٨، والمجالسة وجواهر العلم ص٢٦٣، وورد بلا نسبة في: التعريفات ص١٣٢.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٥) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٧، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٤، ومدارج السالكين ١/٥٢١.

(٦) لما كان بها تذلل باقي الجوارح اقتصر عليها.

(٧) في (ب): «تتذل لمن علت»، وكل صوابٌ.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

ﭐﻟﺄَﺭۡﺽِ ﻫَﻮۡﻧٗﺎ﴾ [الفرقان: ٦٣] **سمعتُ الأُستاذَ أبا عليٍّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقولُ**[(١)]**: معناهُ متواضعِين متخاشِعِين.**

وسمعْتُه يقُولُ[(٢)]**: هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَحْسِنُونَ**[(٣)] **شِسْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا مَشَوْا».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، أيْ: برفْقٍ بغيرِ تكبُّرٍ ولَا إعجابٍ، وضدُّ الكِبْرِ والعُجْبِ التَّواضعُ.

وقولُهُ: «**وَهُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَحْسِنُونَ شِسْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا مَشَوْا**»، يعنِي: متعجِّبينَ[(٤)]، وإِلَّا مَحْض الاستحسانِ للثَّوبِ والنَّعلِ قدْ تقدَّمَ فيهِ الخبرُ الصَّحيحُ لمَّا سُئِلَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقِيلَ لهُ: «إنَّ الرَّجُلَ يحبُّ أنْ يكونَ ثوبُهُ حسنًا ونعلُهُ حسنةً، هلْ هوَ مِنَ الكِبْرِ الَّذِي هوَ منَ العُجْبِ؟» هذَا معنىٰ السُّؤالِ، وليسَ هوَ نصَّ الخبرِ، فأجابَهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ: «الكِبْرَ بطرُ الحقِّ وغَمص النَّاس»، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ استحسانَ شِسْعِ النَّعلِ لا يكونُ منَ العُجْبِ مُطْلَقًا.

ويحتملُ أنْ يريدَ الشَّيخُ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ بقولِهِ: «لا يَسْتَحْسِنُونَ شِسْعَ نِعَالِهِمْ»، أيْ: لشغلِهِمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ ومراقبتِهِمْ لهُ؛ أيْ: لَا يتفرَّغُونَ للشُّغلِ بأمْرِ دنيَاهُمْ، وكأنَّهُ قالَ: الخاشعُ للهِ لا يتفرَّغُ لأمْرِ دُنْيَاهُ، ويعضِّدُ هذا المعنىٰ قولُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)]: «لَوْ خَضَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ» للَّذِي رآهُ يعبثُ بلحيَتِهِ في الصَّلاةِ.

---

(١) لطائف الإشارات ٢/٣٩٢.

(٢) السابق ذاته.

(٣) أي: استحسان تعجُّب.

(٤) في (ب): معجبين.

(٥) سبق تخريجه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ(١): «وَاتَّفقُوا عَلَى أَنَّ الخُشُوعَ مَحِلُّهُ القَلْبُ.

وَرَأَى بَعْضُهُم رَجُلا مُنْقَبِضَ الظَّاهِرِ، مُنْكَسِرَ الشَّاهِدِ(٢)، قَدْ زَوَى مَنْكِبَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا فُلَانٍ، الخُشُوعُ هَاهُنَا ـ وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ ـ لَا هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى مِنْكَبَيْهِ»(٣).

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ: ويحتملُ أنْ يكونَ هذَا الَّذِي خشعَ بظاهرِهِ [٢/٤ب] ولمْ يخشعْ قلبُهُ عليهِ أماراتٌ تدلُّ علَى كونِهِ متكلِّفًا أوْ مُرائِيًا، فلذلِكَ نبَّهَهُ علَى أنَّ المرادَ خشوعُ القلبِ لا تكلُّفُ الجوارحِ، وقدْ بيَّنَّا أنَّهُ متَى صحَّ الخشوعُ في القلبِ تبعَتْهُ الجَوارحُ بالانكسارِ والتَّذلُّلِ(٤)، ويعضِّدُهُ مَا بعدَهُ ممَّا أوردَهُ الإمامُ مِن قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوارِحُهُ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ(٥): «وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يَعْبَثُ فِي صَلَاتِهِ بِلِحْيَتِهِ قَالَ(٦): لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ: فدلَّ ذلِكَ علَى أنَّ خشوعَ الجوارحِ تتبعُ خشوعَ القلبِ(٧)، وأنَّ القائلَ لمَنْ رآهُ خاشِعًا بظاهرِهِ: الخشوعُ هاهُنَا، وأشارَ إلى قلبِهِ كانَ حالُهُ يدلُّ علَى كَونِهِ متكلِّفًا لهيئةِ الخُشُوعِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٢) أي: غاض البصر.

(٣) ورد بمعناه عن عمر بن الخطاب في: إحياء علوم الدين ٣/٢٩٦، ولفظه: «فيروى أن عمر بن الخطاب رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ رأى رجلا يطأطئ رقبته فقال يا صاحب الرقبة: ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب». وورد أيضا في: مدارج السالكين ١/٥٢١، والكبائر ص١٤٤.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٠.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: شَرْطُ الخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ: أَلَّا يَعْرِفَ مَنْ عَلَىٰ يَمِينِهِ وَمَنْ عَلَىٰ شِمَالِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومرادُهُ بالخشوعِ هاهُنَا: كمالُ الحضورِ والاستغراقُ في المناجَاةِ، وفهمُ ما يتلُوهُ أَوْ مَا يسمعُهُ حتَّىٰ يشتغلَ قلبُهُ بكلِّيَّتِهِ بهِ فلَا يحسَّ بمَنْ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ، وهذَا أمرٌ زائدٌ علَىٰ الخشوعِ الَّذِي هوَ الهُدُوءُ والسُّكونُ فِي الصَّلاةِ والسَّلامةُ منَ الأفعالِ المُناقضةِ.

ومَنْ كمُلَ حضورُ قلبِهِ في صلاتِهِ ومناجاتِهِ لربِّهِ حسُنَ منهُ أنْ يقولَ: «السَّلامُ عليكُمْ» لمَنْ عن يمينِهِ وشِمالِهِ؛ لأنَّهُ كانَ غائبًا قدمَ عليهِم، وإلَّا فمَنْ هوَ حاضرٌ بيدَيهِ بينَ يدَي اللهِ، وقلبُهُ مفرَّقٌ فيمَا يحبُّهُ ويهوَاهُ.. فلمْ يغِبْ عن نفسِهِ ولَا عمَّنْ بِجانِبَيهِ فهوَ حاضرٌ معَهُمْ لمْ يَغِبْ[(٣)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَيُحتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: الخُشُوعُ: إِطْرَاقُ السَّرِيرَةِ بِشَرْطِ الإِذْنِ بِمَشْهَدِ الحَقِّ.

أَوْ يُقَالُ[(٥)]: الخُشُوعُ: ذُبُولٌ[(٦)] يَرِدُ عَلَى القَلْبِ عِنْدَ اطِّلَاعِ الرَّبِّ.

أَوْ يُقَالُ: الخُشُوعُ: ذَوَبَانُ القَلْبِ وَانْخِنَاسُهِ[(٧)] عِنْدَ سُلْطَانِ الحَقِيقَةِ.

أَوْ يُقَالُ: الخُشُوعُ: مُقَدِّمَاتُ غَلَبَاتِ الهَيْبَةِ.

---

(١) وذلك لأن أسرار القلوب تبدو علىٰ صفحات الوجوه، فإذا تأدب القلب تأدبت سائر الجوارح.

(٢) ورد بمعناه في: تهذيب الأسرار ص٢٣٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٠.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٦.

(٥) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٩٣.

(٦) أي: انقباض يرد علىٰ البدن والجوارح عند خشوع القلب.

(٧) في (ف): وانحباسه.

أَوْ يُقالُ: الخُشوعُ: قَشْعَرِيرَةٌ تَرِدُ عَلَى القَلْبِ بَغْتَةً عِنْدَ مُفاجَأَةِ[(١)] كَشْفِ الحَقِيقَةِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكلُّ ما ذكرَهُ الإمامُ مِن هذهِ الحدودِ يجمعُهَا تغيُّرُ القلبِ وتذلُّلُهُ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالذُّبولِ أوِ الذَّوبانِ، كلُّ ذلِكَ إذَا استشعرَ نظرَ الحقِّ إليهِ وغشيَتهُ هيبتُهُ وتعظيمُهُ حتَّىٰ لمْ يبقَ فيهِ وسعٌ لغيرِ ما هوَ فيهِ [٢/١٥أ].

فهذِهِ الحالةُ هيَ الَّتِي عبَّرَ عنهَا بالخشوعِ، وهيَ أعلَىٰ مراتبِ الخاشعِينَ، فإنَّ العبدَ قدْ ينكشفُ عنِ الإخلالِ بالواجباتِ وارتكابِ المحرَّماتِ خوفًا ويكونُ عندَهُ بعضُ خشوعٍ، وقدْ يكونُ عندَهُ بعضُ[(٢)] الجدِّ في عمارةِ الأوقاتِ بأنواعِ المندوباتِ ويكونُ قلبُهُ مشغولًا بذلِكَ مخلصًا للهِ فيهِ ذاكرًا لقصدِهِ اللهَ عالمًا أوْ معتقِدًا بنظرِ اللهِ إليهِ فيكونُ خاشِعًا، وقدْ يكونُ في أحوالٍ شَريفةٍ معَ مَولَاهُ، قائمًا بهَا في أكملِ درجاتِ كَسْبِهِ وتَقْوَاهُ، رائيًا فضلَ ربِّهِ عليهِ وإعانَتَهُ لهُ متبرِّئًا مِن دعواهُ ويكونُ خاشعًا.

فالَّذِي أشارَ الإمامُ إليهِ في الأقوالِ أعلَىٰ مراتبِ الخاشعِينَ؛ وهمُ العارفونَ الَّذينَ يردُ علىٰ قلوبِهِمْ مِنْ هيبةِ اللهِ - تعالىٰ - وإجلالِهِ وتعظيمِهِ مَا يُذهلُهُمْ عنْ غيرِهِ ويصطلمُهُمْ[(٣)] حتَّىٰ لا يبقَىٰ لهُمْ إحساسٌ ولا مُشاهدةٌ لِغيرِهِ.

❁ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِياضٍ[(٥)]: كانَ يُكْرَهُ أَنْ يُرِي

---

(١) في (ب): مناجاة، والصواب المثبت.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أي: يستأصلهم.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.

(٥) ورد قوله في: مدارج السالكين ١/٥٢١، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٢٩٦. وورد معناه: حلية الأولياء ٧/٧١، وشعب الإيمان ٥/٣٦٥.

الرَّجُلُ[(١)] مِنَ الخُشُوعِ[(٢)] أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ إشارةٌ إلىٰ كتمِ الأحوالِ الغالبةِ علىٰ القلوبِ حتَّىٰ تظهرَ الجوارحُ، فإذَا انفصلَ الإنسانُ مِنَ الحالِ يُكْرَهُ لهُ أنْ يتملمَلَ بظاهرِهِ، أو يتمادَىٰ في تساكُرِهِ أو غشيانِهِ أو صياحِهِ أو بكائِهِ معَ تمكُّنِهِ مِنْ ردِّ نفسِهِ عنْ ذلِكَ وقوَّتِهِ علىٰ سترِهِ، وإلَّا متَىٰ كانَ الأمرُ غالبًا أعنِي ممَّا[(٣)] في قلبِهِ وأثَّرَ ذلكَ في جوارِحِهِ وعجزَ عن مَسْكِهِ، فلَا يصحُّ أنْ يقالَ فيهِ: «كانَ يكرهُ»؛ لأنَّهُمْ لا يكرهُونَ إلَّا مَا يمكنُ، وهَذَا جميعُهُ معَ[(٤)] الصِّدقِ بالقلبِ والبدَنِ.

وأمَّا فعلُ ذلِكَ فِي غيرِ الصِّدقِ فحرامٌ إنْ أرادَ بقولِهِ: «يُكْرَهُ» التَّحريمَ، فذلِكَ لأحدِ قسمَينِ: إمَّا أنْ يكونَ مُرائيًا، أو متشبِّعًا بمَا لمْ يَنَلْ كاذِبًا[(٥)]، كمَا قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)]: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَنَلْ[(٧)] كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ[(٨)]»[(٩)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١٠)]: «وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[(١١)]: لَوِ اجْتَمَعَ النَّاسُ

---

(١) في (ف): أن يرىٰ علىٰ الرجل.
(٢) أي: خشوعه.
(٣) في (ب): ما، والأصح المثبت.
(٤) في (أ): من.
(٥) القصد: أن العبد إذا كان قادرًا علىٰ كتم الأحوال الغالبة علىٰ قلبه ولم يكتمها كان مرتكبًا مكروها، وإذا أظهرها رياء أو تشبعا بما لم ينله فهو مراء كذاب.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) كناية عمَّن ادعىٰ شيئا لم يثبت له. وانظر: الفائق ٢/٢١٦.
(٨) أي: هو من يلبس قميصًا واحدًا ويصل بكمَّيه كُمَّين آخرين، فيظهر أنَّ عليه قميصين. انظر: عمدة القاري ٢٠/٢٠٤.
(٩) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨١.
(١٠) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.
(١١) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٢٧٤، وتاريخ دمشق ٣٤/١٣١، وتهذيب الأسرار ص٤٦٣، وإحياء علوم الدين ٤/٢٢٦، وصفة الصفوة ٤/٢٢٩، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٦.

أَنْ يَضَعُونِي كَاتِّضَاعِي عِنْدَ نَفْسِي لَمَا قَدِرُوا عَلَيْهِ».

* قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَخْرَجُ هذَا مِن أبِي سليمانَ إنَّمَا يكونُ لمَنْ يَقتَدِي بهِ ويُعرِّفُهُ هذِهِ الحالَةَ الشَّريفةَ فِي التَّواضعِ معَ الكمالِ، فإنَّ مَنْ كمُلَ في صفاتِ الخيرِ؛ منَ العلمِ والعملِ والحالِ وهوَ فِي تواضُعِهِ كمَا وصفَهُ فهِيَ[1] حالةٌ [٢/٥٥ب] شريفةٌ، فلَا يُظْهِرُهَا أحدٌ منَ العُمَّالِ إلَّا لمَنْ يَقْتَدِي بهِ في حَالِهِ، وينتفعُ بذلِكَ في طلبِ كَمَالِ الأَحْوَالِ.

* قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ[3]: مَنْ لَمْ يَتَّضِعْ عِنْدَ نَفْسِهِ لَمْ يَرْتَفِعْ عِنْدَ غَيْرِهِ[4]».

* قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ لأحَدِ أمرَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ مَنْ لمْ يتَّضِعْ لمْ يعرفْ قدرَ نفسِهِ، وربَّمَا ظهرَ منهُ الكِبْرُ علىٰ النَّاسِ، وإذَا ظهرَ الكِبرُ علىٰ النَّاسِ معَ الإفلاسِ مِن خصالِ الكمالِ نزلَ قدرُهُ عندَهُمْ في الحالِ[5].

والوجْهُ الثَّانِي: أنَّ التَّواضُعَ للهِ مِن أشرَفِ الأخلاقِ، فإذَا ظهرَ التَّواضعُ معَ الاتِّصافِ بأفضلِ أخلاقِ الدِّينِ؛ منَ العلمِ والعمَلِ والنَّزاهةِ عَنْ ذميمِ الأخلاقِ والتَّخلُّقِ بأشرَفِهَا عندَ اللهِ ومعَ ذلِكَ يكونُ الرَّجلُ متواضِعًا معَ كمالِهِ رفعَهُ اللهُ بحُسْنِ نيَّتِهِ، وأَطْلَعَ الخَلْقَ علىٰ حُسْنِ سريرَتِهِ، فشرَّفُوهُ وعظَّمُوهُ، وهذَا المعهودُ المعروفُ

---

(١) في (ب): في.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.

(٣) ورد قوله في: زهر الآداب وثمر الألباب ٤/١٠٥٤، ومحاضرات الأدباء ١/٣١٩.

(٤) لكونه يزاحمهم في الرياسة.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨١.

مِن أهلِ الدِّينِ والفضلِ والتَّواضُعِ مِن غيرِ مذلَّةٍ معَ نَزَاهةِ النَّفسِ والاتِّصَافِ بأَكْمَلِ الأعمالِ والأحوالِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **لَا يَسْجُدُ إِلَّا عَلَىٰ التُّرَابِ»**[(٢)].

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ تواضُعِهِ لربِّهِ؛ وهوَ أنْ يأخذَ أرفعَ ما فيهِ وهوَ وجهُهُ يضعهُ فِي التُّرابِ؛ تذلُّلًا لربِّهِ ورجاءً لقبولِ عمَلِهِ، والعفوِ عنْ خطئِهِ وزلَلِهِ.

ومِنْ ذلِكَ ما رُوِيَ[(٣)] أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدَ أنْ طُعِنَ وهوَ في حالِ الفِراقِ كانَتْ رأسُهُ علَىٰ وركِ ولدِهِ عبدِ اللهِ، قالَ لهُ عمرُ: ضَعْ رأسِي بالأرضِ؛ فقالَ: ومَا عليكَ يَا أَبَةِ أنْ يكونَ رأسُكَ علَىٰ وركِي أوْ فِي الأرضِ؟! فزجرَهُ ثمَّ قالَ: ضعْ رأسِي بالأرضِ، لَا أمَّ لكَ فِي الثَّانيةِ أوْ فِي الثَّالثةِ فوضعَهَا وهوَ يقولُ: ويلِي، وويلَ أمِّي إنْ لمْ يغفرِ اللهُ لِي حتَّىٰ فاضَتْ عينُهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ الفَرَائِضِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ ـ وَهُوَ المِصِّيصِيُّ ـ، عَنْ هَارُونَ بْنِ حَيَّانَ، عَنْ خَصِيفٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ:**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.

(٢) ورد في: إحياء علوم الدين ١/١٤٩، وقناطر الخيرات ١/٣٦٧، وإتحاف السادة المتقين ٣/٣٢.

(٣) ورد في: الطبقات الكبرىٰ ٣/٣٦٠، ووصايا العلماء ص٣٧، وحلية الأولياء ١/٥٢، وتاريخ دمشق ٤٤/٤٤٤، وصفة الصفوة ١/٢٩١، والمدهش ص١٩١.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.

قَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ [مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ][(٢)] مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ».

قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللهُ[(٣)]: لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ ـ سبحانه ـ قَوْمَ نُوحٍ شَمَخَتِ الجِبَالُ، وَتَوَاضَعَ الجُودِيُّ، فَجَعَلَهُ اللهُ ـ سبحانه ـ قَرَارًا لِسَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ» [٢/١٦أ].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ في قصَّةِ الجُودِيِّ دليلٌ علىٰ أنَّ مَنْ تواضعَ رفعَهُ اللهُ، فلمَّا لمْ يرَ الجبلُ نفسَهُ أهلًا لحلولِ النَّبيِّ والمؤمنينَ عليهِ أعطاهُ اللهُ تلكَ المنزلةَ[(٤)]، و«شمختِ الجبالُ» ـ أيْ تعالَتْ ـ، و«تواضَعَ الجودِيُّ»، أيْ: قصُرَ جهةَ الأرضِ، وهذهِ حرَكَاتٌ يجوزُ أنْ تُخلَقَ في الجمادَاتِ، والحديثُ الَّذِي قبلَ هذهِ الحكايةِ قَدْ تقدَّمَ الكلامُ عليهِ وتأويلُهُ[(٥)].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُسْرِعُ فِي المَشْيِ وَيَقُولُ[(٧)]: إِنَّهُ أَسْرَعُ لِلْحَاجَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ الزَّهْوِ[(٨)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ فيهِ إشارةٌ إلىٰ البُعْدِ عن أسبابِ العُجْبِ؛ وهوَ المشيُ علىٰ هيئةٍ مخصوصةٍ، وإلَّا فقدْ مدحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مَنْ يمشِي

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٥٩، والترمذي في سننه ٤/٣٦٠، وابن ماجه في سننه ١/٢٢، وقد مرَّ.

(٢) زيادة من (ف)، وهو كذلك في مظان تخريجه.

(٣) ورد قوله في: التواضع والخمول ص١٥٥، وتهذيب الأسرار ص٤٦٣، وإحياء علوم الدين ٣/٣٤٢، والمستطرف ١/٢٨٣. ومراده: بيان أن سر «من تواضع لله رفعه» سار في الجماد كالإنسان.

(٤) أفاده بنصه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٢.

(٥) الدلالة ٢/٣٣٢.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.

(٧) ورد قوله في: المكاسب للمحاسبي ص٥٣، والزهد لابن المبارك ص٢٨٨،

(٨) أي: الكبر والفخر.

علىٰ الأرضِ هونًا(١)، وكانَتْ عَادةُ النَّبيِّ ﷺ أنَّ مَشْيَهُ تَكَفُّأٌ(٢)، كأنَّما ينحطُّ مِن صَبَبٍ، ونُقِلَ أنَّ مشيَهُ في الحجِّ كانَ يمشِي العنقَ، فإذَا وجدَ فرجةً نَصَّ(٣)، أيْ: ظهرَ، فلذلِكَ كانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمشِي هذِهِ المِشيَةَ وهوَ مستعجلٌ، فلمَّا سُئِلَ عنهَا قالَ: هيَ أبعدُ عنِ العُجْبِ وأسرعُ لقضاءِ الحاجَةِ.

وكذلِكَ عُوتِبَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في لبوسِهِ فقالَ: هوَ أقربُ إلىٰ التَّواضُعِ، وأنْ يقتدِيَ بِي الرَّجلُ المسلمُ(٤).

فهذَا كلُّهُ دليلٌ علىٰ التَّواضُعِ والبُعْدِ عنْ أسبابِ الكِبْرِ والعُجْبِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): **«وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَكْتُبُ لَيْلَةً شَيْئًا وَعِنْدَهُ ضَيْفٌ، فَكَادَ السِّرَاجُ يَنْطَفِئُ، فَقَالَ الضَّيْفُ: أَقُومُ إِلَىٰ المِصْبَاحِ فَأُصْلِحُهُ، فَقَالَ: لَا، لَيْسَ مِنَ الكَرَمِ اسْتِعْمَالُ الضُّيُوفِ، قَالَ: فَأُنَبِّهُ الغُلَامَ؟ قَالَ:**

---

(١) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. والقصد: يمشي بسكينة وتواضع.

(٢) جزء من حديث طويل، أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال ١/٢٤٥، والمعجم الكبير ٢٢/١٥٦، ولفظه: «يَخْطُو تَكَفِّيًا وَيَمْشِي هَوْنًا ذَرِيعَ المِشْيَةِ إذا مَشَىٰ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ من صَبَبٍ». وفي مسند أحمد ١/١٢٧: «إذا مَشَىٰ تَكَفَّأَ تكفأ كَأَنَّمَا يَتَقَلَّعُ من صَخْرٍ».
قال ابن الجوزي: «كان إذا مشىٰ تكفأ؛ أي: تمايل إلىٰ قدام كأنه من قوته يمشي علىٰ صدفة قدميه» غريب الحديث ٢/٢٩٤.

(٣) ففي صحيح البخاري ٢/٦٠٠ ـ حديث رقم (١٥٨٣): «سُئِلَ أُسَامَةُ وأنا جَالِسٌ كَيْفَ كان رسول الله ﷺ يَسِيرُ في حَجَّةِ الوَدَاعِ حين دَفَعَ قال: كان يَسِيرُ العَنَقَ، فإذا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ»، وكذا في صحيح مسلم ٢/٩٣٦ ـ حديث رقم (١٢٨٦). العنق: السير الفسيح الواسع الخطوة دون إسراع. والنص: السير السريع. انظر: المغرب للمطرزي ٢/٨٦.

(٤) في التواضع والخمول ص١٨٣، وإصلاح المال لابن أبي الدنيا ص١١١: «عن زيد بن وهب عن علي أنه قال: عوتب في لبوسه، قال: إن لبوسي هذا أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلم»، وورد نحوه أيضا في: فضائل الصحابة لابن حنبل ١/٥٤٢.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧.

لَا ؛ هِيَ أَوَّلُ نَوْمَةٍ نَامَهَا، فَقَامَ إِلَى البَطَّةِ[١] وَجَعَلَ الدُّهْنَ فِي المِصْبَاحِ، فَقَالَ الضَّيْفُ: قُمْتَ بِنَفْسِكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ؟! فَقَالَ: ذَهَبْتُ وَأَنَا عُمَرُ، وَرَجَعْتُ وَأَنَا عُمَرُ»[٢].

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفِي هذِهِ الحكايةِ مِنَ الأدبِ وكرَمِ الأخلاقِ والتَّواضُعِ ما تُنبِّهُ عليهِ؛ وذلِكَ أنَّ الضَّيفَ لا ينبغِي لهُ أنْ يتصرَّفَ في دارِ مَنْ أضافَهُ إلَّا بإذْنِهِ، ولذلِكَ لمَّا أرادَ السِّراجُ أنْ ينطفِئَ استأذنَ أميرَ المؤمِنِينَ فِي أنْ يتصرَّفَ ويصلِحَ المِصباحَ بالزَّيتِ، فقالَ لهُ: لَا، وأعلَمَهُ أنَّ ذلِكَ مِنَ الأخلاقِ المحمودةِ ألَّا[٣] يُستخدمَ الضَّيفُ، فإنَّ حقَّ الضَّيفِ أنْ يُكرَمَ كمَا جاءَ فِي الخبرِ[٤]: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ [٢/٦ب] الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»، واستخدامُهُ ليسَ مِن كرامتِهِ، فلمَّا قالَ لهُ: نُوقِظُ الغلامَ ليصلِحَ، فقالَ لهُ: «**هِيَ أَوَّلُ نومَةٍ نامَهَا**» فلَا تشوِّشْ عليهِ نومَهُ، وهذِهِ هيَ الشَّفقةُ بالمملوكِ؛ امتثالًا لوصيَّةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥]: «أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ»، وفِي آخرِ الحديثِ[٦]: «وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يَطِيقُونَ»، ثمَّ قامَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ووضعَ الزَّيتَ منَ البطَّةِ فِي السِّراجِ وردَّهَا مكانَهَا، ثمَّ جلسَ فقالَ لهُ الضَّيفُ: فعلتَ هذَا بنفسِكَ يا أميرَ المؤمِنِينَ! تعجُّبًا مِنْ ذلِكَ لمخالفةِ عادةِ الوُلَاةِ،

---

(١) أي: بطة الزيت، وهي الإناء الذي يوضع فيه الدّهن.

(٢) ورد هذا الخبر في: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٤٤، والمعرفة والتأريخ ٣٢٠/١، وتاريخ دمشق ٢٢٦/٤٥، وشعب الإيمان ١٠٣/٧، وسير أعلام النبلاء ١٣٦/٥، وتاريخ الخلفاء ص٢٣٨.

(٣) في (ب): أي لا.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٤٠/٥ ـ حديث رقم (٥٦٧٢)، ومسلم في صحيحه ٦٨/١ ـ حديث رقم (٤٧).

(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٢٣٠٣/٤ ـ حديث رقم (٣٠٠٧).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠/١ ـ حديث رقم (٣٠)، ومسلم في صحيحه ١٢٨٢/٣ ـ حديث رقم (١٦٦١)، بلفظ: «... ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

فضلًا عنِ الخلفاءِ، فقالَ لهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ذهبْتُ وأنا عمرُ، ورجعْتُ وأنا عمرُ**» مَا نقصَ ممَّا أنا عليهِ شيءٌ؛ خيرًا كانَ أوْ شرًّا.

وهذَا يدلُّ علَىٰ كمالِ التَّواضُعِ والبُعْدِ مِن رؤيةِ النَّفسِ وكمالِهَا[١]، وهوَ موضعُ الاستشهادِ في البابِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَروَىٰ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ**[٣] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كَانَ يَعْلِفُ البَعِيرَ، وَيَقُمُّ البَيْتَ[٤]، وَيَخْصِفُ النَّعْلَ، وَيُرَقِّعُ الثَّوْبَ[٥]، وَيَحْلِبُ الشَّاةَ، وَيَأْكُلُ مَعَ الخَادِمِ، وَيَطْحَنُ مَعَهُ إِذَا أَعْيَا[٦]، وَكَانَ لَا يَمْنَعُهُ الحَيَاءُ أَنْ يَحْمِلَ بِضَاعَتَهُ مِنَ السُّوقِ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَكَانَ يُصَافِحُ الغَنِيَّ وَالفَقِيرَ، وَيُسَلِّمُ مُبْتَدِئًا، وَلَا يُحَقِّرُ مَا دُعِيَ إِلَيْهِ وَلَوْ إِلَىٰ حَشَفِ التَّمْرِ[٧].**

وَكَانَ هَيِّنَ المَؤُونَةِ[٨]، لَيِّنَ الخُلُقِ، كَرِيمَ الطَّبِيعَةِ، جَمِيلَ المُعَاشَرَةِ، طَلْقَ الوَجْهِ، بَسَّامًا مِنْ غَيْرِ ضَحِكٍ، مَحْزُونًا مِنْ غَيْرِ عُبُوسَةٍ، مُتَوَاضِعًا مِنْ غَيْرِ مَذَلَّةٍ، جَوَادًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ، رَقِيقَ القَلْبِ رَحِيمًا بِكُلِّ مُسْلِمٍ، لَمْ يَتَجَشَّأْ[٩] قَطُّ مِنْ شِبَعٍ، وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَىٰ الطَّمَعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذَا وجهَانِ منَ الاستدلالِ:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٣) رواه الغزالي في الإحياء ٣/٣٥٦، والصالحي في سبل الهدىٰ والرشاد ٧/٤٠.

(٤) أي: يكنسه، وينظفه.

(٥) أي: يخيطه، ويسد ما به من خروق.

(٦) أي: تعب.

(٧) أي: رديئه.

(٨) أي: يرضىٰ بما تيسر منها ولا يتكلف الزيارة.

(٩) أي: التجشؤ: هو تنفس المعدة بصوت من زيادة الامتلاء.

أحدُهُمَا: كمالُ تواضُعِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَ أنَّهُ أشرفُ العَالَمِينَ وأفضلُهُمْ فِي الدُّنيا والآخرةِ.

الوجْهُ الثَّاني: تعاطِيهِ الأسبابَ مِنْ عَلْفِ البعيرِ، وحَلْبِ الشَّاةِ، وخَصْفِ النَّعلِ، ورَقْعِ القميصِ، وطَحْنِهِ معَ الخَادِمِ إذَا أعيَا[1] معَ أنَّهُ أشرفُ المُتوكِّلينَ، دلَّ ذلِكَ علَىٰ أنَّ السَّببَ لَا يناقضُ التَّوكُّلَ ولَا المَقَامَاتِ العَاليةَ إذَا كانَ للهِ[2].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بن محمَّدٍ الرَّازِيَّ[4] يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ[5] بْنَ نَصْرٍ الصَّائغَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَرْدَوَيْهِ الصَّائغَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ[6]: قُرَّاءُ الرَّحْمَنِ[7] أَصْحَابُ خُشُوعٍ وَتَوَاضُعٍ، [٢/١٧أ] وَقُرَّاءُ القُضَاةِ أَصْحَابُ عُجْبٍ وَتَكَبُّرٍ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يخرجُ مخرجَ الغالبِ، فإنَّ ليسَ كلُّ مَنْ تقرَّبَ إلىٰ الولاةِ منَ القُرَّاءِ يكونُ مقصودُهُ العُجْبَ والتَّكبُّرَ بهِمْ، بَلْ يختلفُ أحوالُ المُتقرِّبينَ إليهِم؛ فبعضُهُمْ لينالَ مِن دنياهُمْ، وبعضُهُمْ يتقرَّبُ غلطًا ليغيِّرَ المُنْكَرَ، ويخلِّصَ المَظْلُومِينَ، ويأخذَ الدَّراهِمَ للفقراءِ، وهَلْ يقومُ خيرُهُ بشرِّهِ؟!

فيهِ نظرٌ، وذلِكَ لاختلافِ أحوالِ الأمراءِ ومَا يُشَاهَدُ عندَهُمْ منَ المُنْكَرِ للَّذِي لَا قُدْرَةَ لهُ علىٰ تَغْيِيرِهِ، ومنهُمْ مَنْ يقربُ منهُمْ ليعظُمَ جاهُهُ وتَنْفُذَ كلمتُهُ، وتكونَ

---

(١) في (ب): «الخاتم إذا أعمىٰ»، وهو تحريف.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٨.

(٤) سقط من (ب) قوله: «يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الله بن محمَّدٍ الرَّازِيَّ».

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٨/٤١٩، ومناقب الأبرار ١/١٢.

(٧) يشير إلىٰ أن رتبة العبد بحسب ما أضيف إليه.

لهُ سطوةٌ علىٰ أبناءِ جنسِهِ وغيرِهِم، وهذَا هوَ الغالبُ.

وأمَّا قرَّاءُ الرَّحمنِ فإنَّ علمَهُمْ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبأنفُسِهِمْ ولمَا كلَّفَهُمْ مولاهُمْ منَ القيامِ بحقِّهِ وبعجزِهِمْ عنْ ذلِكَ يذلُّونَ فِي أنفسِهِمْ ويتواضعُونَ لربِّهِمْ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «وَقَالَ الفُضَيْلُ[٢]: مَنْ رَأَىٰ لِنَفْسِهِ قِيْمَةً فَلَيْسَ لَهُ فِي التَّوَاضُعِ نَصِيْبٌ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذِهِ الرُّؤيةُ[٣] ليسَتْ علىٰ الإطلاقِ، بلِ المؤمنُ يعرفُ مَقامَهُ، وكذلِكَ العارفُ والعالمُ بالحلالِ والحرامِ وتفاوتِ درجاتِ الأحكامِ يعرفُ درجتَهُ ومَا مَنَّ اللهُ عليهِ بهِ، وبذلِكَ فليفرَحْ وعليهِ يَشْكُرُ، ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، والشُّكرُ يترتَّبُ علَىٰ المعرفةِ بالنِّعمِ منَ المُنْعِمِ، وإنَّمَا المذمومُ رؤيةُ فضلِهِ علَىٰ غيرِهِ حتَّىٰ يتكبَّرَ عليهِ ويستحقرَهُ، وهذِهِ الرُّؤيةُ الَّتِي تخرجُهُ منَ التَّواضُعِ؛ لأنَّ التَّكبُّرَ ضِدَّهُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٤]: «وَسُئِلَ الفُضَيْلُ[٥] عَنِ التَّوَاضُعِ فَقَالَ[٦]: يَخْضَعُ لِلحَقِّ، وَيَنْقَادُ لَهُ، وَيَقْبَلُهُ مِمَّنْ قَالَهُ[٧]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا هوَ التَّواضعُ الَّذِي قابلَهُ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٨.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٨/٤١٩، وتهذيب الأسرار ص٤٦٢، ومناقب الأبرار ١/١٢، ومدارج السالكين ٢/٣٢٩. وورد بلا نسبة في: إحياء علوم الدين ٣/٣٤٢، وبدائع السلك ص٥١٥.

(٣) في (ب): الرواية، وكذا اللفظ الذي يليه.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٨.

(٥) في (أ): «قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال الفضيل وقد سئل».

(٦) ورد قوله في: التواضع والخمول ص١١٨، وحلية الأولياء ٨/٩١، ومناقب الأبرار ١/٩، وإحياء علوم الدين ٣/٣٤٢.

(٧) نظرًا للقول لا للقائل.

بالكِبْرِ لمَّا قالَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكِبْرُ بطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ النَّاس»؛ و«بطَرُ الحقِّ»: ردُّهُ وإبطالُهُ إذَا سمِعَهُ المتكبِّرُ ممَّنْ هوَ دونَهُ، و«غمطُ النَّاسِ»: استنقاصُهُمْ واستصغارُهُمْ وحقريَّتُهُمْ، ومَنْ يخلصُ مِن هذهِ الأخلاقِ الذَّميمةِ هوَ المتواضعُ، وإنْ كانَ التَّواضعُ علىٰ درجاتٍ فهذَا هوَ التَّواضعُ الواجبُ؛ إذْ مَا لا خلاصَ منَ الحرامِ إلَّا بهِ فهوَ واجبٌ، والتَّكبُّرُ علىٰ الخَلْقِ وحقريَّتُهُمْ حرامٌ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الفُضَيْلُ[٢]: أَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ الجِبَالِ: إِنِّي مُكَلِّمٌ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْكُمْ [٢/٧ب] نَبِيًّا، فَتَطَاوَلَتِ[٣] الجِبَالُ، وَتَوَاضَعَ (طُورُ سَيْنَاءَ)، فكَلَّمَ اللهُ ـ سبحانه ـ عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِتَوَاضُعِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَقَدْ تقدَّمَ الكلامُ[٤] علىٰ تطاوُلِ الجبالِ وتواضُعِ الجُودِيِّ في قصَّةِ[٥] سفينةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ الارتفاعَ والخفضَ راجعٌ إلىٰ ما يخلُقُ اللهُ[٦] فيهَا منَ الحَرَكَاتِ، وذلِكَ جائزٌ فِي الجَمَادَاتِ، ويمتازُ هذَا الموضعُ بزيادةٍ؛ وهوَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أوحَىٰ إليهَا «إنِّي مكلِّمٌ عليكِ».

وهذَا يدلُّ علىٰ خلْقِ الحياةِ والفهْمِ والرِّفعةِ والتَّواضُعِ والاختيارِ بالإرادَةِ، وهذَا يدلُّ إذَا صحَّ نقلُهُ علىٰ خَرْقِ العَادَةِ، واللهُ أعلَمُ[٧].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٨.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٨/٤١٩، ومناقب الأبرار ١/١٢، وورد عن سليمان الداراني في: شعب الإيمان ٦/٢٩٥، وعن نوف في: السنة لعبد الله بن أحمد ٢/٤٦٩.

(٣) أي: ترفَّعت.

(٤) الدلالة ٢/٣٣٥.

(٥) في (ب): قضية.

(٦) سقط لفظ الجلالة من (ب).

(٧) في (ب): والله الموفق.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ فَاتِكٍ يَقُولُ[(٢)]: سُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ التَّوَاضُعِ، فَقَالَ: خَفْضُ الجَنَاحِ، وَلِينُ الجَانِبِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قريبٌ جدًّا مِنْ حقيقةِ التَّواضُعِ، فإنَّ مَنْ خفضَ جناحَهُ للخَلْقِ قَرُبُوا منهُ وانتفعُوا بهِ فِي سائِرِ مَا يمكنُهُ، وكذلِكَ إذَا لانَ جانبُهُ فإنْ أُوذِيَ بأذيَّةٍ حملَ[(٣)]، وإنْ قُوبِلَ بمَا يكرَهُ احتمَلَ، فلَا يؤاخِذُ غيرَهُ بحقٍّ وَيَرُدُّ[(٤)] مَا يَرِدُ مِن غيرِهِ منَ الجفَا، وينتفعُ[(٥)] بمَا يقدرُ عليهِ أربابُ الحوائِجِ.

وهذَا كلُّهُ لا يتمُّ إلَّا لمَنْ كمُلَتْ معرفتُهُ بنفْسِهِ، وبجلالِ ربِّهِ، وكمالِ حقِّهِ عليهِ، وشدَّةِ طلبهِ لمَا يُرضِيهِ عنهُ فيمَا بينَهُ وبينَهُ، وبينَهُ وبينَ خلْقِهِ، فلَا ترَاهُ في سائِرِ حركاتِهِ إلَّا مَوزُونًا، ولَا فِي سائِرِ كلماتِهِ إلَّا محفوظًا مِنَ الزَّلَلِ مَصُونًا.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقَالَ وَهْبٌ[(٧)]: مَكْتُوبٌ فِي بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِنَ الكُتُبِ: إِنِّي أَخْرَجْتُ الذَّرَّ مِنْ صُلْبِ آدَمَ، فَلَمْ أَجِدْ قَلْبًا أَشَدَّ تَوَاضُعًا [لِي][(٨)] مِنْ قَلْبِ مُوسَىٰ؛ فَلِذَلِكَ اصْطَفَيْتُهُ وَكَلَّمْتُهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٨.

(٢) ورد قوله في: ومدارج السالكين ٢/٣٢٩، وشرح نهج البلاغة ٦/١١٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٤.

(٣) أي: حملها، فلا يُؤاخذه بها.

(٤) في (ب): ويحمل.

(٥) في (ب): وينفع.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٧٨.

(٧) روي عنه في: تاريخ دمشق ٦١/٥٣، والمجالسة وجواهر العلم ص٣٦، وعن الداراني في: شعب الإيمان ٦/٢٩٥، وتهذيب الأسرار ص٤٦٤، والمنتقىٰ من مكارم الأخلاق ص١٥٦، وإحياء علوم الدين ٣/٣٤٢.

(٨) زيادة من (ف).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ غايةٌ فِي التَّحريضِ لبنِي إسرائيلَ علَىٰ التَّواضُعِ والتَّذلُّلِ لمولَاهُمْ، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ أخبَرَهُمْ أنِّي مَا ميَّزْتُ موسَىٰ عنكُمْ واختصصْتُهُ بكلامِي إلَّا لمَا اختصَّ بهِ مِن كمالِ تَواضُعِهِ.

وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يَنْبَغِي أنْ يتفطَّنَ لهُ، وذلِكَ أنَّ تواضُعَ موسَىٰ وغيرِهِ ممَّا أخصَّ اللهُ بهِ سائرَ الأنبياءِ، وهوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فيهِمْ وخلْقِهِ لهُمْ، وهوَ الَّذِي خصَّهُمْ بالأسبابِ، وتفضَّلَ عليهِمْ بترتيبِ المسبَّبَاتِ عليهَا، وكلُّ ذلِكَ فضلُهُ عليهِمْ؛ إذْ لَا فِعْلَ لغيرِهِ، وإنَّمَا جرَىٰ هذَا مجرَىٰ التَّنبيهِ علَىٰ تَعَاطِي الأسبابِ المَأمُورِ بهَا والمَحْثُوثِ[(١)]، عليهَا، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ رتَّبَ المسبَّبَاتِ عليهَا، سبحانَهُ وتعالَىٰ عمَّا يُشركُونَ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: [٢/١٨أ] «وَقَالَ ابْنُ المُبَارَكِ[(٣)]: التَّكَبُّرُ عَلَىٰ الأَغْنِيَاءِ، وَالتَّوَاضُعُ لِلْفُقَرَاءِ مِنَ التَّوَاضُعِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ليسَ علىٰ ظاهِرِهِ، فإنَّ المتكبِّرَ مذمومٌ علىٰ كلِّ أحدٍ؛ فقيرًا كانَ أوْ غنيًّا؛ فإنَّهُ محرَّمٌ، والتَّواضعُ محمودٌ إذَا كانَ للهِ لكلِّ شخصٍ وليسَ بمذمومٍ، وربَّمَا رأَىٰ هذَا مَنْ يتواضعُ للأغنياءِ لأجْلِ دنياهُمْ فيزعمُ أنَّهُ متواضعٌ تواضُعًا محمودًا، وربَّمَا تواضعَ للفقراءِ أيضًا فيقالُ لهُ: وَضْعُ الأشياءِ مواضعَهَا علَىٰ الإطلاقِ للهِ هوَ مِنَ التَّواضُعِ، فتواضُعُكَ للأغنياءِ لأجْلِ دنياهُمْ ليسَ بمحمودٍ، وتواضعُكَ للفقراءِ مطلقًا لأجْلِ فقرِهِمْ ليسَ بمحمودٍ، والمحمودُ تواضعُكَ للحقِّ، وقبولُكَ لهُ مِنْ أيِّ قائلٍ كانَ، غنيًا كانَ أوْ فقيرًا، هذَا

(١) في (ب): والمخفوت، وهو تحريف.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/٢٩٨، وتهذيب الأسرار ص٤٦٤، وصفة الصفوة ٤/١٣٩. ونسب لسفيان الثوري في: المجالسة وجواهر العلم ص٧٩، ١٧٢.

هوَ التَّواضعُ المَحْمُودُ[١].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ[٣]: مَتَىٰ يَكُونُ الرَّجُلُ مُتَواضِعًا؟ فَقَالَ: إِذَا لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ مَقَامًا وَلَا حَالًا، وَلَا يَرَىٰ أَنَّ فِي الخَلْقِ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إشارةٌ إلىٰ أعلَىٰ مقاماتِ الإعَراضِ عنِ النَّفسِ، وإنَّمَا يصحُّ ذلِكَ لكمالِ الاشتغالِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ ورؤيةِ جلالِهِ وعظمَتِهِ، ودوامِ ذِكْرِهِ ومناجَاتِهِ، حتَّىٰ يستغرقَ فِي ذلِكَ حتَّىٰ يغيبَ عَنْ ذِكْرِهِ مقدارَ جميعِ المخلوقاتِ، ثمَّ يغيبَ عنْ نفسِهِ.

فبهذَا الاعتبارِ كانَ أكملُ التَّواضُعِ أنْ لَا يرَىٰ لنفسِهِ قَدْرًا، وإذَا لمْ يَرَ لهَا قَدْرًا استحالَ أنْ يفضِّلَهَا علَىٰ غيرِهَا منَ المخلُوقِينَ، هذَا معَ إدراكِهِ بعجْزِ نفسِهِ وصغَرِ قَدْرِهَا، فأمَّا إذَا استولَىٰ عليهِ سلطانُ الحقيقةِ حتَّىٰ يَنْسَىٰ نفسَهُ فلَا خيرَ ولَا أثَرَ كأنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: التَّواضُعُ الكاملُ أنْ يصلَ العبدُ إلىٰ هذِهِ الحالةِ، وهوَ لا ينكرُ مَا قبلَهُ مِنْ درجاتِ التَّواضُعِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: التَّوَاضُعُ نِعْمَةٌ لَا يُحْسَدُ عَلَيْهَا، وَالكِبْرُ مِحْنَةٌ لَا يُرْحَمُ عَلَيْهَا، وَالعِزُّ فِي التَّوَاضُعِ، فَمَنْ طَلَبَهُ فِي الكِبْرِ لَمْ يَجِدْهُ[٦]».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٨٥/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٧٩/١.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٦٣، وإحياء علوم الدين ٣٤٣/٣، ومدارج السالكين ٣٢٩/٢، وتصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب ص١٤٨، والأنس في شرح عيوب النفس ص٣٢٤، وإتحاف السادة المتقين ٢٦٥/١٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٧٩/١.

(٥) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ٢٦٥/١٠.

(٦) قال ابن عطاء: «فهو كتطلب الماء من النار» مدارج السالكين ٣٢٩/٢.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ التَّواضُعَ كمَا قرَّرْنَاهُ منَ النِّعمِ الغالبةِ علىٰ العبدِ؛ لمَا يترتَّبُ عليهِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، وليسَ كلُّ أحدٍ منَ النَّاسِ يعرفُ نعمةَ التَّواضُعِ، بلِ التَّواضُعُ عندَ أكثرِ النَّاسِ مَذَلَّةٌ وقلَّةُ هِمَّةٍ، فلَا يحسدُهُ أحدٌ عليهَا، فإنَّ الحسدَ لَا يكونُ إلَّا علَىٰ النِّعَمِ.

والتَّواضعُ لَا يعرِفُ كونَهُ نعمةً كثيرٌ منَ النَّاسِ، فهِيَ نعمةٌ لا يُحسَدُ عليهَا، والكِبْرُ خُلُقٌ مذمومٌ ومعصيةٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ، فعلَىٰ هذَا هوَ مِحْنَةٌ وبَلِيَّةٌ لَا يُرحَمُ [٢/٨ب] عليهَا[١]، فهوَ أعينُ العبادِ الجهَّالِ في شرَفٍ ورِفْعَةٍ فلَا يترحَّمُونَ عليهِ ولا يشفقُونَ، فإنَّ الرَّحمةَ والشَّفقةَ إنَّمَا تكونُ علَىٰ المُصابِ المُبْتَلَىٰ، وليسَ كلُّ النَّاسِ يعرفُ أنَّ الكِبْرَ بلاءٌ؛ لأنَّ أثرَهُ في الآخرةِ، فلَا يعرِفُ كونَهُ بلاءً إلَّا أبناءُ الآخرَةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ شَيْبَانَ يَقُولُ[٣]: الشَّرَفُ فِي التَّوَاضُعِ، وَالعِزُّ فِي التَّقْوَىٰ، وَالحُرِّيَّةُ فِي القَنَاعَةِ[٤]**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: متَىٰ تواضَعَ العبدُ للهِ ـ تعالىٰ ـ وإنْ كانَ جليلَ القدْرِ وعلِمَ اللهُ مِنْ قلبِهِ ذلِكَ ـ أحبَّهُ لكونِهِ عرَفَ العبوديَّةَ معَ كمالِ إسباغِ النِّعَمِ.

ويعضّدُ هذَا مَا حُكِيَ: أنَّ[٥] بعضَ النَّاسِ أرادَ أنْ يشترِيَ مملوكًا، فطلَبَ صاحبُهُ فيهِ ثمنًا عظِيمًا، فتوقَّفَ المُشْتَرِي عنهُ لكثرةِ ثمنِهِ، فقالَ لهُ: يا سيِّدِي، فِيَّ كذَا كذَا خصلةً أيسرُهَا أفضلُ مِن هذَا الثَّمنِ الَّذِي طلبَهُ هذَا السَّيِّدُ، فقالَ لهُ: ومَا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٣) ورد قوله في: تاريخ الإسلام ٢٥/١٤٦، ومدارج السالكين ٢٥/١٤٦.

(٤) أي: الرضا بالمقسوم.

(٥) في (ب): عن.

هيَ ؟ قالَ: إذَا مكَّنْتَنِي مِن جميعِ أموالِكَ، وجعلتَ لِي النَّظرَ علَىٰ جميعِ حشمِكَ وعيالِكَ.. لمْ أغلطْ في نفسِي وعلِمْتُ أنِّي عبدُكَ.

وكذَا مَنْ مكَّنَهُ اللهُ - تعالىٰ - منَ العلومِ والأعمالِ، وتفضَّلَ عليهِ بأشرَفِ الأحوالِ، ولَا يغلطُ في نفسِهِ ولمْ يرَ نفسَهُ أهلًا لمَا مَنَّ اللهُ عليهِ بهِ، ورأىٰ فضلَهُ عليهِ في سائرِ ما هوَ فيهِ؛ ارتفعَتْ درجتُهُ عندَهُ وأعزَّهُ[١]، وأوقعَ لهُ المحبَّةَ في قلوبِ خَلْقِهِ فأعزُّوهُ وشرَّفُوهُ[٢]، وهذَا المفهومُ مِن قولِهِ[٣]: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ».

وكذلِكَ العزُّ؛ فإنَّ التَّقوىٰ تشملُ سائرَ الواجباتِ والمَنْدُوباتِ[٤]، وقَدْ جاءَ في الخبرِ الصَّحيحِ[٥]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ» الحديث، ومَنْ أحبَّهُ اللهُ حفظَهُ فِي سائرِ أعضائِهِ واستجابَ دعاءَهُ، فهوَ العزيزُ الرَّفيعُ المنزلَةِ عندَ اللهِ.

ومَنْ رُزِقَ القناعةَ لمْ يتذلَّلْ للطَّمَعِ، ولمْ يدخلْ في تَحْصِيلِ ما يَحْتَاجُ إليهِ كُلَّ مَدْخَلٍ، ولمْ يتذلَّلِ للنَّاس[٦]، ولمْ يُزَاحِمْ علَىٰ الأرزاقِ الأراذِلَ[٧] والأوبَاشَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ السَّاوي[٩]

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) فالتقوىٰ سببه، ولذا كانت خير الزاد.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في (ب): الإنسان.

(٧) في (ب): من الأراذل، والصواب المثبت.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٩) في (أ، ب): السَّيَّارِيَّ، والتصويب من مظان تخريج قوله، وإحكام الدلالة ١/٤٨٥، ونتائج الأفكار ٣/٢٨.

يَقُولُ[(١)]: سَمِعْتُ ابْنَ الأَعْرَابِيِّ يَقُولُ: بَلَغَنِي أَنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ قَالَ: أَعَزُّ الخَلْقِ خَمْسَةُ أَنْفُسٍ: عَالِمٌ زَاهِدٌ، وَفَقِيهٌ صُوفِيٌّ، وَغَنِيٌّ مُتَوَاضِعٌ، وَفَقِيرٌ شَاكِرٌ، وَشَرِيفٌ سُنِّيٌّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، ولكنَّهُ [١٩/٢] يخرجُ مخرجَ الغالبِ؛ وذلِكَ أنَّ مَنْ غلبَ عليه شيءٌ كانَتْ غلبتُهُ عليهِ مانعةً لهُ منَ المصيرِ إلى ضدِّهِ عادةً؛ وذلِكَ لأنَّ العالِمَ هوَ المتمكِّنُ منَ العلومِ العقليَّةِ والشَّرعيَّةِ والعاديَّةِ[(٢)]، العارفُ بوجوهِ الاستدلالِ، والمُفرِّقُ بينَ الشُّبَهِ والأدلَّةِ بواضحِ البيانِ والمَقَالِ، فهوَ كاملٌ عندَ النَّاسِ، مُعَظَّمٌ بينَ الأنامِ، ومَنْ يكونُ هذِهِ صفتُهُ وحيثُ مالَ أوْ توجَّهَ رُفِعَتْ منزلتُهُ ودرجتُهُ بَعُدَ عَنْ[(٣)] قلبِهِ الزُّهدُ فِي الدُّنيَا؛ فإنَّهُ غارقٌ في معظمِهَا وهوَ الجاهُ؛ ولذلِكَ قيلَ[(٤)]: «آخرُ مَنْ يخرجُ مِن رؤوسِ الصِّدِّيقِينَ حبُّ الرِّئَاسَةِ[(٥)]»[(٦)].

وأمَّا «**الفقيهُ الصُّوفِيُّ**»: فإنَّ الغالبَ منَ الفقيهِ معرفةُ[(٧)] الحَلالِ والحَرَامِ، وتحقيقُ الفُتْيَا بينَ الأَنَامِ، والرُّجوعُ إليهِ في سَائِرِ المُهمَّاتِ فِي فَصْلِ الخِصَامِ فهوَ محتاجٌ إليهِ ولا بُدَّ منَ الرُّجوعِ إليهِ.

والصُّوفِيُّ: عبارةٌ عنِ المُنقطِعِ بقلبِهِ عنِ النَّاسِ، المَشْغُولِ بربِّهِ ومُرَاعَاةِ مَا هوَ فيهِ منَ الخواطِرِ والأحوالِ والأنفَاسِ، فيبعُدُ أنْ يكونَ الشَّخصُ فَقِيهًا يحتاجُ إليهِ النَّاسُ ويتفرَّغُ لمَا يشيرُ إليهِ أهلُ التَّصوُّفِ مِنْ مُرَاعَاةِ الأَحْوالِ والأنفَاسِ.

---

(١) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٣٠.

(٢) في (ب): والعادة، والصواب المثبت.

(٣) في (أ، ب): من، والأصح المثبت.

(٤) ورد في: إحياء علوم الدين ٣/٢٧٥، ٤/١٠٢، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٧.

(٥) لأنها الشهوة الخفية.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٦.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

وقَدْ يَمُنُّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علَىٰ بعضِ مَنِ اختصَّهُ بالجَمْعِ بينَ ذلِكَ، كأحوالِ الأنبياءِ والسَّادةِ مِنَ الخلفاءِ؛ أبِي بكرٍ وعمرَ وغيرِهِمْ ممَّنْ قامَ بحقِّ اللهِ في نفسِهِ وفي غيرِهِ، ولذلِكَ قلنَا: «غالبًا»، وقَدْ تقدَّمَ أنَّ أسبابَ الغناءِ والسَّعَةِ في الدُّنيَا فِي المَالِ والجَاهِ هيَ أسبَابُ الشَّرفِ والتَّكبُّرِ، فالمُتَواضِعُ مَعَ هذَا الحَالِ نَادرٌ.

وأمَّا «**الفقيرُ الشَّاكرُ**»: فإنَّ الفقيرَ يلازمُهُ الصَّبْرُ، وإنَّمَا يشكرُ الإنسانُ علَىٰ النِّعَمِ، وقلَّ مَنْ يَعْرِفُ الفَقرَ للهِ عليهِ ومَا صُرِفَ عنهُ فِي الدُّنيَا مِنَ الحُقُوقِ والواجِبَاتِ، ومَا سلِمَ منهُ فِي الآخرةِ مِنَ الحسابِ وشدَّةِ المُطَالبَاتِ، فقَلَّ مَنْ يَشْكُرُ علىٰ الفقرِ إلَّا آحادُ النَّاسِ.

و«**الشَّرِيفُ السُّنِّيُّ**»: هذَا أمرٌ جرَتْ بهِ العَادةُ فِي أنَّ الشُّرفاءَ المُنْتَسِبِينَ لأولادِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ أولادِ فاطمةَ وعليٍّ وغيرِهِمْ مِنَ الشُّرفاءِ يكونُ منهُمُ المَيْلُ إلىٰ ما هُمْ فيهِ، وربَّمَا لمْ يعظِّمُوا أبا بكرٍ وعُمَرَ حقَّ تعظيمِهِمَا[١]، ولمْ يسلكُوا مسلكَ أهلِ السُّنَّةِ فِي تقديمِهِمَا مِنْ هذِهِ الجهَةِ[٢] ـ واللهُ أعلمُ ـ، أطلقَ[٣] هذَا الإطلاقَ أنَّ مِنَ النَّوادِرِ ممَّنْ يدَّعِي الشَّرَفَ يكونُ سُنِّيًّا.

---

(١) قال العروسي: «قوله: (إنه لا يعظم أبا بكر وعمر...) الخ، أقول: ولعل السبب حنو الطبع إلىٰ الأصل، فلما تثبت تقدمهما ـ رضي الله تعالىٰ عنهما ـ بإرادة الحق وشهادة الصدق علىٰ أصلهم، كان ذاك سببًا في عدم زيادة تعظيمهما كما ينبغي، والله أعلم» نتائج الأفكار ٣/٢٨.

(٢) وعبر المؤلف بـ(ربما) إشارة إلىٰ قلة من يذهب إلىٰ ذلك من أهل السنة، ولا يفعل ذلك إلىٰ المتعصب الجاهل من غلاة الشيعة، والمنصف لا يسايرهم علىٰ ذلك، ومن المنصفين الإمام جعفر الصادق في قوله: «ومن زعم أني أبرأ من أبي بكر وعمر فأنا منه بريء»، كما نقل عنه في: تهذيب الكمال ٥/٨٢، وسير أعلام النبلاء ٦/٢٥٦.

وقال البيهقي: «ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما علىٰ جميع الصحابة..» الاعتقاد ص٣٦٩. وانظر: مناهل العرفان ٢/٥٥.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

وهذا الَّذي ذكرَهُ إنَّمَا وقعَ فِي هذِهِ الأزمنَةِ المتأخِّرةِ، وأمَّا الصَّدرُ الأوَّلُ فقدْ وقعَ الإجماعُ منهُمَا علَىٰ تفضيلِ أبِي بكرٍ وعُمَرَ، وعلَىٰ الجُملَةِ فهذَا القائلُ إنَّمَا نظَرَ إلىٰ الغالبِ والنَّادرِ الواقعِ الوجودِ، ومقصودُ هذَا البابِ أنَّ النَّادرَ تواضُعُ الغَنِيِّ لَا غيرُهُ، وإنَّمَا تكلَّمْنَا عليهِ لِتَمامِ كَلامِهِ وَشَرحِ مَا قالَ، واللهُ المُسْتَعَانُ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ[2]: التَّوَاضُعُ حَسَنٌ فِي كُلِّ أَحَدٍ، لَكِنَّهُ فِي الأَغْنِيَاءِ أَحْسَنُ، وَالتَّكَبُّرُ سَمِجٌ[3] فِي كُلِّ أَحَدٍ، لَكِنَّهُ فِي الْفُقَرَاءِ أَسْمَجُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ لعدَمِ أسبابِ التَّكبُّرِ فِي حقِّ الفقيرِ ووجودِهَا فِي حقِّ الغنِيِّ، فمَنْ وجدَ أسبابَ التَّكبُّرِ من المَالِ والجَاهِ وغيرِ ذلِكَ ثمَّ لمْ يَعْمَلْ علىٰ مقتضَىٰ ذلِكَ وتواضعَ فتواضُعُهُ أحسنُ مِن تواضُعِ مَنْ لمْ يكنْ عندَهُ مِنْ أسبابِ التَّكبُّرِ ما عندَهُ.

وأمَّا الفقيرُ الَّذِي عُدِمَتْ عندَهُ أسبابُ الكِبْرِ مِنَ الدُّنيَا والآخرةِ فلَا يليقُ الكِبرُ بهِ علَىٰ حالٍ، وصدورُهُ منهُ أقبحُ مِن صدورِهِ ممَّنْ وجدَ أسبابَ التَّكبُّرِ، وقدْ وردَ الخَبَرُ[4] بذمِّ الشَّيخِ الزَّانِي ومدحِ الشَّابِّ التَّائبِ؛ وذلِكَ لِتَهَيُّؤِ أسبابِ الفَسادِ وقوَّةِ الشَّهوةِ منَ الشَّبابِ وضعْفِ ذلِكَ فِي حقِّ الشَّيخِ؛ ولذلِكَ قبُحَ الزِّنَا منهُ وحسُنَ تركُهُ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٢) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/٢٩٩، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٢٦٦، وبلا نسبة في: تهذيب الأسرار ص٤٦٣.

(٣) أي: قبيح.

(٤) كما في سنن الترمذي ٤/٦٩٨، ولفظه: «... وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُبْغِضُهُمْ اللهُ: الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالفَقِيرُ المُخْتَالُ، وَالغَنِيُّ الظَّلُومُ».

وفي التوبة لابن أبي الدنيا ص١٣٧: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الشَّابَّ التَّائِبَ». ورواه عنه وعن أبي الشيخ العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/٩٨٣.

مِنَ الشَّابِّ، وإنْ كانَ الزِّنَا قبيحًا مطلقًا، وتركُهُ حسنًا، إلَّا أنَّهُ من الشَّيخِ أقبحُ، وتَرْكُهُ مِنَ الشَّابِّ أحسَنُ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ**[(٢)]: **التَّوَاضُعُ: قُبُولُ الحَقِّ مِمَّنْ كَانَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قدْ تكرَّرَ مِرَارًا، ويعنِي مِنْ كلِّ قائلٍ كبيرٍ أوْ صغيرٍ؛ شريفٍ أو وضيعٍ؛ عبدٍ أوْ حرٍّ؛ لأنَّهُ ينظرُ إلى الحقِّ الَّذِي قالَ، لَا إلَى الشَّخصِ القائِلِ، فهوَ يتواضعُ للحقِّ وينقادُ لهُ، وهذَا هوَ التَّواضعُ للهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ**[(٤)]: **رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **فَدَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لِيَأْخُذَ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ: مَهْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**! فَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا**[(٥)]، **فَقَالَ زَيْدٌ**[(٦)]: **أَرِنِي يَدَكَ، فَأَخْرَجَهَا إِلَيْهِ فَقَبَّلَهَا وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ مشهورةٌ قدْ تداولَهَا النَّاسُ، وروَّجَهَا تعظيمُ العلماءِ والتَّواضُعُ لهُمْ، وكذلِكَ لأهلِ بيتِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذرِّيَّتِهِ، وذلِكَ أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ صلَّى علَى جنازةٍ فقُدِّمَتْ إليهِ بغلتُهُ ليركبَهَا، فجاءَ ابنُ عبَّاسٍ ليُمْسِكَ لهُ الرِّكابَ حتَّى يركبَ كمَا يفعلُهُ الخدَّامُ، فقالَ لهُ زيدٌ: «**مَهْ يَا ابنَ عمِّ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٢٩، ونسب لمظفر القرميسيني في: طبقات الصوفية ص٢٩٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٤) رواه المقري في الرخصة في تقبيل اليد ص٩٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/٣٢٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص١٢٨، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ص٢٢٨، وابن حجر في الإصابة ٤/١٤٦.

(٥) في (ف): بكبرائنا.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، معناهُ: **مَا هذَا؟** فقالَ لهُ ابنُ عبَّاسٍ: «**هكَذَا أُمِرْنَا أنْ نفعلَ بعلمائِنَا**»، أيْ: نكرمُهُمْ ونُجِلُّهُمْ، فقالَ لهُ زيدُ بنُ ثابتٍ: «**أَرِنِي يَدَكَ، فأخرجَهَا إليهِ**»، فمسَكَهَا زيدُ بنُ ثابتٍ وقبَّلَهَا، وقالَ: «**هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ رسولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وظاهرُ هذَا أنَّهُ فعلَهُ مكافأةً لمَا فَعَلَ هُوَ مِنْ مَسْكِهِ الرِّكابَ وقبَّلَ يدَهُ الَّتِي مسَكَ بهَا الرِّكابَ.

وقولُهُ: «**هكَذَا أُمِرْنَا أنْ نفعلَ**»، معناهُ: نُجِلُّهُمْ ونُعظِّمُهُمْ، وإنْ كانَ مالكٌ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرِهَ تقبيلَ اليدِ[(٢)]، وشدَّدَ الكَرَاهَةَ فيهِ.

وقدْ يكونُ ذلِكَ خوفًا مِنْ دخولِ آفَةِ الكِبْرِ والعُجْبِ علىٰ المفعولِ بهِ، وذلِكَ علىٰ وجْهِ التَّعظيمِ لهُ، لَا علىٰ وجْهِ المكافَأَةِ لِمَا فعلَهُ[(٣)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: **رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **وَعَلَىٰ عَاتِقِهِ قِرْبَةُ مَاءٍ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَا يَنْبَغِي لَكَ هَذَا؟!**.

فَقَالَ: لَمَّا أَتَانِي الوُفُودُ مُتَتَابِعِينَ مُطِيعِينَ دَخَلَتْ نَفْسِي نَخْوَةٌ[(٦)]، **فَأَحْبَبْتُ أَنْ**

---

(١) قال ابن حجر: «اختلفوا في تقبيل اليد؛ فأنكره مالك وأنكر ما روي فيه...» فتح الباري ١١/٥٦. وعلل لذلك ابن بطال بقوله: «وإنما كرهها مالك إذا كانت علىٰ وجه التكبر والتعظيم لمن فعل ذلك به، وأما إذا قبل إنسان يد إنسان أو وجهه أو شيئًا من بدنه مالم يكن عورة علىٰ وجه القربة إلىٰ الله لدينه أو لعلمه أو لشرفه، فإن ذلك جائز» شرح صحيح البخاري ٩/٤٦. وللاستزادة تأمل: الرخصة في تقبيل اليد لابن المقري، وروضة الطالبين ٧/٢٨، ومغني المحتاج ٣/١٣٥.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٧٩.

(٥) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٣٠، وبنحوه في: الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢/٣٨٠.

(٦) أي: كِبْر وعظمة.

أَكْسَرَهَا، وَمَضَىٰ بِالقِرْبَةِ إِلَىٰ حُجْرَةِ امْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصارِ، فَأَفْرَغَهَا فِي إِنائِهَا».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ بابِ أدَبِ النَّفسِ وكسْرِ نَخْوَتِهَا إذَا ظَهَرَتْ عندَمَا تُعَظَّمُ وَتُشَرَّفُ، ويجدُ الإنسانُ في نفسِهِ هِزَّةً، تعاطَىٰ أفعالًا تزري بقَدْرِها[١] وتذيقُهَا الذِّلَّةَ، وهذَا شأنُ الصَّالِحِينَ فِي مُدارَاةِ أنفسِهِمْ إذَا لمْ تنقدْ إليهِمْ لمَا يَرُومونه[٢] منَ الطَّاعاتِ أدَّبُوهَا بمخالفَةِ الهَوَىٰ، وتحميلِ الأمورِ الشَّاقَّةِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ[٤] الطُّوسِيَّ يَقُولُ[٥]: رُئِيَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمِيرُ المَدِينَةِ وَعَلَىٰ ظَهْرِهِ حِزْمَةُ حَطَبٍ وَهُوَ يَقُولُ: طَرِّقُوا[٦] لِلأَمِيرِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تقدَّمَ مِنْ فعْلِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلِكَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ[٧] فقيلَ لهُ[٨]: «قدْ كانَ في بَنِيكَ وغِلْمَانِكَ مَنْ يكفِيكَ هذَا!، فقالَ: أردْتُ أنْ أُجَرِّبَ نفسِي[٩] هلْ تُنْكِرُهُ؟!».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١٠]: «وَقَالَ عَبْدُ اللهِ الرَّازِيُّ[١١]: التَّوَاضُعُ تَرْكُ التَّمْيِيزِ

---

(١) في (ب): قدره، والأصح المثبت.
(٢) في (ب): يرومنه، والصواب المثبت.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.
(٤) في (ب): الشارح.
(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٧/٣٧٣، وبنحو في: الزهد لأبي داود ص٢٥٤.
(٦) أي: وسعوا الطريق.
(٧) عندما حمل حزمة من حطب أيضا.
(٨) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٤٠٤، وتصفية القلوب ص٣٢٤، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٣٦٢.
(٩) سقط هذا اللفظ من (ب).
(١٠) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.
(١١) ورد قوله في: الفتوة للسلمي ص٨٦.

فِي الخِدْمَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيْ متَىٰ احتاجَ[١] [٢/٩ب] العبدُ إلىٰ خدمةٍ أوْ صنعةٍ يأخذُ منهَا الكسبَ الحلالَ تعاطَىٰ أيَّ خِدمَةٍ كانَتْ، سَواءٌ كانَتْ رفيعةً أوْ وضِيعَةً.

وكذلِكَ متَىٰ رأَىٰ مُسْلِمًا مَرِيضًا[٢] ضَائعًا بادَرَ إلىٰ خدمَتِهِ وقضاءِ حاجَتِهِ، سواءٌ كانَ عبدًا أوْ حرًّا، غنيًّا كانَ أوْ فقيرًا، ويكونُ إقدامُهُ[٣] لمحضِ فِعْلِ الخيرِ، وجَبْرِ المريضِ فِي ضعْفِهِ وكسْرِهِ في حالِهِ، فإنَّ المريضَ وإنْ كانَ غنيًّا فهوَ مفتقرٌ إلىٰ مَنْ يَقْضِي حَوَائِجَهُ، ويزورُهُ، ويلطُفُ بهِ، فإنَّهُ في هذِهِ الحالةِ فقيرٌ إلَىٰ ما هوَ مُحْتَاجٌ إليهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ هَارُونَ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ العَبَّاسِ الدِّمَشْقِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ[٥]: مَنْ رَأَىٰ لِنَفْسِهِ قِيمَةً لَمْ يَذُقْ حَلاوَةَ الخِدْمَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّهُ لا يذوقُ حلاوَةَ الخِدْمَةِ إلَّا مِنْ كَمُلَ إِخْلاصُهُ، ورأَىٰ توفيقَهُ بهَا مِنْ جُمْلَةِ النِّعمِ عليهِ، فإذَا نظرَ إلىٰ ما أُجْرِيَ عليهِ مِنَ الخَيْراتِ وأعانَهُ عليهِ بفضْلِهِ ورحمتِهِ تَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، [و] وجدَ لذَّةَ عبادَتِهِ وخدمَتِهِ، ومَا دامَ ملتفتًا لنفسِهِ ورؤيَةِ كسْبِهِ لمْ تكملْ لذَّتُهُ؛ لِعَدَمِ كمالِ رؤيَةِ النِّعمةِ عليهِ لمَا خالَطَهَا مِنْ شَوبِ رؤيتِهِ النَّفسَ فِي الخِدْمَةِ، وإنَّما تَكْمُلُ اللَّذَّةُ بِرُؤيةِ كَمَالِ النِّعْمَةِ.

---

(١) اختل ترتيب هذه اللوحة والتي تليها في النسخة (أ).

(٢) في (ب): مرضيًّا، والصواب المثبت.

(٣) في (ب): إقدامها، والأصح المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعاذٍ[٢]: التَّكَبُّرُ عَلَى مَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْكَ بِمَالِهِ تَوَاضُعٌ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنَاهُ: أنَّ إعراضَ قلبِكَ عنِ الدُّنيَا للهِ مِنْ جُملَةِ استحقَارِ الدُّنيَا وعدمِ التفاتِكَ لهَا، وأنَّهَا لا تَزِنُ عندَ اللهِ شيئًا، وقَدْ صغَّرْتَ مَا صَغَّرَ اللهُ - تعالى - وصارَ ذلكَ حَالَكَ، فبهذَا الاعتبارِ سمَّاهُ مُتواضِعًا؛ لكونِهِ صغَّرَ ما صغَّرَ اللهُ، ولَمْ يلتفِتْ لتكبُّرِ المتكبِّرينَ بهَا[٣]، ولَمْ يكنْ لهَا ولَا لهُمْ في عينِهِ وزنًا ولَا قَدْرًا[٤]؛ مِنْ حيثُ الدُّنيَا لَا مِنْ حيثُ كَونُهِمْ مؤمنِينَ، ولَمْ يأمُرْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يتكبَّرَ على أحَدٍ منَ الأغنياءِ؛ لأنَّ الكِبْرَ حَرَامٌ مُطْلَقًا على الغَنِيِّ ولَا علَى الفَقِيرِ[٥]، وإنَّمَا مُرَادُهُ الإعراضُ عنِ المُتكبِّرينَ فِي الدُّنيَا، وعدمُ الالتفاتِ لمَا هُمْ فيهِ، فتجوزُ تسميتُهُ كِبْرًا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ: الشِّبْلِيُّ[٧]: ذُلِّي عَطَّلَ ذُلَّ الْيَهُودِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا لأنَّ اليهودَ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٢]: [٢/١٠أ] فهُمْ أذلُّ النَّاسِ في سائرِ بلادِ اللهِ، فمعنَى كلامِهِ أنَّهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٦٣، وكشف الخفاء ٢/٢٤١، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٢٦٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٨.

(٤) في (ب): «وزن ولا قدرٌ».

(٥) في (ب): «لا على الأغنياء ولا على الفقراء»، والأصح المثبت.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٦٢، وإحياء علوم الدين ٣/٣٤٢، وسراج الطالبين ٣/٣٤٢، والدرر واللمع في الزهد والورع ص١٧٩.

وقال الشعراني: «أي غلب على ذلهم وصغارهم حين يعطوا الجزية» بهجة النفوس والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق ٢/٣٢٤.

قالَ: إذَا نسبَ ذلِّي فِي نفسِي بمعرفتِي قدرَهَا، وقلَّةِ مَا يكونُ لِي منَ الخيرِ منهَا، وعجزِهَا عنْ قيامِهَا بمَا عليهَا لربِّهَا، وسُرعةِ نقضِهَا لِعَهْدِهَا، وسُرعةِ إقدامِهَا علىٰ ما نُهِيَتْ عنهُ ومَا يبعدُهَا عنْ ربِّهَا، فعلِمَ بهذِهِ الجهاتِ مِنْ أصلِهَا وأخلاقِهَا ومَا هِيَ عليهِ مِنْ صِفَاتِهَا لَمْ يجعلْ لهَا عندِي قدرًا ولَا وزْنًا، فإذَا نسبَ ذُلِّي في نفسِي إلىٰ ذلِّ اليهودِ كانَ ذلِّي أعظمَ مِنْ ذلِّهِمْ؛ لأنَّ ذلَّهُمْ ظاهرٌ لقهرِهِمْ فِي الدُّنيَا عندَ الخلقِ، وذلِّي بالنَّظرِ لمعرفتِي[١] بأصْلِي وصِفَاتِي.

فبهذَا الاعتبارِ قالَ: «**ذُلِّي عَطَّلَ ذُلَّ الْيَهُودِ**»، يعنِي: أنَّ ذلِّي فِي نفسِي أعظمُ مِنَ ذلِّ اليهودِ في أنفسِهِمْ، لأنَّ ذلَّهُمْ قَهْرِيٌّ[٢]، وذلِّي عنْ علمٍ ومعرفةٍ بمَا نفسِي عليهِ منَ النَّقصِ والتَّكليفِ، وهذَا لا يلزمُ عنهُ جحدُهُ لفضلِ ربِّهِ عليهِ، ومَا هوَ فيهِ مِن صفاتِ[٣] الكمالِ، فإنَّ مَا ذكرْنَاهُ منَ الذُّلِّ بالنَّظرِ لنفسِهِ ومَا هوَ فيهِ منَ الفضْلِ الكمالُ جارٍ عليهِ مِنْ ربِّهِ، فهوَ ذليلٌ عزيزٌ[٤].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَجاءَ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ الشِّبْلِيُّ[٦]: مَا أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَا سَيِّدِي؛ النُّقْطَةُ الَّتِي تَحْتَ البَاءِ، فَقَالَ: أَنْتَ شَاهِدِي مَا لَمْ تَجْعَلْ لِنَفْسِكَ مَقَامًا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ كمالٌ منَ السَّائلِ والمسئولِ، فقولُهُ: «**مَا أنتَ؟**»، أيْ: مَا حالُكَ فِي الوجودِ؟، فتفطَّنَ لسؤالِهِ وقالَ: «**يا سيِّدِي، النُّقطةُ الَّتِي تحتَ الباءِ**»، ذلِكَ لأنَّ النُّقطةَ الَّتِي تحتَ الباءِ إنَّمَا جُعِلَتْ دليلًا علىٰ

---

(١) في (ب): لمعرفي، والصواب المثبت.
(٢) في (أ): قهرا، والصواب المثبت، كما في: إحكام الدلالة ١/٤٨٨.
(٣) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «الفضل والكمال».
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٨.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.
(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٦٢، ومناقب الأبرار ٢/٦٤٧.

معرفتِهَا وتمييزِهَا عَنْ غيرِهَا ، فقالَ لهُ : أنَا دليلٌ عليهِ ، أنَا من جُمْلَةِ مخلوقاتِهِ ، وكذَا كلُّ العالمِ الحادثِ فإنَّهُ دليلٌ علىٰ مُحدِثِهِ ، فقالَ لهُ : «**أنتَ شَاهِدِي**[١]» ، يعنِي : أنَّ حالَكَ مستقيمٌ ما دُمْتَ ترَىٰ نفسَكَ دليلًا ولمْ ترَ أنَّ لنفسِكَ مَقَامًا ، فإنَّ الدَّليلَ إنَّمَا كانَ دليلًا لمَّا خلقَهُ اللهُ دالًّا ، فدلالتُهُ بصفتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا منَ الحدثِ علىٰ مُحدِثِهِ ؛ ولهذَا قالَ لهُ : «**أنتَ شاهِدِي مَا لمْ ترَ لنفسِكَ مقامًا**» ، وترَىٰ نفسَكَ مَحَلًّا لِجرَيَانِ فِعْلِهِ فيكَ ، ووجْهُ دخولِ هذِهِ الحكايةِ فِي التَّواضُعِ كونُهُ أنزلَ[٢] نفسَهُ منزلَةَ النُّقطةِ الَّتِي تحتَ الباءِ ، الدَّالَّةِ علىٰ تمييزِ الباءِ عنْ غيرِهَا ، بخلافِ غيرِهَا منَ النُّقطِ الَّتِي بأعلَىٰ الحروفِ ، وهذَا معنَىٰ نزولِ القدرِ وعدمِ رؤيةِ النَّفسِ ، وهوَ التَّواضُعُ [٢/١٠ب] .

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣] : **«وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[٤] : **مِنَ التَّوَاضُعِ أَنْ يَشْرَبَ الرَّجُلُ مِنْ سُؤْرِ أَخِيهِ»** .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وهذَا لأنَّ أكثرَ النَّاسِ مِنْ أهلِ الكِبْرِ والأنفِ لَا يرضَىٰ أنْ يشرَبَ منَ الفَضْلَةِ الَّتِي شَرِبَ منها غيرُهُ قَبْلَهُ ، فإنَّ المشروبَ لا بُدَّ أنْ يرجعَ منهُ شيءٌ إلىٰ الإناءِ بعدَ أنْ يُلاصِقَ الفمَ ؛ وهوَ السُّؤْرُ ، أيِ : الفَضْلَةُ .

فمِنَ التَّواضُعِ ألَّا يكونَ العبدُ هكذَا ، أوْ يشربَ مِنْ حيثُ شرِبَ أخوهُ ، سواءٌ كانَ موضعَ شرابِهِ ، أوْ مِنْ سؤْرِهِ وهِيَ فضلتُهُ ، ولوْ حسُنَ ظنُّهُ لشَرِبَ مِن سؤْرِ كلِّ شاربٍ منَ المسلمِينَ ؛ لأنَّ الولايَةَ مخفيةٌ في الخَلْقِ[٥] ، وقَدْ كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أي : حاضري .

(٢) في (ب) : ترك ، والصواب المثبت .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠ .

(٤) رواه الخطيب البغدادي مرفوعًا في : تاريخ بغداد ٦/٤٠٢ ، والديلمي في الفردوس ٣/٦٣٦ ، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/٢٣٨ ، والسيوطي في اللآلي المصنوعة ٢/٢١٩ ، وورد أيضا في : تهذيب الأسرارص ٤٦٣ .

(٥) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ١/٤٨٨ .

إذا شربَ منَ الإناءِ أعطَاهُ مَنْ علَىٰ يمينِه ثمَّ يدورُ علىٰ الجماعةِ إلىٰ أنْ يصِلَ إلَىٰ مَنْ علَىٰ شمالِه صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتَّىٰ إنَّهُ فِي الخبرِ الصَّحيح[١]: «كانَ علَىٰ يمينِه شابٌّ، وكانَ علىٰ يسارِه الأشياخُ، وقيلَ: كانَ خالدَ بنَ الوليدِ، فسأل[٢] النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الشابَّ أنْ يدفعَ النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الإناءَ مَنْ علَىٰ شمالِه، فقالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ لا أُوثِرُ بنصيبِي منكَ أحدًا، فناولَهُ إيَّاهُ».

وقَدْ جعلَ النَّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَعْقَ الصَّحْفَةِ[٣] الَّتِي أكلَ فيهَا النَّاسُ وكلٌّ منهُمْ يُدْخِلُ يدَهُ إلىٰ فِيهِ وقتَ أكْلِهِ، ثمَّ يعيدُهَا إلىٰ الصَّحفةِ الَّتِي فيهَا الثَّريدُ وغيرُهُ، فجعلَ لَعْقَهَا فيهِ الأجرُ الكثيرُ، وأنَّهَا تستغفرُ لمَنْ فعلَ ذلِكَ[٤].

فهذَا كلُّهُ دليلٌ علىٰ أنَّ أهلَ الخيرِ يرغبُونَ في ذلِكَ، وهوَ دليلٌ علىٰ كمالِ خيرِهِم، وإنَّمَا يأنفُ مِن ذلِكَ المتكبِّرونَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٥]: «وَقَالَ بِشْرٌ[٦]: سَلِّمُوا عَلَىٰ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا بِتَرْكِ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٨٣٤ ـ حديث رقم (٢٢٣٧) بلفظ: «عن سَهْلِ بن سَعْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أُتِيَ رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِقَدَحٍ فَشَرِبَ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ هو أَحْدَثُ القَوْمِ وَالأَشْيَاخُ عن يَسَارِهِ، قال: يا غُلَامُ أَتَأْذَنُ لي أَنْ أُعْطِيَ الأَشْيَاخَ، فقال: ما كنت لِأُوثِرَ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا يا رَسُولَ اللهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ»، ومسلم في صحيحه ٣/١٦٠٤ ـ حديث رقم (٢٠٣٠).

(٢) في (ب): قال.

(٣) في (ب): أحق الصفحة، وهو تحريف.

(٤) ففي سنن الترمذي ٤/٢٥٩: «.. أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: من أَكَلَ في قَصْعَةٍ ثُمَّ لَحِسَهَا اسْتَغْفَرَتْ له القَصْعَةُ»، وكذا في: سنن ابن ماجه ٢/١٠٨٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٦٥، وإحياء علوم الدين ٣/٣٤٣، والإرشاد والتطريز ص٧٣، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٢٦٩.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إنَّمَا وقعَ مِن قائِلِه تأديبًا لبعضِ أصحابِهِ[(١)] منَ الفقراءِ الَّذِينَ كانُوا يسلِّمُونَ علىٰ أبناءِ الدُّنيَا ويواصلُونَهُمْ لأَجْلِ دُنياهُمْ، ويعتلُّونَ بأنَّهُمْ إنَّمَا يقصدُونَ الزِّيارَةَ والتَّواصُلَ للهِ والسَّلامَ[(٢)] لوجْهِهِ، فقالَ لهُمْ هذَا الشَّيخُ: سلامُكُمُ الَّذِي هوَ أصلحُ فِي حقِّكُمْ أنْ لَا تسلِّمُوا عليهِمْ؛ لأنَّ سلامَكُمْ معلولٌ وليسَ طاعةً؛ فقَدْ أردتُمْ بسلامِكُمُ الدُّنيَا، فتَرْكُ هذَا السَّلامِ أسلَمُ منهُ[(٣)]، واللهُ أعلَمُ، وإلَّا فلَا سبيلَ لأحَدٍ منَ العلماءِ ولَا الصَّالحينَ أنْ يقولَ: ترْكُ السَّلامِ أفضلُ مِنْ فِعْلِهِ علَىٰ الأغنياءِ [١١/٢أ].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٤)]: «وَقَالَ شُعَيْبُ بْنُ حَرْبٍ[(٥)]: بَيْنَا أَنَا فِي الطَّوَافِ إِذْ لَكَزَنِي إِنْسَانٌ بِمِرْفَقِهِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ الْفُضَيْلُ، فَقَالَ: يَا أَبَا صَالِحٍ؛ إِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ شَهِدَ الْمَوْسِمَ شَرٌّ مِنِّي وَمِنْكَ فَبِئْسَ مَا ظَنَنْتَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ معرفَةِ الفُضَيلِ بنفسِهِ وخفايَا أعمالِهِ، وعدمِ إيقاعِهِ عبادَتَهُ علَىٰ مَا بلغَهُ علمُهُ مِنْ خلالِ ربِّهِ وعظمتِهِ؛ ولذلِكَ قالَ ما قالَ، فإنَّ الخلْقَ يُطالَبُونَ[(٦)] في أعمالِهِمْ علَىٰ حسبِ مَا مَنَّ عليهِمْ مِنْ علومِهِمْ، فلمَّا كانَ الفُضَيلُ عظيمَ الإجلالِ لمولَاهُ، وعارِفًا[(٧)] بأنَّ حالَهُ[(٨)] فِي النَّاسِ ليسَ كمَا يصلحُ أنْ يكونَ مِنَ[(٩)] مولَاهُ، وظنُّهُ بالنَّاسِ حسَنٌ، فنبَّهَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أخاهُ علىٰ

---

(١) في (ب): صاحبه.
(٢) في (ب): وإسلام.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٨.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٠.
(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/٣٠٣، وتاريخ دمشق ٤٨/٤١٨، وإتحاف السادة المتقين ١٠/٢٦٣.
(٦) في (ب): يطلبون.
(٧) في (أ): وعارفٌ، والصواب المثبت.
(٨) في (أ): أحواله، والأصح المثبت، لقوله بعده: ليس.
(٩) في (ب): مع.

ذلِكَ ؛ ليكمُلَ تواضُعُهُمَا معَ كمالِ أعمالِهِمَا[(١)].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ[(٣)]: رَأَيْتُ فِي الطَّوَافِ إِنْسَانًا بَيْنَ يَدَيْهِ شَاكِرِيَّةٌ يَمْنَعُونَ النَّاسَ لِأَجْلِهِ عَنِ الطَّوَافِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ عَلَىٰ جِسْرِ بَغْدَادَ يَسْأَلُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: أَنَا تَكَبَّرْتُ فِي مَوْضِعٍ يَتَوَاضَعُ النَّاسُ هُنَاكَ، فَابْتَلَانِي اللهُ ـ سبحانه ـ بِالتَّذَلُّلِ فِي مَوْضِعٍ يَتَرَفَّعُ فِيهِ النَّاسُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّهُ كانَ مِنْ عُمَّالِ الخليفَةِ وصلَ إلىٰ الحجِّ، فلَمْ يرْضَ أنْ يطُوفَ[(٤)] مُخْتلطًا معَ النَّاسِ، فقَدَّمَ بينَ يدَيهِ الخُدَّامَ يوسِّعُونَ لهُ كِبْرًا حتَّىٰ لا يخالِطَ الفقراءَ والنَّاسَ فِي الطَّوافِ، فعمِلَ معَهُ هذَا السُّمُّ إلَىٰ أنْ وصلَ إلىٰ بغدادَ، ونقِمَ عليهِ الخليفةُ بعضَ ما ينقمُ علىٰ العمَّالِ، وسلبَهُ جميعَ ما هوَ منْهُ، وصارَ فقيرًا يسألُ النَّاسَ.

قالَ هذَا الرَّائِي لهُ فِي الطَّوافِ وبينَ يدَيهِ الشَّاكريَّةُ[(٥)]، فلمَّا رأيتُهُ بعدَ مدَّةٍ يسألُ ببغدادَ بقيتُ مُتَعَجِّبًا منهُ، ففهِمَ عنِّي ذلِكَ ؛ فقالَ لِي: «**تكبَّرْتُ فِي مَوضعٍ يَتذلَّلُ فيهِ النَّاسُ، فَأَذَلَّنِي اللهُ فِي مَوضعٍ يَتعزَّزُ فيهِ النَّاسُ**».

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَبلَغَ عُمَرَ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ ابْنًا لَهُ اِشْتَرَىٰ خَاتَمًا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَكَتَبَ لَهُ عُمَرُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ اشْتَرَيْتَ فَصًّا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَبِعِ الخَاتَمَ، وَأَشْبِعْ أَلفَ بَطْنٍ، وَاتَّخِذْ خَاتَمًا مِنْ دِرْهَمَيْنِ، وَاجْعَلْ فَصَّهُ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٤٨٩/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٨٠/١ ـ ٢٨١.

(٣) ورد في: تهذيب الأسرار ص٤٦٤، وإتحاف السادة المتقين ٢٦٨/١٠.

(٤) في (أ): يطفَ، والصواب المثبت.

(٥) أي: جماعة يشكرونه ويحمدونه.

(٦) الرسالة القشيرية ٢٨١/١.

حَدِيدًا صِينِيًّا، وَاكْتُبْ عَلَيْهِ: رَحِمَ اللهُ امْرَءًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ»(١).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّهُ اشترى فصًّا مِن ياقوتٍ أحمرَ مِنْ أعلى جنسِ الياقوتِ، وأرادَ [٢/١١ب] أنْ يجعلَهُ في خاتمٍ ويلبسَهُ فِي يدِهِ، وهذِهِ أماراتُ المتكبِّرينَ بالدُّنيا، فلمَّا بلغَ ذلِكَ والدَهُ كتبَ إليهِ: «بعِ الفَصَّ، وأشبعْ بِهِ ألفَ بَطْنٍ» فإنَّهُ أفضلُ لكَ عندَ اللهِ، «واعملْ خاتمًا مِنْ درهمَينِ فضَّةٍ، واعملْ فصَّهُ حديدًا صينيًّا» فإنَّهُ أثبتُ للنَّقشِ عليهِ لِصَلابَتِهِ، واكتُبْ عليهِ نقشًا: «رَحِمَ اللهُ امْرَءًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ»، فكلَّما رآهُ تذكَّرَ فِيهِ(٢) قدْرَ نفسِهِ وتواضعَ لربِّهِ، وأمْرُهُ لهُ بالتَّصدُّقِ بثمنِهِ مقابلةٌ للشَّيءِ بضدِّهِ، وذلِكَ أنَّهُ لمَّا كانَ نوى الكِبْرَ أمرَهُ بإخراجِهِ في جِهَةِ البِرِّ ليقابلَ الشَّرَّ بالخيرِ فيمحُوا أثَرَهُ(٣)، فإنَّ عزمَهُ على التَّكبُّرِ حرامٌ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): «وَقِيلَ: عُرِضَ عَلَى بَعْضِ الأُمَرَاءِ مَمْلُوكٌ(٥) بِأُلُوفِ دَرَاهِمَ، فَلَمَّا أَحْضَرَ الثَّمَنَ اسْتَكْثَرَهُ، فَبَدَا لَهُ فِي شِرَائِهِ(٦)، فَرَدَّ الثَّمَنَ إِلَى الخِزَانَةِ؛ فَقَالَ العَبْدُ: يَا مَوْلَايَ؛ اِشْتَرِنِي فَإِنَّ فِيَّ بِكُلِّ أَلْفِ دِرْهَمٍ خَصْلَةً تُسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: أَقَلُّهَا وَأَدْنَاهَا مَا لَوِ اشْتَرَيْتَنِي وَقَدَّمْتَنِي(٧) عَلَى جَمِيعِ مَمَالِيكِكَ لَا أُغْلِطُ فِي نَفْسِي، وَأَعْلَمُ أَنِّي عَبْدُكَ، فَاشْتَرَاهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على معرفةِ قدرِ النَّفسِ مِنْ أفضلِ الخصالِ

---

(١) ورد هذا الخبر في: حلية الأولياء ٥/٣٠٦، ومدارج السالكين ٢/٣٣١.

(٢) في (ب): به.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٨٩.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨١.

(٥) في (ب): مملوكًا، والصواب المثبت.

(٦) أي: نشأ له فيه رأي.

(٧) أي: متكلمًا.

التِّي تُقْصَدُ فِي الإنسانِ وهيَ أصلُ التَّواضُعِ ؛ لأنَّ هذَا العبدَ لمَّا أُحضِرَ ثمنُهُ فاستكثرَ المشترِي الثَّمنَ بالنِّسبةِ إلىٰ العبدِ، وهيَ ألوفٌ منَ الدَّراهمِ، فبدَا لهُ في الشِّراءِ وأرادَ أنْ يدفعَ الثَّمنَ[(١)]، فرغَّبَهُ العبدُ فيمَا فيهِ منَ الخصالِ وقالَ: فِيَّ منَ الخصالِ ما إنَّ كلَّ خصلةٍ تساوِي ألفًا، وأقلُّهَا قدرًا «**أنَّكَ لو ملَّكْتَنِي جميعَ أموالِكَ وجعلتَنِي ناظرًا ومحتاطًا علىٰ جميعِ جسمِكَ ومماليكِكَ لمْ أغلظْ في نفسِي وذكرتُ أنِّي عبدُكَ**».

وهذَا يكونُ كمالَ التَّواضُعِ ؛ لأنَّهُ نِسْبَةٌ[(٢)] إلىٰ الرِّفعَةِ والكمالِ، وإنَّمَا يعرفُ قدرَ التَّواضُعِ بالنِّسبةِ إلىٰ كمالِ المتواضعِ دِينًا ودُنيَا، وإلَّا فمَنْ لا قدرَ[(٣)] لهُ فتواضُعُهُ وصفُهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَحُكِيَ عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ أَنَّهُ قَالَ[(٥)]: قَوَّمْتُ ثِيَابَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وَهُوَ يَخْطُبُ بِاثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا، وَكَانَ قَبَاءً وَعِمَامَةً وَقَمِيصًا وَسَرَاوِيْلَ[(٦)] وَرِدَاءً وَخُفَّيْنِ وَقَلَنْسُوَةً**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا منَ النَّمطِ الَّذِي قدَّمنَاهُ، فإنَّهُ لا أحدَ أرفعُ قدرًا منَ الخلفاءِ[(٧)]، ولا سيَّمَا مثلُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [١٢/٢أ] الَّذِي ارتفَعَ قدرُهُ دينًا ودُنْيَا، ومعَ هذَا فهذَا تواضُعُهُ في لِبَاسِهِ.

---

(١) في (ب): «يعرف التمر»، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): بالنسبة.

(٣) في (ب): قدرة.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨١.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٥/٣٢٣، ووفيات الأعيان ٢/٣٠٢، ومدارج السالكين ٢/٣٣١، ومرآة الجنان ١/٢٠٩.

(٦) في (ب): وسراويلا.

(٧) في (أ): العلماء، والأصح المثبت.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **مَشَىٰ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ مَشْيًا لَا يُحْمَدُ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: تَدْرِي بِكَمِ اشْتَرَيْتُ أُمَّكَ؟ بِثَلَاثِمَائَةِ دِرْهَمٍ، وَأَبُوكَ لَا أَكْثَرَ اللهُ فِي الْمُسْلِمِينَ مِثْلَهُ أَبًا**[(٣)]، **وَأَنْتَ تَمْشِي هَذِهِ الْمِشْيَةَ؟!**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يَدُلُّ علَىٰ أنَّهُ رآهُ[(٤)] يَخْتَالُ في مِشيَتِهِ، وهيَ مِشيَةٌ يبغضُهَا اللهُ إلَّا في الحَرْبِ؛ فَكَرِهَ مِن ولدِهِ ذلِكَ ونادَاهُ، وأرادَ أنْ يعرِّفَهُ أصلَهُ مِنْ جهةِ أبيهِ وأمِّهِ، فإنَّ مَنْ عرَفَ أصلَهُ وصغُرَ قدرُهُ ذلَّ في نفسِهِ، فرجَعَ عنْ كِبْرِهِ وزَهْوِهِ، فقالَ لهُ: «**تَدْرِي بكَمْ اشتريتُ أمَّكَ؟**» فذكَرَ لهُ الدَّراهمَ، ثمَّ قالَ لهُ: «**وأبُوكَ لَا كثَّرَ اللهُ في المسلِمينَ مِثْلَهُ أبًا**»، وهذَا منهُ ليسَ دعاءً علَىٰ المسلمِينَ، فإنَّهُ كانَ منَ الفُضلَاءِ، ولكنَّ فِي كلامِهِ إشارةً إلَىٰ التَّقصيرِ في تأديبِهِ فِي الصِّغَرِ حتَّىٰ اختالَ في مشيَتِهِ فِي الكِبَرِ، ولذلِكَ قالَ: «**لَا كثَّرَ اللهُ فِي المسلمِينَ مثلَهُ أبًا**»، يعنِي الآباءَ الَّذِينَ لَا يُؤدِّبونَ أولادَهُمْ فِي الصِّغَرِ حتَّىٰ يتعوَّدُوا[(٥)] ذلِكَ في الكِبَرِ، وهذَا دعاءٌ للمسلِمينَ بأنْ يجعلَهُمْ ممَّنْ يؤدِّبونَ أولادَهُمْ كمَا أُمِرُوا بِهِ في حقِّ أولادِهِمْ فِي الصَّلاةِ وغيرِهَا[(٦)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٧)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الْفَرَّاءَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَنَازِلٍ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَمْدُونَ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨١.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٢/٣٥٠، وتاريخ دمشق ٥٦/١٥٩، ومدارج السالكين ٢/٣٣١.

(٣) في (ف): أنا.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) في (أ): يتعودون.

(٦) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٩٠.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٨١.

القَصَّارَ يَقُولُ(١): التَّوَاضُعُ: أَلَّا تَرَىٰ لِأَحَدٍ إِلَىٰ نَفْسِكَ(٢) حَاجَةً، لَا فِي الدِّيْنِ وَلَا فِي الدُّنْيَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كمالِ معرفتِهِ بمولَاهُ، وأنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ ولا مُعْطِي ولا مانعَ لهُ ولغيرِهِ إلَّا إيَّاهُ، فمتىٰ استقرَّ هذا المعنىٰ مِنَ المعرفةِ فِي القلوبِ، وعَرَفَ العبدُ عجزَ نفسِهِ وقلَّةَ قدْرِهَا وعدمَ أثرِهَا فِي شيءٍ منَ الأشياءِ عرَفَ عدمَ احتياجِ النَّاسِ إليهِ لَا فِي الدُّنيَا ولَا في الآخرَةِ؛ لانفرادِ مولَاهُ بالأفعالِ، فإنْ أجرَىٰ عليهِ الحقُّ شيئًا ممَّا ينتفعُ النَّاسُ بهِ(٣) فِي الدُّنيَا والآخرةِ فهوَ يرَىٰ الفضْلَ لِمُجْرِيهِ لا لِنَفْسِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ(٥): مَا سُرِرْتُ فِي إِسْلَامِي إِلَّا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: كُنْتُ مَرَّةً فِي سَفِيْنَةٍ وَفِيْهَا رَجُلٌ مِضْحَاكٌ كَانَ يَقُولُ: كُنَّا نَأْخُذُ العِلْجَ فِي بِلَادِ التُّرْكِ هَكَذَا، وَكَانَ يَأْخُذُ بِشَعْرِ رَأْسِي وَيَهُزُّنِي [٢/١٢ب]، فَيَسُرُّنِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي تِلْكَ السَّفِينَةِ أَحَدٌ أَحْقَرَ فِي عَيْنِهِ مِنِّي.

وَالأُخْرَىٰ: كُنْتُ عَلِيْلًا فِي مَسْجِدٍ، فَدَخَلَ المُؤَذِّنُ فَقَالَ: اُخْرُجْ؛ فَلَمْ أُطِقْ، فَأَخَذَ بِرِجْلِي وَجَرَّنِي إِلَىٰ خَارِجِ المَسْجِدِ.

وَالثَّالِثُ: كُنْتُ بِالشَّامِ وَعَلَيَّ فَرْوٌ، فَنَظَرْتُ فِيهِ، فَلَمْ أُمَيِّزْ بَيْنَ شَعْرِهِ وَبَيْنَ القُمَّلِ لِكَثْرَتِهِ، فَسَرَّنِي ذَلِكَ».

---

(١) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٣١.

(٢) في (ف): نفسه.

(٣) سقط من (ب) إلىٰ قوله: قَالَ الإِمَامُ.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨١ - ٢٨٢.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٣، ومدارج السالكين ٢/٣٣١، والإرشاد والتطريز ص١٣٢، ومسالك الأبصار ٨/٣٣، وإتحاف السادة المتقين ١٠/١٩.

❊ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علَىٰ أنَّ سُرُورَهُ فِي هذِهِ المواضعِ كانَ مِنْ أكملِ سُرُورٍ؛ لأنَّهُ لمْ يُسَرَّ إلَّا في هذا الوقتِ؛ وذلِكَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ كانَ مِن أبناءِ الملوكِ كمَا نُقِلَ[١]، وشأنُ الملوكِ أنَّ مَنْ سلَّمَ عليهِمْ بغيرِ الأدبِ أهلَكُوهُ فضْلًا عن أدَبِهِ، فلمَّا وصلَ إبراهيمُ إلىٰ هذَا الحدِّ مِنْ حقريةِ نفسِهُ عندَهُ ورؤيتِهِ الأفعالَ جاريةً عليهِ مِن ربِّهِ سُرَّ بصنيعِ اللهِ بِهِ، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فلمَّا كانَ في مركبٍ وكانَ فيهِ رجلٌ يُضحِكُ النَّاسَ، فلمْ يجدْ رجُلًا لا يُؤْبَهُ لهُ فِي هيئتِهِ ولباسِهِ سِوَىٰ إبراهيمَ بنِ أدهمَ، فصارَ يُمْسِكُ بشَعْرِ رأسِهِ ويقولُ: «هكَذَا كنَّا نفعلُ بالتُّركِ ويحرِّكُ رأسَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ»، فسرورُ إبراهيمَ يحاشِي أنْ يكونَ بفِعْلِ هذَا الشَّخصِ بهِ، وإنَّمَا كانَ سرورُهُ بصنيعِ اللهِ وكونِهِ لمْ يجِدْ في نفسِهِ حركةً ولا كراهةً مِن حيثُ الكِبْرُ كمَا جرَتْ بهِ عادةُ المُلُوكِ.

وأمَّا السُّرورُ الثَّانِي ففيهِ زيادةٌ لمْ يذكُرْهُ هذَا الإمامُ؛ وذلِكَ أنَّهُ قالَ: بِتُّ في مسجدٍ وكانَتْ ليلةً مَطِيرَةً فأردْتُ أنْ أُقِيمَ إلىٰ الصَّباحِ، فمَنَعَنِي القَيِّمُ، فلمَّا امتنَعْتُ جَرَّ برجْلِي حتَّىٰ أخرَجَنِي، وطلبتُ موضِعًا أستكِنُّ فيهِ، فأتيتُ إلىٰ قَمِيمِ حمَّامٍ[٢] فدخلْتُ فيهِ، فإذَا رجلٌ يوقِدُ تحتَهُ[٣] وهوَ مشغولٌ بالرَّمْيِ، فسلَّمْتُ عليهِ فلمْ يلتفتْ إلَيَّ ولَا كلَّمَنِي، فبقيتُ ساعةً ثمَّ فرغَ مِنْ شغلِهِ وأقبلَ وسلَّمَ علَيَّ واعتذرَ إلَيَّ مِنْ سكوتِهِ بأنَّهُ مستأجِرٌ، ولَا يمكنُهُ تبطيلَ ما هوَ فيهِ، وانبسطَ معِي، ورأيتُ هذِهِ فَضْلًا وخيرًا، فكانَ مِن جُملَةِ ما ذكَرَ لِي أنَّهُ سمِعَ بفتًىٰ منَ العُبَّادِ والزُّهَّادِ يقالُ لهُ: إبراهيمُ بنُ أدهمَ، وأنَّهُ لهُ زمانٌ يسألُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنْ يجمعَ بينَهُ وبينَهُ، قالَ: فقلتُ في

---

(١) انظر: مناقب الأبرار ١/٢٢، والكواكب الدرية ١/١٩٥.

(٢) أي: موضع كناسته.

(٣) أي: النار.

نفسِي: قدْ ساقَنِي إليكَ مجرورًا، وعرَّفَهُ بنفسِهِ.

وأمَّا كونُ الفَرْوِ ما فرِّقَ بينَ شعْرِهِ وقملهِ، فذلِكَ لكمالِ شُغْلِهِ باللهِ - تعالىٰ - وكثرةِ [٢/١٣١أ] عبادَاتِهِ وإعراضِهِ عنْ راحَةِ نفسِهِ(١).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَفِي حِكَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْهُ قَالَ(٣): مَا سُرِرْتُ بِشَيْءٍ كَسُرُورِي [أَنِّي](٤) كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا، فَجَاءَ إِنْسَانٌ وَبَالَ عَلَيَّ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّمَا كانَ سرورُهُ بذلِكَ مِنْ جهَةِ سكونِ نفسِهِ، وعدمِ تغيُّرِهَا لمَا أجرَاهُ اللهُ عليهَا مِنْ هذهِ الأحوالِ الَّتِي يقلُّ الصَّبْرُ عندَهَا، ويثورُ منَ النَّفسِ طلبُ الانتقامِ مِنْ فاعلِهَا؛ وذلِكَ لِكَمَالِ مَعْرِفتِهِ باللهِ ورُؤيتِهِ الأفعالَ مِنْ جهتِهِ لَا غير، ولَا يُعْتَرَضُ علىٰ هذَا لكونِ فاعلِهِ عَاصٍ، وكيفَ يجوزُ السُّكوتُ عنهُ ولَا يغيِّرُ عليهِ ما فعلَهُ منَ المنكرِ؟

والجوابُ عنْ هذَا مِن وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنْ يكونَ عاجزًا عنِ التَّغييرِ بلسانِهِ؛ لكونِ هذَا منَ الظَّلَمَةِ المشهورِينَ، ويكونَ تغييرُهُ بقلبِهِ لمْ يظهَرْ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ غيَّرَ بلسانِهِ وأنكرَ، وليسَ لهُ حاجةٌ إلَىٰ أنْ يذكرَ ذلِكَ لغيرِهِ حتَّىٰ ينقلَ عنهُ، وإنَّمَا ذكرَ مَا ذكَرَهُ لمعرفَتِهِ بنِعَمِ اللهِ عليهِ، وما نقلَهُ منهُ مِنْ شَرَفِ السَّلطنةِ إلىٰ شَرَفِ الطَّاعةِ(٥).

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٩١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٨٢.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٣.

(٤) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٩٢.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ: تَشَاجَرَ أَبُو ذَرٍّ وَبِلَالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَعَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ بِلَالًا[٢] بِالسَّوَادِ، فَشَكَاهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ؛ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ بَقِيَ فِي قَلْبِكَ مِنْ كِبْرِ الجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ)[٣]، فَأَلْقَىٰ أَبُو ذَرٍّ نَفْسَهُ، وَحَلَفَ أَلَّا يَحْمِلَ[٤] رَأْسَهُ حَتَّىٰ يَطَأَ بِلَالٌ خَدَّهُ بِقَدَمِهِ، فَلَمْ يَرْفَعْ حَتَّىٰ فَعَلَ بِلَالٌ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقَدْ نُقلتْ هذِهِ الحكايَةُ علَىٰ وجهٍ آخرَ[٥]، وهوَ أنَّ أبَا ذرٍّ قالَ لهُ: يا ابْنَ السَّوداءِ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طَفَّ الصَّاعُ يَا أَبَا ذَرٍّ، ليسَ لابْنِ بيضَاءَ علىٰ ابْنِ سوداءَ فضْلٌ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»، فأقسمَ أبو ذرٍّ لَا بدَّ أنْ يضَعَ قدمَهُ علَىٰ خدِّهِ ثمَّ وضعَ أبو ذرٍّ خدَّهُ بالأرضِ وحملَ بلالٌ رِجْلَهُ علىٰ خدِّهِ إبرارًا لِقَسمِهِ، وهكذَا يكونُ التَّواضعُ بعدَ الزَّللِ والاعترافِ بالحقِّ لمستحقِّهِ، ويُقْبَلُ[٦].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٧]: «وَمَرَّ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِصِبْيَانٍ مَعَهُمْ كِسَرُ خُبْزٍ، فَاسْتَضَافُوهُ، فَنَزَلَ وَأَكَلَ مَعَهُمْ، ثُمَّ حَمَلَهُمْ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَأَطْعَمَهُمْ وَكَسَاهُمْ، وَقَالَ: اليَدُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا غَيْرَ مَا أَطْعَمُونِي، وَنَحْنُ نَجِدُ أَكْثَرَ مِنْهُ»[٨].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٢.

(٢) في (ب): بلال.

(٣) ورد في صحيح البخاري ١/٢٠ ـ حديث رقم (٣٠) بلفظ: «عن وَاصِلٍ الأَحْدَبِ عن المَعْرُورِ قال: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَىٰ غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عن ذلك فقال: إني سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فقال لي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، وكذا في صحيح مسلم ٣/١٢٨٢ ـ حديث رقم (١٦٦١).

(٤) في (ف): يرفع.

(٥) لم أقف عليه بهذه الرواية في الكتب الصحاح، وورد معناه في: سنن الترمذي ٥/٧٣٥، وسنن أبي داود ٤/٣٣١.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٨٢.

(٨) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٣٠، ومرآة الجنان ١/١٠٠.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ممَّا تقدَّمَ مِن رُؤيَةِ الحقِّ لِمُسْتَحِقِّهِ وقَبُولِهِ منَ العَالِ والنَّازلِ والكبيرِ [١٣/٢ب] والصَّغيرِ، وذلِكَ[١] أنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا مرَّ بهِمْ وقَدْ كسَرُوا كِسَرَهُمْ ليأكلُوا فدعَوْهُ أدبًا معَهُ، فلمْ يحمِلْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا هوَ عليهِ منَ الجاهِ والحُرمةِ أنْ يمتنعَ لإجابةِ دعاءِ الصِّبيانِ للكسرِ، فأجابَهُمْ تواضُعًا واتِّبَاعًا للعلمِ، وقولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢]: «مَنْ دُعِيَ فَلْيُجِبْ، وَلَوْ إِلَىٰ كُرَاعٍ[٣]»، وهوَ خلُقُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يُجِيبُ دعوةَ العَبْدِ والخَادِمِ، ثمَّ أرادَ أنْ يُجازيَهُمْ علَىٰ ما فعلُوهُ منَ الخيرِ، فحملَهُمْ إلىٰ منزلِهِ وأطعمَهُمْ وكسَاهُمْ، وأقرَّ أنَّ الفضْلَ لهُمْ؛ للسَّابقةِ فِي الإحسانِ، وبذْلِ ما أمكنَهُمْ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقِيلَ[٥]: قَسَّمَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **الحُلَلَ بَيْنَ الصَّحابَةِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **فِي غَنِيْمَةٍ، فَبَعَثَ إِلَىٰ مُعاذٍ حُلَّةً يَمَنِيَّةً ثَمِيْنَةً، فَباعَها وَاشْتَرَىٰ سِتَّةَ أَعْبُدٍ وَأَعْتَقَهُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **فَكَانَ يُقَسِّمُ الحُلَلَ بَعْدَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ حُلَّةً دُونَ تِلْكَ[٦]، فَعاتَبَهُ مُعاذٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لِأَنَّكَ بِعتَ الأُولَىٰ؛ فَقَالَ مُعاذٌ: وَمَا عَلَيْكَ؟! ، اِدْفَعْ إِلَيَّ نَصِيْبِي، وَقَدْ حَلَفْتُ لَأَضْرِبَنَّ بِهَا رَأْسَكَ، فَقَالَ عُمَرُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **هَذا[٧] رَأْسِي بَيْنَ يَدَيْكَ، وَقَدْ يَرْفُقُ الشَّيْخُ بِالشَّيْخِ**».

---

(١) في (ب): وغير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٨٥/٥ ـ حديث رقم (٤٨٨٣) بلفظ: «عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لو دُعِيتُ إلىٰ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ»، ومسلم في صحيحه ١٠٥٤/٣ ـ حديث رقم (١٤٢٩) بلفظ: «عن نَافِعٍ عن بن عُمَرَ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إذا دُعِيتُمْ إلىٰ كُرَاعٍ فَأَجِيبُوا».

(٣) أي: يد شاة لتأكلوا منها، وفي كشف المشكل ٥٤١/٣: «الكراع: كراع الشاة، قال ابن قتيبة: الكراع من الإنسان إلىٰ ما دون الركبة، ومن الدواب ما دون الكعب».

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٢/١.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٦٥/٥٨، ومدارج السالكين ٣٣٠/٢.

(٦) في (ب): ذلك.

(٧) في (ب): ها، وكل صواب.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذِهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ كَمَالِ تَواضُعِ عمرَ بنِ الخطَّابِ في حالِ كَونِهِ خليفةً للمسلمِين، وقدْ دانَتْ لهُ ملوكُ الأرضِ منَ الكافرِينَ، وبعدَ هذَا لمَّا قالَ معاذٌ: «**وقدْ أقسَمْتُ لأضرِبَنَّ بهَا رأسَكَ، فقالَ: هذَا رأْسِي بينَ يدَيْكَ، وقدْ يرفُقُ الشَّيخُ بالشَّيخِ!**».

وأمَّا وجْهُ معاذٍ في يمينِهِ؛ فإنَّ الإمامَ إذَا أدَّاهُ نظرُهُ إلَىٰ أنْ يُعطِيَ أحدًا منَ المسلمِينَ مَا يستحقُّهُ فلَا حاجةَ بعدَ ذلِكَ إلىٰ البحْثِ عمَّا صَنعَ فيهِ، فإنَّهُ قدْ ملَكَهُ ويتصرَّفُ فيهِ كيفَ أحبَّ، فلمَّا علِمَ عمرُ مَا فعلَ بالحُلَّةِ الأُولَىٰ وقصَّرَ في الثَّانيةِ الَّتِي أرسلَهَا إليهِ عنِ الأُولَىٰ عرَّفَ ذلِكَ لأميرِ المؤمنِينَ، وأنَّهُ لا حاجةَ بهِ لمَا فعلَ ولَا اعتراضَ، عرفَ ذلِكَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وألحقَهُ بأصحابِهِ في الحُلَلِ[1] الجيِّدَةِ، وقالَ ما قالَ تواضُعًا وفَضْلًا.

❊ ❊ ❊

(١) في (ب): بالحلة.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[١]:

«بَابُ مُخَالَفَةِ النَّفْسِ وَذِكْرِ عُيُوبِهَا

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عبدانَ؛ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ؛ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ تَمْتَامٍ[٢] [٢/١٤أ]، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ النَّيْسابُورِي؛ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي عَلِيِّ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ؛ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنكدرِ؛ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قَالَ[٣]: أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الأَمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وأوضَحُ الأدلَّةِ على فسادِ اتِّباعِ الهوَىٰ وسُوءِ ما يُوقِعُ فيهِ منَ البَلْوَىٰ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]... الآية، وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [ص: ٢٦].

ومَدَحَ ـ تعالىٰ ـ مَنْ خالَفَ هَواهُ بقولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، وكلُّ دليلٍ دلَّ على

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٣.

(٢) في (ب): التمتام.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في: قصر الأمل ص٢٧، وأبو نعيم في الحلية ١/٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٣٦٩.

مدحِ المتَّقِينَ فهوَ دليلٌ علىٰ مخالفةِ الهوَىٰ والعملِ بمَا يُرضِي المَوْلَىٰ، وقدْ أطلقَ اللهُ النَّفسَ لمعانٍ، وكذلِكَ أطلقَهَا العلماءُ[١]، فنفسُ الشَّيءِ: عينُهُ وذاتُهُ، يقالُ: نفسُ العِلمِ، ونفسُ الجهلِ، ونفسُ الجوهرِ[٢]، ونفسُ العَرَضِ، يريدونَ حقيقتَهُ.

وقدْ يُطْلَقُ النَّفْسُ باعتبارِ الدَّمِ، يقولُ الفقهاءُ[٣]: «ما لهُ نفسٌ سائلَةٌ إذَا ماتَ في ماءٍ وغيَّرَهُ[٤] أوْ لَمْ يُغَيِّرْهُ».

وقَدْ تطلَقُ النَّفسُ باعتبارِ الأخلاقِ الذَّميمةِ، وهوَ اصطلاحُ سالِكِي طريقِ الآخرَةِ إذَا ظهَرَ منَ الإنسانِ خُلُقٌ ردِيءٌ؛ كقوَّةِ الغضَبِ والشَّهوةِ والحسَدِ والشَّماتَةِ، قالَوا: هذِهِ نفسٌ.

ونحنُ نتكلَّمُ هاهُنَا باعتبارِ الحَقِيقةِ؛ وهوَ إطلاقُ النَّفسِ بإزاءِ الذَّاتِ، ومنهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، والإنسانُ يتطوَّرُ في أطوارٍ؛ تارةً يكونُ مُتَّبِعًا للهَوَىٰ متناوِلًا لمَا أحبَّهُ، كانَ ممَّا يُرْضِي المَوْلَىٰ أمْ لَا، فهذَا نفسُهُ[٥] أمَّارةٌ بالسُّوءِ، وهيَ الَّتِي يُنْهَىٰ عنْ ميْلِهَا إلىٰ الهَوَىٰ.

وتارةً يتوبُ العبدُ منَ الآثامِ، ويندمُ علىٰ ما ارتكَبَهُ منَ الإجرامِ، ويعلمُ قبحَ حالَتِهِ في إقدامِهِ علىٰ الحرامِ، وقلَّةِ حيائِهِ منَ الملكِ العلَّامِ، فإذَا خطرَ ببالِهِ الشَّهواتُ، والتفتَتْ نفسُهُ إلىٰ مَا كانَتْ فيهِ منَ العاداتِ، وبَّخَهَا علىٰ ذلِكَ وأدَّبَهَا،

---

(١) تأمل تفصيل ذلك في: تصحيح الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري ص٤٧٣، ومختصر الوجوه في اللغة للخوارزمي ص١٠٠، ورسالة في معاني النفس لمستجي زاده، نسخة المكتبة الأزهرية رقم (٩٧٧ ـ مجاميع) ٤٦١٣٠ بخيت) ضمن مجموع.

(٢) في (ب): الجوهري، والصواب المثبت.

(٣) سبق التعليق علىٰ ذلك.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) في (ب): نفس.

ولامَهَا على سُوءِ حالِهَا وخوَّفَهَا قُبحَ مآلِهَا، **فهذِهِ هيَ النَّفسُ اللَّوَّامةُ**.

فإذَا استقامَتْ على الخيراتِ، ولذَّتْ لهَا الطَّاعاتُ، وقلَّتْ في قلبِهَا خَواطرُ الشُّرُورِ والآفاتِ، واستقامَتْ [٢/١٤ب] على ما طلبَ منهَا فِي القلبِ والجوارحِ في عُمُومِ الأوقَاتِ(١)، واطمأنَّتْ إلى دوَامِ رحمةِ ربِّهَا وتوالِي إحسانِهِ عليهَا فِي الدُّنيَا وبَعْدَ الممَاتِ، ورَجَتْ ذلِكَ من فضْلِ خالِقِ الأرضِ والسَّماواتِ، **فهِيَ النَّفسُ المطمئنَّةُ**.

ومِنْ آثارِهَا في الرُّتبةِ الأُولَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، ومِنْ آثارِهَا فِي الرُّتبةِ الثَّانيةِ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ومِنْ آثارِهَا في الرُّتبةِ الثَّالثةِ: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧].

فمَنْ أكرمَهُ ربُّهُ في دُنياهُ وحَفِظَهُ وتولَّاهُ، ووالَى عليهِ نِعمَهُ واختصَّهُ واصطفَاهُ، صحَّ منهُ أنْ يقولَ مِنْ غيرِ عُجْبٍ ولَا افتخارٍ على أحدٍ منَ العالَمينَ: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«اعْلَمْ أنَّ مُخالَفةَ النَّفْسِ رَأْسُ العِبادَةِ، وقَدْ سُئِلَ المَشَايخُ عَنِ الإسْلامِ؛ فقَالُوا: ذَبحُ النَّفسِ بسُيُوفِ المُخالَفةِ(٣).**

واعْلَمْ أنَّ مَنْ نَجمَتْ(٤) طَوارِقُ نَفْسِهِ.. أَفَلَتْ شَوارِقُ أُنسِهِ».

قالَ الشَّارحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقوله: **«ذَبْحُ النَّفسِ(٥) بِسُيُوفِ المُخالَفَةِ»** هوَ أوَّلُ

(١) في (أ): عمر من الاوقات.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٨٣.
(٣) ورد في: كشف الخفاء ١/١٤٧، وإتحاف السادة المتقين ٨/٦٥٨.
(٤) في (ف): من طلع نجم.
(٥) ذبح النفس: قهرها ونقلها عن هواها.

الطَّرِيقِ صحيحٌ؛ فإنَّ نفسَ الإنسانِ إذَا كانَتْ معتادةً للذَّاتِ، وشديدَةَ التَّعلُّقِ بتعاطِي المشتهيَاتِ، فلَا تُنْقَلُ[١] عنْ ذلِكَ وَتُصْرَفُ عن هوَاهَا إلى الطَّاعاتِ إلَّا بشديدِ المجاهدَاتِ، وأليمِ التَّوبيخِ والتَّخويفاتِ، فسمَّى هذِهِ الأسبابَ النَّاقلاتِ سيوفًا باعتبارِ مَا يكونُ عنهَا منَ المُؤلِمَاتِ.

وقوله: «مَنْ نَجَمَتْ طَوَارِقُ نَفْسِهِ» معناهُ: مَنْ طلعَتْ آثارُ خواطِرِهِ النَّفسيَّةِ وظهرَتْ عليهِ «أَفِلَتْ شَوَارِقُ أُنْسِهِ»، أيْ: مَنْ ظهرَتْ عليهِ آثارُ الشَّهواتِ طُفِئَتْ مِنْ قلبِهِ عَلامَةُ الأُنْسِ باللهِ - تعالى - وتعوُّدِ الخيرَاتِ، والدَّليلُ على ذلِكَ قولُهُ - تعالى -: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، والدُّنيا والآخرةُ ككفَّتَي الميْزانِ، مَتَى مَالَتْ إحدَاهُمَا ارتفعَتِ الأُخْرَى.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ كانَتْ وَسَاوِسُهُ وطنَاتٍ كانَتْ مَعَازِفُهُ خَطَراتٍ، ومَنْ كانَتْ مَعَازِفُهُ وطَنات كانتْ وسَاوِسُهُ خَطَراتٍ[٢]، ومتَى امتلأَ القلبُ بشيءٍ لمْ يجدِ الثَّانِي مَسَاغًا للدُّخولِ فيهِ إلَّا شَيئًا يَسِيرًا في أوقاتِ الغَفَلاتِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٤]: مِفْتَاحُ العِبَادَةِ: الفِكْرَةُ، وَعلَامَةُ الإِصَابَةِ: مُخَالَفَةُ النَّفْسِ وَالهَوَى، وَمُخَالَفَتُهَا [٢/١٥أ] تَرْكُ شَهَوَاتِهَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مِفتاحَ الشَّيءِ هوَ السَّببُ الَّذِي يَتَوَصَّلُ الإنسانُ بهِ إلى فتْحِ البابِ؛ ليأخذَ فوائدَ البيتِ، ويعرفَ مَا فيهِ من خيرٍ وشرٍّ، كذلكَ مِفتاحُ الخيراتِ والطَّاعاتِ والتَّثبُّتِ قبلَ الفعلِ والتَّفكُّرِ في كيفيَّةِ إيقاعِ

---

(١) في (أ): تغفل، والصواب المثبت.

(٢) سقط من (ب) قوله: «ومَنْ كانَتْ معازفُهُ وطَنات كانتْ وسَاوسُهُ خطَراتٍ».

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨٣.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣، وحلية الأولياء ٩/٣٩٥، والمختار من مناقب الأخيار ١/٥٠٢، وتتمة قوله في هذه المظان: «وعلامة التوكل: انقطاع المطامع».

حركاتِهِ وسكناتِهِ، وهلْ مَا يُقْدِمُ عليهِ ممَّا يُرْضِي ربَّهُ أوْ يسخطُهُ؟ فإذَا فعلَ ذلِكَ ميَّزَ الخيرَ والشَّرَّ بواسطةِ العلمِ، وإنْ لمْ يكنْ عندَهُ علمٌ في نفسِهِ كانَ مقلِّدًا لعالمٍ يَعْرِضُ عليهِ كلَّ ما يريدُ أنْ يفعلَهُ، وإنْ لمْ يكنْ كذلِكَ ضلَّ عنِ الهدَىٰ، وعمِلَ بمقتَضَىٰ الهوَىٰ.

ومَتَىٰ تثبَّتَ وعرَفَ إمَّا بعلمِهِ أو بتقليدِ غيرِهِ فإنْ رأَىٰ شرًّا نهَىٰ عنهُ هَوَاهُ، وإنْ رأَىٰ خيرًا قدمَ عليهِ مستعينًا بمولَاهُ، وشاكرًا لهُ علَىٰ مَا أَوْلَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ سُوءِ الأَدَبِ، والعَبْدُ مَأْمُورٌ بِمُلَازَمَةِ الأَدَبِ؛ وَالنَّفْسُ تَجْرِي بِطَبْعِهَا فِي مَيْدَانِ المُخَالَفَةِ، وَالعَبْدُ يَرُدُّهَا بِجُهْدِهِ عَنْ سُوءِ المُطَالَبَةِ، فَمَنْ أَطْلَقَ عِنَانَهَا فَهُوَ شَرِيكُهَا؛ مَعَهَا فِي فَسَادِهَا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا طبعُ النَّفسِ فهوَ مَيْلُهَا لِكُلِّ لَذيذٍ، ونَفْرتُهَا عَنْ كُلِّ كَرِيهٍ، ولمَّا كانَتْ مَلذوذاتُهَا الَّتِي سبقَ اعتيادُهَا لهَا تَعَوُّدَ الشَّهواتِ واللَّذَّاتِ، والتَّصرُّفَ علىٰ مُقتضَىٰ الهوَىٰ والشَّهواتِ، مِن غيرِ مَانعٍ ولا وَازعٍ أيَّامَ الصِّبَا إلىٰ وقْتِ البُلُوغِ، وتوجُّهَ التَّكليفاتِ مِنْ ربِّهَا خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، فصارَ للنَّفسِ صَغْوٌ[2] والتفاتٌ إلَىٰ مَنِ استمرَّتْ عليهِ منَ العَادَاتِ، ولهَا نفورٌ عمَّا كُلِّفَتْهُ، وتوجَّهَ الطَّلبُ عليهَا بهِ منَ الطَّاعاتِ وتَرْكِ المحرَّمَاتِ، فبهذَا الاعتبارِ قالَ هذَا الشَّيخُ ابنُ عطاءٍ: «**النَّفسُ تجرِي بطبعِهَا في مَيْدَانِ المُخَالفَةِ**»، أيْ: بِسُوءِ عَادَتِهَا، والعبدُ يردُّهَا عن ذلِكَ بالمُجاهدَةِ، ويحملُهَا علَىٰ ما ينفعُهَا في الدُّنيَا والآخرةِ، فإنْ تركَهَا مِنْ غيرِ مُجاهَدَةٍ تَسْتَرسِلُ في العَادَاتِ، ولمْ يكفَّهَا عمَّا نُهِيَتْ عنهُ منِ ارتكابِ المُحرَّمَاتِ، كانَ شريكًا لهَا ومُعِينًا لتمكُّنِهِ منْ ذلكَ بواضحِ الدَّلالاتِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٣.

(٢) الصَّغْوُ: الميل.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الأَنْمَاطِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ؛ يَقُولُ[٢]: النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ: هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى المَهَالِكِ، المُعِينَةُ لِلْأَعْدَاءِ، المُتَّبِعَةُ لِلْهَوَى، [٢/١٥ب]، المُتَّهَمَةُ بِأَصْنَافِ الأَسْوَاءِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ صحيحٌ؛ فإنَّهَا لمْ تأمُرْ بالسُّوءِ إلَّا لمَا يهلكُهَا في آخرتِهَا، وكذلِكَ سائرُ الأعداءِ؛ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، والدُّنيا، والمالِ، والولَدِ، والزَّوجةِ، الَّذينَ سُمُّوا في الكتابِ أعداءً، فلَا يتمُّ لهُمْ شيءٌ منَ العداوةِ ولا يتمُّ لهُمْ مقصودٌ إلَّا بإعانةِ النَّفسِ ومساعدَتِهَا وتزيينِهَا لذلِكَ وأمرِهَا، فإنَّ الشَّيطانَ ـ لعنَهُ اللهُ ـ لوْ أمرَ بمَا تكرهُهُ النَّفسُ ويضرُّهَا في آخرتِهَا وعرفَتْ ذلِكَ وأَبَتْهُ لمْ يضرَّهَا كيدُ الشَّيطانِ ولا نزغُهُ، وكذلِكَ الدُّنيَا الَّتِي قرنَ[٣] الشَّرعُ غرورَهَا معَ غرورِ الشَّيطانِ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، فلَوْ أُعْجِبَ الإنسانُ بشيءٍ منهَا ممَّا منعَهُ الشَّرعُ منهُ وكانَ الشَّخصُ متثبِّتًا مانِعًا نفسَهُ عنِ الميلِ إليهِ عندَ تناولِهِ لمْ تَضُرَّهُ الدُّنيَا، بلِ ازدادَ خيْرًا بزُهْدِهِ، ونَهْيِهِ نفسَهُ عَنْ أخذِهَا.

وكذلِكَ الزَّوجاتُ والأولادُ متَىٰ أمرَ منهُمْ بشيءٍ ممَّا لَا يُرضَىٰ ولَمْ يُوافقِ العبدُ أهلَهُ وولدَهُ علىٰ ذلِكَ لمْ يضرَّهُ أمرُهُمَا، ولَا يُبالِي بعداوتِهِمَا، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قالَ في كتابِهِ الكريمِ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فمتَىٰ حذرَ العبدُ مُوافقتَهُمْ فيمَا لَا يُرضِي اللهَ لمْ يضرُّوهُ[٤].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٣.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٦٢، وسراج الطالبين ١/٢٧٦.

(٣) في (ب): فرق، والصواب المثبت.

(٤) في (ب): يضره.

فمِنْ هذَا الوَجْهِ كانَتِ النَّفسُ معينةً للأعداءِ، عاملةً بمقتضَى الهوَىٰ، فلَا يزالُ العبدُ إنْ كانَ موفقًا متَّهمًا لهَا في سائِرِ مَا تدَّعِيهِ مِنْ طاعةِ المولَىٰ، مفتِّشًا لخفايَاهَا حتَّىٰ يَسْلَمَ مِنْ بلايَاهَا(١).

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ(٣): مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَىٰ دَوَامِ الأَوْقَاتِ، وَلَمْ يُخَالِفْهَا فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ، وَلَمْ يَجُرَّهَا إِلَىٰ مَكْرُوهِهَا فِي سَائِرِ أَيَّامِهِ(٤) كَانَ مَغْرُورًا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا. وَكَيْفَ يَصِحُّ لِعَاقِلٍ الرِّضَا عَنْ نَفْسِهِ، وَالكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ النَّفسَ لا تخلُو مِنْ أنْ تميلَ إلىٰ محبوبٍ، أو تَنْفُرَ عن مكروهٍ، فمتَىٰ لمْ يتَّهِمْهَا العبدُ فيمَا مالَتْ إليهِ منَ المَحْبُوبَاتِ، ويفتِّشْ ميلَهَا حتَّىٰ يسلمَ منَ الآفاتِ، ويكونَ للهِ خالصًا خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، ولذلِكَ لَا يدعُهَا والنُّفورَ عمَّا أمرَتْ بفعلِهِ منَ الواجباتِ والمندوباتِ، ويجرُّهَا إليهِ كرهًا بسياطِ الخوفِ وأنواعِ التَّوبيخاتِ وصنوفِ التَّقريعاتِ، وكذلِكَ بالرَّجاءِ بمَا وعدَتْ بهِ علىٰ القيامِ [١٦/٢أ] بالأعمالِ الصَّالحاتِ.

ومَنْ لمْ يكنْ معَ نفسِهِ كذلِكَ فهوَ مغرورٌ بالأدلَّةِ الواضحاتِ، فإنَّهُ إنْ تركَهَا ومَا أحبَّتْهُ لمْ يأمنْ وقوعَهَا فِي المُحرَّماتِ، وإنْ تركَهَا نافِرَةً عمَّا كَرِهَتْهُ لمْ يَأمَنْ نفورَهَا عنِ الواجباتِ، وكفَىٰ بهذَا غرورًا بالآياتِ الواضحاتِ، وكيفَ يتأتَّىٰ لعاقلٍ لبيبٍ أنْ يسكنَ إلىٰ نفسِهِ وَيُسَلِّمَ لهَا ما ادَّعَتْهُ منَ الخيراتِ، معَ قولِ الكريمِ ابنِ

---

(١) في (ب): بلائها.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٤٩٥، وإغاثة اللهفان ١/٨٦، وكشف الخفاء ١/١٤٧.

(٤) في (ف): أيامها.

الكريمِ المحفوظِ مِنْ ربِّهِ بالتَّحقيقِ؛ يوسفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ الرَّحمنِ الصِّدِّيقِ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحَسَنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ مِقْسَمٍ بِبَغْدَادَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ: قَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: أَرِقْتُ لَيْلَةً[٣]، فَقُمْتُ إِلَىٰ وِرْدِي، فَلَمْ أَجِدْ مَا كُنْتُ أَجِدُهُ مِنَ الحَلَاوَةِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَنَامَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَقَعَدْتُ فَلَمْ أُطِقِ القُعُودَ، فَتَحْتُ البَابَ وَخَرَجْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ مُلْتَفٌّ فِي عَبَاءَةٍ مَطْرُوحٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِي رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الأَرْضِ، وَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ؛ إِلَىٰ السَّاعَةِ؟! فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، مِنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ؟، فَقَالَ: بَلَىٰ، سَأَلْتُ مُحَرِّكَ القُلُوبِ أَنْ يُحَرِّكَ لِي قَلْبَكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلَ، فَمَا حَاجَتُكَ؟

فَقَالَ: مَتَىٰ يَصِيرُ دَاءُ النَّفْسِ دَوَاءَهَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا خَالَفَتِ النَّفْسُ هَوَاهَا صَارَ دَاؤُهَا دَوَاءَهَا، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَقَالَ: اسْمَعِي، قَدْ أَجَبْتُكِ بِهَذَا الجَوَابِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَأَبَيْتِ إِلَّا أَنْ تَسْمَعِيهِ مِنَ الجُنَيْدِ!! فَقَدْ سَمِعْتِ، وَانْصَرَفَ عَنِّي، وَلَمْ أَعْرِفْهُ، وَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انظُرْ ـ رحمَكَ اللهُ ـ مَا فِي هذِهِ الحكايةِ مِنَ الدَّلالةِ علىٰ فضْلِ الرَّجلَينِ؛ وذلِكَ أنَّ نفسَ هذَا الرَّجُلِ الكبيرِ طالَبَتْهُ بشيءٍ فخالفَهَا، أوْ خطرَتْ لهُ مسألةٌ إلىٰ أيِّ حالةٍ يتغيَّرُ حالُ الإنسانِ ويصيرُ مَا كانَ سببَ مرضِهِ سببَ عافيتِهِ، فتفكَّرَ فِي نفسِهِ ووضحَ عندَهُ أنَّ الإنسانَ إنَّما داؤُهُ استرسالُهُ معَ هوَاهُ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٤.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٥٢، وإحياء علوم الدين ٣/٦٦، وصفة الصفوة ٢/٥٠٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٢.

(٣) أي: سهرت.

وعافيتُهُ ودواؤُهُ توقُّفُهُ عن ذلِكَ ؛ حتَّىٰ يعلمَ أحكامَ ربِّهِ ، فحينئذٍ يصحُّ قلبُهُ ويسلَمُ مِن أدوائِهِ ، فلمَّا لَمْ تقبلْ منهُ نفسُهُ هذَا العِلمَ ، ولَمْ توافِقْهُ علَىٰ العَمَلِ بهِ حتَّىٰ تسمعَ كلامَ العلماءِ بهَذَا الشَّأنِ ، ولَمْ يجدْ فِي زَمَانِهِ مَنْ ترجعُ نفسُهُ إليهِ وتنقادُ سِوَىٰ سيِّدِ هذِهِ الطَّائفةِ أَبِي القاسِمِ الجُنَيْدِ ، وكانَ هذَا الأمرُ معَ نفسِهِ ليلًا ، وكرِهَ أنْ يدُقَّ علَىٰ الجُنَيدِ بابَهُ فيشوِّشَ عليهِ حالَهُ ، فالتفَّ[1] [١٦/٢ب] بكسائِهِ ، وانطرَحَ بالطَّريقِ عندَ بابِهِ ، وعلَّقَ همَّتَهُ بمقلِّبِ القلوبِ أنْ يحرِّكَ قلبَهُ ويحفظَهُ معَهُ مِن سوءِ أدبِهِ ، فلمَّا استيقظَ الجُنَيدُ مِنْ نَوْمِهِ وقامَ إلىٰ وِرْدِهِ لَمْ يجدْ مِنْ نفسِهِ ما كانَ يجدُهُ منْ مناجاتِهِ لربِّهِ ، فتحيَّرَ فِي سببِهِ فطلَبَ أنْ ينامَ فلَمْ يُطِقْ ، وهوَ علَىٰ هذَا الحالِ منَ البُعْدِ ، فطلبَ أنْ يجلسَ ليذكرَ اللهَ فِي غيرِ صلاةٍ فلَمْ يُطِقْ ، ففتحَ البابَ وخرجَ ينتظرُ الفرجَ ، فرفعَ رأسَهُ المطروحَ علىٰ البابِ[2] ، فقالَ: «**إليَّ الآنَ يا أبا القاسمِ ؟**» أيْ: لِمَ لَمْ تعملْ عليَّ أوَّلَ الأمرِ حينَ لم تطلُبْ حالَكَ في الصَّلاةِ ولا فِي الرُّقادِ ولا في القعادِ ؟

هذَا معنَىٰ قولِهِ: «**إليَّ السَّاعةَ!**»[3] ، هذَا يدلُّ علىٰ مكاشفَةِ هذَا الرَّجلِ بحالِ الجُنَيدِ ومَا كانَ منهُ في بيتِهِ ، فلمَّا قالَ لهُ الجُنيدُ: «**يا سيِّدِي ، مِنْ غيرِ موعدٍ ؟**» يعنِي وقتًا بينِي وبينَكَ ، «**قالَ لهُ: بلىٰ**» ، يعنِي: أنَّ الوقتَ الَّذِي طلبتُكَ فيهِ مِن محرِّكِ القلوبِ هوَ أوَّلُ مَا حرَّكَكَ ، قالَ الجُنيدُ: «**قلتُ: قدْ فعلَ ذلِكَ ، فمَا حاجتُكَ ؟ قالَ: متَىٰ يصيرُ داءُ النَّفسِ دواءَهَا ؟ ، فقالَ لهُ الجُنيدُ: إذَا خالَفَتِ النَّفسُ هوَاهَا صارَ داؤُهَا دواءَهَا ، فقالَ لنفسِهِ: قدْ سمعْتِ ، وقدْ أجبْتُكِ بهذَا الجوابِ سبعَ مرَّاتٍ وأنتِ تقولِي: لا بُدَّ أنْ تسمعَ منَ الجُنيدِ! ، وقدْ سمِعْتِ ، وقامَ ومضَىٰ ، ولمْ يعرفْهُ الجُنيدُ ولا سأَلَ عنهُ**» .

---

(١) في (ب): فالتقت ، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): الطريق.

(٣) أي: تأخرت عني إلىٰ الساعة.

فانظُرْ ـ أسعدَكَ اللهُ ـ هذَينِ الرَّجلَينِ الكبيرَينِ، واتِّفاقَهُمَا علَىٰ أنَّ الدَّواءَ في سائِرِ أدواءِ النَّفسِ مخالفةُ الهوَىٰ، والاشتغالُ بمَا يُرضِي المَوْلَىٰ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الطَّمستَانِيُّ[٢]: النِّعْمَةُ العُظْمَى[٣]: الخُرُوجُ مِنَ النَّفْسِ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ أَعْظَمُ حِجَابٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَىٰ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، ومرادُهُ بالخروجِ منَ النَّفسِ: الخروجُ مِنْ أحكامِهَا وأوامِرِهَا، فإنَّهَا كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وإذا خرَجَ العبدُ مِنْ أحكامِهَا وأوامِرِهَا كانَ تصرُّفُهُ فِي سائِرِ حركاتِهِ فِي قلبِهِ وجوارِحِهِ بأحكامِ ربِّهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ، وهذِهِ هيَ النِّعمةُ العُظْمَىٰ: الخلاصُ منَ المُشْغِلَاتِ، والتَّفرُّغُ للطَّاعاتِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٥]: «مَا عُبِدَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِشَيْءٍ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّفْسِ وَالهَوَىٰ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الطَّاعاتِ قسمَانِ: فِعْلٌ، وَكَفٌّ، والأفعالُ أسهلُ علىٰ النُّفوسِ وإنْ كانَتْ مشتقَّاتٍ مِنْ مفارقةِ المحبوباتِ منَ المحرَّماتِ [٢/١٧أ] والمكروهاتِ، وإذَا كانَتِ النَّفسُ والهوَىٰ ميلُهُمَا إلَىٰ مَا يسخطُ المَوْلَىٰ وإنْ كانَ لذيذًا، فردُّهُمَا عنْ ذلِكَ أشقُّ عليهِمَا وأصعبُ منَ القيامِ بالطَّاعاتِ المندوباتِ، وإنْ كانَتْ مؤلماتٍ، ولذلِكَ قالَ بعضُ العلماءِ: «إنَّ الطَّاعاتِ فِعْلٌ وتَرْكٌ، والتَّرْكُ أشقُّ[٦] وأصعبُ علىٰ النَّفسِ مِنْ مخالفةِ الهوَىٰ»، ولذلِكَ لمَّا دخلَ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٤.

(٢) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٥٢، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٢.

(٣) التي لا تنال إلا بسابق العناية الإلٰهية. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٤.

(٥) ورد قوله في: الأنس في شرح عيوب النفس ص٢٢٩، وإتحاف السادة المتقين ٨/٦٦١.

(٦) في (ب): أشد.

الحسنُ البصرِيُّ مكَّةَ فرأَىٰ بعضَ أولادِ الحَسَنِ مُسْنِدًا[١] ظهرَهُ إلى الكعبةِ يعظُ النَّاسَ فقالَ لهُ: «يا فتى: مَا يُصْلِحُ الدِّينَ؟ فقالَ: الورَعُ، قالَ: ومَا يُفْسِدُهُ؟ فقالَ: الطَّمعُ»[٢].

والورَعُ: هوَ الكفُّ والمُجانَبَةُ لمَا تَهْواهُ النَّفْسُ وتَمِيلُ إليهِ مِنَ المُحرَّماتِ والمكروهاتِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**[٤]: **سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ الأَنْمَاطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ أَقْرَبِ شَيْءٍ إِلَىٰ مَقْتِ اللهِ، فَقَالَ: رُؤْيَةُ النَّفْسِ وَأَحْوَالِهَا، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مُطَالَعَةُ الأَعْوَاضِ**[٥] **عَلَىٰ أَفْعَالِهَا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الرُّؤيةِ لأفعَالِ النَّفسِ ليسَتْ رُؤيةَ عِلْمٍ؛ لوزنِهَا بالشَّرعِ ومعرفةِ أحوالِهَا، فإنَّ هذهِ الرُّؤيةَ محمودةٌ، وإنَّمَا المذمومُ رؤيةُ استحسانِ أفعالِهَا، فإنَّهَا تجرُّ إلى الوقوعِ فِي العُجْبِ، وإضافةِ الفِعْلِ لغيرِ الفاعلِ، ونسيَانِ المِنَّةِ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليهَا بمَا هِيَ فيهِ مِنْ جُمْلَةِ فضْلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليهَا وأفعالِهِ الجاريَةِ المقارنةِ لقدرِهَا، فيجتمعُ معَهُ شرَّانِ: رؤيةُ النَّفسِ وإضافةُ الأفعالِ إليهَا، والوقوعُ فِي العُجْبِ المحرَّمِ بسببِ ذلِكَ، معَ نسيانِ المِنَّةِ، ثُمَّ يطلبُ الجزاءَ علىٰ مَا لمْ يفعلْهُ منَ الخيْراتِ، بَلْ مَا وقعَ فيهِ منَ المُحرَّماتِ.

---

(١) في (ب): مستندًا.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٤) الفتوة ص١٨، وورد قوله أيضًا في: الزهد الكبير ص١٥٤، والمقاصد الحسنة ص١٢٠، وإتحاف السادة المتقين ٨/٦٦١.

(٥) أي: بأن يطلب العوض من الله.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَى يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصَ يَقُولُ[(٢)]: كُنْتُ فِي جَبَلِ (لُكَام)[(٣)]، فَرَأَيْتُ رُمَّانًا فَاشْتَهَيْتُهُ، فَدَنَوْتُ، فَأَخَذْتُ مِنْهُ وَاحِدَةً، فَشَقَقْتُهَا فَوَجَدْتُهَا حَامِضَةً، فَمَضَيْتُ وَتَرَكْتُ الرُّمَّانَ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مَطْرُوحًا قَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الزَّنَابِيرُ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا إِبْرَاهِيمُ، فَقُلْتُ: كَيْفَ عَرَفْتَنِي؟! فَقَالَ: مَنْ عَرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَقُلْتُ: أَرَىٰ لَكَ حَالًا مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَحْمِيَكَ [٢/١٧ب] وَيَقِيَكَ الأَذَىٰ مِنْ هَذِهِ الزَّنَابِيرِ! ، فَقَالَ: وَأَرَىٰ لَكَ حَالًا مَعَ اللهِ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَقِيَكَ شَهْوَةَ الرُّمَّانِ؛ فَإِنَّ لَدْغَ الرُّمَّانِ يَجِدُ الإِنْسَانُ أَلَمَهُ فِي الآخِرَةِ، وَلَدْغَ الزَّنَابِيرِ يَجِدُ أَلَمَهُ فِي الدُّنْيَا، فَتَرَكْتُهُ وَمَضَيْتُ[(٤)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ العبدَ يُطْلَبُ منهُ الإعراضُ عن شَهَواتِهِ الَّتي عزمَ علىٰ تركِها للهِ وإنْ لمْ تكنْ حرامًا، ويُؤَدَّبُ إذا أخلَّ[(٥)] بعزمِهِ، وذلكَ أنَّ إبراهيمَ كانَ عزمَ علىٰ تركِ الرُّمَّانِ، فلمَّا مرَّ بهِ اشتهاهُ، فمدَّ يدَهُ إليهِ، فأخذَ رمَّانةً فوجدَهَا حامضةً، فلَمْ يمنعْهُ مِنْ أكلِهَا إلَّا الحُمُوضةُ، فلمَّا رأىٰ هذا الرَّجلَ الوليَّ الَّذي تلدغُهُ الذَّنابيرُ وهوَ صابرٌ علىٰ لَدْغِهَا، فسَلَّمَ عليهِ فردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ باسمِهِ، فلمَّا ردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ باسمِهِ سألَهُ مِنْ أينَ عرفَهُ؟! فأجابَهُ بأنَّ «**مَنْ عرفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لمْ يَخْفَ عليهِ شيءٌ**»، أيْ: أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يُيَسِّرُ لهُ كلَّ ما يريدُهُ؛ تارةً

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٥.

(٢) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٥٩، وشعب الإيمان ٥/٤٨، وإحياء علوم الدين ٣/٦٧.

(٣) جبل معروف بالشام، ففي أحسن التقاسيم: «وأما جبل لكام فإنه أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثمارًا».

(٤) أي: خشية أن أشتغل به فيفسد علي توكلي.

(٥) في (ب): دخل، والصواب المثبت.

بالسُّؤالِ، وتارةً بغيرِ سؤالٍ، يدلُّ عليهِ الخبَرُ الصَّحيحُ الَّذِي يرويهِ (مسلمٌ)[١]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم»، وفي آخرِهِ «حفظُ اللهِ - تعالىٰ - لهُ في عينِهِ وأُذُنِهِ ويدِهِ ورجْلِهِ، وأنَّهُ يستجيبُ دعاءَهُ ويُيَسِّرُ لهُ ما أرادَهُ»، فلمَّا قالَ لهُ ذلكَ قالَ إبراهيمُ: «**أَرَىٰ لكَ معَ اللهِ حالًا؛ فلَوْ سألتَهُ أنْ يُريحَكَ مِنْ هذهِ الذَّنَابيرِ؟**»، فأجابَهُ الثَّاني: «**وأرَىٰ لكَ معَ اللهِ حالًا؛ فلَوْ سألتَهُ أنْ يقيَكَ شَهْوةَ الرُّمَّانِ**».

فكلامُهُ الأوَّلُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ منَ العارِفِينَ؛ لكونِ اللهِ أطلَعَهُ علىٰ اسمِهِ كمَا تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ، وكلامُهُ الثَّاني يدلُّ علَىٰ أنَّهُ منَ المُكَاشِفِينَ لمَا جرَىٰ لإبراهيمَ قبلَ أنْ يصلَ إليهِ[٢]، وقولُهُ لإبراهيمَ: «**وأرَىٰ لكَ حالًا معَ اللهِ**»؛ لمَا فهمَهُ مِنْ مَعْرفَةِ إبراهيمَ بِمَقَامِهِ وكَمَالِ معرفتِهِ للهِ - تعالىٰ - وإكرامِهِ لهُ، فإنَّهُ لا يَعْرِفُ الأولياءَ مِنْ كلامِهِمْ وإشاراتِهِمْ إلَّا مَنْ قرُبَتْ درجتُهُ منهُمْ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَحُكِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَيْبَانَ أَنَّهُ قَالَ[٤]: مَا بِتُّ تَحْتَ سَقْفٍ وَلَا فِي مَوْضِعٍ عَلَيْهِ غَلْقٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكُنْتُ أَشْتَهِي فِي أَوْقَاتٍ أَنْ أَتَنَاوَلَ شَبْعَةً مِنْ عَدَسٍ، فَلَمْ يَتَّفِقْ لِي، فَكُنْتُ وَقْتًا بِالشَّامِ، فَحُمِلَ إِلَيَّ غُضَارَةٌ فِيهَا عَدَسٌ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهُ وَخَرَجْتُ، فَرَأَيْتُ قَوَارِيرَ مُعَلَّقَةً فِيهَا شَيْءٌ شِبْهُ نَمُوذَجَاتٍ، فَظَنَنْتُهُ خَلًّا، فَقَالَ لِي بَعْضُ النَّاسِ: أَيْشٍ تَنْظُرُ؟ هَذِهِ نَمُوذَجَاتُ الخَمْرِ، وَهَذِهِ الدِّنَانُ خَمْرٌ.**

---

(١) لم أقف عليه في صحيح الإمام مسلم، وإنما قد ورد في صحيح البخاري ٥/٢٣٨٤ - حديث رقم (٦١٣٧).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٩٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨٥.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٧٤، والمختار من مناقب الأخيار ١/١٦٣.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَزِمَنِي مَرَضٌ(١)، فَدَخَلْتُ حَانُوتَ الخَمَّارِ [٢/١٨أ] وَلَمْ أَزَلْ أَصُبُّ تِلْكَ الدِّنَانَ وَهُوَ يَتَوَهَّمُ أَنِّي أَصُبُّهُ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ، فَلَمَّا عَلِمَ حَمَلَنِي إِلَىٰ ابْنِ طُولُونَ، فَأَمَرَ بِضَرْبِي مِائَتَي خَشَبَةٍ، وَطَرَحَنِي فِي السِّجْنِ، وَبَقِيتُ مُدَّةً حَتَّىٰ دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ المَغْرِبِيُّ أُسْتَاذِي ذَلِكَ البَلَدَ فَتَشَفَّعَ لِي، فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ فَقَالَ: أَيش فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: شَبْعَةَ عَدَسٍ وَمِائَتَي خَشَبَةٍ!، فَقَالَ: نَجَوْتَ مَجَّانًا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَوْنُهُ لا يَبِيتُ تحتَ سقفٍ ولا في موضعٍ عليهِ غَلْقٌ لذلِكَ سببٌ في الانتباهِ والاستعانَةِ علىٰ قيامِ اللَّيلِ، ويدلُّ ذلكَ علىٰ دوامِ مجاهدَتِهِ لنفسِهِ ومخالفَتِهِ لشهواتِهَا، فلمَّا غلبَتْهُ ذاتَ يومٍ نفسُهُ وأَكْلُهُ لمَا أُتِيَ بهِ الغضارةُ(٢)، فلمَّا خرجَ رأىٰ قواريرَ معلَّقةً، وهيَ الَّتِي يُحْفَظُ فيهَا الخمرُ منَ الزُّجاجِ ليعرفَ حسنَهُ، فبقِيَ ينظرُ إليهَا وهوَ لا يعرِفُ ما فيهَا، فقالَ لهُ قائلٌ: هذِهِ الَّتِي تنظرُ إليهَا قواريرُ خمرٍ، والدِّنانُ الَّتِي في الموضِعِ كلُّهَا خمرٌ، فقالَ في نفسِهِ: وجبَ عَلَيَّ التَّغييرُ، فدخلَ وأخذَ يصبُّهَا وصاحبُ الخمرِ يظنُّ أنَّهُ فعلَ ذلِكَ بأمْرِ السُّلطانِ لمَا رأىٰ مِنْ جدِّهِ وإقدامِهِ، فلمَّا علِمَ أنَّهُ ليسَ مِن قِبَلِ السُّلطانِ تعلَّقَ بهِ وأوصلَهُ إلىٰ والِي الثَّغْرِ إذْ ذاكَ، فضربَهُ مائتَي خشبةٍ وسجنَهُ، وبقِيَ في السِّجنِ مدَّةً حتَّىٰ دخلَ شيخُهُ أبُو عبدِ اللهِ المغرِبِيُّ إلَىٰ هذِهِ البلدَةِ، فَأُعْلِمَ بخبرِهِ، فتشفَّعَ للأميرِ فيهِ وأخرجَهُ، وسألَهُ الشَّيخُ عنِ السَّببِ فيمَا أصابَهُ؟ قالَ: «**شَبْعَةُ عَدَسٍ وأَكْلُ مائتَي خشبةٍ**»، فقالَ لهُ الشَّيخُ: «**نجوتَ مجَّانًا**»، أيْ: باطِلًا، ومعناهُ: أنَّ اللهَ عجَّلَ لكَ عُقُوبَةَ شَهوتِكَ فِي دُنْيَاكَ وَلَمْ يُؤَخِّرْهَا لأُخْرَاكَ.

---

(١) وهو صبُّ هذا الخمر.

(٢) إناء من طين.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[(٢)]: إِنَّ نَفْسِي تُطَالِبُنِي مُنْذُ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَنْ أَغْمِسَ جَزَرَةً فِي دِبْسٍ، فَمَا أَطْعَمْتُهَا».**

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّ النَّفسَ إذَا تعلَّقَتْ بالشَّهواتِ لمْ تَهُنْ عليهَا مُفارقَتُهَا وتكرَّرَ منهَا طلبُهُ، وأنَّ العَبْدَ إذَا تكرَّرَ عليهِ مثلُ هذَا فوظيفتُهُ الإعراضُ، وَنَهْيُ[(٣)] النَّفسِ عن هَوَاهَا.

و(**الدِّبْسُ**): هوَ ما يُصْنَعُ مِنْ مَاءِ العِنَبِ، وتحدَّثَ بهذَا لمَنْ يَقْتَدِي بهِ مِنْ أصحابِهِ لِيَكْمُلَ[(٤)] مُجَاهَدَتُهُ لنفسِه، وتعظيمُهُ لربِّه، ومُخَالفتُهُ لمَا تركَهُ لِوَجْهِه[(٥)] [١٨/٢ب][(٦)].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَدِّي[(٨)] يَقُولُ[(٩)]: آفَةُ العَبْدِ رِضَاهُ مِنْ نَفْسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ».**

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ مَنْ رَضِيَ عنْ نفسِهِ دلَّ ذلِكَ علَى

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٢) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٤١، والزهد الكبير ص١٧٨، وحلية الأولياء ١٠/١١٦، وتاريخ دمشق ٢٠/١٧٠، وسير أعلام النبلاء ١٢/١٨٦.
(٣) في (ب): وينهى.
(٤) في (ب): لتكمل له.
(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٩٩.
(٦) وردت هذه الصفحة في (أ) في غير ترتيبها.
(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٨٦.
(٨) أي: أبو عمرو بن نجيد. انظر: المقاصد الحسنة ص١٢٠.
(٩) ورد قوله في: الزهد الكبير ص١٥٤، ومدارج السالكين ٢/٩٤.

استحسانِهِ لجميعِ مَا يَرِدُ منهَا، وأنَّهُ لمْ يتَّهِمْهَا فِي شيءٍ مِنْ أحوالِهَا، وكفَىٰ بذلِكَ آفةً ومصيبةً فِي وقُوفِهِ فِي محلِّهِ الَّذِي هوَ فيهِ، ولَا يزيدُ خيرًا، فكيفَ بهِ إذا حَمِدَ نفسَهُ عليهِ ونَسِيَ منهُ ربَّهُ عُجْبًا ؟!.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[(٢)]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَينَ[(٣)] بْنَ عَلِيٍّ القُومسيَّ يَقُولُ: وَجَّهَ عِصَامُ بْنُ يُوسُفَ البَلْخِيُّ شَيْئًا إِلَىٰ حَاتِمٍ الأَصَمِّ فَقَبِلَهُ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ قَبِلْتَهُ ؟! فَقَالَ: وَجَدْتُ فِي أَخْذِهِ ذُلِّي وَعِزَّهُ، وَفِي رَدِّهِ عِزِّي وَذُلَّهُ، فَاخْتَرْتُ عِزَّهُ عَلَىٰ عِزِّي، وَذُلِّي عَلَىٰ ذُلِّهِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ حاتِمًا لمْ يكنْ[(٤)] يقبلُ مِنْ صِلَةِ السَّلاطِينِ[(٥)] شيئًا، فلمَّا رأَوْهُ قَبِلَ مِن هذَا الأميرِ سألُوهُ عنِ السَّببِ، فأخبَرَهُمْ بحالِهِ، وأنَّهُ وجدَ فِي نفسِهِ عِزَّةَ الرَّدِّ وذلَّ القبولِ، ورأَىٰ فِي الَّذِي أتَىٰ بهِ ذلَّةَ الرَّدِ وسُرُورَهُ بالقَبُولِ، فقبِلَ منهُ إدخالًا للسُّرورِ عليهِ، وشفقةً علىٰ قلبِهِ مِنِ انكسارِهِ بالرَّدِّ عليهِ.

وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّهُ لا شيءَ في مالِ الدَّافِعِ يعرفُهُ حرامًا ولَا شُبْهَةً، وإلَّا فلَوْ علِمَ فيهَا شيئًا مِنْ ذلِكَ لمَا قَبِلَ لهذِهِ المعانِي الَّتِي أشارَ إليهَا، فإنَّهَا لَا ترجِّحُ علَىٰ أكلِ الحرامِ ولا الشُّبهةِ شَرْعًا.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ[(٧)]: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَحُجَّ عَلَىٰ التَّجْرِيدِ، فَقَالَ: جَرِّدْ أَوَّلًا قَلْبَكَ عَنِ السَّهْوِ، وَنَفْسَكَ عَنِ الهَوَىٰ، وَلِسَانَكَ عَنِ**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٦.
(٢) الفتوة ص٨٦.
(٣) في (أ، ف): الحسن، والصواب المثبت.
(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٥) في (ب): السلطان.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٨٦.
(٧) وهو شيبان بن علي المصري، كما في: تهذيب الأسرار ص١٧٥.

اللَّغْوِ، ثُمَّ اسْلُكْ[١] **حَيْثُ شِئْتَ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ التَّجريدَ[٢]؛ إنَّمَا هوَ الانقطاعُ والتَّخلِّي عمَّا يخشَىٰ الإنسانُ ضرَرَهُ في دُنيَاهُ وأُخرَاهُ، وليسَ المرادُ بهِ: مَا يعرفُهُ أكثرُ النَّاسِ خاصَّةً منَ التَّجرُّدِ عنِ الكسبِ والمالِ؛ لأنَّ الَّذِي يضرُّ الإنسانَ اشتغالُ قلبِهِ وسَهْوُهُ عمَّا أُمِرَ بالحضورِ فيهِ؛ مِنْ مناجاةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي الصَّلوَاتِ بالقراءةِ والدَّعوَاتِ وإخلاصِ النِّيَّاتِ[٣].

فمَنْ سهَا قلبُهُ عن هذَا الكَمَالِ شَغَلَهُ بهِ فقَدْ تجرَّدَ عنِ السَّهوِ، ومَنْ جرَّدَ نفسَهُ عنِ اللَّهوِ؛ واللَّهْوُ: هوَ المَيلُ إلىٰ الشَّهواتِ، والتَّلذُّذُ بالمطعومَاتِ، واللَّعبُ والضَّحكُ والمباسطاتُ، فمَنْ تجرَّدَ عنْ هذَا شُغْلًا بعمارةِ الأوقاتِ وترتيبِ الأورادِ في العبادَاتِ، فقدْ جرَّدَ نفسَهُ عنِ اللَّهوِ [١٩/٢أ]، وكذلِكَ مَنْ جرَّدَ لسانَهُ عنِ اللَّغوِ؛ واللَّغوُ: عبارةٌ عمَّا لا منفعةَ فيهِ ولا فائدةَ، فمَنِ اشتغلَ بالذِّكْرِ وتَنْزِيهِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والدُّعاءِ والثَّناءِ والشُّكرِ والنَّجوَىٰ، وعمَّرَ لسانَهُ بهذِهِ الخيراتِ فقدْ جرَّدَهُ عنِ اللَّغوِ والضَّحكِ والمباسطَاتِ والقالِ والقيلِ بمَا لا فائدةَ فيهِ فِي الدُّنيَا وبعدَ المماتِ.

فهذَا هوَ المرادُ منَ التَّجريدِ، مضَافًا إلىٰ ما يعرفُهُ أكثرُ النَّاسِ منَ الخُرُوجِ إلىٰ الأوطانِ، وعدَمِ تملُّكِ الأموالِ ومفارقةِ الأهلِ والولَدِ، والخلاصِ منهُمْ بكلِّ حالٍ، هذَا معنَىٰ قولِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«جَرِّدْ قلبَكَ ونفسَكَ ولسانَكَ».**

---

(١) أي: اذهب.

(٢) انظر: معجم مصطلحات الصوفية ص٤١.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٤٩٩.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[(٢)]: مَنْ أَحْسَنَ لَيْلَهُ كُوفِئَ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُوفِئَ فِي لَيْلِهِ، وَمَنْ صَدَقَ فِي تَرْكِ شَهْوَةٍ كُفِيَ مُؤْنَتَهَا، وَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَ قَلْبًا تَرَكَ شَهْوَةً لِأَجْلِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ هذا[(٣)]، إلَّا أنَّهُ ذكَرَ فيهِ: (كُفِيَ) وذكرَ هُنَا: (كُوْفِئَ)، فهنَاكَ مِنَ الكفايةِ والسَّلامةِ، وهنَا منَ المُجازَاةِ، فمَنْ أحسَنَ في ليلِهِ جُوزِيَ في نهارِهِ، وبعكسِ ذلِكَ مَنْ أحسَنَ في نهارِهِ جُوزِيَ في ليلِهِ.

وقولُهُ: «واللهُ أكرَمُ مِنْ أنْ يُعذِّبَ قلبًا بِشَهْوةٍ ترَكَهَا مِنْ أجلِهِ»، معنَاهُ: أنَّ مَنْ تركَ الشَّهوةَ صادِقًا أزالَهَا اللهُ مِنْ قلبِهِ فِي الدُّنيَا، وزَهَّدَهُ فيهَا بِبَرَكَةِ صِدْقِهِ في تَرْكِهِ لهَا لَهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَأَوْحَى اللهُ - سبحانه - إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُدُ، حَذِّرْ وَأَنْذِرْ أَصْحَابَكَ أَكْلَ الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّ القُلُوبَ المُعَلَّقَةَ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عُقُولُهَا عَنِّي مَحْجُوبَةٌ»[(٥)].

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كونُ القُلُوبِ محجوبةً بالشَّهواتِ عنِ اللهِ - تعالى - أمرٌ واضحٌ، وذلِكَ أنَّ اللهَ - تعالى - قالَ في كتابِهِ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)]: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٦.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٧٥، وتاريخ دمشق ٣٤/١٣٥.

(٣) الدلالة ١/٢٧٨.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٦.

(٥) ورد في: الجوع لابن أبي الدنيا ص١٠٣، وحلية الأولياء ٥/٣٨٢، وتهذيب الأسرار ص١٧٥، وتاريخ دمشق ٧/٤٣٠، وبغية الطلب ٧/٣٤٢٠.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٣٣٤، والطبراني في المعجم الأوسط ٤/٣٣٤، ومسند الشاميين ٢/٣٤٦.

وإذا امتلأت القلوبُ بشيءٍ اشتغلَتْ عن غيرِهِ بمَا هيَ فيهِ، هذا أمرٌ كليٌّ.

فمَنِ اشتغلَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبذِكْرِهِ ومناجاتِهِ عمِيَ عنِ الشُّغلِ بشَهَواتِهِ، ومَنِ اشتغلَ بشَهَواتِهِ في دُنياهُ ولذَّاتِهِ اشتغلَ عنْ ذِكْرِهِ لربِّهِ ومُنَاجَاتِهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَرُئِيَ**[٢] **رَجُلٌ جَالِسًا فِي الهَوَاءِ، فَقِيلَ لَهُ: بِمَ نِلْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ الهَوَىٰ، فَسُخِّرَ لِيَ الهَوَاءُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أنَّ كلَّ خيرٍ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يعطيهِ عبدَهُ [١٩/٢ب] فِي الدُّنيَا والآخرةِ، فإنَّ سببَهُ طاعتُهُ؛ منِ امتثالِ أمْرِهِ واجتنابِ نهْيِهِ، ولَا يتمُّ شيءٌ منْ ذلِكَ إلَّا بتَرْكِ الهَوَىٰ شُغْلًا بطاعةِ المَوْلَىٰ صحَّ أنْ تنخرقَ لهُ العاداتُ، ويحملَهُ اللهُ علىٰ الماءِ والهوَاءِ[٣]، هذَا لا استحالَةَ فيهِ، بلْ هوَ الواقعُ لبعضِ الأولياءِ.

ولقدْ أخبرَنِي مَنْ أثِقُ بِهِ أنَّهُ رأىٰ رجُلًا طائِرًا فِي الهَوَاءِ، فلمَّا اجتمعَ بهِ فِي وقتٍ آخرَ أقسَمَ عليهِ أنْ يذكرَ لهُ مَا السَّببُ في طيرانِ الولِيِّ فِي الهَوَاءِ؟ وكانَ سألَهُ قبلَ ذلِكَ أوَّلَ اجتماعِهِ بهِ بمَا تُنَالُ الولايةُ الخاصَّةُ؟ قالَ لهُ: بأربعٍ، فسألَهُ عنهَا فقالَ لهُ: «معرفةُ المعبودِ، وكيفَ تعبدُهُ، وتعبدُهُ وتُخْلِصُ».

فجمعَ فِي هذِهِ الكلماتِ معرفةَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ومعرفةَ العلومِ الشَّرعيَّةِ المتعلِّقةِ بالقلوبِ والأبدَانِ، وعملَ العبدِ علىٰ حسبِ مَا علِمَ، وإخلاصَهُ فِي عملِهِ بقلبِهِ وجَوارِحِهِ، وهذِهِ أدلَّةُ الولايةِ والحفظِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فلمَّا سألَهُ بأيِّ شيءٍ يطيرُ العبدُ فِي الهواءِ؟ قالَ: إذَا اطَّلَعَ الرَّبُّ علَىٰ القلبِ فلَمْ يجِدْ فيهِ التِفَاتًا لغيرِهِ، ولَا تعلُّقًا بسِوَاهُ، حملَهُ حيثُ شاءَ.

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٦/١.

(٢) الرائي هوالشبلي، كما في: تهذيب الأسرار ص١٧٦، وورد بلا نسبة في: ذم الهوىٰ ص٢٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٠٠/١.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **لَوْ عَرَضَ لِمُؤْمِنٍ أَلْفُ شَهْوَةٍ لَأَخْرَجَهَا بِالخَوْفِ، وَلَوْ عَرَضَتْ لِلفَاجِرِ شَهْوَةٌ وَاحِدَةٌ لَأَخْرَجَتْهُ مِنَ الخَوْفِ.**

وَقِيلَ[(٣)]: **لَا تَضَعْ زِمَامَكَ فِي يَدِ الهَوَىٰ؛ فَإِنَّهُ يَقُودُكَ إِلَى الظُّلْمَةِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**إذَا عَرَضَتْ للمؤمنِ ألفُ شهوةٍ أخرجَهَا بالخوفِ**» صحيحٌ؛ وذلِكَ إذَا كانَ قلبُهُ ممتلِئًا بالخوفِ والحذَرِ إذَا جاءَتِ الشَّهواتُ ـ وأخطرَهَا الشَّيطانُ ـ لمْ تَجِدْ فِي القلبِ مَسَاغًا تنفذُ فيهِ، فنفاذُهَا الخوفُ تملُّكُهُ للقلبِ، وعكسُهُ إذَا عرَضَتْ للفاجرِ شهوةٌ واحدةٌ أخرجَتْهُ منَ الخَوفِ؛ وذلِكَ لامتلاءِ قلبِهِ بالشَّهواتِ، وضَعْفِ الخوفِ فيهِ وقلَّةِ الحذَرِ[(٤)]، فإذَا عرَضَتِ الشَّهوةُ صابَتْ محلًا قابلًا؛ وهوَ كثرةُ الشَّهواتِ فيهِ وقلَّةُ الخوفِ.

وقولُهُ: «**لَا تَضَعْ زِمَامَكَ فِي يَدِ الهَوَىٰ**»، أيْ: لا تَدَعْ نفسَكَ تَمِيْلُ إلَىٰ مَا اشتهيَتَهُ مِنْ غيرِ تثبُّتٍ، فإذَا تثبَّتَتْ وأبصرَتْ بالعِلْمِ ما يَضُرُّ ممَّا يَنْفَعُ فإنْ مَالَتْ إلىٰ الخَيْرِ فَدَعْهَا، فهوَ الَّذِي يُرَادُ منهَا، وإنْ مَالَتْ للشَّرِّ فكُفَّهَا عنهُ وأدِّبْهَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ بْنُ أَسْبَاطٍ**[(٦)]: **لَا يَمْحُو**[(٧)] **الشَّهَوَاتِ مِنَ القَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ، أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ**» [٢/٢٠أ].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٦.

(٢) ورد عن حوشب في: تهذيب الأسرار ص١٧٦.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٧٦.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٠.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٨٧.

(٦) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٢٢، وشعب الإيمان ١/٥١٤، وحلية الأولياء ٨/٢٣٨، وتهذيب الأسرار ص١٧٧، والمجالسة وجواهر العلم ص٣٤٣، وتاريخ الإسلام ١٣/٤٨٤. وانظر في ترجمته: صفة الصفوة ٤/٢٦١، وسير أعلام النبلاء ٩/١٦٩.

(٧) في (ب): «في قلبه فرحته»، والصواب المثبت.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: معناهُ: لَا يحملُ علَىٰ الطَّاعاتِ إلَّا الخوفُ أوِ الرَّجاءُ، فإذَا استقامَتْ علَىٰ الطَّاعاتِ، ولذَّتْ لهَا المناجاةُ أعرَضَتْ عنِ الشَّهواتِ، والميلِ إلىٰ الهوَىٰ بواضِحِ الدَّلالاتِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[١]: «وَقَالَ الخَوَّاصُ[٢]: مَنْ تَرَكَ شَهْوَةً فَلَمْ يَجِدْ عِوَضَهَا فِي قَلْبِهِ فَهُوَ كَاذِبٌ فِي تَرْكِهَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: والعِوَضُ الَّذِي يجدُهُ في قلبِهِ أدناهُ فرحُهُ[٣] بتَرْكِهَا للهِ، وبغلبَةِ عقلِهِ لنفسِهِ وهوَاهُ، وأعلَىٰ ذلِكَ أنْ يجدَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ قُرْبًا يتنعَّمُ بِهِ معَ مولَاهُ فِي دنياهُ، وبِنَظَرِهِ إليهِ فِي أُخْرَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٤]: «وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ نُصَيْرٍ[٥]: دَفَعَ إِلَيَّ الجُنَيْدُ دِرْهَمًا، وَقَالَ: اِشْتَرِ بِهِ التِّينَ الوَزِيرِيَّ[٦]، فَاشْتَرَيْتُهُ، فَلَمَّا أَفْطَرَ أَخَذَ وَاحِدَةً وَوَضَعَهَا فِي فَمِهِ، ثُمَّ أَلقَاهَا وَبَكَىٰ، وَقَالَ: اِحْمِلْهُ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ! فَقَالَ: هَتَفَ فِي قَلْبِي: أَمَا تَسْتَحِي شَهْوَةً تَرَكْتَهَا مِنْ أَجْلِهِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْهَا؟!».

وَأَنْشَدُوا[٧]:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٧.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٧٧، ومرآة الزمان ١٦/٢٩٧.

(٣) في (ب): فرحته، وهو تحريف.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٧.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٧٧، وإحياء علوم الدين ٣/٩٤، وإتحاف السادة المتقين ٩/٦٧.

(٦) نسبة إلىٰ قصر المعتصم بالوزيرية في تاريخ الإسلام ١٥/٣٣: «... وأسس قصره بالوزيرية التي ينسب إليها التين الوزيري، العديم النظير في الحسن».

(٧) من الكامل، ونسب لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر في: التمثيل والمحاضرة ص١٠٣، والدر الفريد وبيت القصيد ٩/٤٨٣، وورد بلا نسبة في: تفسير الثعلبي ٨/٣٦٢، وذم الهوىٰ ص٣٣.

نُـونُ الهَـوانِ مِـنَ الهَـوَىٰ مَسْـرُوقَةٌ ❁ وَصَـرِيعُ كُـلِّ هَـوًى صَـرِيعُ هَـوَانِ».

❁ قالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وذلِكَ أنَّ الجُنيدَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ كانَ قدْ عزمَ علىٰ ألَّا يأكلَ هذَا التِّينَ؛ لتعلُّقِ قلبِه بهِ ودعَا نفسَهُ إليهِ، فخالَفَ هوَاهُ وتركَهُ لمولَاهُ، ودامَ علىٰ ذلِكَ مدَّةً، ثمَّ اتَّفقَ أنَّهُ كانَ صائمًا فخطرَ ببالِهِ مَا يفطرُ عليهِ فدفعَ لصاحبِهِ درهمًا وقالَ: اشترِ التِّينَ الوزيرِيَّ، وهوَ جنسٌ منَ التِّينِ طَيِّبٌ[1]، فاشترَاهُ وأتَىٰ بهِ لهُ، وأحضَرَهُ عندَ إفطارِهِ، فأخذَ واحدةً ووضعَهَا فِي فيهِ وهوَ ناسٍ لعَزْمِهِ الأوَّلِ، أنسَاهُ ما هوَ فيهِ منَ الاحتياجِ إلىٰ الطَّعامِ، ثمَّ أفكرَهُ اللهُ عزمَهُ الأوَّلَ، فألقَاهَا مِنْ فِيهِ، فبكَىٰ بكاءً شديدًا وقالَ لصاحِبِهِ: «ارْفَعْهُ»، ـ أيْ: اذهَبْ بهِ ـ، فَسُئِلَ عنْ سببِ بكائِهِ فقالَ: «**خطرَ بقلبِي: شهوةٌ تركتُهَا مِنْ أجلِي وتعودُ فيهَا**».

وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علَىٰ إكرامِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُمْ، وتنبيهِهِ إيَّاهُمْ علىٰ الوفاءِ بعزومِهِمْ لهُ، وكثيرًا مَا يجرِي مثلُ ذلِكَ للصَّالحِينَ في ليلِهِمْ ونهارِهِم.

وأمَّا البيتُ منَ الشِّعرِ فيدلُّ علَىٰ أنَّ كلَّ مَنِ استرسَلَ فِي هوَاهُ أثمرَ لهُ ذلِكَ الإهانةَ فِي دُنياهُ وأُخرَاهُ، فقولُهُ:

نُـونُ الهَـوانِ مِـنَ الهَـوَىٰ مَسْـرُوقَةٌ

أيِ: الهَوَىٰ هُوَ الهَوَانُ، وإنَّمَا سُرِقَتْ نُونُهُ، فمَنْ ركبَ الهوَىٰ وغفلَ عَنْ نُونِهِ وقعَ فِي هَوانِهِ [٢/٢٠ب].

❁ ❁ ❁

(١) في (أ): طيبًا، والصواب المثبت.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَاعْلَمْ أَنَّ لِلنَّفسِ أَخلَاقًا ذَمِيمَةً، فَمِنْ ذَلِكَ (الحَسَدُ):

بَابُ الحَسَدِ[٢]

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، فَخَتَمَ اللهُ السُّورَةَ الَّتِي جَعَلَهَا عُوْذَةً بِذِكْرِ الحَسَدِ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الأَهْوَزِايُّ[٣]، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الفَضْلِ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحيَى بْنُ مَخْلَدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَافَى بْنُ عِمْرَانَ؛ عَنِ الحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ؛ عَنْ مَعْبَدٍ؛ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ؛ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[٤]: «ثَلَاثٌ هُنَّ أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، فَاتَّقُوهُنَّ وَاحْذَرُوهُنَّ: إِيَّاكُم وَالكِبْرَ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ حَمَلَهُ الكِبْرُ عَلَى أَلَّا يَسْجُدَ لِآدَمَ. وَإِيَّاكُم وَالحِرْصَ[٥]؛ فَإِنَّ آدَمَ حَمَلَهُ الحِرْصُ عَلَى أَنْ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ. وَإِيَّاكُم وَالحَسَدَ؛ فَإِنَّ ابْنَيْ آدَمَ[٦] إِنَّمَا قَتَلَ أَحُدُهمَا صَاحِبَهُ حَسَدًا[٧]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **حَقِيقَةُ الحَسَدِ**: تَمَنِّي زَوَالِ النِّعمةِ عنِ الغيرِ، سواءٌ أرادَ الحاسدُ رجوعَهَا إليهِ أَوْ لَمْ يُرِدْ، هذَا هوَ الحسدُ المحرَّمُ كلُّهُ، قالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٢) عنوان الباب مطموس في (ب).

(٣) في (ب): الأوازي، والصواب المثبت.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٩/٤٠.

(٥) وهو شدة الكد والإسراف في الطلب.

(٦) أي: قابيل وهابيل.

(٧) حين تزوج أخته دونه. انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ١/٤٠٦.

عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]، فتمَنَّوا زوالَ الإيمانِ.

وقالَ - تعالىٰ -: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]؛ فالأوَّلُ: تمنِّي زوالِ النِّعمةِ الحاصلةِ، والثَّانِي: كراهةُ وقوعِ النِّعمةِ المُمْكِنَةِ.

وقالَ - تعالىٰ - في آيةٍ أخرىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ [الفتح: ١٥]، أيْ: مَا كرهْتُمْ سفرَنا معكُمْ إلَّا كراهةَ لنَيْلِنا الغَنيمَةَ، هذا أيضًا يعضِّدُ كَراهَةَ المُمْكِنِ، وقدْ سمَّاهُ اللهُ حَسَدًا.

ومِنَ الحسدِ ما هوَ منقسِمٌ إلىٰ خمسةِ أقسامٍ علىٰ حسبِ الأحكامِ الخمسةِ؛ وهيَ: المنافسةُ[(١)]، وتمنِّي أنْ يكونَ لكَ مثلُهُ، وهذَا يُسمَّىٰ حسدًا، وقدْ[(٢)] سمَّاهُ الشَّرعُ حَسَدًا؛ فقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٣)]: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا»... الحديث، فقدْ سمَّىٰ تمنِّي أنْ يكونَ لكَ مثلُهُ حسدًا، وإنْ لمْ تتمنَّ [٢١/٢أ] زوالَ النِّعمةِ عنهُ.

وهذَا ينقسمُ علىٰ حسبِ حَالِ المُتمنِّي؛ فَإِنْ كانَ الَّذِي تمنَّيتَ[(٤)] حالَهُ مقتدِرًا علَىٰ تحصيلِ الحَرَامِ مِن سَائرِ الأنواعِ ومُتنعِّمًا بمَا تيسَّرُ لهُ منَ الأكلِ والشُّربِ والاستمتاعِ كانَ تمنِّي حالِهِ حَرَامًا، فإنَّ تَمنِّي الحَرامِ حَرامٌ، وكذلِكَ إذَا كانَ مِمَّنْ

---

(١) أي: حسد الغبطة.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٦١٢/٦ ـ حديث رقم (٦٧٢٢) بلفظ: «لَا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا فَسَلَّطَهُ علىٰ هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وَآخَرُ آتَاهُ الله حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بها وَيُعَلِّمُهَا»، ومسلم في صحيحه ٥٥٩/١ ـ حديث رقم (٨١٦).

(٤) في (ب): تمنيته.

تيسَّرَتْ لهُ الطَّاعاتُ وأعانَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الصَّومِ والصَّلاةِ وأنواعِ القُرُبَاتِ مِنَ المَنْدُوبَاتِ، وتمنَّيتَ أنْ تكُونَ مِثْلَهُ كانَ تمنِّيكَ للمَنْدُوبِ مَنْدُوبًا[١] إليهِ، وكذلِكَ إذَا كنتَ مُخلًا بمَا للهِ عليكَ كَسَلًا عنهَا واشتغالًا بغيرِهَا منَ الشَّهَواتِ ورأيتَ مَنْ وُفِّقَ للخيراتِ ولمْ يُفرِّطْ في شَيءٍ منْ واجباتِهِ في وقتٍ منَ الأوقاتِ ولَا فِي حَالةٍ منَ الحالاتِ فتألَّمْتَ[٢] لحالِكَ، وتمنَّيتَ القيامَ للهِ ـ تعالىٰ ـ بواجباتِكَ، ورغبْتَ أنْ تكونَ مثْلَهُ فيمَا هوَ فيهِ كانَ تسبُّبُكَ وتمنِّيكَ[٣] وتكلُّفُكَ للقيامِ للواجباتِ[٤] منَ الوَاجِبَاتِ، فإنَّ مَا لا يتمُّ الواجبُ إلَّا بهِ منَ المُمْكِنَاتِ فهوَ واجبٌ، وكذلِكَ القولُ في المكرُوهاتِ والمباحاتِ.

فحصلَ مِن مجموعِ ذلِكَ أنَّ منَ الحسدِ مَا هوَ محرَّمٌ كلُّهُ، ومنهُ مَا هوَ منقسمٌ إلَىٰ أقسامٍ، أحدُهَا منَ المحرَّماتِ، كمَا بيَّنَّاهُ واستدلَلْنَا عليهِ منَ الآياتِ، وقَدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥]: «ثَلَاثٌ[٦] لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الطِّيَرَةُ، وَالظَّنُّ، وَالحَسَدُ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِالمَخْرَجِ مِنَ ذَلِكَ إِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ[٧]، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ»، ومعنَىٰ لَا ينجُو منهُنَّ أحَدٌ: أنَّ الشَّيطانَ يخطرُ ذلِكَ لبنِي آدمَ ليوقِعَهُمْ في الآثامِ العظيمَةِ، فإنَّ الطِّيرةَ نسبةُ فعلٍ لغيرِ اللهِ، وسوءُ الظَّنِّ إساءةٌ بالمؤمنِينَ منْ غيرِ سببٍ صحيحٍ، والحسدُ معارضةٌ لقدرِ اللهِ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يريدُ إجراءَ نِعَمِهِ علىٰ العبيدِ، والحاسدِ بقلَّةِ توفيقِهِ يريدُ زوالَهَا، ولذلِكَ

(١) في (أ): مندوبٌ، والصواب المثبت.
(٢) في (ب): فتأملت، والصواب المثبت.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) في (ب): واجبات.
(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/٦٤، والديلمي في الفردوس ٣/١٣٦.
(٦) في (ب): ثلاثة، والأصح المثبت.
(٧) أي: افعل الأمر الذي ظننت شؤمه بواسطة الطيرة.

قيلَ(١): «للهِ درُّ الْحَسَدِ مَا أَعْدلَهُ! بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فقَتَلَهُ»، فإنَّهُ بنفسِ حسدِهِ عَصَىٰ ربَّهُ فاجِرًا(٢)، وزوالُ النِّعمِ وإثباتُهَا بيدِ اللهِ، فهوَ يهلكُ نفسَهُ بغيرِ فائدةٍ ترجعُ إليهِ.

ولقَدْ بلغتْنِي قضيَّةٌ فيهَا أُعجوبةٌ، وذلِكَ أنَّ العيُونَ منَ النَّاسِ هوَ الَّذِي يستحسنُ النِّعمَ وربَّمَا يحبُّ عودَهَا إليهِ، وأجرَىٰ اللهُ العادةَ بِجَريانِ المَصَائبِ عندَ استحسانِ العيُونِ للذَّواتِ، وقدْ جرَىٰ [٢/٢١ب] ذلِكَ في زمنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ رأَىٰ بعضُ الصَّحابةِ غيرَهُ يغتسلُ وكانَ بَدَنُهُ حَسَنًا(٣)، فقالَ: «مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ»، يعنِي: بِكْرًا في خِدْرِهَا، فوقَعَ ذلِكَ الَّذِي يَغْتَسِلُ مَكَانَهُ مَرِيضًا، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ(٤): «هَلْ تَتَّهِمُونَ بِهِ أَحَدًا؟ فَقَالُوا: فُلَانٌ قَالَ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَدَعَاهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَغَيَّظَ وَقَالَ: عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا(٥) بَرَّكْتَ؟ أَيْ كُنْتَ تَقُولُ حِينَ اسْتَحْسَنْتَهُ: بَارَكَ اللهُ فِيهِ، ثُمَّ أَمَرَ النَّاظِرَ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي قَدَحٍ، فَغَسَلَ فِيهِ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَصُبَّ المَاءُ عَلَىٰ المَرِيضِ بِالنَّظْرَةِ فَقَامَ فِي النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ».

والَّذِي تعجَّبْتُ منهُ أنَّ بعضَ النَّاسِ كانَ بينَهُ وبينَ رجُلٍ عداوَةٌ، وكانَتْ لعدوِّهِ غنمٌ تسرحُ كلَّ يومٍ وتعودُ آخرَ النَّهارِ حُفَّلًا لَبنًا، فأرادَ هذَا العدوُّ أنْ يُرْدِيَهِ فِي غَنَمِهِ، فسألَ عنْ أَعْيَنِ النَّاسِ وأقبحِهِمْ نظرًا فِي المُسْتَحْسَنَاتِ؛ فَدُلَّ عليهِ، ووعدَهُ بشيءٍ أعطاهُ إيَّاهُ، وخرَجَا جميعًا ظاهرَ البلدِ آخرَ النَّهارِ ينتظرَانِ الغَنَمَ فينظرُ إليهَا مستحْسِنًا فتهلكُ، فجلسَا وقْتًا ينتظرانِهَا فغلبَ النُّعاسُ علىٰ العَيُونِ فنامَ، وبقِيَ العدوُّ بمَا فِي

(١) نسب لعلي بن أبي طالب في: المستطرف ١/٤٥٩، وورد بلا نسبة في: روح المعاني ٦/١٣٢.
(٢) في (ب): ناجزًا.
(٣) أي: رأىٰ عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل، كما في الحديث.
(٤) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٣٩، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٤/٣٨١، والطبراني في المعجم الكبير ٦/٧٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/١٦٣.
(٥) في (ب): هل، والصواب المثبت.

نفسِه لا نومَ بهِ ينظرُهَا فرآهَا مِن بعيدٍ وعرَفَهَا بِرَاعِيهَا أوْ ما يجرِي مجرَاهُ، فلمَّا رآهَا نَبَّهَ العيُونَ وقالَ لهُ: قُمْ مِن نومِكَ هَا هيَ قد جاءَتْ، فقامَ ونظرَ إلى الجهةِ وبعينِه أثرُ النُّعاسِ فلَمْ يرَهَا لبُعْدِهَا، فلمْ يزَلْ بهِ العدوُّ يُحدِّقُ بهِ ويُدلُّهُ علىٰ الجهةِ الَّتِي هيَ فيهَا، فلمَّا رآهَا العيُونُ التفتَ إلىٰ العدوِّ الَّذي جاءَ بهِ مستحسِنًا لنظرِه فقالَ: مَا نَظَرُكَ إلَّا نظرٌ مليحٌ!، فمَا انصرَفَا حتَّىٰ عمِيَ العدوُّ، وتلِفَتْ عيناهُ في ساعتِهِ.

ويعضِّدُ هذَا[1]: «مَنْ حفرَ لأخيهِ المسلمِ بِئْرًا أوقعَهُ اللهُ فيهَا».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَقَالَ بَعْضُهُم[3]: الحَاسِدُ جَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرْضَىٰ بِقَضَاءِ الوَاحِدِ.**

وَقِيلَ[4]: الحَسُودُ لَا يَسُودُ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والَّذي بيَّنَّاهُ في حقيقةِ الحسَدِ؛ وهوَ أنَّهُ في صورةِ المُعانِدِ لربِّهِ ـ تعالَىٰ وتقدَّسَ عَنْ أنْ يُعانَدَ ـ وذلِكَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يريدُ إسباغَ النِّعَمِ علىٰ عبيدِهِ، والحاسدَ يريدُ زوالَهَا، فبهذَا الاعتبارِ كانَ لا يرضَىٰ بقضاءِ الواحدِ [٢/٢٢أ].

وأمَّا قولُهُ: «**الحَسُودُ لَا يَسُودُ**»، فمِنْ حيثُ أنَّ حسدَهُ يضرُّهُ عاجِلًا، ومُرادَهُ

---

(١) في تفسير الثعلبي ١١٦/٨، والمحرر الوجيز ٤٤٣/٤: «قال كعب لابن عباس: إن في التوراة من حفر حفرة لأخيه وقع فيها، فقال ابن عباس: أنا أوجدك هذا في كتاب الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾»، وورد أيضا في: روضة العقلاء ص١٢٨، وحلية الأولياء ٢٨٨/١، والمجالسة وجواهر العلم ص٥٥١، ومفاتيح الغيب ١٧/٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٨٨/١.

(٣) ورد قوله في: المقاصد الحسنة ص٣٠٨، وإتحاف السادة المتقين ٤٨٤/٩.

(٤) نسب لذي النون المصري في: تفسير الثعلبي ٦٣/٣، وطبقات الفقهاء الشافعية ص٨٢، والجد الحثيث ص٨٦.

مِنْ زَوالِ النِّعمِ لَا يحصلُ، وضررَ الحَسَدِ عليهِ فِي الآخرةِ يحلُّ ويَنْزِلُ، فلمْ يسُدْ لَا دُنيَا ولَا آخرةَ[١].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ ـ سبحانه ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] قِيلَ: مَا بَطَنَ: الحَسَدُ[٣]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا إنَّمَا ذكرَهُ لتمثيلِ الفَواحِشِ الَّتِي محلُّهَا القلبُ، والحسدُ مِن جُمْلَتِهَا، وكذلِكَ سوءُ الظَّنِّ والشَّماتةُ بالمصيبةِ والعُجْبُ بالعملِ معَ نِسْيَانِ المِنَّةِ، هذِهِ كلُّهَا محرَّماتُ القلبِ، وغيرُ ذلِكَ مِن اعتقادِ الكفرِ والبِدَعِ والمَعَاصِي، وإنَّمَا أرادَ التَّمثيلَ فِي قولِهِ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ لأنَّ مَا ظهرَ معاصِي اللِّسانِ والعينِ والأُذُنِ واليَدِ والرِّجْلِ والبطْنِ والفرْجِ، ومَا بَطنَ معاصِي القلبِ، وهيَ كثيرةٌ ذكرْنَا بعضَهَا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٤]: «وَفِي بَعْضِ الكُتُبِ[٥]: الحَاسِدُ عَدُوُّ نِعْمَتِي[٦]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا إشارةٌ لمَا قرَّرْنَاهُ في حقيقةِ الحسَدِ؛ وهيَ تمنِّي زوالِ النِّعمةِ الحاصلةِ وكراهةُ مَا يمكنُ وقوعُهُ منهَا، والعدوُّ هوَ الَّذِي يبغضُ عدوَّهُ ويكرهُ رؤيتَهُ ووجودَهُ، وهذَا حالُ الحاسدِ بالإضافةِ إلى النِّعمِ الَّتِي علَى عبادِ اللهِ الحادثَةِ منَ اللهِ، ولهذَا كانَ عدوًّا لنعمةِ اللهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٨٨.

(٣) انظر: تفسير السلمي ١/٢٢٨.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٨.

(٥) ورد في: المجالسة وجواهر العلم ص١١٣، وشعب الإيمان ٥/٢٧٤، وتفسير الثعلبي ٣/٣٣٠، وكشف الخفاء ١/٤٣١.

(٦) أي: عدو من أنعمت عليه إيثارًا لنفسه.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقِيلَ(٢): أَثَرُ الحَسَدِ يتبيَّنُ فِيكَ قَبلَ أَنْ يتبيَّنَ فِي عَدُوِّكَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الحَاسِدَ مُتألِّمٌ في نفسِهِ، متفكِّرٌ إذا رأى النِّعمَ على غيرِهِ، فقد ظهرَ أثرُ الحسَدِ فيهِ وإنْ لمْ يتبيَّنْ أثَرُهُ في المَحْسُودِ، وقدْ لا يَتبيَّنُ إذَا أرادَ اللهُ ـ تعالى ـ أنْ لا يقعَ مُرادُ الحَاسدِ فتدُومَ النِّعمُ على المَحْسُودِ، وقدْ تبيَّنَ أثرُ الحَسَدِ في الحَاسِدِ ولمْ يُصِبِ المَحْسُودُ شَيئًا(٣).

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ(٥): رَأَيْتُ أَعْرَابِيًّا أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَقُلْتُ: مَا أَطْوَلَ عُمْركَ؟! فَقَالَ: تَرَكْتُ الحَسَدَ فَبَقِيْتُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ الهمومَ والأحزانَ إذَا توالَتْ على الأبدانِ أَهْرَمتْهَا وأَضْعَفَتْهَا، فبهذَا الاعتبارِ لمَّا رآهُ طويلَ العُمرِ قالَ لهُ: ليسَ عِنْدِي هَمُّ الحَسَدِ على الدُّنيَا، فاسْتوفيْتُ عُمْرِي في عَافيةٍ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «وَقَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ فِي قَلْبِ أَمِيرِي مَا جَعَلَ فِي قَلْبِ حَاسِدِي». [٢/٢٢ب]

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ الأمراءَ العادِلِينَ الَّذِينَ بأيديهِمُ الأموالُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٨.

(٢) ورد قوله في: منارات السائرين ص١١٩، والأنس في شرح عيوب النفس ص٢٨٤، وسراج الطالبين ١/٣٨٨.

(٣) في (ب): شيء، والصواب المثبت. وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٨٨.

(٥) ورد قوله في: أدب الدنيا والدين ص٢٧٠، والمجالسة وجواهر العلم ص١١٣، وربيع الأبرار ٣/٣٧٦، ومحاضرات الأدباء ١/٣١٧، والمستطرف ١/٤٥٩.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٨٨.

فينظرُونَ في مصالحِ الخَلْقِ، إذا كانُوا حاسدِينَ لمْ يُوصِلُوا مَا بأيديهِمْ إلَىٰ الخَلْقِ شيئًا لحسدِهِمْ، وضاعَتِ الرَّعيَّةُ بسببِ تملُّكِهِمْ لسائِرُ منافعِ الخَلْقِ؛ فلذلِكَ قالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي لمْ يجعلْ في قلْبِ أميرِي منَ الحَسَدِ مَا جعلَ في قَلْبِ حَاسِدِي**».

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَفِي بَعْضِ الآثَارِ**[(٢)]: **إِنَّ فِي السَّمَاءِ الخَامِسَةِ مَلَكًا يَمُرُّ بِهِ عَمَلُ عَبْدٍ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ، فَيَقُولُ: قِفْ فَأَنَا مَلَكُ الحَسَدِ، اِضْرِبْ بِهِ وَجْهَ صَاحِبِهِ؛ فَإِنَّهُ حَاسِدٌ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا الحديثُ وردَ في العُرُوجِ بعملِ العَبْدِ، فإنْ كانَ صالِحًا استبشرَ بهِ وأَثْنَىٰ علىٰ فاعِلِهِ، وإذَا كانَ غيرَ خَالصٍ رُدَّ عنِ الصُّعُودِ إلىٰ أعلَىٰ السَّماءِ الَّتِي رُدَّ منهَا، وقدْ وردَ في الصَّحيحِ أنَّ الملائكةَ تصعَدُ بعملِ العَبْدِ فرحَةً مُسْتَبْشِرَةً، فيقولُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ[(٣)]: «اِجْعَلُوهُ فِي سِجِّينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا العَمَلِ وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي».

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ مُعَاوِيَةُ**[(٥)]: **كُلُّ إِنْسَانٍ أَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ أُرْضِيَهُ إِلَّا الحَاسِدَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُ النِّعْمَةِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ وهوَ أنَّ الحاسِدَ إرادتُهُ زوالُ النِّعَمِ عنِ الخَلْقِ، ومَنْ عداهُ منَ الطَّالِبينَ يتأتَّىٰ أنْ يرضَىٰ بغيرِ ما طلبَ إلَّا الحاسِدَ، فإنَّهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٩/١.

(٢) ورد في: منارات السائرين ص١٢٠، وسراج الطالبين ٣٨٨/١. وفيه دلالة علىٰ شدة التنفير من الحسد.

(٣) أورده أبو نعيم في الحلية ٧٠/٣، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧١/٧، وأبو الشيخ في العظمة ١٠٠١/٣، والدينوري في المجالسة ص٢٥٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٩/١.

(٥) ورد قوله في: الفاضل للمبرد ص١٠٠، ومحاضرات الأدباء ٣١٣/١، ومفاتيح الغيب ٢١٥/٣.

لا يرضَىٰ إلَّا بنفْسِ ما أرادَ؛ وهوَ زوالُ النِّعمِ عنْ عبادِ اللهِ، وذلِكَ ليسَ بيدِ أحدٍ إنَّمَا هوَ مِن فضْلِ اللهِ، فلَا يقدرُ أحَدٌ علَىٰ أنْ يُرْضِي الحاسدَ واللهُ - تعالىٰ - لَا يحبُّهُ ولا يُرضِيه؛ فإنَّهُ مخالِفٌ لهُ، مرتكِبٌ لنهْيِهِ، مَاقِتٌ لهُ علىٰ حالِهِ، فهوَ قَمِنٌ بأنْ يجتمعَ عليهِ البلاءُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ؛ أمَّا فِي الدُّنيَا فألَمُهُ بِرُؤيةِ النِّعَمِ، وأمَّا في الآخرةِ فبِحُلُولِ العَذَابِ والنِّقَمِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «**وَيُقَالُ**[2]: **الحَاسِدُ ظَالِمٌ غَشُومٌ**[3]**، لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وإنَّمَا كانَ ذلِكَ لأنَّهُ لَا يُبْقِي لنفسِهِ راحةً فِي الدُّنيَا ولَا فِي الآخرةِ، فهوُ ظَالِمٌ لنفسِهِ مُعَذِّبٌ لهَا فِي الدُّنيَا والآخرةِ بِسُوءِ إرادَتِهِ لزوَالِ النِّعمِ عَنِ الخَلْقِ ومحبَّتِهِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]: «**وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[5]: **مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الحَاسِدِ؛ غَمٌّ دائِمٌ، وَنَفَسٌ مُتَتَابِعٌ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، إذَا تحسَّسَ [٢/١٢٣أ] العبدُ للحاسدِينَ وجَدَهُمْ بهذِهِ المثابَةِ في دوَامِ همِّهِمْ، وتولِّي الغَمِّ علىٰ قُلُوبِهِمْ، وتنفَّسَ الصُّعَدَاءَ علىٰ زوالِ مَقَاصِدِهِمْ، فهُمْ في صُورةِ مظلومينَ وهُمْ ظالِمُونَ بطلَبِ ما لمْ يُجعلْ لهُمْ طَلَبُهُ ولَا يدخلُ تحتَ اختيارِهِمْ، ولا يفارقُهُ قُدْرتهُمُ[6] الحَادثَةُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٩/١.

(٢) ورد قوله في: سراج العابدين ٣٨٨/١.

(٣) إنما كان غشومًا؛ لأن الظالم شأنه التعدي علىٰ ما للغير مما له به انتفاع.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٨٩/١.

(٥) نُسب إليه في: الفاضل ص١٠٠، ونسب للحسن في: العقد الفريد ١٥٨/٢، ولعلي بن أبي طالب في: محاضرات الأدباء ٣١٢/١، وللخليل بن أحمد في: شعب الإيمان ٢٧٣/٥.

(٦) في (أ): قدرهم.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ**[٢]: **عَلَامَاتُ الحَاسِدِ: أَنْ يَتَمَلَّقَ**[٣] **إِذَا شَهِدَ، وَيَغْتَابَ إِذَا غَابَ، وَيَشْمَتَ بِالمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الحاسدَ يُعْرَفُ بسوءِ باطنِهِ[٤]، وأنَّهُ يكرَهُ نُزُولَ[٥] النِّعمِ علىٰ الخَلْقِ، فإذَا رأَىٰ مَنْ للهِ عليهِ نِعْمَةٌ واجتمعَ معَهُ فهوَ بظاهرِهِ يتملَّقُ وَيُظْهِرُ أنَّهُ محبٌّ لهُ وهوَ بِبَاطِنِهِ يريدُ لهُ السُّوءَ وزوالَ النِّعمةِ عنهُ، فهذَا معنَىٰ كونِهِ «**يتملَّقُ إذا حضرَ**».

وأمَّا كونُهُ «**يغتابُ إذا غابَ**» فإنَّ الحاسدَ ربَّمَا قوِيَ حسدُهُ حتَّىٰ يسعَىٰ بلسانِهِ في زوالِ النِّعمِ عمَّنْ رآهَا عليه، وهذَا ليسَ هوَ الحسدُ، وإنَّمَا هوَ زيادةٌ وثمرةٌ عنِ الحسَدِ، ولذلِكَ غلطَ بعضُ النَّاسِ واعتقدَ أنَّ الحسدَ لا يضرُّ حتَّىٰ يسعَىٰ الحاسدُ فِي إزالةِ النِّعمةِ بجوراحِهِ وهوَ باطلٌ، فإنَّا حقَّقْنَا أنَّهُ مِنْ أعمالِ القُلُوبِ، فإنْ سَعَىٰ بظاهرِهِ فهِيَ معصيةٌ أُخْرَىٰ تتعلَّقُ بالمَحْسُودِ بهَا عندَ الحَاسدِ، بِخِلافِ الحَسَدِ فإنَّهُ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوبِ، وليسَ للحَسُودِ[٦] حقٌّ عندَ الحَاسدِ بسببِ حَسَدِهِ، فهوَ يجبُ عليهِ أنْ يستحلَّ منَ الغِيبةِ وغيرِ ذلِكَ مِمَّا سَعَىٰ بهِ ليزيلَ النِّعَمَ عنهُ، بخلافِ الحسَدِ فإنَّهُ يتوبُ إلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ خاصَّةً، ولا يجبُ عليهِ استحلالٌ منَ المَحْسُودِ.

ولَوْ قدَّرْنَا أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أزالَ النِّعَمَ عنِ المَحْسُودِ فليسَ ذلِكَ لحسَدِ الحاسدِينَ ولَا سَعيِهِمْ بقلوبِهِمْ، بَلْ وافقَ القدرَ ما أحبُّوهُ؛ وهوَ كسوءِ الظَّنِّ بالنَّاسِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٩.

(٢) ورد في: الفاضل ص١٠٠، وحلية الأولياء ٤/٤٧.

(٣) أي: يتردد إلىٰ المحسود ويتلطف به.

(٤) في (ب): ظنه.

(٥) في (أ): زوال، والصواب المثبت.

(٦) هكذا في النسخ، ولعلها: المحسود.

لَا يجبُ منهُ استحلالٌ، وهوَ محضُ حقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وقولُهُ: «يَشْمتُ بِالمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ» فهيَ أيضًا مِنْ صِفَاتِ الحَاسِدِينَ، وهيَ معصيةٌ أُخْرَىٰ مضافةٌ إلىٰ حَسَدِهِ، فإذَا تمنَّىٰ زوالَ نعمةٍ عنْ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ عصَىٰ معصيةَ الحَسَدِ، وإنِ اتَّفَقَ زوالُهَا بقدرِ اللهِ وسُرَّ بذلِكَ وشمتَ عَصَىٰ معصيةَ الشَّمَاتةِ.

وقدْ قيلَ ذلِكَ في قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، قِيلَ: هَذا الحاسدُ، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ قيلَ: هذا الشَّامتُ، فذمَّهُمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بالوصفَينِ جمِيعًا: الحسدِ، والشَّماتةِ، فيكونُ المرادُ بالحسَدِ في الآيةِ النِّعمةَ، وبالسَّيِّئَةِ المصيبةَ، ونبَّهَ ـ تعالىٰ ـ [٢/٢٣ب] أنَّ ذلِكَ لا يضرُّ المحسودَ ولا المَشْمُوتَ بهِ إذَا اتَّقَىٰ وصَبَرَ، فَيصْبِرُ علَىٰ المُصِيبةِ فيسْلَمُ مِنْ ضَررِهَا، ويبقَىٰ في النِّعمةِ ويشكرُهَا، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[1].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ مُعَاوِيَةُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **لَيْسَ فِي خِلَالِ الشَّرِّ خُلَّةٌ أَعْدَلَ مِنَ الحَسَدِ؛ يَقْتُلُ الحَاسِدَ غَمًّا قَبْلَ المَحْسُودِ**[3]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فتجوَّزَ بإطلاقِ اسمِ (العَدْلِ) علَىٰ (الحسدِ)، وذلِكَ أنَّ العادلَ هوَ الَّذِي يضعُ الأشياءَ مواضعَهَا، ويُعْطِي كلَّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، ولمَّا كانَ الحاسدُ ظالِمًا مُخالِفًا لربِّهِ مُتَمَنِّيًا لزوالِ ما أرادَ اللهُ بقاءَهُ، أو لعدَمِ ما أرادَ اللهُ كونَهُ، كانَ هالِكًا بمعصيتِهِ لربِّهِ الَّتِي هيَ حَسَدُهُ، فرجعَ شُؤْمُ الحسَدِ عليهِ وهَلَكَ بسببِهِ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٥.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٨٩.

(٣) أي: بزوال نعمه إذا زالت.

فَسُمِّيَ الحَسَدُ عَادِلًا ؛ لكَونِهِ أهلَكَ مَنْ يستحقُّ الهَلاكَ .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ : أَوْحَى اللهُ - سبحانه - إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ** عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[(٢)]: **أُوصِيكَ بِسَبْعَةِ أَشْيَاءَ ؛ لَا تَغْتَابَنَّ صَالِحَ عِبَادِي ، وَلَا تَحْسِدَنَّ أَحَدًا مِنْ عِبَادِي ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يَا رَبِّ حَسْبِي**» .

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علَى أنَّ الحسدَ مِنْ أعظَمِ الكبائِرِ ؛ فإنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا حذَّرَهُ اللهُ منهُ ومِنَ الغِيبةِ قالَ: «**يا ربِّ ، حسْبِي**» ، أيْ: لا تذكُرْ لي بقيَّةَ السَّبعةِ فإنَّ فِي هذَينِ كفايةً فِي الزَّجْرِ ، وهذَا لا يصحُّ إلَّا أنْ يكونَ تقدَّمَ منَ اللهِ - تعالى - إعلامُهُ ببقيَّةِ المَعَاصِي السَّبعةِ ، وإنَّمَا أوحَى إليهِ التَّحذِيرَ عَنْهُنَّ ؛ لتأكيدِ أَمْرِهِنَّ ، وَعِظَمُ الحَسَدِ أنَّهُ في صُورةِ المُعَارِضِ لِمُرادِ الرَّبِّ - سبحانه - وإنْ كانَ مِنْ أعمالِ القلوبِ تكفِي فيهِ التَّوبةُ والنَّدمُ ، وَعَظُمَتِ الغِيبةُ وإنْ كانَتْ باللِّسانِ مِنْ حيثُ إنَّهَا لا يكفِي فيهَا النَّدمُ والتَّوبةُ ، ولابُدَّ منَ الاستحلالِ إنْ قدرَ عليهِ ، وإلَّا فتكثيرُ[(٣)] الأعمالِ الصَّالحةِ للمقاصَّةِ[(٤)] يومَ الحسابِ والسُّؤالِ .

وقولُهُ: «**لَا تَغْتَابَنَّ صَالِحَ عِبَادِي**» احترازًا مِنَ الفاسقِ المُجاهِرِ أوِ المُبْتَدِعِ ، فإنَّهُ لا غِيْبَةَ فِيْهِ .

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَقِيلَ**[(٦)]: **رَأَى مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **رَجُلًا عِنْدَ العَرْشِ فَغَبِطَهُ ، فَقَالَ: مَا صِفَتُهُ ؟ فَقَالَ: كَانَ لَا يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**» .

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٨٩/١ .

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد ص١٦١ ، وتمامه فيه: «قَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ ، هَؤُلَاءِ الثَّلَاثُ لَا أَسْتَطِيعُ فَأَمْسِكْ عَلَيَّ السَّبْعَ» .

(٣) في (ب): فيكثر .

(٤) في (ب): للمقاصد ، والصواب المثبت .

(٥) الرسالة القشيرية ٢٨٩/١ .

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا بظاهرِهِ يدلُّ على أنَّ مَنْ تركَ الحسدَ للهِ رفعَهُ اللهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: الحَاسِدُ إِذَا رَأَى نِعْمَةً بُهِتَ، وَإِذَا رَأَى عَثْرَةً شَمِتَ[٣]. [٢/٢٤أ]

وَقِيلَ[٤]: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَسْلَمَ مِنَ الحَاسِدِ فَلَبِّسْ عَلَيْهِ أَمْرَكَ.

وَقِيلَ[٥]: الحَاسِدُ مُغْتَاظٌ عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، بَخِيلٌ بِمَا لَا يَمْلِكُهُ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «الحاسدُ إذا رأى نِعْمَةً بُهِتَ»، يعني: تعجُّبًا مِن حلولِ النِّعمةِ بمَنْ حلَّتْ بهِ، وبهذا الاعتبارِ يتمنَّى زوالَهَا، «وإذا رأى نِقْمَةً شمتَ»، وقدْ تقدَّمَ.

وقولُهُ: «إذَا أردْتَ أنْ تَسْلَمَ مِنْ شرِّ الحاسِدِ فلَبِّسْ عليهِ أَمْرَكَ»؛ أي: اسْتُرْ نعمةَ اللهِ عليكَ عنهُ ولَا تذكُرْهَا لهُ، فإنَّهُ يتمنَّى زوالَهَا، وإذَا لَبَّسْتَهَا عليهِ سَلِمَ هوَ مِنْ شَرِّ الحَسَدِ[٦]، وسَلِمْتَ أنتَ مِنَ التَّسبُّبِ[٧] في وقوعِهِ فِي الحسدِ، فإنَّهُ لولَا إظهارُكَ النِّعَمَ لهُ لسَلِمَ مِن حسدِكَ.

فبهذَا التَّقريرِ يقالُ: إنْ أردْتَ أنْ تسلَمَ وإلَّا فالحسدُ إنَّمَا يضرُّ الحاسدَ ولَا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٨٩.

(٢) ورد في: الفاضل للمبرد ص١٠٠.

(٣) أي: فرح بها.

(٤) نسب للأصمعي في: المجالسة وجواهر العلم ص١١٢، والعقد الفريد ٢/١٦٠.

(٥) نسب للإمام علي في: المستطرف ١/٤٥٧، وورد بلا نسبة في: التمثيل والمحاضرة ص٤٥٢، والصواعق المحرقة ٢/٣٧٩.

(٦) في (ب): حسدك.

(٧) في (ب): السبب.

يضرُّ المحسودَ شيئًا، ولكنَّهُ إذا عرَفَ خُلُقَهُ فِي الحسَدِ وأظهَرَ لهُ النِّعمَ عليهِ أوْ علىٰ غيرِهِ فوقَعَ فِي الحسدِ كانَ شريكًا لهُ أوْ مُعِينًا.

ويحتملُ أنْ يكونَ أرادَ السَّلامَةَ منَ العَيْنِ؛ لأنَّ الغالبَ مِنَ الحسُودِ أنْ يكونَ مِعْيانًا[١]، ولذلِكَ قالَ فيمَا تقدَّمَ: «**إذا رأىٰ نِعْمَةً بُهِتَ**»؛ لكمالِ استحسانِهِ لهَا، فإذَا كانَ الحَسُودُ مِعْيانًا ورأىٰ نعمةً علىٰ الغيرِ بكمالِ الاستحسانِ حصلَ ضررُ العينِ الحقُّ لِواضِحِ البُرْهَانِ، وقدْ تقدَّمَ الحديثُ في العَينِ والاغتسالِ لهَا[٢]، فهذَا وجْهٌ ثانٍ في السَّلامةِ منَ الحسودِ بالكِتْمَانِ.

وأمَّا قولُهُ: «**بَخِيلٌ بِمَا لَا يَمْلِكُهُ**» فهوَ خاصَّةُ الحسَدِ، وإمَّا «**مُغْتَاظٌ علىٰ مَنْ لا ذَنْبَ لهُ**» فهذَا لَا يتحقَّقُ فِي كلِّ حَسُودٍ؛ لأنَّهُ مِنْ شَرْطِ الحَسَدِ الغيظُ علىٰ المَحْسُودِ، فإنَّهُ تَمَنِّي زَوالِ النِّعمةِ، فلَوْ تَمَنَّىٰ زوالَهَا عنْ حَبِيبِهِ لكانَ حَاسِدًا، إلَّا أنْ يعبِّرَ بالغيظِ عَنْ كَراهةِ النِّعَمِ فنَعَمْ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقِيلَ**[٤]: **إِيَّاكَ أَنْ تَتَعَنَّىٰ**[٥] **فِي مَوَدَّةِ مَنْ يَحْسُدُكَ، فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ إِحْسَانَكَ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومعنَاهُ: لا تُعَذِّبْ نَفْسَكَ بالتَّحبُّبِ للحَاسِدِ، فإنَّهُ لَا بُدَّ أنْ يحبَّ زوالَ النِّعمِ عنْكَ، فيصيرَ تعَنِّيكَ وتعبُكَ فِي التَّحبُّبِ لهُ ضائعًا لا فائدَةَ فيهِ[٦]، فإنَّ حَسَدَهُ يحملُهُ علىٰ تَمَنِّي زَوَالِ الخَيرِ عنكَ، وهذِهِ ليسَتْ صِفَةَ المُحِبِّينَ.

---

(١) في (ب): معينًا.

(٢) الدلالة ٢/٣٩٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٨٩.

(٤) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ٩/٤٩٢.

(٥) في (ب): تبثني، والصواب المثبت. والقصد: تُتعب نفسك.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٦.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: إِذَا أَرَادَ اللهُ ـ سبحانه ـ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَىٰ عَبْدٍ عَدُوًّا لَا يَرْحَمُهُ.. سَلَّطَ عَلَيْهِ حَاسِدَهُ.

وَأَنْشَدُوا[٣]:

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِامْرِئٍ ❊ تَرَىٰ حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا[٤]

وَأَنْشَدُوا[٥] [٢/٢٤ب]:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إِمَاتَتُهَا ❊ إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ

وَقَالَ ابْنُ المُعْتَزِّ[٦]:

قُلْ لِلحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ: طَعْنَةً[٧]: ❊ يَا ظَالِمًا وَكَأَنَّهُ مَظْلُومُ

وَأَنْشَدُوا[٨]:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ❊ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يحسُنُ على مذهبِ مَنْ يرىٰ أنَّ الحسدَ لا يتمُّ إلَّا بعملِ الجوارحِ، فإنَّ الحاسدَ لَا يتركُ مُمْكِنًا يتسبَّبُ بهِ في زوالِ النِّعمةِ عنِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٠.

(٢) ورد في: منارات السائرين ص١٢٠، وسراج الطالبين ١/٣٨٨، وإتحاف السادة المتقين ٩/٤٩٢.

(٣) من المتقارب، ونسب للعتبي في: الفاضل للمبرد ص٦٧، والتمثيل والمحاضرة ص٨٨، ولأبي سعيد المخزومي في: الدر الفريد وبيت القصيد ١٠/٢٢٤.

(٤) سقط هذا البيت من (ب).

(٥) من البسيط، وورد بلا نسبة في: الموشي ص٥، وإحياء علوم الدين ٣/١٨٩، والعقد الفريد ٢/١٥٨، ١٦٠، وطبقات الفقهاء الشافعية ١/٢٩١.

(٦) من الكامل، في ديوانه ص٤١١، وفيه: «تنفس صعدةً».

(٧) أي: رزقك الله طعنة في قلبك.

(٨) من الكامل، لأبي تمام، في ديوانه ١/٣٩٧.

المحسودِ إلَّا فعلَهُ، فإذَا أرادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أنْ يكشفَ سترَ عبدٍ فَيُظْهِرَ نقائِصَهُ للنَّاسِ سلَّطَ عليهِ حاسِدًا يسعَىٰ في إزالَةِ النِّعمِ عنهُ بكلِّ مُمْكِنٍ.

وأمَّا علَىٰ مذهبِ مَنْ يرَىٰ أنَّ الحسدَ لَا يَعْدُو القلبَ، فشرُّ الحسدِ مخصوصٌ بالحاسدِ وإنْ جرَىٰ شيءٌ منَ الضَّررِ مُقَارنًا لحسدِ الحاسدِ فهوَ بقدَرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ومشيئتِهِ.

وهذَا البيتُ يدلُّ علَىٰ أنَّ الحاسدَ لا رحمةَ عندَهُ ولَا شفقةَ علَىٰ الخَلْقِ؛ حتَّىٰ إنَّهُ لا تكونُ الرَّحمةُ منهُ إلَّا لمَنِ ابْتُلِيَ ببلاءٍ عظيمٍ لَا يمكنُ أنْ يكونَ بَلاؤُهُ لشدَّتِهِ فيهِ وجْهٌ مِن وجوهِ النِّعمةِ لكلِّ مَنْ نظرَهُ منَ الحاسدِينَ رحمةً لشدَّةِ بلائِهِ؛ لكونِهِ لا يراهُ في نِعْمَةٍ، فإنَّ الحاسدَ لا يرحمُ مَنْ هوَ فِي نِعْمَةٍ؛ بل يتمنَّىٰ زَوَالَهَا ويَكْرَهُ بَقَاءَهَا لهُ.

وأمَّا قولُهُ: «**كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَىٰ إِمَاتَتُهَا**»، وذلِكَ أنَّ العدوَّ قدْ يخفُّ ما بهِ منَ العداوةِ ويتغيَّرُ حالُهُ عَنْ عَدَاوتِهِ؛ لأنَّ عداوتَهُ إنَّمَا حدثَتْ لِسَبَبٍ وَغَيْظٍ[1] أوْ أذيَّةٍ، فإذَا زالَ ذلِكَ السَّببُ زالَتِ العداوةُ إلَّا الحاسدَ، فإنَّ تمنِّيهِ لزَوالِ النِّعمِ طبْعٌ لهُ لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ إلَّا أنْ يريدَ اللهُ ذلِكَ.

وقولُهُ: «**قُلْ لِلحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ: طَعْنَةً**» معناهُ: قُلْ لهُ: (طعنَةً) إذا رأيتَهُ تنفَّسَ تَنَفُّسَ المكروبِ، فإنَّهُ في صورةِ مظلومٍ وهوَ الظَّالمُ، وهذَا البيتُ ممَّا لا حاجةَ إلَىٰ الاستشهادِ بهِ، فإنَّ الأمرَ بانٍ، يقالُ لهُ: طعنةٌ إنْ كانَ دعَا عليهِ فهوَ زيادةُ شرٍّ، وإنْ كانَ تَغْيِيرًا للمنكرِ فلمْ يغيِّرْ بمعروفٍ، ورحمةُ الحاسدِ أَوْلَىٰ منَ القولِ لهُ: طعنةً، فإنَّهُ يُهلكُ نفسَهُ.

---

(١) كذا في (أ، ب)، ولعل الأصح: بسببِ غيظٍ.

وأمَّا قولُهُ:

وإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ✿ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا[(١)] لِسَانَ حَسُودِ»

أيْ: أنَّ الحاسدَ لا يزالُ يذكرُ النِّعَمَ الَّتِي علَىٰ الخَلْقِ فيذيعُ مَا هُمْ فيهِ من النِّعمِ للنَّاسِ ؛ لأنَّ همَّتَهُ مُتَعَلِّقَةٌ بالبحثِ عنِ النِّعمِ لِيُتِمَّ لهُ الحَسَدُ فيه[(٢)] ؛ لأنَّ الحَسَدَ إنَّمَا يكونُ عَنِ النِّعمِ ، فمَنْ كانَتْ مِنَ النَّاسِ لهُ فضائلُ وخَيْرَاتٌ وهوَ [٢/١٢٥أ] يسترُهَا بحمْدِهِ ويخفِيهَا عنْ غيرِهِ ، فإذَا أرادَ اللهُ إظهارَهَا للنَّاسِ وَكَّلَ بهَا حَاسِدًا يبحثُ عن تَفَاصِيلِهَا ويذكرُهَا قَصْدًا لإزالتِهَا ، ويكونُ نشرُهُ لهَا تكريرَهُ لذكْرِهَا[(٣)] .

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أي: قدَّر لها.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٧.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«وَمِنَ الأَخْلَاقِ المَذْمُومَةِ لِلنَّفْسِ اعْتِيَادُ الغِيْبَةِ:

بَابُ الغِيبَةِ[٢]

الغِيْبَةُ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[٣] [الحجرات: ١٢]... الآية.

أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الإِسْمَاعِيلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَينِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ الخَلِيلِ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحَسَنِ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ بِنْتِ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ وَرْدَانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَامَ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: مَا أَعْجَزَ فُلَانًا، فَقَالَ[٤]: أَكَلْتُمْ أَخَاكُمْ[٥] وَاغْتَبْتُمُوهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فحَدُّ الغِيبَةِ: أنْ تذكَرَ أخاكَ لغيرِكَ في غَيبتِهِ بمَا يكرهُهُ لَوْ سمِعَهُ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ ذلِكَ.

فقولُنَا: «أخاكَ» احترازًا مِن ذِكْرِ الكافرِ وإنْ كانَ أذيَّةً إذا كانَ ذمِّيًا.

وقولُنَا: «لغيرِكَ» احترازًا مِنْ ذكْرِكَ لهُ معَ نفسِكَ فإنَّهُ ليسَ بغِيبَةٍ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩١.

(٢) هذا العنوان مطموس في (ب).

(٣) أي: فاغتياله في حياته كأكل لحمه بعد مماته.

(٤) أخرجه الطبراني في: المعجم الأوسط ١/١٤٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٣٢٧، وابن عدي في الكامل ٦/١٩٦.

(٥) أي: لحمه.

وقولُنَا: «إنَّمَا يكرهُهُ لو سمِعَهُ» احترازًا(١) مِنَ المُجاهِرِ بالفسْقِ، ومِنَ الظَّالمِ والمبتدعِ بأنَّهُ لا يكرَهُ ذلِكَ.

وقولُنَا: «مِنْ غيرِ ضرورةٍ» احترازٌ منَ التَّجريحِ والتَّحذيرِ ممَّنْ يؤذِي المُسلِمِينَ، ومِنَ النُّصحِ لمَنِ استشارَكَ فِي المعاملةِ أوْ فِي التَّزويجِ، وعلَىٰ هذَا حُمِلَ الحديثُ الصَّحيحُ(٢): «أَنَّ رَجُلًا اِسْتَأْذَنَ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ القَوْلَ وَانْبَسَطَ مَعَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْتَ فِي الرَّجُلِ مَا قُلْتَ، فَلَمَّا دَخَلَ أَلَنْتَ لَهُ القَوْلَ، قَالَ لَهَا: يَا عَائِشَةُ، مَتَىٰ عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟! إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ مَخَافَةَ شَرِّهِ»، ومخرَجُ هذَا القولِ مِنَ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا هوَ للتَّحذيرِ لتعريفِ أهلِ الشَّرِّ ليُتَّقَوْا ويُحْذَرُوا.

وزعَمَ بعضُ النَّاسِ أنَّ الغِيبةَ تختصُّ بمَا يُتْلِفُ علىٰ الإنسانِ مالَهُ فيلزمُ منهُ الغُرْمُ، فإذَا سعَىٰ الإنسانُ بأخيهِ بكلامِهِ فيمَا يُؤْذِيهِ فِي مالِهِ كانَ مُغْتابًا ولمْ يُلتفتْ للغُرْمِ(٣) ولا للاستنقاصِ فيهِ [٢/٢٥ب]، وهذَا باطلٌ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ يومَ فتْحِ مكَّةَ وهوَ علىٰ الكعبةِ(٤): «أيُّ بلدٍ هذَا؟، وأيُّ يومٍ هذَا؟، وأيُّ مسجدٍ هذَا؟ وهُمْ يقولُونَ: حرامٌ، حرامٌ، فقالَ: إنَّ اللهَ حرَّمَ عليكُمْ أنفسَكُمْ وأموالَكُمْ وأعراضَكُمْ كحُرْمَةِ يومِكُمْ هذَا في بلدِكُمْ هذَا في شهرِكُمْ هذَا».

وقَدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢]، فشبَّهَهُ بأكْلِ لحمِ الميتةِ فِي التَّحريمِ، ورُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا احتاجَا يومًا إلىٰ إدَامٍ يأتدِمَانِ بهِ، فأرسلَا رجلًا مِن أصحابِهِمَا إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبُ

---

(١) في (أ): «احترازًا مَعَ نفسِكَ فإنَّهُ ليسَ بغيبةٍ»، وهو تكرار لا فائدة منه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٤٤ ـ حديث رقم (٥٦٨٥).

(٣) في (أ): للعرض، والصواب المثبت.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٦١٩ ـ حديث رقم (١٦٥٢).

عندهُ إدامًا، فأبطأَ عليهِمَا، فقالَا في غَيبتِهِ: إنَّهُ نؤومٌ ـ أيْ: لهُ بطؤٌ في الحاجةِ ـ، فلمَّا وصلَ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكلَّمَهُ فيمَا أرسلاهُ فيهِ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(١): «ارجعْ إليهِمَا، وقُلْ لهُمَا: قدِ ائْتَدَمْتُمَا، فلمَّا قالَ لهُمَا ذلِكَ اجتمعَا بالنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فسأَلَاهُ عنْ ذلِكَ، فقالَ: قلتُمْ: إنَّهُ نَؤومٌ، وجعلَ هذَا أكلًا مِنْ لحْمِ أخيهِمَا وغِيبةً».

ومحلُّ هذَا أنَّ هذَا أوَّلُ مَا فسَّرَ النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الغِيبةَ؛ لأَنَّهَا في القرآنِ مُجْمَلَةٌ بقولِ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، وهذَا تمثيلٌ، فعرَّفَهُمَا النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ هذَا القولَ داخلٌ في الغِيبَةِ وإلا فَيُحاشيانِ أنْ يعرِفَا أنَّ ذلكَ غِيبةٌ ويندمَانِ عليهِ.

ومِنْ ذلِكَ أنَّ امرأةً دخلَتْ عندَ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حاجةٍ وكانَتْ قصيرَةَ القامَةِ، فلمَّا خرجَتْ أشارَتْ عائشةُ بيدِهَا أنَّهَا قصيرةٌ، فقالَ لهَا النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٢): «اِغْتَبْتِيهَا»، والأحاديثُ في ذلِكَ كثيرةٌ.

هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الغِيبةَ لا تختصُّ باللِّسانِ، بَلْ تكونُ بالإشارةِ باليدِ والعينِ والكِنايةِ، وكلِّ وجهٍ يكونُ بهِ التَّعريفُ، وهلِ الغِيبةُ منَ الحقوقِ الَّتي تكفِي فيهَا التَّوبةُ خاصَّةً؛ لأنَّهَا حقُّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أوْ لا بُدَّ منَ استحلالٍ؟

نُقِلَ عنْ قومٍ هذَا، فقالُوا: يكفِي الاستغفارُ للهِ ـ تعالىٰ ـ والدُّعاءُ لهذَا المُغْتَابِ، والصَّحيحُ أنَّ هذَا لا يكفِي، فإنَّهُ آذاهُ باستنقاصِهِ لهُ وتعريفِ النَّاسِ ما هوَ عليهِ منَ النَّقصِ، فقدْ عرَفَ النَّاسُ نقصَهُ وآذاهُ بذلِكَ، فلابدَّ منَ استحلالِهِ فِي

(١) رواه الغزالي في الإحياء ١٤٦/٣، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٨٢١/٢.

(٢) أخرجه ابن وهب في جامعه ٦٥٠/٢، وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان ص١٣٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٣١٣/٥.

هذا الحقِّ إنْ وجدَهُ[١]، ولا ينفعُ فيهِ استحلالُ ورثَتِهِ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ تكونَ غِيبتُهُ بنقصٍ يؤدِّي إلىٰ نقصٍ في ورثَتِهِ ونسبِهِ فيتعلَّقُ [٢/١٢٦أ] بهِ ولغيرِهِ من آبائِهِ وأولادِهِ، فيستحلُّ مَنْ وجدَهُ منهُمْ، ومَنْ لمْ يقدرْ عليهِ ليستحلَّهُ أوْ لمْ يحالِلْهُ بعدَ وجودِهِ كثَّرَ الحسناتِ والدُّعاءَ لهُ[٢] والاستغفارَ للهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّ المقاصَّةَ في الآخرةِ إنَّمَا تكونُ بالحسنَاتِ، وقدْ جاءَ الخبرُ الصَّحيحُ خرَّجَهُ (البخاريُّ)[٣]: أنَّ النَّاسَ إذَا نجَوا مِنَ الصِّراطِ حُبِسُوا علَىٰ قنطرَةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ يُقْتَصُّ لبعضِهِمْ مِنْ بعضٍ مظالمُ كانَتْ بينَهُمْ فِي الدُّنيَا، حتَّىٰ إذَا هُذِّبُوا[٤] وَنُقُّوا أُذِنَ لهُمْ في دخولِ الجنَّةِ، فَلَأَحَدُهُمْ أَعْرَفُ بمنزلِهِ في الجنَّةِ [مِنْهُ][٥] بمنزلِهِ كانَ فِي الدُّنيَا».

هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ التَّوبةَ للهِ ـ تعالىٰ ـ والنَّدَمَ ممَّا سلَفَ ـ وإنْ غفرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ حقَّهُ ـ لا تُسْقِطُ حقوقَ المخلوقِينَ، فإنَّ النَّاسَ[٦] لا يتخلَّصُونَ مِنَ الصِّراطِ والنَّارِ إلَّا وقَدْ خلصُوا مِنْ حُقُوقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[٧]، وسلِمُوا مِنْ عَذَابِهِ، وصارُوا مِنْ أهلِ الجنَّةِ، وإنَّمَا المقاصَّةُ لزيادَةِ الدَّرجاتِ ونقْصِهَا، وهذَا يدلُّ علىٰ شيءٍ آخرَ غيرِ الحسناتِ وقتَ الميزانِ وقبلَ الصِّراطِ، وذلِكَ أنَّهُ وردَ أنَّ العبدَ يُوقَفُ وَيُقْتَصُّ لبعضِ النَّاسِ مِنْ بعضٍ، فإنْ بقيَتْ لهُ حسناتٌ وإلَّا أُخِذَتْ مِن سيِّئاتِهِمْ وطُرِحَتْ عليهِ وأُلْقِيَ في النَّارِ، وهذَا لا يناقضُ ما تقدَّمَ، فإنَّ هذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ حالُ مَنْ لمْ يَتُبْ ومَنْ لمْ يغفرِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ ذُنُوبَهُ، وأرادَ أنْ يأخذَهُ بذنبِهِ ويحكمَ عليهِ بِعَدْلِهِ،

(١) في (ب): وجدهن، والأصح المثبت.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) صحيحه ٥/٢٣٩٤ ـ حديث رقم (٦١٧٠).
(٤) في (ب): ذهبوا، وهو تحريف.
(٥) تتمة من البخاري.
(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٧) سقط من (ب) قوله: الله تعالىٰ.

فيستحقَّ العَذابَ ويخرجَ بالشَّفاعةِ ـ والعياذُ باللهِ ـ من النَّارِ.

وعلى الجُمْلَةِ فالغِيبةُ عظيمةٌ، وإثمُهَا شَدِيدٌ، والتَّحذيرُ منهَا على لِسَانِ النَّبيِّ ﷺ كثيرٌ، فلَوْ تتبَّعْنَا مَا نُقل فيهَا لأكْثَرْنَا، وفيمَا ذكَرْنَاهُ كِفايةٌ، وهيَ غالبةٌ على الإنسانِ، ولا سيَّمَا مِنْ قبلِ تثبُّتِهِ عندَ إطلاقِ اللِّسانِ، قدْ يزيدُ وينقصُ فِي كان وكان؛ ولذلِكَ مَنْ كثُرَ كلامُهُ كثُرَ سقطُهُ، ومَنْ كثُرَ سقطُهُ كانَتِ النَّارُ أَوْلَى بهِ(١).

فليشتدَّ حذرُ العَبْدِ منَ الغِيْبَةِ، وليحتفِظْ منهَا جُهْدَهُ، وكذلِكَ النَّميمةُ والسَّبُّ والكَذِبُ وغيرُ ذلِكَ مِنْ آفاتِ اللِّسَانِ، فإنَّهُ الغالبُ على الإنسانِ، وقَدْ رُوِيَ عنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ دخلَ ذاتَ يومٍ على أبِي بكرٍ الصِّديقِ وهوَ يَجْبِذُ لسانَهُ، فقالَ لهُ: «مَهْ! غفرَ اللهُ لكَ، فقالَ أبو بكرٍ: هذَا الَّذِي أوردَنِي المواردَ»(٢).

وَرَوَى ابنُ عبَّاسٍ: أخذَ بثَمَرةِ لِسَانِهِ وهوَ يقولُ لنفسِهِ: «قُلْ خيرًا تَنْعَمْ، واسكُتْ عنْ شرٍّ [٢/٢٦ب] تَسْلَمْ»(٣)، فإذا كانَ ساداتُ الأمَّةِ حذِرِينَ مِنْ آفاتِ اللِّسانِ، معَ كمالِ الدِّينِ والعِرْفَانِ، فكيفَ بأهلِ الغَفْلَةِ وضعْفِ الإيمانِ؟!.

❁ **قالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): **«وَأَوْحَى اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَى مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ(٥): **مَنْ مَاتَ تائِبًا مِنَ الغِيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيهَا فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ»**.

---

(١) اقتبسه المؤلف من الحديث الذي أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/٣٣٤، ولفظه: «... ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت خطاياه، ومن كثرت خطاياه كانت النار أولى به».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩١.

(٥) ورد في: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي ص١٦٥، وإحياء علوم الدين ٣/١٤٢، وإتحاف السادة المتقين ٩/٢٨٩.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا[1] الخبرُ إنْ صحَّ يدلُّ على شدَّةِ أمْرِ الغِيبةِ، وأنَّ مَنْ دخلَ النَّارَ[2] بسببِهَا يطُولُ مُكْثُهُ فيهَا، ومَنْ تَابَ منهَا يتأخَّرُ دخولُهُ الجنَّةَ لأجْلِ مَا تقدَّمَ لهُ مِنْهَا، والمقاصَّةُ بمَا عليهِ منَ الحقوقِ لمَنِ اغتابَهُ، كمَا قدَّمْنَاهُ فِي الخبرِ الصَّحيحِ[3]: «أنَّ النَّاسَ يُحْبَسُونَ على قَنْطَرةٍ بَيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، وَيُقْتَصُّ مِنْ بعضِهِم لبعضٍ مظالِمُ كانَتْ بينَهُمْ فِي الدُّنيَا، فإذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا أذِنَ لهُمْ في دخولِ الجنَّةِ، فيكونُ مَنِ اغتابَ النَّاسَ تكثُرُ عليهِ المطالباتُ، وتؤخَذُ حَسَنَاتُهُ ويتأخَّرُ دُخُولُهُ الجنَّةَ بَعْدَ غَيْرِهِ».

❂ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: **«وَقَالَ عَوْفٌ[5]: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ سِيرِينَ، فَتَنَاوَلْتُ الحَجَّاجَ[6]، فَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: إِنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ حَكَمٌ عَدْلٌ، فَكَمَا يَأْخُذُ مِنَ الحَجَّاجِ يَأْخُذُ لِلْحَجَّاجِ، وَإِنَّكَ إِذَا لَقِيتَ اللهَ غَدًا كَانَ أَصْغَرُ ذَنْبٍ أَصَبْتَهُ[7] أَشَدَّ عَلَيْكَ مِنْ أَعْظَمِ ذَنْبٍ أَصَابَهُ الحَجَّاجُ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ وإنْ تجاهَرَ ببعضِ المَعَاصِي والمَظَالِمِ، فلَا يحلُّ أنْ يغتابَ بشيءٍ ممَّا يتستَّرُ بهِ، فلعلَّ هذَا المتكلِّمَ في الحجَّاجِ تكلَّمَ فيهِ بِشَيءٍ هوَ غِيبةٌ، فأنكرَ عليهِ ابْنُ سِيرِينَ وعرَّفَهُ أنَّ يومَ القيامةِ كمَا يأخذُ اللهُ ـ سبحانه ـ الحقَّ[8] مِنَ الحجَّاجِ لمَنْ ظلمَهُ كذلِكَ يأخذُ للحجَّاجِ ممَّنِ

---

(١) في (أ): وهذان، والصواب المثبت.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩١.
(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/١٩١، وابن أبي الدنيا في: التوبة ص٦٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٢٨٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/١٦١.
(٦) أي: اغتبته.
(٧) سقط من (ب) قوله: «أصغر ذنب أصبته».
(٨) سقط هذا اللفظ من (ب).

اغتابَهُ، وعرَّفَهُ أنَّ شغْلَ الإنسانِ بنفسِهِ واعتناءَهُ[١] بخلاصِهِ مِنْ جُرْمِهِ أَوْلَىٰ بهِ مِنْ ذِكْرِهِ لذنوبِ غيرِهِ وإنْ عظُمَتْ، فإنَّهُ إنَّمَا يُطالَبُ بجُرْمِهِ وإنْ قلَّ لا بجُرْمِ غيرِهِ وإنْ كثُرَ[٢]، وفيهِ تحريضٌ علَىٰ الاشتغالِ بالنَّفْسِ والكفِّ عمَّا لا يَعْنِي منَ الكَلامِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ: دُعِيَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ إِلَىٰ دَعْوَةٍ فَحَضَرَ، فَذَكَرُوا رَجُلًا لَمْ يَأْتِهِمْ وَقَالُوا: إِنَّهُ ثَقِيلٌ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّمَا فَعَلَ بِي هَذَا نَفْسِي؛ حَيْثُ حَضَرْتُ مَوْضِعًا يُغْتَابُ فِيهِ النَّاسُ، فَخَرَجَ وَلَمْ يَأْكُلْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ حضرَ الغِيبةَ ورضِيَ بهَا كانَ شرِيكًا فيهَا، ووجَبَ عليهِ الإنكارُ علىٰ حسبِ [٢/١٢٧أ] استطاعتِهِ؛ إمَّا بلسانِهِ أو بقيامِهِ، ولَا بُدَّ أنْ يُظْهِرَ لهُمْ كَرَاهَتَهُ لِمَا قالُوهُ.

وقولُهُ: «هَذَا الَّذِي فَعَلْتُ فِي نَفْسِي»، أيْ: في الموافقةِ في الطَّعامِ، وقدْ تكونُ موافقتُهُ فِي الطَّعامِ طاعةً إلَّا أنَّهُ فرَّطَ فِي التَّثبُّتِ معَ مَنْ يحضرُ معَهُ ممَّنْ لا يتحرَّزُ منَ الغِيبةِ.

وقدْ يكونُ ذمُّهُ لنفسِهِ لشهوةِ الطَّعامِ، وقدْ يكونُ لقلَّةِ تثبُّتِهِ فيمَنْ حضرَ معَهُ للطَّعامِ، ثمَّ أدَّبَ نفسَهُ بالجوعِ ثلاثةَ أيَّامٍ مقابلةً للشَّيءِ بضدِّهِ، وهذَا بظاهرِهِ يدلُّ علىٰ أنَّ الحاملَ لهُ أكلُ الطَّعامِ، وهكذَا ينبغِي أنْ يؤدِّبَ الإنسانُ نفسَهُ إذَا زلَّتْ وفرَّطَتْ في تثبُّتِهَا قبلَ الفِعْلِ، واللهُ المستعانُ.

هذَا معَ أنَّهُ لمْ يرْضَ الغِيبةَ ولمْ يشارِكْ فيهَا وأنكرَهَا علىٰ حسبِ قُدْرَتِهِ وقامَ ولَمْ يَأكُلْ، وإنَّمَا ألمُهُ كلُّهُ لِخَلْطِهِ مَنْ لا تصلحُ خلطتُه[٤]، ولَمْ ينكَفَّ لسانُهُ

---

(١) في (أ): واعتناؤه، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٩١.

(٤) في (ب): لخلطته.

عن غِيبةِ المُسْلِمين[١].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ: مَثَلُ الَّذِي يَغْتَابُ النَّاسَ كَمَثَلِ مَنْ نَصَبَ مَنْجَنِيقًا، يَرْمِي حَسَنَاتِهِ شَرْقًا وَغَرْبًا، يَغْتَابُ وَاحِدًا خُرَسَانِيًّا، وَآخَرَ حِجَازِيًّا، وَآخَرَ تُرْكِيًّا، فَيُفَرِّقُ حَسَنَاتِهِ، وَيَقُومُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَى ما تقدَّمَ في الحديثِ الصَّحيحِ؛ مِنْ أنَّ النَّاسَ يُقْتَصُّ لبعضِهِمْ منْ بعضٍ مظالِمُ كانَتْ بينَهُمْ فِي الدُّنيَا بالحسناتِ والسَّيِّئَاتِ، فمَنْ عليهِ حقٌّ أُخِذَ مِن حسناتِهِ، فإنْ فنِيَتْ حسناتُهُ وُضِعَ عليهِ مِن سيِّئَاتِهِم، فالَّذِي لَا يُمْسِكُ لسانَهُ عنِ اغتيابِ النَّاسِ مِنْ أهْلِ كلِّ قُطْرٍ ومِنْ كلِّ جهةٍ يفرِّقُ حسناتِهِ يَمِينًا وشمالًا.

ومِنْ أكبرِ المصيبةِ أنَّ العبدَ إنَّمَا يُؤخَذُ مِنْ حسناتِهِ ما صحَّتْ وسلِمَتْ مِنَ الآفاتِ الَّتِي تعبَ فيهَا ليلَهُ ونهارَهُ حتَّى سلِمَتْ لهُ خالصةً للهِ - تعالى - فهيَ الَّتِي ينقلُ أجرهَا لديوانِ غيرِهِ، وأصعبُ مِنْ ذلِكَ أنْ يكونَ الإنسانُ دهرَهُ يتَّقِي الزِّنَا وشُرْبَ الخمرِ وقتْلَ النَّفْسِ وغيرَهُ مِنَ الآثامِ فيجدَ في صحيفتِهِ بعضَ ذلِكَ ولمْ يكنْ عمِلَهُ فيقولَ: مِنْ أينَ هذَا؟ فيُقالُ: مِن مظالمِ النَّاسِ لمَّا فنِيَتْ حسناتُكَ حُمِلَ عليكَ مِنْ سيِّئَاتِهِمْ[٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: يُؤْتَى العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابَهُ فَلَا يَرَى

---

(١) في (ب): المسلم.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩١.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٩.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب). وورد في: المناهي وعقوبات المعاصي ص٦٣، والترغيب والترهيب ٣/٣٣٢، والزواجر ٢/٥٤٩.

فِيهِ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: أَيْنَ صَلَاتِي وَصِيَامِي وَطَاعَتِي؟! فَيُقَالُ: ذَهَبَ عَمَلُكَ كُلُّهُ بِاغْتِيَابِكَ النَّاسَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا الَّذِي [٢/٢٧ب] فرغْنا مِنْ شرْحِهِ الآنَ وبيَّنَّاهُ بالمقاصَّةِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمَنِ اغْتِيبَ بِغِيبَةٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ نِصْفَ ذُنُوبِهِ»[٢].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَوَجْهُ هذا القولِ إنْ صحَّ أنَّ العبدَ إذَا كانَ يتعاطَىٰ معصيةً كانَ عليهِ إثمُهَا كامِلًا، فإنِ اغْتِيبَ بهَا نقصَ إثمُهَا لمَا حصلَ لهُ منَ الأجْرِ باغتيابِ مَنِ اغتابَهُ، فيكونُ إثمُهُ كامِلًا إنْ لَمْ يغتَبْ، وإثمُهُ ناقصًا إنِ اغْتِيبَ بهِ، وتحديدُ ذلِكَ بالنِّصْفِ إنْ صَحَّ شَرْعًا اتُّبِعَ، فإنَّ مقاديرَ الأجرامِ والآثامِ راجعٌ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي التَّساوِي والتَّضعِيفِ[٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ الحُسَيْنِ[٥]: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَنِلْتُ مِنْ إِنْسَانٍ، فَقَالَ: هَلْ غَزَوْتَ فِي هَذَا العَامِ الرُّومَ وَالتُّرْكَ[٦]؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: سَلِمَ مِنْكَ التُّرْكُ وَالرُّومُ، وَمَا سَلِمَ مِنْكَ أَخُوكَ المُسْلِمُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذَا تأديبٌ وحُسْنُ إرشادٍ إلىٰ تغييرِ المنكرِ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٢) ورد قوله في: الصمت وآداب اللسان ص٣٠٩، وربيع الأبرار ٢/٣٣٦، ونهاية المرام في دراية الكلام ص٢٦٥، وتنبيه المغترين ص١٦٤.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٩.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٥) ورد قوله في: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي ص١٦٥.

(٦) فيه إشارة إلىٰ أن المؤمَّل في الأخ المسلم نفعُ أخيه وضر عدوه، فالمغتاب بجهله قلب حقيقة الحال. انظر: نتائج الأفكار ٣/٦٦.

الغِيبةِ على الفورِ، فإنَّهُ لو قيلَ لهُ: إنَّكَ مُغْتَابٌ، ربَّمَا نفرَتْ نفسُهُ إنْ كانَ ممَّنْ لا يَحْتملُ[(١)] ذلِكَ[(٢)]، فلمَّا: «قالَ لهُ: أغزوتَ العامَ الرُّومَ والتُّرْكَ؟! فقالَ لهُ: لَا، فقالَ لهُ: سَلِمَ منكَ[(٣)] الرُّومُ والتُّرْكُ، ومَا سَلِمَ مِنْكَ أَخُوكَ المُسْلِمُ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٤)]: «وَقِيلَ[(٥)]: يُعْطَى الرَّجُلُ كِتَابَهُ فَيَرَى فِيهِ حَسَنَاتٍ لَمْ يَعْمَلْهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا بِمَا اغْتَابَكَ النَّاسُ وَأَنْتَ لَمْ تَشْعُرْ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يدلُّ على أنَّ الغِيبةَ ذِكْرُكَ أخاكَ لغيرِكَ فِي غَيبتِهِ بمَا يكرهُهُ، ولَوْ كانَ بينَ يدَيهِ كانَ أذيَّةً محرَّمَةً أيضًا، وفيهِ دلالةٌ على أنَّ حسناتِ المُغْتَابِ تَنْتَقِلُ إلى صَحِيفَةِ مَنِ اغْتِيبَ[(٦)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٧)]: «وَسُئِلَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ[(٨)]: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ أَهْلَ البَيْتِ اللَّحْمِيِّينَ، فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ، يَأْكُلُونَ لُحُومَهُمْ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا يدلُّ على وجهَينِ:

أحدُهُمَا: كثرةُ أكْلِ اللَّحمِ والشَّهواتِ، كمَا كانَ عمرُ بنُ الخطَّابِ[(٩)] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

---

(١) في (ب): يحمل.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٩.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٥) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ص٩٩، والسمرقندي في تنبيه الغافلين ص١٦٤، والديلمي في الفردوس ١/١٩٧، والعراقي في المغني ٢/١١٧٤.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٠٩.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٨) ورد قوله في: الصمت وآداب اللسان ص٣٠٩، وحلية الأولياء ٧/٧٥، وشعب الإيمان ٥/٣٣.

(٩) انظر: إحياء علوم الدين ٣/٩٨.

يَنهَىٰ عنْ إدامةِ أكْلِ اللَّحمِ والشَّهواتِ؛ خوفًا مِنْ تعوُّدِ الشَّهواتِ والإسرافِ فِي النَّفقاتِ.

وأيضًا فإنَّ أهلَ الدِّينِ والعِلْمِ قلَّمَا يَكُونُونَ(١) كثيرِي اللَّحمِ والسِّمَنِ، فإنَّ السِّمَنَ فِي الغالبِ إنَّمَا يكونُ عنْ كثرةِ الأكْلِ، وكثرةُ الأكلِ تكونُ عنِ الغفلةِ والتَّمتُّعِ بالشَّهواتِ(٢)، وقَدْ جاءَ ذمُّ الحَبْرِ السَّمينِ(٣).

والثَّانِي: ما ذكرَهُ سفيانُ وهمُ الَّذينَ يأكلُونَ لحومَ النَّاسِ فيغتابونَهُمْ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤) [٢/٢٨أ]: «**وَذُكِرَتِ الغِيبَةُ عِنْدَ ابْنِ المُبَارَكِ فَقَالَ(٥): لَوْ كُنْتُ مُغْتَابًا أَحَدًا لَاغْتَبْتُ وَالِدَيَّ؛ لِأَنَّهُمَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا راجعٌ إلىٰ ما ذكرْنَاهُ مِنْ أنَّ المُغْتَابَ تَنتَقِلُ حَسناتُهُ إلىٰ ديوانِ مَنِ اغتابَهُ، وإذَا كانَ كذلِكَ فهوَ ينفعُ مَنِ اغتابَهُ، وأحقُّ النَّاسِ بِمَنفَعَتِهِ وحَسَنَاتِهِ أبوَاهُ، وفِي هذَا زجرٌ عنِ الغِيبةِ وتنبيهٌ لهُمْ أنَّهَا تضرُّ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٦): «**وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ(٧): لِيَكُنْ حَظُّ المُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ: إِنْ لَمْ تَنْفَعْهُ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تَسُرَّهُ فَلَا تَغُمَّهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ فَلَا تَذُمَّهُ**».

---

(١) في (أ، ب): يكونوا، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٠، وعقب عليه بقوله: «وهذا المعنى ليس مرادا هنا».

(٣) كما في: شعب الإيمان ٥/٣٣، والمقاصد الحسنة ص٢٣٨، والفتح السماوي ٢/٦١١.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٥) ورد قوله في: الأذكار للنووي ص٢٧٠، والمستطرف ١/١٩٠، وفيض القدير ٣/١٢٩.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٧) ورد قوله في: الزهد والرقائق للخطيب البغدادي ص١١٤، وتنبيه الغافلين ص١٦٥، وصفة الصفوة ٤/٩١، ووفيات الأعيان ٦/١٦٧، وجامع العلوم والحكم ص٣٣٦.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بظاهرِهِ يَدُلُّ على أنَّ المَدْحَ للمؤمنِ محمودٌ علَى التَّعميمِ، وإنْ[١] قابلَهُ بالذَّمِّ، وقدْ يكونُ خاصًّا لبعضِ المؤمنينَ الَّذِي إذَا مُدِحَ رَبَا الإيمانُ في قلبِهِ؛ فإنْ قدرَ الإنسانُ على أنْ ينفعَ المؤمنَ ويمدحَهُ ويسُرَّهُ فهوَ نافعٌ لهُ، وإنْ عجزَ عن ذلكَ فلَا يذمُّهُ ولا يضرُّهُ ولا يغمُّهُ، فإنَّ ممَّا أوصَى بهِ أنْ يتنزَّلَ الإنسانُ منَ الخَلْقِ منزلةَ الملائكةِ الَّذِينَ ينفعونَ الخلْقَ امتثالًا لأمْرِ اللهِ ـ تعالى ـ[٢]، ولا يكُنْ مثلَ الشَّيطانِ والحيَّاتِ والعقاربِ الَّذينَ يضرُّونَ النَّاسَ ولا ينفعونَهُمْ، وأقلُّ ذلكَ فائدةً وأخفُّهُ أنْ يتنزَّلَ منهُمْ منزلةَ الجَمَاداتِ، لا يضرُّهُمْ ولا ينفعُهُمْ.

ومقصودُ مَا نحنُ فيهِ: نَفْيُ الأذيَّةِ بالغِيبةِ، وهوَ داخلٌ تحتَ الذَّمِّ والمضرَّةِ والغمِّ.

۞ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقِيلَ لِلْحَسَنِ البَصْرِيِّ: إِنَّ فُلَانًا يَغْتَابُكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ طَبَقَ حَلْوَى وَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ، فَكَافَأْتُكَ»**.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ حُسْنِ التَّأديبِ والإرشادِ إلى تَرْكِ الغِيْبَةِ والكَفِّ عنهَا، فإنَّهُ نبَّهَهُ بهذَا الفِعْلِ على أنَّهُ أهدَى إليهِ أحسنَ ما عندَهُ ممَّا ينتفعُ بهِ في الآخرةِ، فكافأَهُ عن فِعْلِهِ من طيِّباتِ الدُّنيَا وهِيَ الحَلْوَى.

وبعضُهُمْ[٤] فعلَ أتمَّ مِن ذلِكَ، بَلَغَهُ أنَّ فلانًا اغتابَهُ فقالَ: «واللهِ لأغيظَنَّ مَنْ

---

(١) في (أ، ب): فإن، والأصح المثبت.

(٢) لأن «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس»، كما في المعجم الأوسط ١٣٩/٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٩٢/١.

(٤) هو الربيع بن زياد الحارثي، كما في: شرح نهج البلاغة ٩٣/٥، أو الفضيل بن غزوان كما في: الطبقات الكبرى ٢١٧/٦، وطبقات المحدثين بأصبهان ١٣/٢، وصفة الصفوة ٧٣/٣، وإحياء علوم الدين ٣١٤/٣.

أمرَهُ بذلِكَ، فقيلَ: ومَنْ أمرَهُ بذلِكَ، فقالَ: الشَّيطانُ، ثمَّ قالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لهُ»، فلمْ يرضَ بأنْ يُكَافِئَهُ بالعَفْوِ عنهُ خاصَّةً حتَّىٰ سَأَلَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنْ يغفرَ لهُ حقَّهُ؛ لأنَّ الغِيبةَ فيهَا حقَّانِ: حقٌّ للهِ ـ تعالىٰ ـ بارتكابِ النَّهْيِ، وحقٌّ للعبدِ بالأذيَّةِ، فجازَاهُ علىٰ قولِهِ بالعفْوِ، وأغاظَ الشَّيطانَ بأنْ سألَ اللهَ المغفرةَ للتَّخلُّصِ مِنْ كلِّ ضررٍ [٢/٢٨ب] تعلَّقَ بهِ، ويغيظُ عدوَّهُ الَّذي أمرَهُ بذلِكَ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو القَطْوَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ عُثْمَانَ العَسْكَرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ بَدْرٍ، عَنْ أَبَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣)**: مَنْ أَلْقَىٰ جِلْبَابَ الحَيَاءِ**(٤) **فَلَا غِيبَةَ لَهُ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا يكونُ فيمَا يجاهرُ بهِ خاصَّةً، ومتَىٰ كانَتْ فيهِ عيوبٌ يُخْفِيهَا ويسترُهَا وإنْ كانَ متجاهِرًا بغيرِهَا فغِيبتُهُ فيمَا تستَّرَ بهِ حرامٌ، ولهُ في ذلِكَ علىٰ المغتابِ حقٌّ، ولذلِكَ اختلفَتِ الرِّوَايتَانِ كمَا ذكرَهُ: «**لا غِيْبَةَ لهُ**»، أيْ: لا حقَّ لهُ في الغِيبةِ فيمَا تجاهَرَ بهِ، و«**لا غِيْبَةَ فيهِ**»، أيْ: لا إثْمَ علَىٰ مَنِ اغتابَهُ، فإنَّهُ لمْ يكشفْ لهُ سِترًا، بَلْ هوَ كشفَ سِتْرَ نفسِهِ وأظهرَ زَلَّاتِهِ، وأنَّهُ أيضًا لا يتألَّمُ بمَا يقالُ فيهِ، فإنَّهُ الَّذي استحسَنَهُ وأَظْهَرَهُ، وذلِكَ كالمُبتدِعِ الَّذِي يُظْهِرُ بِدْعَتَهُ(٥) ويدعُو النَّاسَ إليهَا ويجادلُ عنهَا، أوْ كالمُخنَّثِ الَّذِي يُظْهِرُ زِيَّ الفِسْقِ، وغيرِهُ مِنَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٠.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرىٰ ١٠/٢١٠، وأردفه بقوله: «وهذا أيضا ليس بالقوي»، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/١٧١، وابن حبان في المجروحين ٣/١٥٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣/٢٠٤، والديلمي في الفردوس ٣/٦١٦.

(٤) فلا يبالي بفعل الذنوب جهلا منه وحمقًا.

(٥) في (ب): بدعة.

الظَّلَمَةِ الَّذِينَ يأكلُونَ أموالَ النَّاسِ بالباطلِ جهْرًا ومَا يجرِي مجرَاهُ، فإنَّ هؤلاءِ لَا غِيْبَةَ فيهِمْ[١] فيمَا أظهرُوهُ خاصَّةً.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ السُّهمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا طَاهِرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أُسَيْدٍ الرّقِّيَّ[٣]؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيرٍ يَقُولُ: قَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: كُنْتُ جَالِسًا[٥] فِي مَسْجِدِ (الشُّونِيْزِيَّةِ) أَنْتَظِرُ جَنَازَةً أُصلِّي عَلَيْهَا، وَأَهْلُ بَغْدَادَ عَلَىٰ طَبَقَاتِهِمْ[٦] جُلُوسٌ يَنْتَظِرُونَ الجَنَازَةَ، فَرَأَيْتُ فَقِيْرًا عَلَيْهِ أَثَرُ النُّسُكِ[٧] يَسْأَلُ النَّاسَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ عَمِلَ هَذَا عَمَلًا يَصُونُ بِهِ نَفْسَهُ كَانَ أَجْمَلَ بِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفْتُ إِلَىٰ مَنْزِلِي وَكَانَ لِي شَيْءٌ مِنَ الوِرْدِ بِاللَّيْلِ حَتَّىٰ البُكَاءِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَثَقُلَ عَلَيَّ جَمِيعُ أَوْرَادِي، فَسَهِرْتُ وَأَنَا قَاعِدٌ، فَغَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَرَأَيْتُ ذَلِكَ الفَقِيرَ جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ خِوَانٍ مَمْدُودٍ وَقَالُوا لِي: كُلْ لَحْمَهُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ!، وَكُشِفَ لِي عَنِ الحَالِ فَقُلْتُ: مَا اغْتَبْتُهُ، وَإِنَّمَا قُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْئًا، فَقِيلَ: مَا أَنْتَ مِمَّنْ يُرْضَىٰ مِنْكَ بِمِثْلِهِ، اِذْهَبْ فَاسْتَحِلَّهُ.

فَأَصْبَحْتُ وَلَمْ أَزَلْ أَتَرَدَّدُ حَتَّىٰ رَأَيْتُهُ فِي مَوْضِعٍ يَلْتَقِطُ مِنَ المَاءِ عِنْدَ تَرَادِّ[٨] المَاءِ أَوْرَاقًا مِنَ البَقْلِ مِمَّا تَسَاقَطَ مِنْ غَسْلِ البَقْلِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ [٢/٢٩أ] فَقَالَ: يَا أَبَا

---

(١) في (ب): لهم.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) روي عنه في: روض الرياحين ص١٥٥، وغيث المواهب العلية ص٩٦، والإمام الجنيد سيد الطائفتين ص٩٥. وعن إبراهيم الآجري في: تاريخ بغداد ٦/٢١١.
(٥) في نتائج الأفكار ٣/٦٨: «فيه تنبيه علىٰ مؤاخذة الكمل بخواطر قلوبهم؛ تطهيرا لهم، ليدوموا علىٰ بساط الأنس وموائد الجمال».
(٦) أي: مراتبهم.
(٧) أي: العبادة.
(٨) في (ب): يزداد، وكل صواب؛ لأنهما بمعنىٰ واحد.

الْقَاسِمِ، تَعُودُ؟ فَقُلْتُ: لَا أَعُودُ، فَقَالَ: غَفَرَ اللهُ لَنَا وَلَكَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ فيهَا منَ الفَوائِدِ ما نُنَبِّهُ عليهِ إنْ شاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ؛ وذلِكَ أنَّ هذَا الفقيرَ الَّذِي رآهُ يطلبُ شيئًا ووقعَ في نفسِهِ لوِ اكتسبَ لكانَ خيرًا لهُ، فمِنْ أينَ يعلمُ أنَّ لهُ قدرةً علَىٰ الكَسْبِ؟؛ إمَّا لكونِهِ ليسَ بيدِهِ صنعةٌ، أو لضعْفِهِ عنِ الخدمةِ، أوْ لاحتياجِهِ إلىٰ مخالطةِ مَنْ لا يرضَىٰ مخالطَتَهُ، فهذِهِ بعضُ الأسبابِ الَّتِي تمنعُ منَ الكَسْبِ.

وحقيقةُ الغِيبةِ: أنْ تذكرَ أخاكَ بمَا يتأذَّىٰ بهِ، فإنْ كانَ هذا ممَّا اختصَّ بقلبِ الجُنيدِ فهوَ سوءُ ظنٍّ ولا يكونُ غِيْبةً، ولذلِكَ قالَ لمَّا أُوتِيَ بهِ علىٰ الخِوانِ: «**مَا اغتبْتُهُ**»؛ لأنَّ حقيقةَ الغيبةِ لمْ تُوجَدْ؛ لأنَّهُ لمْ يذكرْهُ لغيرِهِ ولا يمكنْ بلوغُهُ للآخرِ حتَّىٰ يتأذَّىٰ.

وإنْ كانَ ذلكَ الفقيرُ منَ المُكَاشِفِينَ بمَا وقعَ فِي نَفْسِ الجُنيدِ، فقدْ تأذَّىٰ بهِ في كَونِهِ نسبَهُ إِلَىٰ التَّفريطِ فيمَا هوَ مُتَمَكِّنٌ منهُ وسَألَ معَ الاستغناءِ عنهُ، فهذَا قدْ حصلَ فيهِ بعضُ أركانِ الغِيبةِ وهوَ أُسُّهَا؛ وهوَ حصولُ ما يكرهُهُ إذَا علِمَهُ وقدْ علِمَهُ وكرهَهُ، ولذلِكَ لمَّا أتَىٰ ووجدَهُ يلتقطُ ورَقَ البقْلِ في موضعٍ يضربُ الماءُ جَرفًا، ثمَّ يرجعُ فيقفُ هنالِكَ الورقُ ليأكلَهُ فرفعَ رأسَهُ وقالَ: «**يا أَبا القاسمِ، تعُودُ؟**»، وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّهُ كُوشِفَ بمَا وقعَ فِي نفسِ الجُنيدِ وتأذَّىٰ بهِ، فلمَّا قالَ لهُ: «**لا أعودُ**»، استغفرَ لهُ ولهُ.

وما جرَىٰ للجُنيدِ منَ القَلَقِ وعَدَمِ النَّشاطِ لوِرْدِهِ والإتيانِ بصورةِ الفقيرِ علىٰ خِوانٍ، وقيلَ لهُ: «**كُلْ لحمَهُ؛ لأنَّكَ اغتبْتَهُ**»، كُلُّ ذلِكَ إكرامًا للجُنَيدِ ليتخلَّصَ مِنْ هذَا فِي دُنيَاهُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا طَاهِرٍ الإِسْفَرَايِنِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ البَلْخِيَّ يَقُولُ: كَانَ عِنْدَنَا شَابٌّ مِنْ أَهْلِ بَلْخٍ وَكَانَ يَجْتَهِدُ وَيَتَعَبَّدُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَبَدًا يَغْتَابُ النَّاسَ وَيَقُولُ: فُلَانٌ كَذَا، وَفُلَانٌ كَذَا.

فَرَأَيْتُهُ يَوْمًا عِنْدَ المُخَنَّثِينَ(٢) الغَسَّالِينَ(٣) خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِم، فَقُلْتُ: يَا فُلَانُ؛ مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: تِلْكَ الوَقِيعَةُ فِي النَّاسِ أَوْقَعَتْنِي، فَابْتُلِيتُ بِمُخَنَّثٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَأَنَا هُوَ ذَا أَخْدِمُهُمْ [مِنْ أَجْلِهِ](٤)، وَتِلْكَ الأَحْوَالُ كُلُّهَا قَدْ ذَهَبَتْ، [فَادْعُ اللهَ أَنْ يَرْحَمَنِي](٥)».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ مِمَّا وَقَعَ العَزْمُ علىٰ تطهيرِ هذا الكتَابِ مِنْهَا لَوْ أمكنَ، وإنْ [٢٩/٢ب](٦) كانَ المقصودُ منهَا التَّخويفَ مِنْ ضَرَرِ الغِيبَةِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ؛ ففيمَا تقدَّمَ منَ الحكاياتِ والأمثلَةِ مَا يُغْنِي عَنْ هذِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٩٣/١.

(٢) أي: المشبهين بالنساء في أفعالهم وأقوالهم.

(٣) أي: الذين يقومون بغسل الثياب.

(٤) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٥) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٦) أثرت الرطوبة تأثيرًا شديدًا علىٰ هذه اللوحة والتي تليها في النسخة (أ).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« بَابُ القَنَاعَةِ

قَالَ اللهُ - تعالىٰ -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ[(٢)]: الحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ فِي الدُّنْيَا القَنَاعَةُ.

أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو[(٣)] مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مَطَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَىٰ الحَلْوَانِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الغِفَارِيُّ، عَنِ المُنْكَدِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: القَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَىٰ[(٥)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وحَدُّ القناعةِ: الاجتزاءُ بمَا تقومُ بهِ البِنْيَةُ وتندفعُ بهِ الضَّرورةُ والحَاجةُ، وذلِكَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ في الصِّحَّةِ والمَرَضِ، وتقدُّمِ العوائدِ الرَّديئةِ فِي الشَّهواتِ وتعلُّمِ الخيرِ والاكتفاءِ بمَا تيسَّرَ.

والحاجةُ قدْ تكونُ دُنيويَّةً، وقَدْ تكونُ دينيَّةً؛ كاحتياجِ الإنسانِ لمَا يستعينُ بهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٤.

(٢) كعلي بن أبي طالب، وابن عباس، والحسن البصري، وغيرهم. انظر: تفسير الطبري ١٤/١٧١، والسمرقندي ٢/٢٩٠، والبغوي ٣/٨٣، وزاد المسير ٤/٤٨٨.

(٣) في (ب): عمر بن، والتصويب من (ف) والرسالة القشيرية.

(٤) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير ص٨٨، وأتبع بقوله: «هذا إسناد فيه ضعف». وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٧/٨٤ بلفظ: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عليكم بالقناعة، فإن القناعة مال لا ينفد»، وكذا القضاعي في مسند الشهاب ١/٧٢.

(٥) لأنها تثمر سكون القلب لمرادات الرب، وتحمل علىٰ علو الهمة.

علىٰ طلبِ العِلمِ وحفظِهِ منَ الأطعمَةِ الموافقةِ لحالِهِ ممَّا لوْ أكلَ غيرَهُ لتشوَّشَ عليهِ حالُهُ، فتخصيصُهُ لهُ لهذِهِ المَنْفَعةِ الدِّينيَّةِ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ حَدِّ القَنَاعةِ، بخلافِ مَا لَوْ كانَ أخذُهُ لهُ لمَحْضِ الشَّهوةِ والتَّنعُّمِ بالدُّنيَا، وكذلِكَ إذَا دعَا الشَّرعُ للبسِ الثِّيابِ البيضِ النَّفيسَةِ للأعيادِ والجُمَعِ ومجامعِ المسلمينَ، فلبسُهُ وطلبُهُ بهذِهِ النِّيَّةِ لا يُخْرِجُهُ عنْ حدِّ القناعةِ فِي اللِّباسِ؛ لأنَّهُ لولَا دعاءُ الشَّرعِ إليهِ لمَا فعلَهُ.

فإذَا تقرَّرَ ذلِكَ وعلِمَ أنَّ القناعةَ هيَ الاكتفاءُ بمَا تيسَّرَ منَ الطَّعامِ واللِّباسِ باختلافِ الأحوالِ علىٰ حَسبِ دَفْعِ الضَّرورةِ والحاجةِ كمَا تقدَّمَ فنقولُ:

القناعَةُ لَا تختصُّ بهذَا، بَلْ تكونُ القناعةُ في المنامِ والكلامِ، وغيرِ ذلِكَ ممَّا يحتاجُ إليهِ الأنَامُ، ويدلُّ علىٰ ذلِكَ قولُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخبرِ الصَّحيحِ(١): «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، والَّذِي لا يعنيهِ هوَ الَّذِي لا حاجَةَ لهُ في دِينِهِ ولَا ضرورةَ لهُ في دُنيَاهُ، وكذلِكَ قولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخبَرِ الصَّحيحِ(٢): «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ قُوتُهُ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ»، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣): «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كفافًا [٢/٣٠أ]، لَا إِقْتَارًا وَلَا إِسْرَافًا»، وَفِي روايةٍ: «رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا(٤)».

وأمَّا ثمراتُ القناعةِ فممَّا لا تُحْصَىٰ، وأيسَرُهَا السَّلامةُ مِنَ الحقوقِ الَّتِي تلحقُهُ بالمطالبَةِ، لِمَا عندَهُ منَ الفُضولِ فيمَا يفعلُ أوْ يقولُ(٥)، وفِي الآخرةِ السَّلامةُ مِنْ طولِ الحسابِ، ورجوعُهُ سريعًا إلىٰ دارِ المَآبِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه أيضًا.

(٤) أي: لا زائدًا عليه مما شأنه أن يشغل عمَّا للحق عَزَّوَجَلَّ.

(٥) وذلك في الدنيا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَيُّوبَ القُرْبِيّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الرَّبِيعِ الزَّهْرَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكَرِيَّا؛ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ؛ عَنْ بُرْدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ مَكْحُولٍ؛ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)]: «كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضِعُ الاستشهادِ مِنْ هذا الحديثِ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ»، فإنَّ القَنِعَ أيُّ شيءٍ فُتِحَ عَلَيهِ بِهِ رَآهُ نِعْمَةً وفيهِ كفايةٌ، فتكثرُ نعمُ اللهِ عليهِ ويكثرُ شُكْرُهُ لهَا، بخلافِ الشَّرِهِ؛ لأنَّهُ ضدُّ القناعةِ الشَّرَهُ، فإنَّهُ لا يرَىٰ منَ النِّعمِ إلَّا العظائِمَ، فيقلُّ شكرُهُ لقلَّةِ معرفتِهِ بالنِّعمِ.

وأمَّا كونُهُ ورِعًا يكُنْ أعبدَ النَّاسِ؛ فإنَّ الورَعَ: تجنُّبُ مَا يضرُّ شَرْعًا، فهوَ يتجنَّبُ الحرامَ وترْكَ الواجبِ وارتكابَ المكروهِ وتضييعَ المندوبِ، وإنِ ارتفعَتْ درجاتُهُ، ويتجنَّبُ تضييعَ العُمرِ فِي البطالَاتِ، والتَّلذُّذِ بالأفعالِ المُباحاتِ، فبهذَا الاعتبارِ يكونُ «أعبَدَ النَّاسِ».

وأمَّا محبَّتُهُ للنَّاسِ مَا يحبُّهُ لنفسِهِ فهِيَ مِنْ أشرَفِ الأخلاقِ، وكمالِ الأخوَّةِ في الدِّينِ، ولقَدْ حُكِيَ عَنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ: إنِّي لأستغفرُ اللهَ منذُ كذَا وكذَا سنةً مِنْ قولِي: الحمدُ للهِ، فقيلَ لهُ: وكيفَ ذلِكَ، قالَ: وقعَ حريقٌ بالبصرةِ فأُخبِرْتُ أنَّ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/١٤١٠، والطبراني في مسند الشاميين ١/٢١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٥٣.

دكَّانِي سلِمَتْ، فقلْتُ: الحمدُ للهِ، فكلَّمَا تفكَّرْتُ فِي كونِي لَمْ أغتمَّ لمَا أصابَ المسلمِينَ، وغلبَ علَىٰ ظنِّي سَلامةُ دكَّانِي دونَهُمْ استغفرْتُ اللهَ مِنْ تلكَ الحَالِ، بَلْ كَانَ حقِّي أنْ أحبَّ لهُمْ مَا أحبُّ لنفسِي منَ السَّلامةِ، وأغتمَّ لهُمْ لمَا أصابَهُم.

وأمَّا حُسْنُ المُجاورةِ لمَنْ جاورَهُ يكُونُ[1] مسلِمًا؛ فإنَّ المسلمَ لا يُؤْذِي جارَهُ، والمسلمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ، ممَّنْ هوَ بعيدٌ، فكيفَ بالجارِ القريبِ، وقَدْ قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]: «أَوْصَانِي جِبْرِيلُ بِالجَارِ [٢/٣٠ب] حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيُوَرِّثُهُ».

وأمَّا كثرةُ الضَّحِكِ فإنَّهُ يُمِيتُ القلبَ صحيحٌ؛ لأنَّ القلبَ إنَّمَا يموتُ بتوالِي الغَفْلَةِ عليهِ عنْ أمرِ الآخرةِ، وعنْ معرفَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وطاعتِهِ، ومَا خلقَ لهُ كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فجعلَ الكفرَ والغفْلَةَ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ موتًا، وجعلَ الإيمانَ والمعرفةَ باللهِ وطاعتَهُ حيَاةً[3]، ومتَىٰ توالَتْ علىٰ القلبِ الغَفَلاتُ، أسرَعَ ذلِكَ بهِ إلىٰ المماتِ، وربَّمَا عسُرَ عليهِ التَّداركُ إنْ توالَىٰ ذلِكَ عليهِ وخُشِيَ عليهِ الفَوَاتُ، ونعوذُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ مِنْ خاتمةِ الأشقياءِ عندَ المَمَاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَقِيلَ**[5]: **الفُقَرَاءُ أَمْوَاتٌ إِلَّا مَنْ أَحْيَاهُ اللهُ ـ سبحانه ـ بِعِزِّ القَنَاعَةِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يعنِي بالفقراءِ المحبِّينَ للدُّنيَا المتكالِبينَ عليهَا وهيَ

---

(١) في (أ): يكن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٣٩ ـ حديث رقم (٥٦٦٨)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٢٥ ـ حديث رقم (٢٦٢٤).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٤.

(٥) نسب لعبدة أخت أبي سليمان الداراني في: طبقات الصوفية ص٤١٢، وصفة الصفوة ٤/٣٠٠.

بعيدةٌ عنهُمْ، فهُمْ[١] أمواتُ القلوبِ بحبِّهَا عنْ ذِكْرِ الآخرةِ إلَّا مَنْ أحيَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بعزِّ القناعَةِ ورضِيَتْ نفسُهُ بمَا سرَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ القُوتِ، فتفرَّغَ لمَا خُلِقَ لهُ مِنَ العلمِ والعملِ، فهذِهِ حياةُ القلوبِ مِنْ مَوتِ الغفلَةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ بِشْرٌ الحَافِي[٣]: **القَنَاعَةُ مَلَكٌ لَا يَسْكُنُ إِلَّا فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ووجْهُهُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ أنَّ المؤمنَ بانقراضِ الدُّنيَا وزوالِهَا، وأنَّ كثْرَتَهَا تجرُّ إلىٰ حسابٍ أوْ عذابٍ، فمَنْ قوِيَ إيمانُهُ أعرَضَ عنهَا وقنعَ باليسيرِ منْ حُطامِهَا علَىٰ حسبِ ضرورتِهِ وحاجتِهِ، وقدْ رُوِيَ أنَّ أعرابيًّا أتَى النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ مشرِكٌ، فأمرَ أنْ يُحلبَ لهُ اللَّبنُ ليشربَهُ، فشرِبَ حِلَابَ سبعِ شياةٍ أوْ نحوهَا، ثمَّ أسلَمَ، فحلبَ لهُ بعدَ ذلكَ شاةً فلمْ يستتمَّ الثَّانيةَ، فتعجَّبَ النَّاسُ مِنْ ذلِكَ، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]: «المُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مِعَاءٍ وَاحِدٍ، وَالكَافِرُ فِي سَبْعَةِ[٥] أَمْعَاءٍ».

ومَحْمَلُ ذلِكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ الكافرَ غافلٌ[٦] عنِ الآخرةِ والاستعدادِ لهَا، مشغولٌ بشهواتِهِ، شديدُ الرَّغبةِ فِي لذَّاتِهِ، بخلافِ المؤمنِ فإنَّهُ عارفٌ بمَا خُلِقَ لهُ، وأنَّ الدُّنيَا إنَّمَا هيَ دارُ تَزَوُّدٍ والآخرةَ دارُ الاستيطَانِ، فهوَ يأخذُ منَ الدُّنيَا مَا يستعينُ بِهِ خاصَّةً ويُعْرِضُ عَنْ فُضُولِهَا.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٤.

(٣) ورد قوله في: منارات السائرين ص١١٨، ونشر المحاسن الغالية ص٢٣٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٦٣٢ ـ حديث رقم (٢٠٦٣).

(٥) في (ب): سبع، والصواب المثبت.

(٦) في (ب): غافلا، والصواب المثبت.

وأمَّا قضيَّةُ هذا الَّذِي أسلمَ فيكونُ ذلِكَ ببركَةِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرَاهُمُ اللهُ بركةَ الإيمانِ ليُرَغِّبَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الشَّعْرَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ [٣١/٢أ] بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي حَسَّانَ الأَنْمَاطِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ يَقُولُ(٢): القَنَاعَةُ مِنَ الرِّضَا بِمَنْزِلَةِ الوَرَعِ مِنَ الزُّهْدِ، هَذَا أَوَّلُ الرِّضَا، وَهَذَا أَوَّلُ الزُّهْدِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ القناعةَ لا تكونُ إلَّا بمَا قسَمَ اللهُ ويسَّرَهُ، ومتَىٰ تمكَّنَ الإنسانُ فِي الرِّضَا رَضِيَ بكلِّ ما يُجْرِيهِ اللهُ عليهِ ممَّا يُوافِقُ هوَاهُ أو يخالِفُهُ.

وأمَّا الورعُ فهوَ الإعراضُ عنِ المُشْكِلِ، ومَنْ لمْ يَهُنْ عليهِ الإعراضُ عنِ المُشْكلِ لمْ يَهُنْ عليهِ الإعراضُ عنِ الحلالِ الَّذِي لا إشكالَ فيهِ، ومتَىٰ تمكَّنَ في الورعِ خَفَّ عليهِ سُلُوكُ مَقَامِ الزُّهْدِ(٣).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقِيلَ(٥): القَنَاعَةُ السُّكُونُ(٦) عِنْدَ عَدَمِ(٧) المَأْلُوفَاتِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا أقربُ إلىٰ التَّوكُّلِ منَ القناعةِ، فإنَّ مَنْ جرَىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٩٤/١.

(٢) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه ص١١٦، والزهد وصفة الزاهدين ص٢٦، وحلية الأولياء ٢٧٤/٩، وتاريخ دمشق ٣٤٦/٢٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥١٤/١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢٩٤/١.

(٥) ورد في: التعريفات ص٢٢٩، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٥٩٠.

(٦) في نتائج الأفكار ٧٤/٣: «وذلك لا يكون إلا بفناء مُراد العبد في مراد الرب».

(٧) أي: فقد.

لهُ الأسبابُ، وتيسَّرَتْ لهُ الأرزاقُ، وكانَ ساكنًا فهوَ يظنُّ أنَّهُ متوكِّلٌ، ولَا يصحُّ توكُّلُهُ علَىٰ اللهِ دونَ الأسبابِ إلَّا إذَا تغيَّرَتِ الأسبابُ والأصحابُ، فإنْ رأَىٰ نفسَهُ معَ تغيُّرِهَا ساكنةً إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ معتمدًا عليهِ فهوَ مُتوكِّلٌ، فهذَا خارجٌ عنِ القَنَاعةِ، بعيدٌ عَنْ حَدِّهَا.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ المَرَاغِيُّ[٢]: العَاقِلُ مَنْ دَبَّرَ أَمْرَ الدُّنْيَا بِالقَنَاعَةِ وَالتَّسْوِيفِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ العاقلَ مَنْ تصرَّفَ في كلِّ محلٍّ علىٰ ما يليقُ بهِ، وأعطَىٰ كلَّ ذِي حقٍّ حقَّهُ، فمَنْ عرَفَ أنَّ الدُّنيَا دارُ ارتحالٍ وليسَتْ دارَ إقامةٍ، وعمِلَ علَىٰ حسبِ ما عقلَ وعرَفَ مَشَىٰ حالُهُ بمَا تيسَّرَ ممَّا هوَ محتاجٌ إليهِ، وإنْ تشوَّقَتْ نفسُهُ لزيادةٍ سوَّفَ لهَا الآمالَ تمشيةً لحالِهَا، ومثالُهُ أنْ يقولَ: إنْ عشْتُ لوقتٍ آخرَ كانَ كَيْتُ وكَيْتُ، فيُقْنِّعُهَا[٣] بمَا حَصَلَ فِي الوَقْتِ[٤]، هذَا معنَىٰ قولِهِ: «**العاقلُ مَنْ يدبِّرُ أمرَ نفسِهِ بالقناعةِ والتَّسويفِ**»[٥].

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ[٧]: القَنَاعَةُ: تَرْكُ التَّشَوُّفِ إِلَىٰ المَفْقُودِ، وَالاسْتِغْنَاءُ بِالمَوْجُودِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٤.

(٢) ورد قوله في: عوارف المعارف ص١٥٧ ـ ط/العلمية، وزاد فيه: «ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل»، وزيد في قوله في إحكام الدلالة ١/٥١٥: «وأمر الدين بالعلم والاجتهاد».

(٣) في (ب): وذلك بقنعها.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٤ ـ ٥١٥، والملوي في: السلامة في الدين ص٧٢.

(٥) كررت هذه الفقرة بتمامها في (ب).

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.

(٧) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٤١٨، وحلية الأولياء ١٠/٣٨٦، والمختار من مناقب الأخيار ٣/١١٠، ونشر المحاسن الغالية ص٢٣٥، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٧.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا حدٌّ بالغٌ في القَنَاعَةِ، وذلِكَ أنَّ مَنِ استغنَتْ نفسُهُ بمَا تيسَّرَ لهَا منَ الأرزاقِ، لَمْ يتشوَّفْ لزيادةٍ علىٰ ما فتحَ لهَا بهِ الواحدُ الخَلَّاقُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقِيلَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج: ٥٨]، يَعْنِي: القَنَاعَةَ[2].

وَقَالَ [٢/٣١ب] مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ: القَنَاعَةُ: رِضَا النَّفْسِ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنَ الرِّزْقِ.

وَيُقَالُ: القَنَاعَةُ: الاكْتِفَاءُ بِالمَوْجُودِ، وَزَوَالُ الطَّمَعِ فِيمَا لَيْسَ بِحَاصِلٍ [لك][3]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ تقدَّمَ الكلامُ في هذهِ الأقوالِ الثَّلاثةِ[4].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «وَقَالَ وَهْبٌ[6]: إِنَّ العِزَّ وَالغِنَىٰ خَرَجَا يَجُولَانِ[7]، فَلَقِيَا القَنَاعَةَ فَاسْتَقَرَّا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دلَّ علىٰ أنَّ كلَّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْ[8] مَقامِ القَنَاعةِ حَصَلَ لهُ العِزُّ باللهِ والاستغناءُ عنْ غيرِ اللهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(٢) انظر: تفسير السلمي ٢/٢٦.
(٣) زيادة من (ف).
(٤) في أول هذا الباب.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(٦) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٣/٤٥، ومحاضرات الأدباء ١/٦٠٦، ومنارات السائرين ص١١٨.
(٧) في (ف): يجولان يطلبان.
(٨) في (أ): في.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: مَنْ كَانَتْ قَنَاعَتُهُ سَمِينَةً، طَابَتْ لَهُ كُلُّ مَرَقَةٍ[(٣)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فِي هذَا إشارةٌ إلىٰ أنَّ كلَّ مَنْ كمُلَتْ قناعتُهُ اجتزأ[(٤)] بأيسرِ[(٥)] شيءٍ منَ الدُّنيَا مِنْ غيرِ تفصيلٍ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقِيلَ[(٧)]: مَرَّ أَبُو حَازِمٍ بِقَصَّابٍ[(٨)]، مَعَهُ لَحْمٌ سَمِينٌ، فَقَالَ: خُذْ يَا أَبَا حَازِمٍ؛ فَإِنَّهُ سَمِينٌ، فَقَالَ: لَيْسَ مَعِي دِرْهَمٌ، فَقَالَ: أَنَا أُنْظِرُكَ، فَقَالَ: نَفْسِي أَحْسَنُ نَظِرَةً مِنْكَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذَا تنبيهٌ علىٰ أنَّ مَنْ كمُلَ زهدُهُ فِي الأشياءِ قلَّتْ رغبتُهُ فيهَا وقوِيَ صَبْرُهُ عنها، ولمْ يُذِلَّ [نَفْسَهُ] فِي تَحْصِيلِهَا لقوَّةِ رغبتِهِ فيهَا[(٩)]، ولذلِكَ قالَ لهُ: «نفسِي أَحْسَنُ نَظِرةً لِي مِنْكَ»، معنَاهُ: أحسنُ صَبْرًا لِي مِنْكَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١٠)]: «وَقِيلَ[(١١)]: مَنْ أَقْنَعُ النَّاسِ؟ فَقِيلَ: أَكْثَرُهُمْ لِلنَّاسِ مَعُونَةً، وَأَقَلُّهُمْ عَلَيْهِمْ مَؤُونَةً».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(٢) نسب لذي النون المصري في: قناطر الخيرات ٣/٣٢، وورد بلا نسبة في: أدب الدنيا والدين ص٢٢٨، وشرح نهج البلاغة ٦/١١٦، والسلامة في الدين للملوي ص٧٢.
(٣) وذلك كناية عن الرضا بالقليل المتيسّر، سكواء كان مرقًا أو غيره.
(٤) أي: اكتفىٰ.
(٥) في (ب): بأويسر، والصواب المثبت.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(٧) ورد في: تاريخ دمشق ٢٢/٥٨.
(٨) أي: جزَّار.
(٩) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٥.
(١٠) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(١١) ورد قوله في: السلامة في الدين ص٧٣.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا استدلالٌ بالثَّمرةِ على المُثمِرِ[١] ؛ وذلِكَ أنَّ مَنْ رَفَعَ أوْ حَمَلَ مؤونتَهُ على النَّاسِ ولَمْ يزاحمْهُمْ فيمَا بأيديهِمْ دلَّ علَى اكتفائِهِ بمَا يسَّرَهُ اللهُ لهُ ، وإذَا كانَ مُنتفعًا بمَا يَسَّرَهُ اللهُ لهُ تفرَّغَ مِنْ هُمُومِ الدُّنيَا وأعانَ المُسْلِمِينَ على مَقَاصِدِهِمْ ؛ لقلَّةِ شُغلِهِ بنفسِهِ ، وشِدَّةِ رغبتِهِ فِي فِعْلِ الخيرِ لِغَيرِهِ.

فهذَا مِنْ بابِ الاستدلالِ بهذَينِ الشَّيئينِ على كَمَالِ قَناعَتِهِ باليَسِيرِ منَ الدُّنيَا ، ولذلِكَ تفرَّغَ لتحصيلِ الخيراتِ بإعانةِ الخَلْقِ ، وحملَ عنهُمْ كُلفتَهُ ، وقلَّتْ لهُمْ مُزَاحَمتُهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَفِي الزَّبُورِ: القَانِعُ غَنِيٌّ وَإِنْ كَانَ جَائِعًا**[٣]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ غِنَاهُ ليسَ بمَا ملكَهُ أوْ يأكلُهُ ، وإنَّمَا غِناهُ باختيارِ اللهِ لهُ ، فإنْ أجاعَهُ اختارَ مَا اختارَ اللهُ لهُ ، وإنْ أشبعَهُ شكرَهُ علَى ما يسَّرَهُ لهُ ، فهوَ غنِيٌّ باللهِ وباختيارِهِ فِي سائِرِ أحوالِهِ[٤] [٢/٣٢أ].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ**[٦]: **وَضَعَ اللهُ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ**[٧]: **العِزَّ فِي الطَّاعَةِ ، وَالذُّلَّ فِي المَعْصِيَةِ ، وَالهَيْبَةَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَالحِكْمَةَ فِي البَطْنِ الخَالِي ، وَالغِنَىٰ فِي القَنَاعَةِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: موضِعُ الاستشهادِ الغِنَىٰ فِي القناعةِ ، وأمَّا العِزُّ فِي

---

(١) أي: بثمرة القناعة عليها.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(٣) ورد قوله في: منارات السائرين ص١١٨ ، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٧٢.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٦.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.
(٦) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٣٥ ، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٧٢.
(٧) أي: جعلها متلازمة في الوجود.

الطَّاعةِ والذُّلُّ فِي المعصيةِ فواضحٌ ؛ لأنَّ المُطيعَ عزيزٌ فِي الدُّنيا والآخرةِ ، والعَاصِي ذَليلٌ فيهِمَا .

وأمَّا «**الحِكمةُ في البَطْنِ الخالِي**» ؛ فإنَّهُ أبلغُ فِي نُفُودِ الحِكمةِ وإدراكِ مقصودِهَا ، وإصابةِ الحقِّ فيهَا ، فإنَّ البِطْنَةَ تُذْهِبُ الفِطْنَةَ .

وأمَّا «**الهَيْبَةُ فِي قيامِ اللَّيلِ**» ؛ فإنَّ مَنْ رزقَهُ اللهُ قيامَ اللَّيلِ ، وحُسْنَ المناجاةِ لمولَاهُ ، والتَّلذُّذَ بقراءتِهِ والأدبَ مَعَهُ في مناجاتِهِ ، فقدْ أَجَلَّ اللهَ وعظَّمَهُ ، وتركَ راحتَهُ ولذَّتَهُ للتَّنعُّمِ بمناجاتِهِ ، ومَنَ أجَلَّ اللهَ أجَلَّهُ اللهُ عندَ النَّاسِ[١] .

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ نَصرَ بْنَ مُحمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ أَبِي سُلَيْمَانَ ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ بْنَ أَبِي نِزَارٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ المَارِسْتَانِيَّ يَقُولُ[٣]: اِنْتَقِمْ مِنْ حِرْصِكَ بِالقَنَاعَةِ ، كَمَا تَنْتَقِمُ مِنْ عَدُوِّكَ بِالقِصَاصِ**» .

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ مَنْ كانَ شديدَ الحِرصِ علَىٰ الدُّنيَا اكتسبَهَا مِنْ غيرِ وَجْهِهَا ، ومنعَهَا مِنْ حقِّهَا ، فحرصُهُ علَىٰ هذَا عدوٌّ لهُ ؛ فإنَّهُ يُوقِعُهُ فِي النَّارِ ، فإذَا أرادَ العبدُ أنْ يَنْتَقِمَ مِنْ حِرْصِهِ علىٰ الدُّنيَا ويكفَّ ضَرَرَهُ عنهُ قنعَ مِنَ الدُّنيَا باليَسِيرِ ، وكلَّمَا عرضَ لهُ أمرَانِ مِنْ أُمُورِ الدُّنيَا اختارَ أيسرَهُمَا ؛ لكمالِ قناعتِهِ ، وقلَّةِ حِرْصِهِ وشدَّةِ رغبتِهِ .

وقَدْ رُوِيَ[٤] أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ما عُرِضَ عليهِ أمرَانِ مِنْ أمورِ الدُّنيَا إلَّا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٦ .

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥ .

(٣) ورد قوله في: منارات السائرين ص١١٨ ، والمقاصد الحسنة ص٤٩٣ ، والسلامة في الدين ص٧٣ .

(٤) في (ب): يروىٰ.

اختارَ أيسرَهُمَا»[١]، حتَّىٰ عُرِضَ عليهِ[٢] السِّواكَانِ أحدُهُمَا مستقيمٌ والآخرُ معوَّجٌ، فأخذَ المِعوَجَّ منهُمَا[٣]، كلُّ ذلكَ زُهْدًا فِي الدُّنيَا، وإعراضًا عَنْ جمالِهَا وحبِّهَا؛ فإنَّ حُبَّهَا رأسُ كلِّ خطيئةٍ، والزُّهدَ فيهَا رأسُ كلِّ خيرٍ، والقناعةُ مِفتاحُ الورَعِ، والورعُ مِفتاحُ[٤] الزُّهدِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ[٦]: مَنْ قَنِعَ اسْتَرَاحَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَاسْتَطَالَ عَلَىٰ أَقْرَانِهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**اِستراحَ مِنْ أهلِ زمانِهِ**»، يعنِي: مِنْ مزاحَمَتِهِمْ فِي الأسواقِ، ومشاركتِهِمْ فِي تحصيلِ الأرزَاقِ [٢/٣٢ب].

وأمَّا قولُهُ: «**استطَالَ علَىٰ أقرانِهِ**» فلمْ يُرِدْ أنَّهُ ارتفعَ عنهُمْ وتكبَّرَ، بَلْ عَنْ نفسِهِ واستغنَىٰ بفضْلِ اللهِ عليهِ، وهذَا معنَىٰ قولِ: «**استطالَ**»[٧]، أيِ: ارتفعَتْ منزلتُهُ عندَ اللهِ؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ باللهِ إذَا قنِعَ باليسيرِ منَ الدُّنيَا، وتفرَّغَ لعبادةِ المَوْلَىٰ، ارتفعَتْ درجتُهُ في الآخرةِ والأُولَىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٨١٣ ـ حديث رقم (٢٣٢٧)، بلفظ «عن عَائِشَةَ قالت: ما خُيِّرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ من الآخَرِ، إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ما لم يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كان إِثْمًا كان أَبْعَدَ الناس منه»، وكذا البخاري في صحيحه ٦/٢٤٩١ ـ حديث رقم (٦٤٠٤).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أي: لنفسه، وترك المستقيم لأحد أصحابه.

(٤) سقط من (ب) قوله: «الورع والورع مفتاح».

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٩٥.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) أي: عزَّ في نفسه.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: مَنْ[(٣)] قَنِعَ اسْتَرَاحَ مِنَ الشُّغْلِ، وَاسْتَطَالَ عَلَى الكُلِّ.

وَقَالَ الكَتَّانِيُّ[(٤)]: مَنْ بَاعَ الحِرْصَ بِالقَنَاعَةِ.. ظَفَرَ بِالعِزِّ وَالمُرُوءَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ تكرَّرَ[(٥)] مِرارًا؛ حيثُ قيلَ: القَنَاعةُ تُرِيحُ مِنْ مزاحمةِ النَّاسِ فِي الأسواقِ علَى طلبِ الأرزاقِ، وإذَا استراحَ مِنْ ذلكَ بالقناعةِ تفرَّغَ لعبادةِ ربِّهِ وارتفعَتْ درجتُهُ عندَهُ، وذلِكَ أنَّ مَنْ قنعَ باليسيرِ منَ الدُّنيَا قلَّ حِرصُهُ عليهَا، وإذَا قلَّ حِرْصُهُ عليهَا عزَّ في نفسِهِ، ولمْ يتذلَّلْ في طلبِهَا واستغنَى عنْ أبناءِ جِنْسِهِ؛ لمَا رزقَهُ الحقُّ مِنْ قناعةِ نفسِهِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقِيلَ[(٧)]: مَنْ تَبعَتْ عَيْنَاهُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ طَالَ حُزْنُهُ.

وَأَنْشَدُوا[(٨)]:

وَأَحْسَنُ بِالفَتَى مِنْ يَوْمِ عَارٍ ❊ يَنَالُ بِهِ الغِنَى كَرَمٌ وَجُوعُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٦.

(٢) ورد في: السلامة في الدين ص٧٤.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٨٤، وتاريخ دمشق ٥٤/٢٥٥، وفيض القدير ٤/٢٧٦. ونسب لأكثم بن صيفي في: أدب الدنيا والدين ص٢٢٦.

(٥) في (ب): قدر تكر.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٢٩٦.

(٧) ورد في: الأنس في شرح عيوب النفس ص١٧٢.

(٨) من الوافر، ونسب للعرزمي في: الآمل والمأمول للجاحظ ص١٥، وورد بلا نسبة في: أنس المسجون وراحة المحزون ص١٨٩، ومجمع الآداب في معجم الألقاب ٥/٣٠٩، والسلامة في الدين ص٧٤.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**مَنْ تبعَتْ عيناهُ ما فِي أيدِي النَّاسِ طالَ حزنُهُ**»، وهذَا ضدُّ القناعةِ؛ وهوَ الشَّرَهُ، لتعلُّقِ القلبِ بمَا فِي أيدِي النَّاسِ وطولِ حُزْنِهِ؛ لأنَّ المقاديرَ تجرِي علىٰ وفْقِ غرضِهِ، فلَا يزالُ مهمومًا علىٰ امتيازِ النَّاسِ عنهُ، وهذَا للحسدِ أقربُ منهُ إلىٰ القناعةِ، إلَّا أنَّ الشَّرَهَ مِنْ أضدادِ القناعةِ، ولذلِكَ قالَ فِي القناعةِ:

وَأَحْسَنُ بِالفَتَىٰ مِنْ يَوْمِ عَارٍ ❊ يَنَالُ بِهِ الغِنَىٰ كَرَمٌ وَجُوعُ

ومعنَاهُ: أنَّ يومًا يكونُ العبدُ فيهِ جائعًا كريمَ النَّفسِ نزهًا أحسنُ مِنْ يومٍ يكونُ فيهِ ذليلًا ينالُ بهِ الغِنَىٰ، وتقريبُ هذَا الشِّعرِ أنَّ يومًا يكونُ العبدُ فيهِ جائعًا كريمَ النَّفسِ عنِ الحِرصِ والشَّرهِ أحسنُ مِنْ يومٍ يكونُ فيهِ ذا عارٍ ونقْصٍ وذُلٍّ لينالَ الغِنَىٰ[1].

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقِيلَ[3]: رَأَىٰ رَجُلٌ حَكِيمًا يَأْكُلُ مَا تَسَاقَطَ مِنَ البَقْلِ عَلَىٰ رَأْسِ مَاءٍ، فَقَالَ: لَوْ خدمْتَ السُّلْطَانَ لَمْ تَحْتَجْ إِلَىٰ أَكْلِ هَذَا!، فَقَالَ الحَكِيمُ: وَأَنْتَ لَوْ قَنِعتَ بِهذَا لَمْ تَحْتَجْ إِلَىٰ خِدْمَةِ السُّلْطَانِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذَا القائلُ يعرفُ مِنْ هذَا الآكلِ أنَّهُ قادرٌ علىٰ التَّوصُّلِ[4] [٢/١٣٣أ] لِذكَائِهِ[5]، ومعرفتِهِ إلَىٰ أنْ يكونَ خادمًا للسُّلطانِ، فقالَ: لوْ خدمْتَ لاستغنَيْتَ عنْ أنْ تأكلَ ورقَ البقْلِ المرمِيَّ؛ لأنَّ فيهِ نقْصًا ومذلَّةً فِي الدُّنيا عندَ أربابِهَا، فقالَ لهُ الصَّالحُ: «**لوْ قنِعتَ أنتَ بهذَا لمْ تحتَجْ إلىٰ خِدْمةِ السُّلطانِ**»

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥١٧/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٩٦/١.

(٣) ورد في: نشر المحاسن الغالية ص٢٣٥، والإرشاد والتطريز ص ١٣٧، وغيث المواهب العلية ص٨٨.

(٤) في (أ): التوكل.

(٥) في (ب): لركابه.

الَّذِي في خِدْمَتِهِ مَذلَّةٌ فِي الدُّنيَا والآخرةِ عندَ العُقَلاءِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ(١): «وَقِيلَ: العُقَابُ(٢) عَزِيزٌ فِي(٣) مطَارِهِ(٤)، لَا يَسْمُو(٥) إِلَيْهِ طَرْفُ صَيَّادٍ وَلَا طَمَعُهُ، فَإِذَا طَمِعَ فِي جِيْفَةٍ عَلِقَتْ عَلَى حِبَالَةٍ نَزَلَ مِنْ مَطَارِهِ، فَتَعْلَقَ فِي حِبَالِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وذلِكَ أنَّ العُقابَ فيهِ منَ القوَّةِ على الطَّيرانِ وكيفَ يتعالَىٰ في الجوِّ تعاليًا تقصرُ عنْ صيدِهِ ونيلِهِ مطامعُ الصَّيَّادِينَ ؟!، فإذا أرادُوا أنْ يخدعُوهُ نصبُوا حبالَهُمْ(٦) وجعلُوا عليهَا جِيفًا منْ لحمٍ، فإذَا طمعَ فيهَا نزلَ إليهَا وحصلَ فِي شباكِهِمْ وحبائِلِهِمْ.

فكذلِكَ العبدُ القَنِعُ بيسيرٍ منَ الدُّنيَا، الزَّاهدُ فِي الفضولِ لا يزالُ عزيزَ النَّفسِ سالِمًا منَ المذلَّةِ حتَّىٰ يلوحَ لهُ شيءٌ منَ الدُّنيَا فيطمعَ في نيلِهَا فيزولَ عزُّهُ ويحلَّ بهِ ذلُّهُ، ولذلِكَ لمَّا دخلَ الحسنُ البصريُّ إلىٰ مكَّةَ ـ حرسَهَا اللهُ تعالَىٰ ـ ورأَىٰ الحسنُ رجلًا مِنْ أولادِ فاطمةَ قدْ أسندَ ظهرَهُ إلىٰ الكعبةِ وهوَ يعِظُ النَّاسَ فسأَلَهُ: «مَا ملاكُ الدِّينِ؟ فقالَ: الورَعُ، فقالَ: ومَا فسادُهُ؟ فقالَ: الطَّمعُ، فقالَ لهُ: مثلُكَ يصلُحُ أنْ يعِظَ النَّاسَ»(٧).

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٦.

(٢) في حياة الحيوان ٢/١٧٢: «طائر معروف، والجمع: أعقب؛ لأنها مؤنثة». وانظر: الحيوان ٣/١٨٠.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) أي: في طيرانه. وهذا المثال الغرض منه تحذير ذي الهمة من النزول عنها.

(٥) أي: يعلو.

(٦) في (أ، ب): حباله، والصواب المثبت.

(٧) سبق تخريجه.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ: لَمَّا نطقَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذِكْرِ الطَّمَعِ فَقَالَ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] قَالَ الخِضْرُ لَهُ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

وَقِيلَ[٢]: لَمَّا قَالَ ذَلِكَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَفَ بَيْنَ مُوسَىٰ وَالْخَضِرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ظَبْيٌ، وَكَانَا جَائِعَيْنِ، الجَانِبُ الَّذِي يَلِي مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَيْرُ مَشْوِيٍّ، وَالجَانِبُ الَّذِي يَلِي الخَضِرَ مَشْوِيٌّ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والصحيحُ أنَّ الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّما[٣] فارقَ الكليمَ موسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنا وعليهِ ـ بحكمِ الشَّرطِ؛ وهوَ قولُهُ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦] وليسَ فيمَا ذكرَهُ طمعٌ؛ لأنَّ أخذَ الأجرةِ علىٰ العمَلِ ليسَ مِنْ بابِ الطَّمعِ بسبيلٍ، وقدْ تقدَّمَ في الآيةِ أنَّهُمَا ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]، ومَا نُسِبَ الأمرُ لموسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ـ خاصَّةً، بَلْ همَا استطعَمَا، ولوْ صحَّ أنْ يكونَ طمعًا فيمَا عندَ النَّاسِ لصحَّ أنْ يُنْسَبَا[٤] لهذَا، وأمَّا أخذُ الأجرةِ علىٰ [٢/٣٣ب] العملِ فليسَ مِنَ الطَّمعِ بسبيلٍ.

وعلَىٰ الجُمْلَةِ: فكلُّ مَا جرَىٰ للخضرِ معَ موسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنا وعليهِ ـ إنَّمَا كانَ للتَّأديبِ، فإنَّ موسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنا وعليهِ ـ نُقِلَ أنَّهُ سُئِلَ وهوَ علىٰ المنبرِ: هلْ علَىٰ وجهِ الأرضِ أعلَمُ مِنْكَ؟ قيلَ: فقالَ: لَا، فأوحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إليهِ بلْ عبدٌ منْ عبادِي بمجمَعِ البحرَينِ هوَ أعلمُ منكَ، قالَ: ﴿لَآ

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٦.
(٢) ورد في: قوت القلوب ٢/٣٢، ٣٧.
(٣) في (ب): ألما، والصواب المثبت.
(٤) في (أ): ينسب، والصواب المثبت. والمعنىٰ: أنه لو كان طمعًا لنُسب إلىٰ الخضر وموسىٰ معًا.

أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾[١] [الكهف: ٦٠]، والَّذِي قالَهُ الخضرُ لموسَىٰ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ مصلحتُهُ ظاهرةٌ، وإنَّمَا خفِيَ سببُهُ فاختصَّ الخضرُ بمعرفةِ السَّببِ، فلمَّا ذكرَهُ لموسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ انقادَ إليهِ، وذلِكَ أنَّ إزالةَ لوحٍ منَ السَّفينةِ ليكونَ في ذلِكَ سببُ نجاتِهَا كلِّها، وقتْلُ مَنْ يكونُ سببًا لتكفيرِ والدِهِ، وحِفْظُ مالِ يتيمٍ عاجزٍ حتَّىٰ يبلُغَ أشُدَّهُ مصالحُ ظاهرةٌ، أَعْلَمَ اللهُ أسبابَهَا للخضرِ؛ ليُعَرِّفَ موسَىٰ - صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ - أنَّهُ يخصُّ مَنْ شاءَ بما شاءَ مِنَ العلمِ.

واختلفَ النَّاسُ فِي الخَضِرِ، هَلْ هوَ نبيٌّ أوْ وَلِيٌّ[٢]؟ فأكثرُ النَّاسِ علىٰ أنَّهُ ولِيٌّ، وعلَىٰ الجُمْلَةِ فذِكْرُ الطَّمعِ هَاهُنَا بالنِّسبةِ للنَّبيِّ تركُهُ أحسنُ، فإنَّ الطَّمعَ خُلُقٌ مذمومٌ لَا يليقُ نسبتُهُ لنبيٍّ أصلًا.

وأمَّا قضيَّةُ الظَّبْيِ بينَ موسىٰ والخضرِ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ إنْ صحَّتِ الرِّوايةُ أنَّ نصفَهُ مَشْوِيٌّ ونِصْفَهُ نِيءٌ[٣] قَدْ يكونُ ذلكَ للامتحانِ وزيادةِ الاختبارِ وقتَ الحاجةِ؛ ليكملَ فضلُهُمَا ويتزايدَ في الصَّبرِ والشُّكرِ، والكلُّ جائزٌ، وللهِ أنْ يفعلَ ما يشاءُ، ولا يدلُّ هذَا علىٰ أدَبِ موسَىٰ وإكرامِ الخضرِ لمَا قالَ؛ فإنَّا قدْ بيَّنَّا أنَّ قولَهُ ليسَ فيهِ شيءٌ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ[٤]: **«وَقِيلَ[٥] فِي قَوْلِهِ - تعالىٰ -: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾** [الانفطار: ١٣]: **هُوَ القَنَاعَةُ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾** [الانفطار: ١٤]: **هُوَ الحِرْصُ فِي الدُّنْيَا».**

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٣/١٧٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/٢٣٦، وزاد المسير ٥/١٦١.

(٢) تأمل تفصيل ذلك في: الزهر النضر في حال الخضر ص٢٤، والحذر في أمر الخضرص ٨٤.

(٣) أي: لم ينضج. انظر: مختار الصحاح ص٢٨٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٦.

(٥) انظر: تفسير السلمي ٢/٣٧٨.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ بابِ الاعتبارِ لَا مِنْ بابِ التَّفسيرِ للآيةِ، فإنَّ مَنْ قنعَ باليسيرِ منَ الدُّنيَا استراحَ سِرُّهُ وقلَّ تعبُهُ، ووجدَ راحةَ ذلكَ فِي دُنيَاهُ، ومَنِ اشتدَّ حِرصُهُ غَلَبَ عليهِ تَعبُهُ وكَدُّهُ، وقَلَّتْ راحتُهُ فِي دُنْيَاهُ، وكَثُرَ عَذَابُهُ، فعبَّرَ بالرَّاحةِ الدُّنيويَّةِ عنِ الجنَّةِ، وبالتَّعبِ والنَّصبِ فِي الدُّنيَا عنِ النَّارِ[١].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] أَيْ: فَكُّهَا مِنْ ذُلِّ الطَّمَعِ[٣].

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] يَعْنِي [٢/٣٤أ]: البُخْلَ وَالطَّمَعَ، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ بِالسَّخَاءِ وَالإِيْثَارِ[٤].

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] أَيْ: مَقَامًا مِنَ القَنَاعَةِ أَنْفَرِدُ بِهِ مِنْ بَيْنِ أَشْكَالِي، وَأَنْ أَكُونَ رَاضِيًا فِيهِ بِقَضَائِكَ[٥].

وَقِيلَ[٦] فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] يَعْنِي: لَأَسْلُبَنَّهُ القَنَاعَةَ، وَلَأَبْتَلِيَنَّهُ بِالطَّمَعِ، يَعْنِي: أَسْأَلُ اللهَ ـ سبحانه ـ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ ذَلِكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ عُلِمَ مِنْ غيرِ هذِهِ الآياتِ أنَّ القناعةَ باليسيرِ منَ الدُّنيَا وصفٌ محمودٌ، وأنَّ الطَّمعَ فيهَا والحِرْصَ عليهَا والبخلَ بهَا وصفٌ مذمومٌ، فإنْ صحَّ بالنَّقلِ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنْ أهلِ التَّفسيرِ الَّذينَ هُمْ أهلُهُ أنَّ المرادَ بالآياتِ ما ذُكِرَ فحسَنٌ، وإنْ كانَ المرادُ غيرَ هذَا فلا يجوزُ أنْ يُحمَلَ التَّفسيرُ عليهِ

(١) انظر: تفسير السلمي ٢/٣٩٦.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥١٨.
(٤) انظر: تفسير السلمي ٢/١٤٥، وتفسير السمعاني ٤/٢٨٢.
(٥) انظر: لطائف الإشارات ٣/١٠٥.
(٦) نسب للجنيد في: تفسير السلمي ٢/٨٨.

إلَّا أنْ يكونَ لفظٌ عامٌّ؛ مثلَ قولِهِ: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، فإنَّهُ يعمُّ كلَّ راحةٍ يكونُ العَبْدُ فيهَا في الدُّنيَا، والقناعةُ مِنْ جُمْلَتِهَا، والتَّطهيرُ مِنْ كلِّ سوءٍ يعمُّ كلَّ سوءٍ فِي قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾، يعنِي: مِنْ كلِّ النَّقائصِ شرعًا، فإنْ خُصَّ بدليلٍ على أنَّ المرادَ ما ذكرَ اتُّبِعَ، وإلَّا فقدْ عُلِمَ أنَّ القناعةَ محمودةٌ، والحرصَ والشَّرَهَ مذمومٌ[(١)]، وقدْ قِيلَ في قولِ سليمانَ ﷺ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ قالَ: أَحْشُرُهُ معَ غيرِ جنسِهِ[(٢)].

وعلَى الجُملةِ فالتَّفسيرُ نوعانِ: منهُ ما نقلَ أنَّهُ مرادُ الآيةِ[(٣)] على الخصوصِ فلا يتعدَّى، ومنهُ مَا يحتملُهُ اللَّفظُ هوَ وغيرُهُ، فتخصيصُ اللَّفظِ ببعضِ مُحتملاتِهِ وتعيينُ أنَّهُ المُرَادُ بالآيةِ يفتقرُ إلى دليلٍ، واللهُ المُسَلِّمُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رضي الله عنه[(٤)]: «وَقِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ: بِمَ وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ؟ فَقَالَ[(٥)]: جَمَعْتُ أَسْبَابَ الدُّنْيَا فَرَبَطْتُهَا بِحَبْلِ القَنَاعَةِ، وَوَضَعْتُهَا فِي مَنْجَنِيقِ الصِّدْقِ، وَرَمَيْتُ بِهَا فِي بَحْرِ اليَأْسِ، فَاسْتَرَحْتُ».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رضي الله عنه: هذَا مِن أَبِي يزيدَ رضي الله عنه جيِّدٌ جدًا، فإنَّ أسبابَ الوصولِ إلى الدُّنيَا متعدِّدَةٌ، ومشتهياتِ الدُّنيَا الَّتِي هيَ متعلَّقُ الشَّهواتِ كثيرةٌ، والقناعةُ باليسيرِ منَ الدُّنيَا يجمعُ شتاتَهَا، ويريحُ من عذابِهَا، فاستعارَ للقناعةِ اسمَ الحَبْلِ، وجمعَ بِهِ أسبابَ الدُّنيَا فربطَهَا.

---

(١) سقط من هنا في (ب) إلى قوله: «وعلى الجملة فالتفسير».

(٢) انظر: تفسير السمعاني ٤/٨٨.

(٣) سقط من هنا في (ب) إلى قوله: «فتخصيص اللفظ».

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٧.

(٥) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٣٥، والأنس في شرح عيوب النفس ص١٧٢، والسلامة في الدين ص٧٤.

وقولُهُ: «فوضعْتُهَا فِي مَنْجَنيقِ الصِّدقِ»، يعنِي: الصِّدقَ فِي البُعْدِ منهَا؛ يعنِي: بعُدَ منهَا بُعْدًا كثيرًا حتَّىٰ قطعَ يأسَهُ منَ الرُّجوعِ إليهَا، واستعارَ لهُ بَحْرَ اليأسِ، فاستراحَ مِنْ عَذَابِهَا وَوَصَلَ إلىٰ ربِّهِ، أيْ: دَامَ شُغْلُهُ بهِ لَا [٣٤/٢ب] بِغَيرِهِ[(١)].

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ[(٣)] ـ رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ ـ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ فَرُّخَانَ بِـ(سَامِرَاء) يَقُولُ: سَمِعْتُ خَالِي عَبْدَ الوَهَّابِ يَقُولُ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ الجُنَيْدِ أَيَّامَ المَوْسِمِ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ مِنَ[(٤)] العَجَمِ وَالمُوَلَّدِينَ، فَجَاءَهُ إِنْسَانٌ بِخَمْسِمَائَةِ دِينَارٍ وَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَتُفَرِّقُهَا[(٥)] عَلَىٰ هَؤُلَاءِ؟، فَقَالَ: أَلَكَ غَيْرُهَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، لِي دَنَانِيرُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ: أَتُرِيدُ غَيْرَ مَا تَمْلِكُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ الجُنَيْدُ: خُذْهَا، فَإِنَّكَ أَحْوَجُ إِلَيْهَا مِنَّا، وَلَمْ يَقْبَلْهَا».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الجُنيدَ أرادَ أنْ ينقلَهُ إلىٰ أعلَىٰ مِنْ درجتِهِ، ويريدُ أنْ يعرفَ أنَّ للهِ ـ تعالىٰ ـ عبادًا أغنياءَ بهِ[(٦)] وبذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، وحُسْنِ اختيارِهِ لهُمْ منَ الغنَىٰ بالمالِ؛ وذلِكَ أنَّهُ لمَّا حسُنَتْ نيَّةُ هذا الآتِي بالمالِ وهانَ عليهِ خمسمائةُ دينارٍ لشخصٍ واحدٍ ومعَهُ جماعةٌ منْ أهلِ الخيرِ دلَّ ذلكَ علىٰ قُوَّةِ مَحبَّتِهِ في الصَّالحينَ، وأنَّ الدُّنيَا محبوبةٌ لهُ حُبًّا منعَهُ مِنْ بذلِهَا في جهةِ البرِّ، فأرادَ أنْ ينقلَهُ إلىٰ أكمَل مِنْ حَالِهِ ليشكرَ اللهَ علىٰ ما هوَ فيهِ ويَسألَهُ الزِّيادةَ[(٧)].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥١٩/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٩٧/١.

(٣) في إحكام الدلالة ٥١٩/١: الصدفي.

(٤) في (ب): معم، والصواب المثبت.

(٥) في (أ): تفرقها.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٢٠/١.

وفيهِ ردُّهُ برفْقٍ وحُسْنِ سياسةٍ؛ إذْ لمْ يهنْ عليهِ أنْ يقبلَ منهُ، وربَّمَا اعترضَ مَنْ لا علمَ عندَهُ بأنْ يقولَ: هذَا مالٌ أتَىٰ بهِ ليفرِّقَهُ علىٰ هؤلاءِ الجماعةِ الحاضرِينَ وهوَ فيهِ واسطةٌ، فكيفَ ردَّهُ وهُمْ محتاجُونَ إليهِ؟!

وهذا مردودٌ بأنَّ أصحابَ الشَّيخِ علىٰ التَّحقيقِ قَدْ سَلَّمُوا قيادَهُم إليهِ، فِي جُوعِهِم[(١)] وشبَعِهِم وأخذِهِم وإعطائِهِم، وأنَّهُمْ دخلُوا معَهُ علَىٰ ذلِكَ والتزمُوهُ لهُ، وهوَ يعلمُ حالَهُمْ فِي هذا الوَقْتِ، وأنَّهُم لا ضَرُورَةَ لهُم، فيفعلُ فيهِ ما رآهُ مصلحةً، وكمْ حُكِيَ مثلُ هذَا عنِ الصَّالحينَ أنَّهُمْ يَبِيتُونَ[(٢)] الأيَّامَ الكثيرةَ جِيَاعًا ولَا يلتفتُونَ، ويأتيهُمُ اللهُ بمَا يأكلُونَ وَيُؤْثِرُ الشَّيخُ بهِ غيرَهُمْ لمصلحةٍ هوَ أعلمُ بهَا منهُم.

❊ ❊ ❊

(١) في (ب): فجوعهم، والصواب المثبت.

(٢) في (أ): يقيموا، والصواب المثبت.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

«بَابُ التَّوَكُّلِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قالَ أهلُ التَّفسيرِ: ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾، معناهُ: كَافِيهِ لَا يحتاجُ إلىٰ غَيْرِهِ[2].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا أمْرٌ بالتَّوكُّلِ [٢/٣٥أ] وطلبٌ لهُ[4].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «أَخْبَرَنَا الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ الأَصْبَهَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ القَاهِرِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ؛ عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[6]: أُرِيتُ الأُمَمَ بِالمُوسِمِ[7]، فَرَأَيْتُ أُمَّتِي مِلءَ السَّهْلِ وَالجَبَلِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢٩٨/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٣٩/٢٨، والسلمي ٤٣٩/٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢٩٨/١.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب ٥٦/٩. وانظر في فضل هذا الباب: اللمع للطوسي ص٧٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٢٩٨/١.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢١٧٠/٥ ـ حديث رقم (٥٤٢٠)، ومسلم في صحيحه ١٩٨/١ ـ حديث رقم (٢١٨).

(٧) أي: موسم الحج.

فَأَعْجَبَنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ، فَقِيلَ لِي: أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ(١)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا الحديثُ صحيحٌ، وهوَ أنَّهُ ﷺ رأىٰ النَّبيَّ ومعَهُ الرَّهطُ، والنَّبيَّ ومعَهُ النَّفرُ اليسيرُ، والنَّبيَّ ومعَهُ الرَّجلُ والرَّجلانِ، حتَّىٰ رأَىٰ جمْعًا عظيمًا فظنَّهُمْ أمَّتَهُ ﷺ وإذَا هوَ موسَىٰ وأمَّتُهُ، فقالَ: يا ربِّ، وأينَ أُمَّتِي؟ فقيلَ: انظُرْ في الأفُقِ، فإذَا هوَ قدْ سُدَّ بوجوهِ الرِّجالِ، ثمَّ قيلَ لهُ: انظُرْ إلَىٰ الأفقِ الآخرِ(٢) فإذَا هوَ قدْ سُدَّ بوجوهِ الرِّجالِ، فقيلَ لهُ: هذهِ أمَّتُكَ، ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفًا يدخلُونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ؛ هُم الَّذِينَ لا يكْتَوُونَ، ولَا يسترقُونَ ولا يتطيَّرُونَ، وعلَىٰ ربِّهِمْ يتوكَّلُونَ، ثمَّ نهضَ النَّبيُّ ﷺ فدخلَ بيتَهُ فخاضَ النَّاسُ فيهِمْ، فخرَجَ فأعلمَهُمْ بهذَا، فقامَ عُكَاشَةُ بنُ محصنٍ... الحديث، وموضعُ الحاجةِ والاستدلالِ أنَّهُمُ المتوكِّلُونَ علىٰ ربِّهِم.

وأمَّا الرُّقَىٰ: فإنَّ النَّبيَّ ﷺ رقَىٰ واسترْقَىٰ، وكانَ يرقِي الحسنَ والحُسينَ ويعوِّذُهُمَا، ورَقَاهُ جبريلُ ﷺ.

وأمَّا الاكتواءُ: فقدِ اكتوَىٰ بعضُ الصَّحابةِ، وربَّمَا يُحتاجُ إليهِ إنْ دعَتْ إليهِ حاجةٌ في الطِّبِّ، وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ(٣): «أَيُّهَا النَّاسُ، تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ

---

(١) أي: في الفضل إلىٰ منزلة أصحاب هذه الأوصاف الأربعة. انظر: عمدة القاري ٢١/٢٤٥.

(٢) في (ب): «إلىٰ الضراب»، والصواب المثبت.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/١١٣٧، والطبراني في المعجم الكبير ١/١٧٩.

يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا وَخَلَقَ لَهُ دَوَاءً إِلَّا الهَرَمَ»، وفي روايةٍ[(١)]: (إِلَّا السَّامَ)؛ وهوَ المَوتُ.

وأمَّا الطِّيَرَةُ: فلَا خيرَ فيهَا [٢/٣٥ب]، وقَدْ قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)]: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ[(٣)] تَطَيَّرَ».

ويحتملُ أنْ يرادَ بالرُّقَى رقَى الجاهليَّةِ، فتكونَ الطِّيَرَةُ ورُقَى الجَاهليَّةِ والكَيُّ الَّذِي يعتادُهُ أهلُ الجاهليَّةِ هوَ المذمومُ، هذَا وجهٌ.

الوَجْهُ الثَّانِي: الإعراضُ عنِ الأسبابِ بالكلِّيَّةِ والتَّداوِي وغيرِهِ اعتمادًا على اختبارِ اللهِ ـ تعالى ـ للعبدِ، وقَدْ قيلَ لأبِي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مرَضِهِ: «ألَّا ندعُو لكَ طبِيبًا؟ قالَ: إنَّهُ قدْ رآنِي، قيلَ لهُ: ما الَّذِي قالَ لكَ؟ قالَ: إنِّي فعَّالٌ لمَا أُرِيدُ»[(٤)].

قالَ عمرُ بنُ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «لَوْ كانَ شِفَائِي عندَ أذُنِي لمَا مددْتُ يدِي إليهِ».

وغيرُ ذلِكَ منَ الأقوالِ الَّتِي تدلُّ على الإعراضِ عنِ الأسبابِ، والاعتمادِ على اللهِ ـ تعالَى ـ، فإنَّ حقيقةَ التَّوكُّلِ: هيَ الاعتمادُ على اللهِ لا على الأسبابِ، فإنْ سكَنَ العبدُ إلى الأسبابِ دونَ اللهِ لمْ يكنْ مُتَوكِّلًا، وإنِ اعتمدَ على اللهِ وتعاطَى الأسبابَ[(٦)] لأمرِ اللهِ معَ اعتمادِ قلبِهِ علَى اللهِ لا على السَّببِ فهوَ مُتَوكِّلٌ، ولَا يضرُّهُ

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ٤/٣٧٠، والطبراني في المعجم الكبير ١١/١٥٣.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/١٦٢، والبزار في مسنده ٩/٥٢.

(٣) في (ب): فيمن، والأصح المثبت.

(٤) رُوي عنه في: الزهد لابن السري ص٢٣٠، وتاريخ دمشق ٣٠/٤١٠، وإحياء علوم الدين ١/٣٣، وتاريخ الخلفاء ص٨١، وروي عن أبي الدرداء في: التمهيد لابن عبد البر ٥/٢٦٩.

(٥) ورد قوله في: الفتن لنعيم بن حماد ص١٢٢، وحلية الأولياء ٥/٣٤٣، وتاريخ الإسلام ٧/٢٠٣.

(٦) في (ب): السبب.

السَّببُ إذا كانَ أخذهُ لهُ للهِ.

ومِمَّا يدلُّ على الإعراضِ عنِ الأسبابِ: قولُ (هودٍ) ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٥، ٥٦].

وقولُ شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقولُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١): «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»، أيْ: تخرجُ منْ أوكارِهَا ومحلِّ استقرارِهَا غدوةً لطلَبِ أرزاقِهَا ولَا تعرفُ جهةً معيَّنَةً، فيرزقُهَا اللهُ مِنْ حيثُ لا تحتَسِبُ، وترجعُ إلى أوكارِهَا قدْ مَلأَتْ بطونَهَا.

ولَوْ علَّقَ العبدُ قلبَهُ باللهِ، وتصرَّفَ على أمْرِ اللهِ وفيمَا أذنَ لهُ اللهُ، معتمدًا بقلبِهِ على اللهِ لا على تسبُّبِهِ(٢) لدخلَ فيمَا وعدَهُ بقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أيْ: كافِيهِ.

وزعمَ قومٌ أنَّ التَّوكُّلَ ترْكُ الكسبِ، وإخلاءُ اليدِ مِنَ المالِ، وليسَ بصحيحٍ، وإنَّمَا التَّوكُّلُ اعتمادُ القَلْبِ على اللهِ، وهوَ من أعمالِ القلوبِ وأحوالِهَا، وثمرةِ صحَّةِ اليقينِ؛ لأنَّهُ لا فاعلَ إلَّا اللهُ، فإذَا استقرَّ هذَا المعنى في القلبِ يقينًا وتكلَّفَهُ الإنسانُ حتَّى صارَ حالًا للقلبِ غالبًا عليهِ كانَ مُتوكِّلًا، وعلامةُ صحَّةِ حالِهِ عدمُ تغيُّرِهِ عندَ تغيُّرِ الأسبابِ والأصحابِ والنَّيلِ والسَّحابِ، [٢/٣٦أ] ولذلِكَ قالَ سفيانُ الثَّوريُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ لَمْ تُمْطِرِ السَّماءُ لمْ تُنْبِتِ الأرضُ، ووقعَ في نفسِي اهتمامٌ للرِّزقِ؛ لظننتُ أنِّي كافرٌ».

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧٣، وابن ماجه في سننه ٢/١٣٩٤.

(٢) في (ب): نسبه، والصواب المثبت.

وذلِكَ أنَّ القدرةَ الأزليَّةَ صالحةٌ لإيجادِ رزقِهِ بغيرِ هذِهِ الأسبابِ، فقصرُهَا[(١)] عليهَا معَ صلاحيَّتِهَا لكلِّ مُمكنٍ غايةُ الزَّللِ والخَطَأ.

ونحنُ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ نُجْرِي قولَ المشايخِ فيمَا يأتِي علىٰ هذَا التَّقريرِ، ونبيِّنُ مرادَ كلِّ قائلٍ منهُمْ، وهَلْ أرادَ حقيقةَ التَّوكُّلِ[(٢)]، أوْ ثمرتَهُ، أوْ مثمرَهُ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ؟!

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الوَجِيهِيَّ يَقُولُ: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ سِنَانٍ[(٤)]: احْكِ لِي عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ حِكَايَةً، فَقَالَ: إِنَّهُ قَالَ[(٥)]: عَلامَةُ المُتَوَكِّلِ ثَلَاثٌ: لَا يَسْأَلُ، وَلَا يَرُدُّ، وَلَا يَحْبِسُ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وعلامةُ المتوكِّلِ[(٦)] ألَّا يَسْأَلَ عندَ الحاجةِ أحدًا[(٧)] منَ المخلوقِينَ، ولَا يحبسُ ما حصلَ بيدِهِ خوفًا منْ تأخيرِ الرِّزقِ أوْ تغييرِ المَقْسُومِ، ولا يَرُدُّ ردًّا يُؤلِمُ صاحبَهُ بردِّهِ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لعمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا كانَ يردُّ عليهِ عطاءَهُ، يقولُ: أعطِهِ مَنْ هوَ أفقرُ إليهِ منِّي، قالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٨)]: «مَا أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَخُذْهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ

---

(١) في (ب): فقصيرها، والصواب المثبت.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٩٨.

(٤) في (أ): يسار.

(٥) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٣/١٩٣، وتهذيب الأسرار ص١٣٦.

(٦) في (ب): التوكل، والأصح المثبت؛ لاتفاق النسختين عليه فيما يأتي.

(٧) في (ب): «أن الإنسان عند الحاجة أحدًا».

(٨) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده ١/١٥٦، ومسند عبد بن حميد ١/٤٥، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/١٠٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/٢٨٠.

رَزَقَكَهُ اللهُ»، فكانَ عمرُ وابنُهُ لا يرُدَّانِ شيئًا أتاهُمَا مِنْ غيرِ مَسْألةٍ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِيَّ(٢) يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَىٰ الدَّيْلَمِيَّ(٣) يَقُولُ: قِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُ اللهُ(٤): مَا التَّوَكُّلُ؟ فَقَالَ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ قُلْتُ: إِنَّ أَصْحَابَنَا يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّ السِّبَاعَ وَالْأَفَاعِيَ عَنْ يَمِينِكَ وَيَسَارِكَ مَا تَحَرَّكَ لِذَلِكَ سِرُّكَ.

فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ: نَعَمْ، هَذَا قَرِيبٌ، وَلَكِنْ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ، وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ، ثُمَّ وَقَعَ لَكَ تَمْيِيزٌ عَلَيْهِمْ(٥)، خَرَجْتَ مِنْ جُمْلَةِ التَّوَكُّلِ(٦)».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ حقيقةَ التَّوكُّلِ: هوَ الاعتمادُ علىٰ اللهِ - تعالىٰ - معَ الإعراضِ عنِ الأسبابِ إلَّا إذَا أمرَ الشَّرعُ بهَا، والعقاربُ والحيَّاتُ هيَ أسبابٌ [٣٦/٢ب] مُؤذِيةٌ عادَةً، فمتَىٰ قَوِيَ اليقينُ بأنَّهُ لا فِعْلَ لغيرِهِ لمْ تَلتفِتِ النَّفسُ للعقاربِ ولَا للحيَّاتِ.

فقولُهُ: «هذَا قريبٌ» تصحيحٌ لهُ، وإنَّمَا ارتفعَ بهمَّتِهِ إلَىٰ الجنَّةِ والنَّارِ، الَّتِي النَّارُ أشدُّ عذابًا والجنَّةُ أفضلُ نعيمٍ وثوابٍ، وكلاهِمَا معمَّرٌ بأهلِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) في حاشية (ب): في نسخة: (السيرواني)، وكذا في (ف). والمثبت موافق لما في: إحكام الدلالة ٥٢٢/١.

(٣) في حاشية (ب): في نسخة: (الديبلي)، وكذا في (ف). والمثبت موافق لما في: إحكام الدلالة ٥٢٢/١.

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٢٦٤/٤، وإتحاف السادة المتقين ١٥٣/١٢.

(٥) أي: اخترت لنفسك شيئًا.

(٦) في (ب): المتوكلين.

فقولُهُ: «لَوْ وقعَ بكَ تمييزٌ عليهِمْ لَخَرَجْتَ عنِ التَّوكُّلِ»، ونحنُ نعلمُ أنَّ هؤلاءِ في أكبرِ نعيمٍ، وهؤلاءِ فِي أشدِّ عذابٍ، فليسَ هذَا مُرادَهُ، وإنَّمَا مرادُهُ بالتَّمييزِ اختيارًا اختارَهُ لنفسِهِ؛ لأنَّهُ لا يعلمُ مصلحتَهُ فِي أيِّ جهةٍ منهُمَا لَا فِي النَّعيمِ ولا فِي العذابِ، وهذَا لا يصحُّ في عذابِ الآخرةِ الَّذِي هوَ عِقابٌ على الإجرامِ، ولا في نعيمِ الجنَّةِ الَّذِي هوَ ثوابٌ على مُلازمةِ الأحكامِ، وإنَّمَا يَحْسُنُ ذلِكَ نظرًا إلى العذابِ والنَّعيمِ، من حيثُ هوَ عذابٌ ونعيمٌ مطلقًا.

وإنَّمَا ذكرَ عذابَ النَّارِ مِنْ حيثُ كَونُهُ أشدَّ عذابٍ، وكذلِكَ نعيمُ الجنَّةِ مِنْ حيثُ هوَ أكبرُ نعيمٍ، ولَمْ يرِدْ أنَّهُ لا يقعُ بهِمَا تمييزٌ من حيثُ كونُهُمَا جزاءً على السَّيِّئاتِ والطَّاعاتِ، قالَ: هذَا التَّمييزُ والتَّرجيحُ والتَّفرقةُ لابُدَّ منهُ شَرْعًا، وذلِكَ كمَا فعلَ بإبراهيمَ الخليلِ وأبِي مسلمٍ الخولانيِّ(١)؛ كانَ دخولُهُمَا فِي النَّارِ فِي حَقِّهِمَا(٢) رحمةً وشَرفًا يُذكَرَانِ بهِ في الدُّنيَا والآخرةِ(٣).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): **«وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(٥): أَوَّلُ مَقَامٍ فِي التَّوَكُّلِ: أَنْ يَكُونَ العَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ - تعالى - كَالمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الغَاسِلِ، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ أَرَادَ، لَا يَكُونُ لَهُ حَرَكَةٌ وَلَا تَدْبِيرٌ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ(٦) مِنْ عَلَامَاتِ المُتوكِّلِ، وذلِكَ أنَّ مَنْ عَلِمَ كمالَ عِلْمِ وكيلٍ - وللهِ المَثَلُ الأعلَى - بمَا يصلحُهُ ويُفسدُهُ وكانَ قادرًا على تحصيلِ

---

(١) لما أحرقة العنَسي المتنبئ، كما مر.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٦.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩.

(٥) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٣/١٩٣، وشعب الإيمان ٢/١٠٩، ومدارج السالكين ٢/١٢١، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٤٣.

(٦) في (ب): وهذا.

ما يصلحُهُ ودفعِ ما يُفسدُهُ، وكانَ كريمًا متفضِّلًا بمَا يُجريهِ عليهِ ويفعلُهُ[١] سكنَتْ نفسُهُ لهُ بالكلِّيَّةِ، وكذلكَ مَنْ وثقَ بمولَاهُ واعتمدَ بقلبِهِ عليهِ، وكانَ بينَ يدَيهِ كالميِّتِ الَّذِي لا حياةَ لهُ ولا حَرَكَةَ، بَلْ يَرَىٰ في نَفْسِهِ حركتَهُ كونَهُ محرَّكًا، وفِي نفسِ تقلُّبِهِ كونَهُ مقلَّبًا قدِ استراحَ قلبُهُ مِنْ هَمِّ التَّقديرِ والاختيارِ، إلَّا ما أمرَهُ بهِ أوْ نهاهُ عنهُ العَالِمُ بمصَالِحِهِ ومَفَاسِدِهِ الواحدُ القهَّارُ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ حَمْدُونُ**[٤]: **التَّوَكُّلُ: هُوَ الاِعْتِصَامُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنْ أرادَ بالاعتصامِ [٢/١٣٧أ] الاعتمادَ بقلبِهِ علىٰ ربِّهِ فجيِّدٌ، وإنْ أرادَ بهِ الثِّقةَ واليقينَ بوقوعِ المطلوبِ فهذَا راجعٌ إلىٰ بابِ الرَّجاءِ، وهوَ مِنْ أسبابِ التَّوكُّلِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ البَلْخِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ حَامِدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ خِضْرَوَيْهِ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ لِحَاتِمٍ الأَصَمِّ**[٦]: **مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ؟ فَقَالَ:** ﴿**وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [المنافقون: ٧]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والسُّؤالُ: «**مِنْ أينَ تأكلُ؟**» لا يخلُو مِنْ أنْ[٧] يكونَ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٨٦.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩.

(٤) أي: حمدون القصار، وورد قوله في: عوارف المعارف ص٢٩٢ ـ ط/العلمية، وسراج الطالبين ٢/٨٧، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٥٩.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩.

(٦) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٢٨، وشعب الإيمان ٢/١١٤، وتاريخ بغداد ٨/٢٤٤، والمحرر الوجيز ٥/٣١٤، ووفيات الأعيان ٢/٢٨.

(٧) في (أ): إما أن، والأصح المثبت؛ لأنه لم يرد بـ(إما) عطفا عليها.

عنِ الجهةِ المعلومةِ أنَّ العادةَ تجرِي الأرزاقُ منَ اللهِ بسببِهَا، أوْ عنْ شكٍّ في مُجْرِيهَا؛ فإنْ كانَ شكًّا في مُجْرِيهَا أوْ غفلةً عنهُ فقولُ حاتمٍ في الأدبِ لهُ جيِّدٌ، وإنْ كانَ سؤالُهُ عنْ بعضِ الأسبابِ المعتادةِ ليعرفَ وجْهَ حِلِّهَا[1] فنقتَدِيَ بهِ فيهَا فليسَ ما جرَىٰ علىٰ لسانِهِ بجوابٍ لسُؤالِهِ، وقَرَائنُ الأحوالِ مُحَكَّمةٌ في بيانِ المُرادِ، واللهُ أعلَمُ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَاعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ مَحلُّهُ القَلْبُ، وَالحَرَكَةُ بِالظَّاهِرِ لَا تُنَافِي تَوكُّلَ القَلْبِ بَعْدَ مَا تَحقَّقَ العَبْدُ أَنَّ التَّقْدِيرَ مِنْ قِبَلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَإِنْ تَعَسَّرَ شَيْءٌ فَبِتَقْدِيرِهِ، وَإِنِ اتَّفَقَ شَيْءٌ فَبِتَيْسِيرِهِ.**

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ: أَنْبَأَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا غِيلَانُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مَسْعُودٍ الجَحْدَرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي المُغِيرَةُ بْنُ أَبِي قُرَّةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَاقَةٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَدَعُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟، فَقَالَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ[3]: **«اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أَتَىٰ بِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مستدِلًا بأنَّ السَّببَ لا يناقضُ التَّوكُّلَ، ويمكنُ الجمعُ بينَهُمَا، بأنَّ[4] عقْلَهُ لَهَا فِعْلُ يدِهِ، وتوكُّلَهُ علَىٰ اللهِ فِعْلُ قَلْبِهِ.

وأمَّا قولُهُ: **«إنَّ التَّوكُّلَ عملُ القلبِ»** قَدْ بيَّنَّا صحَّتَهُ واستدللْنَا عليهِ، وأعمالُ الجوارحِ تبعٌ لهُ، ولذلِكَ قالَ بعضُهُمْ[5]: «التَّوكُّلُ: اضطِّرابٌ بلا سُكونٍ، وسُكونٌ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٦٨، وابن حبان في صحيحه ٢/٥١٠.

(٤) في (ب): فإن.

(٥) نسب لأبي سعيد الخراز في: تفسير السلمي ٢/١١٩، وإحياء علوم الدين ٤/٢٦٥، ومدارج=

بلا اضطِّرابٍ»، أيْ: سكونٌ إلى اللهِ ـ تعالى ـ بغيرِ اضطِّرابٍ إِلَى الأسبابِ، واضطِّرابٌ إلى الأسبابِ مِنْ غيرِ سكونٍ إليهَا، بَلْ حَرَكتُهُ فيهَا امتثالٌ لأمرِ ربِّهِ بهَا لَا اعتمادَ عليهَا[1].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ: مَنْ صَحَّ [٣٧/٢ب] تَوَكُّلُهُ فِي نَفْسِهِ، صَحَّ تَوَكُّلُهُ فِي غَيْرِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا صحيحٌ، فإنَّ أصلَ التَّوكُّلِ ومثمرَهُ هوَ اليقينُ، بأنَّهُ لا فعلَ لغيرِ اللهِ ـ سبحانه ـ وأنَّ كلَّ الخلقِ إنَّمَا يجرِي عليهِمْ أفعالُهُ واختياراتُهُ وأنَّ أكسابَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ ـ تعالى ـ، وكذلِكَ متعلِّقُ كسبِهِمْ مخلوقٌ للهِ ـ تعالى ـ هذَا هوَ مذهبُ أهلِ الحقِّ والسُّنَّةِ[3]، قالَ ـ تعالى ـ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢، وغيرها]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

= السالكين ١١٥/٢، ولبشر بن الحارث في: حلية الأولياء ٣٥١/٨، وجامع العلوم والحكم ص٤٤٠.

(١) انظر: نتائج الأفكار ٨٨/٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢٩٩/١.

(٣) قال ابن حزم: «اختلفوا في خلق الله تعالى لأفعال عباده؛ فذهب أهل السنة كلهم... إلى أن جميع أفعال العباد مخلوقة خلقها الله عَزَّوَجَلَّ في الفاعلين لها، ووافقهم على هذا موافقة صحيحة من المعتزلة ضرار بن عمرو، وصاحبه أبو يحيى حفص الفرد، وذهب سائر المعتزلة ومن وافقهم على ذلك من المرجئة والخوارج والشيعة إلى أن أفعال العباد محدثة، فعلها فاعلوها، ولم يخلقها الله عَزَّوَجَلَّ...» الفصل في الملل ٣٢/٣.

وللاستزادة تأمل: خلق أفعال العباد للبخاري ص٤٧، ٨٥، واعتقاد أئمة الحديث ٦٠/١، واللمع للأشعري ص٦٩، والإبانة ص٢٣، وشرح الأصول الخمسة ص٣٢٣، ٣٦٢، والمغني للقاضي عبد الجبار ٣/٨، ١٩٣، وتمهيد الأوائل ص٣٤٢، والمنية والأمل لابن المرتضي ص٣٥، وقواعد العقائد ص١٩٣، والحجة في بيان المحجة ٤٤٣/٢، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٤٩٦.

فإذا صحَّ هذا المعنىٰ في نفسِهِ اطَّرَدَ في سائِرِ خَلْقِ اللهِ؛ لأنَّهُمْ مثلُهُ فِي العجزِ والخِلقةِ، ولكنَّهُ يجبُ عليهِ الطَّلَبُ والكسبُ تارةً لعيالِهِ ولولدِهِ الصَّغيرِ أوْ والدِهِ الفقيرِ أوِ الفقيرَينِ، وهذَا إذَا فعلَهُ لهُمْ لأمْرِ اللهِ لَا يخرجُهُ عنْ توكُّلِهِ علىٰ اللهِ، وإنَّمَا يغلطُ في هذا الموضعِ مَنْ يعتقدُ أنَّ التَّوكُّلَ تركُ الكسْبِ، وينظرُ إلىٰ ثمرتِهِ فِي حقِّ بعضِ النَّاسِ، وهوَ مَنْ[1] لَمْ يَأْمُرْهُ الشَّرعُ بطلبٍ ولا كسبٍ ويكونُ وحدَهُ ولا حقَّ عليهِ لغيرِهِ، وقَدْ رُزِقَ الصَّبرَ والقوَّةَ علىٰ الجوعِ أوِ العونُ والتَّيسيرُ وقتَ الحَاجةِ، فَلَا حَاجَةَ لهذَا المَوقفِ للكَسْبِ في نفسِهِ ولا في غيرِهِ، فلمَّا رآهُ الجَاهلُ بحقيقةِ التَّوكُّلِ اعتقدَ أنَّ التَّوكُّلَ تَرْكُ الكسبِ مطلقًا، بلِ الحقُّ أنَّ التَّوكُّلَ اعتمادُ القلبِ علىٰ اللهِ لَا علىٰ غيرِهِ، بلْ ولَا علىٰ توكُّلِهِ، ويكونُ الإنسانُ فِي الفِعْلِ والتَّركِ متَّبعًا للدَّليلِ الشَّرعيِّ كمَا ذكرْنَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ بِشْرٌ الحَافِي[3]: يَقُولُ أَحَدُهُمْ: تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللهِ، وَيَكْذِبُ عَلَىٰ اللهِ؛ لَوْ تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ لَرَضِيَ بِمَا يَفْعَلُ اللهُ بِهِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ مِنْ ثَمَراتِ التَّوكُّلِ الرِّضَىٰ، فمَنِ اعتمَدَ قلبُهُ علىٰ اللهِ، وتحسَّسَ لتفضُّلِهِ ـ تعالىٰ ـ عليهِ، وإجرائِهِ النِّعَمَ لديهِ، فرأىٰ جميعَ ما هوَ فيهِ نعمةً مُسْدَاةً مِنْ ربِّهِ إليهِ.. رضِيَ بجميعِ ما يُجْرِيهِ الحَقُّ عليهِ، فكلُّ مَنْ لم يَرْضَ بِمَا يُجْرِيهِ الحَقُّ عليه، ولم يَتَمَكَّنْ فِي تَوكُّلِه، ولو تَمَكَّنَ لَرَضِيَ بكلِّ ما يُجْرِيه عليهِ ممَّا لمْ يَنْهَهُ عنهُ فإنَّهُ لا يصحُّ الرِّضَىٰ، وإنْ علِمَ أنَّهُ من اللهِ فإنَّهُ مأمورٌ بالبكاءِ والتَّضرُّعِ والبُعْدِ مِنْ ذلكَ جهدَهُ، وهذَا هوَ سُلُوكُ طريقِ الحقيقةِ والورعِ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٧. وفيه إشارة إلىٰ الحث علىٰ التخلق الباطني بالكمالات كالظاهري.

جَمِيعًا، كمَا قالَ بعضُهُمْ(١): «العارفُ: مَنْ لا يُطْفِئُ نورُ معرفتِهِ نورَ ورعِهِ»، فلَا يحملُهُ [٢/١٣٨أ] علمُهُ بأنَّ كلَّ شيءٍ منْ عندِ اللهِ على تركِ الحذَرِ لمَا حذَّرَهُ اللهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَسُئِلَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ(٣): مَتَى يَكُونُ الرَّجُلُ مُتَوَكِّلًا؟ فَقَالَ: إِذَا رَضِيَ بِاللهِ وَكِيلًا».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وقَدْ سَمَّى ـ تعالى ـ نفسَهُ (وَكِيلًا)، فقالَ ـ سبحانه ـ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، فمَنْ تحقَّقَ عندَهُ العلمُ بتعلُّقِ علمُهُ ـ تعالى ـ بكلِّ معلومٍ، وسَعَة رحمتِه حتَّى عمَّتْ كلَّ مرحومٍ، وتحسَّسَ لآثارِ لُطْفِهِ بهِ فِي كلِّ حالٍ اعتمدَ بقلبِهِ عليهِ، وتوكَّلَ في سَائرِ الأحوالِ عليهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّامِتِ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصَ يَقُولُ(٥): بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي البَادِيَةِ، وَإِذَا بِهَاتِفٍ يَهْتِفُ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ يَسِيرُ، فَقَالَ لِي(٦): يَا إِبْرَاهِيمُ؛ التَّوَكُّلُ عِنْدَنَا، أَقِمْ عِنْدَنَا حَتَّى يَصِحَّ تَوَكُّلُكَ، أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ رَجَاءَكَ لِدُخُولِ بَلَدٍ فِيهِ أَطْعِمَةٌ تَحْمِلُكَ؟! اِقْطَعْ رَجَاءَكَ عَنِ البُلْدَانِ وَتَوَكَّلْ».

---

(١) نسب للسري السقطي في: تاريخ دمشق ٢٠/١٩٤، ووفيات الأعيان ٢/٣٥٨، ومدارج السالكين ٢/٤٦٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٣٤، ومدارج السالكين ٢/١١٥، وسراج الطالبين ٢/٨٧، ونسب لأبي يزيد البسطامي في: تهذيب الأسرار ص١٣٨.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٥) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/١٢٦، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٠٠.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ رحمَكَ اللهُ ـ ليسَ إشارةً إلىٰ أنَّ التَّوكُّلَ لا يكونُ إلَّا معَ الأسبابِ، إنَّمَا المرادُ منهُ: أنْ يمتحنَ العبدُ نفسَهُ في دعْوَىٰ التَّوكُّلِ علَىٰ اللهِ والإعراضِ عنِ الأسبابِ، وذلِكَ أنَّ الصَّحراءَ فِي الغَالبِ مُنْقَطِعةٌ عنِ الأسبابِ بخلافِ البلدانِ والقُرَىٰ، فإنَّ النَّفسَ سَاكنةٌ فيهَا إلىٰ المعتادِ والمَعَارفِ[(١)] والأصحابِ، فيكونُ هذَا الَّذِي رآهُ؛ إمَّا وليٌّ، أو ملكٌ أنبأَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بكلامِهِ علَىٰ الامتحانِ لنفسِهِ في التَّوكُّلِ، فإنْ رأَىٰ نقْصًا كملَ، وإنْ رأَىٰ صحَّةً شكَرَ[(٢)].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الفَارِسِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ وَسُئِلَ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوكُّلِ، فَقَالَ[(٤)]: أَلَّا يَظْهَرَ فِيْكَ انْزِعَاجٌ إِلَىٰ الأَسْبَابِ مَعَ شِدَّةِ فَاقَتِكَ إِلَيْهَا، وَلَا تَزُولُ عَنْ حَقِيقَةِ السُّكُونِ إِلَىٰ الحَقِّ مَعَ وُقُوفِكَ عَلَيْهَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ بيَّنَّا غيرَ مرَّةٍ أنَّهُمْ يريدونَ بالحقيقةِ غيرَ الحدِّ والحقِّ اقتداءً بسؤالِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحارثَةَ لمَّا قالَ لهُ[(٥)]: «كيفَ أصبحتَ، فقالَ حارثَةُ: مؤمنًا حقًّا[(٦)]، قالَ لهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً فمَا حقيقةُ إيمانِكَ؟»، فأخبرَهُ بغلبةِ[(٧)] حالِ الإيمانِ علىٰ قلبِهِ؛ وهوَ الزُّهدُ فِي الدُّنيَا، ورؤيةُ الجنَّةِ والنَّارِ والعرشِ وأهوالِ القيامةِ، [٢/٣٨ب] هذَا هوَ متعلَّقُ الإيمانِ، فكذلِكَ ما نحنُ فيهِ لمَّا سُئِلَ عنْ حقيقةِ التَّوكُّلِ ولمْ يسألْ عنْ حدِّهِ، فإنَّ حدَّهُ كمَا تقدَّمَ[(٨)]: اعتمادُ القلبِ

---

(١) في نتائج الأفكار ٣/٨٨: «لعله: والمتعارف، يعني من وجوه الأقوات وغيرها».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٠.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٥، ومدارج السالكين ٢/١١٥، وسراج الطالبين ٢/٨٧.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) في (ب): بقلبه، والصواب المثبت.

(٨) الدلالة ٢/٤٥٠.

علىٰ اللهِ، وحقيقتُهُ غلبةُ أحوالِ المُتوكِّلينَ علىٰ القَلْبِ، وفسَّرَ ذلكَ بأنْ قالَ: «**ألَّا يظهرَ فيكَ انزعاجٌ إلىٰ الأسبابِ معَ شدَّةِ فاقتِكَ إليها**»، معناهُ: ألَّا يظهرَ عليكَ قلقٌ عندَ تغيُّرِ الأحوالِ معَ فقرِكَ واحتياجِكَ، وكذلِكَ إذَا تعاطيتَهَا لَا يغفلُكَ تعاطِيهَا عنِ اعتمادِكَ علىٰ ربِّكَ وسُكُونِكَ إليهِ، وهوَ معنىٰ قولِهِ: «**ولا تَزُولُ عن حَقِيقَةِ السُّكُونِ إلىٰ الحقِّ مَعَ وقُوفِكَ عليهَا**».

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «**سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ[2] يَقُولُ: شَرْطُ التَّوكُّلِ مَا قَالَهُ أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ؛ وَهُوَ طَرْحُ البَدَنِ فِي العُبُودِيَّةِ، وَتَعَلُّقُ القَلْبِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالطُّمْأْنِينَةُ إِلَىٰ الكِفَايَةِ، فَإِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِنْ مُنِعَ صَبَرَ.**

وَكَمَا قَالَ ذُو النُّونِ[3]: التَّوَكُّلُ: تَرْكُ[4] تَدْبِيرِ النَّفْسِ، وَالانْخِلَاعُ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ.

وَإِنَّمَا يَقْوَىٰ العَبْدُ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الحَقَّ ـ سبحانه ـ يَعْلَمُ وَيَرَىٰ مَا هُوَ فِيهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وشرْطُ التَّوكُّلِ علىٰ التَّحقيقِ الَّذي إذا انتفَىٰ هوَ علمُ القلبِ بانفرادِ الحقِّ ـ سبحانه ـ بسائِرِ الأفعالِ وكمالِ الرَّحمةِ لعبادِهِ وإسباغِ النِّعمِ علىٰ مَنْ شاءَ[5] منهُمْ مِنْ غيرِ تقدُّمِ عملٍ منهُمْ ولَا اختبارٍ، فإِذَا صحَّ هذا فِي القلبِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٠.

(٢) اللمع للطوسي ص٧٨، وتتمته فيه: «صبر راضيًا موافقًا للقدر»، ونسب إليه أيضا في: تفسير السلمي ١/٣٤٢، والتعرف لمذهب التصوف ص١٠١، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٤٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٣١٠.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٧٨، ومدارج السالكين ٢/١١٥، والمطلع علىٰ أبواب المقنع ١/٩٢، وكشاف القناع ١/٤١٨.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) في (ب): يشاء.

تعلّقَ القلبُ بالرُّبوبيّةِ، وطرحَ بدنَهُ فِي أحكامِ العبوديَّةِ، وهوَ الَّذِي قالَهُ أبو ترابٍ معَ الطُّمأنينةِ إلىٰ الكفايةِ؛ لأنَّهُ ـ سبحانه ـ وعدَ بذلِكَ بقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أيْ: كافِيهِ.

وكذلِكَ إذَا صحَّ ما قرَّرْنَاهُ في قلبِ العبدِ تركَ تدبيرَ نفسِهِ، وأضافَ تدبيرَهَا للعالَمِ بمَا يضرُّهَا وينفعُهَا[1]، وتبرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ، وأضافَ ذلِكَ إليهِ لَا إلهَ غيرُهُ، وكمالُ ذلِكَ بدوامِ رؤيةِ العبدِ بقلبِهِ نظرَ الحقِّ إليهِ في سائرِ تقلُّبِهِ، ومَا هوَ فيهِ بقلبِهِ وجوارحِهِ، وإنَّمَا يتحمَّلُ العبدُ مَا يطرقُهُ منَ الآلامِ والأسقامِ، ومَا يختلفُ عليهِ ممَّا سبقَتْ بهِ الأحكامُ بدوامِ الرُّؤيةِ لمَنْ يُجرِيهَا ويُنشِئُهَا، وهوَ المختارُ لهَا ذُو الجلالِ والإكرامِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الفَرَجِ الوَرْثَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ القِرْمِيسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ** [٢/٣٩أ] **الكِتَّانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرِ بْنَ الفَرَجِيِّ يَقُولُ[3]: رَأَيْتُ رَجُلًا يُعْرَفُ بِـ(جَمَلِ عَائِشَةَ) مِنَ الشُّطَّارِ يُضْرَبُ بِالسِّيَاطِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّ وَقْتٍ يَكُونُ أَلَمُ الضَّرْبِ عَلَيْكُمْ أَسْهَلَ؟، قَالَ: إِذَا كَانَ[4] مَنْ ضُرِبْنَا لِأَجْلِهِ يَرَانَا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ فيهَا إشارةٌ إلىٰ ما ذكرْنَاهُ مِنْ أنَّ العبدَ لا يحتملُ الأعمالَ الشَّاقَّةَ ويصبرُ تحتَ النَّوازلِ الصَّعبةِ إلَّا إذا رأىٰ المُبْلِي والمُمتحِنَ، وغلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّهُ لا يفعلُ بهِ إلَّا ما هوَ صلاحٌ لهُ، فيقوىٰ نشاطُهُ لحملِهِ، وتخفُّ عليهِ كلفُهُ، وهوَ مرادُ الحكايةِ، وإنْ كنَّا نستثقلُهَا بعضَ الاستثقالِ،

---

(١) في (ب): وما ينفعها.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٠.

(٣) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٢/٢٩٠.

(٤) في (ب): يكون.

وإنَّمَا سمِّيَ هذَا الشَّاطرُ بـ(جَمل عائشَةَ) ؛ لكثرةِ ثُبُوتِه وصَبْرِه ومَا فيهِ منَ الألمِ والضَّربِ[١] ، تَشْبِيْهًا بالجَملِ في الوَقْعَةِ المَعْرُوفةِ[٢] .

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] : «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: قَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ لِإِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصِ[٤] : مَاذَا صَنَعْتَ فِي هَذِهِ الأَسْفَارِ وَقَطْعِ هَذِهِ المَفَاوِزِ ؟ قَالَ: بَقِيتُ فِي التَّوَكُّلِ أُصَحِّحُ نَفْسِي عَلَيْهِ.

فَقَالَ الحُسَيْنُ: أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ فِي عُمْرَانِ بَاطِنِكَ ، فَأَيْنَ الفَنَاءُ فِي التَّوْحِيدِ ؟!» .

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ البُعدَ عنِ الأسبابِ ، ودخولَ الصَّحراءِ بلا زادٍ ، والبعدَ عنِ الأوطانِ والأحبابِ إنَّمَا يُرَادُ لامتحانِ التَّوكُّلِ ، لَا لأنَّهُ شرطٌ فيهِ ، فلمَّا سألَ الحلَّاجُ الخَوَّاصَ عنْ تقطُّعِهِ في الأسفارِ والبَرَارِي والسِّياحةِ ، فأجابَهُ بأنَّهُ كانَ يعملُ في تصحيحِ توكُّلِهِ وعدمِ التفاتِ قلبِهِ إلىٰ الأسبابِ ، وتعلُّقِ قلبِهِ بالمسبِّبِ الَّذِي لا يفارقُهُ ولا يتغيَّرُ ، فأجابَهُ الحسينُ: «**أَفنَيْتَ عُمْرَكَ في عُمرانِ باطنِكَ**» بالأخلاقِ المحمودةِ ، وهو تصحيحُ زهدِكِ وتوكُّلِكَ ورضاكَ ومحبَّتِكَ «**فأينَ فناؤُكَ في التَّوحيدِ ؟**» وإعراضُكَ عنكَ ، واستغراقُكَ بهِ ، وعدمُ إحساسِكَ بكَ[٥] ، فنقلَهُ من حالٍ[٦] رفيعٍ إلىٰ ما هوَ أرفعُ منهُ ، وهكذَا ينبغِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٥ .

(٢) أي: موقعة الجمل ، وهي المعركة التي وقعت في البصرة عام ٣٦ هـ (بين قوات علي بن أبي طالب والجيش الذي يقوده طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بالإضافة إلىٰ السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وخرجت محمولة علىٰ الجمل ، فسميت بذلك لذلك . انظر: تاريخ خليفة بن خياط ص١٨١ .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٠ .

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٧ ، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٢ .

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب) .

(٦) في (أ): حال إلىٰ حال ، والأصح المثبت ، كما نقله عنه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٦ .

أنْ يكونَ أهلُ الخيرِ إذا اجتمعُوا نبَّهَ بعضُهُمْ بعضًا، وأرشدَ بعضُهُمْ؛ إمَّا لنقصٍ يُجْبَرُ، أو لكمالٍ يُقْصَدُ ويُنْتَظَرُ(١).

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ(٣) يَقُولُ: التَّوَكُّلُ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ الزَّقَّاقُ؛ وَهُوَ: رَدُّ العَيْشِ إِلَىٰ يَوْمٍ وَاحِدٍ(٤)، وَإِسْقَاطُ هَمِّ غَدٍ.

قَالَ(٥): وَهُوَ كَمَا قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّوَكُّلُ: الاِسْتِرْسَالُ مَعَ اللهِ - تعالىٰ - عَلَىٰ [٣٩/٢ب] مَا يُرِيدُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «التَّوكُّلُ: ردُّ العيشِ إلىٰ يومٍ واحدٍ»، وهذَا راجعٌ إلىٰ قِصَرِ الأملِ، فمتَىٰ قصُرَ أملُهُ قلَّتْ حوائجُهُ، ورجعَتْ حوائجُهُ إلَىٰ تمشيةِ وقتِهِ الَّذِي هوَ فيهِ لا غيرُ، وهذَا قدْ يمشِي بشيءٍ حاصلٍ وإنْ كانَ فيهِ الإعراضُ عنْ همِّ غدٍ، فإنَّ قِصَرَ الأملِ يفيدُهُ وإنْ فهمَ منهُ أنَّ مَنْ زالَ عنهُ هَمُّ غدٍ ولَا يتسبَّبُ لهُ فإنَّ الحقَّ يأتيهِ بهِ لضمانِهِ، فهذَا لا يفيدُهُ قِصَرُ الأملِ، بلْ قِصَرُ الأَمَلِ يقصرُ نظرَ العبدِ علىٰ حالِهِ الَّذِي هوَ فيهِ، ولَا يلتفتُ لمَا يأتِي منَ الزَّمانِ، فإنْ خطرَ لهُ الحالُ في الاستقبالِ ردَّهُ بقِصَرِ الأملِ لَا بالتَّوكُّلِ علىٰ الحقِّ - سبحانه -.

وأمَّا قولُ سهْلِ بنِ عبدِ اللهِ: «التَّوكُّلُ: الاسترسالُ معَ اللهِ - تعالىٰ - علَىٰ ما

---

(١) في نتائج الأفكار ٩٠/٣: «والغرض بذلك بذل النصح حتىٰ لا يقف مع حسن الحال».

(٢) الرسالة القشيرية ٣٠٠/١.

(٣) اللمع ص٧٨. وورد أيضا في: تفسير السلمي ٣٤٢/١، والمقدمة في التصوف له أيضا ص٢٠، وسراج الطالبين ٨٥/٢.

(٤) القصد: الحث علىٰ الاهتمام بالعبادة، وترك الاشتغال بما لا يجدي من خبيث العادة.

(٥) اللمع ص٧٨. وورد أيضا في: مدارج السالكين ١١٤/٢، وشرح صحيح مسلم للنووي ٩٢/٣، وكشاف القناع ٤١٨/١.

يريدُ»، فهذا فيهِ إشارةٌ إلىٰ كمالِ مقامِ التَّوكُّلِ والدُّخولِ في مقامِ الرِّضا، فإنَّ مَنْ توكَّلَ علَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ في تيسيرِ مَا يحتاجُ إليهِ من مصالِحِهِ الدُّنيويَّةِ والدِّينيَّةِ وصرفِ مَا يُؤذِيهِ منَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ثمَّ رأىٰ ذلكَ جاريًا عليهِ من مَولَاهُ تَوالَىٰ عليهِ لُطْفُهُ بهِ في سائرِ مَا يتعاطَاهُ؛ سلَّمَ لمولَاهُ، وترَكَ إرادَتَهُ واختياراتِهِ، وجرَىٰ معَ الحقِّ راضيًا[1] بمَا يُقدِّرُهُ عليهِ ويُجريهِ في سَائرِ حَالاتِهِ[2]، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بـ«**الاسترسَالِ معَ الحقِّ فيمَا يُرِيدُ**».

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**سَمِعْتُ[4] الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ البَرْذَعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا يَعْقُوبَ النَّهْرَجُورِيَّ يَقُولُ[5]: التَّوَكُّلُ [عَلَىٰ اللهِ][6] عَلَىٰ كَمَالِ الحَقِيقَةِ[7] مَا وَقَعَ لِإِبْرَاهِيمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فِي الوَقْتِ الَّذِي قَالَ لِجِبْرِيلَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا؛ لِأَنَّهُ غَابَتْ نَفْسُهُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَلَمْ يَرَ مَعَ اللهِ غَيْرَ اللهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ عالٍ، وهوَ قولُهُ: «**أَعْلَىٰ حقيقةِ التَّوكُّلِ**»، يعنِي: أَعْلَىٰ أحوالِ المتوكِّلِينَ ما جرَىٰ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وهوَ أنَّهُ مكتوفٌ[8] مربوطٌ في كِفَّةِ المنجنيقِ بينَ السَّماءِ والأرضِ يَهْوِي إلىٰ نارٍ، لَمْ[9] يتمكَّنُوا بإيصالِهِ إليهَا

---

(١) في (ب): رضيا، والأصح المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٦.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠١.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/١٠٤، ومناقب الأبرار ٢/٧٢٨.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) أي: علىٰ الحقيقة الكاملة، فهو من إضافة الصفة إلىٰ الموصوف.

(٨) في (أ): مكتف.

(٩) سقط هذا اللفظ من (ب).

إلَّا بكِفَّةِ المنجنيقِ منْ شدَّةِ حرِّهَا ووقودِهَا[١]، فأتَاهُ وهوَ في هذا الحالِ أعظمُ الأسبابِ؛ وهوَ الملَكُ المختصُّ بالرِّسالةِ من ربِّ الأربابِ، الَّذِي رفعَ بلادَ قومِ لوطٍ علىٰ جِنَاحِهِ فأقلبهَا[٢]، ويُهلكُ بأمْرِ ربِّهِ ما يشاءُ، ويصرفُ عنهُ جميعَ الآلامِ [٢/١٤٠أ] ويُذْهِبُهَا، قالَ لهُ: «ألكَ حاجةٌ؟» فأعرَضَ عن أعظمِ الأسبابِ في وقتِ المخاوفِ[٣] وتعلَّقَ بربِّ الأربابِ، وأجابَ: «أمَّا إليكَ فلَا».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ سَهْلٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ عُثْمَانَ الخَيَّاطَ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا[٥] النُّونِ المِصْرِيَّ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا التَّوَكُّلُ؟ فَقَالَ: خَلْعُ الأَرْبَابِ[٦]، وَقَطْعُ[٧] الأَسْبَابِ، فَقَالَ السَّائِلُ: زِدْنِي، فَقَالَ: إِلْقَاءُ النَّفْسِ فِي العُبُودِيَّةِ، وَإِخْرَاجُهَا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُ ذِي النُّونِ: «**خَلْعُ الأَرْبَابِ، وَقَطْعُ الأَسْبَابِ**»؛ فقولُهُ: «**خَلْعُ الأَرْبَابِ**» إشارةٌ إلىٰ كلِّ مَا يملكُ القلبُ ويصيرُ مسخَّرًا لهُ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٨]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ القَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ»، فجعلَهُ عبدًا، وجعلَ لهُ أربابًا.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٢٦/١.

(٢) الأصح: فقلبها.

(٣) في (ب): أعظم المخاوف.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٠١/١.

(٥) في (ب): ذو، والصواب المثبت.

(٦) في نتائج الأفكار ٩١/٣: «فيه إشارة إلىٰ أن تعلق القلب بما سوىٰ الله - تعالىٰ - بالاعتماد نوع من الشرك».

(٧) في (ب): وقع، والصواب المثبت.

(٨) سبق تخريجه.

وأمَّا «قَطْعُ الأسبابِ» فهوَ إشارةٌ إلىٰ كلِّ سببٍ يعتمدُ العبدُ عليهِ فِي كلِّ أَرَبٍ، ومتىٰ خلعَ العبدُ الأربابَ وقطعَ الأسبابَ، ولمْ يبقَ لهُ مُعْتَمَدٌ سِوَىٰ ربِّ الأربابِ فهوَ المتوكِّلُ، فقالَ لهُ السَّائلُ: «زِدْنِي»، فقالَ: «**إلقاءُ النَّفْسِ**»؛ فقولُهُ لهُ: «**إلقاءُ النَّفسِ في العبوديَّةِ**»، أيْ: تكونُ دائمًا في الاشتغالِ بمَا أُمِرْتَ بهِ ونُهِيتَ عنهُ، و«**إِخْرَاجُهَا منَ الرُّبوبيَّةِ**»، أيْ: سَلْبُهَا عنِ القُدْرةِ علىٰ شَيْءٍ ممَّا يَنْفَعُهَا أو يَضُرُّهَا، وإضافةُ ذلِكَ إلىٰ مَالِكِهَا وخَالِقِهَا، فكلَّمَهُ أوَّلًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكلامٍ رفيعٍ عسُرَ عليهِ فهمُهُ، فلمَّا قالَ: «زِدْنِي» فِي البيانِ، خاطَبَهُ علىٰ قَدْرِ فَهْمِهِ، قالَ لهُ: اعمَلْ بمَا أمرَكَ اللهُ بهِ، ونهاكَ عنهُ، وأخرِجْ نفسَكَ عنِ القدرةِ عن نفعِ نفسِكَ، أوْ دفعِ ما يضرُّهَا بوَجْهٍ منَ الوجوهِ.

وهذَا الكلامُ أقربُ(١) إلىٰ فهمِ كلِّ أحدٍ منَ النَّاسِ، وهذا يدلُّكَ علىٰ أنَّهُمْ لَا يتعرَّضُونَ للتَّحديدِ، وإنَّمَا يقصدُونَ التَّعليمَ والتَّفهيمَ، وتختلفُ ألفاظُهُمْ باختلافِ حَالِ مَنْ يُخَاطِبُونَهُ(٢).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ المُعَلِّمَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَنَازِل؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَمْدُونَ، ـ وَسُئِلَ عَنِ التَّوَكُّلِ ـ فَقَالَ(٤): إِنْ كَانَ لَكَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَعَلَيْكَ دَانِقٌ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ تَمُوتَ وَيَبْقَىٰ ذَلِكَ فِي عُنُقِكَ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْكَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ دَيْنًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتْرُكَ لَهَا وَفَاءً؟ لَا تَيْأَسْ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَنْ يَقْضِيَهُ عَنْكَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا [٢/٤٠ب] يرجعُ إلىٰ خوفِ المعاجلةِ قبلَ

(١) في (ب): قريب.

(٢) في (ب): يخاطبوه، والصواب المثبت، وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠١.

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٦٤، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٥٥.

الخلاصِ منَ الحقوقِ ؛ لأنَّ قولَهُ: «**لوْ كانَ لكَ عشرةُ آلافِ درهمٍ وعليكَ دانِقٌ ـ دَيْنًا ـ لمْ تأمَنْ أنْ تموتَ وهوَ في ذمَّتِكَ**» ، فتعجَّلَ قضاءَهُ ولَا تغتَرَّ.

وأمَّا قولُهُ: «**لوْ كانَ عليكَ عَشرةُ آلافِ درهمٍ ـ دَيْنًا ـ وليسَ عندَكَ لهَا قضاءٌ لمْ تيأسْ أنْ يقضِيَ اللهُ عنكَ**» ، فهذَا يحتملُ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ أنْ يُرْضِيَ عنهُ أربابَ الدَّينِ فِي الآخرةِ.

والثَّانِي: أنْ يقضِيَ اللهُ عنهُ ذلِكَ فِي الدُّنيَا ، وهذَا بعيدٌ منَ التَّوكُّلِ اللَّهمَّ إلَّا أنْ يريدَ أنَّكَ إذَا تدايَنْتَ فيمَا لا بُدَّ لكَ منهُ ، أوْ فِي وجهٍ مِنْ وُجُوهِ الطَّاعاتِ اعتمَادًا علىٰ أنَّ اللهَ يقضِي عنكَ ؛ لأنَّكَ أخذتَ في وجْهِ بِرٍّ ، فهذَا فيهِ رائحةُ التَّوكُّلِ ؛ وهوَ اعتمادٌ علىٰ اللهِ في القضاءِ في وَقْتِ الأَخْذِ ، وإنْ لمْ يكنْ للشَّخصِ مَالٌ ، وَشَرْطُهُ أنْ يعرفَ ذلِكَ مِنْ حَالِهِ ويكونَ أخذُهُ للهِ كمَا تَقَدَّمَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «**وَسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ القُرَشِيُّ عَنِ التَّوَكُّلِ فَقَالَ[2]: التَّعَلُّقُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَقَالَ السَّائِلُ: زِدْنِي ؛ فَقَالَ: تَرْكُ كُلِّ سَبَبٍ يُوَصِّلُ إِلَىٰ سَبَبٍ حَتَّىٰ يَكُونَ الحَقُّ هُوَ المُتَوَلِّي لِذَلِكَ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**التَّعلُّقُ باللهِ في كلِّ حَالٍ**» جيِّدٌ ؛ وهوَ اعتمادُ القلبِ علَىٰ اللهِ في كلِّ عملٍ ؛ دينيًّا أوْ دُنيويًّا[3] ، وهذَا فيهِ كفايةٌ ، فلمَّا قالَ لهُ: «**زِدْنِي**» ـ أيْ فِي البيانِ ـ ، قالَ لهُ: «**الإعراضُ عنْ كلِّ سببٍ يوصِّلُ إلىٰ سَبَبٍ**» ، ومعنَاهُ: أنْ تُعرضَ بقلبِكَ عنِ الأسبابِ بالكلِّيَّةِ ، سواءٌ كانَ السَّببُ مباشرًا للمطلوبِ ، أوْ يؤدِّي إلىٰ سببٍ آخرَ يُنالُ بهِ المطلوبُ ، فأجابَهُ أوَّلًا بحقيقةِ التَّوكُّلِ وعبَّرَ عنهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠١.

(٢) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٦٤ ، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٥٥.

(٣) في (ب): دينا ودنيويا.

بالتَّعلُّقِ باللهِ، فلمَّا لمْ يفهمْ قالَ لهُ: أعرِضْ عنِ الأسبابِ في تَحْصِيلِ مَقْصُودِكَ[١]، فهذَا عامٌّ في كلِّ سَبَبٍ، أيْ: إذَا أعرَضَ العبدُ عنِ الأسبابِ لَزِمَ عن ذلِكَ تَعلُّقُهُ بالمُسبِّبِ فِي تَحْصِيلِ مَطْلُوبِهِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ سَهلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٣]: التَّوَكُّلُ حَالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]، وَالكَسْبُ سُنَّتُهُ[٥]، فَمَنْ بَقِيَ فِي حَالِهِ فَلَا يَتْرُكَنَّ سُنَّتَهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا بظاهِرِهِ[٦] يدلُّ علىٰ أنَّ التَّوكُّلَ يضادُّ الكسبَ، وأنَّ الشَّخصَ إذا لمْ يقدِرْ علىٰ التَّوكُّلِ اكتسبَ، وأيضًا فإنَّ الكَسْبَ والتَّوكُّلَ جَمِيعًا هُمَا[٧] سُنَّةُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمرَ بهِ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وإنْ كانَ [٢/٤١أ] بعضُ ذلِكَ أفضلَ مِن بعضٍ في حالٍ، فإنَّ التَّوكُّلَ مِن أعمالِ القلبِ؛ وهوَ الاعتمادُ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وهذَا عامٌّ في كلِّ حالٍ، وفِي كلِّ عملٍ دنيويٍّ وأُخرويٍّ، وهوَ حالُ الأنبياءِ والأقوياءِ منَ الأولياءِ أنْ يكونَ السَّابقُ لقلوبِهِمْ فِي تحصيلِ مقاصِدِهِمْ افتقارَهُمْ إليهِ في أمورِهِمْ واعتمادَهُمْ عليهِ.

هذَا هوَ الَّذِي عبَّرَ عنهُ أنَّهُ «**حالُ النَّبيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وكلُّ مَنْ لمْ يصِلْ إلىٰ هذَا الحالِ الشَّريفِ، وتعاطَىٰ الأسبابَ الشَّرعيَّةَ في تحصيلِ مقصودِهِ، وسكنَتْ نفسُهُ إلىٰ ما أجرَاهُ اللهُ بهِ منَ العادةِ في ربطِ المُسبِّباتِ بالأسبابِ، وسبقَتْ نفسُهُ

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إفادة الدلالة ١/٥٢٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠١.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٧٨، وشعب الإيمان ٢/١٠٣، وطبقات الصوفية ص٣١٢.

(٤) أي: صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلقه ومقامه.

(٥) أي: شريعته.

(٦) في (ب): ظاهره.

(٧) في (ب): مما، والصواب المثبت.

إلىٰ هذِهِ الأمورِ العاديَّةِ ولمْ يعتقدْهَا فاعلةً دونَ اللهِ[١] ، بل علِمَ أنَّهَا سُنَّةُ اللهِ في أنَّ مَنْ حرثَ في أرضٍ طيِّبَةٍ قدْ رويَتْ منَ الماءِ حصلَ لهُ النَّباتُ ، وكذلِكَ مَنْ تجرَ حصلَتْ لهُ الفوائدُ ، إلىٰ غيرِ ذلِكَ منَ الأسبابِ العاديَّةِ ، فهوَ ساعٍ فيمَا شُرِعَ لهُ وأُبيحَ ، ما لمْ تسكنْ نفسُهُ إلىٰ الأسبابِ ويعرضْ عنِ المُسَبِّبِ ، وإنَّمَا تعاطاهَا ؛ لأنَّ سنَّةَ اللهِ جرَتْ علىٰ ما هيَ عليهِ في عَوائدِهِ ، فهذَا هوَ المعبَّرُ عنهُ «**فلَا يتركَنَّ سنَّتَهُ**» .

فرُوحُ هذهِ الوصيَّةِ أدبًا لقومٍ لم يبلغُوا مقامَ التَّوكُّلِ علىٰ التَّحقيقِ ، ولمْ يَتَعَاطَوا[٢] الأرزاقَ بالوجُوهِ المَشْرُوعةِ ، وتَدرَّعُوا بالكسلِ ، وركبُوا طريقَ ترْكِ العملِ والقناعةِ لأخْذِ الرِّزقِ مِنْ كلِّ وجهٍ ؛ تارةً بالسُّؤالِ ، وتارةً بالحِيَلِ .

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] : «**وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[٤]: التَّوَكُّلُ: اِضْطِرَابٌ بِلَا سُكُونٍ ، وَسُكُونٌ بِلَا اِضْطِرَابٍ**» .

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ بالغٌ فِي التَّحقيقِ ، وذلِكَ أنَّ العبدَ لا يزالُ ساكِنًا إلىٰ اللهِ بقلبِهِ مُعْتَمِدًا عليهِ ، لا يلتفتُ إلىٰ سَبَبٍ ، ولَا يضطَّرِبُ قَلْبُهُ عندَ تغيُّرِهِ ، فهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**سُكُونٌ بلَا اضطرابٍ**» .

وأمَّا قولُهُ: «**واضطرابٌ بلَا سكونٍ**» ؛ فلأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ قدْ يُوجِبُ علىٰ العبدِ الكسبَ والطَّلَبَ في بعضِ الأوقاتِ والسَّعيَ لتحصيلِ الأرزاقِ لنفسِهِ ، أوْ للأولادِ والآباءِ والأمَّهاتِ ، ويتحرَّكُ في الطَّلبِ ولا يسكنُ إلىٰ السَّببِ ، ويكونُ ساكنًا إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ، فهذَا معنَىٰ قولِهِ[٥]: «**اضطرابٌ بلَا سكونٍ**» ، أيْ: يضطَّرِبُ

---

(١) أي: اعتقد أن الفاعل هو الله تعالىٰ ، وأنه لا فعل للأسباب.

(٢) في (ب): تعاطوا ، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠١.

(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١١٩ ، وحلية الأولياء ٨/٣٥١ ، ومدارج السالكين ٢/١١٥.

(٥) في (أ): كونه.

فيهَا للأمرِ، ولا يسكنُ إليهَا بلْ للحقِّ.

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **التَّوكُّلُ** [٢/٤١ب] **أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَكَ الإِكْثَارُ وَالتَّقَلُّلُ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِن علاماتِ المتوكِّلينَ أنَّهُمْ إذا ضُيِّقَ عليهِمْ وقُتِّرَ لَم[(٣)] يتغيَّرُوا ولَم يتقَلَّلُوا[(٤)]، وإذَا وُسِّعَ عليهِمْ لَمْ يبخلُوا ولمْ يحرصُوا، وسَمحُوا[(٥)] وأنفقُوا.

فهذِهِ أَمَاراتُ المتوكِّلِ على اللهِ الَّذِي لَا يتغيَّرُ كمَا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبلالٍ[(٦)]: «**أَنْفِقْ بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا**».

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «**وَقَالَ ابْنُ مَسْرُوقٍ**[(٨)]: **التَّوكُّلُ: الاسْتِسْلَامُ لِجَرَيَانِ الْقَضَاءِ وَالأَحْكَامِ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أعلَى مقاماتِ التَّوكُّلِ، فإنَّ مَنِ انتهَى فِي التَّوكُّلِ سلَّمَ الأمرَ إلى اللهِ وفرضَهُ إليهِ، وتركَ اختياراتِهِ عليهِ، فإنَّ المتوكِّلَ لهُ أنْ يختارَ شيئًا منَ الأشياءِ وحالًا منَ الأحوالِ، ويعتمدَ بقلبِهِ على اللهِ فِي تحصيلِ ما

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠١.

(٢) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٢/١٦٠، وسراج الطالبين ٢/٨٧.

(٣) في النسخ: لا، والصواب المثبت.

(٤) في (أ): يتقلقوا.

(٥) سقط من (ب) قوله: «ولم يحرصوا وسمحوا».

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١/٣٤٠، والأوسط ٣/٨٦، والترمذي في نوادر الأصول ٢/٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/١٧٢.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٠٢.

(٨) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٤١، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠١، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٦٠.

اختارَهُ، ولَا يخرجُهُ ذلِكَ عنِ التَّوكُّلِ لكونِهِ معتمدًا علىٰ اللهِ في التَّحصيلِ، ولكنَّهُ إذا تَوالَتْ عليهِ منَ اللهِ الألطافُ، ورأىٰ حُسْنَ أيَادِيهِ معَهُ بالتَّفضُّلِ والإسعافِ، سلَّمَ الأمورَ كلَّهَا إليهِ، وتركَ اختياراتِهِ وفَوَّضَ إليهِ، فهذَا مُرَادُهُ، وهوَ أعلَىٰ مَرَاتِبِ المُتَوكِّلِينَ(١).

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَينِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ الرَّازِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ الحِيرِيَّ يَقُولُ(٣): التَّوَكُّلُ: الاكتِفَاءُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ مَعَ الاعْتِمَادِ عَلَيْهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِنْ بَابِ حذفِ المضافِ وإِقَامَةِ المُضَافِ إليهِ مُقَامَهُ، ومُرَادُهُ: الاكتفاءُ بتدبيرِ اللهِ والاعتمادُ عليهِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ غَالِبٍ؛ يَحْكِي عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورٍ قَالَ(٥): المُتَوكِّلُ المُحِقُّ لَا يَأْكُلُ(٦) وَفِي البَلَدِ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِن عَلامَاتِ المُتوكِّلِينَ الوَاثِقِينَ بِأَنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ لَا يُضَيِّعُهُمْ متىٰ علِمُوا بمحتاجٍ لأقواتِهِمُ الضَّروريَّةِ في حقِّهِمْ آثَرُوهُ بهَا اعتمادًا علىٰ أنَّ الحقَّ لَا يضيِّعُهُمْ لمَا علِمُوهُ منْ حُسْنِ صَنِيعِهِ بهِمْ؛ إمَّا بقوَّةٍ تُغْنِيهِمْ، أوْ بِبَذلٍ عمَّا أخرجُوهُ يَأتِيهِمْ.

---

(١) في نتائج الأفكار ٣/٩٣: «وأعلىٰ منه طلب التخلص من الوقوف مع التوكل خشية الحجاب عما هو أكمل منه من المقامات».

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٢.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٨٢، وشرح صحيح مسلم للنووي ٣/٩٢، ونهاية الأرب ٥/٢٧٧.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٠٢.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٧٠٠، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٩١.

(٦) أي: شيئا من غير ضرورة.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ [١٤٢/٢أ] بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ أَحْمَدَ الحَرْبِيَّ يَقُولُ: حَكَى لَنَا ابْنُ أَبِي شَيْخٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ سِنَانٍ يَقُولُ[٢]: اجْتَازَ بِنَا إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ فَقُلْنَا لَهُ: حَدِّثْنَا بِأَعْجَبِ مَا رَأَيْتَهُ[٣] فِي أَسْفَارِكَ، قَالَ: لَقِيَنِي الخَضِرُ، فَسَأَلَنِي الصُّحْبَةَ، فَخَشِيتُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ تَوَكُّلِي بِسُكُونِي إِلَيْهِ؛ فَفَارَقْتُهُ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا كمالٌ في مراعاةِ حالِهِ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وحفظِهِ لمقامِ التَّوكُّلِ عليهِ، وذلِكَ أنَّ الخَضِرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ إمَّا نبيٌّ أوْ وليٌّ على اختلافٍ فيهِ[٤]، ومَنْ صحبَ مَنْ هذِهِ صِفتُهُ سَكنَتْ نفسُهُ إليهِ[٥]؛ لأنَّهُ أيّ شيءٍ طلبَهُ منَ اللهِ حصلَ، والخوَّاصُ عاملٌ بقلبِهِ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ألَّا يعلِّقَهُ بغيرِهِ، فلمَّا لقِيَ الخَضِرَ وامتحنَهُ اللهُ بِهِ، وإلَّا فالخضرُ مُسْتَغْنٍ عنْ صُحبَتِهِ لكمالِ قوَّتِهِ![٦] وإنَّما اللهُ امتحنَ الخوَّاصَ فِي دعوَىٰ مقامِ التَّوكُّلِ عليهِ لَا إلىٰ سَببٍ، فامتحنَهُ بأعظمِ سَببٍ ثمَّ ثبَّتَهُ علىٰ مَا قصدَهُ، وطلبُ ذلِكَ فضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يشاءُ، وليسَ ذلكَ بعجبٍ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٧]: «وَسُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنِ التَّوَكُّلِ فَقَالَ[٨]: قَلْبٌ عَاشَ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بِلَا عَلَاقَةٍ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٠٢/١.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٦، ومناقب الأبرار ٥٤٥/٢، وصفة الصفوة ١٠٢/٤، وتاريخ الإسلام ٩٢/٢٢.

(٣) في (ب): رأيت.

(٤) مر التعليق على ذلك.

(٥) وذلك مُنافٍ للتوكل.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٢٩/١.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٠٢/١.

(٨) ورد قوله في: مدارج السالكين ١١٦/٢، والمطلع على أبواب المقنع ٩٢/١، وإتحاف السادة المتقين ٢٩١/١٢.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكأنَّهُ سُئِلَ كيفَ حالُ قلبِ المتوكِّلِ ؟ لأنَّ[(١)] التَّوكُّلَ مِنْ أعمالِ القلوبِ ، فأجابَ: «قَلْبٌ عَاشَ مَعَ اللهِ بلَا تعلُّقٍ بغيرِهِ» ؛ أيْ: اعتَمَدَ علىٰ اللهِ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّقٍ بِغَيْرِهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٣)]: لِلتَّوَكُّلِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: التَّوَكُّلُ ، ثُمَّ التَّسْلِيمُ ، ثُمَّ التَّفْوِيضُ ؛ فَالمُتَوَكِّلُ يَسْكُنُ إِلَىٰ وَعْدِهِ ، وَصَاحِبُ التَّسْلِيمِ يَكْتَفِي بِعِلْمِهِ ، وَصَاحِبُ التَّفْوِيضِ يَرْضَىٰ بِحُكْمِهِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ أدخلَ هذَا الإمامُ فِي التَّوكُّلِ ما هوَ أعلَىٰ منهُ وسمَّاهُ توكُّلًا ؛ وهوَ التَّسليمُ والتَّفويضُ ، وذلِكَ أنَّ التَّوكُّلَ لا يضادُّهُ الاختيارُ معَ اعتمادِ القلبِ علىٰ اللهِ في أنْ ييسِّرَ ما اختارَهُ المُتوكِّلُ والمُسَلِّمُ والمُفوِّضُ خرَجَا عنِ اختيارِهِمَا وسَلَّمَا وفوَّضَا الأمورَ إلىٰ اللهِ يفعلُ بهِمَا مَا هوَ صلاحٌ[(٤)] لهُمَا.

وقولُهُ: «المُتوكِّلُ يسكنُ إلىٰ وعْدِهِ» إشارةٌ إلىٰ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ، والمُسَلِّمُ يكتفِي بعلمِ اللهِ بِحَالِهِ ، فهوَ يعلمُ ما هوَ فيهِ ، والمُفَوِّضُ رضِيَ بكلِّ ما يُجريهِ عليهِ ، وافقَ عرضَهُ أوْ خالفَ[(٥)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[(٧)]: التَّوَكُّلُ بِدَايَةٌ ، وَالتَّسْلِيمُ

---

(١) في (ب): لا ، والصواب المثبت.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٢.
(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٦٥ ، ومدارج السالكين ٢/١١٧ ، ونهاية الأرب ٥/٢٧٧.
(٤) في (ب): صالح.
(٥) ولا اختيار لهما ؛ لأنهما سلَّما وفوضا الأمور إليه عَزَّوَجَلَّ ، وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٩.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٠٢.
(٧) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١١٧ ، وفيه: «والتسليم واسطة» ، ونهاية الأرب ٥/٢٧٧ ، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٥٨.

وَسَائِطُ، والتَّفْوِيضُ [٤٢/٢ب] نِهَايَةٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَالتَّوكُّلُ اعتمادٌ، والتَّسليمُ راحةٌ ورُقَادٌ، والتَّفويضُ جريانٌ معَهُ(١) علىٰ وجْهِ السَّدادِ(٢).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«وَسُئِلَ الدَّقَّاقُ عَنِ التَّوكُّلِ فَقَالَ: الأَكْلُ بِلَا طَمَعٍ».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَعْنِي ـ واللهُ أعلَمُ ـ أنَّهُ لا تشوُّفَ لهُ لغيرِ مَا يأكلُهُ في الوقتِ؛ وثوقًا للُطْفِهِ بهِ في كلِّ حالٍ قدْ نفَىٰ عنْ نفسِهِ الطَّمعَ فِي الاستقبالِ(٤).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): **«وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ(٦): لُبْسُ الصُّوفِ حَانُوتٌ(٧)، وَالكَلَامُ فِي الزُّهْدِ حِرْفَةٌ، وَصُحْبَةُ القَوَافِلِ تَعَرُّضٌ، وَهَذِهِ كُلُّهَا عَلَاقَاتٌ(٨)».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ تنبيهاتٌ منهُ وإشاراتٌ إلىٰ قطْعِ التَّعلُّقِ بالأسبابِ، فإنَّ العبدَ يكونُ متعلِّقًا بهَا وهوَ لا يشعرُ ويعتقدُ أنَّهُ قدْ صحَّ اعتمادُهُ علَىٰ اللهِ ونفسُهُ ساكنةٌ إلىٰ غيرِهِ، فأشارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أنَّ العبدَ إذا لبسَ زِيَّ الصَّالحينَ وهوَ الصُّوفُ فقدْ تسبَّبَ، وإذَا صحبَ القوافلَ في الأسفارِ بغيرِ حملِ زادٍ فقدْ تسبَّبَ وسكنَ إليهِمْ(٩)، فإنَّهُمْ لا يتركُونَهُ غالبًا.

---

(١) في (ب): مع، والصواب المثبت.

(٢) أي: التفويض رضًا بجريان الأحكام.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٢/١.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٢٩/١.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٠٢/١.

(٦) ورد قوله في: سنن المهتدين في مقامات الدين ص٢٣٣.

(٧) أي: تسبُّب.

(٨) أي: تعلقات بالأسباب.

(٩) أي: إلىٰ من سافر معهم.

وإذَا تكلَّمَ فِي الزُّهدِ ورجَّحَهُ وكثَّرَ الكلامَ فيهِ دلَّهُمْ ذلكَ علىٰ أنَّهُ لا شيءَ عندَهُ وهوَ متخلِّقٌ بمَا يقولُ منَ الزُّهدِ، وهذَا النَّوعُ تميلُ النُّفوسُ لإكرامِهِ ولصلتِهِ بخلافِ غيرِهِ منَ الفقراءِ، ويهونُ عليهِمْ دفْعُ الأموالِ الكثيرةِ لهُ، ولا يخرجُونَ لغيرِهِ ممَّنْ يعرفُونَ[١] فَقْرَهُ دِرْهَمًا واحِدًا[٢].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ الشِّبْلِيِّ يَشْكُو إِلَيْهِ كَثْرَةَ العِيَالِ، فَقَالَ[٤]: ارْجِعْ إِلَىٰ بَيْتِكَ، فَمَنْ لَيْسَ رِزْقُهُ عَلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فَاطْرُدْهُ عَنْكَ»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا حَسَنٌ جميلٌ فِي تنبيهِ الغافلِينَ منَ المؤمنِينَ؛ وذلِكَ أنَّ هذَا الشَّخصَ الَّذِي اشتكَىٰ الضَّائقةَ مؤمنٌ بأنَّ اللهَ[٥] هوَ الرَّزَّاقُ، ولكنَّهُ قَلِقٌ، وغفِلٌ لمَا امتحنَ بهِ مِنَ الإملاقِ حتَّىٰ حملَهُ مَا هوَ فيهِ إلىٰ أنْ أتىٰ إلىٰ الشِّبْلِيِّ ليجدَ راحةً؛ إمَّا بالدُّعاءِ أوْ بغيرِهِ منَ الأسبابِ، فأرادَ الشِّبليُّ أنْ يردَّهُ إلَىٰ أصْلِ إيمانِهِ ويذكِّرَهُ بمَا يفرِّغُ قلبَهُ مِنْ همِّ نفسِهِ وغيرِهِ؛ فقالَ لهُ: **«ارجعْ إلىٰ بيتِكَ، فمَنْ كانَ رزقُهُ علىٰ غيرِ اللهِ فاطْرُدْهُ عنكَ»**.

ومِنْ هذا القبيلِ مَا حُكِيَ أنَّ امرأةً سَافرَ عنهَا زَوْجُهَا ولَمْ يَدَعْ لهَا شيئًا، فجاءَ جارَاتُهَا[٦] يتغمَّمْنَ لهَا؛ لكونِهِ لمْ يدَعْ لهَا شيئًا؛ فقالَتْ لهُنَّ[٧]: «كانَ فلانٌ أكَّالاً، ولَمْ يَكُنْ رَزَّاقًا».

فتارةً تَنبَّهُوا علَىٰ [٣/١٤٣أ] لسانِ غيرِهِم، وتارةَ تَنبَّهُوا مِنْ أنفسِهِم لينبِّهُوا غيرَهُم.

---

(١) في (أ، ب): يعرفوا، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٢٩.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٢.

(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٣٤، والمختار من مناقب الأبرار ١/٤٦٧.

(٥) في (ب): «مؤمن بالله»، والصواب المثبت.

(٦) في (ب): جارتها، والأصح المثبت.

(٧) ورد قولها في: الدر الجوهرية في شرح الحكم العطائية ص٣١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ: قَرَأْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ الحُسَيْنِ؛ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٢]: مَنْ طَعَنَ فِي الحَرَكَةِ[٣] فَقَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ، وَمَنْ طَعَنَ فِي التَّوَكُّلِ فَقَدْ طَعَنَ فِي الإِيمَانِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ شَرَعَ التَّسبُّبَ لعبَادِهِ والكسبَ، وحفرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخندقَ، ولبسَ دِرْعَينِ، وتحصَّنَ المسلمُونَ بالعُدَدِ، وحَمَلُوا الأزوادَ فِي الأسفارِ، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فمَنْ زعمَ أنَّ التَّوكُّلَ لا يصحُّ معَ الكسبِ خالفَ سنَّةَ اللهِ وسنَّةَ رسولِهِ[٤]، وهذَا معنَىٰ قولِهِ: «قَدْ طَعَنَ فِي السُّنَّةِ».

وأمَّا مَنْ زعمَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يفعلُ ما يشاءُ بسببٍ وبغيرِ سببٍ، ويهلكُ الأعداءَ وينتصِرُ منهُمْ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، فقدْ طعنَ فِي التَّوحيدِ؛ وهوَ أنَّهُ أشركَ معَهُ في الفِعْلِ غيرَهُ[٥]، فالحقُّ ألَّا فاعلَ إلَّا اللهُ، والخلقُ مُمْتَثِلُونَ لأمْرِ اللهِ، ناظِرُونَ إلىٰ قدرِهِ في نفسِ كسْبِهِمْ، وهذَا هوَ الجريانُ علَىٰ الصِّراطِ المستقيمِ فِي الدُّنيا قبلَ الأُخرَىٰ، الَّذِي هوَ أحدُّ مِنَ السَّيفِ وأدقُّ مِنَ الشَّعْرِ أنْ يكونَ العبدُ مُكتسبًا مُتبرِّئًا من الحَوْلِ والقوَّةِ ومطيعًا رأَىٰ فضلَ اللهِ عليهِ في نفسِ طاعتِهِ، وخلقَهَا لهُ فِي توفيقِهِ وتَسْديدِهِ فيهَا.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٣.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٩٥، وشعب الإيمان ٢/١٠٣، ومدارج السالكين ٢/١١٦، وجامع العلوم والحكم ص٤٣٧.

(٣) أي: الكسب، والعمل بالأسباب.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٠.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٣.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الخُلْدِيَّ**[٢] **يَقُولُ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ**[٣]: **كُنْتُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَرَأَيْتُ شَخْصًا وَحْشِيًّا!**[٤] **فَقُلْتُ: جِنِّيٌّ أَمْ إِنْسِيٌّ؟ فَقَالَ: جِنِّيٌّ، فَقُلْتُ: إِلَىٰ أَيْنَ؟ فَقَالَ: إِلَىٰ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: بِلا زَادٍ؟! فَقَالَ: نَعَمْ؛ فِينَا ـ أَيْضًا ـ مَنْ يُسَافِرُ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ، فَقُلْتُ: أَيْشٍ التَّوَكُّلُ**[٥]؟ **فَقَالَ: الأَخْذُ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: المَنْصُوصُ في كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ إيمانُ الجِنِّ[٦]؛ لقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلىٰ قولِهِ: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]، وهذِهِ هيَ قاعدةُ التَّوكُّلِ الَّتي عليها مدارُهُ فِي حقِّ الجنِّ والإنسِ، فكلُّ مَنْ قوِيَ إيمانُهُ بهذا قوِيَ توَكُّلُهُ؛ ولهذا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقولُهُ: «**مِنَّا مَنْ يسافرُ علىٰ التَّوكُّلِ**»، يعنِي: معتمدًا علىٰ اللهِ لا علَىٰ غيرِهِ.

وَقَوْلُ الخَوَّاصِ: «**مَا التَّوَكُّلُ؟**» [٢/٤٣ب] فأجابَهُ: «**هوَ الأَخْذُ منَ اللهِ**»، معناهُ: رؤيةُ الفضلِ منهُ، لا سيَّمَا وقدْ دعَا لهُمُ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كمَا رُوِيَ في الخبرِ الصَّحيحِ[٧]: «نِعْمَ الجِنُّ جِنُّ نَصِيبِينَ، سَأَلُونِي فَدَعَوْتُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا عَلَىٰ عَظْمٍ إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ قُوتًا[٨]»، فقدْ يسَّرَ لهُمْ أرزاقَهُمْ بلاَ كُلفَةٍ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٣.

(٢) في (ب): الخلدني، وهو تحريف.

(٣) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٣/١٩٣، وتهذيب الأسرار ص١٣٩، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٩١.

(٤) في (ب، ف): وَحِشًا.

(٥) أي: عندكم.

(٦) في (ب): الحق، وهو تحريف.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٤٠١ ـ حديث رقم (٣٦٤٧).

(٨) في (ب): قرنا، وهو تحريف.

واستغنَوا عنِ الحِمْلِ.

وقَدْ نُقِلَ(١) أنَّ جماعةً فيهِمُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ وغيرُهُ منَ الصَّالحينَ مضَوا إلَىٰ مكَّةَ ونزلُوا فِي بيتٍ، فقالُوا: تكونُ خِدمةُ البيتِ وما يصلحُنَا منَ الماءِ وغيرِهِ علَىٰ واحدٍ منَّا كلَّ يومٍ، والبقيَّةُ يتصرَّفونَ في عباداتِهِمْ ومنافِعِهِمْ، قالَ: فدخلَ داخلٌ البيتَ وقالَ: هاهُنَا إبراهيمُ بنْ أدهمَ؟ فقيلَ لهُ: هذَا منزلُهُ، ولكنَّهُ مضَىٰ في بعضِ حَوائجِهِ، فلمَّا كانَ في وقتٍ آخرَ رجعَ إبراهيمُ(٢) والرَّجلُ معَهُمْ، وكانَ رجلًا طويلًا أسمرَ فِي رِجْلِهِ خُفَّانِ، فعلَّقَ مِزْوَدًا كانَ معَهُ بوتدٍ، ولمْ يزَلْ معنَا أيَّامًا، فإذَا جاءَ وقتُ الطَّعامِ أخذَ مِزوَدَهُ وانفردَ بِهِ في زاويةٍ ولا يعارضُهُ إبراهيمُ، فلمَّا كانَ بعدَ أيَّامٍ قالَ لإبراهيمَ: ما أنَا إلَّا أُسافرُ غدًا، ثُمَّ خرَجَ.

فقالَ بعضُ أصحابِنَا: واللهِ لأنظُرَنَّ فِي هذا المزوَدِ الَّذِي ينفردُ بهِ هذَا ولَا يأكلُ معنَا ولَا يعارضُهُ إبراهيمُ، ففتحَ المِزوَدَ فإذَا فيهِ عظامٌ، فأعادَ رباطَهُ وعلَّقَهُ فِي موضِعِهِ، فلمَّا رجعَ ذلِكَ الشَّخصُ أخذَ مِزوَدَهُ فأنكرَ رباطَهُ ونظرَ فِي وجوهِنَا كالمتغيِّظِ ثمَّ أخذَهُ ومضَىٰ، فلمَّا رجعَ إبراهيمُ قالَ لهُ بعضُنَا: يَا أبَا إسحاقَ، ما أعجبَ حالَ هذَا الرَّجُلِ الَّذِي كانَ عندَنَا!، ولقدْ فتحَ فلانٌ مزودَهُ فإذَا فيهِ العِظامُ، فتغيَّظَ إبراهيمُ علَىٰ ذلِكَ الرَّجلِ الَّذِي فتحَ المِزْوَدَ وقالَ لهُ: ما أظنُّكَ تصحبُنَا بعدَ هذَا، لِمَ فتَحْتَ مِزودَهُ؟ ذلِكَ رجلٌ مِنْ مُؤمِنِي الجنِّ وآخانِي فِي اللهِ، فلَا أكونُ في بَلَدٍ إلَّا جاءَ مَعِي يُعِينُنِي ويُؤْنِسُنِي، قالَ: فمرضَ ذلِكَ الرَّجُلُ وتُوفِّيَ بعدَ أيَّامٍ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٣): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ**(٤)**: كَانَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ مُجَرَّدًا فِي التَّوَكُّلِ، يُدَقِّقُ**

---

(١) ورد في: حلية الأولياء ٧/٣٩٤.

(٢) في (ب): إليهم.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٣.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٥٤٥، وتاريخ بغداد ٦/٨، ومدارج السالكين ٢/١٣٣،=

فِيهِ، وَكَانَ لَا تُفَارِقُهُ إِبْرَةٌ وَخُيُوطٌ وَرَكْوَةٌ وَمِقْرَاضٌ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، لِمَ تَحْمِلُ هَذَا وَأَنْتَ تَمْتَنِعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؟!

فَقَالَ: مِثْلُ هَذَا لَا يَنْقُصُ التَّوَكُّلَ؛ لِأَنَّ للهِ ـ سبحانه ـ عَلَيْنَا فَرَائِضَ، وَالفَقِيرُ لَا يَكُونُ عَلَيْهِ إِلَّا ثَوْبٌ وَاحِدٌ، فَرُبَّمَا يَتَخَرَّقُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِبْرَةٌ وَخُيُوطٌ [٢/٤٤أ] تَبْدُو عَوْرَتُهُ، فَتَفْسُدُ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ رَكْوَةٌ تَفْسُدُ عَلَيْهِ طَهَارَتُهُ، وَإِذَا رَأَيْتَ الفَقِيرَ بِلَا رَكْوَةٍ وَلَا إِبْرَةٍ وَلَا خُيُوطٍ فَاتَّهِمْهُ فِي صَلَاتِهِ[(١)]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ هوَ التَّحقيقُ؛ وهوَ أنَّ العبدَ يفعلُ ما أمرَهُ اللهُ بفِعْلِهِ، وإنِ احتاجَ ذلكَ الفعلُ إلىٰ سببٍ حصَّلَ أسبابَهُ؛ لئلَّا يكونَ مفرِّطًا فيهِ، وهذَا لَا يناقضُ توكُّلَهُ بوجْهٍ، فإنَّ الَّذي توكَّلَ عليهِ أَمَرَهُ بهِ، فإذَا كانَ التَّوكُّلُ[(٢)] إنَّمَا يتمُّ مِمَّنْ[(٣)] علِمَ اقتدارَ الوكيلِ وكمالَ عِلْمِهِ وسَعَةَ فضْلِهِ ورحمتِهِ، فإذَا كانَ هذَا هوَ أصلَ التَّوكُّلِ وبهِ يصحُّ الاعتمادُ، فإذَا أمرَ الوكيلُ مَنْ توكَّلَ عليهِ بمُلازمةِ كَيْتٍ وَكَيْتٍ فلَوْ خالَفَهُ لمْ يكنْ مُتوكِّلًا، فإنَّ أمْرَهُ لهُ زيادةٌ علىٰ ما علِمَهُ هوَ مِمَّا أوجبَ توكُّلَهُ عليهِ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ[(٥)]: التَّوَكُّلُ صِفَةُ المُؤْمِنِينَ، وَالتَّسْلِيمُ صِفَةُ الأَوْلِيَاءِ، وَالتَّفْوِيضُ صِفَةُ المُوَحِّدِينَ؛ فَالتَّوَكُّلُ صِفَةُ العَوَامِّ، وَالتَّسْلِيمُ صِفَةُ الخَوَاصِّ، وَالتَّفْوِيضُ صِفَةُ خَاصِّ الخَاصِّ».

= وتلبيس إبليس ص٣٨٥.

(١) أي: في كمال صلاته.

(٢) في (ب): المتوكل.

(٣) في (ب): فيمن.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٠٣.

(٥) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١١٧، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٥٨.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**التَّوكُّلُ صفةُ العوامِّ**» لمْ يعنِ عوَامَّ المؤمِنينَ، وإنَّمَا عنِيَ عوامَّ الخواصِّ السَّالكينَ لنَيْلِ مقامِ التَّوحيدِ، فإنَّهُمْ على ثلاثِ درجاتٍ: متوكِّلٌ يرَىٰ السَّببَ ويعتمدُ علىٰ اللهِ في تَيْسيرِهِ، ووليٌّ مسلِّمٌ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - سائرَ أمورِهِ، وموحِّدٌ صارَتْ نفسُهُ محلًّا لجريانِ قدرِهِ فيهِ؛ لكمالِ تفويضِهِ.

بهذَا الاعتبارِ جعلَهُمْ عوامَّ وخواصَّ وخواصَّ الخواصِّ، وإلَّا كلُّهُمْ خواصٌّ، وما نالَ رتبةَ التَّوكُّلِ منَ المؤمنِينَ إلَّا خواصُّهُمْ، وقدْ قالَ أبو سليمانَ الدَّارانِيُّ معَ كمالِ فضْلِهِ لتلميذِهِ[1]: «يَا أحمدُ[2]، أمَّا شيخُكَ فقدْ نالَ مِنْ هذهِ المقاماتِ أكثرَهَا إلَّا هذَا التَّوكُّلَ المُبارَكَ، فإنَّمَا أدركتُهُ بمشامِّ الرِّيحِ».

وهذَا يدلُّ علىٰ رِفعةِ المقامِ، وقَدْ تقدَّمَ آنِفًا[3] تسميةُ بعضِهِمْ التَّفويضَ والتَّسليمَ تَوكُّلًا، وقسَّمَ التَّوكُّلَ علَىٰ ثلاثِ درجاتٍ، وإنَّمَا يجرِي كلامُهُمْ علىٰ حسبِ الوقتِ ومَنْ يُخاطبُونَهُ[4].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[6]: التَّوَكُّلُ صِفَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَالتَّسْلِيمُ صِفَةُ إِبْرَاهِيمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وَالتَّفْوِيضُ صِفَةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا خِلافَ أنَّ نبيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ الأنبياءِ، وأنَّ الأنبياءَ [٢/٤٤ب] بجُملتِهِمْ فُضَلاءُ بالغُونَ في صفاتِ الكمالِ منَ التَّوكُّلِ والتَّسليمِ والتَّفويضِ والرِّضا، فإذَا كانَ جميعُهُمْ كَامِلِينَ[7] في هذِهِ المعانِي فتخصيصُ

(١) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٧٩.
(٢) أي: أحمد بن أبي الحواري.
(٣) الدلالة ٢/٤٧١.
(٤) في (ب): يخاطبوه، والصواب المثبت.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٠٣.
(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١١٧، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٥٨.
(٧) في (أ): كاملون، والصواب المثبت.

بعضِهِمْ ببعضِهَا دونَ بعضٍ يحتاجُ إلىٰ أدلَّةٍ شرعيَّةٍ، وإنَّمَا يتأتَّىٰ التَّفضيلُ معَ الاشتراكِ بتفاوتِهِمْ فِي كلِّ مقامٍ، فإنْ أرادَ غلبةَ بعضِ المقاماتِ علىٰ قلبِ بعضِ الأنبياءِ وإنْ كانَ غيرُهُ مشارِكًا لهُ في المقامِ، كمَا جرَىٰ للخليلِ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ فِي التَّسليمِ؛ لمَّا قالَ لهُ جبريلُ[(١)]: «أَلَكَ حاجةٌ؟ قالَ: أمَّا إليكَ فلا»، ومَا يجرِي مجرَاهُ، فقدْ يقوِّي اللهُ ـ تعالىٰ ـ بعضَ أنبيائِهِ علىٰ بعضٍ في حالةٍ دونَ حالةٍ، وكلُّهُمْ فُضَلاءُ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقدْ قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)]: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، وقدْ ثبتَتِ الشَّفاعةُ لهُ والمقامُ المحمودُ دونَ غيرِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلىٰ آلِهِ[(٣)]، وقالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ»، وقالَ[(٥)]: «لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ»، وقالَ[(٦)]: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»، أيْ: إذَا كنَّا نحنُ لا نشكُّ فإبراهيمُ أَوْلَىٰ ألَّا يشكَّ.

فالتَّعرُّضُ للكلامِ في درجاتِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيهِ شدَّةٌ، ويكتفَىٰ بمَا جاءَ في ذلِكَ منَ الشَّرعِ الشَّريفِ عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللتَّمثيلِ بغيرِهِمْ أَوْلَىٰ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٢.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٣٣ ـ حديث رقم (٣١٩٢)، ومسلم في صحيحه ١/١٣٣ ـ حديث رقم (١٥١).

(٦) جزء من الحديث الذي سبق تخريجه في الحاشية السابقة.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٠٣.

جَعْفَرِ الحَدَّادَ يَقُولُ[١]: مَكَثْتُ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً أَعْتَقِدُ التَّوَكُّلَ وَأَنَا أَعْمَلُ فِي السُّوقِ، وَآخُذُ كُلَّ يَوْمٍ أُجْرَتِي، وَلَا أَنْتَفِعُ مِنْهَا بِشَرْبَةِ ماءٍ[٢]، وَلَا بِدَخْلَةِ حَمَّامٍ، وَكُنْتُ أَجِيءُ بِأُجْرَتِي إِلَى الفُقَرَاءِ فِي (الشُّونِيْزِيَّةِ)، وَأَكُونُ عَلَى حَالِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذَا بالغَ في تحقيقِ حَالِ التَّوكُّلِ، وذلِكَ أَنَّ مَنْ عُرِفَ بالكسبِ والاستغناءِ بهِ انصرَفَتْ قلوبُ النَّاسِ عنْ وصلتِهِ ومساعدتِهِ لاعتقادِهِمُ استغناءَهُ بكسْبِهِ، فإذَا عمِلَ الرَّجلُ على هذَا الوجْهِ وتصدَّقَ بكسْبِهِ على الصَّالحينَ وبقِيَ ينتظرُ فتْحَ ربِّهِ، ولَا سيَّمَا إذَا اعتقدَ الصَّالحونَ أنَّهُ مُسْتَغْنٍ عمَّا أتَى بهِ إليهِمْ فلا يدْعُونَهُ للأكْلِ معَهُمْ، وهوَ نفسُهُ لا يجلسُ اعتمادًا على ما يجرِيهِ اللهُ [٢/١٤٥أ] عليهِ ويُريهِ مِنْ أفعالِهِ الَّذِي يعلمُ سِرَّهُ وعلانيتَهُ، ومَا يحقِّقُهُ مِنْ توكُّلِهِ عليهِ.

فهذَا غايةٌ في تعلُّمِ اليقينِ والتَّوكُّلِ، فإنَّهُ شغلَ نفسَهُ بأعظمِ الأسبابِ، وجعلَ بينَهُ وبينَ النَّاسِ أسترَ حِجَابٍ، وعلَّقَ قلبَهُ بربِّ الأربابِ، فطُوبَى لهُ وحُسْنُ مآبٍ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الخَوَّاصَ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ (أَخَا سِنَانٍ) يَقُولُ: حَجَجْتُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ حِجَّةً حَافِيًا عَلَى التَّوَكُّلِ[٤]، فَكَانَ يَدْخُلُ فِي رِجْلِي شَوْكَةٌ، فَأَذْكُرُ أَنِّي قَدِ اعْتَقَدْتُ عَلَى تَرْكِ[٥] نَفْسِي للهِ[٦]، فَأَحُكُّهَا فِي الأَرْضِ وَأَمْشِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ قدِ اعتقدَ ألَّا يدفعَ عن نفسِهِ

(١) ورد قوله في: تاريخ بغداد ١٤/٤١٢، وتاريخ دمشق ٦٦/١١٣.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٤.
(٤) أي: متوكلا على الله.
(٥) سقط هذا اللفظ من (ب، ف).
(٦) في (ب): بالله، وفي الرسالة القشيرية: «أني اعتقدت عَلَى نفسي التوكل».

ضررًا، بَلْ يكِلُ الأمورَ فيمَا يضرُّهُ وينفعُهُ إلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وهذَا إنَّمَا يصحُّ فيمَا لا يؤدِّي إلىٰ ضررِ شيءٍ من أعضائِهِ، ولكنْ شيءٌ يؤلمُهُ وقتًا، ويهدأُ ألمُهُ بعدَ ذلِكَ، وإلَّا لوْ دخلَتْ في رِجْلَيهِ شوكةٌ ممَّا يمنعُهُ المشيَ ألمُهَا أوْ يخشَىٰ إنْ شربَتْ ماءً تعطَّلَتْ عليهِ منفعتُهَا لمْ يهملْ ذلِكَ؛ ولذلِكَ قالَ: «**أحكُّهَا بالأرضِ وأمْشِي**»، ومَا يُحَكُّ بالأرضِ ويمشِي إلَّا الشَّوكُ الخفيفُ الَّذِي ينكسرُ ولا يُضرُّ بهِ، وإلَّا لوْ كانَ شَوكًا قَويًّا لَتمَكَّنَ دُخُولُهُ في رِجْلِهِ بِحَكِّهِ في الأرضِ وعَسُرَ إخراجُهُ من رِجْلِهِ، وربَّمَا يُضرُّ بهِ، وهذَا كلُّهُ قريبٌ، وإنَّمَا هِي خَواطرُ تحدُثُ[1] لبعضِ الصَّالحينَ القاصدِينَ لتحصيلِ مقامِ التَّوكُّلِ والإعراضِ عنِ الأسبابِ، وإذا علِمَ اللهُ صِدقَهُمْ حفظَهُمْ عمَّا يضرُّهُمْ وصَانَهُمْ وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢].

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[3]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الوَاعِظَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ خَيرًا النَّسَّاجَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا حَمْزَةَ يَقُولُ: إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ أَدْخُلَ البَادِيَةَ وَأَنَا شَبْعَان وَقَدِ اعْتَقَدْتُ التَّوَكُّلَ؛ لِئَلَّا يَكُونَ سَعْيِي عَلَىٰ الشِّبَعِ زَادًا أَتزَوَّدُهُ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ أيَّدَكَ اللهُ ـ دليلٌ[4] علىٰ كمالِ المَعْرِفَةِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ ودَوَامِ مُراقبتِهِ، والتَّحسُّسِ لِدَوَام رؤيتِهِ للعَبْدِ، فإذَا قالَ في قلبِهِ: يا ربِّ، أنَا معتمِدٌ عليكَ دونَ غيرِكَ وهوَ يعلمُ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يعلمُ ما فِي قلبِهِ، وهلْ هوَ

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٤.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٩٦، والفتوة ص١٩، وتاريخ بغداد ١/٣٩١، وتاريخ دمشق ٥١/٢٥٧.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

معتَمِدٌ عليهِ علَىٰ التَّحقيقِ، أوْ علىٰ ما حَصَلَ في بطنِهِ مِنَ الزَّادِ علىٰ سلوكِ الطَّريقِ؟ فكانَ يحصلُ[١] منهُ الحياءُ والخَجَلُ إذَا دخلَ الصَّحراءَ مُعتقِدًا أنَّهُ علىٰ اللهِ اعتمَدَ، خشِيَ أنْ يكونَ مِنَ الكاذبِينَ؛ لكونِهِ اعتمدَ علىٰ مَا [٢/٤٥ب] حصَلَ في مَعِدتِهِ مِنَ الزَّادِ، ولذلِكَ كانَ استحياؤُهُ[٢].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَسُئِلَ حَمْدُونُ عَنِ التَّوَكُّلِ، فَقَالَ[٤]: تِلْكَ دَرَجَةٌ لَمْ أَبْلُغْهَا بَعْدُ، وَكَيْفَ يَتَكَلَّمُ فِي التَّوَكُّلِ مَنْ لَمْ يَصِحَّ لَهُ حَالُ الإِيمَانِ؟!**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا مِن بابِ الإشفاقِ[٥] علَىٰ النَّفسِ بأنْ تدَّعِيَ ما تكلَّمَتْ فيهِ مِنَ المقاماتِ، ويُفْهَمَ عنهَا أنَّهُ حالُهَا، فيكونَ ذلكَ سببًا لمنْعِ اللهِ إيَّاهَا المقامَ الَّذِي تكلمتْ فيهِ إنِ ادَّعتْهُ منْ غيرِ تحقيقٍ[٦]، فلذلِكَ لمَّا سُئِلَ عنِ التَّوكُّلِ قدَّمَ قبلَ الجوابِ: «**تلكَ درجةٌ[٧] لمْ أبلغْهَا، فكيفَ يتكلَّمُ فِي التَّوكُّلِ مَنْ لمْ ينلْ حالَ الإيمانِ؟**»، وحالُ الإيمانِ كمَا تقدَّمَ فِي حالِ حارثَةَ لمَّا سألَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الإيمانِ قالَ لهُ: أصبحتُ مؤمِنًا حقًّا، فقالَ لهُ[٨]: «لكلِّ حقٍّ حقيقةٌ، فمَا حقيقةُ إيمانِكَ؟»، فأخبَرَهُ بغلبةِ حالِ الإيمانِ علىٰ قلبِهِ، فإنَّ الإيمانَ مضمَّنُهُ زوالُ الدُّنيَا ورؤيةُ الأُخْرَىٰ بعينِ القَلْبِ، فأخبرَهُ أنَّهُ استوَىٰ عندَهُ ذهَبُ الدُّنيَا ومَدَرُهَا، ومُشَاهَدةُ الجنَّةِ والنَّارِ، ورؤيةُ أهلِهِمَا[٩] فيهِمَا، وبروزُ العرشِ إذَا انطَوَتِ

(١) في (ب): تحصيل.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٢ ـ ٥٣٣.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٤.
(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٣٣.
(٥) أي: سترًا لحاله.
(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٣.
(٧) في (ب): الدرجة.
(٨) سبق تخريجه.
(٩) في (أ): أهلها.

السَّماواتُ، فحالُ الإيمانِ غلبةُ متعلَّقُ الإيمانِ على قلبِهِ كأنَّهُ يشاهدُهُ بعينِ رأسِهِ، وهذَا حالُ الإيمانِ.

فأمَّا أصْلُ التَّوكُّلِ فهوَ العلمُ واليقينُ بانفرادِ الحقِّ ـ سبحانه ـ بالأفعالِ، وخروجِ غيرِهِ عنْ جلْبِ نفعٍ أوْ دفعِ ضرٍّ، ولوْ فِي ذرَّةٍ منْ مِثْقالٍ، فإذَا تحقَّقَ هذا المعنَىٰ في القلبِ جرَتْ أحوالُ التَّوكُّلِ علىٰ المُتوكِّلينَ وإلَّا قدْ يتكلَّمُ العبدُ فِي المَقَامَاتِ بِقَصْدِ البَيَانِ والتَّعليم، ويعافيهِ اللهُ في ذلِكَ ليسلَمَ مِنْ كلِّ حَالٍ سَقِيم.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ[٢]: المُتَوكِّلُ كَالطِّفْلِ، لَا يَعْرِفُ شَيْئًا يَأْوِي إِلَيْهِ إِلَّا ثَدْيَ أُمِّهِ، كَذَلِكَ المُتَوكِّلُ لَا يَهْتَدِي إِلَّا إِلَىٰ رَبِّهِ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيْ: لا يكونُ لهُ نظرٌ ولا اختيارٌ، ولا قدرةَ لهُ علىٰ دفْعِ ما يضرُّهُ ولا جلْبِ ما ينفعُهُ إلَّا مِنْ جهةِ أُمِّهِ، وكذلِكَ رجوعُهُ إلىٰ ما يَغْتَذِي بهِ لا يعرفُهُ إلَّا مِنْ ثَدْيِ أمِّهِ، وروحُ هذَا المثلِ أنَّ المتوكِّلَ رجوعُهُ في سائِرِ أحوالِهِ إلىٰ اللهِ لَا إلىٰ غيرِهِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ: كُنْتُ فِي البَادِيَةِ فَتَقَدَّمْتُ القَافِلَةَ، فَرَأَيْتُ قُدَّامِي شَخْصًا، فَتَسَارَعْتُ حَتَّىٰ أَدْرَكْتُهُ، فَإِذَا هُوَ امْرَأَةٌ[٤] فِي يَدِهَا عُكَّازَةٌ تَمْشِي عَلَىٰ التُّؤَدَةِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا أَعْيَتْ، فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِي جَيْبِي [٢/٤٦أ] فَأَخْرَجْتُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا، فَقُلْتُ: خُذِيهَا وَامْكُثِي حَتَّىٰ تَلْحَقَكِ القَافِلَةُ فَتَكْتَرِي بِهَا، ثُمَّ ائْتِنِي اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ أُصْلِحَ أَمْرَكِ، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا فِي الهَوَاءِ فَإِذَا فِي كَفِّهَا**

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٤.

(٢) ورد قوله في: لطائف الإشارات ٢/٣٩٠، ومدارج السالكين ٢/١٢١، وشرح نهج البلاغة ٦/١١٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٤.

(٤) هي رابعة العدوية، كما في: مرشد الزوار ١/٥٠٣، وورد هذه القصة أيضا في: الروض الفائق في المواعظ والرقائق ص١٩٦، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٩١.

دَنَانِيرُ، فَقَالَتْ لِي: أَنْتَ أَخَذْتَ الدَّرَاهِمَ مِنَ الجَيْبِ، وَأَنَا أَخَذْتُ الدَّنَانِيرَ مِنَ الغَيْبِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَوَجْهُ تعلُّقِ هذِهِ الحكايةِ بالتَّوكُّلِ أنَّ هذا الرَّجلَ عندَهُ منَ التَّوكُّلِ على اللهِ ـ تعالى ـ وحسنِ الخَلَفِ[١] عليهِ أنْ دفعَ لهذِهِ العجوزِ في مثلِ هذهِ البَرِّيَّةِ المُنقطعةِ عشرينَ درهمًا[٢] ووعدَهَا بأنْ يصلحَ مِنْ حالِهَا زيادةً على هذا دليلٌ على كمالِ يقينِهِ وحسنِ اعتمادِهِ على ربِّهِ في العوَضِ[٣]، فأرادَ اللهُ ـ تعالى ـ أنْ يُعوِّضَهُ على الفورِ بأنْ قوَّى يَقِينَهُ وأرَاهُ خَوارقَ العاداتِ أنَّ امرأةً ضعيفةً أخذَتِ الدَّنانيرَ منَ الغيبِ وقالَتْ لهُ: «**أنتَ أخذتَ الدَّراهمَ منَ الجَيبِ، وأنَا أخذتُهَا منَ الغَيبِ**»، فزَادَهُ ذلكَ صحَّةَ يقينٍ واعتمادًا على اللهِ ـ تعالى ـ واستحقارًا لأعمالِهِ، بالإضافةِ إلى جزاءِ ربِّهِ في الدُّنيا[٤] قبلَ الآخرةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَرَأَى أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ بِمَكَّةَ رَجُلًا لَا يَتَنَاوَلُ شَيْئًا إِلَّا شَرْبَةً مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فَمَضَى عَلَيْهِ أَيَّامٌ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ يومًا[٦]: أَرَأَيْتَ لَوْ غَارَتْ زَمْزَمُ أَيْشٍ تَشْرَبُ؟ فَقَامَ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَقَالَ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا؛ حَيْثُ أَرْشَدْتَنِي، فَإِنِّي كُنْتُ أَعْبُدُ زَمْزَمَ مُنْذُ أَيَّامٍ، وَمَضَى**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ أكملُ الإنصافِ وأكملُ التَّواضعِ والانقيادِ للحقِّ وتوبيخِ النَّفسِ على السُّكونِ لغيرِ اللهِ، وذلِكَ أنَّ هذا الرَّجُلَ الكبيرَ

---

(١) في المصباح المنير ١/١٧٩: «والخلف ـ بفتحتين ـ: العوض والبدل».

(٢) في (ب): «درهما نقرة».

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٣.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٠٤.

(٦) كشط هذا اللفظ في (ب). وورد هذا الخبر في: مدارج السالكين ٢/١٢٤، والروضة الريا ص٩١.

الَّذِي كانَ يكتفِي بماءِ زمزمَ عنِ الطَّعامِ اعتمادًا علىٰ أنَّهُ «لِمَا شُرِبَ لَهُ»[(١)] كمَا جاءَ في الحديثِ، وخرق عادةً أجرَاها اللهُ لهُ كرامةً، فاستغنَىٰ بذلِكَ وجاورَ الحرمَ الشَّريفَ وبيتَ اللهِ اكتفاءً بذلِكَ، فلمَّا اشتُهِرَ بهذَا وعرفَهُ النَّاسُ بهِ وبلَغ أبَا سليمانَ فَرقبَهُ حتَّىٰ تحقَّقَ أمرَهُ، أرادَ أبو سليمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يختبرَهُ أوْ ينقلَهُ لمَا هوَ أعلَىٰ مِنْ حالِهِ إنِ احتاجَ إليهِ، فأتَاهُ أبُو سليمانَ وتحدَّثَ معَهُ في حالِهِ، ثمَّ قالَ لهُ: «**أرأيتَ لوْ غارَتْ زمزمُ، أيَّ شيءٍ كنتَ تصنعُ؟**»، فتنبَّهَ ذلكَ الرَّجلُ إلىٰ أنَّ نفسَهُ كانَتْ ساكنةً لحالِهِ قانعةً بهِ، فقامَ وقبَّلَ رأسَ أبِي سليمانَ وقالَ: «**جزاكَ اللهُ عنِّي**[(٢)] **خيرًا حيثُ أرشدْتَنِي، فإنِّي كنتُ أعبدُ** [٤٦/٢ب] زمزمَ»، أي[(٣)]: كانَتْ نفسِي متعلِّقَةً بهِ ساكنةً إلىٰ غيرِ اللهِ، ولذلِكَ أطلقَ عليهَا أنَّهَا كانتْ تعبدُ زمزمَ تجوُّزًا، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَالخَمِيصَةِ وَالقَطِيفَةِ».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ**[(٦)]**: رَأَيْتُ فِي طَرِيقِ الشَّامِ شَابًّا حَدَثًا حَسَنَ المُرَاعَاةِ، فَقَالَ لِي: هَلْ لَكَ فِي الصُّحْبَةِ؟ فَقُلْتُ: إِنِّي أَجُوعُ، فَقَالَ: إِنْ جُعْتَ جُعْتُ مَعَكَ؛ فَبَقِيْنَا أَرْبَعَةَ أَيَّام، وَفُتِحَ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ فَقُلْتُ: هَلُمَّ؛ فَقَالَ: اِعْتَقَدْتُ**[(٧)] **أَلَّا آخُذَ بِوَاسِطَةٍ، فَقُلْتُ: يَا غُلَامُ، دَقَّقْتَ، فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، لَا تُبَهْرِجْ**[(٨)]**؛ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ، مَا لَكَ وَالتَّوَكُّلَ؟ ثُمَّ قَالَ: أَقَلُّ التَّوَكُّلِ أَنْ تَرِدَ عَلَيْكَ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ١٠١٨/٢.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) كُرِّرت هذه الفقرة بأكملها في (ب).

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) الرسالة القشيرية ٣٠٤/١ ـ ٣٠٥.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٧، ومناقب الأبرار ٥٤٦/١، ومدارج السالكين ١١٥/٢، ونشر المحاسن الغالية ص١٧٣.

(٧) أي: عزمت.

(٨) في (ب): «فقال إبراهيم لا تبهرج»، والأصح المثبت.

مَوَارِدُ الفَاقَاتِ فَلَا تَسْمُو نَفْسُكَ إِلَّا إِلَىٰ مَنْ إِلَيْهِ الكفَايَاتُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا منَ الطِّرازِ الأوَّلِ، وهوَ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يؤدِّبُ الكبارَ بالصِّغارِ في السِّنِّ، ويؤدِّبُ الرِّجالَ بالعجائزِ؛ ليتحقَّقَ كلُّ صادقٍ أنَّ ألطافَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ونعمَهُ لا تنحصرُ ولا تنضبطُ في جهةٍ منَ الجهاتِ، وإبراهيمُ الخوَّاصُ منْ كبارِ الأولياءِ، فأراهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي سفرِهِ هذَا الشَّابَّ، فسألَهُ الشَّابُّ فِي الصُّحبةِ، فذكَرَ إبراهيمُ أنَّهُ ممَّنْ يجوعُ اعتماداً علىٰ مَا عوَّدَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منَ اللُّطفِ والقوَّةِ بهِ، قالَ لهُ الشَّابُّ: «**إنْ جُعْتَ جُعْتُ معكَ**» إنْ شاءَ اللهُ، فلمَّا أقامَا أربعةَ أيَّامٍ لمْ يأكُلَا شيئًا ثمَّ فُتِحَ عليهِمَا بشيءٍ، فقالَ إبراهيمُ للشَّابِّ: «**هلُمَّ**»، أيْ: كُلْ، فقالَ: «**بينِي وبينَ اللهِ ألَّا آخذَ**[(١)] **بواسطةٍ**»، أيْ: أنتَ واسطةٌ، وأَبَىٰ أنْ يأكلَ، فأَرَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إبراهيمَ الخوَّاصَ معَ كمالِ قوَّتِهِ ورفيعِ حالتِهِ منْ حالِهِ أقوَىٰ مِنْ حالِهِ؛ ليتزايدَ في حالِهِ ويتأدَّبَ معَ ربِّهِ[(٢)].

وقولُ[(٣)] إبراهيمَ: «**دقَّقْتَ**»، أيْ: دقَّقْتَ في الكلامِ في التَّوكُّلِ، «**قالَ: يا إبراهيمُ، لا تبهرِجْ**»؛ أيْ: لَا تمدحْنِي، فإنَّ البهرجَةَ سترُ الحالِ[(٤)]، ثمَّ قالَ: «**مَا لكَ وللتَّوكُّلِ؟ فإنَّ أقلَّ درجاتِ التَّوكُّلِ أنْ تَرِدَ عليكَ مواردُ الفاقاتِ فلا تسمُوَ نفسُكَ إلَّا إلىٰ اللهِ**».

وإذا كانَ هذا أوَّلَ مقاماتِ التَّوكُّلِ أنْ يسبقَ القلبُ شديدَ الصَّدماتِ إلىٰ اللهِ لا إلىٰ غيرِهِ، فكيفَ يكونُ العبدُ مدقِّقًا إذا لمْ يأخذْ بواسطةٍ؟؛ وهوَ الرُّجوعُ إلىٰ اللهِ

---

(١) في (ب): أدخل، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٤.

(٣) في (ب): وقوله، والأصح المثبت.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

- تعالىٰ - لا إلىٰ غيرِهِ؟!، ولهذَا قالَ لهُ: «**لا تبهرجْ**»، أيْ: لا تُطرِينِي[١]، فإنَّمَا أنَا في أوَّلِ المَقَامِ لا فِي أَعْلَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ[٣]: التَّوَكُّلُ: نَفْيُ الشُّكُوكِ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَىٰ مَالِكِ[٤] المُلُوكِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ أنَّ [٢/١٤٧أ] التَّسليمَ والتَّفويضَ أعلىٰ منَ التَّوكُّلِ، وربَّمَا تُجُوِّزَ بإطلاقِ اسمِ التَّوكُّلِ عليهِمَا كمَا تقدَّمَ[٥]؛ لكونِهِمَا مِنْ ثمراتِهِ، وأمَّا «**نَفْيُ الشُّكوكِ**» فلا بُدَّ منهُ بالكلِّيَّةِ، فإنَّ التَّوكُّلَ إنَّمَا يكونُ عَنْ قوَّةِ اليقينِ، وهوَ بعيدٌ عنِ الشُّكوكِ بالكلِّيَّةِ[٦].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «**وَقِيلَ[٨]: دَخَلَ جَمَاعَةٌ عَلَىٰ الجُنَيْدِ** رَحِمَهُ اللَّهُ، **فَقَالُوا: نَطْلُبُ الرِّزْقَ، فَقَالَ: إِنْ عَلِمْتُمْ[٩] أَيَّ مَوْضِعٍ هُوَ فَاطْلُبُوهُ، قَالُوا: فَنَسْأَلُ اللهَ - تعالىٰ - ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ يَنْسَاكُمْ فَذَكِّرُوهُ، فَقَالُوا: نَدْخُلُ البَيْتَ وَنَتَوَكَّلُ؟ فَقَالَ: التَّجْرِبَةُ شَكٌّ، قَالُوا: فَمَا الحِيلَةُ؟ قَالَ: تَرْكُ الحِيْلَةِ[١٠]**».

---

(١) أي: بالمدح.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٣) ورد قوله في: الغنية لطالبي طريق الحق ص٣٢١، ومدارج السالكين ٢/١١٥، وبصائر ذوي التمييز ٥/٢٦٨.

(٤) في (ب): ملك.

(٥) الدلالة ٢/٤٧١.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٤ - ٥٣٥.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٨) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٢٧، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٤، وقناطر الخيرات ٣/٢٢٩.

(٩) سقط من (ب) إلىٰ قوله: «إنه ينساكم».

(١٠) أي: ترك السكون إليها.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ بالغٌ في تعليمِ التَّوكُّلِ، سَواءٌ وجدَتِ الأسبابُ أوْ لمْ تُوجَدْ، وذلِكَ أنَّ قولَهُ: «**إنْ علمتُمْ أينَ هوَ فاطلبُوهُ**»، وذلِكَ أنَّ الرِّزقَ عندَ أهلِ الحقِّ: هوَ مَا يَنتفعُ بهِ المرزوقُ لَا ما يملكُهُ[١]، بلْ لَا مَا يأكلُهُ ويبتلعُهُ، فإنَّ العبدَ قدْ يبتلعُ الطَّعامَ، ويُحْدِثُ اللهُ في نفسِهِ منهُ شيئًا فيقذفُهُ مِنْ جَوفِهِ، وتكونُ من رزقِ بعضِ الحيوانَاتِ لا رزقِهِ.

فإذَا تقرَّرَ هذَا فلَا يقدرُ العبدُ أنْ يعرفَ أينَ رزقُهُ بالكلِّيَّةِ، فإنَّهُ لَا يدرِي مَا الَّذِي ينتفعُ بهِ.

وقولُهُ لهُمْ لمَّا قالُوا: ندعُو اللهَ، فقالَ: «**إنْ علمتُمْ أنَّهُ يَنْساكُمْ فذكِّروهُ**»، فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ مَا سبقَ أنْ يصلَ إليكُمْ فلا بُدَّ أنْ يصلَ، سواءٌ عليكُمْ دعوتُمْ أوْ لمْ تدعُوا، فادعُوا اللهَ عبادةً وطاعةً، فهوَ أوْلَىٰ.

وقولُهُمْ: «**ندخلُ البيتَ ونتوكَّلُ، فقالَ: التَّجربةُ شكٌّ**»، أيْ: تدخلُوا البيتَ مجرِّبِينَ هلْ يرزقُكُمْ أمْ لا يرزقُكُمْ[٢]؟ فهذَا شكٌّ في ضمانِهِ، وفيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الدُّخولَ فِي البيتِ والتسبُّبَ في الرِّزقِ سواءٌ بالنِّسبةِ إلىٰ ما قدَّرَ، فقالُوا لهُ: «**ما الحيلةُ؟**» قالَ لهُمْ: ترككُمْ حيلةَ أنفسِكُمْ، واعتمادُكُمْ بقلوبِكُمْ علَىٰ اللهِ، واشتغالُكُمْ بمَا أُمِرْتُمْ بهِ، وهكذَا يجبُ أنْ يكونَ شغلُ العبدِ بمَا أُمِرَ بهِ، واعتمادُهُ بقلبِهِ علىٰ ربِّهِ[٣].

---

(١) كما ذهب المعتزلة.

وتأمل تفصيل ذلك في: مقالات الإسلاميين ص٢٥٧، والإبانة للأشعري ص٢٠٥، ومجرد مقامات الأشعري ص١٣٧، والتمهيد للباقلاني ص٣٧٠، وأصول الدين للبغدادي ص١٤٤، والإرشاد للجويني ص٣٦٤، وشرح الأصول الخمسة ص٧٨٤، وأصول الدين للبغدادي ص١٤٤، والبداية من الكفاية للصابوني ص١٣١، والمواقف ١/١٢.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٥.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي الحَوَارِيِّ[(٢)]: يَا أَحْمَدُ؛ إِنَّ طُرُقَ الآخِرَةِ كَثِيرَةٌ، وَشَيْخُكَ عَارِفٌ بِكَثِيرٍ مِنْهَا إِلَّا هَذَا التَّوَكُّلَ المُبَارَكَ، فَإِنِّي مَا شَمَمْتُ مِنْهُ رَائِحَةً**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ كمالِ أَبِي سليمانَ وإقرارِهِ علَىٰ نفسِهِ بأنَّ أعلَىٰ مقاماتِ التَّوكُّلِ لمْ يتمكَّنْ فيهِ بعدُ، وإنْ كانَ أدركَ مِنْ[(٣)] مقاماتِ السَّالكينَ شيئًا كثيرًا أوْ كذلكَ منْ مقاماتِ [٢/٤٧ب] التَّوكُّلِ، فإنَّ التَّوكُّلَ منقسمٌ إلىٰ واجبٍ ومندوبٍ، والمندوبُ منقسمٌ إلىٰ درجاتٍ، وقَدْ تقدَّمَ أنَّ أعلَىٰ درجاتِ التَّوكُّلِ التَّفويضُ إلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي سائرِ الأحوالِ، وقدْ يكونُ أبُو سليمانَ أوردَ هذَا تبرُّءًا مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ، وإضافةُ نيلِ المقامِ لنفسِهِ، وإنْ كانَ الحقُّ مكَّنَهُ فيهِ، ويكونُ كلامُهُ لأحمدَ ليؤدِّبَهُ ويكونُ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في سائرِ أحوالِهِ متبرِّئًا مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ مضيفًا ذلكَ إلىٰ ربِّهِ، هذَا وجهٌ، وهوَ اللَّائقُ بحالِ أبِي سليمانَ وكمالِ معرفتِهِ وعلوِّ درجتِهِ، وقدْ يكونُ أخبرَ عن نفسِهِ علَىٰ التَّحقيقِ بأنَّهُ لمْ ينَلْ مقامًا عاليًا فِي التَّوكُّلِ أدركَهُ عِلمًا لا حالًا، ويكونُ إقرارًا علَىٰ نفسِهِ وتأديبًا لهَا بتقصيرِهَا في نَيْلِ أعلىٰ المقاماتِ، واللهُ الموفِّقُ للصَّالحاتِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقِيلَ[(٥)]: التَّوَكُّلُ: الثِّقَةُ بِمَا فِي يَدَيِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَالْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ**».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٢) سبق تخريجه قريبا في هذا الباب.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٥) نسب لأبي حازم، وورد في: الإبانة لابن فورك ص١٨٦، وتاريخ دمشق ٢٢/٥٦، والمجالسة وجواهر العلم ص١٦٦، والمطلع على أبواب المقنع ١/٩٢، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٦٠، وسراج الطالبين ٢/٨٦.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذانِ الأصْلَانِ مثمرَانِ للتَّوكُّلِ حاملَانِ عليهِ، فإنَّ مَنْ وثقَ بمَا عندَ اللهِ اعتمدَ عليهِ، ومَنْ قطعَ يأسَهُ[1] عمَّا في أيدِي النَّاسِ أعرضَ عنهُ[2] ولمْ يلتفِتْ إليهِ، فحقيقةُ التَّوكُّلِ: الاعتمادُ علَىٰ اللهِ لَا علىٰ غيرِهِ منَ الأسبابِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[3]: «وَقِيلَ[4]: التَّوكُّلُ: فَرَاغُ السِّرِّ عَنِ التَّفكُّرِ لِلتَّقَاضِي فِي طَلَبِ الرِّزْقِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذَا مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوكُّلِ لا نفسِهِ، وكَمَالُ الثِّقَةِ بمَا فِي يدِ اللهِ، ووَعْدُ اللهِ مثمرُ التَّوكُّلِ لَا عينِهِ، فكذلِكَ راحةُ القلبِ مِنَ التَّفكُّرِ في جهةِ تحصيلِ الرِّزقِ من ثَمَراتِ التَّوكُّلِ لَا عَينِهِ، فإنَّ مَنْ توكَّلَ علىٰ اللهِ المالكِ لكلِّ الأمورِ ولمْ يلتفِتْ إلىٰ غيرِهِ منَ الأسبابِ استراحَ قلبُهُ من همِّ الاكتسابِ[5]، وإنْ أمرَهُ ربُّه بالاكتسابِ[6] فِي بعضِ الأوقاتِ اكتسبَ وتسبَّبَ معَ برودةِ القلبِ وراحتِهِ مِنْ همِّ الطَّلَبِ، ونظَرَ[7] إلَىٰ المسبِّبِ لا للسَّببِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[8]: «وَسُئِلَ الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ المُتوكِّلِ[9]: هَلْ يَلْحَقُهُ طَمَعٌ؟ فَقَالَ[10]: يَلْحَقُهُ مِنْ طَرِيقِ الطِّبَاعِ خَطَرَاتٌ، وَلَا

---

(١) في (ب): إياسه.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٤) ورد في: الإبانة لابن فورك ص١٨٦، ونهاية الأرب ٥/٢٧٧، وسراج الطالبين ٢/٨٧.

(٥) أي: من هم السكون إليه والاعتماد عليه.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٦.

(٧) في (أ): وناظر.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٩) في (ب): التوكل، والأصح المثبت.

(١٠) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٠٤.

تَضُرُّهُ شَيْئًا، وَيُقَوِّيهِ عَلَىٰ إِسْقَاطِ الطَّمَعِ اليَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ في ابتداءِ التَّخلُّقِ في مقامِ[1] التَّوكُّلِ، فإنَّ العبدَ لمَّا تعوَّدَ في ابتداءِ أمْرِهِ الالتفاتَ إلىٰ الأسبابِ وحصولَ المنافعِ منَ المعايشِ والأصحابِ، واستمرَّ علىٰ ذلِكَ مدَّةً إلىٰ أنْ كُشِفَ عنهُ هذَا الحجابُ، وتيَقَّنَ[2] أنَّهُ لا فاعلَ [٢/١٤٨أ] ولا محرِّكَ ولا مسكِّنَ لشيءٍ غيرُ ربِّ الأربابِ، وأعملَ نفسَهُ في الإعراضِ عمَّا تقدَّمَ لهُ بسوءِ الاعتيادِ، فتبقَىٰ في نفسِهِ خَواطرُ تجاذبُهُ إلىٰ المُعْتَادِ، فسمَّاهَا الإمامُ المحاسبِيُّ «طبائِعَ»، يعنِي: عادتَهُ المتقدِّمَةَ، فيصيرُ طَمَعُهُ في الخَلْقِ قليلًا، فكلَّمَا قَوِيَ يَقِينُهُ ورأىٰ ألطافَ اللهِ - تعالىٰ - بهِ في سَائِرِ تصرُّفاتِهِ ضَعُفَ التفاتُ نفسِهِ إلىٰ ما مضَىٰ من عَاداتِهِ، فإذَا دامَ منهُ هذا التَّعلُّمُ لليقينِ، وقطعَ يأسَهُ مِنْ حُصُولِ خَيْرٍ أَوْ دَفْعِ ضرٍّ[3] بغيرِ الحقِّ بالبُرْهَانِ المُبِينِ، فهذَا هوَ قطعُ اليأسِ عمَّا في أيدِي النَّاسِ، فإذا قطعَ يأسَهُ[4] ممَّا فِي أيديهِمُ اعتمدَ بقلبِهِ علىٰ مَنْ تفضَّلَ عليهِ وعليهِم.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: **«وَقِيلَ[6]: جَاعَ النُّورِيُّ فِي البَادِيَةِ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: أَيُّهمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: سَبَبٌ أَوْ كِفَايَةٌ؟ فَقَالَ: الكِفَايَةُ لَيْسَ فَوْقَهَا نِهَايَةٌ، فَبَقِيَ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا لَمْ يَأْكُلْ»[7].**

---

(١) في (أ): بمقام.

(٢) في (ب): وتبين.

(٣) في (ب): شر.

(٤) في (ب): إياسه.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٠٥.

(٦) ورد قوله في: إثارة الترغيب والتشويق إلىٰ تاريخ المساجد الثلاثة والبيت العتيق ص٢٠٢، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٩١، وسراج الطالبين ٢/٨٥.

(٧) في إشارة إلىٰ أن العبد قد يرزق قوة الطاعم والشارب بكفاية الله عَزَّ وَجَلَّ.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي قدَّمْنَاهُ منَ أنَّ الرِّزقَ لا يلزمُ أنْ يكونَ طعامًا بلْ ما ينتفعُ العبدُ[١] بهِ، ويَنْصَلِحُ بهِ قلبُهُ، وتقامُ بهِ بنيتُهُ لعبادةِ ربِّهِ هوَ الرِّزقُ النَّافعُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فلمَّا جاعَ النُّوريُّ هذِهِ الأَيَّامَ أحدَثَ اللهُ في قَلْبِهِ خاطرًا «أيُّهما أحبُّ إليكَ» أنْ تخرقَ لكَ العادةُ في سببٍ أو كفايةٌ[٢]، ولوِ اختارَ السَّببَ أتاهُ بالطَّعامِ مِن حيثُ لا يَحْتَسِبُ؛ إمَّا علىٰ يدِ وليٍّ منَ الجنِّ أوِ الإنسِ، أوْ ملكٍ، أو بدعائِهِ، [أوْ تركضَ رِجْلُهُ][٣]، أوْ ما يجرِي مَجْرَاهُ منَ الأسبابِ الَّتِي تكونُ معهَا العَاداتُ، فلمَّا اختارَ الكفايةَ؛ وهوَ أنْ تخرقَ لهُ العادةُ في أنْ يغنيهِ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ زيادةً إلىٰ ما قوَّاهُ وأغناهُ، فصبرَ بعدَ ذلكَ سبعةَ عشرَ يومًا لا يأكلُ شيئًا.

وقولُهُ: «**الكفايةُ ليسَ فَوْقَهَا نهايةٌ**»، يعنِي بالنِّسبةِ إلىٰ حَالِهِ، فإنَّ غيرَهُ رزقَهُ اللهُ أكثرَ من هذَا منَ الصَّبرِ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ[٥]: إِذَا قَالَ الفَقِيرُ بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ: أَنَا جَائِعٌ، فَأَلْزِمُوهُ السُّوقَ[٦]، وَأْمُرُوهُ بِالعَمَلِ وَالكَسْبِ».**

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ تكرَّرَ مِرارًا أنَّ العبدَ لا يخلِي نفسَهُ عنِ السَّببِ الشَّرعيِّ ولَا يتركُ حملَ[٧] الزَّادِ في الأسفارِ إلَّا إذا رزقَهُ اللهُ الصَّبرَ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ مُدَّةً يستغنِي فيها عنِ النَّاسِ والسُّؤالِ منهُمْ [٢/٤٨ب]، فإذَا منَّ اللهُ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أي: قوة.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٠٦.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) لأنه لم يستعمل طريق التجرد في القيام علىٰ النفس تدريجًا. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٠٣.

(٧) في (ب): عمل، والصواب المثبت.

عليهِ بذلِكَ لا يضرُّهُ تركُ السَّببِ والسَّفرُ بلا زادٍ بما عوَّدَهُ اللهُ منَ الخيرِ والصَّبرِ والقوَّةِ علىٰ ذلكَ، ولا يكونُ مُغرَّرًا بدينِهِ ولا نَفْسِهِ؛ أمَّا دينُهُ فبأنْ يضعفَ عنِ الصَّلاةِ قائمًا ويختلَّ عقلُهُ ويتعذَّرَ عليهِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ، أو يسألَ أو يقبلَ ممَّا[1] لا يصلحُ القبولُ منهُ ولَا الالتفاتُ إليهِ، كمَا حُكِيَ عن بعضِهِمْ ـ وأظنُّهُ ابنَ الجلَّا[2] ـ قالَ: «تُهتُ في الباديةِ أيَّامًا فلمَّا وقعتُ علىٰ الطَّريقِ استقبلَنِي [رجلٌ][3] جُنْدِيٌّ فشربْتُ منهُ ماءً، فبقيتْ قَسْوتُهَا في قلبِي زَمَانًا طَويلًا».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَقِيلَ**[5]: **نَظَرَ أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ إِلَىٰ صُوفِيٍّ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَىٰ قِشْرِ بَطِّيخٍ لِيَأْكُلَهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَقَالَ لَهُ: لَا يَصْلُحُ لَكَ التَّصَوُّفُ، الْزَمِ السُّوقَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ قريبٌ ممَّا تقدَّمَ، وهوَ قولُهُمْ: «**إذا قالَ بعدَ خمسةِ أيَّامٍ: إنِّي جائعٌ، فألزمُوهُ السُّوقَ**»، وذلِكَ أنَّهُ بَعُدَ مَعَ عَوائِدِهِ لَمْ ينتقلْ عنهَا؛ لكمالِ شغلِهِ باللهِ وقلَّةِ صبرِهِ عنِ الطَّعامِ، وذلِكَ أنَّ هذا بعدَ بلائِهِ أيَّامَ واصلَهَا للهِ مدَّ يدَهُ إلىٰ قشرِ بطيخٍ مرمِيٍّ في التُّرابِ، دلَّ ذلكَ علىٰ كمالِ احتياجِهِ وعدمِ صبرِهِ وشدَّةِ ميلِهِ إلىٰ الطَّعامِ من أيِّ جهةٍ كانَ، ومَنْ هذِهِ صفتُهُ بقاؤُهُ مَعَ سببِهِ وانتقالُهُ شيئًا فشيئًا عَنْ عَوائِدِهِ أَوْلَىٰ بهِ مِنْ خُرُوجِهِ عَمَّا بيدِهِ جُمْلَةً، فإنَّهُ يأخذُ الأشياءَ مِنْ أيِّ وجهٍ[6] كانَ؛ لقلَّةِ اعتيادِهِ للجُوعِ[7]، ومَنْ تعوَّدَ ذلكَ صَبَرَ حتَّىٰ

---

(١) في (ب): ممن.

(٢) إنما هو أبو بكر الزقاق في: مناقب الأبرار ٤٢٦/١، وطبقات الأولياء ص٩٢، وفيه: «فعادت قسوتها علىٰ قلبي ثلاثين سنة».

(٣) زيادة من (ب)، وفي مظان تخريجه: إنسان.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٠٦/١.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في (ب): جهة، والصواب المثبت.

(٧) في (ب): بالجوع، والأصح المثبت.

يأتيَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بمَا يحتاجُ إليهِ مِنْ وَجْهٍ طَيِّبٍ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ(١): «قَالَ ابْنُ يَعْقُوبَ الأَقْطَعُ البَصْرِيُّ(٢): جُعْتُ مَرَّةً بِالحَرَمِ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، فَوَجَدْتُ ضَعْفًا، فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي، فَخَرَجْتُ إِلَىٰ الوَادِي لَعَلِّي أَجِدُ شَيْئًا يُسَكِّنُ ضَعْفِي، فَرَأَيْتُ سَلْجَمَةً مَطْرُوحَةً، فَأَخَذْتُهَا فَوَجَدْتُ(٣) فِي نَفْسِي(٤) مِنْهَا وَحْشَةً، وكَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لِي: جُعْتَ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، وَآخِرُهُ يَكُونُ حَظُّكَ سَلْجَمَةً مُتَغَيِّرَةً؟! فَرَمَيْتُ بِهَا، وَدَخَلْتُ المَسْجِدَ فَقَعَدْتُ، وَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيَّ وَوَضَعَ قِمَطْرَةً، وَقَالَ: هَذِهِ لَكَ، فَقُلْتُ: كَيْفَ خَصَصْتَنِي بِهَا؟ فَقَالَ: اِعْلَمْ أَنَّا كُنَّا فِي البَحْرِ مُنْذُ عَشَرَةِ أَيَّامٍ، وَأَشْرَفَتِ السَّفِينَةُ عَلَىٰ الغَرَقِ، فَنَذَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِنْ خَلَّصَنَا اللهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ، وَنَذَرْتُ أَنَا إِنْ خَلَّصَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهَذِهِ عَلَىٰ أَوَّلِ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ بَصَرِي مِنَ المُجَاوِرِينَ، وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ لَقِيتُهُ، [٢/٤٩أ] فَقُلْتُ: افْتَحْهَا، فَفَتَحَهَا، فَإِذَا فِيهَا كَعْكٌ سَمِيدٍ مِصْرِيٌّ، وَلَوْزٌ مُقَشَّرٌ، وَسُكَّرٌ كِعَابٌ، فَقَبَضْتُ [قَبْضَةً مِنْ ذَا، وَقَبْضَةً مِنْ ذَا، وَقَبْضَةً](٥) مِنْ ذَا، وَقُلْتُ: رُدَّ البَاقِي إِلَىٰ صِبْيَانِكَ هُوَ هَدِيَّةٌ مِنِّي لَكُمْ، وَقَدْ قَبِلْتُهَا، ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: رِزْقُكَ يَسِيرُ إِلَيْكَ مِنْ عَشَرَةِ أَيَّامٍ وَأَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنَ الوَادِي!».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وروحُ هذهِ الحكايةِ: أَنَّهُ لمَّا شَرُفتْ همَّتُهُ وألقَىٰ السَّلْجَمَةَ(٦) المتغيِّرةَ، ثمَّ رجعَ إلىٰ الحرمِ مؤدِّبًا لنفسِهِ؛ لعدمِ(٧) صبرِهَا وشدَّةِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٦.
(٢) سبق تخريجه، والتعليق عليه.
(٣) في (ب): «فوجدتها».
(٤) في (ف): قلبي.
(٥) زيادة من (ف).
(٦) نبات مشهور باسم اللفت.
(٧) في (أ): «في عدم».

تشوُّقِهَا إلىٰ الطَّعامِ حتَّىٰ رُفِعَتْ هذِهِ السَّلجمةُ المتغيِّرةُ، فلمَّا ردَّ علىٰ نفسِهِ شَرَهَهَا وكَلَبَهَا[١]، فدخلَ الحرمَ مُعْتَمِدًا علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بأنْ يأتيَهُ بمَا هوَ أشرفُ وأطيبُ، أتاهُ هذا العَجَمِيُّ هذِهِ القِمَطْرَةَ[٢] وأعلَمَهُ بسببِ نَذْرِهِ منذُ عشرةِ أيَّامٍ، فوبَّخَ نفسَهُ وقالَ لهَا: «**اللهُ ـ سبحانه ـ يسوقُ لكِ رزقَكِ الطَّيِّبَ منذُ عشرةِ أيَّامٍ، وأنتِ تَطْلُبِيهِ[٣] فِي الوَادِي**»، ثمَّ أمسكَ نفسَهُ عنهَا وعنْ قبولِهَا بشرَهِ، وقالَ للعجميِّ: «**افتحْهَا**، **فلمَّا فتحَهَا وجدَ ما فيهَا منَ السُّكَّرِ، واللَّوزِ المقشَّرِ، والكعكِ السَّميدِ المصريِّ**»، لمْ يطاوِعْ نفسَهُ في قبولِهَا وأخذِهَا[٤] منهُ بالكلِّيَّةِ، بلْ أخذَ منها ما ردَّ جوعَهُ فِي الوقتِ، وقالَ لهُ: قدْ «**قَبِلْتُهَا منكَ وفاءً بِنَذرِكَ، ووهبتُهَا لِصِغَارِكَ**»، وهذَا كمالٌ في استعمالِ العلمِ وكسرِهِ شَرَهَ النَّفسِ معَ شدَّةِ الحاجةِ إلىٰ الطَّعامِ، ورفعِ الهمَّةِ والاعتمادِ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في أنْ يَأتِيَ لهُ بمثْلِهِ أو بأرفعَ[٥] منهُ عندَ الحَاجةِ[٦].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ[٨]: كُنْتُ عِنْدَ مَمْشَاذ الدِّينَوَرِيِّ، فَجَرَىٰ حَدِيثُ الدَّيْنِ، فَقَالَ: كَانَ عَلَيَّ دَيْنٌ، فَاشْتَغَلَ قَلْبِي، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ: يَا بَخِيلُ، أَخَذْتَ عَلَيْنَا هَذَا المِقْدَارَ؟! خُذْ، عَلَيْكَ الأَخْذُ وَعَلَيْنَا العَطَاءُ، فَمَا حَاسَبْتُ بَعْدَ ذلكَ[٩] بَقَّالًا وَلَا قَصَّابًا وَلَا غَيْرَهُم**».

---

(١) من التكالب بمعنىٰ التواثب.

(٢) وهي ما يصان به المكاتيب. انظر: إحكام الدلالة ١/٥٣٧.

(٣) في (ب): تطلبينه.

(٤) في (ب): وأخذ.

(٥) في (ب): أرفع.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٧.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٠٦.

(٨) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦١٦، وإحياء علوم الدين ٤/٢٧١.

(٩) سقط هذا اللفظ من (ب).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يَدُلُّ علىٰ أَنَّهُ إنَّمَا كانَ يأخذُ لنفسِهِ عندَ الضَّرورةِ، ولمَنْ رآهُ محتاجًا مِنَ الفقراءِ، وهذَا كلُّهُ للهِ فضلٌ وطاعةٌ، فلمَّا شغلَ قلبَهُ كثرةُ ما عليهِ منَ الدَّينِ أراهُ الملكُ في النَّومِ بإذنِ اللهِ أنَّ ذلكَ لا يضرُّهُ، فإنَّ مَنْ عامَلَهُ مِن أربابِ الدُّيونِ قدْ عرَفُوا حالَهُ، وأنَّهُ ليسَ ربَّ مالٍ، وإنَّما عَاملُوهُ علىٰ أنَّهُ إذَا فُتِحَ عليهِ بشيءٍ أتاهُمْ بهِ، فأصلُ معاملَتِهِمْ لهُ فعلُ خيرٍ للهِ ـ تعالىٰ ـ، فنُبِّهَ فِي النَّومِ [٢/٤٩ب] علىٰ أنَّهُ لا يضرُّهُ في الدُّنيا، وأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ إنْ لمْ يقضِهِ عنهُ فِي الدُّنيَا أرضَىٰ عنهُ أربابَهُ في الآخرةِ؛ لأنَّهُ أخذَهُ لوجهِهِ وعليهِ.

وإنَّمَا سَمَّاهُ بَخِيلًا؛ لكونِهِ خَافَ ألَّا يَقضِيَ اللهُ عنهُ مِنْ غيرِ سببٍ يقتضيهِ، فكأنَّهُ بخلَ بمالِ غيرِهِ، وهوَ أعظمُ البخلِ، وفائدةُ الرُّؤيَا زوالُ الهَمِّ عن قَلْبِهِ بإِعْلَامِهِ أنَّهُ لا ضررَ عليهِ في الدُّنيَا ولا فِي الآخرةِ[١].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَيُحْكَىٰ عَنْ بُنَانٍ الحَمَّالِ قَالَ[٣]: كُنْتُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ أَجِيءُ مِنْ مِصْرَ وَمَعِي زَادٌ، فَجَاءَتْنِي امْرَأَةٌ وَقَالَتْ: يَا بُنَانُ؛ أَنْتَ حَمَّالٌ، تَحْمِلُ عَلَىٰ ظَهْرِكَ الزَّادَ، وَتَتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَا يَرْزُقُكَ؟! قَالَ: فَرَمَيْتُ بِزَادِي، ثُمَّ أَتَىٰ عَلَيَّ ثَلَاثٌ لَمْ آكُلْ، فَوَجَدْتُ خَلْخَالًا فِي الطَّرِيقِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَحْمِلُهُ حَتَّىٰ يَجِيءَ صَاحِبُهُ، فَرُبَّمَا يُعْطِينِي شَيْئًا فَأَرُدُّهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَنَا بِتِلْكَ المَرْأَةِ، فَقَالَتْ: أَنْتَ تَاجِرٌ؛ تَقُولُ: يَجِيءُ صَاحِبُهُ فَآخُذُ مِنْهُ!، ثُمَّ رَمَتْ لِي شَيْئًا مِنَ الدَّرَاهِمِ، وَقَالَتْ: أَنْفِقْهَا[٤]، فَاكْتَفَيْتُ بِهَا إِلَىٰ قَرِيبٍ مِنْ مِصْرَ».

---

(١) في (ب): ولا غيرهم، والصواب المثبت. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٨.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٧.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٧١، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٩٢، ومرشد الزوار ١/٥٥٤، وروض الرياحين ص١٣١.

(٤) أي: علىٰ نفسك.

* **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ممَّا سبقَ التَّنبيهُ عليهِ مِنْ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - يؤدِّبُ مَنِ انتحلَ التَّوكُّلَ وزعمَ أنَّهُ تمكَّنَ منهُ فيهِ؛ تارةً بالنِّساءِ، وتارةً بالصِّبيانِ، كالمرأةِ الَّتِي أعطاهَا الدَّراهمَ من جيبِهِ وأخذَتِ الدَّنانيرَ منَ الهَواءِ[١]، وكالشَّابِّ الَّذِي قالَ للخوَّاصِ[٢]: «**نويتُ ألَّا آكلَ بواسطةٍ**».

وهذا مِنْ ذاكَ القبيلِ؛ وذلِكَ أنَّ بُنانًا[٣] ممَّنْ ينتحلُ التَّوكُّلَ، وحملَ الزَّادَ لجوازِ ذلِكَ لهُ، فيسَّرَ اللهُ لهُ هذِهِ المرأةَ، وربَّمَا كانَتْ مُكاشفةً وكلامُهَا معَهُ ثاني مرَّةٍ يدلُّ علىٰ ذلِكَ، فنقلَتْهُ عن سُكُونِهِ إلىٰ زادِهِ ليعتمدَ علىٰ ربِّهِ، فلمَّا عمِلَ علىٰ نُصحِهَا وجاعَ أيَّامًا وصبرَ امتُحِنَ بالخَلْخَالِ اللُّقَطَةِ، وحقُّهُ أنْ يردَّهُ علىٰ ربِّهِ إنْ وجدَهُ بغيرِ عِوَضٍ، فلمَّا خطَرَ ببَالِهِ العِوضُ أظهرَ اللهُ له المرأةَ قالَتْ لهُ: «**أنتَ تاجرٌ**» تدفعُ شيئًا بشيءٍ، ولِمَ لَا تدفعُهُ للهِ؟! ثمَّ أعانَتْهُ علىٰ حالِهِ بمَا سلَّمَتْ إليهِ منَ الدَّراهمِ الَّتِي استعانَ بهَا إلىٰ قريبٍ منْ مصرَ.

فهذا كلُّهُ تأديبٌ لمَنْ جلَّتْ رُتْبتُهُ وأرادَ الحقُّ تقويتَهُ منْ مُنْتَحلِي التَّوكُّلِ والعَامِلِينَ عليهِ.

* **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَيُحْكَىٰ[٥] عَنْ بُنَانٍ أَنَّهُ اِحْتَاجَ إِلَىٰ جَارِيَةٍ تَخْدُمُهُ، فَانْبَسَطَ إِلَىٰ إِخْوَانِه[٦]، فَجَمَعُوا لَهُ ثَمَنَهَا، وَقَالُوا: هُوَ ذَا، يَجِيءُ النَّفَرُ فَنَشْتَرِي[٧]**

---

(١) كما مر في ص٤٨٣ من هذا الجزء.

(٢) الدلالة ٢/٤٨٥.

(٣) في (ب): «من ذاك أنك بنانا»، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٠٧.

(٥) وردت هذه الحكاية في: إحياء علوم الدين ٤/٢٧١، والإرشاد والتطريز ص١٣٨، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٩٣.

(٦) أي: في تحصيلها له.

(٧) أي: لك منهم.

مَا يُوَافِقُكَ ، فَلَمَّا وَرَدَ النَّفَرُ اجْتَمَعَ رَأيُهُمْ عَلَىٰ وَاحِدَةٍ ، وَقَالُوا: إِنَّهَا تَصْلُحُ لَهُ ، فَقَالُوا لِصَاحِبِهَا: [٢/١٥٠أ] بِكَمْ هَذِهِ ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِلْبَيْعِ ، فَأَلَحُّوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ: إِنَّهَا لِبُنَانٍ الْحَمَّالِ ، أَهْدَتْهَا إِلَيْهِ امْرَأَةٌ مِنْ (سَمَرْقَنْدَ) ، فَحُمِلَتْ إِلَىٰ بُنَانٍ وَذَكَرَتْ لَهُ الْقِصَّةَ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يعتنِي بمَنْ توكَّلَ عليهِ ويقضِي لهُ حوائِجَهُ وهوَ لا يشعرُ وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] إلىٰ قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [آية: ٣] ، فلمَّا علِمَ الحقُّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حاجةَ بُنَانٍ إلَىٰ مَنْ يَخْدمُهُ لعجزِهِ عن نفسِهِ أوْ مَرضِهِ ، وعلِمَ ذلِكَ من حَالِ أصحابِهِ اشتغلُوا بتَدْبيرِ أَمْرِهِ أَلقَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في قلبِ تلكَ المرأةِ بـ(سمرقندَ) إرسالَ هذِهِ الجاريةِ إليهِ .

فمِثلُ هذِهِ الحكايةِ تقوِّي يقينَ المتوكِّلينَ ، ويعلمُونَ لطفَ مولاهُمْ بهِم ، وأعظمُ فوائدِ التَّوكُّلِ سلامةُ المتوكِّلِ مِنْ نزعاتِ الشَّيطانِ الرَّجيمِ(١) ، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أخبرَ عدوَّهُ بذلكَ بعدَ أنْ قالَ ـ تعالىٰ ـ لهُ: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] ، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٥] ، يعنِي: خواصَّهُ المعتمدِينَ عليهِ(٢) .

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ الْمَخْزُومِيَّ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أحمدُ بنُ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ ، حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُونَ ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ الْخَيَّاطُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ بِشْرٍ الْحَافِي ، فَجَاءَهُ نَفَرٌ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ مِنَ الشَّامِ ، جِئْنَا لِنُسَلِّمَ عَلَيْكَ وَنُرِيدُ

---

(١) بسبب تفويض أمره إلىٰ باريه .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٣٩ .

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٧ .

الحَجَّ، فقَالَ: شَكَرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لكُمْ، فقَالُوا: تَخْرُجُ مَعَنا؟ فقَالَ: بثَلاثِ[1] شَرَائِطَ: أَلَّا نَحْمِلَ مَعَنا شَيْئًا، وَلَا نَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَإِذا أَعْطَانا أَحَدٌ شَيْئًا لَا نَقْبَلُ.

فَقَالُوا: أَمَّا أَلَّا[2] نَحْمِلَ فَنَعَمْ، وَأَمَّا أَلَّا نَسْأَلَ فَنَعَمْ، وَأَمَّا أَلَّا نَقْبَلَ إِذا أُعْطِينا فَهَذا مَا لَا نَسْتَطِيعُهُ! فَقَالَ: خَرَجْتُمْ مُتَوَكِّلِينَ عَلَىٰ زادِ الحَجِيجِ.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا حَسَنُ[3]: الفُقَرَاءُ ثَلَاثَةٌ: فَقِيرٌ لَا يَسْأَلُ، وَإِنْ أُعْطِيَ لَمْ يَأْخُذْ، فَذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ الرُّوحَانِيِّينَ، وَفَقِيرٌ لَا يَسْأَلُ وَإِنْ أُعْطِيَ قَبِلَ، فَذَلِكَ [مِمَّنْ][4] تُوضَعُ لَهُ مَوَائِدُ فِي حَظَائِرِ القُدْسِ، وَفَقِيرٌ يَسْأَلُ وَإِنْ أُعْطِيَ قَبِلَ قَدْرَ الكِفَايَةِ فَكَفَّارَتُهُ صِدْقُهُ»[5].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ اختلافِ مقاماتِ المُتوكِّلينَ بالحَالِ والمَقَالِ.

فأمَّا الحَالُ فإنَّ أولئِكَ النَّفرَ الَّذينَ أتَوا بِشْرًا فسألُوهُ الخروجَ معَهُمْ إلىٰ الحجِّ فقالَ: بشروطٍ ثلاثةٍ:

أحدُهَا: ألَّا نحملَ.

والثَّانِي: ألَّا نسألَ.

والثَّالثُ: ألَّا نَقْبلَ.

---

(١) في (ب): بثلاثة، والأصح المثبت.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) في إحكام الدلالة ١/٥٤٠: يا بشر.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) ورد باختصار في: قوت القلوب ٢/٣٢٨، وتفسير السلمي ١/٢٧٩، وطبقات الصوفية ص٥١، وشعب الإيمان ٣/٢٧٥، وإحياء علوم الدين ٤/٢١٥.

فَقَدْ أخبَرَهُمْ بحالِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالُوا: «**أمَّا ألَّا نحملَ فنعَمْ، وأمَّا أنْ لا نسألَ فنعَمْ، وأمَّا أنْ لا نَقْبلَ**» [٢/٥٠ب] فلَمْ ننلْ هذِهِ الدَّرجةَ ولا بلغناهَا بعدُ[١]، وأمَّا أنْ لا نحملَ ولا نسألَ فقدْ قدَّرنَا اللهُ عليهِ، وأمَّا ما أتَىٰ من غيرِ سؤالٍ ولا تشوُّفٍ فهوَ رزقٌ رزقَنَاهُ اللهُ، فقالَ لهُمْ: «**خَرَجتُمْ متوكِّلينَ علىٰ زادِ الحجَّاجِ**»[٢]، وهذَا لأنَّ العطاءَ من بنِي آدمَ بعضِهِمْ لبعضٍ إنَّمَا يكونُ إذَا صحبُوا القَوافلَ، ورآهُمُ النَّاسُ لا يحملُونَ زادًا فعلِمُوا حاجَتَهُمْ فوصلُوهُمْ، فلذلِكَ قالَ لهُمْ: «**خَرَجتُمْ مُتوكِّلينَ علىٰ زادِ الحَجِيجِ**» وإلَّا لوْ بعدُوا عنِ الحجيجِ وسارُوا في طُرُقٍ[٣] تُوصِلُ إلىٰ المقصودِ منْ غيرِ صحبةِ القوافلِ لكانَ ما أتَاهُمُ الحقُّ بهِ خارِقًا للعادةِ، فلَوْ أتاهُمْ بهِ علىٰ يدِ آدميٍّ أو ملكٍ أوْ جنِّيٍّ لمْ يكنْ منَ القبيلِ الَّذِي قالَ لهُمْ: «**خَرَجتُمْ مُتوكِّلينَ علىٰ زادِ الحَجِيجِ**»، ولمْ يكرَهْ قبولَهُ فإنَّهُ منَ اللهِ ولمْ يعتمدْ علىٰ غيرِ اللهِ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ يفعلُ بسببٍ وبلَا سَبَبٍ.

وأمَّا كلامُهُ معَهُمْ منْ حيثُ العلمُ فقولُهُ: «**الفُقَرَاءُ ثَلاثَةٌ**[٤]: **فقيرٌ لا يسألُ النَّاسَ وإنْ أُعْطِيَ لمْ يَقبلْ، فهذَا منَ الرُّوحانِيِّينَ**[٥]»، يعنِي: ارتفعَتْ همَّتُهُ عنِ الخلقِ بالكلِّيَّةِ، وعاشَ بدوامِ ذِكْرِهِ لمولَاهُ، وتنعُّمِهِ بِنَجْوَاهُ، ورعَا فيهِ الإشارةَ بقولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»؛ أيْ: يُغنيهِ بحُسْنِ حالِهِ معَهُ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ.

«**وفقيرٌ لمْ يسألْ وإنْ أُعطِيَ قَبِلَ** وعبَّرَ عنْ حالِهِ بأنَّهُ «**ممَّنْ تُوضَعُ لهُ الموائدُ**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (أ): الحاج.

(٣) في (ب): طريق.

(٤) فالأول: مقامه التسليم، والثاني: التفويض، والثالث: مطلق التوكل، فأعلاها الأول، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٠٦.

(٥) في حاشية النسخة (أ): «الروحانين بضم الراء، قاله ابن قرقول».

في حَظِيرةِ القدسِ»، والقُدْسُ: الطُّهرُ، فقلبُهُ مطهَّرٌ منَ الدَّنسِ بالأغيارِ، ناظرٌ إلى ما يُجريهِ عليهِ الحقُّ بحُسْنِ الاختيارِ.

«وفَقِيرٌ ـ ثالثٌ ـ يسألُ، وإنْ أُعْطِيَ قَبِلَ، فأخذَ منهُ مقدارَ الضَّرورةِ»، فهذَا لَا يسألُ حتَّى يَصْدُقَ جوعُهُ واحتياجُهُ ويتعيَّنُ عليهِ المسألةُ منَ الخلقِ، «فكفَّارةُ سؤالِهِ صِدقُهُ»[١].

وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ السُّؤالَ مِن غيرِ اللهِ وبذلَ ماءِ الوَجْهِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورةٍ رديءٌ جِدًّا، ولا يسألُ العبدُ إلَّا إذَا دعَتْ إليهِ الضَّرورةُ وكانَ صادِقًا في ضَرُورتِهِ، وعلامةُ صِدْقِهِ في حَاجتِهِ وقلَّةِ رغبتِهِ في الفُضُولِ أنْ يأخذَ مَا يدفعُ بهِ ضَرُورةَ وَقْتِهِ، ويُعْرِضُ عنِ الزَّائدِ كَائنًا ما يكونُ[٢].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ لِحَبِيبٍ العَجَمِيِّ: [لِمَ][٤] تَرَكْتَ التِّجَارَةَ؟ فَقَالَ: وَجَدْتُ الكَفِيلَ ثِقَةً»[٥].

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يسَّرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ وجهٍ طيِّبٍ لا شُبْهَةَ فيهِ، ولا مِنَّةَ[٦] [٢/١٥١أ]، فمتىٰ سَخَّرَ اللهُ[٧] للعبدِ ما يحتاجُ إليهِ مِنْ وَجْهٍ طيِّبٍ لا شبهةَ فيهِ ولا مِنَّة، حلالًا[٨] لَا إشكالَ فيهِ ولا مِنَّةَ لمخلوقٍ عليهِ فلا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٠.

(٢) في (ب): كان.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٧.

(٤) زيادة من (ب، ف).

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٣، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٢٩١.

(٦) سقط من (ب) قوله: ولا منه.

(٧) سقط لفظ الجلالة من (ب).

(٨) سقط من (ب) قوله: «طيب لا شبهة فيه ولا منه حلالا».

ضررَ عليهِ[١] فيهِ، وهذا هوَ المَضْمُونُ الَّذِي تكفَّلَ الحقُّ بهِ للأولياءِ، وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فما دامَ العبدُ حيًّا فلَا بدَّ لهُ منْ رزقٍ؛ إمَّا قُوتًا، أو قُوَّةً وكِفَايةً[٢]، كمَا تقدَّمَتِ الحكايةُ[٣] عن بعضِهِم: «أنَّهُ جاعَ عشرةَ أيَّامٍ، فلمَّا أحسَّ بالجوعِ[٤] قيلَ لهُ: ما الَّذِي تريدُ؟ قوتًا أو كفايةً؟ فقالَ: يا ربِّ، كفايةً، فأقامَ بعدَ ذلكَ سبعةَ عشرَ يومًا لمْ يحتَجْ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ[٦]: كَانَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ رَجُلٌ فِي سَفَرٍ وَمَعَهُ قُرْصٌ، فَقَالَ: إِنْ أَكَلْتُ مِتُّ، فَوَكَّلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِهِ مَلَكًا وَقَالَ: إِنْ أَكَلَهُ فَارْزُقْهُ، وَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ فَلَا تُعْطِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ، فَلَمْ يَزَلِ القُرْصُ مَعَهُ إِلَىٰ أَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ، وَبَقِيَ عِنْدَهُ القُرْصُ!».

❁ قَالَ الشَّرِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ تحذيرٌ منَ الحِرْصِ علىٰ الحَاصِلِ، وأقبحُ الحِرْصِ وأضرُّهُ الحرصُ علَىٰ الشَّيءِ حتَّىٰ لا ينتفعَ بِهِ في نفسِهِ، فَضْلًا عنْ غيرِهِ منَ المحتاجينَ إليهِ[٧].

وإذَا كانَ العبدُ إذا رأَىٰ محتاجًا خافَ عليهِ الموتَ منَ الجُوعِ ومعَهُ ما يدفعُ بهِ عنهُ ضرَرَهُ منْ غيرِ ضررٍ يلحقُهُ هوَ وجبَ عليهِ دفعُهُ لهُ، فكيفَ بإحياءِ نفسِهِ بهِ حِرْصًا عليهِ؟!، وهذا قدْ غلبَهُ الجهدُ والحِرصُ علىٰ ما لا ينتفعُ بهِ في حرصِهِ حتَّىٰ ماتَ.

(١) سقط من (ب) قوله: «فلا ضرر عليه».
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٠.
(٣) عن ابن يَعْقُوبَ الأَقْطع قريبًا.
(٤) في (أ): الجوع.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٢٧١، وإتحاف السادة المتقين ١٢/١٩٤.
(٧) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٠.

وفائدةُ هذِهِ الحكايةِ: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إنَّمَا ضمنَ الكفايةَ للمُحتَاجِ، وهذَا قَدْ أغناهُ بالقُرْصِ الَّذِي عندَهُ، فقدْ تسبَّبَ في إهْلاكِ نفسِهِ بحبسِهِ لهُ وبحِرْصِهِ.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ المتوكِّلَ يكونُ وثُوقُهُ بمَا في يدِ اللهِ أوثقَ ممَّا في يدَيهِ، ومنهُ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبلالٍ[1]: «أَنْفِقْ بِلَالُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلَالًا»؛ لمَّا رآهُ ادَّخَرَ تمْرًا[2]، أو كانَتْ نِيَّتُهُ فيه خيْرًا، فبعدَ ذلكَ أمرَهُ بإنفاقِهِ لدُعَاةِ الحاجةِ إليهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: «**وَقِيلَ: مَنْ وَقَعَ فِي مَيْدَانِ التَّفْوِيضِ يُزَفُّ إِلَيْهِ المُرَادُ كَمَا تُزَفُّ العَرُوسُ إِلَى أَهْلِهَا، وَالفَرْقُ بَيْنَ التَّفْوِيضِ وَالتَّضْيِيعِ: أَنَّ التَّضْيِيعَ[4] فِي حَقِّ اللهِ ـ تعالى ـ، وَذَلِكَ مَذْمُومٌ، وَالتَّفْوِيضُ فِي حَقِّكَ، وَهُوَ مَحْمُودٌ[5]**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ التَّفويضَ: هو تَرْكُ [٢/٥١ب] الاختيارِ منَ العبدِ والرِّضَى باختيارِ اللهِ ـ تعالى ـ بالكلِّيَّةِ، ومنهُ التَّفويضُ في النِّكاحِ بغيرِ مهرٍ معيَّنٍ، فإذا لمْ يختَرِ العبدُ لنفسِهِ شيئًا ممَّا يصلحُهُ، ووكلَ ذلِكَ إلى اختيارِ اللهِ ـ تعالى ـ، فاللهُ ـ سبحانه ـ يعجِّلُ لهُ بمَا فيهِ صَلاحُهُ.

وبهذَا الاعتبارِ «**يُزَفُّ إليهِ المُرَادَ**»، يعنِي: مرادَ اللهِ ـ تعالى ـ الَّذِي لهُ فيهِ صلاحٌ، وهوَ يريدُ كلَّمَا أرادَهُ اللهُ ـ تعالى ـ فمَا أرادَهُ الحقُّ فهوَ مُرادُهُ.

والفرقُ بينَ التَّضييعِ والتَّفويضِ: أنَّ[6] التَّفويضَ إنَّمَا يكونُ فيمَا[7] يختارُهُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ب): تم، وفي (أ): ثمرا، والصواب المثبت، كما في: دلائل النبوة ١/٣٤٧، وشعب الإيمان ٢/١٧٢، وصفة الصفوة ١/٤٣٨.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٨.

(٤) سقط من (ب) قوله: أن التضييع.

(٥) في (ب): المحمود.

(٦) في (ب): فأن، والأصح المثبت.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

العبدُ لمصالحِ نفسِهِ، وأمَّا ما أمرَهُ اللهُ - تعالىٰ - بهِ وجُوبًا أو نَدْبًا، أو نهىٰ عنهُ خَطرًا أو كَرَاهةً، فلَا يصحُّ التَّفويضُ فيهِ[١]، ومَنْ زعمَ أنَّهُ فوَّضَ أمرَهُ فيهِ للهِ، فهوَ مضيِّعٌ لا مفوِّضٌ، وإنَّمَا التَّفويضُ فيمَا لمْ يأمُرِ اللهُ العبدَ بهِ ولَا نهاهُ عنهُ ممَّا أباحَهُ لهُ وخيَّرَهُ فيهِ فهوَ لا يدرِي مصلحتَهُ فيهِ فيضيفُهَا لمَنْ يعلمُهَا، فهذَا هوَ التَّفويضُ، وما تقدَّمَ فهوَ التَّضييعُ، فقدْ ظَهَرَ الفَرْقُ بينَهُمَا، واللهُ أعلَمُ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقَالَ ابْنُ المُبَارَكِ[٤]: مَنْ أَخَذَ فِلْسًا مِنْ حَرَامٍ فَلَيْسَ بِمُتَوَكِّلٍ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ عدِمَ التَّوكُّلَ الواجبَ والمندوبَ جميعًا، فإنَّ التَّوكُّلَ الواجبَ: أنْ ينكفَّ العبدُ عنْ كلِّ حرامٍ؛ اعتمادًا علىٰ اللهِ أنْ يأتيَهُ بهِ من حَلالٍ أوْ يصلَ إلىٰ حَالَةٍ يَزُولُ التَّحريمَ عنهُ، ويصيرَ إقدامُهُ حلالًا علىٰ ما كانَ مَمْنُوعًا منهُ، فَمَتَىٰ أقدمَ العبدُ علىٰ شَيءٍ حَرَامٍ دَلَّ ذلِكَ علىٰ قلَّةِ صبرِهِ الواجبِ وعدمِ تَوكُّلِهِ الواجبِ، وكذلِكَ زهدُهُ، فإنَّ المقاماتِ كلَّهَا فيهَا واجبٌ ومندوبٌ.

فيُحْمَلُ كلامُ هذَا الشَّيخِ: أنَّهُ لا توكُّلَ لهُ عندَهُ مطلقًا؛ أيْ: أنَّ مَنْ فاتَهُ الواجبُ فَاتَهُ المَنْدُوبُ؛ إذْ هوَ بعدَهُ وأعلَىٰ منهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ نَصْرَ[٦] بْنَ أَبِي نَصْرٍ العَطَّارَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ المِصْرِيَّ يَقُولُ:**

---

(١) مراده: أن التفويض المطلوب فيما أباحه الحق عَزَّوَجَلَّ لعبده من المرادات، لا فيما طلبه منه من العبادات والطاعات، ولا فيما نهاه عنه من أسباب الهلكات.

(٢) في (ب): «والله العليم السميع».

(٣) الرسالة القشيرية ٣٠٨/١.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٩.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٠٨/١.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخَرَّازَ يَقُولُ[(١)]: دَخَلْتُ البَادِيَةَ مَرَّةً بِغَيْرِ زَادٍ، فَأَصَابَتْنِي فَاقَةٌ، فَرَأَيْتُ المَرْحَلَةَ[(٢)] مِنْ بَعِيدٍ، فَسُرِرْتُ بِأَنْ وَصَلْتُ، ثُمَّ فَكَّرْتُ فِي نَفْسِي أَنِّي سَكَنْتُ وَاتَّكَلْتُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَآلَيْتُ عَلَىٰ نَفْسِي أَلَّا أَدْخُلَ المَرْحَلَةَ إِلَّا أَنْ أُحْمَلَ إِلَيْهَا، فَحَفَرْتُ لِنَفْسِي فِي الرَّمْلِ حُفَيْرَةً وَوَارَيْتُ[(٣)] جَسَدِي فِيهَا إِلَىٰ صَدْرِي، فَسَمِعُوا [٢/١٥٢أ] صَوْتًا فِي نِصْفِ اللَّيْلِ عَالِيًا: يَا أَهْلَ المَرْحَلَةِ؛ إِنَّ للهِ ـ تعالىٰ ـ وَلِيًّا حَبَسَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الرَّمْلِ فَالحَقُوهُ، فَجَاءَ جَمَاعَةٌ فَأَخْرَجُونِي، وَحَمَلُونِي إِلَىٰ القَرْيَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ مراعاةِ الوفاءِ بالعهدِ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فيمَا عزمَ عليهِ مِنْ نيلِ المقاماتِ الرَّفيعةِ والتَّسبُّبِ فيهَا[(٤)]، والأدبُ للحقِّ في تعلُّمِهَا، وذلكَ أنَّ أبا سعيدٍ عقدَهُ معَ الحقِّ فِي توكُّلِهِ ألَّا يسكنَ لغيرِهِ، فلمَّا دخلَ الباديةَ علىٰ عقدِ التَّوكُّلِ وألَّا يسكنَ لغيرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ رزقَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ هذا العقدَ الشَّريفَ والقوَّةَ علىٰ الوفاءِ بهِ، فلمَّا قرُبَ من مرحلةٍ أحسَّ من نفسِهِ الفرحَ بقربِهِ لهَا وسكنَتْ إليهَا فِي تحصيلِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ فكرَهَ مِنْ نفسِهِ ذلِكَ، وعزمَ علىٰ مخالفتِهَا وفاءً بعقدِهِ، فحفرَ حفرةً ونزلَ فيها مقابلةً لنفسِهِ بضدِّ هَوَاهَا.

وهذِهِ الحفرةُ هو قادرٌ علىٰ القيامِ منهَا متىٰ أحبَّ؛ لأنَّهُ عملَهَا إلىٰ صدرِهِ، فلَا يتخيَّلُ مُتخيِّلٌ أنَّهُ يقعدُ فيهَا حتَّىٰ لا يُصلِّي فَرْضَهُ حتىٰ يأتِيَ مَنْ يخرجُهُ أوْ يخلِّصُهُ، حاشَا للهِ، ولذلِكَ لا يقعدُ فيهَا حتَّىٰ يُحسَّ من نفسِهِ جُوعًا يخلُّ مِنْ عَقْلِهِ،

---

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٤٢/٥، وإحياء علوم الدين ٢٧١/٤، وإتحاف السادة المتقين ١٩٤/١٢، وسراج الطالبين ١٥٠/٢.

(٢) أي: القرية.

(٣) في (ب): وأميت، والصواب المثبت.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٤١/١.

وإنَّمَا هُمْ(١) قومٌ يتعلَّمونَ اليقينَ كمَا قيلَ لهُمْ(٢): «تعلَّمُوا اليقينَ فإنِّي أتعلَّمُهُ».

وحقيقةُ اليقينِ: أنْ يغلبَ على القلبِ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فلمَّا صحَّ عَزْمُهُ وأدبُهُ لنفسِهِ غيظًا عليهَا لربِّهِ خلَا صائِحًا مِن قِبَلِه(٣) يُنَادِي في المحلَّةِ: يا أهلَ المحلَّة(٤)، أدركُوا وليًّا مِنْ أولياءِ اللهِ ـ تعالى ـ قدْ حبَسَ نفسَهُ، فقوِيَ لذلِكَ يقينُهُ، وتمكَّنَ توكُّلُهُ على ربِّهِ، ويحسنُ صَنيعُهُ(٥) بهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحَسَنِ(٧) المَخْرَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ المَالِكِيِّ يَقُولُ: قَالَ أَبُو حَمْزَةَ الخُرَاسَانِيُّ: حَجَجْتُ سَنَةً مِنَ السِّنِين، فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ إِذْ وَقَعْتُ فِي بِئْرٍ، فَنَازَعَتْنِي نَفْسِي أَنْ أَسْتغِيثَ، فقلتُ: لا واللهِ؛ لا أستغيثُ(٨)، فَمَا اسْتَتَمَمْتُ هَذَا الخَاطِرَ حَتَّى مَرَّ بِرأْسِ البِئْرِ رَجُلَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ: تعَالَ(٩) نَسُدُّ رَأْسَ هَذَا البِئْرِ لِئَلَّا يَقَعَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَتَوا بِقَصَبٍ وبارِيَّةٍ، وَطَمُّوا رَأْسَ البِئْرِ،**

---

(١) في (ب): هو.

(٢) أخرجه أبو نعيم مرسلا في الحلية بلفظ ٦/٩٥: «عن ثور بن يزيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: تعلموا اليقين كما تعلموا القرآن حتى تعرفوه، فإني أتعلمه»، وكذا ابن أبي الدنيا في اليقين ص٣٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/١٩٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/٤٣.
قال أبو طالب المكي: «معناه: اطلبوا علم اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذي هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله ـ تعالى ـ...» قوت القلوب ١/٢٢٥.

(٣) في (ب): قلبه، والصواب المثبت.

(٤) في (ب): الجنة، وهو تحريف.

(٥) في (ب): صنعه.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٧) في (ب، ف): الحسين، والصواب المثبت.

(٨) سقط من (ب) قوله: «فقلتُ: لا واللهِ؛ لا أستغيثُ».

(٩) في (ب): تَعَالَى، والصواب المثبت.

فَهَمَمْتُ أَنْ أَصِيحَ ، ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: أَشْكُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُمَا ، وَسَكَتُّ.

فَبَيْنَمَا أَنَا بَعْدَ سَاعَةٍ إِذَا أَنَا بِشَيْءٍ جَاءَ وَكَشَفَ رَأْسَ البِئْرِ ، وَأَدْلَىٰ رِجْلَهُ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِي: تَعَلَّقْ بِي ، فِي [٢/٥٢ب] هَمْهَمَةٍ مِنْهُ ، كُنْتُ أَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ[1] ، فَأَخْرَجَنِي فَإِذَا هُوَ سَبُعٌ ، فَمَرَّ ، وَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ أَلَيْسَ هَذَا أَحْسَنَ ؟! نَجَّيْنَاكَ مِنَ التَّلَفِ بِالتَّلَفِ ، فَمَشَيْتُ وَأَنَا أَقُولُ[2]:

نَهَانِي حَيَائِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمَ الهَوَىٰ[3] ❁ فَأَغْنَيْتَنِي بِالفَهْمِ مِنْكَ عَنِ الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي ❁ إِلَىٰ غَائِبِي[4] ، وَاللُّطْفُ يُدْرَكُ بِاللُّطْفِ
تَرَاءَيْتَ لِي بِالغَيْبِ حَتَّىٰ كَأَنَّمَا ❁ تُبَشِّرُنِي بِالغَيْبِ أَنَّكَ فِي الكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَحْشَةٌ ❁ فَتُؤْنِسُنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالعَطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبًّا أَنْتَ فِي الحُبِّ حَتْفُهُ ❁ وَذَا عَجَبٌ كَوْنُ الحَيَاةِ مَعَ الحَتْفِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ مناسبةٌ لمَا تقدَّمَ لأبِي سعيدٍ ، وذلِكَ أنَّهُمْ يرونَ الأفعالَ كلَّهَا منَ اللهِ ، فإنَّهُ المحرِّكُ لهُمْ والمسكِّنُ ، وكانَ قادرًا علىٰ أنْ يحفظَ هذا مِنَ الوقعةِ في البئرِ ، وأوقعَهُ فيهِ لأمرٍ أرادَهُ منهُ ؛ ليتحقَّقَ توكُّلُهُ في سَائِرِ المُخوِّفاتِ ، ويعلمَ ربُّهُ منهُ هَل اعتمادُهُ عليهِ[5] أوْ علىٰ الأسبابِ ؟

وَوَجْهُ إقامتِهِ في البئرِ محمولةٌ علىٰ أنَّهُ يمكنُهُ الصَّلاةُ فيهِ ، وهوَ قادرٌ علىٰ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) من الطويل ، ووردت في: تاريخ بغداد ٣٩٢/١ ، وحلية الأولياء ١٧٨/١٠ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٨٤/٣ ، وتاريخ دمشق ١٥٦/٦٦ ، وإحياء علوم الدين ٢٧٢/٤ ، والمختار من مناقب الأخيار ٧٠/٣.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) في (ف): غايتي ، والأصح المثبت.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

الطُّلوعِ منهُ إذا شاءَ، ولكنْ سَكَنَ وصَبَرَ؛ ليعلَمَ سرَّ اللهِ في إيقاعِهِ فيهِ، وحكمتَهُ معَ قدرتِهِ على حِفْظِهِ منهُ، فلمَّا سَكَنَ في البِئْرِ على هذَا الوجْهِ الجَائِزِ سَخَّرَ اللهُ قَومًا مَرُّوا برأسِ البئرِ وعلِمُوا أنَّهُ بصددِ الوقوعِ فيهِ، ورأَوا منَ المصلحةِ أنْ قطَعُوا قصبًا ووضعُوهُ على رأسِ البئرِ؛ ليسلَمَ منَ الوقوعِ فيهِ، فأرادَ هذَا الواقعُ فيهِ أنْ يتكلَّمَ، ثمَّ قالَ لنفسِهِ: لا أتكلَّمُ، أنَا متمكِّنٌ إنْ تعَيَّنَ عليَّ الطُّلوعُ أنْ أطلعَ(١)، ويُزيلَ هذا القصبَ كلَّهُ عن رأسِ البئرِ بلَا كُلْفَةٍ، فصبرَ وسكنَ لينظرَ حِكمةَ اللهِ فيهِ، فمَا كانَ إلَّا يسيرًا حتَّى سمِعَ نبْشًا وحركةً لإزالةِ ما علَى رأسِ البئرِ منَ القَصَبِ والرَّدْمِ، وتدلَّى لهُ شيءٌ قَرُبَ منهُ، ووقعَ في نفسِهِ لمَّا سمعَ الهمهمَةَ أنْ تعلَّقْ بهِ، فتعلَّقَ بهِ ورفعَهُ إلى رأسِ البئرِ، فإذا هوَ سبعٌ سخَّرَهُ اللهُ لهُ، فوقعَ في نفسِهِ خاطرٌ مفهومُهُ: «**أليسَ هذَا أحسنَ؟ نجَّيناكَ منَ التَّلفِ بالتَّلفِ!**»(٢)، ثمَّ أنشدَ الأبياتِ المذكورةَ.

وهكَذَا لو تحسَّسْتَ - وفَّقَكَ اللهُ - لأفعالِهِ بك(٣) في حالِ ضيقِكَ وسَعَتِكَ، ومرضِكَ وصحَّتِكَ، وضَرُورتِكَ [٢/١٥٣أ] وكِفَايتِكَ، وسائِرِ تصرُّفاتِكَ وتقلُّباتِكَ لوجدْتَ مِنْ ألطافِهِ بكَ بعضَ ما وجدُوا، وأفردْتَ مولاكَ بسائِرِ الأفعالِ على حسبِ وسعكَ كمَا أفردُوا، ولكنَّ ارتباطَ قلبِكَ بالأوهامِ، ووقوفَكَ معَ سوءِ الاعتيادِ أدامَ لبثَكَ في مقامِ العوامِّ.

وروحُ الأبياتِ: أنَّ اللهَ - تعالى - يُرِيهِ مِنْ عجائبِ قدرتِهِ ولطفِهِ ما يُغنيهِ عن فكرِهِ وكشفِهِ، وقولُهُ:

... ... **وَذَا عَجَبٌ كَوْنُ الحَيَاةِ مَعَ الحَتْفِ**».

أنَّ العبدَ لا يعيشُ معَ مولَاهُ حتَّى يموتَ عنِ أغْراضِ نفسِهِ وهوَاهُ، فإنْ ماتَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٣.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) في (ب): به، والصواب المثبت.

عاشَ ، فهوَ ميِّتٌ باعتبارٍ حيٌّ باعتبارٍ ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قالَ الإمامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سَعْدَانَ التَّاهَرْتِيَّ(٢) يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ الْمَرْعَشِيَّ يَقُولُ ـ وَكَانَ قَدْ خَدَمَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ وَصَحِبَهُ ـ فَقِيلَ لَهُ: مَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ مِنْهُ؟ قَالَ: بَقِينَا فِي طَرِيقِ مَكَّةَ أَيَّامًا لَمْ نَجِدْ طَعَامًا، ثُمَّ دَخَلْنَا الكُوفَةَ، فَأَوَيْنَا إِلَىٰ مَسْجِدٍ خَرَابٍ، فَنَظَرَ إِلَيَّ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ، وَقَالَ: يَا حُذَيْفَةُ، أَرَىٰ بِكَ أَثَرَ الجُوعِ؟ فَقُلْتُ: هُوَ كَمَا رَأَى الشَّيْخُ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِدَوَاةٍ وَقِرْطَاسٍ فَجِئْتُ بِهِ، فَكَتَبَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَنْتَ المَقْصُودُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ وَالمُشَارُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَعْنَىٰ:

أَنَـا حَامِـدٌ، أَنَـا شَـاكِرٌ، أَنَـا ذَاكِـرٌ ❊ أَنَـا جَائِعٌ، أَنَـا نَـائِعٌ، أَنَـا عَـارِي
هِـيَ سِـتَّةٌ وَأَنَـا الضَّـمِينُ لِنِصْـفِهَا ❊ فَكُـنِ الضَّـمِينَ لِنِصْـفِهَا يَـا بَـارِي
مَـدْحِي لِغَيْـرِكَ لَهْـبُ نَـارٍ خُضْـتُهَا ❊ فَـأَجِرْ عُبَيْـدَكَ مِـنْ دُخُـولِ النَّـارِ(٤)

ثُمَّ دَفَعَ إِلَيَّ الرُّقْعَةَ وَقَالَ: اُخْرُجْ وَلَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِغَيْرِ اللهِ، وَادْفَعِ الرُّقْعَةَ إِلَىٰ أَوَّلِ مَنْ يَلْقَاكَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٢) في الأنساب ١/٤٤٣: «التاهرتي: بفتح التاء المنقوطة باثنتين من فوقها والهاء وسكون الراء وفي آخرها تاء أخرىٰ، هذه النسبة إلىٰ تاهرت؛ وهو موضع بإفريقية».

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٨، وتاريخ دمشق ٦/٣٣٠، وإحياء علوم الدين ٤/٢٧٠، والمستطرف ١/٣٢٣.

(٤) من الكامل، وورد في: حلية الأولياء ٨/٣٨، والبداية والنهاية ١٠/١٤٠، والدر الفريد وبيت القصيد ٤/٢٨٨. وللخليع في مدح سيف الدولة في: يتيمة الدهر ١/٣٣٤، وبغية الطلب ١٠/٤٥١٣، ولشمس الدين البهلوان في: الوافي بالوفيات ٢/٢٢.

قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَأَوَّلُ مَنْ لَقِيَنِي كَانَ رَجُلًا عَلَىٰ بَغْلَةٍ، [فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ](١)، فَأَخَذَ [ها](٢) وَبَكَىٰ، وَقَالَ: مَا فَعَلَ صَاحِبُ هَذِهِ الرُّقْعَةِ؟ فَقُلْتُ: فِي المَسْجِدِ الفُلَانِيِّ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ صُرَّةً فِيهَا سِتَّمَائَةِ دِينَارٍ، ثُمَّ لَقِيتُ رَجُلًا آخَرَ، فَقُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ البَغْلَةِ؟ فَقَالَ: نَصْرَانِيٌّ، فَجِئْتُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالقِصَّةِ، فَقَالَ: لَا تَمَسَّهَا، فَإِنَّهُ يَجِيءُ السَّاعَةَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَاعَةٍ وَافَى(٣) النَّصْرَانِيُّ، وَأَكَبَّ عَلَىٰ رَأْسِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَسْلَمَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ تحقيقٌ لمقامِ [٢/٥٣ب] التَّوكُّلِ مَعَ تعاطِي الأسبابِ؛ وذلِكَ أَنَّهُ أثنىٰ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وحدَهُ في الرُّقعةِ، وأقرَّ أنَّهُ المقصودُ بكلِّ حالٍ، والمشارُ إليهِ بكلِّ معنىً، كمَا قيلَ(٤):

وَظَنُّونِي مَدَحْتُهُمُ جَمِيعًا ❊ وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتُهُمُ مُرَادِي

ثمَّ قالَ: «أنَا حامدٌ وشاكرٌ وذاكرٌ»، فهذَا [هوَ](٥) ممَّا أُمِرَ العبدُ بهِ(٦)، «وأنَا جائعٌ ونائعٌ وعارٍ»، هوَ مَا العبدُ مفتقرٌ إليهِ؛ ليأتيَهُ اللهُ بهِ.

وقولُهُ:

هِيَ سِتَّةٌ وَأَنَا الضَّمِينُ لِنِصْفِهَا ❊ فَكُنِ الضَّمِينَ لِنِصْفِهَا يَا بَارِي

فيهِ نظرٌ، وليسَ هوَ أمرُ اللهِ بأنْ يكونَ الضَّمينَ، بلْ قدْ كانَ ذلكَ منهُ ـ تعالىٰ ـ،

---

(١) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) في (ف): أتىٰ.

(٤) من الوافر، للمتنبي في: الوساطة بين المتنبي وخصومه ص٢٤٩، والذخيرة لابن بسام ٧/٣٥٠، والحماسة المغربية ١/٧٨، ومحاضرات الأدباء ١/٤٥٧.

(٥) زيادة من النسخة (ب).

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

فهوَ الَّذي أمَرَ العبيدَ بالذِّكْرِ والشُّكرِ وسائرَ عباداتِهِ، وألزمَهُمْ ذلكَ، وهوَ الَّذي ضمنَ لهُمْ ما وعدَهُمْ بهِ، وأقسَمَ عليهِ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

فمعنىٰ البيتِ: أنِّي فعلتُ ما أمرْتَني، فتفضَّلْ بمَا وعدْتَ، ثمَّ كملَ ذلكَ بأنْ أقرَّ بتحقيقِ المدحِ لهُ، وحاشَىٰ نفسهُ أنْ يمدحَ غيرَهُ، فقالَ: «**مدحِي لغيرِكَ**[1] **وهجُ نارٍ خُضْتُهَا**»، يعنِي: إنْ[2] فعلتُ فأجِرْ عبيدَكَ منْ دخولِ النَّارِ؛ أيْ: مِنْ مدحِ غيرِكَ[3].

وسلَّمَ إليهِ الرُّقعةَ وقالَ لهُ: «**لا تعلِّقْ قلبَكَ إلَّا باللهِ**» تحقيقًا بحالِ الرَّسولِ علىٰ حسبِ حالِ المُرسلِ؛ لئلَّا يقعَ الخللُ في بعضِ العملِ، فكملَ ذلكَ بأنْ لا يكونَ لكَ اختيارٌ في شخصٍ دونَ شخصٍ[4]، بَلْ تسلِّمُهَا لأوَّلِ شخصٍ تلقَاهُ، فلمَّا سلَّمَهَا[5] بهذَا القصدِ الحميدِ، ووقفَ عليهَا مَنْ كانَ شقيًّا بعيدًا، أثَّرَ في قلبِهِ تأثيرَ النَّارِ في الحديدِ، وبكَىٰ وقالَ: «**أينَ صاحبُ هذهِ الرُّقعةِ؟**»، فَدَلَّهُ علىٰ المكانِ، وعجَّلَ البُشْرَىٰ بتسليمِ الصُّرَّةِ.

فلمَّا وصلَ إلىٰ إبراهيمَ وأعلَمَهُ[6] بالقضيَّةِ، غلبَ علىٰ ظنِّهِ تفضُّلُ ربِّ البريَّةِ، بمَا سبقَ مِنْ حُسْنِ القصدِ والنِّيَّةِ، وأخبرَهُ بمجيئِهِ وهيَ زيادةُ كشفٍ وفضْلٍ، فجاءَ وأسلمَ النَّصرانيُّ، فكانَ في هذِهِ الحركةِ كلُّ بركةٍ، لَا أَخْلَانَا اللهُ مِنْ توفيقِهِ، وسلَكَ بنَا محجَّةَ طريقِهِ بمحمَّدٍ وآلِهِ.

---

(١) في (ب): لغيره، والصواب المثبت.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٤.
(٤) في (ب): لغيره.
(٥) في (ب): سلماه، والصواب المثبت.
(٦) في (ب): أعلمه.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

باب الشُّكرِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] . . . الآية.

حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا الأَسْفَاطِيُّ، حَدَّثَنَا مِنْجابٌ؛ حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ يَعْلَىٰ، عَنْ أَبِي خَبَّابٍ[٢] [٢/٥٤أ]، عَنْ عَطَاءٍ؛ قَالَ[٣]: دَخَلْتُ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ: أَخْبِرِينا بِأَعْجَبِ مَا رَأَيْتِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: وَأَيُّ شَأْنِهِ لَمْ يَكُنْ عَجَبًا؟! إِنَّهُ أَتَىٰ فِي لَيْلَةٍ فَدَخَلَ مَعِي فِي فِرَاشِي ـ أَوْ قَالَتْ: فِي لِحَافِي ـ حَتَّىٰ مَسَّ جِلْدِي جِلْدَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ: ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي، قَالَتْ: قُلْتُ: إِنِّي أُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأَذِنْتُ لَهُ، فَقَامَ إِلَىٰ قِرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ، فَتَوَضَّأَ، فَأَكْثَرَ صَبَّ المَاءِ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي؛ فَبَكَىٰ حَتَّىٰ سَالَتْ دُمُوعُهُ عَلَىٰ صَدْرِهِ، ثُمَّ رَكَعَ فَبَكَىٰ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَىٰ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَبَكَىٰ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ جَاءَ بِلَالٌ فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا يُبْكِيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، وَلِمَ لَا أَفْعَلُ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] . . . الآية».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والنَّظرُ في حقيقةِ الشُّكرِ وماهيَّتِهِ، والفرقِ بينَهُ وبين

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١١.

(٢) في (ب): جناب.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/٣٨٦، وأخرجه مختصرا البخاري في صحيحه ٤/١٨٣٠ ـ حديث رقم (٤٥٥٧)، ومسلم في صحيحه ٤/٢١٧٢ ـ حديث رقم (٢٨٢٠).

الحَمْدِ، وبيانِ الأسبابِ المُوصِّلةِ إليهِ، والأدلَّةِ المُثبتةِ لهُ، والثمراتِ المترتِّبةِ عليهِ، ثمَّ تُجْرَىٰ أقوالُ العلماءِ علىٰ ما نُقَرِّرُهُ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ.

فأمَّا حقيقةُ الشُّكرِ(١): فهوَ الثَّناءُ علىٰ المُنعمِ بإنعامِهِ، وهذَا يكونُ بالقلبِ علىٰ مذهبِ أهلِ الحقِّ، وهوَ أنَّ الكلامَ في الفؤادِ، ويكونُ بالقلبِ واللِّسانِ الَّذِي هوَ ترجمانٌ عمَّا في القلبِ، ويكونُ بالأفعالِ المُوافقةِ للمَشْكُورِ الَّتِي طلبَهَا(٢) وأحبَّهَا.

فأمَّا شكرُ القلبِ واللِّسانِ فقدْ دخلَ تحتَ الحدِّ؛ وهوَ الثَّناءُ علىٰ المُنعمِ بإنعامِهِ.

وأمَّا الشُّكرُ بالأفعالِ فلا يكونُ ثناءً، ويصحُّ أنْ يكونَ دلالةً علىٰ ما فِي النَّفسِ كمَا كانتِ العبارةُ عبارةً عمَّا في النَّفسِ، فيكونَ(٣) الشُّكرُ حقيقةً بالقلبِ، فتارةً يظهرُهُ الشَّاكرُ بلسانِهِ، وتارةً بالخدمةِ والمُوافقةِ بأفعالِهِ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، فجعلَ العملَ شُكرًا لنعمِهِ عليهِم.

وأمَّا الأسبابُ المحصِّلةُ للشُّكرِ: فهوَ التَّفكُّرُ(٤) فِي تفاصيلِ النِّعمِ الواردةِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الشَّاكرِ وعلَىٰ غيرِهِ، وهذِهِ نِعَمٌ عامَّةٌ؛ كنعمةِ الإسلامِ، وعافيةِ البدَنِ، وتيسيرِ الأرزاقِ، وما يجري مَجرَاهُ مِنْ هذِهِ النِّعمِ الكلِّيَّةِ الَّتِي يعرفُهَا أكثرُ الخلقِ.

وهناكَ نِعَمٌ لا يعرفُهَا إلَّا العلماءُ؛ كنعمةِ(٥) الشَّرائعِ [٢/٥٤ب]، وتفصيلِ الأحكامِ إلىٰ حلالٍ وحرامٍ، والوعدِ والوعيدِ الحاملَينِ علىٰ الخيراتِ والمُبْعِدَينِ عنِ الشُّرورِ والآفاتِ، المثمرَينِ للخوفِ والرَّجاءِ، المُنْبِتَينِ لِعَظَمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في

---

(١) للاستزادة تأمل: التعريفات ص١٦٨، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٤٣٥، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٤١.

(٢) في (ب): يطلبها، والأصح المثبت.

(٣) في (أ): يكون.

(٤) في (أ): الفكر.

(٥) في (ب): كنعم.

القَلْبِ(١) وجَلالِهِ.

وهناكَ نِعَمٌ أخصُّ مِن هذِهِ، يجدُهَا الأولياءُ في قلوبِهِم، ويُدْرِكُونَهَا مِنْ فَضْلِ ربِّهِمْ؛ كَصَرْفِ الغفلَاتِ عنِ القُلُوبِ، وخلقِ الذِّكرِ لهُمْ، واستعمالِ ذلِكَ علَىٰ الدَّؤوبِ، كذلِكَ تأديبُهُ لهُمْ عندَ الزَّللِ؛ لينكفُّوا عنِ الخطأِ فيمَا يستقبلُ، ولا يؤخِّرُونَ في أدبِهِمْ ليومِ الجزاءِ، بل يُعَجِّلُ لهُمْ ما ينتفعُونَ بهِ في تكفيرِ السَّيِّئَاتِ ورفيعِ الدَّرجاتِ(٢)، وغيرِ ذلكَ ممَّا يقعُ التَّنبيهُ عليهِ في موضعِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ.

وكُلُّ عَبْدٍ يتفكَّرُ فيمَا ذكَرْنَا إنَّمَا يتفكَّرُ علىٰ حسبِ مَقَامِهِ ورفيعِ شأنِهِ معَ مَولَاهُ، وعلىٰ حسبِ كَمَالِ النِّعمِ والمعرفة بهَا يكونُ العجزُ عنْ(٣) إحصائِهَا، والإقرارُ بأنَّهُ لا قدرةَ لهُ علىٰ شكرِهَا، وكلَّمَا تكرَّرَ منهُ الاعترافُ بالعجزِ عنْ شُكْرِ النِّعَمِ تزَايدَ عندَهُ الفَضْلُ، وبعُدَتْ عنهُ النِّقَمُ.

وأمَّا أدلَّتُهُ: فقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾، وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وثناؤُهُ علىٰ الشَّاكرِ ووعدُهُ لهُ الخيرَ؛ كقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾، وقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [الإسراء: ٣]، وقولِهِ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ١٥].

وهلِ الشُّكرُ هوَ الحَمْدُ أوْ غيْرُهُ؟

فمِنَ النَّاسِ مَنْ جعلَهَما شيئًا واحدًا(٤)، ومِنَ النَّاسِ مَنْ فصلَ ....

(١) سقط من (ب) قوله: في القلب.

(٢) سقط من (ب) قوله: «بل يعجل لهم ما ينتفعون به في تكفير السيئات ورفيع الدرجات».

(٣) في (أ): عند.

(٤) فعلىٰ الأول ثعلب فيما حُكي عنه، والطبري، وهو ظاهر كلام سيبويه وقرّر ذلك ابن أبي الربيع،=

بينَهُمَا[١]؛ فجعلَ الحمدَ الثَّناءَ عليهِ ـ سبحانه ـ بصفاتِهِ؛ مِنْ[٢] تنزُّهِهِ عن خلقِهِ ووحدانيَّتِهِ وقِدَمِهِ وبقائِهِ وكمالِ علْمِهِ وإرادتِهِ وقُدْرتِهِ، وغيرِ ذلكَ مِنْ صفاتِهِ الكاملةِ، وجعلَ الشُّكرَ على أفعالِهِ مِنْ لُطْفِهِ وبرِّهِ وإحسانِهِ وإكرامِهِ وامتنانِهِ، وقَدْ قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وصفَ نفسَهُ بكونِهِ مالكَ الكُلِّ، والمختصَّ بالرَّحمنِ والرَّحيمِ؛ وهيَ الرَّحمةُ العامَّةُ، وانفرادهُ بالملكِ يومَ القيامةِ والحكمِ فيهِ، وهذَا كلُّهُ راجعٌ إلى صفاتِهِ.

وأمَّا[٣] **ثَمَراتُ الشُّكرِ فممَّا لا تنحصرُ**[٤]؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ قدْ وعدَ عليهَا بالزِّيادةِ، وقَدْ يزيدُ العبدَ ممَّا هوَ فيهِ منَ الخيرِ، وقَدْ يزيدُهُ مِنْ خلافِهِ ممَّا هوَ أصلحُ لهُ؛ ممَّا خطرَ ببالِهِ وعلَّقَ همَّتَهُ بهِ، وقدْ يزيدُهُ ممَّا لا يخطرُ ببالِهِ كمَا جعلَ في الآخرةِ جزاءَ الأعمالِ، «ما لَا عينٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطرَ

= والمبرد فيما نقل عنه القرطبي، ومكيّ القيسي، وابن دريد، وغيرهم.
انظر: الكتاب ٤/ ٦٠، والفصيح ص٢٧٥، وجامع البيان ١/ ١٣٥، والكافي في الإفصاح ١/ ٣٦، والجامع لأحكام القرآن ١/ ١١٧، والعمدة في غريب القرآن ص٦٦، والجمهرة ٣/ ١٢٥٩.

(١) على ذلك جمهرةٌ من العلماء؛ ومنهم: ابن قتيبة، وابن الأنباري، والخطابي، والزجاجي، والأزهري، والعسكري، والجرجاني، والزمخشري، وابن عطية، والسمين الحلبي، وأبو البقاء الكفوري وغيرهم.
انظر: أدب الكاتب ص٣٦، والزاهر في معاني كلمات الناس ٢/ ٧٩، وغريب الحديث ١/ ٣٤٦، وتفسير رسالة أدب الكاتب ص٦٢، والزاهر ص٩٣، والتعريفات ص١٢٥، والكشاف ١/ ٥٢، والمحرر الوجيز ١/ ٦٦، والدر المصون ١/ ٣٦، والكليات ص٣٦٥.
وللاستزادة في تفصيل ذلك تأمل: جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ص٤٥، وتحفة المجد الصريح ١/ ٤٧٨، ومقال الحمد والشكر والثناء والرضا لعبد الكريم الباقي ـ ضمن مجلة مجمع اللغة بدمشق م٥٧، ج ٤ ص٥٨٥، والفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم ص٢١٥.

(٢) في (ب): في.

(٣) في (ب): وإنما.

(٤) في (ب): تحصى.

على قلْبِ بشَرٍ»[(١)]، وكذلِكَ تفعلُ في القُلُوبِ [٢/١٥٥أ] منَ المَواهِبِ والتَّقريبِ والزُّلْفىٰ والأُنْسِ بهِ، والتَّلذُّذِ بمناجاتِهِ، وغيرِ ذلِكَ من بركاتِهِ، ما لمْ يخطرْ ببالِ العبدِ ولا كانَ قطُّ مِنْ مُهمَّاتِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَحقِيقَةُ الشُّكرِ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ: الاِعْتِرَافُ بِنعْمَةِ المُنْعِمِ عَلَىٰ وَجْهِ الخُضُوعِ، وَعَلَىٰ هَذَا القَوْلِ يُوصَفُ الحَقُّ[(٣)] ـ سبحانه ـ بِأَنَّهُ شَكُورٌ تَوسُّعًا، وَمعْنَاهُ: أَنَّهُ يُجَازِي العِبَادَ عَلَىٰ الشُّكْرِ؛ فَسُمِّي[(٤)] جَزَاءُ الشُّكْرِ شُكْرًا، كَمَا قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

وَقِيلَ: شُكْرُهُ: إِعْطَاؤُهُ الكَثِيرَ مِنَ الثَّوَابِ عَلَىٰ العَمَلِ اليَسِيرِ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ[(٥)]: دَابَّةٌ شَكُورٌ؛ إِذَا أَظْهَرَتْ مِنَ السِّمَنِ فَوْقَ مَا تُعْطَىٰ مِنَ العَلَفِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ هذَا القائلُ فِي وجْهِ الشُّكرِ قريبٌ، وليسَ بحقيقةِ الشُّكرِ، بَلْ هوَ راجعٌ إلىٰ مُثْمرِهِ؛ وذلِكَ أنَّ الاعترافَ بالنِّعمةِ إقرارٌ بهَا للمُنْعِمِ.

وقولُهُ: «عَلَىٰ وَجْهِ الخُضُوعِ»، أيْ: علىٰ وجْهِ الاستكانةِ والتَّذلُّلِ، ولا تُخلصُ هذِهِ الزِّيادةُ اللَّفظةَ للشُّكرِ؛ لأنَّ الإقرارَ[(٦)] بالنِّعمِ ليسَتْ شكرًا، بلِ الشُّكرُ الثَّناءُ علىٰ المُنْعِمِ بإنعامِهِ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١١٨٥ ـ حديث رقم (٣٠٧٢)، ومسلم في صحيحه ٤/٢١٧٥ ـ حديث رقم (٢٨٢٤).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) في (ب): القديم.

(٤) في (ب): فيسمي.

(٥) انظر: تفسير أسماء الله الحسنىٰ ص٤٧، وتفسير الثعلبي ٢/٢٩، وأساس البلاغة «ش ك ر».

(٦) في (ب): القران، والصواب المثبت.

وقولُهُ: «وعلىٰ هذا يُسمَّىٰ الحقُّ ـ سبحانه ـ شكُورًا»، بمعنىٰ أنَّهُ يجازِي علىٰ النِّعمِ؛ أيْ: يُثِيبُ عليهَا، ويُسَمَّىٰ ثوابُ الشُّكرِ شُكرًا، كمَا قيلَ فِي السَّيِّئَةِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۚ﴾، واللهُ ـ سبحانه ـ مجازاتُهُ حقٌّ وليسَ سيِّئَةً، وكذلِكَ قولُهُ: «شكورٌ بمعنَىٰ: أنَّهُ يُجازِي علىٰ الشُّكرِ» أوْ علىٰ العملِ أكثرَ منهُ، كمَا يقالُ: دابَّةٌ شَكُورٌ.

والصَّحيحُ في حدِّ الشُّكرِ ما ذكرْنَاهُ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ شكورٌ بمعنىٰ أنَّهُ يُثنِي علىٰ عبادِهِ الصَّالحينَ، كمَا تضمَّنَهُ الكتابُ العزيزُ بقولِهِ: ﴿ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧]، ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[1] [الحشر: ٢٠]، و: ﴿ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، و: ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وغيرِ ذلِكَ منْ صِفَاتِ الكَمَالِ، وإنْ كانَ أصلُ الكلِّ منهُ، فمِنْ كَمَالِ فَضْلِهِ أنَّهُ يبتدئُ بالإحسانِ ويُثْنِي علىٰ فَاعلِهِ، ومَنْ قارنَتْهُ قدرتُهُ وهوَ ـ سبحانه ـ الفاعلُ علىٰ التَّحقيقِ، فالحقُّ ـ سبحانه ـ شاكرٌ وشكورٌ، والعبدُ شاكرٌ لربِّهِ بقلبِهِ ولسانِهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: حَقِيقَةُ الشُّكْرِ: الثَّنَاءُ عَلَىٰ المُحْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ، فَشُكْرُ العَبْدِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَشُكْرُ الحَقِّ ـ سبحانه ـ لِلْعَبْدِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ لَهُ، ثُمَّ إِنَّ[3] إِحْسَانَ العَبْدِ طَاعَةٌ لَهُ ـ سبحانه ـ وَإِحْسَانَ الحَقِّ ـ سبحانه ـ إِنْعَامُهُ عَلَىٰ العَبْدِ.

وَشُكْرُ العَبْدِ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ: إِنَّمَا هُوَ نُطْقُ اللِّسَانِ، وَإِقْرَارُ القَلْبِ [٢/٥٥ب] بِإِنْعَامِ الرَّبِّ ـ تعالىٰ ـ.

وَالشُّكْرُ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ: شُكْرٍ بِاللِّسَانِ؛ وَهُوَ: اعْتِرَافُهُ بِالنِّعْمَةِ بِنَعْتِ الاِسْتِكَانَةِ.

---

(١) في النسخ (الفائزين)، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٣١٢/١.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

وَشُكْرٍ بَالبَدَنِ وَالأَرْكَانِ ؛ وَهُوَ: اتِّصَافٌ بِالوِفَاقِ[١] وَالخِدْمَةِ. وَشُكْرٌ بِالقَلْبِ ؛ وَهُوَ: اعْتِكَافٌ عَلَىٰ بِسَاطِ الشُّهُودِ بِإِدَامَةِ حِفْظِ الحُرْمَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ في الحدِّ مِنْ أنَّ الشُّكرَ الثَّناءُ علىٰ المُنعِمِ بإنعامِهِ صحيحٌ، وهوَ بالقلبِ كمَا قرَّرْنَاهُ، وباللِّسانِ، وهوَ ترجمانٌ عمَّا فِي القلبِ، وبالجوارحِ ؛ وهوَ إيقاعُهَا طاعةً للهِ ـ تعالىٰ ـ مجازاةً علَىٰ نعَمِهِ، كمَا قيلَ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قامَ حتَّىٰ تورَّمَتْ قدمَاهُ[٢]: «تصنعُ هذَا وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ ومَا تأخَّرَ، قالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، فأوقعَ عبادةَ النَّافلةِ شكرًا للهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ نعَمِهِ.

وأمَّا مَا ذكرَهُ منَ التَّفرقةِ بينَ شُكرِ اللِّسانِ وشُكْرِ القَلْبِ وشُكرِ الجَوارحِ، فهيَ زيادةٌ علىٰ حقيقةِ الشُّكرِ، فإنَّ التَّذلُّلَ معَ النُّطقِ باللِّسانِ علىٰ وجْهِ الثَّناءِ علىٰ المُنعِمِ بنعمِهِ زيادةٌ فِي الأحوالِ، وكذلكَ عُكُوفُ القَلْبِ علىٰ رُؤيةِ الفَضْلِ وحفظِ الحُرمَةِ زيادةٌ في الشُّكرِ في الأحوالِ، وكذلكَ الجريانُ في سائِرِ الأفعالِ علىٰ نَعْتِ المُوافقةِ زيادةٌ في الطَّاعَاتِ وحُسْنِ الهيئَاتِ، والصَّحيحُ في الشُّكرِ مَا ذكَرْنَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَيُقَالُ: شُكْرٌ هُوَ شُكْرُ العَالِمِينَ ؛ يَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ أَقْوَالِهِمْ، وَشُكْرٌ هُوَ نَعْتُ العَابِدِينَ ؛ يَكُونُ نَوْعًا مِنْ أَفْعَالِهِم، وَشُكْرٌ هُوَ شُكْرُ[٤] العَارِفِينَ ؛ يَكُونُ بِاسْتِقَامَتِهِمْ لَهُ عُمُومَ أَحْوَالِهِم».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الشُّكرُ إنَّمَا تنوَّعَ بالنِّسبةِ لمقاماتِ الصَّالحينَ، وذلكَ أنَّ مَنْ لا علمَ عندَهُ بالشُّكرِ إلَّا باللِّسانِ فشكرُهُ إنَّمَا يكونُ بالنُّطقِ بهِ،

---

(١) في: إحكام الدلالة ١/٥٤٧: بالوفاء.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣١٢.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

وسمَّى[(١)] هذَا الصِّنفَ عَالِمينَ، يعنِي: بمَا علمُوهُ، وشكرُ العابدِينَ يكونُ نوعًا مِنْ أفعالِهِمْ يعنِي بعضَ طاعاتِهِمْ، وأمَّا مَنْ سمَّاهُمْ عارِفِينَ ونسبَ الشُّكرَ إليهِمْ فطائفةٌ انتقلُوا عن أعمالِ الجوارحِ إلىٰ أحوالِ القلوبِ، فشكرُهُمْ لهُ بالاستقامةِ في عُمُومِ أحوالِهِمْ، فحصلَ مِنْ ذلكَ أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالأقوالِ، وبالطَّاعةِ منَ الأفعالِ، وبالاستقامةِ في عُمُومِ الأَحْوالِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ**[(٣)]: **شُكْرُ النِّعْمَةِ: مُشَاهَدَةُ المِنَّةِ**[(٤)]، **وَحِفْظُ الحُرْمَةِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ أسبابِ الشُّكرِ؛ لأنَّ مشاهدةَ النِّعمةِ [٢/١٥٦أ] مَعْرِفتُهَا، وحفظَ الحُرْمةِ مَعْرِفَةُ قَدْرِهَا وَمَنْزِلَتِهَا، وعن ذلكَ يكونُ الشُّكرُ[(٥)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَقَالَ حَمْدُونُ القَصَّارُ**[(٧)]: **شُكْرُ النِّعْمَةِ: أَنْ تَرَىٰ نَفْسَكَ فِيهِ**[(٨)] **طُفَيْلِيًّا**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومرادُهُ: أنْ يضيفَهَا لفاعِلِهَا، ويتبرَّأَ[(٩)] مِنْ إضافتِهَا إلىٰ نفسِكَ، وهذَا يرجعُ إلىٰ الاعترافِ بالنِّعمةِ وإضافتِهَا إلىٰ المُنْعِمِ، ويلتحقُ بمَا قدَّمناهُ، ويصحُّ أنْ يلتحقَ هذا الكلامُ بحقيقةِ الشُّكرِ بوجهٍ؛ وهوَ أنَّ العبدَ إذا تَبَرَّأَ

---

(١) في (ب): ويسمىٰ.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٢.
(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٤١، وحلية الأولياء ١٠/٢٣٥، وطبقات الصوفية ص١٧٩.
(٤) أي: بالتفضل والإحسان منه عَزَّوَجَلَّ.
(٥) أي: سببٌ للشكر لا نفسه.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣١٢.
(٧) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٤١، ومدارج السالكين ٢/٢٤٤.
(٨) أي: في الشكر.
(٩) في (ب): وتبرأ.

منَ النِّعمةِ كيفَ يشكرُ ويكونُ شكرُهُ مِنْ جُملةِ النِّعمِ ؟! ، ففيهِ إقرارٌ بعَجْزِهِ عنِ الشُّكرِ ، فإنَّهُ يرَىٰ جميعَ ما هوَ فيهِ نعمةً عليهِ ، ومِنْ جُملتِهَا الشُّكرُ وهوَ يعجزُ عنِ الشُّكرِ مطلقًا ؛ إذْ كلُّ شكرٍ يفتقرُ إلىٰ شُكرٍ ، وبهذَا الاعتبارِ قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1] : «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**» .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] : «**وَقَالَ الجُنَيْدُ[3] : الشُّكْرُ فِيهِ عِلَّةٌ ؛ لِأَنَّهُ[4] طَالِبٌ لِنَفْسِهِ المَزِيدَ ، فَهُوَ وَاقِفٌ مَعَ اللهِ ـ سبحانه ـ عَلَىٰ حَظِّ[5] نَفْسِهِ**» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وهذَا لَا يطَّرِدُ في كلِّ الشَّاكرينَ وإنْ كانَ الحقُّ ـ سبحانه ـ قالَ : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧] ، ولا يلزمُ مِنْ كُلِّ شَاكرٍ أنْ يكونَ شُكْرُهُ طلبًا للزِّيادةِ ، ويكونُ شكرُهُ علىٰ مَا تفضَّلَ عليهِ بهِ خاصَّةً ولا تكونُ فيهِ علالةٌ ، ولَا يكونُ واقفًا معَ حفظِ نفسِهِ بهذَا الاعتبارِ .

ويحتملُ أنْ يكونَ واقفًا معَ حظِّ نفسِهِ باعتبارٍ آخرَ ؛ وهوَ أنَّهُ شكرَ الحقَّ ـ سبحانه ـ علىٰ ما أَجرَاهُ عليهِ ممَّا يُوافقُ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ ، ولَمْ يَصِلْ إلىٰ أنْ يشكرَ الحقَّ ـ سبحانه ـ علىٰ ما يردُ منهُ مطلقًا ممَّا يوافقُ هواهُ أو يخالفُ ، ويكونُ ذلكَ منهُ لكمالِ معرفتِهِ بحسنِ نظرِ الحقِّ لهُ فيمَا يجريهِ عليهِ .

فإذَا تقرَّرَ عندَهُ أنَّهُ ـ سبحانه ـ إنَّمَا يجرِي عليهِ ما فيهِ صَلاحُهُ شَكَرَهُ علىٰ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ ، ولا يكونُ واقفًا معَ ما يوافقُ هَوَاهُ ـ وهوَ حفظُ نفسِهِ ـ ، بلْ معَ ما أجرَاهُ عليهِ مولاهُ .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٢ .

(٣) ورد قوله في : تفسير السلمي ٢/٩١ ، وتفسير عرائس البيان ٣/٦٩ .

(٤) أي : الشاكر .

(٥) في (ب) : حفظ ، والصواب المثبت .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[(٢)]: الشُّكْرُ مَعْرِفَةُ العجْزِ عَنِ الشُّكْرِ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أشرْنَا إليهِ في أحدِ وجهَي ما تقدَّمَ؛ وذلكَ أنَّ مَنْ رأىٰ شُكْرَهُ نعمةً عليهِ قيلَ لهُ: اشكُرْ علىٰ هذا الشُّكرِ، وإذا شكرَ عرَفَ أنَّهُ نعمةٌ ويُطالبُ بالشُّكرِ عليهَا، وهذَا إمَّا أنْ يتسلسلَ ولا قدرةَ للعبدِ عليهِ، وإمَّا أنْ يقطعَهُ عنِ الشُّكرِ الموتُ فيكونَ آخرُ [٢/٥٦ب] شكرٍ يعقبُهُ الموتُ لمْ يشكرْ عليهِ، فالعجزُ لازمٌ لهُ علىٰ كلِّ حَالٍ، وكذلِكَ قالَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «العجزُ عنْ دركِ الإدراكِ إدراكٌ»[(٤)].

وهذَا فيهِ قلقٌ، وهوَ يرجعُ إلىٰ أحدِ أمرَينِ: إمَّا أنْ يكونَ المحلُّ لا مجالَ للعقلِ فيهِ؛ كمعرفةِ حقيقةِ ذاتِ القديمِ وصفاتِهِ، وإمَّا أنْ يكونَ العجزُ القدرةَ عن بعضِ المُمْكناتِ الَّتِي لَمْ تُقَارنْهَا قُدْرةُ العَبدِ كَسَائِرِ المَخْلُوقَاتِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَيُقَالُ[(٦)]: الشُّكْرُ عَلَىٰ الشُّكْرِ أَتَمُّ مِنَ الشُّكْرِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَرَىٰ شُكْرَكَ بِتَوْفِيقِهِ، وَيَكُونَ ذَلِكَ التَّوْفِيقُ مِنْ أَجَلِّ النِّعَمِ عَلَيْكَ، فَتَشْكُرَهُ عَلَىٰ الشُّكْرِ، ثُمَّ تَشْكُرَهُ عَلَىٰ شُكْرِ الشُّكْرِ إِلَىٰ مَا لَا يَتَنَاهَىٰ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ لا يعرفُ أنَّ توفيقَهُ للشُّكرِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٢.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٣٠، ومدارج السالكين ٢/٢٤٤. ونسب للجنيد في: تفسير الثعلبي ١/١٩٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٨.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣١٢.

(٦) ورد في: عدة الصابرين ص١٢٢، وحقائق الدقائق ص١١٥.

نعمةٌ لا يشكرُ عليهِ؛ فمَنْ رأَىٰ كونَهُ في عَافيةٍ نعمةً فشَكرَ عليهَا ولمْ يعرفْ أنَّ توفيقَهُ للشُّكرِ نعمةٌ أخرَىٰ لا يشكرُ عليهَا، ومَنْ عرَفَ ذلكَ فشكرَ عليهِ فشكرُهُ أتمُّ مِنْ شكْرِ مَنْ لمْ يعرفْهُ، وبهذَا الاعتبارِ كانَ الشُّكرُ علىٰ الشُّكرِ أتمَّ منَ الشُّكرِ، وهذَا يتسلسلُ، وقدْ قلنَا: إنَّ نهايتَهُ المَوتُ؛ لأنَّهُ لَوْ تَوالَىٰ عليهِ الشُّكرُ وشَكرَ لكانَ آخرُ شُكْرٍ يعقبُهُ المَوتُ لَمْ يَشْكُرْ عليهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: **«وَقِيلَ[2]: الشُّكْرُ: إِضَافَةُ النِّعَمِ[3] إِلَىٰ مُولِيهَا بِنَعْتِ الاسْتِكَانَةِ لَهُ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا منَ الطِّرازِ الأوَّلِ الَّذي قلنَا: إنَّ حقيقةَ الشُّكرِ لمْ تَتحقَّقْ فيهِ، فإنَّ خُلاصَتَهُ الاعترافُ بنعمةِ المُنعمِ معَ التَّذلُّلِ لهُ؛ وهوَ الاستكانةُ، والشُّكرُ: الثَّناءُ علىٰ المُنعمِ بإنعامِهِ، فافترقَ الأمرانِ:

ويحتملُ أنْ يريدَ بهِ: شكرَ الأعمالِ إذَا قارنَتْهُ نيَّةُ الشُّكرِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]: **«وَقَالَ الجُنَيْدُ[5]: الشُّكْرُ: أَنْ لَا تَرَىٰ نَفْسَكَ أَهْلًا لِلنِّعْمَةِ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ؛ فإنَّ مَنْ لمْ يرَ[6] نفسَهُ أهْلًا للنِّعمةِ؛ لعدمِ صلاحيَّتِهِ لهَا، ورآهَا فضْلًا منَ المُنعمِ بهَا استحْيَىٰ منَ اللهِ أنْ يكونَ شُكْرُهُ جزاءً

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٢.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٤٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/١٠٦.

(٣) في: إحكام الدلالة ١/٥٤٨: المنعم.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣١٣.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٨٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٦، ومدارج السالكين ٢/٢٤٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/١٠٦.

(٦) في (ب): يرىٰ، والصواب المثبت.

عليهَا ، كيفَ إذا لاحظَ شكرَهُ نعمةً أُخرَىٰ تحتاجُ إلىٰ الشُّكرِ ، فهوَ يتبرَّأُ منْ أنْ يكونَ شاكرًا لنعمةٍ منْ نعمِهِ أبدًا(١) ، ولذلِكَ قيلَ(٢) :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نَعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ❊ عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ❊ وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّسَعَ العُمْرُ!

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَقَالَ رُوَيْمٌ(٣): الشُّكْرُ: اسْتِفْرَاغُ(٤) الطَّاقَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [٢/١٥٧أ]: وفيهِ فقهٌ جيِّدٌ؛ وهوَ مِن بابِ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ ، فمعنَاهُ: كمالُ الشُّكرِ استفراغُ الطَّاقةِ فيهِ ، فإذَا استفرغْتَ وُسعَكَ فِي الشُّكرِ وعجزْتَ عمَّا لَمْ تُخلَقْ لكَ(٥) قدرةٌ عليهِ ، فَقَدْ(٦) أَتيْتَ بالمُمْكِنِ والغَايةِ مِنَ الشُّكرِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَقِيلَ(٧): الشَّاكِرُ: الَّذِي يَشْكُرُ عَلَىٰ المَوْجُودِ ، وَالشَّكُورُ: الَّذِي يَشْكُرُ عَلَىٰ المَفْقُودِ».

وَيُقَالُ: الشَّاكِرُ: الَّذِي يَشْكُرُ عَلَىٰ الرِّفْدِ ، وَالشَّكُورُ: الَّذِي يَشْكُرُ عَلَىٰ الرَّدِّ.

وَيُقَالُ: الشَّاكِرُ: الَّذِي يَشْكُرُ عَلَىٰ النَّفْعِ ، وَالشَّكُورُ: الَّذِي يَشْكُرُ عَلَىٰ المَنْعِ.

[وَيُقَالُ: الشَّاكِرُ: الذي يَشْكُرُ علىٰ العَطَاءِ ، والشَّكُورُ: الذي يَشْكُرُ علىٰ البَلاءِ](٨).

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٤٨.

(٢) في (ب): قال. والبيتان من الكامل ، لمحمود الوراق في ديوانه ص١٢١.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٥٥ ، ومدارج السالكين ٢/٢٤٥ ، وبصائر ذوي التمييز ٣/٣٣٨.

(٤) في (ب): استغراق ، وهو تحريف.

(٥) في (ب): له.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) انظر هذه الأقوال في: الغنية للجيلاني ص٣٢٥ ، وعدة الصابرين ص١٢٣ ، والرياض الأنيقة ص١٨٢ ، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٨ ـ ٢١٩.

(٨) زيادة من (ف).

وَيُقَالُ: الشَّاكِرُ: الَّذِي يَشْكُرُ عِنْدَ البَذْلِ، وَالشَّكُورُ: الَّذِي يَشْكُرُ عِنْدَ[(١)] المَطْلِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الكلماتُ تدخلُ تحتَ سلكٍ واحدٍ؛ وذلكَ أنَّ كلَّ مَنْ لا يشكرُ إلَّا على النِّعمِ والعَوافِي لكونِهِ لا يعرفُ نعمةً سوىٰ ذلِكَ فهوَ شاكرٌ، وكلَّ مَنِ ارتقَتْ درجتُهُ حتَّىٰ رأىٰ البلاءَ والمَنْعَ والرَّدَّ والمَطْلَ نعمةً مِنْ حيثُ كانَتْ اختيارًا للحقِّ العالِمِ بمصلحتِهِ فرآهَا نعمةً شكرَ عليهَا فقدْ تَزَايدَ شُكْرُهُ، فكانَ في أوَّلِ أمرِهِ شاكرًا، فلمَّا عدَّ البلاءَ نعمةً وشكرَ عليهَا صارَ شَكُورًا، فإنَّ الشَّكورَ مبالغةٌ من شَاكرٍ، ولذلِكَ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»؛ لِرُؤيتِهِ جميعَ ما هوَ فيهِ مِنْ نِعَمِ الحقِّ عليهِ، وَأَوْقَعَ عبادَتَهُ شكرًا للهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ ذلِكَ[(٢)].

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُرْتَعِش يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٤)]: كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيِّ أَلْعَبُ وَأَنَا ابْنُ سَبعِ سِنِينَ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ جَمَاعَةٌ يَتَكَلَّمُونَ فِي الشُّكْرِ؛ فَقَالَ لِي: يَا غُلَامُ، مَا الشُّكْرُ؟ فَقُلْتُ: أَلَّا يُعْصَىٰ اللهُ بِنِعَمِهِ، فَقَالَ: يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ حَظُّكَ مِنَ اللهِ لِسَانَكَ.**

قَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **فَلَا أَزَالُ أَبْكِي عَلَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا السَّرِيُّ».**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أي: فسمَّىٰ الأول في جميعها شاكرا؛ لكونه لا يعرف نعمة إلىٰ العطاء، والثاني شكور؛ لأنه رأىٰ زيادة علىٰ ذلك؛ فرأىٰ البلاء والمنع والمطل نعمًا.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣١٣.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٤، وسراج الملوك ص١٠٨، وصفة الصفوة ٢/٤١٧، وتاريخ الإسلام ٢٢/١٢٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٦، وسنن المهتدين في مقامات الدين ص٢٣٣، ومفتاح الفضائل والنعم ص١٩١، وإتحاف السادة المتقين ١١/١٠٣.

* **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ بِبَرَكَةِ دُعَاءِ السَّرِيِّ للجُنيدِ أنْ يسدِّدَهُ اللهُ، فلمَّا كانَ عندَهُ مشايخُ وتكلَّمُوا فِي الشُّكرِ أرادَ السَّرِيُّ أنْ يُظْهِرَ اللهُ الحقَّ علىٰ لسانِ الجُنيدِ، وهذا نوعٌ منْ أنواعِ الشُّكرِ خفِيٌّ لا يعرفُهُ كلُّ النَّاسِ، ومتَىٰ يعرفُ الصَّبيُّ الصَّغيرُ شُكْرَ الأفعالِ، وأكثرُ ما يتكرَّرُ بينَ النَّاسِ شكرُ الأقوالِ، فلمَّا قالَ لهُ [٢/٥٧ب]: «**ما الشُّكرُ؟ قالَ: ألَّا يُعصَىٰ اللهُ بنِعَمِهِ**»، هذَا شكرُ الأفعالِ، فلمَّا قالَ هذَا القولَ أعجبَ شيخَهُ والجماعةَ، فقالَ لهُ السَّرِيُّ: «**يُوشِكُ أنْ يكونَ حظُّكَ منَ اللهِ لِسَانَكَ**».

وهذَا الَّذِي يدلُّ علىٰ أنَّ السَّرِيَّ دعَا لهُ حينَ سألَهُ أنْ يُسدِّدَ اللهُ لسانَهُ، فلمَّا قالَ ما قالَ، قالَ لهُ السَّريُّ: «**يُوشِكُ أنْ يكونَ حظُّكَ منَ اللهِ لسانَكَ، فقالَ الجُنيدُ: فأنَا لا أزالُ أبكِي**» لقولِ السَّرِيِّ ذلكَ خيفةً منْ[1] ألَّا يكونَ لهُ منَ اللهِ حظٌّ إلَّا تسديدَ لسانِهِ خاصَّةً، ومقصودُ الجُنيدِ: أنْ يسدِّدَهُ اللهُ مطلقًا في سائِرِ حركاتِهِ وسكناتِهِ، وإنَّمَا خشِيَ أنْ يكونَ دعاءُ السَّريِّ لهُ في تسديدِ لسانِهِ خاصَّةً.

* **قالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَقَالَ الشِّبلِيُّ[3]: الشُّكْرُ: رُؤْيَةُ المُنْعِمِ، لَا رُؤْيَةُ النِّعْمَةِ»**.

* **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أبلغُ فِي الشُّكرِ، وذلكَ أنَّهُ لا بُدَّ مِن رؤيةِ النِّعمِ وإضافتِهَا إلىٰ المُنعِمِ، فحينئذٍ يشكرُ عليهَا، فإذَا كانَ الغالبُ علىٰ القلبِ رؤيةَ المُنْعِمِ[4]، ويكونُ ما وردَ منهُ منَ النِّعمِ في ثانِي نظرٍ ويكونُ هوَ السَّابقُ علىٰ القلبِ،

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٣.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٨٣، ومدارج السالكين ٢/٢٤٥، وإتحاف السادة المتقين ١١/١٠٢.

(٤) في (أ): النِّعم.

كمَا قالَ بعضُهُمْ[١]: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا حَتَّىٰ رَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ»، أيِ: الغالبُ علىٰ قلبِهِ رؤيةُ اللهِ ومُراقبَتُهُ، فأيُّ شيءٍ حدثَ فيهِ لا يكونُ[٢] مُذكِّرًا لهُ رؤيةَ[٣] الحقِّ، فإنَّهُ ذاكرٌ لهُ غيرُ غافلٍ، وهوَ أكملُ[٤] ممَّنْ قالَ: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ معَهُ»، فتكونُ رؤيةُ النِّعمةِ مُذكِّرَةً للمُنعِمِ معًا، فيذكُرُ المُنعِمَ معَ ذِكْرِ النِّعمِ[٥]، ومَنْ تقدَّمَ ذِكْرُهُ ذَاكِرٌ للمُنعمِ لا يَزال، والتفاتُهُ إلىٰ النِّعمِ فِي ثَانِي حَال.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: «**وَقِيلَ: الشُّكْرُ[٧]: قَيْدُ المَوْجُودِ[٨]، وَصَيْدُ المَفْقُودِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا التفاتٌ إلىٰ ثَمَرَاتِ الشُّكرِ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ قالَ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، قالَ أهلُ التَّفسيرِ: مِنْ طَاعتِي[٩]، فإذَا مَنَّ اللهُ علىٰ العبدِ بنعمةٍ ـ وَأَكْبَرُ النِّعمِ الطَّاعةُ ـ فشكرَهَا كانَ شكرُهُ تقييدًا لهَا، أيْ: حفظًا لهَا وسببًا لتحصيلِ غيرِهَا معَهَا مضافًا[١٠] إليهَا؛ وهوَ صَيْدُهَا.

فبهذَا الاعتبارِ قالَ: «**الشُّكرُ قيدُ الموجودِ**»، يعنِي: الحاصلَ، «**وصيدُ المفقودِ**»،

---

(١) نسب للصديق في: البرهان المؤيد ص١٥٨، والفتوحات المكية ١١/٧، وبلا نسبة في: مدارج السالكين ٤٥٢/٢.

(٢) في إحكام الدلالة ٥٤٩/١: «فيه يكون».

(٣) في (ب): ورؤية.

(٤) لأن فيه الغناء عن النفس، وما لها من الحظ في ذات الحق. انظر: نتائج الأفكار ١٢٠/٣.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٤٩/١.

(٦) الرسالة القشيرية ٣١٣/١.

(٧) ورد قوله في: تفسير البغوي ٢٧/٣، والغنية للجيلاني ص٣٢٥، وغيث المواهب العلية ص٩٠، وعدة الصابرين ص١٢٣.

(٨) أي: حفظه.

(٩) نسب للحسن وغيره في: تفسير الطبري ١٨٦/١٣، وزاد المسير ٣٤٧/٤.

(١٠) في (ب): مضافٌ، والأصح المثبت.

يعنِي: الممكنَ الموعودَ بهِ، وهيَ الزِّيادةُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبو عُثْمانَ[٢]: شُكْرُ العَامَّةِ عَلَىٰ المطْعَمِ وَالمَلْبَسِ[٣]، وَشُكْرُ الخَوَاصِّ عَلَىٰ مَا يَرِدُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مِنَ المَعَانِي».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي قدَّمْنَاهُ لمَّا فصَّلْنَا النِّعَمَ [١٥٨/٢أ] إلىٰ نعمٍ كليَّةٍ؛ أيْ: يعرفُهَا النَّاسُ؛ كنعمةِ الشَّمسِ والنِّيلِ والمطرِ والعوافِي ودفعِ البلايَا، وفوقَهَا نعمٌ كمَا قرَّرْنَاهُ يعرفُهَا العلماءُ، وفوقَهَا نعمٌ مِنْ مَواهبِ القُلُوبِ الوَارِدَةِ منَ الغُيوبِ يَعْرفُهَا الأولياءُ، وعلَىٰ حسبِ النِّعمِ ومعرفتِهِ بكثرتِهَا يكونُ العبدُ شَاكرًا وشَكُورًا.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِلَهِي؛ كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِكَ؟ فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَيْهِ: الآنَ قَدْ شَكَرْتَنِي.

وَقِيلَ[٦]: قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُنَاجَاتِهِ: إِلَهِي؛ خَلَقْتَ آدَمَ بِيَدِكَ، وَفَعَلْتَ وَفَعَلْتَ، فَكَيْفَ شَكَرَكَ؟ فَقَالَ: عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي، فَكَانَتْ مَعْرِفَتُهُ بِذَلِكَ شُكْرَهُ لِي».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَانِ القولانِ مشتملانِ علىٰ ذِكْرِ الشُّكْرِ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهُمَا ـ صَلَواتُ اللهِ عليهِمَا ـ مُعْتَرِفٌ بأنَّهُ لا قُدْرَةَ لهُ علىٰ كَمَالِ شُكْرِ نعمِ اللهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٣١٣/١.
(٢) ورد قوله في: عدة الصابرين ص١٢٣، وإتحاف السادة المتقين ١٠٢/١١، ونسب للخواص في: إحياء علوم الدين ٨٤/٤، وبلا نسبة في: مدارج السالكين ٢٤٥/٢.
(٣) أي: النعم الظاهرة.
(٤) الرسالة القشيرية ٣١٣/١.
(٥) ورد قوله في: سراج الملوك ص١٠٦، والبرهان المؤيد ص٤٢، ومدارج السالكين ٢٤٥/٢.
(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين، وإتحاف السادة المتقين ٩٩/١١.

عليهِ، وإنَّمَا سَأَلَ هَلْ يُمْكِنُ أنْ يقومَ بشكرِ نعمِكَ أحدٌ؟ فأرادَ أنْ يعرفَ ذلكَ ليقومَ بهِ، فأعلمَهُمَا[١] الحقُّ أنَّ معرفتَكُمَا بأنَّهُ لا يقومُ أحدٌ بشُكرِ نعَمِي عليهِ غايةٌ فِي شُكْرِي.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: كَانَ لِبَعْضِهِمْ صَدِيقٌ، فَحَبَسَهُ السُّلْطَانُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: اشْكُرِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ، فَضُرِبَ الرَّجُلُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اشْكُرِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ، فَجِيءَ [بِمَحْبُوسٍ][٤] مَجُوسِيٍّ مَبْطُونٍ، وَقُيِّدَ وَجُعِلَتْ حَلَقَةٌ مِنْ قَيْدِهِ عَلَىٰ رِجْلِ هَذَا وَحَلَقَةٌ عَلَىٰ رِجْلِ المَجُوسِيِّ، فَكَانَ يَقُومُ المَجُوسِيُّ بالليلِ مَرَّاتٍ، وَهَذَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُومَ مَعَهُ وَيَقِفَ عَلَىٰ رَأْسِهِ حَتَّىٰ يَفْرُغَ، فَكَتَبَ إِلَىٰ صَاحِبِهِ، فَقَالَ: اشْكُرِ اللهَ، فَقَالَ: إِلَىٰ مَتَىٰ تَقُولُ؟! وَأَيُّ بَلَاءٍ فَوْقَ هَذَا؟! فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: لَوْ وُضِعَ الزُّنَّارُ الَّذِي فِي وَسَطِهِ فِي وَسَطِكَ، كَمَا وُضِعَ القَيْدُ الَّذِي فِي رِجْلِهِ عَلَىٰ رِجْلِكَ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ؟![٥]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ نظرٌ آخرَ في معرفةِ النِّعمِ؛ وذلكَ أنَّهُ مَا مِنْ بلاءٍ إلَّا وفوقَهُ ما هوَ أعظمُ منهُ منْ بلايا الدِّينِ والدُّنيا؛ كالحُمَّىٰ والبطنِ والبرصِ والجُذامِ والعَمَىٰ، وغيرِ ذلكَ منَ البلايَا الدُّنيويَّةِ، فقدْ يُبْتَلَىٰ الإنسانُ ببلاءٍ ويُعافَىٰ ممَّا هوَ أعظمُ منهُ، فينبغِي لهُ أنْ يعرفَ نعمةَ اللهِ عليهِ فيمَا صرفَ عنهُ منَ البلاءِ العظيمِ، وكذلكَ بلايَا الدِّينِ منَ المعاصِي والبِدَعِ والكفرِ الَّذِي هوَ أعظمُ

(١) في (أ): فأعلمهم، والأصح المثبت.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٣ ـ ٣١٤.
(٣) ورد قوله في: عدة الصابرين ص١٢٣، وإتحاف السادة المتقين ١١/٢٧١، وسراج الطالبين ٢/٤٠٨.
(٤) زيادة من (ب، ف).
(٥) فيه إشارة إلىٰ الحث علىٰ الرضا لما قدره الحق عَزَّوَجَلَّ، والصبر علىٰ قضائه؛ لأنه العالم بمصالح عباده.

البلاءِ، وكذلِكَ الصَّغائرُ والكبائرُ متفاوتةٌ في الإثْمِ؛ وهيَ مَعَاصِي، وكذلِكَ البِدَعُ منهَا مَا يكفرُ بهِ ومنهَا مَا لا يكفرُ[١] وهي بِدَعٌ[٢] [٢/٥٨ب]، فصرفُ الأعظمِ منَ البلايَا بالنِّسبةِ إلىٰ الأدنىٰ مِنْ جملةِ النِّعمِ علىٰ العبدِ الَّذِي يشكرُ اللهَ عليهِ، وهذانِ الرَّجلانِ صالحَانِ، فابتُلِيَ أحدُهُمَا إمَّا بكذبٍ عليهِ أو بأمْرٍ فاشْتُكِيَ إلىٰ السُّلطانِ وضُرِبَ، فكتبَ إلىٰ أخيهِ بذلِكَ، فكتبَ إليهِ: اشكرِ اللهَ، فإنَّ هذِهِ نعمةٌ ساقَهَا اللهُ إليكَ لكَ فيها أجرٌ، ثمَّ سُجِنَ هذا الصَّالحُ المضروبُ، فكتبَ إلىٰ أخيهِ بذلِكَ، فكتبَ إليهِ: اشكرِ اللهَ فإنَّهَا زيادةُ خيرٍ، ثمَّ أُتِيَ بمجوسيٍّ إلىٰ الحبْسِ وكانَ مبطونًا، وقيلَ: وجُعِلَتْ إحدَىٰ حلقتَي القيدِ في رِجْلِ هذا الرَّجُلِ الصَّالحِ والأُخرَىٰ فِي رِجْلِ المجوسيِّ، فكانَ المجوسيُّ يقومُ بسببِ بطنِهِ لموضعِ التَّصرُّفِ[٣] في اللَّيلِ مِرارًا، ويحتاجُ هذا الصَّالحُ[٤] أنْ يقومَ معَهُ لِضَرُورةِ القيدِ، ويقفَ علىٰ رأسِهِ حتَّىٰ يقضِيَ حاجتَهُ، ثمَّ يرجعَا إلىٰ مكانِهِمَا، ثمَّ يقومَ المجوسيُّ كذلِكَ ثمَّ يقومَ معَهُ كرَّةً أخرَىٰ، فكتبَ إلىٰ أخيهِ بذلِكَ، فكتبَ أخوهُ: اشكرِ اللهَ، فكتبَ إليهِ: إلَىٰ متَىٰ تقولُ: اُشكرِ اللهَ؟! فهلْ بعدَ هذا البلاءِ بلاءٌ أعظمُ منهُ؟! فكتبَ إليهِ أخوهُ: لو وضعَ اللهُ علامةَ الشِّركِ عليكَ كمَا وضعَ الحلقةَ الَّتِي في رِجْلِهِ في رجْلِكَ ماذَا[٥] كنتَ تصنعُ؟! فنبَّهَهُ علىٰ أنَّ ذلكَ كلَّهُ بقضاءِ اللهِ وبقدَرِهِ، وقدْ سلَّمَكَ اللهُ مِن بَلاءِ الشِّركِ والمَجُوسيَّةِ، فاشكرِ اللهَ.

وهكذَا[٦] يُدَاوِي الإنسانُ نفسَهُ ويتدرَّجُ في معرفةِ النِّعمِ ليعظمَ شُكرُهُ، وَيُنْعِتَ

---

(١) سقط من (ب) قوله: «ومنها ما لا يكفر».

(٢) في (ب): نوع.

(٣) أي: بيت الخلاء، أو الحمَّام.

(٤) في (ب): الرجل.

(٥) في (ب): ما.

(٦) في (ب): وهذا، والصواب المثبت.

بكونِهِ شَكُورًا، فيعرفُ نِعَمَ الدُّنيَا، ونِعَمَ الدِّينِ، ونِعَمَ القُلُوبِ، ثمَّ ينتقلُ إلىٰ البَلايَا، فيعرفُ أنَّ البلاءَ نعمةٌ باعتبارِ ما عليهِ منَ الأجْرِ[١]، وباختيارِ المولَىٰ لهُ علىٰ حسبِ درجتِهِ، ثمَّ ينتقلُ في البلايَا إلىٰ معرفةِ ما صُرِفَ عنهُ ممَّا هوَ أعظمُ ممَّا ابتُلِيَ بهِ، كمَا نبَّهْنَا عليهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وهذَا قَدْ يستبعدُهُ مَنْ لم يُنَبَّهْ عليهِ بالأمورِ القَريبةِ المُعْتَادةِ، ويَقُولُ: كيفَ الشَّيءُ المؤلِمُ نعمةٌ، وإنَّمَا النِّعمُ ما يُوافقُ؟!

فنقولُ: قَدْ يشتدُّ فرحُ المريضِ بالدَّواءِ المُرِّ الكَريهِ لمَا يرجُو عليهِ منَ العافيةِ، ويرَىٰ تيسيرَ أسبابِهِ وحصولَهُ لهُ[٢] مِنْ جُملةِ النِّعمِ عليهِ، وكذلِكَ بعضُ الصُّنَّاعِ الَّذينَ تتعاطَىٰ الأعمالَ المُؤلمةَ بفرحٍ إذا تيسَّرَ لهُ العملُ وإنْ كانَ مُؤلمًا لبدَنِهِ لمَا يرجوهُ منَ الأُجْرةِ، وذلكَ كالحمَّارينَ والبنَّائينَ وأربابِ الأشغالِ المُتْعِبَةِ[٣] [٢/١٥٩أ] المُؤلِمَةِ يفرحونَ بتيسيرِهَا وإنْ كانَتْ مؤلمةً لهُمْ، وذلِكَ لمَا يرجُون[٤].

وقدْ يرىٰ الرَّجلُ الخيرَ بقربٍ منَ السُّلطانِ الجائِرِ ويخدمُهُ ويتذلَّلُ لهُ، وهوَ يُقَاسِي مِنْ هوانِهِ لهُ وتسخيرِهِ وإذلالِهِ مَا لا يُقَاسِيهِ بعضُ عَبيدِهِ، وذلِكَ لِمَا يتوهَّمُهُ منَ الشَّرفيَّةِ بقُربِهِ والنَّسبِ إليهِ، فقدْ صارَ المُؤلِمُ لهُ لَذيذًا؛ لِمَا يَعْتَاضُهُ مِنْ مَحبَّةِ الجَاهِ والرِّفعةِ لهُ عِنْدَ غَيْرِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ[٦]: دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ:**

---

(١) في (ب): الجزاء.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) في (أ): التعبة، والأصح المثبت.

(٤) في (أ): يرجو، والصواب المثبت. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣١٤.

(٦) ورد في: إحياء علوم الدين ٤/١٢٩، وعدة الصابرين ص١٢٣، وإتحاف السادة المتقين ١١/٢٧١.

إِنَّ اللِّصَّ دَخَلَ دَارِي وَأَخَذَ مَتَاعِي، فَقَالَ: اشكُرِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لَوْ دَخَلَ اللِّصُّ قَلْبَكَ ـ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ـ وَأَفْسَدَ التَّوْحِيدَ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ؟!».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا نوعٌ ممَّا تقدَّمَ ذكرُهُ، وذلكَ هؤلاءِ القومُ منَ السَّادةِ الغالبِ علىٰ قلوبِهِمُ النَّظرُ لأفعالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في كلِّ ما يردُ عليهِمْ وعلىٰ غيرِهِمْ، فلمَّا شكَا لهُ صاحبُهُ المصيبةَ الَّتِي أصابَتْهُ في دُنياهُ، وأنَّ اللِّصَّ دخلَ دارَهُ وأخذَ متاعَهُ ورآهُ مُتألِّمًا علىٰ ذلِكَ ذكَّرَهُ مَا هوَ أعظمُ منهُ منَ البلاءِ الَّذِي ابتُلِيَ بهِ غيرُهُ وصرفَهُ عنهُ، وذلكَ أنَّهُ ابتلَىٰ الكفَّارَ بدخولِ الشَّيطانِ بوسوستِهِ في قلوبِهِم حتَّىٰ منَعَهُمْ منَ الإيمانِ، وكذلِكَ غيرُهُمْ منَ المُنافقِينَ والمُرْتَدِّينَ الَّذينَ أفسدَ عليهِم ما كانُوا فيهِ منَ الإيمانِ، فعرَّفَهُ نعمةَ اللهِ عليهِ فيمَا صرفَهُ عنهُ منَ البلاءِ الَّذِي هوَ أعظمُ ممَّا ابتلاهُ بهِ، فإنَّ بلايَا الآخرةِ أشدُّ مِنْ بلايَا الدُّنيَا وأعظَمُ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ[(٢)]: شُكْرُ العَيْنَيْنِ: أَنْ تَسْتُرَ عَيْبًا تَرَاهُ بِصَاحِبِكَ[(٣)]، وَشُكْرُ الأُذُنَيْنِ: أَنْ تَسْتُرَ عَيْبًا تَسْمَعُهُ مِنْهُ[(٤)]**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بيانُ شُكرِ الأفعالِ كمَا تقدَّمَ، وقدْ بيَّنَّا أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقَلْبِ واللِّسانِ والأفعالِ؛ وشكرُ الأفعالِ هيَ الطَّاعاتُ أنْ تشكرَ اللهَ علىٰ نعمةِ البصرِ فتطيعَهُ بهِ، وكذلِكَ نعمةِ السَّمعِ وبقيَّةِ الأعضاءِ، ومتىٰ تفطَّنَ العبدُ لكثرةِ نِعَمِ اللهِ عليهِ في قلبِهِ وجوارحِهِ وشكرَ علىٰ ذلِكَ انتقلَ من مَرْتَبَةِ الشَّاكرِ إلىٰ مَرْتَبَةِ الشَّكُورِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٤.

(٢) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١١/١٠٣، وبمعناه ورد منسوبا لأبي حازم في: الشكر لابن أبي الدنيا ص٤٤.

(٣) في (ب): بصاحبه، والأصح المثبت.

(٤) في (ف): فيه.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: الشُّكْرُ: التَّلَذُّذُ[(٣)] بِثَنَائِهِ عَلَىٰ مَا لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ مِنْ عَطَائِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ حقيقةِ الشُّكرِ [٢/٥٩ب] بالحَالِ، وهوَ زيادةٌ علىٰ ما قدَّمْنَاهُ منْ أقسامِ الشُّكرِ، فإنَّهُ يعمُّ شكرَ القلبِ واللِّسانِ والأعمالِ، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بالنِّعمةِ للمُنعمِ وأثنىٰ عليهِ بها كانَ شاكرًا، وإنْ لم يتلذَّذْ حالَ الشُّكرِ فتلذُّذُهُ بالثَّناءِ زيادةٌ في محبَّةِ الثَّناءِ والتَّعظيمِ للمُثْنَىٰ عليهِ؛ وهذَا شكرُ المحبِّينَ العارفينَ[(٤)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٦)]: كَانَ السَّرِيُّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْفَعَنِي يَسْأَلُنِي، فَقَالَ لِي يَوْمًا: يَا أَبَا القَاسِمِ، أَيْشٍ الشُّكْرُ؟ فَقُلْتُ: أَلَّا يُسْتَعَانَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ - تعالىٰ - عَلَىٰ مَعَاصِيهِ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ فَقُلْتُ: مِنْ مُجَالَسَتِكَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ في افتقادِ[(٧)] الشَّيخِ لأحوالِ المُريدينَ وهلِ انتفعُوا بصحبتِهِ؟ وهَلْ عزمُهُمْ قويٌّ فِي[(٨)] الاقتداءِ بهِ، فإذَا أرادَ أنْ يَمْتَحِنَ حالَهُ سألَهُ عمَّا يَجرِي علىٰ لِسَانِ الشَّيخِ في بعضِ الأوقاتِ، وهَلْ تلقَّفَهُ هذَا المريدُ وأخذَهُ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٤.
(٢) ورد قوله في: عدة الصابرين ص١٢٣، وإتحاف السادة المتقين ١١/١٠٧.
(٣) في (أ، ب): التذاذ، والصواب المثبت.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥١.
(٥) الرسالة القشيرية ١/٣١٤.
(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٤٥، وإتحاف السادة المتقين ١١/١٢٤.
(٧) في (ب): افتاد، والصواب المثبت.
(٨) سقط هذا اللفظ من (ب).

بالقبولِ أمْ لَا ؟ ، فلمَّا سألَهُ عنِ الشُّكرِ فأجابَهُ بشُكرِ الأفعالِ ، وأنَّ نِعَمَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العَبْدِ يَنْبَغِي أنْ يصرفَهَا في جهةِ طاعتِهِ ولَا يستعينُ بهَا مِنْ شيءٍ منْ مخالفتِهِ ، فلمَّا أعجبَ الشَّيخَ جوابُ الجُنيدِ أرادَ أنْ يحقِّقَ تعلُّقَهُ واستفادةَ ذلِكَ من مُجالستِهِ ، فقالَ لهُ: «مِنْ أينَ لكَ هذَا ؟» ، فأجابَهُ: «مِنْ مجالستِكَ» ، فَسُرَّ بذلِكَ ، وإذَا علِمَ الشَّيخُ حالَ التِّلميذِ وأنَّهُ شديدُ الرَّغبةِ علىٰ نَيْلِ الفَوائدِ مِنْ جهتِهِ ، وإنْ لمْ يقصدْهُ بهَا خصَّهُ بِفَوائدِهِ المُختصَّةِ بِهِ والنَّافعةِ لهُ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ**[٢]: **التَزَمَ الحَسَنُ**[٣] **بْنُ عَلِيٍّ الرُّكْنَ ؛ فَقَالَ: إِلَهِي ، نَعَّمْتَنِي فَلَمْ تَجِدْنِي شَاكِرًا ، وَابْتَلَيْتَنِي فَلَمْ تَجِدْنِي صَابِرًا ؛ فَلَا أَنْتَ سَلَبْتَ النِّعْمَةَ بِتَرْكِـ[ـي] الشُّكْرَ ، وَلَا أَدَمْتَ الشِّدَّةَ بِتَرْكِـ[ـي] الصَّبْرَ ، إِلَهِي ؛ مَا يَكُونُ مِنَ الكَرِيمِ إِلَّا الكَرَمُ**[٤]» .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ المناجاةُ ضَمَّنَهَا كمالُ الثَّناءِ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ، والحمدُ لهُ بصفاتِهِ الكاملةِ وإحسانِهِ العامِّ ، وذلكَ أنَّ قولَهُ: «**إلهِي ، نعَّمْتَنِي فلمْ تجدْنِي شاكرًا**» ، إقرارٌ بالنِّعمةِ واعترافٌ[٥] بالتَّقصيرِ عنِ الشُّكرِ ، وكذلِكَ قولُهُ: «**ابتليتَنِي فلمْ تَجِدْنِي صَابِرًا**» اعترافٌ منهُ بأنَّهُ الفاعلُ للخيرِ والشَّرِّ ، وأنَّهُ غيرُ صابرٍ عندَ البلاءِ ، ثمَّ اعترفَ بفضلِهِ عليهِ وكمالِ إحسانِهِ إليهِ في حالَتَي نقْصِهِ وعدمِ قيامِهِ بالشُّكرِ والصَّبرِ ، فقالَ: «**فلَمْ تَسلبْنِي النِّعمةَ لقلَّةِ الشُّكرِ** [٢/٦٠أ] **ولمْ تُدِمْ عليَّ البليَّةَ لقلَّةِ الصَّبرِ**» ، ثُمَّ قَالَ: «**إلهِي ، مَا يكونُ منَ الكَرِيمِ إلَّا الكَرَمُ**» ، وإنَّ الكرمَ لا يكونُ إلَّا منَ الكريمِ .

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٤.

(٢) ورد قوله في: الإبانة لابن فورك ص٧١ ، وقناطر الخيرات ٣/٤٤٠ .

(٣) في (ب): الحسين ، والصواب المثبت .

(٤) فيه الثناء علىٰ الله بوصفه الحق ، وأن الكرم مختص به عَزَّوَجَلَّ ؛ لأنه الكريم علىٰ الحقيقة .

(٥) في (ب): «اقرارًا بالنعمة واعترافًا» ، والأصح المثبت .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]**: إِذَا قَصُرَتْ يَدُكَ عَنِ المُكَافَأَةِ فَلْيَطُلْ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يبيِّنُ ما قدَّمْنَاهُ مِنْ أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقلبِ واللِّسانِ والأفعالِ، فمَنْ أمكنَهُ أنْ يشكرَ بالجميعِ فهوَ الكمالُ، كمَا قالَ سيِّدُ العربِ والعجمِ لمَّا قيلَ لهُ لمَّا قامَ حتَّى تورَّمَتِ القَدَمُ[(٣)]: «تفعلُ هذَا بنفسِكَ وقَدْ[(٤)] غُفِرَ لكَ ما تأخَّرَ وتقدَّمَ، قالَ: أَفَلَا أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»، دلَّ على أنَّهُ شَاكرٌ بقلبِهِ وبلسانِهِ وبأفعالِهِ، فإذَا عجزَ العبدُ عنِ الشُّكرِ بالأفعالِ وهوَ المُعبَّرُ عنهُ بقصورِ اليدِ، فلَا يعجزُ عَنْ شُكْرِ اللِّسانِ.

وأمَّا شُكرُ القَلْبِ فلا يَزُولُ ممَّنْ عرَفَ النِّعمَ إلَّا بتكلُّفِ الضِّدِّ، أو لكمالِ الاشتغالِ عَنْ ذلِكَ بغيرِهِ والضِّدِّ، ونعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَقِيلَ**[(٦)]**: أَرْبَعَةٌ لَا ثَمَرَةَ لِأَعْمَالِهِمْ: مُسَارٌّ**[(٧)] **الأَصَمِّ، وَوَاضِعُ النِّعْمَةِ عِنْدَ مَنْ لَا يَشْكُرُ، وَالبَاذِرُ فِي السَّبِخَةِ، وَالمُسْرِجُ**[(٨)] **فِي الشَّمْسِ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ مقصودُهَا هوَ واضعُ النِّعمةِ عندَ مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٤.

(٢) ورد في: المجالسة وجواهر العلم ص١٢١، والمستطرف ١/٥٠٥، والعقد الفريد ١/٢٢٦، وعدة الصابرين ص١٢٣.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣١٤ ـ ٣١٥.

(٦) ورد في: عيون الأخبار ٣/١٨١.

(٧) أي: من يساره بشيء.

(٨) أي: مُشْعِلُ سراجه.

لا يشكرُ، وفيهِ ذمُّ مَنْ لا يشكرُ؛ لكونِهِ ممَّنْ لا يصلحُ أنْ ينعمَ عليهِ، وضمَّنَهَا[١] التَّحريضَ علىٰ الشُّكرِ، وبهِ حَسُنَ دخولُهَا في البابِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ: لَمَّا بُشِّرَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالمَغْفِرَةِ سَأَلَ الحَيَاةَ، فَقِيلَ لَهُ فِيهِ، فَقَالَ: لِأَشْكُرَهُ؛ فَإِنِّي كُنْتُ قَبْلَهُ أَعْمَلُ لِلْمَغْفِرَةِ، فَبَسَطَ المَلَكُ جَنَاحَهُ وَحَمَلَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ ثَمَرَاتُ الشُّكرِ وَفَاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فلمَّا بُشِّرَ بالمَغْفِرةِ، وامتلأَ قلبُهُ سُرورًا بهذِهِ النِّعمةِ سألَ اللهَ ـ سبحانه ـ أنْ يُطيلَ عمرَهُ ليواليَ شكرَهَا، فلمَّا عزمَ علىٰ هذَا الشُّكرِ العظيمِ سخَّرَ لهُ الملكَ ليحملَهُ علىٰ جناحَيهِ[٣] إلىٰ المقامِ الشَّريفِ الَّذِي هوَ بهِ مُقيمٌ[٤]، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ[٦]: مَرَّ بَعْضُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِحَجَرٍ صَغِيرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ الكَثِيرُ، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ، فَأَنْطَقَهُ اللهُ مَعَهُ، فَقَالَ: مُذْ[٧] سَمِعْتُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يَقُولُ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] أَنَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِهِ، قَالَ: فَدَعَا ذَلِكَ النَّبِيُّ أَنْ يُجِيرَ اللهُ ذَلِكَ الحَجَرَ، فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَيْهِ: إِنِّي أَجَرْتُهُ مِنَ النَّارِ، فَمَرَّ ذَلِكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا عَادَ[٨] وَجَدَ**

---

(١) في (أ): وضمها، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٣١٥/١.

(٣) في (ب): جناحه.

(٤) في السماء أو في الجنة، ففي تفسير البغوي ١٩٩/٣: «قيل: هي الجنة، وقيل: هي الرفعة بعلو الرتبة في الدنيا، وقيل: إنه رفع إلىٰ السماء الرابعة». وانظر: تفسير الطبري ٩٦/١٦.

(٥) الرسالة القشيرية ٣١٥/١.

(٦) ورد في: الغنية للجيلاني ص٣٢٦، وإتحاف السادة المتقين ٩٣/١١.

(٧) في (ب): ما، والصواب المثبت.

(٨) في (ب): دعا.

المَاءَ يَنْفَجِرُ مِنْهُ[1] مِثْلُ ذَلِكَ، فَتَعَجَّبَ، فَأَنْطَقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ذَلِكَ الحَجَرَ مَعَهُ.

فَقَالَ [٢/٦٠ب] **لَهُ: لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ؟! فَقَالَ: كَانَ ذَلِكَ بُكَاءَ الحُزْنِ وَالخَوْفِ، وَهَذَا بُكَاءُ الشُّكْرِ وَالسُّرُورِ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِمَّا يقوِّي اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ قلوبَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ويكرِّرُ عليهِمْ خوارقَ العاداتِ وعجائبَ أفعالِهِ في مخلوقاتِهِ؛ ليكملَ تعظُّمُهُمْ لهُ وإجلالُهُ في قلوبِهِمْ، وذلِكَ أنَّ حجرًا صغيرًا يجرِي منهُ ماءٌ كثيرٌ مخالفٌ للعادةِ، وإنَّمَا يجرِي الماءُ الكثيرُ منَ الجبلِ الَّذِي يحملُ الماءَ الكثيرَ فينبعُ منهُ، فلمَّا وقفَ مُتعجِّبًا منهُ هذا النَّبيُّ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ أنطقَ اللهُ الحجرَ لهُ بسببِ خروجِ كثرةِ هذا الماءِ، وأنَّهُ بكاءُ الخوفِ مِنْ عذابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، لمَّا سمِعَهُ ـ تعالىٰ ـ يقولُ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ خافَ أنْ يكونَ مِنْ تلكَ الحجارةِ، فلمَّا فهمَ النَّبيُّ ذلِكَ سألَ اللهَ فيهِ وألَّا يجعلَهُ منهَا، وأعلمَهُ بذلِكَ ومضىٰ بناءً علىٰ أنَّهُ يسكتُ ولا يبكِي، فغَابَ النَّبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عنهُ مُدَّةً ثمَّ رجعَ إليهِ، فوجدَ الماءَ يجرِي منهُ علىٰ عَادتِهِ، فكأنَّهُ تعجَّبَ مِنْ بُكَائِهِ، وربَّمَا سألَ عنهُ، فأنطقَ اللهُ الحجرَ لهُ: بأنَّ ذلكَ كانَ بكاءَ الحُزنِ والخَوفِ، وهذَا بكاءُ الفَرَحِ والشُّكْرِ.

ورُوحُ هذهِ الحكايةِ: أنَّ كمالَ العبدِ فِي شُكرِهِ أنْ يكونَ مُتعبِّدًا بشكرِهِ خَاشعًا مُتذلِّلًا رائيًا زيادةَ فضلِهِ عليهِ بإلهامِهِ بشكرِهِ معَ نظرِهِ إلىٰ نفسِهِ وعدمِ صلاحيَّتِهِ لمَا مُنَّ بهِ عليهِ، فهوَ مُعْتَرِفٌ شَاكرٌ مُتذلِّلٌ في نفسِهِ صَاغرٌ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: **«وَقِيلَ[3]: الشَّاكِرُ مَعَ المَزِيدِ؛ لِأَنَّهُ فِي شُهُودِ**

---

(١) في (ب): من.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٥.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٢٦.

النِّعْمَةِ(١)، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَالصَّابِرُ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ لِأَنَّهُ بِشُهُودِ المُبْلِي، قَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ نظرٌ، وأنَّهُ لا يلزمُ مِنْ كلِّ شاكرٍ أنْ يكونَ شكرُهُ طلبًا للمزيدِ، وإنْ كانَ الحقُّ ـ سبحانه ـ وعدَ علىٰ الشُّكرِ المزيدَ، وقدْ يكونُ هَمُّ الشَّاكرِ شُكرَهُ للهِ علىٰ مَنْ أنعمَ عليهِ خاصَّةً وثناؤُهُ عليهِ بذلِكَ، ولَا يخطرُ ببالِهِ المَزِيدُ، فلَا يكونُ معَ المَزِيدِ وَاقفًا، وكذلِكَ الصَّابرُ لا يلزمُ أنَّ كلَّ صابرٍ يَرَىٰ المُبْلِي في نفسِ(٢) بلائِهِ، بلْ يحبسُ نفسَهُ عنِ التَّسخيطِ(٣) بمَا هوَ فيهِ ويكونُ صابرًا فلا يكونُ معَ اللهِ، أيْ: ناظرًا إليهِ في حالِ البلاءِ.

فقدْ تبيَّنَ بذلِكَ أنَّ الأمرَ منقسمٌ مختلفٌ باختلافِ الشَّاكرينَ والصَّابرينَ، فَرُبَّ صَابرٍ ناظرٍ إلىٰ(٤) المُبْلِي في حالِ بلائِهِ، فيخفُّ ما بهِ بذلِكَ ويزولُ عنهُ جزعُهُ [٦١/٢أ] وتَسَخُّطُهُ، ورُبَّ شاكرٍ يكونُ قصدُهُ بشكرِهِ مع ثنائِهِ علَىٰ ربِّهِ تحصيلَ مَا وعدَ بهِ منَ الزِّيادةِ، فيكونُ واقفًا معَ شُكْرِهِ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَقِيلَ(٦): قَدِمَ وَفْدٌ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ فِيهِمْ شَابٌّ، فَأَخَذَ يَخْطُبُ، فَقَالَ عُمَرُ: الكُبْرَ الكُبْرَ، فَقَالَ الشَّابُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، لَوْ كَانَ الأَمْرُ بِالسِّنِّ لَكَانَ فِي المُسْلِمِينَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ، فَقَالَ:

---

(١) أي: حضورها.

(٢) في (ب): نفسه.

(٣) في (ب): التسخط.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) الرسالة القشيرية ٣١٥/١.

(٦) ورد في: تاريخ دمشق ١٩٥/٦٨، والمجالسة وجواهر العلم ص٢٠١، والعقد الفريد ١٧/٢.

تَكلَّمْ، فَقَالَ: لَسْنَا وَفْدَ الرَّغْبَةِ، وَلَا وَفْدَ الرَّهْبَةِ، أَمَّا الرَّغْبَةُ فَقَدْ أَوْصَلَهَا إِلَيْنَا فَضْلُكَ، وَأَمَّا الرَّهْبَةُ فَقَدْ أَمَّنَنَا مِنهَا(١) عَدْلُكَ، فَقَالَ عُمَرُ(٢): فَمَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالَ: وَفْدُ الشُّكْرِ؛ جِئْنَا نَشْكُرُكَ وَنَنصَرِفُ، وَأَنْشَدُوا(٣):

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ أَنَّ شُكْرِيَ صَامِتٌ ❁ عَمَّا فَعَلْتَ وَأَنَّ بِرَّكَ نَاطِقُ
أَأَرَى الصَّنِيعَةَ مِنكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا ❁ إِنِّي إِذًا لِيَدِ الكَرِيمِ لَسَارِقُ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الحكايةِ مِنَ الأدبِ ما نُنَبِّهُ عليهِ، وذلكَ أنَّ جماعةً إذَا وفدُوا فينبغِي أنْ يتقدَّمَ إلى كلامِ الخلفاءِ وأهلِ الفضْلِ أكبرُهُمْ سِنًّا، وأعلَمُهُمْ بمواقعِ الخطابِ والجوابِ، فلمَّا أتى هذَا الوفدُ وتكلَّمَ منهُمْ شابٌّ لم يَرْضَ ذلكَ(٤) الخليفةُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقالَ: «**الكُبْرُ الكُبْرُ**»، يعنِي: ليتكلَّمْ كبيرُكُمْ، فأجابَهُ هذا الشَّابُّ بأنَّكَ صدقْتَ يا أميرَ المؤمنينَ، ولكنَّ الكِبَرَ قد يكونُ بالسِّنِّ وقدْ يكونُ بالمعنى والفضلِ، «**ولَوْ كانَ التَّقدُّمُ على الجماعةِ بالسِّنِّ لكانَ فِي المسلِمينَ مَنْ هوَ أسنُّ مَنْ أميرِ المُؤمِنِينَ**»، فعرَفَ الأميرُ فضلَهُ ورفَعَهُ على بقيَّةِ مَنْ معَهُ، فقالَ لهُ: «**تكلَّمْ، فقالَ: يا أميرَ المؤمِنِينَ: لسْنَا وفدَ الرَّغبةِ، [ولَا وَفْدَ الرَّهْبَةِ]**؛ أيْ: مَا جِئْنَا لِنَطْلُبَ منكَ شيئًا ولا خِفْنَا منْ شيءٍ تُخَلِّصُنَا منهُ، ثمَّ شرحَ ذلِكَ فقالَ: «**أمَّا الرَّغْبَةُ فقَدْ أوصلَهَا إلينا فضْلُكَ**»، أيْ: ونحنُ ببلادِنَا، «**وأمَّا الرَّهْبَةُ فقدْ أَمَّنَنَا منهَا عَدْلُكَ**» ونحنُ بمواضِعِنَا، فقالَ لهُ أميرُ المؤمِنِينَ: «**فمَنْ أنتُمْ؟ فقالَ: نحنُ وفدُ الشُّكرِ، جئْنَا نَشْكُرُكَ ونَنْصَرِفُ**» علَى ما نحنُ فيهِ من أَمْنِكَ وفَضْلِكَ.

وفائدةُ هذِهِ الحِكَايةِ: الجدُّ في الأسفارِ(٥) منَ العقلاءِ في تبليغِ الشُّكرِ لِمَنْ

---

(١) في (ب): منهما.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) من الكامل، لأبي تمام في ديوانه ٢/٤٥٤.
(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٥) في (أ): والأسفار.

يستحقُّهُ، فإذَا كانَ المنعِمُ حاضرًا والنِّعمُ متواليَةً والقلبُ واللِّسانُ صامتٌ عنِ الشُّكرِ كانَ مِنْ أقبحِ القبائحِ عادةً وشرعًا[(١)]، ولذلِكَ قالَ في الشِّعرِ الَّذِي أردفَ بهِ الحكايَةَ: ومِنَ البليَّةِ ـ جعلَهُ بلاءً ـ «**أنَّ شُكْرِي** [٦١/٢ب] **صَامتٌ عمَّا فَعَلْتَ، وأنَّ بِرَّهُ ناطقٌ**»، أيْ: نعمُكَ عليَّ مُتواليةٌ ظاهرةٌ، وأنَا لَا أشكرُهَا، ثمَّ وبَّخَ نفسَهُ بقولِهِ:

أَأَرَىٰ الصَّنِيعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا ❊ إِنِّي إِذًا لِيَدِ الكَرِيمِ لَسَارِقُ!

فجعلَ إخفاءَهُ النِّعمَ سَرِقةً.

ويحتملُ إخفاؤُهُ عدمَ شكرِهِ للمنعِمِ[(٢)] ويكونُ كتمَهُ إخفَاؤُهُ.

ويحتملُ أنْ يكونَ إخفاؤُهَا سترَهَا عن بعضِ المخلوقينَ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إذا أنعمَ علىٰ عبدٍ نعمةً أحبَّ أنْ يُظْهِرَ نِعَمَهُ عليه[(٣)]، وهوَ يكرهُ البؤسَ والتَّباؤُسَ.

وقَدْ رأىٰ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا يرعَىٰ إبلًا لبعضِ أصحابِهِ وعليهِ قماشٌ خَلِقٌ، فسألَ هلْ لهُ غيرُ هذَينِ الثَّوبَينِ؟ فقيلَ لهُ: نعَمْ، فأمرَهُ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلبسِهِمَا[(٤)]، فلمَّا لَبِسَهُمَا قالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)]: «مَا لهُ[(٦)]؟ ضربَ اللهُ عنقَهُ، أليسَ هذَا أحسنَ؟! فقالَ الرَّجلُ: فِي سبيلِ اللهِ، فقال: في سبيلِ اللهِ؟!»[(٧)]، فقدْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٥٤/١.

(٢) في (ب): للنعم، والصواب المثبت.

(٣) كما في سنن الترمذي ١٢٣/٥: «.. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ».

(٤) في (ب): فلبسها، والأصح المثبت.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٩١٠/٢، وابن حبان في صحيحه ٢٣٦/١٢، والبيهقي في دلائل النبوة ٢٤٤/٦.

(٦) قال الزرقاني: «.. (ماله؟) يلبس الخلقين مع تيسر الجديدين ووجودهما عنده، (ضرب الله عنقه أليس هذا خيرا له) أنكر عليه بذاذته لما يؤدي إلىٰ ذلته» شرح الموطأ ٣٣٧/٤.

(٧) سقط من (ب) قوله: «فقال في سبيل الله».

كرِهَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حالَهُ معَ تمكُّنِهِ منْ إظهارِ النِّعمِ عليهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ: أَوْحَى اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ارْحَمْ عِبَادِيَ المُبْتَلَى وَالمُعَافَى، فَقَالَ: مَا بَالُ المُعَافَى؟ فَقَالَ: لِقِلَّةِ شُكْرِهِمْ عَلَى عَافِيَتِي إِيَّاهُم**».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ التَّاركَ للشُّكرِ علىٰ النِّعمِ مُبْتَلَىٰ ببلاءٍ شديدٍ ينبغِي أنْ يُرْحَمَ علىٰ ما هوَ فيهِ، وذلكَ أنَّهُ فاتَهُ الشُّكرُ لهذِهِ النِّعمةِ، وفاتَتْهُ الزِّيادةُ الموعودُ بهَا علَىٰ الشُّكرِ[(٢)]، ومَنْ تمكَّنَ مِنْ تحصيلِ خيراتٍ بأيسرِ سببٍ ولمْ يفعلْ فهوَ مَغْبُونٌ مَحْرُومٌ مَرْحُومٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ: الحَمْدُ عَلَى الأَنْفَاسِ، وَالشُّكْرُ عَلَى نِعَمِ الحَوَاسِّ**.

وَقِيلَ: الحَمْدُ ابْتِدَاءٌ مِنْهُ، وَالشُّكْرُ اقْتِدَاءٌ مِنْكَ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ تقرَّرَ أنَّ الحمدَ أعمُّ منَ الشُّكرِ، فإنَّهُ قدْ يطلقُ علَىٰ الصِّفاتِ والأفعالِ جميعًا، والشُّكرُ قدْ يكونُ علىٰ النِّعمِ خاصَّةً علَىٰ رأيٍ[(٤)] كمَا تقدَّمَ، فجعلَ الحمدَ علىٰ أكبرِ النِّعمِ؛ وهيَ الأنفاسُ الصَّالحةُ، وهيَ من أعمالِ القلوبِ، وجعلَ الشُّكرَ علىٰ نعمِ الحواسِّ وهيَ تبعٌ للقُلُوبِ.

وقولُهُ: «**الحمدُ ابتداءٌ منهُ**»، يحتملُ أمرَينِ؛ أحدُهُمَا[(٥)]: أنَّكَ تحمدُهُ علىٰ ما

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٥.

(٢) أفادة الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣١٦.

(٤) في (ب): رأيي.

(٥) أغفل ذكر الأمر الثاني.

تفضَّلَ عليكَ بهِ بغيرِ سَببٍ مِنْكَ، بَلْ هوَ محضُ فَضْلِهِ وإحسانِهِ عليكَ، وهوَ إجراءُ النِّعمِ عليكَ، وهذا معنىٰ كَوْنِهِ «ابتداءٌ منهُ، والشُّكرُ اقتداءٌ منكَ»، أيْ: جعلتَهُ جزاءً لنعمتِهِ عليكَ وقابَلْتَ النِّعمَ بمثلِهَا، فمَنْ أُحْسِنَ إليهِ[1] يَنْبَغِي أنْ يُحسِنَ وإنْ كانَ الجميعُ [من] فَضْلِهِ وإِحْسَانِهِ[2] [٢/١٦٢أ]».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: «وَفِي الخَبَرِ الصَّحِيحِ[4]: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَىٰ إِلَىٰ الجَنَّةِ الحَمَّادُونَ للهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ»».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ مَنْ رأىٰ جميعَ ما هوَ فيهِ نعمةً عليهِ فهوَ مِنْ جملةِ الرَّاضِينَ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي جميعِ ما يطرقُهُ ويخلقُهُ لهُ، وافقَ العرضَ أوْ خالفَ، ومَنْ هذِهِ صفتُهُ هوَ الَّذِي يحمدُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ علىٰ كلِّ حالٍ وافقَ غرضَهُ أوْ خالفَ، فبذلِكَ كانَ أوَّلَ مَنْ يُدْعَىٰ إلىٰ الجنَّةِ؛ لكثرةِ خيرِهِم وطاعتِهِمْ[5].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[6]: «وَقِيلَ: الحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَا دَفَعَ، وَالشُّكْرُ عَلَىٰ مَا صَنَعَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفِي هذَا إشارةٌ إلىٰ أنَّ نعمَةَ دفْعِ البلاءِ أفضلُ مِنْ نعمةِ العطَاءِ[7]، ولذلِكَ قَرَنَ الأَوْلَىٰ بالحمدِ الَّذِي هوَ أفضلُ منَ الشُّكرِ، فإنَّهُ علىٰ قدرِ النِّعمةِ يجبُ أنْ يكونَ الشُّكرُ جزاءً لهَا.

---

(١) سقط من هنا (ب) إلىٰ قوله: «قال الإمام».

(٢) أفادة الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣١٦.

(٤) أخرجه الطبراني في: المعجم الكبير ١٢/١٩، والأوسط ٣/٢٤٠، والديلمي في الفردوس ١/١٦.

(٥) أفادة الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٥.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٣١٦.

(٧) لما مرَّ من أن الحمد أفضل من الشكر.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ[٢]: رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الأَسْفَارِ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ فِي ابْتِدَاءِ عُمْرِي أَهْوَىٰ ابْنَةَ عَمٍّ لِي، وَهِيَ كَذَلِكَ كَانَتْ تَهْوَانِي، فَاتَّفَقَ أَنَّهَا زُوِّجَتْ مِنِّي، فَلَمَّا زُفَّتْ إِلَيَّ بِاللَّيْلِ قُلْنَا[٣]: تَعَالَ حَتَّىٰ نُحْيِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ شُكْرًا للهِ ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ مَا جَمَعَنَا، فَصَلَّيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَلَمْ يَتَفَرَّغْ أَحَدُنَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ قُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَمُنْذُ سَبْعِينَ [أَوْ ثَمَانِينَ][٤] سَنَةً نَحْنُ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ، [نقُولُ][٥] أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا فُلَانَةُ؟ فَقَالَتِ العَجُوزُ: كَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذِهِ الحكايةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إشارةٌ إلىٰ أنَّ مَنْ كانَ بعيدًا[٦] عَنْ مَولَاه، عاملًا في تَحْصِيلِ قُرْبِهِ والتَّلذُّذِ بِمُنَاجَاتِهِ في دُنْياه، وَنَيْلِ مَحَبَّتِهِ وولاه، ثمَّ فتحَ عليهِ بذلِكَ فِي[٧] وقتٍ منَ الأوقاتِ فليُدِمْ[٨] شكرَهُ علىٰ ما مُنَّ بهِ عليهِ، مكرِّرًا ذلكَ إلىٰ المَماتِ.

فإنَّ هذَا الشَّيخَ لمَّا كانَ متعلِّقَ القلبِ بابنةِ عمِّهِ، وهيَ كذلِكَ، ومَنَّ اللهُ عليهِمَا بالاجتماعِ علىٰ وجْهٍ حَلالٍ أحبَّا أنْ يشكرَا اللهَ ـ تعالىٰ ـ علَىٰ مَا منَّ بهِ عليهِمَا، ولمْ يقنَعَا بشكرِ اللِّسانِ حتَّىٰ شكرُوهُ بعملِ الأبدانِ، فاشتغلَا في ليلتِهِمَا بعبادتِهِ، فلمْ يتفرَّغْ واحدٌ منهُمَا لنيلِ شَهوتِهِ، فلمَّا كانَ في اللَّيلةِ الثَّانيةِ ذكرَا مَا منَّ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٦.

(٢) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١١/٣١٨.

(٣) في حاشية (أ)، وفي (ف): «فليلة زفافها قلنا».

(٤) زيادة من (ف).

(٥) زيادة من (ف).

(٦) في (ب): بعيدٌ.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٨) في (ب): فليدمن.

اللهُ بهِ عليهِمَا مِنَ الاجتماعِ، ومَا وفَّقَهُمَا لهُ منَ الشُّكرِ رجاءَ الزِّيادةِ والانتفاعِ، ففعلَا ذلِكَ كذلِكَ فِي اللَّيلةِ القابلةِ، ودامَا علَىٰ ذلِكَ سبعينَ، أوْ ثمانِينَ سنةً.

فكهذَا يكونُ حالُ مَنْ عرَفَ مِقْدَارَ النِّعمِ، ورغبَ فِي تَوالِيهَا عليهِ، فشكرَهَا بالقلبِ وبالفعلِ [٢/٦٢ب] والفَمِ[١]، واللهُ الموفِّقُ للخيراتِ، والمُعِينُ علىٰ الصَّالحَاتِ بمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

---

(١) أي: باللسان، وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٦.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« بَابُ اليَقِينِ

قَالَ اللهُ - سبحانه -: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

حَدَّثَنَا الإِمَامُ أَبُو بَكْرِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ خُرَّزَادَ الأَهْوَازِيُّ بِهَا قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ[(٢)] أَيُّوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ - يَعْنِي ابْنَ زَيْدٍ - قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَشُرَيْكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ[(٣)] التَّيْمِيِّ، عَنْ خَيْثَمَةَ؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ؛ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ[(٤)]: لَا تُرْضِيَنَّ أَحَدًا بِسَخَطِ اللهِ، وَلَا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، فَإِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَسُوقُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْكَ كَرَاهَةُ[(٥)] كَارِهٍ، وَإِنَّ اللهَ - تعالى - بِعَدْلِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالفَرَحَ فِي الرِّضَا وَاليَقِينِ، وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ونحنُ نسلكُ في بابِ اليقينِ كمَا سلكْنَاهُ في غيرِهِ منَ الأبوابِ المتقدِّمةِ من بيانِ: الحقيقةِ، والأسبابِ، والأدلَّةِ، والثَّمراتِ، ثمَّ نُجرِي عليهَا أقوالَ العلماءِ.

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٧.

(٢) في (ب): عن، والأصح المثبت.

(٣) في (ف): سلمان.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/٢١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٢٢١، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/٣٤٢.

(٥) في (ف): كراهية.

فاليقينُ راجعٌ إلىٰ توالِي العلمِ بالمعلومِ حتَّىٰ يصيرَ الغالبَ علىٰ القلبِ، ويصيرَ شَاهدًا[١] لهُ؛ كالعلومِ الضَّروريَّةِ المستغنيةِ عنِ الاستدلالِ، وهٰذا العلمُ فيمَا يتعلَّقُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وصفاتِهِ وكمالِ جلالهِ واقتدارِهِ وانفرادِهِ بالأفعالِ وجميعِ ما تضمَّنَهُ لفظُ الإيمانِ لمَّا سألَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريلَ عنِ الإيمانِ قالَ[٢]: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

فإذا حصلَ العلمُ بهذِهِ المعلوماتِ مِنْ طُرُقِهَا؛ سواءٌ كانَتْ عقليَّةً أو شَرعيَّةً، وتَوالَىٰ ذلكَ علىٰ قلبِ العبدِ حتَّىٰ قلَّتْ غفلتُهُ عنهُ وصارَ يشهادُهُ بقلبِهِ سُمِّيَ يَقينًا.

وقَدْ حدَّ بعضُهُم اليقينَ علىٰ مقتضَىٰ اللُّغةِ بأنْ قالَ: يقالُ أيقنَ الماءُ؛ إذا صَفَا من كُدُورَتِهِ، وذلِكَ أنَّهُ إذا كانَ الماءُ ينحدرُ مِنْ مَوضعٍ عَالٍ إلىٰ مغيضِهِ انجرَّ معَ الماءِ ما يُلاقيهِ منَ التُّرابِ والأوسَاخِ، فإذَا استقرَّ في مغيضِهِ وثبتَ قرارُهُ وصفَا وزالَ عنهُ ما خالَطَهُ يقالُ: أيقنَ الماءُ، فكذلِكَ لا يسمُّونَ العلمَ وإنْ حصلَ ولمْ يكنْ فيهِ شكٌّ في المعلومِ [٢/٦٣أ]، فلَا يسمُّونَهُ يقينًا إلَّا إذَا توالَىٰ[٣] علىٰ القَلْبِ[٤] حتَّىٰ صَارَ غالبًا عليهِ وزالَ[٥] غفلتُهُ عنهُ.

وقَدْ[٦] قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٧]: «**تَعَلَّمُوا اليَقِينَ فَإِنِّي تَعَلَّمْتُهُ**»، ويستحيلُ أنْ يتعلَّمَ معرفةَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وصفاتِهِ وجميعَ ما جاءَ بهِ عن ربِّهِ، فإنَّهُ معلومٌ لهُ، وإنَّمَا يرجعُ التَّعلُّمُ ـ واللهُ أعلمُ ـ إلىٰ تعوُّدِ الاشتغالِ بهِ وعدمِ التفاتِ

(١) في (ب): مشاهدا.

(٢) جزء من حديث طويل، أخرجه مسلم في صحيحه ١/٣٧ ـ حديث رقم (٨).

(٣) في (أ): تولىٰ، والأصح المثبت.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) في (ب): وبعدت.

(٦) في (ب): وقال.

(٧) سبق تخريجه.

القلبِ إلى غيرِهِ، فإنَّ هذَا المعنَى إذَا قوِيَ في القلبِ قوِيَ بقوَّتِهِ التَّوكُّلُ والرِّضَا والتَّسليمُ والمحبَّةُ والتَّوحيدُ وسائرُ المَقَامَاتِ العَاليةِ؛ لأنَّ جميعَهَا مترتِّبٌ على قوَّةِ اليقينِ.

وأمَّا أسبابُهُ: فالنَّظرُ في المخلوقاتِ الدَّالَّةِ على وجودِ الحقِّ ـ سبحانه ـ وكمالِ صفاتِهِ وتنزُّهِهِ عَنْ مُمَاثَلَةِ خَلْقِهِ، وكذلِكَ ما تضمَّنَهُ الكتابُ العزيزُ والأخبارُ الصَّحيحةُ مِنْ جَلالِهِ وجمالِهِ وكمالِ مخلوقاتِهِ الغائبةِ عنِ الحسِّ ممَّا أخبَرَ عنهُ[1] أنبياؤُهُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ، ودوامُ الفكْرِ في هذِهِ المعلوماتِ يمكِّنُ اليقينَ بهَا في القلبِ حتَّى لا يكادُ العبدُ أنْ يغفلَ عنهَا، وربَّمَا غلبَ عليهِ ذكْرُهَا حتَّى أُنْسِيَ ما سِوَاهَا، وربَّمَا طرقَتِ[2] القلبَ معظِّمَاتُهَا حتَّى غلبَتْ عليهِ وانحلَّ الجسدُ بانحلالِهِ، وربَّمَا غابَ العقلُ لعزَّةِ صَدمتِهَا، وسيأتِي في كلامِ المشايخِ ما يدلُّ على ما ذكرْنَاهُ على الجُملَةِ.

وكلُّ دليلٍ دلَّ على تحصيلِ العلمِ بمَا ذكرْنَاهُ منَ المعلوماتِ، ودوامُ التَّبتُّلِ لهُ والمسارعةُ فيهِ والمسابقةُ، وإفرادُهُ دونَ غيرِهِ دليلٌ على تحصيلِ اليقينِ.

وأمَّا ثَمَرَاتُهُ: فممَّا لا تُحْصَى، فإنَّهُ يترتَّبُ عليهِ خيراتُ الدُّنيَا والآخرةِ وجميعُ المَقاماتِ، وإنْ تفاوتَتْ في الدَّرجاتِ فإنَّمَا تفاوتَ النَّاسُ فيهَا على حسبِ تفاوتِهِمْ في اليقينِ، وقَدْ قيلَ للنَّبيِّ ﷺ[3]: «إِنَّ عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ ـ مَشَى عَلَى المَاءِ، فَقَالَ: لَوِ ازْدَادَ يَقِيْنًا لَمَشَى فِي الهَوَاءِ».

قالَ بعضُ العُلَمَاءِ: إنَّمَا كانَ ذلِكَ إشارةً إلى حالتِهِ ﷺ ليلةَ الإسراءِ

---

(١) في (ب): به.

(٢) في (ب): طرق.

(٣) أخرجه الترمذي في: نوادر الأصول ٣/١٧٠، وأبو نعيم في الحلية ٨/١٥٧.

بعدَ أنْ فارقَهُ جبريلُ، وقالَ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقَدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «رَأَيْتُ أَخِي جِبْرِيلَ كَالحِلْسِ المُلْقَىٰ»؛ وذلِكَ لِكَمَالِ عِلْمِهِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «أَخْبَرَنا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ الرَّازِيُّ، حَدَّثَنا عَبَّاسُ بْنُ حَمْزَةَ، حَدَّثَنا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ [٢/٦٣ب] الأَنْطَاكِيُّ[(٣)]: إِنَّ أَقَلَّ اليَقِينِ إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ القَلْبِ يَمْلأُ القَلْبَ نُورًا، وَيَنْفِي عَنْهُ كُلَّ رَيْبٍ، وَيَمْتَلِئُ القَلْبُ بِهِ شُكْرًا، وَمِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ خَوْفًا».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ منْ علاماتِ اليقينِ وَثَمَرَاتِهِ فِي القلبِ، وذلِكَ أنَّهُ يستحيلُ أنْ يبقىٰ معَ اليقينِ شكٌّ فِي المُوقنِ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالرَّيبِ، وأمَّا امتلاءُ القلبِ نُورًا؛ فهوَ أنْ يصيرَ مِنْ أمرِهِ علىٰ بصيرةٍ لَا خفاءَ فيهِ ولَا إشكالَ، وإذَا امتلأَ القلبُ بهاتَينِ النِّعمتَينِ وهمَا نفيُ الرَّيبِ ونورُ الكشْفِ تأكَّدَ علىٰ القلبِ الشُّكْرُ؛ لمَا هوَ فيهِ منَ النِّعمِ، وخوفُهُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يكونُ لمعرفتِهِ بعظمتِهِ وخوفًا منْ سُقُوطِهِ عَنْ منزلتِهِ[(٤)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَيُحْكَىٰ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الحَدَّادِ أَنَّهُ قَالَ[(٦)]: رَآنِي أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ وَأَنَا فِي البَادِيَةِ جَالِسٌ عَلَىٰ بِرْكَةِ مَاءٍ، وَلِي سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا لَمْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٧.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٩٠، وبغية الطلب ١٠/٤٥٠٧، وقناطر الخيرات ١/٢٥٢.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٨.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣١٧.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/١١٢، وتهذيب الأسرار ص٩٠، ونشر المحاسن الغالية ص٦٣.

آكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ، فَقَالَ لِي: مَا جُلُوسُكَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا بَيْنَ العِلْمِ وَالْيَقِينِ أَنْتَظِرُ مَا يَغْلِبُ فَأَكُونُ مَعَهُ، يَعْنِي: إِنْ غَلَبَ العِلْمُ شَرِبْتُ، وَإِنْ غَلَبَ اليَقِينُ مَرَرْتُ، فَقَالَ: سَيَكُونُ لَكَ شَأْنٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأيُّ شأنٍ أعظمُ مِنْ مواصلةِ ستَّةَ عشرَ يومًا لمْ يأكلْ ولمْ يشربْ، ومعَ ذلِكَ لمْ يأذَنْ لنفسِهِ فِي الشُّربِ حتَّىٰ ينظرَ ما الَّذِي يفعلُ اللهُ بهِ ويجريهِ عليهِ؛ ليتقوَّىٰ يقينُهُ بخوارقِ العاداتِ، وذلكَ أنَّهُ لمَّا سألَهُ أبو ترابٍ عن جُلُوسِهِ، قالَ: «**أنا بينَ العِلْمِ واليقينِ**»؛ فاليقينُ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قادرٌ علَىٰ أنْ يَرويَهُ بلا ماءٍ، وقادرٌ أنْ يسيِّرَ لهُ وليًّا يسقيهِ أوْ ملكًا وهوَ في هذِهِ الحالةِ لمْ يجبْ عليهِ الشُّربُ بعدُ لَا بسببِ خَوفِهِ علىٰ عقلِهِ منَ الاختلالِ، أوْ علىٰ بدَنِهِ منْ أنْ يعجزَ عنِ الصَّلاةِ قائمًا، فمتَىٰ أحسَّ مِنْ نفسِهِ الخوفَ علىٰ عقلِهِ أوْ علىٰ بَدَنِه قالَ لهُ العلمُ: «**كُلْ واشربْ لئلَّا تعصِيَ**»، ومتَىٰ وجدَ مِنْ نفسِهِ قوَّةً علىٰ الصَّبرِ وأمْنًا فيمَا ذكرْنَاهُ وهوَ مُوقِنٌ بأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قادرٌ علَىٰ أنْ يرويَهُ بمَا ذكرْنَاهُ أوْ بغيرِهِ منَ الأسبابِ فهذَا معنَىٰ كونِهِ بينَ العلمِ واليقينِ إنْ غلبَ العلمُ شربَ وإنْ غلبَ اليقينُ صبرَ واستمرَّ.

ولقدْ حُكِيَ عنْ أبي زكريَّا يحيَىٰ المغيلِيِّ الَّذِي كانَ ببلادِ (تَنَس)(١): أخبرَنِي بذلِكَ عنهُ مَنْ سمِعَهُ منهُ ممَّنْ أثقُ بهِ قالَ لهُ: خرجتُ يومًا منَ المدينةِ قاصدًا نحوَ العراقِ سائحًا، فأقمْتُ أيَّامًا لمْ آكلْ ولمْ أشربْ، فخطرَ بنفسِي شهوةُ أكلِ شواءٍ سخنٍ فِي رقاقٍ منْ رقاقِ العراقِ فِي منديلٍ، فعاتبْتُ نفسِي [٢/١٦٤أ] ولُمْتُهَا علىٰ هذَا الخاطِرِ في مِثْلِ هذا الوقتِ فِي الصَّحراءِ، وهيَ تتشهَّىٰ بعدُ، ثمَّ أشرفْتُ علىٰ وادٍ في وسطِهِ ماءٌ حلوٌ فجلستُ عندَهُ أتوضَّأُ ونفسِي تكلبُ علىٰ الشُّربِ وأنا أمنعُهَا حتَّىٰ يزولَ شرهُهَا، وتشربُ بأدبٍ ونيَّةٍ حسنةٍ، قالَ: فبينَا أنَا كذلِكَ وإذَا بظلٍّ رأيتُهُ

---

(١) هي آخر إفريقية مما يلي المغرب. انظر: معجم البلدان ٢/٤٨، والروض المعطار ص١٣٨.

في الماءِ قائمًا عليَّ[١]، فرفعْتُ رأسِي فإذَا هيَ جاريةٌ بيدِهَا منديلٌ داخلُهُ شيءٌ يفورُ[٢]، فعلِمْتُ أنَّهُ امتحانٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فصِحْتُ عليهَا فذهبَتْ، ثمَّ توضَّأْتُ وقمْتُ أركعُ ولمْ أشربْ، ثمَّ رأيتُ أشخاصًا منْ بعيدٍ في موضعٍ يقومُونَ ويجلسُونَ فقصدتُّهُمْ فإذَا هُمْ منَ الصَّالحينَ أعرفُ بعضَهُمْ يركعُونَ، فبعدَ ساعةٍ أتانَا الخضرُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقالَ لِي: إلامَ تُعذِّبُ هذِهِ النَّفسَ المِسْكينةَ، وملأَ كفَّيهِ منَ الماءِ وسقَانِي كرَّتَينِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيرِيُّ[٤]: اليَقِينُ قِلَّةُ الاهْتِمَامِ[٥] لِغَدٍ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا اليقينُ بحُسْنِ الضَّمانِ[٦] ممَّا لا بُدَّ منهُ، واليقينُ لهُ متعلِّقاتٌ عَديدةٌ هذَا بَعْضُهَا.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٧]: **«وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٨]: اليَقِينُ مِنْ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَمِنْ تَحْقِيقِهِ.**

وَقَالَ سَهْلٌ أَيْضًا[٩]: اليَقِينُ: شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ، وَهُوَ دُونَ التَّصْدِيقِ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أمَّا الإيمانُ فهوَ أصلُ كلِّ يقينٍ وتصديقٍ، وقَدْ يطلقُ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣١٧.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٩٠.

(٥) أي: بالمطعم ونحوه، وقلة الاهتمام لغدٍ من ثمرات اليقين، لا نفس اليقين.

(٦) في (ب): الضمن، والصواب المثبت.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣١٨.

(٨) ورد قوله هذا والذي يليه في: اليقين لابن أبي الدنيا ص٣٦ ـ ط/العلمية.

(٩) ورد قوله في: منتقىٰ مناقب الأبرار ص٩٢.

التَّصديقُ على أصلِ الإيمانِ، وقَدْ يطلَقُ على الصِّدِّيقيَّةِ الَّتي هيَ أعلى درجاتِ اليقينِ.

فبهذا الاعتبارِ قالَ: «وهوَ دونَ التَّصديقِ»؛ أيْ: الصِّدِّيقيَّةِ، فإنَّ المؤمنينَ منهُمْ مَنْ لا يبلغُ اليقينَ، ومنهُمْ مَنْ لا يبلغُهُ، ويكونُ مؤمنًا معتقدًا مَا يجبُ اعتقادُهُ في اللهِ ورسولِهِ، فإذَا علِمَ تحقيقَ الإيمانِ بالبرهانِ، وتوالَى عليهِ حتَّى غلبَ حكمُهُ علَى قلبِهِ كانَ فِي حقيقةِ اليقينِ[١].

وقَدْ تكونُ الصَّدِّيقيَّةُ تَوالِي أنواعِ الصِّدقِ في القلبِ واللِّسانِ وسائرِ الأفعالِ منَ الحرَكَاتِ والسَّكنَاتِ، فيكونُ على هذا ثمرةُ قوَّةِ اليقينِ، ولهذَا ـ واللهُ أعلمُ ـ سُمِّيَ الصِّديقُ صدِّيقًا؛ لكمَالِ صدقِهِ[٢] في بَذْلِ نفسِهِ ومالِهِ للهِ ورسُولِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ**[٤]: **(اليَقِينُ: هُوَ العِلْمُ المُسْتَوْدَعُ فِي القُلُوبِ)، يُشِيرُ هَذَا القَائِلُ إِلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُكْتَسَبٍ**[٥]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ حقَّقْنَا أنَّ العبدَ يكونُ عالمًا ويغفلُ عن معلومِهِ، ويكونُ علمُهُ بالدَّليلِ، وإذَا غفلَ عن دليلِهِ زالَ العلمُ عن قلبِهِ، واليقينُ [٢/٦٤ب] يُشْعِرُ بتوالِي أنواعِ العلمِ على القَلْبِ حتَّى تقلَّ الغفلةُ عنِ المعلومِ ويصيرَ كالعلمِ الضَّروريِّ الَّذِي يَتوالَى ولا يَزُولُ، وإنْ كانَ أصلُهُ مكتسبًا، وكأنَّ هذَا القائلَ قالَ: لا يسمَّى موقِنًا إلَّا مَنِ ارتفعَتْ درجتُهُ عنِ[٦] العُلُومِ الكسبيَّةِ والضَّروريَّةِ العاديَّةِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٥٩.

(٢) في (ب): صديقا.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣١٨.

(٤) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٩٨.

(٥) أي: يشبه غير المكتسب بغلبته على القلب بتوالي أدلته عليه. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٣٤.

(٦) في (ب): على.

وغيرِهَا، ولَا يسمَّىٰ موقِنًا إلَّا مَنْ أُلْهِمَ غَرَائبَ العلومِ، واطَّلعَ علىٰ أسرارِ المُلكِ والملكوتِ، فمتَىٰ وصلَ إلَىٰ هذَا الحدِّ، ووهبَ اللهُ لهُ هذِهِ المواهبَ منَ المعارفِ سمِّي موقِنًا، فكأنَّهُ أشارَ إلىٰ أعلَىٰ درجاتِ المُوقنِينَ[(١)]، فيكونُ هذَا النَّوعُ مِنَ العلمِ هوَ الَّذِي يتوالَىٰ علىٰ قلبِهِ ويخرقُ لهُ فيهِ العادةُ، بخلافِ غيرِهِ منَ الموقنِينَ المُتقدِّمِ[(٢)] ذكرُهُمْ، كمَا تقدَّمَ الإطلاقُ في أنَّ التَّوكُّلَ هوَ التَّفويضُ، أرادَ أعلىٰ درجاتِ المتوكِّلينَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ سَهْلٌ**[(٤)]: **اِبْتِدَاءُ اليَقِينِ مُكَاشَفَةٌ**[(٥)]، **وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ**[(٦)]: **لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ لَمَا ازْدَدْتُ يَقِينًا، ثُمَّ المُعَايَنَةُ وَالمُشَاهَدَةُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا القولُ ممَّا سبقَتِ الإشارةُ إليهِ، وأنَّهُم لا يطلقُونَ اليقينَ إلَّا علىٰ نَيْلِ أَعْلَىٰ درجاتِ المَعَارفِ ودوامِهَا؛ ولذلِكَ قالَ: «**أوَّلُهُ المكاشفةُ، ثمَّ المعاينةُ، ثمَّ المشاهدةُ**»[(٧)]، وجعلَ المشاهدةَ فوقَ المعاينةِ، وفيهِ اختلافٌ بينَ أهلِ هَذَا الشَّأنِ؛ فإنَّ بعضَهُمْ يجعلُ المُعَاينةَ أعلَىٰ منَ المُشَاهدةِ؛ لأنَّ المشاهِدَ هوَ الحاضِرُ، والمعاينَ هوَ النَّاظرُ[(٨)].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٥٩/١.

(٢) في (أ): المقدم.

(٣) الرسالة القشيرية ٣١٨/١.

(٤) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٣، وحلية الأولياء ٢٠٣/١٠، ومدارج السالكين ٣٩٨/٢.

(٥) أي: اليقين في ابتداء الأمر يساوي المكاشفة في جزم القلب، فلا يزيد علم العبد بالمكاشفة عن علمه باليقين. انظر: نتائج الأفكار ١٣٤/٣.

(٦) نسب لأبي بكر في: الآداب الشرعية ٢٥٩/١، ولعلي بن أبي طالب في: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٦١/٦، والوافي بالوفيات ٧٧/٨، ولعامر بن عبد قيس في: تفسير السلمي ٣٧٩/٢، وقوت القلوب ١٦٩/٢، والرسالة القشيرية ٣١٩/١، واللمع للطوسي ص١٠٢.

(٧) في (ب): والمشاهدة.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٥٩/١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ[٢]: اليَقِينُ: تَحَقُّقُ الأَسْرَارِ بِأَحْكَامِ المُغَيَّبَاتِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا جيِّدٌ فِي الحَدِّ، عامٌّ لكلِّ ما يتيقَّنُ منَ المغيَّباتِ الَّتِي أخبرَ عنهَا الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ووقعَتْ بهَا الخوارقُ للأنبياءِ والأولياءِ، والتَّحقيقُ إشارةٌ إلىٰ الحقيقةِ وغلبةِ حكمِهَا علىٰ القَلْبِ، كمَا تقدَّمَ فِي سُؤالِ حارثةَ[٣]، والفرقُ بينَ حقِّ الإيمانِ وحقيقتِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ طَاهِرٍ[٥]: العِلْمُ بِمُعَارَضَةِ الشُّكُوكِ، وَاليَقِينُ لَا شَكَّ فِيهِ.

أَشَارَ إِلَىٰ العِلْمِ الكَسْبِيِّ وَمَا يَجْرِي فِي مَجْرَىٰ البَدِيهِيِّ[٦]، وَكَذَلِكَ عُلُومُ القَوْمِ[٧] فِي الابْتِدَاءِ كَسْبِيٌّ، وَفِي الانْتِهَاءِ بَدِيهِيٌّ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «العِلْمُ بِمُعَارَضَةِ الشُّكُوكِ» هذَا لا يصحُّ أنْ يكونَ عِلمًا، وإنَّمَا تردُ الشُّكوكُ علىٰ الظُّنونِ والاعتقاداتِ، وإنَّمَا العلمُ الحقُّ بالمعلومِ [٢/٦٥أ] علىٰ ما هوَ بهِ، فيستحيلُ أنْ يردَ عليهِ شكٌّ، نَعَمْ يصحُّ أنْ يغفلَ عنهُ ويقومَ بالقلبِ بدلَهُ الضِّدُّ، بخلافِ العلومِ الضَّروريَّةِ الَّتِي يتوالَىٰ أمثالُهَا علىٰ القلبِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣١٨.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٨٦، وطبقات الصوفية ص٣٤٨، وتهذيب الأسرار ص٩١، ومدارج السالكين ٢/٣٩٨، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٥٦.

(٣) الدلالة ١/١٤٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣١٨.

(٥) وورد قوله في: قناطر الخيرات ١/٢٥٣.

(٦) باعتبار ظهور العلم وخفائه.

(٧) أي: الوهبية.

ومُرَادُهُ هاهُنَا: أنَّ العلومَ البديهيَّةَ الموهبيةَ منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ في أوائلِهَا تردُ علىٰ القلبِ ثمَّ لا تثبتُ ولا تتوالَىٰ، فإذَا كمُلَ العبدُ وارتقَتْ درجتُهُ والَىٰ الحقُّ ـ تعالىٰ ـ عليهِ الحقيقةَ بمعلومِهِ كمَا حُكِيَ عن بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ[1]: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ قبلَهُ»، يعنِي: أنَّ علمَهُ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتوالٍ علَىٰ قلبِهِ، فلَا يخطرُ لهُ ذِكْرُ غيرِهِ إلَّا بعدَ ذِكْرِهِ، فيكونُ ذِكْرُهُ مُتواليًا[2] وذكْرُ غيرِهِ يَطرأُ ويَزُولُ مِنْ سَائِرِ الكَائِنَاتِ[3].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ؛ يَقُولُ: قَالَ بَعْضُهُم[5]: أَوَّلُ المَقَامَاتِ: [النَّظَرُ ثُمَّ][6] المَعْرِفَةُ، ثُمَّ اليَقِينُ، ثُمَّ التَّصْدِيقُ، ثُمَّ الإِخْلَاصُ، ثُمَّ الشَّهَادَةُ، ثُمَّ الطَّاعَةُ، وَالإِيمَانُ اِسْمٌ يَجْمَعُ هَذَا كُلَّهُ.

أَشَارَ هَذَا القَائِلُ إِلَىٰ أَنَّ أَوَّلَ الوَاجِبَاتِ: هُوَ المَعْرِفَةُ بِاللهِ ـ سبحانه ـ، وَالمَعْرِفَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِتَقْدِيمِ شَرَائِطِهَا؛ وَهُوَ النَّظَرُ الصَّائِبُ.

ثُمَّ إِذَا تَوَالَتِ الأَدِلَّةُ وَحَصَلَ البَيَانُ صَارَ بِتَوَالِي الأَنْوَارِ وَحُصُولِ الاِسْتِبْصَارِ كَالمُسْتَغْنِي عَنْ تَأَمُّلِ البُرْهَانِ، وَهِيَ حَالُ اليَقِينِ.

ثُمَّ تَصْدِيقُ الحَقِّ فِيمَا أَخْبَرَ عِنْدَ إِصْغَائِهِ إِلَىٰ إِجَابَةِ الدَّاعِي فِيمَا يُخْبِرُ عَنْهُ مِنْ أَفْعَالِهِ ـ سبحانه ـ فِي المُسْتَأْنَفِ[7]؛ لأَنَّ التَّصْدِيقَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الإِخْبَارِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ب): متوالي، والأصح المثبت.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٠.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣١٨.

(٥) ورد في: حدائق الحقائق ص٧٧.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) أي: المستقبل.

ثُمَّ الإِخْلَاصُ فِيمَا يَتَعَقَّبُهُ مِنْ أداءِ الأَوَامِرِ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ [إظهارُ][١] الإجابة بِجَمِيلِ الشَّهَادَةِ.

ثُمَّ أَدَاءُ الطَّاعَاتِ بِالتَّوْحِيدِ فِيمَا أَمَرَ، وَالتَّجرُّدِ عَمَّا زَجَرَ عَنْهُ، وَإِلَى هَذَا المَعْنَى أَشَارَ الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ذِكْرُ اللِّسَانِ فَضْلَةٌ يَفِيضُ عَلَيْهَا القَلْبُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَا ذكرَهُ مِنْ ترتيبِ درجاتِ الإيمانِ، وأنَّ أوَّلَهُ معرفةُ اللهِ ـ تعالى ـ بالنَّظرِ والاستدلالِ، ثمَّ الاستغناءُ عنِ الفِكْرِ بوضوحِ المطلوبِ منَ البرهانِ، ثمَّ الغَفْلةُ عنِ الدَّليلِ معَ بقاءِ المذكورِ خيَال[٢] القلبِ شَبيهًا بالعيانِ، ثمَّ التَّصديقُ بما أخبَرَ بهِ الأنبياءُ عنِ اللهِ ـ سبحانه ـ؛ مِنْ أمْرِهِ ونَهْيِهِ وَوَعِيدِهِ، ومَا سيكونُ أَوْ كانَ، ثُمَّ العَمَلُ علَى حسبِ مَا عَمِلَ بالإخلاصِ للهِ المطالبِ الدَّيَّانِ، ثمَّ جريانُ ذلكَ علَى اللِّسانِ؛ شُكْرًا وإقرارًا وغيرُ ذلِكَ ممَّا يشملُهُ البيانُ.

وهذَا الأخيرُ هوَ الَّذِي نقلَهُ الإمامُ عنِ ابنِ فوركٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وهوَ أَنَّهَا [٢/٦٥ب] فضلةٌ خرجَتْ منَ القلبِ علَى اللِّسانِ، ولا شكَّ أنَّ القلبَ متَى امتلأَ بشيءٍ نطقَ ببعضِهِ اللِّسانُ، ولهذَا جعلَهُ آخرَ رُتبةٍ مِنْ درجاتِ الإيمانِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٤]: حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَشَمَّ رَائِحَةَ اليَقِينِ، وَفِيهِ سُكُونٌ إِلَى غَيْرِ اللهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والحرامُ: هوَ المنعُ، ومنهُ حرامُ الشَّيءِ: منعُهُ، فكأنَّهُ

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) في (أ): حبال.

(٣) الرسالة القشيرية ٣١٨/١.

(٤) ورد قوله في: الزهد والرقائق ص٥٩، وروضة المحبين ص٤٣٩، ومفتاح دار السعادة ١٥٤/١.

قالَ: منعَ اللهُ قلبًا أنْ يدركَ اليقينَ الكاملَ بهِ وهوَ مشغولٌ بغيرِهِ، وهذا صحيحٌ، فإنَّ القلبَ متى امتلأَ بشيءٍ لمْ يسَعْ غيرَهُ، وقَدْ قالَ ـ تعالى ـ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، ومتى اشتغَلَ القلبُ بغيرِ اللهِ لمْ يدركْ كمالَ اليقينِ بمَا عندَ اللهِ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ**[٣]: **اليَقِينُ دَاعٍ إِلَى قِصَرِ الأَمَلِ، وَقِصَرُ الأَمَلِ يَدْعُو إِلَى الزُّهْدِ، وَالزُّهْدُ يُورِثُ الحِكْمَةَ، وَالحِكْمَةُ تُورِثُ النَّظَرَ فِي العَوَاقِبِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، ولكنَّهُ متعلِّقٌ ببعضِ متعلَّقاتِ اليقينِ؛ وهوَ اليقينُ بانصرامِ الدُّنيَا وزوالِهَا، وإقدامُهُ على ربِّهِ بعدَ فراقِهَا، ومتى تحقَّقَ هذا اليقينُ في القلبِ قصُرَ الأملُ وزهدَ العبدُ في الدُّنيَا؛ لقلَّةِ قدرِهَا وسرعةِ زوالِهَا، وإذا زهدَ فيهَا تفرَّغَ لأعمالِ آخرتِهِ، وإذَا تفنَّنَ في الأعمالِ القلبيَّةِ المتعلِّقةِ بالجوارحِ وأوقعَهَا على حسبِ العلمِ كانَ حكيمًا؛ لأنَّ الحِكمةَ وضعُ الشَّيءِ موضعَهُ، ولا تكملُ حكمتُهُ في إتقانِ أعمالِهِ في قلبِهِ وجوارحِهِ حتَّى ينظرَ في عواقِبِهَا ومَا يخشاهُ ممَّا ينقصُهَا[٤] أوْ يبطلُهَا[٥].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ سَهْلٍ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦١.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٨.
(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٩٠، وقناطر الخيرات ١/٢٥٢.
(٤) في (ب): ينقضها.
(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦١.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣١٩.

سَعِيدَ بْنَ عُثْمَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ[١]: ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ[٢] اليَقِينِ: قِلَّةُ مُخَالَطَةِ النَّاسِ فِي العِشْرَةِ، وَتَرْكُ المَدْحِ لَهُمْ فِي العَطِيَّةِ، وَالتَّنَزُّهُ عَنْ ذَمِّهِمْ عِنْدَ المَنْعِ.

وَثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ يَقِينِ اليَقِينِ[٣]: النَّظَرُ إِلَى اللهِ ـ سبحانه ـ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ظاهرٌ في الدَّلالةِ على اليقينِ، وذلِكَ أنَّ مَنْ تيقَّنَ أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ هوَ الرَّازقُ لهُ في سائِرِ أحوالِهِ، فمِنْ علاماتِ يقينِهِ بُعدُهُ عنِ النَّاسِ فِي وقتِ الضَّائقةِ والعُسْرِ، فإنَّ النَّاسَ يعطفُونَ [٢/٦٦أ] على الفقراءِ في وقتِ العُسْرِ والضَّائقةِ، فإذَا كانَ الفقيرُ مجرَّدًا فقرًا اختيارَ البُعْد[٤]؛ لكمالِ يقينِهِ بأنَّ رزقَهُ على اللهِ حيثُ ما كانَ، فعلامةُ صحَّةِ يقينِهِ بُعْدُهُ عنِ النَّاسِ في وقتِ العُسرةِ والضِّيقِ، فإنْ فُتِحَ لهُ شيءٌ، فإنَّمَا يَرَى الفَاتحَ والمسخِّرَ لمَنْ أتَى بهِ لهُ، فإذَا سبقَ رؤيةُ قلبِهِ لفتحِ ربِّهِ فحينئذٍ يشكرُ مَنْ أجراهُ على يدَيهِ طاعةً ومجازَاةً[٥]، ولا يلزمُ مِنَ الشُّكرِ المدحُ؛ فإنَّ الشُّكرَ جازاكَ اللهُ وأكرمَكَ اللهُ وأعاننَا على برِّكَ، والمَدحُ ذِكْرُ المحاسنِ والإطراءُ الَّذِي هوَ مقرونٌ بدخولِ الآفاتِ والعُجْبِ على المَمْدُوحِ، فأربابُ اليقينِ إنَّمَا يرونَ أوَّلًا المحرِّكَ والمُسَخِّرَ، ثمَّ يشكرُونَ مَنْ أمرَهُمُ الحقُّ بشكرِهِ لَا غيرَ.

وأمَّا تنزُّهُ المُوقِنِ عَنْ ذَمِّهِمْ إذا مَنَعوهُ؛ فلكمالِ عِلْمِهِ بأنَّهُمْ مسخَّرونَ، ولَا

(١) ورد قوله في: الزهد الكبير ص٣٥٨، ومدارج السالكين ٢/٣٩٨، وسراج الطالبين ٢/١٤٧.

(٢) في (ب): أعمال، والصواب المثبت.

(٣) روي عنه في: حلية الأولياء ٩/٣٤١، وسنن البيهقي الصغرى ١/٢٦.

(٤) في (ب): فقرا اختياريا، والأصح المثبت.

(٥) في (ب): وجازاه، والأصح المثبت.

يليقُ الذَّمُّ بمَنْ لا يفعلُ شيئًا، ولو ذمَّ الفاعلَ هنَا لخُشِي عليهِ ذمُّ الفاعلِ تحقيقًا، كمَا وردَ عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي الخبرِ(١): «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْر، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»، يعنِي: فإنَّكُمْ إذَا سببتُمُوهُ مِنْ حيثُ فِعْلُهُ وكراهيَّتكُمْ لهُ، فإنَّمَا ذممْتُمُ الفاعلَ تحقيقًا؛ وهوَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

وأمَّا الثَّلاثةُ الَّتِي هيَ مِن أعلامِ يقينِ اليقينِ، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ اليقينَ درجاتٌ، فمَا تقدَّمَ أوَّلُ درجاتٍ منَ اليقينِ، وهذهِ أرفعُ منهَا؛ وهوَ النَّظرُ إلىٰ اللهِ فِي كلِّ شيءٍ، أيْ يكونُ سابقَ(٢) نظرِهِ إِلَىٰ اللهِ عندَ كلِّ أمرٍ يُهِمُّهُ، وكذلِكَ يرجعُ إليهِ فِي كلِّ ضرٍّ وبَلاءٍ(٣)؛ ليكشفَهُ ويستعينَ بهِ في كلِّ أمرٍ يَرومُهُ ويحصِّلُهُ، فهذَا قد قاربَ مقامَ الجَمْعِ في درجاتِ اليقينِ(٤).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ(٥): «**وَقَالَ الجُنَيْدُ** رَحِمَهُٱللَّهُ(٦): **اليَقِينُ: هُوَ اسْتِقْرَارُ العِلْمِ الَّذِي لَا يَنْقَلِبُ وَلَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يُحَوَّلُ فِي القَلْبِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ توالِي العِلمِ علىٰ القلبِ بالمعلومِ الواحدِ، فيكونُ المُتوالِي عليهِ منَ العلومِ أمثَال حتَّىٰ لا يشعرَ الإنسانُ بالتَّوالِي ويَصِيرَ كالثَّوبِ الأبيضِ الَّذِي يقطعُ الأسنانَ بِتَوالِي أعراضِ البياضِ عليهِ حتَّىٰ يتوهَّمَ الإنسانُ أنَّهَا باقيةٌ، فيصيرَ قلبُ العبدِ باستشعارِهِ نظرَ الحقِّ إليهِ ومراقبتِهِ لهُ كأنَّ حالَهُ لمْ يتغيَّرْ كأنَّهُ شيءٌ ثابتٌ، ولهذَا قالَ: «**لا ينقلبُ ولا يتغيَّرُ**»، والجُنيدُ منَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٧٦٣ – حديث رقم (٢٢٤٦).

(٢) في (ب): سابقًا.

(٣) في (ب): صرف بلاء.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٢.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣١٩.

(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٩٨، ومفتاح دار السعادة ١/١٥٤.

العلماءِ المحقِّقِينَ العارفينَ بأنَّ العلومَ الحادثةَ علومٌ تتوالَىٰ [٢/٦٦ب] علىٰ القلبِ فَشَبَّهَهَا بالعلمِ الضَّروريِّ، فيكونُ عِلمُهُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ بجلالِهِ وعظمتِهِ الَّذي اكتسبَهُ[١] يُواليهِ اللهُ علَىٰ قلبهِ مِنْ غيرِ نظرٍ ولا حاجةٍ لمَا ذكرَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ[٣]: عَلَىٰ قَدْرِ قُرْبِهِمْ مِنَ التَّقْوَىٰ أَدْرَكُوا [مَا أدركوا][٤] مِنَ اليَقِينِ.**

وَأَصْلُ التَّقْوَىٰ: مُبَايَنَةُ النَّهَىٰ[٥]، وَمُبَايَنَةُ النَّهَىٰ مُبَايَنَةٌ لِلنَّفْسِ، فَعَلَىٰ قَدْرِ مُفَارَقَتِهِمْ لِلنَّفْسِ وَصَلُوا إِلَىٰ اليَقِينِ[٦]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، وهوَ الَّذي دلَّ عليهِ الخَبَرُ الصَّحِيحُ[٧]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ...» الحديث.

وأوَّلُ التَّقرُّبِ بالواجباتِ الانكفافُ عنِ الشَّهواتِ المحرَّماتِ، والقيامُ بالأعمالِ الواجباتِ، وإنْ ثقُلَتْ علَىٰ النَّفسِ لمخالفةِ العاداتِ، ثمَّ تتراقَىٰ فِي الانكفافِ عنِ المكروهاتِ والقيامِ بالمندوباتِ، وهوَ فِي كلِّ درجةٍ يتقوَّىٰ يقينُهُ وينشرحُ صدرُهُ بمَا يُريهِ الحقُّ ـ سبحانه ـ منَ العلومِ ويعينُهُ عليهِ منَ الأعمالِ المقرَّباتِ، فإذَا أحبَّهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ حفظَهُ في سائرِ جوارحِهِ وملأَ قلبَهُ بيقينِ

---

(١) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «وقال ابن عطاء».

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٩.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٩٠، ونصه: «... التقوىٰ، ومفارقتهم النفس، وصلوا إلىٰ اليقين»، ومدارج السالكين ٢/٣٩٨، بلفظ المؤلف.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أي: البعد عن المنهي عنه.

(٦) أي: فوصولهم علىٰ حسب خروجهم عن مألوفات النفس.

(٧) سبق تخريجه.

معرفتِهِ، وقلَّتْ عنهُ غفلتُهُ[١]، وبلغَ الغاياتِ في حفظِ القلبِ والجوارحِ في عُمُومِ الأوقاتِ.

قَالَ الإمَامُ [٢] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ**[٣]: **اليَقِينُ هُوَ المُكَاشَفَةُ، وَالمُكَاشَفَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: مُكَاشَفَةٌ بِالأَخْبَارِ، وَمُكَاشَفَةٌ بِإِظْهَارِ القُدْرَةِ، وَمُكَاشَفَةُ القُلُوبِ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قولُهُ: «**اليقينُ: هوَ المكاشفةُ**»؛ فاليقينُ هوَ الإعلامُ بالمعلوماتِ، وتارةً يعلمُهَا بالخبرِ عنِ الصَّادقِ المعصومِ، وهذَا يشملُ جميعَ ما أخبَرَ بهِ الأنبياءُ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فيمَا كانَ ويكونُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ فهوَ مستندٌ إلىٰ الخبَرِ.

والمُكاشَفَةُ الثَّانيةُ مستندةٌ إلىٰ الاستدلالِ بالنَّظرِ؛ وهوَ الاطِّلاعُ علىٰ عجائبِ صُنْعِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وبدائِعِ حكمتِهِ وأسرارِ تكاليفِهِ.

والمكاشفةُ الثَّالثةُ الَّتِي عبَّرَ عنهَا بحقائقِ الإيمانِ في القلوبِ؛ وهيَ مكاشفةٌ بكمالِ الذَّاتِ والصِّفاتِ وتعلُّقِهَا بسائِرِ المُتعلقاتِ، وتنزُّهِهَا عَنْ مُشَابهةِ المَخلُوقَاتِ، ومَا يوردُهُ الحقُّ في القلوبِ مِنْ عجائبِ ألطافِهِ بهِ وتكريمِهِ لهُ ودوامِ شُغلِهِ بهِ في سَائِرِ الأوقاتِ.

فهذِهِ ثلاثُ مراتبَ شملَهَا اسمُ المكاشفةِ [٢/٦٧أ]، فإنَّ الحقَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كاشفَ عبدَهُ بهَا وأطلعَهُ عليهَا، واختلفتْ باختلافِ مراتبِ الخلقِ ودرجاتِهِم، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يكاشفُ الحقَّ بجملتِهَا، ومنهُمْ مَنْ يخصُّهُ ببعضِهَا دونَ بعضٍ، وإذا

---

(١) في (ب): غفلاته.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٩.

(٣) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٩٩.

حصلَتْ كلُّ مكاشفةٍ وتوالَتْ على القلبِ حتَّى قلَّتِ الغفلةُ عنها سُمِّيتْ يَقِينًا[١].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَاعْلَمْ أَنَّ المُكَاشَفَةَ فِي كَلَامِهِمْ: عِبَارَةٌ عَنْ ظُهُورِ الشَّيْءِ لِلْقَلْبِ بِاسْتِيلَاءِ ذِكْرِهِ مِنْ غَيْرِ بَقَاءٍ لِلرَّيْبِ، وَرُبَّمَا أَرَادُوا بِالمُكَاشَفَةِ مَا يُقَرِّبُ مِمَّا يَرَاهُ الرَّائِي بَيْنَ اليَقَظَةِ وَالنَّوْمِ، وَكَثِيرًا مَا يُعَبِّرُ هَؤُلَاءِ عَنْ هَذِهِ الحَالَةِ بِالسُّبَاتِ[٣].

سَمِعْتُ الإِمَامَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فُورَك يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ؛ فَقُلْتُ: هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ (قَالَ: الأَشْخَاصُ كَذَا)، أَتَرَاهُمْ مُعَايَنَةً أَوْ مُكَاشَفَةً؟ فَقَالَ: مُكَاشَفَةً.

وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ[٤]: لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «وقَدْ يُعَبِّرونَ بالمُكاشفةِ عمَّا يظهرُ للإنسانِ»، وهوَ فيمَا بينَ النَّائِمِ واليقظانِ فلمْ يستوعِبْهُ النَّومُ، وإنَّمَا طرأَتْ عليهِ سِنَةٌ خفيفَةٌ فيرى فيهَا أشْخَاصًا ويسمعُ منهُمْ كلامًا، فيعبِّرونَ بهذِهِ الحالةِ عنِ المكاشفةِ، وقدْ يسمُّونَها سُباتًا؛ وذلِكَ أنَّ الشَّخصَ يزولُ إحساسُهُ بنفسِهِ، وتكونُ كلِّيَّتُهُ معَ ما يراهُ.

فبهذَا الاعتبارِ سُمِّيَ سُبَاتًا، واستدلَّ عليهِ بسؤالِ ابنِ فوركٍ لأبِي عثمانَ المغربيِّ عنْ قولِهِ: «قالَ لي أشخاصٌ ورأيتُ أشخاصًا قالُوا لِي: كَيْتَ وَكَيْتَ، أتراهُمْ معاينةً؟» يعنِي: بعينَي رأسِكَ، «أوْ مكاشفةً، فقالَ لهُ: بلْ مكاشفةً» فدلَّ ذلكَ على أنَّ إدراكَ البصرِ في هذا الوقتِ يبطلُ ويبقى الإنسانُ مشغولًا بالحالةِ الَّتي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣١٩.

(٣) أي: بالراحة للأبدان.

(٤) سبق تخريجه.

هوَ فيهَا معَ ما يرَاهُ، وبهذَا كانَ سُباتًا ومكاشفةً.

وقولُ عامرِ بنِ عبدِ قيسٍ: «**لَوْ كُشِفَ الغطاءُ ما ازددْتُ يقينًا**» يعنِي: أنَّ حالَ الآخرةِ والحشرِ والنَّشرِ والوقوفِ بينَ يدَي اللهِ ـ تعالىٰ ـ وجميعَ أحوالِ القيامةِ بالإضافةِ إلىٰ الأشقياءِ والسُّعداءِ، قَدْ غلبَ علىٰ قلبِهِ غلبةً[١] حتَّىٰ صارَ كأنَّهُ يرَاهُ بعَيْنَي رأسِهِ، فلَو قامَتِ القيامةُ ما ازدادَ يقينًا، فعبَّرَ بحالتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا مِنْ غَلبةِ أحوالِ الآخرةِ علىٰ قَلْبِهِ باليقينِ، وأخبَرَ أنَّهُ لو عاينَ القضيَّةَ بعينِ رأسِهِ لمَا ازدادَ [٦٧/٢ب] يقينًا لتحقُّقِهِ في ذلِكَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ**[٣]: **اليَقِينُ: رُؤْيَةُ العيَانِ بِقُوَّةِ الإِيمَانِ.**

وَقِيلَ: اليَقِينُ: زَوَالُ المُعَارَضَاتِ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رؤيةُ اليقينِ بقوَّةِ الإيمانِ تشبيهٌ برؤيةِ العيَانِ، ولذلِكَ قالَ: «**بِقوَّةِ الإيمانِ**»[٤]، والإيمانُ محلُّهُ القلبُ، ومعنَاهُ: أنَّ الإيمانَ يتوالَىٰ علىٰ القلبِ حتَّىٰ يصيرَ هوَ[٥] الغالبُ عليهِ حتَّىٰ يصيرَ كالمُشاهَدِ بالعينِ؛ أعنِي جميعَ ما تضمَّنَهُ الإيمانُ منَ المغيَّباتِ كمَا قالَهُ حارثةُ[٦]: «**وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا**»... الحديث.

ومتَىٰ تحقَّقَ هذَا في القلبِ صارَ غالبًا عليهِ لمْ يقبلِ القلبُ ما يُعَارِضُ ما هوَ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ٣١٩/١.

(٣) ورد قوله في: التعريفات ص٣٣٢، والتوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص٧٥٠.

(٤) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «تشبيه برؤية العيان، ولذلك قال بقوة الإيمان».

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) سبق تخريجه.

فيهِ، فعبَّرَ باليقينِ عن زَوالِ المُعَارِضَاتِ؛ وهوَ انتفاءُ ضِدِّهِ[١].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ** رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: **اليَقِينُ: ارْتِفَاعُ الرَّيْبِ فِي مَشْهَدِ الغَيْبِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ أنَّ العبدَ يشاهدُ سائرَ المغيَّباتِ بنورِ اليقينِ، ممَّا أخبرَ بهِ الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أو بمَا دلَّتْ عليهِ العقولُ، أو ممَّا وهبَهُ الرَّبُّ لعبدِهِ بلَا كسبٍ، فيصيرُ[٤] جميعُ ذلِكَ مشاهدًا للقلبِ مشاهدةً غالبةً عليهِ مشغلةً لهُ عن غيرِهِ، ومعَ هذِهِ الحالةِ ينتفي كلُّ ريبٍ وشكٍّ وظنٍّ[٥].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ[٧]: «**لَو ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشَى فِي الهَوَاءِ**».

قَالَ ـ رَحِمَةُ اللهِ عَلَيهِ ـ: **إِنَّهُ أَشَارَ بِهَذَا إِلَى حَالِ نَفْسِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَيْلَةَ المِعْرَاجِ؛ لِأَنَّ فِي لَطَائِفِ المِعْرَاجِ أَنَّهُ قَالَ: (رَأَيْتُ البُرَاقَ قَدْ بَقِيَ[٨] وَمَشَيْتُ)**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناهُ: أنَّ جبريلَ والبُراقَ فارقَا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وارتفعَ شيئًا آخرَ على رفرفٍ إلى حيثُ أرادَ اللهُ ـ تعالى ـ أنْ يناجيهِ فيهِ، وقالَ لهُ

(١) لأن المحل الواحد لا يقبل الضدين.
(٢) الرسالة القشيرية ٣١٩/١.
(٣) ورد قوله في: التعريفات ص٣٣٢، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٦٤.
(٤) في (ب): فيصح.
(٥) أي: مطلق التردد. وأفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدالة ٥٦٣/١.
(٦) الرسالة القشيرية ٣١٩/١.
(٧) سبق تخريجه.
(٨) أي: مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

جبريل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤][١].

فأشارَ الشَّيخُ أبو عليٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما ذكرَ مِنْ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نالَ المقامَ الَّذِي هوَ أعلى ممَّا نالَهُ عيسى، وهوَ المشيُ في الهواءِ، ومرادُ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّ هذا لا يُستعظَمُ منْ فعْلِ اللهِ وتفضُّلِهِ على المؤمنِينَ مِنْ مَشْيِهِم على الماءِ والهَواءِ[٢].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ فَاتِكٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ** [٢/١٦٨أ] **يَقُولُ ـ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ اليَقِينِ ـ، فَقَالَ[٤]: اليَقِينُ: سُكُونُكَ عِنْدَ جَوَلَانِ المَوَارِدِ[٥] فِي صَدْرِكَ؛ لَتَيَقُّنِكَ أَنَّ حَرَكَتَكَ فِيهَا لَا تَنْفَعُكَ، وَلَا تَرُدُّ عَنْكَ مَقْضِيًّا**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ عَلامَاتِ اليقينِ؛ وهوَ السُّكونُ بالقلبِ عندَ تغيُّرِ الأصحابِ والأسبابِ[٦]، وزوالُ الحرصِ والجزعِ عندَ خوفِ فَواتِ المحبوبِ أوِ الذَّهابِ، والسَّببُ في السُّكونِ توالِي العِلْمِ على القلبِ بأنَّ حركةَ العبدِ وسُكونَهُ لم تَجلِبْ لهُ منفعةً، ولا يدفعُ عنهُ سوءًا لمْ يُقدِّرْهُ اللهُ منَ الخيرِ والشَّرِّ جميعًا[٧].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٨]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ:**

---

(١) سبق التعليق على نحو ذلك.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٤.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢٠.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٩٩، وفيض القدير ٥/٣.

(٥) أي: عند توارد الواردات الملائمة والغير ملائمة للنفوس.

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٤.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٣٢٠.

سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سَهْلٍ يَقُولُ[(١)]: الحُضُورُ أَفْضَلُ مِنَ اليَقِينِ؛ لِأَنَّ الحُضُورَ وَطنَاتٌ، وَاليَقِينَ خَطَرَاتٌ.

كَأَنَّهُ جَعَلَ اليَقِينَ ابْتِدَاءَ[(٢)] الحُضُورِ، وَالحُضُورَ دَوَامَ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُ جَوَّزَ[(٣)] حُصُولَ اليَقِينِ خَالِيًا مِنَ الحُضُورِ، وَأَحَالَ جَوَازَ الحُضُورِ بِلَا يَقِينٍ.

وَلِهَذَا قَالَ النُّورِيُّ[(٤)]: اليَقِينُ المُشَاهَدَةُ.

يَعْنِي: أَنَّ فِي[(٥)] المُشَاهَدَةِ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُشَاهِدُهُ مَنْ لَا يَثِقُ بِمَا مِنْهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**الحضُورُ أفضلُ منَ اليقينِ**» صحيحٌ، وذلكَ أنَّ كلَّ حالٍ شَريفٍ إنَّمَا يثمرُهُ اليقينُ، فإذا كانَ الحضورُ ثمرةَ اليقينِ وقدْ يَنالُ اليقينَ مَنْ لا يتمكَّنُ في الحضورِ؛ لأنَّ اليقينَ عبارةٌ عن توالِي العلمِ بالمُوقنِ، والحضورُ توالِي المُشَاهدةِ للمُشَاهدِ، فمِنْ هذا الوجهِ يكونُ أفضلَ، ولكنَّ ما ذكرَهُ منَ التَّعليلِ يصدُّ عن هذا التَّأويلِ؛ وهوَ قولُهُ: «**لأنَّ الحضورَ وطناتٌ، واليقينَ خطَراتٌ**»، وهذا فيهِ بُعْدٌ، فإنَّ اليقينَ هو الَّذِي ينبغِي أنْ يكونَ وطناتٍ؛ لأنَّهُ الأصلُ لكلِّ حالٍ شريفٍ، وإذا كانَ اليقينُ خطراتٍ لمْ تكنِ الثَّمراتُ وطناتٍ، فإنْ كانَ اللَّفظُ كمَا نقلَ ولمْ يكنْ فيهِ غلطٌ في الكتابةِ أو فِي السَّماعِ، فتأويلُهُ ما ذكرَهُ، ويكونُ الحضورُ ليسَ هوَ أعالِي الدَّرجاتِ، وإنَّمَا يكونُ الحضورُ بالنَّظرِ لأصْلِ الإيمانِ والسَّعي فِي تحقيقِ مقامِ اليقينِ، فيكونُ العبدُ قدْ تمكَّنَ إيمانُهُ وانشرحَ صدرُهُ

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٨٨.

(٢) في (ب): أشد، والصواب المثبت.

(٣) في (ب): جواز، والأصح المثبت.

(٤) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٣، واللمع للطوسي ص١٠٣، ونسب لرويم في: طبقات الصوفية ص١٥٠.

(٥) في (ب): في ذلك.

بالبرهانِ، ولمْ يتوالَ[١] ذلِكَ عليهِ حتَّىٰ يصيرَ يقينًا فيكونَ الحضورُ لحالِ إيمانِهِ ويكونَ اليقينُ لمْ يتقرَّرْ عندَهُ ولمْ يتمكَّنْ فيهِ.

فبهذَا الاعتبارِ يكونُ «**الحُضُورُ وَطَنَاتٍ، واليقينُ خطَرَاتٍ**»، وهذا[٢] جارٍ في كلِّ مقامٍ منيفٍ لا بُدَّ أنْ يتمكَّنَ العبدُ فِي أوَّلِهِ ويصيرَ[٣] وطنًا لهُ، ثمَّ يخطرَ بقلبِهِ ما هوَ أعلىٰ ممَّا هوَ فيهِ منَ المقامِ ولا يثبتَ [٢/٦٨ب]، فيكونَ الثَّانِي خطراتٍ بالنِّسبةِ إلىٰ الأوَّلِ، ولهذَا قَالَ الإِمَامُ القُشَيْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كأنَّهُ جعلَ اليقينَ ابتداءَ الحُضُورِ**» وأحالَ حصولَ حضورٍ بغيرِ يقينٍ، وعليهِ يدلُّ قولُ النُّوريِّ: إنَّهُ لا تتمُّ المشاهدةُ إلا بيقينٍ، فمَنْ لا يقينَ لهُ لا مشاهدةَ لهُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ**[٥]: **اليَقِينُ مَلَاكُ القَلْبِ، وَبِهِ كَمَالُ الإِيمَانِ، وَبِاليَقِينِ عُرِفَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، وَبِالعَقْلِ عُقِلَ عَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا عبَّرَ باليقينِ عن غلبةِ حَالِ الإيمانِ علىٰ القلبِ وهوَ قولُهُ: «مَلاكُ القلبِ»، أيِ: استولَىٰ حكمُ اليقينِ علىٰ القلبِ حتَّىٰ لمْ يبقَ فيهِ متَّسعٌ لقبولِ خواطرِ غيرِ المُوقَنِ المعلومِ، وهوَ كمالُ الإيمانِ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بالحقيقةِ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٦]: «إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً»، فحقيقةُ كلِّ شيءٍ كمالُهُ؛ وهوَ غلبتُهُ علىٰ قلبِ العبدِ وكمالُ شغلِهِ بهِ، وكلَّمَا كمُلَ اليقينُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبصفاتِهِ ودامَتْ ملاحظةُ العبدِ لهُ ولمَا يردُ من أفعالِهِ علىٰ قلبِهِ وعلىٰ غيرِهِ منَ المخلوقاتِ كمُلَتْ معرفتُهُ بربِّهِ وبجلالِهِ وعظمتِهِ وانفرادِهِ في سُلْطانِهِ.

---

(١) في (أ، ب): يتوالىٰ، والأصح المثبت.

(٢) في (ب): ولهذا.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٠.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٧٥، ومدارج السالكين ٢/٣٩٩.

(٦) سبق تخريجه.

وقولُهُ: «وبالعَقْلِ عُقِلَ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ» يحتملُ أمرَينِ ؛ يعنِي: أنَّهُ بالعقلِ استدلَّ العبدُ علىٰ عظمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعلىٰ انفرادِهِ في أفعالِه(١)، ويحتملُ أنْ يكونَ عُقِلَ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ؛ أمرُهُ ونهيُهُ ووعدُهُ ووعيدُهُ وغيرُ ذلكَ ممَّا جاءَتْ بهِ الأنبياءُ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعِينَ ـ.

فعلَىٰ هذَا التَّقريرِ: اليقينُ كمالُ الإيمانِ، وغلبةُ أحوالِهِ علىٰ القلبِ والعقلِ معنىً يدركُ الإنسانُ بهِ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ دلالةَ مخلوقاتِهِ عليهِ، ومَا وردَ علىٰ لسانِ أنبيائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ أحكامِهِ، وتفصيلِ حلالِهِ وحرامِهِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقَالَ الجُنَيْدُ(٣): قَدْ مَشَىٰ رِجَالٌ بِاليَقِينِ عَلَىٰ المَاءِ، وَمَاتَ بِالعَطَشِ أَفْضَلُ مِنْهُمْ يَقِينًا»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا ملازمةَ بينَ قوَّةِ اليقينِ وخوارقِ العاداتِ، فقدْ يقوَىٰ يقينُ العبدِ بمَا يخلقُهُ اللهُ عندَهُ مِنْ غيرِ سببٍ، وقدْ تكونُ خوارقُ العاداتِ يزدادُ بهَا بعضُ النَّاسِ يقينًا، وقدْ يستوِي الرَّجلانِ في اليقينِ ويُجْرِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ خَوارقَ العَادَاتِ لأحدِهِمَا لطفًا بهِ وعونًا علىٰ مآرِبِهِ لَا ليزدادَ بهِ يقينًا(٤)، وقَدْ يُجريهَا الحقُّ علىٰ يدِ بعضِ المُوقِنينَ لينتفعَ بهَا غيرُهُ ممَّنْ يشاهدُهَا أَوْ تنقلُ لهُ.

وعلىٰ [٢/١٦٩أ] الجُملةِ: مقصودُ هذا الكلامِ أنَّهُ لا ربْطَ بينَ خوارقِ العاداتِ وقوَّةِ اليقينِ، ولذلِكَ قالَ: **«ومَاتَ بالعَطَشِ مَنْ هُوَ أَقْوَىٰ مِنْهُ يَقِينًا»**.

---

(١) لأن العقل مدار الفهم والادراك.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٠.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣٥، وصفة الصفوة ٢/٤١٩، ومدارج السالكين ٢/٣٩٩.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٥.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا يَقُولُ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ[٢]: لَقِيتُ غُلَامًا فِي التِّيهِ كَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ، فَقُلْتُ: إِلَىٰ أَيْنَ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ: إِلَىٰ مَكَّةَ، بِلَا زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ، وَلَا نَفَقَةٍ؟ فَقَالَ لِي: يَا ضَعِيفَ اليَقِينِ، الَّذِي يَقْدِرُ عَلَىٰ حِفْظِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُوصِلَنِي إِلَىٰ مَكَّةَ بِلَا عَلَاقَةٍ؟! قَالَ: فَلَمَّا دَخَلْتُ مَكَّةَ إِذَا أَنَا بِهِ فِي الطَّوَافِ وَهُوَ يَقُولُ[٣]:

يَـا عَـيْنُ سِـحِّي أَبَـدَا[٤] ✻ يَـا نَفْـسُ مُـوتِي كَمَـدَا[٥]
وَلَا تُحِبِّـــي أَحَــــدَا ✻ إِلَّا الجَلِيــلَ الصَّــمَدَا

فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: يَا شَيْخُ، أَنْتَ بَعْدُ عَلَىٰ ذَلِكَ الضَّعْفِ مِنَ اليَقِينِ؟».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ مَنْ كمُلَ يقينُهُ بضمانِ ربِّهِ وجرَتْ عليهِ ألطافُهُ؛ إمَّا باستغنائِهِ عنِ الطَّعامِ والشَّرابِ، أو بإتيانِهِ بهِ في وقتِ حاجتِهِ، أوْ غيرِ ذلكَ منَ الأسبابِ صحَّ لهُ أنْ يدخلَ الصَّحراءَ ويسافرَ [إلى][٦] الأماكنِ البعيدةِ بلا زادٍ، وإنْ كانَ السُّنَّةَ حملُ الزَّادِ في الأسفارِ، ولا يدلُّ ذلكَ على ضَعْفِ اليقينِ، فإنَّ الأنبياءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأفضلَ الأُمَّةِ منَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حملُوا الزَّادَ، ولكنَّهُمْ لمْ يسكنُوا إليهِ، وإنَّمَا اعتمدُوا على ربِّهِمْ، فلمَّا قالَ إبراهيمُ لهذَا الشَّابِّ: «**تُسافرُ بلا زادٍ؟**»، فأخبَرَهُ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يخصُّ مَنْ يشاءُ في السَّفرِ بلَا زادٍ؛ لقوَّةِ يقينِهِ ولُطفِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٠.
(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٩٠.
(٣) من الرجز، وورد في: تهذيب الأسرار ص٩٠، ومنارات السائرين ص١٤٣.
(٤) أي: ابكي أبدا شوقًا على وصال الحبيب.
(٥) أي: حزنا.
(٦) زيادة من (ب).

ربِّهِ بهِ بأيٍّ وجْهٍ شاءَ، ولذلِكَ لمَّا لقِيَهُ فِي الطَّوافِ قالَ لهُ: يا شيخُ: «أنتَ بعدَ على ذلكَ الضَّعفِ»[(١)]؛ يعنِي: المُوجِب لسؤالِهِ عنِ السَّفرِ بلَا زادٍ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّهْرَجُورِيَّ يَقُولُ[(٣)]: إِذَا اسْتَكْمَلَ العَبْدُ حَقَائِقَ اليَقِينِ صَارَ البَلَاءُ عِنْدَهُ نِعْمَةً[(٤)]، وَالرَّخَاءُ مُصِيبَةً».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ[(٥)]: «عَجبًا لِلْمُؤْمِنِ، واللهِ لَا يُقْضَى لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءٌ إِلَّا كَانَ خيْرًا لَهُ»، فمتَى استكملَ العبدُ الإيمانَ وقوِيَ يقينُهُ بحُسْنِ صنيعِ اللهِ لهُ عَدَّ [٦٩/٢ب] البلاءَ نعمةً؛ لمَا وُعِدَ عليهِ منَ الثَّوابِ، وعدَّ الرَّخاءَ نقمةً أوْ بليَّةً؛ لمَا يلزمُهُ فيهِ منَ الشُّكرِ والحقوقِ وخوفِ الحسابِ[(٦)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ[(٨)]: اليَقِينُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: يَقِينُ خَبَرٍ، وَيَقِينُ دَلَالَةٍ، وَيَقِينُ مُشَاهَدَةٍ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقَدْ بيَّنَّا أنَّ مرادَهُ بـ«يقينِ الخَبَرِ»: العِلمُ الحاصلُ عن خبرِ الأنبياءِ بمَا غابَ عنِ المشاهدةِ منَ الجنَّةِ والنَّارِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أحوالِ يومِ القيامةِ.

---

(١) في (ب): «أنتَ بعدَ ذلِكَ فِي الضَّعفِ».

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٨٩، واللمع للطوسي ص١٠٢، ومدارج السالكين ٢/٤٠٠.

(٤) فيجد له لذة.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٢٤، وأبو يعلىٰ في مسنده ٧/٢٢٠. وأخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٩٥ ـ حديث رقم (٢٩٩٩) بلفظ: «.. عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ..».

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٦.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٢١.

(٨) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٤٠٠.

و«يقينُ الدَّلالةِ»: ما حصلَ بالفكرِ والنَّظرِ فِي المخلوقاتِ الَّذِي دلَّ علىٰ حدثِ العالمِ وقِدَمِ مُحدِثِهِ وكمالِهِ وكمالِ صفاتِهِ، وتنزُّهِهِ عَنْ مُمَاثلةِ مَخْلُوقَاتِهِ.

و«يقينُ المشاهدةِ»: يقينُ العِلمِ الَّذِي يخلقُهُ اللهُ - تعالىٰ - فِي قلوبِ الأنبياءِ والأولياءِ الَّذِي يطلعُهُمْ بهِ علىٰ أسرارِ ملكوتِهِ، وبدائِعِ حِكْمَتِهِ فِي مخلوقاتِهِ، وتصريفِ قلوبِهِمْ فِي القبْضِ والبَسْطِ والحضورِ والغفْلَةِ والمراقبةِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يطلعُهُمْ عليهِ مِنْ غرائِبِ أفعالِهِ[١] الَّتِي يخصُّهُمْ بهَا ويكاشفُهُمْ ببَدَائِعِهَا.

ويحتملُ أنْ يكونَ مرادُهُ باليقينِ الأوَّلِ: علمَ اليقينِ لليقينِ الحاصلِ عنِ العِلمِ منَ الخبرِ، ويكونَ مُرَادُهُ بالثَّانِي: عينَ اليقينِ؛ لاطِّلاعِهِمْ من أنفسِهِمْ علىٰ المدلولِ بوضوحِ الدَّليلِ، وسمَّوهُ بهذَا الاعتبارِ عينَ اليقينِ، ويحتملُ أنْ يكونَ الثَّالثُ حقَّ اليقينِ؛ لكونِ الحقِّ ينشئُهُ فِي قلوبِهِمْ بلَا سَببٍ، ولغلبتِهِ علىٰ قلوبِهِمْ ويسمونَ الغلبةَ الحقيقيَّةَ كمَا تقدَّمَ، وقدْ وردَ فِي الكتابِ العزيزِ: علمُ اليقينِ، وعينُ اليقينِ، وحقُّ اليقينِ؛ فقالَ - تعالىٰ -: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، فأضافَ العِلمَ لليقينِ، وقالَ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقالَ فِي موضعٍ آخرَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥][٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ أَبُو تُرَابٍ[٤]: رَأَيْتُ غُلَامًا فِي البَادِيَةِ يَمْشِي بِلَا زَادٍ، فَقُلْتُ: إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَقِينٌ فَقَدْ هَلَكَ، فَقُلْتُ: يَا غُلَامُ، فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِلَا زَادٍ؟! فَقَالَ لِي: يَا شَيْخُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ هَلْ تَرَىٰ غَيْرَ اللهِ؟ فَقُلْتُ: الآنَ اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ».

---

(١) في (ب): أفعالهم.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٦.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢١.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٧٥، وصفة الصفوة ٤/٤٠٧.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إنَّمَا أشارَ للمُلْكِ والعظمةِ بقولِه: «**هَلْ تَرَىٰ في السَّماواتِ والأرضِ مُلكًا لغيرِ اللهِ؟!**»، ففهمَ منهُ أنَّهُ قويُّ اليقينِ بأنَّ مالِكَ المُلكِ هوَ الَّذِي يدبِّرُهُ ويحفظُهُ، والعبدُ مِنْ جُملةِ [٢/١٧٠أ] مُلْكِهِ، فلمَّا فهمَ منهُ هذِهِ القوَّةَ قالَ لهُ: «**اذهَبْ حيثُ شِئْتَ**».

هكَذَا ينبغِي أنْ يكونَ العبدُ متَىٰ وجدَ في نفسِهِ قوَّةً أجراهَا اللهُ عليهِ [ولُطْفًا][1] مَنَّ بهِ عليهِ بهِ فِي كثيرٍ مِنْ أوقاتِهِ جرَىٰ علىٰ عادتِهِ معَ اللهِ، فلَا يكونُ مغرورًا ولَا مخالِفًا، ولا سيَّمَا إذَا قوِيَ يقينُهُ بلُطْفِ ربِّهِ بهِ وجميلِ عادتِهِ معَهُ، بخلافِ مَنْ دخلَ علَىٰ التَّجربةِ، فيقينُهُ ضعيفٌ، فلا ينبغِي لهُ أنْ يُغرِّرَ بنفسِهِ، فإنَّهُ مخطئٌ وإنْ سلِمَ[2]، فقد يَمُنُّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ بالصَّبرِ عنِ الطَّعامِ وهوَ مقيمٌ ببعضِ البلادِ ولا يضعفُ، وهوَ يتصرَّفُ فِي أشغالِهِ فلَا يتعذَّرُ عليهِ شيءٌ مِنْ أسبابِ دينِهِ، فهذَا إذَا سافَرَ الأيَّامَ الَّتِي عوَّدَهُ اللهُ الصَّبرَ لهَا، وأكْثَرَ منهَا لَا يكونُ مغرورًا، وذلِكَ أنَّ العادةَ قدِ انخرقَتْ لهُ، وانتقلَ عن عوائِدِ النَّاسِ، وجرَتْ عليهِ ألطافُ ربِّهِ، فإذَا زادَ وُثُوقًا بلطفِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهِ وحُسْنِ عادتِهِ معَهُ لا يضرُّهُ، وشرطُهُ ملازمةُ العِلْمِ في سائِرِ أحوالِهِ، فكلَّمَا خشِيَ نقْصًا دينِيًّا أصلحَ ورجعَ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عِيسَىٰ يَقُولُ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[4]: العِلْمُ[5] مَا اسْتَعْمَلَكَ، وَاليَقِينُ مَا حَمَلَكَ**».

---

(١) زيادة من (ب).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٦ ـ ٥٦٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢١.

(٤) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٣٠٤، واقتضاء العلم والعمل ص٣٤، وتاريخ دمشق ٥/١٣٤، وتهذيب الأسرار ص٨٩، ومدارج السالكين ٢/٤٠١.

(٥) أي: العلم النافع ما أفادك إلىٰ العمل به.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**العلمُ مَا استعملَكَ**» يعنِي العِلمُ المتعلِّقُ بالأحكامِ، والفرقُ بينَ الحلالِ والحرامِ، والمندوبِ والمكروهِ والمُباحِ فِي أفعالِ القلوبِ والجوارحِ، فهذَا هوَ العلمُ الَّذِي استعملَكَ علَىٰ الصِّحَّةِ.

«**واليقينُ ما حملَكَ**»: هوَ العِلمُ بِأنْ لا فاعِلَ إلَّا اللهُ، ولا مُعينَ سِواهُ، ولا يجرِي عليكَ[١] في دُنياكَ وآخرتِكَ إلَّا ما سبَقَ لكَ عندَهُ[٢]، واعتمادُكَ عليهِ فِي أنْ يلطُفَ بكَ ويُجْرِيَ عليكَ الخيراتِ، ويُعينَكَ علىٰ الأعمالِ الصَّالحاتِ هوَ الَّذِي يحملُكَ، بهذَا الاعتبارِ سُمِّيَ العلمُ الثَّانِي يقينًا، وسُمِّيَ الأوَّلُ علمًا، فقالَ: «**العلمُ ما استعملَكَ، واليقينُ ما حملَكَ**»، وإنْ كانَ الكلُّ علمًا إذَا توالَىٰ صارَ يقينًا، وإنَّما اختلفَ باختلافِ المَعْلُومِ والمُوقَنِ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ** [٢/٧٠ب] **الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ بْنَ الآدَمِيِّ**[٤] **يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصَ يَقُولُ: طَلَبْتُ المَعَاشَ لِأَكْلِ الحَلَالِ، فَاصْطَدْتُ**[٥] **السَّمَكَ**[٦]، **فَيَوْمًا وَقَعَتْ فِي الشَّبَكَةِ سَمَكَةٌ، فَأَخْرَجْتُهَا، وَطَرَحْتُ الشَّبَكَةَ فِي المَاءِ، فَوَقَعَتْ فِيهَا أُخْرَىٰ، فَرَمَيْتُ بِهَا ثُمَّ عُدْتُ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: لَمْ تَجِدْ مَعَاشًا إِلَّا أَنْ تَأْتِيَ مَنْ يَذْكُرُنَا فَتَقْتُلَهُمْ؟! قَالَ: فَكَسَرْتُ القَصَبَةَ، وَتَرَكْتُ الاصطيادَ**[٧]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ليسَ إنكارًا علىٰ الصَّيدِ ولا

---

(١) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «الخيرات».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٧.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢١.

(٤) في (ب): «الآدم»، والصواب المثبت.

(٥) في (ف): فاضطرت.

(٦) اختاره لعدم الشبهة في حِلّه.

(٧) في (ب): «الاصياد»، والصواب المثبت.

طلبِ الحَلالِ؛ لأنَّ صيدَ البحرِ بِآلةٍ حلالٌ[١]، وأحسنُ ما أكلَ منهُ الإنسانُ، لكنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يؤدِّبُ أولياءَهُ بخواطرَ يُنَبِّهُهُمْ بهَا علىٰ أنَّهُم لا يسكنُونَ إلي غيرِهِ[٢]، فمتَىٰ علِمَ مِنْ بعضِ عبيدِهِ الخَواصِّ سُكُونًا[٣] إلىٰ غيرِهِ نبَّهَهُ ليرجعَ إليهِ ويعتمدَ عليهِ دونَ الأسبابِ[٤]، فلَا يزالُونَ عاكفِينَ علىٰ البَابِ مُعْرِضِينَ عنِ الأسبابِ، حتَّىٰ لا يحجبَهُمْ عَنْ رُؤيتِهِ حِجَابٌ.

(١) في (ب): «مما له حلال»، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): «لغيره».

(٣) في (ب): «ركونًا»، وكل صواب.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٥٦٧.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١):

باب الصَّبْرِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧].

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَزِايُّ رَحِمَهُ اللهُ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الخَزَّازُ، حَدَّثَنَا أُسَيْدُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا مَسْعُودُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ الزَّيَّاتِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(٢)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رَفعتْه، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ».

وَأَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِرْدَاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عَطِيَّةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ(٣)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤): «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ(٥)».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ونحنُ نتكلَّمُ علىٰ حقيقتِهِ، وأقسامِهِ، والأسبابِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٢.

(٢) في (أ، ب): أبي زهرة، والصواب المثبت.

(٣) في (ب): ميمون، والصواب المثبت.

وهو: عطاء بن أبي ميمونة البصري، أبو معاذ مولىٰ أنس، واسم أبي ميمونة منيع البصري، روىٰ عن أنس وعمران وجابر بن سمرة وغيرهم، مات بعد الثلاثين ومائة.

انظر في ترجمته: التاريخ الكبير ٦/٤٦٩، والكاشف ٢/٢٤، وتهذيب التهذيب ٧/١٩٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٤٣٨ ـ حديث رقم (١٢٤٠)، ومسلم في صحيحه ٢/٦٣٧ ـ حديث رقم (٩٢٦).

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

المحصِّلَةِ لهُ، والثَّمراتِ المُتَرَتِّبَةِ عليهِ، والأدلَّةِ المُثبتةِ لهُ، ثمَّ نُجري أقوالَ المشايخِ علىٰ ما نُقرِّرُهُ[(١)] علىٰ مَا تقدَّمَ.

فَأَمَّا حَقِيقَةُ الصَّبْرِ: فهوَ حبسُ النَّفسِ، وحبسُهَا تارةً يكونُ علىٰ كَرِيهٍ تتحمَّلُهُ، وتارةً علىٰ لذيذٍ تُفَارِقُهُ، [٢/١٧١أ].

وقَدْ يطلقُ الصَّبرُ علىٰ معانٍ؛ ومنهُ: إذا أصبرَهُ الحاكمُ؛ أيْ ألزَمَهُ الشَّيءَ[(٢)]، ويقالُ: قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا[(٣)].

وقالَ أبو العبَّاسِ[(٤)]: الصَّبْرُ في اللُّغةِ علىٰ ثلاثةِ أوجُهٍ: الإكراهُ؛ ومنهُ: أصبَرَهُ الحاكمُ، والحبسُ؛ ومنهُ: صبرتُهُ؛ إذا حبسْتُهُ، ومنهُ الجرأةُ، وهوَ الثَّالثُ، [ومِنْهُ] قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، أيْ: أعمالِ أهلِ النَّارِ، وقالَهُ الطَّبريُّ[(٥)].

وأمَّا متعلِّقُ الصَّبرِ فثلاثةُ أقسامٍ: صبْرٌ علىٰ فِعْلِ الطَّاعةِ، وصبْرٌ عنِ المعصيةِ، وصبْرٌ عمَّا ينزلُ بهِ القدرُ ممَّا يخالفُ هَوَىٰ النَّفسِ.

فأمَّا أسبابُهُ: فعلمُ العبدِ بمَا يترتَّبُ علىٰ تحصيلِهِ منَ الخيراتِ، وما يقعُ العبدُ فيهِ إذا فقدَهُ منَ البليَّاتِ؛ في نفسِهِ وغيرِهِ منَ الولدِ والأهلِ والخادمِ في دُنياهُ، ومَا يتعرَّضُ بهِ إلىٰ غضبِ ربِّهِ وعقوبتِهِ لهُ في أُخرَاهُ، والعلمُ بفوائدِ الصَّبرِ إذا اتَّصفَ العبدُ بهِ، وبمَا يترتَّبُ علىٰ فقدانِهِ منَ الشُّرورِ مِنْ أعظمِ الأسبابِ في تحصيلِهِ،

---

(١) في (ب): تقرر.

(٢) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين ١/٦٦، واللسان «ص ب ر».

(٣) أي: قتل وهو مأسور محبوس للقتل لا في معركة. انظر: الجمهرة ٣/١٢٥٧، والزاهر لابن الأنباري ٢/٢٠١، وكشف المشكل ٤/١٨٥.

(٤) أي: ثعلب، انظر: معاني القرآن وإعرابه لثعلب ٢/١٦٨.

(٥) حكاه في تفسيره: جامع البيان ٢/٩١.

وأوكدِ الأمور.

ومِنْ أسبابِهِ أيضًا مَا يحصلُ للعبدِ بهِ منَ الرَّاحةِ في دُنياهُ، ومَا يسلمُ بهِ منْ(١) وُقُوعِهِ في الجَزَعِ والتَّسخُّطِ بقضَاءِ اللهِ، وما يُجريهِ عليهِ ويتعرَّضُ بسببِ ذلِكَ لِمَقْتِهِ فِي دُنْيَاهُ وشدَّةِ عذابِهِ لهُ في أُخرَاهُ.

وأمَّا أدلَّةُ الصَّبرِ: فقد قالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الانفال: ٤٦]، وقالَ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

وأَثْنَىٰ علىٰ التَّخلُّقِ بهِ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورىٰ: ٤٣]، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، ومَا وعدَ اللهُ الصَّابرينَ، لقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في غيرِ موضعٍ منْ كتابِهِ [العزيزِ](٢): ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وذلِكَ ممَّا يكثُرُ.

وقَدْ قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وجدْنَا خيرَ عيشِنَا الصَّبْرَ»؛ وذلكَ أنَّهُ لا يُعاشُ في الآخرةِ المعيشةَ الطَّيِّبَةَ إلَّا بالقيامِ بطاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ: واجبِهَا ومندوبِهَا، والانكفافِ عن مناهِي اللهِ: محرَّمِهَا ومكروهِهَا، والصَّبرِ علىٰ ما يُجريهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ الأقدارِ، وعليهِ يترتَّبُ الرِّضَا بهَا، وإذا كانَ عيشُ(٤) الآخرةِ ـ وهوَ النَّعيمُ الدَّائمُ ـ مُترتِّبًا علىٰ الصَّبرِ، فنعيمُ الدُّنيا أَوْلَىٰ وأَوْلَىٰ [٢/٧١ب]، وهذا تضمَّنَهُ

---

(١) في (ب): في.

(٢) زيادة من (ب).

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١/٥٠، وتاريخ أصبهان ٢/١٦٥، وتغليق التعليق ٥/١٧٢. ونسب لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ في: المنهج المسلوك ص٣١٣.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

بعضُ الآياتِ، وقولُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِنْ جُملةِ الثَّمراتِ الَّتِي يثمرُهَا الصَّبرُ في الدُّنيا والآخرةِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]: «**اَلصَّبْرُ عَلَىٰ أَقْسَامٍ: صَبْرٌ عَلَىٰ مَا هُوَ كَسْبٌ لِلعَبْدِ، وَصَبْرٌ عَلَىٰ مَا لَيْسَ بِكَسْبٍ.**

فَالصَّبْرُ عَلَىٰ المُكْتَسَبِ[(٢)] **عَلَىٰ قِسْمَينِ: صَبْرٌ عَلَىٰ مَا أَمَرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِهِ، وَصَبْرٌ عَمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ.**

وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَىٰ مَا لَيْسَ بِمُكْتَسَبٍ لِلعَبْدِ فَصَبْرُهُ عَلَىٰ مُقَاسَاةِ مَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنْ حُكْمِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِيْمَا لَهُ فِيهِ مَشَقَّةٌ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ومَا ذكرَهُ الإمامُ ينقسمُ إلىٰ الواجِبِ والمَنْدُوبِ، فإنَّ قولَهُ: «**علىٰ ما أمرَ اللهُ بهِ**» يشملُ القيامَ بالواجباتِ؛ منَ الصَّومِ والصَّلاةِ والحجِّ والزَّكاةِ وغيرِ ذلكَ منَ الواجباتِ، والمندوبُ[(٣)] منهُ يشملُ أنواعَ الطَّاعاتِ منَ القُرُباتِ المندوباتِ، وإنْ تفاوتَتْ في الدَّرجاتِ فإنَّهَا محتاجةٌ إلىٰ الصَّبرِ في القيامِ بهَا وإنْ خفَّ الصَّبْرُ في تحمُّلِهَا في بعضِ الحالاتِ، وكذلِكَ الصَّبرُ عن ما نهَىٰ اللهُ عنهُ ينقسمُ إلىٰ المحرَّمِ والمكروهِ وإنْ خفَّ وبعُدَ عنِ الشُّبهةِ بالمحرَّماتِ، وكذلِكَ الصَّبرُ علىٰ النَّوازلِ منهَا ما يتَّقِي بهِ العبدُ[(٤)] السَّخطَ بالمقدورِ وكَرَاهةَ فعلِ الرَّحيمِ الغفورِ، فهذا النَّوعُ منَ الصَّبرِ واجبٌ للخلاصِ بهِ منَ الحرامِ.

وأمَّا الصَّبرُ علىٰ ما يطرقُ العبدَ في ليلِهِ ونهارِهِ منَ الآلامِ والأسقامِ في نفسِهِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٢.

(٢) في (ب): المكسب، والصواب المثبت.

(٣) في (ب): والمندوبات.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

وولدِهِ وخادمِهِ، وكذلِكَ في مالِهِ، فيحملُ أعباءَ الصَّبرِ فيهِ ويعلمُ خفَّتَهُ، والخروجُ عن مقامِ التَّصبُّرِ منْ أفضلِ المندوباتِ، وكذلِكَ الرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ وإنْ كانَ منَ المؤلماتِ، فهوَ من أشرفِ الطَّاعاتِ، ولذلِكَ قيلَ[1]: «الرِّضَا بابُ اللهِ الأعظمُ»؛ لسهولةِ الدُّخولِ في الطَّاعاتِ منهُ، وقلَّةِ المشقَّةِ على المتَّصفِ بهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يَحْيَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[3]: المَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَىٰ الآخِرَةِ سَهْلٌ هَيِّنٌ[4] عَلَىٰ المُؤْمِنِ، وَهِجْرَانُ الخَلْقِ فِي جَنْبِ اللهِ[5] شَدِيدٌ، وَالمَسِيرُ مِنَ النَّفْسِ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ صَعْبٌ شَدِيدٌ، وَالصَّبْرُ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَشَدُّ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقَدْ تقرَّرَ أنَّ الصَّبرَ إنَّمَا يكونُ علىٰ مُؤلمٍ، والمُؤلمُ؛ إمَّا فِراقُ محبوبٍ، أو تحمُّلُ مكروهٍ، ومَا ذكرَهُ الجُنيدُ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ [١٧٢/٢أ] كلُّهُ منَ المؤلماتِ، فقولُهُ: «**المسيرُ منَ الدُّنيا إلىٰ الآخرةِ سهلٌ**» وإنْ كانَ فيهِ صعوبةٌ إلَّا أنَّهُ إنَّمَا سهُلَ وإنْ كانَ فراقُ الدُّنيَا كريهًا[6]، وإنَّمَا يخفُّ لكمالِ المعاوضةِ؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ وعدَ أكملَ الجزاءِ لمَنْ تركَ شهواتِ الدُّنيَا، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] فهوَ «**سهلٌ**

---

(١) نسب للجنيد في: تفسير السلمي ٢٨٤/١، ولعبد الرحمن بن زيد في: الرضا عن الله بقضائه ص٥١، وحلية الأولياء ١٥٦/٦، وتسلية أهل المصائب ص١٥٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٢/١.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٣٥٠/١، وإحياء علوم الدين ٧٨/٤، ومدارج السالكين ١٥٧/٢، وعدة الصابرين ص٣٨.

(٤) أي: بشاهد علم النقل والعقل.

(٥) أي: في طاعته. انظر: نتائج الأفكار ١٤٩/٣.

(٦) في (ب): كرهًا.

هيِّنٌ» بالنِّسبةِ لمَا يأتِي.

وأمَّا فراقُ مَنْ يحبُّهُ الإنسانُ مِنْ ولدٍ وزوجةٍ وصاحبٍ؛ لاشتغالِهِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبطاعتِهِ مُشِقٌّ علىٰ النَّفسِ، فإنَّهُ فراقُ محبوبٍ وتحمُّلُ مَكْرُوهٍ.

وأمَّا قولُهُ: «**والمسيرُ منَ النَّفسِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ صعبٌ شديدٌ**»، ويعنِي بهِ: عدمَ الالتفاتِ لحظوظِ النَّفسِ والعملَ لراحتِهَا، ونيلِ عوضِهَا فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ويكونُ العملُ لمحضِ أمرِ اللهِ ووجوبِ طاعتِهِ أشدَّ، وإذا وصلَ العبدُ إلىٰ هذهِ الحالةِ فصبرُهُ عليهَا وأدبُهُ فيهَا حتَّىٰ لا يرجعَ إلىٰ[١] الالتفاتِ إلىٰ حظِّ نفسِهِ أشدُّ[٢]، وهوَ قولُهُ: «**والصَّبرُ معَ اللهِ أشدُّ**»[٣].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَسُئِلَ[٥] عَنِ الصَّبْرِ فَقَالَ[٦]: تَجَرُّعُ المَرَارَةِ مِنْ غَيْرِ تَعْبِيسٍ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ فرَّقَ بهِ بينَ درجةِ التَّصبُّرِ[٧]، فإنَّ المتصبِّرَ يتحمَّلُ المشاقَّ ويتكلَّفُ فراقَ المحبوباتِ ويظهرُ ذلكَ في حركاتِهِ، وإنَّمَا يمنعُهُ منَ التَّسخُّطِ أوْ تركِ ما هوَ فيهِ خوفُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والنَّارِ، بخلافِ الصَّابرِ، فإنَّهُ قد زالَتْ عنهُ الكُلَفُ[٨] وتعوَّدَ حملَ المصبورِ عليهِ، فلم يبقَ مِنْ تحمُّلِ الصَّبرِ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٦٩.

(٣) علىٰ معنىٰ: دوام مراقبة الله في حقه علىٰ العبد. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٥٠.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٢.

(٥) أي: الجنيد.

(٦) في (ب): «قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقيل: فقال»، والصواب المثبت. وورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٥٠، وسراج الملوك ص٩٨، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥.

(٧) فالفرق بين الصبر والتصبر؛ أن الأول خُلُقٌ، والثاني تخلُّقٌ بتكلف. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٥٠.

(٨) أي: المشاق.

عليهِ مشقَّةٌ[١]، كمَا قيلَ[٢]:

صَابَرَ الصَّبْرَ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْـ ـرُ، فَصَاحَ المُحِبُّ بِالصَّبْرِ صَبْرَا

وهذَا لكمالِ خفَّةِ تحمُّلِهِ لشديدِ ما يصبرُ عليهِ، ولذلِكَ قالَ الجُنيدُ: «**تجرُّعُ المَرارةِ منْ غيرِ تعبيسٍ**»، فشبَّهَهُ بشُربِ الشَّيءِ المُرِّ، ولا يظهرُ في الوجهِ تَقْطِيبٌ[٣] ولا كَرَاهةٌ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **الصَّبْرُ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ العبدَ إذا قُطعَ رأسُهُ هلكَ، **فهذَا وجهٌ**.

والوجهُ الثَّاني: أنَّ أكثرَ منافعِ العبدِ في رأسِهِ؛ منْ فمِهِ ولسانِهِ وعينَيهِ وأُذُنَيهِ ومَشَامِّهِ، فكمَا أنَّ الصَّبرَ إذا فقدَهُ العبدُ من دينِهِ لَمْ يقُمْ شيءٌ منهُ وهلكَ دينُهُ[٦]، وكذلِكَ إذا حصلَ لهُ الصَّبرُ الَّذِي هوَ [٢/٧٢ب] بمنزلةِ رأسِهِ حصلَتْ لهُ جميعُ المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[٧].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٦٩.

(٢) من الخفيف، ونسب لذي النون المصري في: تفسير السلمي ٢/١٩٤، وتاريخ دمشق ١٧/٤٣٤، وورد بلا نسبة في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٤، وسراج الملوك ص١٠١، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٣، وروح المعاني ٧/٧١.

(٣) في (ب): تقطب. والقصد: ظهور العُبوس عليه.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٢.

(٥) رواه عنه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/١٧٢، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/٥١٠، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ص٥٦.

(٦) سقط من هنا في (ب) إلى قوله: «وهلك دينه».

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٦٩.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «قَالَ أَبُو القَاسِمِ الحَكِيمُ[(٢)]: قَوْلُهُ - تعالىٰ -: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ [النحل: ١٢٧] أَمْرٌ بِالعِبَادَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ عُبُودِيَّةٌ، فَمَنْ تَرَقَّىٰ مِنْ دَرَجَةِ (لَكَ) إِلَىٰ دَرَجَةِ (بِكَ)[(٣)] فَقَدِ انْتَقَلَ مِنْ دَرَجَةِ العِبَادَةِ[(٤)] إِلَىٰ دَرَجَةِ العُبُودِيَّةِ[(٥)]؛ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)]: «بِكَ أَحْيَا، وَبِكَ أَمُوتُ»».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي أشارَ إليهِ هوَ الَّذِي تضمنتْهُ الفاتحةُ الَّتِي هيَ أشرفُ سُورِ القُرآنِ، وهوَ قولُهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فَـ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ عبادةٌ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تبرؤٌ منَ الحَوْلِ والقُوَّةِ وسُؤالُ العَونِ منهُ.

وكذلِكَ قولُهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أمرٌ منهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالصَّبرِ، وقولُهُ: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إعلامٌ لهُ بأنَّهُ لا يقدرُ علىٰ القيامِ بالصَّبرِ بنفسِهِ، فليستغْنِ بربِّهِ فيهِ، وسمَّىٰ[(٧)] الأوَّلَ عبادةً؛ يعنِي طلبَ العبادةِ، والثَّانِي عبوديَّةً، أيْ: تذلُّلُ العبيدِ وافتقارُهُمْ لِمَوالِيهِمْ في جَمِيعِ ما هُمْ فيهِ، وإعلامٌ لهُمْ أنَّهُمْ لا يقدرُونَ علىٰ شَيءٍ من عبادةِ مَولاهُمْ إلَّا بهِ، ولذلِكَ ذَيَّلَهُ بقولِ سيِّدِ العربِ والعجمِ وأفضلِ بنِي آدمَ[(٨)]: «بِكَ أُحَاوِلُ[(٩)]، وَبِكَ أُقَاتِلُ».. الحديث.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.
(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٧٩، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٤.
(٣) في نحو قولك: أصلِّي لك، أو أصلِّي بك.
(٤) أي: فعل الطاعات علىٰ جهة التكلف.
(٥) التي هي الاعتراف بالعجز والتبري من الحول والقوة. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٥٠.
(٦) أخرجه الطبراني في الدعاء ص١١٢.
(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٨) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٥/٣٧٤، والدارمي في سننه ٢/٢٨٥، والطبراني في المعجم الكبير ٨/٤٠.
(٩) في (أ): أجادل، والمثبت موافق للفظ الحديث.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبَّاسًا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ يقولُ[(٢)]: سَأَلْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ عَنِ الصَّبْرِ، فَقَالَ[(٣)]: وَاللهِ مَا نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا نُحِبُّ، فَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا نَكْرَهُ؟!».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إشارةٌ إلىٰ أنَّ العبدَ لا قُدْرَةَ لهُ علىٰ صَبْرٍ بنفسِهِ إنْ لم يمدَّهُ ربُّهُ بعونِهِ؛ وذلِكَ أنَّ العبدَ لوْ كلِّفَ الدَّوامَ علىٰ أكْلِ أفضلِ الأطعمةِ وألذِّهَا وقيلَ لهُ: لا تأكُلْ سواهَا؛ لنفرَ مِنْ ذلِكَ وتألَّمَ، فكيفَ إذا قيلَ لهُ: لا بُدَّ لكَ[(٥)] منَ القيامِ بما يخالفُ هواكَ، والبعدِ عنْ شهواتِكَ موافقةً لأمْرِ مولاكَ! فلَا قدرةَ لهُ علىٰ ذلكَ إلَّا بعونِ الَّذِي أمرَهُ بهِ، فلذلِكَ قالَ أبُو سليمانَ الدَّارانيُّ لمَّا سألَهُ تلميذُهُ أحمدُ عنِ الصَّبرِ، قالَ لهُ[(٦)]: «**واللهِ ما نَصْبِرُ علىٰ ما نُحِبُّ، فكيفَ نَصْبِرُ علىٰ مَا نكْرَهُ؟!**».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ[(٨)]: الصَّبْرُ: التَّبَاعُدُ عَنِ المُخَالَفَاتِ، وَالسُّكُونُ عِنْدَ تَجَرُّعِ غُصَصِ البَلِيَّةِ، وَإِظْهَارُ الغِنَىٰ مَعَ حُلُولِ الفَقْرِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٢) في (ب): قال، والصواب المثبت، والقصد: تلميذه أحمد بن أبي الحواري.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٣٤/١٥٠، وتهذيب الأسرار ص١٢٤، وإحياء علوم الدين ٤/٧٢، وقناطر الخيرات ٣/٢٤٥، وإتحاف السادة المتقين ١١/٥٢.

(٤) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «إن العبد لو كلف».

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٨) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٥٨، وعدة الصابرين ص٨، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٤. وروي عنه في شعب الإيمان ٧/٢١٢، بلفظ: «سمعت ذا النون يقول: أفضل الصبر الصبر علىٰ المخالفات».

بِسَاحَاتِ المَعِيشَةِ» [٢/١٧٣أ].

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **ومَا ذكرَهُ من أدلَّةِ الصَّبرِ وعلاماتِهِ**؛ فقولُهُ: «**التَّبَاعُدُ عَنِ المُخَالَفَاتِ**» يشملُ المحرَّماتِ والواجِبَاتِ، فكلُّ مَنْ هَربَ مِنِ ارتكابِ المحرَّماتِ ومنَ الإخلالِ(١) بالواجباتِ وإنْ كانَ فيهَا مشقَّاتٌ، فدلَّ ذلكَ علىٰ كَمَالِ صَبْرِهِ.

وقولُهُ: «**السُّكُونُ عِنْدَ تَجَرُّعِ غُصَصِ البَلِيَّةِ**»، يعنِي: عندَ نُزُولِ الآلامِ والأسقامِ، وذِهَابِ الولدِ والمالِ وغيرِ ذلكَ من أنواعِ الآلامِ، الَّتِي تُجريهَا الأقدارُ في سائرِ الأيَّامِ، وقدْ مرَّ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخبرِ الصَّحيحِ علىٰ امرأةٍ تبكِي علىٰ صبيٍّ لهَا، فقالَ لهَا: «**اصبرِي واحتسبِي يا أمَةَ اللهِ، فقالَتْ: ومَا تُبالِي أنتَ بمصيبتِي**»، أيْ: أنَا صاحبةُ(٢) المصيبةِ، فأعرَضَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهَا وتركَهَا، فقِيلَ لهَا: هذَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذَهَا مثلُ الموتِ لمَّا تكلَّمَتْ، فأتَتِ(٣) النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلمْ تجدْ علىٰ بابِهِ بوَّابينَ، فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ قدْ صبرتُ، فقالَ لهَا(٤): «**إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ**»، وفِي بعضِ طُرُقِهِ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ**».

وأمَّا مَنْ تمكَّنَ صبرُهُ فمثلُ مَا حُكِيَ(٥) أنَّ أمَّ سليمٍ ـ وهيَ الرُّمَيصَاءُ الصَّحابيَّةُ(٦) ـ كانَ لهَا ولدٌ فمرضَ مرضًا شديدًا، فلمَّا كانَ فِي بعضِ الأيَّامِ تُوفِّيَ

---

(١) في (ب): الأخلاق، وهو تحريف.

(٢) في (ب): صاحب، والصواب المثبت.

(٣) في (ب): فأتيت.

(٤) سبق تخرجه في أول هذا الباب.

(٥) أخرجه بنحوه ابن حبان في صحيحه ١٦/١٥٥، وأحمد في مسنده ٣/١٨١، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/١٩٨.

(٦) كما في: الإصابة في تمييز الصحابة ٧/٦٥٦، وصفة الصفوة ٢/٦٥.

ووالدُهُ غائبٌ، فجعلَتْهُ في مخدعِ البيتِ(١) وسجَّتْهُ بثوبٍ، يعنِي: في زاويةٍ وغطَّتْهُ، فلمَّا جاءَ والدُهُ وسألَهَا عنهُ فقالَتْ: بألفِ نعمةٍ، وصدَقَتْ فإنَّهُ قدِ استراحَ من ألَمِ المرضِ وهوَ صغيرٌ لا إثمَ عليهِ يخشَاهُ في الآخرةِ، وقدَّمَتْ إلىٰ زوجِهَا إفطارَهُ فأفطرَ وبسطتْهُ حتَّىٰ نالَ منهَا ما ينالُ الرَّجلُ منِ امرأتِهِ، فلمَّا كانَ في آخرِ اللَّيلِ قالَتْ لهُ: يا أبَا فلانٍ، أرأيتَ جيرانًا لنَا استعارُوا عاريةً وانتفعُوا بهَا مدَّةً، فلمَّا طلبَهَا أربابُهَا شقَّ عليهِمْ، قالَ: بئسَ ما صنعُوا، ثمَّ قالَتْ لهُ: إنَّ ولدَنَا كانَ عندنَا عاريةً، ومتَّعنَا اللهُ بهِ مدَّةً، ثمَّ قبضَهُ إليهِ، قالَ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعُونَ، تركتِينِي حتَّىٰ فعلتُ ما فعلتُ ثمَّ أخبرتِينِي، فلمَّا أصبحَ غدَا إلَىٰ(٢) النَّبيِّ ﷺ، فلمَّا رآهُ النَّبيُّ ﷺ قالَ لهُ: «**بارَكَ اللهُ لكمَا في ليلتِكُمَا**»، فحملَتْ بعبدِ اللهِ وكانَ من أصلحِ النَّاسِ، فهذا حالُ مَنْ تمكَّنَ في صبرِهِ حتَّىٰ انتفعَ بهِ غيرُهُ ولحقتْهُ بركتُهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ(٤): الصَّبْرُ** [٢/٧٣ب]**: الوُقُوفُ مَعَ البَلَاءِ بِحُسْنِ الأَدَبِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيْ: لا يجزعُ ولا يتسخَّطُ، فإنْ كمُلَ لَمْ(٥) يتصبَّرْ ويكونُ صابِرًا، وإنْ بلغَ إلىٰ أعلىٰ مقاماتِ الصَّبرِ نالَ مقامَ الرِّضا(٦).

---

(١) الذي يحرَّز فيه الشيء.

(٢) في (أ، ب): علىٰ، والأصح المثبت

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٤) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٢٠٨، وشرح النووي علىٰ صحيح مسلم ٣/١٠٢، وورد بلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/١٥٨، وعدة الصابرين ص٨، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٤.

(٥) في (ب): له، والصواب المثبت.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: هُوَ[٣] الفَنَاءُ فِي البَلْوَىٰ[٤]، بِلَا ظُهُورِ شَكْوَىٰ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قريبٌ من كلامِ الجُنيدِ في قولِهِ[٥]: «تجرُّعُ المَرَارةِ مِنْ غيرِ تَعْبِيسٍ»؛ لأنَّ هذا قالَ: «مِنْ غيرِ شَكْوَىٰ»، والشَّكوَىٰ: إظهارُ لمَا فيهِ باللِّسانِ، وكتمُ التَّعبيسِ كتمٌ للصَّبرِ حتَّىٰ بقرائنِ الأحوالِ، ويمتازُ هذا عن كلامِ الجُنيدِ بقولِهِ: «الفَناءُ»، فإنَّهُ يدلُّ علىٰ شدَّةِ البلاءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[٧]: الصَّبَّارُ[٨]: الَّذِي عَوَّدَ نَفْسَهُ الهُجُومَ عَلَىٰ المَكَارِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّهُ متصبِّرٌ وصابرٌ وصبَّارٌ؛ فالمتصبِّرُ إذا نزلَتْ بهِ النَّازلةُ تكلَّفَ الحملَ لهَا، وتألَّمَ وقاسَىٰ المشقَّةَ العظيمةَ.

والصَّابرُ إذا نزلَ بهِ البلاءُ تلقَّاهُ بدونِ تلكَ المشقَّةِ وإنْ وجدَ ألمًا وإنْ خفَّ عليهِ الألمُ؛ إمَّا لاختيارِ المبتلِي لهُ منَ القضاءِ أوْ لمَا يرجوهُ منَ الجزاءِ.

وأمَّا الصَّبَّارُ فمبالغةٌ، ولهذَا قالَ: «يتهجَّمُ علَىٰ تحمُّلِ كُلِّ مَكْرُوهٍ» إذا كانَ محبوبًا لمَولَاهُ، فمَنْ تكلَّفَ[٩] العباداتِ الشَّاقَّاتِ؛ كالحجِّ والجهادِ، وبذلَ الكثيرَ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.
(٢) ورد في: الغنية للجيلاني ص٣٢٨، ومدارج السالكين ٢/١٥٨، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٨.
(٣) أي: الصبر.
(٤) في (ب): «الفناء في حب البلوىٰ». والقصد: الاستهلاك فيها مع قوة شدائدها بلا ظهور شكوىٰ.
(٥) مر تخريجه قريبًا.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.
(٧) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٣٤، ومدارج السالكين ٢/١٥٨، وعدة الصابرين ص٩.
(٨) في (ب): الصابر، والصواب المثبت. والقصد: بخلاف المتصبر والصابر.
(٩) في (أ): يتكلف.

منَ المَالِ المحبوبِ عندَ أكثرِ العلماءِ، وكذلِكَ إقامةُ الصَّلاةِ، والصِّيامُ، والقيامُ للهِ بهَا والنَّاسُ نِيَامٌ، فيحسنُ أنْ يسمَّىٰ صَبَّارًا[(١)]؛ لأنَّهُ يتهجَّمُ علىٰ كلِّ مشقَّةٍ بلا كُلْفةٍ، ويجدُ اللَّذَّةَ فيهَا فضْلًا عنِ المَرَارةِ والمَشَقَّةِ[(٢)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقِيلَ[(٤)]: الصَّبْرُ المَقَامُ[(٥)] مَعَ البَلَاءِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ كَالمُقَامِ[(٦)] مَعَ العَافِيَةِ»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **ومُرَادُهُ**: أنَّ الحالةَ الَّتِي يكونُ فيهَا طيِّبَ العيشِ رخِيَّ البالِ إذا توالَتْ عليهِ الأرزاقُ والعَوَافِي فِي بَدَنِهِ وَمَالِهِ وولَدِهِ، فإذَا قَارَنَهُ[(٧)] أضدَّادُ ما ذكرْنَا منَ البلايَا كانَتْ حالُهُ سَواءً، فيستوِي حالُهُ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ والعافيةِ والبلاءِ.

وهذا قَدْ يستبعدُهُ أربابُ العادةِ حتَّىٰ يحيلُوا[(٨)] وقوعَهُ وذلِكَ استبعادٌ محضٌ، بلْ غفلةٌ عمَّا يجرِي للعبدِ نفسِهِ في بعضِ أحوالِهِ، إذَا لاحَ لهُ مسرورٌ[(٩)] وحجزَهُ عنهُ مَكْرُوهٌ، وقوِيَ أحدُ المعنيينِ علىٰ الثَّانِي، وربَّمَا لمْ يجدْ للضَّعيفِ منهُمَا أثرًا؛ ومثالُهُ أنَّ العبدَ قدْ يكونُ ضعيفَ القُوَىٰ، عاجزًا علىٰ المشْيِ لبعضِ [٢/٧٤أ]

---

(١) في (ب): صابرًا، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٠.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٤) ورد في: تفسير السلمي ٢/١١٩، وتهذيب الأسرار ص١٢٥، ومدارج السالكين ٢/١٥٨، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٨، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٤.

(٥) أي: القيام.

(٦) أي: الإقامة.

(٧) في (ب): قام، والصواب المثبت.

(٨) في (أ): يحيلون، والصواب المثبت.

(٩) في (ب): سرور.

المواضعِ القريبةِ من موضعِهِ لبعضِ حوائجِهِ في الدُّنيا، فإذا اختُبِرَ بأمْرٍ مهمٍ وَرَدَ يحتاجُ إلىٰ لُقياهُ، أوْ تَلَفٍ يحتاجُ إلىٰ تدارُكِه، قلَّ قُوَاهُ، ظهرَ[١] منهُ مِنَ الحركةِ والنَّشاطِ، وزوالِ ما كانَ يجدُهُ مِنَ الألمِ مِنَ الحركةِ لكمالِ الجدِّ في تحصيلِ مطلوبِهِ والانبساطِ.

فهكَذَا[٢] حالُ مَنْ قوِيَ صبرُهُ لِكَمالِ مَعْرِفَتِه واختيارِ مَوْلاهُ لهُ، أوْ بكثرةِ إفضَالِهِ عليهِ وإكرامِهِ بسببِ صبْرِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[٤]: أَحْسَنُ الجَزَاءِ عَلَىٰ عِبَادَةٍ: الجَزَاءُ عَلَىٰ الصَّبْرِ، وَلَا جَزَاءَ فَوْقَهُ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]».**

❋ **قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** والمفهومُ مِنْ هذِهِ الآيةِ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يُجازِي الصَّابرَ بأحسنَ مِنْ عملِهِ، ومَنْ عمِلَ حسنةً جُوزِيَ بعشرٍ، فقدْ جُوزِيَ بأحسنَ مِنْ عملِهِ، فكيفَ بسبعمائةٍ، وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] أعمُّ فيمَا تضمَّنَتْهُ مِنَ الآيةِ الَّتِي ذكرَهَا، وهذَا الجزاءُ أحسنُ ممَّا هو بالحَسَنَاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ[٦]: الصَّبْرُ: هُوَ الثَّبَاتُ مَعَ اللهِ، وَتَلَقِّي بَلَائِهِ بِالرَّحْبِ وَالدَّعَةِ».**

---

(١) جواب الشرط لـ (إذا).

(٢) في (ب): وهذا.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٤) ورد قوله بنحوه في: تهذيب الأسرار ص١٢٥.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٦) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٢٨، ومدارج السالكين ٢/١٥٨، وغنية الصابرين ص٩.

❊ قالَ الشّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مختصٌّ بالصَّبرِ عَنِ النَّوازلِ الَّتِي تطرقُ العبدَ في ليلِهِ ونهارِهِ باختلافِ أحوالِهِ، وقدْ يدخلُ فيهِ ما يتجدَّدُ منَ الواجباتِ مِنْ تغيُّرِ المنكراتِ والقيامِ بحقوقِ الأبناءِ والأهلِ منَ القراباتِ، فحقُّهُ أنْ يقومَ بذلِكَ بسهولةٍ وامتثالٍ لمالِكِ الأرضِ والسَّماواتِ.

❁ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقالَ الخَوَّاصُ[2]: الصَّبْرُ الثَّباتُ عَلَى أَحْكامِ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ».

❊ قالَ الشّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا عامٌّ في كلِّ مصبورٍ عليهِ؛ واجبًا كانَ أوْ مندوبًا، أوْ مصبورٍ عنهُ؛ محرَّمًا كانَ أو مكروهًا، أوْ ما ينزلُ بِهِ القضاءُ ممَّا يخالفُ الأهواءَ، فإنَّ الكتابَ العزيزَ تضمَّنَ الصَّبرَ عليهِ ومدحَ فاعلَهُ والمتخلِّقَ بهِ، فكلامُهُ عامٌّ شاملٌ لسائرِ ما يتعلَّقُ بهِ الصَّبْرُ.

❁ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقالَ يَحْيَى بْنُ مُعاذٍ[4]: صَبْرُ المُحِبِّينَ أَشَدُّ مِنْ صَبْرِ الزّاهِدِينَ، وَا عَجَبًا كَيْفَ يَصْبِرُونَ؟!.

وَأَنْشَدُوا[5]:

الصَّبْرُ يُحْمَدُ[6] فِي المَواطِنِ كُلِّها ❁ إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لا يُحْمَدُ» [٢/٧٤ب].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٢٥.

(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣.

(٤) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٢٨، ومدارج السالكين ٢/١٥٨.

(٥) من الكامل، ونسب للعتبي في: المستطرف ٢/٣٩٨، والعقد الفريد ٣/٢٢٤، والوافي بالوفيات ٤/٥، وتاريخ الإسلام ١٦/٣٦٨، وللعرزمي في: الدر الفريد وبيت القصيد ٤/١١٣، وبلا نسبة في: وفيات الأعيان ٤/٣٩٩.

(٦) في (أ، ب، ف): يحمل، وكذا اللفظ الذي يليه، والصواب المثبت.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ لأنَّ الصَّبرَ يكونُ للهِ ، وباللهِ ، وعلىٰ فعْلِ اللهِ ، وهذَا كلُّهُ محمودٌ ، والصَّبرُ عنِ اللهِ مذمومٌ ، فإنَّ الصَّبرَ عنِ اللهِ دليلٌ علىٰ قلَّةِ الرغبةِ في قُرْبِهِ وامتثالِ أمْرِهِ وتجنُّبِ نَهْيِهِ ، والتَّذلُّلِ لهُ ببدنِهِ وقلبِهِ ، فإذا صبرَ عنْ هذَا وعنْ طلبِ الحقِّ بهِ فهوَ بعيدٌ عنِ الحقِّ ـ سبحانه ـ .

وصبرُ المُحبِّينَ عنِ اللهِ محالٌ ؛ لأنَّهُ يناقضُ المَحبَّةَ ، فهوَ أشقُّ عليهِم إنْ جَرىٰ بهِ القَدَرُ ، فإنَّهُ يُهْلِكُهُمْ لمَا هُمْ فيهِ مِنْ تَحمُّلِ الضَّررِ[١] .

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ رُوَيْمٌ[٣]: الصَّبْرُ تَرْكُ الشَّكْوَىٰ» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا منْ علاماتِ الصَّبرِ[٤] ، فإنَّ مَنْ كمُلَ صَبْرُهُ لا ينطقُ بحالِهِ لسَانُهُ ، والشَّكوَىٰ تنقسمُ قِسْمَينِ ؛ فإنْ أرادَ تركَ الشَّكوَىٰ لغيرِهِ مِنْ أبناءِ جِنْسِهِ فَقَريبٌ ، وإنْ أرادَ الشَّكوَىٰ لِمَولَاهُ فإنَّهُ بِعَينِهِ يَرَاهُ ، وهوَ الَّذِي خلقَ لهُ ما هوَ فيهِ مِنَ البلاءِ وعليهِ أجرَاهُ ، فإنْ أرادَ رُوَيمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ هذَا النَّوعَ مِنْ ترْكِ الشَّكوَىٰ ، فهوَ كاملٌ في درجاتِ أهلِ البلوَىٰ .

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٦]: هُوَ الاِسْتِعَانَةُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ» .

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧١ ـ ٥٧٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٣ .

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٢٨ ، وطبقات الصوفية ص١٥٠ ، وتاريخ بغداد ٨/٤٣٠ ، وحلية الأولياء ١٠/٣٠١ ، وشعب الإيمان ٧/٢٢٠ ، وتهذيب الأسرار ص١٢٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٣٥ .

(٤) لا نفسه .

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٢٤ .

(٦) ورد قوله في: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٥٨ ، وتفسير القرطبي ٢/١٧٤ ، ومدارج السالكين ٢/١٥٨ ، وسراج الطالبين ٢/٥١ .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكأنَّ مقصودَهُ مَنْ أرادَ أنْ يَتِمَّ لهُ الصَّبرُ وينالَ كمالَهُ فليستعِنْ باللهِ عليهِ، فإنَّ أهلَ الصَّبرِ منقسمةٌ أحوالُهُمْ، فصابرٌ متحمِّلٌ بنفسِهِ برجاءِ الثَّوابِ[١]، وصابرٌ متبرِّيءٌ مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ[٢] مستعينٌ بربِّ الأَرْبَابِ، وبينَهُمَا بونٌ في حصولِ المطلوبِ والجَرْيِ على وَجْهِ الصَّوَابِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: سَمِعْتُ الشَّيْخَ الأُسْتَاذَ أَبَا عليٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٤]: الصَّبْرُ كَاسْمِهِ.

أَنْشَدَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ؛ قَالَ: أَنْشَدَنِي ابْنُ عَطَاءٍ لِنَفْسِهِ[٥]:

سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضَى وَأَتْلَفُ حَسْرَةً ❁ وَحَسْبِيَ أَنْ تَرْضَى وَيُتْلِفَنِي صَبْرِي».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُ أَبِي عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّبْرُ كاسمِهِ» يعنِي: في المرارةِ والمشقَّةِ وشدَّةِ المُعَاناةِ في التَّداوِي، وكذلِكَ الصَّبرُ فيهِ مشقَّةٌ وبهِ كمالُ العافيةِ.

وبهذَا الاعتبارِ طابقهُ[٦] الشِّعرُ الَّذِي سمِعَهُ مِنَ السُّلميِّ؛ وهوَ قولُهُ:

سَأَصْبِرُ كَيْ تَرْضَى وَأَتْلَفُ حَسْرَةً ❁ وَحَسْبِيَ أَنْ تَرْضَى وَيُتْلِفَنِي صَبْرِي [٢/١٧٥أ]

---

(١) ثقة بوعد الكريم.

(٢) أي: بفنائه واستغراقه في ذات المبتلي، وهو من منازل العارفين الخواص. انظر: نتائج الأفكار ١٥٣/٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٢٤/١.

(٤) نسب إليه في: إتحاف السادة المتقين ٨٥/١١، ونسب لأنوشروان في: محاضرات الأدباء ٥٢٥/٢.

(٥) من الطويل، وورد في: منازل السائرين ص٧٧، ومدارج السالكين ١٥٨/٢، وإتحاف السادة المتقين ٨٤/١١.

(٦) في (ب): طائفة، والصواب المثبت.

فمعنَاهُ: أنَّ مقصودِي رِضَاكَ وإنْ كانَ فيهِ تلَفِي ممَّا أُقاسيهِ، ويكفِينِي حصولُ رضاكَ وإنْ كانَ صبرِي عنكَ يتلفُنِي، وذلِكَ أنَّ العبدَ قَدْ يُرْدِيهِ مَولَاهُ، ويزيلُهُ عن مقامِهِ الَّذِي قرَّبَهُ إليهِ ووالَاهُ، وتنعَّمَ بأُنْسِهِ فيهِ ونجوَاهُ، وأبعَدَهُ عنهُ لمَا اختارَهُ لهُ وارتضَاهُ، فإذَا كانَ العبدُ مُتأدِّبًا في صَبْرِهِ معَ مولَاهُ، جرَىٰ علىٰ قلبِهِ مَا تضمَّنَهُ الشِّعرُ مِن اختيارِ تَلَفِهِ إذا كانَ فيهِ رِضَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ**[(٢)]: **الصَّبْرُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: مُتَصَبِّرٌ، وَصَابِرٌ، وَصَبَّارٌ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقَدْ تقدَّمَ الكلامُ عليهِ[(٣)] وأنَّ «صبَّارًا» مبالغةٌ في درجاتِ الصَّبرِ، وبالإضافةِ إلىٰ المصبورِ عليهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: **الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو**[(٦)]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ صحيحٌ، ويعضِّدُهُ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٧)]: «مَنْ تَأَنَّىٰ أَصَابَ أَو كَادَ»، ولا يمكنُهُ التَّأنِّي وتركُ العجَلَةِ إلَّا بالصَّبرِ، فَمَنْ جعلَ الصَّبرَ مطيَّتَهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٤.

(٢) نسب للحسن بن سالم في: نظم الدرر ١٠/٣٨١، وأتبعه بتفسير فقال: «فالمتصبر: من صبر في الله، فمرة يصبر ومرة يجزع، والصابر: من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولكن يتوقع منه الشكوىٰ، وقد يمكن منه الجزع، فأما الصبَّار: فذلك الذي صبّره الله في الله ولله وبالله».

(٣) الدلالة ٢/٥٨٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٤.

(٥) ورد قوله في: أدب الدنيا والدين ص٢٨٧، والمستطرف ٢/١٤٤، ومحاضرات الأدباء ٢/٥٢٤، ومدارج السالكين ٢/١٥٨، وشرح نهج البلاغة ٦/١١٨.

(٦) أي: مركب لا يخيب راكبه.

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٧/٣١٠، والأوسط ٣/٢٥٩، والقضاعي في مسند الشهاب ١/٢٣٢.

استقامَ في سَيرِهِ، وبَعُدَ خطَأهُ في علمِهِ وعملِهِ[١].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ بْنِ فورك يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ اللهِ البَصْرِيَّ يَقُولُ[٣]: وَقَفَ رَجُلٌ عَلَى الشِّبْلِيِّ فَقَالَ: أَيُّ صَبْرٍ أَشَدُّ عَلَى الصَّابِرِينَ[٤]؟ فَقَالَ: الصَّبْرُ فِي اللهِ ـ تعالى ـ، فَقَالَ: لَا، قَالَ: الصَّبْرُ للهِ، قَالَ: لَا، قَالَ: الصَّبْرُ مَعَ اللهِ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَيش الصَّبْرُ؟ قَالَ: الصَّبْرُ عَنِ اللهِ ـ تعالى ـ، فَصَرَخَ الشِّبْلِيُّ صَرْخَةً كَادَتْ رُوحُهُ أَنْ تَتْلَفَ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ الصَّبْرَ للهِ أوَّلُ درجةٍ؛ وهوَ القيامُ بالواجباتِ والانكفافُ عنِ المحرَّماتِ، وفوقَهُ الصَّبرُ في اللهِ؛ وهوَ الصَّبرُ فِي تغيُّرِ الأخلاقِ المذمومةِ والاتِّصافِ بالأخلاقِ المحمودةِ، والاشتغالِ بأنواعِ الطَّاعاتِ المندوباتِ سلوكًا إلى اللهِ ـ تعالى ـ، وأرفعُ منهُ الصَّبرُ باللهِ؛ وهوَ الإيثَارُ[٥] بمَا ذكرْناهُ؛ منَ الانتقالِ عنِ الأخلاقِ المَذمُومَةِ، والتَّخلُّقِ بالأخلاقِ المَحْمُودةِ، والاشتغالِ بأرفعِ المَنْدُوباتِ، يفعلُ ذلكَ باللهِ مُتبَرِّئًا مِنْ حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، مُضِيفًا ذلكَ إلى القادرِ عليهِ وفاعلِهِ.

وفَوقَهُ الصَّبرُ معَ اللهِ؛ وهوَ الصَّبرُ على مَا يردُ على قلبِهِ منَ اللهِ باختلافِ الأحوالِ والمواردِ والأحكامِ [٢/٧٥ب]، وهوَ متأدِّبٌ معَ اللهِ في حملِ ما يردُ منهُ، راضٍ بذلِكَ[٦] فَرِحٌ بهِ، فلمَّا قالَ لهُ: «**ومَا بعدَ ذلكَ منَ الصَّبرِ أشدُّ؟ قالَ: الصَّبرُ**

---

(١) وقرب من فعل الصواب، وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٧٣/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٤/١.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦١/٦٦، وإحياء علوم الدين ٨٠/٤، والمختار من مناقب الأخيار ٤٦٧/١، ومدارج السالكين ١٥٩/٢، وروضة المحبين ص٤٣٦.

(٤) في (ب): العابدين.

(٥) في (ب): الإتيان.

(٦) أي: بالفناء عن مراده في مراد ربه.

عنِ اللهِ» ؛ وهوَ أنْ يُبْعِدَ اللهُ العبدَ عنهُ بعدَ تَقْرِيبِهِ إليهِ ويُلازمُ البَابَ ، ويتمرَّغُ في التُّرابِ ، فلمَّا سَمِعَ الشِّبْلِيُّ: «الصَّبرَ عنِ اللهِ» فلمْ يَتحمَّلْ قلبُهُ البُعدَ ولا سَمَاعَ ذِكْرِهِ ، فَصَاحَ صَيْحَةً كَادَ أنْ يَمُوتَ[1].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الجَرِيرِيَّ يَقُولُ[3]: الصَّبْرُ: أَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ حَالِ النِّعْمَةِ وَالمِحْنَةِ ، مَعَ سُكُونِ الخَاطِرِ فِيهِمَا ، وَالتَّصَبُّرُ: هُوَ السُّكُونُ مَعَ البَلَاءِ ، مَعَ وِجْدَانِ أَثْقَالِ المِحْنَةِ.

وَأَنْشَدَ بَعْضُهُم[4]:

صَبَرْتُ وَلَمْ أُطْلِعْ هَوَاكَ عَلَىٰ صَبْرِي ❁ وَأَخْفَيْتُ مَا بِي مِنْكَ عَنْ مَوْضِعِ الصَّبْرِ
مَخَافَةَ أَنْ يَشْكُو ضَمِيرِي صَبَابَتِي ❁ إِلَىٰ دَمْعَتِي سِرًّا فَتَجْرِي وَلَا أَدْرِي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «الصَّبرُ أَلَّا تفرِّقَ بينَ حالِ النِّعمةِ والمِحْنَةِ» ، وهوَ أشقُّ ، أوْ هُمَا عندَكَ بالنَّظرِ[5] لاختيارِ اللهِ لكَ ؛ لأنَّكَ لا تدرِي أيَّ الحالَينِ أصلحُ لكَ في دينِكَ ، والَّذِي أجرَاهُ عليكَ أعلَمُ بمَا يصلحُكَ كمَا جاءَ في الخبرِ[6]: «إِنَّ مِنَ المُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الفَقْرُ ، وَلَوْ دَخَلَ عَلَيْهِ الغِنَىٰ لَأَفْسَدَ إِيْمَانَهُ» ، وكذلِكَ الصِّحَّةُ والمرضُ.. الحديث.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٣.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٤.
(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥١٣ ، ومدارج السالكين ٢/١٥٩ ، وطبقات الأولياء ص٧٥.
(٤) من الطويل ، للمرتعش في: تهذيب الأسرار ص١٢٦ ، ومناقب الأبرار ٢/٥١٣ ، والدر الفريد وبيت القصيد ٧/٦٨ ، وبلا نسبة في: تفسير السلمي ٢/٤١٩ ، ونشر المحاسن الغالية ص١٥٧.
(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٦) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول ٢/٢٣٢ ، وأبو نعيم في الحلية ٨/٣١٩ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/٩٦.

فإذَا تقرَّرَ هذا المعنَىٰ في نفسِ المؤمنِ الصَّابرِ للهِ لمْ يتغيَّرْ حالُهُ في ذلِكَ نظرًا إلىٰ ما يختارُهُ اللهُ لهُ، وإنْ كانَ يجدُ ألمًا معَ البلاءِ وراحةً معَ العافيةِ فهوَ لا يُفرِّقُ منْ وجهٍ ويُفرِّقُ من وَجْهٍ.

وأمَّا الفرقُ بينَ التَّصبُّرِ والصَّابرِ؛ فالمتصبِّرُ: متكلِّفٌ متعُوبٌ في تحمُّلِ أعباءِ الصَّبرِ، وأمَّا الصَّابرُ: فقدْ زالَ عنهُ شديدُ التَّكلُّفِ، وإنْ كانَ يجدُ ألمًا إلَّا أنَّهُ بسهولةٍ يتحمَّلُه.

والبيتَانِ منَ الشِّعرِ يدلَّانِ علىٰ زيادةِ التَّحمُّلِ في أحوالِ الصَّبرِ؛ وهوَ كتمُ كونِهِ صابرًا حتَّىٰ لوْ أمكنَ كَتْمُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ لفعلَ.

فقولُهُ: «**صَبَرْتُ وَلَمْ أُطْلِعْ هَوَاكَ عَلَىٰ صَبْرِي**»، معناهُ: وإنْ كانا في القلبِ.

وقولُهُ: «**وَأَخْفَيْتُ مَا بِي مِنْكَ**»، يعنِي: منَ الهَوَىٰ «**عَنْ مَوضعِ الصَّبرِ**».

[وقولُهُ]:

«**مَخَافَـةَ أَنْ يَشْـكُو ضَـمِيرِي صَـبَابَتِي ❁ إِلَـىٰ دَمْعَتِـي سِـرًّا فتجـرِي وَلَا أَدْرِي**»

معناهُ: مخافةَ أنْ يشكُو ضميرِي ما أجدُهُ مِنْ مَحبَّتِكَ، ومَا أُقاسيهِ مِنْ صَبْرِي فِي ذَلِكَ إلىٰ دمعَتِي، فَتَجْرِي وَأنَا مَغْلُوبٌ فيَسْبِقُني البُكَاءُ قَهْرًا.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**[2]: **فَازَ الصَّابِرُونَ** [٢/١٧٦أ] **بِعِزِّ الدَّارَيْنِ؛ لِأَنَّهُمَا نَالُوا مِنَ اللهِ مَعِيَّتَهُ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾** [البقرة: ١٥٣]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المَعيَّةُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مختلفةٌ؛ لأنَّهُ منزَّهٌ عنِ القُرْبِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٥.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٥٩، وعدة الصابرين ص٣٦.

والمَكَانِ والزَّمَانِ، فَمَعيَّتُهُ معَ الكلِّ بالعلمِ والإحاطةِ، ومعَ الأولياءِ بالحفظِ والكَلَاءَةِ، ومعَ الأنبياءِ بالنَّصرِ والمَعُونَةِ، ولهذَا قالَ: «**الصَّابرون نَالُوا معيَّتَهُ**»، يعنِي: حُسْنَ جَزَائِهِ وحِفْظِهِ وَإِكْرَامِهِ، كمَا قالَ ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]: **«وَقِيلَ[(٢)] فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ـ تعالى ـ: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾** [آل عمران: ٢٠٠]**: الصَّبْرُ دُونَ المُصَابَرَةِ[(٣)]، وَالمُصَابَرَةُ دُونَ[(٤)] المُرَابَطَةِ.**

وَقِيلَ[(٥)]: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ بِنُفُوسِكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ـ تعالى ـ، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ بِقُلُوبِكُمْ عَلَى البَلْوَى فِي اللهِ، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ بِأَسْرَارِكُمْ عَلَى الشَّوْقِ إِلَى اللهِ.

وَقِيلَ[(٦)]: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ فِي اللهِ، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ بِاللهِ، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ مَعَ اللهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قالَ أهلُ التَّفسيرِ: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ علَى دينِكُمْ، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ معَ نبيِّكُم في جهادِ عدوِّكُمْ، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ الخيلَ واحبسُوهَا للجهادِ، قالَهُ الطَّبَرِيُّ[(٧)].

وقالَ الحَسَنُ[(٨)]: «أُمِرُوا أنْ يصبرُوا علَى دينِهِمْ، لا يدَعُوهُ لشدَّةٍ ولا رخاءٍ،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٥.

(٢) ورد في: مدارج السالكين ٢/١٥٩، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٣.

(٣) لأن فيها بذل النفس في مرضاة الرب.

(٤) سقط من (ب) قوله: «المصابرة، والمصابرة دون».

(٥) ورد في: مدارج السالكين ٢/١٥٩، وبصائر ذوي التمييز ٣/٣٧٩.

(٦) ورد في: إحياء علوم الدين ٤/٨٠، وبصائر ذوي التمييز ٣/٣٧٩.

(٧) تفسيره ٤/٢٢١.

(٨) ورد قوله في: تفسير ابن أبي حاتم ٣/٨٤٧، وتفسير الطبري ٤/٢٢١، والجهاد لابن المبارك ص١٣٩.

ولا سرَّاءَ ولا ضرَّاءَ، وأنْ يرابطُوا العدوَّ، ويصابرُوا المشركينَ».

وأمَّا ما ذكرَهُ مِنْ قولِهِ: «**اصبرُوا بنفوسِكُمْ على طاعةِ اللهِ، وصابرُوا بقُلُوبِكُمْ على البَلْوَىٰ في اللهِ، ورَابطُوا بأسرَارِكُمْ على الشَّوقِ إلى اللهِ**»، واختلفَتْ هذهِ الأقوالُ بالنَّظرِ لمَا يصبرُ بهِ[١]، أوْ يُصَابرُ، أوْ يُرابطُ، وهوَ مبنيٌّ على الفرقِ[٢] بينَ النَّفسِ والقلبِ والسِّرِّ، وإلَّا فالمصابرُ عليهِ والمصبورُ والمرابطُ طاعةٌ للهِ ـ تعالى ـ.

وأمَّا قولُهُ: «**اصبرُوا في اللهِ**»، يعنِي: في طاعتِهِ، «**وصابرُوا باللهِ**»، يعنِي: بعَوْنِهِ ومعونتِهِ، «**ورابطُوا معَ اللهِ**»؛ أيْ: بالأدبِ معَهُ ودوامِ تعظيمِهِ وحُرمتِهِ[٣].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقِيلَ**[٥]: **أَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالى ـ إِلَىٰ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **تَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِي، وَإِنَّ مِنْ أَخْلَاقِي أَنِّي أَنَا (الصَّبُورُ)**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ورَدَ هذا الاسمُ في (التِّرْمِذِيِّ)[٦] في الخبَرِ المُتضمِّنِ لأسمائِهِ الحُسْنَىٰ، و«صَبُورٌ» مُبالغَةٌ مثلُ: شَكُورٍ، وحَمُولٍ وزَمُولٍ، فأمرَهُ اللهُ ـ تعالى ـ أنْ يبالغَ في تحمُّلِ أنواعِ الصَّبرِ كلِّهَا، وافقَتِ الغرضَ أوْ خالفَتْ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «**وَقِيلَ**[٨]: **تجَرَّعِ الصَّبْرَ، فَإِنْ قَتلَكَ قَتلَكَ شَهِيْدًا، وَإِنْ أَحْيَاكَ أَحْيَاكَ عَزِيْزًا**».

---

(١) في (ب): يصيرونه، والصواب المثبت.
(٢) سقط (ب) قوله: «على الفرق».
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٤.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٥.
(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٤٤، وإحياء علوم الدين ٤/٦١، وربيع الأبرار ٣/١٠٤.
(٦) في سننه ٥/٥٣٠. وتأمل تفصيل القول في اسمه «الصبور» في: تفسير الأسماء والصفات للبغدادي ٢/٣٠٢، وحواشيه ـ بتحقيقي.
(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٢٥.
(٨) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٦٢، ومدارج السالكين ٢/١٦٠، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٥.

وَقِيلَ(١): الصَّبْرُ للهِ عَنَاءٌ(٢)، وَالصَّبْرُ بِاللهِ بَقَاءٌ، وَالصَّبْرُ فِي اللهِ بَلَاءٌ، وَالصَّبْرُ مَعَ اللهِ وَفَاءٌ، [٢/٧٦ب] وَالصَّبْرُ عَنِ اللهِ جَفَاءٌ.

وَأَنْشَدُوا(٣):

وَالصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عَوَاقِبُهُ ❊ وَالصَّبْرُ فِي سَائِرِ الأَشْيَاءِ مَحْمُودُ

وَأَنْشَدُوا(٤):

وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَمَّنْ حَلَّ مِنِّي ❊ بِمَنْزِلَةِ اليَمِينِ مِنَ الشِّمَالِ
إِذَا لَعِبَ الرِّجَالُ بِكُلِّ شَيءٍ ❊ رَأَيْتُ الحُبَّ يَلْعَبُ بِالرِّجَالِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «تَجَرَّعِ الصَّبْرَ» فيهِ مدحُ الصَّبرِ على الطَّاعةِ وعلى ما نزلَ بهِ القضاءُ، فإنْ ماتَ(٥) العبدُ كانَ شهيدًا؛ لكونِهِ مجاهدًا في طاعةِ اللهِ ـ تعالى ـ وسبيلِهِ، وإنْ عاشَ عاشَ سعيدًا، وقدْ صحَّ أنَّ الشَّهادةَ أنواعٌ غيرُ القتلِ في سبيلِ اللهِ(٦)؛ وهيَ كلُّهَا صبرٌ على قضاءِ اللهِ؛ منهَا: الغرقُ، والحريقُ، والرَّدمُ، والمرأةُ تموتُ بجمْعٍ(٧)، فجعلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الموتَ بهذِهِ الأسبابِ الشَّاقَّةِ شَهادةً(٨).

---

(١) ورد قوله في: وورد في: إحياء علوم الدين ٤/٨٠، ومدارج السالكين ٢/١٦٠، وعدة الصابرين ص٣٨.

(٢) في (ب): غناء، وهو تصحيف، وسقط لفظ (لله) منها.

(٣) من البسيط، ونسب للحلاج في: تاريخ بغداد وذيوله ٨/٣٧٣، وورد بلا نسبة في: إتحاف السادة المتقين ١١/٨٣.

(٤) من الوافر، وورد بلا نسبة في: المدهش ص٢٢٢، وعدة الصابرين ص٣٤.

(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٦) وهو أرفعها، ففي فتح الباري ١٠/١٨٢: «أرفع أنواع الشهادة هو القتل في سبيل الله».

(٧) مثلثة الجيم، وفي العين ١/٢٤٠: «ماتت المرأة بجُمْع، أي: مع ما في بطنها، وكذلك يقال: إذا ماتت عذراء».

(٨) ففي سنن أبي داود ٣/١٨٨: «قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الشَّهَادَةُ سَبْعٌ ـ سِوَى القَتْلِ فِي سَبِيلِ=

وقولُهُ[١]: «الصَّبرُ للهِ عناءٌ»، أي: بمشقَّةٍ وكُلْفةٍ، «وباللهِ بقاءٌ» أي: عَوْنًا منه ومُسَاعَدَةً، «وَفِي اللهِ بلاءٌ» يَعْنِي: اختبارًا وامتحانًا بمَا ينزلُ منَ القضاءِ، «ومعَ اللهِ وفاءٌ» لمَا[٢] امتحنَ بهِ، «وعنِ اللهِ جفاءٌ»، أيْ: بُعْدٌ وإعراضٌ عنهُ، ونعوذُ باللهِ من ذلِكَ[٣]، ولذلِكَ قيلَ:

وَالصَّــبْرُ عَنْــكَ فَمَــذْمُومٌ عَوَاقِبُــهُ ❁ وَالصَّــبْرُ فِــي سَــائِرِ الأَشْــيَاءِ مَحْمُــودُ

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: الصَّبْرُ عَلَى الطَّلَبِ عُنْوَانُ الظَّفَرِ، وَالصَّبْرُ فِي المِحَنِ عُنْوَانُ الفَرَجِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يعنِي: علامةَ الظَّفرِ وأمارتَهُ، والصَّبرُ على المحنِ عنوانُ الفرَجِ؛ وذلكَ أنَّ لكلِّ بلاءٍ أمدًا، وإذَا منَّ اللهُ على العبدِ بالصَّبرِ في تحمُّلِهِ خفَّ عليهِ أمْرُهُ، وخِفَّتُهُ دليلُ انقطاعِهِ، والفَرجُ منهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: «سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ خَلَفٍ المَغْرِبِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: جُرِّدَ وَاحِدٌ لِلسِّيَاطِ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَى السِّجْنِ دَعَا بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فَتفِلَ عَلَى يَدِهِ، وَأَلْقَى فِي فَمِهِ دِقَاقَ الفِضَّةِ عَلَى يَدِهِ، فَسُئِلَ فَقَالَ: كَانَ فِي فَمِي دِرْهَمَانِ وَكَانَ عَلَى حَاشِيَةِ الْحَلَقَةِ لِي عَيْنٌ، لَمْ أُرِدْ أَنْ أَصِيحَ لِرُؤْيَتِهِ إِيَّايَ، فَكُنْتُ أَعَضُّ

= الله ـ: المَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شهيدة، وكذا في: سنن النسائي الكبرى ١/٦٠٦، وسنن ابن ماجه ٢/٩٣٧.

(١) في (أ، ب): وقيل، والأصح المثبت.

(٢) في (ب): بما.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٤.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٥.

(٥) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٦٠، وإتحاف السادة المتقين ١١/٨٥.

(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٢٥.

عَلَىٰ الدِّرْهَمَيْنِ فَتَكَسَّرَا فِي فَمِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنِ استشعرَ نظرَ الحقِّ لهُ في صبْرِهِ علىٰ ما كلَّفَهُ بهِ، وتحمُّلِهِ لمَا أنزلَهُ بهِ مِنْ قَدَرِهِ أشدُّ الصَّبرِ وأقواهُ منَ الصَّبرِ علىٰ كَثْرَةِ الجزَاءِ، فإنَّ هذَا المضروبَ الَّذِي مُثِّلَ بهِ [٢/١٧٧أ] لمْ يقلْ: صَبَرْتُ وفتَّتُّ الدَّراهمَ تحتَ أسنانِي لِأُشْكَرَ ويُثْنَىٰ عليَّ، وإنَّمَا قالَ: كانَتْ لِي عينٌ ترانِي كيفَ أُضرَبُ فيهَا ولأجلِهَا! فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ أفضلَ الصَّبرِ لِرُؤيَةِ المُبْلِي، وأنَّ الصَّبرَ لكثرةِ الجزَاءِ دُونَهُ[١].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: حَالُكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا رِبَاطُكَ، وَمَا دُونَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَعْدَاؤُكَ، فَأَحْسِنِ المُرَابَطَةَ فِي رِبَاطِ حَالِكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ يرجعُ إلىٰ محافظةِ الإنسانِ علىٰ حالِهِ الَّذِي صحَّ لهُ شَرْعًا بينَهُ وبينَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فمرابطتُهُ الصَّحيحةُ حفظُهُ لهُ، والأدبُ فيهِ، والمرابطةُ تجرِي فِي كلِّ مُلازمةٍ تكونُ حراسةً في اللهِ؛ سواءٌ حرسَ العدوَّ منَ الإنسِ، أوْ منَ الجنِّ، أوْ منْ نفسِهِ وهوَاهُ، فهوَ مُرَابطٌ فِي جَمِيعِ ذلكَ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: المُصَابَرَةُ: هِيَ الصَّبْرُ عَلَىٰ الصَّبْرِ[٦]، حَتَّىٰ يُسْتَغْرَقَ الصَّبْرُ فِي الصَّبْرِ، فَيَعْجَزَ الصَّبْرُ عَنِ الصَّبْرِ، كَمَا قِيلَ[٧]:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٤.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٦.

(٣) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١١/٨٣.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٦.

(٥) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١١/٨٣.

(٦) سقط من (ب) قوله: «علىٰ الصبر».

(٧) سبق تخريجه.

صَابَرَ الصَّبْرَ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْرُ، فَصَاحَ المُحِبُّ بِالصَّبْرِ صَبْرَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ في الصَّبرِ غايتُهُ أنْ يستغرقَ جهدَهُ في الصَّبرِ، ثمَّ يرَىٰ صبرَهُ قليلًا في جنْبِ ما يليقُ بمولَاهُ في مقامِ الصَّبْرِ، ومثلُهُ ما تقدَّمَتِ[(١)] الحكايةُ فيهِ في (الحُزْنِ)[(٢)]، وذلِكَ أنَّ الحسنَ البصريَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ منَ المَحْزُونِينَ حتَّىٰ إنَّ كلَّ مَنْ رآهُ ظَنَّ أنَّهُ تَجَدَّدَتْ[(٣)] لهُ مصيبةٌ، فقالَ لأصحابِهِ يومًا[(٤)]: «قومُوا بنَا نزورُ العلاءَ بنَ زيادٍ، وكانَ العلاءُ بنُ زيادٍ منَ المحزونينَ حتَّىٰ سلَّهُ الحزنُ حتَّىٰ كانَتْ أختُهُ تَنْدفُ تحتَهُ القطنَ؛ ليمكِنَهُ الاضطجاعُ عليهِ، فلمَّا دخلَ عليهِ الحسَنُ قالَ لهُ: كيفَ أنتَ يا علاءُ؟! فقالَ: وا حُزْنَاهُ على الحزنِ، فلمَّا بلغَ منَ الحُزْنِ هذا المبلغَ العظيمَ كانَ يرَىٰ حُزْنَهُ قليلًا بالإضافةِ للمَحْزُونِ عليهِ منْ بُعْدِهِ أوْ فواتِ قُرْبِهِ، أو ما يجرِي مجرَاهُ علىٰ حسبِ مقامِهِ منْ ربِّهِ.

وعلىٰ هذَا ينزلُ القولُ في الصَّبرِ أنَّهُ صابرَ الصَّبْرَ، فلمَّا أحسَّ مِنْ صبْرِهِ بالجَزَعِ نَادَىٰ بصبْرِهِ: اصبِرْ، وهوَ معنىٰ البيتِ: «**صَابَرَ الصَّبرَ، فاستغَاثَ بهِ الصَّبْرُ**»؛ أيْ: قاوَىٰ صبْرَهُ حتَّىٰ هَمَّ بتَرْكِ الصَّبرِ لعجزِهِ عَنْ مقاواتِهِ، فصاحَ بصبْرِهِ: اصبِرْ لمحبوبِكَ علىٰ ما يُرِيدُ[(٥)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَقِيلَ[(٧)]: حُبِسَ الشِّبْلِيُّ وَقْتًا فِي (المَارِسْتَانِ)[(٨)]،**

---

(١) في (ب): تقدم.
(٢) الدلالة ٢/٢٧١.
(٣) في (ب): تجدد.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أو ذلك لاستحلائه مرارة الصبر.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٢٦.
(٧) ورد قوله في: قناطر الخيرات ٣/٢٤٧. وفيه تنبيه على أن دعوىٰ المحبة مع عدم تحمل أعبائها دعوىٰ زور وبهتان.
(٨) أي: المصحَّة أو المستشفى، ففي المصباح المنير ٢/٥٨٥: «المارستان ـ بكسر الراء معرب ـ،=

فَدَخَلَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: أَحِبَّاؤُكَ جَاؤُوكَ زَائِرِينَ، فَأَخَذَ يَرْمِيهِمْ بِالحِجَارَةِ، فَأَخَذُوا يَهْرُبُونَ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُمْ أَحْبَابِي لَصَبَرْتُمْ عَلَىٰ بَلَائِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٢/٧٧ب]: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّهُ في نفسِ ابتلائِهِ ودخولِهِ (المارِسْتَانَ) كانَ دائمَ النَّظرِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، مُستحسِنًا لمَا يجرِي عليهِ، مُمتحِنًا لهُ في دعْوَىٰ المحبَّةِ، فإنَّ أشدَّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الأولياءُ ثمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، فلمَّا دخلَ عليهِ إخوانُهُ زائرِينَ فِي (المارستَانِ) وسأَلَهُمْ: «مَنْ أنتُمْ؟ فقالُوا: أحبَّاؤُكَ جاؤُوا زائرِينَ»، فأجابَهُمْ مِنْ حالِهِ الَّذِي هوَ فيهِ، ورماهُمْ بالحجارةِ ليبْلُوَ صِدْقَ دعوَاهُمْ فِي محبَّتِهِ كمَا فعلَ بهِ، فلمَّا هربُوا قالَ لهُمْ: «لَوْ كنتُمْ أحبابِي»، يعنِي: صادِقِينَ «لصبرتُمْ علىٰ بَلْوَايَ» اعتبارًا بنفسِهِ فيمَا هوَ فيهِ منْ بلاءِ السِّجنِ في (المارستَانِ)، ونسبتهُ إلىٰ الجُنُونِ وليسَ بهِ جُنُونٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَفِي بَعْضِ الأَخْبَارِ[2]: بِعَيْنِي مَا يَتَحَمَّلُ المُتَحَمِّلُونَ مِنْ أَجْلِي.

وَقَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وَقَالَ بَعْضُهُمْ[3]: كُنْتُ بِمَكَّةَ، فَرَأَيْتُ فَقِيرًا طَافَ بِالبَيْتِ، وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ رُقْعَةً وَنَظَرَ فِيهَا وَمَرَّ، فَلَمَّا كَانَ بِالغَدِ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَتَرَقَّبْتُهُ أَيَّامًا وَهُوَ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ طَافَ وَنَظَرَ فِي الرُّقْعَةِ، وَتَبَاعَدَ قَلِيلًا، وَسَقَطَ مَيِّتًا، فَأَخْرَجْتُ

= وأصله كلمتان، ومعناه: بيت المرضىٰ».

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٦.

(٢) ورد في: حسن الظن بالله ص٩٧، وحلية الأولياء ٤/٦٠، ١٠/٨٠، وتاريخ دمشق ٥١/١٧٤، وصفة الصفوة ٤/٣٦٦، وعدة الصابرين ص٣٥.

(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص١٥٥، وإثارة الترغيب والتشويق ص١٩٣، وإتحاف السادة المتقين ١١/٥٦.

الرُّقْعَةَ مِنْ جَيْبِهِ، فَإِذَا فِيهَا: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولا تَظُنَّنَّ أنَّ هذا الفقيرَ الَّذِي كانَ يُخْرِجُ الرُّقعة وينظرُ فيهَا في الأيَّامِ ثمَّ يعيدُهَا إلى جَيْبِهِ ويصبرُ على الجوعِ ولا يسألُ حتَّى مات يكونُ متسبِّبًا في قتْلِ نفسِهِ؛ لكثرةِ الوجوهِ والمحاملِ الحسنَةِ لأهلِ الدِّينِ والفضلِ، وذلِكَ أنَّه قد يكونُ بينَهُ وبينَ اللهِ حالٌ وحسنُ معاملةٍ، فقدَ ذلِكَ مِنْ قلبِهِ، فكانَ يطوفُ حولَ البيتِ وهوَ يتضرَّعُ ويسألُ في عودِ حَالِهِ إليهِ، والقدرُ يمنعُهُ وهوَ يتسلَّى بالرُّقعةِ ففاجأَهُ حالٌ شديدٌ ماتَ منهُ.

وَجْهُ ثانٍ: أنَّهُ كانَ يرجُو مِنْ ربِّهِ شيئًا من أحوالِ الصَّالحينَ ومقاماتِهِمْ الَّتِي نالُوهَا مِنْ ربِّهِمْ، وكانَ يسألُ ويتضرَّعُ في الفتحِ عليهِ، فلمَّا فُتِحَ عليهِ بشيءٍ لمْ يتحمَّلْهُ عقلُهُ ولَا قدرَ عليهِ صبرُهُ فماتَ.

وَجْهٌ ثالثٌ: أنَّهُ كانَ جائعًا ولَمْ يحسَّ مِنْ نفسِهِ جُوعًا يفسدُ عليهِ عقلَهُ ولَا يمنعُهُ من صلاتِهِ قائمًا، بدليلِ كَوْنِهِ يَمْشِي طائفًا، فسبقَهُ أجلُهُ فمَاتَ.

ومَتَى احتملَ هَذِهِ الأوجُهَ كلَّهَا فالواجبُ حملُ فعلِ الصَّالحينَ على ما يحسنُ منَ التَّأويلِ ويناسبُ أمرَ الدِّينِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقِيلَ[2]: رُؤِيَ حَدَثٌ يَلْطُمُ وَجْهَ شَيْخٍ [٢/١٧٨أ] بنَعْلِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تَسْتَحِي تَضْرِبُ حُرَّ وَجْهِ شَيْخٍ بِمِثْلِ هَذَا؟ فَقَالَ: جُرْمُهُ عَظِيمٌ، فَقِيلَ: وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ: الشَّيْخُ يَدَّعِي أَنَّهُ يَهْوَانِي، وَمُنْذُ ثَلَاثٍ مَا رَآنِي!».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ منْ أقبحِ ما يُمَثَّلُ بهِ ويُستعمَلُ في كُتُبِ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٦.

(٢) ورد قوله في: شرح القشيري لأسماء الله الحسنى ص٢٠٣.

الصَّالحينَ[١] ، والمقصودُ منَ المثلِ منهَا: أنَّ مَنْ ينتحلُ المحبَّةَ لا يليقُ بهِ البُعدُ عنْ محبوبِهِ ، فيستغنِي بهذَا القولِ وأمثالِهِ عنْ ضرْبِ شابٍّ حُرَّ وجْهِ شيخٍ بنَعْلِهِ معَ ما فيهِ منْ قلَّةِ الاحترامِ لذِي الشَّيْبَةِ والدِّينِ ، وخُتِمَتِ الحكايةُ بكونِهِ يهوَاهُ والعياذُ باللهِ مِنْ تحسينِ أحوالِ الصَّالحينَ وتزيينِ كتُبِهِمْ بأمثالِ هذهِ الحِكَاياتِ ، وَلَوْ أمكنَ إسقاطُهَا لكانَ أحسنَ ، وقدْ نبَّهْنَا علىٰ فَسَادِهَا بمَا فيهِ كِفَايةٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دَخَلْتُ بِلَادَ الهِنْدِ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا بِفَرْدِ عَيْنٍ يُسَمَّىٰ فُلَانًا الصَّبُور ، فَسَأَلْتُ عَنْ حَالِهِ ، فَقِيلَ: هَذَا فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِهِ سَافَرَ صَدِيقٌ لَهُ ، فَخَرَجَ فِي وَدَاعِهِ ، فَدَمِعَتْ إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ وَلَمْ تَبْكِ الأُخْرَىٰ ، فَقَالَ لِعَيْنِهِ الَّتِي لَمْ تَدْمَعْ: لِمَ لَمْ تَدْمَعِي عَلَىٰ فِرَاقِ صَاحِبِي ؟! لَأَحْرِمَنَّكِ النَّظَرَ إِلَىٰ الدُّنْيَا ، وَغَمَّضَ عَيْنَهُ ، فَمُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً لَمْ يَفْتَحْ عَيْنَهُ!**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وهذِهِ الحكايةُ روحُهَا**: أنَّ العبدَ إذا أحسَّ منْ نفسِهِ الفتورَ وقلَّةَ الأسفِ والنَّدمِ علىٰ ما فاتَهُ منَ الخيراتِ وأنواعِ القُرُبَاتِ فليؤدِّبْ نفسَهُ بالآدابِ الجائزةِ ، فيمنعهَا بعضَ مُشتهياتِهَا النَّاجزةِ ، مَا لمْ يُخِلَّ ذلكَ بشيءٍ منْ أمْرِ دينِهِ ، وغايةُ هذا الشَّخصِ إنْ كانَ مسلمًا ولمْ تَبْكِ عينُهُ في موضعٍ يصلحُ منهَا البكاءُ ، وغايتُهُ أنَّهُ غلقهَا ومنعَهَا شهوتَهَا النَّاجزةَ ، فإذَا كانَ أوقاتَ الصَّلواتِ والاحتياجِ إلىٰ الطَّاعاتِ أزالَ ما سترَهَا بهِ ؛ حتَّىٰ يتطهَّرَ ثمَّ أعادَهُ واكتفَىٰ بنظرِ عينِهِ الواحدةِ في سائرِ حوائجِهِ وإنْ لمْ يكنْ مسلمًا وكانَ منَ الكفَّارِ بالهندِ الَّذينَ يعبدونَ النَّارَ فليسَ بفعْلِهِ اعتبارٌ.

---

(١) قال العروسي: «أي: بالنسبة لما فعله الشاب بالشيخ ، وإلا فلا قبح في تحمل الشيخ إذا كانت محبته لله مع العفة والكتمان ، إذ تقريب الغائب بالشاهد واقع وكثير علىٰ لسان الشرع والعقل» نتائج الأفكار ١٥٩/٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٦/١.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢] فِي قَوْلِهِ ـ تعالى ـ: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]: الصَّبْرُ الجَمِيلُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ المُصِيبَةِ فِي القَوْمِ لَا يَدْرِي مَنْ هُوَ؟».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على قوَّتِهِ وكَمَالِ صَبْرِهِ؛ حتَّى لَمْ يظهرْ على ظاهرِهِ مِنْ آثارِ جزعِهِ وهَلَعِهِ، وهوَ كمَا حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أَنَّهُ قالَ[٣]: «كنَّا [٧٨/٢ب] إذا حضرْنَا الجنازةَ لا نَدْرِي مَنْ نُعَزِّي للهَمِّ الَّذِي شملَ الجميعَ بأمْرِ الموتِ والقبرِ ومنكرٍ ونكيرٍ».

وكمَا أنَّ هؤلاءِ استوَتْ أحوالُهُمْ في الهمِّ بأمْرِ الآخرةِ فمَا نحنُ فيهِ مِنَ المثلِ في الصَّبرِ مثلُ ذلِكَ، إذا نزلَتْ مصيبةٌ بشخصٍ وكانَ منَ القومِ لا يُعرفُ بينَهُمْ لكمالِ صبْرِهِ وتحمُّلِهِ حتَّى لا يبدُو على ظاهرِهِ مِنْ ألمِهِ شيءٌ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: لَوْ كَانَ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ بَعِيرَيْنِ لَمْ أُبَالِ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ[٦]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قدِ ارتقَى عَنْ رُؤيةِ الألمِ فيمَا يصبرُ عليهِ، وصارَ جميعُ ما يردُ عليهِ منَ اللهِ ـ تعالى ـ نعمةً، فإنْ كانَ فيهِ ألمٌ حسُنَ صبرُهُ فيهِ، وإنْ كانَ فيهِ راحةٌ حَسُنَ شُكْرُهُ فيهِ، فإنَّ عليهِ في كلِّ واحدٍ منهُمَا للهِ ـ تعالى ـ أدبًا

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٢٧/١.

(٢) نسب لقيس بن الحجاج في: تاريخ دمشق ٣٧٦/٤٩، وتفسير السمعاني ٤٦/٦، وتسلية أهل المصائب ص١٤٢، وعدة الصابرين ص٧٩.

(٣) قول الأعمش في: الزهد لابن حنبل ص٣٦٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٢٤١/٧، وحلية الأولياء ٥٠/٥، والباعث على إنكار البدع ص٩٣.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٧/١.

(٥) ورد قوله في: محاضرت الأدباء ٥٢٤/٢، والروضتين في أخبار الدولتين ١٨٨/٤، وتاريخ الإسلام ٦٠/٤١، وعدة الصابرين ص٩٠.

(٦) فيه تنبيه على أن حاله دائر مع الصبر عند البلاء، والشكر عند العطاء.

هوَ قائمٌ بهِ بسهُولةٍ[(١)].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَكَانَ ابْنُ شُبْرُمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ بَلَاءٌ قَالَ[(٣)]: سَحَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشِعُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ معرفتِهِ بقلَّةِ دوامِ البلاءِ والنَّعماءِ وأنَّ كلَّ واحدٍ منهُمَا لا يدومُ فِي الدُّنيَا وإنَّمَا دوامُ النَّعيمِ في الآخرةِ وكذلِكَ العذابُ ـ والعياذُ باللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ فكلُّ مَنْ تعوَّدَ الصَّبرَ وعلِمَ ما يترتَّبُ عليهِ منَ الخيراتِ سهُلَ عليهِ تحمُّلُهُ عندَ أوَّلِ صدمةٍ، ثمَّ لا يزالُ أمْرُهُ يخفُّ حتَّىٰ ينقضِي ويذهبَ، ولذلِكَ قالَ سيِّدُ العربِ والعجمِ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ».

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَفِي الْخَبَرِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ[(٥)]: الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يعنِي ـ واللهُ أعلمُ ـ الصَّبْرَ عنِ الشَّهواتِ والسَّماحاتِ بالقُرُبَاتِ، وكذلِكَ قيلَ[(٦)]: «الإيمانُ نصفانِ: نصفٌ صبْرٌ، ونصفٌ شُكرٌ»؛ فالشُّكرُ علىٰ النِّعمِ، والصَّبرُ علىٰ البلايَا والنِّقمِ، فإنَّ الَّذِي يردُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ إمَّا أنْ يوافقَ هوَاهُ أوْ يخالفَ، فإنْ وافقَ فالشُّكرُ، وإنْ خالفَ فالصَّبرُ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٧.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب). وورد قوله في: الكامل للمبرد ٢/٣٣، والفرج بعد الشدة للتنوخي ١/١٧١.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٧.

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس ١/١١١، والترمذي في نوادر الأصول ١/٢٠١، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/١٢٣، والقضاعي في مسند الشهاب ١/١٢٧.

(٦) أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد ص١٠، وابن أبي الدنيا في: مكارم الأخلاق ص٣١، وأبو يعلىٰ في مسنده ٣/٣٨٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/١٢٢.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ طَاهِرٍ الصُّوفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ المَشْيَخَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: حَدَّثَنَا سُوَيْدُ أَبُو حَاتِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ[2]: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ تقدَّمَ أنَّ الصَّبْرَ علىٰ مفارقةِ [١٧٩/٢] الشَّهواتِ المُحرَّماتِ والمكروهاتِ، والسَّماحةُ هيَ القيامُ بسائرِ الطَّاعاتِ الواجباتِ والمَنْدُوباتِ وإنْ تَعَالَتْ في الدَّرجاتِ، وفيهِ دليلٌ علىٰ أنَّ الإيمانَ يُطْلَقُ علىٰ أعمالِ الجَوارحِ؛ وهوَ أنَّ الإيمانَ عقدٌ بالقلبِ، ونطقٌ باللِّسانِ، وعملٌ بالأركانِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَسُئِلَ السَّرِيُّ[4] عَنِ الصَّبْرِ، فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ فِيهِ، فَدَبَّتْ عَلَىٰ رِجْلِهِ عَقْرَبٌ[5] وَهِيَ تَضْرِبُهُ بِإِبْرَتِهَا[6] ضَرَبَاتٍ كَثِيرَةً وَهُوَ سَاكِنٌ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَمْ تُنَحِّهَا؟ فَقَالَ: اسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللهِ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الصَّبْرِ وَلَمْ أَصْبِرْ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ العبدَ لا يتكلَّمُ في شيءٍ منْ علمِ المَقَامَاتِ والأَحْوالِ الصَّالحَاتِ حتَّىٰ يكونَ متخلِّقًا ببعضِهَا، وسالِكًا في تحصيلِ كمالِهِ؛ ليسلمَ منَ الدُّخولِ تحتَ ذمِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لِمَنْ يقولُ ما لَا يفعلُ فيسلَمَ مِنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٢٧/١.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢٥/٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٢٥/٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٢٧/١.

(٤) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٧٤/٢.

(٥) العقرب مؤنثة. انظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ص٧٦.

(٦) في (ف): بزبانها.

مَقْتِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، لكنَّ هذَا المَقْتَ إنَّمَا يكونُ للمُرائِي في كَلامِهِ الَّذِي يُوهِمُ النَّاسَ أنَّهُ مُتخَلِّقٌ بمَا يقولُ؛ ليعظُمَ قدرُهُ عندَهُمْ، أوِ الكذَّابِ المتشبِّعِ بمَا لم ينَلْ، وهوَ المدَّعِي بِمَقَامٍ لمْ[1] يبلغْهُ[2].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَفِي بَعْضِ الأَخْبَارِ[4]: الفُقَرَاءُ الصُّبَّرُ هُمْ جُلَسَاءُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يومَ القِيَامَةِ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناهُ: أنَّ لهُمْ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ زُلْفَىٰ وتَقْرِيبًا وتَمْكِينًا، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الإنسان: ١٢].. الآية، ويُفْهَمُ من الجلوسِ هاهُنَا مَا يُفْهَمُ منَ النُّزولِ إلىٰ سَماءِ الدُّنيَا، ومِنْ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، فإنَّ هذَا كلَّهُ محالٌ بالإضافةِ إلىٰ القُربِ[5] والبُعْدِ الحِسِّي؛ لأنَّ ذلكَ مِنْ توابعِ الأجسامِ المنعوتةِ بالحركةِ والانتقالِ، تعالىٰ عنْ ذلكَ علوًّا كبيرًا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «**وَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ[7]: إِذَا أَنْزَلْتُ بِعَبْدِي بَلَاءً، فَدَعَانِي، فَمَاطَلْتُهُ بِالإِجَابَةِ فَشَكَانِي، قُلْتُ: عَبْدِي، كَيْفَ أَرْحَمُكَ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُكَ؟!**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّهُ سبقَ في عِلْمِ اللهِ أنَّ العبدَ إنَّمَا

---

(١) في (ب): «المدعي بما لم يبلغه».
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٧٨ ـ ٥٧٩.
(٣) ورد في: الفردوس ٣/٣٣٠، وميزان الاعتدال ١/٢٣٢، وإتحاف السادة المتقين ١١/٥٥٥.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٧.
(٥) أي: قرب مكانة لا قرب مكان.
(٦) الرسالة القشيرية ١/٣٢٧.
(٧) ورد في: مدارج السالكين ٢/١٦٠.

ترتفعُ درجتُهُ عندَ ربِّهِ بحُسْنِ صَبْرِهِ علىٰ مَا ابتلَاهُ بهِ، فصارَ البلاءُ شَرْطًا للصَّبرِ، والصَّبرُ مُتَرَتِّبٌ عليهِ الجزاءُ العظيمُ، فإذَا ابتلَىٰ اللهُ العبدَ ببلاءٍ فدعَاهُ أنْ يُعَافِيَهُ أوْ يَرحمَهُ، فكأنَّهُ يقولُ: يا ربِّ، أزِلْ عنِّي ما بهِ تَرْحمُنِي!، ولهذَا قالَ: يقولُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: «**عبدِي، كيفَ أرحمُكَ مِنْ شيءٍ بهِ أرحمُكَ؟**»، معناهُ: أنَّ رحمةَ اللهِ ـ سبحانه ـ سبَقَ في عِلْمِهِ أنَّهَا تكونُ علىٰ هذَا [٧٩/٢ب] البلاءِ، وصَبْرِ العبدِ عليهِ فلا بُدَّ مِنَ البلاءِ والصَّبْرِ والرَّحمةِ جَمِيعًا[١].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٢]: **«وَقَالَ ابنُ عُيَيْنَةَ[٣] فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾** [الأنبياء: ٧٣]، **قَالَ: لَمَّا أَخَذُوا بِرَأْسِ الأَمْرِ جَعَلْنَاهُمْ رُؤَسَاءَ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وذلِكَ أنَّ الإيمانَ نصفانِ كما تقدَّمَ؛ نصفٌ صبْرٌ ونصفٌ شكرٌ، وأنَّ الصَّبْرَ مِنَ الدِّينِ بمنزلةِ الرَّأسِ منَ الجسدِ، فلمَّا عزمُوا علىٰ الصَّبرِ علىٰ كلِّ ما ينزلُ بهِمْ منَ الحُلْوِ والمُرِّ والأمْرِ والنَّهْيِ، أخذُوا برأسِ الأمْرِ كلِّهِ وهوَ الصَّبْرُ، فجعلَهُمُ اللهُ رؤساءَ؛ أيْ: سَادةً يُقْتَدَىٰ بهِم، وتُقْتَصُّ آثارُهُمْ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٤]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ[٥]: إنَّ الصَّبْرَ حَدُّهُ[٦]: أَلَّا تَعْتَرِضَ[٧] عَلَىٰ التَّقْدِيرِ، فَأَمَّا إظْهَارُ البَلَاءِ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٧٩/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٢٧/١.

(٣) ورد قوله في: مدارج السالكين ١٦٠/٢، وعدة الصابرين ص٧٧، وتفسير ابن كثير ٤٦٤/٣، ونسب لابن عباس في: بدائع السلك ٥٣٨/١.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٧/١.

(٥) ورد قوله في: تفسير القرطبي ١٧٤/٢، وعدة الصابرين ص٩.

(٦) أي: غايته وثمرته: عدم الاعتراض.

(٧) في (ف): يُعْتَرض.

الشَّكْوَىٰ فَلَا يُنَافِي الصَّبْرَ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ فِي قِصَّةِ أَيُّوبَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] مَعَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ ـ تعالىٰ ـ أَنَّهُ قَالَ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومُرَادُهُ هاهُنَا: أنَّ حدَّ[1] الصَّبْرِ: الاعتراضُ بالقلبِ للتَّسخُّطِ بهِ وكراهةِ وقوعِهِ، وأمَّا الشَّكوَىٰ علىٰ غيرِ ذلِكَ؛ مِثلُ أنْ يُخبِرَ بحالِهِ لِمَنْ سألَهُ مِنْ قَرِيبٍ، أوْ طبيبٍ، أوْ مَنْ يجدُ راحةً بسؤالِهِ وإجابتِهِ لمعرفةِ حالِهِ لِمَنْ يجبُ ذلِكَ منهُ فلا بأسَ بهِ[2].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: اسْتَخْرَجَ مِنْهُ هَذِهِ المَقَالَةَ ـ يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ـ؛ لِيَكُونَ مُتَنَفَّسًا لِضُعَفَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقوله: «اِسْتَخْرَجَ مِنْهُ هَذِهِ المَقَالَةَ لِيَكُونَ مُتَنَفَّسًا»، يعنِي: استخرَجَهَا منْ أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ معَ كمالِ قوَّتِهِ فِي صَبْرِهِ، فلمَّا أجرَاهَا علىٰ لِسَانِهِ رحمةً، فذكرَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ في كتابِهِ؛ ليقتَدِيَ بهِ مَنْ مسَّهُ الضُّرُّ، فيدعُوَ بهَا فَيُنَفَّسَ كَرْبُهُ وَيُرْحَمَ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَقَالَ بَعْضُهُم[5]: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: صَبُورًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ جَمِيعُ أَحْوَالِهِ الصَّبْرَ، بَلْ كَانَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ يَسْتَلِذُّ البَلَاءَ وَيَسْتَعْذِبُهُ، فَلَمْ يَكُنْ فِي حَالِ الاسْتِلْذَاذِ صَابِرًا، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: صَبُورًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ ولمْ يقُلْ: صبورًا،

---

(١) في (ب): ضد، والصواب المثبت.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٠.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٢٨.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٢٨.
(٥) ورد في: طرح التثريب ٢/٢٠٧.

وصبَّارًا؛ لأنَّ الصَّبَّارَ والصَّبورَ هوَ الَّذِي يتوالَىٰ عليهِ الصَّبرُ(١) في عمومِ أحوالِهِ، وإنَّمَا يصبرُ علىٰ البلاءِ، ومَنْ عَدَّ البلاءَ نعمةً اتَّصَفَ بالشُّكرِ والفرحِ بالنِّعمِ، فأشارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أنَّ قولَهُ: «**صابرًا**»؛ لكونِهِ لمْ يعمَّ سائرَ أحوالِهِ برؤيةِ البلاءِ والصَّبرِ عليهِ، [١٨٠/٢أ] بلْ كانَ في بعضِ أحوالِهِ مُتنعِّمًا مُتلذِّذًا لكونِهِ عدَّ بلاءَهُ نعمةً، ومَنْ عدَّ البلاءَ نعمةً فأدبُهُ الشُّكرُ وحالُهُ الفرحُ بالنِّعمِ.

وهذَا ثناءٌ علىٰ أيُّوبَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ لكونِهِ لَمْ يَكُنْ في سَائِرِ أحوالِهِ صابرًا، بَلْ كانَ مُتنعِّمًا شاكِرًا، وحالُ الشُّكرِ أَتمُّ(٢) مِنْ حَالِ الصَّبْرِ، وربَّمَا نُقِلَ أنَّ الدُّودةَ تقعُ مِنْ جسدِهِ فيردُّهَا إلىٰ موضعِهَا(٣) مَا دامَ قلبُهُ سالِمًا، وهوَ محلُّ معرفتِهِ وذِكْرِهِ، وإنَّمَا قالَ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾؛ لمَّا قَرُبَ الألمُ إلىٰ قَلْبِهِ، واللهُ أعلمُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ(٥): حَقِيقَةُ الصَّبْرِ: الخُرُوجُ مِنَ البَلَاءِ عَلَىٰ حَسَبِ الدُّخُولِ فِيهِ، مِثْلُ أَيُّوبَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **قَالَ فِي آخِرِ بَلَائِهِ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فَحَفِظَ أدبَ الخِطَابِ حِيْنَ عَرَّضَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِقَوْلِهِ: ارْحَمْنِي**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**وحقيقةُ الصَّبرِ: الخروجُ مِنَ البلاءِ مثلُ الدُّخولِ فيهِ**»، وذلكَ أنَّ الغالبَ علَى النَّاسِ أنَّ جزَعَهُمْ وقَلَقَهُمْ عندَ أوَّلِ صَدْمَةِ البَلاءِ، ولذلكَ كانَ الصَّبرُ عندَ الصَّدمةِ الأُولَىٰ أعظمَ.

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): ثم، وهو تحريف.

(٣) وهذا خلاف ما أجمعت عليه الأمة من عصمة الأنبياء من الأمراض المنفرّة، وإن ذكره بعض المفسرون. انظر: الهداية إلىٰ بلوغ النهاية ٤٧٩٣/٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢٨/١.

(٥) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ٨٥/١١.

والحقيقةُ عندَ القومِ: غلبةُ حَالِ الصَّبرِ والمَصْبُورِ بهِ في حَالِ الصَّبرِ على القلبِ، فإذَا كانَ العبدُ ناظرًا إلى الحقِّ المتصرِّفِ المُبْلِي كانَ حالُهُ في أوَّلِ دخولِهِ كحالِهِ في آخرِهِ، واستوَتْ بهِ أحوالُهُ لعدمِ غفلتِهِ عَنْ ربِّهِ، ومعرفتِهِ بحُسْنِ اختبارِهِ لهُ في سائرِ أحوالِهِ، فيستوِي صبرُهُ في أوَّلِ البلاءِ وآخرِهِ، ولذلِكَ لمَّا تفاقَمَ البلاءُ على أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يحملْهُ تفاقُمُ البلاءِ عليهِ وشدَّتُهُ أنْ قالَ: «**ارحمْنِي**»، بَلْ تَأدَّبَ معَ اللهِ ـ تعالى ـ فِي سُؤْلِهِ بقولِهِ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أيْ: رحمتُكَ للنَّاسِ عامَّةٌ وأنَا مِنْ جُمْلَتِهِم[(١)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: صَبْرُ العَابِدِينَ، وَصَبْرُ المُحِبِّينَ.**

فَصَبْرُ العَابِدِينَ أَحْسَنُهُ أَنْ يَكُونَ مَحْفُوظًا، وَصَبْرُ المُحِبِّينَ أَحْسَنُهُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوضًا، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[(٣)]:

تَبَيَّنَ يَوْمَ البَيْنِ أَنَّ اعْتِزَامَهُ ❁ عَلَى الصَّبْرِ مِنْ إِحْدَى الظُّنُونِ الكَوَاذِبِ

وَفِي هَذَا المَعْنَى سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: أَصْبَحَ يَعْقُوبُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **وَقَدْ وَعَدَ الصَّبْرَ مِنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾** [يوسف: ١٨]، **أَيْ: فَشَأْنِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، ثُمَّ لَمْ يُمْسِ حَتَّى قَالَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُ الإمامِ [٢/٨٠ب]: «**الصَّبْرُ على ضربَينِ**» يعنِي بالنِّسبةِ إلى الصَّابرينَ، «**صَبْرُ العابدِينَ وصبرُ المحبِّينَ**»؛ فصبرُ العابدِينَ يَنْبَغِي أنْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٠.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٢٨.

(٣) من الطويل، لعبد الله بن طاهر في: أمالي القالي ٣/٥٠، وتاريخ دمشق ٢٩/٢٣٨، وبلا نسبة في: الزهرة ١/٧٤.

يكونَ مَحفُوظًا؛ لشدَّةِ احتياجِهِمْ لهُ في الأعمالِ والأحوالِ، وصبرُ المحبِّينَ لمولَاهُمْ ينبغِي أنْ يكونَ مرفوضًا، أيْ: مطروحًا؛ ليشتدَّ قلقُهُمْ فِي الوصولِ إلىٰ مطلوبِهِمْ ويَزُولَ عَنْهُمْ صَبْرُهُمْ؛ لِسُرْعَةِ وُصُولِهِمْ لمحبوبِهِمْ، والشِّعرُ يدلُّ علىٰ نفْيِ صبْرِ المحبِّينَ؛ وهوَ قولُهُ:

تَبَـيَّنَ يَــوْمَ البَــيْنِ أَنَّ اعْتِزَامَـــهُ ❊ عَلَىٰ الصَّبْرِ مِنْ إِحْدَىٰ الظُّنُونِ الكَوَاذِبِ

معنَاهُ: أَنَّهُمْ في حالِ قُرْبِهِمْ مِنْ مَحْبُوبِهِمْ وتنعُّمِهِمْ بأُنْسِ مَرْغُوبِهِمْ إذَا عَزَمُوا علىٰ أنَّهُ إنْ أبعدَهُمْ صبَرُوا، فلمَّا وردَ وقتُ الامتحانِ تبيَّنَ أنَّ عَزْمَهُمْ كانَ ظنًّا منْ غَيْرِ إيقانٍ.

ومَا ذكرَهُ عنْ يعقوبَ ـ صلواتُ اللهِ علَىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ يشيرُ إلىٰ هذا المَعْنَىٰ الَّذِي تضمَّنَهُ الشِّعرُ؛ وذلكَ أنَّهُ لمَّا كانَ مُمْتلِئًا قَلْبُهُ بيوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يقدرْ على الصَّبرِ، فلمَّا قالَ في أوَّلِ النَّهارِ لَبنيهِ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فيهِ إشارةٌ إلىٰ عَزْمِهِ على الصَّبرِ، قالَ: ثُمَّ لَمْ يلبثْ قليلًا حتَّىٰ قالَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] ونَسِيَ أمْرَ وَلَدِهِ القَرِيبِ، بمَا امتلأَ قلبُهُ مِنْ أمرِ يوسفَ الحَبيبِ، فأتاهُ اللهُ بِهِمَا(١).

❊ ❊ ❊

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

باب المُرَاقَبَةِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أَخْبَرَنَا أَبُو نعيمٍ ـ عَبْدُ المَلكِ بْنُ الحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ـ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوانَةَ يَعْقُوبُ(٢) بْنُ إِسْحَاق؛ قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: حَدَّثَنا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ(٣): جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ رَجُلٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا الإِيمَانُ؟ فَقَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، والقَدرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَتَعَجَّبْنا مِنْ تَصْدِيقِهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: فَأَخبرْنِي مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: الإِسْلَامُ: أَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتحُجَّ البَيْتَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخبرْنِي مَا الإِحْسَانُ؟ فَقَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: صَدَقْتَ»... الحديث.

هَذَا الَّذِي قَالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) إِشَارَةٌ إِلَى حَالِ المُرَاقَبَةِ؛ لِأَنَّ المُرَاقَبَةَ: عِلْمُ العَبْدِ بِاطِّلَاعِ [٢/١٨١أ] الرَّبِّ ـ سبحانه ـ عَلَيْهِ، فَاسْتِدَامَتُهُ

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٩.

(٢) في (ب): بن يعقوب، والصواب المثبت.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٢٧ ـ حديث رقم (٥٠)، ومسلم في صحيح ١/٣٩ ـ حديث رقم (٩).

لِهَذَا العِلْمِ مُرَاقَبَةٌ لِرَبِّهِ، وَهَذَا أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ لَهُ.

وَلَا يَكَادُ يَصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ الرُّتْبَةِ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِهِ عَنِ المُحَاسَبَةِ، فَإِذَا حَاسَبَ نَفْسَهُ عَلَىٰ مَا سَلَفَ، وَأَصْلَحَ حَالَهُ فِي الوَقْتِ، وَلَازَمَ طَرِيقَ الحَقِّ، وَأَحْسَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ [فِي][1] مُرَاعَاةَ القَلْبِ، وَحَفِظَ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ الأَنْفَاسَ رَاقَبَ اللهَ ـ سبحانه ـ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ ـ سبحانه ـ عَلَيْهِ رَقِيبٌ، وَمِنْ قَلْبِهِ قَرِيبٌ، يَعْلَمُ أَحْوَالَهُ، وَيَرَىٰ أَفْعَالَهُ، وَيَسْمَعُ أَقْوَالَهُ، وَمَنْ تَغَافَلَ عَنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنْ بِدَايَةِ الوَصْلَةِ، فَكَيْفَ عَنْ[2] حَقَائِقِ القُرْبَةِ؟!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والنَّظرُ فِي حقيقةِ (المراقبةِ) لغةً، وفِي اصطلاحِ هذِهِ الطَّائفةِ، ثمَّ في أسبابِ حصولِهَا، ثمَّ في الأدلَّةِ عليهَا، ثمَّ في الثَّمراتِ المترتِّبةِ علىٰ حصولِهَا.

فأمَّا حقيقةُ (المُرَاقَبَةِ) لُغَةً: فهيَ دوَامُ مُلاحَظةِ المقصودِ[3]، قالَ[4] الجوهرِيُّ فِي (الصِّحاحِ)[5]: «الرقيبُ[6]: هوَ المُوَكَّلُ بالضَّرِيبِ.. والضَّرِيبُ: هوَ الَّذِي يضربُ بالقِدَاحِ الَّتِي كانَ يُضربُ بهَا في الجاهليَّةِ»، يستدلُّونَ[7] بها علىٰ الخيرِ والشَّرِّ.

والرَّقيبُ: هوَ الموكَّلُ بمَا يطلعُ عندَ الضَّربِ، فهوَ علىٰ هذا دائمُ الملاحظةِ للمقصودِ، ويقالُ[8]: رقبتُ الشَّيءَ أرقُبُهُ؛ إذَا انتظرتُ وقوعَهُ، أو مجيئَهُ.

---

(١) زيادة من (ف).
(٢) في (ب): في.
(٣) قول الهروي في: منازل السائرين ص٣٨.
(٤) في (أ، ب): قاله، والصواب المثبت؛ لأنه قول الهروي كما مرَّ.
(٥) ١/١٣٧، ١/١٦٩، وجملة: «كانَ يضربُ بهَا في الجاهليَّةِ» ليست في نص الصحاح.
(٦) في (أ): «لأنه قال الرقيب»، وهو تكرار لا طائل تحته.
(٧) في (أ): يستدلوا، والصواب المثبت.
(٨) انظر: العين ٥/١٥٤، والصحاح ١/١٣٧، ونزهة الأعين النواظر ص٣١٠.

والمُرَاقبةُ: هي الموضعُ المرتفعُ الَّذِي يُرْقَبُ منهُ الشَّيءُ البعيدُ.

فعلَىٰ هذَا حقيقَةُ المراقبةِ فيمَا نحنُ فيهِ شرعًا: دوامُ النَّظرِ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - وارتقابُ ما يَبْدُو مِنْ أفعالِهِ وأحكامِهِ(١)، ومراقبةُ أفعالِ العبدِ بالنِّسبةِ إلىٰ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ حتَّىٰ يُوقعَهَا علىٰ حسبِ الأوامرِ وتجنُّبِ المَنَاهِي، فمَنْ راقبَ أفعالَهُ وما يطرقُهُ مِنْ أحكامِ ربِّهِ في ليلِهِ ونهارِهِ مِنْ مَجَارِي أَقْدَارِهِ، ودامَ نظرُهُ لربِّهِ بقلبِهِ حتَّىٰ قلَّتْ غفلتُهُ عنهُ، وتوالَىٰ ذلكَ منهُ في عمومِ أوقاتِهِ فهوَ كاملُ المُراقبةِ.

والدَّليلُ علىٰ المُراقبةِ وإثباتِهَا شرْعًا الخبَرُ الصَّحيحُ، رواهُ (مسلمٌ)(٢) يرفعُهُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: «بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ ثِيَابِهِ، شَدِيدُ سَوَادِ شَعْرِهِ، لَا [يُرَىٰ](٣) عَلَيْهِ أَثَرُ سَفَرٍ، وَلَا أَحَدَ مِنَّا يَعْرِفُهُ، حَتَّىٰ وَصَلَ(٤) إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَسْنَدَ رُكْبَتَهُ إِلَىٰ رُكْبَتِهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؛ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٢/٨١ب] الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا مِنْهُ كَيْفَ يَسْأَلُهُ ثُمَّ يُصَدِّقُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، فَقَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: لَيْسَ المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا: قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا - وَرَبَّهَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ(٥) -، وَأَنْ

---

(١) انظر: التعريفات ص٢٦٦.

(٢) في صحيحه ٣٧/١ - حديث رقم (٨).

(٣) تتمة من صحيح مسلم.

(٤) في (ب): دخل.

تَرَىٰ الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ، ثُمَّ ذَهَبَ».

وفي بعضِ الطُّرقِ(١): «أَدْرِكُوا الرَّجُلَ، فَلَمْ يُدْرِكُوهُ».

وفِي بعضِ الطُّرقِ(٢): «أَخُوكُمْ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِيْنَكُمْ».

وموضعُ الاستشهادِ منَ الخبرِ: «**أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ**» وهذِهِ مراقبةُ العبدِ للهِ، «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ**»(٣)، وهذهِ مراقبةُ الحقِّ للخَلْقِ في سائِرِ حَرَكَاتِهِمْ وسَكَنَاتِهِمْ، وقَدْ قالَ - تعالىٰ -: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ رَّقِيبًا﴾.

وقالَ فِي موضعٍ آخرَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقالَ - تعالىٰ -: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ [يونس: ٦١].. إلىٰ قولِهِ: ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [آية: ٦١]، وقالَ مجاهدٌ(٤): «إذْ تبتدئُونَ فيهِ».

فهذِهِ أدلَّةُ(٥) المراقبةِ: آيةٌ، وخبرٌ(٦).

وأمَّا أسبابُ تحصيلِ هذا المَقَامِ المَنِيفِ فَمِنْ عُلُومٍ عِدَّةٍ:

أحدُهَا(٧): معرفةُ اللهِ - تعالىٰ - بصفاتِهِ وكمالِهِ وعظمتِهِ وتنزُّهِهِ.

الثَّانِي: معرفةُ وعْدِهِ ووعيدِهِ، ومَا تضمَّنَهُ الكتابُ العزيزُ من إكرامِ اللهِ

= مشارق الأنوار ١/٢٧٨.

(١) في صحيح مسلم ١/٢٧ ـ حديث رقم (٩) بلفظ: «.. ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فقال رسول الله ﷺ: رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ، فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فلم يَرَوْا شيئًا».

(٢) كما في صحيح مسلم ١/٢٧ ـ حديث رقم (٩).

(٣) في (أ): يراه، والصواب المثبت.

(٤) الذي في تفسيره ٢/٥٩٣: «يعني: بما تقولون».

(٥) في (ب): دليل، والصواب المثبت.

(٦) في (أ، ب): وخبرا، والأصح المثبت.

(٧) سقط من (ب) قوله: «عدة أحدها».

المطيعِينَ، وإهانتِهِ للمخالِفِينَ في الدُّنيَا والآخرةِ، وتفصيلِ ما فِي الجنَّةِ والنَّارِ لِيَقْوَىٰ الخوفُ والرَّجاءُ، ومعرفةِ الحَلالِ والحَرَامِ؛ ليُمكنَهُ التَّثبُّتُ عندَ الأفعالِ، ومُرَاقبةُ الحَلالِ منَ الحرامِ.

وتحصيلُ هذِهِ العلومِ الثَّلاثةِ؛ وهيَ معرفةُ اللهِ ورسولِهِ وإجلالُهُمَا، ومعرفةُ الأمرِ والنَّهْيِ والإباحةِ، ومعرفةُ الوعدِ والوعيدِ إمَّا بنفسِهِ أوْ بتقليدِ غيرِهِ، ويديمُ استعمالَ ذلكَ ويكرِّرُهُ، وكلَّمَا غلبَتْهُ نفسُهُ وقتًا ردَّهَا إلىٰ استعمالِ ذلِكَ وأدَّبَهَا، ولا يَزَالُ كذلِكَ حتَّىٰ تكملَ معرفتُهُ وتتأكَّدَ مراقبتُهُ لمَا ذكرْنَاهُ، وتشتدَّ محاسبتُهُ لنفسِهِ [٢/٨٢أ].

وأحسنُ ما استعانَ بهِ علىٰ تحصيلِ المُرَاقبةِ مُخَالطةُ أبناءِ جِنْسِهِ السَّالكِينَ مَسْلَكَهُ، العاملِينَ بمَا ذكرْنَاهُ، فإنَّهُ يستعينُ بهِمْ بِرُؤْيةِ الأحوالِ وحُسْنِ الأقوالِ، إلىٰ أنْ يأتيَهُ العَونُ منَ الكبيرِ المتعالِ، فتسهلَ عليهِ مُرَاقبتُهُ لجميعِ ما ذكرْنَاهُ في عُمُومِ الأحوالِ.

وأمَّا ثَمَرَاتُ المُرَاقَبَةِ: فحسنُ الآدابِ، والسَّلامةُ مِنْ شَدِيدِ الحسَابِ، والتَّحلِّي بحليَةِ الأولياءِ ذَوِي الألبابِ، وسيردُ مِنْ أقوالِ المَشَايخِ ما يُنَبِّهُ علىٰ تفصيلِ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ، وحُصُولِ البَرَكَاتِ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ[٢]: مَنْ لَمْ يُحْكِمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ التَّقْوَىٰ وَالمُرَاقَبَةَ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ الكَشْفِ والمُشَاهَدَةِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٢٩.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/١٣٩، والزهد الكبير ص٣٣٦، وحلية الأولياء ١٠/٤٠٥، وتهذيب الأسرار ص١٠٦، ومدارج السالكين ٢/٦٥.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ مراقبةُ الأفعالِ بالنِّسبةِ إلىٰ الأحكامِ، وهيَ أوَّلُ درجاتِ المراقبةِ(١)، فإذَا أحكَمَ هذَا فِي أفعالِ قلبِهِ وجوارِحِهِ وتكرَّرَ ذلكَ عليهِ قلَّتْ غفلاتُهُ وسَمَتْ حَالاتُهُ، وهوَ المُعَبَّرُ عنهُ بالكَشْفِ والمُشَاهَدَةِ(٢)، ومَنْ أهملَ الأوَّلَ منَ المُرَاقَبَةِ وهوَ الواجبُ فَبَعِيدٌ أنْ يصِلَ إلىٰ المُشَاهَدَةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: كَانَ لِبَعْضِ الأُمَرَاءِ وَزِيرٌ، فَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمًا، فَالتَفَتَ إِلَىٰ بَعْضِ الغِلْمَانِ الَّذِينَ كَانُوا وُقُوفًا لَا لِرِيبَةٍ، وَلَكِنْ لِحَرَكَةٍ أَوْ صَوْتٍ أَحَسَّ مِنْهُمْ، فَاتَّفَقَ أَنَّ ذَلِكَ الأَمِيرَ نَظَرَ إِلَىٰ هَذَا الوَزِيرِ فِي تِلْكَ الحَالَةِ، فَخَافَ الوَزِيرُ أَنْ يَتَوَهَّمَ الأَمِيرُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَيْهِمْ لِرِيبَةٍ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ(٤)، فَبَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ كَانَ هَذَا الوَزِيرُ يَدْخُلُ عَلَىٰ الأَمِيرِ أَبَدًا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ جَانِبٍ، حَتَّىٰ تَوَهَّمَ الأَمِيرُ أَنَّ ذَلِكَ خِلْقَةٌ وَحَوَلٌ فِيهِ، فَهَذِهِ مُرَاقَبَةُ مَخْلُوقٍ لِمَخْلُوقٍ، فَكَيْفَ مُرَاقَبَةُ العَبْدِ لِسَيِّدِهِ؟!».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فمَا تقدَّمَ في القَولِ مُرَاقَبَةُ الأحكامِ بالنِّسبةِ إلىٰ الأفعالِ، وهوَ أحدُ أقسامِ المراقبةِ الَّتِي ذكرْنَاهَا، وهذِهِ الحكايةُ تُشيرُ إلىٰ مراقبةِ اللهِ ـ سبحانه ـ عندَ كلِّ حَرَكَةٍ وسَكَنَةٍ؛ وذلِكَ أنَّ هذا السُّلطانَ عادتُهُ أنْ تقومَ مَمَالِيكُهُ قريبًا منهُ قيامًا مجمَّلِينَ ينتظرُونَ إِشَارَاتِ المَلكِ ومَا يأمرُ بهِ، فاتَّفَقَ أنَّ بعضَ المماليكِ تحرَّكَ حَرَكَةً [٨٢/٢ب]، فالتفتَ الوزيرُ إليهَا لينظُرَ ما هيَ، فرآهُ السُّلطانُ في حالِ التفاتِهِ إلَىٰ المَمَاليكِ نَاظرًا إليهِم، فوقَعَ في نفسِ الوزيرِ خوفٌ مِنْ أنْ يظُنَّ الملكُ أنَّهُ نظرَ إليهِمْ بريبَةٍ، فجعلَ كلَّمَا دخلَ وخرجَ ينظُرُ بعينِهِ إلىٰ تلكَ الجهةِ

(١) تأمل درجات المراقبة في: منازل السائرين ص٣٨.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٨٣/٢.
(٣) الرسالة القشيرية ٣٣٠/١.
(٤) أي: ملتفتًا إلىٰ جهة أخرىٰ.

الَّتِي رآهُ عليهَا ودامَ علىٰ ذلكَ حتَّىٰ اعتقدَ الملكُ أنَّ ذلكَ حَوَلٌ في عَيْنِ الوَزِيرِ وخِلْقَةٌ، وزالَ[١] عَنْ قَلْبِ الوَزِيرِ ما ظَنَّهُ بالأميرِ.

فروحُ هذِهِ الحكايةِ: أنَّ مَنْ علَتْ رتبتُهُ وارتفعَتْ درجتُهُ مَعَ مولَاهُ ينبغِي أنْ يكونَ أدبُهُ أشرفَ أدَبٍ، فيراعِي فيهَا حُرْمَةَ الملكِ في أدنىٰ سببٍ؛ خوفًا منَ البُعْدِ والعطَبِ، وذلكَ أنَّهُ استقرَّ شرْعًا أنَّ عذابَ العالِمِ أشدُّ مِنْ عذابِ الجاهِلِ[٢]، فكيفَ بِعذَابِ القَرِيبِ الحَبِيبِ؟! فَغَرُرُهُ أعظمُ، فينبغِي أنْ يكونَ أدبُهُ أَتَمَّ وأقْوَمَ، واللهُ المعينُ، وهوَ المُسَلِّمُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[٣]: «سَمِعْتُ بَعْضَ الفُقَرَاءِ يَقُولُ[٤]: كَانَ أَمِيرٌ لَهُ غُلَامٌ يُقْبِلُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ غِلْمَانِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرَهُمْ قِيمَةً، وَلَا أَحْسَنَهُمْ صُورَةً، فَقَالُوا لَهُ فِي ذَلِكَ، فَأَرَادَ الأَمِيرُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ فَضْلَ الغُلَامِ فِي الخِدْمَةِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَيَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ كَانَ رَاكِبًا وَمَعَهُ الحَشَمُ[٥]، وَبِالبُعْدِ مِنْهُمْ جَبَلٌ عَلَيْهِ ثَلْجٌ، فَنَظَرَ الأَمِيرُ إِلَىٰ ذَلِكَ الثَّلْجِ وَأَطْرَقَ، فَرَكَضَ الغُلَامُ فَرَسَهُ وَلَمْ يَعْلَمِ القَوْمُ لِمَاذَا رَكَضَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ جَاءَ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الثَّلْجِ، فَقَالَ الأَمِيرُ: مَا أَدْرَاكَ أَنِّي أَرَدْتُ الثَّلْجَ؟ فَقَالَ الغُلَامُ: لِأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَيْهِ، وَنَظَرُ السُّلْطَانِ إِلَىٰ شَيْءٍ لَا يَكُونُ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَقَالَ الأَمِيرُ: إِنَّمَا أَخُصُّهُ بِإِكْرَامِي وَإِقْبَالِي؛ لِأَنَّ لِكُلِّ أَحَدٍ شُغْلًا، وَشُغْلُهُ[٦] مُرَاعَاةُ لَحَظَاتِي، وَمُرَاقَبَةُ أَحْوَالِي».**

---

(١) في (ب): وزوال، والصواب المثبت.

(٢) قال الغزالي: «وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته؛ لأنه عصىٰ عن عِلْمٍ» إحياء علوم الدين ١/ ٦٠.

(٣) الرسالة القشيرية ١/ ٣٣٠.

(٤) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١٣/ ١٨٦.

(٥) أي: الخدم.

(٦) أي: الغلام.

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **وهذِهِ الحكايةُ روحُهَا وخلاصتُهَا**: أنَّ المُرَاقَبَةَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وهيَ تنقسمُ إلىٰ: مُرَاقَبَةِ الأفعالِ، ومُرَاقبةِ النَّوازلِ، ومُرَاقَبَةِ اللهِ ـ سبحانه ـ.

وفي هذِهِ الحكايةِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ المُرَاقِبِينَ هُم المُبَادِرُونَ للرِّضَا لمَا يَرِدُ عليهِم مِنْ مَوْلاهُمْ، والقائمُونَ بمَا أمرَهُمْ بهِ وَنَهَاهُمْ عنهُ، وأنَّ مَنْ دَامَتْ مُرَاقبتُهُ لِمَولاهُ قَرَّبَهُ واختصَّهُ واصطفَاهُ، وميَّزَهُ علىٰ غيرِهِ وأحبَّهُ ووالَاهُ[1]؛ وذلِكَ أنَّ هذا الغلامَ كانَ مَولاهُ يُقَرِّبُهُ ويُكْرِمُهُ عَنْ بقيَّةِ عَبِيدِهِ، ولمْ يكنْ أجملَهُمْ صُورَةً، ولا أقوَاهُمْ وأعظمَهُمْ حِيْلَةً، فكانَ فِي نُفُوسِ بقيَّةِ [١٨٣/٢أ] عَبِيدِهِ شَيءٌ مِنْ تَقْدِيمِهِ فبلَغَهُ ذلكَ، فأرادَ أنْ يُعَرِّفَهُمُ السَّببَ الَّذِي امتازَ بهِ عنهُمْ ولأجلِهِ قدَّمَهُ عليهِم، فخرجَ ومرَّ في مَوْكبِهِ في جُملةِ عَبِيدِهِ، فالتفتَ السُّلطانُ يومًا إلىٰ جهةٍ منَ الجهاتِ، فنظَرَ إليهَا ثمَّ أطرَقَ، فركَضَ ذلكَ الغلامُ إلىٰ تلكَ الجهةِ، ولمْ يعرفْ أحدٌ منَ النَّاسِ لأيِّ معنًىٰ ركَضَ، وإذَا علَىٰ الجبلِ ثلجٌ، فأخذَ منهُ قطعةً وأتَىٰ بهَا إلىٰ السُّلطانِ، فسألَهُ بحضرتِهِمْ مِنْ أينَ عرفْتَ أنِّي أردْتُهُ؟ فقالَ: «**لأنِّي نظرتُكَ نظرتَ إليهِ، ونظرُ السُّلطانِ لا يكونُ إلَّا لمقصودٍ**» صحيحٍ وحاجةٍ، ولمْ أرَ ما يَصْلُحُ أنَّ لكَ حاجةً سِوَىٰ هذَا، فقالَ لهُمُ السُّلطانُ: «**لهذَا أقدِّمُهُ عليكُمْ**»، كلُّ منكُمْ مشغولٌ، وليسَ لهذَا شغلٌ إلَّا مراقبتِي وتَحَسُّسُ إشَارَاتِي، وكذلِكَ مَنِ اشتغلَ بِمُرَاقَبَةِ مَولَاهُ فِي سائرِ أفعالِهِ، ومَا يطرقُهُ وينزلُ بهِ مِنْ أحكامِهِ، واستشعارِ نظرِهِ إليهِ في سائرِ أعمالِهِ وأحوالِهِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ بَعْضُهُم[3]: مَنْ رَاقَبَ اللهَ ـ سبحانه ـ فِي**

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٤.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٣٠.
(٣) نسب لذي النون المصري في: تهذيب الأسرار ص١٠٧، وبلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/٦٥.

خَوَاطِرِهِ[١] عَصَمَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي جَوَارِحِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ أوَّلَ عاملٍ منَ الإنسانِ قلبُهُ، والخواطِرُ هيَ الدَّواعِي الواردةُ علىٰ القلبِ الدَّاعيةُ إلىٰ أعمالِ القلوبِ والجوارحِ، فتارةً تكونُ منَ الشَّيطانِ، وتارةً تكونُ منَ النَّفسِ، وتارةً تكونُ بواسطةِ الملكِ، وتارةً يخلقُهَا اللهُ في قلبِ العبدِ بغيرِ واسطةٍ، فكلُّ مَنْ تثبَّتَ عندَ خواطِرِهِ وعلِمَ حكمَ ما دعَتْ إليهِ ووزَنَها[٢] بالشَّريعةِ، وقَبِلَ مَا ينبغِي قبولُهُ، ونفَىٰ عَنْ قلبِهِ ما يَنْبَغِي نفيُهُ، سَلِمَ في عُقُودِ قَلْبِهِ[٣] وَفِي أفعَالِ جَوَارِحِهِ[٤].

❊ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَسُئِلَ أَبُو الحُسَيْنِ بْنُ هِنْدٍ[٦]: مَتَىٰ يَهُشُّ[٧] الرَّاعِي غَنَمَهُ بِعَصَا الرِّعَايَةِ عَنْ مَرَاتِعِ الهَلَكَةِ؟ فَقَالَ: إِذَا عَلِمَ أَنَّ عَلَيْهِ رَقِيبًا»**.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والرَّاعِي للأغنامِ المُحقِّقُ الصَّادقُ في رعايتِهِ هوَ العالِمُ للحشَائِشِ الَّتِي تضرُّ وتنفعُ، والَّذِي يجوزُ لهُ أنْ تَرعَاهَا غَنَمُهُ والَّذِي لا يجوزُ، وقدْ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٨]: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، فالعبدُ مأمورٌ لعقلِهِ أنْ يُراعِيَ جميعَ أفعالِهِ بقلبِهِ كانَتْ أوْ بجوارحِهِ، فلَا يفعلُ شيئًا منهَا إلَّا إذَا كانَ مأمورًا بهِ، أوْ مأذونًا فيهِ، وكذلِكَ لا يتركُ إلَّا ما يخشَىٰ ضَرَرَهُ فِي آخرتِهِ

---

(١) أي: الواردة علىٰ قلبه.

(٢) في (أ): ووزنه.

(٣) أي: في عزماته وتصميماته التي تكون بشاهد العلم الشرعي. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٦٩.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٤.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٣٠.

(٦) ورد في: شعب الإيمان ١/٥١٢ عن أبي العباس بن سريج القاضي، وبلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/٦٥.

(٧) أي: يسوق.

(٨) سبق تخريجه.

منَ المحرَّمِ أوْ منَ المَكْرُوهِ ويُنْقَصُ[١] درجتُهُ، ولَا يقْوَىٰ علىٰ هذهِ[٢] الرِّعايةِ إلَّا باستشعارِهِ نظَرَ[٣] الحقِّ إليهِ، ورُؤيتَهُ لمَا يفعلُهُ في ظَاهِرِهِ وبَاطِنِهِ[٤] [٨٣/٢ب].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«وَقِيلَ[٦]: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَفَرٍ، فَرَأَىٰ غُلَامًا يَرْعَىٰ غَنمًا، فَقَالَ: تَبِيعُ مِنْ هَذِه[٧] الْغَنَم وَاحِدًا؟ فَقَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي، فَقَالَ: قُلْ لِصَاحِبِهَا: إِنَّ الذِّئْبَ أَخَذَ مِنْهَا وَاحِدًا، فَقَالَ الْعَبْدُ: فَأَيْنَ اللهُ؟! فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ مُدَّةٍ: قَالَ ذَلِكَ الْعَبْدُ: فَأَيْنَ اللهُ؟».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ ابنَ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعجبَتْهُ حركاتُ هذا الرَّاعِي؛ مِنْ حُسْنِ رعايتِهِ في الظَّاهِرِ لهذِهِ الأغنامِ، فأرادَ أنْ يختبرَ باطنَهُ هَلْ هوَ عنْ دينٍ أو عادةٍ؟ وإلَّا فحاشَىٰ[٨] ابنُ عمرَ أنْ يأمُرَهُ بالكذبِ ويقولَ لهُ: «**قلْ لهُ: أكلَهَا الذِّئبُ**»، فلمَّا أعجبَهُ حالُهُ قالَ لهُ: «**تبيعُ مِنْ هذهِ الغنمِ**[٩] **رأسًا؟**»، فلمَّا قالَ لهُ: «**ليسَتْ لِي**»، فعلِمَ دينَهُ، فأرادَ أنْ يزدادَ تثبُّتًا في حالِهِ، فعدلَ إلىٰ المعاريضِ[١٠] قالَ: «**فتقولُ لربِّهَا: إنَّ الذِّئبَ أكلَهَا**»، قالَ: فلمَّا قالَ الغلامُ: «**فأينَ اللهُ؟!**» علِمَ دِينَهُ ومُرَاقبَتَهُ لهُ، فأعجبَهُ حالُهُ وصارَ عبرةً لهُ يتذكَّرُ بهِ زمانًا.

---

(١) في (أ): نقص.

(٢) في (ب): هذا، والصواب المثبت.

(٣) في (ب): ونظر، والأصح المثبت.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٨٤/٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٣٠/١.

(٦) رُوي عنه في: قصر الأمل ص١٢٧، والمعجم الكبير ٢٦٣/١٢، وشعب الإيمان ٣٢٩/٤، وتاريخ دمشق ١٣١/٣١، وتاريخ الإسلام ٤٦٠/٥.

(٧) في (ب): هذا، والصواب المثبت.

(٨) في (ب): فيحاشي، والصواب المثبت.

(٩) في (ب): النعم، والصواب المثبت.

(١٠) في (ب): «المعارض». والمعاريض في الكلام: التورية بالشيء عن الشيء.

وفِي بَعْضِ الرِّواياتِ[(١)]: «أنَّهُ سأَلَ عن ربِّ الغنمِ فاشتَراهُ والغنمَ، وأعتَقَهُ ووهبَهَا لهُ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ[(٣)]: مَنْ تَحقَّقَ[(٤)] فِي المُرَاقَبَةِ خَافَ عَلَىٰ فَوْتِ حَظِّهِ مِنْ رَبِّهِ لَا غَيْرَ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّا قَدْ بيَّنَّا أنَّ المراقبةَ علىٰ درجاتٍ، قدْ يراقبُ الإنسانُ أحكامَ ربِّهِ ليسلَمَ مِنَ العَذَابِ، وقَدْ يُرَاقبُهَا لزيادةِ الثَّوابِ، وقَدْ يُرَاقبُهَا ليرتفعَ عنهُ الحِجَابُ، وقَدْ يُرَاقبُهَا ليكونَ منَ الأحبابِ[(٥)]، فإذَا وصلَ إلىٰ هذا الحالِ الشَّريفِ راقبَ ربَّهُ لِيَسْلَمَ مِنَ الغَفَلَاتِ الَّتِي[(٦)] يفوتُ بسببِهَا حظُّهُ مِنْ مَوْلَاهُ، فيكونُ مُرَاقبًا لقلبِهِ، دائمَ النَّظرِ لمَا يتفضَّلُ بهِ عليهِ، شاكرًا لمَا يُسديهِ إليهِ، خائفًا منَ التفاتِهِ لنفسِهِ أوْ لحظوظِهَا خوفًا مِنْ فَوَاتِ حَظِّهِ مِنْ مَوْلَاهُ، وما يُلْقِيهِ إليهِ ويَدُلُّهُ بفضْلِهِ عليهِ مِنْ زياداتِ التَّعريفِ بهِ، وَتَوالِي نِعَمِهِ عليهِ مِنْ رَبِّهِ، فكانَتْ مُرَاقَبَتُهُ علىٰ هذَا التَّقريرِ خوفًا مِنْ فواتِ حَظِّهِ منهُ أفضلَ المُرَاقَبةِ[(٧)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٨)]: «**وَكَانَ بَعْضُ المَشَايِخِ لَهُ تَلامِذَةٌ، فَكَانَ يَخُصُّ وَاحِدًا مِنْهُمْ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُقبِلُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، فَقَالُوا لَهُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أُبَيِّنُ**

---

(١) كما في: شعب الإيمان ٦/٣٨٦، وإحياء علوم الدين ٤/٣٩٨، وصفة الصفوة ٢/١٨٨، وأسد الغابة ٣/٣٤٨، والعلو للعلي الغفار ص١١٧.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٣٠.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٠٥، وإحياء علوم الدين ٤/٣٩٧، ومدارج السالكين ٢/٦٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥.

(٤) أي: ثبت.

(٥) وذلك أعلىٰ درجات المراقبة. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٧٠.

(٦) في (ب): الذي، والصواب المثبت.

(٧) في (ب): المراتب، وهو تحريف. وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٥.

(٨) الرسالة القشيرية ١/٣٣٠ ـ ٣٣١.

لكُمْ، فدَفعَ إلَىٰ كُلِّ واحِدٍ مِنْ تَلامِذَتِهِ طائِرًا، وقَالَ لَهُ: اِذْبحْهُ بِحَيْثُ لَا يَراهُ أَحَدٌ، ودَفعَ إلَىٰ هَذَا [١٨٤/٢أ] أيضًا، فمَضوا، ورَجعَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ وقَدْ ذَبحَ طائِرَهُ، وجاءَ هَذَا بالطَّائِرِ حيًّا، فقَالَ: هلَّا ذَبحْتَهُ؟ فقَالَ: أمَرْتَنِي أَنْ أَذْبَحَهُ بحَيْثُ لَا يَراهُ أَحَدٌ، ولَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا لَا يَراهُ أَحَدٌ، فقَالَ: لِهَذَا أَخُصُّهُ بإقْبالِي عَلَيْهِ»[١].

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ مقامَ المُراقبةِ للهِ ـ تعالىٰ ـ أفضلُ المقاماتِ، وإنِ ارتفعَتْ مَقامَاتُ العارِفِينَ، وقوِيَ اجتهادُهُمْ، وكثُرَتْ أعمالُهُمْ، وارتفعُوا في أخلاقِهِمُ المحمودَةِ، وبَعُدُوا عنْ أخلاقِهِمُ المَذْمُومَةِ، فهُمْ مشغولُونَ بصلاحِ قلوبِهِمْ وأحوالِهِم.

والمُراقبُ للهِ ـ تعالىٰ ـ قَدْ غَلَبَ علىٰ قَلْبِهِ نَظَرُهُ إليهِ في سَائِرِ تَصرُّفاتِهِ، فكانَ الشَّيخُ يعرفُ فضيلةَ هذَا التِّلميذِ، ورفعةَ مقامِهِ عَنْ بقيَّةِ تلامذتِهِ، فكانَ يقرِّبُهُ لذلكَ، ويخصُّهُ بأسرارِهِ دونَهُمْ، فلمَّا بلغَهُ تغيُّرُهُمْ[٢] وتحسُّسُهُمْ لذلكَ أرادَ أنْ يُعرِّفَهُمْ رِفعةَ مَقَامِهِ عليهِم، فدفعَ لكلِّ واحدٍ طيرًا ولهذَا طيرًا، وأمرَهُمْ بأنْ يذبحَ كلُّ واحدٍ طيرَهُ بحيثُ لَا يراهُ أحدٌ، فذهبَ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلىٰ زاويةٍ وإلَىٰ جِهَةٍ ليسَ فيهَا أحدٌ منَ الآدمِيِّينَ وذبحَ طيرَهُ، وأتىٰ بهِ[٣] مَذْبُوحًا، وأتىٰ هذَا التِّلميذُ بطيرِهِ حيًّا، فسألَهُ: **«لِمَ لَمْ تَذْبَحْ طيرَكَ؟ فقالَ: أمرتَنِي بحيثُ لَا يرانِي أحدٌ، ولَمْ أَجِدْ مَكانًا إلَّا واللهُ يَرانِي فيهِ، فقالَ: لهذَا أقدِّمُهُ عليكُم»**؛ لأنَّهُ معَ الحقِّ، وأنتُمْ معَ الخلقِ.

ويحتملُ رواحُهُ بالطَّيرِ[٤] ومجيئُهُ بهِ حيًّا أحدَ معنيَينِ:

أحدُهُمَا: أنْ يكونَ خطرَ لهُ وقتَ أمرِ الشَّيخِ لهُمْ بالذَّبحِ بحيثُ لا يَراهُ أحدٌ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ب): تغير، والصواب المثبت.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) في (ب): بالطيرة، والأصح المثبت.

أنَّ ذلكَ لا يمكِنُ، ثمَّ مَضَىٰ معَ علمِهِ بأنَّهُ لا يُمْكِنُ مُوافقَةً مَعَ الجَمَاعةِ[(١)]، ثمَّ أتَىٰ بهِ وأخبَرَ الشَّيخَ بمَا وقعَ لهُ، ولكنَّهُ اتَّبعَ مرسومَهُ لإقامةِ الحجَّةِ علىٰ بقيَّةِ التَّلامذةِ.

و[الثَّاني]: يحتملُ أنْ يكونَ إنَّمَا خطرَ لهُ بعدَ مُضيِّهِ وتفتيشِهِ، فنُبِّهَ فرجعَ ولمْ يذبحْ، ولهذَا قالَ بعضُهُمْ[(٢)]: «مَا رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ معَهُ»، وقالَ بعضُهُمْ[(٣)]: «مَا رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ قبلَهُ»، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ الغالبُ علىٰ قلبِهِ ذكْرَ ربِّهِ، ودوامَ نظَرِهِ إليهِ في سَائِرِ أَحْوالِهِ، ومتىٰ تجدَّدَ متجدِّدٌ لمْ يزدْهُ شيْئًا لعلْمِهِ بأنَّهُ منهُ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لا يتذكَّرُ إلَّا معَ التَّجدُّدِ، فإذا وقعَ واقعٌ أو حدثَ حادثٌ علِمَ أنَّهُ منَ اللهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ[(٥)]: عَلَامَةُ المُرَاقَبَةِ: إِيْثَارُ مَا آثَرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، وَتَعْظِيمُ مَا عَظَّمَ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ، وَتَصْغِيرُ مَا صَغَّرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ** [٢/٨٤ب]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَه[(٦)] مُراقبةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عندَ الحركاتِ والسَّكناتِ فِي عمومِ الأوقاتِ، وكلُّ مَنْ عظَّمَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ الأنبياءِ والملائكةِ والصَّالحينَ عظَّمَهُ، وكلُّ مَنْ أهانَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وأبعَدَهُ منَ الكفرةِ والمبتدِعَةِ والعصاةِ المخلطِينَ أبعدَهُ وأنزلَهُ منزلتَهُ.

فمِنْ علامةِ مراقبةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لأوامرِهِ ونواهِيهِ تعظيمُ ما عظَّمَ، وتحقيرُ ما

---

(١) علىٰ معنىٰ أنه خرج مع علمه ليوافق الجماعة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢/٢٤٧، وتاريخ دمشق ١٧/٤١٤، وتهذيب الأسرار ص١٠٥، ومدارج السالكين ٢/٦٥، وإحياء علوم الدين ١٣/١٨٧.

(٦) في (ب): وهذا، والصواب المثبت.

حقَّرَ، ولا يتمُّ لهُ ذلكَ ويَكْمُلُ إلَّا باستشعارِ نظرِهِ إليهِ في سائرِ حركاتِهِ، وهوَ المشارُ إليهِ بالخبرِ الصَّحيحِ[1]: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، والعِبَادةُ [فِي حَالَةِ] «كأنَّكَ[2] تَراهُ» أتمُّ مِنْ «كأنَّهُ يَرَاكَ»[3].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]: **«وَقَالَ النَّصرَاباذِي[5]: الرَّجَاءُ يَجُرُّكَ إِلَى الطَّاعَاتِ، والخَوْفُ يُبْعِدُكَ عَنِ المَعَاصِي، وَالمُرَاقَبَةُ تُؤَدِّيكَ إِلَى طُرُقِ الحَقَائِقِ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ العبدَ إذَا رجَا شيئًا ينفعُهُ تحرَّكَتْ نفسُهُ إلى تحصيلِهِ، فكلُّ ما يُرْجَى في الآخرةِ إنَّمَا يتوسَّلُ إليهِ بالطَّاعاتِ، فمِنْ هذا الوجْهِ كانَ الرَّجاءُ يجرُّ إلى فِعْلِ الطَّاعاتِ، أيْ: يحملُ عليهَا، وكذلِكَ مَنْ خافَ مِنْ شيءٍ هربَ منهُ، فمتَى خافَ الإنسانُ المعاصِيَ الَّتِي هيَ أسبابُ دخولِ النَّارِ هربَ منهَا[6].

وأمَّا مَنْ شغلَ قلبَهُ بِمُرَاقَبَةِ اللهِ - تعالى - عندَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ أَوصَلَهُ ذلكَ إلى دَرَجَاتِ الحَقَائقِ، والحَقَائقُ عندَهُمْ غلبةُ ما هوَ فيهِ على قلبِهِ؛ حتَّى لا يشتغلَ بغيرِ ربِّهِ، وربَّمَا شغلَهُ ذلكَ عَنْ نَفْسِهِ وجَرَتْ طاعاتُهُ عليهِ، وهوَ بعيدٌ منْ دعوَاهَا مضيفٌ لهَا إلى ربِّهِ شاكرًا لهُ علَى نِعَمِهِ، وهذِهِ هيَ الحَقَائقُ عندَ القَومِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[7]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَأَلْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ عَنِ المُرَاقَبَةِ، فَقَالَ[8]: مُرَاعَاةُ السِّرِّ**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ب): كأن، والصواب المثبت.

(٣) لأنها قد تجامع الغفلة. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٧١.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٥) ورد بلا نسبة في: تهذيب الأسرار ص١٠٦، ومدارج السالكين ٢/٦٦.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٦.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٨) ورد في: مدارج السالكين ٢/٦٦، والإرشاد والتطريز ص١٣٤.

لِمُلَاحَظَةِ الحَقِّ مَعَ كُلِّ خَطْرَةٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **والسِّرُّ هاهُنَا:** هوَ ما يقعُ في القلبِ منَ الأوامرِ والنَّواهِي، والحقُّ هاهُنَا قدْ يرادُ بهِ الشَّرعُ، فيكونُ المرادُ بهِ: أنْ يراعِيَ خواطِرَهُ ويعرفَ أحكامَهَا بالشَّريعةِ فيقبلَ أوْ يَرُدَّ، فإذَا كانَ كذلِكَ سلِمَ منْ عُقُودِ قَلْبِهِ وفِعْلِ جَوارِحِهِ.

وَقَدْ يكونُ مُرَادُهُ بالحقِّ اللهَ ـ سبحانه ـ، فيكونُ يستشعرُ نظرَ الحقِّ إليهِ معَ تحسُّسِهِ لمَا يقعُ في قلبِهِ منَ الخواطِرِ، ويكونُ حالُهُ أمكنَ، فيُرَاقبُ خَواطِرَهُ، ويُرَاعِي نظَرَ رَبِّهِ ـ تعالىٰ ـ إليهِ في كلِّ خَاطِرٍ يَخْطُرُ لَهُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ** [٢/١٨٥أ]: **سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ**[(٢)]: **أَمْرُنَا هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَىٰ فَصْلَيْنِ**[(٣)]**؛ وَهُوَ أَنْ تُلْزِمَ نَفْسَكَ المُرَاقَبَةَ للهِ ـ تعالىٰ ـ، وَيَكُونَ العِلْمُ عَلَىٰ ظَاهِرِكَ**[(٤)] **قَائِمًا**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ هوَ الَّذِي فسَّرْنَا بهِ مَا قبلَهُ، وذلِكَ أنَّ مُراقبةَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ هيَ استشعارُ نظَرِهِ إليكَ وقيامُ العلمِ علىٰ ظاهِرِهِ، وهوَ أنْ تكونَ حركاتُهُ وسكناتُهُ مَوْزُونَةً بالشَّرِيعَةِ، ولا يتمُّ لهُ ذلكَ إلَّا بمراعاةِ خَواطِرِهِ أوَّلًا؛ فإنَّ عنهَا تكونُ أعمالُ جوارحِهِ، بَلْ عقودُ قلبِهِ، فإذَا راعَىٰ خواطِرَهُ قبلَ الفِعْلِ صَارَ العِلْمُ دليلًا علىٰ عُقُودِ قلبِهِ وأَفْعَالِ جَوَارِحِهِ، ولهذَا كانَ العلمُ علىٰ ظَاهِرِهِ قَائِمًا.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الاسرار ص١٠٣، وإحياء علوم الدين ٤/٣٩٧، ومدارج السالكين ٢/٦٦، والإرشاد والتطريز ص١٣٤.

(٣) في (ف): خصلتين.

(٤) في (ب، ف): ظاهره، والأصح المثبت.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[(٢)]: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُرْتَعِشَ يَقُولُ: المُرَاقَبَةُ مُراعَاةُ السِّرِّ[(٣)] بِمُلَاحَظَةِ الغَيْبِ مَعَ كُلِّ لَحْظَةٍ وَلَفْظَةٍ**».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ مُراقَبَةُ مَا يحدثُهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في قلبِ العبدِ، ومَا يُجرِيهِ علىٰ ظَاهِرِهِ وعلىٰ غَيْرِهِ منَ الحُكْمِ المغيَّبِ الَّذِي يظهرُ عندَ وُجُودِهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَسُئِلَ ابْنُ عطَاءٍ[(٥)]: ما أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ؟ فَقَالَ: مُرَاقَبَةُ الحَقِّ عَلَىٰ دَوَامِ الأَوْقَاتِ**».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي أشارَ إليهِ الخبَرُ الصَّحيحُ[(٦)] لمَّا سألَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنِ الإحسانِ، فأجابَهُ بـ«أنْ تعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأفضلُ العِبَاداتِ وأَكْمَلُهَا رُؤيةُ المَعْبُودِ فِي وَقْتِ العِبَادةِ، فإنَّهُ أبعدُ عنِ الزَّلَلِ، وأبلغُ فِي إجادَةِ العَمَلِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «**وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ[(٨)]: المُرَاعَاةُ تُورِثُ المُرَاقَبَةَ، والمُرَاقَبَةُ تُورِثُ خُلُوصَ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ للهِ ـ تعالىٰ ـ**».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **والمُرَاعَاةُ**: هيَ رعايةُ الأحكامِ بالنِّسبةِ إلىٰ الأفعالِ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٧٣، وتهذيب الأسرار ص١٠٦، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٨٣.

(٣) في (ب): النفس، والأصح المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٥) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٣/١٨٠.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٨) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٦٦، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٨٧.

في القلبِ والجوارحِ ، فإذَا تكرَّرَ منهُ هذَا الفعلُ فراعَىٰ أحكامَ اللهِ عندَ كلِّ حركةٍ وسكنَةٍ بقلبِهِ وجوارِحِهِ تكرَّرَ نظرُهُ إلى اللهِ ـ تعالىٰ ـ وقصدُهُ إليهِ ، فإنَّهُ عندَ(١) كلِّ فِعْلٍ لا بُدَّ أنْ يُقْصَدَ بهِ اللهُ ، فَتُكْسِبَهُ هذهِ المراعاةُ المراقبةَ ، ويَسْتَشْعِرَ نظَرَ الحقِّ إليهِ عندَ كلِّ حركةٍ وسكَنَةٍ.

وإذَا استقرَّ ذلكَ في قلبِهِ أفردَهُ بالقصدِ والفعلِ دونَ غيرِهِ ، فيكسبُهُ ذلِكَ صَفَاءَ السِّرِّ وكَمَالَ الإخلاصِ فيمَا بينَهُ وبينَ مَولَاهُ [٢/٨٥ب] ، وإذا دامَ علىٰ ذلِكَ استغرقَ فيهِ ربُّهُ عمَّنْ سِوَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ(٣): أَفْضَلُ مَا يُلْزِمُ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ: المُحَاسَبَةُ ، وَالمُرَاقَبَةُ ، وَسِيَاسَةُ عَمَلِهِ بِالعِلْمِ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ، فإنَّ حقيقةَ المحاسبةِ التَّثبُّتُ قبلَ الفعْلِ ، ومحاسبةُ النَّفسِ عليهِ بالعلمِ ، فإنْ صحَّ دخلَ ، وإنْ لمْ يصحَّ أعرضَ ، والمراقبةُ: استشعارُ نظرِ الحقِّ إليكَ فِي كلِّ حركةٍ وسكنةٍ ، وأمَّا وزنُ مَا أنتَ فيهِ بالعلمِ فهوَ يجرِي في الأعمالِ والأحوالِ والحقائقِ ، فإنَّهُ لكلِّ رُتْبَةٍ عِلْمٌ شَرْعِيٌّ ، بهِ تورثُ وتعرفُ صحَّتهَا.

فوزنُ الأعمالِ: أنْ تقعَ علىٰ مُقتضَىٰ الطَّلَبِ.

ووزنُ الأحوالِ: أنْ تلازمَهَا شُرُوطُ الأدبِ.

---

(١) في (ب): ضد ، وهو تحريف.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

(٣) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٣٩٧ ، ومدارج السالكين ٢/٦٦.

ووزنُ الحقائقِ: أنْ تغلبَ علىٰ القلبِ حتَّىٰ لا يلتفتَ لسببٍ[١].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ[٢] الرَّازِي؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ يَقُولُ: قَالَ لِي أَبُو حَفْصٍ[٣]: إِذَا جَلَسْتَ لِلنَّاسِ فَكُنْ وَاعِظًا لِقَلْبِكَ وَلِنَفْسِكَ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُمْ يُرَاقِبُونَ ظَاهِرَكَ وَاللهُ ـ تعالىٰ ـ رَقِيبٌ [عَلَىٰ][٤] بَاطِنِكَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ينبغِي أنْ يكونَ، وهذا الَّذِي ينتفعُ بوعظِهِ وتذكيرِهِ، فإنَّهُ إذا صَلُحَتْ[٥] نيَّتُهُ في وعظِ نفسِهِ خرجَ الكلامُ مِنْ قلبِهِ لهُ وَقْعٌ فِي نفسِ السَّامعِ، فإذَا انتفعَ السَّامعُ بهِ عادَتْ بركتُهُ علىٰ قلبِ القائِلِ، فصارَ الحالُ نورًا علىٰ نورٍ، يهدِي لنورِهِ مَنْ يشاءُ.

وإذا لمْ يكنْ مَقْصُودُهُ الصِّدقَ ومُرَاعاةَ حَالِ نفسِهِ في سائِرِ ما يقولُهُ ويعظُ بهِ، أوْ يُذَكِّرُ [بهِ][٦] كانَ مُرَائيًا طالبًا حمدَ النَّاسِ بمَا يظهرُ مِنْ حَالِهِ وهوَ كذَّابٌ فيمَا بينَهُ وبينَ ربِّهِ، ولَا يكونُ لكلامِهِ أثرٌ بالغٌ في قلبِ السَّامعِ، وربَّمَا أطلعَ اللهُ السَّامعَ علَىٰ بعضِ تكلُّفِ القائلِ فيسوءُ ظنُّهُ بهِ ويرجعُ الحالُ ظلماتٍ بعضهَا فوقَ بعضٍ، مِنْ حيثُ القائِلُ والسَّامِعُ والعياذُ باللهِ من هذِهِ الأحوالِ، فإنَّهَا بعيدةٌ منَ الانتفاعِ في الحالِ وفِي المَآلِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٨٧.

(٢) في (ب): عبد الرحمن.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص ١٠٣، وإحياء علوم الدين ٤/٣٩٧.

(٤) تتمة من مظان توثيق قوله.

(٥) في (ب): فإنه تصلح.

(٦) تتمة من (ب).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الصَّيْدَلَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الخَرَّازَ يَقُولُ[٢]: قَالَ لِي بَعْضُ مَشَايِخِي: عَلَيْكَ بِمُرَاعَاةِ سِرِّكَ [٢/١٨٦أ] وَالمُرَاقَبَةِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا أَسِيرُ فِي البَادِيَةِ إِذَا أَنَا بِخَشْخَشَةٍ خَلْفِي، فَهَالَنِي[٣] ذَلِكَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَلْتَفِتَ فَلَمْ أَلْتَفِتْ، فَرَأَيْتُ شَيْئًا وَاقِفًا عَلَىٰ كَتِفِي، فَانْصَرَفَ وَأَنَا مُرَاعٍ لِسِرِّي، ثُمَّ التَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِسَبُعٍ عَظِيمٍ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **ومقصودُ هذهِ الحكايةِ**: أنَّ الَّذي وصَّاهُ شيخُهُ بمراعاةِ سِرِّهِ بمَا دلَّهُ بهِ علىٰ الطَّريقِ الَّتي يقوِّي بهَا[٤] يقينُهُ، بأنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ ولا مُعْطِيَ ولا مانعَ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فلمَّا عَمِلَ علىٰ ذلكَ وألزمَ نفسَهُ أنَّهُ لا يخافُ مِنْ غيرِ اللهِ، فلمَّا كانَ بالصَّحراءِ وهوَ سائرٌ في طريقِهِ الَّتي قصدَهَا سمعَ خشخشَةً خَلْفَهُ لَا يَدْرِي مَا هِيَ، والإنسانُ إذا كانَ وحدَهُ وسمعَ مثْلَ هذهِ الحركةِ خشِيَ أنْ يكونَ شيئًا يضرُّهُ، فلمَّا وقعَ ذلكَ في قلبِهِ عمِلَ علىٰ ما علَّمَهُ شَيْخُهُ؛ وهوَ أنْ يحفظَ سِرَّهُ معَ اللهِ؛ وهوَ أنْ لا يخافَ غيرَهُ، فأرادَتْ نفسُهُ أنْ تلتفتَ، فمنعَهَا من ذلِكَ حتَّىٰ قرُبَتِ الحركةُ منهُ ودنَتْ ولمْ تضرَّهُ، ثمَّ زالَتْ عنهُ وهدأَ[٥] قلبُهُ، فالتفتَ إليهِ فإذَا هوَ سبُعٌ.

ومثْلُ هذَا ما حَكَىٰ عامرُ بنُ قيسٍ نزلَ واديًا[٦] يُعْرَفُ بوادِي السِّباعِ، فوجدَ فيهِ عابدًا يُصلِّي فِي جانبٍ، وبقِيَ عامرٌ في جهةٍ أخرَىٰ يصلِّي لا يكلِّمُ أحدُهُمَا صاحبَهُ شهرًا أوْ نحوَهُ، إلَّا أنَّهُمَا يجتمعانِ وقتَ الفريضةِ، ويذهبُ كلُّ واحدٍ منهُمَا إلىٰ جهتِهِ الَّتي يتعبَّدُ فيهَا، فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ سَئَلَ عامرُ بْنُ عبدِ قيسٍ صاحبَهُ مَا

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥/١٣٤.

(٣) أي: أفزعني.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) في (ب): ثم هدأ.

(٦) في (ب): بوادٍ، وكلٌّ صواب.

اسْمُكَ؟ فقالَ لهُ: حُمَمَة، فقالَ: إنْ كنتَ حُمَمَه الَّذِي يُذْكَرُ فمَا علىٰ وجْهِ الأرضِ أعبدُ منكَ، فمَا أفادتْكَ هذِهِ العبادةُ الَّتِي بينَكَ وبينَ اللهِ؟، فقالَ لهُ حُمَمة: لولَا الفرائضُ مَا رفعْتُ جبهتِي[١] عنِ الأرضِ تلذُّذًا بالسُّجودِ بينَ يدَي اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ثمَّ قالَ لهُ حُمَمة: مَا اسمُكَ؟ فقالَ: أنَا عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ، فقالَ لهُ: إنْ كنتَ عامِرَ بنَ عبدِ قيسٍ الَّذِي أسمَعُ، فمَا علىٰ وجْهِ الأرضِ أعبدُ منكَ، فمَا الَّذِي أفادَتْكَ هذِهِ العبادةُ مِنَ الحالِ[٢] بينكَ وبينَ اللهِ؟ فقالَ: لقَدْ هِبْتُ اللهَ مَهابةً حتَّىٰ لا أهابَ غيرَهُ، فمَا استتمَّ عامرٌ مِن[٣] حَديثِهِ معَهُ إلَّا وَسَبُعٌ قَدْ أقبلَ منَ الصَّحراءِ، فلمْ يزَلْ حتَّىٰ وضعَ يدَيهِ علىٰ كتِفَي عامرٍ مِنْ خلْفِهِ وهوَ ينفخُ فِي قفاهُ، وهوَ يتلُو آيةً من كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فمَا تردَّدَ ولا تَلعثَمَ[٤]، فمكثَ ساعةً ثمَّ نزلَ السَّبُعُ عن كتفَيهِ وذهبَ.

فأرادَ اللهُ ـ سبحانه ـ أنْ يعرِّفَ [٢/٨٦ب] حُمَمة صِدْقَ عامرٍ بالحالِ والمَقالِ جميعًا، وهذا هوَ الَّذِي رغَّبَ هذا التِّلميذَ فِي تعليمِهِ وأوصَاهُ بهِ شيخُهُ، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يَمُنُّ علينَا بمَا مَنَّ بهِ عليهِمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٦]: أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ حِفْظُ الأَوْقَاتِ؛ وَهُوَ أَلَّا يُطَالِعَ العَبْدُ غَيْرَ حَدِّهِ، وَلَا يُرَاقِبَ[٧] غَيْرَ رَبِّهِ، وَلَا يُقَارِنَ غَيْرَ وَقْتِهِ**».

---

(١) في (ب): رأسي.

(٢) في (ب): الأحوال.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) في (أ، ب): تعلثم، والصواب المثبت. والقصد: ما توقف. انظر: الفائق ٣/٢٤٢.

(٥) الرسالة القشيرية ١/٣٣٢.

(٦) نسب للجنيد في: الفتوة ص٧٣، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص٩١.

(٧) في (ف): يوافق.

❊ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، وقَدْ تقدَّمَ أنَّ الوقتَ عندَهُمْ قَدْ يُطلَقُ علىٰ حالِ الإنسانِ الَّذِي هوَ فيهِ، فيراعيهِ ولَا يتعدَّاهُ إلىٰ غيرِهِ قبلَ أنْ يحكمَهُ ويقفَ حيثُ أوقفَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ أنْ ينقلَهُ ويتأدَّبَ معَ اللهِ - تعالىٰ - في حالِهِ الَّذِي هوَ فيهِ، فلا يغفلُ عنهُ، وهكذَا يكونُ حالُهُ في كلِّ مقامٍ رفعَهُ إليهِ أنْ يُتْقِنَهُ ويتأدَّبَ فيهِ معَ ربِّهِ، ولَا يغفلَ فيهِ بِمُرَاقبتِهِ.

فهذِهِ الأحوالُ هيَ أشرفُ الأحوالِ فِي السُّلوكِ إلىٰ ملكِ المُلُوكِ، وأبعدُ عنِ الحَيْدِ عنِ الحقِّ أوِ الدُّلُوكِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الرِّضَا»

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].. الآية.

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا الكُدَيمِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ السَّلَّالُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ العَبَّادَانِيُّ[٢]، عَنِ الفَضْلِ بْنِ عِيسَىٰ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ[٣]: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي مَجْلِسٍ لَهُمْ، إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ عَلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؛ سَلُونِي[٤]، قَالُوا: نَسْأَلُكَ الرِّضَا عَنَّا، قَالَ: رِضَايَ عَنْكُمْ أَحَلَّكُمْ دَارِي، وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي، هَذَا أَوَانُهَا، فَسَلُونِي، قَالُوا: نَسْأَلُكَ الزِّيَادَةَ، قَالَ: فَيُؤْتَوْنَ بِنَجَائِبَ مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ، أَزِمَّتُهَا زُمُرُّدٌ أَخْضَرُ وَيَاقُوتٌ أَحْمَرُ، فَجَاءُوا عَلَيهَا تَضَعُ حَوَافِرَهَا عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهَا، فَيَأْمُرُ اللهُ ـ سبحانه ـ بِأَشْجَارٍ عَلَيْهَا الثِّمَارُ، وَتَجِيءُ جَوَارٍ مِنَ الحُورِ العِينِ وَهُنَّ يَقُلْنَ: نَحْنُ النَّاعِمَاتُ[٥] فَلَا نَبْؤُسُ، وَنَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ [أَبَدًا][٦]، أَزْوَاجُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كِرَامٍ، وَيَأْمُرُ اللهُ ـ سبحانه ـ بِكُثْبَانٍ[٧] مِنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤١.

(٢) في (ب): البغدادي، والصواب المثبت.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٢٠٩، والبيهقي في البعث والنشور ص٦٥٧، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/٣٠٩.

(٤) قال ذلك لهم بواسطة ملك، أو بلا واسطة مع التنزيه عن الحروف والأصوات. انظر: نتائج الأفكار ٣/١٧٦.

(٥) في (ب): النعامات، والصواب المثبت.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) أي: بتلال.

مِسْكٍ أَبْيَضَ أَذْفَر، فَتُثِيرُ عَلَيْهِم رِيحًا يُقَالُ لَهَا: المُثِيرَةُ؛ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ بِهِمْ إِلَىٰ جَنَّة عَدْنٍ [٢/١٨٧أ]، وَهِيَ قَصَبَةُ الجَنَّةِ، فَتَقُولُ المَلائِكَةُ: يَا رَبَّنَا؛ قَدْ جَاءَ القَوْمُ، فَيَقُولُ ـ تعالىٰ ـ: مَرْحَبًا بِالصَّادِقِينَ، مَرْحَبًا بِالطَّائِعِينَ، قَالَ: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الحِجَابُ، فَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ـ تعالىٰ ـ، فَيَتَمَتَّعُونَ بِنُورِ الرَّحْمَنِ حَتَّىٰ لَا يُبْصِر بَعْضُهُم بَعْضًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجِعُوهُم إِلَىٰ القُصُورِ بِالتُّحَفِ، قَالَ: فَيَرْجِعُونَ وَقَدْ أَبْصَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: والخَبَرُ صحيحٌ، ونحنُ بعونِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ نتكلَّمُ علىٰ حقيقةِ الرِّضَا لغةً وشرعًا، ونبيِّنُ أسبابَ حُصُولِهِ، والثَّمرةَ الَّتِي تترتَّبُ عليهِ، وأحوالَ الرَّاضِينَ علىٰ ما تقدَّمَ العهدُ فِي مِثْلِهِ.

فأمَّا حقيقةُ الرِّضَا لغةً: فقدْ قالَ الجوهريُّ في كتابِهِ الملقَّبِ بـ(**الصِّحاحِ**)(١): «الرِّضَا مصدرُ رضيتُ، يقالُ: رضيتُ عنهُ رِضًا، ورضيتُ بهِ، ورضيتُ عليهِ بمعنًىٰ، فهوَ مرضِيٌّ، وقدْ قيلَ: فهوَ مرضوٌّ بهِ علىٰ الأصلِ، وأرضيتُهُ عَنِّي، وترَضَّيْتُهُ ـ بالتَّشديدِ ـ؛ إذَا عملتُ في إرضائِهِ بجهدٍ، واسترضيتُهُ وأرضانِي؛ إذَا طلبتُ منهُ الرِّضَا فوَافقَنِي».

وعلَىٰ هذِهِ الأوجُهِ كلِّهَا يكونُ الرِّضَا: المُوافقةَ والقبولَ للأمرِ بسهولةٍ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ.

وقَدْ قالَ المُحَاسبيُّ(٢): «الرِّضَا: سُرُورُ القلبِ بمُرِّ القَضَاءِ».

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب). والقول في الصحاح ٦/٢٣٥٧ ـ بتصرف.

(٢) نسب للجنيد في: تفسير السلمي ١/٢٨٤، ولذي النون في: تفسير السلمي ٢/٤١٢، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٢، واللمع للطوسي ص٨٠، وتهذيب الأسرار ص١٣٠.

وقالَ شيخُ الإسلامِ الهَرَويُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «الرِّضَا: اسمٌ للوقوفِ الصَّادقِ حيثُ مَا وقفَ العبدُ لَا يلتمسُ متقدَّمًا ولا متأخَّرًا ولا يستزيدُ مزيدًا ولا يستبدلُ حالًا».

وهذا الكلامُ يدلُّ علىٰ أنَّ الرِّضَا إنَّمَا يكونُ بَعْدَ وقوعِ القَضَاءِ، وإلا قَبْلَهُ فَعَزْمٌ(٢) علىٰ الرِّضَا، فأيُّ شيءٍ وقعَ رضَا العبدِ بهِ لا يتمنَّىٰ كونَهُ لمْ يقعْ، ولا يتمنَّىٰ زوالَهُ بعدَ أنْ وقعَ ولا خلافَهُ.

وهذَا معنَىٰ كونِهِ يقفُ الوقوفَ التَّامَّ إلىٰ آخرِ كَلامِهِ.

وهذا لا يمنعُ الدُّعاءَ بمَا لمْ يقعْ منَ الخَيْرَاتِ والصَّالحَاتِ، فإنَّ الدُّعاءَ بالمُمْكنِ لا يمنعُ الرِّضَا بالحاصلِ وإنْ لزمَ زوالُهُ إنْ كانَ ممَّا يضادُّهُ، وإنْ كانَ ممَّا لا يضادُّهُ فهوَ سُؤالُ خيرٍ إلىٰ خيرٍ.

وأمَّا إنْ كانَ يضادُّهُ فلَمْ يقصدْهُ الدَّاعِي، وإنَّمَا قصدَ شيئًا آخرَ وإنْ زالَ ضمْنًا ولم يَزَلِ العلماءُ والصَّالحونَ الرَّاضُونَ عنِ اللهِ - تعالىٰ - يسألونَهُ من فضلِهِ المنازلَ العَاليةَ، ويرضونَ بمَا فتحَ لهُمْ، فسؤالُهُمْ للمَنَازِلِ العَاليةِ؛ امتثالًا لأمْرِهِ [٢/٨٧ب] بذلِكَ، وقَدْ قَالَ - تعالىٰ - لنبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩].

فأمرَهُمْ بالدُّعاءِ بهذِهِ الخيراتِ، ونَدبَهُمْ إلَىٰ الرِّضَا بمَا يُجريهِ عليهِم، سواءٌ وافقَ مَا دعَوا بهِ أمْ لمْ يوافقْ، فرضاهُمْ بمَا أجرَاهُ مستندُهُ حُسْنُ نظرِهِ لهُمْ، واختيارُهُمْ، ودعاؤُهُمْ [لهُ](٣) بالمقاماتِ العَاليةِ مستندُهُ جوازُ ذلكَ لهُمْ وإذنُهُ

(١) منازل السائرين ص٥١.

(٢) في (ب): فعدم.

(٣) في (ب): فعدم.

وتَسْوِيفُهُ وَنَدْبُهُ.

وأمَّا أسبابُهُ: فالتَّفكُّرُ في تفاصيلِ مِنَنِهِ عندَهُ وآثارِ تفضُّلِهِ[(١)]، ومَا خصَّهُ بِهِ في أزلِهِ منْ غيرِ عملٍ سَبَقَ منهُ ولا طَاعةٍ، خصَّهُ بالإيمانِ، ونقلَهُ في المَقَامَاتِ إلىٰ أنْ مكَّنَهُ فِي مَقَامِ العِرْفَانِ، وخصَّهُ بالتَّوكُّلِ عليهِ والاعتمادِ علىٰ فضْلِهِ في جميعِ الأحوالِ، ورأَىٰ لُطْفَهُ بهِ وتَقْرِيبَهُ إيَّاهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ منَ الأَعْمَالِ.

فإذَا ألهَمَ اللهُ العَبْدَ إلىٰ كريمِ هذا الإفضالِ، وجزيلِ هذا الإحسانِ رضِيَ بجميعِ ما يُوقِعُهُ بهِ فِي كلِّ وقتٍ وزمانٍ، فهذِهِ بعضُ الأسباب، ولَوْ شُرِحَتْ لطَالَ الكتاب.

وأمَّا ثمراتُ الرِّضَا: ففوائدُهُ لا تُحْصَىٰ، وكفَىٰ ببركتِهِ أنْ يُسَمَّىٰ بابَ اللهِ الأعظمَ[(٢)]؛ وذلكَ لتيسيرِ الطَّاعاتِ علىٰ مَنِ اتَّصفَ بهِ في قلبِهِ ولسانِهِ وعدمِ اعتراضِهِ علَىٰ شيءٍ منَ المقدورِ، ولَوْ بالخطورِ فِي جنانِهِ، فضلًا عنِ نطقِهِ بلسانِهِ، والسَّلامةِ منْ كراهةِ المقدورِ، والتَّعلُّقِ باختيارِ الملكِ الغَفُورِ، وكفَىٰ بهذِهِ الأخلاقِ ذمًّا أنِ اتَّصَفَ بهَا العبدُ فِي الشُّرورِ.

وأمَّا سرورُ الفؤادِ بما يرِدُ في الحالِ فضْلًا عنِ الميعادِ، والرِّضا بمَا يُجريهِ الحقُّ منَ القضاءِ معَ حسنِ الاعتمادِ؛ لعلمِهِ باختيارِ التَّوفيقِ لهُ والسَّدَادِ لمَنْ خصَّهُ بهذا المقامِ منَ العبادِ، وإذَا كانَ الخبَرُ الصَّحيحُ فيهِ قَسَمُ الإلهِ الصَّادقِ في خبَرِهِ علَىٰ لسانِ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قولُهُ[(٣)]: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ»، واللهِ لا يقضِي اللهُ للمؤمنِ قضاءً إلَّا كانَ خيرًا لهُ، فإذَا كانَ هذا فِي أوَّلِ الدَّرجاتِ وهوَ الإيمانُ، فكيفَ بالوصولِ إلىٰ أعلىٰ مَرَاتِبِهِ؛ منَ التَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّسليمِ[(٤)] والتَّفويضِ ونيلِ مقاماتِ الإحسانِ!.

---

(١) في (ب): فضله.

(٢) وجنة الدنيا أيضا. انظر: اللمع للطوسي ص٨٠.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَدِ اخْتَلَفَ العِرَاقِيُّونَ وَالخُرَاسَانِيُّونَ[٢] فِي الرِّضَا، هَلْ هُوَ مِنَ الأَحْوَالِ أَوْ مِنَ المَقَامَاتِ؟

فَأَهْلُ خُرَاسَانَ قَالُوا: الرِّضَا مِنْ [١٨٨/٢أ] جُمْلَةِ المَقَامَاتِ؛ وَهُوَ نِهَايَةُ التَّوَكُّلِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَؤُولُ إِلَى أَنَّهُ مِمَّا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ العَبْدُ بِاكْتِسَابِهِ.

وَأَمَّا العِرَاقِيُّونَ فَإِنَّهُم قَالُوا: الرِّضَا مِنْ جُمْلَةِ الأَحْوَالِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَسْبًا لِلْعَبْدِ، بَلْ هُوَ نَازِلَةٌ تَحُلُّ بِالقَلْبِ كَسَائِرِ الأَحْوَالِ.

وَيُمْكِنُ الجَمْعُ بَيْنَ اللِّسَانَيْنِ[٣]، فَيُقَالُ: بِدَايَةُ الرِّضَا مُكْتَسَبَةٌ لِلْعَبْدِ، وَهِيَ مِنَ المَقَامَاتِ، وَنِهَايَتُهُ مِنْ جُمْلَةِ الأَحْوَالِ وَلَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: قَدْ تقدَّمَ اختلافُ النَّاسِ فِي الرِّضَا: هَلْ هوَ مكتسبٌ تقارنُهُ القدرةُ الحادثةُ، أَوْ غيرُ مكتسبٍ كالنَّوازلِ الضَّروريَّةِ كالرَّعشةِ والرَّعدةِ والحُمَّى وغيرِ ذلكَ منَ الأمورِ الضَّروريَّةِ[٥]؟!

ومَنْ زعمَ أنَّهُ مكتسبٌ قالَ: أوَّلُهُ يسمَّى حالًا؛ لأنَّهُ يطرأُ ويزولُ، ولذلِكَ قيلَ: لَوْ لَمْ تحلّ ما سمِّيَتْ حالًا، وإذَا تمكَّنَ العبدُ فيهِ وتوالَى عليهِ سُمِّيَ مقامًا، وبهذَا الاعتبارِ يصحُّ الجمعُ بينَ كونِهِ حالًا، والنَّوازلِ الَّتِي تطرقُ القلبَ مِنْ غَيْرِ كَسْبِهِ قَدْ تَتَوالَى عليهِ حتَّى يَصِيرَ شِرْبًا لهُ فيُسَمَّى مَقامًا، وبهذَا الاعتبارِ يسمَّى الضَّروريُّ منَ النَّوازلِ والمكتسبُ الَّذِي تمكَّنَ فيهِ مَقَامَاتٍ[٦].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤١ ـ ٣٤٢.

(٢) في (ب): والخراسيون، والصواب المثبت.

(٣) أي: قول الفريقين، ويتحقق ذلك بجعل الأحوال ثمرة المقامات.

(٤) سقط من (ب) قوله: «قال الشارح».

(٥) انظر: الإرشاد للجويني ص٢١٥ ـ ٢٢١.

(٦) انظر: نتائج الأفكار ٣/١٧٧.

قَالَ الشَّيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الرِّضَا، فَكُلٌّ عَبَّرَ عَنْ حَالِهِ وَشِرْبِهِ، فَهُمْ فِي العِبَارَةِ عَنْهُ مُخْتَلِفُونَ، كَمَا أَنَّهُمْ فِي الشِّرْبِ وَالنَّصِيبِ مِنْ ذَلِكَ مُتَفَاوِتُونَ.

فَأَمَّا شَرْطُ العِلْمِ وَالَّذِي هُوَ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَالرَّاضِي بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ هُوَ الَّذِي لَا يَعْتَرِضُ عَلَىٰ تَقْدِيرِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا الكلامُ الأخيرُ هوَ الحدُّ الجامعُ لوَصْفِ الرَّاضِي؛ وهوَ الَّذِي لا يعترضُ علىٰ تقديرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فكانَ ضدَّ الرِّضَا عندَهُ الاعتراضُ علىٰ الجارِي منَ المقدُورِ وكَرَاهيَّتُهُ، وهذَا إنَّمَا يكونُ مُحرَّمًا إذا كانَ معَ غَلَبَةِ الألَمِ علَىٰ القَلْبِ ونِسْيَانِ القَدَرِ، وإلَّا مَنْ ذكَرَ أنَّهُ مَقْدُورُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ واعترَضَ عليهِ وردَّهُ كانَ إلىٰ الكُفْرِ بهِ أَقْربَ مِنهُ إلىٰ المَعَاصِي.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٣)]: لَيسَ الرِّضَا[(٤)] أَلَّا تُحِسَّ بِالبَلَاءِ، إِنَّمَا الرِّضَا أَلَّا تَعْتَرِضَ[(٥)] عَلَىٰ الحُكْمِ وَالقَضَاءِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الجارِي منَ القَدَرِ علىٰ العَبْدِ قِسْمَانِ: مُوافقٌ لهُ، ومُخالِفٌ.

فأمَّا الموافقُ فلَا إشكالَ فِي الرِّضَا بهِ لكلِّ أحدٍ منَ [٢/٨٨ب] النَّاسِ؛ لكونِهِ موافقًا لِهوَاهُ.

وأمَّا المخالفُ فليسَ الرِّضَا ألَّا يُحِسَّ بالبلاءِ ولا بالألمِ، بَلْ يُحِسُّ بذلِكَ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٣٠، وسراج الطالبين ٢/١٢٦.

(٤) أي: ثمرة الرضا.

(٥) في (ب): تتعرض، والأصح المثبت.

ويَتَألَّمُ بهِ ويَرْضَىٰ بمَا أجرَاهُ اللهُ عليهِ ؛ لعلمِهِ بجهلِهِ بعاقبتِهِ وحُسْنِ ظنِّهِ باختيارِ اللهِ لهُ فيهِ ؛ إمَّا فِي الدُّنيَا ، وإمَّا في الآخرةِ.

وتَقْرِيبُهُ بأنَّ الطَّبيبَ إذَا أسقَىٰ العليلَ شيئًا مُرًّا منَ الأدويةِ ، فهوَ يجدُ مَرارتَهُ ويتألَّمُ لِشُربِهِ ، إلَّا أنَّهُ راضٍ بِشُربِهِ محبٌّ لهُ لمَا يرجُو منَ العَافِيَةِ في الحَالِ والمَآلِ ، وإنْ كانَ لا يعرفُ المنفعةَ ، ولكنَّهُ وثِقَ بعِلْمِ الطَّبيبِ وَرَجَا حُصُولَهَا لهُ بفعْلِهِ[١] ، وكذلِكَ الرِّضَا عَنْ[٢] ربِّهِ يجدُ الألمَ ثُمَّ يَرْضَىٰ بِهِ ، ولَا مناقضةَ فيهِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣] : «**وَاعْلَمْ أَنَّ الوَاجِبَ عَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَرْضَىٰ بِالقَضَاءِ الَّذِي أُمِرَ بِالرِّضَا بِهِ ؛ إِذْ لَيْسَ كُلُّ مَا هُوَ بِقَضَائِهِ يَجُوزُ لِلعَبْدِ أَوْ يَجِبُ عَلَيْهِ الرِّضَا ؛ كَالمَعَاصِي وَفُنُونِ مِحَنِ المُسْلِمِينَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ قالَ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ، وكلُّ ما لَا يرضَاهُ منهُمْ لا يجوزُ لهُمُ الرِّضَا بهِ ، وهذَا كلُّهُ مَبْنِيٌّ علَىٰ قَواعِدِ أهلِ السُّنَّةِ منَ أنَّ الأمرَ يخالفُ الإرادةَ ، وأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يأمُرُ بمَا لَا يريدُ وقوعَهُ منَ العبدِ ، وينهَىٰ عمَّا لا يريدُ وقوعَهُ[٤] ، والأمْرُ والنَّهْيُ راجعَانِ إلَىٰ الكلامِ ، والإرادةُ معنًىٰ تُخَصَّصُ بهِ الأفعالُ الحادثةُ بقدرةِ الكبيرِ المتعالِ ، فإذَا كانَ اللهُ ـ سبحانه ـ أجرَىٰ علىٰ العبدِ الكفرَ أوِ البدعَ والمعاصِيَ فلَا يجوزُ لهُ الرِّضَا بذلكَ والسُّرورُ بهِ ، بَلْ يَبْكِي ويتألَّمُ ويتضرَّعُ ويسألُ النَّقْلةَ والسَّلامةَ ؛ لأنَّهُ بذلكَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٠.

(٢) في (ب): عند.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٤) قرر ذلك الغزالي بقوله: «فإن قيل: فكيف ينهي عما يريد ويأمر بما لا يريد ، قلنا: الأمر غير الإرادة» قواعد العقائد ص٢٠٠. وللاستزادة تأمل: نهاية الإقدام ص٢٢٧ ، والمغني للقاضي عبد الجبار ٦/٤ ، وغاية المرام ص٦٨.

أُمِرَ وإنْ كانَ يعلمُ أنَّ ما وقعَ بهِ جميعَهُ ممَّا قُدِّرَ.

وقَدْ تكلَّمَ العُلَمَاءُ فِي قَولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾؛ فإنَّ الرِّضَىٰ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يرجعُ إلىٰ إرادتِهِ الخيرَ بمَنْ رضِيَ بهِ عنهُ، وكذلِكَ محبَّتُهُ لهُ ترجعُ إلىٰ إرادتِهِ الخيرَ وفعلِهِ لهُ.

وتأوَّلَ الإمامُ قولَهُ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ معَ أنَّ الكفرَ مرادٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ وكلُّ حادثٍ، ووجهُ إشكالِهِ أنَّهُ نفىٰ الرِّضَىٰ بالكفرِ وهيَ إرادةٌ[1] لهُ، والكفرُ إذا وقعَ فهوَ مُرادٌ فكانَ الكفرُ إرادةً، ومَا أرادَهُ وتأوَّلَهُ الإمامُ قالَ: يَرضَاهُ مُعَاقبًا عليهِ[2].

وهذَا التَّأويلُ لا يُنْجِيهِ مِنْ كَونِهِ أرادَهُ معَ قولِهِ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾.

والتَّأويلُ الصَّحيحُ ـ واللهُ الموفِّقُ ـ: أنَّ «عبادَهُ» في الآيةِ مَخْصُوصُونَ[3]، كمَا قالَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، والكلُّ عبادُ اللهِ[4]، والذِي لَمْ يجعلْ للشَّيطانِ عليهِمْ سبيلًا بعضُهُم منَ المخصوصِينَ [٢/١٨٩أ] بالحفظِ منَ الشَّيطانِ، كذلِكَ هاهُنَا قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ هُم الَّذينَ سبقَ لهُمُ الإيمانُ، فلا يَرضَىٰ الكفرَ لهُمْ ولا يُريدُهُ ولَا يخلقُهُ.

---

(١) في (ب): إرادته.

(٢) انظر: أصول الدين للزاغوني ص٤٨٩.

(٣) في (أ): مخصوصين، وهو تحريف. وقال الجويني: «أراد الله تعالىٰ بالعباد الموفقين لطاعته المخلصين لعبادته...» لمع الأدلة ص١١٣.
وقال النسفي: «المراد به: المؤمنون دون الكفرة» تبصرة الأدلة ٢/٩٧٢. وانظر: الغنية في أصول الدين ص١٣٢.

(٤) انظر: الاعتقاد للبيهقي ص١٦٠.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ بَعْضُ المَشَايِخِ[(٢)]: الرِّضَا بَابُ اللهِ الأَعْظَمُ، يَعْنِي: مِنْ أُكْرِمَ بِالرِّضَا فَقَدْ لُقِيَ بِالتَّرْحِيبِ الأَوْفَى، وَأُكْرِمَ بِالتَّقْرِيبِ الأَعْلَى».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ أُكْرِمَ[(٣)] بمقامِ الرِّضَا صَارَتْ جميعُ أفعالِ اللهِ ـ تعالى ـ عندَهُ مرضيَّةً مَحْبُوبةً، نِعَمٌ، فيشكرُ [اللهَ][(٤)] عليهَا، ويحبُّ مَنْ تكرَّمَ عليهِ بهَا، فقدْ فُتِحَ لهُ بابٌ عظيمٌ في تيسيرِ الطَّاعاتِ والقُرُبَاتِ والزُّلْفَى لخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ[(٥)].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: أَخْبَرَنَا أَبُو جعْفَرٍ الرَّازِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا العَبَّاسُ بْنُ حَمْزَةَ [قال][(٧)]: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ[(٨)]: الرِّضَا بَابُ اللهِ الأَعْظَمُ، وَجَنَّةُ الدُّنْيَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا[(٩)] صحيحٌ، أمَّا «**بابُ اللهِ الأعظمُ**» فمِنْ حيثُ كانَ ميسَّرًا لسائرِ الطَّاعاتِ، رائيًا جميعَ ما ينزلُ منْ ربِّهِ بهِ نعمةً، وإنْ كانَ منَ المؤلِمَاتِ، فشكرَ في جميعِ أحوالِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٢) ورد في: منارات السائرين ص٧٩.

(٣) في (ب): ألزم.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩١.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٧) زيادة من (ف).

(٨) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه ص٥١، وحلية الأولياء ٦/١٥٦، واللمع للطوسي ص٨٠، وجامع العلوم والحكم ص١٩٥.

(٩) في (أ): وهو، والصواب المثبت.

وأمَّا كونُهُ «جنَّةَ الدُّنْيَا» فمنْ حيثُ راحةُ قلبِه مِنْ هُمُومِ التَّقديراتِ، وعَذَابِ الحِرْصِ علىٰ الحَاصِلِ والألمِ علىٰ الفَائتِ منَ المَحْبُوبَاتِ، وهذا هو غَايةُ النِّعَمِ في الدُّنيَا مِنْ جَمِيعِ المَلْذُوذَاتِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَاعْلَمْ أَنَّ العَبْدَ لَا يَكَادُ يَرْضَىٰ عَنِ الحَقِّ - تعالىٰ - إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرْضَىٰ عَنْهُ الحَقُّ - تعالىٰ -؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ: «إنَّ العبدَ لا يَرْضَىٰ عنِ اللهِ - تعالىٰ - حتَّىٰ يَرْضَىٰ عنهُ الحقُّ» صحيحٌ، ولكنْ بالنِّسبةِ لمَا رضِيَ بهِ خاصَّةً فإنَّ اللهَ - تعالىٰ - لَوْ لَمْ يَرْحَمْهُ ويرضَىٰ بهِ لمْ يخلقِ الرِّضَا بقضائِهِ، وخلقَ لهُ السُّخطَ، وهوَ ضدُّ الرِّضا، فمِنْ هذا الوجْهِ كانَ العبدُ لا يرضَىٰ إلَّا إذا رضِيَ اللهُ عنهُ، أيْ: خلقَ لهُ الرِّضَا.

وأمَّا قولُهُ علَىٰ وجْهِ الاستدلالِ: «﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾»، وأنَّهُ قدَّمَ رضَا نفسِهِ علَىٰ رضاهُمْ فلَا دلالةَ فيهِ مِنْ حيثُ اللَّفظُ، فإنَّ الواوَ لا تقتضِي ترتيبًا[٢]، بلْ تدلُّ علىٰ أنَّهُ رضًا عنِ العبدِ، والعبدُ راضٍ عنْ ربِّهِ[٣]، وإنَّمَا قدَّمْنَا رِضَا الحقِّ علىٰ رضَاهُ منْ حيثُ كونُ الحقِّ هوَ المُريدَ لهُ، وهوَ الخالقُ لهُ[٤].

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ [٢/٨٩ب] يَقُولُ[٦]: قَالَ تِلْمِيذٌ لِأُسْتَاذِهِ: هَلْ يَعرِفُ العَبْدُ أَنَّ اللهَ - سبحانه - رَاضٍ عَنْهُ؟ فَقَالَ:

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٢) في (أ): رتبة.

(٣) أي: لمطلق الجمع.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢.

(٦) ورد قوله في: نهاية المرام في دراية الكلام ص٦١، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٥٩٩.

لَا ؛ كَيْفَ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَرِضَاهُ غَيْبٌ ؟ فَقَالَ التِّلْمِيذُ: يَعْلَمُ ذَلِكَ ، فَقَالَ: كَيْفَ ؟ قَالَ: وَجَدْتُ قَلْبِي رَاضِيًا عَنِ اللهِ - تعالىٰ - عَلِمْتُ أَنَّهُ رَاضٍ عَنِّي ، فَقَالَ الأُسْتَاذُ: أَحْسَنْتَ يَا غُلَامُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ تُقَرِّرُ ما قُلْنَاهُ منْ وجهِ الاستدلالِ بمَا عندَ العبدِ علىٰ ما عندَ اللهِ - تعالىٰ - ، وأنَّ الحقَّ - سبحانه - إنَّمَا يخلقُ للعبدِ الرِّضَا بأمْرٍ مَّا[١] إلَّا وهوَ راضٍ عنهُ برِضَاهُ بذلكَ الشَّيءِ ؛ لأنَّ الرِّضَا منَ الحقِّ - سبحانه - يرجعُ إلىٰ إرادتِهِ الخيرَ بالعبدِ وخلقِهِ لهُ ، ولذلكَ قالَ الشَّابُّ لشيخِهِ: «**إذَا وجدتُ قلبِي عنِ اللهِ راضيًا علِمْتُ أنَّهُ راضٍ عنِّي**» ، فإنَّهُ لَوْ لمْ يكنْ راضيًا عنهُ[٢] لمْ يخلقْ لهُ الرِّضَا بالأمرِ المَرضِيِّ بهِ ، ويستدلُّ بالواقعِ على السَّابقِ.

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقِيلَ[٤]: قَالَ مُوسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِلَهِي ، دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ رَضِيْتَ عَنِّي ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَخَرَّ مُوسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **سَاجِدًا مُتَضَرِّعًا ، فَأَوْحَىٰ اللهُ - تعالىٰ - إِلَيْهِ: يَا ابْنَ عِمْرَانَ: إِنَّ رِضَايَ فِي رِضَاكَ بِقَضَائِي**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ ؛ لأنَّ الحقَّ - سبحانه - لا يُعْلَمُ ما يُرضِيهِ إلَّا بالخبرِ عنهُ ، فإذَا أخبرَ - تعالىٰ - بمَا يُرضِيهِ ورضِيَ العبدُ بمَا أخبرَ أنَّهُ يُرضِيهِ فقدْ أرْضَىٰ اللهَ - تعالىٰ - .

وبهذَا التَّقريرِ يتخصَّصُ مَا قدَّمْنَاهُ مِنْ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - إذا خلقَ للعبدِ الرِّضَا دلَّ علَىٰ أنَّهُ راضٍ عنهُ ، وإنَّمَا أردْنَا أنَّهُ إذا خلقَ لهُ مَا يجوزُ الرِّضَا بهِ شرْعًا ورضِيَ العبدُ بذلكَ ، فإنَّ اللهَ - تعالىٰ - قالَ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ، كذلكَ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): به.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٢ - ٣٤٣.

(٤) ورد في: قوت القلوب ٢/٦٧ ، والغنية للجيلاني ص٣٣٠ ، ومدارج السالكين ٢/٢١١.

لا يرضَى لهُمُ المعاصِي ولا البدعَ، ولا يأمُرُهُمْ بالرِّضَا بفعْلِهَا ولا جَريانِهَا عليهِمْ[(١)]، وإنَّمَا أمرَهُمْ بالبكاءِ والتَّضرُّعِ والاستغاثةِ والتَّنصُّلِ، ألَا يُجْرِيهَا عليهِمْ ويغفرُ لهمْ ما وقعَ منهَا؟!، وبهذَا تأوَّلْنَا قولَهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أنَّهُ مخصوصٌ بعبادِهِ الصَّالحينَ المؤمنِينَ، فإنَّهُ لا يخلقُهُ لهُمْ ولا يريدُهُ، كمَا تقدَّمَ التَّأويلُ في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وإنْ كانَ للشَّيطانِ سُلْطَانٌ على بعضِ العَبيدِ، وإنَّمَا سَلَّمَ اللهُ ـ تعالى ـ خواصَّهُ منْ شَرِّ الشَّيطانِ وكيْدِهِ وسَلطنتِهِ بحفظِهِ لهُمْ وَرِعَايَتِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا العَبَّاسُ بْنُ حَمْزَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ[(٣)]: [٢/١٩٠أ] إِذَا سَلَا [العَبْدُ][(٤)] عَنِ الشَّهَوَاتِ فَهُوَ رَاضٍ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يحسنُ أنْ يكونَ مِنْ أسبابِ الرِّضَا، فإنَّ العبدَ إنَّمَا يختلفُ عليهِ الحالُ فيمَا ينزلُ بهِ منَ الأقدارِ لشهَواتِهِ، فمَا اشتهَاهُ قَبلَهُ ومَا لمْ يَشْتَهِهِ نَفرَتْ نفسُهُ منهُ، فإذَا صَرَفَ اللهُ عَنْ قلبِ العبدِ الشَّهواتِ قرُبَ منَ الرِّضَا بجميعِ ما يُجريهِ الحقُّ منَ القضاءِ، سَواءٌ وافقَ هَواهُ أوْ خالَفَهُ، وهذَا ينفعُ فِي المُشتَهَياتِ، وأمَّا صُدُورُ الآلامِ والبَليَّاتِ، وما يطرقُ العبدَ في نفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ وغيرِهِ منَ الأمورِ المُؤلِمَاتِ، فإنَّمَا يكملُ رضَى العبدِ بهِ إذا حسنَ ظنُّهُ بربِّهِ، وأنَّهُ إنَّمَا يجري عليهِ ما فيهِ صلاحُهُ، وجرَّبَ ذلكَ منْ نفسِهِ في عُمُومِ الأوقاتِ، فإذَا

(١) سقط من هنا في (ب) إلى قوله: «ويغفر لهم».

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٣) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه ص٥٥، وطبقات الصوفية ص٧٧، والاستقامة ٢/٧١.

(٤) في (ف): قلبه.

انضافَ هذَا المعنَى إلى الإعراضِ عنِ الشَّهواتِ، تمكَّنَ العَبْدُ في مَقَامِ الرِّضَا بِسَائِرِ أنواعِ القضاءِ وسَلِمَ من جَمِيعِ الآفاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِيَّ يَقُولُ**[(٢)]: **مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّ الرِّضَا فَيَلْزَمْ مَا جَعَلَ اللهُ ـ سبحانه ـ رِضَاهُ فِيهِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ لا يتوصَّلُ إلى رضَا مولَاهُ إلَّا بتعَاطِيهِ ما أمرَ بهِ ورضِيَهُ منْ واجباتِهِ ومندوباتِهِ، فإذَا داوَمَ[(٣)] العبدُ على فِعْلِ ما يرضَاهُ مولَاهُ رضِيَ عنهُ ربُّهُ وقرَّبَهُ وأدناهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ خَفِيفٍ**[(٥)]: **الرِّضَا عَلَى قِسْمَينِ: رِضًا بِهِ، وَرِضًا عَنْهُ؛ فَالرِّضَا بِهِ مُدَبِّرًا، وَالرِّضَا عَنْهُ فِيمَا يَقْضِي**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا التَّقسيمُ بالنِّسبةِ إلى متعلَّقِ رضَا العبدِ، فتارةً يفعلُ مَا أمرَهُ بهِ مولَاهُ واختارَهُ لهُ فيكونُ راضِيًا بفعْلِ ما أمرَهُ بهِ مولَاه، واختارَهُ لهُ ممَّا دلَّتِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ علَى منفعتِهِ بهِ فِي دنيَاهُ وأُخرَاه، وتارةً يرضَى بمَا يطرقُهُ منَ النَّوازلِ في نفسِهِ أوْ ولدِهِ أو مالِهِ وإنْ كانَ مخالفًا لهوَاه، وإنْ كانَ جاهلًا بعواقبِ أمرِهِ لهُ في دنياهُ وأُخراه، ولكنَّهُ يعلمُ أنَّ رضَا مولَاهُ في رضاه، بمَا أنزلَهُ بهِ منْ تصاريفِ حكمِهِ وقضايَاه.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٢) ورد قوله في: الاستقامة ٢/٧٢، والكواكب الدرية ٢/١٤.

(٣) في (أ): دام.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٢٥، وتفسير السلمي ٢/٤١٢، وتفسير الثعلبي ١٠/٢٦٢، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٥٩٩.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ[٢]: طَرِيقُ السَّالِكِينَ أَطْوَلُ؛ وَهُوَ طَرِيقُ الرِّيَاضَةِ، وَطَرِيقُ الخَوَاصِّ أَقْرَبُ، لَكِنَّهُ أَشَقُّ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عِلْمُكَ بِالرِّضَا، وَرِضَاكَ بِالقَضَا»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [٢/٩٠ب] وهذَا صحيحٌ، فإنَّ عملَ المريدِينَ مترتِّبٌ علىٰ مَا وضحتْ أدلَّتُهُ، وعُلِمَتْ فضيلتُهُ شرْعًا منَ الأخلاقِ المحمودةِ والبُعدِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ، فالعبدُ يتكلَّفُ ذلكَ ويتخلَّقُ بهِ حتَّىٰ تحسنَ أخلاقُهُ، وتبعدَ عن قلبِهِ آفاتُهُ ومُفسداتُهُ، وبهذَا كانَتْ[٣] طريقُهُ طويلةً بدوامِ المجاهدةِ والرِّياضةِ والإعراضِ عنِ العوائدِ السَّابقةِ.

وأمَّا طريقُ الخواصِّ؛ وهوَ اعتمادُ قلوبِهِمْ علىٰ اللهِ ورِضَاهُمْ بمَا يُجريهِ اللهُ، فهوَ أقربُ وأيسَرُ لمَنْ يسَّرَ عليهِ، لكنَّهُ أشقُّ علىٰ النُّفوسِ؛ لِسُرْعَةِ مُفَارَقَةِ الهَوَىٰ دُفْعَةً، والرِّضَا بالمُرِّ منَ القضاءِ جُمْلَةً، ومثالُهُ مثالُ مَنْ يبحثُ عنْ[٤] مطلبٍ، فإنْ صادفَهُ استغنَىٰ بهِ، وإنْ لمْ يصادِفْهُ تعرَّضَ لهلاكِ نفسِهِ، فإنَّ الرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ منَ القضاءِ معَ مخالفتِهِ للهوَىٰ عظيمُ القدرِ عندَ اللهِ، وهوَ مخوفٌ يعرِّضُ العبدَ لكراهةِ قدرِ اللهِ، والتَّسخُّطِ بمَا يفعلُهُ مولَاهُ، فإنْ سلِمَ منْ هذهِ الآفاتِ، ورضِيَ بمَا يجوزُ بهِ رضاهُ نالَ الغاياتِ منَ الطَّاعاتِ[٥].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: **«وَقَالَ رُوَيْمٌ[٧]: الرِّضَا[٨]: أَنْ لَوْ جَعَلَ اللهُ جَهَنَّمَ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٢) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٢/٥٩٩.

(٣) في (ب): كان، وكل صواب؛ لأن (الطريق) يذكر ويؤنث. انظر: البلغة ص٨٥.

(٤) في (ب): علىٰ، والأصح المثبت.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٣.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤١٨، والاستقامة ٢/٩٠، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٦٠٠.

(٨) قال العروسي: «المراد بالرضا هذا الفرد الكامل منه» نتائج الأفكار ٣/١٨٢.

عَن[١] يَمِينِهِ مَا سَأَلَ أَنْ يُحَوِّلَهَا إِلَىٰ يَسَارِهِ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومقصودُ هذَا المثالِ[٢] إنَّمَا هوَ التَّعريفُ بأنَّ الرَّاضِي إذَا نزلَ بهِ أشدُّ البلاءِ ـ وهوَ حرقُ النَّارِ مثلًا ـ لا يكرهُ ذلكَ، ولا يتمنَّىٰ زوالَهُ عنه؛ لكونِ العاقبةِ مغيَّبةً عنهُ، ولمْ يُرِدْ نارَ الآخرةِ الَّتِي هيَ عقوبةٌ علَىٰ التَّحقيقِ، وإنَّمَا أرادَ البلاءَ الشَّديدَ إذا نزلَ بالرَّاضِي لا يكرهُهُ ولَا يتمنَّىٰ زوالَهُ؛ رضًىٰ بمَا يُجْرِيهِ الحقُّ عليهِ من بلائِهِ.

وأمَّا دخولُ النَّارِ الكُبرَىٰ وجميعُ أسبابِ دخولِهَا؛ منَ الكفرِ والمَعَاصِي فإنَّ العبدَ لا يرضَىٰ، ويتألَّمُ ويسألُ ويبكِي ويتضرَّعُ ألَّا يبتليَهُ بهِ، ويُبْعِدَهُ منهُ جهدَهُ، هذا مرادُهُ، واللهُ أعلمُ[٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ طَاهِرٍ[٥]: الرِّضَا: إِخْرَاجُ الكَرَاهِيَّةِ مِنَ القَلْبِ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ فِيهِ إِلَّا فَرَحٌ وَسُرُورٌ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «إخراجُ الكراهيَّةِ منَ القلبِ» مطلقًا لا يصحُّ أنْ يكونَ منَ الرِّضَا؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أمرَنَا بكراهيَّةِ مَا كَرِهَ، والرِّضَا بمَا رَضِيَ، وإنَّمَا الَّذِي ينبغِي أنْ يَزُولَ كراهتُهُ منْ قلبِ العبدِ أنْ يكرَهَ أفعالَ ربِّهِ ممَّا لمْ يتألَّمْ بهِ ويتضرَّرْ منَ البلاءِ في جسمِهِ [٢/٩١أ]، أوْ فِي ولدِهِ أوْ مالِهِ وأقاربِهِ ومَا يتعلَّقُ بهِ ممَّا فيهِ منفعتُهُ، فإذَا نزلَ بلاءٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وأتلفَ مَا كانَ العبدُ يحبُّ بقاءَهُ، أوْ أحدثَ بهِ ما يكرَهُ نُزُولَهُ رضِيَ بجميعِ ذلكَ، ولَا يكرهُ شيئًا منْ ذلِكَ؛ لعلمِهِ بأنَّهُ

---

(١) في (أ، ف): علىٰ.

(٢) في (ب): المقال.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٣٠، وسراج الطالبين ١/٥١.

اختيارُ مَوْلاهُ، وجهلِهِ بحُسْنِ عاقبتِهِ لهُ في[1] دُنياهُ وأُخْرَاهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ الوَاسِطِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: **اسْتَعْمِلِ الرِّضَا جُهْدَكَ، وَلَا تَدَعِ الرِّضَا يَسْتَعْمِلُكَ[4]، فَتَكُونَ مَحْجُوبًا بِلَذَّتِهِ وَرُؤْيَتِهِ عَنْ حَقِيقَةِ مَا تُطَالِعُ.**

وَاعْلَمْ: أَنَّ هَذَا الكَلَامَ الَّذِي قَالَهُ الوَاسِطِيُّ شَيْءٌ عَظِيمٌ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى مَقْطَعَةٍ لِلقَوْمِ خَفِيَّةٍ؛ فَإِنَّ السُّكُونَ عِنْدَهُم إِلَى[5] الأَحْوَالِ حِجَابٌ عَنْ مُحَوِّلِ[6] الأَحْوَالِ، فَإِذَا اسْتَلَذَّ رِضَاهُ وَوَجَدَ بِقَلْبِهِ رَاحَةَ الرِّضَا حُجِبَ بِحَالِهِ عَنْ شُهُودِ حَقِّهِ.

وَلَقَدْ قَالَ الوَاسِطِيُّ أَيْضًا[7]: إِيَّاكُمْ وَاسْتِحْلَاءَ الطَّاعَاتِ؛ فَإِنَّهَا سُمُومٌ قَاتِلَةٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله: «**استعمِلِ الرِّضَا جهدَكَ، ولا تدَعِ الرِّضَا يَسْتَعمِلُكَ، فتكونَ مَحْجُوبًا**»، معناهُ: لِتَكُنْ همَّتُكَ بعدَ الرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ من القضاءِ متعلِّقةً بالرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ بعدَ ذلكَ منْ أصنافِ البلاءِ والابتلاءِ، فإنَّكَ إذا كنتَ كذلكَ ارتقَتْ[8] درجتُكَ إلى أعلَى المقاماتِ والأحوالِ، وتحقَّقْتَ فِي حقيقةِ كلِّ مقامٍ، ودامَ نظرُكَ إلى محوِّلِ[9] الأحوالِ والممكنِ في المقاماتِ على

---

(١) سقط من (ب) قوله: «له في».
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.
(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٤١٢، واللمع للطوسي ص٨٠، ومناقب الأبرار ٢/٥٨٥، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٦٠٠.
(٤) وذلك بوقوفك معه باستحسانك له.
(٥) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٦) في (ب): تحول، والأصح المثبت.
(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٥، والمختار من مناقب الأخيار ٣/١٦٤، ومدارج السالكين ٢/١٧٦، وبصائر ذوي التمييز ٣/٨٤.
(٨) في (ب): ارتفعت.
(٩) في (ب): محرك.

مرورِ السَّاعاتِ واللَّحظاتِ وإذا ودَّعتَ الرِّضَا يستعملُكَ بحُسْنِ لذَّتِهِ، وعلوِّ شَرَفِ مَنْزِلتِهِ، وسكنَتْ نفسُكَ لمَا[١] نِلْتَهُ منْ شريفِ الحالِ والمَقَالِ، وقفتَ[٢] معَهُ أو اشتغلْتَ بهِ عنِ التَّطلُّعِ لمَا بعدَهُ منْ مقاماتِ الرِّجالِ، وبهذا كانَ حجابًا عمَّا وراءَهُ ممَّا يُسديهِ أوْ يتفضَّلُ بهِ محوِّلُ الأحوال.

ولِمَا نبَّهْنَا عليهِ أشارَ الإمامُ القُشَيْرِيُّ إلىٰ ما ذكرَهُ الواسِطِيُّ؛ وهوَ أنَّهَا مَقْطَعَةٌ عظيمةٌ للسَّالكِينَ؛ أيْ: تقطعُهُم عن بُلُوغِ مُرَادِهِم منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ ومَطْلُوبِهِمْ؛ وهوَ الوقوفُ معَ ما تفضَّلَ الحقُّ بهِ منَ الأحوالِ والمقاماتِ السَّنِيَّةِ وتسكنُ النَّفسُ إليهِ، بَلْ حقُّهَا أنْ تعرِّفَهُ نعمَهُ وتشكرَ عليهِ، وترتقبَ المَزِيدَ منَ الحَقِّ نَاظِرةً إليهِ[٣].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ ابْنُ خَفِيفٍ[٥]: الرِّضَا: سُكُونُ القَلْبِ إِلَىٰ أَحْكَامِهِ، وَمُوافَقَةُ القَلْبِ بِمَا رَضِيَ وَاخْتَارَ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**سُكُونُ القَلْبِ**» إشارةٌ إلىٰ نَفْيِ القَلَقِ والجَزَعِ، «**وموافقتُهُ**» إشارةٌ إلىٰ ما اختارَهُ الحَقُّ [٢/٩١ب] وَرَضِيَهُ لكونِهِ للمؤمنِ أولَىٰ وأنفعُ، دليلُهُ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٦]: «**وَاللهِ لَا يَقْضِي اللهُ لِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**»، وهذَا لمَنْ سبقَتْ لهُ منهُ الحُسْنَىٰ، فإنَّهُ إنْ قضَىٰ عليهِ بالمعصيةِ فهوَ يقضِي لهُ بالتَّوبةِ لتكفِّرَ ما تقدَّمَ منَ الأثرِ، وإنْ قضَىٰ لهُ بالطَّاعةِ كانَ ذلكَ أوضحَ منفعةً في الدُّنيَا والآخرةِ وأكثرَ.

---

(١) في (ب): إلىٰ ما.

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٥) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص١٧٧.

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/٥٠٧، وأحمد في مسنده ٣/١١٧، وأبو يعلىٰ في مسنده ٧/٢٢٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/١٨٩.

وربَّمَا كانَتِ المعصيةُ أنفعَ لبعضِ العبيدِ إذا أعقبَهَا بالنَّدمِ والجدِّ والألمِ الأكيدِ، كمَا جاءَ[١]: «إنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ»... الحديث.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَسُئِلَتْ رَابِعَةُ[٣]: مَتَىٰ يَكُونُ العَبْدُ رَاضِيًا؟ قَالَتْ: إِذَا سَرَّتْهُ المُصِيبَةُ كَمَا سَرَّتْهُ النِّعْمَةُ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ؛ فإنَّ العبدَ إنْ رأَىٰ المصيبةَ بلاءً قيلَ لهُ: اصبِرْ، وإنْ رآهَا نعمةً قيلَ لهُ: اشْكُرْ، والغالبُ علىٰ الخَلْقِ السُّرورُ بالنِّعمِ، وإذَا كانَتْ عاقبةُ البَلاءِ مَسْتُورةً علىٰ العبدِ، وكانَ الظَّاهرُ منهَا الألمَ النَّاجزَ، فالسُّرورُ بعيدٌ في حقِّهِ؛ لأنَّ الغالبَ علىٰ قلبِهِ الألمُ النَّاجزُ، وإذَا حسُنَ ظنُّهُ بربِّهِ، وأنَّهُ لا يجري عليهِ إلَّا ما فيهِ صَلاحُهُ، سُرَّ بجميعِ ما يجرِي عليهِ، ورضِيَ بهِ لكونِهِ وارِدًا عليهِ، فمَا غلبَ علَىٰ ظنِّهِ لطفُهُ بهِ، ومتَىٰ وجدَ السُّرُورَ بكلِّ ما يَرِدُ عليهِ كانَ راضيًا بهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: **«وَقِيلَ[٥]: قَالَ الشِّبْلِيُّ بَيْنَ يَدَيِ الجُنَيْدِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَقَالَ الجُنَيْدُ: قَوْلُكَ ذَا ضِيقُ صَدْرٍ، وَضِيقُ الصَّدْرِ لِتَرْكِ الرِّضَا بِالقَضَاءِ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهِمَ الجُنيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ منَ الشِّبْلِيِّ لمَّا قالَ: «**لَا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ**» ثِقَلَ مَا حُمِّلَ ممَّا وردَ عليهِ، فاستعانَ علَىٰ ذلكَ بـ«**لَا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ**»، فكأنَّهُ لَمْ يَرَهُ بعينِ الرِّفقِ بهِ وحُسْنِ النَّظرِ لهُ، فقالَ لهُ: «**هذَا تركٌ للرِّضَا**»،

---

(١) أخرجه أحمد في: الزهد ص٣٩٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٣.

(٣) ورد قولها في: ربيع الأبرار ٥/٣٣٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٨/٢٨٧، ومنازل السائرين ص١٤١، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٥٢٥.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٥) ورد قوله في: الاستقامة ٢/٨١، وسراج الطالبين ٢/١٢٦.

أيْ: دليلٌ على عدمِ رِضَاكَ بهِ، فسكتَ الشِّبْلِيُّ.

ويحتملُ سكوتُهُ وجهينِ[١]:

أحدُهُمَا: ما ذكرَهُ الجُنيدُ.

والثَّانِي: أنَّهُ كانَ راضيًا ولكنَّهُ تبرَّأَ مِنْ دعوَى هذا المقامِ، ورآهُ بحولِ اللهِ وقوَّتِهِ وعَوْنِهِ وتيسيرِهِ، فإنَّ كلَّ مقامٍ منيفٍ رضًا كانَ أوْ غيرُهُ لا قوَّةَ للعبدِ على القيامِ بهِ والأدبِ فيهِ إلَّا بعونِ ربِّهِ وتيسيرِهِ[٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ[٤]: الرِّضَا أَلَّا تَسْأَلَ اللهَ - تعالى - الجَنَّةَ، وَلَا تَسْتَعِيذَ بِهِ مِنَ النَّارِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ في ظاهرِهِ تشغيبٌ[٥]، وإذَا بُسِطَ كانَ الأمرُ [٢/١٩٢أ] فيهِ قريبًا[٦]، وذلِكَ أنَّهُ لا يرضَى عنِ اللهِ إلَّا مَنْ علِمَ سنَّةَ اللهِ معَهُ، ولطفَهُ بهِ فِي سائرِ تصرُّفاتِهِ؛ وذلكَ أنَّ الرِّضَا إنَّمَا يكونُ بعدَ التَّوكُّلِ، والمتوكِّلُ لهُ اختيارٌ في الأسبابِ، ولكنْ يعتمدُ على اللهِ - تعالى - في أنْ يأتيَهُ بمَا يصلحُهُ فيمَا اختارَهُ، فإذَا اختارَ سببًا وأجرَاهُ الحقُّ لهُ ووجدَ فيهِ صلاحَ نفسِهِ وتوالَى ذلكَ عليهِ فيمَا يختارُهُ هوَ فِي نفسِهِ، وفيمَا يُجريهِ عليهِ ربُّهُ منْ غيرِ[٧] اختيارٍ، ووجدَ اللطفَ والرَّحمةَ في جميعِ ذلكَ سكنَتْ نفسُهُ وفترَتْ عَنْ سؤالِ المصلحةِ، وطلبِهَا منَ اللهِ

---

(١) في (أ): وجهان، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٤) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١٢٠، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٦٠٠.

(٥) في (أ): تشعيب، والأصح المثبت. والتشغيب: التخليط، كما في: مشارق الأنوار ٢/١٦٤.

(٦) في (أ، ب): قريب، والصواب المثبت.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

لكونِهَا لمْ ترَ منهُ إلَّا ما يصلحُهَا.

فإذَا وصلَ العبدُ إلىٰ هذِهِ الحالةِ غلبَ علىٰ قلبِهِ تركُ السُّؤالِ؛ لعلمِ ربِّهِ بالحالِ، ولُطفِهِ بهِ في سائرِ الأحوالِ، وإنْ سَألَ الجنَّةَ عبادةً لأمْرِ مولَاهُ، وكذلِكَ إذَا استعاذَ منَ النَّارِ، فلمَّا أمرَهُ بالاستعاذةِ منهُ، فلمْ يصفِ الرَّاضي بالاستعاذةِ منَ النَّارِ، وطلبَ الجنَّةَ مِنْ حيثُ كونِهما عبادةً، وإنَّمَا وصفَهُ بذلكَ منْ حيثُ رَضِيَ بحُسْنِ ما أجرَاهُ عليهِ مولاهُ في سائرِ تقلُّبِهِ ومثْوَاهُ، وهلْ يليقُ بالغريقِ في النِّعمِ الجاريةِ عليهِ مِنْ مولَاهُ معَ تصاريفِ الأقدارِ أنْ يبقَىٰ لَهُ[1] معَهُ منْ[2] نفسِهِ اختيارٌ؟!

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ[3]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ سَهْلٍ[4] يَقُولُ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ عُثْمَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ[5]: ثَلَاثَةٌ مِنْ أَعْلَامِ الرِّضَا: تَرْكُ الاخْتِيَارِ قَبْلَ القَضَاءِ[6]، وَفُقْدَانُ المَرَارَةِ بَعْدَ القَضَاءِ، وَهَيَجَانُ الحُبِّ فِي حَشْوِ البَلَاءِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وهوَ صحيحٌ في[7] علاماتِ الرِّضَا؛ وذلكَ أنَّ الرَّاضِي لا اختيارَ لهُ، وإنَّمَا هوَ محبٌّ مُذعِنٌ لمَا يختارُهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ؛ لعلمِهِ بفضلِ ربِّهِ عليهِ، وحُسْنِ اختيارِهِ لهُ فيمَا يُجريهِ لديهِ، وكذلكَ إذَا أجرَىٰ عليهِ شيئًا

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): في.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٤) في (ف): أحمد بن محمد بن سهل.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٣٤٢، والكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٧٦، ومدارج السالكين ٢/١٦٧.

(٦) لأن الراضي لا تدبير له إلا ما دبَّره مولاه، فيما أمره به أو نَهاه.

(٧) في (ب): من.

ممَّا يخالفُ هَوَاهُ يحملُهُ سهولةً ولا يجدُ منَ الألمِ ما يجدُهُ الصَّابرُ أو المُتَصَبِّرُ لمَا امتلأَ بهِ قلبُهُ مِنْ عَادةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مَعَهُ، وأنَّهُ لا يفعلُ بهِ إلَّا ما فيهِ صلاحُهُ عرَفَ ذلكَ منْ عواقبِ مَا ينزلُهُ بهِ منَ البلاءِ، وإذا سلِمَ في أوَّلِ حالةٍ مِنَ الاختيارِ، وفي آخرِهِ منَ الكراهةِ لِمَا تُجريهِ الأقدار(١)، كانَ في أثناءِ ذلكَ متنعمًا بمَا وجدَهُ وجرَّبَهُ منْ فَضْلِ الوَاهبِ الغفَّارِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ(٣) [٢/٩٢ب] جَعْفَرٍ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّفَّارَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ المُبَرِّدَ يَقُولُ(٤): قِيلَ لِلحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: الفَقْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الغِنَىٰ، وَالسُّقْمُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصِّحَّةِ، فَقَالَ: رَحِمَ اللهُ أَبَا ذَرٍّ، أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ: مَنِ اتَّكَلَ عَلَىٰ حُسْنِ اخْتِيَارِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لَهُ لَمْ يَتَمَنَّ غَيْرَ مَا اخْتَارَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكلامُ أَبِي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ علىٰ الزُّهدِ فِي الدُّنيَا وقلَّةِ قدرِهَا وعدمِ وزنِهَا عندَهُ، فالَّذِي يهربُ النَّاسُ منهُ ـ وهوَ الفقرُ ـ أحبُّ إليهِ منَ السَّعةِ فيهَا، وذلكَ لفضيلتِهِ عندَهُ، والسُّقمُ الَّذي يتألَّمُ النَّاسُ لِنُزُولِهِ أحبُّ إليهِ منَ الصِّحَّةِ؛ لمَا يرجُو مِنْ كثرةِ الأجرِ علىٰ الصَّبرِ علىٰ البلاءِ، وهذانِ حالانِ شريفانِ يثمرُهُمَا الزُّهدُ في الدُّنيَا وكمالُ الصَّبرِ علىٰ ما ينزلُ بالعبدِ.

وأمَّا الحُسَينُ بنُ عليٍّ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ فإنَّهُ لمْ يختَرْ لنفسِهِ شيئًا، ورضِيَ

---

(١) في (ب): الأقدار عليه، والأصح المثبت؛ ليتحقق السجع.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٣) سقط من (ب) قوله: محمد بن.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٣/٢٥٣، وسير أعلام النبلاء ٣/٢٦٢، وتاريخ الخلفاء ص١٩١، والخبر فيها عن الحسن بن علي لا الحسين.

بمَا يختارُهُ اللهُ لهُ، فكلامُهُ فِي الرِّضَا، وكلامُ أبي ذرٍّ فِي الصَّبرِ والزُّهدِ ولهُ اختيارٌ قبلَ الوقوعِ، وكلامُ الحسينِ[١] لا اختيارَ لهُ بالكليَّةِ[٢]، ولكنْ إذا نزلَ بهِ الحقُّ ـ سبحانه ـ منَ الفقرِ والغِنَى والمرضِ والصِّحَّةِ رضِيَ بهِ، وهذَا أسلَمُ وأبعدُ مِنْ طُرُوقِ الآفَاتِ المَقْرُونَةِ بالاختِيَارَاتِ[٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ لِبِشْرٍ الحَافِي[٥]: الرِّضَا أَفْضَلُ مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الرَّاضِي لَا يَتَمَنَّى فَوْقَ مَنْزِلَتِهِ[٦]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ: «الرِّضَا أَفْضَلُ مِنَ الزُّهْدِ» فصحيحٌ، وأمَّا تعليلُهُ أنَّ «الرَّاضِيَ لا يتمنَّى فوقَ منزلتِهِ»؛ إنْ أرادَ أنَّهُ لا يتمنَّى خلافَ ما وقعَ بهِ القدرُ صحيحٌ، وإنْ أرادَ أنَّهُ لا يسألُ اللهَ ـ تعالى ـ ولَا يتسبَّبُ فِي التَّرقِّي إلى أعلَى منَ الرِّضَا فليسَ بصحيحٍ؛ فإنَّهُ لا مناقضَةَ بينَ الرِّضَا بمَا وقعَ وسُؤالِ مَا لَمْ يَقَعْ، وكذلِكَ تمنِّيهِ لهُ، ولكنَّهُ وإنْ سَألَ وتمنَّى شيئًا رفيعًا منَ الحالاتِ أوِ المقاماتِ[٧] وأوقعَ الحقُّ بهِ دونَ ما سألَ فحقُّهُ الرِّضَا بهِ، وإنْ لمْ يرضَ بهِ وكَرِهَهُ نَاقضَ ذلكَ رِضَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨]: «وَسُئِلَ أَبُو عُثْمَانَ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٩]:

---

(١) في (ب): الحسن.
(٢) بل رضي بما اختاره الله له.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٥٩٤/٢ ـ ٥٩٥.
(٤) الرسالة القشيرية ٣٤٤/٢.
(٥) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه ص٥٣، وتفسير السلمي ٢٧٩/١، وإحياء علوم الدين ٧٢/٤، ومدارج السالكين ١٧٧/٢.
(٦) سقط من (ب) إلى قوله: «إن أراد أنه لا يتمنى».
(٧) في (ب): والمقامات.
(٨) الرسالة القشيرية ٣٤٤/٢.
(٩) أخرجه البزار في مسنده ٢٣٠/٤، والبيهقي في الدعوات الكبير ٢٨/١، والمنذري في الترغيب ٢٦١/١.

(أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَا)؛ فَقَالَ[١]: لِأَنَّ الرِّضَا قَبْلَ القَضَاءِ عَزْمٌ عَلَى الرِّضَا، وَالرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ هُوَ الرِّضَا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ من تحقيقِ مقامِ الرِّضَا إنَّمَا يكونُ بعدَ نُزُولِ القضاءِ، سواءٌ [١٩٣/٢] وافقَ الهوَىٰ أو خَالفَ، وإلَّا فهوَ قبلَ ذلكَ عزمٌ علىٰ أنْ يرضَىٰ بمَا نزلَ بهِ القضاءُ، وقدْ يصحُّ منهُ[٢] ذلكَ وقدْ لا يصحُّ، وهذَا جارٍ في سائرِ المقاماتِ منَ الزُّهدِ والتَّوكُّلِ وغيرِهِ، فكمْ منْ شخصٍ يزعمُ أنَّهُ زاهدٌ والَّذِي عندَهُ معرفةُ الزُّهدِ واستحسانُهُ، فإذَا لاحَ لهُ شيءٌ منَ الدُّنيَا، ولَا سيَّمَا إذَا كانَ فيه[٣] كثرةً ظهرَ لهُ في نفسِهِ منَ الرَّغبةِ في ذلكَ خلافُ ما كانَ يظنُّهُ.

وكذلِكَ قدْ يُجْرِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ الأرزاقَ، وتقلُّ رغبتُهُ في طلبِ الزَّائدِ الَّذِي لا حاجةَ إليهِ، ويزعمُ أنَّ نفسَهُ معتمدةٌ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مُتَوكِّلَةٌ عليهِ، وإنَّمَا هيَ سَاكنةٌ إلىٰ ما أجرَاهُ اللهُ عليهَا منَ الرِّفقِ بسببِ تحصيلِ الرِّزقِ، فإذَا تغيَّرتِ الأسبابُ وتَكَدَّرَتِ الأصحابُ ظهرَ لهُ منْ نفسِهِ أنَّهُ كانَ في دَعْوَىٰ التَّوكُّلِ كَذَّابًا، ورُبَّمَا سَبَّ الأَصْحَابَ وتَعَاطَىٰ أقبحَ الأسبابِ، فالعزمُ علَىٰ كُلِّ مَقَامٍ ليسَ هوَ نَيْلُهُ وبُلُوغُهُ، ولذلكَ قالَ الجُنيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «عِلْمُ التَّوحيدِ مباينٌ لوجودِهِ، ووجودُهُ مباينٌ لعلمِهِ»، يعنِي: أنَّ عِلْمَ التَّوحيدِ هُوَ غيرُ حَالِ التَّوحيدِ والتَّخلُّقِ بهِ، فَعِلْمُهُ أنْ يَعْرِّفَ بالدَّليلِ أنَّ اللهَ واحدٌ، وغلبتُهُ علىٰ قَلْبِهِ وتحقُّقُهُ فيهِ أنْ يُشَاهِدَ كُلَّ فِعْلٍ منَ الوَاحدِ.

---

(١) ورد قوله في: شعب الإيمان ٢١٧/١، ومرقاة المفاتيح ٤١١/٥.

(٢) في (ب): منها، والأصح المثبت.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) ورد قوله في: التعريفات ٣٢٤، ومدارج السالكين ٦٨/٣، وحل الرموز وكشف الكنوز ص١٥٩.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي حَسَّانٍ الأَنْمَاطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ [الدَّارَانِيّ][(٢)] يَقُولُ[(٣)]: أَرْجُو أَنْ أَكُونَ عَرَفْتُ طَرَفًا مِنَ الرِّضَا ؛ لَوْ أَنَّهُ أَدْخَلَنِي النَّارَ لَكُنْتُ بِذَلِكَ رَاضِيًا».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ تقدَّمَ ذكْرُ هذَا غيرُ مرَّةٍ، وليسَ مقصودُهُ بالنَّارِ النَّارَ الكُبرَىٰ علىٰ وَجْهِ العَذَابِ، وإنَّمَا مقصودُهُ أنَّهُ لوْ أوقعَ بِي أشدَّ مشقَّةٍ وأعظمَ بليَّةٍ وهيَ النَّارُ لكنتُ راضيًا لعِلْمِي بأنَّهُ - تعالىٰ - يفعلُ بِي ما هوَ أنفعُ لِي وأصلحُ ؛ لمَا جرَّبْتُهُ منْ أفعالِهِ، وتكرَّرَ عليَّ منْ إحسانِهِ وإفضالِهِ[(٤)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الدِّمَشْقِيُّ[(٥)]: الرِّضَا: ارْتِفَاعُ الجَزَعِ فِي أَيِّ حُكْمٍ كَانَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومقصودُهُ بأيِّ نوعٍ كانَ القضاءُ جاريًا عليهِ ؛ نعمةً أوْ بلاءً، موافقًا لهُ[(٦)] أو مخالفًا، ويعنِي بـ(الجزعِ): القلقَ عندَ نزولِ المصائبِ، بَلْ يَتَلَقَّاهَا بالقَبُولِ لمَا يرجُوهُ فِي[(٧)] [٢/٩٣ب] العَاقِبَةِ[(٨)].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) ورد قوله في: الرضا عن الله بقضائه ص٥٢، وصفة الصفوة ٤/٢٢٦، وتسلية أهل المصائب ص١٥٣، ونشر المحاسن الغالية ص١٧٧.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٧.

(٥) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٧٧.

(٦) في (ب): لها، والأصح المثبت.

(٧) في (ب): من.

(٨) أي: من الثواب.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: الرِّضَا رَفْعُ[(٣)] الاخْتِيَارِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكلامُ الجُنيدِ: «رفعُ الاختيارِ»، عبَّرَ عنِ الرِّضَا بزوالِ المانعِ فيهِ، وذلِكَ أنَّ الرَّاضِي لَا اختيارَ لهُ، ولا يكونُ الرِّضَىٰ إلَّا بعدَ نُزُولِ القَضَاءِ، وإذَا نزلَ القضاءُ بأيِّ أمرٍ كانَ لمْ يَبْقَ للعبدِ اختيارٌ في زَوالِ مَا وقعَ، ولا تمنِّي، ولا كَرَاهَة.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ[(٥)]: الرِّضَا: نَظَرُ القَلْبِ إِلَىٰ قَدِيمِ اخْتِيَارِ اللهِ لِلعَبْدِ، وَهُوَ تَرْكُ التَّسَخُّطِ[(٦)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ونظَرُ العبدِ إلىٰ قديمِ اختيارِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ منْ أعظمِ أسبابِ الرِّضَا، وذلكَ أنَّهُ إذَا غلبَ علَىٰ قلبِهِ أنَّ ما سبقَ بهِ القضاءُ لا بُدَّ منْ وقوعِهِ لمْ يَبْقَ لاختيارِهِ فَائِدَةٌ، وإذَا تحقَّقَ عندَهُ ذلكَ خشِيَ[(٧)] أنْ يقعَ باختيارِهِ فِي التَّسخُّطِ لقضاءِ اللهِ، فبمجموعِ[(٨)] هذِهِ العُلُومِ يرسخُ الرِّضَا في القلبِ، ويَتَوالَىٰ عليهِ ويَصِيرُ حَالًا لهُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.
(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٢٩، واللمع للطوسي ص٨٠، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٢، وورد بلا نسبة في: تفسير السلمي ٢/٤١٢، والثعلبي ١٠/٢٦٢، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٨.
(٣) في (ب): يرفع.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.
(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٤١٣، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٢، ومدارج السالكين ٢/١٧٥.
(٦) في (ب، ف): السخط.
(٧) في (ب): أخشىٰ، والأصح المثبت.
(٨) في (ب): فمجموع، والأصح المثبت.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ رُوَيْمٌ[(٢)]: الرِّضَا: اسْتِقْبَالُ الأَحْكَامِ بِالفَرَحِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويعني بـ«الأحكامِ» سائِرَ ما يطرقُهُ في قلبِهِ وبدنِهِ وولدِهِ ومالِهِ، وهذَا فيمَا يجوزُ الرِّضَا بهِ مِنْ قَدَرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ بعضَهُمْ كانَ لهُ أولادٌ[(٣)] عدَّةٌ كالدَّنانيرِ، فدخلَ عندَهُ جماعةٌ فاستحسَنُوا ولدَهُ، ففهمَ ذلكَ منهمْ، فرفعَ رأسَهُ إلىٰ سقفِ بيتِهِ فوجدَ فيهَا خطَّافًا، فأقسمَ لهُمْ باللهِ: لأَلَمُهُ بكسرِ بيضِ هذا الخطَّافِ أشدُّ مِنْ ألمِهِ بِمَوتِهِمْ، أو مَا هذَا مَعْنَاهُ.

وذلكَ أنَّ الخطَّافَ يحصلُ لهَا ألمٌ بكسرِ بيضِهَا، وهوَ يجدُ سُرُورًا بما يُجْرِيهِ اللهُ عليهِ مِنْ قَدَرِهِ، ولهُ فيهِ الأجرُ التَّامُّ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ المُحَاسِبِيُّ[(٥)]: الرِّضَا: سُكُونُ القَلْبِ تَحْتَ مَجَارِي الأَحْكَامِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أقربُ إلىٰ حقيقةِ الرِّضَا، ومَا ذكرَ مِنَ السُّرورِ والفرحِ زياداتُ أحوالٍ علىٰ الرِّضَا، فإنَّ مَنْ وردَتْ عليهِ المُؤلِمَاتُ، ولمْ يتغيَّرْ قلبُهُ لهَا، ولا كَرِهَ نزولَهَا، ولا أحبَّ زوالَهَا فهوَ الرَّاضِي، والقلبُ الَّذِي فُقِدَتْ منهُ هذهِ الاختياراتُ هوَ السَّاكنُ تحتَ مَجَارِي الأقدارِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٤٤.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٢٩، والتعرف لمذهب التعرف ص١٠٢، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٦٠٠، ونسب للنوري في: تفسير السلمي ٢/٤١٣.

(٣) في (ب): أولا، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٤١٢، وتهذيب الأسرار ص١٢٩، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١٠٢.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[١]: «وَقَالَ النُّورِيُّ[٢]: الرِّضَا: سُرُورُ القَلْبِ بِمُرِّ القَضَاءِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا فيهِ تخصيصٌ بالمُرِّ من القضاءِ الَّذي جرتِ العادةُ منْ أكثرِ النَّاسِ بالكراهةِ لهُ [٢/١٩٤أ] والتَّسخُّطِ، وهوَ يُسَرُّ بهِ مخالفةً للعادةِ بالكلِّيَّةِ، فأخذَ أحدَ[٣] قسمَي ما يجرِي بهِ القضاءُ؛ وهوَ المخالفُ للهوَىٰ وتكلَّمَ عليهِ، وأمَّا القسمُ الموافقُ، فأكثرُ النَّاسِ يرضَىٰ بهِ لِمُوافقتِهِ لِلهوَىٰ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٤]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَينِ رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَينِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ[٥]: مَنْ رَضِيَ بِدُونِ قَدرِهِ[٦] رَفَعَهُ اللهُ فَوْقَ غَايَتِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا فيهِ إشارةٌ إلىٰ قولِهِ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ[٧]: «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ»، وذلكَ أنَّ العبدَ العارفَ باللهِ، المشتغلَ بذكرِهِ، المُراقبَ لمَا لهُ ومنهُ قدْ يتمنَّىٰ درجةً رفيعةً ومقامًا عاليًا، والقَدَرُ قَدْ سبقَ بأنَّهُ لمْ يبلغْ وقتَهُ ويجرِي لهُ غيرهُ ممَّا هوَ دونَهُ مِنْ درجاتِهِ، فحقُّهُ أنْ يَرْضَىٰ بهِ فإنَّهُ إذا رضِيَ بدونِ مَا كانَتْ همَّتُهُ متعلِّقَةً بهِ سُكُونًا لِمَا اختارَهُ اللهُ لهُ رفعَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ درجتَهُ، ومنْ هذا الوجهِ قلنَا: «إنَّ الرَّاضِي يدعُو بأرفع مِنْ مَقَامِهِ وَيَتَمَنَّاهُ ويَسْألُ اللهَ»، وأيُّ شيءٍ وقعَ لهُ وفُتِحَ لهُ بهِ رضِيَ[٨] بهِ، فإنَّ متعلَّقَ الرِّضَا مَا وقعَ، ومتعلَّقُ الدُّعاءِ المُمْكِنِ الوقُوعِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٤.

(٢) مر تخريجه.

(٣) سقط من (ب) إلىٰ قوله: الموافق.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.

(٥) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٢/٦٠٠.

(٦) أي: منزلته.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) في (ب): ورضي.

۞ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَينَ بْنَ عَلَوِيَّةَ يَقُولُ: قَالَ أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ[(٢)]: لَيْسَ يَنَالُ الرِّضَا مَنِ للدُّنْيَا فِي قَلْبِهِ مِقْدَارٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ الدُّنيا حبًّا شديدًا تألَّمَ لفقدانِهَا، وسُرَّ السُّرورَ الكاملَ بوجودِهَا، سواءٌ كانَتِ الدُّنيَا مالًا أوْ جاهًا أوْ عافيةً، فهوَ يَكْرَهُ زَوالَ هذِهِ المَعَانِي عنهُ، ويفرحُ بأضدادِهَا، والرَّاضِي لا بُدَّ أنْ تزُولَ اختياراتُهُ منْ قلبِهِ، ويرضَىٰ بكلِّ مَا يُجريهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وافقَ هَوَاهُ أوْ خالفَ، فمِنْ هذَا الوَجْهِ استبعدَ أبو تُرابٍ أنْ يَنَالَ مَقامَ الرِّضَا مَنْ فِي[(٣)] قَلْبِهِ للدُّنيَا محبَّةٌ.

۞ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرِو بْنُ حِمْدَانَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ شِيرَوَيْهِ[(٥)] قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الحَكَمِ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ الهَادِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)]: ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والخبرُ الَّذِي أوردَهُ فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّهُ لا ينالُ المقاماتِ العاليةَ منَ الإيمانِ [٢/٩٤ب] والمحبَّةِ والرِّضَا والتَّسليمِ إلَّا مَنْ لمْ يبقَ علىٰ قلبِهِ ربوبيَّةٌ لغيرِ اللهِ، ولذلكَ قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٧)]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٠/٣٤٦، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٦٠٠.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.

(٥) في (ب): سيروية، وهو تصحيف.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ١/٦٢ ـ حديث رقم (٣٤).

(٧) سبق تخريجه.

وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ».

فكلُّ مَنْ أحبَّ شيئًا منَ الدُّنيَا حُبًّا شديدًا حتَّىٰ تعلَّقَ قلبُهُ بهِ واشتغلَ بحفظِهِ وخشِيَ فواتَهُ جازَ أنْ يُسَمَّىٰ ربًّا لهُ، وهوَ لهُ عبدٌ؛ لخدمتِهِ وحفظهِ، ولذلِكَ قيلَ لسيِّدِ هذهِ الطَّائفةِ الجنيدِ: ما تقولُ فيمَنْ لمْ يبقَ عليهِ منَ الدُّنيَا إلَّا مصُّ نواةٍ يتلذَّذُ بهَا؟ فقالَ[١]: «المكاتبُ عبدٌ ما بقِيَ عليهِ درهمٌ»، فسمَّاهُ عبدًا لشهوتِهِ وإنْ قلَّتْ، فإنَّ حقيقةَ الإيمانِ أنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ، ولَا معطِي ولا مَانعَ، ولا مبلِي ولا راحمَ إلا ربُّ الأربابِ.

فمتَىٰ نظرَ في أفعالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهِ وجريانِ نِعَمِهِ عليهِ من صِغَرِهِ إلىٰ كِبَرِهِ[٢]، ورأىٰ فضلَهُ عليهِ في سائرِ تقلُّبِهِ، ورضِيَ باختيارِهِ لهُ ذاقَ طعمَ الإيمانِ، ووجدَ لذَّتَهُ وحلاوتَهُ، بخلافِ مَنْ لمْ يصلْ إلىٰ هذا المقامِ، وتعاطَىٰ الأمورَ الشَّاقَّةَ، وتحمَّلَهَا بالتَّصبُّرِ أوِ الصَّبرِ، وإنْ كانَ أجرُهُ عظيمًا، ولذلكَ قيلَ[٣]: «اعبدِ اللهَ في الرِّضَا، فإنْ لمْ تستطِعْ ففِي الصَّبرِ علىٰ ما تكرَهُ خيرٌ كثيرٌ»[٤].

وإنَّمَا أجزلَ الحقُّ الثَّوابَ للصَّابرينَ؛ ليتحمَّلُوا المشاقَّ، ولَا ينفرُوا عنِ الأعمالِ الشَّاقَّةِ، فأمَّا مَنْ رزقَهُ القيامَ بهَا بلذَّةٍ وسهولةٍ وأوقعَهَا علىٰ أحسنِ وجهِهَا بقلبٍ فَارغٍ مِنْ غيرِهَا ولَا مشغلَ يزاحمُهُ[٥] فيهَا، فبينَهُمَا بَوْنٌ، ويصلحُ أنْ يكونَ هذا المُرادُ، وذلكَ المُرِيدُ فِي الاصطلاحِ.

---

(١) هذا الجزء مقتبس من الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٠ بلفظ: «... عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: المُكَاتَبُ عَبْدٌ ما بَقِيَ عليه من مُكَاتَبَتِهِ دِرْهَمٌ».

(٢) في (ب): «من صغيره إلىٰ كبيره».

(٣) أخرجه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/٧٤١، عن: «الطبراني في الكبير»، ولم أقف عليه فيه.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٥) في (ب): بمزاحمة، والصواب المثبت.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ إِلَىٰ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الخَيْرَ كُلَّهُ مِنَ الرِّضَا، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرْضَىٰ، وَإِلَّا فَاصْبِرْ.

وَقِيلَ[٣]: إِنَّ عُتْبَةَ الغُلَامَ بَاتَ لَيْلَةً يَقُولُ إِلَىٰ الصَّبَاحِ: إِنْ تُعَذِّبْنِي فَأَنَا لَكَ مُحِبٌّ، وَإِنْ تَرْحَمْنِي فَأَنَا لَكَ مُحِبٌّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وروحُ هذا الكلامِ أنِّي محبٌّ لكلِّ ما يَرِدُ منك، سواءٌ كانَ مؤلِمًا أوْ غيرَ مؤلمٍ، وهوَ معنَىٰ الرِّضَا، فإنَّ المحبَّ أبدًا راضٍ بكلِّ مَا يَرِدُ مِنْ مَحْبُوبِهِ[٤].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٦]: الإِنْسَانُ خَزَفٌ، وَلَيْسَ لِلخَزَفِ مِنَ الخَطَرِ[٧] مَا يُعَارِضُ فِيهِ حُكْمَ الحَقِّ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ لَمْ يبلغْ مقامَ الرِّضَا كرِهَ ما يُجريهِ اللهُ عليهِ منَ الأقدارِ، وربَّمَا سخطَ ذلكَ وصارَ فِي [٢/١٩٥أ] صُورةِ المُعَارِضِ لقضاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وقَدَرِهِ؛ لأنَّ اللهَ يريدُ أمرًا، ويريدُ العبدُ[٨] أنْ لَا يقعَ، فنبَّهَ هذا القائلُ علىٰ أنَّ ابنَ آدمَ خزَفٌ[٩]، يعنِي: فخَّارًا[١٠] خُلِقَ منْ طينٍ، ولَا يليقُ بمَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.
(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٧٧.
(٣) ورد قوله في: الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص١٦٧، وحلية الأولياء ٦/٢٣٥، والتبصرة لابن الجوزي ص١٢٨، وكلمة الإخلاص لابن رجب ص٦٩.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٥٩٩.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.
(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/١٧٧.
(٧) أي: القَدْر والمنزلة.
(٨) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٩) في (أ): خزفا، والصواب المثبت.
(١٠) في (ب): فخار، والصواب المثبت.

خُلِقَ منَ الطِّينِ وكانَ قدرُهُ خسيسًا أنْ يعارضَ مَالكَهُ الفاعلَ[(١)] لِمَا يَشَاءُ.

ومِنْ هذا الوَجْهِ غلطَ إبليسُ ـ لعنَهُ اللهُ ـ مِنْ حيثُ امتنعَ منَ السُّجودِ لآدمَ نظرَ إلىٰ كونِهِ خُلِقَ منْ طينٍ وهوَ مِنْ نارٍ، فامتنعَ منَ السُّجودِ لهُ، وغفِلَ عنْ أمرِ مَنْ لهُ الأمرُ، وكذلِكَ مَنْ نظرَ[(٢)] إلىٰ نفسِهِ ولمْ يعرفْ قدرَهَا وخسَّتَهَا، وغَلِطَ وعظَّمَ مَنْ لا يصلحُ تعظيمُهُ وقعَ فِي مُخَالفةِ أمْرِ اللهِ وعَدَمِ الرِّضَا بقضَائِهِ وقَدَرِهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيَرِيُّ**[(٤)]: **مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا أَقَامَنِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي حَالٍ فكَرِهْتُهُ، وَمَا نَقَلَنِي إِلَىٰ غَيْرِهِ فَسَخِطْتُهُ**[(٥)]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ المقاماتِ الدِّينيَّةَ فيهَا ما هوَ أعلَىٰ وأدنَىٰ، فأيُّ مقامٍ أقامَهُ الحقُّ فيهِ منَ المقاماتِ العاليةِ ولمْ ينقلْهُ إلىٰ مَا هوَ أعلَىٰ منهُ رضِيَ بهِ ولمْ يَكْرهْهُ، وإنْ أنزلَهُ عنْ هذَا المقامِ العالِي إلىٰ مَا هوَ دونَهُ منَ المقاماتِ الدِّينيَّةِ لَمْ يسخطْهُ، وهوَ قولُهُ: «**نقلَنِي إلىٰ غيرِهِ**»، يعنِي: ممَّا هوَ دونَهُ، وإلَّا فلَوْ كانَ النَّقلُ إلىٰ ما هوَ أعلَىٰ منهُ لمْ يحسنْ أنْ يقولَ فيهِ: «**فَسخطتُهُ**»، فدلَّ علىٰ أنَّهُ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ راضٍ بكلِّ ما يُجريهِ عليهِ مَا لمْ يكنْ ممَّا لا يرضَاهُ الحقُّ ولا جوَّزَ الرِّضَىٰ بهِ.

وقولُهُ: «**منذُ أربعِينَ**»، يعنِي: أوَّلُ نَيْلِهِ لهذَا المقامِ الشَّريفِ، وأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يُواليهِ عليهِ هذِهِ المدَّةَ الطَّويلةَ، كمَا قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]:

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) سقط من هنا في (ب) إلىٰ قوله: «إلىٰ الرضا».

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٤٤، وتاريخ بغداد ٩/١٠١، وصفة الصفوة ٤/١٠٦، والمستطرف ١/٣٠٧.

(٥) في (ب): فتسخطته، وكذا اللفظ الذي يليه، والأصح المثبت.

(٦) ورد قوله في: الرعاية لحقوق الله ص٢٦٢، وإحياء علوم الدين ٣/٣١٩، وبمعناه في: الرضا=

«مَا أصبحَ لِي هوىً إلَّا فِي مواقعِ قدرِ اللهِ»، فعبَّرَ بالهوَىٰ عنِ المحبَّةِ والرِّضَا.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[2]: غَضِبَ رَجُلٌ عَلَىٰ عَبْدٍ لَهُ، فَاسْتَشْفَعَ العَبْدُ[3] إِلَىٰ سَيِّدِهِ إِنْسَانًا، فَعَفَا عَنْهُ، فَأَخَذَ العَبْدُ يَبْكِي، فَقَالَ الشَّفِيعُ: لِمَ تَبْكِي وَقَدْ عَفَا عَنْكَ؟! فَقَالَ السَّيِّدُ: إِنَّهُ يَطْلُبُ الرِّضَا، وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّمَا يَبْكِي لِأَجْلِهِ».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والعبدُ إذا زلَّ زلَّةً واستحقَّ عليهَا العقوبةَ، وغفرَ لهُ مولَاهُ وعفَا عنْ عقوبتِهِ بقِيَ حالُ رضَاهُ عنهُ؛ وهوَ إسباغُهُ عليهِ النِّعمَ وإلطافُهُ إيَّاهُ بمَا تعوَّدَهُ منهُ منَ الكرمِ زيادةً أُخرَىٰ علىٰ العفوِ عنِ الزَّللِ والمؤاخذةِ[4]، ولذلكَ قالَ بعضُهُم[5] [٢/٩٥ب]: «فُتِحَ عليَّ بابٌ منَ البَسْطِ، فزلَلْتُ زلَّةً، فحجبْتُ عَنْ مَقَامِي كذَا كذَا سنةً»، فلمْ يُؤَاخذْ، ولمْ يُعاقَبْ، وإنَّمَا سُلِبَ مَا كانَ فيهِ منَ الإكرامِ والإنعامِ[6].

= عن الله بقضائه ص٧٤.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٥.

(٢) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص١٧٩.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) أي: لا يلزم من عفوه عنه رضاه.

(٥) ورد في: مشارق أنوار القلوب لابن الدباغ ص٦٧، وحل الرموز وكشف الكنوز ص١٤٣، والبحر المديد ٤/٩٩.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٠.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ العُبُودِيَّةِ[٢]»

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ الصَّفَّارُ قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ شُرَيْكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عن خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمِ بنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدَرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[٣]: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَيهِ، وَرَجُلَانِ[٤] تَحَابَّا فِي اللهِ؛ اجْتَمعَا عَلَىٰ ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ[٥] وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ[٦] يَمِينُهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **العبادةُ**: اسمٌ لمَا طلبَهُ الشَّرعُ إِذَا أوقعَهُ العبدُ بشروطِهِ علىٰ حسبِ الطَّلبِ، ويحسنُ أنْ تكونَ العبوديَّةُ[٧] فيهَا زيادةُ تذلُّلٍ وتَمَسْكُنٍ، وتبرُّؤٍ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٧.

(٢) الشرح ٢/٦٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٥١٧ ـ حديث رقم (١٣٥٧)، ومسلم في صحيحه ٢/٧١٥ ـ حديث رقم (١٠٣١).

(٤) في (ب): ورجلين، وهو تحريف.

(٥) في (أ، ف): حسن.

(٦) في (ف): أنفقت.

(٧) في (ب): المعبودية.

منَ الحَوْلِ والقوَّةِ، ويحسنُ أنْ تكونَ العُبُوديَّةُ رؤيةَ العبدِ نفسَهُ محلًا لجريانِ أفعالِ ربِّهِ فيهِ مِنْ سائرِ ما يتقرَّبُ بهِ وما يحكمُ عليهِ ويُجرِّبُهُ، فتكونُ العبادةُ محضَ إيقاعِ الأفعالِ علىٰ حسبِ الطَّلبِ.

ويضافُ إلىٰ ذلكَ: كمالُ حالِ المتقرِّبِ مِنْ تذلُّلِهِ وخضوعِهِ في عبادتِهِ، واستعانتِهِ بربِّهِ علىٰ ذلكَ، وتبرُّئِهِ مِنْ حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ.

ويضافُ إلىٰ هذَينِ القسمَينِ: ما غلبَ علىٰ قلبِ[(١)] العَبْدِ مِنْ كَوْنِهِ مَحلًا لِجريانِ الطَّاعاتِ، وما جرَتْ بهِ الأقدارُ منَ الأسبابِ المؤلماتِ والموافقاتِ، فيكونُ بهذَا الاعتبارِ محمولًا علىٰ العبادةِ، فبذلكَ الاعتبارِ سمَّاهُ عُبُودةً، وهذهِ اصطلاحاتٌ والأصلُ هيَ العبادةُ، وإنَّمَا تنوَّعَتْ باختلافِ علم العابدِ وحالِهِ وقُربِهِ من مقامِ الجمعِ، والخبَرُ مشهورٌ في (الموطَّأ)[(٢)] في السَّبعةِ الَّذينَ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ، وكلُّهُمْ خَالفُوا أَهْوِيتَهُم، ولازمُوا طاعةَ ربِّهِمْ [٢/١٩٦أ]، وأوقعُوا ذلكَ لوجهِهِ، وجانبُوا أهواءَهُمْ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[(٤)]: **العُبُودِيَّةُ أَتَمُّ مِنَ العِبَادَةِ؛ فَأَوَّلًا عِبَادَةٌ، ثُمَّ عُبُودِيَّةٌ، ثُمَّ عُبُودَةٌ**[(٥)]. **وَالعِبَادَةُ لِلعَوَامِّ مِنَ**

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) ٢/٩٥٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٧.

(٤) ورد قوله في: فوائح الجمال وفواتح الجلال ص٨٨، وسراج الطالبين ١/١٧.

(٥) سقط من (ب) قوله: «ثم عبودة».

وفي تاج العروس «ع ب د»: «(والعَبْدِيَّةُ) حكاه صاحب المُوعِب عن الفَرَّاءِ (والعُبُودِيَّةُ والعُبُودَةُ) بِضَمِّهما (والعِبَادَةُ) بالكسر (الطَّاعةُ)، وقال بعضُ أَئِمَّةِ الاشتقاق أَصْلُ العُبُودِيَّةِ: الذُّلُّ والخُضُوعُ، وقال آخَرُونَ: العُبُودَةُ الرِّضا بما يَفْعَلُ الرَّبُّ، والعِبَادَةُ: فِعْلُ ما يَرْضَىٰ به الرَّبُّ، والأَوَّلُ أَقوىٰ =

المُؤْمِنِينَ، وَالعُبُودِيَّةُ لِلخَوَاصِّ، وَالعُبُودَةُ لِخَاصِّ الخَوَاصِّ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ يشيرُ إلىٰ ما قدَّمناهُ، وذلكَ أنَّ غايةَ العوامِّ أنْ يعلمُوا منَ الشَّريعةِ[1] مَا أُمِرُوا بهِ ونُهُوا عنهُ، ويقومُوا بمَا أُمِرُوا بهِ منَ الواجبَاتِ، وينكفُّوا عمَّا نُهُوا عنهُ منَ المحرَّماتِ، ويرجُوا علَىٰ ذلكَ الأجرَ التَّامَّ مِنْ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، وهذِهِ صفةُ العابدينَ.

وأمَّا المُريدُ الَّذِي تحسَّسَ لنفسهِ، واشتغلَ بتغييرِ أخلاقِهِ، وَقَوِيَتْ معرفتُهُ بربِّهِ، وبكونِهِ لمْ يقدرْ علىٰ تغييرِ شيءٍ منْ أخلاقِهِ المذمومةِ بالمحمودةِ، ولا بالقيامِ بشيءٍ مِنْ طاعتِهِ والانكفافِ عن شيءٍ منْ محرَّماتِهِ إلَّا بعَوْنِ ربِّهِ وتيسيرِهِ، فحالُهُ في عبودتِهِ وتذلُّـلِهِ أتمُّ وأبلغُ، وتبرُّؤُهُ مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ وافتقارُهُ إلىٰ أمرِ ربِّهِ في نيلِ مقصودِهِ أتمُّ وأسرعُ، وهذَا هوَ المنعوتُ بالعبوديَّةِ؛ أيِ: التَّذلُّلِ والافتقارِ، وهذَا عندَهُ بعضُ الاختيارِ، إلَّا أنَّهُ مفتقرٌ إلىٰ أمرِ ربِّهِ في سائرِ ما يتعاطَاهُ ويختارُهُ متبرِّئًا منَ الاقتدارِ.

والثَّالثُ[2] رجلٌ كمُلَتْ معرفتُهُ بربِّهِ، ورأَىٰ نفسَهُ محلًّا لجريانِ قضائِهِ فيهِ في سائرِ سكونِهِ وتقلُّبِهِ، فمَا أجرَاهُ عليهِ منَ الخيرِ انشرحَ صدرُهُ وانطلقَ لسانُهُ بالثَّناءِ، ومَا أجرَاهُ عليهِ ممَّا يخالفُ تقلُّبَهُ بكمالِ الرِّضَا، وهوَ فِي نفسِ عبوديَّتِهِ يرَىٰ نفسَهُ محلًّا لتوفيقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ في ذلكَ وإحسانِهِ إليهِ، فقلبُ هذَا أقربُ إلىٰ مقامِ الجمعِ؛ وهوَ إفرادُ الحقِّ بالفعلِ منَ الَّذِي قبلَهُ، وهوَ الَّذِي يشاهدُ لنفسِهِ كسبًا واختيارًا وهوَ مفتقرٌ لعونِ ربِّهِ فيمَا يختارُهُ وينْويهِ، والَّذِي قبلَهُمَا أقربُ إلىٰ مقامِ

= وأَشَقُّ، فلذا قِيلَ تَسْقُطُ العِبادَةُ في الآخِرَةِ لا العُبُودةُ؛ لأَنَّ العُبودَةَ أَن لا يَرىٰ مُتَصرِّفاً في الدَّارَيْنِ في الحقيقِ إِلّا اللهَ، قال شيخنا: هذا مَلْحَظٌ صُوفِيٌّ لا دَخْلَ للأَوْضَاعِ اللغَوِيَّةِ فيه».

(١) في (ب): التوبة، وهو تحريف.

(٢) أي: صاحب العبودة.

التَّفرقةِ مِنْ حيثُ كَونُهُ[١] يرَىٰ نفسَهُ عابدًا محسنًا مطيعًا، ويطلبُ الجزاءَ علىٰ عملِهِ منَ الطَّاعاتِ وانكِفَافِهِ عنِ المُحرَّماتِ[٢].

وبهذَا الاعتبارِ كانَ من مقامِ العَوامِّ، والَّذي بعدَهُ مِنْ مقامِ الخَواصِّ، والَّذِي بعدَهُمَا مِنْ مقامِ خَاصِّ الخَاصِّ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[٤]: العِبَادَةُ لِمَنْ لَهُ عِلْمُ اليَقِينِ، وَالعُبُودِيَّةُ لِمَنْ لَهُ عَيْنُ اليَقِينِ، وَالعُبُودَةُ لِمَنْ لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ.**

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: العِبَادَةُ[٥] [٩٦/٢ب] **لِأَصْحَابِ المُجَاهَدَاتِ، وَالعُبُودِيَّةُ لِأَرْبَابِ المُكَابَدَاتِ، والعُبُودَةُ صِفَةُ أَهْلِ المُشَاهَدَاتِ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وتنزيلُ هذا علَىٰ ما تقدَّمَ أنَّ أربابَ المُجَاهَدَاتِ أصحابُ أعمالٍ، وأربابَ المُكَابَدَاتِ أصحابُ أَحْوالٍ، وأربابَ المُشَاهداتِ أصحابُ مُراقبةٍ وإقبالٍ[٦].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: **«فَمَنْ لَمْ يَدَّخِرْ عَنْهُ نَفْسَهُ فَهُوَ صَاحِبُ عِبَادَةٍ، وَمَنْ لَمْ يَضِنَّ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ فَهُوَ صَاحِبُ عُبُودِيَّةٍ، وَمَنْ لَمْ يَبْخَلْ [عَلَيهِ][٨] بِرُوحِهِ فَهُوَ صَاحِبُ عُبُودَةٍ».**

---

(١) في (ب): ركونه.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠١.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٧.
(٤) ورد قوله في: فوائح الجمال وفواتح الجلال ص٨٨.
(٥) في (أ): العبادات، والمثبت الأصح.
(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠١.
(٧) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٧.
(٨) زيادة من (ف).

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعناهُ: أنَّهُ مَنْ أتعَبَ نفسَهُ في أعمالِ الأبدانِ؛ منَ الصَّبرِ والصَّلاةِ وغيرِ ذلكَ منْ أنواعِ القُربَاتِ، فهوَ صاحبُ عبادةٍ.

ومَنْ أتعبَ قلبَهُ في الفكرِ في المُلكِ والملكوتِ وأصنافِ المخلوقاتِ وكَمَالِ الصِّفاتِ، فهوَ صاحبُ عُبُوديَّةٍ.

ومَنْ لَمْ يُشْفِقْ علىٰ رُوحِهِ وبذلَهَا لهُ في طلبِ القُربِ منهُ والاستغراقِ في جَمَالِهِ وكَمَالِهِ، فهوَ صاحبُ عُبُودَةٍ[1].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَيُقَالُ[3]: العُبُودِيَّةُ: القِيَامُ بِحَقِّ الطَّاعَاتِ بِشَرْطِ التَّوْفِيرِ، وَالنَّظَرِ إِلَىٰ مَا مِنْكَ بِعَيْنِ التَّقْصِيرِ، وَشُهُودِ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَنَاقِبِكَ مِنَ التَّقْدِيرِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ كمُلَتْ عبوديَّتُهُ لِمَولاهُ أوقعَ طاعاتِهِ علىٰ شروطِهَا الواجبةِ والفاضلةِ، وهذَا قولُهُ: «**بشرطِ التَّوفيرِ**»، أيْ: موفَّرَةً كاملةً، وإنْ رآهَا معَ كمالِهَا لا تصلحُ لجلالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعظمتِهِ؛ وهوَ رؤيتُهُ نفسَهُ فيهَا بعينِ التَّقصيرِ، وإذَا كانَ كذلكَ رأىٰ جميعَ ما هوَ فيهِ منَ الخيْرَاتِ فَضْلًا مِن ربِّهِ، جَاريًا عليهِ بِسَابقِ التَّقديرِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَيُقَالُ[5]: العُبُودِيَّةُ: تَرْكُ الاخْتِيَارِ فِيمَا يَبْدُو مِنَ الأَقْدَارِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يشيرُ إلىٰ كمالِ الصَّبرِ ونَيْلِ درجةِ الرِّضَا، وهُمْ

(١) في (ب): عبادة، والصواب المثبت. وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٢.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٧.
(٣) ورد في: معجم مقاليد العلوم ص٢١٩.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٧.
(٥) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٨٠.

أربابُ الأحوالِ ، وكأنَّهُ يقولُ: العبوديَّةُ الارتفاعُ عنِ الأعمالِ إلىٰ درجاتِ الأَحْوالِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ: العُبُودِيَّةُ: التَّبَرُّؤُ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّة[٢]، وَالإِقْرَارُ بِمَا يُعْطِيكَ وَيُولِيكَ مِنَ الطَّوْلِ وَالمِنَّةِ[٣]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا مِنْ مراتبِ أربابِ الأَحْوالِ ؛ وهوَ أنْ يَتَبَرَّأَ العبدُ مِنْ إضافةِ[٤] شيءٍ منَ المستحسناتِ إلىٰ نفسِهِ بجميلِ الطَّاعاتِ ، ويرىٰ نفسَهُ محلًّا لهَا ، ويُضِيفُهَا إلىٰ مُجْرِيهَا ، ويلهجُ بقلبِهِ ولسانِهِ بالشُّكرِ عليهَا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «وَيُقَالُ[٦] [٢/١٩٧أ]: العُبُودِيَّةُ: مُعَانَقَةُ مَا أُمِرْتَ بِهِ ، وَمُفَارَقَةُ مَا زُجِرْتَ[٧] عَنْهُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا راجعٌ إلىٰ العبادةِ لا إلىٰ العبوديَّةِ ، فإنَّهُ معَ الأعمالِ ، ولَمْ يَرْتقِ إلىٰ الأَحْوالِ[٨].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٩]: «وَسُئِلَ مُحَمَّدُ بْنُ خَفِيفٍ[١٠]: مَتَىٰ تَصِحُّ العُبُودِيَّةُ؟ فَقَالَ: إِذَا طَرَحَ كَلَّهُ[١١] عَلَىٰ مَوْلَاهُ ، وَصَبَرَ مَعَهُ عَلَىٰ بَلْوَاهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.
(٢) في (ب ، ف): والمُنَّة.
(٣) أي: الغنىٰ والنعمة.
(٤) في (أ): أوصافه ، والصواب المثبت.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.
(٦) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١٢١.
(٧) أي: نهيت.
(٨) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٢.
(٩) الرسالة القشيرية ١/٣٤٨.
(١٠) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٩٣ ، والمختار من مناقب الأخيار ٣/١١٠.
(١١) الكَلُّ: الثقل ، والحمل.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يشملُ التَّوكُّلَ والصَّبرَ والرِّضَا، وهُوَ مِنْ أربابِ الأحوالِ يصلحُ أنْ يُسَمَّي[١] عُبُوديَّةً.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا[٣] العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْرُوقٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ[٤]: لَا يَصِحُّ التَّعَبُّدَ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ لَا يَجْزَعَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: مِنَ الجُوعِ، والعُرْيِ، والفَقْرِ، والذُّلِّ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا جيِّدٌ، فإنَّ أحوالَ العبادةِ ومقاماتِ المقرَّبينَ لا تُنَالُ إلَّا بكمالِ الجدِّ منَ التَّفرُّغِ، والعبدُ إنَّمَا يمنعُهُ منَ التَّفرُّغِ للطَّاعاتِ ما ذكرَ منَ المُشْغلاتِ؛ وهيَ: الجوعُ والبردُ والفقرُ والذُّلُّ، فكلُّ واحدٍ من هؤلاءِ يؤلِمُ، وتهربُ النَّفسُ منهُ؛ لأنَّهُ مُؤلِمٌ، وبُعْدٌ عنِ الشَّهواتِ، فإذَا لمْ يخفِ العبدُ منهُ وهانَ عليهِ تحمُّلُهُ بكمالِ زهدهِ وصبرهِ علىٰ المشاقِّ نالَ العبوديَّةَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ[٦]: العُبُودِيَّةُ أَنْ تُسَلِّمَ إِلَيْهِ كُلَّكَ، وَتَحْمِلَ عَلَيْهِ[٧] كُلَّكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ فيهِ التَّوكُّلَ والتَّسليمَ، وهوَ من أشرفِ المقاماتِ.

---

(١) في (ب): «فصلح أن سمي»، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) ورد قوله في: قوت القلوب ١/٤٤٢، ومناقب الأبرار ١/٢١٤، ومنارات السائرين ص١٩٠.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.

(٦) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١٢١، وطهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ص١٨٧.

(٧) في (ف): عنه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: مِنْ عَلَامَاتِ العُبُودِيَّةِ: تَرْكُ التَّدْبِيرِ وَشُهُودُ التَّقْدِيرِ».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا مِنْ بابِ الأحوالِ والمقاماتِ، فإنَّ تركَ التَّدبيرِ مِنْ علاماتِ التَّوكُّلِ والتَّفويضِ، وشهودَ التَّقديرِ مِنْ عَلامَاتِ المُرَاقَبةِ، فبهذَا الاعتبارِ جعلهَا منْ علاماتِ العُبُوديَّةِ[(٣)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ[(٥)]: العُبُودِيَّةُ: أَنْ تَكُونَ عَبْدَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، كَمَا أَنَّهُ رَبُّكَ فِي كُلِّ حَالٍ».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وليسَ هذَا أنْ تعلمَ أنَّكَ عبدُهُ في كلِّ حالٍ، كمَا أنَّكَ تعلمُ أنَّهُ ربُّكَ في كلِّ حالٍ، وإنَّمَا المقصودُ منَ العبوديَّةِ: أنْ تكونَ معَ الحقِّ بالنِّسبةِ إلىٰ جريانِ الأحكامِ وتصريفِ التَّقديرِ راضيًا متذلِّلًا متواضِعًا لمَا يُجريهِ عليكَ، وهذا معنَىٰ العبوديَّةِ بالحالِ دونَ العِلْمِ [٢/٩٧ب].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «قَالَ: الجُرَيْرِيُّ[(٧)]: عَبِيدُ النِّعَمِ كَثِيرٌ عَدِيدُهُمْ، وَعَبِيدُ المُنْعِمِ عَزِيزٌ[(٨)] وُجُودُهُم».

❋ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إشارةٌ إلىٰ أنَّ العبوديَّةَ حالةٌ يثمرُهَا النَّظرُ إلىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.
(٢) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٤٤٥.
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٣.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.
(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٩٤، ومنارات السائرين ص١٩٠.
(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.
(٧) ورد قوله في: الإرشاد والتطريز ص١٣٥، وسراج الطالبين ٢/١٧٢.
(٨) أي: نادروجودهم.

اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ودوامُ مراقبتِه، وكمالُ المعرفةِ بجلالِه وعظمتِه، فيذلُّ العبدُ في نفسِه، ويكمُلُ انقيادُهُ لأوامرِهِ، ويرضىٰ بكلِّ مَا يُجريهِ عليهِ مِنْ قدرِهِ، وافقَ رِضاهُ أو خَالفَهُ، بخلافِ عبيدِ النِّعمِ الَّذينَ إذَا تغيَّرتِ النِّعمُ تغيَّرَ حالُهُمْ، فإنَّ طِيبَ أحوالِهِمْ معَ العَوافِي وتوالِي النِّعمِ عليهِمْ، وإذا نزلَ البلاءُ وخلافُ الهوىٰ تغيَّرتْ أحوالُهُمْ، وهذَا فِي الخلقِ كثيرٌ، والأوَّلُ نادرٌ قليلٌ، ولهذَا المعنىٰ ما أشارَ إليهِ الشِّبليُّ مِنْ أنَّهُ كانَ عندَهُ ديكٌ كثيرُ الذِّكرِ في اللَّيلِ، فربطَ رجلَيهِ ذاتَ ليلةٍ، فلمْ يتكلَّمِ الدِّيكُ تلكَ اللَّيلةَ فجعلَهُ عبرةً، وقالَ لهُ: «أنتَ ما[1] تذكرُ إلَّا معَ العافيةِ، وإذَا جاءَكَ البلاءُ تَرَكْتَ».

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: أَنْتَ عَبْدُ مَنْ أَنْتَ فِي رِقِّهِ وَأَسْرِهِ؛ إِنْ كُنْتَ فِي أَسْرِ نَفْسِكَ فَأَنْتَ عَبْدُ نَفْسِكَ، وَإِنْ كُنْتَ فِي أَسْرِ دُنْيَاكَ فَأَنْتَ عَبْدُ دُنْيَاكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والعبدُ علىٰ الحقيقةِ مَنْ مُلِكَ، فمَنْ ملكَهُ شيءٌ مِنَ المُشْتهياتِ حتَّىٰ شَغَلَ قلبَهُ حبُّهُ عمَّا هوَ أولَىٰ بهِ في دينِهِ صحَّ أنْ يكونَ مَمْلُوكًا لهُ؛ لأنَّهُ صارَ مشغولًا بحفظِهِ وحِراستِهِ والحرصِ عليهِ وخَوفِ فواتِهِ في صُورةِ العبدِ الخَادمِ، وهذَا يجرِي في كُلِّ مُشْتهىً محبوبٍ، سَواءٌ كانَ عيْنًا أوْ عرضًا، حيوانًا أو جَمادًا، ولذلكَ ذكرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدِّينارَ والدِّرهمَ والخميصةَ والقطيفةَ، والخبرُ صحيحٌ، وقالَ فِي آخرِهِ: «إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ».

وفي بعضِ الطُّرقِ[4]: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ».

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) كما في صحيح البخاري ٣/١٠٥٧ ـ حديث رقم (٢٧٣٠).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَرَأَىٰ أَبُو يَزِيد رَجُلًا فَقَالَ لَهُ[(٢)]: مَا حِرْفَتُكَ؟ فَقَالَ: خَرْبَنْدَةُ[(٣)]، قَالَ: أَمَاتَ اللهُ حِمَارَكَ لِتَكُونَ عَبْدَ اللهِ، لَا عَبْدَ الحِمَارِ[(٤)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي فسَّرْنَا بهِ ما تقدَّمَ، وذلكَ أنَّهُ لمَّا علِمَ أنَّ الخَرْبَنْدَةَ رجلٌ مشغولٌ بدَّابتِهِ ومعاهدَتِهَا لدعاءِ حاجتِهِ إليهَا، وأنَّهَا صارَتْ شغلَهُ حتَّىٰ شغلَتْهُ عن أمْرِ آخرتِهِ، فلمَّا رأىٰ علامةَ الغفلةِ عليهِ وعدمَ الشُّغلِ بأمْرِ الآخرةِ [٢/١٩٨أ] سألَهُ عَنْ حِرْفتِهِ، فلمَّا قالَ لهُ: «خربندَةُ»، دعَا لهُ بأنْ يزيلَ[(٥)] اللهُ عنهُ المُشغِلَ حتَّىٰ يرجعَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ويصيرَ عبدًا لهُ، وعَابدًا مَشْغُولًا بما أُمِرَ بهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٧)]: سَمِعْتُ جَدِّي: أَبَا عَمْرِو بْنَ نُجَيْدٍ[(٨)] يَقُولُ: لَا يَصْفُو لِأَحَدٍ قَدَمٌ فِي العُبُودِيَّةِ حَتَّىٰ يُشَاهِدَ أَعْمَالَهُ عِندهُ[(٩)] رِيَاءً، وَأَحْوَالَهُ دَعَاوَىٰ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي فسَّرْنَا بهِ العبوديَّةَ، وفرَّقْنَا بهِ بينَ العِبَادةِ والعُبُودَةِ، وجعلْنَا العُبُوديَّةَ وَسَطًا، وذلِكَ أنَّ أصحابَ العبادةِ مَوقُوفُونَ[(١٠)] معَ الأعمالِ، وأصحابَ العُبُودةِ مُسْتَغرقُونَ في الجلالِ والجمالِ، وأصحابَ العبوديَّةِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٩٩.

(٣) لفظة فارسية بمعنىٰ: الحَمَّار.

(٤) في (ب): «لا عبدا لحمارك».

(٥) في (أ): يزول، والصواب المثبت.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٤٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/٢٢٤، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٣٦.

(٨) في (ب): نجيب، وهو تحريف.

(٩) في (ب): عند، والأصح المثبت.

(١٠) في (ب): موقون.

في أشرفِ الأحوالِ مُتبَرِّئونَ ممَّا هُمْ فيهِ نظرًا لِعَونِ الكبيرِ المُتَعالِ، قالَ: ولَا يصحُّ هذَا المقامُ إلَّا إذا تبرَّأَ منْ إضافةِ الأفعالِ إليهِ والأحوالِ، فإنْ أضافَ الأعمالَ إليهِ كانَ مُرائيًا مِنْ حيثُ كونُهُ نظرَ في عملِهِ لغيرِ اللهِ ـ وهيَ نفسُهُ ـ ويتبرَّأُ منَ الأحوالِ، فإنْ أضافَهَا إلىٰ نفسِهِ كانَ مدَّعِيًا فيمَا لا يملكُ.

فكَمَالُ عُبُوديَّتِهِ أنْ يَرَىٰ نفسَهُ محلًّا لِجَرَيانِ فِعْلِ ربِّهِ وفضْلِهِ عليهِ في عملِهِ وحَالِهِ، وإنَّمَا سمَّىٰ أعمالَهُ رياءً منْ حيثُ التفتَ إلىٰ نفسِهِ، وهوَ التفاتٌ إلىٰ غيرِ اللهِ في عملِ اللهِ، وإنْ كانَ لمْ يطلبْ حَمْدَهَا، وإنَّمَا هذا مِنْ أدقِّ أحوالِ الرِّياءِ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ[1]: «رياءُ العَارِفِينَ أفضلُ منْ إخلاصِ المُرِيدِينَ»، فسمَّىٰ التفاتَ العارفِ باللهِ إلىٰ عملِ نفسِهِ رياءً، بَلْ حقُّهُ أنْ يَرَاهُ فضلًا منْ ربِّهِ ويغفلَ عن كَسْبِهِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ المُعَلِّمَ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَنَازِلٍ[3] يَقُولُ[4]: العَبْدُ عَبْدٌ مَا لَمْ يَطْلُبْ لِنَفْسِهِ خَادِمًا، فَإِذَا طَلَبَ لِنَفْسِهِ خَادِمًا فَقَدْ سَقَطَ عَنْ حَدِّ العُبُودِيَّةِ وَتَرَكَ آدَابَهَا»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا يكونُ إذا عظُمَتْ نفسُهُ عندَهُ، ورأَىٰ نفسَهُ أهلًا لأنْ يُخْدَمَ، وحقُّهُ أنْ يكونَ خادِمًا، فمتَىٰ غلبَ علىٰ قلبِهِ كونُهُ ممَّنْ يُخْدَمُ خُشِيَ عليهِ فواتُ مقامِ العُبُوديَّةِ، وهذَا ما لمْ تَدْعُهُ ضرورةٌ إلىٰ أنْ يُخدَمَ لضعْفٍ وعجزٍ أوْ ما يجرِي مجرَاهُ، فإنَّ هذا لا يُخرجُهُ عن حدِّ عبوديَّتِهِ، ويرَىٰ الفضلَ لِمَولاهُ عليهِ في كَونِهِ لطفَ بهِ في حالِ عجزِهِ حتَّىٰ سخَّرَ لهُ مَنْ يخدمُهُ ويُعينُهُ علىٰ

---

(١) نسب لرويم في: حلية الأولياء ١٠/٢٩٧، وتاريخ بغداد ٨/٤٣٠، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٢١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٣) في (ب، ف): مبارك، وهو تحريف.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٩٥، والكواكب الدرية ٢/١٥٧.

طاعتِهِ[١]، ولذلِكَ قالَ: «ما لَمْ يطلبْ لنفسِهِ» [٢/٩٨ب].

وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ رؤيةِ استحقاقِهِ لِمَنْ يخدمُهُ، وفيهِ نوعُ تعظيمٍ وشَرفيَّةٍ، وهذَا يضادُّ العبوديَّةَ والتَّذلُّلَ، وكذلِكَ كلُّ ما يحتاجُ إليهِ منْ زوجةٍ وصاحبٍ، ولَا يخرجُهُ عَنْ كَونِهِ عبدًا ذليلًا في نفسِهِ رائيًا[٢] فضْلَ ربِّهِ عليهِ فيمَا هوَ محتاجٌ إليهِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحَسَنِ[٤] يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْرُوقٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: لَا يَصْلُحُ لِلْعَبْدِ التَّعَبُّدُ حَتَّىٰ يَكُونَ بِحَيْثُ لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ المَسْكَنَةِ فِي العَدَمِ، وَلَا فِي الغِنَىٰ أَثَرُ الوُجُودِ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ حقيقةَ العبوديَّةِ عدمُ تعلُّقِ القلبِ بالمَحْبُوبَاتِ، ورؤيةُ الفَضْلِ لخالِقِ الأرضِ والسَّماواتِ، فإنِ ابتلَاهُ مولَاهُ بفقرٍ وعَجزٍ فلا يُرَىٰ عليهِ أَثَرُ الذِّلَّةِ والانكسارِ، لفواتِ ما عدمَهُ منْ نعيمِ هذهِ الدَّارِ، وإنْ أجرَىٰ عليهِ مولَاهُ النِّعمَ والعَوافِيَ فلَا يظهرُ عندَهُ اهتزازٌ لذلكَ ولا افتخارٌ، لعدمِ قَدْرِ إخْطَارِ نِعَمِ الدُّنيَا فِي قَلْبِهِ لِلزُّهدِ فيهَا والاستصغارِ، ورؤيتِهِ جميعَ ما هوَ فيهِ منَ الغِنَىٰ والفَقْرِ والعِزِّ والذُّلِّ جاريًا عليهِ منْ ربِّهِ بِحُسنِ الاختيارِ وجَمِيلِ الأَقْدَارِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: **«وَقِيلَ: العُبُودِيَّةُ شُهُودُ الرُّبُوبِيَّةِ»[٦].**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا منَ الأسبابِ العظيمةِ في دوامِ العبوديَّةِ، فإنَّ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٤.

(٢) في النسخ: راءٍ، والأصح المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩.

(٤) في (ب، ف): الحسين، والصواب المثبت.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩.

(٦) فلا يتحقق معنىٰ العبودية للإنسان إلا إذا شهد نعوت الربوبية، من الجمال والكمال والجلال.

العبدَ إذا توالَتْ مُراقبتُهُ لجلالِ مَولَاهُ وعظمتِهِ ذلَّ في[(١)] نفسِهِ، وتمكَّنَ عندَهُ ما هوَ عليهِ مِنْ حقريَّتِهِ وقلَّةِ قدرِ نفسِهِ بالنِّسبةِ لمَا هيَ عليهِ؛ مِنْ جِهَةِ طَبْعِهَا، لا[(٢)] بالنَّظرِ لمَا خصَّهَا بهِ ربُّهُ مِنْ كَرَامَتِهِ[(٣)].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِيَّ يَقُولُ**[(٥)]: **قِيمَةُ العَابِدِ بِمَعْبُودِهِ**[(٦)]**، كَمَا أَنَّ شَرَفَ العَارِفِ بِمَعْرُوفِهِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أنَّ العبدَ قَدْ أطلقَ عليهِ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدًا بالنِّسبةِ لمحبوباتِهِ، وارتباطِ قلبِهِ بهَا، واشتغالِهِ بهَا عَنْ عبادةِ ربِّهِ، كمَا قالَ[(٧)]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالخَمِيصَةِ، وَالقَطِيفَةِ»، وكمَا تقدَّمَ في قضيَّةِ الخَرْبَنْدَةِ معَ حمارِهِ، فكلُّ مَنْ عبدَ شيئًا فَرِفعَتُهُ وقِيْمَتُهُ علىٰ حسبِ مَعْبُودِهِ، فمَنْ عبدَ الشَّيطانَ كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] [٢/١٩٩أ]، أَيْ: تطيعُوهُ فيمَا يأمرُكُم بهِ وينهاكُم.

وكذلِكَ مَنْ عبدَ[(٨)] زوجتَهُ وولدَهُ وقِمَاشَهُ وأثَاثَهُ، وكلَّ شيءٍ اشتغلَ قلبُهُ بهِ حتَّىٰ أنسَاهُ ما خُلِقَ لهُ فهوَ عبدُهُ، وقيمتُهُ علىٰ قدرِ ما عِنْدَهُ[(٩)]، ومَنْ عَبَدَ اللهَ خالِصًا

(١) في (ب): من.
(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٤ ـ ٦٠٥.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩.
(٥) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/٦٠٥.
(٦) ولذلك قيل: من أراد أن ينظر مقامه فليتأمل فيما الحق فيه أقامه.
(٧) سبق تخريجه.
(٨) أي: أحبَّ.
(٩) في (ب): عبده.

فرفعتُهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ علىٰ حسبِ جَلالِ مَنْ عَبَدَهُ[١]، كمَا أنَّ الجارِي في الدُّنيَا أنَّ رِفعَةَ العَبْدِ تكونُ مِنْ سيِّدِهِ، ويُعَظِّمُهُ الخَلْقُ علىٰ عِظَمِ سَيِّدِهِ في نُفُوسِهِم.

وكذلِكَ العَارِفُ دَرَجتُهُ ورفعتُهُ علىٰ حسبِ مَعْرُوفِهِ، فليسَ مَنْ عَرَفَ الشَّرَّ كمَنْ عَرَفَ الخيرَ، وليسَ مَنْ عَرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ كمَنْ عَرَفَ غيرَهُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ[٢]، وإنَّمَا فُضِّلَتِ المَعَارِفُ لتفضيلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ المعروفَ، فمتىٰ كانَ المعروفُ فاضلًا عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وطلبَ معرفتَهُ كانَتْ معرفتُهُ فاضلةً علىٰ حسبِ المعروفِ الفاضلِ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وهذَا هوَ الحقُّ؛ وهوَ أنَّ التَّفضيلَ إنَّمَا يكونُ شَرْعًا، فكلُّ مَنْ كانَ عندَ اللهِ فاضِلًا وفضَّلَهُ فهوَ الفاضلُ لا غيرُ.

❁ قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ[٤]: العُبُودِيَّةُ زِينَةُ العَبْدِ، فَمَنْ تَرَكَهَا تَعطَّلَ مِنَ الزِّينَةِ[٥]**».

❁ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ كمَا قالَ بعضُهُمْ[٦]:

قَالُوا غَدًا العِيدُ مَاذَا أَنْتَ لَابِسُهُ؟ ❁ فَقُلْتُ: خِلْعَةُ سَاقٍ حُبُّهُ جَرَعَا
فَقْرٌ وَصَبْرٌ هُمَا ثَوْبَانِ تَحْتَهُمَا ❁ قَلْبٌ يَرَىٰ إِلْفَهُ الأَعْيَادَ وَالجُمَعَا
أَوْلَىٰ المَلَابِسِ أَنْ يُلْقَىٰ الحَبِيبُ بِهِ ❁ يَوْمَ التَّزَاوُرِ فِي الثَّوْبِ الَّذِي خَلَعَا

---

(١) وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٥.

(٤) في (ب): جعفر، والصواب المثبت. وورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٢٠٤، وسراج الطالبين ٢/١٧٢.

(٥) لتخليه عن المقصود من حكمة إيجاده.

(٦) من البسيط، للشبلي في: حلية الأولياء ١٠/٣٧٣، وللنوري في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٦، وبلا نسبة في: التبصرة لابن الجوزي ٢/١٢١، وطريق الهجرتين ص٨٦.

العِيـدُ لِـي مَـأْتَمٌ إنْ غِبْـتَ يَـا أَمَلِـي ❁ وَالعِيـدُ مَا كُنْـتَ لِـي مَرْأًى وَمُسْتَمَعَا

فأزينُ الحِلْيَةِ بالعبيدِ المبادرةُ فيمَا يُريدُ، معَ التَّذلُّلِ والافتقارِ والتَّبرِّي منَ الحَوْلِ والاقتدارِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبَّاسَ بْنَ حَمْزَةَ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النِّبَاجِيَّ يَقُولُ[(٢)]: أَصْلُ العِبَادَةِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: لَا تَرُدُّ مِنْ أَحْكَامِهِ شَيْئًا، وَلَا تَدَّخِرُ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَسْمَعُكَ تَسْأَلُ غَيْرَهُ حَاجَةً».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ أصلَ العبادةِ الإخلاصُ في العِملِ [٩٩/٢ب]، ولا يتمُّ الإخلاصُ إلَّا بكمالِ المَعْرِفةِ بانفرادِ الحقِّ - سبحانه - بوجوبِ الطَّاعةِ، وأنَّهُ لا فعلَ لغيرِهِ.

وإذَا استقرَّ هذَا المَعْنَى[(٣)] في نفسِ العبدِ استقامَتْ أَحْوَالُهُ[(٤)] في عِبَادَاتِهِ، فلَا يقصدُ غيرَ مولَاهُ، ولَا يعبدُ إلَّا إيَّاهُ، ولَا يسألُ أحدًا سِوَاهُ.

وقدْ حُكِيَ أنَّ موسَى - صلواتُ اللهِ علَى نبيِّنَا وعليهِ - قالَ[(٥)]: «يا ربِّ، تعرضُ لِيَ الحاجةُ القليلةُ، فأستَحْيِي أنْ أسألَكَهَا - وذلكَ لعظمةِ اللهِ - تعالَى - في قلبِهِ وإجلالِهِ لهُ -، فأوحَى اللهُ - تعالَى - إليهِ: سَلْنِي حتَّى مِلْحَ عَجِينِكَ، وعلفَ دابَّتِكَ»، معناهُ: أنَّهُ لا قدرةَ لأحدٍ علَى شيءٍ سِوَايَ، فلَا تسألْ غَيْرِي.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٣١٣، وتاريخ دمشق ٢١/١٦، وشعب الإيمان ١/٢٢٨، وتاريخ الإسلام ١٥/١٦٧، وبغية الطلب ٩/٤٢٨٦.

(٣) في (ب): الحق، والصواب المثبت.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٥) سبق تخريجه.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[٢]: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ: العُبُودِيَّةُ أَرْبَعُ خِصَالٍ: الوَفَاءُ بِالعُهُودِ، والحِفْظُ لِلحُدُودِ، وَالرِّضَىٰ بِالمَوْجُودِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ المَفْقُودِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الأربعةُ تشملُ أسبابَ الدُّنيَا وأسبابَ الآخرةِ، والأحوالَ والكراماتِ، وذلكَ أنَّ قولَهُ: «الوفاءُ بالعُهُودِ» يشملُ سائرَ الشَّريعةِ؛ واجباتِهَا ومُحرَّماتِهَا، وما نوىٰ العبدُ أنْ يفعلَهُ للهِ منَ المندوباتِ، أوْ يتركَهُ منَ الشَّهواتِ المُشْغلاتِ، فهوَ كلُّهُ داخلٌ تحتَ قولِهِ: «الوفاءُ بالعُهُودِ»، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

وأمَّا حفظُ الحدودِ فيشملُ سائرَ ما منعَ اللهُ منهُ منَ المحرَّماتِ وتضييعِ الواجباتِ، وكذلكَ سائرُ المَكْرُوهَاتِ، فلا يزيدُ في الواجبِ ولا ينقصُ، فإنَّ الزِّيادةَ والنَّقصَ منهُ تعدِّي الحدودِ، وكذلكَ سائرُ ما أمَرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ أنْ يوقعَ منَ المَنْدُوباتِ علىٰ وجهٍ، فلا يجوزُ أنْ يتعدَّىٰ؛ لئلَّا يَخْرُجَ العبدُ إلىٰ البدعةِ في تعدِّيهِ.

وكذلِكَ ملازمةُ الأدبِ فِي وقتِ غلبةِ الأحوالِ علىٰ القلوبِ، فلا ينطقُ العبدُ بما لا يليقُ بجلالِ مولَاهُ، ويكونُ حافظًا لمَا يلزمُهُ منَ الأدبِ في دُعَائِهِ ونَجْوَاهُ.

وأمَّا الرِّضَا[٣] بالموجودِ فيشملُ ما يفتحُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ منْ أمورِ الدُّنيَا والآخرةِ، وقدْ تقرَّرَ أنَّ الرِّضَا إنَّمَا يكونُ بعدَ نُزُولِ القضاءِ، فأيُّ شيءٍ فتحَ الحقُّ بهِ للعبدِ ممَّا يصحُّ الرِّضَا بهِ رضِيَ بهِ وإنْ كانَ غيرُهُ أفضلَ منهُ، وقدْ نُقِلَ أنَّ النَّبيَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩.

(٢) طبقات الصوفية ص٢٥٢، وورد أيضا في: تفسير السلمي ١/٧٠، وتفسير الثعلبي ٣/٣٠٤، وشعب الإيمان ٧/٢٢٩، والتعريفات ص١٩٠، ودستور العلماء ٢/٢١٦.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما خُيِّرَ بينَ أمرَينِ إلَّا اختارَ أيسرَهُمَا مَا لمْ يكنْ إثمًا[١].

وكذلِكَ «**الصَّبرُ عنِ المفقودِ**» يشملُ مَا تلفَ ومَا لمْ يفتحْ بهِ منْ أعمالِ الدُّنيَا وأعمالِ الآخرةِ [٢/١٠٠أ]، فمَا فقدَهُ العبدُ فليصبرْ علىٰ فقدِهِ؛ خوفًا منْ معارضةِ ربِّهِ في مُرَادِهِ، وكذلِكَ مَا طلَبَهُ ورغبَ فيهِ ولمْ ينزلْ بهِ، فهوَ في معنَىٰ المفقودِ، فليصبرْ علىٰ عَدَمِهِ، ويَتَضَرَّعْ لِمَولَاهُ فِي تَيْسِيرِهِ مِنْ سَائِرِ مَقَاماتِ الدِّينِ ومَرَاتِبِ المقرَّبينَ، منَّ اللهُ علينَا بمَا مَنَّ عليهِمْ أجمعِينَ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنَ شَاذَانَ يقولُ[٣]: سَمِعْتُ الكِتَّانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ عُثْمَانَ المَكِيَّ يَقُولُ[٤]: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ المُتَعَبِّدِينَ فِي كَثْرَةِ مَنْ لَقِيتُ بِمَكَّةَ وَغَيْرِهَا، وَمِمَّنْ قَدِمَ عَلَيْنَا فِي المَوْسِمِ أَشَدَّ اجْتِهَادًا وَلَا أَدْوَمَ عَلَىٰ العِبَادَةِ مِنَ المُزَنِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، **وَلَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ تَعْظِيمًا لِأَوَامِرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مِنْهُ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ تَضْيِيقًا عَلَىٰ نَفْسِهِ وَتَوْسِعَةً عَلَىٰ النَّاسِ مِنْهُ»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله: «**أَشَدَّ اجْتِهَادًا، وَلَا أَدْوَمَ عَلَىٰ العِبَادَةِ**» يدلُّ ذلكَ علىٰ كمالِ معرفتِهِ بشدَّةِ وعْدِ ربِّهِ ووعيدِهِ، ومَا أعدَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ للمُطِيعينَ، وحذَّرَ منهُ المخالِفِينَ، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا لمَنْ للهِ ـ تعالىٰ ـ فِي قلبِهِ وكمالِ معرفتِهِ بهِ وإجلالِهِ أوامرَهُ ونواهِيَهُ تعظيمٌ، فعلىٰ حسبِ ذلِكَ يكونُ الوعدُ والوعيدُ، فإنَّهُ علىٰ حسبِ عظمِ الآمرِ والنَّاهِي الواعدِ والمتوعِّدِ يكونُ النَّشاطُ في الطَّاعاتِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) ورد قوله في: السماع لابن القيسراني ص٩٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٩٤، وطبقات الشافعيين ص١٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٤، والمقفىٰ الكبير ٢/٥٧.

والهروبُ منَ المخالفاتِ.

وأمَّا «تَوسِعَتُهُ على النَّاسِ» فإنَّهُ يأمرُهُمْ بمَا يجبُ عليهِمْ، وينهاهُمْ عمَّا حُرِّمَ عليهِمْ خاصَّةً، فإنَّ هذا هوَ المشروطُ فِي نجاتِهِمْ عندَ ربِّهِمْ.

وأمَّا فِي حقِّ نفسِهِ فإنَّهُ يسلكُ طريقَ الورعِ عنِ(١) الشُّبهاتِ والمُشْكِلاتِ، ويتخلَّقُ بالزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضا والمحبَّةِ وغيرِ ذلكَ منَ المقاماتِ، فبهذا يضيِّقُ على نفسِهِ(٢).

وهكذا ينبغِي للعالِمِ أنْ ييسِّرَ على النَّاسِ ولا يعسِّرَ، فإنْ رأى مَنْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي أَعَالِي الدَّرجاتِ نبَّهَهُ علَى الطَّاعاتِ والمَنْدُوبَاتِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ(٤): لَيْسَ شَيْءٌ أَشْرَفَ مِنَ العُبُودِيَّةِ، وَلَا اسْمٌ أَتَمَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الاِسْمِ لَهُ بِالعُبُودِيَّةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ـ سبحانه ـ فِي وَصْفِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَيْلَةَ المِعْرَاجِ: وَكَانَ أَشْرَفَ أَوْقَاتِهِ فِي** [٢/١٠٠ب] **الدُّنْيَا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾** [الإسراء: ١]، **وَقَالَ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾** [النجم: ١٠]، **فَلَوْ كَانَ اسْمٌ أَجَلَّ مِنَ العُبُودِيَّةِ لَسَمَّاهُ بِهِ(٥).**

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا(٦):

---

(١) في (ب): في.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١/٦٠٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(٤) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٩٥، والإرشاد والتطريز ص١٣٥، وتدريب الراوي ص٥٩، وسراج الطالبين ٢/١٧٢.

(٥) أي: في تلك الحالة العلية. انظر: تفسير القرطبي ١٠/٢٠٥.

(٦) من السريع، ووردت بلا نسبة في: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٦، وطبقات الشافعية الكبرى=

يَـا عَمْـرُو ثَـأْرِي عِنْـدَ زَهْرَائِـي ❁ يَعْرِفُــهُ السَّــامِعُ وَالرَّائِــي
لَا تَــدْعُنِي إِلَّا بِــ(يَا عَبْـدَهَا) ❁ فَإِنَّــــهُ أَشْــرَفُ أَسْـمَائِي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ولقَدْ أجادَ[1] الشَّيخُ الأجلُّ أبُو عليٍّ الدَّقَّاقُ فيمَا أشارَ إليهِ منَ المعنَىٰ، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ دعَا الأنبياءَ فِي كتابِهِ بأسمائِهم بقولِهِ: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٥٥]، وَ: ﴿يَـٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وَ: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [هود: ٧٦]، وَ: ﴿يَـٰنُوحُ﴾ [هود: ٣٢]، وَ: ﴿يَـٰهُودُ﴾ [هود: ٥٣]، ولمْ يدْعُ نبيَّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثرِ الكتابِ إلَّا بِـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤، وغيرها]، وَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١، وغيرها]، تشريفًا لهُ، وسمَّاهُ ليلةَ المعراجِ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وأضافَهُ إلىٰ نفسِهِ إضافةَ التَّشريفِ، وإنْ كانَ الكلُّ عبيدَهُ؛ لاختصاصِهِ بالمعراجِ، وقولُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

فنبَّهَ أبو عليٍّ علىٰ أنَّهُ لَوْ كانَ اسمٌ منْ أسماءِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرفَ منَ العبوديَّةِ لسمَّاهُ بهِ فِي هذهِ اللَّيلةِ، والحالةُ لكونِهَا حالةً شريفةً خصَّهُ بهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمَّا البيتانِ فموضعُ الاستشهادِ قولُهُ:

لَا تَــدْعُنِي إِلَّا بِــ(يَا عَبْـدَهَا) ❁ فَإِنَّــــهُ أَشْــرَفُ أَسْـمَائِي

فدلَّ علىٰ أنَّ ذلكَ عادةُ العَربِ، وعَادَةُ النَّاسِ فِي إكْرَامِ[2] بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ بأشرفِ الأسماءِ عندَهُ وأحبِّهَا إليهِ.

= ٨/٢٨٦، ونفح الطيب ٢/١٩٣.

(١) في (ب): حاد، والصواب المثبت.

(٢) في (ب): إكرامهم.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ بَعْضُهُم[٢]: إِنَّمَا هُمَا شَيْئَانِ: سُكُونُكَ إِلَىٰ اللَّذَّةِ، وَاعْتِمَادُكَ عَلَىٰ الحَرَكَةِ، فَإِذَا أَسْقَطْتَ عَنْكَ هَذَينِ فَقَدْ أَدَّيْتَ العُبُودِيَّةَ حَقَّهَا.

كَمَا قَالَ الوَاسِطِيُّ[٣]: اِحْذَرُوا لَذَّةَ العَطَاءِ[٤]، فَإِنَّهَا غِطَاءٌ لِأَهْلِ الصَّفَاءِ[٥]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «إِنَّمَا هما شيئانِ: سُكُونُكَ إلىٰ اللَّذَّةِ، واعتمادُكَ على الحَرَكَةِ»، فسكونُهُ إلىٰ اللَّذَّةِ وقوفٌ معَ المقامِ، واستحسانٌ لهُ والتذاذٌ بهِ، واعتمادُكَ علىٰ حركتِكَ وغفلتُكَ عنِ المحرِّكِ وفقدانُ التَّوكُّلِ والسُّكونُ لغيرِ الفاعلِ، فإذَا زالَ الحقُّ عن قلبِكَ هذَينِ المعنيَينِ ولَمْ تعتمدْ علىٰ غيرِهِ ولَمْ تفرحْ بِسواهُ فقدْ كنتَ متحقِّقًا بالعبوديَّةِ؛ لتبرُّئِكَ منَ الحَوْلِ والقوَّةِ، وارتقائِكَ لمَا يفتحُ بهِ ربُّ البريَّةِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجُوْزَجَانِيُّ[٧]: الرِّضَا دَارُ العُبُودِيَّةِ [٢/١٠٠أ]، وَالصَّبْرُ بَابُهُ، وَالتَّفْوِيضُ بَيْتُهُ، فَالصَّوْتُ عَلَىٰ البَابِ، وَالفَرَاغَةُ فِي الدَّارِ، وَالرَّاحَةُ فِي البَيْتِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ أوَّلَ العبوديَّةِ العبادةُ؛ وهوَ القيامُ بالواجباتِ واجتنابُ المحرَّماتِ، ولا يقومُ العبدُ بذلكَ إلَّا بالصَّبرِ، فهوَ بابُ الخيراتِ والوصولِ إلىٰ أعلىٰ الدَّرجاتِ، ثمَّ يتراقَىٰ في درجاتِ الصَّبرِ علىٰ فعلِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٠.

(٢) ورد في: سراج الطالبين ٢/١٧٢.

(٣) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/١٦٤.

(٤) المراد: النهي عن الاشتغال بالنعم مع الغفلة عن المنعم.

(٥) وعن وصولهم إلىٰ مقاصدهم.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٠.

(٧) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/١٧٢.

المَنْدُوبَاتِ وتجنُّبِ المَكْرُوهاتِ، فإذَا وصلَ العبدُ إلىٰ هذِهِ الخيراتِ والدَّرجاتِ الرفيعاتِ، ورأىٰ توالِي نِعَمِ ربِّهِ عليهِ فِي الحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ رضِيَ بكلِّ ما يَرِدُ منهُ عليهِ، وافقَ غرضَهُ أوْ كانَ منِ المَشقَّاتِ، وإذا تمكَّنَ فِي هذا فوَّضَ أمرَهُ إلىٰ اللهِ واستراحَ من هذهِ التَّقديراتِ، وكأنَّ هذا القائلَ قالَ: العبوديَّةُ تُبْنَىٰ عَلَىٰ ثلاثةِ أركانٍ: الصَّبرِ، والرِّضَا، والتَّفويضِ؛ فالصَّبرُ فِي أوَّلِهَا، وسمَّاهُ[1] بابًا، وعلىٰ البابِ يكونُ الصَّوتُ والدُّعاءُ، فإنْ أذنَ لهُ دخلَ الدَّارَ، وهوَ مقامُ الرِّضَا الواسعُ، ولذلِكَ شبَّهَهُ بالدَّارِ، فإذَا تمكَّنَ فِي الرِّضَا دخلَ البيتَ، وهوَ التَّفويضُ، وهوَ محلُّ الرَّاحةِ، والدَّارُ موضعُ الفَرَاغِ، يعنِي منَ الأعمالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي كانَتْ علىٰ البابِ مِنْ كُلَفِ الأعمالِ[2]، ولذلكَ قيلَ[3]: «الرِّضَا بابُ اللهِ الأعظمُ»؛ أيْ: يسهلُ منهُ الدُّخولُ إلىٰ الطَّاعاتِ ويجرِي بغيرِ كُلْفةٍ، والتَّفويضُ تسليمُ الأمورِ إلىٰ الحقِّ يفعلُ فيهَا مَا يشاءُ إلَّا ما أمرَ اللهُ العبدَ بالنَّظرِ فيهِ والتَّدبيرِ لهُ منْ طاعاتِهِ، فهوَ منْ جملةِ التَّفويضِ، فإنَّ العملَ بإذنِ مَنْ لهُ الأمرُ تفويضٌ لأمرِهِ، وخُروجٌ عنِ اختياراتِ العَبْدِ ورأيِهِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ نَعْتٌ لِلْحَقِّ لَا تَزُولُ، فَالعُبُودِيَّةُ صِفَةٌ لِلعَبْدِ لَا تُفَارِقُهُ مَا دَامَ.

وَأَنْشَدَ بَعْضُهُم[5]:

فَـإِنْ سَـأَلُونِي قُلْـتُ: هَـا أَنَـا عَبْـدُهُ ۞ وَإِنْ سَأَلُوهُ قَالَ: هَذَاكَ مَوْلَائِي[6]».

---

(١) في (ب): يقسماه، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٠.

(٥) من الطويل، وورد بلا نسبة في: فيض القدير ١/٢٤٧.

(٦) أي: عبدي.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ وهوَ أنَّ الرَّبَّ ـ سبحانه ـ هوَ اللهُ الخالقُ المقتدرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، وهذَا وصفٌ للإلهِ ثابتٌ قديمٌ، والعبدُ هوَ المخلوقُ المَرْبُوبُ، فمتَىٰ وحَّدَ تحقَّقَ لهُ هذا الوَصْفُ، ولا يفارقُهُ مَا دامَ في الدُّنيا والآخرةِ، ومقصودُهُ بأنَّ العبدَ إذا علِمَ أنَّ هذَا وصفُهُ اللَّازمُ لهُ فينبغِي لهُ [٢/١٠٠ب] أنْ يعطِيَ هذَا الوصفَ حقَّهُ؛ وهوَ القيامُ بأوصافِ العبوديَّةِ؛ وهوَ أنْ يكونَ متحقِّقًا بحقوقِ الرُّبوبيَّةِ عارفًا بجلالِ مولاهُ، فقيرًا في(١) سائرِ أحوالِهِ إلىٰ ما أَوْلَاهُ، مسرورًا بسماعِ هذا النَّعتِ لهُ في سائرِ تقلُّبِهِ ومَثْواهُ، كمَا قالَ الشَّاعرُ:

فَإِنْ سَأَلُونِي قُلْتُ: هَا أَنَا عَبْدُهُ

أيْ: إنْ سَألُونِي عنهُ قلتُ: «**ها أنَا عبدُهُ**»، معنَاهُ: دليلٌ عليهِ.

وقولُهُ: «**وإنْ سَأَلُوهُ**» يحتملُ أمرَينِ:

أحدهُمَا: سألُوهُ عنِّي.

والثَّانِي: سألُونِي عنهُ.

فإنْ كانَ المسئولُ هوَ الحقَّ، أخبَرَ بأنَّ العبدَ مَولاهُ، أيِ: العبدُ مِلْكُهُ ورِقُّهُ وعلَىٰ هذَا يصحُّ: «**قالَ: هذاكَ مَوْلَائِي**».

وإنْ كانَ العبدُ هوَ المسئولَ عنْ ربِّهِ، قلتُ: «**هذاكَ مولائِي**»، أيْ: نَاصِرِي وعَاضِدِي ومُعِينِي، فيصيرُ المعنَىٰ: إنْ سألُونِي عنْ نفسِي قلتُ: أنا عبدُهُ، وإنْ سألُونِي عنهُ قلتُ: مُعِينِي وناصرِي ومُعِيذِي، ويصدقُ فيهِ قلتُ: «**هذاكَ مَوْلَائِي**».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ

---

(١) في (ب): فقير إلىٰ، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٠.

يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْراباذِيَّ يَقُولُ[(١)]: العِبَادَاتُ إِلَىٰ طَلَبِ الصَّفْحِ وَالعَفْوِ عَنْ تَقْصِيرِهَا أَقْرَبُ مِنهَا إِلَىٰ طَلَبِ الأَعْوَاضِ[(٢)] وَالجَزَاءِ عَلَيْهَا.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْراباذِيَّ يَقُولُ[(٣)]: العُبُودِيَّةُ: إِسْقَاطُ رُؤْيَةِ التَّعَبُّدِ فِي مُشَاهَدَةِ المَعْبُودِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُ النَّصراباذِيِّ: «**العبادةُ أحوَجُ إلىٰ الصَّفحِ والعَفْوِ منهَا إلىٰ طلبِ الجزاءِ عليهَا**» صحيحٌ، فإنَّ العابدَ هوَ المُعْتَنِي بإتقانِ أعمالِهِ وإيقاعِهَا علىٰ وجوهِهَا الشَّرعيَّةِ، وإفرادِ الحقِّ بهَا دونَ غيرِهِ، واجبة كانَتْ أوْ مندوبة، تَرْك مُحرَّم كانَ أوْ مَكْرُوه، فجميعُ ذلكَ يحتاجُ إلىٰ الإخلاصِ، وأنَّىٰ للعبدِ بذلِكَ!

وأيسرُ الأحوالِ في النَّقصِ سُكُونُهُ إلىٰ عملِهِ، واعتمادُهُ عليهِ في نجاتِهِ من ربِّهِ، وهذِهِ غفلةٌ شديدةٌ، وصاحبُهَا أحوَجُ إلىٰ الصَّفحِ والعفْوِ إلىٰ أنْ يقومَ بقلبِهِ الجزاءُ علىٰ عملِهِ، أوْ طلبُ الإثابةِ عليهِ، وأمَّا مقامُ العُبُوديَّةِ فهوَ بعيدٌ مِنْ هذِهِ الآفاتِ، فإنَّ أعمالَهُ وسائِرَ أحوالِهِ يُجْرِيهَا الحقُّ عليهِ خالصةً مبرَّأةً منَ العِلَلِ، وهوَ يراهَا فضْلًا منْ ربِّهِ عليهِ، فيستحِيي منْ دَعْوَاهَا لنفسِهِ، فَضْلًا عَنْ طَلَبِ الجَزَاءِ عليهَا مِنْ ربِّهِ[(٤)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)] [١٠١/٢أ]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ:**

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٦٤، والمختار من مناقب الأخيار ١/١٧٠، وشذرات الذهب ٣/٥٨.

(٢) في (ب): الأعراض، وهو تحريف.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٨٦، وتهذيب الأسرار ص١٩٤، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٩.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٠٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٠.

العُبُودِيَّةُ تَرْكُ الأَشْغَالِ، وَالاِشْتِغَالُ بِالشُّغلِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الفَرَاغَةِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **ومرادُهُ:** تَرْكُ أشغالِ الدُّنيا الَّتِي[١] لَا تُعِينُهُ على الآخرةِ، والاشتغالُ بالطَّاعاتِ وأفضلِ القُرُبَاتِ في أعالِي الدَّرجاتِ، ورُؤيةِ الفَضْلِ لمُجرِيهَا عليهَا في[٢] عمومِ الأوقاتِ، فإذا وصلَ إلى هذهِ الحالةِ استراحَ قلبُهُ مِنْ هَمِّ التَّقديراتِ، ورضِيَ وفوَّضَ أمرَهُ إلى خالِقِ الأرضِ والسَّماواتِ، وهذهِ هيَ الفَرَاغَةُ مِنْ كلِّ ما يضرُّ، والاستراحةُ فيمَا ينفعُ ويَسُرُّ، واللهُ الموفِّقُ بمَنِّهِ وكرَمِه.

❊ ❊ ❊

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) سقط هذا اللفظ من (ب).

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«بَابُ الإرَادَةِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

أَخْبَرَنَا[(٢)] عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عبدانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ[(٣)] بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْبَرَنَا الحَكَمُ بْنُ أَسْلَمَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[(٤)]: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ المَوْتِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مقصودُ الآيةِ وروحُهَا: إرادةُ وجْهِ اللهِ بالعملِ والسَّعيِ والتَّجرُّدِ لهُ، ولمْ يُرِدْ ثوابًا كمَا في موضعٍ آخرَ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]، وإذَا كانَ المقصودُ بالإرادةِ إنَّمَا هوَ التَّجرُّدُ في السُّلوكِ إلى كمالِ التَّوحيدِ، فلذلكَ اصطلحُوا على تسميةِ حالِ السَّالكِ لهذَا المقصودِ إرادةً، قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: وإنَّمَا استعارُوا ذلكَ منْ أنَّ كلَّ عملٍ لا بُدَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٥٢.

(٢) في (ب): «أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ، أخبرنا علي بن أحمد»، والمثبت موافق لما في الرسالة القشيرية، وإحكام الدلالة ١/٦٠٩.

(٣) في (ب): همام، وهو تحريف.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٤٥٠، والطبراني في الأوسط ٢/٢٦٦، والحاكم في المستدرك ١/٤٩٠.

(٥) بمعناه في: الرسالة القشيرية ٢/٣٥١.

أنْ يتقدَّمَهُ إرادةٌ، فسمَّوْا أوَّلَ سُلُوكِ طَرِيقِ الخَوَاصِّ إلىٰ نَيْلِ مَطْلُوبِهِمْ إرادةً، ولذلكَ قالُوا: «المُريدُ: مَنْ لا إرادةَ لهُ»؛ أيْ: اختيارًا لهُ في نَفْسِهِ، ولَا تَمْيِيزَ لمُرَادِهِ، وإنَّمَا تجرَّدَ لمرادِ الحقِّ بهِ ومنهُ، ولذلكَ قَالَ الإِمَامُ في حدِّهَا[١]: «نهوضُ القَلْبِ في طلبِ الحقِّ»، والحقُّ هاهُنَا: هوَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

وقولُ بعضِهِم: الإرادةُ: ترْكُ ما عليهِ العادةُ أمرٌ لازمٌ للمُريدِ، فإنَّ مَنِ اجتهدَ في طلبِ الحقِّ أعرضَ عن عَاداتِهِ، ويحسُنُ منَ الأدلَّةِ علىٰ الإرادةِ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ [٢/١٠١ب]: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١].. الآية.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «الإِرَادَةُ: بُدُوٌّ[٣] طَرِيقِ السَّالِكِينَ، وَهِيَ اسْمٌ لأَوَّلِ مَنْزِلَةِ القَاصِدِينَ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ[٤] إِرَادَةً؛ لِأَنَّ الإِرَادَةَ مُقَدِّمَةُ كُلِّ أَمْرٍ، فَمَا لَمْ يُرِدِ العَبْدُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا أَوَّلَ الْأَمْرِ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ سُمِّيَ إِرَادَةً؛ تَشْبِيهًا بِالقَصْدِ فِي الأُمُورِ الَّذِي هُوَ مُقَدِّمَتُهَا.

وَالمُرِيدُ عَلَىٰ مُوجَبِ الاشْتِقَاقِ: مَنْ لَهُ إِرَادَةٌ، كَمَا أَنَّ العَالِمَ مَنْ لَهُ عِلْمٌ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الأَسْمَاءِ المُشْتَقَّةِ، وَلَكِنَّ المُرِيدَ فِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ: مَنْ لَا إِرَادَةَ لَهُ، فَمَا لَمْ يَتَجَرَّدْ عَنْ إِرَادَتِهِ لَا يَكُونُ مُرِيدًا، كَمَا أَنَّ مَنْ لَا إِرَادَةَ لَهُ عَلَىٰ مُوجَبِ الاشْتِقَاقِ لَا يَكُونُ مُرِيدًا.

وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَعْنَىٰ الإِرَادَةِ، فَكُلٌّ عَبَّرَ عَمَّا لَاحَ لِقَلْبِهِ:

---

(١) كما سيأتي.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٣) أي: وضوح وظهور.

(٤) أي: التجرد.

فَأَكْثَرُ المَشَايِخِ قَالُوا: الإِرَادَةُ: تَرْكُ مَا عَلَيْهِ العَادَةُ، وَعَادَةُ النَّاسِ فِي الغَالِبِ التَّعْرِيجُ[(١)] فِي[(٢)] أَوْطَانِ الغَفْلَةِ، وَالرُّكُونُ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ، وَالإِخْلَادُ إِلَى مَا دَعَتْ إِلَيْهِ المُنْيَةُ[(٣)].

وَالمُرِيدُ مُنْسَلِخٌ عَنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ، فَصَارَ خُرُوجُهُ أَمَارَةً وَدَلَالَةً عَلَى صِحَّةِ الإِرَادَةِ، فَسُمِّيَتْ تِلْكَ الحَالَةُ إِرَادَةً؛ وَهِيَ خُرُوجٌ عَنِ العَادَةِ، فَإِذَا تَرَكَ العَادَةَ فَهِيَ أَمَارَةُ الإِرَادَةِ.

فَأَمَّا حَقِيقَتُهَا: فَهِيَ نُهُوضُ القَلْبِ فِي طَلَبِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ، وَلِهَذَا يُقَالُ: إِنَّهَا لَوْعَةٌ[(٤)] تُهَوِّنُ كُلَّ رَوْعَةٍ[(٥)].

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ حَاكِيًا عَنْ مِمْشَاذَ الدِّينَوَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مُذْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحْوَالَ الفُقَرَاءِ جِدٌّ كُلُّهَا، لَمْ أُمَازِحْ فَقِيرًا؛ وَذَلِكَ أَنَّ فَقِيرًا قَدِمَ عَلَيَّ فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ أُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَ لِي عَصِيدَةً، فَجَرَى عَلَى لِسَانِي: إِرَادَةٌ وَعَصِيدَةٌ؟! فَتَأَخَّرَ الفَقِيرُ وَلَمْ أَشْعُرْ بِهِ، فَأَمَرْتُ بِاتِّخَاذِ عَصِيدَةٍ، وَطَلَبْتُ الفَقِيرَ فَلَمْ أَجِدْهُ، فَتَعَرَّفْتُ خَبَرَهُ، فَقِيلَ: إِنَّهُ انْصَرَفَ مِنْ فَوْرِهِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: إِرَادَةٌ وَعَصِيدَةٌ، إِرَادَةٌ وَعَصِيدَةٌ؟! وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى دَخَلَ البَادِيَةَ، وَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ هَذِهِ الكَلِمَةَ حَتَّى مَاتَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ ينبغِي أنْ يُعْرَفَ مقصودُهَا، وذلكَ أنَّ الفقراءَ قلوبُهُمْ صافيةٌ مُسْتَحِسّةٌ[(٦)] لمَا يَرِدُ عليهَا منَ اللهِ ـ سبحانه ـ ولذلِكَ قيلَ[(٧)]:

---

(١) أي: الإقامة.

(٢) في (ف): عن.

(٣) أي: البغية.

(٤) أي: حُرْقَة في الفؤاد.

(٥) في (ب): لوعة.

(٦) أي: مترقبة.

(٧) نسب للجنيد في: تهذيب الأسرار ص٢٦٦.

«إذَا لقيتَ الفقيرَ فالْقَهُ بالرِّفقِ ، ولَا تلقَهُ بالعِلْمِ» ، وذلكَ أنَّ الغالبَ عليهِمُ الأحوالُ ، فإذَا رفُقَ العبدُ بهِ حتَّىٰ ينجلِي عنهُ ما هوَ فيهِ نفعَهُ وانتفعَ بهِ ، وإذا طالَبَهُ بالعلمِ وهوَ في غلبةِ الحالِ أهلكَهُ ، وذلكَ أنَّ هذا الفقيرَ ـ واللهُ أعلمُ ـ كانَ جائعًا مدَّةً طويلةً ، واحتاجَ إلىٰ الطَّعامِ ، وعرَفَ منْ نفسِهِ أنَّهُ لا يمكنُهُ [١٠٢/٢أ] ابتلاعُ الشَّيءِ الخَشِنِ ، فقصَدَ هذَا الشَّيخَ معتمِدًا علىٰ معرفتِهِ بعوائِدِ المُريدينَ ، وطلبَ منهُ ما يوافقُ جُوعَهُ ـ وهوَ عصيدةٌ ـ فأجرَىٰ اللهُ علىٰ لسانِ الشَّيخِ : «إرادةٌ وعصيدةٌ» أي : المريدُ يشتهِي ، فسمِعَ هذا المُريدُ منَ الشَّيخِ هذَا الكلامَ فأخذَهُ عبرةً ، وقوِيَ حالُهُ بهِ ، وهامَ علىٰ وجهِهِ مضافًا لمَا كانَ فيهِ مِنْ تقدُّمِ الجُوعِ ، فكانَ ذلكَ سببَ مَوتِهِ[١] .

وقولُهُ : «أَلَّا يُمَازِحَ فَقِيرًا» ، دلَّ علَىٰ أنَّ الشَّيخَ قالَ لهُ ذلكَ علىٰ وجْهِ البَسْطِ ، لا علَىٰ وجْهِ الإنكارِ ، والَّذِي يدلُّ علىٰ ذلكَ كَونُهُ أمرَ بهَا أنْ تُصْنَعَ ، فلمَّا طلبَهُ لَمْ يَجِدْهُ .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢] : «وَعَنْ بَعْضِ المَشَايِخِ قَالَ : كُنْتُ بِالبَادِيَةِ وَحْدِي فَضَاقَ صَدْرِي ، فَقُلْتُ : يَا إِنْسُ ؛ كَلِّمُونِي ، يَا جِنُّ ؛ كَلِّمُونِي ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ : يَا هَذَا ، أيشٍ تُرِيدُ[٣] ؟ فَقُلْتُ : أُرِيدُ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ، فَقَالَ الهَاتِفُ : حَتَّىٰ تُرِيدَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ .

يَعْنِي : أَنَّ مَنْ قَالَ لِلإِنْسِ وَالجِنِّ : كَلِّمُونِي ، مَتَىٰ يَكُونُ مُرِيْدًا للهِ ـ تَعَالَىٰ ؟!» .

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ففِي الحكايةِ الأُولَىٰ أنَّ صحَّةَ الإرادةِ تُنَافِي الاستمرارَ علىٰ حكمِ العَادةِ ، وهذِهِ الحكايةُ أنَّ الجدَّ في القَصْدِ يزيلُ ذِكْرَ غيرِ الحقِّ منَ القَلْبِ ، فمَنْ كانَ قلبُهُ مجموعًا معَ الحقِّ لمْ يلتفتْ للجنِّ والإنسِ وطلَبِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ٦١١/٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ٣٥٢/٢ .

(٣) أي : من كلامهم .

كلامِهِمْ، فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ الإرادةَ إفرادُ الحقِّ بالقصْدِ والطَّلبِ جميعًا، والإعراضُ عَنْ كلِّ مُشْغِلٍ[١].

قَالَ الإِمَـامُ[٢]: «وَالمُرِيدُ لَا يَفْتُرُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ بِنَعْتِ المُجَاهَدَاتِ، وَفِي البَاطِنِ بِوَصْفِ المُكَابَدَاتِ، فَارَقَ الفِرَاشَ، وَلَازَمَ الانْكِمَاشَ[٣]، وَتَحَمَّلَ المَصَاعِبَ، وَرَكِبَ المَتَاعِبَ، وَعَالَجَ الأَخْلَاقَ[٤]، وَمَارَسَ المَشَاقَّ[٥]، وَعَانَقَ الأَهْوَالَ، وَفَارَقَ الأَشْكَالَ، كَمَا قِيلَ[٦]:

ثُـمَّ قَطَعْـتُ اللَّيْـلَ فِـي مَهْمَـهٍ[٧] ❊ لَا[٨] أَسَـدًا أَخْشَـىٰ وَلَا ذِيبَـا

يَغْلِبُنِـي شَـوْقِي فَـأَطْوِي السُّـرَىٰ[٩] ❊ وَلَـمْ يَـزَلْ ذُو الشَّـوْقِ مَغْلُوبَـا».

قَالَ الشَّـارِحُ: وبهذا الاعتبارِ عبَّرَ بالإرادةِ أنَّهَا لوعةٌ تُهَوِّنُ كلَّ رَوعةٍ، فهوَ لشدَّةِ إربِهِ محمولٌ، ولتعلُّقِ قلبِهِ بمحبوبِهِ عن غيرِهِ مَشْغُولٌ، جِدٌّ دَائمٌ[١٠]، وقلبٌ هَائمٌ، لا يؤثِّرُ فيهِ لَوْمُ لائمٍ.

قَالَ الإِمَـامُ[١١]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: الإِرَادَةُ لَوْعَةٌ فِي

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١١.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٢.
(٣) أي: الإسراع إلىٰ الطاعات، أو التذلل والاستكانة.
(٤) أي: عالج تبديل الذميم منها بالحميد.
(٥) أي: تحمّلها، وصبر علىٰ مؤلمها.
(٦) من السريع، ووردا بلا نسبة في: لطائف الإشارات ١/٤٢٣، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/١٦٠، وورد الثاني منهما في: المدهش ص٣٣٩.
(٧) أي: مفازة بعيدة. وخص الليل بالذكر؛ لأن الفزع والوحشة فيه أشد من النهار.
(٨) في (ب): لم.
(٩) أي: السير ليلا.
(١٠) في (ب): جدوا دائم.
(١١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٢.

الفُؤَادِ، لَدْغَةٌ فِي القَلْبِ، غَرَامٌ[(١)] فِي الضَّمِيرِ، انْزِعَاجٌ فِي البَاطِنِ، نَارٌ تَتَأَجَّجُ[(٢)] فِي القُلُوبِ».

※ قَالَ الشَّارِحُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ لفظةٍ مِنْ هذِهِ الكلماتِ تصلحُ أنْ يعبَّرَ بهَا [٢/١٠٢ب] عنِ الإرادةِ؛ لأَنَّهَا تدلُّ علىٰ كَمَالِ الاحتراقِ في الطَّلب، وَكَمَالِ الشَّوقِ في تَحْصِيلِ الأَرَب، والإعراضِ عَنْ كُلِّ قَاطِعٍ أَوْ مَانِعٍ[(٣)] مِنْ حَظٍّ أَوْ سَبَبٍ[(٤)].

※ قَالَ الإِمَامُ[(٥)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ السَّبَّاكَ يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ[(٦)]: كَانَ بَيْنَ أَبِي سُلَيْمَانَ وَأَحْمَدَ بْنِ أَبِي الحَوَارِيِّ عَقْدٌ[(٧)] أَلَّا يُخَالِفَهُ فِي شَيْءٍ يَأْمُرُ بِهِ، فَجَاءَهُ يَوْمًا وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي مَجْلِسِهِ، فَقَالَ: إِنَّ التَّنُّورَ قَدْ سُجِرَ[(٨)]، فَمَا تَأْمُرُ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ مَرَّتَينِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: اِذْهَبْ فَاقْعُدْ فِيهِ، كَأَنَّهُ ضَاقَ بِهِ قَلْبُهُ، وَتَغَافَلَ أَبُو سُلَيْمَانَ سَاعَةً، ثُمَّ ذَكَرَ[(٩)]، فَقَالَ: اُطْلُبُوا أَحْمَدَ فَإِنَّهُ فِي التَّنُّورِ؛ لِأَنَّهُ آلَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَلَّا يُخَالِفَنِي، فَنَظَرُوا فَإِذَا هُوَ فِي التَّنُّورِ لَمْ تَحْتَرِقْ مِنْهُ شَعْرَةٌ»[(١٠)].

---

(١) أي: هيام وقلق سببه محبة مشاهدة الأحباب.

(٢) أي: تلتهب، وسببها الشوق إلىٰ الوصول، وبلوغ المأمول.

(٣) في (ب): وماتع، والأصح المثبت.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٢.

(٦) ورد قوله في: مختصر تاريخ دمشق ٣/١٤٣، وبغية الطلب في تاريخ حلب ٢/٩٥٦.

(٧) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٨) أي: حُمِي.

(٩) أي: تذكره.

(١٠) قال العروسي: «القصد من إيرادها: بيان أن ثمرة الصدق في الإرادة هي خرق العادة، وبيان قوة الامتثال، حتىٰ وصل بذلك إلىٰ مقام الكمال» نتائج الأفكار ٣/٢٠٩.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ ـ واللهُ أعلمُ ـ علَىٰ أنَّ أبَا سليمانَ كانَ يعلمُ مِنْ حَالِ أحمدَ أنَّ العادةَ انخرقَتْ لهُ فِي أنَّ النَّارَ لا تؤثِّرُ فيهِ، ولذلِكَ أمرَهُ بهِ، وامتثَلَ أحمدُ، وتكونُ فائدةُ هذِهِ الحكايةِ تعريفَ النَّاسِ منزلةَ أحمدَ ورِفْعَةَ مقامِهِ؛ ليُقْتَدَىٰ بهِ بعدَهُ، كمَا كانَ.

وقَدْ خَرَجَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في سفرٍ، فأمرَهُمْ أميرُهُم بعدَ أنْ أوقدَ لهُمْ نارًا وأرادَ أنْ يختبِرَهُمْ؛ هَلْ يمتثلُونَ أمرَهُ فِي جميعِ ما يأمرُهُمْ بهِ منَ الحروبِ وارتكابِ المؤلِمَاتِ؟ فلمَّا أوقدَ النَّارَ أمرَهُمْ أنْ يدخلُوا فيهَا، فقامَ بعضُهُمْ يَحْتَزِمُ[1] للدُّخولِ وامتنعَ بعضُهُمْ، فلمَّا رأَىٰ منهُمْ ذلكَ نهاهُمْ عنِ الدُّخولِ وقالَ: إنَّمَا أردْتُ أنْ أختبِرَكُمْ، فلمَّا وصلُوا إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبرُوهُ بمَا جرَىٰ قالَ[2]: «لَوْ دخلُوهَا مَا خرجُوا منهَا»؛ يعنِي: أنَّهُمْ كانُوا بذلِكَ عُصَاةً؛ إذْ لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

فإذَا تقرَّرَ ذلكَ فوجهُ الحكايةِ إنْ سيقَتْ لكمالِ الجدِّ والامتثالِ لأوامرِ المشايخِ في السُّلوكِ فمحملُهَا[3] [علَىٰ][4] مَا ذكرْنَاهُ، واللهُ أعلمُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: كُنْتُ فِي ابْتِدَاءِ صِبَايَ مُحْتَرِقًا فِي الإِرَادَةِ، وَكُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَيْتَ شِعْرِي! مَا مَعْنَىٰ الإِرَادَةِ؟**

---

(١) في (ب): يحوّم. والقصد: يُشَمِّر، وفي المعجم الوسيط ١/١٧٠: «تحزَّم للأمر: تشمَّر له واستعد».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٥٧٧ ـ حديث رقم (٤٠٨٥)، ومسلم في صحيحه ٣/١٤٦٩ ـ حديث رقم (١٨٤٠).

(٣) في (ب): فحملها.

(٤) زيادة من (ب).

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

وَقِيلَ(١): مِنْ صِفَاتِ المُرِيدِينَ(٢): التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ، والخُلُوصُ فِي نَصِيحَةِ الأُمَّةِ، والأُنْسُ بِالخَلْوَةِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ مُقَاسَاةِ الأَحْكَامِ، وَالإِيثَارُ لِأَمْرِهِ [٢/١٠٣أ]، والحَيَاءُ مِنْ نَظَرِهِ، وَبَذْلُ المَجْهُودِ فِي مَحْبُوبِهِ، وَالتَّعَرُّضُ لِكُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إِلَيْهِ، وَالقَنَاعَةُ بِالخُمُولِ، وَعَدَمُ القَرَارِ بِالقَلْبِ إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الرَّبِّ - سبحانه -».

❊ قَالَ الشَّارِحُ: قولُ الأستاذِ: «كنتُ محترقًا فِي ابتداءِ أَمْرِي، وكنتُ لا أَعْرِفُ مَا الإرادةُ»، فخلاصةُ هذا الكلامِ ودلالتُهُ: أنَّهُ كانَ شديدَ الطَّلبِ للحقِّ في ابتداءِ أمرِهِ حتَّىٰ نالَ منهُ منَ الخيْرِ مَا هوَ فيهِ.

وأمَّا الصِّفاتُ في الحكايةِ الثَّانيةِ فجملتُهَا تفصيلُ حالِ المريدِ؛ وذلِكَ «التَّحبُّبُ إلىٰ اللهِ بالنَّوافلِ»، فإنَّهَا الموعودُ عليهَا بالمحبَّةِ منهُ، كمَا قالَ في الحديثِ(٣): «وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ».

و«الخُلُوصُ(٤) فِي نَصِيحَةِ الأُمَّةِ» إنْ كانَ أهلًا لذلكَ، ولَا يُبالِي بِنَيْلِ درجتِهِ ولَا الارتفاعِ عليهِ، فإنَّهُ شريكٌ(٥) معَهُمْ فيمَا انتفعُوا بهِ بسببِهِ.

وأمَّا «الأُنسُ بالخُلْوةِ» فلخلوصِ الذِّكْرِ منَ الشَّوائبِ، والتفاتِ القلبِ إلىٰ مَا يطرقُ الأُذُنَ منَ الأخبارِ في دوامِ المناجاةِ للواحدِ القهَّارِ.

وأمَّا «الصَّبْرُ علىٰ مُقَاسَاةِ الأَحْكَامِ»، فإنَّ المريدَ في ابتداءِ أمرِهِ تُجاذِبُهُ عنِ الحقِّ عَوائدُهُ، ويُخَالِفُهُ فِي مرادِهِ أهلُهُ ومَنْ يضادُّهُ، وينزلُ عليهِ منَ الحقِّ - سبحانه -

---

(١) نسب للسري في: حلية الأولياء ١٠/١١٧، وبلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/٣٦٥.

(٢) للمزيد حول صفاتهم تأمل: آداب المريدين للسهروردي.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أي: الإخلاص.

(٥) في (ب): شريكًا، والصواب المثبت.

منَ الأحكامِ مَا يمتحنُهُ بهِ ليتحقَّقَ فِي إرادتِهِ ويُسْعِدَه؛ وذلكَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يقولُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وإذَا كانَ كذلكَ فلَا بُدَّ لهُ منَ الإيثارِ لأمْرِهِ علىٰ مَا يميلُ إليهِ هَوَاهُ، وإذَا فعلَ ذلكَ دامَ تثبُّتُهُ ومعرفتُهُ بمَا يُرْضِي اللهَ، واستشعرَ نظرَهُ إليهِ في سائرِ أحوالِهِ، وإذا كانَ كذلكَ دامَ استحياؤُهُ منهُ، وسلِمَ مِنْ أنْ يَرَاهُ مَولَاهُ حيثُ لا يَرْضَاهُ.

وأمَّا قولُهُ: «**وبذْلُ المَجْهُودِ فِي مَحْبُوبِهِ**» فهوَ اجتهادٌ آخرُ خِلافَ الاجتهادِ الأوَّلِ الَّذِي كانَ فِي المَنْدُوبَاتِ؛ لأنَّ هذا الاجتهادَ في قطعِ التفاتِ القلبِ إلىٰ غيرِ الرَّبِّ، فهوَ يعملُ ويُكابِدُ في ألَّا يخطرَ بقلبِهِ في سَائِرِ تصرُّفاتِهِ غيرُ مَحْبُوبِهِ، وإذا كانَ يقطعُ الأسبابَ خوفًا منْ أنْ تقطعَهُ عنْ محبوبِهِ فيهِ حاجةٌ إلىٰ ملازمةِ كلِّ سببٍ يُعِينُهُ علىٰ مطلوبِهِ منَ الأدبِ فيمَا هوَ فيهِ، والدُّعاءِ والرَّغبةِ ممَّنْ يستشعرُ قُرْبَهُ مِنْ محبوبِهِ، ويَنْوِي الانتفاعَ بِدُعَائِهِ، فإذَا [٢/١٠٣ب] وصلَ إلىٰ هذَا المقامِ الرَّفيعِ خشِيَ عليهِ منْ آفاتِ الشُّهرةِ، وأنْ يدخلَ عليهِ تشويشُ الخلْقِ وتعلُّقُهُمْ بهِ إذا عرَفُوا[(١)] مقامَهُ ورفعةَ منزلتِهِ عندَ ربِّهِ، فأحسنُ أحوالِهِ خُمُولُهُ وبُعْدُهُ عنِ النَّاسِ؛ لأمرَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ العبدَ متىٰ تواضعَ ازدادَ رِفعةً وسَلِمَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ.

والثَّانِي: ألَّا يحملَهُ خُمُولُهُ وتواضعُهُ وضعفُهُ علىٰ قلَّةِ الجدِّ فِي الطَّلبِ، بَلْ يكونُ ذلكَ شِعَارَهُ ودِثارَهُ، واللهُ الموفِّقُ [لمَا يرغبُ، وإليهِ يدأبُ][(٢)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الزَّقَّاقُ[(٤)]: آفَةُ المُرِيدِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: التَّزْوِيجُ، وَكَتْبَةُ الحَدِيثِ[(٥)]، وَالأَسْفَارُ.**

---

(١) في (ب): علموا.
(٢) زيادة من (ب).
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.
(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢٧.
(٥) يعني: التفرغ لكتابته.

وَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَرَكْتَ كَتْبَةَ الحَدِيثِ؟ قَالَ: مَنَعَنِي عَنْهَا الإِرَادَةُ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الإرادةَ إذا كان[1] معناهَا: التَّجرُّدُ بالقلبِ في طلبِ الرَّبِّ، وقطعُ كلِّ ما يشغلُ عنهُ منَ الأسبابِ، ودوامُ مُراقبتِهِ في كُلِّ حَرَكَةٍ وسَكنَةٍ، وفي كلِّ مقامٍ شريفٍ، وإصغاءُ القلبِ لكلِّ خِطَابٍ، ومراعاةُ القلبِ فِي أوَّلِ الخوطرِ قبلَ حديثِ النَّفسِ والعزمِ، فضلًا عنْ أعمالِ الجوارحِ خوفًا منَ الوقوعِ في الخطأِ وفواتِ الصَّوابِ، وكفى بهذَا شغلًا عَنْ غَيْرِهِ مِنِ اشتِغَالِ أُولِي الأَلبَابِ.

ومَنْ كانَ همُّهُ هذَا فالآفاتُ الَّتِي تقطعُهَا عنهُ وتشغلُ القلبَ عنِ الإتيانِ بهِ أصلًا أوْ كمالًا، فالتَّزويجُ منْ جُملةِ الآفاتِ القاطعةِ عمَّا أشرْنَا إليهِ منَ الاشتغالِ، ولا سيَّمَا إذا تعلَّقَ قلبُهُ بالزَّوجةِ وحدَثَ بينَهُمَا أولادٌ، فرُبَّمَا أسرعَ إلى قلبِهِ الفسادُ، وكذلِكَ الشُّغلُ بالأسفارِ وملاقاةِ الأشرارِ والأخيارِ، فيحصلُ مِنْ رؤيةِ الأشرارِ التَّغيُّرُ وفسادُ القُلُوبِ برؤيةِ ضدِّ المطلوبِ، ومِنَ الأخيارِ خوفُ التَّزيُّنِ لهُمْ والمراءاةُ بإظهارِ أعمالِ الأبرارِ[2].

وأمَّا «كَتْبَةُ[3] الحَدِيثِ» ومُرَادُهُ بهِ: التَّفرُّغُ للعِلْمِ وَقِرَاءتُهُ ودَرْسُهُ، وإنْ كانَ فيهِ فضلٌ إلَّا أنَّهُ مُشغلٌ عنِ القيامِ بمَا يخصُّ العبدُ نفسَهُ؛ منْ إصلاحِ قلبِهِ وجوارحِهِ، واستقامتِهِ معَ ربِّهِ في إخلاصِهِ، فهذَا إذَا سلِمَ في طلبِهِ منَ المحاسدةِ والمُفاخرةِ والمُكاثرةِ، والاستصغارِ لمَنْ يكلِّمُهُ ويخاصمُهُ، أوْ يعلِّمُهُ أو يتعلَّمُ منهُ، أوْ رؤيةِ المُنْكَرَاتِ مِنْ أَذِيَّةِ النَّاسِ والغَمْزِ عليهِمْ والهَمْزِ، وبيانِ فسادِ المقامِ [٢/١٠٤أ] بالغِيبةِ وغيرِهَا مِنْ سَيِّئِ الأحوالِ، وبُعْدُ السَّلامةِ ممَّا قلتُهُ ونقولُ، ممَّا يكثُرُ بهِ الكلامُ

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١٤.

(٣) في (أ، ب): كتب، والأصح المثبت.

ويطولُ، فهوَ فرضُ كفايةٍ إذَا صحَّتْ فيهِ النِّيَّةُ والسَّلامةُ، وعلَىٰ الإنسانِ في نفسِهِ فرضُ عينٍ، ولَا بدَّ لهُ منَ القيامِ بهِ وأنَّىٰ لهُ بذلكَ في زمانِنَا! ولقَدْ صدقَ القائلُ في غيرِ هذا الزَّمانِ، فكيفَ بنَا معَ ضعْفِ القُلُوبِ وفَسَادِ الأديَانِ؟!:

بَلَوْتُ[١] الأَنَامَ وَأَخْبَارَهُمْ ❊ وَمَا أَنَا فِي النَّاسِ بِالمُفْتَرِي

فَلَمْ أَرَ أَسْلَمَ مِنْ وِحْدَةٍ ❊ وَلَمْ أَرَ آنَسَ مِنْ دَفْتَرِ

وَلَا وَاعِظًا مِثْلَ قَبْرٍ ❊ فَخُذْ بِقَوْلِي هَذَا وَلَا تَمْتَرِ[٢]

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ حَاتِمٌ الأَصَمُّ[٤]: إِذَا رَأَيْتَ المُرِيدَ يُرِيدُ غَيْرَ مُرَادِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَظْهَرَ نَذَالَتَهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الشَّخصَ إذَا نسبَ نفسَهُ لشيءٍ وزعمَ أنَّهُ منْ أهلِهِ، ثمَّ تبيَّنَ مِنْ باطنِهِ خلافَ ما أظهَرَ، وسلكَ طريقًا غيرَ موصلةٍ إلىٰ مقصودِهِ الَّذي أظهرَهُ، فـ«**قَدْ أظهرَ نَذَالتَهُ**»، أيْ: خبثَ باطنِهِ، وسوءَ سريرتِهِ الَّتي أخفاهَا وأظهرَ غيرَهَا.

فالمُرِيدُ كَمَا وصفَهُ في الاجتهادِ، فإذَا ادَّعَىٰ الإرادةَ وسَلكَ ضِدَّ طريقِهِ منَ التَّوانِي والكَسَلِ ومحبَّةِ الدُّنيَا وطُولِ الأملِ فقدْ أظهرَ مِنْ أخلاقِهِ ما لا يحسنُ ظهورُهُ، وأطلَعَ النَّاسَ علىٰ سوءِ سريرتِهِ، وهوَ قَمِنٌ أنْ يفعلَ اللهُ بهِ ذلكَ؛ لأنَّ الخبَرَ الصَّحيحَ[٥]: «إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ يَا جِبْرِيلُ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ،

---

(١) في (ب): يكون.

(٢) من المتقارب، وورد بعضها منسوبا لعبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز في: جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٠٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٦٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/٢٧٢١ ـ حديث رقم (٧٠٤٧)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٣٠،=

وَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ».

قالَ مالكٌ(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولا أظنُّهُ قالَ في البُغْضِ إلَّا كَذلِكَ»، وقَدْ ذكرَ (مسلمٌ)(٢) و(البخاريُّ)(٣) في البُغْضِ مِثْلَ ذلكَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكتَّانِيَّ يَقُولُ(٥): مِنْ حُكْمِ المُرِيدِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ(٦): نَوْمُهُ غَلَبَةٌ، وَأَكْلُهُ فَاقَةٌ، وَكَلَامُهُ ضَرُورَةٌ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ المُريدَ المجتهدَ يُصْرَفُ عنهُ كلُّ فضولٍ لا حاجةَ لهُ بهِ، والفضولُ: هُوَ الَّذي يستغنِي عنهُ في سُلُوكِهِ، ويُعضِّدُ هذا الخبَرُ الصَّحيحُ(٧): «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، والَّذي لَا يعنيهِ هوَ الَّذِي لا حاجةَ لهُ إليهِ في تَحْصِيلِ مُرادِهِ الَّذِي يَبْغِيهِ(٨).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٩) [٢/١٠٤ب]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ(١٠): إِذَا**

= حديث رقم (٢٦٣٧).

(١) الموطأ ٢/٩٥٣.

(٢) في صحيحه ٤/٢٠٣٠، حديث رقم (٢٦٣٧).

(٣) اقتصر البخاري على الحب فقط في صحيحه.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٤٧، وتاريخ دمشق ٥٤/٢٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٤، وتاريخ الإسلام ٢٤/١١٧.

(٦) أي: من حيث ما للنفس في ذلك من الحظ.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١٤.

(٩) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

(١٠) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٦٦.

أَرَادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِالمُرِيدِ خيْرًا أَوْقَعهُ إِلَىٰ الصُّوفِيَّةِ، وَمَنَعهُ [عن][1] صُحْبَةَ الْقُرَّاءِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **ومُرادُهُ هاهُنا بالقرَّاءِ**: المتعبِّدِينَ خاصَّةً منْ غيرِ اعتناءٍ بتغييرِ أخلاقِهِمْ المذمومةِ؛ منَ الرِّياءِ والكِبْرِ والعُجْبِ وسوءِ الظَّنِّ ومَا يجرِي مجرَاهُ، وكذلكَ التَّخلُّقُ بالأخلاقِ المحمودةِ؛ منَ الصَّبرِ والقناعةِ والورعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المحمودةِ.

ومَنِ اشتغلَ بهذِهِ الأخلاقِ وتحصيلِهَا، وبعُدَ ممَّا تقدَّمَ منَ الأخلاقِ المذمومةِ، وتخلَّصَ عنهَا فهوَ المعبَّرُ عنهُ بالصُّوفِيِّ، فإنَّ الصُّوفِيَّ مشتقٌّ منَ الصَّفاءِ منَ الأخلاقِ الذَّميمةِ والاتِّصافِ بالأخلاقِ الحميدةِ، فإذَا أرادَ اللهُ بالعبدِ صلاحًا ألقاهُ إلىٰ هؤلاءِ، فتُغَيَّرُ أخلاقُهُ الذَّميمةُ بالحميدةِ، فأحياهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في الدُّنيا حياةً طيِّبةً، فانتفعَ في نفسِهِ، وانتفعَ بهِ مَنْ يخالطُهُ وإنْ كانَ ممَّنْ ليسَ عندَهُ منَ العبادةِ سِوَىٰ كثرةِ الرُّكوعِ والسُّجودِ وقراءةِ القرآنِ والأعمالِ الظَّاهرةِ وتكثيرِهَا للحسابِ خاصَّةً، وإنِ ابتُلِيَ بمصيبةٍ أوْ خُولِفَ في حاجةٍ، أوْ أُوذِيَ بأذيَّةٍ ظهرَ منْ أخلاقِهِ الذَّميمةِ ما يُوازِي إثمَهُ مَا حصلَ لهُ منَ الأجرِ في أعمالِهِ إنْ كانَتْ صحيحةً سالمةً منَ الآفاتِ المُفسداتِ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الزَّقَّاقَ يَقُولُ[3]: نِهَايَةُ الإِرَادَةِ أَنْ تُشِيرَ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فَتَجِدَهُ مَعَ الإِشَارَةِ، فَقُلْتُ: فَأيشٍ يَسْتَوْعِبُ الإِرَادَةَ؟ فَقَالَ: أَنْ تَجِدَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بِلَا إِشَارَةٍ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومرادُهُ بهذَا ـ واللهُ أعلمُ ـ: مَا تضمَّنَهُ الخبرُ الصَّحيحُ

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٢٩٥، ومناقب الأبرار ١/٤٢٨، ومدارج السالكين ٢/٣٦٥.

في حقِّ مَنِ استقامَ على السُّلوكِ في التَّقرُّبِ إليهِ وقامَ بالواجباتِ على شروطِهَا وأتى بالمندوباتِ؛ فاضلِهَا ومفضولِهَا، على أحسنِ وجوهِهَا وأكملِهَا حتَّى أحبَّهُ مولاهُ وصارَ ممَّنْ يستجيبُ لهُ دعاءَهُ، فمعنى قولِهِ: «**نهايةُ الإرادةِ أنْ تشيرَ إلى الحقِّ فتجدَهُ**»، معناهُ: أنْ يُجرِيَ عليهِ الحقُّ ـ تعالى ـ ما أرادَهُ ومَا أشارَ إليهِ فيهِ.

وقولُهُ: «**ومَا تستوعبُ الإردةُ؟**، فقالَ: **أنْ تجدَ الحقَّ بلا إشارةٍ**» يحتملُ هذَا وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنْ يُجرِي الحقُّ عليهِ جميعَ [٢/١٠٥أ] مَا هوَ محتاجٌ إليهِ مِنْ غيرِ طلبٍ.

والثَّاني: أنْ يكونَ دائمَ النَّظرِ إليهِ والمُراقبةِ لهُ في سَائرِ أَحْوالِهِ، لا يحتاجُ في ذِكْرِهِ إلى سَبَبٍ[١].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبَّاسَ بْنَ أَبِي الصَّحْوِ**[٣] **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الزَّقَّاقَ يَقُولُ**[٤]: **لَا يَكُونُ المُرِيدُ مُرِيدًا حَتَّى لَا يُكْتَبُ عَلَيْهِ صَاحِبُ الشِّمَالِ عِشْرِينَ سَنَةً**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يحتملُ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّهُ يحفظُ منَ الزَّلَلِ.

والثَّانِي: أنْ[٥] يعقبَ الزَّللَ بالتَّوبةِ، وقدْ جاءَ في بعضِ الأخبارِ[٦] أنَّ كاتبَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

(٣) في (ب): الصحوي، والصواب المثبت.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٢٨، والكواكب الدرية ٢/١٢٩.

(٥) في (ب): أنه.

(٦) ففي الزهد لابن السري ٢/٤٦٢: «قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الملك الذي على اليمين أمير على الملك=

اليمينِ لهُ نظرٌ على كاتبِ الشِّمالِ، فإنْ زلَّ العبدُ زلَّةً أمرَهُ أنْ يمهلَ عليهِ فإنْ تابَ لمْ يكتبْ وإلَّا كتبَهَا.

فلعلَّ هذَا العبدَ المُريدَ تارةً يحفظُهُ اللهُ منَ الزَّللِ؛ لكمالِ شُغْلِهِ بهِ، والثَّاني إذا جرىٰ القدرُ عليهِ بالزَّللِ عقَّبَ ذلِكَ بالتَّوبةِ قبلَ أنْ يكتبَ، وكانَ ذلكَ سببًا للجدِّ في العملِ، كمَا جاءَ في الخبرِ[1]: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ الْجَنَّةَ، قِيلَ: كَيْفَ يُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ الجَنَّةَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا يَزَالُ ذَنْبُهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ تَائِبًا مِنْهُ هَارِبًا حَتَّىٰ يُدْخِلَهُ ذَنْبُهُ الجَنَّةَ»، يعنِي: يتكرَّرُ منهُ الأسفُ والنَّدمُ والجبرُ لمَا تقدَّمَ.

وقولُهُ: «عِشْرِينَ سَنَةً» ليسَ على وجْهِ التَّحديدِ، بَلْ عَلَىٰ طُولِ الاستقامةِ في الحالةِ، وصحَّةِ السُّلوكِ في المُعامَلَةِ، وربَّمَا كانَ ذلكَ إلىٰ أنْ يموتَ فضلًا عَنْ عِشْرينَ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ الحِيرِيُّ[3]: مَنْ لَمْ تَصِحَّ إِرَادَتُهُ بداءً[4] لَا يَزِيدُهُ مُرُورُ الأَيَّامِ عَلَيْهِ إِلَّا إِدْبَارًا**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ البناءَ لا يكونُ إلَّا علىٰ أساسٍ[5] صحيحٍ، فمَنْ لمْ يكنْ أساسُ طاعتِهِ علىٰ الخوفِ والرَّجاءِ والصِّدقِ والإخلاصِ، وكمالِ

= الذي على الشمال، فإذا عمل حسنة قال لصاحب الشمال: اكتبها، وإذا عمل سيئة قال له: دعها لا تكتبها سبع ساعات، لعله يستغفر»، وأخرج نحوه ابن جرير في تفسيره ١١٥/١٣، والهندي في: كنز العمال ٩٦/٤.

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٩٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٥٣/٢.

(٣) ورد قوله في: مدارج السالكين ٣٦٥/٢.

(٤) في الرسالة القشيرية: «بدارا»، وهما بمعنىٰ واحد.

(٥) في (ب): إنما يكون علىٰ أساس.

المعرفةِ باللهِ وحقوقِهِ ومَا هوَ عليهِ منْ صفاتِهِ لمْ تزدْهُ طولُ الأيَّامِ إلَّا خُرُوجًا عنِ الطَّريقِ(١)، وَحَيْدًا عنِ الاستقامةِ، وبناءً علىٰ غيرِ أَسَاسٍ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ(٣): **المُرِيدُ إِذَا سمعَ شَيْئًا مِنْ عُلُومِ القَوْمِ فَعَمِلَ بِهِ صَارَ حِكْمَةً فِي قَلْبِهِ إِلَىٰ آخرِ عُمْرِهِ فَيَنْتَفِعُ بِهِ، وَلَوْ تَكَلَّمَ بِهِ انْتَفَعَ بِهِ مَنْ سَمِعَهُ(٤)، وَمَنْ سَمعَ شَيْئًا مِنْ عُلُومِهِم وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ كَانَ حِكَايَةً يَحْفَظُهَا أَيَّامًا ثُمَّ يَنْسَاهَا**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ العملَ بالعلمِ يُطْلِعُ العبدَ علىٰ ما فيهِ منَ الآفاتِ [٢/١٠٥ب]، وما يطرقُ العاملَ بهِ منَ النَّقصِ والشُّغلِ عنِ الأدبِ فيهِ فِي كثيرٍ منَ الأوقاتِ، فإذَا كانَ العبدُ متحسِّسًا لمَا يعلمُهُ منَ الآفاتِ في الأعمالِ، وما يدخلُ عليهِ بسببِ غفلتِهِ وسَهْوِهِ مِنْ نَقْصٍ مفوِّتٍ للكمالِ، صارَ بصيرًا بآفاتِ الأعمالِ، حكيمًا بوضعِهَا علىٰ أفضلِ الوجوهِ منْ درجاتِ الإحسانِ، وهذَا هوَ الحكيمُ النَّاطقُ بالحكمةِ لمَنْ ينتفعُ بهَا منهُ بأوضحِ بيَانٍ؛ لأنَّ الحكمةَ: وضعُ الشَّيءِ موضعَهُ منْ غيرِ زيادةٍ ولا نُقْصَانٍ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٥): «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ(٦): **أَوَّلُ مَقَامِ المُرِيدِ: إِرَادَةُ الحَقِّ ـ سبحانه ـ بِإِسْقَاطِ إِرَادَتِهِ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا هوَ الَّذِي تقدَّمَ ذِكْرُهُ في قولِهِم: «**المُرِيدُ**: مَنْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٣) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٦٦.

(٤) في (ف): فينتفع به مما يحفظ من سمعه.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٣.

(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٦٦.

لَا إِرَادَةَ لَهُ»، أي: يُسْقِطُ اختياراتِ نفسِهِ ومحابِّهِ، ويعملُ بأوامرِ ربِّهِ في دَرَجَاتِ قُرْبِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ[2]: أَشَدُّ شَيْءٍ عَلَى المُرِيدِينَ مُعَاشَرَةُ الأَضْدَادِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الضِّدَّ مَنْ لا يجامعُكَ على مقصودِكَ ويريدُ خلافَ مَا تريدُ، فهوَ إمَّا أنْ يفسدَكَ ويردَّكَ إلى ما هوَ فيهِ، وإمَّا أنْ يشغلَكَ ويصدَّكَ عَنْ جدِّكَ برؤيتِهِ وكَسَلِهِ عمَّا تَطلبُهُ وتُعَانيهِ، وقدْ مثَّلَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّفيقَ الصَّالحَ كالعطَّارِ[3]، إنْ لمْ يُحْذِكَ[4] منْ طيبِهِ علقَ بكَ[5] رِيْحُهُ، والصَّاحبَ السُّوءَ[6] كنافخِ الكيرِ؛ إنْ لمْ يحرقْكَ بشررِهِ علقَ بكَ دُخَانُهُ، وكذلِكَ مَنْ مطلوبُهُ ضدُّ مطلوبِكَ إمَّا أنْ يُفسدَكَ أوْ يُكسلَكَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[7]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: قَالَ يُوسُفُ بْنُ الحُسَيْنِ[8]: إِذَا رَأَيْتَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٤.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٨٨، ومدارج السالكين ٢/٣٦٦.

(٣) كما في صحيح البخاري ٥/٢١٠٤ ـ حديث رقم (٥٢١٤): «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ منه، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ منه رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»، وصحيح مسلم أيضا ٤/٢٠٢٦ ـ حديث رقم (٢٦٢٨).

(٤) أي: يعطيك.

(٥) في (ب): به، والأصح المثبت.

(٦) في (ب): الشر.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٤.

(٨) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦١، والمستطرف ١/٣١٠، والوافي بالوفيات ٢٩/٨٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٤٩.

المُرِيدَ يَشْتَغِلُ بِالرُّخَصِ والكَسْبِ[(١)] فَلَيْسَ يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ويعنِي بـ«**الرُّخصِ**»: تعاطِي ما ليسَ بحرامٍ، فكأنَّهُ لا يتركُ منَ الأشغالِ الَّتِي تمنعُهُ مِنْ مقصودِهِ إلَّا الحرامَ خاصَّةً، وعلَىٰ هذَا يتعاطَىٰ المشكلاتِ والشُّبُهاتِ[(٢)]، فضلًا عَنْ تفرُّغِهِ للطَّاعاتِ، فإنَّ المريدَ كمَا تقدَّمَ وصفُهُ شرطُ[(٣)] سُلُوكِهِ الجدُّ فِي الأعمالِ، ولا يرجعُ إلىٰ الدُّنيَا إلَّا عندَ الضَّرورةِ لهَا فِي الأكلِ والنَّومِ والمَقَالِ، كمَا تقدَّمَ مِنْ وَصْفِ الأبدالِ: «**أنَّ أكلَهُمْ فاقةٌ، ونومَهُمْ غلبةٌ، وكلامَهُمْ ضرورةٌ**»، وإذَا كانَ كذلكَ فأكثرُ شُغلِهِ بالطَّاعاتِ والقُرُبَاتِ، وإذَا خطرَ لهُ تَرْكُ مَنْدُوبٍ وقالَتْ لهُ نفسُهُ: [١٠٦/٢أ] هذا يجوزُ ولا إثْمَ[(٤)] عليكَ فيهِ فتركَهُ، أوْ فِعْلُ مكروهٍ كراهةَ تنزيهٍ فنُبِّهَ عليهِ، فقالَتْ لهُ نفسُهُ: ليسَ عليكَ فيهِ إثمٌ فارتكبْهُ. فهذهِ الرُّخَصُ الَّتِي ذكرُوا أنَّهُ إذَا اتَّبَعَهَا لَمْ يجِئْ منهُ شيءٌ في طريقِ الجدِّ لنيلِ المُرَادِ.

وأمَّا الرُّخَصُ الَّتِي هيَ فضيلةٌ؛ كالقَصْرِ[(٥)]، والفطْرِ في السَّفرِ، وأكلِ الميتةِ عندَ الضَّرورةِ، ومَا يجرِي مجرَاهُ، فهذَا مِنْ جُملةِ ما ندبَ الشَّرعُ إليهِ في بعضِ الأوقاتِ، وقَدْ يُوجِبُهُ فِي بعضِ الأوقاتِ، فهوَ مِنْ جُملةِ الطَّاعاتِ، فلا يكونُ مَانِعًا منَ الإرادةِ لتحصيلِ الخَيْراتِ، فإنَّهُ مِنْ جِملتِهَا، واللهُ الموفِّقُ للصَّالحاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٦)]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ الخُلْدِيَّ يَقُولُ: سُئِلَ الجُنَيْدُ[(٧)]: مَا لِلمُرِيدِينَ فِي مُجَارَاةِ الحِكَايَاتِ؟**

---

(١) في (ب): والكسل، والصواب المثبت. ومراده: الكسب المُشغل عن طريق الحق لا مطلق الكسب.

(٢) في (ب): والمشبهات، والأصح المثبت.

(٣) في (ب): مشروط.

(٤) في (ب): ضيم، والصواب المثبت.

(٥) أي: قصر الصلاة.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٤.

(٧) ورد قوله في: اللمع ص٢٧٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥. ونسب لمحمد بن علي=

فَقَالَ: الحِكَايَاتُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يُقَوِّي بِهَا قُلُوبَ المُرِيدِينَ، فَقِيلَ لَهُ: فَهَلْ فِي ذَلِكَ شَاهِدٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ قَوْلُهُ ـ جَلَّ وَعَزَّ ـ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وتقويةُ قلوبِ المُرِيدِينَ بحكاياتِ خَوارقِ العَادَاتِ وَمَا جرَىٰ للصَّالحين مِمَّنْ عَلمُوا صِدْقَهُ، فإذَا أخبَرَ عَنْ نفسِهِ، أوْ عمَّنْ شاهدَهُ، أو عمَّنْ يثقُ بهِ لَا يخفَىٰ تأثيرُهَا فِي القُلُوبِ وتقويةُ اليقينِ بهَا، وعُزُوفُ النَّفسِ عنِ الدُّنيَا والمُلازمةُ بوظائفِ التَّقوَىٰ، فهذَا كلُّهُ مِنْ فوائدِ ذكْرِ الأحوالِ والكراماتِ، ولهذَا المعنَىٰ تداولَهَا العلماءُ فِي كتبِهِم، وأظهرَهَا مَنْ أجرَاهَا اللهُ عليهِ لمَنْ يقتدِي بهِ؛ ليكملَ انتفاعُهُ، ويشتدَّ حرصُهُ علىٰ متابعةِ شَيْخِهِ فِي الحَقِّ.

وقولُهُ: «**وَمَا مصداقُ ذلكَ؟**» يعنِي: مَا الَّذِي يصدقُهُ ويدلُّ عليهِ منَ الشَّريعةِ؟ فقالَ: «**قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾**»، وقَدْ قَصَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي الكتابِ علَىٰ نبيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا جرَىٰ لآدمَ وإبراهيمَ ونُوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرِهِمْ، وأنَّ العاقبةَ كانَتْ للأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكانَ الدَّمارُ علىٰ أممِهِم لمخالفتِهِم، فإذَا كانَتْ هذِهِ الحكاياتُ تقوِّي قلوبَ الأقوياءِ، فتقويتُهَا للضُّعفاءِ مِنْ بابِ أَوْلَىٰ، وأَوْلَىٰ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ خَالِدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٢)]: المُرِيدُ الصَّادِقُ غَنِيٌّ عَنْ عِلْمِ العُلَمَاءِ** [٢/١٠٦ب]».

= الكتاني في: تاريخ بغداد ٣/٧٤.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٤.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٧٠، ومدارج السالكين ٢/٣٣٦.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وهوَ مخصوصٌ[١] ببعضِ العلومِ الَّتي لمْ تَدْعُهُ فِي طريقِهِ حاجةٌ إليهَا؛ لَا العلمِ بمَا يجبُ اعتقادُهُ في دينِهِ، ولَا علمِ إصلاحِ صَلاتِهِ وصَومِهِ، ولَا علمِ معرفةِ الشَّيطانِ ومَدَاخلِهِ ومَا يفسدُ عملَهُ، وكذلِكَ ما لابدَّ لهُ منهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، ومَا تَدعُوهُ إليهِ حَاجةٌ، فهذَا كلُّهُ لا يستغنِي عنهُ مريدٌ ولا غيرُه؛ لأنَّهُ مِنْ فرضِ عَيْنِه.

وأمَّا علومُ الشَّريعةِ بجُملتِهَا الَّتي القيامُ بهَا من فُرُوضِ الكِفَاياتِ؛ سواءٌ كانَتْ فِي الأصولِ أوْ فِي الفروعِ، وكانَ فِي الخَلْقِ مَنْ يقومُ بهذَا الواجبِ وسقطَ ذلكَ عنِ المريدِ، فحينئذٍ يُسْتَغْنَىٰ عنهُ بالنَّظرِ لعلمِهِ في نفسِهِ، وإلَّا بالنَّظرِ لفضيلتِهِ[٢] فِي آخرتِهِ، والقيامِ بشريعةِ ربِّهِ إذا كانَ أهْلًا لذلِكَ، فهوَ محتاجٌ إليهِ لكمالِ دينِهِ ورفعةِ درجتِهِ عندَ ربِّهِ.

فحُمِلَ كلامُ الجُنيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ أنَّ المريدَ إنَّمَا يلزمُهُ منَ العلمِ مَا تدعوهُ إليهِ حاجةٌ في إصلاحِ دينِهِ، ويشتغلُ بسلوكِ طريقِهِ الَّتِي هوَ بصددِهَا، فإنَّهُ إذَا لمْ يكنْ لهُ مالٌ سقطَتْ عنهُ العلومُ المتعلِّقةُ بأصنافٍ منَ المَعْاملاتِ والمبايعاتِ؛ كالقراضِ والمُسَاقاةِ وغيرِ ذلكَ، وكذلِكَ إذَا لمْ تدعُهُ حاجةٌ إلىٰ النِّكاحِ استغنَىٰ عَنْ علومٍ كثيرةٍ متعلِّقةٍ بالطَّلاقِ والنِّكاحِ.

وعلَىٰ الجُملةِ فهذَا مرادُهُ، وإلَّا لوْ خلَا الزَّمانُ عنِ العلماءِ القائِمينَ بالشَّريعةِ لكانَ هذَا المريدُ منْ جُملةِ المكلَّفينَ بتحصيلِ علومِ الكِفَايةِ، وعَصَىٰ بتفريطِهِ معَ النَّاسِ بتَرْكِ قيامِهِمْ بالعلمِ الَّذِي هوَ فرضُ الكفايةِ، وهذَا الإطلاقُ يُخْشَىٰ منهُ فسادٌ آخرُ وقعَ لبعضِ المُريدينَ، وهوَ أنَّ العبدَ إذَا أقبلَ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ودامَ ذِكْرُهُ لهُ

---

(١) في (ب): مخصص.

(٢) في (ب): لفضيله، والصواب المثبت.

واشتغالُهُ بهِ أدركَ مِنْ نفسِهِ منَ العلمِ ما[١] استغنَىٰ بهِ عنْ علمِ العلماءِ.

وهذَا إنْ[٢] قالَ بهِ قائلٌ علىٰ التَّعميمِ حتَّىٰ يدخلَ فيهِ علمُ الشَّريعةِ، فهوَ فتْحُ بابِ دعوَىٰ اكتسابِ النُّبوَّةِ، ونعوذُ باللهِ منْ ذلكَ، والقائلُ بهذَا القولِ[٣] إنْ لمْ يقلْ: إنَّهُ نبيٌّ فمآلُ قولِهِ ذلكَ يؤدِّي إليهِ، وذلكَ أنَّ النَّبيَّ عبارةٌ عمَّنْ يتلقَّىٰ الأحكامَ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ إمَّا بواسطةِ الملكِ، أوِ الإلهامِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ في رسولِهِ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، فقائلُ هذَا فِي هذَا الغررِ العظيمِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**فَأَمَّا الفَرْقُ** [٢/١٠٧أ] **بَيْنَ المُرِيدِ وَالمُرَادِ: فَكُلُّ مُرِيدٍ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ مُرَادٌ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرَادُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِأَنْ يُرِيْدَهُ لَمْ يَكُنْ مُرِيْدًا؛ إِذْ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ، **وَكُلُّ مُرَادٍ مُرِيدٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَهُ الحَقُّ ـ تعالىٰ ـ بِالخُصُوصِيَّةِ وَفَّقَهُ لِلإِرَادَةِ.**

وَلَكِنَّ القَوْمَ فَرَّقُوا بَيْنَ المُرِيدِ وَالمُرَادِ[٦]**؛ فَالمُرِيدُ عِنْدَهُمْ: هُوَ المُبْتَدِئُ، وَالمُرَادُ هُوَ المُنْتَهِي.**

وَالمُرِيدُ: الَّذِي نُصِبَ بِعَيْنِ التَّعَبِ، وَأُلْقِيَ فِي مُقَاسَاةِ المَشَاقِّ، والمُرَادُ: الَّذِي كُفِيَ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ[٧]، **فَالمُرِيدُ مُتَعَنٍّ**، ....

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) في (ب): أنه.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٧٣ ـ حديث رقم (٣٢٦٨)، ومسلم في صحيحه ٣/١٤٧١ ـ حديث رقم (١٨٤٢).

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٤.

(٦) الفرق مختلف بحسب اختلاف مذاهبهم، فكل قد تكلم علىٰ قدر شربه وذوقه فيه.

(٧) في (ف): لقي الأمر من غير مشقة.

وَالمُرَادُ[(١)] مَرْفُوقٌ مُرَفَّهٌ.

وَسُنَّةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مَعَ القَاصِدِينَ مُخْتَلِفَةٌ، فَأَكْثَرُهُمْ يُوَفَّقُونَ لِلمُجَاهَدَاتِ، ثُمَّ يَصِلُونَ بَعْدَ مُقَاسَاةِ اللَّتَيَّا وَالَّتِي[(٢)] إِلىٰ سَنِيِّ المَعَانِي، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يُكَاشَفُونَ فِي الابْتِدَاءِ بِجَلِيلِ المَعَانِي[(٣)]، وَيَصِلُونَ إِلىٰ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الرِّيَاضَاتِ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يُرَدُّونَ إِلىٰ المُجَاهَدَاتِ بَعْدَ هَذِهِ الأَرْفَاقِ؛ لِيُسْتَوْفَىٰ مِنْهُم مَا فَاتَهُم مِنْ أَحْكَامِ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**كلُّ مريدٍ مُرادٌ**»؛ لأنَّهُ لَا يكونُ إلَّا مَا أرادَ، فليسَ مُرادُهُ بالتِّفرقةِ بينَ المُريدِ والمُرادِ، وإنَّمَا المُريدُ: مَنْ أرادَ سلوكَ الحقِّ وسَعَىٰ فِي تحصيلِهِ بجُهْدِهِ، والمُرادُ: مَنْ أعانَهُ الحقُّ وقوَّاهُ علىٰ سُلُوكِهِ ويسَّرَهُ لهُ وألقاهُ في قلبِهِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الشَّخصُ الواحدُ فِي أوَّلِ أمرِهِ مُريدًا وفِي آخرِهِ مُرادًا؛ لمَا يلقاهُ فِي أوَّلِ سُلُوكِهِ منَ المُكَابدةِ والمُجاهَدةِ، ومَا يخفُّ عليهِ في آخرِ أمرِهِ منَ الأعمالِ، وكمالِ معرفتِهِ، وحصولِ لذَّتِهِ بمشاهدتِهِ.

ولهذَا يشيرُ كلامُ القومِ فِي المُريدِ والمُرادِ: أنَّ المريدَ عندَهُمْ هوَ المتعنِّي فِي السُّلُوكِ، والمرادُ هوَ المَطْلُوبُ بهِ المُعَانُ.

وقولُهُ[(٤)]: «**وسنَّةُ اللهِ معَ القاصدِينَ مختلفةٌ**»؛ فمنهُمْ مَنْ تتقدَّمُ مجاهدتُهُ في سُلُوكِهِ، ومنهُمْ مَنْ يقوَىٰ قلبُهُ بمَا يخلُقُهُ فيهِ منَ المعرفةِ والشَّوقِ والحملِ

---

(١) في (ف): «وَالمُرَادُ الذي لقي بالأمر من غير مشقة مرفوق».

(٢) في الصحاح ٦/٢٤٨٠: «يقال: وقع فلان في اللَّتَيَّا والَّتي، وهما اسمان من أسماء الداهية».

(٣) أي: عظيمها، بما يخلقه الله في قلوبهم من المعرفة والشوق.

(٤) سقط هذا اللفظ من (ب).

على الأعمالِ.

وقولُ الإمامِ: «إلَّا أنَّ أكثرَهُمْ يردُ في المجاهداتِ ليستوفِيَ حظَّهُ منَ الرِّياضةِ»، ليسَ مرادُهُ: أنَّهُ يُرَدُّ إلىٰ ما خرجَ منهُ وارتقىٰ عنهُ منَ الأخلاقِ والأعمالِ الشَّاقَّةِ، بَلْ مرادُهُ: أنَّهُ يلقَىٰ في مقاماتِهِ العاليةِ[1] منَ المُجاهداتِ ومُلازمةِ الآدابِ والامتحانِ فِي ذلكَ مَا لقِيَهُ أربابُ البداياتِ فِي بداياتِهِم، فإنَّ كلَّ مقامٍ عالٍ لا بُدَّ بهِ مِنْ مَوانعَ ومُشْغلاتٍ تَصُدُّ عنهُ[2]، ومفتراتٍ مِنْ آثارِ النَّفسِ والشَّيطانِ، فلذلِكَ لَا يستغنِي عنِ المُجاهدةِ لا مريدٌ ولا [٢/١٠٧ب] مرادٌ، وإنْ كانَ أحدُهُمَا مَطْلُوبًا بهِ فِي سُلُوكِهِ[3] ومُجاهَدَتِهِ بالنِّسبةِ إلىٰ غَيْرِهِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: المُرِيدُ مُتحَمِّلٌ، وَالمُرَادُ مَحْمُولٌ.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَانَ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُرِيدًا، فَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥]، وَكَانَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرادًا، فَقَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١].

وَكَذلِكَ قَالَ مُوْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَقَالَ لِنبيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ [الفرقان: ٤٥].

وَكَانَ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ المَقْصُودَ قَوْلُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وَقَوْلُهُ:

---

(١) في (ب): مقامات عالية.

(٢) سقط من (ب) قوله: «تصد عنه».

(٣) في (ب): «وسلوكه».

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥.

«﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ سَتْرٌ لِلْقِصَّةِ، وَتَحْصِينٌ لِلْحَالَةِ»(١).

❊ قَالَ الشَّارِحُ: لَا خِلافَ أنَّ نبيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ البشرِ وسيِّدُ ولدِ آدمَ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢): «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ وَلَا فَخْرُ»، ولكِنْ وردَتْ منهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقوالٌ فيهَا كفٌّ عنِ التَّفضيلِ بينَ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كمَا قالَ(٢): «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ ابْنِ مَتَّىٰ».

وكمَا قالَ(٢): «لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِي».

وكمَا قالَ(٣): «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»، ومرادُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّا إذَا كنَّا لا شكَّ عندَنَا فلا شكَّ عندَ إبراهيمَ.

وكذلِكَ ثناؤُهُ علىٰ يوسفَ بعدَ إقامتِهِ فِي السِّجنِ تلكَ المدَّةَ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، فقالَ للرَّسولِ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ﴾.

وكذلِكَ قضيةُ يونسَ، وكلُّ هذا خوفٌ مِنْ أنْ يسبقَ إلىٰ أحدٍ منَ الأُمَّةِ استنقاصٌ لبعضِ الأنبياءِ فإنَّ درجتَهُمْ أرفعُ الدَّرجاتِ.

وقولُ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ سُؤالٌ لمَا يلقَاهُ عندَ اجتماعِهِ بفرعونَ ومَا يعرفُهُ مِنْ غلظتِهِ، كمَا قالَ فِي موضعٍ آخرَ: ﴿نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، فسألَ شرحَ الصَّدرِ والإعانةَ بأخيهِ ليقومَ بتكليفِ ربِّهِ وتبليغِ أمْرِهِ.

---

(١) يقرر ذلك أيضا قوله في لطائف الإشارات ٢/٣٨٥: «.. ويقال قوله للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ثم قوله: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ سترًا لما كان كاشفة به أولا، إجراء للسّنّة في إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾. وقال لنبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وشتان ما هما! ويقال أحيا قلبه بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فجعل استقلاله بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلىٰ أن سمع ذكر الظل».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٣٣ ـ حديث رقم (٣١٩٢)، ومسلم في صحيحه ١/١٣٣ ـ حديث رقم (١٥١).

وأمَّا قولُهُ: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فلمَا تقدَّمَ لهُ[(١)] مِنْ سَمَاعِ الكَلامِ الأزليِّ، ونَيْلِ هذهِ الحالةِ العظيمةِ، فسألَ الرُّؤيةَ لكمالِ النِّعمةِ، فأعلمَهُ الحقُّ أنَّهُ لا قدرةَ لهُ عليهَا فِي هذهِ الحالةِ.

وقدِ اختلفَ النَّاسُ فِي رؤيةِ نبيِّنَا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربِّهِ فِي[(١)] ليلةِ المِعْرَاجِ: هَلْ رَآهُ أَمْ لَا[(٢)]؟! فإنْ كانَ رآهُ فهيَ فضيلةٌ زائدةٌ خَصَّ اللهُ نبيَّنَا محمداً[(٣)] صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهَا مضافةٌ [٢/١٠٨أ] لشرحِ الصَّدرِ.

وعلى الجُملةِ: فالتَّمثيلُ بالمُريدِ والمُرادِ يصلحُ ويوجدُ كثيرًا في غيرِ الأنبياءِ، ولَا سيَّمَا كلُّ مريدٍ مُرادٌ على ما تَقرَّر[(٤)].

وقولُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥] متعلِّقٌ بـ: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ فيهِ إشارةٌ إلى مخلوقاتِهِ وكمالِ اقتدارِهِ، وأنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ، وليسَ صريحًا في كونِهِ رآهُ بعينَي رَأْسِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَسُئِلَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنِ المُرِيدِ وَالمُرَادِ، فَقَالَ[(٦)]: المُرِيدُ تَتَوَلَّاهُ سِيَاسَةُ العِلْمِ، وَالمُرَادُ تَتَوَلَّاهُ رِعَايَةُ الحَقِّ؛ لِأَنَّ المُرِيدَ يَسِيرُ، وَالمُرَادَ يَطِيرُ، فَمَتَى يَلْحَقُ السَّائِرُ الطَّائِرَ؟!».

---

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٢) تأمل تفصيل ذلك في: الغنية في مسألة الرؤية: رؤية النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه سبحانه وتعالى في ليلة الإسراء، ومن أثبت ذلك ومن نفاه لابن حجر.

(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).

(٤) في (ب): تقدم.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٥.

(٦) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٢٧١، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٦٥، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص١٢٣.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**تَتولَّاهُ سياسةُ العلمِ**»، يعنِي: أنَّهُ يجاهدُ نفسَهُ ويروِّضُهَا فِي أعمالِ قلبِهِ وجوارحِهِ بعلمِ الشَّريعةِ، وبذلِكَ يكونُ محفوظًا محروسًا عنِ الزَّيغِ، وأمَّا «**المرادُ فهوَ تتولَّاهُ رعايةُ الحقِّ**[١]»، يعنِي: كونَهُ ملطوفًا[٢] بهِ مُعَانًا محفوظًا منَ الكسلِ والفتورِ، وإلَّا فمَنْ حُفِظَ[٣] بالشَّريعةِ فقد حُفِظَ برعايةِ الحقِّ، وإنَّمَا مرادُهُ هاهُنَا: أنَّ عَوْنَ اللهِ لهُ أبلغُ، وإعانَتَهُ لهُ وعونَهُ لهُ علىٰ نفسِهِ وشيطانِهِ أعمُّ وأسبغُ، ولذلِكَ قالَ: «**الأوَّلُ سائرٌ، والثَّاني طائرٌ**»؛ لأنَّ الأوَّلَ سَائرٌ في مُجَاهَدَتِهِ، والثَّاني طائرٌ فِي حُسْنِ كَلاءَتِهِ وإِعَانَتِهِ[٤].

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ: أَرْسَلَ ذُو النُّونِ المصْرِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **إِلَىٰ أَبِي يَزِيدَ رَجُلًا، وَقَالَ لَهُ**[٦]: **قُلْ لَهُ: إِلَىٰ مَتَىٰ النَّوْمُ وَالرَّاحةُ وَقَدْ جَازَتِ القَافِلَةُ؟!**

فَقَالَ أَبُو يَزِيدَ: قُلْ لِأَخِي ذِي النُّونِ: الرَّجُلُ مَنْ يَنامُ[٧] **اللَّيْلَ كُلَّهُ حَتَّىٰ يُصْبِحَ فِي المَنْزِلِ**[٨] **قَبْلَ القَافِلَةِ.**

فَقَالَ ذُو النُّونِ: هَنِيْئًا لَهُ، هَذَا كَلَامٌ لَا تَبْلُغُهُ أَحْوَالُنَا».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ**: فقولُ ذِي النُّونِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إلىٰ متىٰ ذَا النَّومُ والرَّاحةُ جازَتِ القافلةُ؟!**» تحريضٌ علىٰ كمالِ المجاهدةِ والجدِّ فِي الأعمالِ ليدركَ السَّابقينَ، وكلامُ أبِي يزيدَ إشارةٌ إلىٰ التَّوحيدِ وجمعِ الهمَّةِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في السُّلوكِ

(١) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٢) في (ب): ملطوفٌ، والصواب المثبت.
(٣) سقط هذا اللفظ من (ب).
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١٩.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٥.
(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٧) في (ب): في نيام، والأصح المثبت.
(٨) في (ب): المنزلة، والصواب المثبت.

والتَّبرِّي منَ الحَوْلِ والقُوَّةِ فِي الاستقامةِ والسَّلامةِ منَ الدُّلوكِ، فلمَّا ردَّ عليهِ هذَا الجوابَ علِمَ مَا بينَ المَقامَينِ، وأنَّ أحدَهُمَا موقوفٌ معَ نفسِهِ ومُجاهَدَتِهِ، والثَّاني مُتبَرِّئٌ مِنْ حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ[١]، ولذلِكَ قالَ ذو النُّونِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**هذَا كلامٌ لمْ تبلغْهُ أحوالُنَا**»، ولمْ يقلْ: «علومُنَا»، فإنَّ مَا علِمَ علوَّ درجتِهِ ورفعةَ حالتِهِ[٢]؛ وهوَ أنَّ الرَّجلَ الكاملَ مَنْ تولَّى اللهُ حفظَهُ ورعايتَهُ فهوَ السَّابقُ فِي كلِّ [٢/١٠٨ب] مقامٍ، فكلامُ ذِي النُّونِ إشارةٌ إلى المُريدِ، وكلامُ أبِي يزيدَ إشارةٌ إلى المُرَادِ[٣]، [واللهُ أعلمُ][٤].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦١٩.

(٢) في (ب): خالته، وهو تصحيف.

(٣) زيادة من (ب).

(٤) إلى هنا انتهى الجزء الأول من النسخة (ب)، وفُقِد الجزء الثاني منها.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الاستِقَامَة

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

أَخْبَرَنَا الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ فُورَكٍ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ الأَصْبَهَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ[٢]، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الأَعْمَشِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ، عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: النَّظرُ في حقيقةِ الاستقامةِ، وفِي أسبابِهَا المحصِّلةِ لهَا، والأدلَّةِ علىٰ وجودِهَا، والثَّمراتِ الحاصلةِ عنهَا.

فأمَّا حقيقةُ الاستقامةِ: فهيَ منقسمةٌ إلىٰ استقامةِ المريدِ، واستقامةِ العارفِ، ولذلكَ قالَ الهرويُّ في حدِّهَا[٣]: «الاستقامةُ: روحٌ تَحيىٰ بهَا الأحوالُ، كمَا تربُو للعامَّةِ عليهَا الأعمالُ، وهيَ برزخٌ بينَ أوهادِ التَّفرُّقِ، وروابِي الجمعِ».

فالاستقامةُ في الأعمالِ للمريدينَ تحملُهُمْ علىٰ الدَّوامِ عليهَا وكثرتِهَا، والاستقامةُ في الأحوالِ للعارِفِينَ تحملُهُمْ علىٰ الأدبِ فيهَا والإعراضِ عنهَا طلبًا لمقامِ الجمعِ، ولذلكَ قالَ في استقامةِ العارفينَ: «وهيَ برزخٌ» يعنِي: حالةً متوسِّطةً

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٦.
(٢) أخرجه في مسنده ص١٣٤، وأخرجه ابن ماجه في سننه ١/١٠١، ومالك في الموطأ ١/٣٤، والحاكم في المستدرك ١/٢٠٠، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١/٨٢.
(٣) منازل السائرين ص٤٣.

«**بينَ أوهادِ التَّفرُّقِ**» يعنِي: بينَ الالتفاتِ إلىٰ النَّفسِ والأعمالِ والسُّكونِ إليهَا، «**وبينَ روَابِي الجمعِ**»، وهوَ كمالُ الشُّغلِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ لا بغيرِهِ، فاستعارَ اسمَ «الرَّوَابِي» لعلوِّ المقامِ، واسمَ «الوهَادِ» لما نزلَ منهُ وهوَ محلُّ التَّفرقةِ(١).

وعلَىٰ الجُملةِ فالاستقامةُ: الاعتدالُ في السُّلوكِ عنِ المَيْلِ إلىٰ جِهَةٍ منَ الجِهَاتِ، ولكلِّ سَالكٍ اعتدالٌ يخصُّهُ(٢) في مَرْتَبَتِهِ ومَنزِلتِهِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا تقصيرٍ، وسيأتِي من أقوالِ المشايخِ ما يبيِّنُ كلَّ مقامٍ في الاستقامةِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ.

وأمَّا أسبابُ الاستقامةِ: فكمالُ العلمِ بالأحكامِ، وتفصيلُ الحلالِ منَ الحَرَامِ، ومعرفةُ درجاتِ الواجباتِ والمَنْدُوباتِ، وكذلِكَ تفاوتُ درجاتِ المُحرَّماتِ ومَرَاتِبِ المَكروهَاتِ، والعملُ بهذِهِ الأحكامِ مِنْ أكبرِ المُعيناتِ [١٠٩/٢أ] علىٰ الاستقامةِ في سلوكِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ.

والسَّببُ الثَّانِي: مجاهدةُ النَّفسِ فِي كسرِ الهوَىٰ، والحملُ علىٰ أعمالِ التَّقوَىٰ؛ لأنَّ العبدَ إذَا بقِيَ معَ عَوائِدِهِ ومَا مالَتْ إليهِ النَّفسُ مِنْ شَهَواتِهِ، وكانَتْ متابعةُ هواهُ، غالبةً علىٰ قلبِهِ، ركبَ ما يخشاهُ ويكرهُهُ بعدَ معرفتِهِ وحادَ عنِ الحقِّ بعدَ دخولِهِ فيهِ؛ لثقلِهِ علىٰ قلبِهِ وكراهتِهِ، فإنَّ الَّذِي يصدُّ الخلقَ عنِ الحقِّ عقبتَانِ: عقبةُ الجهلِ، وعقبةُ الهَوَىٰ، فمَا قدَّمناهُ هيَ عقبةُ الجهلِ الَّتِي ينجُو منهَا بمعرفةِ الأحكامِ، وهذِهِ عقبةُ الهوَىٰ وإنَّمَا ينجُو منهَا بعونِ ربِّهِ عَنْ متابعةِ مَنِ استقامَ.

وأمَّا الأدلَّةُ علىٰ الاستقامةِ: فكلُّ دليلٍ دلَّ علىٰ اتِّبَاعِ الصِّراطِ المستقيمِ، أوْ ندبَ الشَّرعُ إليهِ، أوْ إلىٰ الدُّعَاءِ به فكلُّهُ دليلٌ علىٰ تأكيدِ أمرِهِ، وقدْ أوجبَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في الصَّلاةِ طلبَ هدايةِ صَراطِهِ المستقيمِ، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا

---

(١) انظر: شرح منازل السائرين للمؤلف ص٩١.

(٢) في (أ): يخضه، وهو تصحيف.

صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ومدحَ ـ تعالىٰ ـ المتخلِّقَ بذلكَ والمتَّصفَ بهِ، وأخبرَ بمنزلتِهِمْ عندَهُ وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]... الآية، وغيرُ ذلكَ منَ الآياتِ الدَّالَّةِ علىٰ طلبِ الاستقامةِ، ومدحِ فاعلِهَا والثَّناءِ عليهِ.

وأمَّا ثمراتُ الاستقامةِ: فمِمَا لَا تُحْصَىٰ، وأيُّ بركةٍ تكونُ معَ عدَمِهَا، وأيسرُ فوائدِهَا: السَّلامةُ منَ الحسابِ فضلًا عنِ العَذابِ، والتَّخلُّقُ بشريفِ الآدابِ، وصَيْرورةُ العبدِ منَ الأحبابِ، بشهادةِ الواحدِ الوهَّابِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ[1]: «ولَا يَزالُ العَبْدُ يَتقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»... الحديث.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**الاِسْتِقَامَةُ: دَرجَةٌ بِهَا كَمَالُ الأُمُورِ وَتَمَامُهَا، وَبِوُجُودِهَا حُصُولُ الخَيْرَاتِ وَنِظَامُهَا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيمًا فِي حَالَتِهِ ضَاعَ سَعْيُهُ وَخَابَ جُهْدُهُ، قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾** [النحل: ٩٢].

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيمًا فِي صِفَتِهِ لَمْ يَرْتَقِ مِنْ مَقَامِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَبْنِ سُلُوكَهُ عَلَىٰ صِحَّةٍ، فَمِنْ شَرْطِ المُسْتَأْنِفِ[3] الاِسْتِقَامَةُ فِي إِحْكَامِ البِدَايَةِ، كَمَا أَنَّ مِنْ حَقِّ العَارِفِ الاِسْتِقَامَةَ فِي آدَابِ النِّهَايَةِ.

فَمِنْ أَمَارَاتِ اِسْتِقَامَةِ أَهْلِ البِدَايَةِ: أَلَّا تَشُوبَ مُعَامَلَتَهُمْ فَتْرَةٌ.

وَمِنْ أَمَارَاتِ اِسْتِقَامَةِ أَهْلِ الوَسَائِطِ: أَلَّا يَصْحَبَ [٢/١٠٩ب] **مُنَازَلَتَهُمْ وَقْفَةٌ.**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٦.

(٣) أي: المستقبل للعمل.

وَمِنْ أَمَارَاتِ اِسْتِقَامَةِ أَهْلِ النِّهَايَةِ: أَلَّا تَتَدَاخَلَ مُوَاصَلَتَهُمْ حَجْبَةٌ(١)».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ شَمِلَ كلامُ هذَا الإمامِ رَحِمَهُ اللَّهُ درجاتِ أهلِ الاستقامةِ في البدايةِ والأوساطِ والنِّهايةِ؛ فالمبتدِئُ الَّذِي يمنعُهُ منْ كمالِ استقامةِ الفتورِ عنِ الطَّاعاتِ، والَّذِي يُشوِّشُ استقامةَ أهلِ الأوساطِ ويمنعُهُمْ منَ التَّرقِّي أنْ تمازجَ أحوالَهُمْ وقفةٌ، أيْ: وقفةٌ معَ أحوالِهِمْ واستحسانِهِمْ لهَا، فيمنعُهُمْ ذلكَ منَ الزِّيادةِ فيهَا، والتَّرقِّي عنهَا إلىٰ مَا هوَ أعلَىٰ.

وأمَّا أربابُ النِّهايةِ فاستقامتُهُمْ في دوامِ مواصلتِهِمْ ومشاهدتِهِمْ لمولاهُمْ، ورؤيتِهِمْ لقلوبِهِمْ ألَّا يطرقَهُمْ حَجْبَة، فمتَىٰ طرقَتْ حَجْبَةٌهربُوا، واشتدَّ لهفُهُمْ لهُ وطلبُوا.

هذِهِ درجاتُ أهلِ الاستقامةِ(٢)، وخرجَ منْ مجموعِهَا أنَّ الاستقامةَ لا يستغنِي عنهَا أحدٌ منَ السَّالكينَ، فإنَّ خلاصتَهَا هيَ الجريانُ علىٰ الصِّراطِ المستقيمِ، وإنْ كانَ لهُ أعلىٰ وأدنَىٰ، ولَا يصلُ إلىٰ أعلاهُ إلَّا مَنِ استقامَ في أوَّلِ أمرِهِ علىٰ ما بَناهُ، ومَنْ لمْ يَكُنْ أَسَاسُهُ صحيحًا لمْ يثبُتْ لهُ بِناءٌ.

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ(٤): الاِسْتِقَامَةُ لَهَا ثَلَاثَـ[ـةُ] مَدَارِجَ: أَوَّلُهَا: التَّقْوِيمُ، ثُمَّ الإِقَامَةُ، ثُمَّ الاِسْتِقَامَةُ؛ فَالتَّقْوِيمُ**

---

(١) أي: حجاب ومنع.

(٢) في منازل السائرين ص٤٣أيضًا: «وهي علىٰ ثلاث درجات؛ الدرجة الأولىٰ: الاستقامة علىٰ الاجتهاد في الاقتصاد لا عاديًا رسم العلم، ولا متجوزا حد الإخلاص، ولا مخالفا نهج السنة. والدرجة الثانية: استقامة الأحوال؛ وهي شهود الحقيقة لا كسبًا، ورفض الدعوىٰ لا علمًا، والبقاء مع نور اليقظة لا تحفظًا. والدرجة الثالثة: استقامة بترك رؤية الاستقامة وبالغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة الحق وتقويمه ـ عز اسمه ـ».

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(٤) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٦٠، وسراج الطالبين ٢/١٧٣.

مِنْ حَيْثُ تَأْدِيبُ النُّفُوسِ، وَالإِقَامَةُ مِنْ حَيْثُ تَهْذِيبُ القُلُوبِ، وَالاِسْتِقَامَةُ مِنْ حَيْثُ تَقْرِيبُ الأَسْرَارِ(١)».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قريبٌ صحيحٌ، وذلكَ أنَّ التَّقويمَ: هوَ إصلاحُ الجَوارحِ وتعديلُهَا بِنيرانِ الخوفِ والرَّجاءِ؛ لتسلمَ منَ المُحرَّماتِ، وتستقيمَ علىٰ فِعْلِ الطَّاعاتِ الواجباتِ، فإذَا ارتفعَتْ درجةُ العبدِ وعلِمَ أنَّ أصلَ صَلاحِ جَوارحِهِ وفَسادِهَا قلبُهُ فإنَّهُ أوَّلُ عاملٍ منهُ، فإنَّ الدَّواعِي فيهِ تقعُ منَ الخيرِ والشَّرِّ، فإذَا علِمَ ذلكَ توقَّفَ عنِ الفعلِ، وتثبَّتَ حتَّىٰ يعلمَ الحكمَ، وحينئذٍ يعزمُ علىٰ الفعلِ أوْ يبقىٰ، فهذَا هوَ القيامُ علىٰ القلبِ؛ حتَّىٰ يعلمَ الحكمَ، فإذَا علِمَهُ وكانَتْ أفعالُهُ جميعُهَا بقلبِهِ وجوارحِهِ مَوْزُونةً بميزانِ الشَّرعِ حصلَتْ لهُ الاستقامةُ، وهَانَ عليهِ بُلُوغُ الدَّرجَاتِ الرَّفيعةِ مِنْ غَيْرِ تكلُّفِ تَقْويمٍ، ولَا إقامةٍ لحُصُولِ ذلكَ عندَهُ.

فالأوَّلُ تمحيصٌ(٢)، والثَّانِي تحقيقٌ(٣)، والثَّالثُ توفيقٌ(٤) [٢/١١٠أ].

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): **«وَقَالَ الصِّدِّيقُ(٦)** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: لَمْ يُشْرِكُوا.**

وَقَالَ عُمَرُ(٧) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **لَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ.**

---

(١) أي: من القلوب.

(٢) أي: من أسباب غفران أسباب التقصير.

(٣) أي: من أسباب تحقيق ما وعدنا ربنا من الأجور.

(٤) أي: ناشئٌ عنه ومترتب عليه، وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٢٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٦) رواه الترمذي في: نوادر الأصول ٤/٢٠٨.

(٧) رواه ابن المبارك في الزهد ص١١٠، وورد قوله في: رسالة المسترشدين ص١٢٨، وتفسير الثعلبي ٨/٢٩٣، والسمعاني ٢/٤٦٣، والكشاف ٤/٢٠٤، والمحرر الوجيز ٥/١٤.

فَقولُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ مُراعَاةِ الأُصُولِ فِي التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ تَرْكِ طَلَبِ التَّأْوِيلِ، وَالقِيَامِ بِشَرْطِ العُهُودِ[(١)]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا تفسيرٌ لقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، فحملَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الاستقامةَ فيمَا قالُوهُ، وذلكَ أنَّهُمْ قالُوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فاستقامتُهُمْ فيمَا قالُوهُ ألَّا يُشْرِكُوا معَهُ غيرَهُ فِي وجْهٍ منَ الوجوهِ، لَا فِي الاقتدارِ ولا فِي الطَّاعةِ لهُ، ولَا فِي عملٍ منْ أعمالِ الأبرارِ، لَا واجبٍ ولا مندوبٍ.

وحملَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استقامَتَهُمْ فِي السَّيرِ إليهِ بعدَ أنْ أقرُّوا بوحدانيَّتِهِ، فقالَ: «**لَمْ يروغُوا رَوغَانَ الثَّعالبِ**» في استقامتِهِم في السُّلوكِ إليهِ.

فكلامُ أبِي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راجعٌ إلىٰ استقامتِهِمْ فِي أصلِ الإيمانِ، وكلامُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُلُوكِهِم إليهِ بعدَ إيمانِهِم فِي أركانِ الإسلامِ علىٰ وجْهِ البُرْهانِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ[(٣)]: اِسْتَقَامُوا عَلَىٰ انْفِرَادِ القَلْبِ[(٤)] بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنَاهُ: أنَّ قلوبَهُمُ استقامَتْ علىٰ الشُّغلِ باللهِ لَا بغيرِهِ، فبهذَا كانَتْ منفردةً بهِ عَنْ سَائِرِ مخلوقاتِهِ، ويدخلُ فيهِ الأعواضُ علىٰ الأعمال، والسُّكونُ إلىٰ المَقاماتِ والأحْوَال.

---

(١) أي: باستقامتها.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٢١٨، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٠٨، وسراج الطالبين ٢/١٧٤.

(٤) أي: شغل القلب.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجُوْزَجَانِيُّ[(٢)]: كُنْ صَاحِبَ الاِسْتِقَامَةِ، لَا طَالِبَ الكَرَامَةِ، فَإِنَّ نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الكَرَامَةِ، وَرَبَّكَ يُطَالِبُكَ بِالاسْتِقَامَةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ عمِلَ الطَّاعاتِ لحصولِ الكرامةِ في الدُّنيَا لخرقِ العادةِ فقدْ عملَ للغيرِ ولمْ يعملْ لربِّهِ، وإنَّمَا عمِلَ لعاجلِ محبَّتِهِ، والإنسانُ مأمورٌ بأنْ يعملَ لوجْهِ ربِّهِ خاصَّةً، أوْ لرجاءِ ثوابِهِ فِي الآخرةِ، وهوَ ثانِي درجةٍ.

وأمَّا العملُ لنعيمِ الدُّنيَا كيفَ مَا كانَ، وإنْ لمْ يردِ المخلوقينَ وإنَّمَا أرادَ أنْ ينعِّمَهُ اللهُ في دُنياهُ، فمَنْ يُطِعِ[(٣)] اللهَ - تعالىٰ - ليصحَّ بدنُهُ، ويكثُرَ مالُهُ وولدُهُ، ويُريهِ خوارقَ العاداتِ، ويوالِي عليهِ المَسَرَّاتِ، فهذَا الحظُّ نازلٌ جدًّا، ويُخشَىٰ عليهِ مِنْ فواتِ الإخلاصِ بالكلِّيَّةِ.

وقدْ سُئِلَ المُحاسبيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ الرَّجلِ يظهرُ الطَّاعاتِ لوالدَيهِ ليُحِبَّاهُ ويدعُوَا[(٤)] لهُ، أوْ [٢/١١٠ب] لمعلمِهِ الخيرَ؛ ليشتدَّ حرصُهُ فِي تعليمِهِ، وينتفعَ بمَا يعلمُهُ، وهَذهِ[(٥)] كانَتْ بنيَّةِ الآخرةِ ولمْ تكُنْ بنيَّةِ الدُّنيَا، فمنعَ مِنْ ذلكَ وجعلَهُ منْ قسمِ الرِّياءِ، واستدلَّ عليهِ بقولِهِ - تعالىٰ -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فلمْ يأمرْ - تعالىٰ - أحدًا أنْ يعملَ لغيرِهِ، ولَا لمنفعةٍ منهُ وإنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٢) في (ف): الجرجاني.

ونسب للدقاق في: التيسير بشرح الجامع الصغير ١/١٤٨، وورد بلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/١٠٥، وبصائر ذوي التمييز ٤/٣١٣.

(٣) في الأصل: يطيع، والصوابالمثبت.

(٤) في الأصل: ليحبانه ويدعوان، والأصح المثبت.

(٥) في الأصل: وهذا، والصواب المثبت.

كانَتْ دينيَّةً.

وإنَّمَا قلنَا: إنَّهُ يُخْشَىٰ عليهِ أنْ يكونَ مرائيًا ولَمْ يحكمْ عليهِ بالرِّياءِ؛ للفرقِ بينَ مَا حكمَ فيهِ الإمامُ المحاسبِيُّ منَ الوالدَينِ والمعلِّمِ ومَا نحنُ فيهِ، فإنَّ الوالدَينِ والمعلِّمِينَ طلبَ رضاهُمْ لينفعاهُ[1]، وفي مسألتِنَا لمْ يطلبْ مِنْ غيرِ اللهِ شيئًا، وإنَّمَا طلبَ منَ اللهِ منفعةً عاجلةً وحظًّا عاجلًا فِي الدُّنيَا، ولمْ يَعْمَلْ لغيرِهِ، فهذَا أقربُ إلىٰ السَّلامةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الشَّبُّوِيَّ[3] يَقُولُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: رُوِيَ عَنْكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ قُلْتَ[4]: (شَيَّبَتْنِي هُودٌ)، فَمَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْهَا؟ قَصَصُ الأَنْبِيَاءِ وَهَلَاكُ الأُمَمِ؟، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ قَوْلُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾** [هود: ١١٢]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: «﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾» تدلُّ علىٰ أنَّ الاستقامةَ تكونُ علىٰ حسبِ المعرفةِ، فمَنْ كمُلَتْ معرفتُهُ بربِّهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ عظُمَ عندَهُ أمرُهُ ونهيُهُ، فإذَا سمِعَ: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ علِمَ أنَّهُ طُولِبَ باستقامةٍ تليقُ بحالِهِ، ومعرفتِهِ بكمالِ الأمرِ لهُ، وحقيقٌ لمَنْ فهِمَ ذلكَ أنْ يَشِيبَ شَعْرُهُ، بَلْ يطيرَ لبُّهُ وعقلُهُ، فإنَّهُ لا يطيقُ أحدٌ أنْ يأتِيَ بعبادتِهِ علىٰ حسبِ ما يعرفُ مِنْ جلالِ ربِّهِ

---

(١) في الأصل: لينفعانه، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٣) في (ف): الشوبي، والصواب المثبت.

وهو: محمد بن عمر بن شبويه أبو علي الشبوي المروزي، سمع الصحيح في سنة ست عشرة وثلاثمائة من أبي عبد الله الفريري، وكان من كبار مشايخ الصوفية.

انظر في ترجمته: طبقات الشافعية ١/١٥٠، وسير أعلام النبلاء ١٦/٤٢٣.

(٤) سبق تخريجه.

وعظمتِهِ، بَلْ لا بُدَّ وأنْ يستصغرَ جميعَ ما يأتِي بهِ وإنْ كانَ كاملًا بالإضافةِ إلىٰ جلالِ ربِّهِ ـ تعالىٰ ـ، ولذلكَ لمَّا نزلَ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قلقَ أصحابُ النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَوفًا مِنْ كونِهِمْ لا يقدرُونَ علىٰ القيامِ بمدلولِ هذا اللَّفظِ، فأنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ رحمةً لهُمْ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦](١)، كذَا نقلَهُ أهلُ التَّفسيرِ(٢).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٣): «**وَقِيلَ**(٤): **إِنَّ الاسْتِقَامَةَ لَا يُطِيْقُهَا إِلَّا الأَكَابِرُ؛ لِأَنَّهَا الخُرُوجُ عَنِ المَعْهُودَاتِ، وَمُفَارَقَةُ الرُّسُومِ وَالعَادَاتِ، وَالقِيَامُ بَيْنَ يَدَي اللهِ ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ حَقِيقَةِ الصِّدْقِ، وَلِذَلِكَ قَالَ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(٥): **اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قَدْ تقرَّرَ أنَّ الاستقامةَ علىٰ درجاتٍ، وأنَّهَا تكونُ لأربابِ الأعمالِ مِنَ الأَحْوالِ والعِرْفانِ، فالاستقامةُ [٢/١١١أ] العُظمىٰ هيَ الَّتِي ينالُهَا أعظمُ الرِّجالِ، ومَنْ أعرضَ عنْ حظوظِهِ بالكلِّيَّةِ منْ إبطالِ العمَّالِ، وخرجَ عن عوائِدِهِ وحظوظِ نفسِهِ ولمْ يلتفتْ إليهَا بحالٍ، ولذلكَ قالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَلَنْ تُحْصُوا**»، يعنِي: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا الاستقامةَ العُظْمَىٰ الشَّاقَّةَ المُخالفةَ للمُعْتَادِ، ولمْ يسلبِ الاستقامةَ عمَّنِ استقامَ فِي أعمالِهِ وأحوالِهِ وإنْ كانَ طالبًا للثَّوابِ، وواقفًا معَ حالِهِ مُسْتَحسِنًا لهُ رائِيًا فيهِ فَضْلَ ربِّ الأربابِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٢٣ ـ ٦٢٤.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/٧٢٢، وتفسير الطبري ٤/٢٩، والبغوي ١/٣٣٣، والناسخ والمنسوخ للنحاس ص٧٠، وزاد المسير ١/٤٣٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٤) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/١٧٤، والفتوحات الربانية ٣/٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/١٠١، ومالك في الموطأ ١//٣٤، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ١/٨٢.

قَالَ الإِمَــامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٢]: **الخَصْلَةُ الَّتِي بِهَا كَمُلَتِ المَحَاسِنُ، وَبِفَقْدِهَا قَبُحَتِ المَحَاسِنُ الاسْتِقَامَةُ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ خوارقَ العاداتِ وجريانَ الكراماتِ؛ هيَ كمالٌ فِي الدَّرجاتِ، لمَنِ استقامَ علَىٰ مَا أمَرَ بهِ مالكُ الأرضِ والسَّماواتِ، فعلَىٰ هذَا مَا كمُلَتِ الخيراتُ بالكراماتِ إلَّا بوجودِ الاستقامةِ، ومَنْ فُقِدَتْ منهُ الاستقامةُ ثمَّ ادَّعَىٰ الكرامةَ وزعمَ أنَّهَا منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ إكرامًا لهُ معَ إخلالِهِ بطاعتِهِ واستقامتِهِ قبُحَ ذلكَ منهُ[٣]، وَعُدَّ نقْصًا في حالتِهِ، ولوْ جرَىٰ ذلكَ لهُ تحقيقًا كانَ استدراجًا ومَكْرًا، ـ نعوذُ باللهِ مِنْ بَلائِهِ وفِتْنَتِهِ ـ، وقَدْ قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾[٤] [الأنعام: ٤٤].

قَالَ الإِمَــامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَحُكِيَ عَنِ الشِّبْلِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ[٦]: **الاسْتِقَامَةُ أَنْ تَشْهَدَ الوَقْتَ قِيَامَةً**[٧]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا واضحٌ خَفِيٌّ؛ فأمَّا وَجْهُ خَفَائِهِ فكيفَ يكونُ وقتُ العبدِ فِي الدُّنيَا قيامَهُ، ومقصودُهُ فِي الدُّنيَا: أنْ يصلحَ شأنَهُ وينقذَ أعمالَهُ، والآخرةُ والقيامةُ حسابٌ ووقوفٌ وسؤالٌ.

ووجْهُ بسطِهِ ووضُوحِهِ: أنَّ العبدَ متَىٰ غلبَ علَىٰ قلبِهِ أمرُ الآخرةِ، والوقوفُ

---

(١) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٢١٨، وشرح النووي علىٰ صحيح مسلم ٢/٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٣) لأنه زور وبهتان.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٢٤.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٦) ورد قوله في: سراج الطالبين ٢/١٧٤، ومعجم مقاليد العلوم ص٢٢٠.

(٧) أي: الوقت الذي أنت فيه قيامة قامت.

بينَ يدَيِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، والسُّؤالُ عَنْ عملِهِ؛ قليلِهِ وكثيرِهِ، في سرِّهِ وعلانيتِهِ، اجتمعَ همُّهُ، وقوِيَ حدُّهُ وصدقُهُ ومحاسبةُ نفسِهِ في سائرِ أعمالِهِ مِنْ حَرَكتِهِ وسُكُونِهِ، وحسُنَتِ استقامتُهُ في حَالِهِ.

فَخُلاصَةُ هَذَا الكَلامِ: أنَّ مَنِ استشعَرَ قيامَهُ بينَ يدَي مولَاهُ؛ حسُنَتْ استقامتُهُ لهُ في دنياهُ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَيُقَالُ[٣]: الاِسْتِقَامَةُ فِي الأَقْوَالِ: بِتَرْكِ الغِيْبَةِ، وَفِي الأَفْعَالِ: بِنَفْيِ البِدْعَةِ، وَفِي الأَعْمَالِ: بِنَفْيِ الفَتْرَةِ[٤]، وَفِي الأَحْوَالِ: بِنَفْيِ الحَجْبَةِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا [٢/١١١ب] الكلامُ وإنْ كانَ صَحِيحًا، فليسَ هوَ عَامٌّ فِي كلِّ قِسْمٍ ممَّا ذكرَ الاستقامةَ فيهِ؛ لأنَّ استقامةَ اللِّسانِ ليسَ مخصوصًا بتَرْكِ الغِيبةِ علىٰ الخصوصِ، بَلْ بِتَرْكِ الغِيبةِ والنَّميمةِ والكذبِ والفُحْشِ والسَّبِّ، وغيرِ ذلكَ منْ مَذْمومِ الكَلامِ، وبالذِّكرِ والدُّعاءِ والشُّكرِ والثَّناءِ وتلاوةِ القرآنِ وغيرِ ذلكَ منَ الأفعالِ المَحْمُودةِ، وكذَا كلُّ قسمٍ منَ الأعمالِ والأحوالِ فيهُ محمودٌ ومذمومٌ، ولا تكملُ الاستقامةُ إلَّا بتحصيلِ الطَّرَفينِ؛ وهوَ الاتِّصافُ بكلِّ محمودٍ، والخلاصُ مِنْ كلِّ مذمومٍ فِي سَائِرِ الأقسامِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ الإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ بْنِ فُورَكٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ[٦]: السِّينُ فِي الاِسْتِقَامَةِ سِينُ الطَّلَبِ، أَيْ: طَلَبُوا**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٢٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧.

(٣) ورد قوله في: سراج الطالبين ١/١٦٤، ومطالع المسرات بجلاء مطالع الخيرات ص٤٠٤.

(٤) أي: الفتور.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٦) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٦٠، وتفسير القاري ٢/٤٦٢.

مِنَ الحَقِّ أَنْ يُقِيمَهُمْ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِم[(١)]، ثُمَّ عَلَىٰ اسْتِدَامَةِ عُهُودِهِمْ وَحِفْظِ حُدُودِهِمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الاِسْتِقَامَةَ تُوجِبُ دَوَامَ الكَرَامَةِ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، وَلَمْ يَقُلْ: سَقَيْنَاهُمْ، بَلْ قَالَ: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾، يُقَالُ: أَسْقَيْتُهُ؛ إِذَا جَعَلْتَ لَهُ سُقْيَا، فَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الدَّوَامِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ كلَّ كرامةٍ لا تشهدُ لهَا الاستقامةُ فليسَتْ بكرامةٍ كمَا تقدَّمَ، وأيُّ كرامةٍ أَجَلُّ منَ الاستقامةِ، فالاستقامةُ نفسُهَا هيَ أجلُّ الكراماتِ، وبِصِحَّتِهَا وجَرَيانِهَا علىٰ العبدِ يستدلُّ بأنَّ مَا أجرَاهُ اللهُ عليهِ مِنْ خَوارقِ العاداتِ كرامةٌ لأهليَّتِهِ لذلكَ ولِوَعْدِه بِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.. الآية.

وقَالَ الإِمَامُ: يقالُ: أسقيتُهُ؛ إذَا جعلتُ لهُ سُقْيَا[(٢)]، فَقَدْ وَعَدَ اللهُ المستقيمِينَ بأنْ يجعلَ لهُمْ خيرًا كثيرًا دائمًا.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: قَالَ الجُنَيْدُ[(٤)]: لَقِيتُ شَابًّا مِنَ المُرِيدِينَ فِي البَادِيَةِ تَحْتَ شَجَرَةٍ مِنْ أُمِّ غَيْلَانَ[(٥)]، فَقُلْتُ: مَا أَجْلَسَكَ هَاهُنَا؟

فَقَالَ: حَالٌ اِفْتَقَدْتُهُ، فَمَضَيْتُ وَتَرَكْتُهُ، فَلَمَّا انْصَرَفْتُ مِنَ الحَجِّ إِذَا أَنَا بِالشَّابِّ

---

(١) انظر: لطائف الإشارات ٢/٦٠.

(٢) انظر: فعلت وأفعلت للسجستاني ص١٤٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٨.

(٤) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٦٠، والإرشاد والتطريز ص١٦٣، وسراج الطالبين ٢/١٧٤.

(٥) أي: شجر السَّمُر. انظر: كفاية المتحفظ ص١٩٦.

قَدِ انْتَقَلَ إِلَىٰ مَوْضِعٍ [آخَرَ][(١)] قَرِيبٍ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَقُلْتُ: مَا جُلُوسُكَ هَاهُنَا؟

قَالَ: وَجَدْتُ مَا كُنْتُ أَطْلُبُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَلَزِمْتُهُ.

قَالَ الْجُنَيْدُ: فَلَا أَدْرِي أَيُّهُمَا كَانَ أَشْرَفَ؛ لُزُومُهُ لِافْتِقَادِ حَالِهِ، أَوْ لُزُومُهُ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي نَالَ فِيهِ مُرَادَهُ؟».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **فائدةُ هذهِ الحكايةِ**: أنَّ المستقيمَ إذَا تعذَّرَتْ عليهِ استقامتُهُ [٢/١١٢أ] فحقُّهُ التَّثبُّتُ والبكاءُ ودوامُ الطَّلبِ، وإذَا فُتحَ عليهِ مَا كانَ فقدَهُ فحقُّهُ الشُّكرُ والثَّناءُ وحفظُ الأدبِ، وكلاهُمَا منَ الاستقامةِ، ولهذَا قيلَ[(٢)]: «الصُّوفيُّ ابنُ وقتِهِ، لَا التفاتَ لهُ إلىٰ ماضٍ، ولا إلىٰ مستقبلٍ»، فهوَ يراعِي حالَهُ الَّذِي هوَ فيهِ معَ اللهِ، فهذَا كانَ في حالٍ وهوَ سائرٌ إلىٰ جهةِ الحجازِ، طيِّبَ العيشِ معَ مولَاهُ، فلمَّا أحسَّ ذلكَ منْ نفسِهِ، وأدركَ التَّغيُّرَ في حالِهِ جلسَ إلىٰ الأرضِ متفكِّرًا باحِثًا عنِ السَّببِ، فلمَّا مرَّ بهِ الجُنيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ الحجِّ سألَهُ عَنْ قُعُودِهِ وربَّمَا كانَ الوقتُ قريبًا يخافُ منهُ الفَواتَ، فقالَ: «**حالٌ فقدتُهُ**»، فلمَّا حَجَّ الجُنيدُ ورجعَ وجدَهُ قدِ انتقلَ إلىٰ موضعٍ قريبٍ مِنْ ذلكَ المَوضعِ وجَلَسَ فيهِ، فسألَهُ عَنْ ذلكَ، فأجابَهُ بأنَّهُ وجدَ مَا كانَ فقدَهُ، فقالَ الجُنيدُ: «**لا أدرِي أيُّ حالَيهِ أشرفُ؟**»؛ هَلْ تثبُّتُهُ وطلبُهُ لمَا فقدَ، أوْ أدبُهُ وشُكرُهُ علَىٰ ما وجدَ؟!

فهكذَا ـ وفَّقَنِي اللهُ وإيَّاكُمْ ـ يكونُ حالُ المُسْتَقيمِينَ مَعَ مَولَاهُمْ[(٣)] فِي حَالَتَيِ المَنْعِ والعطاءِ، لا يحجبُهُمْ منعُهُ لهُمْ عَنْ دوامِ التَّضرُّعِ والطَّلبِ، ولا يشغلُهُمْ إحسانُهُ إليهِم عَنْ دوامِ الشُّكرِ لنعمِهِ والأدبِ[(٤)].

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) وذلك لفناء مراداتهم في مراد مولاهم.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٢٥ ـ ٦٢٦.

قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«بابُ الإخلاصِ

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

أَخْبَرَنا عليُّ بنُ أحمدَ الأهوازيُّ قالَ: أَخْبَرَنا أحمدُ بنُ عُبَيْدٍ، حدَّثَنا جعفرُ بنُ مُحمَّدٍ الفِرْيَانيُّ، حدَّثَنا أبو طالوتَ قالَ: حدَّثَني هانِئُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي عَبْلَةَ العقيليُّ، عن إبراهيمَ بنِ أبي عَبْلَةَ[(٢)]، قالَ: حدَّثَني عُقْبَةُ[(٣)] بنُ وشَّاحٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٤)]: ثلاثٌ لا يَغُلُّ[(٥)] عليهِنَّ قلبُ مُسلمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ، ومُناصحةُ وُلاةِ الأمرِ، ولزومُ جماعةِ المُسلِمينَ».

❊ قالَ الشَّارحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والنَّظرُ في حقيقةِ الإخلاصِ، وفي أسبابِهِ المحصِّلةِ لهُ، والأدلَّةِ عليهِ، والثَّمراتِ المترتِّبةِ علىٰ حصولِهِ.

فأمَّا حقيقةُ الإخلاصِ: فإنَّهُ وصفٌ للنِّيَّةِ الحاملةِ علىٰ الفعلِ، ولابُدَّ لنا منَ الكلامِ علىٰ حقيقةِ النِّيَّةِ المطلوبةِ شرْعًا، ويتبيَّنُ أنَّ الإخلاصَ وصفٌ لها إذا تخلَّصَتْ عنِ الشَّوائِبِ، والنِّيَّةُ نيَّتانِ: نيَّةُ أنْ يفعلَ العبدُ، ونيَّةٌ ثانيةٌ: وهوَ لماذا فعلَ؟

وهذِهِ هيَ النِّيَّةُ الصَّحيحةُ المشترطةُ في الأعمالِ الدِّينيَّةِ، وهيَ المنعوتةُ [١١٢/٢ب] بالإخلاصِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ الحاملَ علىٰ العملِ إرادةُ اللهِ وحدَهُ لا غيرَ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٩.

(٢) في حاشية (أ): في نسخة (عُلَيَّة).

(٣) في (أ، ف): عطية، والتصويب من مظان تخريجه.

(٤) أخرجه الطبراني في: مسند الشاميين ١/٧١، والمعجم الكبير ٢/٤١، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/٢٧٤.

(٥) أي: لا يخون، وبكسر الغين بمعنى: لا يحقد.

فإذَا كانَتِ النِّيَّةُ بهذِهِ المَثابةِ كانَتْ خالِصَةً سالِمَةً من الشَّوائِبِ، وإذَا أرادَ العَبْدُ اللهَ وحدَهُ، قالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]؛ وبيانُ هذِهِ الجملةِ: أنَّ العبدَ يُريدُ أنْ يفعلَ أوْ يقولَ، فهذِهِ النِّيَّةُ هيَ السَّببُ في تخصيصِ الفعلِ، فلا بُدَّ منهَا فِي كلِّ فعلٍ اختياريٍّ، سواءٌ كانَ حقًّا أوْ باطلًا، حلالًا كانَ أوْ حرَامًا.

وليسَتْ هذِهِ النِّيَّةَ المطلوبةَ شَرْعًا الَّتي أمَرَ العبادَ بالإتيانِ بهَا في أوائِلِ الأعمالِ بقولِهِ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾، وفي الخبرِ الصَّحيحِ الَّذِي رواهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ قولُهُ[1]: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، فالنِّيَّةُ هيَ الباعثةُ علَى الفعلِ لَا المخصِّصَةِ لهُ بالوقوعِ، وتارةً ينفردُ الباعثُ على الفعلِ للهِ، فيكونُ نيَّةً خالصةً، وتارةً يريدُ غيرَ اللهِ فتكونُ خالصةً فِي الشَّرِّ، وتارةً يريدُ اللهَ وغيرَهُ فتكونُ شِرْكًا فتفسدُ النِّيَّةُ لذلكَ؛ لأنَّهَا غيرُ خالصةٍ، فخرجَ مِنْ هذَا التَّفصيلِ أنَّ النِّيَّةَ الخالصةَ هيَ الحَامِلَةُ على إيقاعِ الأفعالِ لمَنْ ولماذَا؟ فنيَّةُ إيقاعِ العملِ شيءٌ، ونيَّةُ إيقاعِهِ لمعنًى من المعاني هيَ النِّيَّةُ المعتبرَةُ المطلوبةُ فِي أوائِلِ الطَّاعاتِ؛ كالصَّومِ والصَّلاةِ والطَّهارةِ وغيرِ ذلكَ.

وهذِهِ الَّتي هيَ لمعنًى منَ المعاني هيَ النِّيَّةُ المعتبَرَةُ إذَا وُصِفَتْ بالإخلاصِ، فمَنْ غسلَ وجهَهُ ويدَيهِ ورجليَهِ فقدْ قصدَ إلى غسلِ ذلكَ وفعلِهِ، وهذِهِ ليسَتْ هيَ النِّيَّةَ المعتبرةَ، وإنَّمَا المعتبَرُ ما حملَهُ على هذَا الغسلِ هلَ رفعُ الحدثِ فيكونُ على طهارةٍ شرعيَّةٍ، أوْ الحاملُ عليهِ التَّبرُّدُ، أو إزالةُ الأوساخِ؟

فقدْ عرفْتَ مِنْ هذا أنَّ النِّيَّةَ المعتبرةَ المطلوبةَ هيَ إفرادُ العملِ للهِ ـ تعالى ـ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١ ـ الحديث الأول، وتأمل في تفصيل الحديث عنه: (خلاصة الأقوال شرح حديث إنما الأعمال) للكافيجي ـ بتحقيقي.

وأنَّ محلَّهَا القلبُ، ووصْفَهَا الإخلاصُ لوجهِ اللهِ في سائرِ أعمالِ الطَّاعاتِ، فمتىٰ خلَتِ الطَّاعةُ مِنْ هذا القصْدِ الخَالِصِ استحالَ أنْ يكونَ طاعةً؛ إذْ هوَ شرطُ صحَّتِهَا، وإنْ وقعَ اختلافٌ في محلِّهَا، وهلْ يكفِي تقدُّمُهَا فِي بعضِ الأعمالِ، ويُسْتَصْحَبُ حكمُهَا كأوَّلِ ليلةٍ منْ شهرِ رمضانَ، أوْ لَا بُدَّ مِنْ تجديدِهَا كلَّ ليلةٍ(١)؟، وغيرُ ذلكَ منَ المسائِلِ، وإنَّمَا المقصودُ هاهُنَا: أنَّهُ لا بُدَّ منهَا لكونِهَا شرطًا في صحَّةِ العملِ [١١٣/٢أ]، ويلزمُ مِنْ نفْيِ الشَّرطِ نفْيِ المشروطِ، فهذِهِ حقيقةُ النِّيَّةِ الخالصةِ.

وأمَّا أسبابُ تحصيلِهَا: فعِلْمُ العبدِ باشتراطِهَا في العملِ الصَّحيحِ الَّذِي ينتفعُ بهِ فِي آخرتِهِ، وتبرأُ بهِ ذمَّتُهُ منْ مطالبةِ ربِّهِ بهِ في أوامِرِهِ، فإذَا علِمَ العبدُ شِدَّةَ احتياجِهِ في الآخرةِ إلىٰ خالصِ العملِ؛ ليُثَقِّلَ بهِ ميزانَهُ، ويسلَمَ بهِ مِنْ عذابِ ربِّهِ، وإنْ كانَتْ عليهِ حقوقٌ للعبادِ أخذُوا مِنْ حسناتِهِ ليسلمَ منْ وضعِ آثامِهِمْ عليهِ(٢)، وإنْ لمْ تكنْ لهُ حسناتٌ جدَّ فِي تحصيلِ الإخلاصِ فِي سائِرِ واجباتِهِ ومندوباتِهِ، ونوىٰ كلَّ ما يصحُّ فيهِ النِّيَّةُ منْ حرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ، ويصيرُ بهذِهِ النِّيَّةِ طاعةً ينتفعُ بهَا في آخرتِهِ، وذلِكَ كأكلِهِ ليتقوَّىٰ علىٰ العبادةِ، ونومِهِ أوَّلَ اللَّيلِ ليقومَ آخرَهُ، وتطيُّبِهِ لإدخالِ المسرَّةِ علىٰ جلسائِهِ في الجُمعِ وغيرِهَا، وأكلِهِ بشهوةِ عيالِهِ، هذهِ الأفعالُ كلُّهَا إنْ فعلَهَا بغيرِ نيَّةٍ لمْ يُثَبْ ولمْ يُعَاقَبْ، وإنْ فعلَهَا بنيَّةٍ أُثيبَ علَىٰ فِعْلِهِ ونيَّتِهِ جميعًا.

فأمَّا الأدلَّةُ علىٰ طَلَبِ النِّيَّةِ: فكلُّ دليلٍ دلَّ علىٰ العملِ للهِ ـ تعالىٰ ـ في كتابِهِ أوْ سنَّةِ رسولِهِ هوَ العملُ لوجهِهِ والمسارعةُ في طاعتِهِ هوَ دليلٌ علَىٰ النِّيَّةِ الخالصةِ،

---

(١) تأمل تفصيل الخلاف في ذلك في: البرهان في أصول الفقه ٣٤٤/١، والفقه الإسلامي وأدلته ١٨١/١.

(٢) كما في صحيح البخاري ٨٦٥/٢ ـ حديث رقم (٢٣١٧): «... وَإِنْ لم تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ من سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه».

قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة: ٣١]، وَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقالَ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وَ: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وَ: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، وغيرُ ذلكَ منَ الآثارِ والأخبارِ الدَّالَّةِ علىٰ إفرادِ اللهِ ـ سبحانه ـ بالنِّيَّةِ الخالصةِ والفِعْلِ جميعًا.

فأمَّا ثَمَرَةُ الإخْلاصِ: وذلكَ ممَّا لا يُحْصَىٰ، وأقلُّ فوائدِهِ السَّلامةُ منَ الجحيمِ، والخلودُ في دارِ النَّعيمِ؛ فإنَّ الإخلاصَ شرطٌ في الأصولِ والفروعِ جميعًا، فمَنْ نطقَ بالشَّهادتَينِ بلسانِهِ ولمْ يكنْ خالصًا مِنْ قلبِهِ فهوَ منافقٌ لا ينتفعُ بذلكَ عندَ ربِّهِ، وعكسُهُ لوْ أُكرِهَ علىٰ النُّطقِ بكلمتَيِ الكُفْرِ معَ سَلامةِ قلبِهِ لَمْ يضرَّهُ ذلكَ عندَ ربِّهِ؛ قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]... الآية.

وأمَّا علُوُّ الدَّرجاتِ في الجنَّاتِ وتفاوتُ المقاماتِ في درجاتِ الجنَّاتِ، واختلافُ أحوالِ الخلقِ فيهَا علىٰ ما جاءَتْ بهِ البيِّناتُ منَ الآياتِ والأخبارِ الواضحاتِ ممَّا لا يُحْصَىٰ، وقدْ تضمَّنَتْ سورةُ (الرَّحْمَنِ)، وَ(الوَاقِعَةِ)، وَ(هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ)[1]، وَ(وَيْلٌ [١١٣/٢ب] لِلْمُطَفِّفِينَ)، منَ الفرقِ بينَ رُتَبِ الأبرارِ والمُقرَّبينَ، وكذلكَ أصحابُ اليمينِ منَ المقرَّبينَ ممَّا أعدَّ اللهُ لكلِّ طائفةٍ منَ الفريقَينِ في الجنَّاتِ، ومَا بُشِّرَ بهِ المقرَّبُونَ صِرفًا، ويمزحُ لأصحابِ اليمينِ والأبرارِ علىٰ مَا تضمَّنَهُ الكتابُ العزيزُ.

والعلمُ بهذِهِ الثَّمراتِ وتفاوتُ هذِهِ المقاماتِ في الطَّاعاتِ يحملُ السُّعداءَ علىٰ كمالِ الإخلاصِ، والبُعدِ منْ أسبابِ الانتقاصِ، وكمالِ الشُّغلِ بمولَاهُمْ حتَّىٰ

(١) أي: سورة الإنسان.

يغفلُوا عَنْ أنفسِهِمْ ومَا هُمْ فيهِ مِنْ شريفِ تقوَاهُمْ، حتَّىٰ يستغرقُوا فيهِ وبهِ عنْ ذِكْرِ أنفسِهِمْ فضْلًا عمَّنْ سِوَاهُمْ.

وسيأتِي من أحوالِ المخلصِينَ فِي كلامِ المشايخِ ما يدلُّ علىٰ جميعِ ما ذكرْنَاهُ؛ منْ درجاتِ الإخلاصِ، وتفاوتِ المخلصِينَ فيهِ، والخبَرُ خرَّجَهُ التِّرمذيُّ[(١)].

فمعنَىٰ قولِهِ: «**لَا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العملِ للهِ، ومناصحةُ ولاةِ الأمرِ، ولزومُ جهةِ المسلمِينَ**»، لهُ معانٍ يأتي ذكرُهَا، وخرَّجَهُ غيرُهُ عنِ ابنِ عبَّاسٍ، قالَ[(٢)]: «خطَبَنَا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي (مسجدِ الخَيْفِ)[(٣)]، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ بَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِفَقِيهٍ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالدَّعْوَةُ لِأَئِمَّتِهِم؛ فإنَّ الدَّعوةَ تحيطُ منْ ورائِهِم، مَنْ تكُنِ الدُّنيَا نيَّتَهُ وأكْبَرَ همِّهِ جعلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينَيهِ، وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولمْ يأتِهِ منَ الدُّنيَا إلَّا مَا كُتِبَ لهُ، ومَنْ تكُنِ الآخرةُ نيَّتَهُ وأكبَرَ همِّهِ جعلَ اللهُ غِنَاهُ بينَ عينَيهِ، ولمْ يفرِّقْ عليهِ شملَهُ، وتَأتِيه الدُّنيَا رَاغِمَةً».

قيلَ فِي «**يَغُلُّ**»: وجهَانِ[(٤)]؛ ضمُّ الغينِ وكسرُهَا، فـ(يَغُلُّ) بالضَّمِّ منَ الغُلولِ، والكسر منَ الفسادِ والغِلِّ وخُبثِ الباطِنِ.

---

(١) في سننه ٥/٣٤.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥/١٥٤، وأحمد في مسنده ٥/١٨٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/٢٧٤.

(٣) في تحرير ألفاظ التنبيه ص١٥٧: «مسجد الخيف ـ بفتح الخاء المعجمة ـ: وهو مسجد بمنىٰ عظيم واسع جدًا، فيه عشرون باب... قال أهل اللغة: الخيف: ما انحدر عن غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، وبه سمي مسجد الخيف». وانظر: إصلاح المنطق ص٦٧، وأخبار مكة للأزرقي ٢/١٧٤.

(٤) في (أ): وجهين، وهو تحريف.

فالمعنىٰ علىٰ روايةِ الكسرِ: أنَّهُ لا يفسدُ قلبٌ فيهِ إخلاصُ العملِ للهِ، والنَّصيحةُ لأئمَّةِ المسلمينَ والدَّعوةُ لأئمَّتِهِمْ.

وأمَّا المعنىٰ علىٰ روايةِ الضَّمِّ فهوَ منَ الغُلولِ؛ وهيَ الخِيَانةُ، فمَنْ تَعَمَّرَ قلبُهُ بالإخلاصِ والنُّصحِ والدُّعاءِ للمُسلمينَ ومحبَّتِهِمْ لَا يكونُ فيهِ خِيَانَةٌ أبدًا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1]: **«الإِخْلَاصُ: إِفْرَادُ الحَقِّ فِي الطَّاعَةِ بِالقَصْدِ؛ وَهُوَ أَنْ يُرِيدَ بِطَاعَتِهِ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ دُونَ شَيْءٍ آخَرَ مِنْ تَصَنُّعٍ لِمَخْلُوقٍ، أَوِ اكْتِسَابِ مَحْمَدَةٍ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ مَحَبَّةِ مَدْحٍ مِنَ الخَلْقِ، أَوْ مَعْنًى مِنَ المَعَانِي سِوَىٰ التَّقَرُّبِ [بِهِ] إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ [١١٤/٢أ]: وهذا الكلامُ في حدِّ الإخلاصِ في أعلىٰ مراتبِ المخلصِينَ، فإنَّ البواعثَ علىٰ العملِ الصَّالحِ تكونُ علىٰ خمسِ مراتبَ؛ أحدُهَا فِي أعلىٰ درجاتِ الإخلاصِ، ويقابلُهُ في طرفِ النَّقيضِ إفرادُ القصدِ للرِّيَاءِ، وبينَهُمَا رُتَبٌ، فقدْ يعملُ العبدُ لإرادةِ ثوابِ اللهِ وجزائِهِ علىٰ عملِهِ في الآخرةِ، وهذَا لا يُخرجُهُ عن حدِّ الإخلاصِ.

وَقَدْ يعملُ للهِ خاصَّةً لإرادةِ إكرامِهِ فِي الدُّنيَا وسلامتِهِ منْ آفاتِهَا، وهذَا لا يُخرِجُهُ عن حدِّ الإخلاصِ الَّذِي يبطلُ العملُ بفواتِهِ.

وقَدْ يعملُ العبدُ لغيرِ اللهِ لا لإرادةِ الدُّنيَا، بل لإرادةِ الاستعانةِ علىٰ أمورِ الدِّينِ، كمَنْ يُرائِي والدَيهِ ليدعُوَا[2] لهُ بالخيرِ أو لشيخِهِ ليُعِينَهُ علىٰ مقاصدِهِ الدِّينيَّةِ، وهذَامُراءٍ غيرُ مخلصٍ، وإنْ لمْ يُرِدْ ثوابَ الدُّنيَا العاجلةَ وإنَّمَا أرادَ العونَ علىٰ أعمالِ الآخرةِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٩.

(٢) في (أ): ليدعوان، والصواب المثبت.

وقدْ يعملُ العبدُ في الطَّاعةِ ليكتسبَ الدُّنيَا؛ إمَّا المالَ، أوِ الجاهَ، أوْ ليسلَمَ منَ الذَّمِّ ونُزُولِ القَدَرِ.

فالمرتبةُ العُليَا منَ الإخلاصِ أنْ يعملَ العبدُ للهِ وحدَهُ؛ امتثالًا لأمْرِهِ، وقيامًا بحقِّ عبوديَّتِهِ.

والدَّرجةُ الثَّانيةُ الَّتِي دُونَهَا الَّذِي يعملُ للجزاءِ وإنْ كانَ جزاءَ الآخرةِ فيهِ بُعْدٌ عنِ العبوديَّةِ؛ لتشبُّهِهِ بالأحرارِ الَّذينَ يقبلُونَ الأجرَ، والَّذِي يليهِ دونَ هذَا؛ لأنَّهُ لم تَعْلُ هِمَّتُهُ لطلبِ أجرةِ الآخرةِ الكاملةِ الشَّريفةِ الَّتِي ندبَ اللهُ النَّاسَ للعملِ لهَا، وحَرَّضَهُمْ على العملِ بهَا، وإنَّمَا عمِلَ للهِ لعاجلِ المنفعةِ الدُّنيويَّةِ، وإنْ لمْ يقصدْ بعملِهِ غيرَ اللهِ إلَّا أنَّ هِمَّتَهُ أنقصُ، وإنْ كانَ لمْ يُرِدْ بهمَّتِهِ غيرَ ربِّهِ.

فهذِهِ الثَّلاثُ درجاتٍ داخلةٌ في الإخلاصِ[1]، وإنْ كانَتْ متفاوتةً في الدَّرجاتِ بخلافِ الدَّرجتَينِ الأخرتَينِ، فإنَّهُمَا منَ الرِّياءِ وإنْ كانَتَا متفاوتَتَينِ[2].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: الإِخْلَاصُ: تَصْفِيَةُ الفِعْلِ عَنْ مُلَاحَظَةِ المَخْلُوقِينَ.**

وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: الإِخْلَاصُ: التَّوَقِّي عَنْ مُلَاحَظَةِ الأَشْخَاصِ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**تصفيةُ الفعلِ عن مُلاحظةِ المَخلُوقِينَ**» إنْ أرادَ عنْ ملاحظةِ الفاعلِ للمخلوقِينَ طلبًا لحمدِهِمْ، أوْ لمَا فِي أيديهِم، أوْ خوفًا منْ ذمِّهِمْ إعراضًا عنهُ طلبًا للإخلاصِ، فهوَ قريبٌ.

---

(١) فالدرجة العليا: أن يعمل العبد لله وحده؛ امثالا لأمره، وقياما بحق العبودية، والثانية: أن يعمل لثواب الآخرة، والثالثة: أن يعمل للإكرام في الدنيا والسلامة من آفاتها.

(٢) أي: في عظم الإثم وضده.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٩.

وإنْ أرادَ تصفيةَ الفعلِ عن نظرِ المخلوقينَ علىٰ الإطلاقِ حتَّىٰ عنْ نفسِهِ، والتفاتِهِ للفعْلِ مستحسِنًا لهُ أوْ ساكنًا فهوَ مقامٌ شريفٌ في الإخلاصِ، فقد جمعَ هذَا القولُ بهذَا التَّفصيلِ إخلاصَ المُريدينَ وإخلاصَ العارفِينَ.

وقولُهُ: «**التَّوقِّي** [٢/١١٤ب] **عَنْ مُلاحظةِ الأشخاصِ**» قَدْ يُرِيدُ حفظَهُ وإخفاءَهُ عنْ أعينِ النَّاسِ، فيتمُّ لهُ إخلاصُهُ بالخُلْوةِ.

وقدْ يرجعُ إلىٰ القولِ الأوَّلِ بمعنَىٰ أنَّ المخلصَ لا يلتفتُ إلىٰ نظرِ النَّاظرينَ؛ لعدمِ محبَّتِهِ لحمدِهِمْ، ولمَا في أيديهِمْ وقلَّةِ خوفِهِ من ذمِّهِمْ ونُزُولِ قَدْرِهِ عندَهُمْ، فيرجعُ إلىٰ أحدِ الوجهَينِ فيمَا تقدَّمَ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقَدْ وَرَدَ خَبَرٌ مُسْنَدٌ أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَخْبَرَ عَنْ جِبْرِيلَ عَنِ اللهِ ـ سبحانه ـ أَنَّهُ قَالَ**[٢]: **الإِخْلَاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي، اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِبَادِي**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناهُ: إنْ أرادَ الحقَّ وحدَهُ في كلِّ فعلِ أمرٍ خفِيٍّ فِي قلبِ العبدِ لَا يطَّلِعُ عليهِ إلَّا اللهُ، ومَنْ خصَّهُ بهِ من أوليائِهِ، ولذلِكَ قيلَ[٣]: «مَنْ لمْ يكنْ بينَهُ وبينَ اللهِ سرٌّ فهوَ مُصِرٌّ[٤]»، وذلكَ أنَّهُ لا يصلُ إلىٰ هذا الصَّفاءِ الكاملِ وعدمِ الالتفاتِ إلىٰ الأغيارِ في معاملةِ الحقِّ ـ سبحانه ـ إلَّا مَنْ بَعُدَ عنِ المعاصِي، وترتَّبَتْ أورادُهُ في الطَّاعاتِ والقُرُباتِ، حتَّىٰ حصلتْ بينَهُ وبينَ الحقِّ في السِّرِّ مناجاتٌ ومحادثاتٌ، ووجدَ أُنسًا بهِ في الخَلَواتِ، فهذَا هوَ الَّذِي بينَهُ وبينَ اللهِ السِّرُّ، يعنِي: المعاملةَ الخفيَّةَ، وربَّمَا يخفَىٰ عنِ الملائكةِ، كما جاءَ في بعضِ الأخبارِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٩.
(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس ٣/١٨٧، والعراقي في المغني ٣/١١٧٥.
(٣) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١٣/١٠٤.
(٤) أي: علىٰ شغل قلبه بغير ربه فلم يتب عنه.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَسَأَلْتُهُ عَنِ الإِخْلَاصِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سَعِيدٍ، وَأَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا وَسَأَلْتُهُمَا عَنِ الإِخْلَاصِ فَقَالَا: سَمِعْنَا عَلِيَّ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الشَّقِيقِيَّ، وَسَأَلْنَاهُ عَنِ الإِخْلَاصِ فَقَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ جَعْفَرٍ الخَصَّاف، وَسَأَلْتُهُ عَنِ الإِخْلَاصِ فَقَالَ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ بَشَّارٍ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا يَعْقُوبَ الشَّرِيطِيَّ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ أَحْمَدَ بْنَ غَسَّانٍ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنَ زَيْدٍ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ الحَسَنَ عَنِ الإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ حُذَيْفَةَ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ رَبَّ العِزَّةِ عَنِ الإِخْلَاصِ: مَا هُوَ؟ قَالَ: سِرٌّ مِنْ سِرِّي، اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعنى الخبرَينِ[٢] واحدٌ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٤]: الإِخْلَاصُ: التَّوَقِّي عَنْ مُلَاحَظَةِ الخَلْقِ، وَالصِّدْقُ: التَّنَقِّي عَنْ مُطَالَعَةِ النَّفْسِ [٢/١١٥أ]، فَالمُخْلِصُ لَا رِيَاءَ لَهُ، وَالصَّادِقُ لَا إِعْجَابَ لَهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا الكلامُ فيهِ إشارةٌ إلى أدنى مراتبِ الإخلاصِ وأعلاهَا؛ وذلكَ أنَّ أعلى مراتبِ الإخلاصِ أنْ يتخلَّصَ العملُ منِ استحسانِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) أي: هذا الخبر والذي قبله، وهو تأكيد لما قبله بزيادة ذكر السند.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٠.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٩١، والفتوحات الربانية ١/٤٩.

والسُّكونِ إليهِ وإنْ لم يعجبْ بهِ، وأوَّلُ مراتبِ الإخلاصِ أنْ يتخلَّصَ العبدُ ممَّا يفسدُ عملَهُ وهوَ الرِّياءُ، فيكونُ عملُهُ خالصًا، ولذلكَ قالَ: «**الإخلاصُ: التَّوقِّي عنْ رؤيةِ الخلقِ**»، أيْ: يتَّقِي علىٰ عملِهِ أنْ يفرحَ برؤيةِ الخلقِ لمَا هوَ فيهِ منَ العملِ ليحمدُوهُ أو يثنُوا عليهِ ويَصِلُوهُ، أوْ خوفًا منْ أنْ يذمُّوهُ أو يستنقصُوهُ.

و«**التَّنقِّي عن مطالعةِ النَّفسِ**» هوَ الخلاصُ منَ الإعجابِ، وسمَّاهُ صدقًا؛ لأنَّ مَنْ قوِيَ صدقُهُ في تخليصِ عملِهِ خلَّصَهُ منَ الرِّياءِ الَّذِي يفسدُ علىٰ كلِّ قولٍ، ومنَ الإعجابِ الَّذِي فيهِ خلافٌ، هَلْ يفسدُ العملُ الَّذِي أُعجبَ بهِ وهوَ فيهِ، أوْ لَا؟[1].

وقيلَ[2]: «**التَّنقِّي عَنْ مُطَالعةِ النَّفسِ**» هوَ الخلاصُ منَ الإعجابِ، وسمَّاهُ صِدْقًا، ولَا يكونُ محضُ مطالعةِ النَّفسِ عُجْبًا حتَّىٰ يحمدَ النَّفسَ علىٰ عملِهَا، وَيَنْسَىٰ منَّةَ اللهِ عليهِ، وأعلَىٰ مِنْ هذهِ المنزلةِ فِي الصِّدقِ والإخلاصِ ألَّا يسكنَ إلىٰ عملِهِ وحُسْنِهِ وجودتِهِ، وإنْ كانَ كاملًا صحيحًا ويراهُ فضلًا منْ ربِّهِ، بلْ كمالُهُ أنْ يرَىٰ نفسَهُ محلًّا لجريانِ قدرِ اللهِ فيهِ وفضلِهِ عليهِ وإحسانِهِ لهُ، وإنْ كانَ عملُهُ في غايةِ الكَمالِ والإخلاصِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: **«وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[4]: الإِخْلَاصُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالصِّدْقِ فِيهِ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَالصِّدْقُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ فِيهِ، وَالمُدَاوَمَةِ عَلَيْهِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الإخلاصَ شرطٌ في سائرِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٢٨.

(٢) في (أ): وقال، والأصح المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٠.

(٤) ورد قوله في: الأنس في شرح عيبوب النفس ص٢٣٣، وهو قول أبي سعيد الخزاز في: كتاب الصدق، أو الطريق السالمة ص٧.

الطَّاعاتِ صِدْقًا كانَ أوْ غيرَهُ، والصِّدقُ الجدُّ في السُّلوكِ، وهوَ مطَّردٌ في سائِرِ المقاماتِ، فمَنْ فاتَهُ الصِّدقُ في مقامٍ لمْ يكملْهُ، ولا ينتقلْ إلَىٰ مَا هوَ أعلىٰ منهُ، وقدْ ذكرَ السِّمنطَاريُّ[١] فصلًا في كتابِهِ الملقَّبِ بـ(دليلِ القَاصِدِينَ)[٢]، فقالَ: «وإنَّمَا همَا الجدُّ والصَّبرُ؛ فالصَّبرُ الأوجدُ يرتقِي إلىٰ الصَّبرِ الأبعدِ، وكذلِكَ القولُ في الجدِّ».

فبيَّنَ أنَّ الصَّبرَ والصِّدقَ متلازِمَانِ فِي كلِّ مقامٍ، فمَنْ أخلصَ في مقامٍ للهِ وصدقَ فِي سُلُوكِهِ وصبرَ عليهِ حتَّىٰ يُحكمَهُ نقلَهُ اللهُ إلىٰ ما هوَ فوقَهُ فسلكَهُ، ومِنْ هذَا يعرفُ العبدُ تَدَاخُلَ المَقَاماتِ، وأنَّ كلَّ مقامٍ فيهِ الزُّهدُ والصَّبرُ والصِّدقُ والتَّوكُّلُ والرِّضَا، ويزهدُ العبدُ عمَّا يشغلُهُ عَنْ مقامِهِ، ويصبرُ علىٰ مَا [٢/١١٥ب] يطرقُهُ في نيلِهِ ومَرَامِهِ، ويتوكَّلُ علىٰ اللهِ في استيفائِهِ وتَمَامِهِ، ويصدقُ في تحمُّلِ ذلكَ خوفًا مِنْ فواتِهِ عليهِ وخُسْرَانِهِ، ويرضَىٰ بمَا فتحَ اللهُ عليهِ منهُ، وإنْ تعلَّقَتْ همَّتُهُ بأعلَىٰ مَرَاتبِهِ ومَقَامِهِ.

وهكذَا كلُّ مقامٍ فيهِ ما ذكرْنَاهُ منَ الأقسامِ، وغيرُ ذلكَ ممَّا يجمعُ بالاهتمامِ، وإنَّمَا ذكرْنَا ما ذكرْنَاهُ تنبيهًا علَىٰ غيرِهِ منَ الأقسامِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ السُّوسِيُّ[٤]: مَتَىٰ شَهِدُوا فِي إِخْلَاصِهِمُ الإِخْلَاصَ، اِحْتَاجَ إِخْلَاصُهُمْ إِلَىٰ إِخْلَاصٍ».**

---

(١) هو: عتيق بن علي بن داود بن علي بن يحيىٰ التميمي، الصقلي، المالكي، أحد العباد الزهاد العالمين، المعروف بالسمنطاري، وسمنطار قرية في جزيرة صقلية، المتوفىٰ سنة (٤٦٤هـ).
انظر في ترجمته: تاريخ الإسلام ٣١/١٥٣، والوافي بالوفيات ١٩/٣٠٤، ومعجم المؤلفين ٦/٢٤٨.

(٢) من الكتب المفقودة حتىٰ الآن حسب بحثي في فهارس المخطوطات.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٠.

(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٩٤، وتهذيب الأسرار ص١٧٩، وعوارف المعارف ص٤٨ – ط/العلمية.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي قدَّمْنَاهُ منْ أنَّ أعلَىٰ مراتِبِ الأعراضِ ألَّا ينظرَ الإنسانُ إلىٰ إخلاصِهِ، ولَا يسكنَ لكونِهِ مُخْلِصًا، بَلْ يَرَىٰ فَضْلَ اللهِ عليهِ في خلقِ الإخلاصِ لهُ، ويتبرَّأُ مِنْ دعوَىٰ الإخلاصِ بنفسِهِ ويضيفُهُ لفاعلِهِ، ومتَىٰ رأَىٰ إخلاصَهُ وسَكَنَتْ نفسُهُ، وقَدْ سمَّاهُ بعضُهُمْ رياءً، فقالَ[1]: «رياءُ العارفينَ أفضلُ مِن إخلاصِ المُرِيدِينَ»[2]؛ وهوَ التفاتُهُمْ لأنفسِهِم، واستحسانُ ما يكونُ منهَا، بَلْ كَمَالُ إخلاصِهِمْ شغلُهُمْ عَنْ رؤيةِ إخلاصِهِمْ بمَنْ أخلصَهُم واستخلصَهُم.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: **«وَقَالَ ذُو النُّونِ[4]: ثَلَاثٌ مِنْ عَلَامَاتِ الإِخْلَاصِ: اِسْتِوَاءُ المَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ العَامَّةِ، وَنِسْيَانُ رُؤْيَةِ الأَعْمَالِ فِي الأَعْمَالِ، وَاقْتِضَاءُ ثَوَابِ العَمَلِ فِي الآخِرَةِ»**.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: **«استواءُ المَدْحِ والذَّمِّ منَ العامَّةِ»**، فهوَ أوَّلُ درجاتِ الإخلاصِ؛ وهوَ السَّلامةُ منَ الرِّياءِ، وهوَ ألَّا يعملَ لحمدِهِمْ ولَا لخوفِ ذمِّهِمْ، ويستوِي عندَهُ حامدُهُ وذامُّهُ في طاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وقولُهُ: **«منَ العامَّةِ»**، يعنِي: منَ الكافَّةِ، فإنَّهُ قَدْ يستوِي عندَكَ حمدُ مَنْ لا يُلتفتُ إلىٰ حمدِهِ وكذلِكَ ذمُّهُ ليزولَ قدرُهُ، وعدمُ استشعارِ نفسِكَ النَّفعَ بحمدِهِ أوِ الضُّرَّ بذمِّهِ، وكذلِكَ قَدْ يرتفعُ قدرُ الرَّجلِ عليكَ جدًّا فتيأسُ مِنْ حُصُولِ حَمْدِهِ وذمِّهِ؛ لعدمِ التفاتِهِ إليكَ، فيستوِي عندَكَ طلبُ حمدِهِ وذمِّهِ بالنِّسبةِ إلىٰ عملِكَ، فمقصودُهُ بالعامَّةِ النّاسُ كلُّهُمْ أجمعُونَ[5]، قاصِيهِم ودانِيهِم، رفيعُهُم ونازِلُهُم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لأن إخلاص المريدين قد يجامع بعض الحظوظ.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٠.

(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/١٩٤، وحلية الأولياء ٩/٣٦١، والأذكار للنووي ص٦، والفتوحات الربانية ١/٤٩.

(٥) في الأصل: أجمعين، والصواب المثبت.

فلا تُحِبُّ حَمْدَ أحدٍ علىٰ عملِكَ، ولا تكرهُ ذمَّهُ، فإذَا كنتَ كذلكَ كنتَ مُخْلِصًا في عملِكَ، وسالِمًا منَ الرِّيَاءِ للمخلوقينَ، وأعلَىٰ مِنْ ذلكَ فِي الإخلاصِ مِنْ كَمَالِ شغلِكَ بإخلاصِكَ حتَّىٰ تنسَىٰ مدحَ الخلقِ لكَ أوْ ذمَّهُم علَىٰ عملِكَ [١١٦/٢أ]؛ لكمالِ شُغْلِكَ بإخلاصِكَ، فيجرِي إخلاصُكَ عليكَ سالمًا مِنْ ذكرِ إخلاصِهِ.

وقولُهُ: «**اقتضاءُ ثَوابِ العَمَلِ فِي الآخِرَةِ**»، أيْ: لا يخطرُ لكَ علَىٰ عملِكَ جزاءٌ دنيويّ، وتكونُ همَّتُكَ متعلِّقَةً بجزاءِ الآخرةِ، ففِي الدَّرجةِ الأُولَىٰ سلمتَ مِنْ جزاءِ الخلقِ علىٰ عملِكَ بأسبابِ الدُّنيَا، والثَّانِي سلمتَ منْ طلبِ الجزاءِ علىٰ عملِكَ في عاجلِ الدُّنيَا؛ لتوسعةٍ في رزقِكَ، وصحَّةٍ في بدنِكَ، وعافيةٍ لأهلِكَ وولدِكَ، وأمنٍ[١] فِي سِرْبِكَ.

وهذَا وإنْ كنتَ مخلصًا في عملِكَ فتعجيلُ جزاءِ عملِكَ فِي الدُّنيَا يفوِّتُ عليكَ بعضَ جزائِهِ في الآخرةِ، وقد روَىٰ (مسلمٌ)[٢] حديثًا يرفعُهُ إلَىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «مَا مِنْ غَزْيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَغْنَمُ غَنِيمَةً إِلَّا تَعَجَّلَتْ ثُلُثَيْ أَجْرِهَا مِنَ الآخِرَةِ، وَإِنْ غَزَتْ وَلَمْ تَغْنَمْ شَيْئًا بَقِيَ لَهَا أَجْرُهَا بِتَمَامِهِ».

فهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ عملَهَا خالصًا لمْ يبطلْ، وإنَّمَا نقصَ أجرُهُ لتعجيلِ بعضِهِ في الدُّنيَا، بخلافِ مَنْ لمْ يُعجَّلْ لهُ وقدْ تأخَّرَ أجرُهُ للآخرةِ بكمالِهِ، وأعلَىٰ مِنْ هذا المقامِ الثَّالثِ؛ وهوَ أنْ يجاهدَ ابتغاءَ وجهِهِ، وكذلِكَ يعملُ سَائِرَ أعمالِ البرِّ امتثالًا لأمْرِهِ، ولمْ يحملْهُ علىٰ ذلِكَ رغبةٌ في كثرةِ أجرِهِ، فهذَا العاملُ أقربُ إلىٰ مَقَامِ العُبُوديَّةِ مِمَّنْ تقدَّمَهُ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) في الأصل: وأمنًا، والأصح المثبت.

(٢) في صحيحه ١٥١٤/٣ ـ حديث رقم (١٩٠٦)، بلفظ: «ما من غَازِيَةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ اللهِ فَيُصِيبُونَ الغَنِيمَةَ إلا تَعَجَّلُوا ثُلُثَي أَجْرِهِمْ من الآخِرَةِ، وَيَبْقَى لهم الثُّلُثُ وَإِنْ لم يُصِيبُوا غَنِيمَةً تَمَّ لهم أَجْرُهُمْ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ[(٢)]: الإِخْلَاصُ مَا لَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ فِيهِ حَظٌّ بِحَالٍ، وَهَذَا إِخْلَاصُ العَوَامِّ، وَإِخْلَاصُ الخَوَاصِّ: مَا يَجْرِي عَلَيْهِم لَا بِهِمْ، فَتَبْدُو مِنْهُمُ الطَّاعَاتُ، وَهُمْ عَنْهَا بِمَعْزِلٍ، وَلَا تَقَعُ لَهُمْ عَلَيْهَا رُؤْيَةٌ وَلَا بِهَا اعْتِدَادٌ، فَذَلِكَ إِخْلَاصُ الخَوَاصِّ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «مَا لَا يكونُ للنَّفسِ فيهِ حظٌّ» فنفَىٰ في هذَا القسمِ عنِ العملِ الرِّيَاءَ والعُجْبَ جميعًا، فإنَّ الحظَّ للنَّفسِ فيهِمَا، وأمَّا إخلاصُ الخواصِّ فإنَّ الأعمالَ تجرِي عليهِمْ خالصةً كاملةً لَا يضيفونَهَا لأنفسِهِم، ولَا يجعلُونَهَا عدَّتَهُمْ في نجاتِهِم، بَلْ عُدَّتُهُمْ فِي كلِّ أمورِهِمْ ربُّهُمُ الرَّاحمُ لهُمْ، يخلقُ الأعمالَ الحسنةَ لهُمْ ويعينُهُمْ عليهَا، فلا سُكُونَ لهُمْ إلىٰ أعمالِهِمْ، ولَا اعتمادَ ولا اعتدادَ بهَا، ولا رُؤيةَ سكونٍ إليهَا، وإنْ كانُوا يرونَهَا صحيحةً كاملةً، فهيَ مِنْ فضلِ ربِّهِمْ عليهِمْ، فهذَا هوَ إخلاصُ الخواصِّ فِي أعمالِهِمُ الخالصةِ الجاريةِ عليهِم مِنْ ربِّهِمْ [٢/١١٦ب] وخلاصهَا منْ أنفسِهِمْ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الزَّقَّاقُ[(٤)]: نُقْصَانُ كُلِّ مُخْلِصٍ فِي إِخْلَاصِهِ رُؤْيَةُ إِخْلَاصِهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أَنْ يُخْلِصَ إِخْلَاصَهُ أَسْقَطَ عَنْ إِخْلَاصِهِ رُؤْيَتَهُ، فَيَكُونُ مُخْلَصًا لَا مُخْلِصًا».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ في مقامِ الإخلاصِ الرَّفيعِ، فإنَّ مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٠.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٢٩٩، وعوارف المعارف ص٤٨ ـ ط/العلمية، ونشر المحاسن الغالية ص٢٥٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٠.

(٤) ورد قوله في: عوارف المعارف ص٤٩ ـ ط/العلمية، وسراج الطالبين ٢/٣١٥، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٠٦.

رأىٰ إخلاصَهُ رؤيةَ استحسانٍ لهُ وسكنَ إليهِ، فإنْ حمدَ نفسَهُ علىٰ ذلكَ وَنسِيَ مِنَّةَ ربِّهِ وقعَ فِي العُجْبِ المُحَرَّمِ، وإنْ سَلِمَ من هذَا واستحسنَ عملَهُ، وسكنَتْ نفسُهُ إليهِ، ورآهُ فضلًا منْ ربِّهِ فقد سكنَ إلىٰ عملِهِ واستحسَنَهُ منْ نفسِهِ، وإنْ كانَ بعونِ ربِّهِ وقَدْ نقصَتْ درجتُهُ عمَّنْ رأىٰ إخلاصَهُ فضْلًا منْ ربِّهِ عليهِ، ورأىٰ نفسَهُ محلًّا لجريانِ إخلاصِهِ عليهِ، واشتغلَ بإخلاصِهِ في ذكْرِ ربِّهِ ومناجاتِهِ عَنْ رؤيةِ كونِهِ مخلِصًا.

فبهذَا الاعتبارِ كانَ نقصُهُ برؤيةِ إخلاصِهِ، ولو أرادَ الحقُّ أنْ يخلِّصَهُ منْ رؤيتِهِ لإخلاصِهِ وشغلَهُ بإفرادِهِ لهُ فِي سائرِ حالاتِهِ لخلَّصَهُ مِنْ رُؤيةِ إخلاصِهِ، ويكونُ علىٰ هذَا مخلَصًا لَا مخلِصًا، وقَدْ وردَ في الكتابِ العزيزِ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، و«المُخْلِصِينَ»[1]؛ فالمُخلِصُ ـ بالكسرِ ـ: مَنْ أخلصَ عملَهُ، والمُخْلَصُ ـ بفتحِ اللَّامِ ـ مَنِ استُخلِصَ، وخُلِّصَ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَقَالَ سَهلٌ[3]: لَا يَعْرِفُ الرِّيَاءَ إِلَّا مُخْلِصٌ[4]».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ الإخلاصَ ضدُّ الرِّياءِ، فمَنْ لمْ يشتغلْ بالإخلاصِ، ولمْ يقصدْ تخليصَ عملِهِ ممَّا يفسدُهُ أوْ ينقصُهُ لمْ يسلَمْ منَ الرِّياءِ ولَا غيرِهِ منَ المُفسداتِ؛ لدخولِهِ عليهِ وهوَ لا يشعرُ، ومَنِ اعتنَىٰ بالإخلاصِ اتَّقَاهُ في سائرِ حركاتِهِ وسكونِهِ لمعرفتِهِ بهِ[5].

وقَدْ يكونُ منَ الرِّياءِ مَا هوَ خفِيٌّ فلَا يعرفُهُ إلَّا مَنِ اعتنَىٰ بالإخلاصِ واجتهدَ

---

(١) في سورة غافر، آية: ١٤، ٦٥، وغيرها غير مقترن بـ«ال».

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٣٤٩، ومناقب الأبرار ١/٢١٥.

(٤) لأن الإخلاص ضد الرياء؛ ولأن الاتصاف بالإخلاص لا يكون إلا بعد توقي الرياء بأنواعه.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٠.

فِي كمالِهِ والبراءةِ ممَّا يشوبُهُ، وأمَّا ما ظهرَ منَ الرِّياءِ فيعرفُهُ كثيرٌ منَ النَّاسِ، وقَدْ يعرفُ الرِّياءَ والإخلاصَ مَنْ لا يعملُ بواحدٍ منهُمَا فِي النَّوافلِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الوَجِيهِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرّوذَبارِيَّ يَقُولُ: قَالَ لِي رُوَيْمٌ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[2]: رِيَاءُ العَارِفِينَ أَفْضَلُ مِنْ إِخْلَاصِ المُرِيدِينَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ غايةَ المُريدِ المبتدِئِ أنْ يخلصَ عملَهُ منَ الرِّياءِ المُبْطلِ لعملِهِ، ويكونَ مُخلصًا وخالصًا، ثمَّ يدخلُ عليهِ [٢/١١٧أ] في عملِهِ العُجْبُ، ولَا يخلِّصُهُ منهُ منَ العُجْبِ المحرَّمِ واستحسانُ العملِ مع إضافتِهِ للنَّفسِ معَ نسيانِ رؤيةِ المنَّةِ، وقدْ يسلمُ منَ العُجْبِ ويكونُ عملُهُ خالصًا منَ الرِّياءِ والعُجْبِ وتسكنُ نفسُهُ إليهِ وإلَىٰ حُسْنِهِ وكمالِهِ، ويعتمدُ عليهِ في نجاتِهَا وحصولِ ثوابِهَا مِنْ ربِّهَا، وهذَا نقصٌ، والعارفُ يرَىٰ نفسَهُ محلًّا لجريانِ طاعاتِهِ بشروطِ كمالِهَا، ورفعةِ درجاتِ إخلاصِها عند ربِّهِ، ويكونُ في نفسِ هذهِ الحالةِ الشَّريفةِ مشغولًا بإفرادِ ربِّهِ بعملِهِ الشَّريفِ عَنْ سُكُونِ نفسِهِ إلىٰ عَمَلِهِ.

ولمَّا كانَ حقيقةُ الرِّياءِ المحرَّمِ التفاتَ العبدِ في عملِهِ الَّذِي طلبَ منهُ إخلاصَهُ إلىٰ غيرِ ربِّهِ منَ المخلوقِينَ جعلَ هؤلاءِ - أعنِي أهلَ المعرفةِ - التفاتَهُمْ إلىٰ سكونِ أنفسِهِمْ لأعمالِهِمْ رياءً في كونِهِمْ خطرَ غيرُ اللهِ ببالِهِمْ في أعمالِهِمْ، وهيَ أنفسُهُمْ، فإنَّ ذلكَ نقصٌ في كمالِ شغلِهِمْ بربِّهِمْ عَنْ أنفسِهِمْ، فكيفَ إذا سكنُوا لأعمالِهِمْ واعتمدُوا عليهَا في نجاتِهِمْ وحصولِ ثوابِهِمْ منْ ربِّهِمْ؟! كانَ ذلكَ أقربَ إلىٰ النِّسبةِ إلَىٰ الرِّياءِ في الاصطلاحِ، فإذَا كانَ هذَا هوَ رياءَ العارفينَ فأينَ هوَ مِنْ إخلاصِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٩٧، وتاريخ بغداد ٨/٤٣٠، وتاريخ الإسلام ٢٣/١٢١، ومدارج السالكين ٣/٣٤١.

المريدِينَ الَّذينَ تخلَّصَتْ أعمالُهُمْ منَ الرِّياءِ المحرَّمِ؟! خاصَّةً وبينَهُمْ وبينَ ما سمَّاهُ العارفونَ رياءً درجاتٌ![1]، واللهُ المُسَلِّمُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ[3]: الإِخْلَاصُ: مَا حُفِظَ مِنَ العَدُوِّ أَنْ يُفْسِدَهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا حدُّ العملِ الخالصِ لَا الإخلاصِ، والإخلاصُ: هوَ إفرادُ القصدِ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - فِي العملِ.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[5]: الإِخْلَاصُ: نِسْيَانُ رُؤْيَةِ الخَلْقِ بِدَوَامِ النَّظَرِ إِلَىٰ الخَالِقِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فجعلَ الإخلاصَ فِي العملِ أنْ تنسَىٰ رؤيتَهُمْ فيهِ بدوامِ رؤيتِكَ لفضلِ اللهِ عليكَ بهِ، وهذَا هوَ - كمَا تقدَّمَ - إخلاصُ العارفينَ أنْ يخلصَ عَمَلُهُمْ حتَّىٰ مِنْ رُؤيتِهِمْ لهُ استحسَانًا لا صِحَّةً وكَمالًا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «وَقَالَ حُذَيْفَةُ المَرْعَشِيُّ[7]: الإِخْلَاصُ: أَنْ تَسْتَوِيَ أَفْعَالُ العَبْدِ فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناهُ: أنْ يستوِيَ حالُهُ في عملِهِ في إظهارِهِ وإِسْرارِهِ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٨٤، والكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٦٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٣٤٨، وإحياء علوم الدين ٤/٣٨١، ومدارج السالكين ٢/٩١.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٧) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٢/٧، وتهذيب الأسرار ص١٨١، والتبيان للنووي ص١٨، والأذكار له ص٦، والبحر المحيط لأبي حيان ١/٥٨٦.

كمَا قَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لبعضِهِم(١): «عليكَ بِعَمَلِ العَلانيةِ [٢/١١٧ب]، قالَ: وما عملُ العلانيةِ يا أميرَ المؤمنينَ؟ قالَ: ما لا يُسْتحْيَى أَنْ يُطَّلعَ عليهِ».

فإذا كانَ عمل العبدِ للهِ ـ تعالىٰ ـ في عَلانيتِهِ كعملِهِ لهُ في السِّرِّ لَمْ يتغيَّرْ بوجودِ الخَلْقِ ولا عَدَمِهِم كانَ حالُهُ الإخلاصَ في عَمَلِهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ(٣): الإِخْلَاصُ: مَا أُرِيدَ بِهِ الحَقُّ وَقُصِدَ بِهِ الصِّدْقُ.

وَقِيلَ(٤): الإِغْمَاضُ عَنْ رُؤْيَةِ الأَعْمَالِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «مَا أُرِيدَ بهِ الحقُّ» واضحٌ، يعنِي: العملَ، و«أَمَّا الإغماضُ عَنْ رُؤيَتِهِ» فيرجعُ لمَا تقدَّمَ مِنْ كَمَالِ الشُّغْلِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ حتَّىٰ لا يبقَىٰ فيهِ مُتَّسعٌ ولا التفاتٌ لِعَمَلِهِ، فيكونَ مخلصاً فِي كَمَالِ إقبالِهِ وشُغلِهِ بربِّهِ، لا يَشُوبُهُ ذِكْرُ غَيْرِهِ(٥).

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ الحَمِيدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ(٧): مَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ

---

(١) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٣/٣١٩، وإتحاف السادة المتقين ١٠/١٦٤، وهو مستفاد من حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قال: قلت يا رَسُولَ اللهِ: ما تَمَامُ البِرِّ؟ قال: أَنْ تَعْمَلَ في السِّرِّ عَمَلَ العَلَانِيَةِ» المعجم الكبير ٣/٢٨٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٣) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١٣/١٠٦، وسراج الطالبين ٢/٣١٥.

(٤) ورد في: الإبانة لابن فورك ص١٠٣.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٥٧، وتاريخ دمشق ٢٠/١٨١، والغنية للجيلاني ص١١٣،=

فِيهِ سَقطَ مِنْ عَيْنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، ولا يكونُ سُقُوطُهُ مِنْ عَيْنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ إلَّا بأحَدِ أمرينِ: إمَّا أنْ يكونَ مرائيًا أوْ كذَّابًا، فإنْ تزيَّنَ للنَّاسِ بطاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ طلبًا لحَمْدِهِمْ، وخوفًا مِنْ ذَمِّهِمْ كانَ مُرائيًا، وإنِ ادَّعَىٰ دعوىٰ وإنْ لم يقصدْ بهَا نَيْلَ رفعةٍ ولا جلبَ مَالٍ ولكنَّهُ تشبَّعَ بمَا ليسَ فيهِ، وهوَ المدَّعِي بمَا لم ينَلْ منَ الخيرِ فهوَ الكذَّابُ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَنَلْ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[٢].

وإنَّمَا يكونُ هذَا مخطِئًا لكونِهِ تزيَّنَ بمَا لمْ يُمَنَّ عليهِ بهِ مِنَ الخَيْرِ، كمَنْ يَدَّعِي الكراماتِ وخيراتٍ ليسَتْ فيهِ، وإنْ لمْ ينَلْ ذلكَ حُبَّ مَحْمَدةٍ ولا يدفعْ عَنْ نَفْسِهِ مَذَمَّةً، وإنَّمَا أظهَرَ كمالًا ليسَ فيهِ، سَواءٌ كانَ بأعمالِ الدُّنيَا أو بأعمالِ الآخرةِ، فهوَ كذَّابٌ مُتَشَبِّعٌ بما لَمْ يَنَلْ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ بِنْدَارٍ الصُّوفِيَّ[٤] يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَحْمُودٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ رَبِّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ يَقُولُ[٥]: تَرْكُ العَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالعَمَلُ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَالإِخْلَاصُ: أَنْ يُعَافِيَكَ اللهُ مِنْهُمَا[٦]».

= وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٢٢.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٤) في (ف): الصيرفي.

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٣٤٧، وتفسير الثعلبي ٢/٦، وتاريخ مدينة دمشق ٤٨/٤٠٢، وإحياء علوم الدين ٤/٣٨٢، وتهذيب الكمال ٢٣/٢٩١، وسير أعلام النبلاء ٨/٤٢٧.

(٦) أي: من الرياء والشرك.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**العَمَلُ مِنْ أجلِ النَّاسِ شِرْكٌ**» يعنِي: أنَّ العبدَ إذا عمِلَ الطَّاعةَ لِثَوابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ولحمدِ المخلوقِينَ فقد أشرَكَ في نيَّتِهِ وعملِهِ، ولَمْ يكنْ مُخْلِصًا.

وأمَّا تَرْكُ العَمَلِ من أجلِ النَّاسِ رياءً، ففيهِ تفصيلٌ، فإنَّ العبدَ قَدْ يُرائِي بالتَّرْكِ كمَا يُرائِي بالفِعْلِ [١١٨/٢أ]، إلَّا أنَّ الشَّرعَ لَمْ يشترطْ فِي تَرْكِ المَنَاهِي نيَّةً للسَّلامةِ منهَا، بَلْ كيفَ مَا تركَهَا العبدُ نَوْمًا أوْ غفلةً أوْ قلَّةَ رغبةٍ سَلِمَ مِنْ شَرِّهَا، ولكنَّهُ لَا يُثَابُ علَىٰ تَرْكِهَا إلَّا إذا تركَهَا للهِ، فإنْ تركَهَا وأوْهَمَ النَّاسَ أنَّهُ تركَهَا دِينًا كانَ مرائِيًا بالتَّركِ.

وقدْ يتركُ العملَ ولا يكونُ مرائيًا ويكونُ غالطًا وخاسِرًا، مثلَ أنْ يحضرَ معَ قومٍ، وقدْ عوَّدَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بقيامِ اللَّيلِ أوْ قراءةِ حزبٍ منَ القرآنِ في وقتٍ مخصوصٍ أوْ ذِكْرًا ومَا يجرِي مجراهُ منَ الطَّاعاتِ الَّتِي رتَّبَهَا لنفسِهِ، فيوهمُهُ العَدُوُّ أنَّهُ إنْ فعلَ بحضرتِهِمْ نسبُوهُ إلىٰ الرِّياءِ فيتركُ فيكونُ مقصودُ الشَّيطانِ منهُ التَّركَ ويوهمُهُ أنَّ ذلكَ شفقةٌ علىٰ عملِهِ أو عليهِمْ، فيكونُ خاسِرًا ولَا يكونُ مُرائيًا، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يَسْبِقَ لهُمْ أنَّهُمْ يَنْسُبُونه إلىٰ الرِّياءِ، فيكرَهَ هذِهِ النِّسبةَ ويحبَّ دوامَ نظرِهِمْ لهُ بالإخلاصِ فيكونَ من هذا الوَجْهِ مُرائيًا بتركِهِ؛ فإنَّهُ إنَّمَا تركَ محبَّةً لدوامِ نسبتِهِ إلىٰ الإخلاصِ لَا للرِّياءِ[١].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ[٣]: الإِخْلَاصُ سِرٌّ بَيْنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وَبَيْنَ العَبْدِ، لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبُهُ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهُ، وَلَا هَوًىٰ فَيُمِيلَهُ**».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٣١/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٦١/٢.

(٣) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢٠٧/٢، وتفسير القرطبي ١٤٦/٢، ومدارج السالكين ٩٢/٢، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢٦/٢، وبلا نسبة في: إحياء علوم الدين ٣٨٢/٤، والتعريفات ص٢٨.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ خواطرَ الشَّيطانِ بالرِّياءِ تطرقُ العبدَ، وكذلِكَ هواجسُ النَّفسِ، وكذلِكَ مدحُ بعضِ الآدميِّينَ علىٰ العملِ الصَّالحِ، ولا يؤثِّرُ ذلكَ في العبدِ شيئًا لمَا فِي قلبِهِ مِنْ إفرادِ ربِّهِ بالعملِ بسرِّهِ، ولذلكَ قالَ: «الإخلاصُ سرٌّ بينَ العبدِ وبينَ اللهِ»، لا تُؤثِّرُ فيهِ هذهِ الأمورُ الخارجةُ مِنْ شياطينِ الإنسِ والجنِّ إذَا أرادَ اللهُ - تعالىٰ - حفظَهُ وصيانَتَهُ وحفظَ سرِّهِ بينَهُ وبينَهُ، ولذلكَ إذَا مُدحَ المؤمنُ ربَا الإيمانُ في صَدرِهِ، وإنَّمَا يربُو برؤيتِهِ المدحَ منْ جملةِ فضْلِ اللهِ - تعالىٰ - عليهِ، وكونِهِ أظهرَ جميلَهُ وسترَ قبيحَهُ، ولمْ يختلجْ سرُّهُ فيمَا بينَهُ وبينَ ربِّهِ نظرًا لمدحِهِمْ، بَلْ رأىٰ جميعَ ما هوَ فِيهِ وعليهِ فضلًا مِنْ ربِّهِ، وهذهِ الحالةُ إنَّمَا يخصُّ اللهُ - تعالىٰ - بهَا خواصَّهُ من أوليائِهِ الَّذينَ انصرفَتِ الدُّنيَا بجُملتِهَا عن قُلُوبِهِمْ؛ جَاهُهَا ومالُهَا، ولذلكَ قالُوا[1]: «مَنْ لمْ يكنْ بينَهُ وبينَ اللهِ سرٌّ فهوَ مُصِرٌّ»؛ يعنِي: أنَّ مَنْ لَمْ يَصِلْ إلىٰ هذِهِ الحالةِ بينَهُ وبينَ ربِّهِ فإنَّمَا منعَهُ منْ ذلِكَ شغلُ قلبِهِ بغيرِهِ، وتعلُّقُهُ بهِ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بإِصْرَارِهِ، فإنَّ المُصِرَّ مَنْ لَمْ يَتُبْ، والتَّوبةُ الحاملةُ هيَ الرُّجوعُ عنْ [٢/١١٨ب] غيرِ اللهِ إلىٰ اللهِ حتَّىٰ عن رُؤيةِ تَوبتِهِ، ولذلكَ قالَ[2]: «التَّوبةُ منَ التَّوبةِ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقَالَ رُوَيْمٌ[4]: الإِخْلَاصُ مِنَ العَمَلِ: هُوَ الَّذِي لَا يُرِيدُ عَلَيهِ صَاحِبُهُ عِوَضًا مِنَ[5] الدَّارَيْنِ، وَلَا حَظًّا مِنَ المَلَكَيْنِ[6]».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومرادُهُ: أنَّ المخلصَ فِي عملِهِ للهِ هوَ الَّذِي لَا يُرِيدُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نسب لرويم في: تفسير السلمي ١/١٨٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٨٠، وتفسير القرطبي ٢/١٤٦، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٠٢.

(٥) في (ف): في.

(٦) أي: ملك اليمين وملك الشمال.

بعملِهِ سوَاهُ ؛ لا مِنْ دنياهُ ، ولا مِنْ أُخْرَاهُ .

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١] : «وَقِيلَ لِسَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ[٢] : أَيُّ شَيءٍ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ ؟ فَقَالَ : الإِخْلَاصُ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِيهِ نَصِيبٌ»** .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وهذَا فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ النَّفْسَ الغَالِبُ على عملِهَا أنْ يكونَ لِعِوَضٍ ؛ إمَّا في الدُّنيَا ، أو فِي الأُخرَىٰ ، وإذا كانَ الإخلاصُ الكاملُ هوَ ما أشارَ إليهِ رُوَيمٌ فقدْ بعُدَ عملُهَا عنِ الحظِّ ؛ وهوَ ما يتنعَّمُ بهِ من جواهرِ الدُّنيَا وجواهرِ الآخرةِ ، فبهذَا الاعتبارِ كانَ أشقَّ على النَّفسِ .

وهذا فيهِ نظرٌ ؛ فإنَّ هذَا ممَّا يجرِي في أحوالِ المُريدِينَ السَّالكينَ ، وأمَّا مَنْ كمُلَتْ مَعْرِفتُهُ بِمَولَاهُ ، ولمْ يبقَ لهُ لذَّةٌ فِي الدُّنيَا والآخرةِ سوَىٰ مناجاتِهِ والتَّلذُّذِ بقُربِهِ في دنياهُ ، وفِي الآخرةِ بكشفِ الحُجُبِ عنهُ حتَّىٰ يراهُ ، فهوَ فِي أكبرِ نعيمٍ ، وأكثرِ حظٍّ في الدُّنيَا والآخرةِ[٣] ، وإنَّمَا كانَ هذَا أشقَّ علَىٰ مَنْ لمْ يُوصِّلْهُ الحقُّ إليهِ ، ولمْ يبلِّغْهُ إلىٰ هذا المقامِ الشَّريفِ ، وإلَّا ففِي النَّاسِ ـ كمَا ذُكرَ فِي الكتبِ ـ مَنْ لَوْ حُجِبَ قلبُهُ عنِ الحقِّ فِي الدُّنيَا لتعذَّبَ في الدُّنيَا بمَا يتنعَّمُ بهِ غيرُهُ أشدَّ العذابِ ، ولمْ يطبْ لهُ طعامٌ ولا شرابٌ ، كذلكَ لوْ حُجِبَ عنهُ في آخرتِهِ لصارَتِ الجنَّةُ عليهِ منْ جُملةِ العَذابِ .

فدلَّ ما ذكرْنَاهُ علىٰ أنَّ كلامَ سهلٍ فِي حقِّ مَنْ لمْ يصلْ إلىٰ هذا المقامِ الشَّريفِ ، فيكونُ الإخلاصُ أشقَّ المقاماتِ عليهِ وأشدَّهَا ألمًا لدَيهِ ، بخلافِ ما ذكرْنَاهُ منَ العارفِينَ ؛ لأنَّهُ لم يبقَ لهُمْ لذَّةٌ في سواهُ لا فِي الدُّنيَا ولَا في الآخرةِ .

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦١ .

(٢) ورد قوله في : تهذيب الاسرار ص١٨٠ ، وبستان العارفين للنووي ص٢٧ .

(٣) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ٢/٦٣٢ .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ الإِخْلَاصِ فَقَالَ[(٢)]: أَلَّا تُشْهِدَ عَلَىٰ عَمَلِكَ غَيْرَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعناهُ: أَلَّا تُحِبَّ أَنْ يطَّلِعَ علىٰ عملِكَ غيرُ اللهِ، قُنُوعًا[(٣)] بنظرِهِ وعِلمِهِ، وهذا إنَّمَا يتمُّ بكمالِ الزُّهدِ فِي الدُّنيا؛ جَاهًا ومَالًا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ[(٥)]: دَخَلْتُ عَلَىٰ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يَوْمَ الجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَرَأَيْتُ فِي البَيْتِ حَيَّةً، فَجَعَلْتُ أُقَدِّمُ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ رِجْلًا، فَقَالَ: أُدْخُلْ، لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ وَعَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ شَيْءٌ يَخَافُهُ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ لَكَ [١١٩/٢أ] فِي صَلَاةِ الجُمُعَةِ؟ فَقُلْتُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَ المَسْجِدِ مَسِيرَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَمَا كَانَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّىٰ رَأَيْتُ المَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا وَصَلَّيْنَا الجُمُعَةَ، ثُمَّ خَرَجْنَا، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَىٰ النَّاسِ وَهُمْ يَخْرُجُونَ، فَقَالَ: أَهْلُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) كَثِيرٌ، وَالمُخْلِصُونَ مِنْهُمْ قَلِيلٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففِي هذهِ الحكايةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ تنبيهٌ علىٰ أنَّ المخلصَ في عملِهِ مَنْ لا يخافُ غيرَ اللهِ ولا يرجُو سِوَاهُ، وإذَا سقطَ عن قلبِهِ خوفُ الخَلْقِ ورجاؤُهُمْ تيسَّرُ لهُ الإخلاصُ؛ وهوَ إفرادُ عملِهِ للهِ سالمًا منْ سائِرِ الخلقِ منَ الجنِّ والإنسِ، فلمَّا أتىٰ يومَ الجمعةِ إلىٰ سهلٍ ووجدَ في بيتِهِ حيَّةً وهيَ لا تضرُّ سهلًا، وربَّمَا كانَتْ في الكِبَرِ شنيعةً، فإنَّهُ إنَّمَا يُقَدِّمُ رجْلًا ويُؤَخِّرُ أُخرَىٰ معَ وجودِ سهْلٍ معهَا، ووجودُهُ يقتضِي السُّكونَ إلَّا لمَّا امتلأَ قلبُهُ مِنْ رُعْبِهَا، فلمَّا أدركَ منهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٦١/٢.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٨١.

(٣) أي: اكتفاءً.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٦٢/٢.

(٥) ورد في: تهذيب الأسرار ص١٨٢، ومناقب الأبرار ٢١٥/١.

سهلٌ ذلكَ قالَ لهُ: «**ادخُلْ**»، وبيَّنَ لهُ فائدتَهُ بقولِهِ: «**لا يبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ وعلىٰ وجهِ الأرضِ شيءٌ يخافُهُ**»؛ وذلكَ أنَّ الإيمانَ ـ كمَا تقدَّمَ في الخبَرِ الصَّحيحِ ـ أنْ «يؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ»[١]، ومعناهُ: أنَّهُ لا نافعَ ولا ضارَّ سِوَىٰ اللهِ، فمتَىٰ غَلَبَ هذا المعنَىٰ علىٰ القَلْبِ حتَّىٰ صَارَ لهُ حالًا عَبَّرَ عنهُ بحقيقةِ الإيمانِ، ولمْ يَخَفْ غيرَ اللهِ وَلَمْ يَرْجُ سِوَاهُ، وإنْ كانَ فِي الوجودِ مُخَوِّفاتٌ عاديَّةٌ كالنَّارِ والحيَّةِ والأسدِ وما يَجْرِي مَجْرَاهُ.

وإنَّمَا الخوفُ الصَّحيحُ أنْ يخافَ العبدُ أنْ يسلِّطَ الحقُّ عليهِ ذلكَ، فإنَّ شيئًا مِنْ ذلكَ لا يفعلُ بنفسِهِ، فلَا خوفَ فِي الحقيقةِ إلَّا مِنَ اللهِ، وكمَّلَ سَهْلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهُ ذلكَ بأنْ أرَاهُ خَوارِقَ العَادَاتِ، وقالَ لهُ: «**هلْ لكَ في صلاةِ الجمعةِ؟ وكانَ بينَهُمَا وبينَ موضعِ الصَّلاةِ مسيرةُ يومٍ وليلةٍ**»، فأخذَ بيدِهِ وطُوِيَتْ لهُمَا الأرضُ في يومِ الجمعةِ الَّذِي اجتمعَ بهِ فيهِ وصَلَّيَا الجمعةَ، وخرجَ سهلٌ فوقفَ علىٰ بابِ المسجدِ ينظرُ في وجوهِ النَّاسِ وهُمْ يخرجُونَ فقالَ: «**أَهْلُ (لا إلهَ إلَّا اللهُ) كثيرٌ**»، معناهُ: مَنْ حظُّهُمْ منَ الإخلاصِ النُّطقُ بالشَّهادتَينِ مَعَ اعتقادِ معناهُمَا فِي القلبِ كثيرٌ، ومَنْ وَصَلَ إلىٰ درجةِ المخلصينَ حتَّىٰ لمْ يخَفْ غيرَ اللهِ ولمْ يَرْجُ سِوَاهُ قَلِيلٌ، كلُّ ذلكَ تَقْوِيَةً لقلبِ هذا الشَّخصِ وتعليمًا لهُ، فإنَّهُ قصدَ سهْلًا لينتفعَ بهِ، فقوِي يقينه بجميعِ ما ذكرَهُ لهُ وأَرَاهُ إيَّاهُ[٢]، وكذلكَ مَنْ زارَ الصَّالحِينَ [١١٩/٢ب] بحُسنِ نيَّةٍ لَا ينصرفُ عنهُمْ خَائبًا.

۞ **قالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**أَخْبَرَنَا حمزَةُ بْنُ يُوسُفَ الجُرْجَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو طَالِبٍ مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا المَقْدِسِيُّ**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٢ ـ ٦٣٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٢.

قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو قُرْصَافَةَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ العَسْقَلَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ نَافِعٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ القَرَاطِيسِيُّ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ[1]: مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ قَطُّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا إِلَّا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الإخلاصَ لا يتمُّ إلَّا بتثبُّتِ العبدِ عندَ أفعالِ قلبِهِ وجَوارِحِهِ؛ مِنْ عَيْنِهِ وأُذُنِهِ ولسانِهِ ويدِهِ ورجْلِهِ وبطْنِهِ وفرْجِهِ، فإذَا تثبَّتْ عندَ خواطرِهِ قَبلَ عقودِهِ ووزنَهَا بالعلمِ وأرادَ اللهَ بهَا وفعلَهَا كذلِكَ، وكذلِكَ يفعلُ في كلِّ جارحةٍ من جَوَارِحِهِ، فإذَا وزنَهَا بالعِلْمِ وأوقعَهَا للهِ وحدَهُ كانَ مخلِصًا فِي جميعِ أعمالِهِ، فإذَا دامَ علىٰ ذلِكَ أربعينَ يومًا صارَ حالُهُ تحقيقَ الفعلِ جميعِهِ، وإيقاعَهُ علىٰ أحسنِ وجوهِهِ في سائِرِ أفعالِ قلبِهِ وجوارِحِهِ، ولسانُهُ مِنْ جُملةِ جَوارِحِهِ، فلا ينطقُ لِسَانُهُ إلَّا بِمَا حقَّقَهُ قلبُهُ وأَحْكَمَهُ.

فهذَا معنَىٰ الحِكمةِ: وهوَ وضعُ الشَّيءِ موضعَهُ قوْلًا كانَ أوْ فعلًا، وهذِهِ قضيَّةٌ كلِّيَّةٌ عاديَّةٌ، فكيفَ إذا عُضِّدَ صَاحِبَهَا بالتَّوفيقِ والعَوْنِ مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ، ووعَدَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ علىٰ لسانِ نبيِّهِ أنَّهُ يعملُ لهُ ذلكَ كمَا قالَ[2]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ»... الحديث، فإذَا أحبَّهُ حفظَهُ وسدَّدَهُ في سائِرِ أفعالِهِ وأقوالِهِ، فِي قلبِهِ وجوارِحِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[3]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) رواه مكحول عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في: حلية الأولياء ٥/١٨٩، وأخرجه ابن المبارك في الزهد ص٣٥٩، وابن السري في الزهد ٢/٣٥٧، والديلمي في الفردوس ٣/٥٦٤، قال العراقي: «ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسىٰ، وقال: حديث منكر» المغني ١/٤٣٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٢.

يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ(١): أَعَزُّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا الإِخْلَاصُ(٢)، وَكَمْ أَجْتَهِدُ فِي إِسْقَاطِ الرِّيَاءِ عَنْ قَلْبِي، فَكَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِيهِ عَلَىٰ لَوْنٍ آخَرَ(٣)».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا إنصافٌ عظيمٌ، وإخبارٌ عمَّا يطرقُ قلبَهُ من نُزغَاتِ العدوِّ واختلافِ أنواعِهَا فِي أيِّ عملٍ عمِلَهُ منْ أعمالِ البرِّ، ومرادُهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ: الإخلاصُ العالِي الَّذِي أشارَ إليهِ العارفُونَ، ولذلِكَ جعلَهُ عزيزًا، وكمْ مِنْ مرَّةٍ [١٢٠/٢أ] يقصدُهُ وينفِي ضدَّهُ، ثمَّ يُثبتُ لهُ ضِدًّا منْ موضعٍ آخرَ فِي هذَا العملِ أوْ غيرِهِ، فهوَ دائمٌ في التَّحسُّسِ لهُ ودفعِ ما يَشُوبُهُ.

* قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَاباذِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الجَهْمِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ(٥): إِذَا أَخْلَصَ العَبْدُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ كَثْرَةُ الوَسَاوِسِ وَالرِّيَاءِ».**

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الشَّيطانَ إنَّمَا يُوسوسُ العبدَ بمَا في قلبِهِ لهُ محبَّةٌ وتعلُّقٌ، فيُذَكِّرُهُ بهِ في أثناءِ عملِهِ ليشوِّشَهُ عليهِ، فلَا يوقعَهُ علَىٰ أحسنِ وجوهِهِ وكمالِ أدبِهِ فيهِ، فإذَا أخلصَ العَبْدُ عملَهُ وتمكَّنَ فيهِ ضعُفَتْ وَسَاوِسُ الشَّيطانِ عندَهُ، فلمْ يَلْتَفِتْ إليهَا ولَمْ تَضُرَّهُ(٦).

---

(١) ورد قوله في: غيث المواهب العلية ص٢١، ومدارج السالكين ٩٢/٢، وجامع العلوم ص١٧.

(٢) لأنه علىٰ خلاف ما تهواه النفس.

(٣) لأن النفس خداعة، إذا زجرت عن وجه حسنته علىٰ وجه آخر.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٦٢/٢.

(٥) ورد قوله في: مدارج السالكين ٩٢/٢.

(٦) قال العروسي: «بل بالعناية الإلٓهية ينقطع أصل كل منهما» نتائج الأفكار ٢٤١/٣.

فهرس الموضوعات